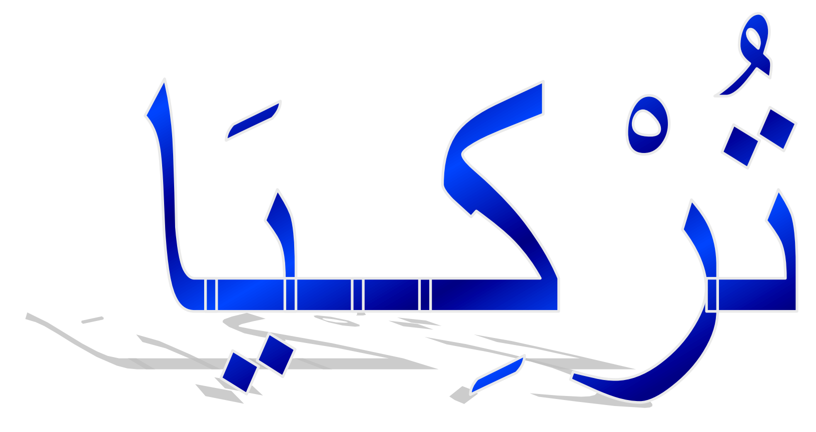


في ضوء الحقائق

الأَتَاتُورْكِيَّة (الكماليَّة Kamalism) – العلمانيَّة Jacobinism – الْمُسْلُمَانِيَّة Muslumanism – النَّقْشَبَنْدِيَّة – الْحَنَفَانِيَّة Hanafism – الْقومِية العنصرية – الصراعات السياسية – الإنقلابات العسكرية – الدولة السرَة (العميقة) – اليهود الدونما والمتهودون – المنظمات الإرهابية – الانفتاح والحرية...



تأليف:

فريد صلاح الهاشمي

feriduddin@gmail.com



دار العِبَر للطباعة والنشر. إسطنبول–2014م.

baredalshaykh@gmail.com
al_ibar.publishing@yahoo.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ.

(الرعد/11)

مقدّمة

رسمتُ في هذا الكتابِ صورةَ (تُرْكِيَا) دولةً وشعبًا، رَسَمْتُهَا في إطارِ هذا البحثِ بعيدًا عن كلِّ نزعةٍ عاطفيّةٍ، طبقًا للحقائقِ الّتي لا يظهر أكثرُها لِلْمُشَاهِدِ؛ وقد تتغيّرُ هذه الصورةُ غدًا، فلنْ تُشبِهَ الّتي شاهدناها بالإمسِ. فلا ينبغي إِذَنْ: أنْ يتجاهلَ قارئُ الغَدِ ما قد تطرأ عليها من تَغَيُّرَاتٍ وَتَبَدُّلاَتٍ وَما تتداخلها من تَحْرِيفَاتٍ وَتلبيسات، فيتَّهِمَ الرسَّامَ! عِلْمًا بأنَّ أكثرَ محاولاتِ التزييفِ والتشويه – في تاريخ الشعوبِ – ناشئةٌ من استغلالِ ذاكرةِ البشرِ. و"ذَاكِرَةُ الإِنْسَان، مُصابٌ بِعِلَّةِ النِّسْيَان" كما في المثلِ التُّرْكِيّ[1].

وبهذه المناسبةِ الهامّةِ يجب أن يَتَنَبَّهَ القارئُ الكريمُ إلى أنَّ الْهدفَ الأوَّلَ فيما يتبنّاه هذا الكتابُ: هو إحباطُ أعمالِ الذين بذلوا جهودَهم منذ عصرٍ كامل لِيُحَرِّفُوا تاريخَ تركيا، ويُشَوِّهُوا حقائِقَ هذا التاريخِ تحت دافعِ هلوساتٍ إديولوجيَّةٍ أرادوا بِهَا أنْ يُسَيِّرُوا المجتمعَ، ويجعلوا منه قِطْعَانًا تخضعُ لكلِّ ما يُملَى عليها عَبْرَ شِعاراتِ القوميَّةِ والوطنيّةِ والْهُتافاتِ الكماليَّةِ (الأتاتوركيّة).

أحسستُ بمسؤوليّةٍ عظيمةٍ عندما وجدْتُ بَلَدِي (تركيا) وقد تحوَّلَ إلى مسرحٍ للفسادِ: تمتصُّ ثرواتِها قلّةٌ من الأثرياءِ بالتواطُؤِ مع شركاتٍ أجنبيّةٍ؛ تَحْتَكِرُ سُلْطَتَهَا شرذمةٌ من الكماليِّين وقد تصالحوا مع أعدائِهم النقشبنديِّينَ في هذه الأيّامِ، ومَكَّنُوهُمْ مِنَ التوغُّلِ في أجهزةِ الدولة، يُعَظِّمون مِنْ شأْنِ مَنْ يخدمُ أهدافَهم، وَيَضَعُون مِنْ شَأْنِ مَنْ يُناهِضُهم؛ جَرَتْ حُروبٌ داميةٌ بين الجيشِ وبين عِصَابَةٍ يوميًّا، منذ فترةٍ تربو عن عشرين عامًا، ذهب ضحيتَهَا أكثر من مائَتَيْ ألفِ روحٍ؛ يتسابقُ على أرضِهِ آلافٌ من السَّحَرَةِ، والزنادقة، والْمُتَنَبِّئِينَ، والصوفيَّةِ المشعوذين، والسَمَاسِرَةِ الْمُحْتَرِفِينَ في تسويقِ الدِّين؛ يُحَرِّفونَ النصوصَ وَيُزَيِّفُونَهَا ويُعَطِّلُونَهَا، ويبثُّونَ البدعَ والخرافاتِ، ويعبثون بالمفاهيم المقدّسةِ؛ كلُّ ذلك لاستغلالِ ضمائر الناسِ، والاِكْتِسَابِ على حساب المجتمع.

أقدمتُ على تأليفِ هذا البحثِ الخطيرِ بعد تأمُّلٍ طويلٍ في هذا المشهد الرهيب، كَرَدِّ فعلٍ– بالأولوِيَّةِ – على الإجرامِ الإعلامِيّ، وتلوُّثِ البيئةِ المعلوماتيَّةِ الّتي تُربِكُ الإنسانَ في تُركِيَا، وَتُشَوِّشُ

[1] Hafiza-i beşer nisyan ile malûldür.

أفكارَهُ أمامَ الأحداثِ والتّطوُّرَاتِ، وتُحجِبُهُ بأبشعِ أشكالِ التلبيسِ والتدليسِ عن استيعابِ حقائقِ هذا المشهد برُؤْيَةٍ واضِحَةٍ. لأَنَّ أغلَبَ الكُتَّابِ والباحثِينَ (من تُرْكٍ وعربٍ وغيرِهِمْ) الذين تناولوا أوضاعَ هذَا البلَدِ وظروفَها في دراساتِهِم حتَّى اليومِ، لم يتخلَّوْا عن نزعاتِهِم العاطفِيَّةِ، ولم يُمَكِّنُوا أنفسَهُمْ من النظرِ إلى قضايا تُرْكيا بهدوءٍ وَرَوِيَّةٍ وموضوعِيَّةٍ وحِيَادٍ.

هذه الظاهرةُ لها أسبابٌ متضافِرَةٌ ومتشابكةٌ، كلُّها نَاشِئَةٌ مِنْ حربٍ ضارِيَةٍ تجري بين فريقين رئيسين؛ فريقٍ محافظٍ، وفريقٍ مناهضٍ للدّين، ثُمَّ تتطوّرُ إلى مُسَاجَلاَتٍ وَجِدَالٍ ونقاشٍ وضوضاءٍ وجلبةٍ وعِرَاكٍ وقتالٍ بين عشرات من الفئات المتباينةِ، تُفْرِزُ ضبابًا من الفوضى على الحياةِ الدينيةِ، والنشاطاتِ العِلْمِيَّةِ والثقافيةِ، والعلاقاتِ الإجتماعيةِ والسياسيَّةِ والإقتصاديةِ... دون أنْ يسلمَ مجالٌ أو مكانٌ أو ساحةٌ من أضرارِ هذه الحربِ العمياءِ وَتَبِعَاتِهَا.

ولهذا فإنَّ أغلبَ الكُتَّابِ والباحثين في تركيا، إذا طَرَقَ أحدُهم مسألةً من مسائِلِ الدِّينِ أو السياسةِ (تخصُّ هذا البلدَ)، لم يتناول قلمَهُ ليكتُبَ عنها إلاَّ من مُنْطَلَقِ الإنْحيازِ إلى طائفةٍ عِرْقِيَّةٍ، أو حركةٍ سياسيَّةٍ، أو مُنَظَّمَةٍ سرّية، أو فِكْرَةٍ أيديولوجية، أو عقيدةٍ دينيَّةٍ مع نبذِ كلِ المبادئِ العلميَّةِ والعقليَّةِ، والخروجِ على الأعرافِ الإنسانيَّةِ والآداب الأخلاقيَّةِ... ذلك؛ ليدافعَ عن الفكرة الَّتي يَتَبَنَّاها بِكُلِّ ما في وسعه، وإِنْ كانتْ خُرَافةً أو بِدْعةً أو دَعْوَى بَاطِلاً بَيِّنَ الْبُطْلاَنِ؛ أو لِيَلْعَنَ كلَّ مَنْ لا يوافِقُهُ، أو لِيُهِينَ ويَحْتَقِرَ كُلَّ مَنْ يسكُتُ عن مُصَادَقَتِهِ، أو لِيَصُبَّ جامَ غضبِهِ على كلِّ معارِضٍ لِفِكْرَتِهِ...

أمَّا القلّةُ القليلةُ من الكُتَّابِ الذين تناولوا قضايا بلدِهِم (تُركيا) بهدوءٍ واعتدالٍ، فلا يكادُ يعبأ بهم احدٌ، إمَّا لأسلوبهم العلمِيّ الأكاديمِيّ الجافِّ الجامدِ (الذي لا يكاد يفهمه عامّةُ الأتراك)، أو لتحفُّظِهِم الشديد في عباراتِهِم الَّتي تدلُّ على مدى تخوُّفِهِم مِنْ ردود الفعل.

وَلَكِنِّي – على نقيضِ الفريقين كِلَيْهِمَا– تَبَنَّيْتُ إظهارَ الحقيقةِ بِعِبَارَاتٍ سهلةٍ مُبَسَّطَةٍ شفَّافَةٍ، وفي ضوءِ الأدلَّةِ والبراهينِ أوَّلاً وقبلَ كلِّ شيءٍ. فلم أنتهجْ – فيما سَرَدْتُهُ– أسلوبًا فلسفيًّا، ولا قصدْتُ مُجاملةً ولا استعراضًا بلاغيًّا، بل سلكتُ طريقًا مستقيمًا واضحًا بعيدًا عن التشدُّق وَالاستخفافِ بالعقول، ولم أعتدَّ بموقفِ أيِّ إنسانٍ يكتم الواقعَ، وَيناهضُ الحقَّ لِمَا يَرَاهُ مُضِرًّا بمصلحتِهِ. كما لم آلُ جهدًا في كشفِ اللِّثامِ عن وجوهِ جماعةٍ من اللئام قدرَ ما تمكَّنْتُ من الوقوفِ على مثالبهم؛ فذكرتُ كلَّ طائِفَةٍ: دينيَّةً كانت أو سياسيَّةً أو عرقيَّةً أو أيديولوجيةً كلاًّ على حدةٍ بقدرِ ما أثبتُّها، ولم أَكْتُمْ

شيئًا من محاسنِها إذا عددتُ رذائِلَهَا، بل فضحتُها بلسانِ العلمِ والعقلِ في ضوءِ حججٍ قاطعةٍ، وليس انطلاقًا من حقدٍ، أو ثأْرٍ، أو كراهيَّةٍ لاختلافها معي أبدًا. وربما اكترثتُ لذِكرَ السلبياتِ بُغْيَةَ جذبِ الاهتمامِ إليها، رَجَاءَ انتباهِ القارئِ الكريمِ إلى أن إشهارَ المفاسِدِ أَنْجَعُ وَسِيلَةً لمكافحتِها، لأنَّ دَرْءَ الْمَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِح. ولم يَنْتَبْنِي هاجسُ قلقٍ أو تحفُّظٍ كلَّما فضحتُ شيئًا من أسرارِ الخونةِ والمنافقين عَبْرَ سطورِ هذا الكتابِ، لأنِّي لستُ متردِّدًا في التعبير عن الحقيقةِ لدى أي مناسبةٍ، ولا ذاك لي بخلق، (أللهم إلاَّ إذا توقيتُ الفتنةَ). وأقول كما قال الكميت بن زيد الأسديُّ:

وَلا أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرُ هَمَّهُ * أَصَاحَ غُرَابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ.

ومن معاني هذا العملِ: أنِّي طالما اعتقدتُ أنَّ في إثباتِ الحقائقِ، وإفشاءِ الأسرارِ الخطيرةِ؛ احترامًا للعقول، وخدمةً لنشرِ الإخاءِ والْمَحَبَّةِ، وترويجًا لإرساءِ دعائمِ العدلِ وَالسلام... لأنَّ الشخصَ المثقَّفَ المهذَّبَ، إذا وقف على أسرارٍ فيها مَسَاسٌ بكرامةِ الإنسانِ، يتلقَّى منها دروسًا وعِبَرًا، ويزدادُ حَذَرًا، واستعدَادًا لمكافحة السِّرِّيَّةِ والأعمالِ الإستخباراتيَّةِ والجاسوسيّةِ، لِمَكَانِهَا في حِيَاكَةِ المؤامراتِ، ونشرِ الفتنِ، وتفجيرِ الحروبِ، والإخلالِ بالْحُرِّيَّةِ والسلام...

رأيتُ نفسي أجدرَ بأداءِ هذه المهمّةِ إذا قارنتُها مع غيري من جميع الكُتَّابِ الأتراك، لأسبابٍ:

أوّلاً: لأنِّي مِنْ أبناءِ أُسْرَةٍ عربيةٍ تُقِيمُ على هذه الأرضِ منذُ **1258**م.، عاشَ منها تسعةَ عشرَ جيلاً في هذا البلد. ولا أظنُّ أنَّ كاتبًا أو باحثًا في هذا المجتمعِ يستطيعُ أنْ يرفَعَ نسبَهُ أكثر مِنْ عشرةِ آباءٍ، بينما آبائي الذين عاشوا في هذا البلدِ (وغيرِهِ)، أسماؤُهم مضبوطةٌ مُتَسَلْسِلةً، ومحفوظةٌ بحوزتِنَا، يربو عددُهُم عن أربعين شخصًا، مِمَّا يدلُّ على الأُرُومَةِ الرَّاسِخَةِ لهذهِ الأسرةِ ورَصِيدِهَا مِنْ حقائِقِ هذا الْبَلَدِ.

ثانيًا: تعرَّضتْ أسرتي لبطشِ النظامِ الكماليِّ (الأتاتوركيِّ) بأبشعِ أساليبِ المكرِ والقمعِ والتشريدِ والقهرِ والإضطهادِ، ما يعجزُ اللِّسانُ عن وصفِهِ. يكفي مِنْ ذلكَ ذِكْرُ قيامِ السلطةِ الأتاتوركيّةِ باغتصابِ ومُصَادَرَةِ **35 000** مجلَّدًا من الكُتُبِ مِنْ مُخْتَلَفِ المواقع الخاصَّةِ بِجَدِّي العلاَّمةِ الشيخ عبد الله بن الشيخ محمّد الحزين الهاشِمِيّ، ثمَّ حرقُها وتحويلُها إلى رُكَامٍ من الرمادِ في ثلاثِ دُفُعاتٍ ما بين أعوامِ: **1925–1942**م.، بمناطقَ مختلفةٍ مِنْ جنوبِي شرقِ تركيا. إنَّ هذا الأمرَ فحسب – لا

شكَّ – يُحَمِّلُ مسؤولِيَّةً كبيرةً على أبناءِ هذه الأسرةِ وغيرِها من العائلاتِ الَّتي تعرّضَتْ لظُلْمِ الكماليِّين: أنْ يبذلوا جهودَهُمْ لإظهارِ ما خَفِيَ على الناسِ من حقائق هذا البلدِ، ليكونُوا مِمَّنْ شهدوا للحقّ أمامَ اللهِ، وأمامَ التاريخ.

ثالثًا: رأيتُ أن أتناولَ هذا البحثَ باللُّغة العربيّة؛ (لِتَصْحِيحِ الصورةِ المشوَّهَةِ للمجتمع التركيّ) في مفهومِ قطاعٍ كبيرٍ من العربِ الذين اخْتَلَفَتْ مَوَاقِفُهُمْ من هذا الشعبِ بين محبٍّ له، وحاقدٍ عليه، ومحايدٍ أو مُتَرَدِّدٍ فيه، من غير اعتمادٍ على دليلٍ. ولأنِّي لم أجدْ دراسةً ذاتَ شمولٍ وأبعادٍ واسعةٍ في هذا الموضوعِ دَوَّنَهَا كاتِبٌ مِنَ أصلٍ تُرْكِيٍّ أوِ كُرْدِيٍّ باللُّغة العربيّة.

لا شكّ في أنّ هذا الكتابَ سوف يُثِيرُ الضغينةَ والحقدَ في قلوبِ البعضِ، ليفتحوا جَبَهَاتٍ عديدةً ضِدَّ مؤلّفِهِ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مؤلِّفَهُ لم يشاركْ أيَّ جماعةٍ سياسيّةٍ في حياته، ولا كانتْ له عضويَّةٌ في أيَّةِ جمعيَّةٍ، سِوَى ما سبق له – من سوءِ حظِّهِ – أنْ احتلَّ منصبَ المشيخةِ لِطَائِفَةٍ من الصوفيَّةِ النقشبنديَّةِ، بدافعِ التقليدِ الأعمَى، والوراثَةِ، والْعُرْفِ العائلِيِّ، فلم يلبثْ طويلاً حتَّى تخلَّى عن هذا المنصب. فلذا، لن يدافعَ عنه أحدٌ في هذا المجتمع الّذي يستحيلُ البقاءُ بين ظهرانيه لشخصٍ لا يحمي ظهرَهُ بجماعةٍ أو حزبٍ أو مُنَظَّمَةٍ، أو عصابة... كما سوف تتخاذَلُ عنه جميعُ الجهاتِ والمنظَّماتِ والمؤسَّساتِ والدّوَل... لأجلِ الحفاظِ على مصالحِهَا وَعَلاَقَاتِهَا مع تركيا!

على رغم هذه الظروفِ الخطيرةِ، فإنَّ الْكِتَابَ ها هو يتحدَّى بمصداقيةٍ مطلقةٍ، وعُمْقٍ فى التحليلِ، وشفَّافيَّةٍ فى التعبير، وجُرأةٍ في العرضِ، وجلادةٍ في الأداءِ.. يَتَحَدَّى كلَّ مَنْ لا تسمَحُ له نفسُهُ أن يلتزمَ جانبَ الحيادِ، ويكشفُ أسرارَ الطابورِ الخامسِ... وأقولُ كما قال الشاعر:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ * فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ.

إنَّ في هذا الكتابِ كلَّ المعطَيَاتِ والبراهين الَّتي تُثْبِتُ صوابَ ما يحمل بين دفَّتَيْهِ من صنوف الخفايا، وَالمعلومات، وَالأخبارِ، وَالوقائع... ليس بين أهدافِهِ شيءٌ من التهكُّمِ والإهانةِ والسخريَّةِ بشخصٍ بريءٍ، أو جماعةٍ أو مُؤَسَّسَةٍ أو مُنَظَّمَةٍ لم تكن قد تلبَّستْ بجنايةٍ أو خيانةٍ أو غَدْرٍ أو ظُلْمٍ أو فِتْنَة... ولكنَّه لن يكتُمَ حقيقةً ثبتَتْ بالدلائِلِ القاطعةِ، كما لن يُقَصِّرَ في تعريةِ الظَّلَمَةِ ولا في الكشفِ عن أيِّ فضيحةٍ أو جنايةٍ ذهبتْ ضحيَّتَها أرواحٌ بريئة. ولا أشُكُّ في أنَّ هذا الكتابَ

سَيَمْلأُ فراغًا كبيرًا، وسيلعبُ دورًا هامًّا في إثارةِ المشاعرِ، وتحريكِ الهِمَمِ، وانتشارِ الصحوةِ واليقظةِ في تركيا خاصَّةً وفي الشرق الأوسط على وجهِ العموم.

وإنَّ الحقائقَ الَّتي سَرَدْنَاها في ثَنَايَا هذا الكتابِ ليستْ بأجمعِها – في الواقع – مجهولةً خافيةً، ولكنّها مُبَعْثَرَةٌ في بطونِ وثائقَ ومصادرَ متفرّقَةٍ، لم تتبلوَرْ ولم تظهرْ في إطارِ صورةٍ واضحةٍ موصولةِ الأَجزاءِ إلاَّ بعدَ أنْ تمَّ ضمُّ بعضِها إلى بعضٍ بنظامٍ دقيقٍ في هذا العمل على مدى ثلاثةِ عقودٍ من الزمن. وبهذا الإعتبار؛ فإنّهُ عملٌ متكاملٌ لا يُغني تَصَفُّحُهُ عن تَتَبُّعِهِ، وَلا محضُ قراءتِهِ عن تَدَبُّرِهِ وتَفَقُّهِهِ.

وأخيرًا؛ يَتَحَدَّى هذا الكتابُ أصحابَ المزاعم والشطحات في تقييمهم للدولة التُّرْكِيَّة والمجتمعِ التركيِّ؛ يَتَحَدَّى كُلَّ مَنْ تشرَّبوا أفكارًا ونظريّاتٍ وفلسفاتٍ مُخْتَلَقَةً فُرِضَتْ على ضمير قِطْعَانٍ من المجتمعِ التركيّ بطريق غسل الأدمغة؛ يَتَحَدَّى جميعَ سحرةِ السياسة الذين تَجَنَّدُوا للدِّفاعِ عن تركيا "الحديثةِ العلمانيةِ الراقيةِ المزدهرة"؛ يَتَحَدَّى جميع سماسرة الدِّينِ الذين يُقَدِّسونَ الدولةَ التُّرْكِيَّة بزعمهم أنّها وارثة لِ(مؤسّسةِ الخِلاَفَةِ)؛ كما يَتَحَدَّى جميع المتفائلين والمتشائمين لمستقبل تركيا. لأنَّ هذا الكتاب ينظر إلى الوقائع في ضوءِ الأدلة والبراهين.

ولعلَّ هذا الْكِتَابَ يكونُ بديلاً عن أيِّ مصدرٍ مَنَعَهُ قصورٌ عن الإحاطةِ بقضايا بلدِنا، مع أنِّي لا أدّعي له شمولاً بأن أقولَ: "إنه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها" كلاَّ! فالكمال لله وحده. وأرجو أن يستفيدَ منه كلُّ قارئٍ سليمِ الصدرِ يبحثُ عن الحقيقةِ ويريدُ أنْ يتعرَّفَ على بَلَدِي إذ ينتهي من قِرَائَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ بِرَوِيَّةٍ وهو غيرُ خائبٍ ولا مغبون.

فريد صلاح الهاشمي
Feriduddin AYDIN
15 يوليو/تموز 2012م.

ملاحظة هامّة:

أرى هنا ضرورةَ التنبيهِ على أنِّي اشْتَقَقْتُ صِيَغًا جديدةً من بعضِ مصطلحاتٍ قديمةٍ، سوف يَعْثُرُ عليها القارئُ الكريمُ عَبْرَ سطورِ هذا العملِ وقد يستغربُها، وهي في حقيقتِهَا تسمياتٌ اسْتَحْدَثْتُها

وَأَطْلَقْتُهَا على تلك المصطلحاتِ تعبيرًا عن الاستحالة التي تعرَّضتْ لها جرَّاءَ ما وَقَعَ فيها من تحريفٍ وتشويهٍ؛ يأتي على رأسِ هذه المصطلحاتِ (الْحَنَفِيَّةُ)، وهي اسمُ المذهبِ الْفِقْهِيّ الذي يُعْزَى إلى أبي حنيفةَ النعمان رضي الله عنه. فقد أَشْتَقَقْتُ منها صيغةَ (الْحَنَفَانِيَّةِ) للتعبير عن صورتها المشوَّهَةِ الْمُحَرَّفَةِ التي اخْتَلَقَهَا الأتراك على حسابِ الإمامِ أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، وهو بريئٌ منهم وممَّا أحدثوا في مذهبِهِ.

والمصطلحُ الثاني هو (الشَّافِعِيَّةُ)؛ وهي اسمُ المذهبِ الْفِقْهِيّ الذي يُعزى إلى محمد بْنِ إدريسِ الشافعِيّ. فقد اشْتَقَقْتُ منها صيغةً جديدةً وهي (الشَّافِعَانِيَّةُ)، إنّما اخترتُ هذه الصيغةَ بدلاً عن (الشَّافِعِيَّةِ) للتمييز بين أصلِ المذهبِ وبين صورته المشوَّهةِ التي اختلقها الأكرادُ الشافعيون.

والمصطلحُ الثالث هو (السُّنِّيانِيَّةُ)؛ وهي أيضًا صيغةٌ جديدةٌ اشتَقَقْتُهَا من (السُّنِّيَّةِ)، للتفريقِ بينهما، وللاشارةِ إلى أنَّ المذهبَ الذي يعتنِقُهَا الأتراك ليس في الحقيقة هو مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة.

والمصطلحُ الرابع هو (المَاتُرِيدَانِيَّةُ)؛ وهي أيضًا صيغةٌ جديدةٌ اشتَقَقْتُهَا من (المَاتُرِيدِيَّةِ)، ذلك للتفريقِ بينهما، وهو مذهب أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندِيّ (**862–944**م.) رحمه الله تعالى. استحدثتُ هذا المصطلحَ للاشارةِ إلى أنَّ المذهبَ الذي يعتنِقُهَا الأتراك (في العقيدة) ليس هو في الحقيقة مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة.

أما مصطلح (الْمُسْلُمَانِيَّةِ Müslümanlık)، فهي ليستْ في شيءٍ مِمّا ابْتَدَعْتُهَا ولاَ اسْتَبْدَلْتُهَا أنا من أي مصطلحٍ آخرَ، ولا وَضَعْتُهَا من تلقاءِ نفسي على الإطلاق. وإنَّمَا هي اسمٌ قديمٌ أطلقَهَا الأتراكُ على الدين الحنيفِ منذ أنْ تعرَّفُوا على الإسلامِ قبل ثلاثة عشر قرنًا إلى يومنا هذا، وهي تسميةٌ شائعةٌ بينهم. ويغلب الظنُّ أنهم إنما فعلو ذلكَ لِيَتَمَايَزُوا عن العربِ في الإنتماء الإسلامِيّ، لأنهم قديمًا يكرهون العربَ متأثرين في ذلك من الفُرْسِ.. ومن الغرابة بمكان؛ أنَّ العربَ لم يتنبَّهوا إلى هذا الأمر الخطيرِ في كلِّ هذه الْحُقْبَةِ وقد عاشوا جميعًا تحتَ رايةٍ واحدةٍ قرابة أربعة قرونٍ!

قد أضفتُ إلى كلٍّ من هذه المصطلحات ما يُسْعِفُ الْقَارِئَ من شروحٍ وافيةٍ يُجْلِي الغبارَ عنها.

تعريفٌ وجيزٌ بالجمهوريَّةِ التركيَّةِ

الجمهوريَّةُ التُّرْكِيَّةُ Türkiye Cumhuriyeti: دولةٌ تقعُ في الشرقِ الأوسطِ على شبهِ جزيرةِ أناضولَ (Anatolia)[2] المعروفةِ بـ(أسيا الصُّغْرَى). يحدُّها من الشمالِ: البحرُ الأسودُ (بحر بُنْطُس) وجورجيا؛ ومن الشرقِ: أرمينيا وإيران؛ ومن الجنوبِ: العراقُ وسوريا والبحرُ الأبيضُ المتوسِّطُ، ولها حدودٌ بحريَّةٌ مع قُبْرُص؛ ومن الغربِ: بحرُ إيجة واليونان وبلغاريا.

تقعُ تركيا على مفترَقِ الطُّرُقِ بين أوروبا وآسيا، وهذا الموقعُ قد جعلَ منها بلدًا ذاتَ أهميَّةٍ جيواسياسيَّةٍ. تُعتَبَرُ تركيا في الوقتِ الراهنِ قوةً إقليميَّةً كُبرى نظرًا لموقعِها الاستراتيجيِّ، وقوتِها الاقتصاديَّةِ والعسكريَّةِ.

---

[2] كلمة (أَنَاضُول): اسمٌ يونانيٌّ، مُحَرَّفٌ. أصلهُ: Anatolia. يأتي بِمَعْنَى الْمَشْرِقِ. والتحريفُ واقعٌ محتومٌ، يتعرّضُ له كثيرٌ من المفاهيم والأسماءِ. تَلُوكُهَا أفواهُ الجهلَةِ من القصَّاصين والخرافِيّين عبر القرون، فَتَفْسُدُ النطقُ بِهَا مع الزمانِ، فلا يكادُ يبقى لأكثرِها أثرٌ من الأصالة.

من القصص الخرافِيّةِ: حُكِيَ أنَّه لَمَّا أراد السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباذ أنْ يَنْتَزِعَ (قلعةَ بَاشْكُويْ Başköy) من البيزنطيّين، مرَّ على رأسِ جيشِهِ بقريةٍ اسْمُهَا (طَاشْلِيجَا Taşlıca) بجوارِ مدينة (قِيزِلْجَا حَمَّام Kızılcahamam). فَاسْتَقْبَلَتْهُ إمرأةٌ عجوزٌ تسكنُ في تلك القريةِ إسْمُهَا (قِيْرِمِزِي أبَا Kırmızı Ebe) مع ولدٍ لها اسْمُهُ (أُورُوجْ Oruç). فقدّمتْ لجنودِهِ دلوًا من اللبن الرائبِ، وَسَقَتْهُمْ جميعًا منه دون أن ينقصَ شيءٌ مِمَّا في الدَّلْوِ! وكان كلُّ جنديٍّ إذا تناول الكأسَ من يدِهَا وشرب ما فيه استزادها بقوله: Ana doldur، باللغة التُّرْكِيَّة، أي "زِيدِينِي منه يا أُمَّاهُ". ثم شاعت هذا التعبير بين القومِ وغدا اسمًا لمنطقة آسيا الصغرى بعد كمالِ فتحها على يد الأتراك السلاجقة والعثمانيّين.

من المثير أنَّ هذه القصةَ نالت قبولاً حتى لدى السلطة السياسِيّةِ في العهد الجمهورِيِّ، فإذا بها تحتلُّ الكُتُبَ الرسميةَ والشعبيةَ وتُعَدُّ حُجّةً لتأصيل كلمة (أناضول) بأنّها تركيةُ الأصلِ، وأن الأتراك هم الذين أطلقوا هذا الإسمَ على وطنِهِمْ، على سبيل الاستدلالِ بها بمعنى: "أنّ منطقةَ آناضولَ كانتْ منذُ القديمِ وَطَنَ الأتراك، وأنَّ الحتيّين وكثيرًا من الأقوام الذين عاشوا في هذه المنطقة كانوا قدماءَ الأمة التُّرْكِيَّة!.."

إلى جانب هذه القصةِ الخرافيَّةِ واعتقادِ جمهورٍ من الناسِ بِهَا، نشاهدُ خطأً شائعًا في استخدامِ كلمةِ (أَنَاضُول) ضمنَ مقالاتِ كُتَّابِ العرب. يكادُ كُلُّهُمْ يُدْخِلُونَ عليها أداةَ التعريف (الألفَ واللاَّمَ) فيكتبونها على شكل (الأناضول)، بينما هي اسْمٌ مُعَرَّفٌ بِالْعَلَمِيَّةِ (مثل: مكة). وهي عَلَمٌ على منطقةٍ من آسيا الصغرى، فلا تحتاج إلى تعريفٍ جديد، ولم يكن ثَمَّةَ وجهٌ لتعريفها بـ(أل).

بدأ زحفُ الأتراكِ السلاجقةِ على شبهِ جزيرةِ أناضولَ باصطدامِهِمْ مع قوَّاتِ الدولةِ البيزنطيَّةِ لأوَّلِ مرَّةٍ في معركةِ مَلاَذْكِرْدْ عام **1071**م. وقعَ الإمبراطورُ البيزنطِيُّ (رُومَانُوسْ دِيُوجَينِيسْ الرابع Romanos Diogenes IV) في أسرِ الأتراك، وكان ذلك بدايةَ النهايةِ للإمبراطوريَّةِ البيزنطيَّةِ، وبدءِ الامتدادِ التُّرْكِيِّ في أناضول. استمرَّ زحفُ الأتراكِ نحوَ الغربِ على مَدَى قرونٍ إلى أن تَمَّ فتحُ القسطنطنيَّةِ عام **1453**م على يدِ العاهلِ العثمانِيّ محمدٍ الثانِي، واندحرَ الشبَحُ البيزنطِيُّ من مسرحِ التاريخِ واختفَى من غيرِ رجعةٍ بعد **382** عامًا من النصرِ الذي أحرزه الأتراكُ السلاجقةُ في معركةِ مَلاَذْكِرْدْ.

لقد قامت حضارات عريقةٌ ودولٌ عديدة على هذه المنطقةِ قبلَ وجودِ الأتراك، مثل: الإمبراطوريةِ الحثيَّةِ (**2000–600**ق.م.)، والإمبراطوريَّةِ الفارِسيَّةِ (**543–333**ق.م.)، وقَوْمِ أُورَارْتُو المعروف بالحُرِّيِّين (**810–730** ق.م.). والفريجيِّين (**725–675** ق.م.)، والليديِّين (**687–546** ق.م.)، والدُّوَيْلاتِ الإِيُونِيَّةِ (**1000–545** ق.م.)، والسلوقيِّين (**323–83** ق.م.)، ومملكةِ كُومَاجِين (**162** ق.م.– **17**م.)، ومملكةِ أرمينيا (**190** ق.م. **387**م.)، والإمبراطوريةِ الرومانيَّةِ (**27** ق.م. **476** م.). والإمبراطوريَّةِ البيزنطيَّةِ (**395–1453**م.). ومملكةِ بُنْطُس (**1204–1461**م.).

تحققتْ هيمنَةُ الأتراكِ العثمانيِّين على جميعِ أنحاءِ أناضول تحت حكمٍ موَحَّدٍ وبصورةٍ مطلقةٍ بعد غلبةِ السلطان سليمِ الأوَّلِ على الجيشِ الإيرانِيّ في معركةِ تشالديران عام **1514**م. واستمرَّتْ كذلك في العهدِ الجمهورِيّ إلى اليوم.

تُقَدَّرُ المساحةُ الإجماليَّةُ للأراضِي التركية: **783،562** كم^2، منذ قيامِها على أنقاضِ الدولةِ العثمانيَّةِ، وتُمَثِّلُ أراضي أناضول **97**% من مساحةِ البلاد. تحيطُ بها المياهُ من ثلاثِ جهاتٍ (من الشَّمالِ والغربِ والجنوبِ)، عليها عديدٌ من الموانِي. وتمتدُّ الجبالُ المرتفعةُ على طولِ حُدُودِها الشرقيَّةِ، كما تمتدُّ سلسلةٌ جبليَّةٌ أخرَى عبرَ منطقةِ جنوبِ شرقِ أناضول، موازيةً لِشَوَاطِئِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ (تسمَّى جبالَ تُورُوس). ينحدرُ منها نهرُ الفراتِ إلى سوريا. أعلى قِمَمِهَا هو جبلُ جِيلُو (**4168** م). تستمرُّ جبالُ طوروس باتِّجاهِ الغرب وترسم قوسًا مقعَّرًا باتِّجاهِ الشَّمالِ، تحتضنُ حوضَيْ قونية وبحيرة الملح، وهي الحدُّ الفاصلُ بين بلادِ الشام وبين أناضول.

تقع تركيا على وَاحِدَةٍ من مناطقِ العالَمِ الأكثرِ نشاطًا زلزالِيًّا. كما يمكنُ اعتبارُ الأراضي التركية مُجَمَّعَةً من قطعٍ مختلفةٍ من التضاريس الأرضيَّةِ الصخريَّةِ القارِّيَّةِ والمحيطِيَّةِ القديمةِ ومن الصخورِ البركانيَّةِ والرسوبِيَّةِ. تقع زَلَازِلُ متوسّطةُ الشدَّةِ ما بين فترةٍ وأخرَى في بعض مناطقِ البلادِ تؤدِّي إلى تدميرٍ في الأبنيةِ وخساراتٍ في الأرواحِ، منها زلزالُ أرْزِنْجَان عام **1939**م. الذي دَمَّرَ معظمَ المدينةِ، وزلزالُ (كوجا إيلي Kocaeli) الذي وقعَ في ليلةِ **17** أغسطس عام **1999**م. وأسفرَ عن دمارٍ رهيبٍ وأضرارٍ بشريَّةٍ ومادِّيَّةٍ راحَ ضحيَّتَها أكثرُ من مائةٍ وخمسين ألفًا من الأرواحِ مابين وَفَيَاتٍ وإصاباتٍ تركتْ آثارًا خطيرةً في الأجسادِ وجماعةً غفيرةً من المنكوبين.

تمتازُ الأراضَي التركِيَّةُ بالخصوبةِ، وبمناخِها المعتدِلِ، وغناها بمصادرِ المياهِ الجاريةِ والجوفيَّةِ والمخزونةِ. تنقسم إلى سبعِ مناطِقَ جغرافِيَّةٍ متمايزةِ المناخِ. تنزل الثلوج في المنطقة الشرقِيةِ مع برد قارس، بينما يكون الجوُّ معتدلاً في المنطقة المجاورة للبحر المتوسط.

شَهِدَ قطاعُ الزراعةِ التُّرْكِيُّ تطوُّرًا ملحوظًا انعكستْ آثارُهُ الإيجابيَّةُ على الحياةِ الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ خاصَّةً في السنين الأخيرة. تُعَدُّ المنتجاتُ الزراعيَّةُ جزءًا هامًّا من إجمالي الصادراتِ التركيَّةِ، ومن أهمِّ هذه المحاصيلِ: البُنْدُقُ، وفُسْتُقُ عَيْنتَابَ (المعروفُ في سوريا بالْفُسْتُقِ الحلبِيِّ)، والزبيبُ المجفَّفُ خالِي البذورِ، والتينُ المجفَّفُ، والْمِشْمِشُ المجفَّفُ، وزيتُ الزيتونِ، والقُطنُ، والتبغُ، والبقولُ، والخُضارُ، والفواكهُ الطازجةُ، ويُعتبَرُ إنتاجُ الحبوبِ من أهمِّ الدعائمِ التي يَعتمِدُ عليها الاقتصادُ التُّرْكِيُّ الْعَامُّ.

كانت مساحةُ الأراضِي الزراعيَّةِ التُّرْكِيَّةِ عامَ **1940**م. في حدودِ ال**14،8** مليون هكتار، وفي عام **2001**م. ارتفعتْ هذه المساحةُ إلى مايقاربُ ال**26،3** مليون هكتار، إذ بلغتْ نسبةُ الأراضِي التي تعتمدُ على الزراعةِ الْبَعْلِيَّةِ **83%**. أما الجزءُ المتبقي منها والذي يُقَدَّرُ بـ(**17%**) فيعتمدُ على نظامِ الرَّيِ، يُستخدَمُ فيه أحدثُ الأساليبِ وأكثرُها تطوُّرًا، ويعودُ سببُ ارتفاعِ مساحاتِ الأراضِي المزروعةِ إلى سياساتِ التماهِي بالدولِ المتقدِّمةِ، والتطوُّرِ التقنِيِّ الملحوظِ الذي شهدتهُ تركيا في هذا المجال. وَبفضلِ هذا التطوُّرِ أُنشئتْ العديدُ من الشركاتِ الريفيَّةِ الزراعيَّةِ الكُبرى المتخصِّصةِ بزراعةِ الحبوبِ وتصديرِها، والمصنَّفَةِ على المستوى الأوروبِيّ والشرقِ الأوسطي.

كان الاقتصادُ التُّرْكِيُّ فيما سبق يعتمد بشكلٍ رئيسِيٍّ على رؤوسِ الأموالِ الخارجيَّةِ، وبخاصَّةٍ على الأموالِ الساخنةِ التي لم يتوانَ أصحابُها عن سحبِها كلَّمَا دخلتْ تركيا في لُجَّةَ المشاكلِ الإقليميَّةِ. هذه الأموالُ كانتْ تدخُلُ كاستثماراتٍ وديونٍ طويلةِ الأمدِ في البدايةِ، وحتَّى عام **2007**م. وجرَى ذلك خاصَّةً عبرَ ديونِ صندوقِ النقدِ الدولِيِّ، حتَّى أصبحتْ تركيا ثانِيَ أكبرِ دولةٍ مستدينةٍ من الصندوقِ في العالَمِ. إلاَّ أنَّ الوضعَ اختلفَ منذُ عام **2003**م. مع تولِّي حزبِ العدالةِ والتنميةِ السلطةَ، وشهدَ البلدُ نموًّا ملحوظًا في عهدِ رئيسِ الوزراءِ رجب طيب أردوغان. مع ذلك لا يزالُ الوضعُ الإقتصادِيُّ في تركيا هشًّا مرشَّحًا للتفاقُمِ في أيِّ وقتٍ. ليس ذلك بسببِ انخفاضِ معدَّلِ النموِّ في أغلبِ الأحوالِ، أو التضخُّمِ المالِيِّ الدسَّاسِ فحسبُ، بل حِدَّةُ الصراعِ السياسِيِّ بين الحكوماتِ والمعارضةِ في كلِّ المراحلِ حتى اليوم، كانتْ ولا تزال عاملةً تهدِّدُ الاقتصادَ كما تتربَّصُ الدائرةَ بالسلام في الداخل، وبإيقاعِ الخلل في الصلة بين مكوِّنَاتِ المجتمع.

***

مُكَوِّنَاتُ الْمُجْتَمَعِ التُّرْكِيِّ، الأقلِّيَاتُ العِرقيَّةُ والدِّينيَّةُ:

1) القِطَاعُ السُّنِّيُّ
2) الأقلِّيَةُ الكُرْدِيَّةُ
3) القِطَاعُ الْعَلَوِيُّ
4) الأقَلِّيَّةُ اليهوديَّةُ: اليَهُودُ؛ الْمُتَأَسْلِمُونَ؛ الْمُتَهَوِّدُون.
5) الأقلِّيَّات الْمَسِيحِيَّةُ: الروم؛ الأرمن؛ السريان.
6) اليزيديَّة.
7) المتحرِّرُون (الْمُلْحِدُون)

إنَّ النسيجَ الإجتماعِيَّ للشَّعبِ التركيِّ له مَيِّزَاتُهُ الخَّاصَّةُ؛ فإنَّ هذا الشعبَ على الرغم من وجود التوازنِ بين قِطاعاتِهِ الْمُتَبَايِنَةِ، إلاَّ أنَّها تختلفُ خاصَّةً في اتِّجاهاتِها الدِّينيَّةِ والسياسيَّة والثقافيَّة، وَمَوَاقِفِها من العربِ والمسلمينَ. وإليكم خلاصةً لفصائلِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ (العرقيَّة والدينيَّةِ) بترتيب من الأكثريَّةِ إلى الأقلِّيَاتِ:

***

- **القِطَاعُ السُّنِّيُ:**

يُمَثِّلُ السُّنِّيُّونَ قطاعًا واسعًا في المجتمع، يتألَّفون من أكثريَّةٍ تركيَّةٍ (حَنَفَانِيَّةٍ)، وأقلِّيَّةٍ كُرديَّةٍ (شَافِعَانِيَّةٍ)، إلاَّ أن هذا القطاع يَضُمُّ – في الوقت ذاتِهِ – عددًا كثيفًا من النقشبنديِّين الأتراكِ والأكرادِ الذين هم – في الحقيقة – ليسوا من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ. بل إنَّهم مسلمون بظواهرهم في المساجدِ وبُوذِيُّونَ في خلاياهم وتكاياهم. لأنَّ عقائدَهم تختلفُ عن عقائدِ المسلمين اختلافًا يستحيلُ أنْ يلتقيا بأدنى صورةٍ في توحيدِ اللهِ. وَيَتَعَبَّدُونَ بطريقتَيْنِ مختلفتَيْنِ. يقومون بأداءِ جميعِ الفرائضِ كالمسلمين، ويملؤون المساجدَ، ولكنَّهم يَتَعَبَّدُونَ بأشكالٍ أُخرَى في أماكنَ خاصَّةٍ بهم، لا يسمحون (في الأغلب) لغيرِهم أنْ يشاركوهم في طقوسِهم. وإذا أرادَ شخصٌ أن يلتحق بهم وينخرِطَ في سلكِهم (وذلك منتهى بغيتِهم)، يشترطون عليه أنْ يَتَعَبَّدَ مثلهم، ويتزيَّ بزيِّهم، ويَكْتُمَ أسرارَهم... نسبةُ السُّنِّيِّين الإجماليَّةُ اليومَ (بما فيهِ الجماعاتُ النقشبنديّةُ): 43% من أصل 70 مليون نسمة مِنْ سُكَّان تركيا تقريبًا. نسبةُ الأتراكِ من هذا القطاع: 29% تقريبًا. نسبةُ الأكرادِ من هذا القطاع: 11% تقريبًا. نسبةُ العربِ من هذا القطاع: 3% تقريبًا.

للسُّنِّيَّةِ التُّرْكِيَّةِ خصوصيَّاتٌ تفترقُ بها عن السُّنِّيَّةِ الموافقةِ للكتابِ والسُّنَّةِ النبويَّةِ، وتختلفُ عنها بفروقٍ هامَّةٍ. هذه الميْزَةُ قد أكسبتْ السُّنِّيَّةَ التُّرْكِيَّةَ[3] طابعًا متميِّزًا لعِبَتْ دورًا كبيرا في توجيهِ الأتراكِ خاصَّةً في العهدِ العثمانيِّ، وسيَّرتْهم في مختلفِ مجالاتِ الحياةِ.

[3] إن المذهب السنيُّ في تركيا، صِلَتُهَا بمذهب أهل السنّةِ والجماعةِ رَمْزيةٌ لا تتعدَّى الشكليَّةَ الصرفةَ في حقيقتِهَا. ذلك لتعارُضِها الشديد مع روح الكتابِ والسنُّةِ، بسبب الاستحالة التي تعرّضتْ لها مع الزمان تحت طغيان الفكر الصوفِيِّ والعنصريَّةِ والقبوريَّةِ...

إنَّ السُّنِّيَّةَ التُّرْكِيَّة تعتمدُ في جوهرِها على (الماتُريدانيَّةِ) في العقيدة، وعلى (الحنفانيَّةِ) في العمل الفقهِيّ، وعلى (الطريقة النقشبنديَّةِ) في التوجُّهِ الوجدانِيّ. هذه المواصفات الثلاث قد جعلت من السنّية التُّرْكِيَّة مذهبًا عنصريًّا وقبوريًّا في السلوك الدينيّ والاجتماعِيّ.

ذلك لأن (الماتريدانيَّةَ) عقيدةٌ جهميَّةٌ خليطةٌ من رواسب الفكرِ الماتريدِيّ الكلامِيِّ، وليستْ هي المذهبَ الماتريدِيَّ في صميمها. هذا مع أنَّ الأسلوب الكلامِيَّ من الطرق الشائكة التي حذّر منها علماءُ الأمَّة.

وأمّا (الحنفانيَّةُ): فهي مذهبٌ عثمانِيٌّ مشوبٌ بتأويلاتٍ وفتاوى خواجوات الأتراك، وانتماءٌ تقليدِيٌّ عُنصرِيٌّ بعيدٌ عن الوعْيِ بحقيقةِ اجتهاداتِ الإمامِ أبي حنيفةَ النعمان وتلامذته رضي الله عنهم.

وأمّا (النقشبنديَّةُ): فهي سلوكٌ هندوكِيٌّ محرَّفٌ من مذهب (Mahayana) الْمُنْبَثِقِ من البوذيَّةِ، والمستمِدّ من تعاليم الراهب الهندِيّ (Patanjali).
فيتبيَّن من هذه المعطيات أنَّ (السنِّيَّةَ التُّرْكِيَّةَ) ليست هي المذهبَ السنِّيَّ الذي كان عليه السلفُ الصالحُ ومَنْ يتبعهم اليومَ من القلَّةِ الحنيفةِ المبعثرة في العالم.
لذا، لا ينطبق عليها اسم (السنَّةِ) بالمعنى الحقيقِيّ، بل الأنسَب أنْ تُسَمَّى بـ (السُّنِّيَانِيَّةِ).

إنّ أهمَّ الركائزِ التي تعتمدُ عليها السُّنِّيَّةُ التُّرْكِيَّةُ هي: **1**) القوميَّةُ العصبيَّةُ، **2**) التعصُّبُ المذهبِيُّ، **3**) التصوُّفُ، **4**) الاعتزازُ بالأمجادِ. على أنَّنا لا نُخطِئ إذا أجرَيْنَا هذا التعريفَ نفسَهُ على (الْمُسْلُمَانِيَّةِ). كما لا نكونُ قد خالَفْنَا الواقعَ إذا عبَّرْنَا عن هذه الديانَةِ بأنَّها تتمثَّل في السُّنِّيَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ بكلِّ مواصفاتِها، تظهرُ مَعَالِمُهَا على الإنسانِ التُّرْكِيِّ "الْمُتَدَيِّنِ" أكثر وضوحًا من معالِمِ أيِّ ديانةٍ أخرى على مُنْتَسِبِيهَا.

• فالإنسانُ التُّرْكِيُّ "الْمُتَدَيِّنُ" قومِيٌّ محضٌ، محلِّيُّ العقليَّةِ في معتقداتِهِ وطريقةِ تَعَبُّدِهِ؛ حذِرٌ، متحفِّظٌ إذا اضطرَّ أنْ يُشارِكَ غيرَهُ مِمَّنْ لا ينتمِي إلى مذهبِهِ في أثناءِ العبادةِ الجماعيَّةِ؛ كصلاةِ الجماعةِ والْجُمُعَةِ والحجِّ... فهو قَلِقٌ، شديدُ التمسُّكِ بالشَّكلِ في جميعِ حركاتِهِ، وسكناتِهِ، وانتقالاتِهِ، ودُعَائِهِ، ومناسكِهِ، ومَواقِفِهِ... بحيث يمكنُ بسهولةٍ التمييزُ بينَهُ وبين جميعِ المسلمين مِنْ تابعِي بقيَّةِ المذاهبِ الإسلاميةِ. فمثلاً: اِنتصابُهُ، في الصلاةِ، ورُكُوعُهُ، وسُجُودُهُ، أشبه ما يكون بحركاتِ الجنديِّ في ساحةِ التدريبِ. لأنَّه عسكرِيُّ الروحِ، وله مصداقٌ في المثلِ التُّرْكِيِّ: "كُلُّ تُرْكِيٍّ يولَدُ جُنْدِيًّا Her Türk asker doğar". هذه الروحُ الْقَلِقَةُ تَدفعُهُ إلى تتبُّعِ أنماطِ التحرُّكاتِ مدى الرؤيةِ، فيراقبُ مَنْ حولَهُ حتى لو كان في جوفِ صلاتِهِ، ثم إذا فرغَ مِنْها لا يسكتُ عن امتعاضِهِ لبعضِ المصلِّين الذين يُحَرِّكونَ أَعْضَاءَهُمْ ويعبثون بثيابِهم أو يُرَتِّبُونَهَا بأيديهم!

ومن أهمِّ ميِّزاتِهِ: أنَّه عاجزٌ عن إدراكِ حكمةِ الإختلافِ؛ عاجزٌ عن فَهْمِ مناسباتِ التسامُحِ ومناخِ التئالُفِ، ومواقفِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ في حدودِهما. عاجزٌ عن رفعِ المشاكلِ الفقهيَّةِ إلى أهلِها مِنْ علماءِ الإسلامِ أينما وُجِدَ خارجَ بلدِهِ. لذا، لم يُسمَعْ أبدًا أنَّ شخصًا من الأتراك، رفع مسألةً فقهيَّةً إلى عالِمٍ من علماءِ الحرمين، أو استفسرَهم شيئًا من أمورِ الدين، أو استمَعَ إلى مواعظِهِمْ بقصدٍ ورغبةٍ ووعيٍ وفهمٍ تامٍّ أيَّامَ إقامتِهِ بهما. لنفترضْ أنَّه يستغنِي عنهم بما لديهِ من المعرفةِ الكافيةِ، ولكنَّ الأسبابَ كثيرًا مَّا تستوجبُ مراجعةَ عالِمٍ لعالِمٍ آخرَ، ولو كان ثَمَّ اختلافٌ بين موطنِ كُلٍّ منهما ولُغَتِهِ المحلِّيَّةِ. ويتأكَّدُ مثلُ هذه المشاركة والاستشارةِ في الحين الذي يتعرَّض المسلمون للقمعِ والقتلِ والإبادةِ في جميعِ انحاءِ العالَمِ، ممَّا يُحَمِّلُ مسؤوليَّةً عظيمةً على كاهلِ علماءِ الإسلامِ ويستوجبُ عليهم أنْ يفتقدَ بعضُهم البعضَ ويتبادلوا الآراءَ للتعاون على البِرِّ والتقوى، ما عسى أن يكونَ له أثرٌ في توحيدِ كلمةِ المسلمين، وإنقاذِ أمَّةِ الإسلامِ من الْمَأْزِقِ الذي وقعت فيه اليوم.

* السُّنِّيُّ التُّرْكِيُّ "الْمُتَدَيِّنُ"؛ متشبِّثٌ بالمذهبِ الحَنَفِيِّ؛ فلا يبالي أبدًا بأنَّ هذا المذهبَ يتألَّفُ مِنْ مجموعِ اجتهاداتٍ لشخصيَّةٍ من علماءِ الإسلامِ، يجوز أنَّه قد أصابَ في بعضِها وأخطأ في بعضها الآخر، وأنَّ المسلمَ حُرٌّ في تقليدِهِ أو تقليدِ غيرِهِ من المذاهبِ الإسلاميَّةِ، وذلك متى عجزَ عن حلِّ مشكلتِهِ الفقهيَّةِ لانْتِفَاءِ كفاءَتِهِ، وَجَهْلِهِ بطريقِ الإستنباطِ والإجتهادِ الصحيحِ في نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ. لا يبالي السُّنِّيُّ التركِيُّ بهذه الأمورِ الدقيقةِ العلميَّةِ أبدًا، بل يقلِّدُ المذهبَ الحنفيَّ تقليدًا أعمَى، "لأنَّ المجتمعَ التُّرْكِيَّ اختارهُ منذ القديمِ، وفضَّلَهُ على جميعِ المذاهبِ الإسلاميَّةِ (فهو مذهبُ الآباءِ)؛ وأنَّ أبا حنيفةَ هو الإمامُ الأعظمُ، وأنَّه أفضلُ الأئمَّةِ المجتهدينَ قاطبةً".

* السُّنِّيُّ التُّرْكِيُّ "الْمُتَدَيِّنُ"؛ صوفِيُّ النَّزعةِ (في الأغلبِ)؛ يعتقدُ بـ"أنَّهُ يجبُ على كلِّ شخصٍ أنْ يتَّخِذَ شيخًا لِنفسِهِ ويبايِعَهُ وينقادَ لأوامرِهِ انقيادَ العبدِ الرقيقِ لسيدِهِ." ويعتقدُ بـ"أنَّ الشيخَ هو وكيلُ اللهِ في ملكِهِ، وأنَّهُ وسيلةُ المريدِ إلى اللهِ، لا يمكنُ أنْ يصلَ دعاؤُهُ إلى جنابِ اللهِ إلاَّ بواسطةِ الشيخِ، وأنَّ مَنْ لا شيخَ له فالشيطانُ شيخُهُ."[4]

* السُّنِّيُّ التُّرْكِيُّ "الْمُتَدَيِّنُ"؛ يربطُ بين الدِّين والتاريخِ علاقةً غريبةً لِيَسُدَّ بها الفراغَ الناشئَ من جهلِهِ بحقيقةِ الإسلامِ. لأنَّه رغم اعتزازِهِ العميقِ بدينهِ، وانتمائِه الشديدِ إليهِ لا يكادُ يستطيعُ اجتيازَ العقباتِ الَّتي تعترضُ طريقَهُ في مسيرتِهِ إلى المعرفةِ بحقيقةِ الإسلامِ. ذلك؛ لأنَّ الإسلامَ دينٌ و(الْمُسْلُمَانِيَّةُ) دينٌ آخر شتان بينهما. ولأنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ تتمثَّلُ في ثلاثةِ رموزٍ: المسجد، والمقبرة، والتاريخ...

فالمسجدُ: رمزٌ للصلاةِ والصومِ والإعتكافِ والمواعظِ الدينيَّةِ، وتعريفِ مناسكِ الحجِّ على غرارِ التدريبِ العسكريِّ، مجرَّدةً من معانِيها الروحيَّةِ الساميةِ. والمسجدُ، قاعةٌ يحاضرُ فيها الخُوَاجَهْ، يقصُّ فيها حكاياتِ ((الواصلين)) ومناقبَ الأولياءِ "الذين يطيرون في الهواءِ، ويمشون على الماءِ، والذين تنقادُ لهم الرِّيحُ وتُكَلِّمُهُمُ الوحوشُ..."

[4] يقول محمّد أمين الكرديّ: «فالشيخُ العارفُ الواصلُ وسيلةُ المريدِ إلى اللهِ، وبابُهُ الَّذي يدخلُ منه على الله. فمن لا شيخَ له يرشدُهُ فمرشدُهُ الشيطانُ»

والمقبرةُ: مستقَرُّ الآباءِ والأجدادِ الذين يرقدونَ فيها مسرورين فرحين في عَالَمٍ مقدَّسٍ شبيهٍ بالجِنان، ينتظرون هناكَ لينهضوا يومَ القيامةِ من مقابرِهم وَأمامَهم موكبٌ من الملائِكةِ، تستقبِلُهُمْ حُرَّاسُ الجنةِ ليقولو لهم: "ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ. الحجر/46)، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (الزمر/73). وإنَّ جَميعَهم سوف يدخلون الجنّةَ بغيرِ حساب". والغريب الذي يَدَعُ العقلَ حائرًا في فَهْمِ هذه العقيدةِ: "أن الأسلافَ في كلِّ عصرٍ هم أهلُ الجنَّةِ ما عدا المعاصرين!" وممَّا لا شكّ فيه أنَّ المعاصرين مِنْ كُلِّ جيلٍ يتحوَّلون إلى أسلافٍ بعد انقضاءِ آجالِهِمْ، إذن أين الذين سوفَ يُحاسَبون على أعمالِهِمْ؟!

وأمّا التاريخ: فإنَّه من أهمّ رموز الْمُسْلُمانِيَّةِ وجزءٌ لا يتجزّأ منها؛ فيه قصصُ البطولاتِ والملاحمِ والجهاد.. فيه مَشَاهِدُ عَظَمَةِ الأمَّةِ التُّرْكِيَّةِ وهيمنَتِهَا، وغَلَبَتِهَا على الأعداءِ، والاستيلاءِ على بلادِ الكفَّارِ... هذه الفكرةُ كلُّها تتمحورُ في تصوُّرِ الإنسانِ التُّرْكِيِّ "الْمُتَدَيِّن" حول شخصيَّاتٍ مقدَّسةٍ، وتتجسَّدُ فيهم. وهم بالتحديد: "سلاطينُ بني عثمانَ الذين لهم المجدُ والعظمةُ والخلودُ، كلُّهم أولياءُ اللهِ وخاصَّتُهُ، ولهم العصمةُ من الذنوبِ والخطايا، قد تبوَّؤوا أعلى المقاماتِ في الجنان، تُرجَى شفاعتُهُم، ولا يُرَدُّ دُعاءٌ لِمتضرِّعٍ يتوسَّلُ بجاهِهم، أو يقفُ على أعتابِ أضرحتِهم المباركة!"

هذه خُلاَصَةُ الطابعِ الْعَقَدِيّ للقِطاعِ السُّنّيّ "الْمُتَدَيِّن" المحافِظِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ. هذا القطاعُ يهتفُ بالإسلامِ ويعتزُّ بهِ، وأغلبُهُ يقفُ موقفَ الشقيقِ الْمُحبِّ للعربِ والمسلمين في العالَمِ، ما عدا النقشبنديّين الأتراك، فإنَّهم (وإنْ لم نقل كلَّهم) يكرهون العربَ، إلاَّ أنَّ النقشبنديّين الأكراد لم يُسْمَعْ كَرَاهِيَّتُهُمْ للعربِ والمسلمين. وقد تَشُذُّ قِلَّةٌ مِن الجيلِ الجديدِ لهذا القطاعِ في بعض المواقفِ فَتَنْحَازُ إلى المارقين.

***

- الأَقلِّيَةُ الكُرْدِيَّةُ

إنّ مسألةَ أصل الأكرادِ وتاريخَهم معضلةٌ خاضَ فيها عشراتُ المؤرّخين والباحثين منذُ قرونٍ، بدايةً من هيرودوتس وزنيفون وانتهاءً بِالْعَالِمِ الأنثروبولوجِيّ الأميركِيّ هنري فيلد Henry Field، والباحثِ المترجم ب. حاجي عبدِي ليرخ[5]، فلم يخرجْ من هذه المُعضلةِ أحدٌ منهم بالقولِ الفصل. بل اختلفوا

[5] راجع: "دراساتٌ حولَ الاكرادِ واسلافِهِمْ الخالديّين الشماليّين". مكتبة خاني دمشق– 1994م.

في إثباتِ أصلِ الأكرادِ اختلافًا لم يتَّفِقْ حتَّى اثنانِ منهم على رأيٍ واحد. هذا، بالإضافةِ إلى أنَّ هناكَ قلقٌ ينتابُ رجالَ العلمِ والباحثين، ويجعلُهم يتجنَّبون عن تناولِ هذه القضيةِ مخافةَ اعتداءٍ ينالُهُمْ من بعضِ تيَّاراتٍ إرهابيَّةٍ تنتحلُ صفةَ الدفاعِ عن القوميَّةِ الكرديَّةِ، كما حدثَ مع الباحثِ الكردِيِّ العراقِيِّ الدكتور عمر ميران! لذا، لا مساغَ للإدلاءِ بقولٍ – تحت الظروفِ الراهنةِ – في هذه المسألةِ!

والأكراد، مهما توارَى تاريخُهم بالغموضِ، فإنَّهم اليومَ من أهمِّ القوميَّاتِ القاطنةِ في غربِ آسيا وشمالِ الشرقِ الأوسطِ. يعيشونَ في منطقةٍ تُسمَّى "كُرْدِسْتَان"، وهي موزَّعَةٌ على الأراضي التُّرْكِيَّةِ والإيرانيَّةِ والعراقِيَّةِ والسوريَّةِ. يبلغُ عددُهم اليومَ في تركيا 23 مليون نسمة، وفي العراقِ قرابةَ 10 ملايين، وفي سوريا 5 ملايين، وفي إيران 10 ملايين، وفي ألمانيا مليونان، ولهم جالياتٌ في بلادٍ أخرى.

هذا التشتُّتُ السائِدُ على المنطقة الكرديَّةِ أسفرتْ عنه مشاكِلُ سياسيَّةٌ واجتماعيةٌ مُعقَّدَةٌ يعاني منها الأكرادُ في هذه الدول الأربع خاصَّةً منذ قرنٍ تقريبًا.

لا شكَّ في أنْ الحكوماتِ الغربيةَ هي التي قامت بتقسيمَ المنطقةِ بعد الحربَ العالميَّةِ الأولى على هذا الشكلِ المشوَّهِ بهدفٍ مقصودٍ، تمهيدًا لإثارةِ خلافاتٍ واضطراباتٍ وصراعاتٍ وحروبٍ وثوراتٍ يعمُّ الساحةَ بعدَها الفوضَى (في الموعد المتَّفَقِ عليه!)، بُغيةَ استغلالِها واستعمارِها على حسابِ سُكَّانِها!

هذه المنطقةُ هي الموطنُ الأصلِيُّ للأكرادِ، كانوا يسكنونَها مع الفُرسِ والأرمَنِ قبلَ أنْ يحتلَّها العربُ المسلمون في عهدِ عمر بن الخطَّابِ. ثمَّ دخلها السلاجقةُ الأتراكُ (الْمُسْلُمَانُ) بعدَ فتحِ مَلاَزْكِيرْد عام 1071م.

يُلاحظُ أنَّ هذه المنطقةَ كانت ساحةَ نزاعٍ بين الساسانيِّين والبيزنطيِّين قبل الإسلام. ثمَّ ضمَّها الإمبراطوريَّةُ الإسلامِيَّةُ، فاعتنقَ أهلُها الْمُسلُمانيَّةَ (مع الفُرْسِ)، بخلافِ الأرمنِ والصابئةِ والأقلِّياتِ المسيحيَّةِ من السريانِ والآشورِ والكلدان. لأنَّ الأكرادَ كانوا مجوسًا زرادشتِيِّين مِنْ أهلِ الْفُرْسِ، فاختاروا الْمُسلُمانِيَّةَ (بَدَلَ الإسلامِ) بالانسياقِ معهم. لذا ذهب بعضُ المؤرِّخين إلى أنَّ الأكرادَ كانوا قديمًا جالياتٍ من المجتمع الفارسِيِّ.

مارسَ الأكرادُ حرّيَتَهم بالقدر الذي كان يتمتَّعُ بها العربُ والتُّركُ والبربرُ وسائرُ القوميَّاتِ العرقيَّةِ والدينيَّةِ على مَدَى حُكمِ الأمويّين والعبَّاسِيّين والسلاجقةِ والعثمانيّين إلى أواخرِ أيّامِ الدولةِ العثمانيَّةِ. إذ لم يكنْ ثمَّ إحساسٌ بالقوميَّةِ في كلِّ تلك المراحلِ، ولم يَنْبِضْ بعدُ في قلبِ أحدٍ شعورٌ بالتمييزِ العنصريِّ. بل كانتْ الهُويَّةُ الإسلاميَّةُ (المشوَّهَةُ) هي القاسِمَ المشتركَ عمومًا بين أفرادِ الأمَّةِ تماشيًا (بحكم التقليدِ) مع قوله تعالى. "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"[6]

بدأتْ المشكلةُ الكرديَّةُ تتنامَى مع بدايةِ انهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ، ولها أسبابٌ يأتي على رأسِها دبيبُ الشعورِ بالقوميَّةِ بين الجماعاتِ العرقِيَّةِ، وانتشارُ هذا الشعورِ بين أعيانِ الأكرادِ خاصَّةً في تلكَ المرحلة. ولكنَّ الأزمةَ الكرديَّةَ إنَّما تفاقمتْ وازدادتْ حِدَّةً تحت الظروف التي أفرزتْها الحربُ العالميَّةُ الأولى. ذلك أنَّ الدولةَ العثمانيَّةَ لمَّا تعرَّضتْ لحملاتِ التدميرِ في هذه الحربِ من قِبَلِ الدولِ الأوروبيَّةِ بالتعاون مع روسيا اتّباعًا لسياسةِ "فرّقْ تَسُدْ"، وتمَّ تقسيمُ أراضِيها بشكلٍ غيرِ طبيعِيّ، أدَّى ذلك إلى تجزئَةِ بعضِ أقاليمِها التي كان كُلٌّ منها أصلاً منطقةً واحدةً متكامِلةً ذاتَ خصوصيَّاتٍ جغرافِيَّةٍ وديموغرافِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ متجانسة.

كانت المنطقةُ الكرديّةُ من أبرزِ هذه الأقاليمِ. ولَمَّا أُقِيمَتْ حدودٌ عفويَّةٌ بين أجزاءِ هذه المنطقةِ من قِبَلِ المُحتَلّينَ الغربيّين، وغدى سُكَّانُ كُلِّ جُزءٍ منها أجنبيًّا عن الأجزاءِ المفصولةِ من الوطنِ الواحدِ قديمًا، أسفرَ هذا التمزيقُ والتشتيتُ عن مشاكلَ سياسيَّةٍ معقَّدةٍ، كما كانتْ لها نتائجُ متناقضةٌ متعدّدةُ الوجوه.

من أهمّ نتائجِ هذا التشتيتِ والتمزيقِ: أنَّ الأكرادَ استيقظوا من سُبَاتِهِم العميقِ بعد قرونٍ، وأحسُّوا ربما لأوَّلِ مرَّةٍ بالحاجةِ إلى ما لا بدَّ منه من مُقَوّماتٍ لتكوينِ مجتمَعٍ يستحقُّ أنْ يتمتَّعَ باستقلاليَّةٍ في إطارِ ثقافةٍ مشتركةٍ على أرضِ وطنٍ موَحَّد. لكنَّ هذه الصحوةَ حدثتْ بعد فواتِ الأوان. لأنَّ ماضِيَهم الغامضَ اعترضَ سبيلَهم وأحبطَ جهودَهم التي بذلوها لتوحيدِ صفوفِهم ونيلِ حرّياتهم!

اشتدَّتْ معاناةُ الأكرادِ وهم يناضلون لأجلِ الحصولِ على استقلالِهم، فاصطدموا بخيبَةِ الأملِ وباءتْ جهودُهم بالفشلِ كلَّما حاولوا لِكَيْ يجدوا لأنفسِهِم مُعْتَمَدًا تاريخيًّا (كآثارِ دولةٍ أقاموها، أو حضارةٍ

[6] الحجرات/10

صنعوها، أو مكتباتٍ ملئوها بمؤلَّفلتِهم وبحوثِهم ودراساتِهم). إلاَّ أنَّهم خرجوا بعد كلِّ محاولةٍ صفرَ اليدين، فلم يعثروا على شيءٍ من هذهِ الركائزِ (ليتمكَّنوا من بناءِ دعواهم عليها)، غيرَ الدولةِ الأيُّوبيَّةِ. إلاَّ أنَّ هذا الإدِّعاءَ يحتاجُ إلى نقاشٍ ودراسةٍ علميَّةٍ يتَّفقُ على نتائجِها هيئاتٌ مؤلَّفةٌ من أهلِ الإختصاصِ، بقرارٍ حاسمٍ.

من الحقائق التي لا شكَّ فيها: أنَّ الظروفَ الجغرافِيَّةَ والمناخيَّةَ لها تأثيرٌ بالِغٌ في تغييرِ طبائع الإنسانِ، وتحديدِ قدراتِهِ وكفاءاتِهِ، وإنتاجِهِ... يتبلورُ الواقعُ في هذا الأمرِ بعدَ مقارنةٍ بين شخصين يعيشُ أحدُهُما في منطقةٍ فسيحةٍ سهلةِ المسالِكِ، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، يسودُهَا مناخٌ معتدِلٌ؛ والآخرُ يعيشُ في منطقةٍ جبليَّةٍ وعرةِ المسالِكِ، يسودُهَا مناخٌ باردٌ. فالأوَّلُ يتمتَّعُ بسهولةِ الإمكانِ في التحكُّمِ على ما يملِكُهُ من أرضٍ، أو آلةٍ، أو حيَوانٍ.. لأنَّ الأرضَ السهلةَ الممتدَّةَ، والمناخَ الدافئَ المعتدِلَ يسمحانِ له بالعملِ الدؤوبِ، وهو مستفيدٌ من الظروفِ الْمُتَاحَةِ له بفضلِ هذين العاملِينِ، فيحظَى من العطاءِ على حسبِ خبرتِهِ وكدِّهِ وجهودِهِ، ومَقْدَرَتِهِ الماليَّةِ، فيعيشُ مُرَفَّهًا في الأغلب.

أمّا الآخر؛ فإنَّه مهما كانَ عازِمًا وجادًّا وذا خبرةٍ في استثمارِ الأرضِ والمالِ، تعترضُ سبيلَهُ تِلْكُمَا العقبتانِ أينما يتوجَّه: وُعُورَةُ الأرضِ، والسَّقَعُ.

اصطدمَ الإنسانُ الكردِيُّ بهاتين العقبتين، فكانتا مصيبتين عليه في كُلِّ حياتِهِ طوالَ القرونِ. حَبَسَهُ الشتاءُ القارِسُ في سفوحِ الجبالِ الشامخاتِ، وكبَّله البردُ في الوديانِ العميقةِ، هطلتْ عليهِ الثلوجُ والأمطارُ، ولدغتْهُ الهوامُّ، وجرفتِ السيولُ كُوخَهُ ومواشِيَهُ. هكذا هجمتْ عليهِ الأرضُ والسماءُ طوالَ عمرِهِ. لكنَّه مع كلِّ ذلك لم يبخلْ بما لديه في إسعافِ مَنْ نزلَتْ به نائبةٌ من نوائبِ الزمانِ. كان الإنسانُ الكردِيُّ دائمًا سخيًّا، كريمًا، مستجيرًا لمن احتمَى به، مطيعًا لكبيرِهِ، شفيقًا على صغيرِهِ، رحيمًا بالمنكوبِ والمحتاجِ.. إلاَّ أنَّه أهملَ نفسَهُ وحرَّمها عادةً من القراءَةِ والكتابَةِ طوالَ قرونٍ. لعلَّ الجبالَ والوديانَ والجليدَ والثلوجَ حالتْ بينَهُ وبين عَالَمِ المعرفةِ، فتركتْه يتسلَّى بالأساطيرِ والخرافِيَّاتِ، وقصص الكراماتِ المزعومةِ بغرضِ الدعايةِ للشيوخ النقشبنديِّين الذين عاشوا ولا يزالون يعيشون على حسابِهِ، يستغلُّونه في بثِّ أباطيلهم وتوسيعِ نطاقِ شُهرتِهِم، مع ذلك يستخِفُّونَ به، ويتهاونون بكرامتِهِ.

هذا، وليس من القليلِ ما يجرِي على لسانِ كثيرٍ من شيوخِ النقشبنديَّةِ من ألفاظٍ نابيةٍ يعبِّرون بها عن كراهيَّتِهِمْ واحتقارِهِم للأكرادِ رغم أنَّ أكثرَهم أيضًا من أصولٍ كرديَّةٍ! يصفون الأكرادَ بالجهل والحماقةِ، يتناجونَ بنحو ذلك في مجالسهم الخاصَّةِ المغلَّقةِ على مريديِهم، كقولهم (باللُّغةِ الكرديَّةِ): "كُورْمَانْج پِيسِن"، يعني: "الأكرادُ أقذارٌ"، "كُورْمَانْج دِزِّنْ"، يعني: "الأكراد لصوصٌ". ولكنَّ ملايينَ الأكرادِ الغافلين عن هذه الفريَةِ مازالوا يتواضعونَ لهؤلاءِ الشيوخِ، وَيُعَظِّمُونَهُمْ، بل ويعبدونهم، ويشركونهم مع الله![7].

إنَّ هذا القدرَ البالغَ من التَّخَلُّفِ في العقليَّةِ والعقيدةِ أوقع الأكرادَ في حبالِ تنظيماتٍ خطيرةٍ تلعبُ بهم وتستغلُّهم في أغراضِها وهي ثلاثُ شبكاتٍ رئيسةٍ: شبكةُ شيوخِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ وآغاواتِ العشائرِ؛ وشبكةُ الأحزابِ السياسيَّةِ؛ وشبكةُ التيَّاراتِ الإرهابيَّةِ والمافيا.

إنَّ المنطقةَ الكرديّةَ رهينةٌ – منذ قرن– في يدِ هذه الشبكاتِ المتواطئَةِ فيما بينها، خاصَّةً وأنَّ الْمُجْتَمَعَ الكُرْدِيَّ في تركيا يُعَدُّ متاعًا ثمينًا في سوقِ هذه الشبكاتِ الثلاثِ، يتَّجِرُ به السياسيُّونَ، وشيوخُ النقشبنديَّةِ، والتيَّاراتُ الإرهابِيَّةُ. يتفاوضون على استغلالِهِ من وراءِ أبوابٍ مغلَّقةٍ، فضلاً عمَّا يتعرَّضُ له الأكرادُ من الضغوطِ والسحقِ والتعذيبِ على يدِ الفاشيِّين المنتحلين للقوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ الذين لهم أيضًا شبكاتٌ سرِّيَّةٌ في قلب الدولة التُّرْكِيَّةِ.

أمَّا استغلالُ شيوخِ النقشبنديَّةِ للأكرادِ، فإنَّ له قصَّةٌ لا يسعُ المقامُ لشرحِها. وهي باختصارٍ شديد: أنَّ الأكرادَ دخلوا في أسرِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ بعد عودةِ خالدِ البغداديِّ من الديارِ الهنديَّةِ عام 1811م. وهو رجلٌ كردِيٌّ من ضواحي مدينة السليمانيَّةِ العراقِيَّةِ. له قصَّةٌ طويلةٌ وشخصيَّةٌ غريبةٌ[8]، يقول الشيخ معروفُ البَرْزَنْجِيُّ عنه: "إنَّ الأكرادَ كلَّهم قد اتَّبعوه. وملأَ ببدعتِهِ الآفاقَ، وإنَّه

---

[7] للأكرادِ النقشبنديّين الفاظٌ غريبةٌ على الإسلامِ، يخاطبون بها شيُوخَهُمْ على سبيلِ الإحترامِ والتوقيرِ لهم، كقولهم: "قُرْبَان". وهي في اللغةِ الكرديّةِ بمعنى (الأضحيّة). يعني القائلُ بذلك: "أنا فداكَ". يُكثِرُ المريدُ الكردِيُّ من هذا اللفظِ في أثناءِ تخاطُبِهِ مع شيخه. وقولهم: "أزْ قُربَانَا لِنْگِي تَمَه"، معناه: "أنا فِداءٌ لِقَدَمِكَ". وقولهم: "أزْ بِي تَه رَادْمُوسِمْ"، أي "أُقَبِّلُ رِجْلَكَ". وقولهم: "أزْ كَلْبِي دَرْگَاهِ تَمَه"، أي "أنا كلبٌ ببابِكَ". وقولهم: "مَالاَ مِنْ تَوْلاَ هَسْبِي تَيَهَ"، أي "منزِلي حظيرةُ خيلِكَ". ولهم ألفاظٌ خطيرةٌ يُطلِقونها للقَسَمِ بالشيوخِ. وهي لا شكَّ من الإفراطِ في جنبِ اللهِ، والإشراكِ به دونه خرطُ القتاد!. يقولون في قَسَمِهِم: "بِسَرِي شيخْ"، أي "أُقسِمُ برأسِ الشيخ". وقولهم: "بِأُوجَاخَا شيخ"، أي "أقسمُ بمِدْفَئِةِ الشيخ". وقولهم: "بِجَدِّي شيخ"، أي "أقسم بآباءِ الشيخ". وقولهم: "بِمَرقَدَا شيخ"، أي "أقسمُ بضريح الشيخ"...

[8] لمزيد من المعرفة حول هذا التيّارِ الصوفِيِّ الخطير، راجع: "فريد صلاح الهاشمي، الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرِها"، النسخة الألكترونية المجَّانيَّة (على الشبكة العنكبوتية).

يدَّعِي التصرُّفَ في الكائناتِ، ويدَّعِي علمَ الغيبِ، وإنَّه ذهبَ إلى الهِنْدِ فتعلَّمَ من السحرةِ الجُوكِيَّةِ ومِنْ نصارَى الإنجليز دينًا ظهرَ عندهم!"[9]

كان خالدٌ البغدادِيُّ قد عقدَ العزمَ على دحرِ شيوخِ الطريقةِ القادريَّةِ من الساحةِ لما يراهم حجرَ عَثْرَةٍ في طريقه، وحتى لا ينافسَهُ أحدٌ في زعامةِ الصوفيَّةِ وهو يملك الحجةَ (في مُصْطَلَحِهِمْ) كما كان يدَّعِي "أنَّهُ يحملُ إجازاتٍ لِعِدَّةِ طرائقَ، منها القادرية!". ومعنى ذلك: "أنَّهُ مادامَ يتمتَّعُ بمنصبِ المشيخةِ لقبولِ المريدين إلى الطريقةِ القادريَّةِ بجانب الطريقة النقشبنديَّةِ في الوقتِ ذاتهِ، فالناسُ إذنْ ليسوا في حاجةٍ إلى شيوخِ القادريَّةِ!" فتصدَّى بنفسِهِ للضغطِ على الأسرةِ الْبَرْزَنْجِيَّةِ التي كانت زعامةُ الفرقةِ القادريَّةِ بِيَدِهَا في الساحةِ العراقِيَّةِ (طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي)، كما وجد خالدٌ ضالَّتَهُ المنشودةَ في رجلٍ اسمه طه النهرِيَّ، فَاسْتَمَالَهُ بدهائِهِ، وقَرَّبَهُ إليه لِيَسْتَخْدِمَهُ في بسطِ هيمنتِهِ، طمعًا في احتواءِ الجماهير الملتفَّةِ حوله بشمالِ المنطقةِ الكردِيَّةِ، وحتى لا يطغى طه بِشُهْرَتِهِ الواسعةِ عليه!.

فلابدَّ هنا من التعريف بشخصية خالد البغدادِيّ كرجلٍ من مشاهير الأكرادِ، وذكرِ شيءٍ من مُغَامَرَاتِهِ ونشاطَاتِهِ ومعتقداتِهِ وتأثيراتِهِ على المرحلة التي عاش فيها.

خالدُ البغداديُّ من أواخرِ مشاهيرِ الروحانيّين للطريقةِ النقشبنديَّةِ. وُلدَ في قصبةِ (قره طاغ) بضواحِي مدينةِ زُور الواقعةِ شمالَ بغداد سنة **1778**م. كُرْدِيُّ الأصلِ، ينتمي إلى العشيرةِ الميكائيليَّةِ. درس اللغةَ العربيَّةَ والعلومَ الإسلاميَّةَ وعددًا من العلوم العقليَّةِ، تعلَّمَ اللغةَ الفارسيَّةَ، بدأ يُدَرِّبُ نفسَهُ على المناظرةِ منذ كان مراهقًا، استعدادًا لمناقشةِ العلماءِ، وحبًّا للمغالبةِ والظهورِ، إذ نشأَ في عصرٍ تتلاطمُ فيه الأفكارُ وتشتعلُ فيه الحروبُ بين العقلياتِ والاتِّجاهاتِ والمذاهبِ والطوائفِ الدينيَّةِ والعرقيَّةِ، والأمَّةُ في حيصَ بيصَ... فوسوستْ له نفسُهُ الطَّمُوحَةُ أن يغيبَ عن وطنِهِ فترةً من الزمن حتى يأتِيَ بفكرةٍ جديدةٍ ليتمكَّنَ بسحرِهَا من الاستحواذِ على النفوسِ، ومن الحُظْوَةِ والشهرةِ والمكانةِ عند الناس.

[9] محمّد أمين السويدي، "دفع الظلوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم" (ديباجة)؛ مكتبة السليمانية، خزانة أسعد افندي رقم/**1404**. إسطنبول.

يقصُّ خالدٌ حكايةً تُنبئُ عن هذه الخطراتِ التي كانتْ تتراقصُ في ذهنِهِ. يبدو في كلّ كلمةٍ منها أنَّه نسجَ بعضَها في الخيالِ بمنتهى الإتقانِ والابداعِ. وقد يكونُ صادقًا في بعضِهَا الذي يفضحُ عقيدَتَهُ ويرمزُ –في الوقت ذاته– إلى سببِ رحلتِهِ إلى الهند أنَّها كانت مُنَسَّقَةً من ذي قبلٍ. يقول: "وكنتُ أفتّش على أحد من الصالحين[10] لأتبرَّك ببعضِ نصائِحِهِ لعلّي أعمل بها كل حينٍ، فلقيتُ شيخًا يمنيًّا متريّضًا عالمًا عامِلاً صاحبَ استقامةٍ وارتضاءٍ، فاستنصحتُهُ استنصاحَ الجاهلِ المقصّرِ من العالِمِ المتبصّر فنصحني بأمورٍ منها: "لا تبادرْ في مكَّةَ بالإنكارِ على ما ترَى ظاهرَهُ يخالفُ الشريعةَ[11]. فلمَّا وصلتُ إلى الحرَمِ وأنا مُصِرٌّ على العملِ بتلكَ النصيحةِ البديعةِ، بكَّرْتُ يومَ الجمعةِ إلى الحرم لأكونَ كمن قرَّبَ بدنةً من النعم، فجلستُ إلى الكعبةِ الشريفة لأقرأ الدلائل[12]، إذ رأيتُ رجلاً ذا لحيةٍ سوداءَ عليه زَيُّ العوامِّ قد أسندَ ظهرَهُ إلى الشاذروانِ ووجْهُهُ إليَّ من غير حائلٍ فحدَّثَتْنِي نفسي أنَّ هذا الرجلَ لا يتأدَّبُ مع الكعبةِ ولم أُظهِرْ عيبَهُ فقال لي: أما عرفتَ أنَّ حُرْمَةَ المؤمنِ عند اللهِ أعظمُ من حُرْمَةِ الكعبة! فلماذا تعترِضُ على استدبارِي الكعبةَ وتوجُّهِي إليك؟ أما سمعتَ نصيحةَ مَنْ في المدينةِ وتأكيدَهُ عليك؟! فلم أَشُكَّ أنَّهُ من أكابرِ الأولياءِ وقد تستَّرَ بأمثالِ هذه الأطوارِ عن الخلقِ، فانكببتُ على يديهِ وسألتُهُ العفوَ، وأنْ يُرْشِدَنِي بدلالتِهِ إلى الحقِّ، فقال لي: فُتُوحُكَ لا يكون في

---

[10] إنَّ الصالحين في الحقيقة: هم الذين صَلُحَتْ المعاملَةُ بينهم وبين اللهِ وبين الناس، على قدر الإمكان، فتعلَّموا ما أمر اللهُ بِتَعَلُّمِهِ وعملوا به، ودعوا إليه وصبروا على طريق الحق، فالذي تَعَلَّمَ ما أمر اللهُ بِتَعَلُّمِهِ ثم عمل به في خاصَّةِ نفسِهِ، ثم دعا إليه ثم صبر على ما يلقاه من الأذى في سبيله، هذا هو الصالح. وهم أولياء الله، وقد قال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [يونس: **62 – 64**]. وأمَّا عند الصوفيةِ: فإنَّ الأولياءَ هم شخصياتٌ عظامٌ لهم بأس شديد، لا تبلغ العُقولُ إلى الاحاطةِ بهم لعلوّ مقاماتهم، يَرْزُقُون ويُحْيُون ويُمِيتُون ويُدَبِّرُون الْخَلْقَ مَعَ اللهِ! وهذا هو معتقَدُ خالد البغدادِيّ، وقصدُهُ من الصالحين. يدلُّ على ذلك كثيرٌ من كلماتِهِ، تجدهُ إن تتبَّعْتَ رسائلَهُ.

[11] هذه المقولةُ مردودَةٌ على صاحبها، وهي ضربٌ من الهذيان وباب من التضليل، إذ لا حجيةَ ولا مبرّرَ لها من الكتابِ والسنة؛ كما فيها تسهيلٌ بل تشجيعٌ لكلّ مَنْ تُسَوّلُ له نفسُهُ أنْ يتَّبِعَ هواهُ متى شاءَ، فيقعَ في الحرامِ ثمَّ يدَّعِيَ "أنَّ فعلَهُ موافِقٌ للشرعِ أصلاً وإن كان يبدو محظورًا"، فكيفَ إذنْ يمكن الضبطُ إذا تطوَّرَ الأمرُ وتفاقمَ بهذه الذريعة؟! ولا شكَّ في أنَّ معظمَ البدعِ والشركيَّاتِ إنما تسرَّبتْ إلى عقائد المسلمين بهذه الطريقة.

[12] يشير إلى كتاب (دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار) وهو كتاب من تأليف محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة **870** هـ، جمع فيه صِيَغًا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، يُعَدُّ من أشهرِ كُتُبِ الأذكارِ بين أهلِ البِدَعِ، ممَّا جعله محطَّ اهتمامِ كثيرٍ من جَهَلةِ النُّسَّاكِ، خاصةً الصوفية منهم، فجعلوه جزءاً من أورادهم التي يقرأونها صباحاً ومساءً. وقد أفتى غيرُ واحدٍ من علماءِ الإسلامِ: أنّ القراءةَ في هذا الكتابِ بدعةٌ لما فيه من شركيَّاتٍ وتوسُّلاتٍ بِدعِيَّةٍ وصلواتٍ غيرِ جائزةٍ ومكلِّفَةٍ. وإليك نصّ فتوى لِعلماء الحرمين، فيه إجابةٌ على سؤالٍ، تقول اللَّجنةُ:

"إذا كان الواقع ما ذكرتَ من اشتمالِ أورادِ وأحزابِ هذا الكتابِ على التوسلِ بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستشفاعِ به إلى اللهِ تعالى في قضاءِ حاجتِهِ، فلا تجوز لك القراءة فيه؛ لِقولِهِ تعالى: {قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} وقولِهِ تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: **255**]؛ وقولِهِ: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزمر: **43**، **44**]. وفي التمسُّكِ بكتابِ اللهِ تعالى وتلاوتِهِ وبالأذكارِ النبويَّةِ الصحيحةِ غُنْيَةٌ لك عن قراءةِ الأورادِ والأحزابِ التي بكتاب (دلائل الخيرات) وأشباهِهَا وهي كثيرةٌ تجدها في كتاب (رياضِ الصالحين) وكتاب (الأذكارِ النَّوَوِيَّةِ) كِلاَهما للإمام النووي، وكتابِ (الكلم الطيب) لابن تيمية، و(الوابل الصيب) للعلاَّمة ابن القيم رحمة الله على الجميع، وغيرها من كتب أهل السنَّةِ. وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد, وآله وصحبه وسلم. اللَّجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. رقم الفتوى: **8879**"

هذه الدِّيَارِ. وأشارَ إلى الديار الهنديَّةِ، وقال: تأتيكَ إشارةٌ من هناكَ فيكونُ فُتُوحُكَ في تلك الأقطار. فأيستُ من تحصيلِ شيخٍ في الحرمين يرشدني إلى المرامِ، ورجعتُ بعد قضاءِ النسكِ إلى الشام"[13]

سافر خالدٌ إلى الهندِ عام 1826م. وله يومئذ 32 عامًا من العمر. قام بهذه المغامرةِ بدون سببٍ ملحّ. كانت رحلتُهُ –في الحقيقةِ– مغامرةً مليئةً بِالأخطارِ، لأنَّه سلكَ طريقًا طويلةً في الغاية، مهدَّدَةً باللُّصوصِ وقُطَّاعِ الطُّرُقِ والمجرمين. وصل الهندَ بعد 6 أشهرٍ قضاها في السفرِ بشقّ النفسِ، وأقامَ عامًا في هذا البلد، لا يعلمُ أحدٌ إلى اليومِ ماذا عملَ خالدٌ هناكَ طوالَ هذه الفترةِ، وَبِمَنْ كان هو يتَّصلُ، وما هو مصدرُ العونِ والدعمِ الذي استمدَّ منه – بعد عودتِهِ – تلك المقدرةَ التي تغلَّبَ بها على كُلِّ مَنْ عَارَضَهُ! مازالتْ الإجابةُ على هذه التساؤلاتِ وغيرِها طيَّ الكتمانِ، كما ظلَّتْ علاقاتُهُ مع الأشخاصِ والجمعياتِ والمنظَّماتِ هناك، وأسرارُ رحلتِهِ مجهولةً حتَّى هذه الساعةِ.

وممَّا يدلُّ على أنَّ رحلتَهُ كانتْ مُبَرْمَجَةً بالتنسيقِ مع أشخاصٍ أو منظماتٍ في الهندِ: مجيئُ رجلٍ من تلك الديارِ والتقاؤُهُمَا في السليمانيةِ. يقصُّ الناقلُ عن هذا اللقاءِ فيقول: وكان (أي خالدٌ) متشوّقًا بعد رجوعِهِ من الشامِ إلى مرشدٍ من فحولِ الرجالِ حتَّى جاءَ إلى السليمانيةِ رجلٌ هنديٌّ يُسَمَّى «مِرْزَا رحيم الله بِكْ» المعروف بمحمد درويش العظيم آبادي.[14] أحد خلفاءِ (غُلاَمْ علي عبد الله الدهلويِّ)، فاجتمعَ به وعرضَ عليه مطلبَهُ. فقال له: «إنَّ لي شيخًا كاملاً مرشدًا عالمًا عارفًا بمنازلِ السائرين إلى ملكِ الملوكِ، خبيرًا بدقائقِ الإرشادِ والسلوكِ، نقشبنديَّ الطريقةِ، محمديَّ الأخلاقِ، عَلَمًا في علمِ الحقيقةِ. فَسِرْ مَعِيَ حتَّى نرحلَ إلى خدمتِهِ في جِهَانْ آبَادْ، وقد سمعتُ منه إشارةً بوصولِ مثلكَ ثم إلى المراد».[15]

[13] يفتضح خالدٌ بهذه الكلماتِ التي تدلُّ دلالةً واضحةً لا تدع مجالاً للشكِّ في أنّ هذه القصَّةَ كذبٌ محضٌ قد اخْتَلَقَهَا من تلقاءِ نفسِهِ وهو يعزو عبرَ كلماتِهِ علمَ الغيبِ إلى "رجلٍ ذي لحيةٍ سوداءَ عليه زيُّ العوامِّ...إلخ"، كل هذه العبارات التي صاغها في خيالِهِ إنما تدلُّ على امراضٍ نفسيَّةٍ خطيرةٍ ابتلى بها خالدٌ.

[14] هذه القصَّةَ نقلها عدةُ رجالٍ من النقشبنديّين الّذين تصدّوا لترجمة خالد البغداديّ، منهم قسيم الكُفْرَوِيّ في تركيا. سجل هذه الحكاية في الصفحة الثالثة بعد المائة من كتابه:Nakşibendiliğin Kuruluşu ve Yayılışı. حصل المؤلّف بهذا الكتاب على شهادة الدكتوراه من جامعة إسطنبول–كلية الآداب عام **1949**م. وهذا الكتاب المدوَّن باللّغة التركيّة، أعدّه المؤلّفُ على الآلة الكاتبة. وهي نسخة واحدة لا ثانية لها حتّى الآن، مودعة في خزانة معهد التركيات بمدينة إسطنبول، ومسجّلة تحت رقم/**337**

[15] عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/**226**.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال آخر. وهو أنَّ غُلاَمْ علي عبد الله الدهلويّ كيف عَلِمَ بوجودِ خالدٍ (وهو في الهند، وخالدٌ في العراق؟!) حتَّى "أشارَ بوصولِهِ"، كما نفهم من كلام رسولِهِ مرزا رحيم الله بِكْ. لا شكَّ في أنَّ هناكَ حقائقُ ما زالتْ متخفِّيَةً وراءَ هذه الكلماتِ، سوفَ تظهر أسرارُ هذا اللُّغزِ إلى العيانِ إن شاء اللهُ تعالى يومًا من الأيَّام. فللَّهِ تدبيرٌ يغني عن الحِيَلِ!

***

فلمَّا عادَ خالدٌ إلى السليمانيَّةِ استطاعَ أن يكَوِّنَ حولَهُ درعًا من البشرِ بسرعةِ البرقِ، مِمَّا يبرهن على أنَّه لَمْ يُتْرَكْ وحيدًا بعد عودتِهِ، بل كان يُسنِدُ ظهرَهُ إلى قوَّةٍ عملاقةٍ ذاتِ بأسٍ شديدٍ لم يُكْشَفْ عنها بعدُ!

سرعان ما بدأ خالدٌ بدعوتِهِ، ونجحَ في تبشيرِ عقيدتِهِ التي جاءَ بها من الديارِ الهنديَّةِ، فانتشرتْ على مُستوَى المملكةِ العثمانيَّةِ في مدَّةٍ وجيزةٍ. لقد كان سَبَقَهُ قبل قرونٍ في القيامِ بهذه المهمَّةِ روحانيٌّ آخر يُدعَى عبدَ اللهِ الإلهي[16]، وذلك في عهدِ السلطان سليمان القانوني، إلاَّ أنَّ دعوتَهُ انتهتْ بالفشل. لكنَّ خالدًا استطاعَ أن يُلقِيَ هيبتَهُ في قلوبِ مئاتِ الآلافِ من مختلفِ طبقاتِ المجتَمعِ العثمانِيّ وينشُرَ عقيدَتَهُ على ساحةٍ شاسعةٍ من سواحلِ الخليجِ العربِيّ جنوبيًا، إلى سواحلِ البحرِ الأسودِ شَمالاً، ومن جبالِ القوقازِ شرقًا إلى أواسطِ جزيرةِ بَلْقَانَ غربًا...

إنَّ هذه الشهرةَ الفائِقةَ التي نالَها خالدٌ البغدادِيُّ بصورةٍ غيرِ مسبوقةٍ، لها سببانِ رئيسان، قضتْ المشيئةُ الإلهيَّةُ أنْ يجتمِعا في مرحلةٍ واحدةٍ. ولولا هذه الموافقةُ في القَدَرِ لما كان خالدٌ لِيَحْظَيَ بهذه الشهرةِ أبدًا. وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ... وربما ليبلوَ عبادَهُ أيُّهم يثبتُ على توحيدِهِ تعالى أمامَ عواصفِ الشركِ النقشبنديّ التي هبَّتْ من الديارِ الهنديَّةِ إلى الشرقِ الأوسطِ وفي تلك المرحلةِ العصيبةِ التي كانت الدنيا تغلِي أيَّامَها غليانَ الماءِ على النار، والأمَّةُ تتقلَّبُ بين أمواجِ الفِتَنِ، وتُدَكُّ وَتُسحَقُ تحتَ ضرباتِ الحروبِ الطاحنة.

---

[16] عبد الله الإلهي: من صوفيةِ عصرِ السلطان محمد الفاتح، تركِيُّ الأصلِ، وُلِدَ في مدينة كُدَاهِيَّةَ بغربِ أناضول، سافر إلى سَمَرْقَنْد وسلك هناكَ التصوفَ واعتنقَ عقيدةَ وحدةِ الوجودِ، ثم رجع إلى بلدِهِ لنشرِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ، إلاَّ أنه لم ينجحْ في بثِّها. لم يردْ في المصادرِ تاريخُ ولادتِهِ، مات سنة **1491**م. من أقواله: "إنَّ الغرضَ من تغيير الأخلاقِ: أن يتخلَّصَ الإنسانُ من الصفاتِ البشريَّةِ". يقصدُ: "إنَّ الإنسانَ، يجب عليه أنْ يُغَيِّرَ أخلاقَهُ (بطريقِ المجاهدةِ المتعارفةِ في التصوُّفِ) ليتخلَّصَ من الصفات البشريَّةِ فيرتقِيَ إلى مقام الألوهِيَّةِ"، تعالى الله عما يُشْرِك به الفاسقون. المصدر:
http://tr.wikipedia.org/wiki/Abdullah-%C4%B1_%C4%B0lahi

ظروفُ هذه المرحلةِ تُعَدُّ هو السببَ الرئيسَ لتمهيدِ السبيلِ أمامَ خالد. ذلك أنَّ الدولةَ العثمانيةَ كانت على شفيرِ الإنهيارِ، تتعرَّضُ لضرباتٍ من الخارج. ولم يكنْ ما يجرِي يومئذٍ في الداخلِ من شَغَبٍ وفِتَنٍ وعصياناتٍ أقلَّ خطورةً منها. فكانتِ الدولةُ بحاجةٍ إلى من يُسْعِفُها في مواجهةِ الثورةِ الوهَّابيَّةِ، وإحباطِ التَّيَّارَاتِ التمرُّدِ الكردِيِّ بتهدئَةِ نفوسِ الأكرادِ في المناطقِ الجنوبيَّةِ. وَإذا بخالد البغدادِيِّ يبشِّرُ بعقِيدةٍ قُبوريَّةٍ جديدةٍ تُقَرِّبُ مفهومَ الإلهِ إلى العقولِ البسيطةِ في شكلٍ من العبادةِ لذاتِ (شيخِ الطريقةِ) تتمثَّلُ في "صلاةِ الرابطةِ"، وهي ضربٌ من طقوسِ مجوسِ الهند، فلم يلبثْ أنْ أعطتْ ثِمَارَها فحوَّلتْ جماهيرَ الناسِ إلى قطعانٍ من دراويشَ خاملين فاقدي الوعي وجماعاتٍ من الكسالى، فقطعتْ شهوتَهم عن ملذَّاتِ الحياةِ في أمدٍ قصير. فارتاحتْ الدولةُ بعض الشيءِ، ففسحتْ المجالَ لخالد على سبيل المكافأة له والتشجيع في نشاطاته..

كان هذا أحدُ السببين؛ وأمَّا السببُ الثاني: فإنَّه يتمثَّلُ في شخصيَّةِ خالد البغدادِيِّ الذي امتازَ بكلِّ خصلةٍ سحريَّةٍ، بحيث لم يلتقِ بهِ أيُّ إنسانٍ إلاَّ واستولَى خالدٌ على كيانِهِ، ونفذَ إلى أعماقِ نفسِهِ، فتحوَّلَ إلى عبدٍ ذليلٍ بين يديهِ، ونسِيَ حصيلةَ ما سعَى ورائَهُ في كلِّ حياتِهِ من علومٍ وفنونٍ ومهارات...

من أبرزِ ما كانَ يتَّسِمُ بهِ خالدٌ، إذلالُ أيِّ إنسانٍ يقابلُهُ بإلقاءِ الهيبةِ عليه في الوهلةِ الأُولَى. لم يكنْ يتسامحُ مع مَنْ يخالفُهُ قيدَ نملةٍ، ولم يهادِنْ مَنْ شمَّ فيهِ خالِدٌ رائحةَ شكٍّ، أو منافسةٍ، أو كراهيةً يُضمِرُهَا له... سعَى في كلِّ حياتِهِ لإلقاءِ ظِلِّهِ على الناسِ وترسيخِ محبَّتِهِ في قلوبِهِم، مستعملاً في ذلك مهاراتِهِ التي نذر أيَّامَ شبابِهِ في سبيلِ إتقانِهَا، وروَّضَ نفسَهُ الحريصَةَ الحسَّاسَةَ على اكتسابِ فنونِهَا.

لا يخفى على الباحثِ المحترفِ إذا تأمَّلَ بدقةٍ وإمعانٍ فيما كتبَ خالدٌ بيمينِهِ مِنْ كلِّ كلمةٍ أفادَ بها عن حالاتِهِ النفسِيَّةِ والعاطفِيَّةِ: أنَّهُ كان منذُ أيَّامِ شبابِهِ يتطلَّعُ إلى آفاقٍ لم يحلُمْ بها إلاَّ عِظامُ الملوكِ، ولم يطمعْ فيها إلاَّ أصحابُ الهمم العاليةِ. وما من شكٍّ في أنَّ خالدًا كان ذا طموحاتٍ في الاشتهارِ والظهورِ والغلبةِ، وقد ثبتَ بالاستقراءِ أنه كان حريصًا كلَّ الحرصِ على الفوزِ بالرئاسَةِ والتفوُّقِ والاستيلاءِ على النفوسِ، والهيمنةِ على العقولِ، ومنافسةِ أصحابِ المناصِبِ من الحُكَّامِ والزعماءِ والعلماءِ.

تبدو هذه الحقيقةُ بوضوحٍ من كُلِّ لفظٍ نطقَ به خالدٌ أو كَتَبَهُ في حكاياتِهِ عن نفسِهِ، وفي خطاباتِهِ، وتنبيهاتِهِ، وتوجيهاتِهِ، وتهديداتِهِ... وإليكم نبذةً من شواهد هذه الحقيقةِ:

أجرى تعديلاً جذريًّا على تعاليمِ الطريقةِ النقشبندِيَّةِ فورَ عودتِهِ من الهند، وكساها ثوبًا جديدًا فحوَّلَهَا إلى دينٍ متكامل. ابتدعَ لِلطريقةِ النقشبنديَّةِ ركنًا جديدًا سمَّاهُ «الرابطةَ»، بعد أن لم تكنْ شيئًا معهودًا ولا مسموعًا في الطرائق الصوفيَّة. وهي لا شكَّ من الشركِ البواحِ والكفرِ الصراحِ ممَّا يدلُّ على فسادِ عقيدتِهِ، وسوءِ طويتِهِ، وخطورةِ نيتِهِ.[17]

كان خالدٌ مسخًا من ميرزا غلام أحمد القادياِنيّ الهندِيّ. حَذَى حَذْوَهُ وانتهجَ منهجَهُ لاصطيادِ الناسِ وإيقاعِهِمْ في حِبالِهِ، وتغريرِهِمْ بأباطيلِهِ. نسج خيوطَهُ وأعدَّ خُطَّتَهُ بدهائِهِ وصرامتِهِ وحِذْقِهِ في إِلْبَاسِ الحقِّ بالباطِلِ، ومهارتِهِ في المزجِ بين تعاليم البوذيَّةِ والإسلام. أوَّلُ ما بدأ به، أنَّه تَرَاءَى للناس في لباسِ الزهد والتقوى، وكثرةِ النوافلِ... تسلَّلَ إلى قلوبِ جماعةٍ من الملالِي والخواجوات المتطرّفين بما كان يمتاز به من سرعةِ البداهةِ، وقوَّةِ العارضةِ، والقدرةِ على الجدلِ... فألقَى هيبتَهُ على شرذمةٍ منهم إلى أن اجْتَذَبَهُمْ بأسلوبِهِ المزخرَفِ، وَغَسَلَ أَدْمِغَتَهُمْ ببريقِ خطاباتِهِ الزائفة، فعَارَضَهُ وهاجمهُ جمعٌ من العلماءِ، لكنَّهم لم يُفلِحوا في التغلُّبِ عليه، ولم ينجحوا في منعِهِ من التدمير للقيم السامية. لأنَّ البغداديَّ كان قد تمكَّنَ من السيطرةِ على نفسية جمهورٍ من الأُمراءِ الإنتهازيّين والشخصيات الهشَّة ذوي العقول المظلمة حتى انهمكوا في التعلُّقِ به، وغدوا مستعدِّين للافتداءِ في سبيله.

ذلك أن البغداديَّ كانَ حازقًا في فنونِ الاستيلاءِ على النفوسِ وإرغام الخصومِ على مجاراتِهِ والإنصياعِ له؛ ماهرًا في أخذ الحيطةِ قبل أيِّ مقابلةٍ يستحسُّ أن يسطدمَ في أثنائِها بمعارضةٍ؛ منقطعَ النظيرِ في الإقدامِ على منازلةِ مَنْ يقصِدُهُ بأدنى شيءٍ من العداوةِ، مع ذلك هادئًا، رابطَ الجأشِ عند المواجهةِ. استطاعَ دائمًا ان يُسَلِّطَ عظمتَهُ على قلبِ أي إنسانٍ لمسَ فيه أنَّهُ قد يأبى أن يستسلِمَ له.

[17] يهاجم البغدادِيُّ المعارضين لهذه الهرطقة، فيقول: إنّ بعض الغافلين عن أسرار حق اليقين يعدّون الرابطة بدعة في الطريق ويزعمون أنّها شيء ليس لها أصل ولا حقيقة. كلاّ! إنها أصل من أصول طريقتنا العليّة النقشبنديّة. بل هي أعظم أسباب الوصول بعد التمسّك التامّ بالكتاب العزيز وسنّة الرسول». جاءت هذه الكلمات في مستهلّ رسالةٍ بعثها إلى محمّد أسعد أفندي الإسطنبولي. فقد عبث البغداديُّ في هذه الرسالة بالمفاهيم، فجمع فيها بين كلماتٍ ومصطلحاتٍ شتّى؛ وآرءٍ متباينةٍ ومتناقضةٍ وهو يحاول أن يجعل بين طريقتِهِ وبين الإسلام صِلَةً. وذلك من أساليب الباطنية. لأنهم يتعرّضون في كلّ عصرٍ لهجماتٍ عنيفةٍ من علماء المسلمين، فإذا عجزوا عن مقاومتهم لجَأوا إلى مدِّ الجسور بين مذاهبهم وبين الإسلام ليبرّروا بها حجّتهم. (هذه الحاشية منقولةٌ من كتاب "الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها" للمؤلف).

فجنَّدَ طائفةً مِمَّن حَوْلَهُ من الْوَزَاوِزَةِ المقلّدين، فقاموا بإطرائِهِ وتفخِيمِ شأنِهِ، والدفاعِ عنه إذا عارضَهُ أحدٌ من ذوي العقولِ النيّرةِ والضمائرِ الحرَّةِ النقيَّةِ. فشمَّروا عن ساقِ الجدِّ وعكفوا على إعدادِ رسائلَ ومقالاتٍ للردِّ على العلماءِ الذين تفطنوا إلى خطورةِ ما اختلقه البغدادِيُّ من هرطقاتٍ هنديَّةٍ بدأت تُهَدِّدُ الإسلامَ. ثمَّ حرَّضَهُمْ خالدٌ على مقارعة أهل اليقظة الذين لم يسكتوا على دَجَلِيَّاتِهِ وأعمالِهِ التضليلية وبِدَعِه. فانبرى عددٌ من الملالي الطُّفَيْلِيّين[18] لهذه المهمة، يأتي على رأسهم: الإمَّعَةُ ابن عابدين (الفقيه!)، ومحمود شهاب الدين الآلوسي (علاَّمة العراق!)[19]، وعبيدُ الله الحيدري، ومحمد أمين (مفتي الحلة)، ويحيى المزوري، ومحمد أمين السويدِي، ومحمود الكيلاني، وأحمد الخطيب، ومحمد رفيع بن حسين، وعمر الآمدي، وصالح أبو فتح زاده وغيرهم...[20]

---

[18] وردت ترجمة عدد من هؤلاءِ الطفيليين في شبه كتابٍ مجهولٍ، ألَّفَهُ رجل يُدْعَى عبد الرزاق البيطار، يشتملُ على ركامٍ من الحشوِ والفضولِ والتلفيقِ والمبالغاتِ... لا يسمن ولا يغني من جوع. تنطَّعَ المؤلِّفُ في مدحِهم وإطرائِهم وخلعِ الصفات الجليلةِ عليهم، بينما لم يعتدَّ بهم عالَمُ المعرفةِ كما سيمحوهم الدهر من ذاكرة التاريخ وقد محاهم.

[19] إنَّ الآلوسِيَّ "الكبيرَ، محمود شهاب الدين أبو الثناء" المعروف بـ"علامة العراق"، على لسانِ بعضِ مَنْ تَرْجَمَ له، فهو رجلٌ غابتْ حقيقتُهُ على كثيرٍ مِنْ أهلِ العلمِ وأختلفتْ آراؤُهم حولَ شخصيتِهِ ومعتقداته؛ منهم من امتدحه وأطراه فوق ما يستحقه، ومنهم من لمس فيه نزعاتٍ متناقضةً حار في تقييمها كَبِلاَل عَلِي الْعَسَلِي، يقول فيه: «بالنسبةِ للإمامِ الالوسيّ صاحبِ كتاب "روح المعاني" فمن خلالِ اطِّلاعِي على الكم الاكبرِ من تفسيرِهِ المسطورِ في ثلاثين جزءً في ستة عشر مجلداً، (ط. دار الفكر)، خرجتُ بنتيجةٍ: أنَّ الرجلَ كان موسوعةً علميَّةً في كثيرٍ من مواضيعِ الدّينِ واللُّغةِ من فقهٍ وقراءاتٍ ونحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ ..، وقد كان عالماً باختلافِ المذاهبِ، مطَّلعاً على المِلَلِ والنِّحلِ، سلفيَّ الاعتقادِ، ولهذا نراه كثيرًا ما يُفَنِّد آراءَ المعتزلةِ والشيعةِ، وغيرِهم من أصحابِ المذاهبِ المخالفةِ لمذهبِهِ واعتقادِهِ، إلاَّ أنَّ هنَّاتِهِ تُلاحَظُ من خلالِ تناولِهِ لتفسيرِ الآياتِ تفسيرًا باطنيًّا عجيبًا، وهو ما يعرف بـ"التفسير الاشارِيّ"، وكذلك امتداحُهُ كثيرًا للمذهبِ الصوفِيّ وائمتِهِ. والله تعالى أعلم". (مقتبَسٌ مِنْ موقعِ ملتقى أهل الحديث). نعم، للآلوسي ميولٌ متناقضةٌ في التفكيرِ، ومواقفُ متعارضةٌ في التفسيرِ، يبدو بوضوحٍ أنَّهُ مريضُ الغرائزِ؛ مضطربُ الفكرِ؛ خُرَافِيُّ المعتقد... يظهر سلفيًّا خالصًا حين يُفَنِّد عقائدَ بعضِ الْفِرَقِ الضالَّةِ، ولكنّه يعودُ صوفيًا مُعْجبًا برأس الضلالِ (خالدِ البغدادِيِّ النَّقْشَبَنْدِيِّ) حين يُرَثِّيه بقوله: "إذ حظيتُ بقصيدةٍ كالقمرِ ليلةَ تمامِهِ، وكالزهرِ المخبُوِّ في أكمامِهِ، قد حوتْ دقائقَ التصوُّفِ والعلومِ، وجمعتْ من الفصاحةِ والبلاغةِ ما فاقتْ بِهِ على قصائدِ امرئِ القيسِ وعمرِو بن كلثوم، أنشأها أديبُ عصرِهِ، وأريب مصره، الفاضلُ الذي له في الأدبِ زَنْدٌ وَرِيٌّ، ومن مورد العذبِ شُربٌ وَرَيٌّ، السيد النجيب، والحبيب النسيب، نسل السادة الأمجاد، السيد محمد الشهير بالجواد، كان الله تعالى لنا وله، وأصلح لكلٍّ مِنَّا عملَهُ، راثِيًا بها حضرة قطبِ دائرة الإرشادِ، ودليل السيرِ والسلوك إلى ملك الملوك ربِّ العباد، العالِمِ الذي عملَ بما علم فجمع إلى العلم زهدًا، وزاد على الزُّبُدِ شَهْدًا.

فلي منه أستاذٌ ولي منه مرشدٌ * ولي منه قطبٌ ذو اتِّصالٍ ولي ولي.

فهو الجائزُ للحكمتين العلميَّةِ والعمليَّةِ، والفائزُ بالرياستين الظاهريَّةِ والباطنيَّةِ، فلا ترى مكرمة إلاَّ ومصيرها إليه، ولا منقبة إلاَّ ورواقها ممدود وهي مقصورة عليه..»

تمتدُّ مدائح الآلوسِيّ لِخالدٍ البغدادِيّ على هذا النمط من التعظيم والإجلالِ، ويتفجَّعُ الآلوسِيُّ على موته ويتألم، بينما ظهرَ بعد البحوث والدراسات المُعَمَّقَةِ حول حياةِ البغدادِيِّ ومغامراتِهِ ورحلته إلى الديار الهندية، وصراعه مع عبد الوهاب السوسي، وتَمَلُّقِهِ إلى السلطانِ العثماني، وهجماته على الوهابيين... ظهر أنه كان من أهم رموز الحكومة الإنجليزية على غرار أحمد القادياني. أراد تشويه الإسلام ببثِّ عقائد البوذية في ربوع الأمة عند أوسوء ظروف المسلمين أيام إنهيار الدولة العثمانية. جميع مكاتيبه والوثائق التي جاء ضمن عديد من الكتب شاهدة على هذه الحقيقة، منها كتاب"الحديقة الوردية، لمؤلفه عبد المجيد بن محمد الخاني"، وكِتَابَا "بُغْية الواجد" و"نور الهداية والعرفان" لمؤلِّفهما أسعد الصاحب.

[20] قصة هذا العِراكِ وردتْ في عدَّةِ مصادرَ للنقشبنديّين، منها: (بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد)، من تأليف: محمّد أسعد الصاحب؛ و(الحدائق الوردية في حقائق اجلاء النقشبندية) من تأليف: عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانِيّ. لقد نقل الرجلُ في ثنايا كتابه أفْظَعَ ما يمكن أنْ يتصوَّرَه الإنسانُ من أساطيرَ اختلقها النقشبنديُّون عَبْرَ تاريخهم..

وقعَ الأكرادُ في حبالِ هذه الطائفةِ الضالَّةِ فنزحوا عن ساحة الإسلامِ إلى ظلماتِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ منذ **1811**م. ولا يزالون يعانون من تبعاتِها، حيثُ أنَّ هذه الطريقةَ تحوَّلَتْ إلى آليةٍ خطيرةٍ في العهد الجمهوريِّ بِيَدِ الدولةِ العميقةِ تستخدِمُها منذ خمسين عامًا في توجيهِ أكرادِ تركيا خاصةً، لأجلِ صهرِهم في بوتقة الوثنيَّةِ الأتاتوركيَّةِ، والقضاءِ على لغتِهم، وصدِّهم عن سبيل الله؛ ولا تبرحُ هذه الشبكةُ مستغلَّةً شخصيَّةَ خالدِ البغدادِيِّ في ترويضِ الأكرادِ مِمَّا يُحَتِّمُ الكشفَ عن هذه الشخصيةِ بالقدر الميسَّر.

تبدو أصلاً طبيعةُ خالدِ البغداديِّ ومستواه الأخلاقِيِّ من خلالِ تهديداتِهِ التي وجَّهَهَا إلى بعضِ خُلَفَائِهِ. يقولُ في رسالةٍ له بعث بها إلى أحد مريدِيهِ في إسطنبول، وهو يحذِّرُ من مخالطةِ رجلٍ اسْمُهُ (عبد الوهَّابِ السوسي) الذي كان ينافسُهُ على الزعامة. يقول البغداديُّ "فالآن أُخبِرُكم بأنِّي وجميعَ رجالِ السلسلةِ تَبَرَّأْنَا من عبدِ الوهَّاب. فهو مطرودٌ عن الطريقةِ. فكلُّ مَنْ تصادق معه لأجلِ الطريقةِ فَلْيَتْرُكْ مُصَادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلاَّ فهو برِئٌ من إمدادِ هذا الفقيرِ، وإمدادِ الساداتِ الكرام. ولا أَرْضَى أن يُكاتِبَنِي؛ ولا أنْ يستمِدَّ هِمَّتِي بعدَ وصولِ هذا المكتوب إليه. وأنتَ مأمورٌ بإيصالِهِ إلى كلِّ مُخلصٍ. فمن كان مريدَ الطريقةِ فليُظْهِرِ الْبَرَاءَةَ منه، ومن كان مريدَ نفسِهِ فلا يلومنَّ إلاَّ نفسَهُ إذا هلك مع الهالكين"[21]

يفتضح البغدادِيُّ حين يرمزُ إلى "مكانتِهِ الرفيعة عند الله؛ بذكرِهِ أنَّه يملكُ قدرةَ (الإمدادِ) و(الهِمَّةِ) لمريدِيهِ" في كلماتِهِ الآنفةِ الذِّكرِ؛ وهما مصطلحان من مصطلحات الصوفية! (وكلماتُهُ تُكِنُّ حيلةً، وَهي فِرْيَةٌ على الله كما ستتَّضِحُ لمن يجهلُ أساليبَ المكرِ والخديعةِ في الطريقةِ النقشبنديَّةِ)؛ ثم يعودُ يتظاهرُ بمنتهى درجات التواضُعِ في آخر كلماتِهِ التي تبدأ بِقولِهِ: "فالآن أخبركم بأنِّي وجميعَ رجالِ السلسلةِ تَبَرَّأْنَا من عبدِ الوهَّاب. فهو مطرودٌ عن الطريقةِ. فكلُّ مَنْ تصادق معه لأجل الطريقة فَلْيَتْرُكْ مُصَادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلاَّ فهو برِئٌ من إمدادِ هذا الفقيرِ، وإمدادِ الساداتِ الكرام".

يتنطعُ البغدادِيُّ بعدَّةِ أكاذِيبَ عَبْرَ هذه الكلمات، وهي:

[21] عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ **232**.

يدَّعِي أنَّهُ وجميعَ ساداتِهِ (وهم عشراتٌ من الزنادِقَةِ المشعوذين من أمثالِهِ الذين ماتوا قبله بقرورن!)، "قد تَبَرَّءُوا مِنْ عبدِ الوهَّابِ السوسِيّ". وهذا يعني: أنَّ البغداديَّ "اتّصلَ بساداتِهِ وهم في قبورِهم. (يقصِدُ "رجالَ السلسلةِ" كما يزعمُ)، وأنَّه حصلَ على مُوَافَقَتِهِمْ: بِأَنَّ السوسِيَّ مطرودٌ مِنْ طريقتِهِ، وأنَّه مع ساداتِهِ المقبورين جميعًا غاضبون عليه". ذلك أنَّ "من كانَ مغضوبًا عليه في الطريقةِ النقشبنديَّةِ، فهو أيضًا مطرودٌ من بابِ الله وبابِ رسولِهِ؛ ومغضوبٌ عليه عند الله!". هذا هو معنى الطردِ عند النقشبنديَّةِ! ومن كان قد غضِبَ عليه البغدادِيُّ وساداتُهُ المقبورون، فإنَّهُ يُحْرَمُ من إمدادِهم وهِمَّتِهِمْ عندما يحضُرُهُ الموتُ، فلا يستطيعُ النطقَ بكلمةِ التوحيدِ أو بالشهادتين، فيموت كافرًا (على حدِّ زعمهم)! وأمَّا الإمدادُ وَالْهِمَّةُ عند النقشبنديّين: فله معنًى خاصٌّ. وهو: أنَّ شيخَ الطريقةِ له سُلْطَةٌ واسعةٌ وقدرةٌ عظيمةٌ مَنَحَهُ الله إيَّاهُمَا، يتصرَّفُ بهما في مُلْكِهِ (تعالى الله عن هذه الفرية علوًّا كبيرًا!)، يتجلَّى الشيخُ باستخدامِ هذه السلطةِ والقدرةِ فيُساعِدُ مريدِيهِ، ويُنْقِذُهُمْ من الآفاتِ والمهالِكِ، ويمنعُ عنهم المصائِبَ، وينصرُهُمْ على أعدائِهم كلَّمَا تضرَّعوا إليه وطلبو المددَ والهمَّةَ منه، ولو حال بينهم وبين شيخهم مسافاتٌ شاسعةٌ!"؛ كما يُسعِفُهُم في حالِ السكراتِ، يُبعِدُ عنهم الشيطانَ ويُمَكِّنُهُم من النطقِ بالشهادتين قبل أنْ يلفظوا أنفاسَهم الأخيرةَ... وبذلك يُنقِذُهُم من "سوءِ الخاتِمَةِ!"، فيدخلون الجنَّةَ بمساعدةِ الشيخِ الْمُرَخَّصِ من عند الله! هذا هو معنى الإمدادِ والهمَّةِ عند النقشبنديَّةِ.

إنَّ معظَمَ الأكرادِ يعتقدونَ بهذا الرجلِ الْمُشَعْوِذِ وخُلفائه الذين استغلَّهم بمثل هذه الأكاذيبِ، ولاَ يزالون منذ قرنين تقريبًا يَبُثُّونَ أباطيلَهم في المنطقةِ الكرديَّةِ بأشكالٍ غريبةٍ من الحِيَلِ، يُسَيْطِرُونَ على ضمائرِ الأكرادِ وعواطِفِهم، ويستخدمونهم في تحقيقِ أغراضِهم ومصالِحِهِمْ، ويُسخِّرونهم في مختلف أعمالِهِمْ وأشغالِهِمْ.

تهافتَ الأكرادُ حولَ هذه الشبَكَةِ الخطيرةِ منذُ وصولِ البغداديِّ من الهند عام **1811**م. فالتفُّوا حولَ دُعاتِهِ من شيوخِ النقشبنديَّةِ وغدوا رهنَ إشاراتِهِم، وافتدوا لهم بأموالهم وأنفسِهم، وخدموهم بالطاعةِ العمياء مقابِلَ سعادةٍ خياليَّةٍ "بِبَرَكَةِ هؤلاءِ الشيوخِ وإمدادِهم وهِمَّتِهِم" المزعومةِ، ووعودِهم التي ما أنزل الله بها من سلطان.

طار صيتُ خالد البغدادِيّ واتَّسع نفوذُهُ بسرعةِ البرقِ في المنطقة الكرديةِ وكثُرَ أنصارُهُ رغمَ ردود العلماءِ عليه، وكاد تطغَىَ شهرتُهُ على شهرةِ حاكم زمانِهِ السلطان محمودِ الثاني. فتهيَّبَ معارضَتَهُ

وحَسَبَ له حسابَهُ، فرآى أنْ يستغلَّهُ في تحقيقِ أهدافِهِ بدلَ أن يحاولَ تصفِيَتَهُ نظرًا للحشودِ الملتفَّةِ حولَهُ. وكانت الدولةُ يومئذٍ تعاني من فِتَنٍ وثوراتٍ في مختلفِ أنحاءِ المملكةِ على رأسِها ثورةُ الوهَّابِيِّينَ في الجزيرةِ العربيَّةِ. ولَمَّا كان خالدُ البغدادِيُّ خاصَّةً والصوفيةُ عامَّةً يكرهونَ الوهَّابِيِّين، تودَّدتِ الحكومةُ العثمانيةُ إلى البغدادِيّ وشجَّعتْهُ لمهاجمة الوهَّابِيِّين. فوجد البغدادِيُّ بهذه الوسيلةِ فُرْصَةً سانِحَةً لنشرِ تعاليمِهِ الهندوسِيَّةِ بين الأكرادِ، فانتشرتِ الطريقةُ النقشبنديَّةُ في المنطقةِ الكرديَّةِ انتشارَ النارِ في الهشيم. فلم تَخْلُ قريةٌ من قُرى المنطقة (فضلاً عن الْمُدُنِ) إلاَّ وفيها داعيةٌ يقوم بمهمَّةِ التبشير على غرار المبشرين النصارى، يدعو الناسَ للانخراطِ في سلك النقشبنديَّةِ. فاعتنقَها عامَّةُ الأكرادِ في فترةٍ قصيرةٍ. ولم يَنْجُ من هذه العاصفةِ إلاَّ عددًا قليلاً عاشوا غُرَبَاءَ مُضْطَهِدِين في وَطَنِهم، أو آثروا الهجرةَ إلى منطقةٍ أخرى طلبًا للحرِّيَّةِ.

إنَّ شيوخَ الطريقةِ النقشبنديَّةِ (الذين عاشوا قبل قرون في المناطقِ الهنديَّةِ وبلادِ ما وراءِ النهرِ) لم يكنْ لهم شأنٌ يُعْتَدُّ بِهِ. وإنَّما كانوا شرذمةً من الدراويشِ والبُسَطَاءِ المتسوِّلينَ، يطوفون بين القبائلِ وعليهم ثيابٌ رثَّةٌ رديئَةٌ يتصدَّقُ عليهم الناسُ. منهم من كان يشتغلُ بصناعةِ الْخَزَفِ، ومنهم مَنْ كان بقَّالاً، وبعضُهُم كانوا يسكنونَ الأماكن الخالِيَةَ والبيوتَ المهجورةَ، يبيتون في المقابِرِ والْخَرِبَةِ الموحشاتِ. ولم يكن لهم نصيبٌ من العلمِ والمعرفةِ، كما لم يكن لأحدهم شهرةٌ. كانتْ هذه حالةُ شيوخِ النقشبنديَّةِ قبلَ خالدِ البغدادِيّ.

لذا يشكو أديبُهُمْ عبدُ المجيدُ بْنُ محمدٍ الخانِيُّ الذي شمَّرَ عن ساعد الجدِّ ليجمعَ تراجُمَهم، يشكو مِنْ مشكلةِ العثورِ على أسمائِهِمْ بين تراجُمِ علماءِ الإسلامِ. ولا شكَّ في أنَّ علماءَ الإسلامِ كانوا شخصِيَّاتٍ بارزَةً بِعلومِهم واتِّزَانِهِمْ وأخلاقِهِم وأَدَبِهِمْ وسُلُوكِهِمْ الرفيعِ، قد ملؤوا الآفاقَ بمعارِفِهم ومُؤَلَّفاتِهِم وشُهْرَتِهِمْ التي استحقُّوها... أمَّا شيوخُ النقشبنديَّةِ، فلم يكن يحفلُ بهم إلاَّ قِطعانٌ من الجهلةِ الأوغادِ والدراويش. لذا، كانوا يحسدونَ العلماءَ ويبغُضُونهم، ويُطلِقونَ عليهم صِفَةَ "عُلماءِ الرسومِ" استحقارًا.

فلمَّا ظهر البغدادِيُّ وأصبحَ رمزًا بين أفرادِ هذه الطائِفةِ، وكانَ قد درسَ اللغةَ العربيَّةَ والعلومَ الإسلاميَّةَ انقلبَ الأمرُ والتبس شيخُ الصوفيَّةِ على الناسِ بالعالِمِ خاصَّةً بعدَ مناوراتِ البغدادِيّ وأَلاَعِيبِهِ في تسحيرِ العيونِ وتسخير العقولِ، وبِانْتِحَالِهِ صفةَ العالِمِ والصوفِيِّ معًا، بينما ذلك مستحيل! فبدأ باستغلالِ الضمائرِ وغسلِ الأدمغةِ وإنشاءِ جيلٍ من الشيوخِ اجتاحوا المنطقةَ

الكردِيَّةَ ثم انتشروا بين الأتراك يتبعونَ أثرَهُ في الاستغلالِ والاستخدامِ والتسخيرِ حتَّى ضاعت صفةُ العلمِ في هذه المنطقة وأصبح في خبر كان.

يتعاقبُ شيوخُ النقشبنديَّةِ في تركيا جيلاً بعدَ جيلٍ بإذنٍ خاصٍّ يربِطُ بَعْضَهم ببعضٍ صعودًا إلى خالد البغداديّ. لذا، جاءَ شيوخُ النقشبنديَّةِ كُلُّهُمْ على شاكلتِهِ في التَّسَلُّطِ على العواطِفِ واستغلالِ الضمائرِ للحصولِ على المصالِحِ وبثِّ الشهرةِ وتوسيعِ نطاقِ الهيمنةِ بأساليبَ غريبةٍ من المكرِ والحِيلة. بذلك ازدادوا حِرْصًا وطمعًا، فأدَّى إلى نشوبِ المنافسةِ والنِّزاعِ بينهم، حتَّى رمى بعضُهُم بعضًا بالخروجِ على تعاليم الطريقةِ، وفَسَّقَ، بل كَفَّرَ بعضُهُم بعضًا، وتطوَّرَ النِّزاعُ بين عائلاتِ الشيوخِ واحتدمَ الصراعُ بينهم في الهيمنَةِ على المنطقةِ. هذا، ومن أشهر الحروبِ التي اندلعتْ بين شيوخِ النقشبنديَّةِ، هي تلك التي نشبتْ بين (التَّاغِيِّينَ) وَ(الْكُفْرَوِيِّينَ) نتيجةَ الصراعِ بين الأُسْرَتَيْنِ على ميراثِ الشيخ عبيدِ اللهِ النَّهْرِيّ في الزعامةِ على منطقةِ ما بين بِتْلِيسَ وَمُوشَ وآغري بِشَرْقِ تركيا.

حَدَثَ تفاوتٌ كبيرٌ بين شيوخِ النقشبنديَّةِ في الشُّهرةِ والسُّمعةِ، منهم مَنْ طارَ صِيتُهُ فتهافَتَ عليه عشراتُ آلافٍ من الناسِ ليسَ لغزارةِ علمِهِ، ولا لفصاحةِ لسَانِهِ ولا لبلاغةِ كلامِهِ، ولا لِزُهدِهِ وتقواهُ[22]... لأنَّ الشهرةَ والسمعةَ بالنسبة لِشيوخِ النقشبنديَّةِ لا يتوقَّفُ على هذه الأسبابِ، بل على عكسِ ذلك: مَنْ كان على هذه الصفاتِ لا ينالُ قبولاً عند الناسِ أبدًا. ولا يُقِرُّ شيخٌ من شيوخِ النقشبنديَّةِ لِشخصٍ يحلُّ مَحِلَّهُ بعد موتِهِ إلاَّ إذا تَحَقَّقَ مِنْ أنَّهُ قد أَتْقَنَ فنَّ التحامقِ والتعامي بالصمتِ والإِطْرَاقِ؛ وَبَرَعَ في حيلةِ التظاهُرَ بِالوقارِ والهيبةِ والسكينة!

وإنَّما فاقَ بعضُهم أقرانَه في كسبِ الشهرةِ والسُّمعةِ لِكَوْنِهِ أنجحَ في ممارسةِ هذه الحِيَلِ، بينما ظلَّتْ شهرةُ بعضِهِم محدودَةً في نطاقِ عِدَّةِ قُرًى لِكَوْنِهِ أقلَّ نجاحًا فيها. فأثارَ هذا الاختِلافُ الحسدَ والضغينَةَ في نفوسِهِمْ، وجعلَ بعضَهم يتطاوَلُ على الآخرِ بحِجَجٍ يختلِقُها من تلقاءِ نفسِهِ ويُصدِرُ فتاوَى ضِدَّهُ بِأنَّهُ فاسِقٌ، ويُعَدِّدُ مَثَالِبَهُ؛ يُبَدِّعُهُ ويضلِّلُهُ ويُشَنِّعُهُ... هكذا كانت الحروبُ الكلاميَّةُ والْمُلاَعَنَةُ سجالاً بين شيوخِ النقشبنديَّةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ منذ عهدِ خالدِ البغدادِيّ إلى اليوم.

---

[22] إنَّ مفهومَي الزُّهدِ والتقوى مُحَرَّفَانِ عند الصوفيةِ أصلاً، فالزهدُ عندهم هو التقشُّفُ والفقرُ والمسكنةُ. يتناقلون فيما بينهم حديثًا مكذوبًا على الرسول (ص). وهو قولهم: "الْفَقْرُ فَخْرِي وَبِهِ أَفْتَخِرُ"، وقد ورد النكيرُ من العلماءِ على هذا الكلامِ الباطلِ، منهم ابنُ تيمةَ الحرانِيُّ رحمه الله تعالى. قال: "وَأَمَّا قَوْلُهُ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ وَهُوَ قَوْلُهُ: {الْفَقْرُ فَخْرِي وَبِهِ أَفْتَخِرُ} فَهُوَ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعْنَاهُ بَاطِلٌ." (مجموع الفتاوى: **11/ 117**).

لقد كان الشيخ حامد الماردينيُّ يصِفُ الشيخَ خالِدًا الزيلانِيَّ بالدجَلِ. وكان الشيخ محمَّدِ الكفروِيُّ يدَّعِي أنَّ الشيخَ صبغَةَ اللهِ الحيزانِيَّ دعِيٌّ مطرودٌ من الطريقةِ، وأنَّه ضالٌّ غاوٍ، وأنَّ جميعَ مريدِيهِ في ضلالٍ هَلَكُوا معه... هذه الخصوماتُ كانت في القرنِ المنصرِمِ. إلاَّ أنَّ نزاعَ شيوخِ النقشبنديَّةِ اليومَ لا يختلِفُ عن نزاعِهِم بالأمسِ. وعلى سبيل المثال؛ فإنَّ أتباعَ الشيخ قدري الجَزَرِي يصفونَ الشيخ سعيدًا سَيْدَا الجزرِيَّ أيضًا بالدجلِ. كذلك شيوخُ منطقةِ الجَزْنَةِ (ذوي الأصول العربية)، حلُّوا رِبقَةَ عهدِ التاغِيّين (الأكرادِ) من أعناقِهِم وتبرَّؤوا منهم بأنَّهم مستغلُّونَ انتهازيُّونَ يحتقرون مَنْ ليسَ من عرقِهِم، لا يهتمُّون إلاَّ بتوسِيعِ نطاقِ شُهرتِهِم – للسيطرةِ على نفوسِ الأكرادِ – والإكثارِ من المريدين والأنصارِ في أوساطِهِم. وقد فقد الشيوخُ مِنْ ذوي الأصولِ العربيَّةِ مركزَهم وشُهرتَهم في السنين الأخيرةِ كنتيجةٍ لانتشارِ العصبيَّةِ الكرديَّةِ في المنطقة. وهذه العائلات أغلبهم من أهالي مدينَتَيْ مَارْدِينَ وَأَسْعِرْدَ (مثل الأسرةِ الحامديَّةِ، وأسرةِ الشيخ محمد الحزين الهاشِمِيّ). بينما اختلف الأمرُ بالنسبة للعائلاتِ ذواتِ الأصول الكرديَّةِ من الشيوخ، فإنَّها تتمتَّعُ بشهرةٍ واسعةٍ وأُبَّهَةٍ وعظمةٍ على غرارِ الملوكِ رغم انسحابِ شبابهم وراءَ النَّزعةِ الفاشيَّةِ وَالْتِحَاقِ كثيرٍ منهم بالعصابَةِ الإرهابيةِ المعروفةِ بـ"حزبِ الْعُمَّالِ الْكُرْدِسْتَانِيِّ PKK"

إنَّ النّزَاعَ القائِمَ بين شيوخِ النقشبنديَّةِ وصراعَهم على الزعامة، لا شكَّ قد تَعَدَّى إلى مريديهم وأنصارِهِم؛ فلا يخلو أحدٌ منهم إلاَّ والطائفةُ التابعةُ له ينافسُ بقيَّةَ الجماعاتِ بِبَثِّ دعاياتٍ لشيخِهِ بأنَّه أعظمُ خلقِ اللهِ قاطبَةً، وأنَّهُ القطبُ الفردُ، والغوثُ الأعظمُ، وأنَّهُ لو جازَ أنْ يبعثَ اللهُ نبيًّا بعد محمّدٍ لكانَ هو أجدرَ وأحقَّ بهذه الصفةِ!

إنَّ شيوخَ النقشبنديَّةِ يحتقرون الأكرادَ في الوقت الذي يستغلُّونَهم ويُسخِّرونهم في أعمالِهم وأشغالِهم. وهذا يعني أنَّ الشيوخَ يتهاونون بكرامةِ الأكرادِ ويَتَعَمَّدُونَ إزلالَ رِقابِهم، كما يُسخِّرونَهم في الوقتِ ذاتِهِ لتحقيقِ أغراضِهِم؛ على سبيل المثالِ: يُكَلِّفُ الشيخُ جماعةً من مريدِيهِ (الأكرادِ) لِتُرَافِقَهُ في أثناءِ رحلتِهِ إذا أرادَ أنْ يزورَ منطَقَةً أو قريةً لغرضٍ مَّا. إذْ لا يسافرُ منفرِدًا أبدًا، "لأنَّ ذلك يُخفِّفُ من شأنِهِ في نظرِ الناسِ ويقلِّلُ من هيبتِهِ في قلوبِهِم". يريدُ بذلك أنْ يستعرِضَ نفوذَهُ، ولكي يُظهِرَ لأهلِ تلك المنطقةِ أو القريةِ التي يقصِدُها: أنَّه رجلٌ وجيهٌ في قومِهِ، وأنَّه شخصِيَّةٌ ذو مكانةٍ يوقِّرُهُ جمهورُ الناسِ وهو محفوفٌ بهم أينما توجَّه. وإذا أرادَ أنْ يُوَسِّعَ دارَهُ مثلاً، كما لو أرادَ أن يُضِيفَ إليها قاعةً أو مرافِقَ (بذريعةِ الإزدِيادِ الحاصلِ في عددِ ضيوفِهِ وتكاثُرِ زائرِيه). تُغنيهِ إشارةٌ منه بذلك

لأحدِ المقرَّبين إليه مؤنةَ أمرٍ يُصدِرُهُ جهارًا. فيقومُ هذا الشخصُ بإثارةِ عاطفةِ الجماعةِ بدهاءٍ ولباقةٍ ويحثُّهم على التعاونِ لتحقيقِ المطلوبِ وكأنَّه هو الذي اقترحِ عليهم الخدمةَ من تلقاءِ نفسِهِ حفاظًا على وقارِ الشيخِ ومكانَتِهِ عندهم. فلا يلبث طويلاً حتَّى يُنَفَّذُ الأمرُ ويتحقَّق الإنجازُ على أكمل وجهٍ؛ "لأنَّ الإنصياعَ والخدمةَ والإفتداءَ في سبيل رِضَى الشيخ فرضُ عينٍ على المريد، وفي ذلك سعادتُهُ؛ وأمَّا مخالفتُهُ لشيخِهِ فموجبٌ للشقاءِ والعذابِ وسوءِ الخاتمة والخسرانِ في الدنيا والآخرة!".

يقول أحدُ صناديد النقشبنديَّةِ محمد أمين الكرديُّ الأربلِيُّ في كتابِهِ (تنوير القلوب) في فصلِ آدابِ المريدِ مع شيخِهِ: "أنْ يُوَقِّرَ المريدُ شيخَهُ، وَيُعَظِّمَهُ ظاهرًا وباطنًا معتقِدًا أنَّه لا يحصلُ مقصودُهُ إلاَّ على يدِهِ. وإذا تشتَّتَ نظرُهُ إلى شيخٍ آخر، حرَّمَهُ من شيخِهِ، وانْسَدَّ عليه الفيضُ. ومنها: أنْ يكون مُسْتَسْلِمًا مُنْقَادًا رَاضِيًا بتصرُّفاتِ الشيخِ، يخدمُهُ بالمالِ والبدنِ. لأنَّ جوهرَ الإرادةِ والمحبَّةِ لا يَتَبَيَّنُ إلا بهذا الطريق. ووزنُ الصدقِ والإخلاصِ لا يُعْلَمُ إلا بهذا الميزانِ. ومنها: أنْ لا يعترِضَ عليه فيما فَعَلَهُ، ولو كان ظاهرُهُ حرامًا. ولا يقول: لِمَ فعلتَ كذا؟ لأنَّ مَنْ قال لشيخِهِ: لِمَ؟ لا يُفْلِحُ أبدًا"[23]

لا شكَّ في أنَّ هذه العقلِيَّةَ والعقيدةَ هي من أهمِّ الأسبابِ التي فرَّقَتْ جموعَ الأكرادِ وجعلَتْ توحيدَ صفوفِهِم من المستحيل إلى اليوم. كما جعلتْهُم فريسةً لأطماعِ السياسِيّين الذين يَتَّجِرُونَ بالدِّين ويلعبون بعقول الناسِ ويراهنون على أصواتِهم خاصَّةً في مواسم الإنتخاباتِ فيؤدِّي ذلكَ إلى تَرَدِّي الأوضاعِ وخيبةِ الآمالِ في المنطقةِ الكردية.

إنَّ معظمَ الأزماتِ السياسيَّةِ والإجتماعيَّةِ التي يُعَانِي منها المجتمعُ الكردِيُّ، ناشئةٌ أصلاً من استغلالِ زعمائِهم الروحيّين للعواطفِ بدعوى ترغيبهم للخير. ذلك لَمَّا عَلِمَ شيوخُ النقشبنديَّةِ وُلُوعَ الأكرادِ بصاحب العمامة البيضاءِ واللِّحيَةِ الطويلةِ تفنَّنوا في الاستعراضِ بهذا المظهر بصورٍ خلاَّبةٍ ولقَّنوهم أشكالاً غريبةً من العباداتِ جُلُّها مأخوذةٌ من الدياناتِ الهنديَّةِ مثلِ رابطةِ الشيخِ، وحبس النَّفَسِ، وإِلْصَاقِ اللِّسَانِ بِالْحَنَكِ الأَعْلَى في أثناءِ تَعْدَادِ "الورِدِ" إلى غير ذلك من المناسك والطقوسِ الهندوسِيَّةِ.

لقد كانتْ لِمُزَاحَمَةِ الشيوخِ على استلابِ العواطِفِ أثرٌ خطيرٌ في تشتيتِ الأكرادِ. لأن كلَّ قبيلةٍ منهم تعصَّبتْ لشيخها، وناصبتِ القبائلَ الأخرَى عداءً بتفضيلِ شيخِهَا على شيوخِهِمْ، فتحوَّلتْ

[23] محمّد أمين الكرديّ الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، ص/ **528**. طبعة مصر/**1384** هـ.. طبعة مصر/**1384** هـ.

إلى منافسةٍ ومخاصمة ومعاداةٍ بين العشائر، كما تطوَّرَ منها التقليدُ والتعصُّبُ الدينيُّ والمذهبِيُّ والقبلِيُّ... وكلَّما ازدادوا إنْهماكًا في غمرةِ التَّيَّارِ النقشبنديّ ازدادوا تزمُّتًا وخنوعًا للشيوخِ وانساقوا وراءَهُمْ إلى كل مُعْتَرَكٍ، واغترُّوا وافتتنوا بهم، فعظَّموهم تعظيمَ الآلهةِ، وأكسبوهم ثرواتٍ وأموالاً طائلةً وشهرةً واسعةً لم يستحقُّوها، وعلى أيديهم وقعوا في قبضَةِ الأحزابِ السياسيَّةِ والمنظماتِ الإرهابيَّةِ. فكلَّما اشتهرَ بينهم شيخٌ، جَمَعَ حولَهُ جمهورًا منهم فركبَ رقابَهم وراهن عليهم في مقارعةِ النظامِ وتهديدِ الحكومةِ زعمًا منه أنَّهُ يريدُ تحريرَ الأكرادِ.

كان أوَّلُ مَنْ تخوَّفتْ منه الحكومةُ العثمانيَّةُ هو خالدُ البغدادِيُّ الذي نالَ شهرةً واسعةً غيرَ مسبوقةٍ بفضلِ الجماهيرِ الملتفَّةِ حولَهُ من الأكراد. بينما "كان الأكرادُ – في نظرِهِ – لصوصًا وقُطَّاعَ الطرُقِ. وإنَّما اهتدَى منهم من اهدى بدعوتِهِ، وكفَّ منهم مَنْ كَفَّ عن النهبِ والسلبِ بعدَ أنْ تابَ على يدِهِ وتديَّنَ وانتسبَ إلى طريقتِهِ!"[24]

حظِيَ من الشهرةِ أيضًا عددٌ من خلفاءِ البغدادِيّ بعده، فكان من بينِهم الشيخ طه النَّهْرِيُّ الهكَّارِيُّ أكثرَ نصيبًا من الجاهِ والنفوذِ؛ لأنَّ مقرَّهُ كان في وسطِ المنطقةِ الكُرديَّةِ، يحيطُ بِهِ أقوى وأشهرُ العشائرِ ثروةً ومالاً، وأكثرُهُمْ نفوسًا، كما ساعده موقِعُهُ الإستراتيجِيُّ الْمُطِلُّ على الحدودِ التُّرْكِيَّةِ–الإيرانيَّةِ، ولِبُعدِهِ من عَاصِمَتَيْهِمَا، فكان يتصرَّفُ دونَ همٍّ ولاَ ينتابُهُ قلقٌ.

والعائلةُ النهريةُ؛ كانت لها مكانةٌ مرموقةٌ لأسْبَقِيَّتِها في زعامة النقشبنديّين بمنطقةِ شمال العراقِ وما يليها من الساحةِ الكرديَّةِ في شرقِي تركيا. اشتهرَ كبيرُ هذهِ العائلةِ الشيخ طه النهريُّ بعد اتصالِهِ بخالدِ البغدادِيّ وحصولِهِ على إذنٍ للنيابَةِ عنه في بلادِهِ. وما لبثَّ حتَّى طار صيتُهُ في أنحاءِ المنطقة الكرديَّةِ لأسبابٍ أهَمُّها أنَّهُ كان من أكبرِ الأثرياءِ، يملكُ من الأراضِي الخصبةِ ما يُقَدَّر بآلافِ أميالٍ مربعةٍ، وعديدٍ من القُرَى. نَصَبَهُ خالدٌ البغدادِيُّ خليفةً عن نفسِهِ ليقومَ بدعوةِ الناسِ إلى الطريقة النقشبنديَّةِ في بلادِهِ.

فلمَّا ماتَ الشيخ طه، حلَّ محلَّهُ ابنُهُ الشيخ عبيدُ الله، ولم يلبثْ الرجلُ طويلاً حتَّى فاقَ أباهُ وجميعَ شيوخِ المنطقةِ شهرةً وجاهًا. كانَ عبيد الله النهريُّ داهِيَةً، ذكِيًّا، لبيقًا، متلوّنًا، حاذقًا في تسلِيطِ هيبتِهِ على قلوبِ الناسِ. كلَّفَ عُصبَةً من بطانتِهِ في بثِّ الدعايةِ له، يقومونَ بحياكةِ قصصٍ من العجائبِ

---

[24] راجع: عباس العزاوي، مولانا خالد النقشبندي، مجلة المجمع العلمي الكردي. بغداد–**1973**م.

والخوارِقِ والأساطيرِ، ينسبونَها إليه، ويعدُّونَها من كراماتِهِ؛ فلم يلبثْ حتى اعتقدَ مئاتُ آلافٍ من بُسَطَاءِ الأكرادِ بهذهِ الحكاياتِ وانخرطوا في طريقتِهِ مستعدِّينَ للافتداءِ بأرواحِهِمْ في سبيلِهِ متى أرادَ وبأدنىَ إشارةٍ منه.

ورد في عددٍ من المصادرِ والتقارير والمقالاتِ: "أنَّه كان يعيشُ عيشَ الملوكِ، يملكُ أراضِيَ واسِعةً ومزارِعَ وقُرًى يربو عددُها عن مِئَتَيْ قريةٍ، يتناولُ الطعامَ على مائدتِهِ يوميًّا مئاتٌ من الضيوفِ، يعشِقُهُ أهلُ المنطقةِ التي تمتدُّ من مدينةِ (أُورْمِيَة) الإيرانيَّةِ إلى مدينةِ آغري العثمانيَّةِ شرقًا، وإلى ديار بكر غربًا، وإلى الموصل وكركوكَ جنوبًا. يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ بأقصى سرعةٍ ومن غير نقاش. كلُّ مَنْ رآه هَابَهُ لِمَا يعتقدُ فيهِ من القداسةِ، ويرَى عليه من مظاهرِ الأُبَّهَةِ. وإذا خرج حفَّتْهُ جماعةٌ غفيرةٌ من مختلفِ طبقاتِ الناسِ يقفون أمامَهُ بخشوعٍ، يخجلون من النظرِ أو التحدُّثِ اليهِ لشدَّةِ تبجيلِهِم له. وعندما يَلمحونه، وحتى عن بُعْدٍ، يترجَّلون عن خيولِهم ويضعون يدًا على الاخرَى وهي مضمومةٌ الى صدورِهم، يَخْفِضُونَ رؤوسَهم وَيَغْلِقُونَ عيونَهم، وبهذه الهيئةِ يستقبلونه وهم راكعون. وعندما يَقْتَرِبُونَ منه، يَنْحَنُونَ نحوَ الارضِ وينتظرون أن يتحدَّثَ الشيخ، ولا يَنْبِسُ أحدُهم بِبِنْتِ شَفَةٍ حتى يبادِئَهُمْ هو، ويتحاشَوْنَ النظرَ إليه. وإذا سارَ تَابَعَتْهُ مواكبُ فخمةٌ وهو محاطٌ بلفيفٍ من الحرسِ والحشم.

شهرةُ الشيخ عبيدِ الله أخذتْ تتزايدُ في مطلعِ السبعينيَّاتِ من القرن التاسع عشر، لكنَّها لم تكن شهرةً طبيعيَّةً، بل كانت نتيجةَ الدعاياتِ واللَّعْبِ بالعقولِ والإتِّجارِ بالدِّين. لأنَّه كان عربِيَّ الأصلِ من سلالةِ الحسنِ بْنِ عليّ بْنِ أبي طالِبٍ، مع ذلك يتظاهرُ للناسِ بأنَّهُ كُردِيٌّ! كلُّ تصرُّفاتِ هذا الرجلِ الصوفِيِّ تدلُّ على أنَّه كانَ مُغرمًا بحُبِّ الجاهِ والرياسةِ، غيرَ قانعٍ بالصفة الروحيَّة التي ورثها من أسلافِهِ. يصفُهُ الطبيبُ والْمُبَشِّرُ الأميركيُّ الدكتور كوجران: "بأنَّه كان جذَّابًا الى حدٍّ كبيرٍ، يرتدِي حُلَّةً فضفاضَةً من جُبَّةٍ واسعةِ الاطرافِ والاكمامِ وعلى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ كبيرةٌ بيضاءُ".

انتحل الشيخ عبيدُ الله الزعامةَ السياسيَّةَ بجانبِ صفتِهِ الروحيَّةِ وهو يستعرضُ أفانينَهُ بالخروجِ في مثل هذا المظهرِ الخلاَّبِ ليأخذَ بالألبابِ، وليزدادَ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ مهابةً وقدرةً على استغلالِ أكبر عددٍ من الأكرادِ، واحتكارِ وُلُوعِهِمْ به. فبدأ يتحرَّشُ بالسلطةِ الإيرانيَّةِ ويستعدُّ في الوقتِ ذاتِهِ ليتمرَّدَ على الحكومة العثمانيَّة. وعندما رفضَ الأكرادُ الإيرانيُّونَ دَفْعَ الضرائبِ الى الحكومةِ الفارسيَّةِ بِحُجَّةِ أنَّهم يدفعونها الى الشيخ عبيد الله بموجبِ امتيازٍ كان والدُه (الشخ طه) قد حصلَ عليه من

شاهِ إيران محمد القاجاري عام 1836م. إلاَّ أنَّ إلغاءَ الحكومةِ الإيرانيَّةِ هذا الإمتيازَ في عهدِ ناصر الدين شاه سنة 1872م أدَّى إلى نزاعٍ بين الطرفين.

كان الشيخ عبيد الله يَتَهَيَّأُ لإقامةِ دولةٍ كرديَّةٍ مستقلَّةٍ عن الدولةِ العثمانيَّةِ، فبدأ باستعداداتٍ عسكريَّةٍ ضدَّ النظام الفارسيّ أوَّلاً لِيَقْوَى ظهرُهُ حتى يعودَ لمواجهةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ. فجهَّزَ جيشًا قوامُهُ 27 الفَ جندِي، وزحف على الأراضي الإيرانيَّةِ عام 1880م. ولكنَّهُ انهزمَ وباءتْ محاولاتُهُ بالفشلِ أمامَ ضغوطِ الإيرانيّين المدعومين من الروسِ والانكليز. ثم استغلَّتِ الحكومةُ العثمانيَّةُ انهزامَهُ فاعتقلتْهُ في يوليو/تموز عام 1882م. فهربَ من سجنِهِ لكنَّهُ اعْتُقِلَ ثانيةً ونُفِيَ إلى الحجاز حيث تُوُفِّيَ في السنةِ نفسِها بمكةِ المكرمة.

غاب الشيخ عبيدُ الله النهريُّ من الساحةِ لكنَّ عواقِبَ تصرُّفاتِهِ كانت ويلاً على الأكراد. ذهبَ ضحيَّتَهَا آلافٌ من سكَّانِ المنطقةِ. والطامَّةُ الكبرى أنَّهُ خلَّفَ عددًا من الشيوخِ ينوبون عنه في نشر طريقتِهِ وعقائِدِه بين الأكرادِ لتكونَ مصدرَ خلافٍ وخصامٍ ونزاعٍ بينهم على مَدَى قرنين. ولا يزالُ حتَّى اليوم يدفعُ الأكرادُ ثمنَ الشتاتِ الذي تعرضوا له من جراءِ الْفِتَنِ الْمُشْتَعِلَةِ بين شيوخ النقشبنديَّة وصراعِهم على الزعامةِ وحرصِهم على كسبِ الجاهِ والشهرةِ في المنطقةِ.

بخاصةٍ اثنانِ من خلفاءِ عبيد الله النهريّ نَشِبَتْ بينهما منافسةٌ في سباقِ الوراثةِ له، وهما: الشيخ صبغةُ اللهِ الأرواسِيُّ، والشيخ محمدٌ الكُفروِيُّ. كلٌّ منهما يريدُ أنْ يستفيدَ من شهرتِهِ. كانت الساحةُ التي ينازعانِ عليها تمتدُّ من مدينةِ بِتْلِيسَ إلى تخومِ مدينةِ قَرْص، وتضمُّ الساحةُ عِدَّةَ مدنٍ أخرَى مع ضواحِيها.

تطوَّرتْ هذه المنافسةُ إلى خصومةٍ متواصلةٍ وعداوةٍ شديدةٍ بين الطرفين، يلعنُ كلٌّ منهما الآخرَ، فدامَ النزاعُ بينهما قرابةَ مائةٍ وخمسين عامًا، وانتهى بِانْكِمَاشِ الأسرةِ الكُفْرَوِيَّةِ المُشرِفَةِ على الإنقراضِ، فانسحبتْ من الساحةِ في منتصفِ القرنِ العشرين وتحدِيدًا في عهدِ رئيس الوزراء عدنان مندريس.

ولمَّا طَغَتِ الأسرةُ الأرواسيَّةُ بِشُهْرَتِهَا على الأسرة الْكُفْرَوِيَّةِ في أواخرِ العهدِ العثمانِيّ وازدادتْ من المريدين والأنصارِ، وكان مَقَرُّهَا في ناحيةٍ اسمُها (هِيزَان) بجوارِ مدينةِ بِتْلِيسَ، بدأتْ تَدُبُّ عاطفةُ

الإغترارِ بالذَّات في نفوسِ كبارِ الأسرةِ لأسبابٍ ناشئَةٍ من الظروفِ التي تحيطُ بها وتغمُرُهَا بغرائِبِها وتناقضاتِها.

لقد كانتْ عقليّةُ الأسرةِ الأرواسِيَّةِ ومعتقداتُها تجمعُ بين أمورٍ يستحيلُ امتزاجُها، كان الحقُّ والباطِلُ والحلالُ والحرامُ والبدعةُ والسنَّةُ تتداخَلُ وتتعانَقُ في هذه العقليَّةِ الغريبَةِ؛ يتعصَّبُ كبارُ الأسرةِ للإسلامِ في الحين الذي يمارسونَ تعاليمَ الراهبِ الهندِيّ بَاتَانْجَالِي Patanjali في عباداتِهم ومناسِكِهم، يبغضون حُكْمَ الأتراكِ "لأنَّه يتعارضُ مع الشريعةِ الأسلاميَّةِ"، مع ذلك يقيمون طقوسَ البوذيَّةِ بعد صلاةِ العصرِ وصلاةِ العشاءِ في كلِّ يوم. يُنكرون على السلطةِ "لأنَّها لا تقطعُ يدَ السارِقِ ولا تَجْلِدُ الزانِيَ"، مع ذلك يفرضون على الناسِ أن يعبدوا أضرحةَ آبائِهم ويُشركوهم مع الله...

بحكمِ هذه العقليةِ المتناقضةِ في ذاتِها، وأسوةً بشيخِهم (عبيدِ اللهِ النهرِيّ)، وَسْوَسَتْ لهم نفوسُهُم أنْ يُعلِنوا حربًا على الحكومةِ العثمانيَّةِ، فلم يلبثْ حتَّى جهَّزوا جيشًا قوامُهُ خمسةُ آلافٍ من الأكرادِ المدنيّين لأجلِ القيامِ في وجهِ الدولةِ، مع أنَّهم وأتباعَهم كانوا جاهلين بالأمورِ العسكريَّةِ وفنونِ القتالِ وتحدِيدِ الإسْتِرَاتِيجِيَّاتِ الحربِيَّةِ.

تورَّطتْ الأسرةُ الأرواسيَّةُ في أتونِ الفتنةِ بالزحفِ على مدينةِ بِتْلِيسَ عام **1914**م. بإغراءِ أحدٍ مِنْ خُوَاجَوَاتِ النقشبندِيَّةِ اسمُهُ (مُلاَّ سليم). كان على رأسِ جيشِهم ثلاثُ شخصِيَّاتٍ من هذه الأسرة. وهم: الشيخ شهابُ الدِّين، والسيِّد علي، ومحمّد شيرين. ومَا إنْ دخلوا المدينةَ حتَّى فوجِئُوا بِتَخَاذُلِ الجيشِ عنهم. فتقاعسَ المرتزقةُ عن القتالِ، وخرجو عن طاعةِ شيوخِهم الثلاثِ وفرَّ كلُّ واحدٍ منهم إلى ناحيةٍ، فتبعثروا في شوارِعِ المدينةِ وَأَزِقَّتِهَا وشِعابِها وهم ينهبون ممتلَكاتِ المواطنين ويسلبون أموالَهم... فوجدَ القادةُ الثلاثُ أنفسَهم مهجورين حَيَارَى في وسطِ مدينةِ بِتْلِيسَ وقد خانَهم أتباعُهُم البسطاءُ وانفضُّوا من حولِهم. وإذا بشيخٍ نقشبندِيٍّ آخرَ (يُدْعَى الشيخ محمّد الغريب) من أهالِي بِتْلِيسَ ينادِي بالناسِ لمقاومَةِ المرتزقةِ، فَقَبَضَ سُكَّانُ المدينةِ على رؤوسِ العُصاةِ الثلاثِ وسلَّموهم إلى قاضِي المدينةِ، فَتمَّ تنفيذُ الإعدامِ فيهم بسرعةٍ. أمَّا مُلاَّ سليم، فلجأ إلى القنصليةِ الروسيَّةِ وتحصَّنَ بها فترةً. ولَمَّا اندلعتْ الحربُ العالميَّةُ الأُولَى وانسحبَ الدبلوماسيُّون الروس من المدينةِ سلَّموه إلى الشرطةِ العثمانيَّةِ فأُعدِمَ هو الآخر.

سادَ الفوضَى على المنطقةِ الْكُرْدِيَّةِ وانتشرتْ فيها الْفِتَنُ وتكرَّرتِ العصياناتُ نتيجةَ منافسةِ شيوخِ النقشينديَّةِ فيما بينهم من جهةٍ، وصراعِهِمْ مع حزبِ الاتِّحاد والترقِّي من جهةٍ أخرى حتَّى سقطت الدولةُ العثمانيةُ.

إنَّ الأكرادَ في الحقيقةِ كانوا من أخلصِ رعايا الدولةِ العُثمانيَّةِ وأشدِّهم انصياعًا لِحُكْمِها. إنَّما حرَّضَهم على التمَرُّدِ ضدَّ السلطةِ العثمانيَّةِ من حينٍ لاخر زعماؤُهم المحلِّيونَ بالتعاوُنِ مع شيوخِ النقشبنديَّةِ. لقد كانتْ صلةُ الأكرادِ بالدِّين قويَّةً مع جهلِهم بحقيقةِ الإسلامِ. فتنبَّهَ شيوخُ النقشبنديَّةِ إلى هذه الثَّغرةِ لِيَنْفُذُوا من خلالِها إلى ضمائِرِهِمْ، فاستطاعوا بذلك إثارةَ عاطفةِ المجتمعِ الكرديِّ باستغلالِ هذه الصلةِ، فسحبوه من وراءِ أهواءِهِمْ وأطماعِهم إلى أتون الحروبِ والثوراتِ لتحقيقِ أهدافِهم ومصالِحِهم، وليسَ لمصالِحِ الشعبِ الكردِيِّ. فانصبَّت عليهم ويلاتٌ من جراءِ ذلك طوالَ القرنِ المنصرم.

فلمَّا نجح مصطفى كمال في تأسيسِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ على أنقاضِها جعلَ المنطقةَ الكرديَّةَ نَصْبَ عينيهِ، إذْ كان يعلمُ أنَّ أكبرَ عقبةٍ تعترضُ سبيلَهُ في فرضِ سلطتِهِ وإحْكَامِ سياستِهِ، هي القضيةُ الكرديَّةُ. فأخذ يُفَكِّرُ بتدبيرِ مؤامرةٍ ضدَّ أكبرِ شخصيَّةٍ من مشائخِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ، وهو الشيخ سعيدُ الْبَالَوِيُّ[25]. فكلَّفَ جهازَ مخابراتِهِ بحياكةِ هذه المؤامرةِ لاصطيادِ الشيخِ سعيد بواسطةِ

---

[25] الشيخ سعيد الْبَالَوِيُّ بْنُ الشيخ محمود بْنِ الشيخ علي السَّبْتِيِّ بْنِ الشيخ قَاسِمِ بْنِ الشيخ حيدرِ بْنِ الشيخ حسينِ بن الشيخ هاشم: أحدُ رموزِ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ في تركيا. هاجرَ جَدُّهُ الشيخ هاشم من إيران إلى المنطقةِ الشرقيَّةِ من الأراضِي العثمانِيَّةِ قبل قرونٍ واستقرَّ في مدينةِ ديار بكر. طلبهُ السلطان مراد الرابع بعد الفراغ من فتحِ بغدادَ أثناءَ عودتِهِ، طلبه لِيأخُذَ منه البيعةَ، إلاَّ أنَّه تأخَّرَ عنِ الحضورِ. قيل رفضَ أنْ يبايِعَهُ لِكَوْنِهِ يشربُ الْخَمْرَ، رغمَ اشتدادِهِ على مَنْ يتناوَلُهُ مِنَ الرعيَّةِ. فأمر به فقُتِلَ سنة **1639**م..

وُلِدَ الشيخ سعيد الْبَالَوِيُّ بالمنطقةِ الكرديَّةِ في قريةِ (بَالُو Palo) التابعةِ لمدينةِ (معمورةِ العزيزِ). يزعمُ أبناءُ الأسرةِ البَالَوِيَّةِ أنَّهم من الأشرافِ، والطبيعةُ الإجتماعيَّةُ لا تكادُ تُصَدِّقُهُمْ. لأنَّهم يجهلون اللُّغةَ العربيَّةَ ولا يتكلَّمونَ إلاَّ باللُّغتَيْنِ الكرديَّةِ والتُّرْكِيَّةِ. رُزِقَ خمسةَ بنين وخمسَ بنات. برزَ منهم الشيخ علي الرضا بسعةِ عِلْمِهِ، وثقافتِهِ، وَجُرْأتِهِ.

درسَ سَعِيدٌ البَالَوِيُّ اللُّغَةَ العربيَّةَ والعلومَ الإسلامِيَّةَ في المدارسِ التابعةِ لأُسْرَتِهِ، فحظِيَ نصيبًا منها، لكنَّهُ نَشَأَ نشأةً مُسْلُمَانِيَّةً تقليديَّةً كأمثالِهِ من الشيوخ والملالي، بعيدًا عن روحِ الإسلامِ النقيَّةِ. أحسَّ –رغم ذلك– بآلامِ الإضطهادِ الذي تعرَّضَ له المجتمعُ، وما أصابَ الإسلامَ من الإهانَةِ على يدِ مصطفى كمال وأعوانِهِ من السبطائيّين. فثارتْ حفيظتُهُ من المظالِمِ التي ارتكبتْها الطُّغْمَةُ الكماليَّةُ الحاكمةُ، فبدأ يستعدُّ للانتفاضَةِ في وجْهِهَا، إلاَّ أنَّهُ تورَّطَ في خطإٍ جسيمٍ حين أقدَمَ على مُنَازَلَةِ النظامِ السبطائِيِّ في غيرِ وقْتِهِ، فضلاً عن أنَّهُ كان يجهلُ فنونَ القتالِ. وهذهِ قصتُهُ بالاختصار:

كان الشيخ سعيد الْبَالَوِيُّ يتمتَّعُ بشهرةٍ واسعةٍ في المنطقةِ الكرديَّةِ، يحسدهُ معظمُ شيوخِ الأكرادِ (وعلى رأسهم شيوخُ الأسرتَين التاغيَّةِ والكفرويَّةِ). كان له اثنى عشر ألفًا من المريدين. والمريدُ في عرف الصوفِيَّة: صفةٌ تُطْلَقُ على مَنْ بَايَعَ شيخًا على السمعِ والطاعةِ مطلقًا في كل ما يأمره، لا يعصيه في شيءٍ مِمَّا يكلِّفُهُ ولو كان محرَّمًا!

تَسَلَّلَ جواسيسُ مصطفى كمال إلى جوارِ الشيخ سعيدِ البَالَوِيّ وانْدَسُّوا في صفوفِ مريدِيهِ منذ بدايةِ إعلانِ الجمهوريَّةِ عام **1923**م. وَتَرَاءَوْا له في قناعِ أهلِ الإخلاصِ، فإغرَوْهُ بالثورةِ على النظامِ الكماليِّ، لتكونَ ذريعةً لضربِهِ. كان بين هؤلاءِ شخصٌ من أقاربِ الشيخ سعيد، يُدْعَى (قَاسُوِي أَحْمَد)، يحمل رُتْبَةَ رائِدٍ في الجيوشِ الحميديَّةِ الْمُكَوَّنَةِ من الأكرادِ واسْمُهُ في السجلاَّتِ العسكريَّةِ (قاسم آتاج Kasım Ataç).

أوَّلُ خطوَةٍ بدأ بها الشيخ سعيد؛ مراسلةُ شيوخِ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ، دعاهم للالتحاقِ به ومشاركتِهِ في الثورةِ على النظامِ العلمانيِّ–الوثَنِيّ. فاستجابَ له عددٌ قليلٌ مِمَّنْ لا شهرةَ لهم. ورفضَ المشهورون مساندتَهُ. خرجَ في ربيعِ سنةِ **1925**م. يطوفُ في المنطقةِ للاستطلاعِ واختِبَارِ ما إذا كانت الظروفُ مواتيةً للانطلاقِ، لكنَّهُ لم يكنْ قد أكملَ خطواتِهِ لتفجيرِ الثورةِ بعدُ.

في غضونِ ذلكَ اتَّفَقَ له أنْ نزلَ ضيفًا في قريةٍ من قُرَى قضاءِ (ديجله) تُسَمَّى (پيرَانْ Piran) يومَ الثالث عشر من شهرِ فبراير عام **1925**م. فبينما هو جالسٌ في جماعةٍ من مريدِيهِ دَاهَمَتْ مُفْرَزَةٌ عَسْكَرِيَّةٌ القريةَ للقبضِ على خمسةِ أشخاصٍ مطلوبين كانوا قد اعتصموا في أحدِ البيوتِ، فلم يظفرْ بهم الجنودُ. فطلبَ قائدُ المفرزةِ وساطةَ الشيخ سعيد لإقناعِ المطلوبين لِيَسْتَسْلِمُوا. لكنَّ هذه المحاولةَ – في الحقيقة– كانتْ لُعْبَةً وَكَمِينًا يريدُ بِهَا النظامُ سَحْبَ الشيخ سعيد إلى معتَرَكِ الصراعِ قبلَ أنْ يَفْرَغَ من استعدادَاتِهِ ويُكمِلَ تعبئَةَ قُوَّاتِهِ. وكانت أخبارُهُ تصلُ إلى أنقره يوميًّا بواسطةِ عيونِ النظامِ المندسّين في صفوفه.

كلَّمَ الشيخ سعيدٌ قائدَ المفرزةِ برفقٍ، وأوضحَ له أنَّ الموقفَ مُحْرِجٌ وغيرُ صالحٍ للحوارِ مع المطلوبين، ثُمَّ الْمَتَمَسَ منه أنْ يُمْهِلَهُ حتى يغادرَ القريَةَ، فيقومَ هو بعد ذلك باعتقالِ المطلوبين. نَصَحَهُ بِمِثْلِ هذا الأسلوبِ إشعارًا له "أنْ يتحسَّبَ للظروفِ، لأنَّ أهلَ المنطقةِ قد يحملونَ ذلكَ إسائةً بكرامتِهِ، لمكانتِهِ في نفوسِهم، فيقومون بردِّ فعلٍ، فيتفاقمُ الأمرُ!".

إلاَّ أنَّ الْخُطَّةَ كانتْ مُعَدَّةً من ذي قبلٍ على أساسِ إثارةِ الشيخ سعيد، ودفعِهِ إلى ميدانِ الصراعِ. فما لبثَ حتى هجمَ الجنودُ على المنْزِلِ الذي فيه المطلوبون، واندلعتْ مناوشاتٌ بين الطرفين، فأثارَتْ هذه المحاولةُ حفيظةَ سُكَّانِ القريةِ، فعدُّوها إهانةً شنيعةً وغطرسةً ارتكَبَهَا الجنودُ تجاهَ شخصيَّةِ الشيخ سعيد. فما لبث حتى احتدمَ القتالُ بين الجنودِ وبين سُكَّانِ القريَّةِ. ثُمَّ اجتاحَ المنطقةَ. فاضطرَّ الشيخ سعيد أن يخوضَ غمارَ القتالِ قبلَ أنْ يَعُدَّ أدنى شيءٍ من تَرْتِيبَاتِهِ.

هكذا وجد الشيخ سعيد البالويُّ نَفْسَهُ في وسطِ نيرانِ الحربِ دونَ أنْ يتوقَّعَ الاصطدامَ بمثلِ هذهِ المفاجأةِ الرهيبَةِ. أجْبَرَتْهُ الظروفُ إلى جمعِ ما تيسَّرَ له مِنَ الْمَدَدِ والأعوانِ. غير أنَّ أنصارَه كانوا كلُّهم فلاَّحين ورعاةَ المواشِي من أهلِ الريفِ، غيرَ ذوِي الخبرةِ والكفائةِ القتاليَّةِ. ولم يكنْ بينهم مَنْ تلقَّى تدريبًا عسكريًّا ولا مَنْ يُتْقِنُ فنونَ الحربِ. فخرجوا بِمُجَرَّدِ بُنْدُقِيَّاتِهِمْ القديمةِ التي أكلها الصدأُ، فضلاً عن أنَّ أكثرَهُمْ كانوا مِنَ الرعَاعِ والهمجِ، انطلقوا جِيَاعًا، وَحُفَاةً، وَضِيَاعًا في ظلماتِ الجهلِ، انْسَحَبُوا وراءَهُ دونَ رويَّةٍ وعلى غيرِ بصيرةٍ، فتخاذَلَتْ عنه جماعاتٌ منهم، وتحوَّلتْ جماعاتٌ إخرى إلى قِطْعَانٍ من الْبَلْطَجِيَّةِ، كلَّمَا اسْتَوْلَوْا على مدينةٍ سَطَوْا على أهلِهَا وَسَلَبُوا أمْوَالَهُمْ، وَنَهَبُوا أثْتَهُمْ وممتلكاتِهِمْ. استفادَ النظامُ من هذه الحالةِ فأطلقَ سراحَ جماعاتٍ من المجرمين وأرسلَهُمْ ليفعلُوا مثلَ ما فعلَ جنودُ الشيخ سعيد، لإثارةِ المجتمعِ ضدَّه بإشاعةِ الإخبارِ: "أنَّ الذين معه عصابةٌ من المرتزقةِ والبلطجيةِ، وأنه على الرعيَّةِ التزامُ جانبِ الحكومَةِ في الحربِ ضِدَّهُمْ". فلم يلبثْ طويلاً حتّى انفضَّ جنود الشيخ سعيد مِنْ حَوْلِهِ وتركوه وحيدًا في ميدان المعركةِ.

استيقظ الشيخ سعيد من نومته بعد فوات الأوان، فأراد أن يُنقِذَ بنفسِهِ، فخرجَ يوم **14** من شهر أبريل عام **1925**م. من ضواحي مدينة ديار بكر قاصِدًا جهةَ الشرقِ. سلك مع شلَّةٍ من رجاله طريقًا وعرًا في خفاءٍ ومعهم الرائدُ قاسم أتاج. كانوا يشقُّونَ طريقهم عَبْرَ الغاباتِ والأدغالِ في ظلماتِ الليلِ، ويَتَخَفَّوْنَ في الكهوفِ وفجواتِ الصخورِ نهارًا. غير أنَّ الرائدَ قاسم أتاج لم يزل على اتصالٍ مع القواتِ المسلَّحَةِ التُّرْكِيَّةِ بوَاسِطَةِ أفرادٍ من بِطَانَتِهِ سرًّا، يُزَوِّدُ القادةَ العسكريّين بأخبارِ الشيخ سعيدٍ ويُشيرُ لهم في رسائِلِهِ إلى الخطِّ الذي يسلكونَهُ والنقاطِ التي يَحِلُّونَ بِهَا، حتَّى إذَا وصلو إلى جسرِ عبدِ الرحمن باشا بِقُرْبِ مدينَةِ فارتو Varto حيثُ بِهَا الكمينُ الذي أعدَّهُ الرائِدُ قاسم أتاج، لأيقاعِ الشيخ سعيد فيهِ بالتنسيق مع جهازِ الإستخباراتِ التركية.

فلمَّا اجتازَ الشيخ سعيد ورفاقُهُ الجسرَ إلى ناحيةِ فَارْتُو فَجْرَ يومِ **15** أبريل من عام **1925**م، – وقد كان الرائدُ قاسم أتاج أشعرَ قائدَ الكتائبِ الخاصَّةِ عثمان نوري باشا بالموقعِ الذي حلَّ فيهِ الشيخ سعيد– فإذا بالجنود قد أحاطو بهم فورًا من ناحيةٍ، والمليشياتُ من الشراكِسَةِ مِنْ ناحيةٍ أخرى. فاستسلموا دون مقاومةٍ، وتَمَّ تسييرهم إلى مدينة دياربكر حيث جرت فيها محاكماتهم فترةً من الزمن. ثم نُفِّذَ فيهم حكمُ الإعدامِ شنقًا فَجْرَ يوم **29** حزيران/يونيو سنة **1925**م. في موقع (طَاغْ كَابِي). وهكذا طُوِيَتْ صحِيفةُ الشيخ سعيد البالَوِيّ.

حاولتْ اجهزةُ نظامِ مصطفى كمال دائمًا إربِاكَ العقولِ، وتضليلَ الرأيِ العامّ، وتعطيلَ ملكةِ التفكيرِ حتّى أصبحَ الناسُ يرونَ الحقَّ في صورةِ الباطلِ، والباطِلَ في صورةِ الحقِّ، كما فقد المجتمعُ ذاكرتَهُ بحيث لا يكادُ اليومَ أحدٌ (من الأكرادِ) يذكرُ شيئًا من أحداثِ ثورة الشيخ سعيد البالَوِيّ الرهيبَةِ التي ذهبتْ ضحيَّتَهَا **83** ألفَ شخصٍ (تقريبًا). ولا أحدٌ يعبأُ بما جرتْ في تلك المرحلةِ من الجناياتِ والقمعِ والتشريدِ على يدِ الوحشِ المتمثِّلِ في (محاكم الإستقلال)، ولا أحدٌ يفكِّرُ حتى

عَدِيلِهِ (أي زوجِ أختِ امرأةِ الشيخ)، الرائد قاسم آتاج Kasım Ataç. فما لبثَ حتَّى تمكَّنَ هذا الرجلُ من إقناعِ الشيخ سعيد للقيامِ مع جماهيرِ مريدِيهِ بعصيانٍ ضدَّ نظامِ مصطفى كمال، بذريعةِ "أنَّه ناصَبَ الدِّينَ عداءً وألغَى أحكامَهُ"! من الغريب أنَّ النَّقْشَبَنْدِيِّينَ كانوا ولا يزالون أفسدَ من مصطفى كمال للإسلامِ، وأشدَّ خطورةً عليه.

فلمَّا انطلقَ الشيخ سعيد بِجُيُوشِهِ المؤلَّفَةِ من الْبُسَطَاءِ الهمج في أمواجٍ من الفوضَى نحو مدينةِ ديار بكر يوم الثالث عشر من شهرِ فبراير سنة 1925م. دَاهَمَتْهُمْ جيوشُ النظامِ وأنزلتْ بِهِمْ ضربةً قاصمةً، فقبضوا على الشيخ سعيد وكبارِ رجالهِ يوم 15 أبريل 1925م. قُرْبَ مدينةِ فَارْتُو Varto، ثم نُقِلُوا إلى مدينةِ ديار بكر ومُثِلُوا أمامَ محكمةٍ استثنائيَّةٍ سُمِّيَتْ في تلك المرحلةِ بِ"محكمةِ الإستقلالِ"، فتمَّتْ مُحاكَمَتُهُمْ على عَجَلٍ وبصورةٍ شكليَّةٍ وَنُفِّذَتْ فيهم هناك حكمُ الإعدامِ يوم 29 يونيو/حزيران 1925م.

في الجناياتِ التي ارتكَبَتْهَا عصابَةُ جيتيم Jitem الدمويَّةُ بالأمسِ في المنطقة الكرديَّةِ. لذا لا نجدُ أحدًا بين مثقفِي الأكرادِ وباحثِيهم قام بضبطِ المعلوماتِ الخاصَّةِ بثورةِ الشيخ سعيدِ البالَوِيِّ بصورةٍ دقيقةٍ وبأسلوبٍ علميٍّ موضوعيٍّ يشملُ تفاصيلَ هذا الحدثِ العظيم.

اختلفتْ الآراءُ في شخصيةِ الشيخ سعيد البالَوِيِّ؛ فئةٌ من الباحثين أطلقوا ألسنَتَهُمْ في ذكر مَثَالِبِهِ، وادَّعوا أنَّهُ كان عميلاً للانجليز، ووصفوه بالخيانَةِ العظمى، وبالغوا في تشنيعِهِ... أكثرُ هؤلاءِ عنصريُّون من الأتراكِ، وَتَبَيُّونَ، يعبدون رموزَ التاريخ المزوَّرِ، ومنهم مَنْ هو عميلٌ للنظامِ الأَتَاتُورْكِيِّ. هذه الفئةُ شرذمةٌ من عبيدِ البطونِ يَرْتَزِقُونَ بأقلامِهِمْ لينالو لُقَمَةَ العيشِ المغموسَةِ في أعراضِ كلِّ مَنْ يريدُ العدلَ أو يحاربَ الجُوْرَ.

لا تتَّصِفُ مقالاتُ هؤلاءِ بأدنى شيءٍ من العلميَّةِ والموضوعيَّةِ، وإنَّمَا تَنُمُّ عن غلٍّ وضغينةٍ وحقدٍ دفينٍ وكراهيةٍ للعنصرِ الكرديِّ، تَضُمُّ أشكالاً غريبَةً من الكذِبِ والفريةِ، كما فيها قصصٌ خياليَّةٌ متضافرةٌ لا أساسَ لها من الصحة.

هناك فئةٌ أخرى، تناولوا شخصيةَ الشيخ سعيد البالويِّ لمجرَّدِ أنْ يجعلوا منه بطلاً من أبطالِ الإسلامِ، "عبقريًّا، عملاقًا مُنْقَطِعَ النظيرِ، افْتَدَى بحياتِهِ لِتكونَ كلمةُ الله هي العليا!". بالغوا في إطرائِهِ وتفخيمِ شأنِهِ إلى حدودِ التقديسِ بأنَّهُ من أكابرِ شهداءِ الإسلامِ! مثل حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

يظهر من أسلوبِ كلا الْفِئَتَيْنِ: أنَّ فريقًا منهما أفرطوا فيه بالتقبيحِ والتزيلِ؛ وفريقًا فَرَّطُوا فيه بالاجلالِ والتعظيم. لكنَّه لم يكنْ طرفٌ منهما على حقٍّ في واقعِ الأمرِ. بل كان الشيخ سعيد رجلاً صوفيًّا نَقْشَبَنْدِيًّا فَاسِدَ العقيدَةِ، قليلَ المعرفةِ بحقائقِ الإسلامِ، عديمَ المعرفة بالأمورِ السياسيَّةِ؛ ولا كانت له خبرةٌ بالظروفِ الإجتماعيَّةِ. لذا لم يستطعْ أنْ يقدِّرَ الموقفَ، كما لم يستطعْ أنْ يُمَيِّزَ بين مَنْ كانَ يُخلِصُ له، وبين مَنْ يتربَّصُ به ليوقِعَهُ في حبالِ النظامِ السبطائيِّ، ويَدْفَعَهُ إلى المشنقة! وما أدلَّ على غفلةِ هذا الرجلِ أَنَّهُ سَمَحَ لِعَدِيلِهِ الرائد قاسم أتاج (الذي كان عَدُوَّهُ اللَّدُودَ)، أن يصاحِبَهُ، وهو يتعرَّفُ على جميعِ أسرارِهِ ويَنْقُلُهَا بِحَذَافِيرِهَا إلى أعدائِه. وقد كان سعيدٌ يشكُّ في أمرِ هذا الرجلِ من قبلُ، حتّى أبعدَهُ من جوارِهِ. لأنه كان يَحْذَرُ شَرَّهُ!

هنا يتبادر إلى الذِّهْنِ: أنَّ رجلاً صوفيًّا خاملَ الذِّهْنِ، جامدَ العقلِ، لا ثقافةَ له، ولم يحظَ شيئًا من العلمِ بالكونِ والحياةِ، وقد أفنى جميعَ عمرِهِ في حفظِ متونِ الصرفِ والنحوِ والفقهِ المتجمِّدِ وخُرَافِيَّاتِ شيوخِ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، حيث تَمَرَّغَ معهم في أوحالِ الشركِ الصوفيِّ، يجهلُ الحقائقَ التاريخيَّةَ والعالَمَ الخارجيَّ واللُّغاتِ الأجنبيةَ، ولم يسبق له أنْ سافرَ إلى بلدٍ من بلادِ الغربِ، ولم يَطَّلِعْ على شيءٍ من حضارةِ العصرِ، كما يجهلُ فنونَ الحربِ واستراتيجياتِ القتالِ، يعيشُ في عالَمٍ موهومٍ... فما لِمِثْلِ هذا الرجل يتحمَّلُ المسؤوليَّة ليتلاعبَ بحياةِ الملايين العُزَّلِ من الفلاَّحين ورُعَاةِ المواشي الذين كانوا يعيشون في بيوت أشباه الكهوفِ؟ ما لِهَذَا الرجل يُعْلِنُ الحربَ على دولةٍ لها جيشٌ عارمٌ مدرَّبٌ ومُجَهَّزٌ بأنواعٍ من السلاح والعتادِ؟!

إنَّ الإجابةَ الصحيحةَ الوافيةَ على هذا التساؤل – لا ريب – تكفي للكشفِ عن أسرارِ مغامرَةِ الشيخ سعيدِ البالَوِيِّ بتفاصيلِهَا.

ولكي تخلوَ الساحةُ لمصطفى كمال من جبهةِ المعارضةِ الكرديَّةِ بصورةٍ نِهَائِيَّةٍ، استغلَّ هذه الفرصةَ فكلَّفَ قادةَ جيوشِ المنطقةِ الشرقِيَّةِ أن يقوموا بأعمالِ القمعِ والتنكيلِ في جميعِ أنحاءِ المنطقةِ باسمِ "تأديب الْعُصَاةِ"! وذلك بُغْيَةَ كسبِ الشرعيَّةِ لأعمالِ الإجرامِ التي سوف تخوضُها قُوَّاتُهُ ضدَّ الأكرادِ. فبلغَ إجمالي عدد القتلَى من الأكرادِ الْعُزَّلِ خلال 12 سنةً: 170 ألفَ شخصٍ (تقريبًا)، وذلك في ثلاثةِ مواقعَ:

1) **في مدينة ديار بكر، وبِينْكُولْ، وموش، وبِتليس، وأرض الروم، ومعمورة العزيز وضواحيها عام 1925م. وكان عددُ الضحايا في هذه المناطق: 83 ألفَ شخصٍ (تقريبًا).**

2) **في مدينة آغري** Ağrı **وضواحيها عام 1930م. وكان عددُ الضحايا في هذه المنطقة: 16 ألفَ شخصٍ (تقريبًا)..**

3) **في مدينة دَرْسِيم** Dersim **وضواحيها عام 1938م. وكان عددُ الضحايا في هذه المنطقة: 72 ألفَ شخصٍ (تقريبًا)..**

إنَّ ضميرَ المجتمعِ الكردِيّ تعرَّضَ لأَسْرِ الشيوخِ واحتكارِهم منذ أيَّامِ خالد البغدادِيّ حتَّى اليومِ بحكمِ الدعاياتِ المتواصلةِ التي يقومُ بِهَا شبكاتٌ مجنَّدةٌ لِبَثِّ شُهرتِهِم، وإضفاءِ القداسةِ عليهم، وتأليهِهِمْ بضروبٍ من المكرِ والحِيَلِ، وبطريقِ غسلِ الدماغِ. لم ينجُ من تأثيرِها إلاَّ مَنْ رحِمَ ربِّي.

فلمَّا تأكّدتِ الحكوماتُ التُّرْكِيَّةُ من هذه الحقيقةِ بعد موتِ مصطفى كمال وبخاصَّةٍ في السنين الأخيرةِ، ويَئِستْ من قدرتِهَا على قمعِ الأكرادِ وإزلالِهم بِطُرُقٍ قسريَّةٍ وبصورةٍ نِهَائِيَّةٍ، اختارتْ سبيلاً أسهلَ وأقربَ منه إلى تحقيقِ الأهدافِ بعد كلِّ التجارُبِ التي لجأتْ إليها فيما سبق، وباءت محاوَلاتُهَا بالفشلِ.

كان الهدفُ هذه الْمَرَّةَ صهرُ الأكرادِ في البوتقةِ التُّرْكِيَّةِ بدلَ الإقدامِ على سحقِهم – خشيةَ أنْ يكلِّفَهم ذلك ثمَنًا باهظًا–، وقد كانت الحكومةُ عجزتْ عن ذلك فوجدتْ ضالَّتَها المنشودةَ في استغلالِ الشيوخِ، فجنَّدتْ لهذه المهمَّةِ شبكةً مؤلَّفةً من رجالِ المخابراتِ وشَرِكَةً عملاقةً

للنَّقْشَبَنْدِيّين الأتراكِ الفاشِيّين، فَكَفَاهَا ذلك مؤنةَ الخوضِ في متاهاتٍ وتضحيَّاتٍ كبيرةٍ إنْ عَادَتْ إلى الأساليبِ العسكريَّةِ واستخدامِ الْعُنْفِ.

فبدأت الأحزابُ السياسيَّةُ تتملَّقُ إلى الشيوخِ وتصرِفُ هِمَّتَها لتعزيزِ مكانتِهم، وصارَ السياسيُّون يزورونَهم، ويراؤونَهم بالتواضُعِ والخشوعِ؛ يتمسَّحون بأعتابِهم، ويركعون بين أيديهم، ويتقرَّبون إليهم بمختلف أشكال الرياءِ والمداهنة والنفاق... كلٌّ منهم يريدُ من الشيخ الذي يزوره أن يؤيِّدَهُ ويأمرَ مريدِيهِ بالتصويتِ لِحزبِهِ في موسم الإنتخابات.

هكذا بدأتْ مرحلةٌ جديدةٌ في حياةِ شيوخ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ بدايةً من عام **1954**م. كانت مرحلةَ تصالُحٍ ووفاقٍ مع النظامِ لأوَّلِ مرَّةٍ في العهدِ الجمهوريّ. فاسْتَعَرَتْ المنافسةُ بين الشيوخ تبعًا للمنافسةِ القائمةِ بين الأحزابِ السياسِيَّةِ. بدأتْ تجري الإتّصالاتُ بكثافةٍ بين رؤساءِ الأحزابِ السياسيَّةِ وبين شيوخِ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ كلَّما اقتربَ موسمُ الإنتخاباتِ الْبَرْلَمَانيَّةِ في تركيا.

اهتمَّ خاصَّةً من بين هؤلاءِ: رئيسُ الحزبِ الديمقراطِيّ عدنان مندريس بشيوخِ الأكرادِ، وحصلَ على دعمٍ كبيرٍ منهم. ثمَّ كانَ ممَّن استغلَّ العاطفةَ الدينيَّةَ في المنطقةِ الكرديَّةِ ونجحَ في استمالةِ قلوبِ الأكرادِ هو نجم الدين أَرْبَكَان Necmettin Erbakan الذي خاضَ في معركةٍ خطيرةٍ ضدَّ النظامِ الكماليّ، فاستطاعَ بدهائِهِ، وصبرِهِ، وتظاهُرِهِ للناسِ في لباسِ "الرجُلِ الْمُتَدَيِّن"، وخاصةً بلباقتِهِ القبوريَّةِ، استطاعَ أن يكسِبَ ثقةَ النَّقْشَبَنْدِيّينَ في المنطقة الكرديَّةِ بقدرِ ما نالَ منها في محيطِ الأتراك، وقد كان هو – في الوقت ذاتِهِ– نَقْشَبَنْدِيَّ الْمَشْرَبِ. كما لا شكَّ في أنَّ النجاحَ الذي ناله كلٌّ من رئيسِ الوطنِ الأمّ، تُرْغُوتْ أوزال Turgut Özal، ورئيسِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ، رجب طيّب أردوغان Recep Tayyip Erdoğan، كان أيضًا وراءَهُ دعمُ الأكرادِ النقشبنديّين بنسبةٍ عاليَةٍ. أمَّا الأكرادُ العلويُّون، فإنَّهم كانوا دائمًا عَجَلَةَ الْحَرَاكِ لحزبِ العمال الكردستاني المتمثل في تنظيم (بي كَ كَ الإرهابي). هكذا انسحبَ أكرادُ تركيا سُنِّيُّوهُمْ وَعَلَوِيُّوهُمْ وراءَ الأحزابِ السيَاسِيَّةِ طوالَ **70** عامًا والهويَّةُ الكرديَّةُ مكتومةٌ، والمجتمعُ الكرديُّ مقهورٌ، والنظامُ يحاوِلُ صهرَهم في البوتقةِ التُّرْكِيَّةِ بكلِّ حيلةٍ.

استطاعَ الأكرادُ أن يحافظوا على كيانِهم ولغتِهم طوالَ قرونٍ. وقد كانت الدولةُ العثمانيَّةُ تركتْهم لشأنِهم، لم تمنعْهم من التحديثِ بها. وكان للمدارسِ الدينيَّةِ المنتشرةِ في المنطقةِ دورٌ كبيرٌ في الحفاظِ

على اللُّغةِ الكردِيَّةِ وإثرائِها. غير أنَّ الأمرَ اختلفَ بعد قيام الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ. إذ أصبحتْ هذه المدارسُ غيرَ قانونيَّةٍ بعد صدورِ تشريعاتٍ جديدةٍ، منها "قانون التَّدْرِيسِ الْمُوَحَّد".

إنّ المدارسَ الدينيَّةَ في المنطقة الكرديَّةِ – بالرغم من سلبيَّاتِها وخطورَتِها على اللُّغة العربيَّةِ والعقيدةِ الحنيفةِ – كانت بِمَنْزِلَةِ الضمانِ لشخصيَّةِ الإنسانِ الكردِيِّ (الْمُسْلُمَانِ)، ونظامِ حياتِهِ الْمَحَلِّيَّةِ. ذلك أنَّ الأكرادَ كانوا يتحاكمون في نزاعِهِمْ وخصامِهِمْ إلى عُمَدَاءِ هذه المدارِسِ من الملالي والشيوخِ، ويستشيرونهم في أمورِهِم، كراهيَّةَ اللجوءِ إلى المحاكمِ الرسميَّةِ وأجهزةِ الدولةِ، إلاَّ لضرورةٍ. فظلَّتْ لُغتُهم وعاداتُهم وتقاليدُهم بفضلِ هذه التحفُّظِ في مناعةٍ ضدَّ تأثيرِ الثقافةِ التُّرْكِيَّةِ. أما السلطةُ التُّرْكِيَّةُ، فإنَّها كانتْ على علمٍ بذلكَ رغم عَجْزِهَا عن القضاءِ على هذه المؤسَّساتِ، وهي تبحثُ عن سُبُلِ الحيلولةِ دون هذه المناعةِ بُغيةَ إذابةِ الشعبِ الكردِيِّ ودمجِهِ في صفوفِ المجتمع التُّرْكِيِّ.

إنَّ أوَّلَ مَن فكَّرَ في صهرِ الأكرادِ والقضاءَ على اللُّغَةِ الْكُرْدِيَّةِ بصورةٍ منهجيَّةٍ لا تُثِيرُ القلَقَ في المنطقةِ، هو رئيسُ الحزبِ الديمقراطِيِّ ورئيسُ الوزراءِ عدنان مندريس الذي بَدَأَ النظامُ التعَدُّدِيُّ في أيَّامِهِ، وظلَّ هو في سُدَّةِ الحكمِ مدَّةَ عشرِ سنين.

جنَّدَ مندريس شبكةً استخباراتيَّةً لجمعِ شملِ النَّقْشَبَنْدِيِّينَ في المنطقةِ الكرديَّةِ أوَّلاً، فنظَّمهم تحتَ مظلَّةٍ واحدةٍ لِتَسْهُلَ مراقبةُ نشاطاتِهم؛ ثم استخدمهم في تعزيزِ مركزِهِ، واستفادَ من دعمِهِم على الصعيدِ السياسِيِّ، فلمَّا ارتاحتْ له نفوسُ الأكرادِ بواسطةِ شيوخِ الطريقة النقشبنديَّةِ أعدَّ مشروعًا باسمِ "مكافحةِ الأُمِّيَّةِ"، يتبنَّى إقامةَ مدارسَ رسميَّةٍ تابعةٍ لوزارةِ التعليمِ في كلِّ أنحاءِ المنطقة. فبُنِيَتْ في كلِّ قريةٍ من هذه المنطقةِ مدرسةٌ ابتدائيَّةٌ لأوَّلِ مرَّةٍ في تاريخِ المجتمعِ الكرديِّ.

كانت المقرَّراتُ التعليميّةُ منصوصةً باللُّغة التُّرْكِيَّة وفقًا لِ"قانون التدريس المُوَحَّد"، وهي اللُّغةُ الرسميَّةُ. والغريبُ في هذا الأمرِ: أنَّ الأكرادَ كانوا يجهلون اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ قبلَ ذلكَ ولم يألفوها. إلاَّ أنَّ هذه المفاجأةَ ما أقلقتْهم، فلم يعترضْ أحدٌ منهم على هذه المبادرةِ. والسِّرُّ يكمُنُ في الموافقةِ بين شيوخِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ وبين الشبكةِ المكلَّفَةِ مِنْ قِبَلِ عدنان مندريس. ولا شكَّ في أنَّ هذه الموافقةَ قد تمَّتْ وراءَ أبوابٍ مغلَّقة.. إلاَّ أنَّ المشروعَ أسفرَ عن نتائجَ لم يتوقعْها الطرفان!

فلمَّا انتهى بناءُ المدارسِ الإبتدائيَّةِ في مُعظَمِ القُرى بالمنطقةِ وبدأتْ أعمالُ التدريسِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، لم يلبث حتَّى تعلَّمَ الناشئةُ اللغةَ التُّرْكِيَّةَ، فاتَّسَعَتْ آفاقُهُم، وأخذوا يُفَكِّرون في الأمورِ بعُمْقٍ. فأسفرَ ذلك عن تطوُّراتٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وثقافِيَّةٍ ظهرتْ في المنطقةِ بعد فترةٍ قصيرة؛ يمكن اختصارُها فيما يلي:

1) تسرَّبتْ آلافُ كلماتٍ تُرْكِيَّةٍ إلى اللُّغةِ الكردِيَّةِ، فما لبثَ حتى تشوَّهَتْ ولم تَعُدْ صالحةً للاستعمالِ كلغةٍ أصليَّةٍ. وسادَ العجزُ في التعبيرِ بِهَا، فعدلَ الإنسانُ الكردِيُّ عن لغتِهِ، وصارَ يتحدَّثُ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، فاندرستِ الكرديَّةُ في بعضِ المناطقِ بعد فترةٍ قصيرة وحلَّ محلَها اللغةُ التُّرْكِيَّةُ.

2) تفطَّنَ قِلَّةٌ من الأكرادِ المثقَّفين لهذه الحيلةِ، فبدؤوا بإيقاظِ بني جِلدتِهم لأجلِ إحياءِ اللُّغةِ الكرديَّةِ من جديد. فأدَّى ذلك إلى انتشارِ صحوةٍ في صفوفِهم. ولكنَّ السلطةَ ما لبثَتْ حتى استعدَّتْ لخنقِ هذه الصحوةِ في مهدِها. فبدأتْ بالضغوطِ على السياسيِّين والمثقَّفين الأكرادِ بكلِّ ذريعةٍ، فاشتدَّتِ الأزمةُ إلى حدٍّ عُوقِبَ كُلُّ مَنْ تورَّطَ فقال: "أنا كُرْدِيٌّ"، وذلك من غير تمييزٍ بين مواطنٍ عادِيٍ ونائبٍ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ من أصلٍ كردِيٍّ. وعلى سبيل المثال: حُكِمَ على الوزير الكردِيِّ (شرف الدين ألجي Şerafettin Elçi) بالسجنِ مدةَ ثلاثةِ أعوامٍ وشهرَيْن لمجرَّدِ أنَّه قال في أثناء خطابٍ له أمامَ النُّوَّاب: "أنا كُردِي"!

3) لأجلِ القضاءِ على الهويَّاتِ العرقِيَّةِ وكتمِها بصورةٍ نِهَائِيَّةٍ (ما عدا الهويَّةِ التُّرْكِيَّةِ) تَمَّتْ صياغةُ مادَّةٍ خاصَّةٍ ضمنَ الدستورِ الذي أصدرَتْهُ وأعلنَتْهُ الحكومةُ العسكريَّةُ برئاسةِ الجنرال كنعان أفرين عام **1982**م. وهذا نصُّ المادَّةِ: "إنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مَرْبُوطًا بِالدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة بِحَبْلِ الْمُوَاطَنَةِ فَهُوَ تُرْكِيٌّ"[26] كانتْ هذه الحملةُ التشريعيَّةُ ضربةً قاصِمةً على الأكرادِ، لأنَّهم أكبرُ أقلِّيَّةٍ في تركيا، وعددُهم يربو على عشراتِ الملايين. إلاَّ أنَّ الحكومةَ لم تقفْ عند هذا الحدِّ في غطرستِها، بل زادتْ عنجهيَّةً فأصدرتْ قانونًا يمنع التعبيرَ والتكلُّمَ باللُّغةِ الكرديَّةِ.

4) هذا الطغيانُ المُعلَنُ على الأكرادِ رَسْمِيًّا أنبتتْ الجُرْأةَ في نفوسِ الفاشِيِّين الأتراكِ وشجَّعتْهم على ممارسةِ المظالِمِ لقهرِ المجتمعِ الكردِيِّ وإزلالِهِ، فما لبثَ حتَّى بدأتْ تظهرُ تكتُّلاتٌ فَاشِيَّةٌ ضمنَ

[26] هذه ترجمة المادّة المذكورة: Türk Devleti'ne vatandaşlık bağı ile bağlı olan herkes Türk'tür.

أجهزةِ الدولةِ فتحوَّلتْ إلى مُنَظَّمَاتٍ سرِّيَّةٍ وعصاباتٍ إرهابيَّةٍ قامت بمطاردةِ الإعلامِيّين والمثقَّفينَ الأكرادِ، وحياكةِ المؤمراتِ ضِدَّهم. راحتْ ضحيَّتَها عشراتُ آلافٍ من رجالاتِ الأكرادِ، بينهم مُحَامُونَ، وأطبَّاءُ، ومهندسون، ورجالُ الأعمالِ، ورجالُ الدِّينِ، ونوَّابٌ في الْبَرْلَمَان، وفنَّانونَ... اخْتُطِفَ أكثرُهُم وقُتِلُوا في أماكنَ مجهولَةٍ دونَ أن يُعثَرَ على جثَثِ مُعْظَمِهِم، ولا على أحدٍ مِمَّنْ تلبَّسَ بهذهِ الجناياتِ.

عاشَ الأكرادُ في معاناةٍ من الفقرِ، والنِّزاعِ الداخلِيِّ، وضغوطِ الفاشِيِّين، وآلامِ التهجيرِ إلى المناطقِ الغربيَّةِ وهم في طوقٍ من الإستغلالِ الدِّينِيِّ والسياسِيِّ أكثرَ من قرنٍ.

***

بدأ الاستغلالُ الدينِيُّ بصورةٍ مَرَضِيَّةٍ واستعراضٍ بالغٍ في البشاعةِ على أرجاءِ المنطقةِ الكرديَّةِ بظهورِ خالِدِ البغداديّ في مدينةِ السليمانِيَّةِ العراقِيَّةِ عام **1811**م. واستمرَّ هذا الاستغلالُ بتدمير عقيدةِ التوحيد وإثارة أشكالٍ غريبة من الشرك والإحادِ، وذلك بواسطةِ خُلَفَائِهِ الْمُتَسَلْسِلِينَ بعهدٍ خاصٍّ يَرْبِطُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ عَبْرَ حَبْلِ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ الذي وصلَ (مدَّةَ قرنين من الزمن) إلى الطبقةِ السادسةِ من هذه النحلةِ، يُمَثِّلُهَا اليومَ عددٌ من رموز الشعوذةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة، أشهرُهم أُسرةٌ عربيَّةُ الأصلِ مُستَكرَدَةٌ، اتَّخذتْ مقرًّا لنفسِهَا بقريةٍ اسْمُها (مَنْزِل) قُربَ مدينةِ آدِيَامَانْ Adıyaman في جنوبِ تركيا. (بل أَعَدَّتْ وخصَّصَتْ لها هذَا المكانَ، وأوصلتْ بها إلى قمَّةِ الشهرةِ شبكةٌ استخباراتيَّةٌ مكلَّفةٌ من قِبَلِ الحكومة!)

ظهرَ تيَّارٌ آخر إلحاديٌّ في السنين الأخيرة –كَرَدِّ فعلٍ على التَّيَّارِ الصُّوفِيِّ النَّقْشَبَنْدِيِّ– الذي له أثرٌ كبيرٌ في إحباطِ الصحوةِ القوميَّةِ المتناميَةِ على الساحةِ الكرديَّةِ. أخذ هذا التيَّارُ يوجِّهُ الناشئةَ الكرديَّةَ بإمْلاءِ الفكرِ العلمانِيّ عليها بعدَ أنْ تمكَّنتْ الأحزابُ السياسِيَّةُ وشيوخُ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ من استغلالِ المجتمعِ الكرديِّ وتسخيرِهِ في تحقيقِ مصالحِهَا، فخيَّمَ الْبُؤْسُ والشقاؤُ بسببِ هذا الاستغلالِ على المنطقةِ وتَدهورتِ الأوضاعُ فيها.

يحاول هذا التيَّارُ – في الواقعِ – أنْ يقطعَ صلةَ الأكرادِ عن الإسلامِ، (أو الْمُسْلُمَانِيَّةِ بِالأَحْرَى). يتظاهرُ مُمَثِّلوا هذا التيَّارِ بـ"الْحِيَادِ الدينِيّ" وعن طريقِ احتكارِ تاريخٍ مزيَّفٍ واختلاقِ "أمجادٍ" للأكرادِ، بينما لا يَعْدُو ذلك عن محاولةٍ يائسةٍ. لأنَّهم لا يجدونَ في جَعْبَتِهِمْ شيئًا ليتسلَّوْا بهِ كمثالٍ من

"الأمجادِ" يستحقُّ الاعتزازُ به، غير شخصيَّةٍ خيَالِيَّةٍ يُرَدِّدُونَهَا في كلِّ مناسبةٍ تحت عنوان (رَاسْتَمِي زَالْ). وثَمَّةَ قصصٌ أسطوريَّةٌ مثل (مَمُو زِينْ) وَ (سِي أَحْمَدِي سِلِيفِي)... يلوكونها في مُنْتَدَيَاتِهِمْ.

أمَّا اعتزازُهم بصلاح الدين الأيُّوبِيّ، فلا يستندُ إلى حجَّةٍ علميَّةٍ، فإنَّه – لا شكَّ– شخصيَّةٌ إسلاميَّةٌ أكثر من شخصيَّةٍ كرديَّةٍ. هذه المزعمةُ شبيهةٌ بمزاعمِ الأتراكِ الذين يجعلون من السلاطين العثمانيَّةِ شخصيَّاتٍ تركيَّةً، بينما كلُّهم أشخاصٌ منتسبون إلى الإسلامِ (وإنْ كانوا منحدرين من أصلٍ تركِيٍّ)، ولكنْ لم يَفْخَرْ أحدُهم في حياتِهِ بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ. بل كانوا يحتقرون الأتراكَ، ويحطُّون من شأنهم، ويترفَّعون عن الزواج من بَنَاتِهِمْ، على حدِّ رأيِ بعضِ الباحثين، وفي ذلك أقوالٌ متضاربة..

ثمَّ وقعَ الأكرادُ في قبضةِ الأحزابِ السياسِيَّةِ التي ظهرتْ في أوساطِهِمْ خلالَ عشرين سنةٍ الأخيرةِ، وهي تدَّعي الدفاعَ عن حقوقِهِمْ وحرِّياتِهِمْ (؟). تعاقبتْ عشراتُ أحزابٍ كرديَّةٍ على المسرحِ السياسيِّ في تركيا طوالَ عقدين من الزَّمَنِ وهي تمارسُ اسغلالَ المجتمعِ الكردِيِّ وتُراهنُ على مستقبلِهِ في عِرَاكِهَا مع الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ. أشهرُ هذه الأحزابِ هي:

1) HEP: حزبُ الشعبِ الكادح.[27]
2) ÖZEP: حزبُ الحرِّيةِ والمساواة.[28]
3) ÖZDEP: حزبُ الحرِّيةِ والديمقراطيةِ.[29]
4) DEP: الحزبُ الديمقراطِيُّ.[30]
5) HADEP: حزبُ الشعبِ الديمقراطِيُّ.[31]

---

[27] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Halkın Emek Partisi. باختصار: HEP تمكّن من النشاطِ السياسِي في **07** حزيران/يونيو **1990**م. أصدرتِ المحكمةُ الدستوريّةُ الحُكمَ بإلغائِهِ في **14** تموز/ يوليو **1993**م.

[28] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Özgürlük ve Eşitlik Partisi. باختصار: ÖZEP تمّ تأسيسُهُ في **25** حزيران/ يونيو **1992**م. ألْغَى الحزبُ نفسَهُ والتحق بحزب الشعب الكادح HEP قبل أن يُصْدَرَ الحكمُ بإلغائه.

[29] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Özgürlük ve Demokrasi Patisi. باختصار: ÖZDEP تمّ تأسيسُهُ في **19** أكتوبر **1992**م. أصدرتِ المحكمةُ الدستوريّةُ الحُكمَ بإلغائِهِ في **23** نوفمبر **1993**م.

[30] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Demokrasi Partisi. باختصار: DEP تمّ تأسيسُهُ في **21** حزيران/ يونيو **1991**م. أصدرتِ المحكمةُ الدستوريّةُ الحُكمَ بإلغائِهِ في **16** حزيران/ يونيو **1994**م .

[31] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Halkın Demokrasi Partisi. باختصار: HADEP تمّ تأسيسُهُ في **11** مايو **1994**م. أصدرتِ المحكمةُ الدستوريّةُ الحُكمَ بإلغائِهِ في **13** مارس **2003**م.

6) DEHAP: الحزبُ الديمقراطِيُّ الشعبِيُّ.[32]

7) DTP: الحِزبُ المُجتَمَعِيُّ الديمقراطِيُّ.[33]

8) BDP: حزبُ السلام الديمقراطِيُّ.[34]

9) HDP: حزب الفصائل العرقية الديمقراطِيُّ[35]

كلُّ هذهِ الأحزابِ التي عرضتْ نفسَها على الصعيدِ السياسِيّ كأجهزةٍ لِحمايةِ الأكرادِ والدِّفَاعِ عن حقوقِهِمْ وحرّياتِهِمْ؛ ذهبَ المجتمعُ الكرديُّ ضحيَّةَ فسادِها، سواءٌ في نزاعِها الداخِلِيّ وفي أسلوبِ تعامُلِها مع الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ، ومُسَاوَمَاتِهَا مع القُوَى الخارجِيَّةِ. فكانتْ مصدرَ فِتَنٍ وشغبٍ وخسارةٍ على حسابِ الشعبِ الكردِيّ. ضجيجُها والإضطراباتُ التي خَاضَتْهَا في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيّ، أثارتْ عاصفةً من الفوضَى غابَ في غِمارِها وعيُ الأكرادِ، وأسفر عنها أشكالٌ من الخِلافِ والشقاقِ

---

[32] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Demokratik Halk Partisi. باختصار: DEHAP تمّ تأسيسُهُ في **24** أكتوبر **1997**م. ألْغَى الحزبُ نفسَهُ في **19** نوفمبر **2005**م.

[33] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Demokratik Toplum Partisi باختصار: DTP تمّ تأسيسُهُ في **09** نوفمبر **2005**م.. أصدرتِ المحكمةُ الدستوريّةُ الحُكمَ بإلغائِهِ في **11** ديسمبر **2009**م.

[34] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Barış ve Demokrasi Partisi. باختصار: BDP تمّ تأسيسُهُ في **02** مايو **2008**م. لا يزالُ يمارسُ نشاطَه السياسِيّ في الْبَرْلَمَان التركِيّ.

[35] اسم الحزب باللغة التُّرْكِيَّة: Halkların Demokratik Partisi. باختصار: HDP تمّ تأسيسُهُ في **11** أكتوبر **2012**م. بمشاركة سَبعِ تكتُّلاتٍ سياسيَّةٍ، وهذه أسماؤها:

1) حزب السلام والديمقراطية Barış ve Demokrasi Partisi
2) حزبُ العُمَّالِ الثورِيُّ الاشتراكِيُّ Devrimci Sosyalist İşçi Partisi
3) حزبُ المستضعفين الإشتراكِيُّ Ezilenlerin Sosyalist Partisi
4) الحزب الإشتراكِيُّ الديمقراطِيُّ Sosyalist Demokrasi Partisi
5) حزبُ إعادةِ البناء الإشتراكِيُّ Sosyalist Yeniden Kuruluş Partisi
6) حزب الخضر واليسار المستقبل Yeşiller ve Sol Gelecek Partisi

جاءَ تعريفُ هذا الحزب في عقدِ تأسيسِهِ أنَّه "حزبٌ يدافع عن حقوق الانسان بالنسبة لجميع المستضعفين من المعرَّضين للاستغلالِ، والإقصاء، والمقهورين، بسبب معتقداتهم وآرائهم، وجميعِ الأقلّيات الدينية، والنساءِ، والعُمّالِ، والكادحين، وسكان الريف، والشبابِ، والعاطلين، والمنكوبين، واللاجئين، وسائر الذين دُمِّرَتْ ساحاتُ عيشهم... يهدف الحزبُ إقامةَ حكومةٍ شعبية ديمقراطية..."

حظِيَ الحزبُ بـ**79** مقعدا في البرلمان التركي بعد فوزه بـ**13**% من الاصوات في الإنتخابات التشريعية يوم **07** يونيو **2015**م. يرأسه صلاح الدين دميرتاش Selahattin Demirtaş

أخطأ الإعلام العربيُّ في ترجمة اسم هذا الحزبِ بصيغةِ "حزب الشعب الديمقراطي"! وهذا واحد من جملة الأخطاءِ الواردة في وسائل الإعلام العربية التي لا حصر لها، مِمَّا يؤكِّدُ على جهل الإعلاميّين العربِ بواقع الدولة التركية، وخبطهم في كثير من أخبارهم عن تركيا عبر الترجمة السقيمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية، كذلك عبر تعليقاتهم وتصريحاتهم التي يودلون بها بين الحين والآخر ويربكون بها جماهير القراء.

والشتاتِ في صفوفِهم، كما استوحَى الفاشيُّونَ الأتراكُ من فشلِ هذه الأحزابِ وَضَعْفِهَا على المسرحِ السياسِيّ فأحسَّوا في نفوسِهم بِالْجُرْأةِ، فَانْقَضُّوا على الأكرادِ وعملوا على قهرِهم وإذلاَلِهم.

إنَّ السياسيّين الأكراد – في الحقيقةِ – لم يكونوا ناجحين في مقاومةِ الفاشِيَّةِ التُّرْكِيَّة. لأنَّهم، أوَّلاً: لم يكونوا مخلصينَ للشعبِ الكردِيّ؛ تَبَنَّوْا (الفكرةَ اليساريَّةَ) مكرًا وخديعةً، ليتظاهروا بذلك أنَّهم يقفونَ بجانب الكادحينَ والمستضعفينَ، وأنَّهم ضدُّ الاستغلالِ الرأسْمَالِيّ والدِّينِيّ. والحالُ هذا، أغلبُهُمْ أبناءُ الأثرياءِ، والأغاواتِ، ورؤساءِ العشائرِ، وشيوخِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ... لهم صلةٌ بالمشعوذين في مواسمِ الإنتخاباتِ، وهذا يدلُّ على نِفَاقِهِمْ.

ثانيًا: إنَّهم تجاهلوا الإسلامَ (وحتَّى الْمُسْلُمَانِيَّةَ التي هي دينُ قومِهِم)، وَتَذمَّروا عليه، تَنَاسَوْا كُلَّ ما يخصُّ الإسلامَ من قِيَمٍ وَتَنَكَّرُوا لَهَا في مَوَاقِفِهِمْ وتصرُّفاتِهِمْ ليخالِفوا بذلِكَ الفَاشِيّين الأتراكَ الذين يَتَّجِرُونَ بالقِيَمِ الإسلامِيَّةِ ويستغلُّون الدِّينَ في أَلاَعِيبِهِم السياسيَّةِ لأجلِ صيدِ العقولِ واستمالةِ القلوبِ وكسبِ الرأيِ العامّ وحصادِ الأصواتِ في مواسم الإنتخاباتِ.

ثالثًا: لم يمتازوا بالكفائَةِ اللأَّزمةِ في تخطيطِ سياسةٍ حكيمةٍ تُمَهِّدُ لهم وَسَطًا مُلاَئِمًا للحوارِ، ولا بَرَزَ فيهم أحدٌ وقفَ أمامَ الفاشِيّين رابطَ الجأشِ، وخَاطَبَهُمْ بلسانِ العقلِ والمنطقِ السليمِ في هدوءٍ وطمأنينةٍ. بل قابلوا هجماتِهم الطائِشَةَ بالأسلوبِ نفسِهِ، لِيُثِيرُوا عاطفةَ بني جِلْدَتِهِمْ بتهوُّرِهِمْ وصَوْلَتِهِمْ استعراضًا "لبطولاتِهم السياسيَّةِ!"، لكَيْ يُعجِبَ بهم المجتمعُ الكردِيُّ ولِيَفْخَرَ بِهِمْ.

كانت الجبهةُ الفاشيَّةُ المبعثرَةُ في أجهزةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ قبلَ وجودِ الأحزابِ الكرديَّةِ على المسرحِ السياسيّ، كانت تبحثُ عن ذريعةٍ تنطلقُ منها لسحقِ المجتمعِ الكرديّ في منتصفِ القرنِ المنصرمِ "تفادِيًا لِخَطَرِ التكاثُرِ الملحوظِ في المنطقة الكرديَّةِ"، خشيةَ أن تفوقَ نسبةُ الأكرادِ على نسبةِ الأتراكِ فَتَخْتَلَّ التوازُنُ الديموغرافِيُّ، فَيَقَعَ الحكمُ في يد الأكرادِ يومًا من الأيَّامِ!

ولَمَّا بدأتِ الصحوةُ القوميَّةُ تَنْبِضُ في نفوسِ الأكرادِ إثرَ انتشارِ المدارسِ الرسْمِيَّةِ في أنحاء المنطقةِ منذ **1952**م. كَرَدِّ فعلٍ على محاولاتِ الحكومةِ لِتَتْرِيكِهِمْ، ازدادَ الفاشِيُّون قَلَقًا في السنين الأخيرةِ جَرَّاءَ توقُّعاتِهِمْ وتَخَوُّفاتِهِمْ إزاءَ تكاثُرِ الأكرادِ، فاستعدُّوا لأنزالِ ضرباتٍ قاصمةٍ على المنطقةِ الكرديَّةِ بتجنيدِ تنظيماتٍ إرهابِيَّةٍ تقومُ بإثارةِ الشَّغَبِ وتهييجِ الفِتَنِ، ثم تتَّخذُها الدولةُ مبرّرًا لاستخدامِ العُنفِ

فِي المنطقةِ، فتُقامَ المذابحُ تباعًا، بُغيةَ الحدّ من ازديادِ السكّانِ فيها. عليه انطلقتِ الدولةُ السِّرِّيَّةُ (بعلمٍ من الدولةِ القانونيَّةِ!)، انطلقتْ تبحثُ عن عُملاءَ من الأكرادِ ليقوموا بهذه المهمَّةِ، فوجدوا ضالَّتَهم في خمسِ شبابٍ من الأكرادِ، الخاليّين من الحُنْكَةِ، وهم لا يزالونَ يدرسونَ في الجامعاتِ، فارغين من تجارُبِ الحياةِ، يمتازون بالجرأةِ العمياءِ، مجبولين على حبِّ المغامرة والعنف. وهم بالتحديد: عبد الله أوجلان Abdullah Öcalan، وكسيرة يلديريم Kesire Yıldırım، وخاكي قراير Haki Karaer، وجميل بايق Cemil Bayık، وكمال پير Kemal Pir.

ثم أرسل رئيسُ جهاز المخابراتِ مندوبًا اتَّصلَ بهؤلاءِ الأشخاصِ باسمِ "جبهةِ تحريرِ كردستان الموحَّدَة"، فطلبَ منهم أنْ يقوموا بإنشاءِ تنظيمٍ سياسيٍّ في الظاهرِ (لِتعميةِ الرأيِ العامِّ)، يتحمَّلُ أعباءَ تحريرِ المنطقةِ الكرديَّةِ بأساليبَ عسكريَّةٍ (في الواقعِ)، وَوَعَدَهُمْ بِدَعْمٍ قويٍّ يتمُّ بموجبِهِ تمويلُ نشاطاتِهِم بتخصيصِ مبلغٍ كبيرٍ في أحدِ البنوكِ السويسريَّةِ. وتَمَّ الإتِّفاقُ بين الطرفين. فما لبث حتى اجتمعَ الرِّفَاقُ الخمسُ في قريةِ (فيس) التابعة لقضاءِ (ليجة) التابعةِ لولايةِ (ديار بكر) يوم **27** نوفمبر **1978**م. فتحالفَ الرفاقُ فيما بينهم واتَّفقوا على أنْ يكونَ اسمُ التنظيمِ "پارتيا كارگرين كردستان Partiya Kargirin-i Kurdistan"؛ بالاختصار:PKK، ليعتقدَ كلُّ مَنْ يسمعُ بهذا الاسمِ أنَّ التنظيمَ لا يَعْدُو عن حزبٍ سياسيٍّ يمارسُ مُهِمَّتَهُ بِطُرُقٍ سلميَّةٍ من الدعوةِ والحوارِ والتثقيفِ ونحوِها.

اندفعَ التنظيمُ بِبَثِّ دِعاياتِهِ عن طريقِ قنواتِ الوشوشةِ في المنطقةِ بطلبِ الدعمِ البشريِّ. فما لبثَ حتى الْتَحَقَ بِهِ وانْخَرَطَ في صفوفِهِ آلافٌ من شبابِ الأكراد. فبدأ بنشاطاتٍ عسكريَّةٍ في المنطقةِ الجبليَّةِ على الحدودِ العراقيَّةِ–التُّرْكِيَّةِ. وهكذا تحقَّقَ المُبَرِّرُ للجيشِ التُّرْكِيِّ للقيام بحملةٍ على المنطقةِ، "لأنَّ نظامَ الدولةِ أصبحتْ أمام تمرُّدٍ مسَلَّحٍ يريدُ أن ينتشلَ رِقعةً كبيرةً من أرضِ الوطنِ، وهذا تهديدٌ يستوجِبُ الدفاعَ عنها والمواجهةَ باستخدامِ السلاحِ ألبتَّةَ، ويؤَكِّدُ ذلك في الوقتِ ذاتِهِ على شرعيَّةِ التنكيلِ بالعُصاةِ دفاعًا عن الوحدةِ الوطنيَّةِ وسلامةِ الشعب."

لهذه الإنطلاقةِ تفاصيلُ كما كانت لها تبِعاتٌ لابُدَّ من الإلْمَامِ بها على وجهِ الإختصارِ تَتْمِيمًا للموضوع كما يلي:

أوّلاً: يُستَبعَدُ أن يكون الرموزُ الخمسُ ومَنْ اغترَّ بهم من أبناءِ المنطقةِ الكرديَّةِ الذين وقعوا في حبالِ الفاشِيِّين ضمن صفوفِ هذا التنظيمِ، يُستَبعَدُ أن يكونوا قد أَقْحَمُوا أنفُسَهم في خيانَةٍ مكشوفةٍ تَعَمَّدُوهَا، وسعوا لإشعالِ فتنةٍ وهم يعلمون أنَّ الشعبَ الكرديَّ سوفَ يذهبُ ضحيَّتَهَا. إنَّ هذا شيءٌ مستحيل. ولكنَّ الواقِعَ يبرهنُ على أنَّ هذه المجموعَةَ كانوا من أجهلِ الناسِ بالسياسةِ والقيادةِ، وأَبْعَدِهِمْ عن استدراكِ دقائق أمورِ الحياةِ، وعن تسييسِ العقولِ وتوجيهِ الآراءِ؛ كما كانوا مارِقِينَ عن الدِّينِ، مُنْسَلِخِينَ من عقيدةِ بني قومِهِمْ، حاقدين على الْقِيَمِ الإسلاميَّةِ المقدَّسَةِ، غافلين عن حقيقةِ الخطرِ الشوفِينِيِّ المتفاقِمِ بين المتطرِّفين الأتراك. لم يكن قد حظِيَ أحدٌ من هؤلاءِ الشباب بأدنى شيءٍ من المعرفةِ عن الحالة الإجتماعيةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ بأسلوبٍ علمِيٍّ وموضوعِيٍّ شاملٍ، ولا بآدابِ العلاقاتِ والأخلاقِ والتعاملِ السليمِ... وإنَّما كانوا من أهلِ التقليدِ الأعمى، معجِبِينَ بأنفسِهِمْ، مكابِرِينَ يستخفُّون بكلِّ مقدَّسٍ، متهوِّرين، مغترِّين بجُرْأَتِهِم العمياءِ، مستبدِّين في تصرُّفاتِهِم، مجبولين على استعمالِ العنفِ وكراهيَّةِ السلامِ، غيرَ مكترثين بالمشاورة والحوارِ والتجاوُب... لم يكن غرضُ هولاءِ الشبابِ أصلاً المطالبةَ بالإستقلاليَّةِ الثقافيَّةِ أو الاهتمامِ بالمنطقةِ الكرديَّةِ، بل انسحبوا من وراءِ أحلامٍ وألقوا أنفسَهم في مغامرةٍ خطيرةٍ لم يُفَكِّرُوا في عواقِبِهَا قطُّ، ولم ينتبهوا يومًا من الأيَّامِ أنَّ الكمين الذي وقعوا فيه إنَّما كان من تَدْبِيرِ أعدائِهِمْ وأعداءِ قومِهِم.

فلما عجزتْ الشبكةُ الإستخباراتيَّةُ المكلَّفةُ من قِبَلِ الدولةِ العميقةِ بتوجيهِ (بي كَ كَ)، لما عجزتْ عن التحكُّمِ فيه، وفقدتِ السيطرةَ عليه، لجأتْ إلى تأسيسِ حركةٍ سِرِّيَّةٍ إرهابِيَّةٍ أُخرى باسم (حزب الله)[36] فجنَّدتْهَا لقتالِ (بي كَ كَ)، لأنَّ تنظيمَ (بي كَ كَ) سرعان ما انفلتَ من عنانِ الفاشِيِّين الأتراكِ، وبدأ بالهجومِ على ثكناتِ الجيش التُّرْكِيِّ في بلداتٍ حدودِيَّةٍ عدَّة.[37] فاتَّسعَ المجالُ للشبكةِ في أعقابِ هذا التطوُّرِ وتَهَيَّأَتِ الْمُبَرِّرَاتُ للفاشِيِّين المُندسِّين في صفوفِ الجيشِ التُّرْكِيِّ وأجهزةِ الدولةِ، بعد وجودِ هذا التنظيمِ، فوجدوا الفرصةَ للانقضاضِ على المنطقةِ الكرديَّةِ، والقيامِ بأعمالٍ وحشيَّةٍ ومذابحَ، وتدميرِ القُرَى والمزارِعِ وحرقِ الغاباتِ، وتلويثِ ينابيعِ المياهِ بالسمومِ على مدى ثلاثين عامًا، ذهبَ ضحيتَها عشراتُ آلافٍ من الأكرادِ شيوخًا وشبابًا ونساءً وأطفالاً. واضطرَّ

---

[36] هذا التنظيم، يجب تمييزه عن حزب الله الشيعي اللبناني. ظهر حزبُ الله (التركي أو الكردي بالأحرى) في أواخر الثمانينات خلال قتال بين الانفصاليين الاكراد والقوات التُّرْكِيَّة. وقُتِلَ عشراتٌ من أفراده المستهدفين بسبب تعاطفهم مع الانفصاليين الاكراد. وحزب الله التركي ليس له صلة بحزب الله اللبنانِيِّ الشيعِيِّ. وتمَّ تفكيك حزبِ الله التُّرْكِيِّ وأُلْقِيَ القبضُ على زعمائِهِ عام **2000** بعد أن استخرجت الشرطةُ التُّرْكِيَّة أكثرَ من **60** جُثَّةً عذَّبَهُمْ الإرهابيّون من حزبِ اللهِ حتى لفظوا أنفسهم.

[37] استمرّتِ الإشتباكاتُ بين الطرفين من عام **1984** حتى **2012**م. حيثُ أُعْلِنَتِ الهُدْنَةُ وبدأت المفاوضات بين الحكومة التُّرْكِيَّة وقيادة التنظيم لأجل التصالح.

الملايينُ منهم للهجرةِ إلى غربِ البلادِ حيث تعرَّضوا هناكَ لأشكالٍ من التهميشِ، والقهرِ، والإذلالِ، والسَّحْقِ، والصَّهْرِ الثقافِيّ... فتعطَّلت دورةُ الحياةِ من أداءِ الخدماتِ الإجتماعيَّةِ والتعليمِ والرعايَةِ الصحيَّةِ، فتخلَّفتِ المنطقةُ الكرديَّةُ وتدهورتْ الأوضاعُ فيها وتضاعفتِ المشاكلُ بسببِ الاشتباكات التي دامت تتجدَّدُ يوميًّا بين تنظيم (بي كَ كَ) والجيشِ التُّرْكِيّ طوالَ ثلاثَةِ عقودٍ من الزمن. وأعلنتِ الحكومةُ حالةَ الطوارئِ في عدَّةِ ولاياتٍ بالمنطقةِ الكرديَّةِ مِمَّا زاد من التضييق على السكان. فانتشرَ الفسادُ وانْهارَ الأخلاقُ وعمَّ الفوضَى في المنطقةِ، وامتلأتْ قلوبُ السُّكانِ بالرُّعبِ، وخابتِ الآمالُ، واقتُحِمَتِ الحُرُماتُ، وتعرَّضَ آلافُ الأكرادِ للاغتيالاتِ والتعذيبِ وماتَ منهم كثيرون، وساءتِ الحالةُ الإقتصاديَّةُ على مستوى البلدِ بشكلٍ عامٍّ...

ثانيًا: أحْدَثَتِ الحكومةُ مؤسَّسةً أمنيَّةً استثنائيَّةً "لِحِرَاسَةِ القرَى الكرديَّةِ" بتجنيدِ أفرادٍ من سُكَّانِ هذه القُرى مقابِلَ راتبٍ شهرِيٍّ لكلٍّ منهم، وذلك لأجلِ "مكافحةِ الإرهابِ الذي يثيرُهُ تنظيمُ (بي كَ كَ) في المنطقةِ". فما لبِثَ حتَّى تحوَّلَ هذا (التدبيرُ!) إلى مشاكِلَ متعدِّدةِ الوجوهِ زادتْ من الشقاقِ بين الأكرادِ، ومضاعفةِ العداوةِ بين العائلاتِ والقبائلِ الكرديةِ. لأَنَّ السكَّانَ عَدُّوا هؤلاءِ الْحُرَّاسَ من بِطَانَةِ النظامِ وجواسيسِهِ وعيونِهِ، ونظروا إليهم بعين الْبُغضِ وَالْغَضَبِ، فأصبحَ كلُّ طرفٍ عدوًّا للآخر، أسفر ذلك عن قتالٍ بين الْحُرَّاسِ والنُّشَطَاءِ الْمُنْتَمِينَ إلى تنظيم (بي كَ كَ) بإيعازٍ من السُّكَّان.

استخدمت الحكومةُ **77** ألفَ شخصٍ في هذه الوظيفةِ بين أعوام: **1985**م.-**1997**م. ثم بَلَغَ عددُهم إلى **85** ألفَ حارسٍ في عامِ **1993**م. فأصبحوا بذلك جيشًا متكاملاً من الْمِليشياتِ الأكرادِ. إلاَّ أنَّ كثيرًا من هؤلاءِ تلبَّسوا بجرائمَ مختلفةٍ بسببِ اعتمادِهِمْ على السلاح الذي منحتْهم الحكومةُ مستفيدين من الظروفِ التي تسودُ المنطقةَ، فمنهم مَنْ تواطأ سِرًّا مع كتائب (بي كَ كَ) أثناءَ مداهماتِهَا لِلْقُرَى، ومنهم مَنْ أجْرَمَ بالسطوِ على المواطنين، وباغْتِصَابِ الأموالِهم وممتلَكاتِهِمْ، ومنهم مَنْ تورَّطَ في أعمال التهريبِ وتجارةِ المخدِّراتِ إلى غير ذلك من أنواع الخروج على القانون مِمَّا أثار الجدلَ حولَ هذا الكيانِ المشبوهِ حتى أخذت الحكومةُ تُفَكِّرُ في إلغاءِ هذه المؤسَّسَةِ سنة **2013**م.. إلاَّ أنَّها عادتْ فحرّكتْ عجلةَ هذا التنظيم مجدَّدًا بعد أن فشل الطرفان (الحكومة وتنظيم بي كَ كَ) في نهاية لقاءات التفاوض عام **2016**م.

هذا وبالاختصار؛ إذا تأمَّلْنَا في ضخامة القوات المسلحة التركية التي تَمَّ نشرُ ربع مليون جندِي منها على المنطقةِ الكرديَّةِ، بالإضافةِ إلى ميلشيَّات (حُرَّاسِ الْقُرَى)، و(كتائبِ الموتِ) و(عصاباتِ الثورةِ المضادَّةِ)، و(حزبِ اللهِ).. تظهرُ المأساةُ التي تعرَّضَ لها المجتمعُ الكردِيُّ طوالَ العقودِ الثلاثةِ الأخيرة.

ثالثًا: كثُرتْ نشاطاتُ المشعوذِين في المنطقةِ الكرديَّةِ كنتيجةٍ للذُّعر الذي دفعَ الناسَ للاستغاثَةِ بِهِمْ، فتهيَّأتْ بذلك الفرصةُ للفاشِيِّينَ الذين طالَمَا يستغلُّونَ الضمائِرَ باستخدامِ آلية الدِّينِ ومقدَّساتِهِ، بالتعاون مع شيوخِ الطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، فقاموا بتصعيدِ الدعاياتِ لهم لِصَرْفِ وجوهِ الناسِ عن الإشتغالِ بالسياسةِ، وتتريكِ الأكرادِ، وطمسِ الشعورِ بالقوميَّةِ الكردِيَّةِ، وإخمادِ الصحوةِ الإسلاميَّةِ الصحيحةِ في المنطقةِ. فتشبَّثَ الناسُ بالشيوخِ في جزعٍ وهلعٍ، فَطَغَتِ العاطفيَّةُ والتزمُّتُ على أهلِ المنطقةِ؛ فكان هذا التطوُّرُ من مكاسبِ الفاشِيِّين الذين وجدوا ضَالَّتَهُمْ وظفروا بها دون أن يُكلِّفَهم مؤنةً.

رابعًا: كان لِتنظيمِ (بي كَ كَ) أثرٌ كبيرٌ في تفاقُمِ الفِتَنِ، وتدهورِ العلاقاتِ بين تركيا والعراقِ وسوريَا وبقيَّةِ دولِ المنطقةِ. ذلك؛ أنَّ هذه المنطقةَ حسَّاسةٌ إلى حدٍّ بعيد، لِتَنَوُّعِ سُكَّانِهَا العرقِيِّ والطائِفِيِّ وما يتبعُ هذا التنوُّعَ من العقائِدِ المتضارِبَةِ، وكثرةِ المذاهبِ والطرائِقِ الصوفيَّةِ، والتيَّاراتِ الفكريَّةِ والفلسفيَّة، والأحزابِ السياسِيَّةِ، والتنظيماتِ السِّرِّيَّةِ، والبِدَعِ والخرافاتِ والأساطيرِ المنتشرةِ في أنحائِها.

خامسًا: لعبَ تتنظيمُ (بي كَ كَ) دورًا كبيرًا في زعزعة العلاقات بين تركيا والغربِ، خاصةً بعد احتلالِ أميركا للعراق. ظهرَ في غضونِ ذلك أنَّ أميركا تلقَّتْ دعمًا كبيرًا من إدارةِ المنطقةِ الكرديَّةِ في العراقِ، فظلَّتْ هذه المنطقةُ آمنةً أثناءَ الإحتلالِ، كنيجةٍ للتعاونِ بين الطرفينِ (الأميركيَّةِ والكرديَةِ). بينما القواتُ الأميركيَّةُ ارتكبتْ في المنطقةِ العربيةِ مجازرَ وجناياتٍ بقتلِ ملايينَ من المدنيِّين العُزَّلِ، عدا ما فعلتْ من الهدمِ والتدميرِ والنهبِ والاغتصابِ.. ما يجلُّ وصفُها. لكنَّهَا لم تُطلِقْ حتى رصاصًا واحدًا على المنطقةِ التي تعتصمُ فيها تتنظيمُ (بي كَ كَ) ضِمْنَ الأراضِي العراقيَّةِ، ذلك رغمَ إدعاءِ الأميركيِّين في كلِّ مناسبةٍ، "أنَّ هذا التنظيمَ مُدْرَجٌ في القائمةِ السوداءِ عندَهم!". فيجبُ الاستدراكُ هنا: أنَّهُ من المستحيلِ أنْ تتجاهلَ الحكومةُ التركيَّةُ هذه الحقيقةَ. وهذا لا شكَّ يبرهنُ على أنَّ دَنْدَنَةَ زعماءِ الطرفين (التركيَّةِ والأميركيَّةِ) "بوجودِ الوفاقِ والتعاونِ التامِّ بينهما"، لا تعدو عن مزعمةٍ

مكشوفةٍ ثَبَتَ بِهَا أنَّ الحكومةَ التركيَّةَ اضطرَّتْ أخيرًا (في عهدِ رجب طيب أردوغان) إلى الجلوسِ على طاولةِ المفاوضاتِ مع زعماءِ (بي كَ كَ) بدافع الضغطِ من أميركا.

سادسًا: نشأتْ جبهةٌ عنصريَّةٌ مؤلَّفةٌ من النَّقْشَبَنْدِيّينَ الأتراك بجهودِ شركةٍ عملاقةٍ لهم. قامتْ بتمويلِ الحركةِ الفاشيَّةِ وتوجيهِهَا وتجنيدِها لِبَثِّ تعاليم النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، والتمسُّكِ بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ، ونشرِ الكراهيَّةِ ضد العربِ والأكرادِ في أنحاءِ تركيا. حدثَ هذا التطوُّر من قبيلِ التحدّي للصحوةِ الكردِيَّةِ بعدَ ظهورِ التنظيم الإرهابيّ المعروف بـ"PKK".

تمكَّنَتْ هذه الشركةُ من احتواءِ ثلاثِ عائلاتٍ شهيرةٍ من مشائخِ الأكرادِ منذ نصفِ قرنٍ، تقوم باستغلالِ جماهيرِ النقشبنديّين في المنطقةِ الكرديَّةِ عن طريقِ هذهِ العائلاتِ الثلاثِ، وهي بالترتيب: الأسرةُ النَّهْرِيَّةُ، وَالأُسْرَةُ الأَرْوَاسِيَّةُ، وَالأُسْرَةُ التَّاغِيَّةُ... ترتبطُ هذه الأُسَرُ الثلاثُ فيما بينها بعهدٍ تَعَاقَبَتْ على أساسِها طوالَ ما يناهز قرنين من الزمان.

***

تتلخَّصُ خصوصيَّاتُ هذه الجبهةِ ونشاطاتُها فيما يلي:

هذه الشركة التي تشجِّعُ العنصريةَ التُّرْكِيَّةَ بتمويلِ عِدَّةِ مراكزَ للنقشبنديّينَ الأكراد، كانت لها نواةٌ منذ أكثرَ من نصفِ قرنٍ برزتْ إلى حيّزِ الوجودِ بمحاولاتِ رجلٍ عسكريٍّ بِرُتْبَةِ عقيدٍ (بعد أنْ أُحِيلَ على التقاعد). شمَّرَ هذا العسكريُّ عن ساعدِ الجدِّ لتعبئَةِ وتجنيدِ جماعةٍ من الشبابِ الأتراك المثقَّفين. كان هذا الرجلُ قد استغلَّ شيخًا من مشاهيرِ شيوخِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ (اسْمُهُ: عبدُ الحكيمِ الأرواسِيُّ). فتشبَّثَ به حتَّى جعله رائدًا من رُوَّادِ النقشبنديّينَ، وأكسَبَهُ شهرةً غيرَ مسبوقَةٍ. والأرواسِيُّ هذا، كان قد هاجرَ من المنطقةِ الكرديَّةِ إلى إسطنبول سنة **1919**م. وماتَ في أنقره سنة **1924**م. ينتمِي إلى الأسرةِ الأرواسِيَّةِ المستقِرَّةِ بجوارِ مدينة (وَانْ Van). وهي إحدَى العائلاتِ المشهورةِ في المنطقةِ. أقحمَ نفسَه في مغامراتٍ سياسيَّةٍ واشتهرَ في أعقابِها، والدولة العثمانيّةُ تلفظُ يومئذٍ أنفاسها الأخيرة.

يزعم رجالُ هذه الأسرةِ أنَّهم ينحدرونَ من سلالةِ الحسينِ بْنِ عليّ ابْنِ أبي طالبٍ، ومع ذلك يَتَعَصَّبُونَ للقوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ في العهدِ الجمهورِيّ، بينما كانو في العهدِ العثمانِيّ يَتَعَصَّبُونَ للقوميَّةِ الكردِيَّةِ ويكرهون الأتراكَ، كما يبرهن على ذلك تَمَرُّدُهُمْ على الحكمِ العثمانِيّ واحتلالُهُمْ (الفاشلُ)

لِمَدِينَةِ بِتْلِيسَ يوم 12 أبريل 1914م. على رأس طَغَامٍ من المرتزقةِ يقودهم ثلاثُ شيوخٍ جَهَلَةٍ (وهم: شهابُ الدين، ومحمّد شيرين، وسيِّد علي). قَبَضَ عليهمُ الأتراكُ الْمَدَنِيُّونَ من أهالي بِتْلِيسَ وسَلَّمُوهُمْ إلى القاضي، فَتَمَّ تنفيذ الإعدامِ فيهم عَلَى الْفَوْرِ.[38] بمنطقةِ (گوك ميدان Gökmeydan).

صرفتْ (شركةُ الإخلاصِ العملاقةُ) أموالاً طائِلةً في أعمالِ الدعايةِ بنشرِ الكُتُبِ والمجلاَّتِ، وتأسيسِ قنواتٍ فضائيَّةٍ، واستخدامِ آلافٍ من المتطوّعين لِبثِّ الطريقةِ النقشبنديَّةِ، تأتي على رأسِ أهدافِها: ترسيخُ العنصريَّةِ التُّرْكِيَّةِ – على أساسِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ بالحفاظِ على مَيِّزاتِها الهنديَّةِ– وتتريكُ الدين الإسلامِيّ... تفاديًا لـِ"إِسْلامِ العربِ الوهَّابِيِّ"، على حدِّ نظرتِهم للإسلامِ الذي يتمثَّلُ في تعاليمِ القرآنِ الكريمِ. كما استغلَّتِ الشركةُ رهطًا من شيوخِ الأكرادِ ومثقَّفِيهم لتعميَةِ أهلِ المنطقةِ الكرديَّةِ تحتَ شعارِ "الأُخُوَّةِ الدينيَّة!". كلُّ ذلك لِطمسِ الهويَّةِ الكرديَّةِ.

اشتهرتْ هذه الجبهةُ النقشبنديَّةُ العنصريّةُ باسْمِ (إِيشِكْجِيلاَرْ Işıkçılar). استوحتْ من لقبِ مؤسّسِها العقيد حسين حلمِي إِيشِيكْ.

فلمَّا ظهرَ تنظيمُ (بِي كَ كَ)، ودبَّ على أثرِ نشاطاتِها الشعورُ بالكيانِ الكردِيّ في نفوسِ سكانِ المنطقةِ الشرقِيَّةِ، تصدَّتْ هذه الجبهةُ بتجنيدِ قُوَاهَا لإحباطِ الصحوةِ الكردِيّةِ، فاستغلَّتْ هذه المرَّةَ شخصًا آخرَ أيضًا من الأسرةِ الأرواسِيَّةِ اسمُهُ (أحمد الأرواسِيُّ). استخدمتْهُ في طمسِ الهويَّةِ الكردِيَّةِ.

[38] هذه رثاء باللغة الكردية، أنشدها الأكراد لشيوخهم الثلاثة بعد تنفيذ الإعدام فيهم:

hey felekê, sed car hawar felekê,
hawar dikim tu dey nakî
hay felekê sed car hawar felekê.
ehlê rom-êli hev civîyane
xwendin fermana seyidane.
dayika sêxa tu bilezîne
xurca zêra bi xwe r’ hilîne
her stembolê li têla xîne;
têla li ser têla tu bisîne
hedîkê ji waliyê re bisîne;
belki hefwa mala xewis bîne;
van seyida neseniqîne;
ez çum bedlisê gelî bi gelî
jê derxistin cotik welî
girtin sêx sahabedîn seyid elî
avêt bi darê de.
serît qetîya ji alî xwedê de
xîret ne ma di islamê de.
hey felekê sed car hawar felekê

صَدَرَ له كتابٌ[39]. استعرضَ عَبْرَهُ ألوانًا من أفانينِهِ في تشويهِ جوانبَ كثيرةٍ للحقائقِ التاريخيَّةِ المتعلِّقَةِ بالكيانِ الكردِيّ.

استطاعتْ الجبهةُ أنْ تمنَعَ الْمَسَاسَ بحياةِ هذا الرجلِ باستخدامِ شبكةٍ خاصَّةٍ تعهَّدتْ حِرَاسَتَهُ في أيَّامٍ لم ينجُ فيها من غَضَبِ الإرهابيّينَ الأكرادِ أحدٌ نالَ من قومِهم بأدنىَ كلمةٍ. مات أحمد الأرواسِيُّ حتفَ أنفِهِ يوم **31** ديسمبر سنة **1988**م. بعد أنْ تركَ هذا الكتابَ الغريبَ الذي يحملُ بين طيَّاتِهِ رُكَامًا من التدليسِ والتحريفِ والمجازفةِ والمبالغةِ والعبثِ بالثوابتِ التاريخيَّةِ... وهذه مقاطعُ مُقتَبَسةٌ منه عَرَّبْنَاهَا على قدرِ الإمكان:

يقولُ المؤلِفُ: "تُثَارُ عاصِفةٌ في الرأيِ العامّ العالمِيّ فَتَتَرَاءَى له؛ كأنَّ المنطقةَ الشرقِيَّةَ بكامِلِهَا كانت منطقةً كرديَّةً على مدى تاريخِها. وكأنَّ هناكَ يعيشُ قومٌ غير التُّرْكِ!"

"والحالُ هذه؛ فإنَّ البناءَ الإجتماعِيَّ والثقافِيَّ لِمِنْطَقَتَيْ (شَرْقٍ) و(جنوبِي شَرْقٍ) أناضولِنا قد تعرَّضتْ لِتَغَيُّراتٍ بصورةٍ مُتَكَرِّرَةٍ، كما تعرَّضَتِ المنطقةُ لاحتلالاتٍ مختلفةٍ فتغيَّرَ فيها البناءُ السُّكَّانِيُّ. وقد يُنْبِؤُنَا التاريخُ: أنَّ أرَاضِيَنَا الشرقِيَّةَ كانت قد تعرَّضتْ قديمًا للاحتلالِ من قِبَلِ: الحُرِّيّين (المِيتَانِيِّين)، والحِتِّيِّين، والأُورارْتُو، وَالسَّقَوِيِّينَ، وَالْفُرْسِ، والْمِيدِيِّينَ، وَالْمَقَدُونِيِّينَ، والمسلمين العرب، والبِيزَنْطِيِّين... قد حكمتْ هذه الأقوامُ المنطقةَ قليلاً أو كثيرًا من الزمن. فيجبُ إذنْ أنْ نُوَضِّحَ تعقيبًا على ذلِكَ بِأَنَّهُ لم يسبِقْ أنْ كانتْ هناكَ منطقةٌ جغرافيةٌ اسمُها (كُرْدِسْتَان)، ولا قامتْ في منطقتِنا هذه – على مَدَى تلك المراحلِ التاريخيَّةِ– دولةٌ باسمِ (الدولةِ الكرديَّة)"[40].

---

[39] اسم الكتاب: DOĞU ANADOLU GERÇEĞİ. مؤلَّفٌ باللُّغةِ التُّرْكِيَّة، من منشورات دار: Boğaziçi. طُبِعَ في أنقرة عام **1992**م.

[40] وهذا نصُّ كلمات المؤلّف أحمد الأرواسِيّ باللغة التُّرْكِيَّة في المصدر السابق **8/2**:

Dünya kamu oyunda öyle bir hava estirilmektedir ki, sanki bütün «Şark», bütün tarihi boyunca «Kürdistan»dır ve orada Türk'ten ayrı bir kavim olarak «Kürtler» yaşamaktadır.

Oysa Doğu ve Güney-Doğu Anadolu'muzun tarihî, içtimaî ve harsî yapısı, bütün tarih boyunca sık sık değişmiş; bu bölgemiz, zaman içinde çeşitli istilâlara maruz kalmış ve nüfus yapısı itibarı ile büyük değişikliklere uğramıştır. Tarihten öğreniyoruz ki, bugünkü «Şark topraklarımızda» vaktiyle Hurriler, Hititler, Urartular, Sakalar, Persler, Medler, Makedonyalılar, Müslüman Araplar ve Doğu Romalılar, uzun veya kısa süreli hâkimiyet kurmuşlardır. Hemen belirtelim ki, bu tarih dönemleri içinde, bu bölgemizde ne «Kürdistan» diye bir coğrafya ismi vardır, ne de bir «kürt devleti» mevcuttur.

إن كلماتِ الأرواسِيّ هذه، لا تحتاجُ إلى أيِّ تعليقٍ أصلاً. إلاَّ أنَّ القارئَ قد يتسائَلُ عمَّا يَكْمُنُ في ثنايا سطورِهِ من ضروبِ التناقُضِ والتضارُبِ والخلطِ، فيجبُ التنبيهُ على بعضِ النقاطِ منها لإظهارِ ما يتخلَّلُهَا من كلمةِ حقٍّ أُريدَ بها الباطل.

فَعَلَى سبيلِ المثال، عندما يقول: "أنَاضُولُنَا"، ولا شكَّ في أنَّهُ يقصِدُ بمثلِ هذه الصيغةِ الْمُصْطَنَعَةِ وبهذهِ النِّسْبَةِ الزائفةِ: "أنَّ منطقةَ أناضول كانت الوطنَ الأصليَّ للأتراكِ منذُ قرونٍ سحيقةٍ"، والحقيقةُ عكسُ ذلكَ. لأنَّ الأتراكَ إنَّما زحفوا على هذه المنطقةِ بعد الإستيلاءِ على ملازكيرد. عام 1071م.[41] بينما كان الأكرادُ من السكَّانِ الأصليّين لهذهِ المنطقةِ قبل وصولِ الأتراك إليها بقرون. وحتَّى لفظةُ "أناضول": كلمةٌ إغريقيَّةٌ أصلها Anatolia؛ ἀνατολή باليونانيَّةِ. ولا تمتُّ هذه الكلمةُ بصلةٍ إلى تسميةِ الساحةِ الجغرافيَّةِ لِ(تركيا) بلفظِ Anadolu. وهي تسميةٌ زائفة، ومحاولةٌ فاشلةٌ وقع فيها مَنْ تعمَّدَها لغرضٍ في نفسِهِ، فَشَاعَ استعمالُها بهذه الصيغةِ المُحَرَّفَةِ، وربَّما لِتأْتِيَ بمعنى: "مليئةٌ بالأُمَّهَاتُ"! في اللغةِ التُّرْكِيَّةِ. ولا يَعْدُو ذلك عن هُراءٍ وفسادٍ في المنطقِ.

عِنْدَمَا يقول الأرواسِيُّ: "أناضولُنا قد تعرَّضتْ لِتَغَيُّراتٍ بصورةٍ مُتَكَرِّرَةٍ، كما تعرَّضَتِ المنطقةُ لاحتلاَلاَتٍ مختلفةٍ فتغيَّرَ فيها البناءُ السُّكَّانِيُّ. وقد يُنْبِؤُنَا التاريخُ: أنَّ أرَاضِيَنَا الشرقِيَّةَ كانتْ قد تعرَّضتْ قديمًا للاحتلالِ من قِبَلِ: الحُرِّيِّين والحِتِّيِّين... إلخ"، يحتالُ بمثلِ هذه الصيغةِ المتضاربَةِ كَيْ يُزيِّنَ للعقولِ القاصِرةِ ويُلبِسَ عليها: أنَّ (أناضولَهُ) قد تعرَّضتْ لاحتلالِ هذه الأقوامِ بعد أنْ استوطنَهَا الأتراك! وهذا احتقارٌ للعقولِ وازدِرَاءٌ بها.

وعِنْدَمَا يقول: "لم يسبِقِ أنْ كانتْ هناكَ منطقةٌ جغرافيَّةٌ اسمُها (كُرْدِسْتَان)، ولا قامتْ في منطقتِنا هذه – على مَدَى تلكَ المراحلِ التاريخيَّةِ– دولةٌ باسمِ (الدولةِ الكرديَّةِ)"؛ يتورَّطُ في دَرْكٍ من الخبطِ ويقعُ في مَأْزِقٍ خطير. لأنَّ هذا الإدِّعاءَ الجريئَ منه قد سجَّلهُ التاريخُ على ذِمَّتِهِ إلى يوم القيامةِ حيث فاتته فرصةُ الإعتذارِ على فرض لو كان أحسَّ بالندمِ على ما بَدَرَ منه قبل موتِهِ!

أمَّا تسميةُ المنطقةِ ب"كُرْدِسْتَان"، فيزعم البعضُ أنَّها تعودُ إلى عهد السلاجقةِ في أيام السلطان سنجر. وأمَّا قوله: "عن كونِ دولةٍ لم يسبِقْ لها وجودٌ باسمِ (الدولةِ الكرديَّةِ) في أي مرحلةٍ من مراحلِ

---

[41] وردتْ في هذا المصدرِ (DOĞU ANADOLU GERÇEĞİ) على صِغَرِ حجمِهِ، وردتْ فيه كلمةُ (ملازكيرد Malazgirt) إحدَى عَشْرَةَ مرةً، يدلّ ذلك على اهتمامِ المؤلّف بفتحِ هذه المدينةِ واعتزازه ببطولات الأتراك وأمجادِهم، كما يدلُّ في الوقت ذاتِهِ على مدى موقفه المحتقر لبقية الأعراق والطوائف التي يتألّفُ منها النسيجُ الإجتماعيُ للمجتمعِ التُّرْكِيّ.

التاريخ"؛ فلا شكَّ في ذلكَ. لكنَّ الإحتجاجَ بهذه الحقيقةِ لا يبرّرُ نفيَ الكيانِ الكردِيِّ، ولا تجاهُلَ الاسمِ الذي عُرِفَتْ به المنطقةُ منذ قرون.

يقول الأرواسِيُّ في موضعٍ آخر من كتابِهِ: "إنَّ الأتراكَ لَمَّا جاءوا إلى أناضولَ لم تكنْ يومئذٍ هناكَ دولةٌ أرمنيَّةٌ ولا دولةٌ كرديَّةٌ. يُلاحَظُ أنَّ الدولةَ البيزنطيَّةَ كأنَّها كانتْ هي التي تراقِبُ على المنطقةِ الأَناضوليَّةِ. تلك الأناضولِ التي كانتْ سهولُها خالِيَةً، وقُراها وَبَلَدَاتُها خَرِبَةً مهجورةً. هذه المنطقةُ لم تكنْ مأوًى لأحدٍ، بل كانتْ مُدُنًا صغيرةً محاطةً بالأسوارِ وفيها قليلٌ من السُّكَّانِ، يسيطرُ عليها اللُّصوصُ وقُطَّاعُ الطُّرُقِ. كانتْ منطقةً جغرافِيَّةً لا صاحِبَ لها."

هكذا يرسم الأرواسِيُّ الصورةَ القديمةَ لمنطقةِ (أناضول)، كما يحلو له أنْ يتخيَّلَها لِيُلْقِيَ الكلمةَ على عَوَاهِنِهَا، فيقولَ: "إنَّ المنطقةَ كانتْ خالِيةً من الأكرادِ، أو خاليةً تمامًا"!

يواصلُ الأرواسِيُّ أسلوبَهُ على هذا النَمَطِ من الإنكارِ والإحتقارِ والكراهيَّةِ وتمييعِ الحقائِقِ... ويزدادُ تخبُّطًا حين يقول: "لاَ ينبغِي أنْ ننسَى أنَّنا لَمَّا اتَّخَذْنَا أناضولَ وَطَنًا، لم يكنْ معظمُ الدُّوَلِ الموجودَةِ في يومنا قائِمةً في تلك المرحلةِ.". والمُلفِتُ من هذهِ الكلماتِ قوله: "إنَّنا لَمَّا اتَّخَذْنَا أناضول وطنًا..."؛ والحالُ، أنَّ الأسرةَ الأرواسِيَّةَ هي من تلكَ العائلاتِ العربيَّةِ التي فرَّتْ فَوْرَ سقوطِ الدولةِ العبَّاسِيَّةِ على يدِ المغولِ من بغدادَ إلى موطِنِها اليومَ بجوارِ مدينة (وَانْ Van) الواقعةِ في المنطقةِ الكرديّةِ، وذلك سنة **1258**م. بينما دخلَ الأتراك هذه المنطقةَ عام **1071**م.، أي قبل هجرةِ الأرواسِيّين بـ**187** عامًا، مما لاَ شكَّ فيه أنَّها أسرةٌ دخيلةٌ وليستْ من السُّكَّانِ الأصلِيّين لهذه المنطقةِ. زِد على ذلكَ؛ أنَّ الأكرادَ هم الذين آوَوْا هذه الأسرةَ، وأكرموها لِنِسْبَتِها إلى السلالةِ الحسينيَّة الهاشِمِيةِ، ولِصِلَتِهَا النسبِيَّةِ بالرسولِ محمدٍ عليه السلام. ومع أنَّ ملايين الأكرادَ الْتَفُّوا حول هذهِ الأسرةِ وتفانوا في محبَّتِها، وافتدوا بأموالِهم وأرواحِهم في سبيلِها أيَّامَ تمرُّدِها على الدولة العثمانيَّةِ، وقدَّسوا حتَّى كِلاَبَها، وَبَنَوْا على أمواتِها قِبَابًا، وجعلوا منها أضرحةً حَلَفُوا بِهَا وأشركوها مع الله!

لعلَّ الأرواسِيُّ أرادَ بهذا الموقفِ السلبِيِّ من الأكرادِ أنْ يقعَ ذلك منه موقعَ الإعتذارِ للدولةِ التُّرْكِيَّة عمَّا قامَ به كِبارُ أُسرتِهِ من التمرُّدِ عليها، وما أثاروا من الشَّغَبِ والفتنَةِ في المنطقةِ سَنَةَ **1914**م.، يومَ داهموا مدينةَ بِتْلِيس. وقد كانتْ الأسرةُ النَّهْرِيَّةُ أيضًا تمرَّدتْ على الدولةِ في عهدِ السلطان عبد الحميد، علمًا بأنَّ الأرواسِيّينَ هم خلفاءُ النهريّينَ بعهدٍ في الطريقةِ النقشبندِيَّةِ.

***

إنَّ عددًا قليلاً من السياسيّين الأتراك المعروفين بالإعتدالِ يُرَدِّدونَ كلمةً في أثناءِ مناقشاتِهِم بين حينٍ وآخَرَ، يقولون: "إنَّ الأتراكَ والأكرادَ قد استطاعوا أنْ يتعايشوا على أرضِ الوطنِ الواحِدِ عشرةَ قرونٍ في ظِلِّ السلامِ والوئامِ والاحترامِ المتبادِلِ، وما بالُنا اليومَ نتجاهلُ عهدَ الأخوَّةِ الذي يربِطُ بعضَنا بِبعضٍ، فإنَّ الأسبابَ التي تجمعُ بيننا أكثرُ بكثيرٍ من الدوافعِ التي يَتَذَرَّعُ بها الأعداءُ ليزرعوا بيننا بذورَ الشقاقِ؛ يحاولون استغلالَها ليؤَجِّجوا نيرانَ الفتنةِ في ربوعِ بلادِنا، وليكونوا هم المستفيدين من تبعاتِها في النهاية."

لكنَّ هذا الرأيَ لم يجد اهتمامًا بصورةٍ عامَّةٍ بين الأتراك. بل يبدو أنَّ نظرَتَهم للأكرادِ لها خلفيَّةٌ سلبيَّةٌ. تدلُّ على هذه الحقيقةِ عباراتٌ لأحدِ علمائِهِمْ اسمُهُ إسماعيل حقِّي البُرُوسَوِي المتوفِّي عام **1715**م. وهي بالِغَةٌ في الإساءَةِ إلى الأكرادِ على وجهِ التعميم. أوردَها في تفسيرِهِ الموسومِ "روح البيان". في معرضِ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام، حين أراد قومُهُ أنْ يُحَرِّقُوهُ.

يقول البروسويُّ في تفسيرِ الآيةِ الثامنةِ والستين من سورةِ الأنبياء: تعقيبًا على قولِهِ تعالى:"قَالُوا حَرِّقُوهُ..." أيْ قال بعضُهُمْ لِبَعْضٍ لَمَّا عجزوا عن المَحَاجَّةِ، وهكذا ديدَنُ المبطِلِ المحجوجِ إذا قُرِعَتْ شُبْهَتُهُ بالحجَّةِ القاطعةِ وافْتُضِحَ، لا يبقَى له مفزعٌ الا المناصبةَ. واتَّفقتْ كلمتُهُمْ على إحراقِهِ لانَّهُ اشدُّ العقوباتِ. وقال ابن عمر رضى الله عنهما إنَّ الذى أشارَ بِإِحْرَاقِهِ رجلٌ مِنْ أَعْرَابِ الْعَجَمِ يعنِي مِنَ الاكرَادِ. ولَعمرِي إنَّهم لفى فسادِهِمْ وَجَفَائِهِمْ وَغُلُوِّهِمْ فِى تعذيبِ الناسِ بُعُدٌ يقدمون ولا ينفكُّون عن ذلك. ما ترى للاسلامِ الذى هو دينُ ابراهيمِ الخليلِ عليهم اثرًا فى خُلُقٍ وَلاَ عملٍ. خُلُقُهُمْ نهبُ أموالِ المسلمين، وعملُهُمْ ظُلْمٌ وسرِقةٌ وقتلٌ وقطعُ الطريقِ. واللهِ ما هؤلاء بأهلِ المِلَّةِ الغرَّاءِ. لا كثَّرَ اللهُ فى الناسِ مثلَ هؤلاءِ. إيَّاكَ والمصاحبَةَ بأصلحِهِمْ والمرورَ ببلادِهِمْ!".

***

تتلخَّصُ الأسبابُ التي وراءَ القضيَّةِ الكرديَّةِ ومعاناةِ الأكرادِ في ثلاثِ نقاطٍ رئيسةٍ: الطبيعةُ القاسيَةُ الوعرةُ للمنطقةِ؛ وَالنظامُ العشائرِي القبلِيُّ؛ والفراغُ الثقافيُّ.

إنَّ الدوافعَ التي كانتْ وراءَ محنةِ الأكرادِ، والتخلُّفَ الذي شهدتْهُ المنطقةُ الكرديَّةُ عبرَ القرونِ يكادُ كلُّها يتمثَّلُ في سببٍ واحدٍ: ألاَ وهو الفراغُ الثقافيُّ الذي غابَ المجتمعُ الكردِيُّ في ظُلُمَاتِهِ عن حَلْبَةِ السِّبَاقِ الْمَعْرِفِيّ، فَنَشَأَتْ عنه العاطفِيَّةُ الْمُفْرِطَةُ والجهلُ الْمُتَفَشِّي، فكانَ ثمَنُها باهظًا عليهم، خاصَّةً بعدَ تطوُّرِ العلومِ وتقدُّمِ الشعوبِ.. أمَّا الأكرادُ، فمازالوا في سباتِهِمْ مشغولين بكلِّ ما يؤَخِّرُهُم، مُفْتَتِنِينَ بكلِّ ما يُعَرْقِلُهُمْ عن مواكبَةِ العصرِ، مُنْهَمِكِينَ في الإنصياع الأعمَى لِلْمُشَعْوِذِينَ والْمُتَّجِرِين بالدِّينِ والسياسَةِ.

إنَّ الفراغَ الثقافِيَّ في المنطقةِ الكرديَّةِ مشكلةٌ حادَّةٌ تستمرُّ وتمتدُّ منذُ قرونٍ سحيقةٍ. هذه القضيَّةُ تحتاجُ أولاً إلى دراسةٍ علميَّةٍ موضوعيَّةٍ ذاتِ أبعادٍ واسعةٍ تشمَلُ علاقاتِها بتاريخِ المنطقةِ وظروفِها الاجتماعيَّةِ. وهذه مهمَّةُ الباحثِينَ الذينَ ينذرونَ حياتَهُمْ لموضوعٍ متميِّزٍ واضحِ المعالِمِ، يعكفون عليه، يتناولونه بحذافيره.. فلا يسعُ المقامُ هنا لمثلِ هذه القضيَّةِ في أبعادِها المترامية الأطراف.

لكنَّنا لا نبالغُ إذا اتَّهَمْنا الأكرادَ؛ بأنهم فرَّطوا في تجاهُلِهِمْ لمفهومِ المعرفةِ وأهمِّيَّتِها منذ القديمِ، فظلُّوا يُقَلِّدونَ الأتراكَ خاصَّةً في طريقةِ التدريسِ، وتحديدِ المصادرِ والمقرَّراتِ التعليميَّةِ.

إنَّ الحياةَ العلميَّةَ كانتْ قد تضعضعتْ في عمومِ بلادِ الإسلامِ بعد سقوطِ الدولةِ العبَّاسِيَّةِ، وبخاصَّةٍ كانتِ المدارسُ شِبهَ معدومةٍ في المنطقةِ الكرديَّةِ بعد هذا الحدثِ الأليمِ الذي أودَى بالأمَّةِ. ذلك أنَّ طبيعةَ المنطقةِ، واللُّغةَ الكرديَّةَ كانتا عقبتين رهيبتين أمامَ الأكرادِ في طريقِهم إلى عالَمِ المعرفةِ. ولَمَّا دخلَ الأكرادُ تحتَ الحكم العثمانِيّ ازدادتِ المشكلةُ حدَّةً. لأنَّ اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ أصبحتْ هي الأخرى عقبةً أمامَهم، فتضاعفتِ العراقيلُ وهي تمنعُهم من الوصولِ إلى مناهلِ العلم[42].

---

[42] يقول الأديب أحمد حسن الزيات:

"فلمّا أدالَ اللهُ بني عثمانَ من المماليكِ أصبحتِ الخلافةُ عثمانيّةً لا عبّاسيّةً، وصارتْ عاصمةُ الإسلامِ القسطنطنيةَ لا القاهرةَ، واللغةُ الرسميةُ التُّرْكِيَّة لا العربيةَّ، ففشا في اللغةِ الدَّخيلُ، وَزَاحَمَتْهَا العامّيَّةُ والتُّرْكِيَّة في الدواوين، وذهبتْ أساليبُها من النظمِ والنثرِ، وتمكّنَ الذُّلُّ من النفوسِ فخمِدَتِ القرائحُ، ونضبَ معينُ العلمِ، واطمأنتِ الكُتُبُ في الخزائنِ فلم يُزعِجْها إلاَّ اشتعالُ العرَضَةِ في صفحاتِهَا، وضربَ الجهلُ على أبصارِ الشرقِيّينَ فعموا، وَفَدَحَتْهُم أعباءُ الذُّلِّ فرزحوا، وطالَ عليهم الأمدُ فغشَّاهم النُّعَاسُ، وخيّمَ عليهم الظلامُ، فلم يستيقظوا إلاَّ بمدافعِ نابليون على أبوابِ القاهرة!"

هذا، وللدكتور محمد جابر الأنصاري نظرة أخرى في الموضوع، يقول: "كانت فترةُ خضوعِ العربِ لغيرهم في عصورِ الإسلامِ المتأخرةِ من أدقِّ فترات الاختبارات لِمَدَى قدرةِ العروبةِ على البقاء. لكنَّها نجحتْ في الاختبارِ وبقيتْ جذوةً تحت الرماد. وكانت اللغةُ العربيَّةُ بتراثِها الفصيح، وكذلك بما تفرَّعَ منها من محكيات عربيَّةٍ تميَّزتْ فيما بينها حسب ظروف العُزلة لكل مجتمع عربي، من المؤشرات المرئيَّةِ لهذا الوجودِ العربِيّ في التاريخ وفي الواقع."

إنَّ المدارِسَ الْمُبَعْثَرَةَ في بعضِ البقاعِ من ديارِ الأكرادِ منذ عهدِ السلاجقةِ، هي من إمتدادِ المدارسِ النظاميَّةِ التي وضعَ أساسَها في بغدادَ الوزيرُ السلجوقِيُّ نظامُ الملكِ. غيرَ أنَّ هذه المدارِسَ فقدتْ رونقَها وحيويَّتَها مع الزمان، وتدهورتْ أحوالُها خاصَّةً بعد أن استولى عليها شيوخُ الصوفيَّةِ. ملأتْ مُنْتَدَيَاتُ القادريَّةِ فراغَ هذه المدارسِ بعد قرونٍ. وَغَدَتِ الطريقةُ القادريةُ هِيَ الطريقَةَ المنتشِرَةَ في أنحاءِ البلادِ العثمانيَّةِ قُبَيْلَ ظهور النقشبنديَّةِ، وكانت لها تكايا كثيرةٌ في المناطقِ التي يسكنُها الأتراك، كذلك في المنطقةِ الكردِيَّةِ.

كان شيوخُ الطريقةِ القادريَّةِ هم الذين يسيطرون على مدارسِ الأكرادِ بعد اضْمِحْلاَلِ المدارسِ النظامِيَّةِ حتَّى ظهر خالدُ البغدادِيُّ الذي نقلَ النقشبنديَّةَ من الهندِ إلى الديارِ العثمانيَّةِ عام 1811م. أمَّا شيوخُ الطريقةِ القادريَّةِ (العباسيون منهم) فكانوا اتَّخذوا قريَةَ (تِلُّو) مركزًا لنشاطاتِهم. وهي على مقربةٍ من مدينة (أَسْعِرْدَ Siirt)، الواقعةِ في جنوبِي شرقِ تركيا اليومَ. كان جُلُّ المدارِسِ بالمنطقةِ الكردِيَّةِ تابعةً لهذا المركز. ذلك أنَّ بقايا الأسرةِ العبَّاسِيَّةِ كانوا قد هاجروا إلى هذهِ القريةِ بعد سقوطِ حُكْمِهِمْ في بغدادَ عام 1258م. واتَّخذوا الطريقةَ القادريَّةَ درعًا لمكانتِهم، تَسَتَّرُوا بِهَا للحفاظِ على شُهرتِهم بديلاً عن صفتِهم السياسِيَّةِ التي فقدوها! وأقاموا هنالكَ عددًا من المدارسِ والكلِّيَّاتِ، فَنَشِطَتِ الحركةُ العلميَّةَ فيها، فأقبلَ عليها الناسُ من كلِّ حدبٍ وصوب، وسرعان ما تحوَّلتْ قريةُ (تِلُّوا) إلى مدينةٍ للعلمِ يقصدِها آلافٌ من الطلبةِ حتى بدايَةِ القرنِ التاسع عشر الميلادِيّ.

كانَ مُجَمَّعُ كلِّيَّاتِ العبَّاسِيِّينَ يضاهِي الجامعةَ الأزهرِيَّةَ بالقاهرةِ، يتلقَّى الطلبةُ فيها عديدًا من العلومِ العقليَّةِ والنقلِيَّةِ. كانَ الشيخ إسماعِيل حقِّي المعروفِ بـ(فقيرِ الله) من أواخر الشخصِيَّاتِ المشهورين في الأسرةِ العبَّاسِيَّةِ. حظِيَ شهرةً بالِغةً بفضلِ أحدِ تلامِيذِهِ (اسمُهُ: الشخ إبراهيم حقِّي الأرض الرومي)، الذي برعَ في فنون الهندسةِ والحسابِ والفلك وغيرِها من العلوم.

فلمَّا ظهرَ خالدٌ البغدادِيُّ في السليمانِيَّةِ العراقِيَّةِ وَطَغَتْ شهرتُهُ على سُمعةِ الشيوخِ العبَّاسيِّينَ (لأسبابٍ سياسيَّةٍ!) كما انْهزمَ الشيوخُ البرزنجيَّةُ في الوقت ذاتِهِ واندحر كُلُّهُمْ من الساحةِ، فبدأ الركودُ يسودُ على مدارِسِ القادريَّةِ نتيجةَ منافسةِ النقشبنديّين ومُزَاحَمَتِهِمْ لشيوخِ هذه المدارِسِ، فتدهورتْ الحالةُ فيها حتَّى خلتْ من الطلبةِ، فتحوَّلتْ إلى تَكَايَا للصوفِيَّةِ، فاستولى عليها شيوخُ الطائفةِ النقشبنديَّةِ، فحرَّمو تدريسَ العلومِ العقلِيَةِ فيها ما عدا علمِ المنطق.

لا شكَّ في أنَّ هذا التحوُّلَ الجزرِيَّ الذي حدثَ في مدارسِ المنطقةِ الكرديَّةِ كانَ من أهمِّ أسبابِ الويلاتِ التي انْصَبَّتْ على الأكرادِ منذ بدايَةِ القرنِ التاسعِ عشر الميلادِي.

هذه المدراسُ التي كانت مراكزَ إشعاعٍ للمعارفِ قبلِ سيطرة النقشبنديّين عليها، تحوَّلتْ إلى حجراتٍ مُظلمَةٍ على أيديهم، وبدأ ينتشر منها التطرُّفُ والفسادُ في الأخلاقِ والعَقَيدةِ والعلاقاتِ الاجتماعيَّةِ.. فعاد ذلك على أجيالِ الأكرادِ بأنواعِ المساوِي طوالَ قرنين من الزمانِ، وأخَّرتْهم عن مُوَاكَبَةِ تطوُّراتِ العصرِ، وعكَّرتْ حياتَهم بالخساراتِ والفَشَلِ.

اتَّخَذَ النقشبنديُّونَ أسلوبًا مبتورًا وعرًا في التدريس (أسوةً بالأتراك) ، كان هذا الأسلوبُ الْمُعْوَجُّ ولا يزال آفةً نزلتْ بمجالِ النشاطاتِ التعليميَّةِ على الساحةِ الكرديَّةِ بأسرِها. تحوَّل هذا الأسلوبُ إلى مرضٍ خطيرٍ وداءٍ دفينٍ، تأصَّلَ في نفوسِ الأتراكِ والأكرادِ على السواءِ، وحالَ بينهم وبين العلمِ الحقيقيّ، وجرَّدَهُمْ من الذَّوقِ السليمِ، وطلاقةِ اللِّسانِ، وأَبْعَدَهُمْ عن مُشاركةِ علماءِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ، ولم يخطُرْ على بالِ أحدٍ منهم منذ قرونٍ أنَّه لابُدَّ من معالجةِ هذا المرضِ والقضاءِ عليه بالرجوعِ إلى (الطريقةِ المباشرةِ direct action) ونبذِ الترجمةِ في تعليمِ اللُّغةِ. فغدَى هذا الأسلوبُ الْمُعْوَجُّ سببًا من أسبابِ العجزِ في التعبيرِ، فلم نجدْ يومًا من الأيامِ عالِمًا من علماءِ الأتراكِ والأكرادِ على الْمِنَصَّةِ يُلْقِي خِطَابَهُ باللُّغةِ العربيَّةِ في الْمُحَاضَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ وَالْمُؤْتَمَرَاتِ العلميَّةِ التي تُقامُ بين الفَيْنَةِ والأخرى في أرجاءِ العالَمِ الإسلامِيِّ (إلاَّ القليلَ الأقلَّ) مِمَّا أدَّى ذلك إلى سوءِ الظَّنِ بهم، وإهمالِ أسماءِ رجالاتِهم من قائمةِ علماءِ الأمَّةِ، اللَّهمَّ إلاَّ عددًا قليلاً منهم الذين درسوا في البلادِ العربيَّةِ واندمجوا في المجتمعِ العربِيِّ.

وكم تذوَّقَ هؤلاءِ الْعَجَزَةُ (من ملالي الأكرادِ وخواجوات الأتراك) كمْ تذوَّقُوا مَرَارَةَ الْعَيّ كُلَّمَا حَلَّ أحدُهُمْ مجلسًا من مجالسِ العلمِ يتحدَّثُ فيه شخصيَّةٌ من علماءِ العربِ والآخرُ صامتٌ صمتَ الصخرِ، أو يَلُوكُ بعضَ الكلماتِ ثم يَرَى نفسَهُ فاشِلاً في التعبيرِ؟! بينما لا شكَّ من أنَّهُ قد أفنَى عمرًا غاليًا في حِفْظِ متونِ الصرفِ والنحوِ، وأحصَى آلافَ القواعدِ... أَيرضَى مثلُ هذا الإنسانِ أنْ يقول له الناسُ: إنَّ القَرَضَاوِيَّ، أوِ البوطيَّ، أو عبدَ اللهِ بنِ مصلحِ التركِيَّ أو شيخَ الأزهرِ أعقلُ وأعلمُ منك؟ كلاَّ! ولكنَّ المصيبةَ ناشئةٌ من هذا الأسلوبِ الْمُعْوَجِّ الّذي أرغمَهُ وأرغَمَ آلافًا من أبناءِ

المنطقةِ الكرديَّةِ خاصَّةً، وحوَّلَ كلَّ واحدٍ منهم إلى خِزَانَةٍ صَمَّاءَ لقواعدِ اللُّغةِ العربيَّةِ لا تُسمِنُ ولاَ تُغنِي من جوعٍ!

نعم، لا شكَّ فِي أنَّ عددًا قليلاً من مثقَّفِي الأكرادِ (مِن خِرّيجي هذهِ المدارسِ والكُلّيّاتِ الخاضعةِ لسيطرة النقشبنديّين) قد أكملوا دراساتِهم على أنفسهِمْ في الآونَةِ الأخيرَةِ، رغمَ الظروفِ القاسيةِ ومزاحمةِ المتطرِّفين لهم، تكبَّدوها أيَّامَ تردُّدِهِمْ على المدارس.. فَغَدَوْا من أهلُ العلمِ والمعرفةِ والحميَّة والأخلاقِ الرفيعةِ... فيهم مَنْ اكتسبَ رصيدًا من الثقافَةِ واطِّلاعًا على أحوالِ الدنيَا، ومعرفةً بمشاكلِ الأمَّةِ، والأخطارِ التي تُهَدِّدُهَا؛ كما فيهم مَنْ تعلَّمَ استعمالَ الحاسوبِ واهتدَى للاستفادَةِ من الشبكةِ العنكبوتيَّةِ. بإمْكانِ هؤلاءِ اليوم مُتَابَعَةُ الأخبارِ الهامَّةِ والعلاقاتِ السياسيَّةِ على المستوَى المحلِّيِّ والدولي، والربيعِ العربيِّ وغيرِها من التطوُّراتِ التي تَجري في العَالَمِ.

***

لقد كان التعليمُ في مدارسِ وكلّياتِ النقشبنديّين مقصورًا على قيامِ الأستاذِ بقراءةِ مَتْنِ الدرسِ ومتابعةِ السطورِ وترجمةِ كلِّ كلمةٍ منها إلى اللُّغةِ الكرديَّةِ بقدرٍ محدود جدًّا. أمَّا الكتابَةُ والرسمُ والتخطيطُ، فإنَّها أُسقِطتْ من المناهجِ نهائيًّا، بل اختفتْ تلقائيًّا لجهلِ الأساتِذَةِ بالكتابَةِ والنطقِ بالعربيَّةِ ارتجالاً. أمَّا التعلُّم، فإنَّهُ اضمحلَّ تمامًا؛ لأنَّ دورَ الطالِبِ اقتصرَ على الإستماعِ المحضِ دونَ اشتراكِهِ في المحاضَرَةِ بحال؛ لم يكنْ ولا يزالُ حتَّى اليومِ محلٌّ للسؤالِ والاستفسارِ إلاَّ نادرًا، ولا للإمتحانِ والاختبارِ إطلاقًا في هذا الأسلوبِ الشاذِّ والنَّمَطِ الدراسيِّ العقيمِ. كما لا تخضعُ هذه المدارسُ لمراقبَةِ أيِّ سُلْطَةٍ ولا لتفتيشِ أيِّ مسؤولٍ، بل شيخُ الجماعةِ مطلَقُ العنانِ فيما يختارُ من كتابٍ، وموضوعٍ، وقبولٍ لمن شاءَ من الوافدينَ عليهِ من الطلبةِ وطردِ مَنْ شاءَ منهم.

أمّا الكُتُبُ المقرَّرَةُ للتدريسِ عندهم، فهي تلك التي اختارها صناديدُهم منذ قرنينِ، ولم يتغيَّرْ منها حتَّى كتابٌ واحدٌ. وهي في الحقيقةِ كُتُبٌ قديمةٌ وعقيمةٌ يجهلُها العالمُ العربيُّ تمَامًا. وهذه أسماؤُها بالتسلسلِ حسبَ المنهجِ الدراسيِّ المعمولِ به عند النقشبنديّينَ منذ عهدِ خالدِ البغداديِّ حتَّى اليوم.

1) نوْبَهار: قاموسٌ عربي –كُردي، نظمهُ الشيخ أحمد الخاني (**1591–1652**م.) وهو من أهالي مدينةِ آغري الواقعةِ في المنطقةِ الشرقيَّةِ بتركيا.

2) نَهْجُ الأنام: رسالةٌ في العقيدةِ الأشعريَّةِ، منظومةٌ باللُّغةِ الكرديَّةِ، نظمَها المُلاَّ خليلُ العمريُّ الأسعردِيُّ (1754-1843م.)

3) غايةُ الإختصار (التقريب): كتابٌ صغيرُ الحجمِ في الفقهِ على المذهبِ الشافعيِّ، مؤلِّفُهُ شمس الدين أبو عبد الله محمّد بن القاسم.

4) فتح القريب المجيب في شرح ألفاظ التقريب: وهو شرح الكتابِ المذكور آنفًا، ألَّفه أحمد بن الحسين.

5) التصريف: كتابٌ في الاشتقاقِ وصِيَغِ الأفعالِ، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

6) الأمثِلَةُ: جدولٌ مفصَّلٌ في تصريفِ صِيَغِ الأفعالِ، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

7) البِناءُ: كتابٌ في أبوابِ التصريفِ، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

8) المقصود: كتابٌ في أبوابِ التصريفِ أيضًا، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

9) العِزّيُّ : كتابٌ في أبوابِ التصريفِ أيضًا، ألَّفهُ عزُّ الدين عبد الوهَّاب بن ابراهيم الزنجانِيُّ

10) العواملُ الجرجانيُّ: كتابٌ صغيرُ الحجمِ في النحوِ للمبتدئين، يتناولُ العواملَ التي يتغيَّر بها آخرُ الكلمةِ. ألَّفهُ عبدُ القاهرِ بْنُ عبدِ الرحمنِ الجُرجانِيُّ (ت. 1078م.)

11) العواملُ البِرْكَوِيُّ : كتابٌ صغيرُ الحجمِ في النحوِ للمبتدئين، يتناولُ العواملَ التي يتغيَّرُ بها آخرُ الكلمةِ. ألَّفهُ محمَّدُ البِرْكَوِيُّ، وهو تُرْكِيُّ الأصلِ.

12) الظروفُ: كتابٌ صغيرُ الحجمِ، يتناولُ الظروفَ في النحوِ العربيِّ، كَتَبَهُ المُلاَّ يونسُ الأرْقَطِينِيُّ باللُّغةِ الكرديَّةِ، يدخلُ في عدادِ الكتبِ المتداوَلَةِ بالمنطقةِ الكرديَّةِ فحسب.

13) التركيبُ، كتابٌ في النحوِ العربِيِّ، يتناولُ تحليلَ أَلفاظِ العواملِ لِلْجُرْجَانِيّ. وهو من مؤَلَّفاتِ المُلاَّ يونسِ الأرْقَطِينِيّ أيضًا.

14) سعدُ اللهِ الصغيرُ: وهو كتابٌ صغيرُ الحجمِ في النحوِ العربيِّ، يشرحُ ألفاظَ العواملِ لِلْجُرْجَانِيِّ. مؤلّفُهُ مجهولٌ.

15) شَرْحُ المُغنِيّ: كتابٌ متوسّطُ الحجمِ في مختلفِ قواعدِ النحوِ، أَلَّفَهُ محمَّدُ بْنُ ابراهيمِ بِنْ محمَّدِ العُمَرِيّ المَيْلاَنِيّ. شَرَحَ فيه كتابَ المُغنِيّ لأستاذِهِ أحمدِ بْنِ الحْسنِ الجاربردي.

16) التصريفُ الكبيرُ: كتابٌ ضخمٌ في الاشتقاقِ والتصريفِ. ألّفَهُ سعدُ الدِّينِ بْنِ مسعودِ بْنِ عمر التافتازانِيُّ.

17) حلُّ المعاقدِ في شرحِ القواعدِ: كتابٌ متوسّطُ الحجمِ في النحوِ العربيِّ، يتناولُ الجملةَ. أَلَّفَهُ أبو الثناء أحمدُ بْنُ محمَّدِ الزِيلَوِيُّ، يغلبُ أنَّه تركِيٌّ الأصلِ. شَرَحَ فيه كتابَ قواعدِ الإعرابِ لابنِ هشامٍ عبدِ اللهِ بْنِ يوسفَ الأنصارِيّ. يزعمُ عمر رضاء كحَّالة أنَّ هذا الكتابَ من مؤلَّفاتِ سعدِ الدِّينِ بْنِ مسعودِ بْنِ عمر التافتازانِيّ!

18) حلُّ مشكلاتِ الإشاراتِ: كتابٌ في القواعدِ الأساسيَّةِ للمنطقِ والفلسفةِ، أَلَّفَهُ ناصرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ، شَرَحَ فيه كتابَ (الإشارات والتنبيهات) لابنِ سيناء، واختصرَهُ فخر الدين الرازِيُّ، لذا يسمّيهِ الطلبةُ (التلخيصَ).

19) حدائقُ الدقائقِ: كتابٌ ضخمٌ في النحوِ العربِيّ، يسمّيهِ الطلبة في المنطقةِ الكردِيَّةِ (سعد اللهِ كَوْرَا)، ألّفه سعد الدين سعد الله.

20) نتائجُ الأفكار في شرحِ الإظهار: كتابٌ ضخمٌ في النحوِ العربِيّ، أَلَّفَهُ مصطفى بْنُ حمزة الرومِيُّ. شَرَحَ فيه كتابَ الإظهار لمحمَّدِ البِرْكِوِيّ.

21) شَرْحُ ألفيةِ ابنِ مالكٍ: كتابٌ ضخمٌ في النحوِ العربِيّ، أَلَّفَهُ جلالُ الدين عبدُ الرحمن السيوطِيُّ.

22) الفوائدُ الضيائِيَّةُ: كتابٌ ضخمٌ في النحوِ العربِيّ. أَلَّفَهُ نُورُ الدين عبدُ الرحمن الجامِي. شَرَحَ فيه كافيةَ ابْنِ الحْاجِبِ، يسمّيهِ الطلبةُ الأكرادُ (مُلاَّ جامي).

23) إيساغوجي: كتابٌ صغيرُ الحجمِ في المنطقِ، وهو مِنْ إيحاءاتِ أرسطو اليونِيِّ. أَلَّفَهُ أسيرُ الدينِ المفضَّلُ بْنُ عمر الأبْهَرِيُّ.

24) حُسَمْكَاتِي: كتابٌ متوسِّطُ الحجمِ، وهو شَرْحُ كتابِ المسمَّى (أيساغوجي)، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

25) قولُ أحمدَ: كتابٌ في علمِ المنطقِ، أَلَّفَهُ أحمدُ بْنُ محمَّد بْنِ الخُضْرِ.

26) حاشيةُ عبدِ الغفورِ: كَتَبَهُ عبدُ الغفور اللاَّرِيُّ. تَنَاوَلَ فيه بعضَ المسائِلِ من كتابِ الفوائِدِ الضيائيةِ لأستاذِهِ نور الدين عبد الرحمن الجامي لِحلِّ عويصاتِها.

27) رسالةُ الوَضْعِ: كتابٌ في علمِ الدِّلاَلَةِ. أَلَّفَهُ القاضِي عبدُ الرحمنِ بْنُ أحمدَ بْنِ عبدِ الغفورِ عَضُدُ الدِّينِ الإِيجِيُّ.

28) رسالةُ الإستعارَةِ: مؤلِّفُهُ عصامُ الدِّينِ بْنُ ابراهيمَ. وقد يحلُّ مَحِلَّ هذه الرسالةِ في بعضِ المدارسِ كتابُ استعارَةِ اللَّيْثِ السمرقندِيِّ.

29) رسالة الْمُنَاظَرَةِ: لمحمَّدِ بْنِ عليِّ الإحسائِيِّ. غير أنَّ النقشبندِيِّين قد اسقطوا هذا الكتابَ منذ سنين من البرامج الدراسيَّةِ.

30) شرحُ الشمسِيَّةِ في المنطقِ: أَلَّفَهُ محمودُ بْنُ محمَّدٍ الرازِيُّ تَنَاوَلَ فيه كتابَ الشمسِيَّةِ لنجمِ الدِّينِ بْنِ عَليٍّ الْقَزْوِينِيِّ.

31) مختصرُ المعانِي: كتابٌ في البلاغَةِ من تأليفاتِ سعدِ الدِّينِ بْنِ مسعودٍ بْنِ عمرَ التافتازَانِيِّ.

32) شرحُ العقائِدِ: كتابٌ في العقيدةِ الإسلاميَّةِ مُدَوَّنٌ بأسلوبٍ كلامِيٍّ، وهو أيضًا من تأليفاتِ سعدِ الدِّينِ بْنِ مسعودٍ بْنِ عمرَ التافتازَانِيِّ.

33) جَمْعُ الجَوَامِعِ: كتابٌ في أصولِ الفقهِ، أَلَّفَهُ تاجُ الدِّينِ عبدُ الوهَّابِ بْنُ عَلِيِّ السُّبُكِيُّ (ت. 771هـ). شَرَحَهُ الجلالُ شمسُ الدين محمدُ بنُ احمدَ المَحَلِّيُّ، بعباراتٍ معقَّدَةٍ أضْفَتْ عليهِ غموضًا جعلَتْهُ صعبَ الْمَنَالِ، بحيث لاَ ينجَلِي منه المقصودُ به للطالب إلاَّ بعدَ مكابدَةٍ شديدَةٍ بالتركيزِ

والبحثِ والتحليلِ... أدَّى ذلك إلى انتقادِ العلماءِ لِعِبَارَاتِهِ الرَّكِيكَةِ، فعابوها وشاع طعنُهُمْ فيها بقولِ بعضِهِمْ: "عَناؤُهُ كثيرٌ وغَناؤُهُ قليل."

يبدو وبكلِّ وضوحٍ من هذهِ القائِمَةِ، أنَّ النقشبنديّينَ قد أسقطوا جميعَ العلومِ العقليَّةِ والتجريبيَّةِ من المنهجِ الدراسيِّ في مدارسِهم، فضربوا بها عُرْضَ الحَائِطِ، بل كرهوا أن يَتَنَاوَلَ أحدٌ من الطلبةِ في مدارسِهم كتابًا يضمُّ مادَّةً من هذهِ العلومِ، واشمئزُّوا مِنْ كلِّ مَنْ اقْتَرَحَ عليهم أن يسمحوا بتدريسِ شيءٍ من العقليَّاتِ كالحسابِ والهندسةِ والتاريخِ والجعرافيا والفَلَكِ والفزياءِ والكيمياءِ والزراعةِ والطبيعةِ وغيرِها من العلومِ التجريبيَّةِ. كما نقموا مِمَّنْ اطَّلَعَ على عجزِهم في الكتابَةِ والنطقِ بالعربيَّةِ على الرغم من تَوَغُّلِهِمْ في حفظِ قواعدِها طوالَ مدَّةٍ لا تقلُّ عن عشرِ سنين!

وقفَ وراءَ هذا الأسلوبِ المُعْوَجِّ العقيمِ طوالَ قرنين من الزمن ثلاثُ عائلاتٍ لشيوخِ النقشبنديَّةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ وهي بالتسلسل: الأسرةُ النهريَّةُ، والأسرةُ الأرواسِيَّةُ، والأسرةُ التاغيَّةُ. لا يخفَى أنَّ هذه النحلةَ طائفةٌ متطرِّفَةٌ تخالفُ كلَّ ما يُرْشِدُ إليهِ العلمُ والعقلُ السليمُ والكتابُ والسنَّةُ، يبرهن على ذلك استخفافُهم بعلماءِ الإسلامِ، وانبهارُهم بالدراويش المتزمّتِين وأهلِ الشعوذَةِ الذين يبالغون في تعظِيمِهم بنعوتٍ غريبةٍ وصفاتٍ ليس من الإسلامِ في شيءٍ؛ كقولِهم: "قطبُ العارفِين، وعوثُ الواصلين، وإمامُ المتَّقين، وتاجُ الكاملين، ونورُ السماوات والأرضين!" إلى غيرِ ذلك من الكفريَّاتِ والبِدَعِ والأباطِيلِ، وهذا مبلغُهم من العلمِ...

كان لِهَذَا الأسلوبِ آثارٌ سلبيَّةٌ على الناشئَةِ الكرديَّة، وكانت الترجمَةُ من العربية إلى اللُّغةِ الكرديَّة عقبةً كبيرةً أمامَ الرَّفعِ مِنْ مُسْتَوَى الطالبِ وتحسينِ آدائِه بِخاصَّةٍ. فكان الْمُدَرِّسُ نفسُهُ عاجِزًا يُحاولُ ويُداورُ ويُراوغُ ويَتَشَدَّقُ ويَتَنَطَّعُ ويَبذلُ كلَّ جهودِهِ وَيُفْرِغُ طَاقَتَهُ ليشرحَ مُصْطَلَحًا واحدًا من مصطلحاتِ الصرفِ أو النحوِ لِتِلْمِيذِهِ باللُّغةِ الكرديَّة، فيضيقُ عليهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ ويَتَفَصَّدُ جبينُهُ عَرَقًا فلا يتمكَّنُ من شرحِ ذلك المصطلحِ بوجهٍ يَفْهَمُهُ الطَّالِبُ، فيقومان عن الدرس وهما يُعَانِيَانِ تعبًا وكَبْتًا شديدين وخَيْبَةً حَيَّرَتْهُمَا، وَهَزِيمَةً أَنْهَكَتْهُمَا وَهَيْهَاتَ الأمل... ذلك لأنَّ اللغةَ الكرديَّةَ غيرُ ذاتِ كفائةٍ للتعبيرِ عن المفاهِيمِ العلمِيَّةِ ومصطلحاتِ العلومِ. وهي ما زالتْ لغةً فقيرةً لم يتمكَّنْ الأكرادُ من تطويرِهَا وإثرائِها، ربما لظروفِهم القاسِيَةِ التي مرَّ شرحُها.

إنَّ ملالِيَ وشيوخَ المنطقةِ الكرديَّةِ، كذلك خَوَاجَوَاتِ الأتراك، – في الحقيقةِ – لا يجوز إطلاقُ صفةِ (العَالِمِ) عليهم. لأنَّهم ليسوا علماءَ في واقعِ الأمرِ. بل ينبغِي وصفُهُمْ بِ(حُفَّاظِ كُتُبِ الصَّرْفِ وَالنَّحْوِ). لأنَّ العالِمَ يمتازُ بثقافةٍ واسعةٍ حولَ الكونِ والحياةِ، فضلاً عن أنَّهُ مُتَخَصِّصٌ في شُعْبَةٍ من شُعَبِ العلومِ المعروفةِ، له خِبْرَةٌ عامَّةٌ في المعقولِ والمنقولِ، يمتازُ بِحُسنِ الكتابَةِ وطَلاَقَةِ اللِّسانِ في الخِطَابَةِ، والنُّطقِ السَّليمِ الخَالِي من اللَّحْنِ والعيوبِ اللُّغَوِيَّةِ، مُعْتَرَفٌ به في أوساطِ العلماءِ المشهورين على مستوَى الوطنِ الإسلامِيِّ...

إنما اشتهرَ الشيوخُ والملالي (في المنطقةِ الكرديَّةِ) وهم غير محظوظين بشيءٍ من هذهِ الصفاتِ نتيجةً للدِّعَايَاتِ الكاذبةِ التي أثارهَا أنصارُهُمْ بسببِ المنافسةِ الَّتي كان الهدفُ منها كسبَ الشُّهْرَةِ والرِّياسةِ ليس إلاَّ... فَعَلَى سبيل المثال: كان قد نبغَ في بعض الأُسَرِ العربيَّةِ (في المنطقة نفسِها) رَهْطٌ من الشيوخ كُلُّهُمْ يمتازون بِمَعَارِفَ واسعةٍ واطِّلاَعٍ شاملٍ في العلومِ الإسلاميَّةِ، وخِبْرَةٍ في العلومِ الرياضيَّةِ كالحسابِ والفرائضِ والهندسَةِ، كما كان لهم حظٌّ وافرٌ في علومِ التاريخِ والسِّيَرِ والمغازي مِمَّا جعلهم يَتَفَوَّقُونَ على شيوخِ الأكرادِ والأتراكِ بأضعافِ الأضعافِ (كأبناءِ الأسرة الحامديَّةِ بجوارِ مدينَةِ ماردين)، مع ذلك، قد لاَ يسوغُ إطلاقُ صفةِ (العالِمِ) على أحدٍ منهم، فضلاً عن غيرهم.

هذا، ومن حقائقِ البيئةِ التعليميَّةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ: أنَّ أيَّ مدرسةٍ من مدارسِ الأكرادِ، لم يكنْ قد أُجْرِيَ فيها تدريسُ شيءٍ من العلومِ العقليَّةِ كالحسابِ والهندسةِ ومبادئِ علمِ الأحياءِ، وعلمِ الإجتماعِ، وعلمِ التاريخِ والجعرافيا ونحوِهَا.. فكان الطَّالبُ يَتَخَرَّجُ من هذهِ المدارس جاهلاً بأُمورِ الدنيا، صامِتًا، تائهًا، يجهلُ وجوهَ التعامُلِ والحوارِ، غريبًا في هذا العالَمِ لا أَمَلَ ولا هَدَفَ له سِوَى أنْ يكونَ إمامًا يصلِّي بالناسِ في مسجدِ القريةِ ويُدَرِّس قواعدَ الصرفِ والنحوِ العربِيِّ وهو غافلٌ عن أنَّه أصبحَ رمزًا من رموز التقليد الأعمى... كذلك لم يكنْ في مدرسةٍ من مدارسِ الأكرادِ برنامَجٌ مُقَرَّرٌ ومُعْتَمَدٌ من قِبَلِ سُلْطَةٍ أو جِهَةٍ علميَّةٍ مسؤولةٍ أبدًا. لم تكنْ هناك شيءٌ اسْمُهُ السبُّورةُ والطباشيرُ والكُرَّاسَةُ والقلمُ والْمِمْحَاةُ... ولاَ الكتابةُ، ولا الإنشاءُ، ولا استعمالُ علاماتِ الترقيم، ولا الإختِبَارُ، ولا الإمتِحَانُ، ولا التدريبُ، ولا الخطابةُ، ولا المناظرةُ، ولا المسابقةُ العلميَّةُ.. لذلك كانتْ ولا تزالُ وجودُ هذهِ المدارسِ مصيبَةً وعَمى على المنطقةِ، لم يتخلَّصْ من تأثيراتِها السلبيَّةِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبِّي من الْمُتَفَتِّحِينَ الذين استيقظوا في الأَوَانِ الأخيرةِ من نومتِهم بِلُطْفٍ من الله، فأكملوا ثقافتَهم على أنفسِهم بجهودِهم الخاصَّةِ.

كانت هذه خلاصةً ذاتَ وجوهٍ متعدّدةٍ حولَ المجتمعِ الكرديّ، تضمُّ حقائقَ لعلَّها تستوفِي الإجابةَ على كثيرٍ من التساؤلاتِ عن ظروفِ هذهِ الطائفةِ ومعاناتِهَا.

***

- **الأقلِّيَّةُ العربيَّةُ**

إنَّ الجماهيرَ العربيَّةَ التي تتوزَّعُ على منطقةِ جنوبِ شرقي تركيَا تتَّسِمُ – ولا شكَّ– بأهمِّيَّةٍ ضِمنَ التكوين البشريّ للمجتمَعِ التُّرْكِيّ اليومَ. أمَّا كونُ وجودِهِم على هذه المنطقَةِ التي تمتدُّ متوازِيَةً مع الحدود التُّرْكِيَّةِ–العراقِيَّةِ–السوريَّةِ، فتُفَسِّرُ لنا الكثيرَ من الحقائِقِ المرتبطَةِ بهذا القطاعِ.

إنَّ للعربِ قِدَمٌ في هذه المنطقةِ منذُ العهدِ الجاهِلِيّ، ثمَّ توافدتْ جماعاتٌ منهم وأقامتْ بِها أيَّامَ الفتوحاتِ الإسلامِيَّةِ بدايةً من أيَّامِ الخِلافَةِ الراشدَةِ ودامتْ انتقالاتُهُم إليها على مدى حُكْمِ الأمويّينَ، كذلك في العهدِ العبَّاسِيّ. ثمَّ تدفَّقَتْ موجاتٌ منهم على هذه المنطقةِ نتيجةَ نَكَبَاتٍ أصابتهم فأجبرتْهم على الهجرةِ من أوطانهم. وأشدُّها مأساةً، هي المجازرُ التي ارْتَكَبَتْهَا جيوشُ التاتار (المغول) في صفوفهم عام **1258**م. والتي انتهتْ بسقوطِ الخلافةِ العباسِيَّةِ وذهبَ ضحيَّتَها ملايينُ الأرواحِ في العراقِ وسوريَا.

لقد كانت جالياتٌ من العربِ استوطنوا هذه المنطقةَ قبْلَ ظهورِ الإسلامِ، وكانتْ لهم إماراتٌ تابعةٌ للدولِ الحاكمةِ على بلادِ الرافدين، والهلالِ الخصيبِ، وأرمينيا. لكنَّ الزحفَ العارِمَ للعربِ إلى هذه المنطقةَ وازدِيَادَهم بِها مع مرور الزمانِ إنّما بدأ بعد سقوطِ الدولة الفارسِيَّةِ وضَمّ أراضيها إلى الوطنِ الإسلامِيّ في عهدِ أمير المؤمنين عمر بن الخطابِ رضي الله عنه.

يُعَدُّ فتحُ الْمُدُنِ الواقعةِ بشمالِ العراقِ وسوريا من أهمِّ الأسبابِ لهذا الزحفِ. تأتي على رأسِ تلك المدُنِ: أنطاكيا Antakya، ورَها (أورفا اليومَ Urfa)، وحرَّان Harran، وجزيرةُ ابن عمر Cizre، وأسعردَ Siirt، وماردين Mardin، وديار بكر Diyarbakır، وبَتْلِيس Bitlis، وملاطية Malatya، ومرعش Maraş، وسميساط Adıyaman، وخلاط Ahlat، وأرجيش Erciş، وباجونايس Patnos، وأرض الجان Erzincan، وأرض الروم Erzurum وما يليها من القرى والضواحي.

كان على رأسِ جيوشِ الفتحِ القائدُ الأعظم سيفُ اللهِ المسلول خالد بن الوليد، والبطل البدرِيُّ أبو عبيدة عامر بن الجراح، وسعدُ بْنُ أبي وقاص. ثمَّ يليهم: عياض بن غنم، وضرار بن الأزور، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعاصم بن عمرو التميمي، وشرحبيل بن حسنة، وهاشم بن عتبة، ومعاذ بْنُ جبل الأنصارِيُّ، وانبه عبد الرحمن بن معاذ وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين.

للصحابة والتابعين قبورٌ ومزاراتٌ كثيرةٌ مبعثرةٌ على هذه الساحة الشاسعة من أراضي تُرْكِيَا اليومَ ما يبرهن على وجودِ العربِ في هذه المناطِقِ قبلَ زحفِ الأتراكِ إليها. إنّما بدأ ظهورُ الأتراكِ على أطرافِ هذه المنطقةِ في وقتٍ متأخِّرٍ، وذلك عقِبَ فتحِ (مَلاَذْكِرْد) على يدِ ألب أرسلان السلجوقي سنةَ 1071م. وقد كان خالد بن الوليد فتح مدينة ديار بكر عام 639م. وبين الموقعتين فترةٌ قدرها 432 عامًا.

أتاحت للعربِ فرصةُ الاستيطان في هذه البلادِ قبلَ تلك الفترة، ولم يكن للأتراكِ يومئذٍ وجودٌ على أيّ ناحيةٍ منها، تشهدُ الوثائِقُ التاريخيَّةُ وقبورُ الصحابةِ والتابعين المبعثرةُ على نواحي هذه المنطقةِ، تشهد على أن العربَ قد فتحوها قبلَ أربعةِ قرونٍ من زحفِ الأتراكِ إليها، ولا يزالُ كثيرٌ من سُكَّانِ هذه المنطقةِ يتحدَّثون باللغةِ العربية. ولا شكَّ في أنَّ ذلك من أوكدِ البراهينِ على ثبوتِ كُلِّ هذه الحقائِقِ.

كانت الْمُدُنُ العربيَّةُ ولا تزالُ من (أنطاكيا) غربًا إلى ضواحي مدينة (موش) شرقًا معظمها آهلةٌ بالسُّكَّانِ العربِ حتى يومنا هذا. احتفظوا بميّزاتهم العربِيَّةِ من اللغةِ والعاداتِ، ومارثوا ثقافَتَهُمْ بحرِّيَّةٍ على مدى الْحُكْمِ الأمويّ والعبَّاسِيّ إلى أواخرِ أيامِ العثمانِيّين حتى ظهورِ (حزبِ الإتحادِ والترقّي). فلمَّا تَرَدَّتِ الدولةُ العثمانِيَّةُ وآذنت بالانهيارِ في أواخر القرنِ التاسع عشر الميلادِيّ اتّفَقَتِ الدولُ الغربِيَّةُ (وبالتحديد: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) على فتكِها وتقسيمِ مناطقها الإقليميَّةِ الْمُتَبَايِنَةِ انطلاقًا من اختلافِ لغاتِها وميّزاتِها الإجتماعِيَّةِ والثقافِيَّةِ؛ وذلك وفقًا لمشروعِ ساكس بيكو Sykes Picot،[43] وطبقًا للبنودِ الواردةِ في اتفاقِيَّةِ ساكس بيكو التي مهّدتْ لِحِلْفِ الاستعمارِ الغربِي سبيلَ

---

[43] اتفاقيةُ سايكس بيكو وُقِّعَتْ بين فرنسا وبريطانيا على اقتسامِ الدولِ العربيَّةِ الواقعةِ شرقِي المتوسط عام **1916** في إطارِ تقسيمِ أراضِي الإمبراطوريَّةِ العثمانِيَّةِ التي كانتْ تُوصَفُ بِالرجُلِ المريضِ، وتمَّ الوصولُ إليهَا بين أبريل/نيسان ومايو/أيار من ذلك العامِ على صورةِ تبادُلِ وثائِقَ بين وزاراتِ خارجيَّةِ الدولِ الثلاثِ (فرنسا وإنجلترا وروسيا القيصرية). المصدر: http://www.aljazeera.net/encyclopedia/events/2016/5/11/

الاستيلاءِ على هذه المناطق والتحكُّمِ فيها. وكان الهدفُ الرئيسُ من هذه الإتفاقِيَّةِ – لا شكَّ– إثارةُ النعراتِ القوميَّةِ والطائِفيَّةِ والمذهَبِيَّة بين مخلَّفَاتِ المجتمع العثماني لتحقيق المبدأ الذي اتخذهُ الحلفُ المسيحِيُّ–الصهيونِيُّ قاعدةً أساسِيَّةً لتحقيقِ أحلامِهِ المتمثّلةِ في مقولة "فَرّق تَسُدْ".

ما لبثَ طويلاً حتى تمكَّنَ الحِلْفُ من اختيارِ عُملاءَ مخلصين له من رعايا الدولة العثمانية، فعثرَ على جماعةٍ مندسَّةٍ في قلبِ الدولةِ مبعثرةٍ على مؤسَّسَاتِها، كانَ أفرادُ هذه الجماعةِ مرتبطين فيما بينهم ومتماسكين، كُلُّهُم من امتدادِ سلالاتٍ متهوّدةٍ من بقايا الشعبِ الخزرِيّ الذي سَحَقَهُ الجُيُوشُ العباسِيَّةُ وقضتْ على دولتِهِ منذ قرون. والخزرُ قبيلةٌ من الأتراك.

كانت هذه الجماعةُ (التركِيَّةُ الأصلِ وَمُوسَوِيَّةُ الدِّيَانَةِ) طالما تتربَّصُ الدوائِرَ بالدولةِ العثمانِيَّةِ لِحِقدِها الدفين على الإسلامِ وأهلِهِ. اجتمع كُبَرَؤُها سِرًّا في الخطوةِ الأولى سنة **1889**م. في سالونيك، ثمَّ انتظموا وراءَ سِمَةٍ سياسيَّةٍ ضمنَّ جمعِيَّةٍ سِرِّيَّةٍ عنوانُها (الاتّحادُ العثمانِيُّ)، عام **1897**م. في باريس عاصمة فرنسا، وفتحوا لهم فرعًا في مدينة جنيف (سويسرا) كخطوةٍ ثانِيةٍ، ثمَّ أعلنوا عن هذا التنظيمِ بعنوان (جمعِيَّةِ الإتّحادِ والترقّي) في الخطوةِ الثالثَةِ. تظاهرت هذه الجمعيَّةُ بمطالبةِ الإفراجِ عن الحُرّيَّاتِ ومقاومة السياسة الاستبداديَّةِ كذريعةٍ لإثارةِ فتنة العصبِيَّةِ.

بدأتِ العمليَّةُ أولاً بسحقِ الأرمن المسيحِيّين عام **1915**م. بتنفيذ المجازر فيهم وتهجير البقيةِ منهم إلى سوريا ولبنان قبلَ تقسيم الدولةِ، ليكون ذلك أكبر ذريعةٍ للقضاءِ عليها. وأمَّا سحقُ الأقلِّيَّاتِ الأُخرى، فتأخّرَتْ إلى ما بعدَ تصفِيَةِ الإمبراطورِيَّةِ. ثمَّ تسلَّمتِ المهمّةَ الدولةُ الجديدةُ التي قامت على أنقاضِ الدولةِ العثمانِيَّةِ باسمِ (الجمهورِيَّةِ التركِيَّةِ). تَبَنَّتِ الحكومةُ في العهدِ الجمهورِيّ سياسةَ حزبِ الاتّحادِ والترقِّي نفسَهَا في التعاملِ مع الأقلِّيَّاتِ. أجبرتْ حكومةُ مصطفى كمال الأروامَ المسيحِيّين (وهم بقيَّةٌ من الشعبِ البيزنطي اليونانِيّ)، أجبرتْهم على الهجرةِ إلى يونان عام **1925**م. فتمَّ تهجيرُ 000 200 1 شخصٍ منهم مقابلَ جلبِ 000 500 من الأتراك إلى تركيا، وفقًا لمعاهدةِ (لوزان) التي اعتمدَتْها تركيا عام **1923**م. مع سبعةِ دولٍ أخرى (وهي: بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، ورومانيا، ويونان، ويوغوسلافيا، ويابان).

واصلتِ الحكومةُ التركِيَّةُ من جانبٍ آخرَ سياسَتَها القمعِيَّةَ في التعاملِ مع بقيةِ الأقلِّيَّاتِ الْمُعْتَنِقَةِ للدِّيانةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ (Müslümanlık) مع أنّها القاسمُ المشتَرَكُ بين فضائلِ المجتمع التركِيّ (الأتراكِ

والأكرادِ والعربِ وغيرِهم). أسفرتْ هذه السياسةُ عن صهرِ ثلاثِ طوائِفَ أثنيَّةٍ من أصلِ خمسِ أقلِّيّاتٍ في البوتقة التركِيَّةِ. وهي: اللازُ، والجراكسةُ، والبُنطُس. ذابتْ هذه الفصائِلُ الثلاثُ في غمرِ الأتراكِ تمامًا ذوبانَ الملحِ في الماءِ، لِقلَّةِ عددِهم وعجزِهِمْ عنِ المقاومةِ، بحيثُ لم يعُدْ أحدٌ من أفرادِ هذه الأقلّيّاتِ الثلاثِ يتحدّثُ اليومَ بلغتِهِ الأصلِيَّةِ؛ بل أصبحوا يتحدَّثونَ باللغةِ التركِيَّةِ لكن بلهجةٍ مشوَّهَةٍ، ويزعمون أنها اللغةُ الأمُّ بالنسبة لهم، وقد انتشرت نزعةُ العنصريَّةِ التركِيَّةِ فيهم، وأبرز البراهين عليها: أنَّ بقايا الشعبِ البُنْطُسِيّ يتظاهرون بممارسةِ أفاعيلَ خطيرةٍ للبرهنةِ على انتمائِهم إلى الأصلِ التركِيّ تملُّقًا إلى الأتراكِ. من هذه الحِيَلِ (على سبيل المثالِ): تلبُّسُهُم بقتلِ الصحفي الأرمنِيّ الأصلِ (هِرانت دينت Hırant Dink)، ومحاولتهم لغْتِيَالِ المغني الكردِي (إبراهيم طَاطْلِيسَسْ)، وقِيامِ جماعةٍ صوفِيَّةٍ منهم بمضايقةِ الأروامِ في حي (بلاط Balat) في إسطنبول، حيث اضطرَّ أكثرُهم للهجرةِ إلى يون. ومن أنماطِ مداهنة هذه الجماعةِ للأتراكِ: أنها تقومُ بنشرِ الطريقةِ النقشبندِيَّةِ؛ وهي طريقةٌ صوفِيَّةٌ اختلقها خواجواتُ الأتراكِ قبلَ قرون لدعمِ الديانة المسلمانيةِ كبديل لـ"إسلامِ العربِ". إن البُنْطُسِيّين ينافقون الأتراك بأمثالِ هذه الحِيَلِ ليستغلُّوهم!

توقّعتِ السلطةُ التركِيَّةُ أنَّ الفرصَةَ قد أتاحتْ لها لتنجحَ في صهر الأكرادِ أيضًا، فأقدمتْ على إرغامِهم باستعمال القوَّةِ واستخدامِ الدولةِ العميقةِ، إلاَّ أنَّ محاولاتِها طوالَ قرنٍ تقريبًا انقلبتْ إلى مغامرةٍ مأساوِيَّةٍ دامتْ إلى اليوم.

أمَّا العربُ المواطنونَ للدولة التركِيَّةِ الذين عاشوا قرونًا في ظلِّ الحُكْمِ العثمانِيّ، فاقتربت منهم الكارثةُ بعد أن وضعت الحربُ العالميةُ الأولى أوزارَها وجدوأ أنفسَهم في وسطِ فتنة جهنّمِيَّةٍ اندلعتْ بين خصمين بجوارهم، فتطوَّرت إلى حدودٍ تُهَدِّدُ كيانَهم برغم حيادِهم حيالَ هذا العراكِ؛ طرفٌ منهما: يتمثّلُ في الحكومةِ التركِيَّة العنصُرِيَّةِ وهي تملكُ القوَّةَ والسلاحَ، وطرفٌ ثانٍ: كثرةٌ بشرِيَّةٌ من الأكرادِ تُحدِقُ بالمناطقِ العربِيَّةِ وتلْتفُّ بِخناقِها كلما تستعِرُ الحربُ بين الخصمين، والمجتمَعُ العرَبِيُّ في سهرٍ وقَلَقٍ شديدينِ دونَ هوادَةٍ.

تعرّضَتِ الأقَلّيَةُ العربِيَّةُ لاضطهادٍ عنيفٍ طوالَ حكمِ مصطفى كمال، وعصمت إينونو مدّةَ ثلاثين عامًا. مُنِعُوا من التحدُّثِ باللغة العربِيَّةِ في هذه الفترةِ، كما فُرِضَ رفعُ الأذانِ باللغةِ التركِيَّةِ نكايةً بالعربِ أكثر منها عداوةً للإسلامِ! دام ◌َ ذلك ثمانيةَ عشر عامًا، فاشتدّتْ محنةُ العربِ وأصابهم الكبتُ، وانتشرتْ فيهم حالاتٌ نفسِيَّةٌ لعجزهم عن التعبير باللغة التركيةِ. أسفر ذلك فيما بعدُ عن

استحالاتٍ في تصرُّفاتهم، وأزماتٍ أخلاقِيَّةٍ خطيرةٍ في تفكيرهم وسلوكياتهم، أبرزها انفصامُ الشخصِيَّةِ والتخلّي عن الأرومةِ والأصلِ. أفضى ذلك إلى شيوعِ النفاقِ والازدواجِيَّةِ، والتنكُّرِ للحقائِقِ التاريخِيَّةِ، والتماهي بالعنصر التركِيّ، والإعتزازِ بأمجادِ الأتراكِ... شاعتِ الإنعزالِيَّةُ إلى هذه الحدودِ الرهيبةِ في المناطِقِ الآهِلَةِ بالعربِ. إلاَّ أنَّ بعضَ المُدُنِ العربِيَّةِ اشتَدَّ التَّطَرُّفُ فيها أكثر منها في المُدُنِ الأُخرى، وهي مدينةُ أسعردَ (Siirt) بخاصَّةٍ.

بهذه المناسبةِ يستحقُّ التركيزُ على التموُّجاتِ الإجتماعِيَّةِ في حياةِ هذه المدينةِ والتَّبَدُّلاتِ الطارئةِ على سُلُوكِيَّاتِ سُكَّانِها:

كانتْ مدينةُ أسعردَ عقبَ الفتحِ الإسلامِيِّ آهِلَةً بأغلَبِيَّةٍ مسيحسيَّةٍ وأقَلِّيَّةٍ مُسلِمَةٍ. قيلَ عن سببِ ذلكَ. أنَّ طائِفَةً من المرتدِّنَ العربِ كانوا قد فرّوا من قَلبِ الجزيرةِ العربِيَّةِ أيَّامَ خِلافَةِ أميرِ المؤمنِنَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه خوفًا من القتلِ. فلمَّا وصلوا إلى هذه المدينةِ غلبَ على ظنّهم أن المسلمين لن يطمعوا في الاستيلاءِ عليهم، فأقاموا فيها. لكنّه لم يلبّثْ طويلاً حتى داهمتْ جيوشُ الفتحِ ساحةَ المدينةِ بقيادةِ عياض بن غنم، فأُحْضِرَ كِبارُهم للْمُساءَلَةِ، فأقسموا بالله أنهم مسيحيّين قديمًا، وأنهم من قبيلةِ تغلِبِ المعروفةِ بانتسابِها إلى هذه الديانة، ولم يسبِقْ لهم أن اعتنقوا الإسلامَ أصلاً في ماضيهم. فقَبِلَ منهم القائِدُ عياض بن غنم وأقرَّهم على ذلك بشرطِ أن يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

أُقِيمَت جماعةٌ من المسلمين بجوارِهم لِيتولَّوْ إرشادَ جيرانهم المسيحيّين لكسبِهم إلى رحابِ الإسلامِ إذ لم يكن خافِيًا على القائد عياض بن غنم أنَّ هؤلاءِ من المرتدّين الذين هربوا في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإقاموا في هذه المنطقةِ طلبًا للأمانِ وَتَنَصُّلاً عن مسؤولِيَّةِ الارتِدَادِ، لكنَّهُ تجاهل الأمرَ فأغضى عن ذلكَ رحمةً بهم وحمايةً لهم من غضبِ القائد العامِّ خالد بن الوليد المعروفِ ببطشِهِ وسطوتِهِ، وحتى لا يتعرَّضوا لقتلٍ جماعِيٍّ.

إلاَّ أنَّ هذا التسامُحَ أفضى إلى سلبِيَّاتٍ بعدَ فترةٍ من الزّمَنِ، ظهرتْ في سلوكِ الأَقَلِّيَّةِ الْمُسلِمةِ. ذلك أنَّ المسيحيّين كانوا هم الأكثرِيَّةَ في المدينة، فكانتْ نشاطاتُهُم الحِرَفِيَّةُ والمِهَنِيَّةُ وعلاقاتُهُمُ الاجتماعِيَّةُ تجرِي على نسقٍ من النظام والانسجامِ مِمَّا إدَّى إلى تحوُّلاتٍ وتغيُّراتٍ في حياة المسلمين لاغتباطهم بجيرتهم المسيحيّين، إذ غدوا يُقَلِّدونَهم، ويحتذونَ حَذْوَهُمْ في كثيرٍ من العاداتِ

والاحتفالاتِ والإعيادِ والأفراحِ. ولا يخفى أنَّ الضعيفَ يغبطُ القويَّ ويُقَلِّدُهُ خاصَّةً إذا كان قليلَ المعرفَةِ وصاحِبُهُ أعلمُ منه (في أمورِ دنياه)، وقد يَنْبَهِرُ الضعيفُ بالقويِّ إلى حدود التماهي. هكذا طغتْ سلوكِيّاتٌ دخيلةٌ على حياةِ هذه القلَّةِ المسلِمةِ خاصّةً بعدَ هجرَةِ طوائِفَ من أعجامِ الهندِ، ومن التركمان من مدينةِ أرضِ الروم، وانتقالِ عائلاتٍ من أكرادِ الجوارِ إلى المدينةِ، فتحوَّلَ العربُ الأسعرديون إلى جماعةٍ هجينةٍ تهبُّ مع كُلِّ ريح. أصبح الوسطُ بعد ذلك متاحًا لانتشارِ أيِّ بدعةٍ أو معتقدٍ خرافيٍّ.

إنَّ من أهمِّ موجاتِ هجرةِ العربِ إلى مدينة أسعردَ كانت تلك التي اجتاحت المنطقةَ في أعقابِ احتلالِ التاتارِ (المغول) للمنطقة العراقِيَّةِ. هاجرت إليها عبرَ هذه الموجةِ عائِلاتٌ من أقاربِ الخليفةِ العباسِيِّ (المستعصِمِ بالله) قتيل التاتار. هربتْ هذه العائلاتُ من بغدادَ عا **1258**م. حتّى وصلت إلى هذه الديارِ عن طريق الموصل مرورًا بجزيرةِ ابنِ عمرَ، فاستقبلها حاكِمُ (ميافارقين) الأيُّوبِيُّ الملكُ الكامِلُ ناصِرُ الدِين محمد بن المظفَّر شهابُ الدين غازي وأكرمَ مثواها، فأقامَ هؤلاءِ المهاجرون من أسرةِ الخلافَةِ العبَّاسِيَّةِ في قريةٍ اسمُها (تِلّلو)، وهي قريةٌ تابعةٌ لمدينة أسعرد. ثمَّ التحقتْ بهم عائلاتٌ هاشميَّةٌ أخرى. أشهرُها أسرةُ الشيخ شرف القتَّالِ العلوِيِّ الحسنِيِّ. سكنت هذه التجمُّعاتُ الهاشِمِيَّةُ المشَرَّدَةُ في ضواحٍ قريبةٍ من مدينة أسعردَ، فاستقوى بهم المسلمون العربُ المحَلِّيُّون من أهالي المدينة.

شهدت المنطقةُ نشاطًا عِلمِيًّا على أثر هجرةِ الهاشِمِيّين إليها، تقصدها جماعاتٌ غفيرةٌ من الطلبةِ للدراسَةِ في مدارِسِهم التي تحوّلتْ إلى جامعاتٍ مُشِعَّةٍ ذاتِ نشاطاتٍ علمِيَّةٍ في هذه المنطقةِ تُعطِي ثمارَها قرونًا. فلمَّا ظهر خالِدٌ البغدادِيُّ في القرنِ التاسع عشر الميلادِي وذاعتْ زندقتُهُ من مقرِّهِ بمدينة السليمانِيَّةِ العراقِيَّةِ كانَ سُكَّانُ مدينة أسعردَ في طليعةِ مَنْ اغترّوا به وانصاعوا لدجلياتِهِ واعتنقوا عقائِدهُ التي اقتبسها من رهبانِ مجوسِ الهندِ. فما لبثَ حتّى انتشرَ التيَّارُ النقشبندِيُّ في هذه المدينةِ انتشارَ النارِ في الهشيمِ، وحلَّ التطرُّفُ والتزمُّتُ والشكلِيَّةُ والتقليدُ الأعمى والرياءُ والنفاقُ محلَّ الرحابةِ والصراحةِ والتسامُحِ وحسنِ العشرةِ والفضائِلِ التي جاءَ بها الإسلامُ.

من غرائب الأمورِ أنَّ شخصِيَّاتٍ معروفين بغزارةِ معارِفِهم وتخصُّصاتهم في العلومِ الإسلامِيَّةِ من الهاشميّين وغيرِهم سرعانَ ما سُحِرُوا بأفاعيلِ هذا الزنديقِ، فضربوا بمبدأ (التوقيفِيَّةِ) التي هي القاعدةُ الأساسِيَّةُ المتينةُ لتعاليم الإسلام، ضربوها عُرضَ الحائطِ فاعتنقوا عقائِدَه المستقاةَ من الديانات الهنديَّةِ وانخرطوا في سلكِهِ وقاموا بإجراءِ طقوسِ مجوسِ الهندِ كـ(صلاةِ الرابطةِ)، و(الختمةِ

الخواجگانيةِ)، وحفلة التوجُّهِ... فكانت هذه التطوُّراتُ كارثَةً على الإسلامِ وأهلِهِ، لأنَّ ذلك وسَّعَ في الوقتِ ذاتِهِ المجالَ لانتشارِ المسلمانيَّةِ التركِيَّةِ في المنطقةِ العربِيَّةِ، والمسلمانِيَّةُ – لاشكَّ– ديانةٌ وثنِيَّةٌ قبورِيَّةٌ خطيرةٌ، كما سبقتِ الإشارةُ إليها مرارًا، تضمُّ في ثناياها ما يصعُبُ حصرُهُ من أشكالِ البِدَعِ والخرطقاتِ والأساطيرِ والخرافات وكفريَّاتِ الصوفِيَّةِ... كلُّها مختَلَقَةٌ أصلاً لأجلِ تتريكِ الإسلامِ والقضاءِ على شموليَّتِهِ العالَمِيَّةِ ورصانةِ أسُسِهِ المستمدّةِ من الوحيِ الإلهِيِّ والهديِ المحمّدِيِّ.

هكذا انصهر مواطنوا الدولة التركية من العربِ في غمرِ الأكثرِيَّةِ بصورةٍ تدريجِيَّةٍ تحتَ ضغطِ سياسةِ التطبيعِ والتدجينِ، فتحوّلوا إلى مجتمعٍ غريبٍ، إذ لم يُصبِحوا جزءًا عضوِيًّا من الأتراكِ تمامًا، رغم التوجيهات والمحاولاتِ والجهود التي بذلتها صُنَّاعُ القرارِ السياسِيِّ العنصريّون لتطبيع العربِ؛ ولا تمكّنوا من الحفاظِ على ميّزاتهم العربِيَّةِ كاملةً، بل تذبذبوا بين القوميّينَ تذبذُبًا أضفى عليهم غرابةً في المظهرِ وطابِعًا من الهُجْنَةِ في العقلِيَّةِ والسلوك.

هذه المغامراتُ السياسيَّةُ التي خاضتْها الحكومات التُّرْكِيَّةُ أرْبَكَتِ العربَ المواطنينَ في مسيرةِ الحياةِ، وحيَّرَتْهم في إبداءِ الموقفِ الصريحِ حيالَ القضايا وعند إقتضاءِ الأمرِ، فانتشرَ التلوُّنُ والنفاقُ والمجاملةُ والتملُّقُ في المنطقةِ العربِيَّةِ انتشارًا ذريعًا. من أبرزِ هذه المظاهر الإزدواجِيَّةِ اقتناءُ الإنسانِ العربِيِّ أسماءً تركِيَّةً لأطفالِهِ ذكورًا وإناثًا (مثلَ: تْشَتِين Çetin، وهاكان Hakan، وساواش Savaş، وأوكتاي Oktay للأبناءِ؛ ومثلَ: صونكول Songül، وآيلا Ayla، وسربيل Serpil، وتركان Türkan، للبنات)، في الحين الذي يختارُ المحافظونَ الأتراك قديمًا ولا يزالونَ أسماءً عربيَّةً لأولادِهِم، (مثلَ: علي، وصالح، وحسين، وعبد الله للأبناءِ؛ وفاطمة، وعائشة، وسلمى، وخديجة للبناتِ).

لقد بلغ النفاقُ بأهلِ هذه المنطقةِ إلى حدٍّ لا يكادُ أحدٌ منهم يشعرُ أنَّهُ عربِيٌّ مع أنّهُ يتحدَّثُ بالعربِيَّةِ! لأنه يعيشُ في وسطِ زحامِ قوميَّتَينِ (التركِيَّةِ والكردِيَّةِ)، يشهدُ الحربَ التي تشتعِلُ نيرانُها بينهما منذ قرنٍ تقريبًا، وهو في حيرةٍ من أمرِهِ حِيَالَهُما، يتفاعلُ مع الطرفين بطريقِ الازدواجِيَّةِ، ولكنَّهُ يوالي الأقوى منهما احتماءً وحفاظًا على حياته ومستقبلِهِ وهذا نفاقٌ بعينه. إنَّ النفاقَ الذي يتلبّسُ به المواطنُ التركِيُّ من العربِ، مردُّهُ – لا شكَّ – هو الخوفُ. ذلك أنَّ المنافِقَ –كائنًا مَنْ كانَ – خائفٌ دومًا، وقلبُهُ مليئٌ بالرُّعبِ من خصمٍ قوِيٍّ لا يستطيعُ مُغالَبَتَهُ، فيسايرُهُ فترةً من الزمنِ ثمَّ يتعوَّدُ على نفاقِهِ الذي لا يلبَثُ طويلاً فيتحوَّلُ إلى استسلامٍ وإخلاصٍ لخصمِهِ، ثُمَّ إلى إيمانٍ راسِخٍ في قلبِهِ، فينقلِبُ المنافِقُ بعدَ ذلك إلى عبدٍ أو عميلٍ يرى خصمَهُ سيّدًا يجبُ الإمتثالُ لأمْرِهِ وتنتهي

الأزمةُ بالنسبةِ له، ولكن الأمرَ لا ينتهي بالنسبةِ لمن يراقِبُ هذه العلاقَةَ الغامضَةَ ويقِفُ على أسرارِ هذه الإزدواجِيَّةِ.

إنَّ هذا النمطَ من المراقبةِ والمتابعةِ مهمَّةٌ مقدَّسَةٌ تجعلُ أهلَ الأمانةِ من الباحثِينَ شهودًا على القضايا الخطيرةِ وتودِعُ مسؤولِيَّاتٍ عظيمةً في ذِمَمِهِمْ، فَيُسَجِّلونَ الحقائِقَ – من غيرِ تحريفٍ – على صفحاتِ التاريخِ طوالَ القرونِ.

***

إنَّ السياسةَ القسرِيَّةَ التي مارستها الحكومات التركِيَّةُ طوالَ قرنٍ لصهرِ المواطنين العربِ، لها أسباب مثيرةٌ، أهمُّها:

إنَّ المنطقةَ العربِيَّةَ وقعتْ على تخومِ دَوْلَتَيْنِ عربيَّتين (سورية والعراق) بعد تجزئةِ الشرقِ الأوسَطِ وفق مشروعِ Sykes Picot، فَرَأَتْ سلطةُ الدولة التركية (في بداية عهد مصطفى كمال) أنَّهُ لا بدَّ من قطعِ الصلةِ بين العربِ المواطنين وبين بني جلدتِهِم، فهو أمرٌ ضروريٌّ بمقتضى سياسةِ تتريكِ هذه المنطقةِ على وجهِ السرعةِ؛ فبادرتِ أوَّلاً بطردِ أعدادٍ من الضباطِ العربِ السورِيّين والعراقِيّين وفصلِهم من الجيشِ التركِيّ وتسفيرِهم إلى سوريا والعراق وفق انتماءاتهم الوطنية. ثم واصلتْ إعمالَهَا لصهرِ العربِ عن طريقِ جهازِ التعليم. هذه السياسةُ هي الدافع الرئيس الذي منع المنطقةَ في وقتٍ مبكّرٍ من أن تظهر فيها نشاطاتٌ قومِيَّةٌ فتتحوَّلَ إلى مُعْتَرَكٍ على مثالِ كركوك العراقِيَّةِ.

وللعبرةِ يجدرُ الإشارةُ هنا إلى فروقٍ كبيرةٍ بين الوضع الإجتماعي للمنطقتين؛ (المنطقة العربية في تركيا، والمنطقة التركمانية في العراق)؛ إذا قورِنَ بينهما ظَهَرَ أنَّ المنطقةَ العربِيَّةَ في تركِيًّا يسودها صمتٌ غريبٌ وحالةٌ من تحمُّقِ سُكَّانِهَا؛ إذ لا يكادُ حتى فردٌ واحدٌ من أهلِها يكتبُ ويقرأُ بالعربِيَّةِ، فضلاً عن أن يكون له رغبةٌ فيهما، مع أن القراءَةَ والكتابةَ بالعربِيَّةِ وسيلتانِ أساسِيَّتانِ للصحوةِ والوعيِ وإدراكِ الحقائِقِ بالنسبة للإنسانِ العربِيّ خاصَّةً، ولهما تأثيرٌ بالغٌ في الإحساسِ بأهمِّيَّةِ الأصلِ والأُرومة ومقاومةِ دوافع التلاشي والاضمحلالِ.

أمّا المنطقة التركمانِيَّةُ في العراقِ، فإنَّ ميّزاتِها الاجتماعِيَّةَ والثقافِيَّةَ تختلِفُ تمامًا عمَّا تتَّسِمُ به المنطقةُ العربِيَّةُ في تركيا. فإنَّ أكثرَ أهلِ هذه المنطقةِ يُتْقِنُونَ الكتابَةَ والقراءَةَ باللُّغَةِ التركِيَّةِ، ولهم صلةٌ قويَّةٌ ببني قومِهم في تركِيًّا. تشهد على ذلك أعدادٌ من البحوثِ والدراساتِ صدرتْ بأقلامِ المثقَّفِينَ

التركمانِ العراقِيّين، كُلُّهَا تُعَبِّرُ عن آلامِ الأقلِّيَةِ التركمانيةِ وآزماتِهِم، بعضُها مدوّنةٌ باللُّغةِ العربيَّةِ وآخرى بالترِكيَّةِ. وقد لجأ عددٌ من هؤلاءِ الباحثين والمؤلِّفِن التركمان إلى تركيا وأقاموا بها يواصلونَ جهودَهم في الدفاعِ عن قضاياهم، ويطلبون المساعدةَ من الحكومة الترِكيَّةَ لنجدةِ بني قومهم في العراقِ، والحفاظِ على حقوقهم وحُرِّيَّاتِهِم لكي لا يتعرّضوا للسحقِ من قِبَلِ الحكومةِ العراقِيَّةِ والأكرادِ. وليس خافِيًا أنَّ الحكومةَ الترِكيَّةَ كانت ولا تزالُ تهتمُّ بتركمان العراقِ أشدَّ الاهتمامِ، وتدافع عن حقوقِها وأمْنِها عبرَ علاقاتِها مع الحكومة العراقِيَّةِ، ومسؤولِي المنطقة الكردِيَّةِ، كما تُفَكِّرُ أحيانًا في الإنقضاضِ على هذه المنطقةِ لِضَمِّها إلى تركيا!

ينبغي هنا التركيزُ أصلاً على المقارنة بين العربِ والأتراكِ بهذه المناسَبَةِ وعلى وجهِ العمومِ، (بغضِّ النظرِ عن أحوالِ العربِ القاطنينَ في ترِكيَا)، بل لِيَتَمَكَّنَ الباحثونَ بعدَ اليومِ بجدِّيَّةٍ ورَوِيَّةٍ وبُعدِ نَظَر، من تناولِ الصراعِ العربي–التركي على مسرحِ التاريخ. وهذا يحتاجُ إلى معرفةٍ واختصاصٍ وتقصٍّ واستنباطٍ وتعمُّقٍ وحياد... ذلك أنَّ اللغطَ السياسِيَّ المعاصرَ للعربِ وما يهبُّ معه من أعاصير الكذبِ والدجلِ والتزوير والتضليل، قد خَلَقَتْ ضَبَابًا لا يكادُ يَتَبَلْوَرُ ما يَتَخَفَّى وراءَها من أشكالِ الخيانةِ والهزيمةِ والخزيِ والعارِ، يتمرَّغُ هذه الأمةُ الفاشِلةُ في أوحالِها. فليس إذًا من السهلِ تنقيةُ الحقِّ من الباطلِ، وتمييزُ الصدقِ من الكذبِ وإظهارُ الواقع العربِيِّ المستورِ بمجردِ التصفح لِمَلايينِ مجلداتٍ من الكتب والمجلاتِ وركامِ الوثائقِ الْمُخَزَّنَةِ في مكتباتِ العالمِ.

إنَّ من الحقائقِ المعلومةِ تاريخِيًّا أنَّ العربَ لم يُفْلِحوا في سياستهم منذ وجودِهم ضِمنَ الأسرَةِ البشَرِيَّةِ إلى اليوم، إلاَّ في عصر الرسولِ صلى الله عليه وسلم وأيام الخلافة الراشدة والقرون الثلاثة بعدها. وكان الدافعُ الرئيسُ لظهورِ هذه المعجزةِ في مثلِ هذه الفترة التاريخية – لا شكَّ – هو نزول الوحي. إنَّ القرآنَ الكريمَ زرع في نفوسِ العربِ الفضائلَ والسمُوَّ الروحِيَّ، وهذَّبهم، وأكسبَهم الوعيَ؛ جمعَ شملَهم، وهيّئَهم للمنازلةِ في سبيلِ اللهِ، ورسخَ الإيمانَ والإخلاصَ في قلوبِهِم، ووَحَّدَ صفوفَهُم أمامَ سيولٍ من الجيوشِ الساسانِيَّةِ والبزنطِيَّةِ، فحقّقوا انتصاراتٍ باهرةً في معاركهم وجهادِهم بالصبر والمثابرة والفداءِ، وفتحوا البلادَ ونشروا رسالةَ الإسلامِ الخالدةَ في مشارق الأرضِ ومغاربِها، وأنقذوا شعوبًا وأممًا من ظلمات الجهلِ والكفرِ إلى ضياءِ الإيمانِ والعلمِ والفضيلةِ بجهودِهم الدعوِيَّةِ والإرشادِيَّةِ. ولكنّهم ما لبثوا بعد ثلاثةِ قرونٍ من الزمنِ حتّى تشوَّشوا واسْتَرْخَوْا، وسرى فيهم الوهنُ، فركنوا إلى الأرضِ وتنصَّلوا عن مسؤولِيَّتِهِم، وتغافلوا عن مهمَّتِهِم حين أخذوا يعتمدونَ على

الأعاجِمِ في إدارةِ شؤونِهم، وذلك في وقت مبكّرٍ بدايةً من أيَّامِ هارون الرشيد خامسِ الخلفاءِ العبَّاسِيّين.

وعلى رغمِ ما عُرِفَ به الرشيدُ من الاهتمامِ بالعلمِ والعلماءِ، وما كان يتَّسِمُ به من الذكاءِ واليقظةِ والشجاعة وعلوّ الهمَّةِ، استوزر البرامكةَ – وهم أسرةٌ فارسِيَّةٌ امتازوا بالدهاءِ وغزارة المعرفة والثقافة، والبراعةِ في حياكة الحِيَلِ– فاستطاعوا احتواءَ الدولةِ وهي في أَوْجِ عِزّها، وغرقوا في ألوانٍ من النعيمِ بطريقِ الفسادِ واختلاسِ الأموالِ واكتنازِ ثرواتٍ طائِلَةٍ، فأبطرهم الترفُ والبزخُ. ثُمَّ استعدّوا لارتكابِ خيانةٍ عظيمةٍ بالموالاةِ للأسرة الطالِبِيَّةِ (ليس محبَّةً لها)، بل للإيقاعِ بالأسرتين الهاشِمِيَّتَينِ (العبَّاسِيَّةِ والعلَوِيَّةِ) لكيْ يَفْسُحَ لهم المجالُ فَيَثِبُوا على السلطةِ بصورةٍ مطلَقَةٍ. لكنَّ الرشيدَ تنبَّهَ للمؤامرةِ فنكلَ بهم أيما نكال!

إنَّ هذه الحادثَةَ مهما تُبَرْهِنُ على نجاحِ الرشيدِ في التدبير، إلاَّ أنها تدلَّ – في الوقت ذاتِهِ– على بداية الإخفاقِ في سياسةِ حُكَّامِ العربِ وعلى اغترارهم بمن تسلّلوا إلى بلاطِهِم وحواشيهم من الأعاجم. يدلُّنا التاريخُ الإسلامِيُّ على دوامِ هذا الاخفاقِ في سياستهم التي أزالتْ فيما بعدُ هيبتَهم أيَّامَ تغَلُّبِ البويهيّينَ على سلطةِ الدولةِ العبَّاسِيَّةِ، خاصَّةً في عهدِ المستكفي بالله الذي خلعه وزيرُهُ أحمدُ بْنُ بُويه، بعدَ أن سُمِلَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ سُجِنَ إلى أن ماتَ عام **338**هـ. كذلك الطائع لله، خَلَعَ نفسَهُ عام **381**هـ. بأمرٍ من البويهيّين، وظَلَّ مُهَانًا إلى أن ماتَ سنة **393**هـ.

كان البويهيونَ أسرةً منحدرةً من أصلٍ ديلمِيٍّ، آباؤُهم كانوا زرادشتِيّين، فلمَّا أسلمَ أجيالُهُم اعتنقوا المذهبَ الشيعِيَّ. وإنّما كانوا يُضمرون الحِقدَ للخُلفاءِ لكون الخلفاءِ من أهلِ السنَّةِ. فلمَّا تغلَّبوا على الدولة العبَّاسِيَّةِ زالتْ هيبةُ الخلفاءِ ولم يَعُدْ لهم سلطانٌ عليهَا.

إنَّما بدأ الضعفُ يسودُ على بني العبَّاسِ بخاصَّةٍ، وعلى معظمِ أبناءِ المجتمَعِ العربِيّ يومئذٍ عامَّةً بسببِ التغيُّرِ الطارِئِ على الثقافةِ العربِيَّةِ تحتَ مزاحمة الثقافة الفارِسِيَّةِ؛ تذبذبَ العربُ بين الثقافتين فأصبحوا مجتَمَعًا هجينًا واختفتِ الشخصِيَّةُ العربِيَّةُ القويَّةُ فيهم فتعكَّرَتْ لُغَتُهُم، وغلُظَتْ طبائِعُهُم، وقصُرتْ آمالُهُم، واضمحلَّتْ ثِقتُهم بأنفُسِهم فصاروا ألاعيبَ في أيدي أعجامِ الفُرسِ والديلمِ والتُّرْكِ.

كان من حظِّ الخليفَةِ (القائم بأمر الله) أن وقع الخلافُ بين الأمراءِ البويهيّين فَتَضَعْضَعَ حُكْمُهُمْ وآذن بالزوال، وكانت الدولةُ يومئذٍ جسمًا بلا روح، فاستقدمَ الخليفةُ الأتراكَ السلاجقةَ وعلى رأسِهم طُغْرُلْ بك. وبدخولِ الأتراكِ عاصمةَ الخلافةِ زالَ سلطانُ البويهيين. ثمَّ تزوَّجَ الخليفةُ خديجةَ بنت داود (أخي طُغْرُلْ بك)، وتزوَّجَ طُغْرُلْ بك بنتَ الخليفةِ فاستقوت الصلةُ بين الطرفين، إلاَّ أنَّ ذلك لم يدم طويلاً.

يعترف المؤرِّخونَ العرب بذاتهم أنَّ حكَّامَ العربِ (منذ بداية العصر العباسِيّ) ما كانوا يثقونَ بالعنصر العربِيِّ نظرًا لكثرةِ حركاتهم ونشاطاتهم الثورِيَّةِ وتمرُّدِهِمْ على السلطةِ. تشهد على هذه الحقيقةِ ثوراتُ الخوارجِ والقرامطةِ وغيرهم من العرب. وكان العبَّاسِيّونَ منذ أيامِ عزِّهم (في العصر العباسي الأول) يمكِّنون الأتراكَ من الحُكْمِ والسيطرةِ لاستغلالِ مواهبهم العسكريَّةِ. أسفر ذلك عن تدخُّلِ قُوَّادِ الجندِ منهم في الشئون السياسِيَّةِ وبلغ ذلك حدودَ الإعتداءِ على الخليفةِ يومَ تلبّسوا بقتلِ المتوكِّلِ على الله وتعيينِ ابنِهِ مكانَه. فكان من نتائج غطرستهم أن استعانَ الخلفاءُ بالبويهيين الفرسِ لأجلِ إقصاءِ الأتراكِ والتخلُّصِ منهم. إلاَّ أن البويهيّين كانوا شرًّا منهم. حيث عاد العباسيُّونَ يستمدُّونَ الأتراكَ مرَّةً أخرى في عصرِهم الرابع وبعد فواتِ الأوان، لأن الظروفَ كانت قد أنهكت الخلفاءَ ودحرتهم من مقامهم المرموقِ وأزالت هيبتهم، كما كانت للأحداثِ الدامِيَةِ والثوراتِ والهجراتِ التي دامت طوالَ قرونٍ، كانت لها آثارٌ بالغةٌ في إفسادِ العقيدةِ وفي تغيير الأحوالِ الاجتماعِيَّةِ والانحرافات الأخلاقِيَّةِ وانتشار الفوضى في المجتمع العربي والثقافة العربية الإسلامِيَّةِ.

إنَّ مظاهرَ هذا الفسادِ دامت تنتشرُ اليومَ انتشارًا ذريعًا على أرجاءِ المنطقةِ العربيَّةِ في تركيا وبصورةٍ مخزيةٍ. وأشدُّها بشاعةً هو التنكُّرُ للأصلِ العربِيِّ وادِّعاءُ كثيرٍ من العربِ أنهم أتراك، والأتراكُ يضحكون منهم بسبب هذا النفاقِ الأسود. لأنَّ أيَّ شخصٍ عربِيٍّ مهما انتحلَ للأصلِ التركِيِّ إذا تجرّأَ أنْ يُجيبَ سائِلاً أنه مِنْ أهالي مدينة أسعرد (Siirt) مثلاً، يستحيلُ أن يصَدِّقَهُ السائِلُ التركِيُّ أنه من بني قومِهِ، بل يظلُّ ينظر إليه برهةً في ريبٍ واستغراب، ثُمَّ يرُدُّ عليه بالصيغة الشائعة: "لا بأسَ يكفي أنك إنسان!"

تنبَّهَ جمعٌ من شبابِ هذه المنطقةِ في السنين الأخيرةِ أنَّهم من امتدادِ سلالاتٍ عربِيَّةٍ. تفطّنوا إلى هذه الحقيقةِ فورَ الأحداثِ التي سُمِّيَتْ بـ"الربيع العربِيّ"، فثارت حفيظتُهُم أن يُعلِنوا ذلك، وخاصَّةً لمَّا علموا وتأكَّدوا أنَّ مواطني الدولة التركِيَّةِ من العربِ المحلِّيّين قديمًا، يفوقُ عددُهم ثمانيةَ ملايين، وأنهم

ثاني أقلِّيَّةٍ بعدَ الأكرادِ من حيثُ الكثرةُ، نهضوا لتأسيسِ جمعيَّةٍ تُمَثِّلُ الكِيَانَ العربِيَّ في تركيا وتساعدهم على التفاعُلِ مع بني قومهم ليشاركوهم في مسرَّاتِهم وآلامِهم، فتمَّ تأسيسُها بعنوان "عربِ آناضول Anadolu Arapları". إلاَّ أنَّ هؤلاءِ الشبابَ المتحمِّسِين اصطدموا بعقبةٍ كبيرةٍ، وهي جهلُهم باللغةِ العربِيَّةِ نطقًا وكتابةً، كما يجهلون طريقةَ تذليلِ هذه العقبةِ ولا يجدون من يُسعِفُهم. لأنَّ العالَمَ العربِيَّ في هذه المرحلةِ الزمنية غريقٌ في لُجَاجِ الفتن والفوضى، كلُّ امرءٍ منهم شأنٌ يُعنيه.[44]

***

- **القِطَاعُ الْعَلَوِيُّ**

العلويُّونَ فرقةٌ باطنيَّةٌ من فِرَقِ غلاةِ الشيعةِ. يُؤَلِّفُونَ ثانِيَ طائفةٍ دينيَّةٍ بعد "أهلِ السنَّةِ". نسبتُهم: 20،5% من أصلِ 70 مليون نسمةً من سُكَّانِ تركيا تقريبًا. نسبةُ الأتراكِ من هذا القطاعِ: 15% تقريبًا. نسبةُ الأكرادِ من هذا القطاعِ: 5% تقريبًا. نسبةُ العربِ من هذا القطاع: 3،0% تقريبًا.

و"العلويَّةُ": اسمٌ يُطلقُ في عَصْرِنَا على ثلاثِ فِرَقٍ فحسبُ من غلاةِ الشيعةِ[45]، وعلى سُلالَةٍ واحدةٍ من أهل السنَّةِ. يختلف سببُ التسميَةِ بـ"الْعَلَوِيَّةِ" بين السنَّةِ والشيعةِ (من حيث القصدُ) اختلافًا كبيرًا. ذلك أنَّ الغرضَ من إطلاقِ هذا الإسمِ على بعض الأُسَرِ مِنْ أهل السنَّةِ: هو التعبيرُ عن انحدارِ هذهِ العائلاتِ من سلالةِ عليٍّ ابْنِ أَبِي طالب[46]، لاَ لأنَّها طائفةٌ من الشيعةِ! بينما تسمِيَةُ

---

[44] لمزيد من المعرفةِ عن العرب الأصليّين في تركيَا وعن ماضيهم، وأسبابِ وجودِهم في هذا البلد، يجبُ مراجعةُ المصادرِ التاريخِيَّةِ لفتوحاتِ المسلمين الأوائلِ.

[45] وهم: **1**) النصيرية العرب (أكثرهم في سوريا)، **2**) العلوية الأتراك والأكراد (في تركيا)، **3**) الإسماعيلية (أكثرهم في بلاد الهند).

[46] قديمًا تُعْرَفُ سُلالاتٌ من الأشرافِ بعنوان العلويَّةِ، وهم من أهلِ السنَّةِ. أشهرها: علويَّةُ المغربِ، تَحْكُمُ المنطقةَ منذ عام **1631**م. يرجعُ أصلُها إلى الحسنِ السبطِ عن طريق محمدِ النفسِ الزَّكِيَّةِ. جاءوا حوالي القرن الـ**13**م. إلى المغربِ وسكنوا جنوبَ جبالِ الأطلسِ في واحةِ تافيلالت بالقُرْبِ من سِجِلْمَاسَة، وذلك بمساعدةٍ من الْفِرَقِ الصوفِيَّةِ التي كانتْ تنشط في المنطقةِ يومئذ. أولُ حُكَّامِ العلويّين بالمغرب: الرشيدُ بْنُ عليٍّ الشريفُ **1631–1672**م. وآخرُهم محمَّدٌ السادِسُ بْنُ الحسنِ. وُلِدَ عام **1963**م. ولا يزالُ على عرشِ المملكةِ المغربِيَّةِ. كذلك حُكَّامُ الأردنِ سلالةٌ من العلوِيّين الأشرافِ، إلاَّ أن تَسْمِيَتَهَا (بِالْعَلَوِيَّةِ) لم تكنْ من العادةِ. وثَمَّ عائلاتٌ مشهورةٌ من الأشرافِ العلويّين في أنحاءِ الوطنِ الإسلامِيّ، مثل أسرةِ الأميرِ عبد القادرِ الجزائرِيِّ في بلادِ الشام، من أشهر أبنائها: الدكتور مَكِّيُّ الحسنِيُّ. ومن أشرافِ بلاد الهندِ: الشيخ علي المعروف بأبي الحسنِ الندوِيّ بنُ عبدِ الحي بنِ فخر الدين الحسني (**1914–1999**م.). ينتهي نَسَبُهُ إلى عبد اللهِ الأشتر بنِ محمد ذي النفسِ الزكيَّةِ بنِ عبدِ اللهِ المحض بن الحسن المثنى بن الامام الحسنِ السبطِ بْنِ عليّ ابْنِ أَبِي طالب. هاجرَ بعض أجدادِهِ وهو الأميرُ السيد قطب الدين محمد المدني (ت. **677**هـ) إلى الهند في أوائلِ القرنِ السابعِ الهجرِيّ. كذلك العلاَّمَةُ المحقّقُ الشيخ محمد صدّيق بنُ حسنِ بنِ عليّ بنِ لطفِ الله القِنَّوجِي البخاري الحسينِيّ نزيلِ بَهُوبَالَ من بلاد الهند (**1832–1890**م.)، يرجع نسبه إلى عليِّ زينِ العابدين بْنِ الحُسيْنِ السبطِ بْنِ عليِّ بْنِ أَبِي طالب. ومن مشاهيرِ أشرافِ بلادِ الترك: الشخ محمَّدٌ الحزينُ الفُرْسَافِيّ الهاشِمِيُّ (**1816–1892**م.)، ينتهي نسبُهُ إلى الشيخِ عبدِ القادرِ الجيلاني، ومنه

بعضِ الفِرَقِ من الشيعةِ بـ"الْعَلَوِيَّةِ، سببُها ناشئٌ من انتسابِها لِلإمامِ عليٍّ ابْنِ أَبِي طالبٍ، وهو موالاةٌ زائفةٌ فِي الحقيقةِ لا أصلَ لها. ولكنَّ العلويّين يختلفون عن الشيعةِ بسببِ اختلافِهم معهم فِي معتقداتِهم المتعلقةِ بالإمامِ علي ابن أبي طالبٍ خاصَّةً. كما أنَّهم يتميَّزون عن الشيعةِ الإماميَّةِ (الذين هم ثانِي أكبرِ طائفةٍ من جمهورِ المسلمين بعد أهلِ السنَّةِ) يتميَّزُونَ عنها بفروقٍ كبيرةٍ فِي العباداتِ والعادات.

إنَّ العلويّين من سُكَّانِ تركيا، – لا شكَّ – قد تعرَّضوا للإهانَةِ على مَدَى قرونٍ، احتوَتْهم سُلطةُ الدولةِ العثمانيَّةِ واحتقرَتْهم الأغلبيَّةُ السنّيَّةُ، وإنْ كتموا كراهيَّتَهم لهذهِ الطائفَةِ في كثيرٍ من الأحيان.

قد يحاوِلُ البعضُ لِيُبَرّرَ هذا الموقفَ السلبِيَّ تجاهَ العلويّين بأنَّهُ "كانَ نوعًا من الحيطةِ لمنعِ تسرُّبِ عقائِدِهم الْمُنَافِيَةِ للكتابِ والسنَّةِ إلى تعاليمِ الإسلامِ، وحِفاظًا على أُسُسِ الدّينِ من التحريفِ والتشويهِ". إلاَّ أنَّ أُسلوبَ التعامُلِ معهم كانَ قاسيًا وخالِيًا من الحكمةِ. إذْ أنَّ الإدارةَ العثمانيّةَ لم يسبِقْ لها أنْ جَرَّبَتْ سبيلَ الحوارِ مع هذهِ الطائفةِ، ولم يُسمَعْ أنَّها استعملتْ الأساليبَ الإرشاديَّةَ والدعويَّةَ لإصلاحِ عقائدِهم، ولا دَعَتْ كبارَهُمْ وعُقَلاَءَهُمْ إلى التأمُّلِ في تعاليمِ الإسلامِ ونصوصِ الكتابِ والسنَّةِ، ولا حتَّى سهَّلتْ لأطفالِهم أسبابَ التعليمِ والدراسةِ ممَّا أدَّى ذلك إلى تفشّي الجهلِ والتقليدِ الأعمَى، والتشبُّثِ بالزندقَةِ الموروثَةِ من عهدِ الآباءِ بينهم، فظلُّوا في ظلماتِ العزلِ عن عالَمِ المعرفةِ والعلمِ، فزادَتْهم ظروفُهم الوحشَةَ والكراهيَّةَ لأهلِ السنَّةِ وبَعُدَتِ الشُّقَّةُ وَالْفِرْقَةُ بين الطائفتَين السُّنِّيّ والعلويّ، وأثَّرتْ في الطبائعِ، فامتلأتِ القلوبُ من كلِّ طرفٍ للآخرِ بالحقدِ والضغينةِ، وَعَظُمَتِ الْمشكلةُ حتى عجزتْ الحكوماتُ عن حَلِّهَا إلى اليومِ.

إلى عبد اللهِ المحضِ بْنِ الحسنِ المثنَّى. هاجرَ جدُّهُ الخامس عشر: الشيخ شرفُ القتَّال، مِن بغدادَ إلى مدينةِ أَسْعِرْدَ (الواقعةِ اليومَ جنوبَ شرقِي تركيا على مقربةٍ من الحدود التُّرْكِيَّة– العراقية) وذلك عام **1258**م. إثرَ استيلاءِ التاتارِ على الدولةِ الإسلاميَّةِ، وبعدَ مقتلِ الخليفةِ العباسِيّ المستعصمِ باللهِ عبد الله بن منصور المستنصر (**1213–1258**م.).

والشيخ محمد الحزين هذا الذي نقلتُ نبذةً من نسبِهِ، هو جدُّ والدِي: صلاحِ بْنِ عبدِ الله (بْنِ محمدِ الحزين الهاشِمِيّ). سمعتُ جماعةً بما فيهم والدي "أنَّه كان له حظٌّ وافرٌ من العلمِ بكتابِ الله وسنَّةِ رسوله صلى الله عليه وسلم"، غير أنِّي وقفتُ على قصائِدَ له، فيها من المساوي تدلُّ على ما تلبَّسَ بهِ من فسادِ العقيدةِ بعد أنْ وقعَ في حِبالِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ. سَلَكَهَا عند عثمانِ الطويلائي، وهو من خلفاءِ رأسِ الضلالِ خالدِ البغدادِيّ. عاشَ محمدٌ الحزينُ في الفترةِ من (**1231–1309**هـ). مات في قريةِ فُرْسَافَ على مقربَةٍ من مدينةِ أسعرد. بُنِيَتْ على قبرِهِ قبةٌ عملاقةٌ تُزَارُ. له صلواتٌ صاغَهَا شِبْهَ نظمٍ تستهلُّ بقوله:

"اللهمَّ صلِّ عَدَّ مثاقيلِ ذرَّايَاتِ الوجودِ بالدوامِ...إلخ.". تليها عباراتٌ تفضح مَن أضافَ إليها.

كل هذه العائلات، وآلافٌ من أبناءِ وبناتِ الأسرةِ الهاشميَّةِ الذين لم تشتهِرْ أسماؤُهم، يُطلَقُ عليهم اسمُ (العلوِيَّةِ)، للصِّلَةِ النَّسَبِيَّةِ الَّتي تربطُهم بجدِّهِم أميرِ المؤمنين الإمامِ عليّ بنِ أبي طالِبٍ كرَّمَ اللهُ تعالى وجهَهُ ورَضِيَ عنه.

هذا القطاعُ، يزعمُ الانتماءَ إلى الاسلامِ في ظاَهِرِهِ، ولكنَّهُ يمتنعُ عن العملِ به. (جمهورُهم يرفضون الصلاةَ والصومَ والحجَّ، ولا يغتسلونَ من الجنابَةِ، وقد يُحَرِّمونَ ما أحلَّهُ الله ويُحِلُّونَ ما حَرَّمَهُ...) ممَّا يبرهنُ أنَّهم لاَ يدينونَ بالإسلامِ في حقيقةِ الأمرِ، بل يعبِّرونَ عن انتمائِهم إلى الإسلامِ تَقِيَّةً أو عن جهلٍ. وأمَّا هُتافُهم بِعلِيِّ ابن أبي طالبٍ، فَشَيءٌ رمزِيٌّ لا علاقةَ له بلُبِّ الاسلامِ. ولهذا السببِ قامتْ خصوماتٌ حادَّةٌ بين هذا القطاعِ وبين المسلمين على امتدادِ العصورِ إلى يومنا هذا.

وممَّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ هذا القِطاعَ يَقفُ موقفاً سلبِيًّا من العربِ والمسلمينَ، ويناصرُ كُلَّ قوَّةٍ تُنَاهِضُ الإسلامَ والمسلين في العالَمِ. ويعتمدُ النظامُ الكماليُّ على هذا القطاعِ في اسْتِئْصَالِ الإسلامِ، ويستمدُّ منه قُوَّتَهُ في استبدادِهِ وتحكُّمِهِ. ولا ينبغي أنْ ننسَى ما قامَ به العُمَّالُ العلويُّون في الشركاتِ التُّرْكِيَّة على أرضِ ليبيا من فِتَنٍ وإضراباتٍ وشَغَبٍ أساءَتْ بالعلاقاتِ بين تركيا وليبيا خلالَ السنين الماضية.

وأمَّا حقيقةُ دِيانَتِهِمْ: فإنَّهم ينحدرون من أصولٍ مجوسيَّةٍ انْتَقَلَتْ إليهم معتقداتُ الآباءِ عبرَ الأجيالِ حتَّى اليوم، فكتموها تارةً، ومزَّجوها بتعاليمِ الاسلامِ تارةً أخرَى حتَّى غابتْ عنهم ديانتُهم القديمةُ واختفىَ اِسْمُهاَ وَمَعَالِمُهاَ، كما لم تَسْتَقْوِ صِلَتُهُمْ بالاسلامِ نتيجةَ هذا التذبذُبِ مِنْ جانِبٍ، ولِمُعَانَاتِهِمْ تحتَ قهرِ السُّلْطَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ من جانبٍ آخر. ذلك لأنَّهم كانوا يجهلونَ الإسلامَ تمامًا وقد يكرهونه، وقد يُخِلُّونَ بأعرافِ المسلمينَ ويستخِفُّونَ بمُقَدَّساَتِهِمْ من غير قصدٍ، ولكن يُؤَدِّي ذلِكَ إلى مشاكلَ تنعكسُ على الأعمالِ بنتائجَ سلبيَّةٍ تُعَرْقِلُ مسيرةَ الحياةِ الإجتماعيَّةِ في المناطقِ التي يسكنونَها، وأحيانًا تَتَأَثَّرُ بِهَا البلدُ كُلُّهُ.

يُعتقَدُ أنَّ قبائلَ التُّركمانِ العلويَّةَ لم تكنْ معَ الطليعةِ الَّتي زحفتْ للمرَّةِ الأولى على أرضِ أناضول من رَعَايَا دولةِ آلِ سلجوق السُنِّيِّين، عَقِبَ فتحِ مَلاَزْكِيرْدَ عام **1071**م. بقيادةِ السلطان أَلْبْ أرْسْلاَنَ السلجوقِيِّ. ولكنَّهم تسرَّبوا مؤخَّرًا إلى المنطقةِ الشرقيَّةِ من المملكةِ العثمانيَّةِ تحتَ دوافعَ سياسيَّةٍ تَبَنَّتْهَا الدولةُ الصفويَّةُ الإيرانيَّةُ لتسهيلِ الاستيلاءِ على أراضي أناضول، مِمَّا أثارَ حُكَّامَ العثمانيِّين ضدَّهم، فنشبتْ من جرائها حربٌ ضاريةٌ بين السلطان سليم العثماني (الأوَّل)، وبين شاه إسماعيل الصفوي عام **1514**م. في موقع تشالديران، وانتهت المعركةُ بغلبة العثمانيِّين على الصفويين.

ومن هنا استشاطَ حِقدُ العثمانيّين على العلويّين، باعتبارِهِمْ طائفةً مواليةً للأعداءِ، وعيونًا لهم. وعلى رغم تغيُّرِ الأوضاعِ وانقِراضِ الدولة الصفويَّةِ، وتحوُّلِ العلويّين مع الزَّمانِ إلى سُكَّانٍ أصليِّينَ في الوطن العثمانيِّ، لم تُغيِّرِ السلطةُ ولا الطائفةُ السُّنّيَّةُ نظرتَها الْمُرِيبَةَ إليهم.

لقد كان جماهيرُ الأتراكِ منذ تعرُّفِهِمْ على الإسلامِ نازعين إلى المذهبِ الحنفِيِّ ومتعصِّبين له. وكان مُعظمُهم يجهلُ بقيَّةَ المذاهبِ الإسلامِيَّةِ. ويدلُّ ما وردَ في المصادرِ التاريخِيَّةِ على أنَّ حُكَّامَ السلجوقيّين الأتراك كانوا يُرَكِّزُونَ اهتمامَهُمْ على نشرِ المذهبِ الحنفيّ. وكان بينهم مَنْ يكرَهُ بقيَّةَ المذاهبِ، مِنها الشافعيَّةَ خاصَّةً. وكانوا أشدَّ مجاهرةً للشيعةِ في العداءِ والمحاربةِ. ولَمَّا كانتِ الطائفةُ العلويَّةُ جزءًا من غُلاَةِ الشيعةِ، غدتْ كراهِيَّتُهُمْ لهذه الطائفةِ أضعافًا مضاعفةً. وقد كان العثمانيُّون أصلاً توارثوا الكراهيَّةَ للطائفةِ العلويَّةِ من أسلافِهم السلجوقيّين الأحنافِ قبلَ التطوُّراتِ السياسيَّةِ التي جرتْ بينهم وبين الصفويّين.

من المعروفِ أنَّ حُكَّامَ الدولةِ السلجوقيَّةِ كانوا سُنِّيِّين، أكثرهم يتعصَّبون للمذهبِ الحنفيّ. ومن شواهدِ ذلك على كثرتِهَا: أنَّ القاضيَ الحنفيَّ أبا نصرٍ أحمدَ الصاعِديَّ النيسابوريَّ (ت.**482**هـ.) كان من غُلاةِ الحنفيَّةِ. كَثُرَتِ الْمُلاَعَنَةُ بين أهلِ المذاهبِ الْفِقْهِيَّةِ، بسببِ مَوْقِفِهِ الْمُتَعَصِّبِ في عهدِ السلطانِ السلجوقِيِّ طُغْرُولْ بَكْ Tuğrul Bey (ت.**455**هـ). كما أنَّ الْقَاضِيَ الْحسنَ بْنَ عليِّ التنوخيّ البغدادِيّ (ت **372**هـ.)، كان حَنَفِيًّا مُتَعَصِّبًا شديدَ التعصُّبِ على الإمامِ الشافعِيّ، ويُطْلِقُ لسانَهُ فيه[47]. كذلك المتكلِّمُ الْمُعْتَزِلِيُّ الوزيرُ أبو نصرٍ منصورٌ بْنُ محمَّدٍ الكندريُّ (ت**456**هـ.)، كان شدِيدَ التعصُّبِ على الشافعيَّةِ، كثيرَ الْوَقِيعَةِ في الإمامِ الشافعيّ، حتى أنَّه طلبَ من السلطانِ السلجوقِيِّ أَلْبْ أَرْسْلاَن أَنْ يسمحَ له بِلَعْنِ الرافضةِ فأَذِنَ له، فأضافَ إليهم الأشاعرةَ، وهم شافعيَّةٌ في مُعظمِهِمْ[48]. ومنهم: أبو عبدِ اللهِ محمَّدٌ البلاساغونِيُّ التُّرْكِيُّ (ت. **506**هـ.)، كان غاليًا في التعصُّب للمذهبِ الحنفيّ، وكثيرَ الوقيعةِ في المذهبِ الشافعيّ، وكان يقولُ: لو كان لي ولايةٌ لأخذتُ الجزيةَ من الشافعيَّةِ[49]، فجعلَهم بِمَرْتَبَةِ أهلِ الذِّمَّةِ مِنَ اليهودِ والنصاري والمجوس!!.

---

[47] ابن الأثير: الكامل، ج:**7**، ص: **400**.

[48] ابن خلِّكان: وفيات الأعيان، ج **5** ص: **138** . وابن الجوزي: المنتظم، ج:**6**، ص: **333**. والسبكي: طبقات الشافعية، ج:**3**، ص: **376**.

[49] معجم البلدان، ج:**1**، ص: **476**.

تبرهنُ ما سلفَ من الشواهدِ على أنَّ هذهِ العقليَّةَ الخاصَّةَ بالأتراكِ الْحَنَفَانِيِّينَ قد اعْتَرَضَتْ طريقَهم في مسيرةِ الحياةِ على مدى تاريخِهِمْ وعَرْقَلَتْهُمْ عن التَّأَقْلُمِ مع الظروفِ والتعايُشِ مع الغيرِ في ظلِّ التسامحِ الشرعيِّ المعقولِ، وَأَخَّرَتْهُمْ عنِ التقدُّمِ الْحَضَارِيِّ إلى اليومِ. فكان تَعَامُلُهُمْ مع الطائفةِ العلويَّةِ بهذه العقليَّةِ مِمَّا أَدَّتْ إلى بُعْدِ الشُّقَّةِ بين الطائفتين عَبْرَ القرونِ، فازدادتْ مُشْكِلَةُ الخلافِ بين الطرفين حِدَّةً إلى أنْ تضخَّمتْ وَتَصَلَّبَتْ أعرافُ العلويّين وتقاليدُهُمْ الْمَوْرُوثَةُ بعد امتزاجِها على مَرِّ الزمان بِمُعْتَقَدَاتٍ دخيلةٍ مختلَسَةٍ من شَتَّى الأَدْيَانِ بحيثُ لاَ يمكنُ اليومَ وَصْفُهَا بِدِينٍ أو مَذْهَبٍ أو ثَقَافَةٍ لاضْطِرَابِهَا وَغَرَابَتِهَا وشذوذِيَّاتِها...

***

- الأَقَلِّيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ: اليَهُودُ؛ الْمُتَأَسْلِمُونَ؛ الْمُتَهَوِّدُون.

اليَهُودُ:

إنَّ اليهودَ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ طائفتان؛ طائفةٌ منهما تتكوَّن من الجيلِ الْمُنْحَدِرِ مِنْ سُلاَلاَتِ اليهودِ الَّذين نَجَوْا من المذبحةِ في أَنْدَلُسَ، ولجئوا إلى الدولةِ العثمانيَّةِ في عهدِ السلطان سليمانِ القانونيِّ (**1494-1566**م.)، وهما أيضًا فرقتان؛ فرقةٌ منهما، يسكنُ أغلبُ أفرادِها في الْمُدُنِ الكبيرةِ مثل إسطنبول وإزمير. هؤلاءِ، أكثرُهُمْ يمارسون التجارَةَ، ويتجنَّبون السياسةَ[50]، يمتازون بالكتمانِ والإسرارِ وقلَّةِ الكلامِ، ويعيشون بحيطةٍ بالغةٍ بحيث لا يشعرُ الإنسانُ بوجودِهم!

لهم صحيفةٌ أسبوعيَّةٌ تصدرُ في كلِّ يومِ الأربعاءِ منذ عام **1947**م.، عنوانها (شَالُومْ). كانتْ في البدايَةِ تصدرُ بِلُغَةِ (لاَدِينُو)، إلاَّ أنَّها بدأتْ تصدرُ باللُّغةِ التُّرْكِيَّة منذ عام **1984**م. ماعدا صفحةٍ واحدةٍ منها بلغةِ (لادينو)[51].

---

[50] رغم تجنُّبِهم السياسةَ، دخل عددٌ منهم الْبَرْلَمَان التركيَّ منذ إعلان الجمهورية عام **1923**م. إلى اليوم، وهذه أسماؤهم:
Abravaya Marmarali, Abraham Galante Bodrumlu, Salamon Adato, Hanri Soriano, Isak Altabev, Cefi Kamhi.

[51] (لادينو judeo esnyol): لغةٌ مشتقَّةٌ من اللُّغةِ الإسبانيَّةِ القديمةِ، تعرَّضتْ لانحلالٍ بالغٍ بعد مهجرِ اليهودِ الإسبانيّين إلى الأراضي العثمانيَّةِ واستحالتْ إلى حدٍّ بعيدٍ تحتَ تأثيرِ عِدَّةِ لغاتٍ، تأتي على رأسِها: اللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ والفرنسيَّةُ والعِبريَّةُ واليونانيَّةُ والعربيَّةُ... وهي على وَشَكِ الإنقراضِ، إذ لا يكادُ يستخدِمُها إلاَّ قلَّةٌ من اليهودِ المتقدّمين في السِّنِّ.

تدلُّ المعطيات الرَّسْميّةُ على أنَّ عددَّ المواطنين اليهودِ من هذه الطائفةِ لا تزيدُ اليوم (**2012**م.) عن عشرين ألفَ نسمةٍ، بينما كان عددُهم عام **1945**م.: 965 76 نسمة[52].

هاجرَ منهم عددٌ كبيرٌ إلى الأراضِي المحتلَّةِ بدوافعَ مختلفةٍ تتلخَّصُ في ثلاثةِ أسبابٍ رئيسَةٍ حسبَ المعطَيَاتِ الواردَةِ في بعضِ الواثائِقِ[53].

أوَّلُها: الدِّعيات الَّتي قامَ بها الكاتِبُ الباحثُ التُّرْكِيُّ: جَوَاد رِفْعَتْ أَتِيلْخَانْ، من خلالِ مقالاتِهِ وتَئَالِيفِهِ الَّتي أثارتْ كراهيَّةً شديدَةً في نفوسِ جمهورِ الأتراكِ ضدَّ العنصرِ اليهودِيِّ.

ثانيها: إنتفاضةُ الأتراكِ ضدَّ اليهودِ القاطنين في منطقةِ (تَرَاكْيَا Trakya) الواقعةِ بِغَرْبِ تركيا، وذلك يومَ الثالثِ والرابعِ من شهرِ يونيو عام **1934**م. الَّتي أَدَّتْ إلى خَسَائِرَ مادِّيَّةٍ كبيرةٍ في مُمْتَلَكَاتِ اليهود.

ثالثها: إنتفاضة **6-7** أيلول في الْمُدُنِ الكبيرةِ ضدَّ أقلِّيَّاتٍ لا تدين بالإسلامِ، كردٍّ فعلٍ على الأراجيف الَّتي بثَّها الكاتبُ ومديرُ صحيفةِ أكسبريس Ekspres: كُوكْشِينْ سِبَاهِي أُغْلُو Gökşin Sipahioğlu: تتلخَّصُ في "أنَّ البيتَ الَّذِي وُلِدَ فيه مصطفى كمال في مدينةِ سالونيك (باليونان) تعرَّض لحادثِ تفجيرٍ". وما إنْ نزلتِ الصحيفةُ إلى الشارعِ حتَّى زحفَ عشراتُ الآلافِ من الناسِ في إسطنبولَ وإزميرَ وانقره على مَدَى يَوْمَي السادسِ والسابعِ من شهرِ سبتمبر عام **1955**م، فهجموا على أماكنَ للأقلِّيَّاتِ المسيحيَّةِ واليهودِ، وقاموا بأعمالِ السَّطْوِ على **5717** أمَاكِنَ مختلفةٍ لهم، ما بين مصنعٍ ومَتْجَرٍ ومَعْبَدٍ! تعرَّضتْ في أثنائِها ممتلكاتُهُمْ للنهبِ والتخريبِ والتدمير...

***

- الْمُتَأَسْلِمُونَ:

---

[52] المصدر:

Erdem Güven; T.C. Marmara Üneversitesi Ortadoğu Arastırmalar Enstitüsü, Ortadoğu Sosyolojisi ve Arntropolojisi Anabilim Dalı. Yüksek Lisans Tezi, s. 61. Istanbul-2006

[53] المصدر السابق.

أمَّا الطائفةُ الثانيةُ من اليهودِ (الْمُتَأَسْلِمِينَ) المعروفين بِ(الْيَهُودِ الدُّنْمَا): فإنَّ أمرَهَا مازالَ بَعْضُهُ يَتَوَارَى بالغموضِ منذُ قرونٍ. تضافرتْ حولَهَا أقاويلُ، وغدتْ موضوعَ بحوثٍ ودراساتٍ عديدةٍ تتَّفقُ كلُّها على أنَّ هذهِ الطائفةَ أخطرُ عِصَابَةٍ شهِدَها تاريخُ البشر. ولها قصَّةٌ غريبةٌ تتلخَّصُ في أنَّه ظهر رجلٌ دَجَّالٌ بين اليهودِ المهاجرين المقيمين في مدينةِ إزمير يُدعَى سَبَطَايْ زِيفِي (**1626**–**1675**م.)، فأعلنَ نُبُوَّتَهُ عام **1648**م. وزعمَ "أنَّهُ المسيحُ الْمُنْتَظَرُ الذي سَيُنْقِذُ اليهودَ، ويُطَهِّرُهُمْ، ويُعيدُ لهم أَرْضَهُمْ ومَجْدَهُمْ، وَيَجْمَعُ شَمْلَهم، من الشتاتِ العَالَمِيّ". فاغترَّ به جمعٌ كثيفٌ من اليهودِ، وبدأ يبثُّ تَعَالِيمَهُ.

فلمَّا زاعَ صِيتُهُ وبلغتْ شهرتُهُ الآفاقَ، تَوَجَّسَتْ الحكومةُ العثمانيَّةُ منه الخطرَ، فقُبِضَ عليه وتمَّ التحقيقُ معه طويلاً أَمَامَ هيئةٍ مؤلَّفةٍ من: شيخِ الإسلام: يحيَى أفندِي، ونائبِ الصدرِ الأعظم: مصطفى باشا، وإمامِ السلطان: وَانِي أَفَنْدِي.. ثم بعد أنْ مكثَ مدةً في قلعةِ (جَنَاقْقَلْعَه) مُعْتَقَلاً، مُثِلَ بين يدي السلطان محمد الرابع يوم **16** سبتمبر **1666**م. بقصرِ السلطنةِ في مدينةِ أدِرْنَهْ Edirne. كان الرجلُ يعلمُ؛ بعد أنْ تَلَقَّى نَصَائِحَ مِنَ الصَّدْرِ الأعظمِ (فاضل أحمد باشا) فيها إنذارٌ، ونصائحُ مِنْ حكيمِ السلطان: (مصطفى فوزي أفندي) الذي حضرَ المحكمةَ لِيُتَرْجِمَ كَلاَمَهُ من العبريَّةِ إلى التُّرْكِيَّة، كان الرجلُ يعلمُ قبل مُثُولِهِ بين يدي السلطانَ: أنَّهُ سَيُعْرَضُ عليهِ الإسلامَ كعقوبةٍ على جريمتِهِ، ومصيرُهُ الهَلاَكُ إنْ رَفَضَ اعتناقَ هذا الدِّينِ الذي يكرَهُهُ من غيرِ شَكٍّ!

يُرْوَى أنَّهُ لَمَّا عُرِضَ عليهِ أنْ ينطقَ بالشهادتين قال بصوتٍ مرتفعٍ «adiyo santo»، معناها: ((العياذُ باللهِ!))، قالَهَا من هولِ ما فُوجِئَ به، ولكنْ سرعانَ ما ثَابَ إلى رُشْدِهِ ونطقَ بالشهادتين بعد أنْ قال ((أَنَا مُسْلُمَانٌ مَا دَامَ الرُّوحُ فِي الْجِسْمِ)). كما يُرْوَى أنَّهُ بعدَ أنْ نجا من موتٍ مُحَتَّمٍ، خَبَّأَ حمامةً بيضَاءَ تحتَ عبائِهِ، فلمَّا لَحِقَ بأصحابِهِ أخرجَ الحمامةَ من داخلِ عبائِهِ وأرسَلَهَا، وقالَ في حينِهِ ((لَقَدْ خَرَجَتِ الرُّوحُ مِنَ الْجِسْمِ))، نَوَّهَ لهم بذلك أَنَّهُ عادَ إلى دينِهِ، ثم أمرَ أصحابَهُ جميعًا أن يُظْهِرُوا الإسلامَ وَيُبْطِنُوا اليهوديَّةَ إلى الأبدِ، وأنَّ في ذلك نجاتَهُمْ وَنَجَاحَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، لأنَّهم سوف يَتَمَكَّنُونَ بذلك من الاستيلاءِ على المسلمين إلى يوم القيامةِ، وَبَشَّرَهُمْ بأنَّ ذلك مُعْجِزَتُهُ.

بدأتْ من هنا مغامراتُ سَبَطَايْ زِيفي وبطانتِهِ. وعليه اتَّفق رأيُهم بعد القَسَمِ واليمين المؤَكَّدِ فيما بينهم على أنْ يفعلوا الأفاعيلَ بالمجتمعِ المسلمِ بكلِّ أشكالِ الحيلةِ والمكرِ والْخَدِيعَةِ والغدرِ والخيانَةِ والزُّورِ والكذبِ والاشاعات... وذلك لِتَمْيِيعِ الحقائقِ، وتشويهِ الإسلامِ، وزرعِ بذورِ الشقاقِ

والنفاقِ بين المسلمين، وإثارةِ الفِتَنِ الطائفيَّةِ والمذهبيَّةِ لإرباكِ الناسِ ومحوِ الثقةِ، ونشرِ أسبابِ الأنانيَّةِ والانتهازيَّةِ والمحسوبيَّةِ والارتشاءِ والفجورِ والدعارةِ والمجون... حتَّى يكونَ كلُّ شيءٍ رأْسًا على عقبٍ في الوطنِ الإسلاميِّ، وينهارَ الأخلاقُ فيسهلَ بذالك القبضُ على زمامِ الأمرِ، وإنزالُ الضربةِ القاصمةِ على الكيانِ الإسلاميِّ في نهايةِ المطاف!

تُؤَكِّدُ الرِّوَاياتُ بصورةٍ مُتَوَاتِرَةٍ على أنَّه وَجَّهَ أصحابَه هكذا وبإصرارٍ، ولَقَّنَهُمْ تَعَالِيمَهُ بصبرٍ ومسابرةٍ ومواظبةٍ، فتمكَّنَ مِنْ غَسْلِ أَدْمِغَتِهِمْ وإخضاعِ عقولِهِمْ ونفوسِهِمْ، واستولى على كيانِهِمْ حتَّى رَوَّضَهُمْ على تنفيذِ تعليماتِهِ لِخَلْقِ الْبِدَعِ والخرافاتِ والأباطيلِ وَنَشْرِهاَ بين الطبقةِ الساذجةِ من المسلمين لِتَضْلِيلِهِمْ وَإِبْعاَدِهِمْ عن حقيقةِ الاسلامِ؛ وإثارةِ الفتنِ بين طوائفِ المسلمين، والعملِ على فتحِ الثغراتِ بينهم وبين قِيَمِهِم المقدَّسةِ... فواصَلَتْ بِطانَتُهُ المسيرةَ وانتقلتْ الأمانةُ يدًا عن يدٍ إلى يومنا هذا.

إنَّ هذه الخُطَّةَ في الحقيقةِ قد نجحتْ بحسبْ ما فَشَى مِنْ قليلِ أسرارِها الهائلةِ، وذلك بعد أنْ خاطرَ عددٌ من الباحثين بأنفسِهِمْ وتوصَّلوا إلى معلوماتٍ محدودةٍ منذ نهايةِ العقدِ الخامسِ من القرنِ الْمُنْصَرِمِ.

أَثْبَتَتِ الدلائلُ أنَّ السبطائيّين قد تَحَرَّكُوا بحيطةٍ شديدةٍ، وتنسيقٍ بالغٍ في الدِّقَّةِ، ومراعاةٍ للمبادئ بنظامٍ وانتظامٍ لم يعدِلُوا عنه قيدَ نملةٍ على مدى ثلاثمأةٍ وخمسين عامًا ليحقِّقوا أكبرَ هدفٍ تَبَنَّوْهُ، وهي: القضاءُ على الدولةِ العثمانيَّةِ بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ. لأنَّ بقيَّةَ مُؤَامَرَاتِهِمْ تعاقبتْ بتسلسُلٍ واضطرادٍ، وتحقَّقتْ أهدافُها بنجاحٍ فوقَ العادةِ فورَ هذا الحدثِ العظيمِ مباشرةً. يبرهن عليها التطوُّراتُ والوقائعُ الَّتي جَرَتْ بعدَ زوالِ الدولةِ العثمانيَّةِ.

استطاعَ السبطائيُّونَ بالتعاونِ فيما بينهم أن يتسلَّلوا إلى أجهزةِ الدولةِ عَبْرَ القرونِ لتفوُّقِهِمْ في تعميةِ الناسِ، والنفوذِ إلى قرارةِ نفوسِهِمْ بالتقيَّةِ والْمُرُونَةِ في التعامُلِ، وبالتملُّقِ والمداهنةِ، وبالتشدُّقِ والمجادلة، وبمهاراتٍ في شتَّى فنونِ الخطابِ والْمغالطةِ والاستدلالِ الزائف، فأسهموا بذلك في تقويض الدولة العثمانية في نهاية المطاف.

اهتمَّ السبطائيُّون بِأَلْسِنَةِ شعوبِ الغربِ خاصَّةً لَمَّا عَلِمُوا أنَّ الأتراكَ لا يرغبون في تعلُّمِ اللُّغاتِ الأجنبيَّةِ، وأنَّ الدولةَ العثمانيَّةَ أخذتْ في التدهوُرِ مِمَّا أدَّى ذلك إلى اختلالِ التوازنِ بينها وبين الغربِ، وأسفرَ عن حاجةِ الدولةِ إلى استخدامِ أفرادِ هذه الطائفةِ خاصَّةً في أعمالِ الترجمةِ والعلاقاتِ الدبلوماسيَّةِ. فتمكَّنوا بذلك من الإنخراطِ في الهيئاتِ والبعثاتِ والقياداتِ الحسَّاسةِ الَّتي تتولَّى علاقةَ الدَّولةِ مع الخارجِ، وَاطَّلَعُوا على أسرارِها، فما ليثَ حتَّى بدؤوا يتسلَّلون إلى أجهزةِ الأمْنِ والاستخبارات ويسَيْطِرُونَ عليها.

لَمَّا تأكَّد السبطائيُّون من أنَّ إزالةَ الدولةِ العثمانيَّةِ عن مسرحِ التاريخِ غدتْ مسألةَ وقتٍ لِشَتَاتِ شَمْلِهَا، وشَنَارِ شَأْنِهَا، وغَلَبَةِ الفوضَى على كيانِهَا وشعوبِهَا، بعد أنْ نَخَرُوا في جسمِها مدَّةً أكثرَ من ثلاثةِ قرونٍ، أقدموا على تشكيلِ حزبٍ تحتَ اسم (الاتِّحَادِ والتَّرَقِّي)، ليستأصلوا عروشَ هذهِ الدولةِ نِهَائيًّا، ثمَّ لِيُقِمُوا على أنقاضِهَا دَوْلَتَيْنِ يَهُودِيَّتَيْنِ وفقًا لِلْخُطَّةِ!! يدلُّ هذا الاسمُ[54] في حدِّ ذاتِهِ على مدى مهارتِهم في تدبير المؤامراتِ.

إن كلَّ عضوٍ من أعضاءِ (حزبِ الاتِّحادِ والتَّرَقِّي) كان يهوديًّا سبطائيًّا مُتَأَسْلِمًا لا ريب. لم يَتَمَكَّنْ أحدٌ غير أبناءِ هذهِ الطائفةِ من الانخراطِ إلى هذه الْمُنَظَّمَةِ بعضويَّةٍ حقيقيَّةٍ أبدًا. وَمَنْ شَكَّ في ذلك أو زَعَمَ: "أنَّ عددًا من المغفَّلين ربما انخرطوا في هذا الحزبِ، وكانوا من أعضائِهِ الحقيقيّين، مع أنَّهم ليسوا يهودًا ولا سبطائيّينَ، وإنما اتَّخذتْهم العصابةُ السبطائيَّةُ عُمَلاَءَ استخدمتْهُمْ لِتَحْقِيقِ أهْدَافِهَا لِفترةٍ معيَّنَةٍ..." مَنْ كانَ هذا رأيُهُ، فإنه لا يعدو عن جاهلٍ لا علمَ له بوقائعِ القرونِ الأربعةِ الأخيرةِ على أقلِّ تقدير. بل إنَّ كلَّ مَنْ استخدمَتْهُ العصابةُ السبطائيَّةُ كعميلٍ في (حزب الاتِّحادِ والتَّرَقِّي)، قد قامَ بأداءِ مهمَّتِهِ وفقًا للتعليماتِ الصادرةِ له فحسب، ومن خانَها فقد أدَّى ثَمَنَهَا بحياتِهِ ألبتَّة. ولم يكن أحدُ هؤلاءِ العملاءِ يومًا من الأيَّامِ عضوًا حقيقيًّا في هذه المنظَّمة أبدًا.

هذه نكتةٌ هامَّةٌ جدًّا. لأنَّ مَنْ اعتقدَ "أن الذين أعلنو الجمهوريَّةَ التُّرْكِيَّةَ، وتولَّوا قيادَتَها ورياسَتَهَا، وتحكَّموا في سلطتِها، لم يكونوا من أعضاءِ (حزب الاتِّحادِ والتَّرَقِّي) ولذلك لا يجوزُ اعتبارُهم من السبطائيّين؛" مَنْ كانَ على هذا الرّأيِ فإنَّه مغترٌّ واقعٌ في خطإٍ جسيم، لأنَّ العصابةَ السبطائيَّةَ لا تنحصر في دائرة (حزب الاتِّحاد والترقِّي)، كما لا يستقيمُ أن يقفِزَ أحدُ عُمَلاَئِها على الحكم فيتخطَّى أعضاءَهَا، بعد أنْ بذلتْ جهودًا تبهر لها العقولُ في حياكةِ هذه المؤامرةِ الرهيبةِ عبر ثلاثةِ

---

[54] أي: "الاتِّحاد والترقي"

قرونٍ. بل إنَّ كُلَّ مَنْ ساهمَ في تأسيس وإقامةِ الدولة التُّرْكِيَّة (وهو –لا شكَّ– من الأعضاء الحقيقيّين في الحزب) يستحيل أن يكون أحدٌ منهم أجنبيًا بالنسبة للتجمُّع السبطائي على الإطلاق، وإنْ لم يكن له أيُّ علاقةٍ بِ(حزبِ الاتّحاد والترقّي). لأنَّ هذا الحزب كان مجرَّد آلةٍ للإطاحةِ بالدولة العثمانيَّةِ، أسَّسَهُ السبطائيُّون وقادُوهُ واستخدمُوا عُمَلاَئَهم من داخلِ الحزبِ وخارجهِ دون تَمكين أيّ عميلٍ من الإنخراطِ في سلكِهِ بالعضويَّةِ الحقيقيَّةِ ولا مَكَّنُوهُمْ من الإطلاعِ على أدنى شيءٍ من أسرارِ العصابةِ. يبرهن على هذه الحقيقةِ بوضوحٍ: تنفيذُ سلسلةٍ من الإعداماتِ في رهطٍ من عُمَلاَءِ الاتّحاديين يوم 14 يوليو 1926م. بمدينةِ إزمير، ثَبَتَ خِيَانَتُهُمْ ضِدَّ العصابةِ السبطائيَّةِ.

تعرَّضَ لنفسِ العاقبةِ رئيسُ وزراءِ تركيا الأسبق (عدان مندريس) الذي كَثُرَتِ الإشاعاتُ عنه: "أنَّه يهوديُّ الأصلِ سَبَطَائِيٌّ"، نُفِّذَ فيه حكمُ الإعدامِ من قِبل الإنقلابيّين بعد 35 عامًا مَضَى على هذا الحدثِ. قيل كان ذلك بسببِ سياستِهِ المضطربةِ. لأنَّه كان يترنَّح بين الجناحِ "الْمُتَدَيِّنِ والجناح الْعِلْمَانِيّ، يُرخِي العِنانَ لهؤلاءِ تارةً ولأولئك أُخرى طَمَعًا في استمالةِ الطرفين وكسبِهِما، فباتتْ محاولاتُه المتذبذِبَةُ بين المجاملةِ لهذا وذاك يائسةً دون جدوى.

زعم عددٌ من الكُتَّابِ والباحثين: أنَّ عدنان مندريس[55] كان سبطائيًّا هو الآخر، وهذا يحتاجُ إلى نظرٍ باعتبارِ أصلِهِ الذي يُستَبْعَدُ أن يكون عِبْرِيًّا. ذلك أنَّ جميعَ الرواياتِ تصبُّ في أنَّه من أصلٍ تاتارِيٍّ

---

[55] عدنان مندريس بن إبراهيم، رئيس وزراء تركيا الأسبق. وُلِدَ عام **1899**م، أنجَبَتْهُ توفيقه خانم في ربوع أسرةٍ معروفةٍ بِثَرْوَتِهَا ومَزَارِعِهَا الواسعةِ بمنطقةِ أيجة على مقربةٍ من مدينة إزمير İzmir. جدُّهُ الحاج على باشا كان رجلاً وجيهًا في قومه.

درس عدنان في المعهد الأميركيِّ وتخرَّجَ منه، ثم التحق بالجيشِ أيّامَ الحربِ العالميّةِ الأولى، ولكنَّ الحمّى ثَبَّطَتْهُ عن الذهاب إلى جبهةِ القتال، ثم قضى فترةً قليلةً في المعسكرِ بعد أن تحسّنتْ حالتُهُ الصحيّةُ، ونالَ بذلك وِسامَ الاستقلال.

تزوَّج مندريس من السيدةِ بَرّين عام **1905**م. وهي ابنةُ أحدِ وُجَهَاءِ المنطقة من أسرةٍ ذاتِ مكانةٍ تُعرَفُ باسم (أَوْلِيَاذَادَه)، فَرُزِقَا ثلاثَ بنين: يُوكْسَلْ، مُوتْلُو، آيْدِنْ.

واصلَ مندريس دراستَهُ في كلّيةِ القانون التابعة لِجامعةِ أنقرة، في أيَّامِهِ الّتي كان عضوًا في الْبَرْلَمَان التركيّ نائبًا عن مدينة آيدن Aydın. باشر حياتَه السياسيّة في (حِزْبِ الْجُمْهُورِيَّةِ الحُرِّ Serbest Cumhuriyet Fırkası) الذي أسَّسَهُ علي فتحي عام **1930**م. ثمَّ أُلغِيَ في العام نفسِهِ بسبب القلقِ الّذي انتابَ أعضاءَهُ إزاءَ مواقفِ مصطفى كمال منهم. ثمّ واصل مندريس نشاطَهُ السياسيَّ في (حِزْبِ الشَّعْبِ الجُمْهُورِي Cumhuriyet Halk Partisi) الّذي كان قد أسّسه مصطفى كمال. ثم اشترك مع ثُلَّةٍ من زملائِهِ في تأسيسِ حزبٍ جديدٍ سمَّوْه: (الحزبَ الديمقراطيَّ Demokrat Parti). وذلك عام **1946**م. بدأ ينافس حزبَ الشعبِ الجمهوريّ الّذي كان يَرْأَسُهُ عِصْمَتْ إِينُونُو İsmet İnönü قبل أن يحتلَّ منصبَ رئاسةِ الجمهوريّةِ، وبعد أنْ طُرِدَ (مندريس) من هذا الحزب.

حَظِيَ حزبُ مندريس (الحزبُ الديمقراطيُّ) من الأصواتِ بِنسبةٍ قدرُها: **52.7%** في انتخابات **1950**م. فأصبح جلال بيار رئيسًا للجمهورية وعدنان مندريس رئيسًا للوزراء. اتَّسَعَتْ نطاقُ الْحُرِّيَّاتِ في أيّامِهِ إلاَّ أنّه فرّطَ في سياستِهِ حين أظهرَ بِهَا المجاملةَ لكلٍّ من الجناحِ الكماليِّ والجناحِ الْمُحافظ للقاعدة الشعبيةِ، وبينهما نزاعٌ شديدٌ وخصوماتٌ حادّةٌ. فكانت في هذه السياسةِ تناقضاتٌ تُعَرْقِلُهَا وتَصْرِفُهَا عن مجراها الطبيعيّ. منها، أنّه ألْغَى صورةَ عصمت إينونو

هاجرتْ أسرتُهُ من منطقةِ قِرِمْ، وبهذا يحتملُ أن تكون الأسرةُ من امتدادِ سلالةٍ متهوّدةٍ. لأنَّ سكَّانَ جزيرةِ قِرِمْ، أكثرهم من أصولٍ متهوّدَةٍ من الأتراك الخزريّين والتاتار. وهذا لا يمنعُ أنْ كان مندريس قد انخرَطَ في سلكِ العصابةِ السبطائيَّةِ بوجه. لأنَّ ثمَّ مؤشراتٍ تدلُّ على أنَّ قلَّةً من المتهوّدين الأتراك قد نالوا ثقةَ السبطائيّين وانضمُّوا إلى صفوفِهِمْ وعملوا على تحقيقِ أهدافِهم.

نالَ النقشبنديُّون في أيَّامِهِ من الدَّعْمِ والفرصةِ حتَّى تمكَّنوا من جمعِ شملِهِمْ بسرعةٍ بعد أنْ قَمَعَهُمْ مصطفى كمال بإِنْزَالِ ضرباتٍ قاصمةٍ على شيوخِهم. فبدأتْ نشاطاتُهُمْ تزدادُ يومًا بعد يومٍ مع بِدَايَةِ نجاحِ مندريس في انتخاباتِ عام 1950م. وانتشرتْ حركاتُ الصوفيةِ من النقشبنديّين والنُّورْسيّين، فأقاموا مؤسَّسَاتٍ وجمعيَّاتٍ ضخمةً في أنحاءِ تركيا، وأصبحو ينافسون الأقلّيَّات من اليهودِ والرُّومِ والأرْمَنِ على الصعيد الماليّ والتجاريّ وتغلَّبوا على اقتصادِ البلدِ، وتمتَّعوا بأكبرِ قدرٍ من الحريَّةِ الفكريَّةِ والإعتقاديَّةِ، فبدأوا بإعادةِ بناء تَكَايَاهُمْ وإقامةِ طقوسِهِمْ وشعائرِهِمْ. كما أصدرَ مندريس قانونًا بتحويلِ الأذانِ من اللُّغةِ التُّرْكيَّةِ إلى أصلِهِ العربيّ إرضَاءًا لنفوسِ القِطاعِ الْمُسْلُمَانِيّ السُّنِّيّ. لكنَّ عدنان مندريس لم يكن منطلقًا من نزعةٍ إسلاميَّةٍ في أيّ من هذه الاجراءاتِ أو مؤيّدًا للاسلاميّين، بل كان يسعى بذلك للتنفيسِ عن الاحتقانِ الدّينيّ المتصاعدِ وحمايَةِ التراثِ العلمانيّ الأَتَاتُورْكيّ.

من الأوراق النقديَّةِ واستبدلَهَا بصورةِ مصطفى كمال مجدَّدًا، فأصبح بذلك هدفًا مباشرًا لهجماتِ إينونو، فامتلأَ صدرُ إينونو حقدًا وضغينةً على مندريس يتحيّن لِيُوقِعَ به من حيث لا يحتسب!

أصدرتْ حكومةُ مندريس قانونًا أُعِيدَ بموجبه الأذانُ إلى أصلِهِ العربيّ بعد أنْ كان قد حَوَّلَهُ مصطفى كمال إلى اللغة التُّرْكيَّة عام 1932م. فبدأ رفعُ الأذانِ بأصلهِ العربيّ في شهر أغسطس من عام 1950م. بعد 18 عامًا من إلغائه. بينما أصدرت الحكومة نفسُهَا قانونًا ينصّ على بناءِ صرحٍ ضخمٍ ليكونَ ضريحًا رسميًّا يُدْفَنُ فيه جثمان مصطفى كمال الذي كان مُحَنَّطًا في تابوتٍ يُحْتَفَظُ به في مُتحفِ (أتنوغرافيا) بمدينةِ أنقرة، فتحوّلَ هذا الضريحُ إلى معبَدٍ تُقامُ فيه حفلاتٌ دينيّةٌ يحضرها شخصيَاتٌ من أركانِ الجيشِ والبيروقراطيّين، وهيئاتٌ وبعثاتٌ وجمهورٌ من الكماليّين، وآخرون من غيرهم تحت الإكراهِ خوفًا على مستقبلهم رياءً ونفاقًا، يؤدّون هناكَ شعائرَ شِبْهِ عِبَادَاتٍ ومَنَاسِكَ، مع ترديدِ عباراتٍ وخطابٍ موجّهٍ لمصطفى كمال، تتضمنّ الإقرارَ بأُلُوهِيَّتِهِ صَرَاحَةً لا مجال للتأويل فيها.

تَخَبَّطَ مندريس في سياستِهِ الخارجيّةِ حين أَدْخَلَ تركيَا تحت أجنحة أميركا، ووقف إلى جانب فرنسا التي كانت في تلك الأيام تخوضُ مَجْزَرَةً وَحْشِيَّةً في الجزائر. كان مندريس حريصًا على ضمّ تركيا إلى المجموعة الأوروبية ليقطع علاقة تركيا بالعالم الإسلاميّ تمامًا، ومع ذلك حَاوَلَ أنْ يقيمَ حِلْفًا يَضُمُّ تركيا والعراق وباكستان وإيران وبريطانيا، بغرضِ الحَدّ من السياسة التوسُعية للاتحادِ السوفيتي.

بدأتْ أَمَارَاتُ الفشلِ في سياسةِ مندريس بعد عام 1958م. فتفاقمت أزماتٌ إقتصاديةٌ حادةٌ كنتيجةٍ لهذه السياسةِ المضطربةِ الّتي أثارت الكماليّين ضدّه، إلى أن قام الجيش التركي بإنقلابٍ عسكري أطاح بحكومتة، وأُلقِيَ القبضُ عليهِ (وهو يحاول الهروب إلى خارج البلاد)، كما أُلْقِيَ القبضُ على جميعِ أعضاءِ حِزْبِهِ، وجَرَتْ محاكمَاتُهُمْ في احدى جُزُرِ مَرْمَرَا، اسمها: (حزيرة يَاتْسِي آدَا Yatsıada)، إلى أن صدر حكمُ الإعدام عليه وعلى وزيرين من حكومته: فطين رشدي زورلو Fatin Rüştü Zorlu (وزير الخارجية)، وَحسن بولاتكان Hasan Polatkan (وزير الشؤون المالية). نُفّذَ إعدامُهُ يوم 17 أيلول 1961م. ودفن في جزيرة إِمْرَالِي، ثمّ نُقِلَتْ رفاتُهُ إلى إسطنبول ودُفِنَتْ في ضريحٍ ضخمٍ بُنِيَ خصّيصًا له يوم 17 أيلول 1990م، وذلك بموجب قانونٍ أصدرتْهُ حكومة تُرغوت أوزال.

لكنَّ هذا السياسيَّ الحريصَ الطَّموحَ الّذي استطاعَ أن يَجْذِبَ قلوبَ الْمُتَدَيِّنِين، أصدرَ قانونًا يُنْبِئُ عن خطورةِ مَكْرِهِ بالإسلامِ. أرادَ بذلك أنْ يبتسمَ للعلمانِيِّينَ في الوقت ذاتِهِ. وهو القانون رقم: 5816م. الَّذِي يَنُصُّ على تنفيذِ عقوباتٍ صارِمةٍ ضِدَّ مَنْ يتورَّطُ في أدنى إساءةٍ إلى شخصيةِ "الزعيمِ الماجدِ!". ولم يكتفِ بهذا القدرِ، بل صرفَ جهودًا كبيرةً ومبالِغَ ضخمةً مِنْ خزانَةِ الدَّولةِ في إقامةِ صرحٍ عظيمٍ لِيُدْفَنَ تَحْتَهُ جثمانُ مصطفى كمال الَّذي بَقِيَ في الْمُتْحَفِ 15 عامًا (1938–1953م.). بيدَ أنَّه لم يتمكَّنْ –كما يبدو– مِنْ إقناعِ إخوتِهِ السبطائيِّين الَّذين يُفْتَرَضُ أنَّهم اتَّهموه بالخيانةِ. لأنَّ بعضَ الشيءِ مِنْ أسرارِ السبطائيِّين بدأ ينكشف عنه الغطاءُ في عهده!

لذلك يجب الإشارةُ هنا بالمناسبةِ: أنَّ المؤسِّسِينَ لِحِزْبِ الاتِّحاد والترقِّي – في الحقيقةِ – ليسوا أولئك الشبابَ الخمسةَ مِنْ طُلاَّبِ كلِّيَّةِ الطِّبِّ الذين يزعمُ البعضُ أنَّهُمْ، هم: إسحاق سُكُوتِي İshak Sukuti، **وإبراهيم تَمُو** İbrahim Temo، **وعبد الله جودتْ** Abdullah Cevdet، **وجركس محمد رشيد** Çerkez Mehmet Reşit، **وحسين زادة علي** Hüseyinzade Ali، **وبهاء الدين شاكر** Bahaddin Şakir... **ومن ادَّعَى ذلك فقد تكهَّنَ، وَلاَ يُصَدِّقُهُ إلاَّ (كَمَالِيٌّ) مغسولُ الدماغِ، أو صوفِيٌّ مجذوبٌ، أو جاهلٌ لا يُعتدُّ برأيِهِ. هذا، فضلاً عن جميعِ الأشخاصِ الذين وردتْ أسماؤُهم في قائمةِ أعضاءِ الحزبِ؛ لا علمَ لأحدٍ أبدًا (غير السبطائيِّين) حتَّى اليومِ، بما إذا كان أحدهم سبطائيًّا أو عميلاً لهم.**

***

- **الْمُتَهَوِّدُون:**

لم يُسمَعْ أنَّ أحدًا من الأصلِ التُّرْكِيِّ اعتنقَ اليهوديَّةَ لا في العهدِ العثمانِيِّ ولا في العهدِ الجمهورِيِّ. غيرَ أنَّ قِلَّةً (ذَاتَ صِلَةٍ عصبيَّةٍ بالأتراكِ)، كانو قد تَهَوَّدُوا قديمًا، وكانوا مُبَعْثَرِينَ في شرقِ أوروبَا وشِبهِ جزيرةِ بَلْقَانَ، وهم مِنْ إمتدادِ السلالاتِ الخزريَّةِ، وجدوا أنفسَهُمْ ضمنَ رعايا الدولةِ العثمانيَّةِ بعد الفتوحاتِ الَّتي قادها السلطانُ مرادُ الأَوَّلُ (1326–1389م.)، خاصَّةً بعد انتصارِ الجيشِ العثمانِيِّ على القواتِ الصليبِيَّةِ في سهولِ كوسوفو عام 1389م.

يُفترَضُ أنَّ أغلبَ هؤلاءِ ليسوا من اليهودِ الْعِبْرِيِّين (السَّفَارِدِ) مِنَ العِرْقِ الساميّ. يبرهن على هذه الحقيقةِ لغاتُهُمْ الَّتِي تَغْلِبُ عليها ميّزاتُ الفصيلةِ الأَلْطَائِيَّةِ الَّتِي تنتمِي إليها اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ. ولَمَّا اجتاحَ الجيوشُ العثمانيَّةُ منطقةَ شبهِ جزيرةِ بَلْقَانَ، ومَنَاطِقَ شرقِ أوروبا، دخلتْ المجتمعاتُ المتهوِّدةُ من الأُصولِ الخزريَّةِ والكُتَلِ التاتاريَّةِ الموغولانيَّةِ تحت حكمِ الدولةِ العثمانيَّةِ ما عدا جماعاتٍ غفيرةٍ منهم كانوا قد نزحوا قديمًا إلى المناطقِ الجرمانيَّةِ في العصورِ الوسطَى، واختلطوا هناك باليهودِ الأَشْكَنَاز.

من الجديرِ بالإشارة؛ أنَّ الفتوحاتِ الَّتِي حقّقَتْهَا الدولةُ العثمانيَّةُ في القارَّةِ الأوروبيَّةِ، جمعتْ بين اليهودِ والمتهوّدين ومَنَحَتْهُمْ جميعًا المواطنةَ والحرّيةَ الواسِعَةَ ربَّما أكثرَ مِمَّا نالهَا بقيَّةُ أهلُ الذِّمَّةِ في الوطنِ العثمانِيّ. وأمَّا تلاقِي الطوائفِ اليهوديَّةِ ذواتِ اللُّغاتِ والثقافاتِ المتباينَةِ في وطنٍ واحدٍ بعد النكباتِ الَّتِي أصابتْهم وفرَّقَتْهُمْ مُشَرَّدِينَ إلى مختلفِ أنحاءِ العالَمِ، فإنَّهُ حدثٌ هامٌّ في الغايةِ لم يستوقفْ الباحثين بالقدرِ الذي يتَّسِمُ بالقيمةِ التاريخيَّةِ، وبخاصَّةٍ العلاقاتُ الَّتِي يُفترَضُ أنَّها امتدَّتْ بين العصابةِ السبطائيَّةِ وبين الْمُتَهَوّدِينَ في المرحلةِ الأخيرةِ من العهدِ العثمانِيّ، لابدَّ من أنَّها قد لَعِبَتْ دورًا كبيرًا في توجيهِ الأحداثِ وإثارةِ التطوُّراتِ والتغيُّراتِ الجذريَّةِ الَّتِي حدَّدَتْ مسارَ السياساتِ والحروبِ إبَّانَ القرنينِ التاسع عشر والعشرين.

كان أغلبُ اليهودِ والمتهوّدين، مُوَزَّعِين في المدنِ العثمانيَّةِ الغربيَّةِ (مثل، سالونيك، وأَدِرْنَه، وَكِيرْكلاَرْ إِيلِي، وإسطنبول، وَبُورْسَا، وَجَنَاقْقَلْعَه، وَإِزْمِير)، غير أَنَّ لِكُلٍّ من الفريقين لغتُهُ الخاصَّةُ وأعرافُهُ، وكانتْ بينهما اختلافاتٌ دينيةٌ، كما أنَّ كلاًّ منهما يمتازُ بِفُرَصٍ يستغلُّها في جلبِ المصلحةِ من الْمِهَنِ وَالْحِرَفِ وَالصِّنَاعَاتِ وَالْفُنُونِ في حينٍ لم يهتم بِهَا "المسلمون" من الأتراكِ والعربِ والأكرادِ، ولاَ غيرُهُمْ من بَقِيَّةِ الطوائف.

كان اليهودُ السفارَدُ أكثرَ لباقةً وأفضلَ نشاطًا في المجالِ التجاريّ والعلاقاتِ الإجتماعيَّةِ؛ لذا كانوا يملِكون ثرواتٍ طائلةً ويتمتَّعونَ بِرفاهيةٍ في المعيشةِ. وكانت لهم علاقاتٌ مع الأُسْرَةِ المالكَةِ، يمدُّونها بالقروضِ عندما تَتَدَهْوَرُ الاقتصاد. أمَّا المتهوِّدون الأشكناز، فإنَّهم كانوا أقلَّ نجاحًا من اليهودِ السفارَدِ عمومًا في المجالِ التجاريِّ والعلاقاتِ الاجتماعيَّة.

لليهودِ السفارَدِ مَعَابِدُ (synagouge) كثيرةٌ بأنحاءِ إسطنبول وغيرِها من المدنِ الكبيرةِ في يومنا هذا[56]، وللمتهوِّدين الأشكناز معبدان فحسب[57]، أما المتهوِّدون القرائِم، فلهم معبدٌ واحد[58].

إنَّ المتهوِّدين من الأصولِ التُّرْكِيَّةِ خَاصَّةً الذين توافدوا من (جزيرةِ الْقِرِمْ) منذ بدايةِ القرنِ العشرين الميلادِيِّ، قد انصهروا في المجتمعِ التُّرْكِيِّ، وضعفتْ علاقتُهم باليهودِيَّةِ، ولا يكادُ يُمَيِّزُ أحدهُمْ من التُّرْكِيِّ المسلمان، للمشابهةِ في الأسماءِ خاصَّةً. وقد أصبحوا في الوقتِ ذاتِهِ موضِعَ شكٍّ في نظرِ اليهودِ ذوي الأصولِ العِبْرِيَّةِ، لأسبابٍ سياسيَّةٍ أهمُّها تتعلَّق بتبعاتِ الحربِ العالميَّةِ الأولى. إذ يُفْتَرَضُ أنَّ بعضَ كبارِ المتهوِّدين من الأصولِ الخزريَّةِ أو المغول، تورَّطوا في تسريبِ معلوماتٍ عن خُطَّةِ السبطائيّين الذين شاركوا في محاولات القضاءِ على الدولةِ العثمانيَّة. وثمَّةَ أسرارٌ لهذه الخُطَّةِ لا تزال تتوارى بالغموضِ حتى اليوم، ولم يتوصَّل إليها الباحثون بعد!

ولَمَّا تضخَّمتْ مُلابساتُ الحربِ العالميَّةِ الأولى فورَ انتهائِهَا (وفشَى بعضُ أسرارِها!)، آذنتْ بخطرِ الإنتقامِ من المتهوِّدين في ألمانيا، (الذين كانوا يتذبذبون بين المسيحيَّةِ واليهوديَّةِ بحسب المصالحِ، مما جعل موقِفَهُمْ هذا المترنِّحَ موضعَ شكٍّ مستمرٍّ في نظرِ الألمانِ الأصليّين)، ولم يلبثْ حتى أثارتْ هذه الملابساتُ النظامَ الهتلريَّ على المتهوِّدين الألمان، وجرَّتْ عليهم الويلاتِ بسبب تورُّطهم في الكشفِ عن خلفياتِ خيانةٍ كبرى كان قد تواطأ عليها قادةٌ سبطائيُّونَ في الجيشِ العثمانِيّ مع قادةٍ من الألمان بالتنسيقِ مع قيادةِ التحالفِ الثلاثِيِّ، أسفرتْ عن مجزرةٍ وحشيةٍ من أكبرِ المجازرِ في تاريخ البشر، أُزهِقَتْ فيها أرواح 300 000 جندِيٍّ من جيوشِ أناضولَ في مناطقِ غاليبولو على مضيقِ جناققلعه عام 1915م.

من عجائبِ أسرارِ التاريخِ: أنَّه لا يزالُ ملايينُ الأتراكِ المغفَّلين يعتزُّون ويفتخرون "بقائدِهِمْ (السبطائيِّ) الأعظم" الذي دفعَ هذا الكم العظيمَ من أبنائِهم، ليسقطوا "شهداءَ!" بأسلحةِ شركائِهِ (قادةِ الحلفِ الثلاثِيِّ)، أكثرهم قُتِلوا أيام مأساةِ جَنَاقْقَلْعَه.

***

[56] Neve Shaloum, Mayor, Etz Ahayim, Jaddabostan, Yenikoy, Israil.

[57] Yüksek Kaldırım, Terziler.

[58] Hasköy.

- **الأقلّيّات الْمَسِيحِيَّةُ:**

الرُّومُ

لفظُ (الرُّومِ): اسْمٌ، أُطْلِقَ على أجيالٍ من العنصر الإغريقِيِّ اليونانِيّ بعد انقسامِ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ إلى دولتين (الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ الغربيَّةِ، وعاصمتُهَا ميلانو؛ الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ الشرقيَّةِ، وعاصمتُهَا القسطنطنيَّةُ). كما أُطلِقَ على السورةِ الثلاثين من القرآن الكريم، وهي سورةُ الرُّومِ. وَرَدَ اللَّفْظُ في الآيةِ الثانيَةِ منها، قال تعالى: "الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ.(الروم/1 – 3). وقد يُجْمَعُ لفظُ الرُّومِ على (الأَرْوَامِ). والروميُّ منسوبٌ إلى الرُّومِ (أي المجتمعِ الروميِّ، وبعلاقةٍ أخرَى إلى مدينةِ روما، عاصمةِ المملكةِ الرومانيَّةِ). كذلك أُطْلِقَ على مَنْ أقامَ في أرضِهِمْ من "الْمُسْلُمَان" حتى بعد الفتحِ الإسلامِيّ؛ مثل جلال الدِّين الرومي، وأشرف أوغلو الرومي، والأخوات الرومية Baciyan-ı rûm[59]... كما عُرِفَتْ المملكةُ العثمانيَّةُ بـ "إقْلِيمِ الرُّومِ"،[60] وَالمجتمعُ العثمانِيُّ بالأروامِ، مع أنَّ أفرادَ هذا المجتمع كانوا أتراكًا منتسبين إلى الإسلامِ. فدخلتِ الدولةُ العثمانيَّةُ في سجلِّ التاريخِ بمثل هذه النسبةِ تحت عنوانَ "الإمبراطوريَّةِ الرومانيَّةِ الثالثة"

تقلَّصتْ ساحةُ الدولةِ البيزنطيَّةِ بعد الفتوحاتِ الإسلاميَّةِ عبر القرونِ الوسطَى إلى أنْ استولَى السلطانُ محمّدٌ الفاتحُ على مدينةِ القسطنطنيَّةِ عام 857 هـ/1453م. التي كانت عاصمتَهَا وآخِرَ رقعةٍ منها. فأصبحَ السكَّانُ الأروامُ لهذهِ المدينةِ بعد الفتحِ من رعايا الدولةِ العثمانيَّةِ، وتعايشوا مع المسلمين الأتراك كبقيَّةِ الأقلِّيَّاتِ يحظون من الحرّيةِ في ممارسةِ دينِهم وأعمالِهِمْ بالقدرِ الذي يحظَى منها غيرُهم من عامَّةِ الرعايا.

---

[59] اسم جمعية نسائية. ورد على لسان بعض المؤرِّخين الأتراك، منهم بالتحديد عاشق باشاذاده، يزعم في تاريخه: أنّه من الإرهاصاتِ التي بشّرتْ بنشوءِ دولةٍ جديدةٍ على أنقاض الدولة السلجوقيةِ والتي كان لها أثرٌ بالغٌ في تكوينِ وبناءِ الدولةِ العثمانيّةِ، تجسّدتْ في أربعِ منظماتٍ شعبيّةٍ سجَّلَهَا التاريخُ، وهي:

1) "بَاجِيَانِ روم"، أي مُنَظَّمَةُ الأخواتِ الروم.
2) "أخيان روم"، أي مُنَظَّمَةُ الإخوة الروم.
3) "غازيانِ روم"، أي مُنَظَّمَةُ الغزاة الروم.
4) "أبدالان روم"، أي مُنَظَّمَةُ الصوفية الروم.

المصدر: Aşıkpaşazade Tarihi. Neşr. Ali Beğ. İstanbul-1332. S. 222

[60] جَرَى ضَبْطُهُ في اللهجةِ العثمانيّةِ بصيغةِ: "إقْلِيمِ رُوم İklim-i Rûm"

للثَّقافةِ اليونانيَّةِ أثرٌ بالغٌ على المسلمين بحكمِ الجوارِ وعبرَ العلاقاتِ بين الطرفين طوالَ القرونِ بدءًا من الدَّوْلَةِ الأمويّةِ وصولاً إلى الدَّوْلَةِ العبَّاسِيَّةِ والدَّوْلَةِ السلجوقيَّةِ. كذلك دامتِ الصلةُ بين البيزنطيّين والعثمانيّين بعد السلاجقة.. لكن يجب الإشارةُ هنا إلى أنَّ إتّصالَ الأتراكِ بالدولةِ البيزنطيَّةِ لأوَّلِ مرّةٍ بدأ من عام **1071**م. عند غلبةِ الجيشِ الإسلاميّ على الجيشِ البيزنطيّ في معركةِ مَلاَزْكِيرْدْ. فلمَّا استولَى الأتراكُ على القسطنطنيَّةِ بعد هذا الإتّصال بأربعةِ قرونٍ تقريبًا، بَقِيَتْ جميعُ مؤسَّساتِ الدولةِ البيزنطيَّةِ تحتَ سيطرةِ الدَّوْلَةِ العثمانيَّةِ، فنجمتْ عن ذلك فكرةُ الوراثةِ بين السُّلْطَتَيْن باعتبارِ أنَّ الدَّوْلَة العثمانيَّةَ خَلَفَتْ الدَّوْلَةَ القيصريَّة وحلَّتْ محلَّها بصورةٍ طارئةٍ وانْدَمَجَتْ فيها، فاتَّسمتْ بصفاتِهَا المقدَّسَةِ. نشأتْ عن ذلك قناعةٌ في أوساط الرُّومِ من سُكَّانِ القسطنطنيَّةِ: أنَّ السلطانَ محمدًا الفاتحَ شخصيَّةٌ من أباطرَةِ الرومِ، فارتاحَتْ نفوسُهم للنظامِ الجديد، أدَّى إلى انسجامِهم في السلوكِ والتعامُلِ مع المجتمعِ الجديد. وربما لهذا السبب أُطْلِقُ على "المسلمين" من سكانِ القسطنطنيَّةِ اسمُ (الأتراك الروم)، ثم شمِلَ هذا الإطلاقُ جميعَ سُكَّانِ أناضولَ.

بعد أنْ فرغَ السلطانُ محمَّدٌ الفاتحُ من أعمالِ الفتحِ اعترفَ بالْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الرُّومِيَّةِ كمرجعٍ دينيٍّ أعلى بالنسبَةِ للأروام المسحيّين الذي كان يُمَثِّلُهُ يومئذ الْبَطْرِيَرْكْ جَنَّادِيُوس الثاني.Gennadios II. وأصدرَ فرمانًا ينصُّ على أنَّ الْبَطْرِيَرْكِيَّةَ الأرثوذكسيَّةَ الرُّومِيَّةَ مؤسَّسَةٌ دينيَّةٌ تتمتَّع بشخصيَّةٍ ومناعةٍ، وأنَّها مَعْفُوَّةٌ من الضرائبِ، كما كان يتمتَّعُ الْبَطْرِيَرْكْ بمكانةٍ ويحتلُّ منصبَ وزيرٍ من الوزراءِ في الديوان السلطانيّ.

ينتمِي الأرْوامُ من سُكَّانِ تُرْكِيَا (وجميعُ اليونانيّين) إلى المذهبِ الأرثوذكسيّ، وهي أقدمُ المذاهبِ المسيحيَّةِ. تُمَثِّلُهُمْ الْبَطْرِيَرْكِيَّةُ الأرثوذكسيَّةُ الرُّومِيَّةُ في العقيدةِ، ومقرُّهَا في مدينةِ إسطنبول (حيّ: فَنِيرْ Fener). انتقلتِ الْبَطْرِيَرْكِيَّةُ إلى أماكنَ مختلفةٍ داخلَ مدينةِ إسطنبول عَبْرَ التاريخِ حتَّى اتخذتْ مِنْ كنيسةِ أَيُوسْ يُوأَرْجِيُوسْ Ayios Yoergios مقرًّا لها في سنة **1602**م.

استفادتْ السلطةُ العثمانيَّةُ بكثيرٍ من خبرةِ القطاعِ الروميّ بعد فتحِ القسطنطنيَّةِ. تولَّى أعدادٌ كبيرةٌ منهم الوظائفَ العامَّةَ في مرافقِ الدولةِ، خاصَّةً منها الأمورَ الفنيَّةَ: كالزراعةِ والبناءِ والصناعةِ والتَّرْجَمَةِ والطبِّ.. كان عامَّةُ المترجمين والأطِبَّاءِ مِنْ أقلِّيَّاتٍ ذِمِّيَّةٍ على امتدادِ تاريخِ الدولةِ العثمانيَّةِ،

ذلك لعدمِ اهتمامِ الأتراكِ بالعلومِ والفنونِ واللُّغَاتِ الأجنبِيَّةِ. وللأروامِ دورٌ كبيرٌ في مجالِ التَّرْجَمَةِ، بخاصَّةٍ منها الترجمة الدبلوماسيَّة اثناءَ المفاوضاتِ بين الدولةِ العثمانيَّةِ والدولِ الغربية.

كانت أربعةُ أقسامٍ في إدارة الدولةِ تُستَخْدَمُ فيها الْمُتَرْجِمُونَ وغالبُهُمْ من الأروام:

1) ديوان السلطنة،
2) دواوين الأيالات.
3) مؤسَّسَة التدريب العسكري.
4) ديوانُ العلاقاتِ الخارجيَّةِ.

كانتْ أعمالُ الترجمةِ في ديوانِ السلطنةِ خاصَّةً تتَّسِمُ بأهمِّيَّةٍ بالغةٍ. تولَّى هذه المهمَّةَ في القرنِ السادس عشر والسابع عشر مُوَظَّفُونَ من الأقلِّيَّات غيرِ المسلمةِ، معظمُهم من الأروامِ الذين اعتنقوا الإسلامَ في وقتٍ مؤخَّرٍ. وتأتِي على رأسِ العائلاتِ ذاتِ الأصولِ الروميَّةِ سبعةُ أُسَرٍ معروفةٍ اعتمدتْها السلطةُ العثمانيَّةُ عن طريقِ الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الرُّومِيَّةِ، وكلَّفتْ أصحابَ المؤهَّلاتِ منها في أعمالِ الترجمةِ. وهي: أسرةُ مَاوْرُوكُورْدَاتُو Mavrokordatos، وأسرةُ يَنَاكِيسْ Yanakis، وأسرةُ دَرَاكُوسْ Drakos، وأسرةُ كَالاَمَاكِيسْ Kalamakis، وأسرةُ إِسْبِيلاَنْتِيسْ İspilantis، وأسرةُ مِيخَّائِلِيس Mikhailis، وأسرةُ صَارُوبِيكْ Sarubey... وقد كان بعضُ هؤلاءِ المترجمين يُخِلُّون بمبدأِ الذِّمَّةِ والأمانَةِ ويتلبَّسون بالخيانَةِ أحيانًا. ورد في بعض المصادر أنَّ ثلاثةً من هؤلاء الأشخاصِ نُفِّذَ فيهم حكمُ الإعدامِ بسببِ هذه الجريمة، وهم: Alexander Gica أُعدم سنة **1740**م.، و Nikola Drakos أُعدم سنة **1769**م.، و Dimitrashco أُعدم سنة **1812**م.[61]

إنَّ الدولةَ العثمانيَّة لم تمارسْ سياسةَ الصهرِ العرقِيِّ والدمجِ القسرِيِّ، ولم تفرضْ على الأقلِّيَّاتِ غيرِ المسلمةِ الهويَّةَ الإسلاميَّةَ أبدًا. فَتَمَتَّعَ الأروامُ وغَيْرُهُمْ من الأقلِّيَّاتِ غيرِ المسلمةِ بِمُمَارَسَةِ حريَّاتهم الدينيَّةِ والثقافيَّةِ، بفضلِ هذه السياسةِ، فحافظوا على معتقداتهم، وَأعرافِهم، وتقاليدِهم عبر القرون.

لقد كان الشعبُ اليونانيُّ ساهِيًا عن ماضيهِ العريقِ طوالَ القرونِ لأسبابٍ تدهورتْ من جراءِها حالةُ الدولةِ البيزنطيَّةِ إلى أنْ سقطتْ على يدِ العثمانيّين عام **1453**م. ثم استمرَّ القطاعُ الرومِيُّ (من بقايا

[61] المصدر: رسالة دكتوراه PDF جامعة أنقره.- Sami Balcı, Osmanlı Devleti'inde Tercümanlık ve Bâb-ı Âli Tercüme Odası. S.79 Ankara- 2006

المجتمعِ البيزنطِيِّ) بعد ذلك تحتَ حكمِ الأتراك في سُبَاتِهِ العميقِ أربعةَ قرونٍ أُخرَى حتى جائتْهُ إيحاءاتُ الصحوةِ عَقِبَ النهضةِ التي شهدتْها الساحةُ الأوروبيَّةُ فَانْتَبَهَ من نومتِهِ. فلمَّا نشأتِ النَّزعةُ القوميَّةُ عَقِبَ الثورةِ الصناعيَّةِ في أوروبَا، وبدأتْ تَنْبُضُ في نفوسِ الأقلِّيَّات العرقيَّةِ في الفترةِ من أواخرِ القرنِ الثامن عشر،كانتْ الأروامُ في طليعةِ الأقلِّيَّات التي تشرَّبتْ فكرةَ الإنفصالِ عن الدولةِ العثمانيَّةِ. فقاموا بتأسيسِ منظَّمَةٍ سرِّيَّةٍ بعنوان:(أَتْنيكِي أَتَرْيَا Ethniki Etaireia)، وذلك عام **1814**م. لفصلِ المنطقةِ اليونانيَّةِ عن الدولةِ العثمانيَّةِ وإعلانِ استقلالِها.

ظهرتْ في المنطقةِ اليونانيَّةِ بوادرُ الثورةِ الأهليَّةِ، قادَهَا الرهبانُ بِدَعْمٍ من الأعيانِ والأثرياءِ والمثقَّفين اليونانيِّين في الداخلِ، وبمساعدةِ روسيا والدولِ الأوروبيَّةِ عبر العلاقاتِ الخارجيَّةِ، وذلك في عهدِ السلطانِ محمودٍ الثانِي. دامتْ الثورةُ ضِدَّ الحكمِ العثمانِيّ في شبهِ جزيرةِ مورة ما بين أعوام: **1821–1829**م. حاولتِ الدولةُ إخمادَها بالتعاونِ مع القواتِ المصريَّةِ، ونُفِّذَ حكمُ الإعدامِ في الْبَطْرِيَرْكِ الرُّومِيّ غرغوريوس الخامسِ شنقًا، على البابِ الأوسطِ للكنيسةِ الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الكائنةِ في منطقةِ (فَنِيرْ Fener) بمدينة إسطنبول يوم **21** أبريل **1821**م. وذلك بذريعةِ تَلَبُّسِهِ بالخيانَةِ العظمَى، بأنَّه كان متواطئًا مع الثوَّارِ اليونانيِّين. ولكنَّ الدولةَ فشلتْ في وجهِ المقاومةِ اليونانيَّةِ. ثُمَّ حصلتِ اليونانُ في النهايةِ على استقلالِها بموجبِ اتفاقيَّةِ إسطنبول الْمُوَقَّعَةِ عام **1832**م.

وَلَمَّا أشرفتْ الدولةُ العثمانيَّةُ على الإنهيارِ في العقدِ الأوَّلِ من القرنِ العشرين وبدأتْ الدُّولُ الأوروبيَّةُ تتقاسمُ أراضِيَهَا استغلَّتِ اليونانُ هذه الفرصةَ فانقضَّتْ على منطقةِ إيجة من الأراضِي العثمانيَّة، فاحتلَّتْ مدينةَ إزمير يوم **15** مايو **1919**م. واستولتْ على عِدَّةِ مُدُنٍ منها.. ثم انتهتِ الحربُ التُّرْكِيَّة–اليونانيَّةُ وفقًا لاتفاقيَّةِ مُودَانْيَا Mudanya الموقَّعَةِ عام **1922**م.، إلاَّ أنَّهَا لم تُسفِرْ عن حسمِ النِّزاعِ بين الطرفين، بل بات الخلافُ قائمًا حولَ تعيينِ المناطقِ والخطوطِ الحدوديَّةِ بين اليونانِ وتركيا بعد انهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ وقيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة. كذلك مسألةُ الأقلِّيَّاتِ ظلَّتْ مشكلةً عويصةً بين الطرفين خاصَّةً بعدَ قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة.

تعرضتِ الأقلِّيَّةُ الروميَّةُ (أي المواطنون من الأصلِ اليونانِيّ)، تعرَّضوا لاضطهادٍ ومضايقاتٍ شديدةٍ في العهدِ الجمهورِيّ مِنْ قِبَلِ التجمُّعَاتِ المتطرِّفةِ من العنصريِّين الأتراك كنتيجةٍ سلبيَّةٍ لهذهِ الحروبِ والخصومات. يُفْتَرَضُ أنَّ أعمالَ العنفِ التي مارستْها السلطاتُ التُّرْكِيَّة ضِدَّ الأروامِ والتي ساهمتْ فيها الفئاتُ المتطرِّفةُ من الأتراك، كانتْ حملاتٍ انتقاميَّةً في مقابلةِ ما فعله اليونانيُّون بالأتراك سواءً

أيام الثورة وأثناءَ احتلالِهِمْ منطقةَ إيجه وقيامِهم بأعمالٍ وحشيَّة من القمعِ والتقتيلِ والإبادةِ الجماعيَّةِ بين أعوام **1919–1922**م. على أنَّ ما جاءَ ضمنَ اعترافاتِ بعضِ الضباطِ الأتراك يكشفُ السِّرَّ عما تعرَّضَ له الأروام أيضًا من القتلِ والإبادةِ الجماعية[62].

لَمَّا ضاقتِ الحياةُ بالأقلِّيَّةِ الروميَّةِ في تركيا بسببِ اشتدادِ حقدِ الأتراكِ عليهم، والسطوِ على مُمْتَلَكَاتِهِمْ بين الفينةِ والأخرى؛ ولَمَّا ساءتْ كذلك ظروفُ الأقلّيَّةِ التُّرْكِيَّة في اليونان للأسباب نفسِها، كمقابلةٍ بالمثلِ، اضطرَّتْ الحكومتان لإنهاءِ الأزمةِ بعقدِ إتفاقيَّةٍ تقضِي بمبادَلَةِ الأقلِّيَّات من الطرفين. وقد تَمَّ ذلك بصياغةِ محضرٍ أُلْحِقَ باتفاقيَّةِ لُوزَانَ عام **1923**م. وتَمَّ بموجبِ هذا المحضرِ مبادلةُ عددٍ من الأقلِّيَّةِ الروميَّةِ المقيمةِ في تركيا، بأقلِّيَّةٍ تركيَّةٍ مقيمةٍ في اليونان. تَمَّ تهجيرُ جماعاتٍ من الفريقين، كلٍّ إلى وطنِهِ الأصليِّ متزامنًا سنة **1925**م. ودامتْ أعمالُ التهجيرِ بين أعوام: **1923–1928**م. فتمَّ تهجيرُ عددٍ كبيرٍ من الأروامِ المتمتِّعين بالمواطنةِ في تركيا، طَرَدَتْهُمُ السلطةُ إلى اليونان، وقدرهم :000 200 1 شخص. وذلك مقابل: 000 500 شخص من الأتراك المتمتِّعين بالمواطنةِ اليونانيَّةِ، تَمَّ تسفيرُهم كذلك بصورةٍ إجباريَّةٍ إلى تركيا.

الإتفاقيَّاتُ والمعاهداتُ التي أُبْرِمَتْ بين تركيا واليونان لم تُثمِرْ عن وِفاقٍ وتصالُحٍ بين الطرفين في ظلِّ شراسة النَّزَعَاتِ العصبيَّةِ السائدةِ على العقليَّةِ التُّرْكِيَّة بخاصَّةٍ. وكان من نتائجِها أنْ تدهورتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّة–اليونانيَّةُ ودامتْ على حالتِها دونَمَا شيءٍ من التحسُّن طوالَ نصفِ قرنٍ، فانعكستْ آثارُها على البقيَّةِ الباقيَةِ من الأروامِ الذين معظمُهم يسكنون في مدينة إسطنبول، وعددُهم لا يربو عن 1200 شخص منذ **1960**م.. بينما كانوا من أكبر الأقلِّيَّاتِ المسيحيَّةِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ إلى الماضِي القريب. إذ كانوا هم السُّكَّانَ الأصليِّين لِمنطقَتَيْ إيجه ومرمره. وكانتْ مدينتا إسطنبول وإزمير عامرتَيْن بنشاطاتِهما التجاريَّةِ والصناعِيَّةِ على مدَى الحكم العثمانِيّ.

يبدو أنَّ مصطفى كمالاً كان قَلِقًا من أن تكشفَ السلطاتُ اليونانيَّةُ النقابَ عن أسرارِ أسرتِهِ، لأنَّ مدينةَ سالونيك (وهي مسقطُ رأسِهِ)، بقيتْ ضمنَ الأراضِي اليونانيَّة بعد انفصالِها عن الدولةِ العثمانيَّةِ. فكانَ يتخوَّفُ من إشاعةِ البياناتِ الخاصَّةِ بأسرتِهِ التي تدورُ حولَهَا الشكوكُ بأنَّها أسرةٌ

---

[62] ورد في الموسوعة الألكترونية Vikipedi عبارات باللغة التُّرْكِيَّة يُذْكَرُ فيها مصدرٌ هامٌّ يدل على هذه الحقيقة. وهذه نصّ العبارت:

Hikmet Bayur tarafından hazırlanıp Türk Tarih Kurumu tarafından yayımlanmış olan Türk İnkılâbı Tarihi adlı kitapta 800.000 Ermeninin yanı sıra 200.000 Rumun da katl ve tehcir yüzünden veya amele taburlarında öldüğüne dair bilgi Yarbay Nihat'ın bizim resmi kaynaklara göre de doğru saymak gerekir yazısyla birlikte aktarılmaktadır.

يهوديَّةٌ انتحلتِ القوميَّةَ التُّرْكِيَّة لأغراضٍ سياسيَّةٍ، فيفتضحَ أمرُها في تركيا ويتخلَّى عنه العنصريُّون الأتراك. لذا، كان مصطفى كمال شديدَ الكراهيَّةِ للروم والشعبِ اليونانيّ، يستغلُّ كلَّ فرصةٍ لإرباك الحكومةِ اليونانيَّةِ ويلجأ إلى كلِّ وسيلةٍ لقهرِ المواطنِين الأروام.

وانطلاقًا من حقدِهِ على اليونانيّين وبني قومِهم الأروامِ القاطنين في تركيا، تابعَ سياسةً معاديةً للدولةِ اليونانيَّةِ وحرَّضَ الأتراكَ على بُغْضِهِمْ، ودبَّرَ مؤامراتٍ لإثارة الإضطرابِ حول الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الرُّومِيَّةِ الأُرْثُوذُكْسِيَّةِ، وإيقاعِ الفتنةِ والشقاقِ بين صفوفِ الأروام. فاستدعَى رجلاً مسيحيًّا من أصلٍ تركيٍّ من أهالي مدينةِ القيصريَّةِ اسمُهُ (أفْتِيم Eftim)، كان معتنقًا للمذهب الأُرْثُوذُكْسِيَّةِ، دَسَّهُ مصطفى كمال بين صفوفِ الأروام، واختلقَ له منصِبًا روحيًّا وَصِفَةً كهنوتيَّةً، وطلب منه أنْ ينتحلَ صفةَ الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ التُّرْكِيَّة الأُرْثُوذُكْسِيَّةِ، ومنحه كنيسةً اغتصبَهَا من الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الرُّومِيَّةِ، وجنَّدَ قومًا كانوا على شاكلتِهِ من الإنتهازيّين، فنودِيَ بَطْرِيَارْكًا عليهم بعنوان "بَابَا أَفْتِيمْ Papa Eftim". فأخذ الرجلُ ينافس الْبَطْرِيَرْكِيَّةَ الرُّومِيَّةَ ويُصدِرُ فتاوى للحطِّ من شأنِها. فواجهتْ الْبَطْرِيَرْكِيَّةُ الرُّومِيَّةُ أزماتٍ، وتعرَّضَ لاضطهادٍ شديد دامَ إلى اليوم.

لِلْبَطْرِيَارْكِيَّةِ الرُّومِيَّةِ معهدٌ دينيٌّ لتخريج الرهبانِ في جزيرة (هَيْبَلِي آدَهْ Heybeliada)، من جُزُرِ مرمره. تمَّ افتتاحُهُ يوم 01 أكتوبر 1844م. بأمرٍ من الْبَطْرِيَرْك جرمانوس الرابع، وذلك بتحويلِ كنيسةِ آيا تِرْيَاذْ. دام فيه النشاطُ التعليميُّ وفقًا للمقرراتِ الخاصَّةِ الْمُعَتَمَدَةِ مِنْ قِبَلِ الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الرُّومِيَّةِ منذ إفتتاحِهِ إلى آخرِ أيَّامِ الدولةِ العثمانيَّةِ، كذلك على مَدَى العهدِ الجمهوريّ حتَّى عام 1971م. إلاَّ أنَّ الحكومةَ التُّرْكِيَّة أصدرتْ قانونًا بتاريخ: 12 يناير 1971م. رقم: 3. يَنُصُّ على تأميم جميعِ المعاهدِ الخاصَّةِ. فقامت الْبَطْرِيَرْكِيَّةُ الرُّومِيَّةُ بإغلاقِ معهدِها احتجَاجًا على هذه المادَّةِ القانونيَّةِ التي أخضعتْ المعهدَ لسيطرةِ نظامِ التعليمِ العامّ، وظلَّ بَطْرِيَارْكُ الرومِ بارتولوموس Bartholomeos يشكو من تبعاتِها، ويبذلُ جهودَهُ غبر لقاءاتِهِ مع الشخصيَّات والسلطاتِ السياسيَّةِ في الخارجِ لإعادةِ فتحِ هذا المعهدِ دون جدوى.

هناك أقلّيةٌ أُخرَى من امتدادِ سلالاتٍ يونانيَّةِ الأصلِ من بقايا الشعبِ الْبُنْطُسِي الذي كانتْ له دولةٌ على ساحلِ البحرِ الأسودِ شمَالَ أناضول عاصمتُها مدينةُ طَرَبْزُون. قَضَى عليها السلطانُ محمَّدٌ الفاتحُ عام 1461م. وتمَّ صهرُ هذا المجتمعِ في البوتقةِ التُّرْكِيَّةِ، فاعتنقوا الْمُسْلُمَانِيَّةَ وسلكوا أساليبَ الصوفيَّةِ القبوريَّةِ والمرجئةِ في المعتقدِ والتعبُّدِ. تمذهبوا بالحنفانيَّةِ وتشرَّبوا عقيدةَ النقشبنديَّةِ

على غرار الأتراك. أثبتتْ الاستطلاعاتُ الرسميَّةُ لعام 1965م. أنَّ 535 4 شخصًا من هذه الأقلِّيَّةِ ما زالوا يتكلَّمون باللُّغةِ اليونانيَّةِ.

تتلاعبُ الحكوماتُ والأحزابُ السياسيّةُ والمنظماتُ الاستخباراتيَّةُ التُّرْكِيَّةُ بهذهِ الطائفةِ، ويهبُّ بها التيَّارُ الصوفيُّ. تسلَّلَتْ في السنين الأخيرةِ جماعةٌ نقشبنديَّةٌ متطرِّفةٌ من الطائفة الْبُنْطُسِيَّةِ إلى منطقة (تشَرْشَنْبَهْ) بمدينةِ إسطنبول، وذلك بإيحَاءٍ من الحكومةِ ضمن ترتيباتٍ قامتْ بها شبكةُ الاستخبارتِ التُّرْكِيَّةِ، فجثمتْ الجماعةُ على مقربةٍ من الْبَطْرِيَرْكِيَّةِ الروميَّةِ، مهمَّتُها إحراجِ الأروامِ وإزْعاجُهم وتخْويفُهم "بغرضِ تطهير المنطقةِ منهم"!

من جهةٍ أخرى بدأ في السنين الأخيرةِ يَدُبُّ في نفوسِ بعض البُنْطُسِيِّين الشعورُ بماضِيهم؛ فانتبهتْ جماعةٌ من مُثَقَّفِيهِمْ إلى أنَّهم ينحدرون من الأصلِ اليونانيِّ. إلاَّ أن نظامَ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ لم يَعُدْ يعبأ بهم ولا يتوقَّعُ الخطرَ من الأروامِ المسحيِّين ولا من هؤلاءِ المتأسلمين من بني جِلْدَتِهِمْ. بل تستغلُّهم الدولةُ العميقةُ في تحقيق أهدافِ الدولة التركيةِ، وقد تستغلّهم عصاباتٌ وتنظيماتٌ إرهابيَّةٌ كما سبق أن وقعت عدةٌ من الجرائمِ على يَدِ أفرادٍ من هذه الأقليَّةِ أو ساهموا في ارتكابها. تُبَرْهِنُ على أن العنصريّين الأتراك يستغلونهم ضد الأكرادِ والأرمن والأجانبِ.

من هذه الجناياتِ (على سبيل المثال): مقتلُ صحفِيٍّ أرمنِيٍّ اسمهُ هِيرَانْتْ دِينكْ Hirant Dink، يوم التاسع عشر من شهر يناير عام 2007م. أقدمَ على قتلِهِ شابٌّ من عِصَابَةِ بُنْطُسْ يُدْعَى أُوجُونْ سَامَاستْ Ogün Samast، وهو من أهالي مدينة طربزون، أغراه رجلُ بنطسي آخر يُدعى ياسين خَيَال. ومن هؤلاءِ الضحايا: الراهب الإيطاليُّ أندريا سانتورو Andrea Santoro قُتِلَ على يد شابٍّ من عصابة بنطس عمره 16 عامًا واسمه أوغوزخان أكدين Oğuzhan Akdin، وهو أيضًا من أهالي مدينة طربزون، قام باغتيار الراهب الذكور آنفًا يوم الخامس من شهر فبراير عام 2006م. كذلك تعرَّضَ الْمُغَنِّي الْكُرْدِيُّ إبراهيم تَاتْلِيسَسْ İbrahim Tatlises لمحاولة اغتيالٍ يوم الرابع عشر من شهر مارس عام 2011م. زعم البعض أن الجريمةَ ارتكبها نفر من البنطس. تشير بعض الأماراتِ إلى أنَّ التنظيم الإرهابي المعروف بأسماء مختلفة (كالعصابة الفتوشية، والحشاشين الجدد، والدولة الموازية) كان من وراءِ هذه الجرائم. والجدير بالذكر أن التنظيم إنما استغل من عملائه البنطسيين خاصةً لأن الأقلية البنطسية تمتاز بتملقها وتزلفها إلى الأتراكِ منذ فتح مدينتهم طربزون على يد السلطان محمد الفاتح.

***

الأَرْمَن

تحتلُّ الأقليَّةُ الأرمنيَّةُ الْمَرْتَبَةَ الأولى من حيث كثرةِ العددِ بين الأقلِّيَّاتِ غيرِ المسلمةِ في تركيا. تشيرُ الإحصائيَّاتُ إلى أنَّ أفرادَ الجماعةِ الأرمنيَّةِ المتمتِّعين بالمواطنَةِ التُّرْكِيَّةِ يبلغُ عددُهُمْ في الوقتِ الراهن **20** ألفًا تقريبًا. أغلبُهُمْ يسكنون في الْمُدُنِ الكُبرى مثل إسطنبول، وإزمير، وأنقره، والقيصريَّةِ، وغيرِهَا بالمنطقةِ الوسطى ومنطقةِ ساحلِ البحرِ المتوسط..

عاشتْ الأقليَّةُ الأرمنيَّةُ في ظلِّ الْحُكْمِ العثمانِيِّ حُقْبَةً طويلةَ تزيدُ عن ستَّةِ قرونٍ تتمتَّعُ بالحرِّيَّة والأمنِ والطمأنينةِ، وتمارسُ أنواعًا مختلفةً من الْمِهَنِ والْحِرَفِ كبقيَّةِ الأقلِّيَّات. على أنَّهم كانوا أكثرَ نجاحًا من الأروامِ واليهودِ في التكيُّفِ مع الأكثريَّةِ "الْمُسْلُمَان". لعلَّ السببَ يرجعُ إلى كثرةِ أهلِ العلومِ والفنونِ والصناعاتِ فيهمْ، هذا مع براعتِهم في مجالِ التجارةِ. ولهذا أُطْلِقَ عليهم صفةُ "الْمُوَاطِن الْمُخْلِص". ونَبَغَ فيهم شخصيَّاتٌ من السياسيِّين والأطبَّاءِ والمستشارين احتلُّوا مناصبَ هامَّةً في السلطةِ والإدارةِ والسلكِ الدبلوماسِيِّ، فنالو ثقةَ الدولةِ والعامَّةِ.

فاجئَهم سوءُ الطالِعِ مع بدايَةِ انهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ بسببِ ظروفِ المرحلةِ يومَ انْصَبَّتْ عليها الويلاتُ وهي تتخبَّطُ بين أنيابِ الْخَوَنَةِ السَبَطَائِيِّين في الداخلِ (من خلالِ حزبِ الاتِّحادِ والترقِّي)، يَفْتِكُونَ بأوصالِهَا بالتعاونِ مع الْغرب. وفي غضونِ ذلك تعرَّضَتِ الجماعةُ الأرمنيَّةُ لِنَكَبَاتٍ أليمةٍ وبالتحديد سنةَ **1915**م. ذاقوا ألوانًا من العذابِ: قمعًا، وتهجيرًا، واغتصابًا، وإبادةً...

إنَّ مسألةَ "مجازِرِ الأرمن" قِصَّةٌ ملفَّقةٌ وخطيرةٌ. طالَ فيها النقاشُ بين أطرافِ النِّزَاعِ منذ نهايَةِ هذه الفتنةِ إلى اليومِ وقد مضَى عليها حُقبةٌ تزيدُ عن قرنٍ من الزمن. هذا، وقَلَّ مَنْ ينجو من اللَّوْمِ (على أقلِّ تقديرٍ)، إنْ أبْدَى بِشيءٍ مِنْ رَأْيِهِ في هذهِ المسألةِ. وقد يتعرَّضُ الشخصُ لأبْشَعِ أشكالِ العُنفِ والعقوبَةِ الصارمَةِ، وحتى القتلِ والسحقِ تحتَ الأقدامِ إنْ هو أعلنَ عن وُقُوفِهِ بجانبِ أحدِ الطَّرفَيْنِ. إذ لم يسلَمْ أحدٌ بَدَا له أن يتَجَرَّأَ على الحكومةِ التُّرْكِيَّةِ لِيُسَمِّيَ الفتنةَ بـ"إبادةِ الأرمن"، أو يَتَجَرَّأَ على

الدولِ الغربيَّةِ (خاصَّةً منها الفرنسيَّةِ، والسويديَّةِ، والسوسريَّةِ)، أنْ ينبسَ ببنتِ شفةٍ يريدُ به إبراءَ ذمَّةِ الدولةِ العثمانيَّةِ إلاَّ تعرَّضَ لِنِقْمَةٍ أو عقوبةٍ من حيث لا يحتسب!

مع ذلك اختلفتِ الآراءُ حولَ هذه النكبةِ وأسبابِها والمسؤولين عنها بخاصَّةٍ. وما زالَ الخلافُ قائمًا، كما لا يبدو بصيصٌ من الأملِ لانْتِهَاءِ المشكلةِ. لأنَّ القضِيَّةَ قد تحوّلتْ إلى لعبةٍ سياسيَّةٍ تستغلُّها الدولُ الغربيَّةُ لِمُوَاصَلَةِ ضغطِها على تركيا وإرغامِ الحكومةِ التُّرْكِيَّةِ على الْعَمَالَةِ لها في نشرِ هيمنَتِها على الشرقِ الأوسطِ، والعودةِ إلى استعمارِ الدولِ العربيَّةِ وبثِّ بذورِ الشقاقِ بين الشعوبِ الإسلاميَّةِ.

إنَّ أيَّ تصريحٍ في هذه القضيَّةِ يصدرُ عن شخصٍ أو جهةٍ لتأييدِ أحدِ الطرفين لا يلبثُ حتى يلقَى ردًّا عنيفًا من الطرفِ الآخرِ. وقد جاءَ كلُّ مُتَدَخِّلٍ في هذا النِّزاعِ بِدَلِيلِهِ لِيُدْحِضَ حُجَّةَ خصمِهِ، وهذه جملةٌ منها:

نشرتْ مجلَّةُ البيانِ في عددِها رقم: **279**، مقالةً لكاتبٍ حجازيٍّ باسمِ خفاجي يقول فيها:

"شهدتْ الأيامُ الماضيَةُ اهتماماً غربياً متزايداً بما يُثارُ حول اتِّهامٍ تُرَوِّجُهُ التيَّاراتُ القوميَّةُ الأرمينيَّةُ ضدَّ تركيا، بأنَّها قامتْ في نهايةِ الفترةِ العثمانيَّةِ، وبدايةِ حكمِ الاتِّحادِ والترقِّي، وخلالَ أحداثِ الحربِ العالميَّةِ الأولى بعمليَّةٍ إبادةٍ عرقيَّةٍ منظَّمَةٍ للأرمَنِ في تركيا، تصاعدتْ في عام **1915**م بغرضِ القضاءِ الكاملِ على العرقِ الأرمينِيّ في تركيا – هكذا تَروِي السرديَّةُ القوميَّةُ الأرمينيَّةُ، وهو ما ترفضهُ تركيا بقوَّةٍ طوالَ العقودِ الماضيَةِ. والغربُ يريدُ من تركيا الإقرارَ بالتُّهمةِ دون دفاعٍ أولاً، ثم الاعتذارِ عنها ثانيًا، ثم تقديمِ التعويضاتِ الماليَّةِ والإنسانيَّةِ ثالثًا، وربما كذلك الحديث عن حقوقِ الأرمن التاريخيَّةِ في الأراضِي التُّرْكِيَّةِ رابعًا. والأهمُّ مِمَّا سبقَ كلّه: هو ألاَّ تتحدَّى أو تُعَارِضَ تركيا الافتراضاتِ والمآلاتِ التي تكون بمجموعِهَا وجهةَ نظرِ طرفٍ واحدٍ من أطرافِ المشكلةِ، وهو الطرفُ القومِيُّ الأرمينِيُّ.

القرائنُ والوثائقُ التاريخيَّةُ التي بحوزةِ الحكومةِ التُّرْكِيَّةِ تشيرُ إلى مأساةٍ إنسانيَّةٍ حدثتْ للمسلمين والأرمن في ذلك الوقتِ، نتجَ عنها موتُ مئاتِ الآلافِ، وكانتْ كارثةً بحقٍّ، ولكنَّها لم تكنْ إبادةً عِرْقِيَّةً من طرفٍ ضدَّ آخر. اتفاقيَّةُ الأممِ المتحدةِ لعام **1948**م حولَ تعريفِ الإبادةِ الجماعيَّةِ تَنُصُّ

على أنَّهُ ينبغِي «أنْ يكونَ الموتُ عمدًا بتخطيطٍ ويكونَ بسببٍ دينِيٍّ – مذهبِيٍّ أو عِرْقِيٍّ». ويؤكِّدُ الطرفُ التركِيُّ اليومَ أنَّ ما حدثَ للأرمنِ في ذلك الوقتِ هو مأساةٌ وكارثةٌ ولكنَّهُ لم يكن مشروعَ إبادةٍ، وإنَّما كان الأمرُ يترَكَّزُ في دفاعِ دولةٍ عن مصالحِهَا القوميَّةِ الاستراتيجيَّةِ. إنَّ موتَ أيِّ إنسانٍ بريءٍ بسببِ الحروبِ كارثةٌ في حدِّ ذاتِهِ، ولكن أيضًا استخدامُ هذا الموتِ للترويجِ للكراهيةِ بين الشعوب جريمةٌ لا تقلُّ عن الجريمةِ الأولى بشاعةً.

الثابتُ تاريخياً أنَّ عددَ السُّكَّانِ الأرمن في الدولةِ العثمانيَّةِ لم يتجاوزْ مليونًا ونصفَ المليونِ نسمةً في مطلعِ القرنِ العشرين طبقًا لإحصائياتِ الدولةِ العثمانيَّةِ من جهةٍ، وتقديراتِ بريطانيا وفرنسا وألمانيا من جهةٍ أخرى. فكيف يمكن أنْ يُقتَلَ مليون ونصف مليون أرْمَنِي خلالَ تلك الفترةِ نفسِهَا؛ أيْ: الأرمنَ جميعَهُمْ بالدولة العثمانيَّةِ .. في الوقتِ نفسهِ الذي تشيرُ التقاريرُ الإحصائيَّةُ كلُّها أنَّهُ بعد الحربِ العالميَّةِ الأولى بلغَ عددُ الأرمنِ الذين نَجَوْا من ويلاتِ الحربِ ما يقاربُ المليونَ نسمةً! لا شكَّ أنَّ مقتَلَ أو موتَ ما يقارِبُ نصفَ مليون إنسان في تلك الحربِ هو رقمٌ ضخمٌ وكبيرٌ، ولكنَّ هناك أسئِلَةٌ كثيرةٌ يجبُ أنْ تُثَارَ لفهمِ ما حدثَ، وليس لتبريرِ أو إخفاءِ بشاعةِ هذه المأساةِ. هل قُتِلَ الأرمنُ على يدِ جيوشٍ مُنَظَّمَةٍ تهدِفُ إلى إبادتِهم، أم أنَّهم كانوا ضحيَّةَ صراعاتٍ بين متعصِّبين من الجانبين الأرمينِيّ والتُّرْكِيِّ، أم بسببِ التهجيرِ والفقرِ والمرضِ الذي أصابَ الكثيرَ من الأرمنِ والمسلمين على حدٍّ سواءٍ في تلك الفترة؟ وما الَّذِي حدثَ حقيقةً في تلك الفترةِ؟ سؤالٌ مُهِمٌّ لا يجبُ أنْ يتولَّى طرفٌ واحدٌ فقطْ روايتَهُ، أو إلزامَ العَالَمِ بتلك الروايَةِ."

صدرَ بيانٌ من منظمةِ التعاوُنِ الإسلامِيّ، جاءَ فيهِ:

"وأبدتْ المنظَّمةُ رفضَها إزاءَ إقرارِ مجلسِ الشيوخِ الفرنسِيّ مشروعَ قانونٍ يُجَرِّمُ إنكارَ تَعَرُّضِ الأرمنِ لإبادةٍ جماعيَّةٍ على يدِ الأتراكِ العثمانيّين إبَّانَ الحربِ العالميَّةِ الأولَى باعتبارِهِ "يتناقضُ مع حقائقِ التاريخِ، ويعكس ازدواجيَّةَ المعاييرِ في التعامُلِ مع القضايا التاريخيَّةِ الكُبْرَى دون الاستنادِ إلى قراءةٍ موضوعيَّةٍ وحياديَّةٍ مبنيَّةٍ على أدلَّةٍ تاريخيَّةٍ والسعي إلى توظيفِ مثلِ هذهِ الأحداثِ لخدمةِ أغراضٍ سياسيَّةٍ وانتخابيَّةٍ داخليَّةٍ".

يظهرُ من خلالِ هذه السطورِ مثالانِ من الدفاعِ الحماسيّ عن الجانبِ التُّرْكِيِّ، بينما ليس للحكومةِ التُّرْكِيَّة أيُّ دورٍ في صياغتِهما، وهذا شيءٌ مُلفِتٌ!. وفي مقابَلَةِ ذلك يقول البروفيسور بيتر بالاكيان

في مقطع من كتابِهِ الموسوم: The Armenian Genocide and America's Response (بحسبِ ما نقلَتْهُ جريدةُ "البيان" الإماراتيَّةُ، الصادرةُ، بتاريخ **08** مارس **2004**م. يقول:

"... ولكن السلطان عبد الحميد قرَّرَ اضطهادَ الارمن قبل أنْ ينالوا استقلالَهُمْ كما فعل الاغريق والبلغاريون وهكذا ابتدأتْ المجازِرُ بين عامي **1894 ـ 1896**م. وفي مناطقِ أناضولِ الشرقيَّةِ على وجه التحديد. ويقالُ بأنَّ هذه المجازِرَ أدَّتْ الى قتلِ ما لا يقلُّ عن مئةٍ وخمسين ألفَ أرمنِيّ، وعندئذٍ تدخَّلَتِ القُوَى العُظمَى لِمنعِ استمرارِ المجازِرِ واتَّخذتْ مجموعةً من القراراتِ في مؤتمرِ برلين الْمُكَرَّسِ لهذا الغرض، وفي ذاتِ اليوم هجمَ ستَّةٌ وعشرون مُقَاتِلاً أرمنيًّا على البنك العثمانِيّ في اسطنبول واحتلُّوه. وحقَّقوا بذلك أوَّلَ عمليَّةٍ للارهابِ الاعلاني في العصر الحديث، وسوف يُقَلِّدُهُمْ في ذلك الكثيرون لاحقًا. ولكنَّ الغوغائيَّةَ التُّرْكِيَّةَ هجمتْ على الأحياءِ الارمنيَّةِ الموجودةِ في العاصمةِ، وقتلتْ ما لا يقلُّ عن سبعةِ آلافِ أرمنِيّ على مَرْأَى ومسمعٍ من الدبلوماسيّين الاوروبيّين". ثم يردف المؤلف قائلاً: "وعندئذٍ عرفتْ القُوى العُظْمَى أنَّ سياسةَ الاصلاحِ في الامبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ قد فشلتْ، ولهذا السببِ فإنَّها حيَّت الثورةَ التي أدَّتْ إلى خلع السلطانِ العثمانِيّ عبدالحميد عام **1909**م، وكان ذلك على يدِ جماعةِ (الفتيان الأتراك jeunes Turcs) ولجنةِ الاتِّحاد والترقِّي. وأُعيدَ الدستورُ من أجلِ صيانَةِ الناس والحُرِّيَّاتِ."

"ولكن الفرحةَ لم تَدُمْ طويلاً، فقد اندلعتِ المجازِرُ من جديدٍ وأدَّتْ الى مقتلِ **20** الفَ أرمِنِيّ في مدينةِ أَضَنَه، وهكذا سارتْ جماعةُ (تركيا الفتاة) «التقدُّميَّةُ» على خطِّ السلطانِ الرجعِيّ عبدالحميد! ولم يتغيَّرْ شيءٌ يُذْكَرُ بالنسبةِ للأرمن. والواقعُ أنَّ الحكومةَ الجديدةَ راحتْ تتبعُ سياسةَ التتريكِ القاسيَةِ على الشعوبِ الاخرَى للامبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ، وعندئذٍ طالبَ الوفدُ القوميُّ الارمنِيُّ والمكتبُ القوميُّ الارمنِيُّ القُوَى الْعُظْمَى الاوروبيَّةَ بالضغطِ على تركيا لايقافِ المجازِرِ، وهذا ما كان. وقد أرسلتْ هذه القوَى العُظْمَى وفدًا إلى تركيا لِتَقَصِّي الحقائقِ في يوليو من عامِ **1914**م.. ولكنَّ اندلاعَ الحربِ العالميَّةِ الاولَى لم يُتِحْ للوفدِ الفرصةَ لكي يُنْجِزَ مهمَّتَهُ. وباندلاعِ الحربِ أصبحَ الارمنُ محصورين بين القوَّتين العدوَّتين: روسيا القيصريَّةِ من جهةٍ، وتركيا العثمانيَّةِ من جهةٍ أخرى، وعندئذٍ انضمَّتِ القواتُ الارمنيَّةُ الى روسيا ضدَّ تركيا. وكان عددُها **180** ألفَ رجل. وهذا ما أزعجَ تركيا كثيرًا، فقرَّرتِ التخلُّصَ من الأرمن جملةً وتفصيلاً باعتبارِهم طابورًا خامسًا، وقرَّرَ قادةُ

تركيا الفتاة، ومن بينِهم طلعتْ باشا، وجمال باشا، طَرْدَ السكّانِ الأرمن من أراضِيهم إلى صحراءِ سوريا والعراق".

ثم يردف المؤلف قائلاً: "وابتدأتِ المجزرةُ الكُبْرَى فعلاً بتاريخِ 24 أبريل 1915م. ففِي ذلك اليومِ المشهودِ اعتَقَلَتْ السلطاتُ التُّرْكِيَّةُ ستَّمئةِ زعيمٍ أرْمنِيّ في اسطنبول، وَصَفَّتْهُمْ جَسَدِيًّا عن بكرةِ ابيهم! وسرَّحَت كلَّ الجنودِ الموجودين في الجيشِ التُّرْكِيّ من أصلٍ أرمنِيّ ثم أرْسِلُوا إلى الاعمالِ الشاقَّة وقُتِلُوا هناك."

"ثمَّ تلقَّى الارمن العائشون في منطقةِ أناضول الشرقيَّةِ إنذارًا بمغادَرَةِ منازلِهم خلالَ أربعٍ وعشرين ساعةً، وإلاَّ قُتِلُوا عن بكرَةِ أبيهم. وعندما خرجوا من قُرَاهُمْ تَمَّتْ تصفيَةُ كلِّ الرجالِ الأصحَّاءِ، وَسُمِحَ فقط للنساءِ والاطفالِ والشيوخِ بالهَرَبِ سيرًا على الأقدامِ مسافةَ مئاتِ الكيلومتراتِ دون غذاءٍ أو دواءٍ. وفي أثناءِ الطريقِ أُغْتُصِبَتْ نساؤُهُمْ ونُكِّلَ بالباقين حتى قُتِلَ معظمُهم بشكلٍ أو بآخر. وانضمَّتِ القبائلُ الْكُرْدِيَّةُ والتركمانيَّةُ إلى الجنودِ العثمانيّين من أجلِ التنكيلِ بالارمن. وخلالَ عامٍ أو أكثرَ قليلاً قُتِلَ ما لا يقلُّ عن مليون أرمني: أي نصف عددِ سُكَّانِ الأرمن العائشين في ظلِّ الامبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ.أمَّا الاتراك، فلا يعترفون بقتلِ أكثرَ مِنْ ثلاثِمِئَةِ الفِ شخصٍ، ويرفضون القولَ بأنَّ العمليَّةَ قد تَمَّت بتخطيطٍ أو سابقِ قصدٍ وإصرارٍ. ويحتجُّون قائلين: بأنَّ الاوبئَةَ انتشرتْ في فترةِ الحربِ وأدَّتْ الى موتِ الأرمن! بالطبعِ لا أحدَ يصدِّق المزاعِمَ التُّرْكِيَّة."

هكذا احتدمتِ المناقشاتُ في السنين الأخيرةِ بين تركيا وبين الدُّولِ الْمُنَاصِرَةِ للجبهةِ الأرمنيَّةِ، وتطوَّرتْ إلى حدِّ فرضِ العقوبةِ (من قِبَل هذه الدُّولِ)، على مَنْ يُنكِرْ "مذابحَ الأرمن"، ولو كان ذلك المنكر من مواطنِي الدولةِ التُّرْكِيَّةِ (أو من مواطنِي أيّ دولةٍ)، فإذا بها تحاولُ ملاحقتَهُ لِلْقَبْضِ عليه بواسطةِ الإنتربول! كما يستحيلُ أنْ يعترِفَ شخصٌ بـ"مذابحِ الأرمن" في تركيا خوفًا على نَفْسِهِ، لأنَّهُ يعلمُ بالتأكيد، أنَّهُ مُعَرَّضٌ للسحقِ والإغتيالِ بمجرَّدِ أن يقولَ "إنَّها حقيقةٌ". ويكفي اغتيالُ الصَّحَافِيّ الأرمنِيّ الأصلِ خِرَانْتِ دِينْك Khrant Dink بُرْهَانًا على وجودِ هذا الخطرِ، وعبرةً لمن تُوَسْوِسُ له نَفْسُهُ أنْ ينطقَ بهذهِ الكلمةِ الحمراء!

من جهةٍ أُخرَى؛ وليس دفاعًا عن تركيا، بل طلبًا للمعرفَةِ عن سوابقِ الدولِ القائمةِ بتصعيدِ النقاشِ حولَ "مذابحِ الأرمن"، بخاصَّةٍ منها الحكومة الفرنسية، عمَّا إذا كان من حقِّها أنْ تَتَّهِمَ تركيَا بهذه الجريمَةِ؛ من حقِّ المتسائِلِ أنْ يقولَ كما وَرَدَ في سطورٍ للكاتبِ يوسف الكويليت، يقول:

"...فأفريقيا شاهدُ إثباتٍ على مذابحَ وإباداتٍ جَمَاعِيَّةٍ ارتكبَهَا الاستعمارُ الفرنسِيُّ الذي رفضتْ كلُّ الحكوماتِ الاعترافَ بتلك الوقائعِ، ولم يكنْ المليون شهيد في الجزائر ثمنًا سهلاً للاستقلالِ، ولا آلاف القتلى في فيتنام قبل الهزيمةِ المدوية بعد موقعة «بيان – بيان – فو» التي قادها «جياب»، ولا الاعتداء على مصر في حربِ السويس لمجرَّدِ أنها ساعدتْ الجزائرَ على نيلِ حُرِّيَّتِهَا..

لو أنَّ السجِلَّ الفرنسِيَّ كان نظيفاً، وأنَّها بلد محايد وقف من النزاعاتِ الدوليةِ بعيداً، لأعطيناها الحقَّ في نقدِ وتقويمِ ما حدثَ في كلِّ العالَمِ من جرائمَ أيًّا كان نوعُها، لكنَّها في عُرفِ التاريخِ مدانة سلفاً بشواهدَ لا تستطيعُ إنكارَها."[63]

هذا، وقد بقيتْ القضيَّةُ معلَّقةً لحين تتناولها حكومةٌ مجدَّدًا، ليس دفَاعًا عن دماءِ الأرمن، بل استغلالاً كآليةٍ للاستخدامِ في مجرَّدِ اتِّهامِ الخصمِ وكسبِ المصالحِ من ورائِها، كما هي العادَةُ المتعارَفَةُ منذ القديم.

***

السُّرْيَان

السريان قومٌ من العرقِ الساميّ، يسكونون قديمًا في منطقةٍ واحدةٍ تقعُ شمالَ ميزوبوتاميا Mesopotamia **بين النهرين. تعايشوا مع المسلمين منذُ العهدِ الأمويِّ إلى آواخرِ أيَّامِ العثمانيّين، فتمتَّعوا بالحريَّةِ الدينيَّةِ ومارسوا عاداتِهم وثقافتَهُمْ عبر القرون وعمَّروا المنطقةَ التي يسكنونها. لكن تمَّ تقسيمُ هذه المنطقةِ بعد انْهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ بين تركيا وسوريا والعراق وإيران، فأصبحوا بعد ذلك أَرْبَعَ أقليَّاتٍ مُفرَّقَةٍ على أراضِي هذه الدولِ نتيجةَ تمزِيق وَطَنِهِمْ بنفسِ المؤامرَةِ**

[63] جريدة الرياض، **25** ديسمبر **2011**، العدد: **15889**

التي أَلَمَّتْ بالأكرادِ، فأسفرَ هذا الشتاتُ عن مشاكلَ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ تعرَّضوا من جرائِها لِعُدْوانٍ ونكباتٍ وويلاتٍ انصبَّتْ عليهم وأذاقتْهُمْ مرارةَ الحياةِ بِألوانٍ من القهرِ والقتلِ والتهجير...

إنَّ تقسيمَ المنطقةِ بهذا الشكلِ (وبالتحديدِ بين تركيا وسوريا والعراق) مؤامرةٌ مكشوفةٌ تُبَرْهِنُ على تعمُّدِ الدولِ الغربيَّةِ بِحِيَاكَةِ هذهِ الخُطَّةِ فورَ انهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ، وعقبَ مجزرةِ السريان، لِتَتَحَوَّلَ المنطقةُ إلى أتونٍ للفتنةِ مجددًا، فيتمكَّنَ الغربُ بهذه الذريعةِ من التسلُّلِ إلى الشرقِ الأوسطِ باستخدامِ هذه البوَّابةِ الاستراتيجيَّةِ، ليبدُوَ في الصورة: "أنَّهُ إنَّما جاءَ لنجدةِ المسيحيّين وإنقاذِهم من ظلمِ المسلمين!". وما أدراكَ ما الغربُ، فَأَعْظِمْ به نفاقًا!..

نقلَ الكاتبُ الكرديُّ إيفان محمد عن الباحثِ والمؤرِّخِ الاشوريِّ الدكتور هِرْمِزْ أبونا Dr. Hirmis Aboona **من كتابه "الآشوريُّون بعد سقوطِ نينوَى" يقول عن دور المبشِّرين في المذابح: "مبشرون أم سياسيُّون؟ لقد لَعِبَ المبشّرون خلالَ فترةٍ ما بين عامي 1831 ـ 1847م. دورًا مؤثّرًا في حياةِ الشعبِ الآشوريِّ (السريانيّ) في بلادِ ما بين النهرين، وكانوا وراءَ الكثيرِ مِمَّا حلَّ بأبناءِ هذا الشعبِ من نكباتٍ ومآسِيَ وتدميرٍ شاملٍ لِلْبِنْيَةِ العامَّةِ التي كان قد نجحَ للمحافظةِ عليها وعلى كيانِهِ القوميّ وترابِهِ الوطنيّ إلى وقتِ حضورِهِمْ إلى المنطقةِ".**

"عمل الغربيُّون كلَّ ما بِوُسْعِهِم لإنجاحِ الحملةِ التُّرْكِيَّةِ للقضاءِ على المسيحيّين من أرْمَنٍ وَآشوريّينَ ويونانَ، باعتبارِ ذلك من مستلزماتِ السيطرةِ على مستعمراتِ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ المريضةِ بعد سقوطِها."

"لقد انخدعَ الأرمنُ والآشوريُّون المسيحيُّون بالمبشّرِينَ باعتبارِهم مسيحيّينَ مثلَهم، ولم يدركوا إنَّهم جواسيسُ لا مبشّرونَ جاؤوا لخدمةِ حكوماتِهم، وتحقيقِ غاياتِهم ومصالحِهِم. لقد استطاعتْ هذه القُوَى الأوروبيَّةُ الشريرةُ أنْ تُجَنِّدَ الكثيرَ من الجواسيسِ بالوفودِ إلى هذه المنطقةِ باسمِ المبشّرين ورجالِ الدِّين. فتمكَّنتْ من أنْ تُوهِمَ القياداتِ المسيحيَّةَ بأنَّ الأتراكَ عازمون على ضربِ المسيحيّين، ونصحتْهم بحملِ السلاحِ ضدَّ تركيا. ومن جهةٍ أخرى؛ أوهمتْ السلطاتِ التُّرْكِيَّةَ ذاتَ النَّزعةِ القوميَّةِ المتعصِّبةِ بأنَّ المسيحيّين يتسلَّحون من روسيا وهم يستعدُّون لضرب تركيا من الداخلِ. الأمر الذي دفعَ تركيا إلى مطالبةِ الأرْمَنِ والآشوريّين بتسليمِ سلاحِهم فورًا. ولَمَّا امتنعوا عن ذلك أعلنتْ الجهادَ المقدَّسَ ضِدَّ المسيحيّين رعايا الدولةِ العثمانيَّةِ، وكان بوجودُ أولائك

المبشّرين في المناطقِ الكرديَّةِ وغيرِهَا أثرٌ في تعميقِ الخلافاتِ بين سُكَّانِهَا المسلمين والمسيحيّين. وقد تسبَّبَ ذلك إلى انفجارِ صراعاتٍ وحدوثِ مذابحَ بينهم في أماكنَ عديدةٍ، حيث بدأ يُحَرِّضُ المبشّرون الآشوريّين بمختلفِ الأساليبِ ضِدَّ المسلمين، ويؤلّبُونَهم ضِدَّ بعضِهم البعضِ، لذلك أضحَى الآشوريُّون قبلَ الحربِ العالميَّةِ الأولَى منقسمِين إلى عِدَّةِ مذاهبَ دينيَّةٍ يقودها أناسٌ يُنَفِّذُونَ إرادةَ المبشِّرين. وقد وصلَ تدخُّلُ الإرساليات الدينيَّةِ الأجنبيَّةِ في شؤون الآشوريّين إلى حدِّ الاشتراكِ في عمليَّةِ اختيارِ البطاركةِ!"[64]

وفعلاً ضاقتِ الدنيا بالسريان، بعد تقسيمِ المنطقةِ، فَفَرَّتْ جماعاتٌ منهم كُلَّمَا مكَّنتْهمُ الفرصةُ مهاجرين إلى الولاياتِ المتحدةِ، ودولِ أوروبا، بخاصَّةٍ إلى السويد، وألمانيا، حيث أقاموا بها. لكنَّهم إنْ كانوا قد فَرُّوا من عدوٍّ فقد وقعوا في أحضانِ أعداءٍ سوف تقومُ بِصَهْرِهِمْ في بوتقتِها مع الزمان من حيث لا يشعرون، كما أنَّ البقيَّةَ الذين أصرُّوا على الإقامةِ في وطنِهم (بخاصَّةٍ الذين ما زالوا يُقيمون في تركيا)، غيرُ آمنين على مستقبلِهِمْ؛ يُنْبِئُ عن هذهِ الحقيقةِ ما يَلْمَحُهُ الناظرُ في وجوهِهم من علاماتِ الكبتِ والذُّعْرِ والخيبةِ، بالإضافةِ إلى عددِ المهاجرين الذي يفوق على عدد المقيمين منهم في الوطن الأم.. هذا، على رغم رياح التغيير التي هبَّتْ مع بدايَةِ حُكْمِ حزبِ العدالةِ والتنميَةِ، وبدَّلتْ الكثيرَ من المفاهيمِ عند الشعب التُّرْكِيّ.

تُطْلَقُ على السريانِ صفتان أُخْرَيَانِ، وهما: "الآشور"، و"الكلدان"، وهم طوائفُ متقارِبَةٌ في اللُّغةِ والعقيدة. يُقْصَدُ بهاتين الصفتين تلك الجماعةُ العرقيَّةُ الساميَّةُ التي تتكلَّمُ طائفةٌ منها باللُّغةِ السريانيَّةِ (القاطنين بِمَدِينَتَيْ ماردين ومِدْيَاتَ وجوارِها في تركيا)، وطائفةٌ منها تتكلَّمُ بالآرامِيَّةِ (في مَعْلُولاَ بسوريا)، وطائفةٌ منها تتكلَّمُ بِالْكَلْدَانِيَّةِ (في العراقِ، بمدينةِ بغداد والموصلِ، وَقُرَى سَهْلِ نِينُوَا، ومناطقَ أخرَى بأقليمِ كُرْدِسْتَانِ الْعِرَاق)، وطائفةٌ منها تتكلَّمُ بالكُرْدِيَّةِ (وهي الموزَّعَةُ في المناطقِ الجبليَّةِ بين الْهَكَّارِيَّةِ وَأَسْعِرْدَ وَشَرْنَخَ بجنوبِ شرقِي تركيا).

والسريان من أقدمِ الطوائفِ الساميَّةِ التي اعتنقتِ المسيحيَّةَ، إلاَّ أنَّ الانقساماتِ الكنسيَّةَ فَرَّقَتْهُمْ إلى شرقيّين (وهم آشوريُّون وَكَلْدَانُ) وغربيّين (وهم السُرْيَانُ) كما حدثتْ اختلافاتٌ لغويَّةٌ بينهم.

[64] الحوار المتمدن–العدد: 1535 – 2006 / 4 / 29 http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=63388

لقد ساهمَ السريانُ في ازدهارِ الحضارةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ أيَّامَ الحُكمِ العباسِيّ، وَلِعُلَمَائِهِمْ دورٌ كبيرٌ في ترجمةِ المصادرِ والمعارِفِ السُّرْيَانِيَّةِ والآرامِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَالفَارِسِيَّةِ إلى العربيَّةِ. كانت لهم نحو خمسين مدرسةً في بلادِ ما بين النهرين في القرونِ الوسطَى. وكانتْ لهذه المدارسِ مكتباتٌ مكتظَّةٌ بالكتبِ المترجَمَةِ في الدِّينِ والفلسفةِ والطِّبِّ والفلكِ... تمَّ نقلُهَا من لغاتٍ مختلفةٍ أكثرُها من اليونانِيَّةِ بجهودِ علماء السريان. مثل: حُنَيْنِ بْنِ اسْحاقَ، وابنِهِ اسحاقَ بْنِ حُنَيْنٍ، وحبيبِ أبي رائطةَ التكريِتِي، وعيسى بْنِ شهلانا، وتاوفيلَ بْنِ تومَا، ويوحنَّا بْنِ ماسوَيْه، ويوحنَّا بْنِ البطريقِ، وإسطيفانَ بْنِ باسِيل، وعبدِ المسيحِ بْنِ عبدِ اللهِ الحمصِيّ، وإبراهيمَ بْنِ باكوسَ، وآلِ بختيشوع، وغيرهم كثيرون.

غير أنَّ المجازِرَ التي ذهبتْ جماعاتٌ غفيرةٌ منهم ضَحِيَّتَهَا ابتداءًا بِجناياتِ جيوش المغول أيَّامَ حُكْمِ تَيْمُورْلَنْك في القرنِ الرابع عشر، مرورًا بالأعمالِ القمعيَّةِ التي قامَ بها بَدِرْخَانْ بَاشَا أميرُ كردستان ما بين أعوام: **1843–1846**م. أدَّتْ إلى تناقُصِ أعدادِ السُّرْيان في المنطقةِ، كما تقلَّصَ عددُهم إلى نصفِ مجموعِهم اليومَ، بعد المذابحِ التي تعرَّضُوا لها قُبَيلَ الحرب العالميَّةِ الأولى.

***

- اليزيديَّة:

اليزيديَّةُ: طائفةٌ دينيَّةٌ قليلةُ العددِ في تركيا، أكثرُهم في العراق. لهم عقائِدُ مضطرِبَةٌ غامضةٌ لا يُسَوِّغُهُ تعريفٌ لِيُوصَفَ بديانةٍ. كَثُرَ حولَهَا لَغَطٌ ونقاشٌ، ولم يَحسِمِ الخلافُ بين الباحثين في أصلِ هذه الجماعةِ ومعتقداتِها بعدُ.

عددٌ مِنَ الباحثين تناولوا اليزيديَّةَ منذ فترةٍ قريبةٍ مثل أحمد تيمور، وعباس العزاوي، وصديق الدملوجي، وهوشنك بروكا... ولعلَّ ما ورد على لسانِ الدكتور غالبِ العواجِي من التعريفِ باليزيديَّةِ أقربُ إلى الصواب.

يقول العواجِيُّ في مقالةٍ له حول هذه الطائفة: "اليزيديَّةُ: فرقةٌ مُنحرفةٌ نشأتْ سنة **132**هـ إثر انْهِيارِ الدولةِ الأمويَّةِ. كانت في بدايتِها حركةً سياسيةً لإعادةِ مجدِ بَنِي أُمَيَّةَ، ولكنَّ الظروفَ البيئيَّةَ وعواملَ الجهلِ انحرفتْ بها فأوصلتْها إلى تقديس يزيدِ بْنِ معاويَةَ، وإبليسَ الذي يُطلقونَ عليهِ اسمَ (طَاوُوسْ مَلَكْ) وعزازيل. وعندما انْهارت الدولةُ الأمويَّةُ في معركةِ الزَّابِ الكُبرى شمالَ العراقِ، هَرَبَ الأميرُ

إبراهيمُ بْنُ حربِ بْنِ خالدِ بْنِ يزيدٍ إلى شَمالِ العراقِ وجَمَعَ فلولَ الأمويّين داعيًا إلى أحقيَّةِ يزيدٍ في الخلافةِ والولايَةِ، وأنَّهُ السُّفْيانِيُّ الْمُنْتَظَرُ الذي سيعودُ إلى الأرضِ ليملأَهَا عدلاً كما مُلِئَتْ جَوْرًا."[65]

أمَّا بالنسبةِ لعددِ اليزيديّين، فبحسبِ البحوثِ التي أجراها الصحافِيُّ التُّرْكِيُّ المعروفُ بدراساتِهِ حولَ هذهِ الفرقةِ، بكر مراد أوزدمير Bekir Murat Özdemir، يزعمُ في مقالةٍ له: أنَّ اليزيديّين المتمتّعينَ بالْمُوَاطَنَةِ التُّرْكِيَّةِ يتراوحُ عددُهم ما بين ستّين إلى سبعين ألفَ نسمةٍ، يقطنون بضواحي بعضِ الْمُدُنِ الواقعةِ في جنوبِ شرقِي تركيا، وهذه المدنُ هي: أَسْعِرْد، وَبَطْمَان، وَعَيْنْتَابْ، وَأُورْفَا (الرَّهَا، قَدِيمًا)[66].

اليزيديُّون طائفةٌ مجهولةٌ في تركيا. عشراتُ الملايينِ من سُكَّانِ تركيا لا يعلمون شيئًا عن هذه الفرقةِ، بل لم يقرعْ سَمْعَهُمْ اسْمُ اليزيديَّةِ. ورغم أنَّ سُكَّانَ المناطقِ المجاورةِ هُمْ على عِلْمٍ بوجودِ هذهِ الجماعةِ، إلاَّ أن كثيرًا مهنم لم يلتقوا بيزيديٍّ واحدٍ في حياتِهم. يبدو أنَّ غِيَابَهُمْ عن الأنظارِ، وقلَّةَ المعرفةِ عن حياتِهم الإجتماعيَّةِ يعودُ إلى أسبابٍ عديدةٍ، أهمُّها: قلَّةُ عددِهم، وَوُعُورَةُ المنطقةِ الَّتي يسكونونَهَا، والغموضُ الَّذي تتوارَى به ديانتُهُمْ ومعتقداتُهُمْ، وانطواؤُهم على انفسهم، لأنَّهم جماعةٌ معزولةٌ عن المجتمعِ، وكتوميَّتُهُم الشديدةُ وامتناعُهُم عن الإدلاءِ بأدنَى شيءٍ عن ديانتِهم؛ كذلك معتقداتُهُمُ الخرافيَّةُ المتطرِّفَةُ التي تتناقضُ مع معتقداتِ جميعِ فصائلِ المجتمعِ، لها أثرٌ كبيرٌ في كراهيَّةِ الناسِ لهم. لأنَّهم يعبدون الشيطانَ، ولا يتطهَّرون بعد قضاءِ الحاجةِ بحسبِ رواياتِ بعضِ الباحثين؛ وأبعد من ذلك: أنَّهم كانوا إلى الماضِي القريبِ يُحَرِّمُونَ القراءةَ والكتابَةَ، فأدَّى ذلك إلى انتشارِ الجهلِ فيهم، فتدهورتْ من جرائِها أحوالُهُمْ وحياتُهُمْ. فأصبحوا بذلك مبغوضين من القديمِ ومجهولِين، يكرهُهُمْ المجتَمَعُ الْمُسْلُمَان. ولربما لِبَعْضِ هذه الأسبابِ تعرَّضوا للإهمالِ والتهميشِ والتهكُّمِ، وقد تعرَّضُوا للإبادةِ الجماعيَّةِ في بعضِ الفترات.

---

[65] اعتمد المؤلف في بحثه هذا على ستة عشر مصدرًا. والبحث منشور على موقع صيد الفوائد، وهذا رابطه:
http://www.saaid.net/feraq/mthahb/32.htm

[66] «Yezidiler üzerinde araştırmalariyla tanınan Gazeteci-yazar B. Murat Öztemir'e göre ise günümüzde Siirt, Batman, Mardin ve Şanlıurfa'da yogunlaşan ve ülkemizde 60-70 bin kişiyi bulan Yezidiler, Irakta 400 bin, Suriye'de 200 bin, Azerbaycan'da 80 bin, Avrupa ülkelerinde ise 125-150 bin kişi olarak toplam 750 bin kişi kadardırlar.»
http://www.midyat.net/yezidiler.html

تزعم الكاتِبَةُ أوِينْ تشِيشَكْ Evin Çiçek، أنَّ عددَ الضحايا من اليزيديّين العُزَّلِ الذين قُتِلُوا في أواخرِ العهدِ العثمانِيّ وبالتحديد سنة 1832م. على يد قواتِ بَدِرْخَانْ بَكْ (أميرِ كُرْدِسْتَانَ) بَلَغَ 120 000 قتيلاً.

اليزيديُّون يتكلَّمون باللُّغةِ الْكُرْدِيَّةِ ولكنَّهم يرفضون صِلَتَهُمْ العرقيَّةَ بالأكرادِ، ولعلَّ ذلك ناشئٌ من كراهيَّتهم للإسلامِ والمسلمين، لأنَّ الأكرَادَ معروفون بانتمائِهِمْ لديانةٍ مُخْتَزَلَةٍ عن الإسلام، وهي (الْمُسْلُمَانِيَّةُ).

***

- **المتحرِّرُون (الْمُلْحِدُون):**

المتحرِّرُ مِنَ الدِّينِ: مَنْ لا يؤمنُ بخالقٍ مُبْدِعٍ لِهذا الكونِ. يُطلَقُ عليه صفةُ الْمُلْحِدِ في المصطلحِ الإسلامِيّ. وقد يُطلقُ عليهِ صفةُ الدَّهْرِيّ.

الإنسانُ الْمُلْحِدُ، يخلو ضميرُهُ من اليقينِ بصانعٍ لهذهِ الكائناتِ، وقد يجاهرُ بما في ضميرِهِ فيقول: لا صانعَ للعالَمِ، وأنَّ المادَّةَ أزليَّةٌ أبديَّةٌ، وهي الخالقُ والمخلوقُ في الوقتِ ذاتِهِ. وأنَّ هذه الأشياءَ وُجِدَتْ بصورةٍ تلقائيَّةٍ أو بسببٍ مَّا، أو بغيرِ سبب... والقرآنُ الكريمُ ينقلُ لنا من اعتراضات الْمُلْحِدِينَ الأوائلِ: "وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ"(الأنعام/29). "إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ"(المؤمنون/37). "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ..."(الجاثية/24).

الإلحادُ (في مقابلةِ التديُّنِ القاسِي وبالمساواةِ مَعَهُ) فكرةٌ قديمةٌ متطرِّفَةٌ ناشئةٌ مِنْ عُقْمِ العقلِ وشُحِّ الفكرِ وقِصَرِ النظرِ، يدافعُ عنها الملاحِدَةُ بأنَّ الإيمانَ بخالقٍ وَهْمٌ دَخَلَ قديمًا في رُوعِ الإنسانِ بسببِ الخوفِ من الْحُكَّامِ أو مِنْ هَوْلِ قُوَى الطبيعةِ التي كانت تَفْتَكُ بالإنسانِ من زلازلَ وبراكينَ وأوبئةٍ وحرائقَ وفيضاناتٍ وأعاصيرَ ونحوِها... والْمُلْحِدُونَ كانوا ولا يزالون يَتَفَلْسَفُونَ بحججٍ واهيةٍ دَحَضَهَا حتى المناطقةُ وَالكلاميُّونَ، فضلاً عَمَّنْ أبطلها مِنْ أصلِهَا مِنْ علماءِ الإسلامِ.. مُؤَلَّفَاتُهُمْ حافلةٌ بصنوفِ البراهينِ التي أفحموا بها صناديدَ الْمُلْحِدِين، وتركوهم في عجزٍ شنيعٍ حتَّى عن الإجابةِ على كونِ المادَّةِ أكانتْ ساكنةً في البدايةِ أم متحرِّكةً؛ وإذا كانتْ ساكنةً كيف استطاعتْ أن تَتَحَرَّكَ بدون أيِّ مُحَرِّكٍ؟..

***

كان المجتمعُ التركِيُّ قابعًا على أرضِ أناضولَ عَبْرَ القرونِ، لم يحفلْ بحدثٍ يجرِي خارجَ وَطَنِهِ، وما كان يهمُّهُ جدلُ الفلاَسِفَةِ والكلاميِّين، ولا مُسَاجَلاَتُ العلماءِ، ولا نزاعُ الفقهاءِ، ولا اختلافُ المجتهدين، ولا حركاتُ التبشير... كان الأتراك ومَنْ تابعَهم من الأكرادِ والأقَلِّيَّاتِ الْمُسْلُمَان، يرون جميعَ الناسِ منقسمين على فئتين: مُسْلُمَانَ، وَكُفَّارٍ فحسب.. ولا يعلمون شيئًا عن الْمِلَلِ والنِّحَلِ والأديانِ والمذاهبِ، ولاَ عنِ الْمُرُوقِ والرِّدَّةِ، والنفاقِ والزَّنْدَقَةِ (لأنَّ الزَّنَادِقَةَ على كثرتِهم كانوا في عدادِ المجتمع الْمُسْلُمَان مندمجين فيه. لا يستغرِبُهُمْ الناسُ ولا يَتَحَرَّجُونَ من شذوذيَّاتِهِمْ "ما داموا يتكلَّمون باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ"؛ بل يَعدُّون الكثيرين منهم من أولياء الله!)، هذه العقليَّةُ دامتْ إلى أواخرِ العهدِ العثمانِيِّ وبلغتْ إلى حدٍّ لَمَّا شاع "أنَّ هناك جمعيَّةٌ اسمُها (الماسونيَّةُ) أفرادُها لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر!" – على حدِّ قولِ مَنْ نقل الخبر–، فاندهشَ الناسُ وصُدِمُوا لهذا النبأ في الوهلةِ الأُولَى، ولم يكدْ أحدٌ يصدِّقُ ما يسمعُ، حتَّى بدؤوا يألفون الواقعَ وأنَّه ليس من المستحيلِ أن يحلَّ الشخصُ رِبقةَ الإسلامِ من عُنُقِهِ!

فلمَّا نزلتْ "العلمانيَّةُ" و"الديمقراطيَّةُ" إلى الشارعِ، أخذتِ الإلفةُ تزدادُ بِالْمُرُوقِ والرِّدَّةِ، ولم تتمخَّضْ عن هذه التيَّارات مشكلةٌ اجتماعيَّةٌ طالما كان المجتمعُ معتادًا على أشكالٍ من الإشراكِ بالله المتمثِّلِ في الشَّطَحِ الصوفِيِّ والقبوريَّةِ وتقديسِ الشيوخِ وتاليهِ السلاطين ونحوِها..

إنَّ أسبابَ انتشارِ الإلحادِ في تركيا بخاصَّةٍ، ترتبطُ في الْمُقَامِ الأوَّلِ بتعاليم مصطفى كمالِ الْمُنْبَثِقَةِ مِنْ نظريَّاتِهِ الجحوديَّةِ وهي مسجَّلةٌ في ثنايا مذكِّراتِهِ. ولَمَّا كانت الدِّيَانَةُ المتمثِّلَةُ في (الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ) قاصرةً على الفكر الصوفِيِّ الباطنِيِّ خاليةً عن تفسيرِ قوانينِ الفطرةِ والآياتِ الكونيَّةِ، وإيجادِ حلولٍ لأَزَمَاتِ الحياةِ وقضايا الإنسان المعاصر... (لأنَّها ديانةٌ محرَّفةٌ عن الإسلامِ ومشحونَةٌ بالخرافيَّاتِ والبِدَعِ والأساطير، والمذهبيَّةِ، والطرائِقِ الصوفيَّةِ)، وَجَدَ المجتمعُ نَفْسَه في فراغٍ أمامَ الأحداثِ والتطوُّرَاتِ التي تدفَّقتْ عليهِ من الغربِ الذي كان قد حلَّ ربقةَ المسيحيَّةِ من عُنُقِهِ وكَبَّلَهَا في الكنيسةِ بعد أن انتبَهَ إلى هشاشتِهَا وهَوَانِهَا وتَفَسُّخِهَا، فأصبح الْمُتَثَقِّفُونَ الأتراك والمتعلِّمون منهم حيارى بين هذه الديانةِ المشوَّهةِ وبين القواعدِ العلميَّةِ وهم تحتَ ضغطِ الدعاياتِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ والتَّيَّاراتِ الفلسفيَّةِ المتوافِدَةِ من الغرب..فَانبهروا بما ظهرَ في أوروبا من التقدُّمِ والرُّقِيِّ والإزدهارِ، وانهزموا أما الحضارة الغربيَّةِ، فلم يسعْهم إلاَّ أن يقلِّدُوا الغربيِّين تقليدًا أعمَى ليجبروا النقصَ الذي أحسُّوا به في نفوسِهم. وحينما رأوا ما هُمْ عليه من الضعفِ والاستخذاءِ أمامَ الغربيِّين،

أَلْقَوْا باللَّومِ على الإسلامِ فأدَّى ذالك إلى كراهيَّتهم للدِّينِ وتنصُّلِهِمْ عنه. فبدأ الإلحادُ ينتشرُ بفعلِهِمْ ومحاولاتِهِمْ في صفوفِ الناشئةِ. كما كان للنظامِ الرأسماليِّ أيضًا أثرٌ بالغٌ في انتشارِ الإلحادِ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ، لِمَا فيهِ من إشعالِ حُبِّ الأنانيَّةِ والبَطَرِ والغطرسَةِ والجَشَعِ المادِّيِّ في النفوسِ، وإثارةِ الصراعِ الطبقِيِّ الإجتماعِيِّ مِمَّا دفعَ بملايين العمالِ والكادحين إلى مهاوِي الشَّكِّ واليأسِ من الإسلامِ، فلجئوا إلى الإلحادِ كوسيلةٍ يُنقذون بها أنفسَهُمْ من أسْرِ الطبقةِ الثريَّةِ التي تستغلُّ عَرَقَ جبينِهِمْ بِالقهرِ وتمتَصُّ دماءَهم. وكان للأحوالِ الاقتصاديَّةِ التي مرَّتْ بها تركيا في العقدِ السابعِ من القرن العشرين خاصَّةً، كان لها أيضًا أثرٌ في تَقَبُّلِ الإلحادِ بين قطاعٍ واسعٍ من العمَّالِ والطبقةِ المهمَّشَةِ.

وَرَدَ في دراسةٍ لمؤسَّسةِ جالوب الدوليَّةِ الشهيرةِ باستطلاعاتِها؛ أنَّ نسبةَ الْملحدين في تركيا **2%**، ويعني ذلك: أنَّ الملحدين يبلغُ عددهم **1،5** مليون من أصلِ **70** مليون مواطن. وقد لا يبدو ذلك مُلْفِتًا رغم كثرةِ دوافعِ الإلحادِ في هذا البلدِ خاصَّةً إذا قارَنَّا هذه النسبةَ الطفيفةَ بنسبةِ الملحدين في المنطقةِ الوهَّابيَّةِ، وهي: **5%** بحسبِ استطلاعاتِ المؤسَّسَةِ ذاتِها، وذلك رغم كونِ البقاعِ المقدسةِ في هذه المنطقةِ مع ما فيها من مشاهدِ التعبُّدِ الجماعِيِّ واستعراضِ المناسكِ في صُوَرٍ جذَّابَةٍ تهزُّ النفوس، وهي مقصدُ ملايينِ المسلمين في كلِّ عامٍ يأتون من كلِّ فجٍّ عميق.. وهذا، فيه عبرةٌ تدعو إلى التأمُّلِ بِعُمْقٍ في أنواعِ دوافعِ الإلحادِ من بلدٍ لآخر!

وإذا كانتْ نسبةُ الإلحادِ قليلةً في المجتمعِ التركيِّ فإنَّ نسبةَ الإشراكِ عاليةٌ فيه جدًّا. ومادامَ الإلحادُ والإشراكُ قسمانِ من أقسام الكفر[67]، فلا عبرةَ إذنْ بقلَّةِ الملحدين في تركيا، طالما كانتِ الوثنيَّةُ منتشِرَةً بين الأتراكِ من قديمِ الزمان.

كذلك من أهمِّ الأسبابِ التي أثارتْ نزعةَ الإلحادِ في نفوسِ المثقَّفين بخاصَّةٍ الذين غمرتْهم أجواءٌ مفعمةٌ بالتياراتِ المضادَّةِ للدِّين بِحُكْمِ السياسَةِ العلمانيَّةِ منذ بدايَةِ العهدِ الجمهورِيِّ إلى نهايَةِ السبعينيَّاتِ من القرنِ العشرين، حيث فُرِضتْ في هذهِ المرحلةِ على عشراتِ الملايين من الطَّلَبَةِ برامجُ تعليميَّةٌ عقلانيَّةٌ صِرْفَةٌ تستهدِفُ العقائدَ الدينيَّةَ بالسخريَّةِ والتهكُّمِ والتشنيعِ في كلِّ مناسبةٍ، وتُشجِّعُ الناشئةَ على مكافحةِ الدِّينِ بـ"أنَّهُ أكبرُ دافعٍ لِنشوبِ النِّزاعِ والحروبِ بين أبناءِ البشرِ، وأنَّهُ

---

[67] أقسام الكفر خمسة: **1**) النفاق، **2**) الإشراك، **3**) الإلحاد، **4**) الردة، **5**) الزندقة. لكل قسم من هذه الأقسام أشكالٌ وتفاصيل مشروحة في مصادر العقيدة الإسلامية.

المصدرُ الأساسِيُّ للرجعيَّةِ والتخلُّفِ والفقرِ والمسكنةِ والعجزِ عن مواكبةِ تطوراتِ العصرِ، وأنَّهُ أعظمُ مانعٍ للتقدُّمِ والإزدهارِ والحياةِ السعيدة..."

لقد كان عددٌ غيرُ قليلٍ من الملاحدةِ يتبوَّؤون مناصبَ عالِيَةً في الدولةِ التُّرْكِيَّةِ منذ عهدِ مصطفى كمال، يتأسَّى بهم جماهيرُ غفيرةٌ من اليساريّين والعلويّين ممَّا ساعدَ على انتشارِ الإلحادِ في تركيا على مدى سبعين عامًا. وهكذا كانتْ الحركةُ الإلحاديَّةُ في ازديادٍ منذ تأسيسِ الدولةِ إلى أنْ نهضتْ فئةٌ من الاسلامَوِيّين (بقيادةِ رجب طيب أردوغان) تدافعُ عن "الحرّيَّةِ المُثْلَى: "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ". فاجتمعوا تحتَ مظلَّةٍ سياسيَّةٍ سمَّوْهَا حزبَ العدالةِ والتنمية، ونجحوا في الوثوب على السُّلْطَةِ حيث ساعدَهم الضعفُ الذي سادَ على التجمُّعات الأَتَاتُورْكِيَّةِ في الآونة الأخيرةِ وقد بَدَتْ علاماتُ الشيخوخةِ على النظامِ الكماليِّ، فتوقَّفتْ الحركةُ الإلحادِيَّةُ في البلاد. أمّا الإشراكُ التقليدِيُّ المتمثّلُ في الوثنيَّةِ الصوفيَّةِ، والشعوذةِ، والقبوريَّةِ[68]، وتأليهِ السلاطينِ، فمنتشرٌ للغاية.

---

[68] إنَّ فكرةَ القبوريَّةِ وما يتمحور حولَه من عاداتٍ وطقوسٍ ومعتقداتٍ، كلّها ناشئٌ اصلاً من سببٍ واحدٍ؛ ألاَ وهو القلقُ الذي ينتابُ الإنسانَ حينَ يفكّرُ أنَّهُ سوف يذوقُ مرارةَ الموتِ، وأنَّهُ المواجهةُ الأخيرةُ مع المجهولِ. ثم إنَّ هذا القلقَ يختلفُ من إنسانٍ لآخر، فقد يكون ذلك عند شخصٍ مجرَّدَ إحساسٍ عابرٍ لا يُشغِلُ بالَه إلاَّ لدَى مفاجئتِهِ بجنازةٍ فحسب، بينما يعتري هذا الخوفُ شخصًا آخرَ على مستوَى الهَلَعِ، وهذه – ممَّا لا ريبَ فيه– حالةٌ مرضِيَّةٌ خطيرةٌ يحملُ الإنسانَ السطحِيَّ الساذجَ على الإستغاثة "بمن يُنجدُهُ ويُنقِذُهُ من العذاب، ويكفُلُ نجاتَهُ من نوائب الدهر بخاصَّةٍ من أهوالِ بعد الموتِ".

هذا، ولا شكَّ في أنَّ أيَّما فردٍ من أفرادِ البشرِ لا بدَّ يشعرُ في أعماقِ باطِنِهِ بهواجسِ الخوفِ كلَّما يفكّر في لحظتِهِ الأخيرةِ من هذه الدنيا. أمَّا الإنسانُ المؤمن، فإنَّهُ يخافُ من الموتِ لأنَّهُ لا يدري ما سوف يحلُّ به؛ أَيُعَذَّبُ في نارِ جهنَّمَ أم ينال المغفرةَ ويدخل الجنَّةَ خالِدًا فيها؟ كذلك الإنسانُ الْمُلْحِدُ يخافُ الموتَ لأنَّهُ مهما كان يكفرُ بحياةِ الآخرةِ وما يُقَالُ عنها من عذابٍ ونعيمٍ، إلاَّ أنَّهُ عندما يُلاحِظُ ظُلمةَ القبرِ وما يحلُّ بجثمانه من تفسُّخٍ واستحالاَتٍ، تحتَ هجماتِ أنواع الحشرات والهوامّ وهو مغمورٌ بجوٍ من العفونَةِ يتفتَّتُ جسمُهُ فيه ويتناثر أعضاؤُهُ إربًا إربًا..

فقد اختلقَ المجتمعُ التركِيُّ – قديمًا ومن منطلقِ الإيمانِ بحياة الآخرةِ – اختلقَ هذا الوسيطَ (الآنفَ الذكرِ) الذي يتمثَّلُ في ميّتٍ عليه قُبَّةٌ، أو قبرٍ مُسَيَّجٍ بشبكةٍ حديديَّةٍ ملوَّنةٍ بالدهان الأخضر. "فكلُّ ضريحٍ من هذا القبيلِ كفيلٌ بحمايةِ الإنسانِ الْمُسْلُمَانِ التُّرْكِيّ المتدين؛ كفيلٌ بحمايتِهِ من أشكالِ العذابِ في نارِ جهنَّمَ، كفيلٌ بإدخالِهِ إلى جنَّاتِ الفردوسِ؛ كذلك كفيلٌ بفتحِ أبوابِ السعادةِ والهناءِ عليهِ في دار الدنيا". وهذه العقيدةُ هي القبويةُ.

فالقبوريّةُ دينٌ قديمٌ، قِدَمَ الإنسانِ، متضافرٌ من معتقداتِ أقوامٍ خلتْ ومن رسوباتِ دياناتِهم وعاداتِهم؛ مزخرفةٌ بطقوسٍ وأدعيةٍ وأذكارٍ أكثرها مختطفةٌ من تعاليم الإسلامِ ومحرَّفَةٌ من أصلِها. فمثلاً: يتقرَّبُ الإنسانُ القبورِيُّ إلى معبودِهِ المقبورِ بهذه الأدعيةِ والأذكارِ، وبالقرابين، وبِأشكالٍ غريبةٍ من الشعوذةِ.. لأنَّ معبودَهُ (في اعتقادِهِ) "مقرَّبٌ عند اللهِ!"، فالتقرُّبُ إلى الله من تعاليمِ الإسلامِ، لكن وفقَ ما وردَ في الكتابِ والسنَّةِ من الأعمالِ الصالحةِ، وليس بطريق الوثنيَّةِ والعاداتِ الجاهليَّةِ. إلاَّ أن الإنسانَ القبورِيَّ لا يهمُّهُ مِنْ أين جاءتْ هذه الرتبةُ المقدَّسةُ لصاحبِ الضريحِ أبدًا، كما لا يفكّرُ في العلاقةِ الممتدَّةِ بين هذا الضريح وبين تعاليمِ الإسلامِ، من الذي أقامَها ولأيِّ سببٍ؟ وما الذِي يحملُهُ على قراءةِ القرآنِ وترديدِ الأذكارِ والصلواتِ عند هذا الضريحِ، ورفعِ الدعاءِ إليه! لا يفكّرُ أبدًا فيما إذا كانَ هو يملكُ أدنَى دليلٍ من الكتابِ والسنَّةِ يُثبِتُ شرعيَّةَ هذه الطقوسِ والتصرفاتِ...

لماذا؟

لأنَّهُ مريضٌ لاشكَّ، وجاهلٌ بمرضِ نفسِهِ في الوقتِ ذاتِهِ، يملأُ الخوفُ قلْبَهُ بل كيانَه، يخافُ من الموتِ فيريدُ أنْ يستنجدَ بوسيطٍ يؤنِسُهُ في ظلمَةِ القبرِ، ويحمِيهِ من عذابِ الجحيمِ. نعم، إنَّ الخوفَ من الموتِ حالةٌ مرضِيَّةٌ منتشرَةٌ بينَّ "السُّنّيانِيّينَ" الأتراكِ بحيث لا يكادُ فردٌ منهم يخلو قلبُهُ من هذا الخوفِ. إنَّما هذا الشعورُ الخطيرُ – ما دون الوعي – والراسخُ في كيانِ الإنسانِ القبورِيّ هو الدافعُ الأساسِيُّ الذي جعلهُ أسيرًا للأضرحةِ، يزورها باستمرارٍ، خاصَّةً في أيامِ رمضانَ وليالِي الجمعةِ (بينما حرمَةُ شهرِ رمضانَ وليلةِ الجمعةِ والقيامِ فيها أيضًا من تعاليمِ الإسلامِ وليس من عادات الجاهليَّةِ)، ورغم هذا التناقضِ، يرفع القبورِيُّ إلى معبودِهِ

الأَسْبَابُ الَّتِي تُقَلِّصُ الْحُرِّيَّةَ الدينيَّةَ لِلْمُوَاطِنِ وَتُهَدِّدُ الإِسْلاَمَ عَلَى السَّاحَةِ التُّرْكِيَّةِ

يمكنُ تحديدُ الأسبابِ الَّتِي تُقَلِّصُ حريَّةَ الإنسانِ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ حصرًا في ذكرِ عددٍ من التَّيَّاراتِ الْهَدَّامَةِ، وهي:

- **العلمانيَّةُ**
- **الأيديولوجيةُ الأتاتوركيةُ**
- **التَّيَّارُ الصوفِيُّ (النَّقْشَبَنْدِيُّ)**
- **الحركةُ النُّورْسِيَّةُ** Nurculuk (**جماعة النور** Nur Cemaati)
- **تَنْظِيمُ "الْحَشَّاشِينَ الْجُدُد** the neo-assassin association"
- **التَّيَّارُ الخارجِيُّ التَّكْفِيرِيُّ**
- **التيارُ الْعَصَبِيُّ الطَّائفيُّ**
- **الْمُنَظَّمَاتُ وَالْمُؤَسَّسَاتُ والتيَّاراتُ الْيَمِينِيَّة**
- **التَّيَّارُ اليَسَارِيُّ**
- **محاولاتُ تحريفِ الحقائقِ التاريخيَّةِ.**
- **الدَّولةُ السِّرِّيَّةُ (أو الدَّولةُ العَمِيقَةُ)**

***

1) العِلْمَانِيَّةُ (اللاَّدِينِيَّةُ):

تركيا تَعْكِسُ صورةً بَرَّاقةً في المرحلةِ الأخيرةِ مع بدايَةِ القرنِ الحادِي والعشرين الميلادِيّ، تُمَثِّلُ صورةَ البلدِ الثريّ الناجحِ الَّذِي يعيشُ على أرضِها شعبٌ سعيدٌ محظوظٌ يتقلَّبُ في النعيمِ ويتذوَّقُ حلاوةَ الرفاهيَّةِ والهناء. إلاَّ أنَّ هذه الصورةَ عابرةٌ في الحقيقةِ خادعةٌ، جاءتْ بها ظروفٌ مرحليَّةٌ لا يُستبعَدُ أنْ تزولَ بغتةً وتختفِيَ من غيرِ رجعةٍ!

حاجتَهُ في هذه الأوقاتِ المباركَةِ وهو خاشعٌ متضرّعٌ ومتذَلِّلٌ، دون أن يفكِّرَ في أنَّ هذه الأضرحةَ كلَّها لا تحوي إلاَّ رُكامًا من العظامِ النَّخِرَةِ وهي آيلةٌ في النهايَةِ إلى الخرابِ يومًا مَّا ولو بعدَ قرونٍ، وليستْ الهيمنةُ إلاَّ للهِ الواحدِ القهار!

لأنَّ تركيا تعانِي مشاكلَ سياسيَّةً واجتماعيَّةً واقتصاديَّةً عويصةً منذ بدايَةِ العهدِ الجمهورِيِّ، معظمُها من امتدادِ العهودِ السالِفَةِ، فلم تتمكَّنْ من حلِّها حتَّى اليومِ، رغمَ مُضِيِّ ثمانين عامًا على قيامِها كدولةٍ ذاتِ سيادةٍ، ورغمَ جهودِها في مُوَاكَبَةِ النهوضِ مع الأممِ المتطوِّرَةِ. فلاَ شكَّ في أنَّ هناكَ عَقَبَاتٍ أمامَ جهازِ الدولةِ تُثَبِّطُهَا عن هذهِ المواكبَةِ.

لكنّهُ من الغريبِ جدًّا أنْ تصنعَ الدولةُ نفسُها عقباتٍ تُعيقُها عن مسيرتِهَا. هذا شأنُ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ الحديثة، وفِي ذالك سِرٌّ لم يُكْتَشَفْ بعدُ! ولا بدَّ منَ الإشارَةِ هنا إلى: أنَّ الدولةَ التُّرْكِيَّةَ فِي الحقيقةِ صنيعةُ أيدٍ دخيلةٍ أمتدَّتْ من الخارجِ (من منطقةِ مقدونيا بالتحديد!)، فرضتْ نفسَها على شعبٍ بكاملِهِ بعدَ أنْ قضتْ على الدولةِ العثمانيَّةِ (بدعمٍ من الغربِ)، بدأتْ تستغلُّ هذا الشعبَ في بناءِ الدولةِ الجديدةِ من جهةٍ وتسحقُّهُ من جهةٍ أخرَى لتبسطَ هيمنتَهَا على الوطنِ والمجتمَعِ إلى الأبدِ، وبشكلٍ لن يترك المجالَ لهذا الشعبِ المقهور أنْ يَصْحُوَ يومًا من الأيامِ، فَيَتَنَبَّهَ إلى حقيقةِ مَنْ يتحكَّمُ فيه. هذه الأيدِي نسجتْ سِحْرَهَا في غمرةِ الحربِ الَّتي ذهبَ ضحيَّتَهَا **300** ألف روحٍ من أبناءِ الوطنِ فِي حينٍ لم يبلغ يومئذٍ عددُ سُكَّانِ أناضولَ تسعةَ ملاين، وهم يتمعَّكون جميعًا تحتَ أنقاضِ الوطنِ المدمَّرِ، ويتشحَّطون في أنهارٍ من الدِّمَاءِ على جبهاتِ القتال، فلم تسمحْ لهم الظُّروفُ حتَّى يتأكَّدوا من هويَّةِ أصحابِهِم الجُدُدِ، أَهُمْ من أبناءِ جِلدتِهِم أم أَنَّهُمْ كانوا شِرْذِمَةً دخيلَةً من رموزِ أعدائِهم مندسّين في صفوفِهم على حين غِرَّةٍ منهم! وهذا من عجائب أَلْغَازِ التاريخ!

ثم بعد انتهاءِ الحروبِ الَّتي جرتْ على المناطقِ الشرقيَّةِ والغربيَّةِ والجنوبيَّةِ من الأراضِي التُّرْكِيَّةِ ما بين أعوام: **1912-1918**م. وبعدَ انسحابِ القوَّاتِ الأجنبيَّةِ منها، تَمَّ الإعلانُ عن قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ وفقًا للخُطَّةِ الَّتي كانتْ قد اتفقتْ عليها العصابَةُ المقدونيَّةُ (من الداخلِ) بالتنسيقِ مع الدولِ المتحالفَةِ (من الخارجِ)، فكان أَوَّلُ ما بدأتْ هذه العصابَةُ بتنفيذِهِ تحتَ اسمِ (الإصلاحاتِ)، تعديلُها للدستورِ عام **1928**م. بإلغاءِ المادَّةِ الَّتي تنصُّ على "أنَّ دينَ الدولةِ هو الإسلامُ"، فأستبدلتْهَا بمادَّةٍ تنصُّ على عَلْمَنَةِ الدولة.

قد يَرَى البعضُ أنَّه لابدَّ من تنصيصِ "إسلاميَّةِ الدولةِ" في مضمونِ الدستورِ (بخاصَّةٍ إذا كان أكثرُ مُوَاطِنِيهَا مسلمين)، ويرى البعضُ الآخرُ أنَّهُ لا حاجةَ لمثلِ هذا التنصيصِ ما دامتِ الدولةُ تُعرَفُ بالهويَّةِ الإسلاميَّةِ من خلالِ تطبيقِها لأحكامِ الشريعةِ الإسلامِيَّةِ، ولكنَّ العصابَةَ المقدونيَّةَ لم تكتفِ

بتنصيصِ علمنةِ الدولةِ فحسبُ، بل ألغتْ جميعَ أحكامِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ، كما شَرَّعَتْ عقوباتٍ صارمةً ضِدَّ مَنْ يقومُ بالدعايَةِ والتوجِيهِ إلى إعادَةِ أحكامِ الشريعةِ الإسلامِيَّةِ. ونفَّذَتْ حُكْمَ الإعدامِ بحقّ جماعةٍ من العلماءِ والزعماءِ والمثقَّفِين، صُلِبُوا على أعوادِ المشانقِ في عددٍ من مُدُنِ تركيا، بمجرَّدِ مُعَارَضَتِهِمْ للعلمانيَّةِ شفويًّا أو كتابيًّا. ولم يثبُتْ على أحدٍ منهم أنَّه أقدمَ على مهاجمةِ النظامِ بتنظيمِ مظاهرَةٍ أو باستعمالِ العُنفِ ضِدَّهُ.

إنَّ العلمانيَّةَ التُّرْكِيَّةَ– في الحقيقةِ– لا تمُتُّ إلى العلمانيَّةِ الغربيَّةِ بصلَةٍ، رغمَ ما تزعمُ الطُّغْمَةُ القابضةُ على زمامِ الدولةِ بِأنَّها مقتبَسَةٌ من الغربِ.[69] ثُمَّ هناكَ فروقٌ كبيرةٌ بين العلمانيَّةِ التُّرْكِيَّةِ وبين العلمانيَّةِ الأوروبيَّةِ. تمتاز العلمانيَّةُ الأوروبيَّةُ بالْحِيَادِ إلى حدٍّ كبيرٍ، لا تتدخَّلُ في الشئونِ الدينيَّةِ. على سبيلِ المثالِ؛ لم يسبِقْ أنْ أجبرتْ دولةٌ أوروبيةٌ مواطنِيها على اعتناقِ دينٍ من الأديانِ منذ بدايَةِ تطبيقِ العلمانيَّةِ على الساحةِ الأوروبيَّةِ، ولا عاقبتْ مُواطِنًا بحجة أنه متحرِّرٌ، ولاَ منعتْ أحدًا منهم من اعتناقِ أيِّ ديانةٍ أو عقيدةٍ، أو مِنْ أداءِ شيءٍ مِنْ واجباتِهِ الدِّينيَّةِ.

ولكنْ اختلفَ موقفُ تركيا منذ البدايَةِ عن موقفِ الدُّولِ الأوروبيَّةِ في تطبِيقِ العلمانيَّةِ. خاصَّةً بعد موتِ مصطفى كمال مباشرةً. إذ ابتدَعَتْ دينًا جديدًا يَتَمَثَّلُ في تأليهِ مصطفى كمال، والعبادةِ له على رغم ما كان يزعم حُكَّامُ تركيا يومئذٍ "أنَّ النظامَ قائمٌ على أساسِ علمانِيٍّ وعلى مسافاتٍ متساويَةٍ تجاهَ جميعِ الأديانِ". كما أنَّ الشرذِمَةَ السَّبَطَائِيَّةَ (أو العصابَةَ المقدونيَّةَ بتعبيرٍ آخَرَ)، لم يُقَدِّمْ هذه البدعةَ كَدِيَانةٍ، لهَا طقوسُها ومناسكُها، بل سلكتْ منهجًا ماكرًا في نشرِ هذا الدِّين الجديدِ حين ألْبَسَتْهَا شكلاً من الإحتفالاتِ الرسميَّةِ. لذلك لم يفطُنْ إلى هذهِ اللُّعبَةِ حتي رجال الدِّين[70]

---

[69] "لا بدَّ من التنويهَ بأنَّنا ننطقُ العَلْمَانِيَّةَ بفتحِ العينِ واللاَّمِ معًا، وليس بكسرِ العينِ كما هو شائعٌ، فكسرُ العينِ يعنِي أنَّ مصدرَ العِلْمَانِيَّةِ هو العِلْمُ، وهذا ليس غايَةُ (العَلْمَانيَّةِ) وإنْ كان أحدُ تجلِّيَاتِهَا، بينما ننطقُ (العَالَمَانِيَّةَ) بفتحِ العينِ واللاَّمِ، واختصارُها بالْعَلْمَانِيَّةِ فتعنِي، ممَّا تعنِيهِ، أنَّ الحكوماتِ مكلَّفةٌ بالتركيزِ على عالَمِ الإنسانِ بدلاً من الإيهامِ بأنَّ الحاكمَ يتلقَّى أوامرَهُ من اللهِ ويحاوِلُ فرضَهَا على البشر". (عبد الرحيم العلام).

[70] في الحقيقةِ لا يتمتَّعُ أكثرُ خواجواتِ الأتراك والأكرادِ بِحُظْوَةٍ كافيةٍ من العِلْمِ، بل إنَّهم منهمكون في الفكرِ الصوفِيّ الذي هو تيَّارٌ خطيرٌ، وغريبٌ أصلاً على الإسلامِ، نشأتْ منه أشكالٌ مختلفةٌ من الإشراكِ بالله. وأمَّا رجال الدِّينِ في تركيا، فإنَّهم يعانونَ عجزًا بالغًا في فهمِ مصطلحاتٍ هامَّةٍ للدِّينِ الإسلامِيّ، تأتِي على رأسِها: (التوقيفيَّةُ) في العبادَةِ، ومفهومُ الرُّبُوبِيَّةِ، والولاءِ والبراءِ، والإرجاء.

قيل اتَّفقَ رهطٌ من كبار السَّبطائيّين[71] وأصحابِ الكلمةِ النافذةِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ عامَ 1939م. على مشروعِ هذا الدِّينِ الجديدِ، وَفْقَ ستَّةِ مبادئَ رئيسةٍ: 1) أنْ يُنْسَبَ إلى مصطفى كمال صفةُ الإِلَهِيَّةِ، وَالنبُوَّةِ والبشريَّةِ معًا، (وهذا أشبَهُ بالأقانيمِ الثلاثَةِ عند الْمَسيحيّين)، 2) أنْ يُبْنَى لَهُ ضَريحٌ عملاَقٌ، (يُدْفَنُ فيه جثمانُهُ بعد نقلِهِ من الْمُتحفِ الَّذي ظلَّ فيه 15 عامًا). 3) أنْ يُتَّخَذَ ضريحُهُ بديلاً من "كَعْبَةِ الْعَرَبِ". 4) أنْ يُبْنَى ضريحُهُ بحجمٍ يَتَّسِمُ بالعظمةِ ويُلفِتُ إنتباهَ الجمهورِ ويأخذَ بالألبابِ لعلَّ يَتَحَوَّلُ إليهِ وجوهُ الناسِ مع الزمان، بدلاً من "كَعْبَةِ الْعَرَبِ". 5) أنْ تُقامَ إحتفالاتٌ دوريَّةٌ في حرمِ ضريحِهِ، على أساسِ اعتبارِهَا بديلةً عن مناسكِ الحج عند "كَعْبَةِ الْعَرَبِ". 6) أن تُنْصَبَ تماثيلُهُ في بَهوِ كلِّ مبنًى للدَّولةِ، خاصَّةً في فِنَاءِ كلِّ مدرسةٍ وجامعةٍ، وأنْ تُقامَ أمامَها احتفالاتٌ في بدايةِ كلِّ اسبوعٍ ونهايتِهِ، يقفُ في أثنائِها الأساتِذَةُ والطُّلاَبُ جميعًا وَقْفَةَ احترامٍ لـ"لزعيمِ الماجدِ".

نعم، إنَّ السلطةَ العُلْيَا للدولةِ التُّرْكِيَّةِ الَّتي يزعم حُكَّامُهَا: أنَّ النظامَ عَلْمَانِيٌّ يلتزمُ بِالحِيَادِ تجاهَ جميعِ الأديانِ، فَرَضَتْ هذا الدِّينَ على المجتَمَعِ بأسرِهِ منذ عام 1939م. فورَ وفاتِ مصطفَى كمال مباشرةً، ولم يَتَغَيَّرْ موقفُ الدولةِ في هذا الإتجاهِ ممَّا أجبرتِ الظروفُ حتي كبارَ السياسيّين والبيروقراطيّين الْمُتَدَيِّنِينَ يضطرُّون للمشاركةِ في هذه الطقوسِ الدينيَّةِ نِفَاقًا وَعَلَى كَرَاهيَّةٍ شديدةٍ منهم، على رأسِهم اليومَ رئيسُ الوزراءِ رجب طيب أردوغان. ولا شكَّ في أنَّ هذا الدِّين لم يُبْتَدَعْ إلاَّ لإِجْبَارِ النَّاسِ على الإشراكِ باللهِ. ومن تخلَّفَ عن المشارَكَةِ في هذه الطقوسِ أو أنكرَ على مُشْرِكِي الأتراكِ أفعالَهم، دخل تحتَ طائلةِ القانون رقم/5816، ليذوقَ مرارةَ العذابِ، لأنَّهُ يكونُ بذلك قد تطاوَلَ على إلهِ المجتَمَعِ التُّرْكِيِّ (أتاتورك). هذه هي العلمانيَّةُ التُّرْكِيَّةُ!

***

حقيقةُ الفكرِ العَلْمَانِيّ:

لفظ (الْعِلْمَانِيَّةِ) شاعَ بصورةٍ عفوّيةٍ بين ملايين الْمُتَثَقِّفِينَ العرب، بمعنى: "فصلِ الدِّينِ عن السياسَةِ وأمورِ الدَّوْلَةِ"، وذلك على أثرِ خبطٍ فاحشٍ وقعَ فيه أحدُ الْمُنْتَحِلِينَ صِفَةَ المترجِمِ، فَنَقَلَ كَلِمَةَ

---

[71] زعم بعضُهم أنَّ الذين قاموا بوضعِ وتشكيلِ هذا الدِّينِ، هم: حسن علي يوجيل (**1897–1961**م.) رئيس الوزراء؛ وِدَاد نديم ثور (**1897–1985**م.) مديرُ عامِ إدارةِ المطبوعاتِ؛ نادر نادي (**1908–1991**م.) صاحبُ صحيفةِ (جمهوريت)؛ دكتورة آفت إينان (**1908–1985**م.)؛ أستاذةٌ في جامعةِ أنقرة؛ فالح رفقي أطاي (**1894–1971**م.) صحفِيٌّ ونائبٌ في الْبَرْلَمَان؛ أحمد أمين يلمان (**1888–1972**م.) صحفِيٌّ–كاتب.

secularism الإنجليزيةِ (التي تُفيدُ معنى الدُّنْيَوِيَّةِ) إلى العربيَّةِ باختيارِ لفظِ "العَلْمَانِيَّة" كمقابلٍ لها دون أنْ تكونَ أيَّةُ صِلَةٍ بين اللَّفظين.

إنَّ هذه الترجمةَ الخاطئةَ أدَّتْ إلى: أنَّ اللاَّدِينِيَّةَ أو الدُّنْيَوِيَّةَ أو فصلَ الدِّينِ عن الدولةِ أمرٌ تقتضِيهِ المبادئُ العِلْمِيَّةُ. فكانتْ جنايةً على الإسلامِ وعلى اللُّغةِ العربيَّةِ في آنٍ واحدٍ وفِرْيَةً على مفهومِ الْعِلْمِيَّةِ في الوقتِ ذاتِهِ. وهذا – لا شكَّ – يدلُّ على مَنْزِلَةِ العقليَّةِ العربيَّةِ المعاصرةِ واستسلامِ ملايينِ العربِ للمنتحِلِين والْمُتَّجِرِينَ بِالدِّينِ والْعِلْم!

أما اللاَّدِينِيَّةُ؛ فإنَّها تيَّارٌ فكريٌّ ظهرَ كنتيجةٍ لمعاناةِ الناسِ في أوروبا من جراءِ المظالِمِ الَّتي كانتْ الكنيسةُ تمارسُها ضِدَّ العامَّةِ، وبعد صراعٍ مريرٍ دامَ بين السُّلطتَيْن السياسيَّةِ والروحيَّةِ طوالَ عصورِ الظلامِ. ولَمَّا تمكنتْ السلطةُ السياسيَّةُ من الحصولِ على استقلالِها عن الكنيسةِ، اصطلحتْ لفظَ laicité (بالفرنسيَّةِ) لِتُعَبِّرَ عن تحديدِ مسؤوليةِ الكنيسةِ وعزلِها عن المجالِ السياسيّ. هذه الكلمةُ تقابلها لفظُ secularism في الإنجليزيَّةِ، ومعناهُما في اللُّغةِ العربيَّةِ: الدُّنْيَوِيَّةُ أوِ اللاَّدِينِيَّةُ.

اصْطَلَحَتِ الطُّغْمَةُ الحاكمةُ في العهدِ الكماليّ كلمةَ "laiklik" اقتباسًا مِنْ لفظِ "laicité" (الفرنسيَّةِ)، وَبَنَتْ نظامَها على هذه الفكرةِ ضمنَ خُطَّةٍ تشريعيَّةٍ دامتْ تسعَ سنين ما بين أعوامِ **1928–1937**م.

إنَّ الدستورَ التركيَّ المنصوصَ فيه: "أنَّ نظامَ الدولةِ قائمٌ على أساسٍ لا دينيّ (laiqu)" عُرِضَ أخيرًا للاستفتاءِ عام **1982**م. لكنَّ من الغريب أنَّ الملايين الذين أبدَوْا موافقتَهُمْ عليه بالتصويتِ، معظمُهم يجهلون معنَى هذه الكلمَةِ! وهذا يدلُّ على مَنْزِلَةِ العقليَّةِ التُّرْكِيَّة المعاصرةِ واستسلامِ ملايينِ الأتراك لِلْمُتَّجِرِينَ بِالدِّينِ والسياسَةِ. وأغربُ من ذلك؛ أنَّ بين هذا الجمهورِ عددٌ كبيرٌ من المثقَّفين وأهلِ الإختصاص! كما يُفتَرَضُ أنَّ الذين استوردوا هذه الفكرةَ وأدرجوها في ثنايا الدستورِ التُّرْكيّ لم يكونوا – هم بالذات – على علمٍ تامّ بأصلِ هذه الكلمةِ وأسبابِ نشوءِ الفكرِ اللاَّدِينِيّ في أوروبا، ومَدَى إمكانية تطبيقِها في بلدٍ أهلُهُ ينتمي إلى الإسلامِ ولو بشكلِهِ المشوَّهِ. إنَّ الدستورَ التُّرْكِيَّ بِهَيْئَتِهِ لَهِيَ أشهرُ البراهين على هذا الواقع الْمُتَلَقِّ، بسببِ خُلُوِّهِ من أدنى تعريفٍ لهذا المصطلحِ.

أستاذٌ جامِعِيٌّ (بجامعةِ إسطنبولَ) يُدعى تُوكْتَامِيشْ آتَشْ Toktamış Ateş، "يُعَبِّرُ عن أسفِهِ لمزاعِمِ الذين يَدَّعون أنَّ الدستورَ التُّرْكِيَّ خالٍ من تعريفِ اللاَّدِينيَّةِ"، ويُضيفُ قائلاً: "مثلُ هذه الشكايَةِ إنَّما تصدرُ خاصَّةً مِمَّنْ يتحرَّجون ويَمْتَعِضُونَ من اللاَّدِينِيَّةِ، غير أنَّ لها تعريفًا في الدستورِ الْبَتَّةَ. ذلك: أنَّ اللاَّدينيَّةَ ما دامَ تقومُ مقامَ التعبيرِ عن سُلْطَةِ الشعبِ المتمثِّلَةِ في عبارةِ: (السلطةُ للشعبِ دون أيِّ قيدٍ أو شرطٍ). إذنْ هذا هو أوضحُ وأهمُّ دليلٍ على وجودِ تعريفِها في الدستورِ التُّرْكِيِّ"[72] ولكنَّ من الغريب أيضًا، أنَّ جميعَ الوثائقِ الرسميَّةِ في الدَّولةِ التُّرْكِيَّةِ بما فيها الدستورُ التُّرْكِيُّ، يخلو تمامًا من أيِّ تعريفٍ للاَّدِينِيَّةِ (الْمُعَبَّرِ عنها: بمصطلح laiklik) في اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ.

يتوعَّكُ الأستاذُ ألَمًا كما – يتَّضحُ من كلماتِهِ – ويتشدَّقُ لِيُثْبِتَ أنَّ لِلاَّدِينِيَّةِ (أو العلمانيَّةِ) تعريفًا في الدستورِ التُّرْكِيِّ، ولكنَّه يفشلُ في النهايَةِ، لأنَّ اللاَّدِينِيَّةَ السياسيَّةَ– في الحقيقةِ– لا تعريفَ لها بوجهٍ من الوجوهِ، كما يستحيلُ تطبيقُ مثلِ هذا النظامِ الموهومِ في أيِّ بلدٍ من بُلْدانِ العالَمِ. وهذا يبرهن على أنَّ الفوضويَّةَ الدينيَّةَ شيءٌ، واللاَّدِينِيَّةَ (أو العلمانيَّةَ) السياسيَّةَ شيءٌ آخر، لا صلةَ بينهما على الإطلاقِ.

أما العلمانيةُ التي تَبَنَّاهَا كثيرٌ من بلدانِ العالَمِ (ماعدا العلمانيَّةِ التُّرْكِيَّةِ)، فإنَّها – في الحقيقةِ – يجبُ أنْ تُطْلَقَ على الفوضَى الدِّينِيِّ الذي يسودُ على النظامِ والحياةِ في تلك البلدانِ (وإنْ رفضَ العلمانيُّون هذا الواقعَ!)، ذلك أنَّ أيَّ دِيانَةٍ في العالَمِ لا تمتازُ بمبدأ (التَّوْقِيفِيَّةِ) والضوابطِ الدقيقةِ، غير الدِّين الإسلاميِّ. ولذا، استطاعتْ الأنظمةُ السياسيَّةُ جميعًا أن تتَّخذَ موقفًا ملفَّقًا وراءَ قناعِ الحيادِ من أيِّ دينٍ (غيرِ الإسلامِ)، وهذا يصحُّ منطقيًا مع ما هنالك من الإلتباسِ والفوضَى بين المفاهيمِ. لأنَّ الإسلامَ يفرضُ نفسَهُ كَدِينٍ ونظامٍ سياسِيٍّ في آنٍ واحدٍ بشكلٍ استثنائيٍّ. وإنَّما تصدَّتْ له العلمانيَّةُ التُّرْكِيَّةُ بالعداءِ السافرِ وأعلنَتِ الحربَ عليهِ بأشكالٍ من الحِيَلِ، (منها الأيدْيُولُوجيَّةُ الكماليَّةُ و"الديانَةُ التُّرْكِيَّةُ الْقَوْمِيَّةُ Mitüdizm") لأنَّها تُنَافِسُ الإسلامَ في المجالِ السياسِيِّ بخلافِ بقيَّةِ الدياناتِ.

---

[72] هذه كلمات الأستاذ الدكتور توكتاميش آتش باللغة التُّرْكِيَّة.

«Türkiye'de sık sık, "laikliğin anayasada tanımı yok" diye şikâyetler duyarız. Bu şikâyeti özellikle Lâiklikten rahatsız olanlar dile getirirler. Aslında vardır. Lâiklik halkın egemenliğini dile getirmesi olduğuna göre, "Egemenlik kayıtsız şartsız ulusundur" ilkesi, laikliğin en açık ve en anlamlı tanımıdır.» Prof. Dr. Toktamış Ateş, Laiklik, Dünyara ve Türkiye'de, Ümit Publishing, s.69 Ankara-1994.

يجبُ الإشارةُ هنا بالمناسبةِ إلى أنَّ النظامَ السياسيَّ في تركيا لا يمكنُ وصفُهُ بِاللاَّدِينِيَّةِ إطلاقًا، بل هو نظامٌ دينيٌّ متشدِّدٌ قائمٌ على أساسِ العبادَةِ لشخصيَّةِ مصطفى كمال بتمامِ معنَى الكلمةِ، له مؤسَّسَاتُهُ الخاصَّةُ وطقوسُهُ ومَعَابِدُهُ ومناسكُهُ وتعاليمُهُ... هذا بجانبِ دياناتٍ شتَّى مثل الْمُسْلُمَانِيَّةِ والْعَلَوِيَّةِ وَالنَّقْشَبَنْدِيَّةِ وغيرِها. كُلُّهَا دِيَانَاتٌ مُخْتَزَلَةٌ من الإسلامِ، مُرَكَّبَةٌ من تعاليمِ اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ والبَرَهْمِيَّةِ وغيرِها، يتصرَّفُ فيها الخَوَاجَوَاتُ والملالِي وشيوخُ الطرائقِ الصوفيَّةِ والسياسيُّون.

إنَّ الفكرَ اللاَّدينيَّ الذِي طالما تَلوكُهُ وتُدَنْدِنُ به الفئةُ المتغلّبةُ بإصرارٍ وتستغلُّهُ كَسِلاَحٍ "لِمكافحةِ التطرُّفِ الدينيِّ" من وجهةِ نظرِها (بخلافِ ما يبرهنُ عليهِ الواقعُ)، قد أصبحَ اليومَ في تركيا عُقْدَةً عويصَةً غيرَ قابلَةِ الحلِّ في الظروفِ الراهنةِ. هذه العُقدةُ لم تقتصرْ في حدودِ العراكِ والخصامِ بين الشعبِ والدولةِ فحسبُ، بل تطوَّرَتْ إلى فتنةٍ مُلْتَهِبَةٍ بين الفئاتِ والجماعاتِ والأحزابِ المتناحرةِ التي تتنازع مُيُولُهَا السياسيَّةُ وتختلفُ إنتماءاتُهَا الدينيةُ والْمَذْهَبِيَّةُ.

إنَّ الإسلامَوِيِّين (الذين تستخفُّ بهم القلَّةُ الكماليَّةُ لدى كلِّ فرصةٍ بِحُكْمِ مركزِها وسيطرتِها على الدولةِ التُّرْكِيَّةِ) يَرَوْنَ اللاَّدينيَّةَ كسلاحٍ تَسْتَخْدِمُهُ الطُّغْمَةُ الحاكمةُ في معاداةِ الدِّين، إلاَّ أنَّ هذه القناعةَ غيرُ صحيحةٍ من حيث التعميمُ. لأنَّ اللاَّدِينِيَّةَ الْمُغَلَّفَةَ بالأيدْيُولُوجِيَّةِ الكماليَّةِ هي في حدِّ ذاتِها دينٌ بتمامِ معنَى الكلمةِ، يعتنقُهُ ملايينُ الناسِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ. فلو كانتِ اللاَّدِينِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ تناصبُ العداءَ لكلِّ الأديانِ دُونَ استثناءٍ، لَرَجَعَ هذا العداءُ إليها في الوقتِ ذاتِهِ باعتبارِها دينًا لها طقوسُها ومقدَّساتُهَا. غير أنَّ اللاَّدِينِيَّةَ في تركيا إنَّمَا تُستَخْدَمُ في محاربةِ الإسلامِ فحسب.

ولهذا السبب، فإنَّ القلَّةَ اللاَّدِينِيَّةَ الحاكمةَ حاولتْ بتكلُّفٍ وأصرارٍ شديدٍ منذ بدايَةِ قيامِ الدَّولةِ التُّرْكِيَّةِ لِتتَرَاءَى في موقفٍ حياديٍّ من الأديانِ والمعتقداتِ، وَلِتُخْفِيَ هذه الحقيقةَ، ولكنَّها رغم ذلك لم تنجحْ في تعميَةِ الجمهورِ ومَنْعِهِ من كشفِ هذه الحيلةِ وإنْ اغترَّ بِهَا قطاعٌ مغفَّلٌ. يجبُ التنبيهُ بهذه المناسبَةِ على أنَّ اللاَّدِينِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ بكلِّ ما تحملُ من معانٍ: هي فكرةٌ دينيَّةٌ متطرِّفَةٌ قائمةٌ على أساسِ العبادةِ لـ"الزعيمِ الماجدِ!" تُمليها قلَّةٌ (متغلِّبَةٌ على الشعبِ)، إملاءً في صورةٍ غريبةٍ مُعَزَّزَةٍ بالدِّعاياتِ وغَسْلِ الأدمغةِ، لم يشهدْ مثلَهَا تاريخُ الأديانِ في الحياةِ البشريَّةِ.

وأمَّا خلاصَةُ ما يتعلَّقُ بـ"العلمانيَّةِ التُّرْكِيَّة" من تفاصيلَ ودقائِقَ وأسرارٍ وأغراضٍ: فإنَّها فكرةٌ بدائيَّةٌ وحشيَّةٌ خاليَةٌ من أيِّ مزيةٍ إنسانيَّةٍ، وهي تعتمدُ في أصلِهَا على القانونِ رقم/**5816** الذي ينصُّ

على تأليهِ مصطفى كمال في حقيقتِهَا وتتبنَّى العداءَ السافرَ للدِّينِ الإسلامِيّ وتحاربُهُ عبر قنواتٍ أكثرُها غيرُ مباشِرَةٍ. ولهذا لا تصطدِمُ بردودٍ عنيفةٍ، لاختلافِ الآراءِ وتَشَوُّشِهَا حيالَ هذا الأسلوبِ المتلوّن. وهي قاعدةٌ وأرضيةٌ فكريَّةٌ بُنِيَ عليها نظامٌ ثيوقْرَاطِيٌّ يتمثَّلُ في "الديانةِ التُّرْكِيَّةِ القوميَّةِ Mitüdizm" التي اخْتَلَقَتْهَا الهيئةُ السبطائيَّةُ المختصَّةُ بهذه المهمَّةِ، وَكَلَّفَتِ الدولةَ التُّرْكِيَّةَ بتطبيقِهَا فورًا وبصورةٍ طارئةٍ عام **1939**م."كنظامٍ سياسيٍّ ودينيٍّ له طقوسُهُ وآدابُهُ ومعابِدُهُ، وأنَّه يجبُ على جميعِ السياسيِّين الحضورُ في معبدِهِ الأكبرِ عند الأوقاتِ الْمُحَدَّدَةِ بمدينةِ أنقره".

اتَّضحَ هكذا بالاستقراءِ ومن خلالِ أدلَّةٍ قاطعةٍ بأن "اللاَّدِينِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ" ليستْ هي العَلْمَانِيَّةَ الحياديَّةَ المرعيَّةَ في دولَ الغربَ، وإنَّما هي ديانةٌ وثنيَّةٌ بقدرِ ما هي فكرةٌ منهجيَّةٌ ابتدعتْها فِئَةٌ مشبوهَةٌ اندسَّتْ في قلبِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ منذ القديمِ، وتفاعلتْ فيما بينها حتَّى تحوَّلتْ مع الزمانِ إلى منظَّمةٍ سرِّيةٍ خطيرةٍ أتاحتْ لها الفرصةُ بِحُكْمِ ظروفٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ طارئةٍ مهَّدتْ لها السبيلَ فتغلَّبَتْ على السلطةِ وعلى ضميرِ المجتمعِ في مرحلةٍ زمنيَّةٍ واحدةٍ، فاستخدَمَتْ مصطلحَ laique كغطاءٍ لأفاعيلِها في محاربَةِ الإسلام.

أمَّا "العلمانيَّةُ الحياديَّةُ" التي تُستَخدَمُ لإقصاءِ الدِّين عن الدولةِ (على حدِّ زعمِ القائلين بها)، فإنَّها فكرةٌ موهومةٌ لا صلةَ لها بالحيادِ، ولا بفصلِ الدِّينِ عن الدولةِ، لانتفاءِ ذلك في واقعِ الأمرِ. لأنَّ مفهومَ الدِّينِ متداخلٌ في كل أمرٍ من حياةِ الإنسانِ بالضرورةِ (بما فيها معظمُ القوانين التي تُشَرَّعُ وتُصْدَرُ لتنظيم الحياةِ الإجتماعيَّةِ)؛ ولأنَّ أغلبَ المعتقداتِ الدينيَّةِ تتجاوزُ حدودَ الدساتيرِ والقوانين بِحُكْمِ الفطرَةِ، وتفرضُ نفسَها على أهمِّ مجالاتِ الحياةِ وتَصَرُّفَاتِ الإنسانِ وسلوكِهِ بشكلٍ من الأشكالِ. وذلك على رغمِ محاولاتِ العلمانيّينَ الذين يبذلون جهودَهم لأجلِ الحيلولةِ بين الدِّين والحياةِ دون جَدْوَى.

يبرهنُ على هذه الحقيقةِ آلافٌ من الدلائلِ القاطعةِ. منها على سبيل المثال: تُقَامُ مؤسَّسَاتٌ دينيَّةٌ ومعابدُ كثيرةٌ في البلادِ التي تعتمدُ العلمانيَّةَ في نظامِهَا السياسيّ (وحتَّى في تركيا التي تحاربُ الإسلامَ بِعلْمَانِيَّتِها ومُسْلُمَانِيَّتِهَا!). فإنَّ التراخيصَ التي تُصدِرها أجهزةُ هذه الدولِ لإنشاءِ المعابدِ والمؤسَّساتِ الدينيَّةِ ليستْ نتيجةَ حيادِهَا، أو سَمَاحِها، ولا عن إختيارِها إطلاقًا، وإنَّما هي لِحَتْمِيَّةِ الاستجابةِ لِمَطَالِبِ الشعبِ التي لا مفرَّ منها. لأن النظامَ السياسيَّ العلمانِيَّ (!) لا يستطيعُ رفضَ مطالبِ المجتمعِ الروحيَّةِ مهما تنكَّرَ له، واحتقرَ معتقدَاتِهِ، وأَسْقَطَهَا من الإعتبارِ (في صياغةِ القانون

التي لاَ تقوم على أساسٍ من الحكمةِ أصلاً!)؛ فإنَّ مثلَ هذا النظامِ الْمُتَلَفِّقِ لا بدَّ أنْ يعتدَّ بتلك المطالبِ ويعترفَ بها، وإن كان ذلك عن كراهيَّةٍ منه، ومهما لجأ إلى مقولة (الحيادِ) وحاوَلَ لِيَتَخَفَّى ويَسْتَتِرَ بِقِنَاعِ السماحِ والحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ، أو جَعَلَ الدِّينَ في عِدادِ الأعرافِ والتقاليد... كل ذلكَ حِيَلٌ وتكتيكاتٌ سياسيّةٌ لا يمكنُ التعبيرُ عنها بالحيادِ، أو العلمانيَّةِ، أو اللاَّدِينِيَّةِ. ولكن يجوز أن يُطلَقَ على مثلِ هذا المشهدِ الغامض بـ "الفَوْضَوِيَّةِ".

هذا، ولم يسبِقْ أنْ أقدمتْ دولةٌ علمانيَّةٌ أو إلحاديَّةٌ على إزالةِ المؤسَّساتِ الدينيَّةِ، ومنعِ إقامةِ الشعائرِ الدينيَّةِ غيرَ أَلْبَانْيَا الشيوعيةِ، وذلك لفترةٍ قصيرةٍ (في عهدِ أنور خوجه)، ولم يلبثْ حتَّى انهارَ نظامُها، فاضطرَّتْ الدولةُ منذ بدايةِ العهدِ الجديدِ للاعترافِ بالدِّين، ورفعِ الحظرِ عن إقامةِ الشعائرِ الدينيَّةِ ولم يسعْهَا عكسُ ذلك. لأنَّه لا يمكنُ استئصالُ جذورِ الدِّينِ وآثارِهِ من ضميرِ الإنسانِ ولا من حياتِهِ وسلوكياتِهِ أبدًا.

إنَّ العُنفَ الذي مارسَها الكماليُّونَ ضدَّ الْمُتَدَيِّنِينَ عامَّةً والنقشبنديِّين بوجهٍ خاصٍّ بين أعوامِ 1925م-1940م. لم يكنْ في الحقيقةِ مِنْ منطلَقِ الدِّفاعِ عن العَلْمَانِيَّةِ كما يظنُّهُ البعضُ. لأنَّ العَلْمَانِيَّةَ فكرةٌ موهومةٌ يستحيلُ تطبيقها على الإطلاقِ (كما ثبت بالبراهين آنفةِ الذكر)؛ بل كانتْ تلك المجازرُ من بابِ إزالةِ الموانعِ التي اعترضتْ طريقَ النظامِ الكماليِّ الذي اصطدَمَ بردودِ النقشبنديِّين في البدايَةِ، ثم حقَّقَ النجاحَ بعد حصادِهم، وتحوَّلَ فيما بعدُ إلى ديانَةٍ متكامِلَةٍ لها طقوسُها ومقدَّسَاتُها ومناسِكُهَا ومعابِدُها... كما لم يكنْ تذرُّعُ الكماليّينَ بالعَلْمَانِيَّةِ عَقِبَ كلِّ ضَرْبَةٍ أنزلوها بخصومِهم إلاَّ تضليلاً وتعميَةً وإخفاءً لآثارِ جناياتِهم!

إنَّ هذه الفكرةَ الموهومَةَ مشكلةٌ عويصةٌ لن تتمكَّنَ الحكوماتُ التُّرْكِيَّة من حلِّها ما دامتْ تتَّخِذُهَا ستارًا لِلإِيدْيُولُوجِيَّةِ الكماليَّةِ التي تحوَّلتْ إلى دينٍ يعتنِقُها قِلَّةٌ متطرِّفةٌ خطيرةٌ مُصَابَةٌ بهذهِ الهلوسَةِ، تخافُها السلطةُ السياسيَّةُ وتحذَرُ بطشَهَا ولا تُصْدِرُ قانونًا إلاَّ بعد الحصولِ على موافقتِها عبرَ قنواتٍ خاصَّةٍ! إنَّ فكرة ما يسمّى بـ"العلمانية" فُرِضَتْ في واقع الأمرِ مِنْ قِبَلِ عُملاءِ الغربِ كوسيلة من وسائلِ الغزوِ الثقافِيّ، اتخذوها كمينًا ليخدعوا بها ضعافِ العقول تحت هتافِ الحرية الدينية ليقولوا: "كُلُّ إنْسانٍ حُرٌّ في اختيارِ دينِهِ" نصبها الغربُ في تركيا لأوّلِ مرّةٍ على يد العناصر الذين رباهم في أحضانِهِ تمهيدًا للثورة الفكرية التي بدأ بتنفيذها على الساحة العثمانية منذ عهد السلطان سليم

الثالِثِ. كانت فرنسا يومئذ في طليعة المجتمعات الأوروبية التي خاضتْ هذه المعركةَ ضدَّ الأمة الإسلامية بأسلحةٍ مبيدةٍ للضمائر والحياةُ باقِيةٌ في الأجسادِ!

هذه الفكرة التي أُلْهِيَتْ العقولُ بها في تركيا على مدى قرنٍ حتى تصلَّبَتْ وتحجَّرَتْ في الأدمغةِ، يُستبعد أن تفتضح أسرارُها إلاَّ أن تتهيأ الأسبابُ فَتُطْرَحَ لِنِقاشٍ علميّ بإقامةِ مؤتمرٍ عالمِيّ يحضرُهُ علماءُ المسلمين من جميعِ الأقطارِ الإسلاميَّةِ على أساسِ ضوابطَ أخلاقيَّةٍ وعلميَّةٍ، وبعد أخذِ احتياطاتٍ أمنيَّةٍ مشدَّدةٍ تتَّفقُ عليها الأطرافُ المتنازعةُ. ويجبُ عقدُ مثلِ هذا الإجتماعِ في مكانٍ آمنٍ، لانَّهُ لا يُستَبعَدُ أن تقومَ العصابةُ الكماليَّةُ بالسطوِ على المؤتمرِ إذا أقيم داخلَ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ!.

هذا، ويجب على أهلِ الحلِّ والعقدِ أنْ يتناولوا مشكلةَ الْعَلْمَانِيَّةِ بصبرٍ وأناةٍ واحترامٍ متبادلٍ، وسريرةٍ نقيَّةٍ من النزعات الإنتقامِيَّةِ، وذلك في إطارِ منهجٍ علميّ وموضوعِيّ مع اجتنابِ العُنفِ والعاطفِيَّةِ والحقدِ والعنادِ... ونبذِ ذكرَيَاتِ الإحداثِ الدامِيَةِ والجناياتِ التي قامَ بها الحكَّامُ الكماليُّون في صفوفِ الشعبِ ما بين أعوام 1925-1940م. لِمَا في ذلك من تجدُّدِ الآلامِ، والإحساسِ بعاطفةِ الثأرِ، وإعطاءِ الفرصةِ للمتشدّدين من الطرفين، واستمرارِ الدوَّامَةِ، والعودةِ إلى نقطةِ البدءِ.

وأمَّا في حالةِ استمرارِ القهرِ الكماليّ بإملاءِ هذا الدِّينِ على المجتمعِ (السنّيّ الْمُسْلُمَانِ) الذي له صلةٌ قويَّةٌ بالإسلام – على أيَّةِ حالٍ، ولو كانتْ هذه الصلةُ تتمثَّلُ في الانتسابِ إلى ديانةٍ مشوَّهةٍ مختزلةٍ عن الإسلام –، فإنَّ النظامَ سوف تصطَدِمُ يومًا من الأيام بِعَقَبَةٍ خطيرةٍ لن تتمكَّنَ من تذليلِها خاصَّةً إذا استطاعتْ القلَّةُ الحنيفةُ أنْ تقومَ بدورٍ فعَّالٍ (بمشاركَةِ السُّنِّيِّينَ الْمُسْلُمَان) في خَلْقِ هذه العقبةِ أَمامَ الطُّغْمَة السبطائية (الكماليَّةِ) الحَاكِمَةِ. ذلك، لأنَّهُ من المستحيلِ أنْ ينجحَ أيُّ نظامٍ سياسِيّ في إجبارِ مُجْتَمَعٍ على اعتناقِ دِينٍ مُخْتَلَقٍ باطلٍ، بخاصَّةٍ إذا كان النظامُ يوارِي هذا الدِّينَ المصطنعَ في ثوبِ العلمانيَّةِ والْحِيَادِ، ويتبنَّى بهذه الطريقةِ محاربَةَ الإسلامِ. إنَّ مثلَ هذه المحاولَةِ – بعكسِ ما يتوقَّعُهُ البعضُ– سيتحوَّلُ إلى حركةٍ إرهابيَّةٍ منهجيَّةٍ يقوم بها النظامُ لِخَرْقِ العقبةِ وسحقِ المجتمعِ، ولكنَّها سوف تنتهِي بالفشلِ في النهايةِ (مهما كان النظامُ قويًّا)، وسوف يُسَجِّلُهَا التاريخُ من الجرائِمِ على حسابِ النظامِ العَلْمَانِيّ الزائفِ ورموزِهِ لاَ محالةَ، كما حدثَ ذلك في سوريا والجزائر وتونس..

يجبُ التصريحُ هنا بالمناسبَةِ؛ بأنَّ اللاَّدِينيَّةَ (أو العلمانيَّةَ) التُّرْكِيَّة قد تمَّ تصميمُها على أساسٍ دينيٍّ مدروسٍ ومُغَلَّفٍ بِوِشَاحٍ يتمثَّلُ في دعاياتٍ طنَّانَةٍ قد تكونُ مُقْنِعَةً لمن لا خبرةَ له بحقيقةِ هذه الحيلةِ عندما يقرعُ سَمْعَهُ بأنَّها "ضمانٌ للحُرِّيَّةِ الدينيَّةِ، وَأنَّها وسيلةُ الْحِيَادِ، تقفُ الدولةُ بفضلِها موقفَ احترامٍ من كلِّ الدياناتِ والمعتقداتِ دون أدنَى تفريقٍ بينها ابدًا". إلاَّ أنَّ مثلَ هذه الدعاياتِ لا أساسَ لها من الصحَّةِ بعد هذه البراهين القاطعةِ، وهي:

* إنَّ جميعَ البُنُودِ الدستوريَّةِ والموادِ القانونيَّةِ خاليةٌ تمامًا من أيِّ تعريفٍ لـ"الْعَلْمَانِيَّةِ" (أو اللاَّدِينِيَّةِ).

* إنَّ اللاَّدِينيَّةَ في تركيا تتمثَّلُ في تعاليمِ مصطفى كمال، وما تُمْلِي الطُّغْمَةُ الحاكمةُ على المجتمعِ من مراسيمَ وتعليماتٍ، وما تُقَامُ من حفلاتٍ واجتماعاتٍ رسميَّةٍ في جوٍّ دينيٍّ تبدأ بوقفةِ الإحترامِ عند ضريحِ مصطفى كمال، وفي جميعِ المؤسَّسَاتِ التعليمِيَّةِ في أوقاتٍ معيَّنةٍ.

* ومن هذه الدلائلِ: وجودُ مؤسَّسَةٍ دينيَّةٍ عملاقةٍ تحتَ عنوان "رئاسَةِ الشؤونِ الدينيَّةِ"، وهي مؤسَّسَةٌ رسميَّةٌ مرتبطةٌ برئاسَةِ الوزراءِ مباشرةً، تصدرُ عنها فتاوَى وقراراتٌ بتوجيهٍ من السُّلْطَةِ السياسيَّةِ، وقد تخالِفُ هذه الفتاوَى أُسُسَ الإسلامِ؛ مثل: اعتمادِ الطلاقِ الذي تَصْدُرُ الْحُكْمُ به من قِبَلِ المحاكِمِ الرسميَّةِ (الْعَلْمَانِيَّةِ). كذلك يقفُ منصبُ رئاسةِ الشئونِ الدينيَّةِ محايدًا من زواجِ الأخِ من أخْتِهِ من الرَضَاعَةِ، وزواجِ المسلمَةِ ممن لا يدين بالإسلامِ.

* إنَّ عشراتِ الآلافِ من العاملين في هذه المؤسَّسَةِ (مِنْ أئمةِ المساجِدِ، والمؤذِّنِين ورجالِ الفَتْوَى) يتقاضَوْنَ رواتبَهُمْ الشهريَّةَ من خزانَةِ الدولةِ التي تتغذَّى من ضرائبِ المواطنين وفيهم اليهودُ والنصارى والعلويُّونَ الذين لا يعترفون أصلاً بهذه المؤسَّسَةِ ويقومون باحتجاجاتٍ ضِدَّهَا بين الفينة والأخرى... بالإضافةِ إلى ملايين الذين لا يدينون بمعتقدٍ ولا ينتمون إلى أيِّ دين.

* جميعُ الكلّياتِ المخصَّصَةِ لِتدريسِ العلومِ الإسلامِيَّةِ (بإشرافِ الدولةِ) في أنحاءِ تركيا، (وهي **24** كليةً إجمالاً حتى نهاية **2012**م.) أُطلِقَ على كلٍّ منها اسمُ "كُلِّيَّةِ الإِلَهِيَّاتِ Faculty of Theology"، بدلاً من "كُلِّيَّةِ العلومِ الإسلامِيَّةِ" أو "كُلِّيَّةِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ"، ذلك تأسِّيًا بتقاليد المسيحيَّةِ وتفاديًا لأيِّ تداعٍ يكون ذريعةً لتشويهِ الأيدْيُولُوجِيَّةِ الكماليَّةِ المستُورَةِ بقناعِ الْعَلْمَانِيَّةِ الزائفة.

* اعتمدَ النظامُ التُّرْكِيُّ يَوْمَي السبتِ والأحدِ كعطلةِ نهايَةِ الأسبوعِ، تأسِّيًا باليهودِ والنصارى وتساهُلاً مع الأقلِّيَّات التي لا تدين بالاسلام، وتزلُّفًا إلى الغرب، مع ما في ذلك من قصدِ المنعِ للموظفين المسلمين عن أداءِ صلاةِ الجمعةِ. وهذا مُخِلٌّ بالحيادِ الدينيِّ وتكذيبٌ للكماليِّينَ الذين يزعمون أنَّهم لا يفرِّقونَ بين الأديان.

* ومن هذه الدلائلِ أيضًا: تلجأُ جماعاتٌ من المشركين الأتراك إلى أشكالٍ من التعذيبِ المعنويِّ للأكثريَّةِ السُّنِّيَّةِ المضطهَدَةِ، والشماتةِ بهم، وذلك بغرضِ الدعمِ والإنتصارِ للطُّغْمَةِ السبطائيَّةِ الحاكمَةِ. ومن أساليبِ هذا القهرِ النفسِيِّ: أنَّهم يقومون بتشييعِ جنائزِهم خاصَّةً من (مسجدِ شِيشْلِي)، ومسجدِ (تَشْوِيقِيَّة) في إسطنبول؛ ومن (مسجد كُوجَا تَبَه) في أنقره ضمنَ مظاهِرَ غريبةٍ على الإسلامِ. يملؤون بهوَ المسجدِ بأنواعٍ من الأكاليلِ على غرارِ النصارى، ويحملُون الجنازةَ بين أصواتِ التصفيق والتصفير، ليُعلنوا بذلك أنَّهم يتمتَّعونَ بالغلَبَةِ على سائرِ طبقاتِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ وفصائِلِهِ، وأنَّهم لا يعبئون بالضوابطِ الخاصَّةِ في الفقهِ الإسلامِيِّ، وأنَّهم أحرارٌ في العبثِ بالدِّين والتلاعبِ بِقِيَمِهِ في كنف النظامِ الْعَلْمَانِيِّ وتحتَ ضمانِهِ.

* ومن هذه الدلائلِ أيضًا: أنَّ هذه الشرذِمَةَ المناهِضَةَ للإسلامِ تقفُ موقفَ العدوِّ اللَّدودِ من الأكثريَّةِ السُّنِّيَّةِ وتحاوِلُ احتواءَها بألوانٍ من الإهانَةِ والسخريَّةِ، وباللُّجوءِ إلى المقاطعةِ الإقتصاديَّةِ لبضائعِ الشركاتِ التي لها علاقاتٌ تجاريَّةٌ بالدوَلِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ؛ وقد اصطلحتْ كلمةَ "الرأسمالِ الأخضرِ" كتسميةٍ لهذه الشركاتِ المرفوضةِ بأنَّها داخلةٌ في القائمةِ السوداءِ على سبيلِ التنبيهِ للقطاعِ الأَتَاتُورْكِيِّ (الْعَلْمَانِيِّ)

* ومن أهمِّ دلائلِ أكذوبة الْحِيَادِ: الحقدُ الَّذي ينطلقُ منه النظامُ الأَتَاتُورْكِيُّ (الْعَلْمَانِيُّ!) لتشويهِ سُمْعَةِ الإسلامِ: محاولاتُهُ ودعاياتُهُ الكثيفةَ في إثارةِ مقولةِ "الإسلام السياسي"، وذلك لتوجيهِ الرأيِ العامِّ إلى أنَّ الإسلامَ في واقعِهِ محضُ ديانَةٍ روحانيَّةٍ لا تعدو جدرانَ المسجدِ والمقبرةِ، وأنَّهُ لا صلةَ لهذا الدِّينِ بالسياسةِ والحياةِ الإجتماعيَّةِ؛ بينما الإسلامُ قد أعلنَ نفسَهُ من أوَّلِ يومٍ أنَّه دينُ الحياةِ كلِّها، وأنَّهُ وحدةٌ متكاملةٌ، وكلٌّ لايتجزَّأ إطلاقًا. والقرآن بِرُمَّتِهِ شاهدٌ على هذه الحقيقَةِ.

* ومن أهمّ دلائلِ كَذِبِ الْحِيَادِ أيضًا: القانون (المَدَنِيُّ رقم:35) الذي ينصُّ على ذكرِ كلمةِ "الإسلامِ" في البطاقاتِ الشخصيَّةِ لجميعِ المواطنين (ما عدا اليهودِ والنصارى)، حتَّى في بطاقاتِ الملحدين والمشركين الذين لا يعتنقُون الإسلامَ أصلاً، ويكرهونَهُ، ويسخرون منه، ويحاربونَهُ بِكُلِّ الوسائلِ من الْعَلْمَانِيِّين والأَتَاتُورْكِيِّين وَالْيَسَارِيِّين... استمرَّتْ هذه المادَّةُ ضمنَ القانونِ المدنِيِّ (رغم دعوَى علمنَةِ الدَّولةِ، ومزعمةِ حيادِهَا منذ 05 فبراير 1937م.) إلى أن تَمَّ تعديلُ المادَّةِ (رقم:35) تحتَ ضغط الاتّحادِ الأوروبِيّ.[73]

كلُّ هذهِ الدلائلِ القاطعةِ تبرهنُ على أنَّ اللاَّدِينِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ لا تعدو عن آليةٍ استراتيجيَّةٍ تتوسَّلُ بها السلطةُ السياسيَّةُ لتحقيقِ أغراضِها، وعلى رأسِها محاربَةُ الإسلامِ بِطُرُقٍ مُلْتَوِيَةٍ أكثرُها غيرُ مباشِرَةٍ. وذلك على سبيلِ التعميَةِ والإرباكِ والمغالطَةِ، واصطيادِ جَهَلَةِ العربِ وأغْبِيائِهم وحُثالتِهم. هكذا يتبيَّنُ بوضوحٍ؛ أنَّ إصرارَ الطُّغْمَة الكماليَّةِ الحاكمةِ على استخدامِ مَقُولَتَيِ (الْعَلْمَانِيَّةِ) و(الْحِيَادِ الدِّينِيِّ) – بغيرِ مناسبَةٍ مَّا في كثيرٍ من الأحيانِ – مع حملاتِ غسلِ الأدمغةِ وتخديرِ المشاعرِ، يتبيَّنُ من كلِّ ذلك أنَّها إنَّما تلجأُ إلى هذا الأسلوبِ لإلهاءِ العقولِ عن القاعدةِ الثِّيُوقْرَاطِيَّةِ (أي الكهنوتيَّةِ أو السُّلْطَةِ الدِّينِيَّةِ) التي يقوم عليها النظامُ التُّرْكِيُّ بتأليهِ مصطفى كمال ليس إلاَّ! وهذا يبرهنُ على معاناةِ الكمالِيِّينَ في سبيلِ الحفاظِ على "الديانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ" التي دخلتْ في سجلِّ التاريخ باسِمْ "الديانَةِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة Mitüdizm". كما يبرهِنُ – في الوقتِ ذاتِهِ – على خطورَةِ الحيلَةِ المتمثِّلَةِ في "الْعَلْمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ".

لعلَّ مَنْ يظنُّ أنَّ اللاَّدِينِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ مستوحاةٌ من اللاَّدِينِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ، وهذا غيرُ صحيحٍ. ذلك أنَّ اللاَّدِينِيَّةَ الْغَرْبِيَّةَ– في الحقيقةِ – مستحيلُ الوجودِ عقلاً. وهي فكرةٌ موهومةٌ كما مرَّ ذكرُها. لأنَّ الدِّينَ في أوروبا لا مساسَ له بحياةِ الإنسانِ. وهذا ناشئٌ من طبيعةِ المسيحيَّةِ الجامدةِ. ذلك أنَّ تعاليمَ المسيحِيَّةِ تتميَّزُ بالتركيزِ على الجانبِ الأخلاقِيِّ فحسب، فهي خالية من ذكرِ الحلالِ والحرامِ، والتمييزِ بين الأمورِ المشروعةِ والمحرَّمَةِ بدقةٍ تفصيليَّةٍ على عكسِ القرآن تمامًا. وتتميَّزُ الأناجيلُ بأسلوبِ الموعظةِ، تشتملُ على نصائحَ وإرشاداتٍ غيرِ واضحةِ الشروطِ والحدودِ. تهتمُّ في أغلبِها بالتسامُحِ والتعاطفِ. تكادُ كلُّها تخلو من ذكرِ الْمُحَرَّمَاتِ المعدودةِ في القرآنِ الكريمِ. كما تخلو من الإشارةِ إلى موبقاتِ الإيمانِ لانتفاءِ التوحيدِ في العقيدةِ المسيحيَّةِ، مِمَّا جعلَ من الإنسانِ المسيحيِّ

---

[73] تم تعديلُ هذا القانون (رقم: 35) بتاريخ: 25 أبريل 2006. بعدَ ضغطِ الاتّحادِ الأوروبِيِّ على الحكومةِ التُّرْكِيَّةِ. يَنُصُّ القانونُ الجديدُ على خياراتٍ للمُواطِنِ؛ أنْ يطلبَ من إدارةِ السِّجِلِّ المدنِيِّ: إلغاءَ اسمِ الدِّينِ مِنْ بطاقتِهِ الشخصِيَّةِ، أو استبدالَ كلمةِ الإسلامِ بـ"الْمُسْلُمَانِيَّةِ"، أو تَسْجِيلَ أيِّ دينٍ شاء.

مخلوقًا أنانيًّا، شحيحًا، متفرّدًا في جلبِ النفعِ لنفسِهِ، إنتهازيًّا، شاكًّا، محتاطًا في مواجهةِ أخيهِ الأنسان... كلُّ همِّهِ العملُ الدؤوبُ والكسبُ والحصولُ على أكبرِ نصيبٍ من المالِ والثروةِ. كلُّ حياتِهِ سباقٌ في سبيلِ المادَّةِ وإشباعِ الرغبةِ والإكثارِ من حطامِ الدنيا... لا يشارِكُ أحدًا في أحزانِهِ وآلآمِهِ إلاَّ تحتَ ضغوطِ الأعرافِ والتقاليدِ والقوانين. لا يحضرُ حفلةَ عرسٍ أو عزاءٍ إلاَّ ليوافقَ عادةً من عاداتِ مجتمعِهِ، وليس طلبًا لمثوبةٍ عند اللهِ. يركضُ الإنسانُ المسيحيُّ في كُلِّ حياتِهِ بين العملِ والعُطْلةِ، يخافُ القانون أكثرَ ممَّا يخاف اللهَ بأضعافٍ مضاعفةٍ. كما دفعتِ التعاليمُ المسيحيةُ المجتمعاتِ النصرانيَّةَ إلى مستنقعِ الإباحِيَّةِ والإنهماكِ في التمتُّعِ والتذوُّقِ من كلِّ ملذَّةٍ. "لأنَّ السيِّدَ المسيحَ قد افتدَى بروحِهِ ليكونَ قَتْلُهُ كفارةً عن كُلِّ ذنبٍ وجريمةٍ يرتكبُها الإنسانُ المسحِيُّ، فيدخلَ الجنةَ مباشرةً وبغيرِ حسابٍ". لذا لا يحتاجُ المسيحيُّ أصلاً إلى دينٍ وعبادةٍ وقانونٍ من عندِ اللهِ، سوَى أن يحضرَ الكنيسةَ كلَّ أسبوعٍ مرةً ويقضِيَ هناك لحظاتٍ بين شقشقةِ الرهبانِ ودخاخين الشموعِ ليتسلَّى بأنَّه يعتنقُ دينًا على أقلِّ تقدير!

بينما القِيَمُ الإجتماعيَّةُ في حياةِ المجتمعِ التركيّ قديمًا كانتْ على خلافِ أعرافِ وتقاليدِ أهلِ الغربِ المسيحيّين. كانتْ هذه القِيَمُ مستوحاةً من الروحِ الإسلامِيِّ الذي تربطُ المسلمَ بأخيهِ المسلمِ بوشيجةِ الأخُوَّةِ في الدِّين. وهي صِلَةٌ متينةٌ بين المؤمنين، لا تسمحُ للمسلمِ أبدًا أنْ يقفَ محايدًا من أيّ إنسانٍ يتهاونُ بقوانينِ الفطرةِ. يبرهنُ على ذلك ما وَرَدَ من عديدِ النصوصِ في الكتابِ والسنَّةِ، منها على سبيلِ المثالِ: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...(آل عمران/**110**)؛ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ... (التوبة/**71**)؛ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (آل عمران/**104**)؛ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون (المائدة/**78** ، **79**).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ :« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيّ وَغَيْرِهِ.

للمعروفِ والمشروعِ حدودُهُ في الفقهِ الإسلامِيّ، كما لِلْمَنْهِيّ عنه ولِلْمُنْكَرِ حدودُهُ كذلك... كلُّ شكلٍ من أشكالِ سلوكِ الإنسانِ له تعريفٌ دقيقٌ في قوانينِ الأخلاقِ الإسلامِيّ. كُلُّ ذلك يتعلَّقُ بأفعالِ الْمُكَلَّفِين الْمُحَدَّدَةِ في قوانينِ الفقه. لا يفعلُ المسلمُ شيئًا من خيرٍ أو شرٍّ إلاَّ له حكمٌ في الشريعةِ الإسلاميةِ. ولا يصدرُ عن المسلمِ قولٌ أو عملٌ إلاَّ ويدخلُ تحتَ حكمٍ معينٍ، فهو إمَّا فرضٌ، أو واجبٌ، أو سُنَّةٌ، أو مُسْتَحَبٌّ، أو حرامٌ، أو مكروهٌ، أو مُبَاحٌ، أو صحيحٌ، أو باطلٌ... فالحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيّنٌ؛ فاعلُ الخيرِ يُثابُ، ولِلْكَاسِبِ أجرُهُ، والمجرمُ يُعاقَبُ وفقًا لنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ عن طريقِ جهازِ القضاءِ.

إنَّ تعاليمَ المسيحيَّةِ خاليةٌ تمامًا من هذه الضوابطِ الْمُحْكَمَةِ. لا تنصُّ الأناجيلُ على أيّ عقوبةٍ من القتلِ، والزنا، والسرقةِ والإغتصابِ وغيرِهَا من الجرائِمِ. بل أجَّلتِ العقوبةَ إلى الآخرة. "لأنَّ الزُّنَاةَ والمجرمين سَيُحْرَمُونَ من ملكوتِ السماواتِ بِحَسَبِ ما وَرَدَ في رُؤْيَا البشير" (يوحنا **21**: **8**): "أما الجُبَنَاءُ، وغيرُ المؤمنين، والفاسدون والقتَلَةُ، والزناةُ، والمتَّصلون بالشياطين، وعبدةُ الأصنامِ، وجميعُ الدَّجّالين، فمصيرُهم إلى البحيرة المتَّقِدَةِ بالنارِ والكبريتِ الذي هو الموتُ الثاني."

إنَّ القرآنَ الكريمَ –بخلافِ ما سبقَ من المواصفاتِ للإنجيلِ– يشتملُ على آياتٍ بيّناتٍ في العقيدةِ، وعلى صنوفٍ من الأحكامِ في العبادةِ والأخلاقِ والمعاملاتِ والعقوباتِ والجهادِ ونُظُمِ الحياةِ في شُعَبِهَا المختلفةِ. كُلُّ ذلك لأجلِ عمارةِ الأرضِ وإقامةِ الحياةِ الكريمةِ، وتمهيدِ سُبُلِ النهضةِ والسعادةِ والرفاهيَّةِ والإزدهارِ. هذا، بِغَضّ النظرِ عن غفلةِ المسلمين عن كتابِهم ودينِهم.

ورغم هذه الغفلةِ والجهلِ الْمُتَفَشِّي، وبُعدِ الشُّقَةِ بين الإسلامِ والمسلمين، فإنَّ أكثرَ المواطنينَ في تركيا، (حتى الْفَجَرَةَ وَالْفَسَقَةَ فضلاً عن الْمُتَدَيِّنِينَ)، لا يقتنعونَ بِعَقْدِ الْقِرَانِ الذي يتمُّ إجراؤُهُ وتسجيلُهُ من قِبَلِ الجهاتِ الرسْمِيَّةِ العلمانيَّةِ (وفقًا للقوانين الوضعيَّةِ). لذا، يقومون بإعادةِ هذا العقدِ عن طريقِ شخصٍ من رجالِ الدّينِ. كذلك لا يعتدُّونَ أبدًا باليمينِ والقسمِ الذِي يؤدُّنَهُ أمامَ المحاكمِ، لعدَمِ اعترافِهم بمشروعيَّةِ المحاكِمِ المرتبطةِ بالنظامِ العلمانِيّ! فلا يشعرُ أحدٌ منهم بالأسفِ إن كان قد حَنِثَ في يمينِهِ الرسمِيّ، بينما يدفعُ الكفَّارةَ إذا حَنِثَ في يمينِهِ الْعُرْفِيّ. وهذا يدلُّ على شعورِ المواطِنِ التُّرْكِيّ (الْمُسْلُمَانِ) بالمسؤوليَّةِ إذا خالفَ حُكْمًا من أحكام دينِهِ. كذلك لا يعبأُ بالقانونِ، ولا يمتنعُ من مخالفتِهِ كُلَّمَا وجدَ فرصةً (في غيابِ المراقبةِ) أَخَلَّ بهِ، خاصَّةً إذا كان القانونُ يحكمُ عليهِ بعقوبةٍ أو غرامَةٍ. وهذا غيرُ واردٍ في البيئَةِ المسيحيَّةِ.

بينما الأناجيلُ خاليةٌ من المبادِئِ والقوانِينِ والنُّظُمِ التي تَنُصُّ عليهِ الشريعةُ الإسلاميَّةُ.ولهذا اضطرَّ العالَمُ المسيحِيُّ أنْ يلجأَ إلى تنصيصِ قوانينَ من تلقاءِ نفسِهِ. فكُلُّ الدساتيرِ والقوانينِ الأوروبِيَّةِ وضعيَّةٌ جملةً وتفصيلاً، لا تمتُّ بأدنىَ علاقةٍ إلى كتابٍ سماوِيٍّ. ولهذا، لم تكنْ سيطرةُ الرهبانِ على المجتمعِ المسيحِيّ حتَّى قبلَ النهضةِ الحديثَةِ إلاَّ بسبب المهابَةِ الروحيَّةِ التي كانوا يتمتَّعون بها ولِمَخافةِ الناسِ من بطشِهِمْ، وليست من منطَلَقِ قوانينَ دينيَّةٍ منبَثَقَةٍ من الكتابِ المقدَّسِ. لأنَّ الإنجيلَ – بخلافِ القرآنِ الكريمِ – لا تَتضمَّنُ تشريعًا لتنظيمِ حياةِ الإنسانِ. هذا هو السببُ الذي يجعلُ من العَلْمَانيَّةِ فكرةً موهومةً لا أصلَ لها، ولا حاجةَ في الواقعِ للحيادِ الدينِيِّ في أوروبا. لأنَّ كُلَّ إنسانٍ هناكَ متجاهلٌ أساسًا لما يعتنقُ غيرُهُ من عقيدةٍ وما تكمنُ الضمائرُ من وجدانيَّاتٍ، وفقًا لطبيعةِ الحياةِ.

أمَّا اللاَّدِينِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ فإنَّها كانتْ مفاجأةً وأمرًا واقعًا ظهرتْ تحت ظروفٍ طارئةٍ، إثرَ وثوبِ شبكةٍ مشبوهةٍ على السلطةِ في غمرةِ الأحداثِ بعد الحربِ العالميَّةِ الأولى، خاضتْ معركةً ضاريةً ضِدَّ الإسلامِ تحت قناعِ "مكافحةِ الرجعيَّةِ والشعوذةِ والأساطيرِ والخرافيَّاتِ" تعميةً وتضليلاً، في الحينِ الذي كان المجتمعُ صريعًا يعيشُ في غيابٍ، يُحَاوِلُ انْ ينهضَ من تحتِ أنقاضِ دولةٍ عملاقةٍ انْهارتْ عليه أركانُها فوجدَ نفسَهُ أمامَ هذا الأمرِ الواقعِ ولا خيارَ له ولا قدرةَ له لمواجهةِ النظامِ.

إنَّ دعوَى العَلْمَانيَّةِ أزمةٌ كبيرةٌ يُعانيها المجتمعُ التُّرْكِيُّ ويتعرَّضُ بسبَبِهَا لاضطهادٍ شديدٍ تختلِفُ شدَّتُها باختلافِ سياسَةِ الحكوماتِ بين فترةٍ وأخرَى. خاصَّةً فإنَّ مفهومَ العلمانيَّةِ موضوعُ لغطٍ ونزاعٍ حادٍّ وعِراكٍ دامَ بين النظامِ والشعبِ مدَّةَ قرنٍ تقريبًا. ولا تبدُو علاماتُ الوِفاقِ والتصالُحِ بين الطرفينِ بعدُ. تتمسَّكُ السلطةُ في بعض الفتراتِ بذريعةٍ مَّا، أو تستفيدُ من نشوبِ أيِّ أزمةٍ لِتَصْرِفَ انتبَاهَ الشعبِ عن هذه الأزمةِ. فعندما تتدهورُ الحالةُ الإقتصاديَّةُ مثلاً ينشغلُ الناسُ عن مناقشتِها، فَيَعْمِدُونَ إلى القيامِ بمظاهراتٍ احتجاجًا على الغلاءِ، فترتاحُ السلطةُ بذلكَ، لأنَّ الإحتجاجاتِ والمظاهراتِ ضدَّ سياسَةِ الإفقارِ أهونُ الشَّرَّيْنِ بالنسبَةِ للسلطةِ. وتارةً تتعمَّدُ الحكومةُ اللُّجوءَ إلى حِيَلٍ غريبَةٍ بإثارةِ مشكلةٍ مَّا؛ كقضيَّةِ الإرهابِ، أو القضيةِ الكردِيَّةِ، أو مسألةِ الأرمنِ وأمثالِها، فتتوجَّهُ الأنظارُ إلى هذه القضايا وينشغلُ الناسُ مرّةً أخرى عن مناقشةِ مسألةِ العَلْمَانِيَّةِ، وهكذا استطاعتْ الحكوماتُ التُّرْكِيَّة تأجيلَ حلِّ هذه الأزمَةِ حتى هذهِ اللَّحظةِ، غيرَ أنَّ المشكلةَ أكبرُ مِمَّا يظنُّهُ الكثيرون.

ومن الغريب جدًّا؛ أنَّ الشعبَ (وبخاصَّةٍ القطاعَ السُّنِّيِّ)، لم يَفْطَنْ إلى مفهومِ العَلْمَانِيَّةِ بالمعنَى الذي استغلَّهُ الكماليُّونَ لتحقيقِ اغراضِهم منذ عام 1939م. حتَّى اليومِ، ولم يتنبَّهْ إلى أَنَّهَا إنَّما كانت آليةَ خِدَاعٍ رَهِيبٍ لجأَ إليها الحُكَّامُ الكماليُّون لِيَتَّخذُوا منها دينًا بديلاً عن الإسلامِ، بل ظنَّ السُّنِّيُّونَ أنَّ الكماليِّينَ يقصدون بها فصلَ الدِّينِ عن الدولةِ فحسب! كما غفلَ هذا القطاعُ عن اختيارِ سُبُلِ الحوارِ وفتحِ بابِ النقاشِ مع الحُكَّامِ بِطُرُقٍ سِلْمِيَّةٍ وعِلْمِيَّةٍ، بل أصمَّ آذانَهُ واختارَ موقِفًا غريبًا بالصمتِ مع الكراهيَّةِ لِلعَلْمَانِيَّةِ والحُكَّامِ. فإنَّ مثلَ هذا الموقفِ الغريبِ – في الحقيقةِ – لا يدلُّ إلاَّ على انتفاءِ الكفاءَةِ اللاَّزمةِ فيه ليستحقَّ صفةَ المجتمعِ الرشيدِ.

ومن الغريب أيضًا؛ أنَّ الطُّغْمَةَ الكماليَّةَ الحاكمَةَ أحسَّتْ دائِمًا بالخوفِ من أنْ تتعرَّضَ يومًا لنقمةِ القطاعِ السُّنِّيِّ، فوجَّهتْ طغيانَها خاصَّةً إلى هذا القطاعِ دون غيرِهِ، كما اعتبرتِ القلَّةَ الحنيفةَ "جماعةً قد تتحوَّلُ يومًا مَّا إلى عصابةٍ من الإرهابيِّين"، وعاشَ رجالُ هذه السلطَةِ في حالةِ إنذارٍ مستمرٍّ لمواجهةِ السُّنِّيِّينَ (الْمُسْلُمَان)، والحنفاءِ (المسلِمِينَ) طوالَ العهدِ الجمهوريِّ إلى أيَّامِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ. وعلى رغم وجودِ هذه القلَّةِ الحاكمةِ إلى اليومِ وهي قابضةٌ على زمامِ الحُكمِ كسلطةٍ عُلْيَا فوقَ الحكوماتِ، (مع ما فقدتْ من بطشِها وسطوتِها في الآونَةِ الأخيرَةِ)، فإنَّها لا تكادُ تعتدُّ بالقطاعِ السُّنِّيِّ الذي يفوقُ عددًا على جميعِ الفصائلِ العرقيَّةِ والمذهبيَّة في تركيا. ولهذا، ما زالتْ تستخفُّ بالحكومةِ، وتترفَّعُ عن طرحِ مشكلةِ الْعَلْمَانِيَّةِ والأَتَاتُورْكِيَّةِ لأَيِّ نقاشٍ، تَحَسُّبًا لِخسارةِ شيءٍ من هيبَتِهَا على الدولةِ والمجتمعِ. وحفاظًا على مركزها واستكبارها الذي هو دِرْعُهَا الْمَنِيع.

كانتْ هذه خلاصةُ الحروبِ التي دامتْ من غير هَوَادَةٍ بين القلَّةِ السبطائيَّةِ الحاكمَةِ والأكثريَّةِ السُّنِّيَّةِ من المجتَمَعِ التُّرْكِيِّ طوالَ ثمانين عامًا. إذنْ نستطيعُ أنْ نقولَ باختصارٍ شديدٍ وفي ضوءِ هذه المعطياتِ: أنَّ مفهومَ الْعَلْمَانِيَّة لم يتم طرحُهُ لدراسةٍ منهجيَّةٍ وعلميَّةٍ في كلِّ هذه المدَّةِ الطويلةِ على الإطلاقِ؛ ويُعتَبَرُ هذا مصيبةً وسوءَ طالعٍ بالنسبةِ للمجتَمَعِ التُّرْكِيِّ. وبهذا يتَّضحُ وبصورةٍ جلِيَّةٍ: أنَّهُ إذا كانَ رغم استمرارِ هذا القدرِ من العراكِ والخصوماتِ والحروبِ التي جرتْ بين الطرفين، وما تعرَّضَ له الشعبُ من العنفِ والتنكيلِ، وما أُزهِقَ من الأرواحِ على أعوادِ المشانِقِ (حتَّى قبل صدورِ الحكمِ مِنْ محاكمِ الإستقلالِ بتنفيذِ هذه الإعداماتِ)؛ نعم، إذا كانَ رغم كلِّ ذلك لم تُطرَحْ قضيَّةُ الْعَلْمَانِيَّةِ بعدُ، لأيِّ نقاشٍ علمِيٍّ بمشاركةِ الطرفينِ حتَّى هذه اللَّحظةِ، فإنَّما يدلُّ ذلك على بُعدِ

الشُّقَّةِ بين هذا المجتَمَع وبين قسطاسِ العِلمِ والمعرفةِ، كما يدلُّ على غرابةٍ مُلْفِتَةٍ بقيتْ عليه في وجهِ الإسلام. لأنَّ الإسلامَ دين يستَنِدُ في حقيقتِهِ على أساسٍ متين من العلم والمعرفةِ.

وجملةُ القولِ: إنَّ مشكلةَ (العلمانيَّةِ التُّرْكِيَّة)، هي أزمةٌ مزمنةٌ نشأتْ عن غيابِ التفاهُمِ، ومكابرةِ الحُكَّامِ، وتتابُعِ التحدِّيَاتِ بين الطُّغمةِ الحاكمةِ وبين القِطاعِ السُّنِّيِّ الذي يؤلِّفُ نسبةَ ثُلُثَيْنِ من مكوِّناتِ المجتمعِ التركيِّ... كما للجهلِ الْمُتَفَشِّي بالمعايير العلميَّةِ، وعدمِ استيعابِ المسألةِ وخطورَتِهَا، –بسبب التقليدِ الأعمَى، والقبوريَّةِ، والمسلمانيَّةِ– تأثيرٌ كبيرٌ في ضعفِ المجتمَعِ عند مواجهتِهِ للطُّغْمَةِ الكماليَّةِ الحاكمةِ. فَإنَّ مُشْكِلَةَ العلمانيَّةِ فتنةٌ نائمةٌ في الوقت الراهن، وقد تتفاقمُ متى وجدتْ الظروفَ مواتيةً في أيِّ لحظةٍ، مهما بدتْ الطُّغْمَةُ الحاكمةُ قويَّةً ومُهَيْمِنَةً على المجتمعِ بقبضتِها الفولاذيَّةِ من جهةٍ، وَبِدِيمُقْرَاطِيَّتِهَا الْمُلْتَوِيَةِ وشعبيَّتها الزائفةِ من جهةٍ أخرى. تبدو معالجةُ هذه الأزمةِ من المستحيلِ إلاَّ إذا اتَّفق الطرفانِ يومًا مَّا على أنْ يتناولاها بهدوءٍ وجدِّيةٍ وفي إطارِ ضوابطَ علميَّةٍ، وتباحُثٍ عن الإجابةِ على هذه الأسئلة المهمَّةِ في الغاية، وهي:

- هل يمكنُ حقًّا، فصلُ الدِّينِ عن الدَّوْلَةِ، وتجريدُ جميعِ القوانين من الطابعِ الدينيِّ؟ إذا كانت الإجابَةُ: نَعَمْ، فلماذا يحرِّمُ القانونُ في جميعِ بلادِ العالَمِ الزواجَ بين الأقاربِ من الدرجةِ الأولى: أيْ الأبِ من البنتِ، أو الأمِّ مِنَ الابنِ (وإن علاَ أو نزلَ بالنسبةِ لجهةِ الأبِ أو لجهةِ الأُمِّ)؛ كذلك يحرِّمُ زواجَ الأخِ الشقيقِ من الأختِ الشقيقةِ؟ مع أنَّ ضابطَ هذا التحريمِ هو الدِّينُ وقد اعتمدتْهُ الْعَلْمَانِيَّةُ تباعًا.

- العلمانيَّةُ أم الدِّينُ هو المصدرُ الأوَّلُ لِقوانين الحياةِ الإجتماعيَّةِ؟ وتعقيبًا على ذلك: فأيُّهُمَا اقتبسَ جميعَ مصطلحاتِ القانونِ من الآخرِ؛ أهِيَ العلمانيَّةُ أم الدِّينُ؟ فمثلاً، كلماتُ: السَّرِقةِ، والزنا، والقتلِ، والعقوبةِ، والزواجِ، والطلاقِ والنَّفَقَةِ، والعقدِ، والضمانِ والرهانِ، والقرضِ، والهبةِ، والبيعِ، والرِّبَا، والخيارِ، والشهادةِ وغيرها... مِنْ أيِّ مصدرٍ جاءَتْ هذه المصطلحاتُ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ أَمِنَ الفكرةِ العلمانيَّةِ أم مِنْ مؤسَّسَةِ الدِّينِ؟ فكيف إذنْ يجوزُ نسبةُ هذهِ المصطلحاتِ إلى العلمانيَّةِ وقد اقتبستْها من مصادرِ الدِّينِ واعتمدتْها بنفسِ الضبطِ وإنْ غيَّرتْ محتوياتِها وحرَّفتْ أحكامَهَا! فإن البشريَّةَ –بصورةٍ عامةٍ– تُدِينُ الزواجِ أو العلاقةِ الجنسيَّةِ منذ قرونٍ سحيقةٍ، وذلك وفقًا لِمَا حَرَّمَهُ الدِّينُ تحريمًا على التأبيدِ، في حينٍ لم يكنْ لفكرةِ الْعَلْمَانِيَّةِ أدنىَ أثرٍ في سجِلِّ التاريخ.

▪ هل استطاعَ الحُكَّامُ الكماليُّونَ – في واقعِ الأمرِ– أنْ يفصِلوا بين الدِّين والدولةِ في تركيا كما يزعمون؟ إذا كانت الإجابَةُ: نَعَمْ، فلماذا تحتلُ مؤسَّسَةٌ دينيَّةٌ عملاقةٌ وسطَ جهازِ الدولةِ التُّرْكِيَّة العلمانيّةِ باسْمِ "رئاسةِ الشؤونِ الدينيَّةِ"؟ علمًا بأنَّ آلافًا من العاملين بهذه المؤسَّسَةِ يتقاضَونَ رواتِبَهُم الشهريَّةَ التي بلغتْ قدرًا يزيدُ عن مليارين من الدولارِ الأميركِيّ، من خزانَةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ العلمانيَّةِ، وقد بلغَ عددُ الموظفين بهذهِ المؤسَّسَةِ **117** ألف شخصٍ حَسَبَ الأرقَامِ لعامِ **2012**م.

▪ هل تتمثَّل العلمانيةُ في محض التسامح؛ وما علاقة التسامح بعزل الدِّين عن الحياة الإجتماعيةِ بضغطِ قوانينَ معيَّنَةٍ ومستوردةٍ؟ وهل يمكن ذلك في واقع الأمر، أو هل يتوقَّفُ توفيرُ جوٍّ يسوده التسامُحِ بعزل الدِّين عن الحياة الإجتماعية من خلال براهين علمية تُثبت ذلك؟

▪ هل العلمانيةُ في حقيقتِها حِيادٌ تامٌ حيالَ جميعِ الدِّياناتِ والمعتقداتِ في المجتمعِ الواحدِ، وماذا يكونُ موقفُ الْعَلْمَانِيَّةِ من أطرافِ الخصومةِ في التحكيمِ إذا كان ثَمَّ نزاعٌ بين معتقداتِ قطاعين أو أكثرَ في المجتمعِ الواحدِ، أو بالأحرَى: إذا كانتْ معتقداتُ قطاعٍ تتضمَّنُ الإهانةَ بمعتقداتِ قطاعٍ آخر.. وهل يمكنُ معالجةُ هذه الأزمةِ باللجوءِ إلى آليةِ الْعَلْمَانِيَّةِ؟

▪ هل تتضمَّنُ الْعَلْمَانِيَّةُ معنى الإلحادِ والكفرِ بالمقدَّساتِ كلِّها؛ وهل معنى ذلك: أنَّ أولياءَ الأمرِ في الدولةِ الْعَلْمَانِيَّةِ كُلَّهم ملحدونَ، أو مختلِفون: فيهم المتحرّرون و"الْمُتَدَيِّنُون؟" ألاَ ينعكسُ اختلافُ مواقفِهِمْ من المواطنين بتأثيراتِهَا المتناقضةِ على سياسَةِ الدولةِ إذا كانوا مختلِفين: فيهم مَلاَحِدَةٌ وفيهم مؤمنون، كما هو الحالُ بالنسبة لرجالِ السياسة في الحكومات التُّرْكِيَّة؟

▪ هل يجوزُ تعريفُ الْعَلْمَانِيَّةِ بأنها محضُ حربٍ على مفهومِ الدِّينِ مطلقا؟ أتشمَلُ هذه الحربُ جميعَ الأديانِ أم أنَّها تستهدفُ الإسلامَ فحسبُ؟ فإذا كانتْ الإجابةُ على السؤالين، أو على أيٍّ منهما بِنَعَمْ، كيف يمكنُ إذنْ حيادُ الدولةِ حيالَ المعتقِدين أو المسلمين، بل كيف يمكنُ إنجاحُ سياسةِ المُسَاوَاةِ بين قطاعاتٍ مختلفةِ الإتجاهاتِ الدينيَّةِ؟

▪ وإذا كانتِ الْعَلْمَانِيَّةُ معناها الحربُ على مفهوم الدِّين بصورةٍ مطلقةٍ، يجبُ أن تشمَلَ هذه الحربُ – في الوقتِ ذاتِهِ – الديانةَ الأتاتوركيَةَ المغلَّفَةَ بوشاحِ (الإحتفالاَتِ الرسميَّةِ)، لأنَّها – في الحقيقةِ– دينٌ متكاملٌ بآدابِه وطقوسِه ومعابِدِهِ ومناسِكِهِ... حيثُ لا مجالَ لمقارنتِهِ بالإحتفالات

الرسميَّةِ في أيّ دولةٍ من دولِ العالَم، حتى في ليبيا القذافِيّ المعروفِ بتصرُّفاتِهِ الجريئةِ في استغلالِ الدِّين والعبثِ بمفاهيمِهِ وخروجِهِ على حدودِ الإسلامِ، لم تكنْ هناكَ احتفالاتُ "عيدِ الجماهيريَّةِ"، أو "أعيادِ الجلاءِ"، على سبيل المثال، لم تكن تمتُّ بصلةٍ إلى قداسةٍ أو فكرةٍ روحانيَّةٍ أو إلهٍ، بل كانت مناسباتٌ حماسيَّةٌ وأيْديُولُوجيَّةٌ دُنْيويَةٌ محضةٌ يستغلُّها النظامُ لِتوجيهِ المجتمعِ وتسييرِهِ وتسخيرِهِ وفقَ أهدافٍ مُعَيَّنَةٍ، بخلافِ الديانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ التي تُنَافِسُ الإسلامَ وتُزَاحِمُهُ في كُلِّ مجالاتِ الحياةِ. فكيف يجوزُ إذَنْ استثناءُ هذا الدِّين من بَقِيَّةِ الأديانِ حيالَ هذه الدلائل القاطعة؟!

- حسنًا، إذا كانَ هذا هو الواقعُ على المسرحِ، فهل يجوزُ وصفُ تركيا بأنَّها بلدٌ إسلامِيٌّ، وما الفائدَةُ من وراءِ هذا الوصفِ؟ لأنَّ كثيرًا من المثقَّفينَ في تركيا وفي أنحاءِ الوطنِ الإسلامِيّ هكذا يصفونَها، والدافعُ غيرُ معروفٍ بالتحديدِ ما إذا كانَ ذلك عن حُجَّةٍ، أو من منطَلَقِ العاطِفَةِ، أو الجهلِ، أو الخلْطِ، أو الفسادِ الذي سادَ على الفكرِ والدِّين في عصرِنَا.

لقد تبيَّنَ بوضوحٍ وصراحَةٍ من خلالِ هذه الْمُعْطَيَاتِ الاستفهاميةِ أنَّ معالجَةَ أزمةِ الْعَلْمَانِيَّةِ في تركيا قد تستحيل، لأنَّها تتوقَّفُ على شروطٍ لا حصرَ لها، وعلى رأسِها الإجابَةُ على الأسئلةِ الواردةِ فيما سبقَ، وليس ذلك من الأمورِ السهلَةِ في مجتمعٍ يغمرُ الدِّينُ كلَّ حياتِهِ بخلافِ المجتمعاتِ المسيحيَّةِ. كما أنَّ مناقشةَ هذه الأسئلةِ وأمثالِهَا، قد تتطلَّبُ طرحَ مزيدٍ من الإشكاليَّاتِ، فتتسلسلُ الأزماتُ الجدليَّةُ، وتتحوَّلُ الأمرُ إلى دوَّامةٍ لا مَنَاصَ ولا خلاصَ منها!.

إنَّ النظامَ التركِيَّ الْعَلْمَانِيَّ أشبَهُ ما يكونُ بالنظامِ الإسرائيلِيّ الْعَلْمَانِيّ بفرقٍ بسيطٍ؛ ذلك، أنَّ السلطةَ الإسرائيليَّةَ تدَّعِي"أنَّ الدولةَ ديمقراطيَّةٌ عَلْمَانِيَّةٌ"، غير أنَّها لم تُصْدِرْ إلى اليومِ دستورًا مدوَّنًا، خشيةَ أن تتعارَضَ بعضُ بنودِهِ مع نصوصِ التوراةِ والتلمودِ، فهي دولةٌ عَلْمَانِيَّةٌ في ظاهرِهَا، ودينيَّةٌ في سياساتِهَا ومعظمِ أحكامِهَا المتعلِّقةِ بالحياةِ الإجتماعيَّةِ. أمَّا السلطةُ التُّرْكِيَّة فلها دستورٌ مدوَّنٌ ينصُّ بعضُ بنودِهِ على أنَّ الدولةَ ديمقراطيَّةٌ عَلْمَانِيَّةٌ؛ غير أنَّ هذه البنودَ لا تتعارضُ مع أدنى شيءٍ من تعاليمِ الديانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ أبدًا، كما توافقُ العرفَ المسلمانِيَّ في كثيرٍ من موادِّها. فهي أيضًا دولةٌ عَلْمَانِيَّةٌ في ظاهرِها، ودينيَّةٌ في سياساتِهَا ومعظمِ أحكامِهَا المتعلِّقةِ بالحياةِ الإجتماعيَّةِ.

ولا ننسَى بهذهِ المناسبَةِ: أنَّ الدولةَ الإسرائيليَّةَ تتمتَّعُ بِدِينٍ وتاريخٍ عريقين، لذا اضطرَّتْ منطقِيًّا إلى الإعتمادِ على التوراةِ والتلمودِ كمصدرين لسياستِها وأحكامِها، باعتبارِهما القوَّةَ الحافزةَ لوجودِ

المجتمعِ اليهوديِّ، وإقامةِ دولتِهِ بعد آلافِ سنين من الشتاتِ والتهجيرِ والتشريدِ. لذا لم تكنْ السلطةُ الإسرائيليَّةُ في حاجةٍ إلى إصدارِ دستورٍ مُدَوَّنٍ بخلافِ السلطةِ التُّرْكِيَّة؛ فإنَّها ربما وجدتْ نفسَها عالةً على العربِ في قضية الدِّين، فانبرتْ لاختلاقِ دِينٍ يُمَتِّعُهُ باستقلالٍ في معتقدَاتِهِ أنَفَةً واستنكافًا من التبعيَّةِ، ولكنْ علمتْ أنَّ هذا الدِّينَ المختَلَقَ لن يملأ فراغَ الإسلامِ المتميّزِ بمتانَتِهِ العلميَّةِ وشمولِهِ العالَمِيّ أبدًا، فلجأتْ إلى الإستفادَةِ من الْعُرْفِ الْمُسْلُمَانِيّ الخليطِ برسوباتِ الصوفِيَّةِ والهندوسِيَّةِ، لِدَعْمِ الجوانبِ الضعيفةِ في الدِّيَانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ، فانطلقتْ من هذين المصدرين في سياساتِهَا وأحكامِها. يدلُّ على هذه الحقيقَةِ حجمُ الدستورِ التُّرْكِيّ المتميّزِ بكثافَةِ موادِّهِ التفصيليَّةِ وما جرتْ عليهِ من خصوماتٍ ومناقشاتٍ بين الأحزابِ السياسيَّةِ، وتعديلاَتٍ عدِيدَةٍ على بنودِهِ وموادِّهِ طوال ثمانين عامًا.

إنَّ الْعَلْمَانِيَّةَ مفهومٌ غامضٌ وَمعضلةٌ ذاتُ وجوهٍ متعدِّدَةٍ لا تنحصرُ في مجرَّدِ الحيادِ حيالَ الدِّينِ والمعتقداتِ فحسب. تَنَاوَلَهَا كثيرون من رجالِ الفكرِ والعلمِ والدِّينِ منذ بدايَةِ القرنِ العشرين، ولكنَّهم عجزوا جميعًا في وصفِ حلٍّ ينتهي بِهِ النزاعُ الذِي أنْهَكَ الْعَلْمَانِيّين والْمُتَدَيِّنِينَ على السواءِ، وذهبَ ضحيَّتَهُ مئاتُ آلآفٍ من الأرواح، وهذا يدلُّ أخيرًا دلالةً قاطعةً وبعد كلِّ نقاشٍ: أنَّ الْعَلْمَانِيَّةَ (حتى لوكان معناها الحيادُ في الحقيقةِ واحترامُ جميعِ الدياناتِ والمعتقداتِ –كما يزعمه الكماليُّون–؛ وحتَّى لو تحقَّق الوِفَاقُ والتصالحُ بين الْعَلْمَانِيّين والْمُتَدَيِّنِينَ)، لا يُسْتَبْعَدُ أن تحلَّ محلَّ دينٍ يهدِّدُ كلَّ ضميرٍ، وتطغَى على جميعِ الأديانِ، وتتحوَّلَ في النهايَةِ إلى آليةٍ أيْديُولُوجِيَّةٍ خطيرةٍ تُسْتَخْدَمُ في قهرِ كلِّ إنسانٍ قد يحترمُ مقدَّسًا مَّا، نظيرَ ما حَدَثَ في تركيا باستخدامِ الأَيْدِيُولُوجِيَّةِ الأتاتوركيّةِ ضدّ كلِّ ما يمتُّ إلى الإسلامِ بأدنى صِلةٍ. وهنا تبدأ الكارثَةُ والصدمَةُ.

***

2) **الأيديولوجِيَّةُ الأتاتوركيّةُ (الكماليَّة Kamalism،Ataturkism)**

الأَتَاتُورْكِيَّةُ (بِحَسَبِ ما تبدو في الصُّورةِ الظاهرةِ) وعلى لسانِ مُبَشِّرِيهَا عَبْرَ دِعَايَاتِهِمْ: "إنَّهَا عقيدةٌ سياسيَّةٌ أخلاقيَّةٌ اجتماعيَّةٌ وإنسانيَّةٌ؛ انبثقتْ من أُطروحاتِ مصطفَى كمال وإرشاداتِهِ الحكيمةِ، الَّتِي تَتَبَنَّى جمعَ شَمْلِ الأمَّةِ التُّرْكِيَّة؛ ثمَّ اكتسبتْ (هذه الأُطروحاتُ والإرشاداتُ المتفرِّقةُ) صِيَاغَتَهَا الفكريَّةَ – بعدَ تَقْنِينِها وتوحيدِهَا– بجهودِ ذَوِي الكفاءةِ والاختصاصِ كَمَذْهَبٍ سَنَّهُ القائدُ الأعظمُ (ulu önder) للنهوضِ بالمجتمعِ التُّرْكِيّ على أساسِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة ومقوّماتِ الحضارةِ الغربيَّةِ".

إنَّ الأتاتوركيةَ الَّتي تبدو من خلالِ هذه المواصفات البَرَّاقَةِ والفَتَّانَةِ، ضمن تعريفِها الذي أجمعَ عليه الشرذمةُ القائمةُ بأعبائِهَا، ليستْ في الحقيقةِ هي الأَتَاتُورْكِيَّةُ الَّتي تَمَّ تطبيقُها قَسْرًا وعلى رغم الشعبِ التركيِّ بخاصَّةٍ منذ عام **1939**م.، إلى يومنا هذا. كما أنَّ الدِّعاياتِ الكثيفةَ الَّتي كانتْ ولا تزالُ الطُّغْمَةُ السبطائيّةُ الحاكمةُ تقومُ ببَثِّهَا باستخدامِ أجهزةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ، وَتزعم أنَّها ضمانٌ لِلعَلْمَانِيَّةِ والحريَّةِ الدينيَّةِ؛ كلُّ ذلك تحريفٌ للحقيقةِ، ولا يقوم شيءٌ من هذا الكلامِ على أساسٍ من الصحَّةِ.

إنَّ الفكرةَ الأَتَاتُورْكِيَّةَ – في الحقيقةِ – مفاجأةٌ غريبةٌ ظهرتْ مؤخَّرًا كنتيجةٍ لِظروفٍ غَامِضَةٍ وَلَّدَتْ بعضُهَا بعضًا بصورةٍ عَفَوِيَّةٍ على مدَى قرونٍ، لِتَبْتَلِعَ يومًا من الأيَّامِ دولةً عظيمةً على حين غِرَّةٍ منها! وهي تستمدُّ في حقيقتِها من حدثٍ تاريخيٍّ هامٍّ جدًّا، كحَلَقَةٍ من حلقاتِ تيَّارٍ إنتقاميٍّ دبَّ في القلوبِ منذ دُفِنَتْ الدولةُ الخَزَرِيَّةُ في أعماقِ التاريخِ، وتَنَامَى وَامْتَدَّ عبرَ حُقْبَةٍ تزيدُ عن أحد عشر قرنًا، حتَّى وجدَ مناخًا ملائمًا للإيقاعِ بالمسلمين ثأرًا على دورهم في إزالةِ الدولةِ الخزريَّةِ عن مسرحِ التاريخ. ثمَّ تحوَّلَ هذا التَّيارُ (في أيَّامِ السلطان عبد الحميد) إلى خُطَّةٍ مدروسةٍ بالتنسِيق مع المهاجرين من يهودِ أنْدَلُسَ الذين لجؤوا إلى الدَّولةِ العثمانيَّةِ في عهدِ السلطان سليمان القانوني، ثم اتَّسَمَ هذا التَّيَّارُ بَالأَتَاتُورْكِيَّةِ كحركةٍ سياسيَّةٍ علنيَّةٍ في العهدِ الجمهوريّ. والقصَّةُ ليست مما يتناولها كل باحثٍ (لأسباب!).

لكنَّ المناسبةَ هنا تقتضِي الإشارةَ إلى أنَّ الشعبَ الخَزَرِيَّ (الذي يدَّعي بعضُ المؤرِّخينَ أنَّه قومٌ من الأتراك)، اعتنقَ مَلِكُهُمْ (بُولاَن Bulan) الإسلامَ في سنةِ **737**م.، ثمَّ ما لبثَ أنْ ارتدَّ واعتنقَ اليهوديَّةَ لأغراضٍ سياسيَّةٍ، فتهوَّدَتْ معه الطبقةُ الحاكمةُ، وكثيرٌ من رعاياه. وكان الملِكُ (بُولاَن) هذا معاصرًا للخليفةِ العبَّاسيِّ هارون الرشيد (**763–809**م.).

إنَّ الباحِثَ الحاذِقَ إذا نقبَ تاريخَ هذا القومِ بِدِقَّةٍ، خاصَّةً إذا تتبَّعَ انتشارَ بقاياهُ في أنحاءِ شرقِ أوروبا وشبهِ جزيرةِ بَلْقَانَ (بعدَ زوالِ الدولةِ الخزريَّةِ)، يُصابُ بصدمةٍ عندما يعثرُ على شبكةٍ كثيفةٍ ورهيبةٍ من العلاقاتِ والتعاونِ بين هؤلاءِ (المتهوِّدين من الأتراك) وبين اللاَّجئين من يهود أندلس. إنَّ هذه العلاقات – لا شكَّ – قد أسفرتْ (في وقتٍ متأخِّرٍ) عن وجودِ تجمُّعاتٍ يهوديةٍ (مُتَأَسْلِمَة) في أنحاءِ مقدونيا واليونان، حيث أصبحتْ مدينةُ سالونيك مركزًا لهذه التجمُّعات المشبوهةِ خاصَّةً في أواخرِ العهدِ العثمانيِّ.

إنَّ المتهوّدِينَ الْخَزَرَ، كانوا أوفرَ حظًّا من اليهودِ العبريّين في التوغُّلِ داخلَ المجتمعِ العثمانِيّ، وأكثرَ نجاحًا في تبادُلِ العلاقاتِ مع الأتراكِ الْمُسْلُمَان الَّذين هم من بني جلدتِهم؛ لذلك عندما أرادَ اليهودُ السَّبَطَائِيُّونَ أنْ يُمَهِّدُوا للدَّولِ الغربيَّة سبيلَ الحربِ على الدَّولةِ العثمانيَّةِ من الدَّاخلِ، تعاونوا مع المتهوّدين الْخَزَرِ في كثيرٍ من الأمورِ، لتنفيذِ الْمُؤَامَرَةِ ضِدَّ ((الرّجُلِ المريضِ!))[74]، حيث قام بهذا الدَّوْرِ شخصيَّاتٌ من مُتَهَوِّدِي الأتراكِ من سَكَّانِ مدينةِ سالونيك، وكان مصطفى كمال في مُقَدِّمَتِهِمْ.

يجب الإشارةُ هنا إلى أنَّ مصطفى كمالاً، ليس هو الذي خطَّطَ للفكرةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ – كما يظنُّهُ البعضُ من غير روِّيَّةٍ! –، ولم يُسْمَعْ أنّه وصَّى أحدًا بتأليفِهِ. بل أفادَ بصراحةٍ وعلى رؤوسِ الأشهاد: (أنَّه كائنٌ فانٍ، وأنَّ جِسْمَهُ سوف يتحوَّلُ إلى تراب)[75]، وهذا ليس لأنَّهُ كان يؤمن بالله واليوم الاخر! بل تبرهنُ مذكِّراتُهُ الَّتي كانتْ ممنوعةً عن المواطنينَ، محفوظةً في الْمَعْبَدِ[76] وَفي صُندوقٍ خاصٍّ بِ((مؤسَّسة أتاتورك الجليلة))، تبرهنُ على أنَّه كان مُتَحَرِّرًا من أيِّ دينٍ[77]. ولكنَّ زمرةً من متهوّدِي سالونيك عمدوا إلى صياغةِ مشروعٍ بعنوان: ((الأَتَاتُورْكِيَّةِ))، فورَ موتِ مصطفى كمال مباشرةً.

---

[74] تعبيرُ "الرجلِ المريضِ": لقبٌ أطلقهُ قيصرُ روسيا نيكولاي الأول على الدولةِ العثمانيةِ سنة **1853** م بسببِ ضعفِها وتدهورها مع الزمان نتيجةَ اعتمادِها على مجرَّدِ القوَّةِ العسكريَّةِ، وإهمالِها العلمَ والتقنيةَ؛ وعدمِ اكتراسِها بما كان يجري على الساحةِ الأوروبيَّةِ مِنَ التطوُّراتِ في مجال الفنونِ والصناعات...

[75] ورد في معظم المصادر التي تضم تصريحات مصطفى كمال أنّه قال (كما عَرَّبْنَاهُ): Benim fani vucudum elbet bir gun toprak olacaktır,

[76] المعبد: هو ضريحه العملاقُ الذي بُنِيَ في وسط مدينة أنقره، ودام إنشاؤه تسعة أعوام، ما بين: (**1944–1953**م.) يسمى باللُّغة التُّرْكِيَّة:anit kabir. أي القبر المعظّم. إن الذين يبغضونه، يتخذون من هاتين الكلمتين ذريعة بطريق التداعي فيسمونه: ((قبر العنيد))

[77] هذه مقاطعُ من كلمات مصطفى كمال، مُقْتَبَسَةٌ من مُدوَّنتِهِ الّتي كتبها بقلمِهِ، وهي محفوظةٌ في صُندوقٍ خاصٍّ بِمُنشأَةٍ اسمها: مؤسّسةُ أتاتورك الجليلة Ataturk Yuksek Kurumu، وهذه المؤسّسة الضخمة بيتٌ مقدّسٌ في العقيدة الأتاتوركيّة، تمّ تأسيسه في أنقره بموجب قانون رقم: **2876**، المنبثق من المادة رقم: **134** من دستور الدولة التُّرْكِيَّة... اقتبس هذه المقاطع من كلمات مصطفى كمال، باحثٌ تُرْكِيٌّ اسْمُهُ: شمس الدين كُولَرْ، وَنَشَرَهَا تحت عنوان: ((الكتاب الأبيض Beyaz Kitap))، لكنّه بعد أن مُثِلَ أمام المحكمة بتهمةِ المساسِ بكرامة مصطفى كمال بموجب قانون حماية شخصية مصطفى كمال رقم: **5816**، حكمت المحكمةُ بِبَرَاءَتِهِ، ثمّ ما لبث بعد ذلك حتى مات بغتةً.

هذه كلمات مصطفى كمال في حق الله سبحانه:

1) «İnsanlar ilk devirlerinde pek acizdi. Kendilerini koruyamıyorlar, hic bir olayın da sebebini bilmiyorlardı. Kendilerini koruyacak bir kuvvet aradılar. Sonunda insanlık, vicdaninda bir kuvvet yarattı. O da işte Allah'tır». Şemseddin Guler, Beyaz Kitap, s.55. PK. 24 Kasımpaşa İst.-1999.

هذه ترجمةُ المقطع الأوّل (من كلمات مصطفى كمال) إلى العربية، يقول بالحرف الواحد: إنَّ الْبَشَرَ كَانُوا يُعَانُونَ عَجْزًا بَالِغًا فِي حُقُبَاتِ الْمَاضِي السَّحِيقِ، إذْ لَمْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى أَنْ يَحْمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ وَلَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ أَيِّ حَادِثٍ.. لِذَا، تَبَاحَثُوا عَنْ قُوَّةٍ تَحْمِيهِمْ، ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ اخْتَلَقَ الإِنْسَانُ فِي ضَمِيرِهِ قُوَّةً. فَتِلْكَ هُوَ ((اللهُ)).

2) «Masum ve cahil insanları, yuzlerce allah'a taptırmak, veya, allahları muayyen gruplarda toplamak ve en nihayet bir allah kabul ettirmek, siyasetin doğurduğu neticelerdir». Şemseddin Guler, Beyaz Kitap, s.17. PK. 24 Kasımpaşa İst.-1999.

يضمُّ هذا المشروعُ سلسلةً من المبادئِ لتكوينِ الفكرةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ في ثوبٍ دينيّ، يُوهِمُ تأليهَ شخصيَّتِهِ وحمايَتَهَا بالقانون، مِمَّا أصدرتْ الحكومةُ التُّرْكِيَّةُ القانونَ رقم: **5816**[78] انطلاقًا من هذا المشروع، وذلك بتاريخ: **1951/07/31**م. في عهدِ رئيسِ الوزراءِ عدنان مندريس. كما فُرِضَ على كلِّ مواطنٍ وقفةَ الإحترامِ أمامَ تماثيلِ مصطفى كمال في أوقاتٍ معيَّنَةٍ تُقامُ فيها حفلةُ التعظيمِ والتَّأْلِيهِ له، وهي طقسٌ دينيٌّ وعبادةٌ له بتمامِ معنى الكلمةِ. ومن أنكرَ هذهِ الحقيقة، وعدَّ هذا التصريح من المبالغةِ فليأتِ بحجَّتِهِ، وإلاَّ فلِيَمْصُصْ بَظْرَ اللاَّت!

تَنُصُّ اللَّوائحُ الْمُنْبَثِقَةُ من هذا القانونِ على إقامةِ طقوسٍ دينيَّةٍ (مغلَّفَةٍ بالحفلاتِ الرَّسْمِيَّةِ، تعميَةً وتضليلاً لِلْمُتَأَمِّلِ وِالْمُلاَحِظِ حتَّى لا يحتجَّ أحدٌ فيقول: إن هذا دينٌ، لا مساغَ لإجبارِ المواطنين على اعتناقِهِ في دولة عَلْمَانِيَّةٍ!) تُقامُ هذه الحفلاتُ إلى يومنا هذا بذريعةِ الإحترامِ لِشخصيةِ مصطفى كمال في أوقاتٍ معيَّنةٍ كُلَّ أسبوعٍ، وفي أيَّام الأعياد الوطنيَّة، ويومَ ذِكرَى موتِهِ... ومن خالفَ هيئةَ هذه الوقفةِ بتحريكِ عضوٍ من أعضاءِ جِسْمِهِ، أو اسْتَخَفَّ بها، عُوقِبَ وفقًا للقانون.

هذه ترجمةُ المقطع الثاني (من كلمات مصطفى كمال) إلى العربية، ويجب هنا التنبيه مع التأكيد على أنَّ كلمة (الله) قد وردت في النص التركي بصيغة الجمع (اللهِين Allahlar) بدل (آلِهَة Allah) في موضعين، وبصيغةِ المفردِ في موضعٍ، علمًا بأنَّ كلَّها نَكِرَةٌ غيرُ مُعَرَّفَةٍ! يقول بالحرف الواحد: "إِنَّ حَمْلَ النَّاسِ الْجَهَلَةِ السُّذَّجِ عَلَى الإِيمَانِ بِمِئَاتِ (اللهِينَ)؛ ثُمَّ تَرْتِيبُ (اللهِينَ) ضِمْنَ فِئَاتٍ مُعَيَّنَةٍ؛ ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ حَمْلَهُمْ عَلَى الإِيمَانِ بِ(اللهِ) وَاحِدٍ، إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ أَغْرَاضٍ سِيَاسِيَّةٍ"

[78] هذا نص القانون باللُّغَة التُّرْكِيَّة:

Madde 1:

f1. Atatürk'ün hatırasına alenen hakaret eden veya söven kimse bir yıldan üç yıla kadar hapis cezası ile cezalandırılır.

f2. Atatürk'ü temsil eden heykel, büst ve abideleri veyahut Atatürk'ün kabrini tahrip eden, kıran, bozan veya kirleten kimseye bir yıldan beş yıla kadar ağır hapis cezası verilir.

f3. Yukarıki fıkralarda yazılı suçları işlemeye başkalarını teşvik eden kimse asıl fail gibi cezalandırılır.

Madde 2:

f1. Birinci maddenin ikinci fıkrasında yazılı suçlar zor kullanılarak işlenir veya bu suretle işlenmesine teşebbüs olunursa verilecek ceza bir misli artırılır.

Madde 3:

f1. Bu Kanunda yazılı suçlardan dolayı Cumhuriyet savcılıklarınca re'sen takibat yapılır.

Madde 4:

f1. Bu Kanun yayımı tarihinde yürürlüğe girer.

Madde 5:

f1. Bu Kanunu Adalet Bakanı yürütür.

لقد تمَّتْ صياغةُ الأَتَاتُوزْكِيَّةِ كَدِينٍ بديلٍ عن الإسلامِ لأوَّلِ مَرَّةٍ في عام **1939**م. وإنْ لم تنُص على هذه الصياغةِ مادَّةٌ قانونيَّةٌ. وذلك تحسُّبًا لردود فعلٍ يَتَوَقَّعُهُ الكماليُّون مِنْ قِبَلِ الشعب يومئذ. تبرهنُ على هذه الحقيقةِ دلائلُ كثيرةٌ، منها:

ورد تعريفُ الدِّين في عدَّةِ مَعَاجِمَ وموسوعاتٍ طَبَعَهَا الكماليُّونِ، منها معاجمُ مجمعِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّة TDK المطبوعةِ في العقدِ الخامسِ من القرنِ العشرين، وَرَدَ فيها تحت مادَّةِ الدِّين: ((إنَّ دِينَ الشَّعْبِ التُّرْكِيّ هُوَ الْكَمَالِيَّةُ)). هذه المبادرةُ إنَّما كانتْ تتبنَّى ترويضَ الشعبِ في بدايةِ الأمْرِ على استقبالِ هذا الدِّينِ الجديدِ استعدادًا للقضاءِ على "دِينِ الْعَرَبِ!"[79] على حدَّ قولِهم، كما وَرَدَ في مُدَوَّنَةِ مصطفى كمال على لِسَانِهِ بالذات، سَجَّلَهُ بِقَلَمِهِ، وهذا نصُّ كلامِهِ: "لَقَدْ كَانَ الأَتْرَاكُ أمَّةً عَظِيمَةً حتَّى قَبْلَ أنْ يَعْتَنِقُوا دِينَ الْعَرَبِ. إنَّ هَذَا الدِّينَ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ ناجعٌ فِي جَمْعِ الأَتْرَاكِ مَعَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْمِصْرِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعُوبِ، لِيَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً. بَلْ عَلَى نقيضِ ذَلِكَ وَهَّنَ الْعَلاَقَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ الأُمَّةِ التُّرْكِيَّة، وَخَدَّرَ مَشَاعِرَهُمْ وَهَدَّأَ هَيَجَانَهُمُ الْقَوْمِيَّةَ. كَانَ هَذَا أَمْرًا طَبِيعِيًّا. لأَنَّ الدِّينَ الَّذي أَقَامَهُ مُحَمَّدٌ، يَتَبَنَّى سِيَاسَةً عَرَبِيَّةً شَامِلَةً فَوْقَ بَقِيَّةِ الْقَوْمِيَّاتِ..."[80]

وقد احتذى بمصطفى كمال بعضُ كُتَّابِ الأتراكِ في تسميَةِ الإسلام بِ "دِينِ الْعَرَبِ" مثلَ الكاتبِ علي كمال مَرَام Ali Kemal Meram، يقول في مقطعٍ من كتابِهِ (أمهاتُ سلاطينِ العثمانيّين): "إنَّ الأتراكَ كانوا قد أصبحوا أسرَى تحت حكم بنِي عثمان، الذين عظَّمهم المجتمعُ التركيُّ وأخرجهم من الخيمَةِ وأوصلَهم إلى القصورِ الفخمةِ المبنيَّةِ من الرُّخَامِ. ولكن لم يقفْ مستوى الأتراك عند حدود العبيد والأسرَى في أيدِهم، بل استُضعِفُوا كذلك بأيدِي مَنْ وقعوا في أسرِهم أثناءَ المعارك من أصلابِ الأفرنج (الذين غدوا أُمَرَاءَ وَوُزَرَاءَ في بلاطِ سلاطينُ بني عثمان). إنَّ أسرَ الأتراك كان قد بدأ منذ عهدِ السلاجقةِ واشتدَّ في عهد العثمانيّين، فكان من عواقبِ هذا الأسرِ أنْ انْهَمَكَ الأتراكُ في دِينِ الْعَرَبِ والإنتماءِ إليه بحرصٍ، والتمسُّكِ بمذهبِ العجمِ وطرائِقِهم الصوفية[81]."

---

[79] يُقصد منه: الإسلام.

[80] هذا نص كلمات مصطفى كمال باللُّغة التُّرْكِيَّة:

«Türkler, Arapların dinini kabul etmeden evvel de büyük bir millet idi. Arap dinini kabul ettikten sonra, bu dini, ne Arapların, ne aynı dinde bulunan acemlerin ve ne de Mısırlıların vesairenin Türklerle birleşip bir millet teşkil etmelerine hiçbir tesir etmedi. Bilakis Türk milletinin rabıtalarını gevşetti; milli hislerini, milli heyecanını uyuşturdu. Bu pek tabii idi. Çünkü, Muhammed'in kurduğu dinin gayesi, bütün milliyetlerin fevkinde şamil bir arap milliyeti siyasetine müncer oluyordu». Şemseddin Guler, M. Kemal ve Din, s.21, 22. Aspaş Printing Office İstanbul-1999.

[81] علي كمال مرام

Ali Kemal Meram, Padişah Anaları, 5. Edition, Toplumsal Dönüşüm Publishin, page: 139, 384. İstanbul-1997

وردتْ آلافٌ من الألفاظِ على لسانِ كثيرٍ من الشعراءِ والكُتَّابِ الكماليِّين يؤلِّهُونَ فيها مصطفى كمالاً، ويعلنون فيها أَنَّهُمْ يعبدونَهُ، وهذه أمثلةٌ منها:

يقول الشاعر يوسف ضياء أورتاج (**1895–1967**م.) في كلماتٍ له:

"إِنَّهُ يَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَدَمِ كَإِلَهٍ"[82]

***

المؤامرةُ الأَتَاتُورْكِيَّةُ وما أسفرَ عنها مِنْ تدميرٍ لِلْقِيَمِ السَّامِيَةِ، وفَوْضًى في الدِّين والأخلاقِ والتفكير:

أُعْلِنَتِ الجمهوريةُ التُّرْكِيَّة على أنقاضِ الدولةِ العثمانيَّةِ عام **1923**م. والمجتمعُ منكوبٌ ومهضومٌ يومئذٍ، ومشغولٌ بآلاَمِهِ وجُرُوحِهِ التي أصابتْهُ في "حروبِ الإستقلالِ!"، لا علمَ له بحقيقةِ الشرذمةِ التي اغتصبتِ السلطةَ من يَدِهِ على حينِ غفلةٍ منه. هذه الشرذمةُ التي وضعتْ لُعبةً على المسرحِ مع قادةِ (الحلفِ الثلاثيِّ: إنجلترا، فرنسا، إيطاليا) وجَرَّتِ الشعبَ إلى أتونِ الحربِ التي سَجَّلَهَا التاريخُ دُوَلِيًّا: باسمِ (الحربِ العالميَّةِ الأُولَى)، ومحلِّيًّا: باسمِ (حربِ الاستقلالِ!). لم تكنْ تَعْبَأُ هذه الشرذمةُ بالمجتمعِ ولا تحسبُ له حسابًا وقد أنْهَكَتْهُ الحربُ واتنزفتْ جميعَ طاقاتِهِ. فقامتْ الطُّغْمَةُ الحاكمةُ بإصدارِ سلسلةٍ من القوانين تحتَ شعارِ: "الإصلاحاتِ" لِتُخْفِيَ الْمَشْهَدَ المأساوِيَّ، وتخدعَ الأَدْمِغَةَ الَّتِي ما زالتْ صَرْعَى بما أصابَهَا من هولِ الحربِ والمذابحِ وشلاَّلاَتِ الدِّمَاءِ، والخرابِ والدمار...

لقد كانتْ الدولةُ التُّرْكِيَّةُ نزوةً طارئةً يوم أُعْلِنَ قيامُها، إذ كان هذا الحدثُ الْمُفَاجِئُ انفصامًا تاريخيًّا بين الدولةِ والمجتمعِ، ظَهَرَ على أيدٍ لم تكنْ معها يدٌ واحدةٌ للأتراك. تحكَّمتْ عصابةٌ في رقابِهِمْ وعلى رأسها عسكرِيٌّ حاذقٌ متمرِّسٌ في فنون التضليل؛ وهو مصطفى كمال. أخضعهم الرجلُ لنزواته، وَزَيَّنَ لهم ألاعيبَهُ تحت عنوان الإصلاحات. فالمغامراتُ التي خاضَهَا مصطفى كمال، إنَّما كان الهدفُ منها توجيهُ المجتمعِ وتسييرُهُ باتِّجاهٍ يخالفُ طبيعتَهُ التاريخيةَ ويتعارضُ مع خلفيَّاتِهِ الثقافِيَّةَ، وأعرافِهِ وتقاليدِهِ التي تراكمتْ خلالَ ثمانيَةِ قرون. فلم تَتَبَنَّ هذه الحركةُ – في الواقع – إعادةَ بناءِ الدولةِ

---

[82] هذا نص كلماته باللُّغَة التُّرْكِيَّة:
Yusuf Ziya Ortaç; «Yoktan var ediyor tanrı gibi her şeyi» "Varlık" no.8. İst.1933 P. 119

على أُسُسٍ متينةٍ تُحَافِظُ لها تُرَاثَهَا، وتنهضُ بِهَا في مواكبَةِ حضارةِ العصر... وإنَّما كان الهدفُ منها إرباكَ المجتمعِ التائهِ الفاقِدِ الْوَعْيِ، والعملَ على تشويشِهِ وقد أرغمهُ العجزُ والفقرُ والجهلُ على الصمتِ والاستسلامِ والتضحيةِ.. فتمخَّضتْ محاولاتُ التضليلِ والتعميةِ للشعبِ عن نتائجَ خطيرةٍ. ومن أشدِّها تدميرًا، انصياعُ الأغلبيَّةِ التُّرْكِيَّة لِحُكْمِ هذا الرجل المستبدِّ، وإبداؤُها الثقةَ بالعُصْبَةِ الحاكمةِ. كان هذا من أهمِّ الحظوظِ التي نَالَهَا مصطفى كمال وبطانتُهُ، إذ فَسَحَ لَهُمُ المجالَ لتذليلِ العقباتِ الَّتي اعترضَتْهُمْ في مسيرَتِهِمْ، كما مَهَّدَ له السَّبيلَ ليُحْرِزَ صفةً إلَهِيَّةً بعد مَوْتِهِ!.

إنَّما نالَ مصطفى كمال ثقةَ الأتراكِ لِتَشَبُّثِهِ بِحِيلَةٍ يلجأ إليها عند كلِّ فرصةٍ؛ كان يُكثِرُ من استخدامِ هُتَاف القوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ، وكان يبالغ في تفخيم العنصر التركي ويردِّدُ شعاراتِ الوطنيَّةِ في كلِّ خُطَبِهِ وتصريحاتِهِ وقراراتِهِ ومُنطلَقَاتِهِ... وهذه الحيلةُ ساعَدَتْهُ – لا جرم – في استمالةِ ألأغلبية التي من الأصل التركيِّ، كما ساعَدَتْهُ بحكمِ تلكَ في تنفيذِ مشروعاتِهِ. ذالك لأنَّ تفخيمَ القوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ وَحْدَهُ يكفي لاستنفارِ ملايين الأتراكِ في لحظةٍ واحدةٍ لأدنىَ غَرَضٍ! فكان إذا أرادَ أنْ يُلغِيَ شيئًا ويأتِيَ مكانَهُ بجديد، زعم أنَّ هذا الجديدَ هو نتاجٌ للعقل التُّرْكِيِّ الفذِّ العظيم. كان هذا مبدؤُهُ في تدميرِ كلِّ قيمةٍ وتأسيسِ كلِّ بدعةٍ. شجَّعَ العنصرَ التُّرْكِيَّ على الإفتخَارِ والإنبهارِ بِصَنِيعِ يَدِهِ، لم يكنْ ذلك من الرجلِ تشجيعًا للشخصِ التركيِّ لتتأكَّدَ ثقتُهُ بنفسِهِ، بل ليكسبَ هو ثقةَ الأتراكِ، ويُزِيلَ كلَّ شكٍّ يدبُّ في قلبِ أحدٍ منهم حتى لا يَظُنَّ الناسُ أنَّهُ رجلٌ أجنبيٌّ وعنصرٌ دخيلٌ على المجتمع التُّرْكِيِّ!

خاضَ مصطفى كمال معركةً مع التراثِ، بل مع كل شيءٍ يمتُّ بالأصلِ والأصالةِ والتاريخِ والأمجادِ والدِّين وَالْقِيَمِ السامية... كان الإسلامُ خاصَّةً، والدِّينُ والقِيَمُ المقدَّسةُ عامَّةً، أشكالٌ من الخرافةِ والشعوذَةِ في نظرِهِ. حاربَ الإسلامَ بذريعةِ أنَّهُ عَقَبَةٌ تاريخيَّةٌ، ودِينٌ اختلقَهُ العربُ، يمنعُ التطورَ الاجتماعِيَّ وتحدُّ من التحديث والانسجامِ مع ظروفِ العصر. كان يغتبِطُ بالعصرنةِ الغربيَّةِ والحداثةِ، وينبهرُ بما وصلَ إليه الغربُ من النهضةِ والرُّقِيِّ والازدهار. ولكنَّهُ لم يقلِّدِ الغربَ إلاَّ في الزّيِّ والشكلِ والموسيقى وآدابِ العشرةِ فحسبُ. كان الإنسانُ المَدَنِيُّ في مفهومِهِ هو الذي يشربُ الخمرَ ويرقصُ في السهراتِ التي يختلطُ فيها الرجالُ والنساءُ (prom dance) على الطريقةِ الغربيَّةِ، ومتابعةُ الموضة، وتناولُ الطعامِ باليد اليسرَى خاصَّةً في أثناءِ المآدِبِ ونحو ذلك.. لذا كانت حَرَكَتُهُ التجديديَّةُ التي أشادَ بها وعَظَّمَ من شأنِها بطانتُهُ من الكُتَّابِ والشعراءِ والخطباءِ، كانت جافَّةً خاليَةً من المعانِي الساميةِ والعطاءِ والمزايا الإنسانيَّةِ الرفيعةِ، ولم يأتِ ما أَسْمَوْهُ بـ"الإصلاحاتِ" بشيءٍ

جديدٍ، كما لم ترفعْ مستوَى البلدِ إلى ما بَلَغَتْهُ من الرُّقِيّ أضْعَفُ دولةٍ في أوروبا. وعلى رغمِ انبهارِهِ بشعوبِ الغربِ وإكثارِهِ من القولِ بمواكبَةِ العصر، بَرْهَنَتِ النتائجُ أنَّ ثورتَهُ لم تتعدَّ الإنهماكَ في الخمورِ، والاهتمامَ بالتقليدِ الشكليِّ البحتِ للغربِ وعاداتِهِ التافهةِ وانفلاتِهِ الأخلاقِيّ.. كلُّ ما جاء به واهتمَّ بنشرِهِ في ربوعِ المجتمعِ وَدَعَى إليه بِقُوَّةِ القانون واستخدامِ الْعُنْفِ، وتنفيذِ العقوبَةِ على المعارضِين والمخالفِين لِمَشْرَبِهِ وأوامرِهِ، يمكنُ تَلْخِيصُهُ على النحو التالي:

- أَلْغَى الحروفَ العربيَّةَ على أنَّها مانعةٌ لِمُمَاشَاةِ الغربِ، وعَقَبَةٌ في طريقِ الإستفادَةِ من حَضَارَتِهَا وتبادُلِ العلاقاتِ معها بسهولة. فاستبدلها بالحروفِ اللاتينييَّةِ. وسمَّاهَا "الحروفَ التُّرْكِيَّةَ"! مع أنَّ هذه التسميةَ كذِبٌ محضٌ لا صحَّةَ لها إطلاقًا. وهي حروفٌ لاتينيَّةٌ كما تؤيِّدُهُ الأدلَّةُ القاطعةُ، ولا صلةَ لهذهِ الحروفِ بالأتراكِ أبدًا. أَرْغَمَ الناسَ على تصديقِ هذه التسميةِ بأنَّها حروفٌ تُركيَّة وأنَّها "الألِفْبَاءُ التُّرْكِيُّ!". وأُعيدَتْ هذه التسميةُ في آلافٍ من الْكُتُبِ المدرسيَّةِ ومن خلالِ أجهزةِ الإعلامِ بطريقِ غَسلِ الأدمغةِ حتَّى أصبحَ أغلبُ الناسِ يصدِّقونَهَا وقد استيقنتْ نفوسُهم بأنَّ هذه الحروفَ من إبداعِ الأتراكِ!

- قطع مصطفى كمال بذلك السبيلَ على الطبقةِ المثقَّفَةِ من الرجوعِ إلى القديمِ، وسدَّ عليهم طريقَ المراجعةِ لأيِّ مصدرٍ من المصادرِ المطبوعةِ بالحروفِ العربيَّةِ. وأصدرَ القانونَ بمنعِ الْمُمَارَسَةِ والتعليمِ بِهَا منعًا باتًّا، فانتشرَ الجهلُ بين الناسِ بماضِيهم خاصَّةً، وبتاريخِ البشريَّةِ على وجهِ العموم. بلغَ هذا الجهلُ من المثقَّفِينَ وحتَّى من رجالِ البحثِ والعلمِ إلى حدٍّ أجْبَرَهُمْ على الاستعانَةِ بالمصادرِ الإنجليزيَّةِ والفرنسيَّةِ والآلمانيَّةِ وغيرِهَا من لغاتِ الغربِ على قلَّةِ مَنْ يُحسْنُهَا في المجتمعِ التُّرْكِيّ. يبرهن على هذه الحقيقةِ – كمثالٍ – محاولةُ الأستاذ الدكتور شَرِيف مَارْدِين الَّذي بدأ يَتَعَلَّمُ الكتابَةَ والقراءَةَ بالحروفِ العربيَّةِ بعد أنْ هرمَ وناهزَ عُمْرُهُ على الثمانين عامًا. ذلك حسرةً منه على ما فاتهُ من العلمِ والمعرفةِ بالحقائقِ التاريخيَّةِ. إذ لم يتمكَّنْ من أخذِها بصورةٍ مباشِرَةٍ من المصادرِ الأصليَّةِ.

- أرغمَ الشعبَ بكاملِهِ على التزيّ بلباسِ الغربِ، كما أرغمَ النساءَ على التبرُّجِ والسفورِ، وحَظَرَ عليهنَّ لُبْسَ الْعَبَائَةِ. كما حَظَرَ على رجالِ الدّينِ ارتداءَ اللّباسِ الخاصّ بهم خارجَ الْمَعَابِدِ، وحَظَرَ كلَّ نوعٍ من اللباس الذي يُعَدُّ من الرموز الدينيَّةِ.[83] وشجَّعَ الإختلاطَ بكلّ الوسائلِ التعليميَّة

---

[83] إنَّ الإسلامَ – في الحقيقة – لا يعترفُ بصفةِ "رَجُلِ دِينٍ"، ولا في الإسلام طبقةٌ معيَّنةٌ تحملُ صِفَةَ "رِجَالِ الدِّينِ" وتظهر في زَيٍّ خاصٍّ تمايزًا من عامَّةِ المسلمين. وقد يتصدَّى بعضُ الْمُفْتَتِنِينَ بمصطفى كمال، ليبرِّرَ إلغاءَهُ لِلِّبَاسِ الدينيِّ بهذه الحجَّةِ. إلاَّ أنَّهُ لن ينجحَ في تضليلِهِ والحيلةُ مكشوفةٌ مفتضحةٌ. إذ أنَّ

والإعلاميَّة والدعائيَّة بزعمِ "أنَّ الإحتزاءَ بأوروبا في اللِّباسِ من ميِّزاتِ العصرنةِ والحداثةِ، فيجبُ التشابُهُ بالغربيِّين على أنَّهم أصحابُ حضارةِ العصرِ وَرُوَّادُ النهضةِ والرُّقِيِّ والفنونِ والصناعات.." استخدمَ العنفَ والقانونَ والقهرَ (من خلالِ محاكمِ الإستقلالِ الخاصَّةِ) في تطبيقِ هذه التغيُّيرات التي كانتْ في نظرِ الشعبِ ومُعتَقَدِهِ "تقليدًا صرفًا للكفَّارِ، وانسلاخًا عن الإسلامِ وقِيَمِهِ، ومحاولةً عمياءَ تُؤَدِّي إلى انعدامِ الفضائلِ الإنسانيَّةِ النبيلةِ". أجبرَ الموظَّفين على ارتداءِ القُبَّعةِ قسرًا بِحُكْمِ قانونٍ أصدرَهُ بتاريخ: **25** نوفمبر **1926**م. رقم/**671**، فقامت السلطةُ الكماليَّةُ المتشدِّدةُ على أثرِهِ باعتقالاتٍ واسعةٍ ضِدَّ كلِّ مَنْ عارضَ هذا القانونَ بأدنىَ كلمةٍ فيها انتقادٌ مُوَجَّهٌ إلى مضمونِهِ، وحُشِرَتْ آلافُ الناسِ في السجونِ بهذه التُّهْمَةِ بعد إجراءِ مُحاكَمَاتٍ شكليَّةٍ ظالمةٍ من قِبَلِ "محاكم الإستقلال" الشبيهةِ بمحاكمِ التفتيشِ الإسبانيَّةِ، ونُفِّذَ حكمُ الإعدامِ على عددٍ من رجالِ الدِّينِ والوُجَهَاءِ والمثقَّفِين الذين أبدَوْا مجرَّدَ استنكارِهِمْ ضِدَّ هذا القانون، وعلى رأسِهم الشيخ محمَّد عاطف الإِسْكِلِيبي الذي صُلِبَ في أنقره يوم **04** شباط عام **1926**م.

- استبدل العُطلةَ الأُسبوعيَّةَ التي كانت يومَ الجمعةِ بيومِ الأحدِ، بِحُجَّةِ "أنه يومٌ اتَّفقَ عليه العَالَمُ المتحضِّرُ مِمَّا يكون له أثرٌ إيجابيٌّ في تسهيلِ العلاقاتِ مع الخارجِ بسببِ الموافقةِ الزمنيَّةِ بين الطرفين". إلاَّ أنَّ هذا الإدِّعاءَ غيرُ مقنعٍ باعتبارِ ما تَبَنَّى مصطفى كمال من السياسةِ المضادَّةِ للإسلامِ وكراهيَّتِهِ له في كلِّ خطواتِهِ ومبادراتِهِ.

- منعَ الأذانَ بالعربيَّة بأمرٍ رئاسيٍّ صارمٍ ومباشرٍ إلى رئاسةِ الشؤونِ الدينيَّةِ، وبدأ رفعُهُ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّة وفقًا لِنَصٍّ لائحةٍ نشرتْها الرئاسةُ بتاريخ: **18** يوليو عام **1932**م. دون أنْ يرى مصطفى كمال ضرورةً لإصدارِ قانونٍ ينصُّ على منعِهِ، مِمَّا يدلُّ على استبدادِهِ وتَفَرُّدِهِ في قراراتِهِ، واعتمادِهِ على نفسِهِ، وكراهيَّتِهِ للإسلامِ في الوقتِ ذاتِهِ. استمرَّ منعُ الأذانِ بالعربيَّة من غيرِ استنادٍ إلى أيِّ مادةٍ قانونيَّةٍ، حتى تَمَّ ذلك سنة **1941**م. في عهدِ عصمتْ إينونو İsmet İnönü. استمرَّ رفعُ الأذانِ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ ثمانيةَ عَشَرَ عامًا فوقَ المآذنِ في جميعِ أنحاءِ تركيا بما فيها آلافُ الْقُرَى التي يسكنها الأكرادُ والعربُ الذين لم يفهموا اللُّغَةَ التُّرْكِيَّةَ.

- حوَّلَ مسجِدَ آياصوفيا إلى متحف بعد أن ظلَّ هذا المعبدُ الضخم مسجدًا يصلِّي فيه المسلمون مدة **481** عامًا فور فتح القسطنطنية. كان آياصوفيا قبل الفتح الإسلامي من أعظم

مصطفى كمالاً لم يُلْغِ اللِّبَاسَ الدينيَّ لأجلِ القضاءِ على بدعةٍ بغرضِ تطهيرِ الإسلامِ منها. بل ألغاهُ حقدًا على الإسلامِ وتلميحًا منه أنَّ هذا اللِّباسَ من شعائرِ الإسلامِ، لإثارةِ الكراهيةِ ضدَّه.

كنائس النصارى في القارة الأوربية، يرمز إلى هيبة الدولة البيزنطية. ولما تم فتح المدينة على يد السلطان محمد الفاتح حوّلها إلى مسجدٍ قهرًا، وإيذانًا بِحُكْمِهِ وإعلانًا بسقوط الدولة البيزنطية. فأصبحت آياصوفيا رَمْزًا لِنصرِ المسلمين منذ عام 1453م.

- **حوَّلَ مصطفى كمال هذا المسجدَ إلى متحف لِيضربَ بكرامةِ الإسلام والمسلمين عرض الحائطِ رغم مخالفة الأستاذ الدكتور** Erckhard Ungar**. وهو أكاديمي ألماني، كان من أعضاءِ لجنة ترميم المسجد، طعن في قرارِ مجلس الوزراءِ الصادر بشأن تحويل المسجد إلى متحف، بينما وافق بقية الأعضاءِ (من الأتراك) على نص القرار، كانوا من بطانة مصطفى كمال، وهذه أسماؤهم بالتحديد: تحسين أوز** Tahsin Öz**، أفضل الدين بيك** Efdaleddin Bey**، الأستاذ الدكتور عثمان فريد** Prof Dr. Osman Ferid.

- **أصدر قانونًا ينصُّ على إلغاءِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ بتاريخ: 17 شباط 1926م. تحت رقم: 743. وهو يعتقدُ أنَّهُ قد ألغاها! ولكنَّهُ لم يستطعْ أنْ يُلغيَها في حقيقةِ الأمرِ لسببين هامَّين. أوَّلاً كانتِ القوانينُ الإسلاميَّةُ (الفطريَّةُ منها الْمُحْكَمَاتُ)، راسخةَ الجُذُورِ في كيانِ المجتمعِ، ومهيمنَةً على ضميرِهِ وسائدةً على حَيَاتِهِ بصورةٍ طبيعيَّةٍ. ثانيًا: كان المجتمعُ مُنْطَبِعًا على هذه القوانين يعتادُها بالتقليدِ المحضِ عبرَ الأجيالِ مع بالغِ احترامِهِ لها إلى درجةٍ يُعَبِّرُ عن مَدَى هذا الإحترامِ بمقولةٍ تُركيَّةٍ[84] وَهذا تعريبها: "الإِصْبِعُ الَّتِي تَقْطَعُهَا الشَّرِيعَةُ لاَ تَتَأَذَّى". فقاومتْ المبادئُ الإسلاميَّةُ القوانينَ الكماليَّةَ، والْعَلْمَنَةَ السبطائيَّةَ، وظلَّتْ تتحدَّى كلَّ محاولاتِ التغييرِ والتحريفِ القسريِّ إلى اليوم. فلم يتمكَّنْ النظامُ الكماليُّ من إلغائِها نهائيًا، بل حاولَ ليفرضَ نفسَهُ على ضميرِ المجتمعِ، لكنَّه لَقِيَ صعوباتٍ شديدةً في التفاعُلِ مع سلوكِ المواطنِ التُّرْكِيِّ، رغمَ تتبُّعِهِ الحثيثِ وتجسُّسِهِ وراءَ الناسِ بأعمالِ التفتيشِ والضغوطِ الإداريَّةِ والعقوباتِ القانونيَّةِ الصارمَةِ.**

فعلى سبيل المثال:

منعَ تدريسَ العلومِ الإسلاميَّةِ واللغةِ العربيَّةِ، إلاَّ أنَّ المدارسَ التقليديَّةَ ظلَّت تواصِلُ نشاطَها تحت الأرضِ وبصورةٍ فعَّالةٍ، في ظلِّ عددٍ من المَلاَلِي ورجال الدِّين وقلَّةٍ من العلماءِ، وبِدَعْمٍ من المواطنين من أهل السنَّةِ، وبعضِ شيوخ الصوفيَّةِ. ذلك أنَّ هذه المدارسَ، على رغم الفقرِ العلمِيِّ والثقافِيِّ

---

[84] Şeriatin kestiği parmak acımaz.

الذي كانتْ تعانيها، والظروفِ المأْسَاوِيَّةِ التي تُحيطُ بها، لم تكن خاليةً من القيَمِ التي تربطُ الأُمَّةَ بماضِيها. بل كانتْ بمنزلةِ أطلالٍ وآثارٍ من أنقاضِ صرحِها، ورموزٍ تُلفِتُ العقولَ إلى أيَّام عزِّ المسلمين ومؤسساتِها العلميَّةِ مثل بيتِ الحكمةِ والجامعةِ الأزهريَّةِ والزيتونيَّةِ وغيرِها من مناهلِ العلمِ والمعرفةِ...

لم ينجحْ مصطفى كمال في محاولةِ القضاءِ على القلوبِ النابضةِ بالاحترامِ لِلْفِقْهِ الإسلاميّ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ، فظلَّ الناسُ ملتزمين بضوابطِ الفِقْهِ في حياتِهِمْ الخاصَّةِ، ولو كان ذلك الإلتزامُ منهم بالعقليَّةِ المذهبيَّةِ الضيَّقةِ. وَلِإنْ كَانَ المواطنُ – على سبيلِ المثال – مضطرًّا لإجراءِ عقدِ الزواجِ، وفقًا للقانونِ المدنِيّ العلمانِيّ، ولكنَّهُ لم يقتنعْ بِهِ أبدًا، فضربَهُ عرضَ الحائطِ غيرَ مُعْتَرِفٍ بِهِ في ضميره، فقامَ بإعادةِ عقدِ الزواجِ على يدِ أحدِ أئمةِ المساجِدِ. لذا ما كادَ يكتفي بعقدِ الزواجِ الرَّسْمِيِّ شخصٌ واحدٌ من القِطاعِ السُّنِّيّ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ على مَدَى العهدِ الجمهورِيِّ إلى اليومِ.

من الغرابةِ بمكان؛ أن القانونَ المدنِيَّ التُّرْكِيَّ الذي أُصْدِرَ لِيَحْكُمَ بإلغاءِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ بِرُمَّتِهَا، ظلَّ هذا القانونُ نفسُهُ ينصُّ على حُرْمَةِ الزواجِ بين المحارِمِ النَّسَبِيَّةِ والصِّهْرِيَّةِ كما جاءَ في الآية رقم: 23 من سورةِ النساءِ[85] (ما عدا المحارمِ الرضاعيَّةِ). وهذا يدلُّ على أنَّ مصطفى كمالاً لم يستطعْ أن يتذرَّعَ بالعلمانيَّةِ لِيُبِيحَ مثلاً زواجَ الأخِ من أختِهِ إلاَّ بحيلةٍ لجأ إليها ليستخفَّ بحرمةِ الرَّضَاعِ!

إنَّ الفَقْرَةَ الأُولى والثانِيَةَ من البند رقم: 92، من القانونِ الْمَدَنِيِّ التُّرْكِيِّ رقم: 1926/743م.[86]، تَدُلَّانِ على كراهيَّةٍ شديدةٍ للقرآن الكريم، يبرهن على هذه الحقيقةِ مَدَى مغامرةِ مَنْ أصدرَ هذا القانونَ حتَّى عرضَ نفسَهُ بهذا الشكلِ الهابطِ من المجازفةِ والمنطقِ الفاسدِ حيثُ ألغى جزءًا كبيراً من الأحكامِ الواردةِ في الآيةِ المذكورةِ بهذا القانونِ، وأثبتَ مَرْعِيَّتَهَا بالقانونِ نفسِهِ في آنٍ واحدٍ ما لا يكاد يوجد مثلُ هذا التلفيقِ المنطقِيِّ الرهيبِ في سلوكِ إنسانٍ جاهل أو معتوه!!!

---

[85] **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (2النساء/23)**

[86] **وهذا نصُّ الفقرتين للبند رقم/92 من القانون المدني التركي رقم: 1926/743م.:**

HISIMLIK : 92 - Aşağıdaki kimseler arasında evlenmek memnudur:1 - Nesep sahih olsun olmasın usul ve füru arasında, ana baba bir veya baba bir yahut ana bir kardeşler arasında, bir kimse ile amuca, dayı, hala ve teyzesi arasında.2 - Sıhriyet hısımlığını tevlit etmiş olan evlenme feshedilmiş veya vefat yahut boşanma ile zail olmuş ise bile karı ile kocanın usul ve füruu ve koca ile karının usul ve füruu arasında.

من الحِيَلِ التي لجأ إليها مصطفى كمال "في إصلاحاتِهِ" (على حدِّ قولِ من تشرَّبَ عقيدَتَهُ)، كان يُخفِي أدنىَ ما له صلةٌ بالاسلامِ والعربِ فيما يأمر به ويُمليهِ على المجتمعِ؛ كما فعلَ عندَ إلغائِهِ الأرقامَ الهنديَّةَ (٣،٢،١،٠....) واستبدَلَ منها الأرقامَ العربيَّةَ (0،1،2،3...)، فسمَّاها "الأرقامَ العالميَّةَ".نعم، إنَّ هذه التسميةَ مطابقةٌ للحقيقةِ، إلاَّ أنَّ نسبتَهَا إلى العربِ مكتومَةٌ في هذهِ التسميَةِ المقصودةِ! مِمَّا جعلَ الناسَ جميعًا يجهلون هذه الحقيقةَ حتَّى الآن.

كلُّ هذهِ الحقائقِ الموثَّقَةِ بالدلائل القاطعةِ تدلُّ على أن تجربَةَ مصطفى كمال لا تَتَّسِمُ بحركةِ نهضةٍ تَتَبَنَّى مواكبةَ العصرِ بنشرِ العلمِ والمعرفةِ والثقافةِ، وتنفيذِ مشاريعَ عمرانيَّةٍ، وَفَتْحِ المجالِ للحُرّيَّاتِ وحقوقِ الإنسانِ... بل مهَّدَ المجالَ للتطرُّفِ العصبِيِّ والإنشقاقِ الطائفيِّ، وظهورِ مُنَظَّمَاتٍ سرّيَّةٍ وجماعاتٍ إرهابيَّةٍ (مثل: PKK، DHKPC، DEVSOL، DEVGENC،JİTEM ، HİZBULLAH ، ERGENEKON) وغيرِها... كما تركَ الفرصَةَ للجيشِ يقومُ بتفجِيرِ ثوراتٍ وانقلاباتٍ عسكريَّةٍ يتحكَّمُ بعدَهَا في سلطةِ الدولةِ، ويعملُ على إقصاءِ الحكوماتِ الْمُنْتَخَبَةِ من الحُكْمِ، ويُجَنِّدُ الْمَافْيَا في أعمالِ الإغتيالات السياسيَّةِ ونَهْبِ خزانَةِ الدولَةِ، ويُرَكِّزُ على تنشيط الوثنيَّةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ وتأليهِ مصطفى كمال...

استمرَّ نظامُهُ العقيمُ المبتورُ عقودًا منذ بدايةِ قيامِ الجمهوريَّةِ الَّتي لم تكنْ جمهوريَّةً بالمعنَى الحقيقيِّ، بل كان النظامُ في قبضةِ حزبٍ واحدٍ (حزبِ الشعبِ الجمهوريِّ CHP. Cumhuriyet Halk Partisi) حتَّى إعلانِ التَّعَدُّدِيَّةِ وغلبةِ الحزبِ الديمقراطِيِّ (DP. Demokrat parti) عام **1950**م. فأخذتِ الحُرّيَاتُ تتَّسعُ شيئًا فشيئًا بجهودِ ثلاثِ شخصيَّاتٍ تَوَلَّوْا رئاسةَ الوزراءِ وهم: عدنان مندريس، وتُرغوت أوزال، ورجب طيب أردوغان.

***

ثَمَّ تيَّاراتٌ أيديولوجيَّةٌ وعصبيَّةٌ ودينيَّةٌ وصوفيَّةٌ وطائفيَّةٌ خطيرةٌ، منتشِرَةٌ في صفوفِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ، لَهَا أثرٌ بالغٌ على تطبيعِ واحتكارِ السياسةِ، كما لَهَا تأثيرٌ عميقٌ في تكييفِ الثقافةِ، وتوجيهِ التفكيرِ والسلوكِ، وتحريف العقيدة الحنيفةِ، وتشويهِ العبادةِ لله! فتؤدِّي أحيانًا إلى نشوبِ فِتَنٍ ونزاعٍ وتناحرٍ وقتالٍ بين الأحزابِ السياسيَّةِ، والفئاتِ الطائفيَّةِ، والقطاعاتِ العرقيَّةِ، والمنظماتِ السريَّة.

مِنْ أخطرِ هذه التَّيَّارات: **1**) التَّيَّارُ السَّبَطَائِيُّ اليهودِيُّ الملحدُ المتقمِّصُ بِالْعَلْمَانِيَّةِ الكماليَّةِ، **2**) التيَّارُ العُنْصُرِيُّ التُّرْكِيُّ، المعادي للعربِ والكُردِ خاصَّةً، والأجانبِ عامَّةً. **3**) التيَّارُ اليسارِيُّ الإرهابِيُّ، **4**) التيَّارُ الطائفِيُّ الكردِيُّ الإرهابِيُّ. **5**) التيَّارُ الخارجِيُّ التكفيرِيُّ، **6**) التيَّارُ الصوفِيُّ النقشبنديُّ، **7**) التيَّارُ الصوفِيُّ النُّورْسِيُّ... وإذا قارنَّا هذه التَّيَّاراتِ السبعةَ، من حيثُ الخطورةُ والإضرارُ بالقيَمِ المعنويَّةِ، فإنَّنا نجدُ التَّيَّارَ السَّبَطَائِيَّ اليهودِيَّ، والتَّيَّارَ الصوفِيَّ النقشينديَّ أشدَّ تَدميرًا، يهدِّدانِ السلامَ المرجوَّ إنْ ظهرتْ بشائرُهُ يومًا مَّا في آفاق تركيا. كما يلعبانِ دورًا هدَّامًا لأُسُسِ الإسلامِ وتشويهِ أصولِهِ ودعائِمِهِ ويُعَرْقِلاَنِ الجهودَ المبذولَةَ لأجلِ إحياءِ الوِفاقِ والوئام.

يحاول كلٌّ من هذين التَّيَّارين احتواءَ المجتمعِ بِكُلِّيَّتِهِ، والصراعُ قائمٌ بين الطرفين منذ أواخرِ العهدِ العثمانِيّ إلى هذهِ الساعةِ. يمارسُ التَّيَّارُ النقشينديُّ استغلالَ الدِّينِ في جميعِ محاولاتِهِ وتقلُّباتِهِ، وفي بثِّ دجليَّاتِهِ الصوفيَّةِ، يحتكرُ الدِّينَ ويتَّجِرُ به في نشاطاتِهِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والإقتصاديَّةِ والفكريَّةِ، وفي صراعِهِ ضدَّ خصمِهِ (التَّيَّارِ السَبَطَائِيّ).

يتألَّفُ هذا القطاعُ الشعبِيُّ الواسعُ من جماعاتٍ صوفيَّةٍ متطرِّفةٍ، شبهِ منظماتٍ سِرِّيَّةٍ، كُلُّهَا تعتنقُ الطريقةَ النقشبنديةَ، وهي مذهبٌ رَهْبَانِيٌّ اخْتَلَقَهُ في بلادِ ماوراءِ النهر قُدَمَاءُ الأتراك إبَّانَ عصورِ الظلامِ منذ حُقبةٍ من الزمن تزيدُ عن ثمانمائةِ عامٍ.[87]

---

[87] وقد أنجزتُ بحثًا دقيقًا يضمُّ في ثناياه حقائقَ غريبةً ومعلوماتٍ نادرةً عن هذا المذهبِ الباطِنِيّ وفِرَقِهِ المبعثَرَةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ. نسخةٌ ألكترونيةٌ منه محفوظةٌ بموقعِ صيدِ الفوائِدِ، كما يمكنُ الحصولُ على النُّسْخَةِ الْمُنَقَّحَةِ منها (مجَّانًا) بالإتصالِ بالعنوانِ الألكترونِي (تحت السطر)، وهي متوفرةٌ لكلِّ مَنْ يرغبُ في الإطِّلاعَ عليها. العنوان الألكترتني: baretalshaykh@gmail.com . وهذه أسماءُ الأوكارِ الرئيسَةِ للنَّقْشَبَنْدِيِّين:

- ❖ جماعة إيشيكجيلار Işıkçılar: أسّسها عقيدٌ متشيّخٌ منتحلٌ. تُرَكِّزُ الإهتمامَ على جمعِ تراجمِ ((أولياءِ الأتراكِ)) وتعمل على تتريك الإسلامِ بحماسٍ شديد.

- ❖ جماعة (مَنْزِل): تمَّ تأسيسُهَا بإيعازٍ من عدنان منديس (رئيسِ وزراءِ تركيا الأسبق) وبالتنسيق مع الأسرة الْخَزْنَوِيَّةِ بضواحي مدينة قامشلي السورية، تَوَلاَّهَا فريقٌ استخباراتِيٌّ خاصٌّ عام **1951**م. أقيمتْ تكيّتُها الأولى في قرية (قَسْرِكْ) قُرْبَ مدينة (بتليس)، كان الهدفُ من تأسيس هذهِ الجماعةِ: طمسُ الروح القوميّ في أكرادِ تركيا، إثر الصحوة الملحوظة والنشاطات السياسيّة التي شهدتْها المنطقةُ الكرديّةُ بعد الخمسينات من القرن المنصرم. ثمَّ نُقِلَتْ تكيَّتُهَا إلى قريةِ (مَنْزِل)، قُرْبَ مدينةِ (آديمان) لأسبابٍ أمنيَّةٍ. تقوم منظمةٌ سِرِّيَّةٌ خاصَّةٌ بالدعاية لهذه الجماعةِ وتَسُوقُ إليها آلافًا من مدمني الخمر والمخدرات ومرضى النفوس، يُعَالَجُونَ ويتمُّ إعادةُ تأهيلهم بطريق الزُّهْدِ الْبُوذِيّ. تتكوّن هذه المنظمةُ الوسيطةُ من مئات ضُبَّاطِ الصفّ المتقاعدين، يقومونَ بنشاطاتهم تحت مراقبة جهاز المخابرات التُّرْكِيَّة!

- ❖ الجماعة السليمانية: أسّسها أحد المهاجرين من مدينة (سَرَزْ Serez) اليونانية، اسمه: سليمان حلمي طونا خان. تستغلُّ هذه الجماعة تحفيظ القرآن في نشاطاتها وبث دعوتها وَتُنَافِسُ الْفِرَقَ الخالِدِيَّةَ في سباقِ الشهرةِ وجمع المال.
- ❖ جماعة عُمَر أُونْكوت: تتمثّلُ في عصابةٍ عنصريّةٍ خطيرةٍ. استغلَّها الكماليّونَ في الضغط على بعضِ الْفِرَقِ النقشبنديّةِ التي ترفض العنصريّةَ، وذلك لتأمين التوازن بين الميول السياسيّة المتباينة في أوساطِ الصوفيّةِ.

أما الطائفةُ الثانيَةُ: فإنها تتألَّفُ من جماعةٍ تنحدِرُ من سلالاتٍ يهوديَّةٍ اعتنقتِ الإسلامَ (في مدينةِ سالونيك) قبل ثلاثَةِ قرونٍ مكرًا وخديعةً. تمكَّنتْ من بسطِ قبضتِهَا على الدَّولة التُّرْكِيَّة بإثارةِ النَّزعةِ القوميَّةِ والنعرات العصبيَّةِ للعنصرِ التُّرْكِيِّ، وباستخدام الإِكْبَارِ والتفخيمِ لأمجادِ الأتراكِ ممَّا أسفرَ عن رضوخِ العامَّةِ واسْتِسْلاَمِهِمْ لَهَا. تحتكرُ هذه الطائفةُ السُّلْطَةَ العليَا في الدولةِ التُّرْكِيَّة، وتَتَوَارَى بحاجزٍ لا تكادُ قُوَّةٌ تكشفُ هذا الستارَ الفولازِيَّ عن وجهِها! وتمارِسُ التَّحَكُّمَ في المجتمعِ عن طريقِ آلِيَةِ السياسَةِ واستخدامِ الجيشِ والحكوماتِ والْبَرْلَمَان بأساليبَ دسَّاسةٍ، تُملي أحكامَهَا وقرارَتِهَا على أجهزةِ الدَّولةِ قسرًا، وتتخطَّى الدستورَ والنُّظُمَ والقوانينَ كلَّما شاءتْ، دون أن تشعرَ أغلبيَّةُ المجتمعِ بما يجري. أفرادُ هذه الكُتلةِ المتغلِّبةِ متماسكةٌ مترابطةٌ فيما بينها ترابطًا شديدًا، ومتمركزةٌ في أجهزةٍ خطيرةٍ قابضةٍ على الدولة بيدٍ من الحديد. ولكي نحظى شيئًا قليلاً من المعرفة بأسرار هذه الطائفة ينبغي أن نُلقِيَ نظرةً سريعةً إلى الماضي القريب:

لما تمكَّنتْ هذه المنظمةُ السِّرِّيَّةُ من القضاءِ على الدَّولةِ العثمانيَّةِ بالتعاونِ مع دول التحالُفِ (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا)، واتفقتْ معها على سلسلةٍ من المشاريعِ السياسِيَّة الَّتي لا تزالُ في طَيِّ الكتمانِ إلى أنْ يشاءَ اللهُ ظهورَها لِلعيان؛ احتلَّت قُوَى التحالُفِ مدينةَ إسطنبول يوم 16 مارس 1920م.، وقبضتْ على السلطان العثماني (وحيد الدين)، ونَفَتْهُ إلى جزيرةِ مالطَا. بذلك تمكَّنَ مصطفى كمال بكلِّ سهولةٍ من إعلانِ جمهوريَّةِ تُركيا (بالتواطُئِ مع التحالُفِ الثلاثِيِّ) واتَّخذَ مدينةَ أنقره كعاصمةٍ للدولة السَّبَطَائِيَّةِ، وسرعان ما قام بإجراءاتٍ وتغييراتٍ جزريَّةٍ في مختلفِ المجالاتِ من الحياةِ الإجتماعيَّةِ والنظامِ السياسِيِّ والشئونِ الدينيَّة. غير أنَّهَ تَفَطَّنَ إلى أكبرِ عقبةٍ تَعْتَرِضُهُ في طريقِهِ، وهي الَّتي كانتْ في الحقيقةِ تُعَرْقِلُ عَجَلَةَ الدولة العثمانيَّةِ من قبلُ، وتُؤَخِّرُهَا عن موكبِ التقدُّمِ، (وهم

❖ جماعة شَرْشَنْبَهْ: أسّسها رجلٌ مُتَزَمِّتٌ من أصلٍ بُنطُسِيِّ (يونانِيِّ)، يعتمدُ على الخرافات والبدع في نشاطاتِهِ ويرفضُ كل شيءٍ جديد. تلبّستْ بأعمال الإرهاب في داخلها، قُتِلَ شخصيّتانِ مِنْ أبرز رجالاتها. استغل "الإِسْلاَمَوِيُّونَ" هذه الجماعةَ في سباقهم السياسي وتنافسهم مع "العلمانيّين" ومقاومتهم النظامَ الكمالِيَّ.

❖ جماعة إسكندر باشا: أسّسها رجل داغستانِيٌّ اسمه محمد زاهد كوتكو، استغلَّ جِسْمَهُ الضَّخْمَ وَمُحَيَّاهُ الْمَهِيبَ في جذب طُلاَّبِ الجامعاتِ الذين كانوا يعانون من الفقر المعنويِّ والفراغِ الوجدانِيِّ في ظلِّ النظام الأتاتوركيِّ. ركّز اهتمامَهُ على توجيهِ حفنةٍ من الشباب الأذكياءِ الناجحين، فتمكَّنَ من استدراجهم إلى مناصبَ عاليَةٍ في جهاز الدولة التُّرْكِيَّة، برز منهم شخصيَّاتٌ احتلوا مناصبَ هامَّةً، واستطاعوا الحدَّ من قسوة النظام الكمالي وغطرسة السبطائيين يأتي على رأسهم تُرغوت أوزال.

❖ جماعة محمود سامي رمضان أوغلو: يتولَّى أمرَ هذه الجماعةِ أسرةٌ ثريَّةٌ معروفةٌ باسمِ طوب باشلار Topbaşlar. تهتمُّ هذه الجماعةُ بالتجارةِ وتحاولُ جذب الناس بطريق استخدام المالِ واستغلال الثروة.

شيوخ الطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّةِ). فَدَبَّر لهم سلسلةً من المؤامراتِ عام 1925م. في مدينةِ دياربكر، وعام 1930م. في مدينة (مَنَامَنْ) بضواحي إزمير، فَحَصَدَهُمْ وقمعَ جُمُوعَهُمْ، وبلغ عددُ مَنْ هلَكَ في تلك الْمَجَازِرِ آلاَفًا من النَّقْشَبَنْدِيّين، إلاَّ أنَّ الأمرَ لم ينحصرْ في محيطِ النَّقْشَبَنْدِيّين فحسب، بل تحوَّلَ إلى نكبةٍ أصابتْ كثيرًا من العلماءِ وطلبةِ العلمِ، لِمَا هنالك من المشابهةِ بين الصوفيَّةِ وَنُسَّاكِ المسلمين في الأزياءِ، فالتبسَ الأمرُ على رجالِ الدولةِ السَّبَطَائيَّةِ يومئذٍ لجهلِهِمْ بالإسلامِ، وعدمِ معرفتِهِمْ بالتمييزِ بين الصوفيَّةِ والمسلمين. فحدثتْ هُوَّةٌ عميقةٌ بين السَّبَطَائِيّين والنَّقْشَبَنْدِيّين منذ تلك الأيام. والصراعُ لا يزال قائمًا بين الفريقين. غير أنَّ هذا الصراعَ يلتبس على العرب والأجانب، فيظنون أنَّهُ صراعٌ بين الكماليّين والمسلمين!

كانتْ ردودُ فعلِ اليهودِ السَّبَطَائِيّينَ عَنِيفَةً ضِدَّ الإسلامِ بسببِ عداوتِهم للنَّقْشَبَنْدِيّين الذين ليسوا في الحقيقة جزءًا من المسلمين، إلاَّ أنَّ طقوسَهُمْ الَّتي تجمعُ بين أشكالٍ من العبادةِ في الإسلام وأشكالٍ أخرى من العبادةِ في الديانَاتِ الهنديَّةِ أربكتْ اليهودَ الدُّونْمَا في تمييزِ هذه الطائفةِ عن المسلمين، فجعلوا المجتمعَ بأسرِهِ هدفًا لضرباتِهم، فحملتْهم هذه العداوةُ إلى تأسيس دينٍ جديدٍ باسم (الأَتَاتُورْكِيَّةِ) عام 1939م. وأقدموا على وضعِ أشكالٍ معيَّنَةٍ من الشعائرِ لهذا الدِّينِ الجديد، وأقاموها لأوَّل مَرَّةٍ في مسجد (آغا جامعي) بمنطقةِ (بَيُغْلُو) في العام نفسِهِ. إلاَّ أنَّهم لَمَّا تأكَّدوا من أنَّ المجتمعَ لن يعتنقَ هذا الدِّينَ بِطُرُقٍ قَسْرِيَّةٍ، وفشلوا في تجربتِهِمْ، حَوَّلُوهَا إلى احتفالاتِ الاحترامِ (لِإِلَهِ الأَتْرَاكِ) على حدِّ قولِهِمْ، وأَضْفَوْا عليها صبغةً رسْمِيَّةً، لكنَّهم لم يقفوا عند هذا الحدِّ، بل أصدروا قوانينَ ولَوَائِحَ أجبَروا بموجبِها المسؤولين والموظَّفين في كافَّةِ أجهزةِ الدَّولَةِ، وأرغموهم على الحضورِ في حفلاتِ العبادةِ لِإلَهِ الأتراك! (كما حضرَ رجب طيّب أردوغان بالذَّات فور صُعُودِهِ على منصبِ رئاسةِ الجمهوريَّةِ، حضرَ لأداءِ هذه العبادةِ في الْمَعْبَدِ الأَتَاتُورْكِيِّ يوم 28 أغسطس 2014م. ربما على كراهيَّةٍ منه!). تُقَامُ هذه الحفلاتُ في ضريح مصطفى كمال في مناسبَاتٍ معيَّنَةٍ إلى اليوم، بُنِيَ هذا الصرحُ العملاقُ في وسط مدينةِ أنقره، ولاَ شكَّ بديلاً عن "كعبةِ الْعَرَبِ في مَكَّةَ!"، على حدِّ قَوْلِهِمْ!

والطامةُ الكُبْرَى؛ أن السَّبَطَائِيّين الذين يرون أنفسَهُمْ مسؤولين عن هذا الدِّينِ، لا يغفلون لحظةً عن أيِّ شخصٍ (من السياسيّين والموظَّفين) إنْ تأخَّر أو ماطلَ أو نافق، في العبادةِ لِصَنَمِهِمْ إلاَّ انْتَقَمُوا منه، كما يراقبون الوزراءَ وأعضاءَ الْبَرْلَمَان بِأَكْبَرِ قدرٍ من الإهتمامِ أثناءَ العبادةِ والطقوسِ في الهيكلِ (ليميّزوا بذلك بين المنافقِ والمخلِصِ لدينهم). إنَّ هذه الوطئةَ تَكْبُرُ وتتضخَّمُ عندما يتجاهلُ أو لم

يفطنْ لها حتى اليومِ شخصيَّةٌ من السياسيّين العرب وعلماءِهِمْ، خاصةً الذين يزعمون أن دساتيرَهم وقوانينَهم تستمدُّ من الشريعةِ الإسلاميةِ؛ مثل دولة الوهابية، وليبيا، وموريتانيا والسودان بالتحديد، لأنَّ خطورةَ الإشرَاكِ باللهِ في تركيا، لا تنحصرُ في حدودِ هذه الدولةِ، بل قد تتعدَّى إلى كلِّ بلدٍ يزحفُ إليها جماعاتٌ ومنظماتٌ ومؤسَّساتٌ من تركيا، خاصَّةً وأنَّ البلادَ العربيَّةَ معرَّضَةٌ لتأثيراتٍ سلبيَّةٍ تنبثقُ عن هذه الظاهرة وتتمثَّل في كراهيَّةِ المشركين للعربِ والإسلامِ.

إنَّ المشركين الأتراك، سواءٌ من الصوفيَّةِ أو الكمالِيّين، لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمَّةً، ولا شكَّ من أنَّهم ألدُّ أعداءِ أهلِ التوحيدِ الذين لا يَلْبِسُونَ إيمانهم بأدنى شيءٍ من التوقيرِ للمخلوقِ (بمعنَى العبادَةِ). لذا فإنَّ إعتداءَ الكمالِيّين خاصَّةً، أشدُّ وقعًا منه على الحنفاءَ بالمقارنة مع ما ينالهم على يدِ بقية طوائف المشركين. إنَّ الصوفيةَ الأتراك – مثلاً – خطرُهُمْ قد ينحصرُ في استغلالِ الدِّينِ واصطيادِ المصالحِ بالتعاونِ مع المتطرِّفين في أيِّ بلد، وإذا حلُّوا ببلدٍ عربِيٍّ، وحالفهم الحظُّ أن يتَّصلوا بمن كانوا على شاكلتِهم.. أمَّا الكماليون، فإنَّهم لا يألون جهدًا في إنزالِ الضررِ والخسارةِ بأموالِ العربِ ومصالحِهِمْ بالتعاون مع أي قوةٍ أجنبية خاصةً مع إسرائيل، (إنْ أتاحتْ لهم إدنىَ فرصة). لأنَّهم إنَّما يكرهون العربَ بسببِ كراهيتِهم للإسلامِ، ولأنَّ أغلبَهم ينحدرون من أصول يهوديَّةٍ (أو مُتَهَوِّدَةٍ) تأصَّلتْ فيهم عداوةُ العربِ والإسلام!

من الجديرِ بمكان؛ أنَّ الغالبيةَ العظمَى من العربِ وكثيرًا من زعمائهم وعلمائِهم ومثقَّفيهم يجهلون هذه الحقائقَ، مغترّين بالصورةِ الظاهرةِ لهذا البلد. إذ نادرًا مَّا انْتَبَهَ أحدٌ من رجالاتِهم إلى شيء من أسرارِ السَّبَطَائِيّين ودسائِسِهِمْ وخُطَطِهِمْ. ومِنْ أولئك الشخصيَّاتِ النادرةِ: فيصلُ بْنُ عبدِ العزيز (غفر الله له)، الذي زار تركيا في منتصفِ القرنِ المنصرمِ، وَلَمَّا دُعِيَ للحضور إلى مَعْبَدِ إِلَهِ الأتراك، والامتثالِ أمامَ الصنمِ في أنقره، لأقامةِ شعائرِ دينهم، رفضَ (المغفورُ له إن شاء الله تعالى)، فأثارَ ذلك ضجَّةً في صفوفِ المشركين، ولم يسعْهم يومئذٍ أنْ يلعنُوه (لأنَّهُ ضيفٌ)، ولكنَّهم تطاولوا عليه "أنَّهُ وَهَّابِيٌّ لا يحترِمُ الموتَى!" (وقد أقرُّوا بذلك أنَّ إِلَهَهُمْ ميّتٌ، وهذا دليلٌ على فسادِ منطقِهِمْ!). إنَّ هذه الطائفةَ الَّتِي فرضتْ العلمانيَّةَ على الشعبِ التُّرْكِيِّ، لا محالةَ غيرُ قادرةٍ على إخفاءِ حقيقتِها التي تبرهن على عكسِ ما تتظاهرُ به. نعمْ، من الغريبِ أنِّ أغلبَ ملوكِ ورؤساءِ العربِ الذين يتوافدون إلى عاصمةِ تركيا لا يرون البأسَ من الحضورِ مع المشركين في مَعْبَدِهِمْ؛ يشاركونهم في شعائرِهم الوثنيَّةِ، وهذا مع أنَّهم أدرى بقولِهِ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (التوبة/28). وقولِهِ تعالى: إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ

بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (النساء/48)، وقولِهِ تعالى: إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله، فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا (النساء/116).

هذا، وليس التَّيَّارُ الصوفِيُّ النَّقْشَبَنْدِيُّ أَقَلَّ خطورةً من التَّيَّار السَّبَطَائِيِّ اليهوديِّ. ذلك: أنَّ مُعْظَمَ أفرادِ هذا الجمهورِ الصوفِيِّ الباطنِيِّ يَتَأَلَّفُ من عناصرَ جهلةٍ من الرَّعَاعِ وكثيرٍ من المصابِين بأمراضٍ نفسيَّةٍ، بينهم جماعاتٌ من مُدْمِني الخمورِ والْمُخَدِّرَاتِ حشرَتْهُمْ شبكاتٌ تابعةٌ للدولةِ السرِّيَّةِ إلى أوكارِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ لأجلِ التأهيل! لم يتعرَّفْ أحدٌ من هذهِ الطبقةِ التعيسةِ أصلاً على مفهومِ السعادةِ لحظةً، ولا على مفهومِ الإسلامِ في حياتِهِ، ولم ينلْ نصيبًا من الهدوءِ والطمأنينةِ، ولم يتذوَّقْ شيئًا من العلمِ والمعرفةِ والثقافةِ والحضارةِ...

ثُمَّ جماعاتٌ شِبْهُ عصاباتٍ (إن صحَّ القولُ) تستغلُّ هؤلاءِ المرضَى وتسوقُهم إلى مراكزِها المنتشرةِ في أنحاءِ تركيا، تحتَ شعار الإنقاذِ من الإدمانِ، والمعالجةِ الروحيَّةِ. وعلى رأسِ كل جماعةٍ منها رجل مُؤَلَّهٌ بِصِفَةِ (شيخ الطريقةِ)؛ له أعوانٌ وبِطانةٌ مُدَرَّبُونَ ومحترِفون في صناعةِ غسلِ الدِّماغ، يتولَّونَ تعليم الزُّوَّارِ الْمَجْلُوبِينَ، يُطَبِّعُونَ مشاعِرَهُمْ بِطُرُقٍ غامضةٍ ملغزةٍ عبر إيحاءاتٍ وتلقيناتٍ مستمرَّةٍ، فتخضعُ لهم نفوسُ هؤلاءِ وتنقادُ لأوامرِ الْمُلَقِّنين، بحيث لو أمرُوهم بالقتلِ والنهبِ والإغتصابِ ما خالفوهم أبدًا. "لأنَّ كلَّ شيءٍ يأمرُهُ شيخُ الطَّريقةِ إنَّما هو وحيٌ من عندِ الله، بل يستشيرُ اللهُ الشيخَ في بعض أمورِهِ، أو يفوّضُ إليه الأمرَ!" (في مُعْتَقَدِهِمْ).

ولَمَّا يتَّفقُ لأيِّ عصابةٍ من هذه الفئاتِ الَّتِي تتَّجرُ بالدِّينِ فتنجحُ في حشرِ آلافٍ من البسطاءِ ومدمِني المخدِّراتِ حولَ شيخِها، يتضَخَّمُ حجمُ العصابَةِ؛ عندئذٍ تتمكَّنُ من المراهنةِ بهذا الجمهورِ الهمجِيِّ في منافسةِ أيِّ قوَّةٍ في البلاد، وتستخدمُهم في أغراضِها، فَتُبَاهِي بكثافةِ عددِهِمْ وتتحدَّى المنافسين على سبيلِ الدعايَةِ في تسحير العيون، بِأَنَّ هذا حاصلٌ من كراماتِ الشيخِ وَبَرَكَاتِهِ الإرشادِيَّةِ والإصلاحيَّةِ، فتجدُ الفرصةَ لاصْطِيَادِ المثقَّفين والأثرياءِ وأصحابِ الكلمةِ النافذة. وأحيانًا تُهَدِّدُ الخصومَ وتنافسُ المعارضين بِحُشُودِهَا، كما تستخدمُهم في دعمِ وتأييدِ ما تتَّفقُ معه من الأحزابِ السياسيَّةِ لِمُشَاطَرَتِهَا في المصالح.

إنَّ هذه الطائفةَ الخطِيرةَ، تتبوَّءُ مكانًا في صفوفِ الذين يعدُّون أنفسَهم من أهل السنَّةِ والجماعةِ، لذا تتعدَّى خطورةُ هذه الطائفةِ إلى ناحيتين هامَّتينِ من الحياةِ. الناحيةُ الأولَى هي الجانبُ الدينيُّ

والعَقَدِيُّ، حيث أن النقشبنديَّةَ، تيَّارٌ باطنيٌّ متطوِّرٌ من الديانةِ البوذيةِ الهنديَّةِ، أخذتْ تعاليمَهَا الظاهرةَ من الإسلامِ؛ كالصلاةِ، والصومِ، والحجِ، والزَّكاةِ، والسننِ، والنوافلِ، والتوبةِ، والطهارةِ البدنيَّةِ، والحجابِ، وتلاوةِ القرآنِ إلخ... وأخذتْ تعاليمَهَا الباطنيَّةَ من البوذيَّةِ والبرهميَّةِ؛ مثل (خَتْمِ خُوَاجَكَانْ)، وهو شكلٌ من أشكالِ طقوسِهم، وَعَدِّ الأذكارِ بالحَصَيَاتِ، وضبطِ النَفَسِ وإلْصَاقِ اللِّسانِ بالحَنَكِ الأعلى أثناءَ الذِّكر، ورابطةِ الشيخ، (وهي أنْ يتصوَّرَهُ المريدُ في قلبهِ)، مع الإعتقادِ "بأنَّه وكيلُ الله ونائبُهُ في الأرضِ، يتصرَّف في ملكه كيف يشاءُ[88]، يعلمُ الغيبَ والشهادةَ، يُحْيِي ويُمِيتُ، وهو على كل شيءٍ قدير!". ومن معتقداتِ النقشبنديّين الأتراك: أنَّ الأولياءَ؛ (ويُقْصَدُ بهم: أولياءُ الأمَّة التُّرْكِيَّة)، هم أفضلُ من محمد النَّبِيّ العربِيّ!، (قد وردتْ الإشارةُ إلى هذه الهرطقةِ في أواخرِ كتابٍ اسمهُ "مناقبُ الأولياء/**163**" للصوفي: (حسن لطفي شوشود).[89] إنَّ هذه المعتقداتِ وكثيرًا من أمثالِها، يتواطأ على إخفاءِها وكِتْمَانِهَا من العامَّةِ شيوخُ هذه الطائفةِ، خوفًا من ردود فعل المسلمين!

***

3) التَّيَّارُ الصوفِيُّ (النَّقْشَبَنْدِيُّ)

يقول محمّد أمين الكرديُّ الأربلِيُّ (ت. **575**هـ. – **1179**م.) – أحدُ شيوخِ هذهِ النحلةِ –، يقولُ في كتابٍ له: «إنَّ طريقةَ السادةِ النقشبنديَّةِ هو مُعْتَقَدُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ (؟!). وهي طريقةُ

---

[88] يزعمون أنَّ الشخصَ إذا ترقّى عبرَ مقامات الأولياءِ وحصل له الفناءُ في اللهِ، وهو آخر مرتبةٍ يرقى إليه سالك الطريقة النقشبنديّةِ، "يكون عندئذ قد انصهر في ذات الله"، فيصلح أن ينوبَ إذن عن الله في التصرّفِ. وهذا كلام بعضهم، يعبّرُ عن هذا الإدعاءِ الخطير، عَرَّبْنَاهُ كما يلي:

«إنّه بعد ما يضمحلُّ جميعُ ما سوى الله في نظر السّالك بفضل المولى وكرمه بحيث لا يكاد يرى غير الله شيئًا أجنبيًّا – اسْمًا كان أو صورةً – تَحَقَّقَ له الفناءُ في الله، أي الانصهارُ في ذاته. وحصلتْ بذلك الدولة، وانتهت الطريقة، واكتمل السّير إلى الله (أي المِشْيَةُ المعنوية نحو المولى)»

وهذا نص العبارات باللغة التُّرْكِيَّة اقتبسناه من كتاب: روح الفرقان: المجلّد/**2**، ص/**63**، بقلم جماعة من النقشبنديّين الأتراك المنتسبين إلى تكيّة (شرشنبة). دار سراج – إسطنبول/**1992**م.

Mevlânın fazl-u keremiyle masiva (Allah Tealâ'nın dışındaki her şey) salikin nazarından tamamen kalkıp gayriyi (yabancıları) görmekten isim ve resim kalmayınca muhakkak fenafillâh (Allah-u Tealâ'da eriyip gitmek) tabir edilen devlet hasıl olmuş ve tarikat hali sona ermiş olur. Ve böylece seyr-i ilellah, mevlâ'ya doğru olan manevi yürüyüş tamamlanmış olur.

[89] يقول. لإنَّ مقامَ الولايةِ، هو مقامُ مَنِ ارْتَقَى إلى حالِ الفناءِ (أي الإنصهارِ في ذات الله)، وهذا المقام أعلى من مرتبةِ النبي؛ إنَّ بعضَ الإنبياءِ قد يكون حازَ مقا الولاية، إلاَّ أن كلَّ الأولياءِ قد تحققت فيهم صفةُ النبوَّةِ التعريفيَّةِ أو التيليغيَّةِ. وهذا نص عبارته باللغة التركية:

«Velâyet, fenâya varmış kimsenin hâlidir. Nübuvvet mertebesinden uludur. Bazı enbiyâ hazerâtı velâyete de sâhib olmuşlardır. Lâkin her velîde nübuvvet-i tarifiyye veya tebliğiyye mevcûd olagelmiştir.»

الصحابةِ رضي الله عنهم على أصلِهَا، لم يزيدوا فيها، ولم ينقصوا منها.»[90] هذا الشيخُ نفسُهُ يقول في كتابٍ آخرَ له: ومَبْنَى هَذِهِ الطريقةِ العليَّةِ على العملِ بإِحْدَى عَشْرَةَ كلمةٍ فارسيَّةٍ: ثمانيةٌ منها مأثورةٌ عن حضرةِ الشيخ عبد الخالق الْغُجْدُوَانِيِّ. وهي: هُوشْ دَرْدَمْ، نَظَرْ بَرْقَدَمْ، سَفَرْ دَرْ وَطَنْ، خَلْوَتْ دَرْأَنْجُمَنْ، يَادْ كَرْدْ، بَازْ كَشْتْ، نِكَاهْ دَاشْتْ، يَادْ دَاشْتْ[91]». ثم أضافَ إليها ثلاثَ كلماتٍ أخرياتٍ[92]، زعم أنَّها مأثورةٌ من محمد بهاء الدين البخاري (717–791هـ.) وهو أحدُ قدماءِ النقشبنديَّةِ.

لا يخفى على أيِّ إنسانٍ يقرأُ هذه السطورَ: أنَّ الشيخ محمّد أمين الكرديَّ الأربليَّ المشهورَ الْمُوَقَّرَ وَالْمُعْتَمَدَ عليه بين مشائخِ النقشبنديَّةِ، قد كذَّب نفسَهُ بلسانِهِ وَقَلَمِهِ حين زعم "أنَّ طريقتَهم (النقشبنديَّةَ) هي مُعْتَقَدُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ثم قال: "ومَبْنَى هذه الطريقةِ العليَّة على العملِ بإحدَى عشرةَ كلمةٍ فارسيَّةٍ: وهي: هُوشْ دَرْدَمْ، نَظَرْ بَرْقَدَمْ، سَفَرْ دَرْ وَطَنْ، خَلْوَتْ دَرْأَنْجُمَنْ، يَادْ كَرْدْ، بَازْ كَشْتْ، نِكَاهْ دَاشْتْ، يَادْ دَاشْتْ ...إلخ". كما لا يخفَى على أغلبِ المسلمين من العامَّةِ فضلاً عن العلماءِ أنَّ الإسلامَ بريئٌ كلَّ البراءَةِ من هذه المصطلحاتِ الفارسيَّةِ، ولا تمتُّ هذه الكلماتُ الدخيلةُ بصلةٍ إلى الدِّين الإسلامِيِّ أبدًا. وكما لا شكَّ في أنَّ أكثرَ علماءِ الإسلامِ، إذا وقعَ نظرُ أحدِهِمْ على هذهِ السطورِ، سيعترفُ أنَّهُ فوجِئَ بهذه الكلماتِ لأوَّلِ مرَّةٍ ولم يَسْمَعْهَا من ذي قبلٍ قطُّ. إذًا لن نتردَّدَ في الحكم على هذا التَّيَّارِ الصوفِيِّ بأنَّها زَنْدَقَةٌ[93]، والمشرَّبون بهذه

---

[90] تجد نفس العبارة في المصادر الأربعة التالية: **1**) خالد البغدادي، رسالةٌ في تحقيق الرابطة، ص/**13**. (راجع: عباس العزّاوي، مولانا خالد النقشبندي، مجلّة المجمع العلمي الكرديِّ، ص/**708**). **2**) محمّد أمين الكرديّ الأربليّ، المواهب السرمديّة، ص/**3**. **3**) محمّد بن عبد الله الخانيّ، البهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبنديّة، ص/**3**. **4**) عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاَّءِ النقشبنديَّةِ، ص:**3**.

[91] تنوير القلوب في معاملة علاّم الغيوب، ص: **506–507**. طبعة مصر – **1384**هـ. ورد تعريفُ هذه الطريقة الصوفية في عدد من المصادر باللغة الفارسيّةِ ممّا يؤكد على أنها ترتبط بالديانات التي كانت سائدة في منطقة توركستان والهند المجاورتين لأرض الفرس، ثم انتقلت مع هجرة الأتراك إلى أناضول. وهذا نص التعريف: "نقشبندية: فرقه أي أز متصوّفه كه آداب ورسوم خاص دارند. ومنسوب بشيخ بهاء الدين نقشبند هستند. وميكويند: شيخ آن قدر ذكر حق كفته كه كلمهء الله در دلش نقش بسته وبه نقشبند معروف كرديده.". مقتبَسٌ من ديوان محمد إقبال اللاهوري ص/**126**

[92] هذه الكلمات الثلاث هي: «الوقوفُ الزمانيُّ، والوقوف العدديُّ والوقوف القلبيُّ.

[93] نعم لا شكَّ في أنَّ الطريقةَ النقشبنديَّةَ زَنْدَقَةٌ من أخطرِ أنواعها؛ غيرَ أنَّ كلمةَ ((الزَّنْدَقَةِ)) هنا قد يستغرِبُهَا بعضُ القُرَّاءِ ويجهلها كثيرٌ من الناسِ وهي في الحقيقةِ مصطلحٌ يحتاج إلى توضيح.

إنَّ كَلِمَةَ الزَّنْدَقَةِ دَخِيلَةٌ، لاَ نَجِدُ لَهَا ذِكْرًا فِي كِتَابِ اللهِ وَلاَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ. يَغْلِبُ أَنَّ مَفْهُومَ الْكُفْرِ لَمَّا ازْدَادَ غُمُوضًا، وَتَطَوَّرَتْ مَقَاصِدُ الإِلْحَادِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْجَدِيدِ، وَتَنَوَّعَتْ أشكالُ الإشراكِ بالله بَعْدَ عَصْرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وعقب الْفُتُوحَاتِ التي أسفرتْ عن دُخُولِ كثير من الْفِئَاتِ الْكَافِرَةِ إِلَى حَظِيرَةِ الإِسْلاَمِ، لَجَأَ الْعُلَمَاءُ إِلَى اسْتِعْمَالِ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ لِغُمُوضِهِ وَالْتِبَاسِهِ على غَيْرِ أَهْلِ الاخْتِصَاصِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَلَمَّا كَانَ قصدُ الْعُلَمَاءِ مِنْ إِطْلاَقِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ عَلَى بَعْضِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ – عَلَى سَبِيلِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ دَقَائِقِ مَسَائِلِ الإِلْحَادِ، حَتَّى لاَ يَتَعَرَّضَ الْمُؤْمِنُ الْجَاهِلُ لِخَطَرِ مَا يَنْزَعُ الإِيمَانَ من صدرِهِ ويُقْصِيهِ مِنْ ساحةِ الإِسْلاَمِ –، جَازَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ بَلْ حَسُنَتْ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّحْذِيرِ عَمَّا يُؤَدِّي إِلَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ. وَلاَ يَخْفَى أَنَّ التَّطَوُّرَ مِنْ طَبِيعَةِ الْعُلُوم. فَقَدْ

الهرطقاتِ خارجون عن الْمِلَّةِ لا محالةَ. ذلك انطلاقًا من كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهما محفوظانِ في صدورِ علماءِ الأمَّةِ، مضبوطانِ من عهدِ الرسول عليه السلام إلى يومِنا هذا، تَكْتَظُّ بهما المكتبةُ الإسلاميَّةُ في مشارقِ الأرضِ ومَغَارِبِهَا.

انتشرتْ طرَائِقُ الصوفيَّةِ بين الأتراكِ منذ بدايةِ اعتِنَاقِهِمْ للاسلامِ (تقريبًا قبل عشرةِ قرونٍ)، وتنافستْ في الانتشارِ إلى أن قفزتْ النقشبنديَّةُ من الدِّيارِ الهنديَّةِ إلى الشرقِ الأوسطِ على يدِ رجلٍ كُرْدِيٍّ يُدْعَى خالدُ البغدادِيُّ، وذلك عام 1811م. فطغَتْ على كلِّ التَّيَّاراتِ الصوفيَّةِ في جميعِ أنحاءِ المملكةِ العثمانيَّةِ في نِهايةِ القرنِ التاسعِ عشر الميلادِيِّ، حتى تأصَّلتْ في قلوبِ مُعظمِ الأتراكِ والأكرادِ في تركيا والعراقِ وسوريا. وقد تحوَّل هذا التَّيَّار الرهبانيُّ الْهِنْدُوسِيُّ اليومَ إلى دينٍ شِبْهِ سرِّيٍّ في تركيا. تجدُ الناسَ مسلمين في المساجدِ، وعلمانِيّينَ في الشارِعِ، ونقشبنديّين في الْخَفَاءِ.

تَتَحَدَّى النقشبنديَّةُ الاسلامَ، وتُكَشِّرُ له أَنْيَابَهَا اليومَ بطقوسِهَا الْهِنْدُوسِيَّةِ، وآدابِهَا البوذيَّةِ، ومناقِبِ أولياءِهَا على غرار النصرانيَّةِ. وهي من أعظمِ المخاطرِ في وجهِ الدعوةِ إلى توحيد اللهِ.[94]

تَتَأَكَّدُ الْحَاجَةُ إِلَى اسْتِعْمَالِ مُصْطَلَحَاتٍ جَدِيدَةٍ بِاخْتِلاَفِ الظُّرُوفِ وَالْمَفَاهِيمِ وَالْعَقْلِيَّاتِ وَالأَحْدَاثِ مِنْ مَرْحَلَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَذَلِكَ لِتَقْرِيبِ الْحَقَائِقِ إِلَى الْعُقُولِ. فَقَدْ وَرَدَتْ مُصْطَلَحَاتٌ جَدِيدَةٌ فِي مَصَادِرِ الْفِقْهِ وِالْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ، لاَ نَجِدُ لَهَا ذِكْرًا بَيْنَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ. مِثْلَ كَلِمَةِ «الْمُبَاحِ»، وَهِيَ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الْفِقْهِ؛ وَكَلِمَةِ «الرِّوَايَةِ»، وَهِيَ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ الْحَدِيثِ؛ وَكَلِمَةِ «الإِدْغَامِ»، وَهِيَ مِنْ مُصْطَلَحَاتِ عُلُومِ الْقُرْآنِ. وَيُرَجَّحُ أَنَّ «الزَّنْدَقَةَ» كَلِمَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ اللُّغة الفَارِسِيَّةِ، ومُحَرَّفَةٌ مِنْ لَفْظِ «زَنْدكَرْدْ». قِيلَ أَنَّ الزَّرَادَشْتِيِّينَ الْفُرْسَ لَمَّا اصْطَدَمُوا بِأَعْمَالِ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ فِي كِتَابِهِمْ الَّذِي كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ الإِسْلاَمِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُسَمىَّ (آوَسْتَا)، أَطْلَقُوا عَلَى مُحَرِّفِيهِ صِفَةَ «زَنْدكَرْدْ»، تَشْنِيعًا لَهُمْ وَتَعْبِيرًا عَنْ كُفْرِهِمْ بِقِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا أَعْلَنُوا أَنَّ الْمَانَوِيِّينَ وَالْمَزْدَكِيِّينَ زَنَادِقَةٌ، خَارِجُونَ عَلَى الدِّيَانَةِ الزَّرَادَشْتيَّةِ. ثُمَّ اصْطَلَحَ عُلَمَاءُ الإِسْلاَمِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَأَطْلَقُوهَا عَلَى كُلِّ مَنْ يُفْسِدُ الدِّينَ الْحَنِيفَ وَيَدُسُّ فِي تَعَالِيمِهِ مَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَيَغْلِبُ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بِنَ الْمُقَفَّعِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ اتَّهَمَهُمُ الْعُلَمَاءُ بِالزَّنْدَقَةِ، وَقُتِلَ عَلَى أَنَّهُ زِنديقٌ يُظْهِرُ الإِسْلاَمَ وَيُبْطِنُ الْكُفْرَ. فَتَكُونُ الزَّنْدَقَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى تَسْمِيَةً أُخْرَى لِلنِّفَاقِ. إلاَّ أنَّ الْحُكْمَ الإِسلاَمِيَّ لَمَّا أَبَاحَ لِجَمِيعِ فِئَاتِ الْكُفَّارِ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ وَالْمَجُوسِ أَنْ يُمَارِسُوا حُرِّيَتَهُمُ الدِّينِيَّةَ بِتَمَامِهَا فِي الْوَطَنِ الإِسْلاَمِيِّ، وَلَمْ يُؤَاخِذِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا يُبْطِنُونَ مِنَ الْكُفْرِ فِي اعْتِقَادِهِمْ، وَالْمَكْرِ فِي أَعْمَالِهِمْ، بَلْ نَظَرَ دَائِمًا إِلَى ظَاهِرِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ فِي عِدَادِ الْمُسْلِمِينَ وفقًا لِقولِهِ صلَى اللَّه عليه وسلم: "إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُم". إِذَنْ لاَبُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ حَافِزٌ مُلِحٌّ آخَرُ دَعى إِلَى مَقْتَلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُقَفّعِ. وَيُرَجَّحُ أَنْ يَكُونَ هَذَا السَّبَبُ، هُوَ قِيَامُهُ بِحِيَاكَةِ الدَّسَائِسِ لِضَرْبِ الإِسْلاَمِ مِنْ قَلْبِهِ؛ أَيْ مُحَاوَلَتُهُ لِتَحْرِيفِ تَعَالِيمِ الدِّينِ الْحَنِيفِ. فَتَكُونُ الزَّنْدَقَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى تَسْمِيَةً خَاصَّةً وَجَدِيدَةً اصطلحها العلماءُ للتعبير عن خَطَرٍ جَدِيدٍ لَمْ يَعْهَدْهُ الإِسْلاَمُ فِي عَصْرِ السَّلَفِ الصَّالِح. أَلاَ وَهُوَ خَطَرُ التَّحْرِيفِ. وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، يُستحسَنُ هنا أَنْ نَقُولَ بإيجاز؛ أَنَّ الزَّنْدَقَةَ هِيَ نَوْعٌ جَدِيدٌ مِنَ الإِلْحَادِ، لَمْ تَكُنِ الظُّرُوفُ مُؤَاتِيَةً لِظُهُورِ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْكُفْرِ فِي عَصْرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ إِلاَّ بَعْدَ الْفُتُوحَاتِ وَاعْتِنَاقِ جَمَاعَاتٍ غَفِيرَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ دِينَ الإِسْلاَمِ مَكْرًا، فَأَرَادَ صَنَادِيدُهُمْ أَنْ يَعْبَثُوا بِالدِّينِ الْحَنِيفِ ثَأْرًا لِمُعْتَقَدَاتِهِم الّتي تظاهروا بأنّهم حلُّوا رِبْقَتَهَا من اعناقِهم نفاقًا، وانتقامًا من المسلمين الذين ضموا أراضيهم إلى الوطن الإسلامي. وَقَدْ تُطْلَقُ الزَّنْدَقَةُ عَلَى كُلِّ مُحَاوَلَةٍ يَتَغَيَّرُ بِهَا مَفْهُومٌ مِنْ مَفَاهِيمِ الإِيمَانِ، وَيَفْقِدُ بِهَا مِنْ أَصَالَتِهِ وَحَقِيقَتِهِ. وَيَتَحَرَّفُ بِدَوَافِعِهَا لَفْظُهُ أَوْ مَعْنَاهُ، سَوَاءٌ بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ، أو بالتعطيل الخانق، أَوْ بِالتَّزْوِيرِ الْمَاكِرِ، أو بزيادة شيءٍ في تعاليم الإسلامِ، أو بإلغاءِ شيءٍ منه. وَلِهَذَا، تَدْخُلُ جَمِيعُ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ فِي عِدَادِ الزَّنَادِقَةِ؛ مِثْلُ الدُّرْزِيَّةِ، وَالنُّصَيْرِيَّةِ، وَالإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَالْبَابِيَّةِ، وَالْبَهَائِيَّةِ، وَالْقَادْيَانِيَّةِ، والنَّقْشَبَنْدِيَّةِ، وَالْمِيتُودِيَّةِ[93] (وَهُوَ الدِّينُ الْوَطَنِيُّ التُّرْكِيُّ الْجَدِيدُ، الَّذِي أَسَّسَهُ الكماليُّونَ الْيَهُودُ الدُّنْمَا عام 1939م. وَاعْتَنَقَهُ جُمْهُورٌ مِنَ الأَتْرَاكِ، خَلَعُوا بِذَلِكَ رِبقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ، بِأَنَّهُ دِينُ الْعَرَبِ). وَكَثِيرٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ زَنَادِقَةٌ وَكُفَّارٌ خَارِجُونَ عَنِ الإِسْلاَمِ بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ.. (المصدر: فريد صلاح الهاشمي، المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية، باب الزاي (مادة زندقة)/ المجلَّد:24. غير مطبوع حاليًّا)

[94] راجع: الطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّة بين ماضِيهَا وحاضِرِهَا، فريد صلاح الهاشمي.

إن الزَّنْدَقَةَ الْمُتَمَثِّلَةَ في (الطريقةِ النقشبنديَّةِ)، أخذتْ في الانتشارِ على ساحةِ المملكة العثمانيَّةِ بجهودِ شيخٍ كُرْدِيّ الأصلِ من ضواحِي مدينةِ السليمانيَّةِ العراقيَّةِ (كما مرَّ آنفًا بإيجاز)، وذلك بعد أنْ أقامَ عامًا في مدينةِ دَهْلِي الهنديَّةِ وعاد سنةَ **1811**م. فما إنْ وَصَلَ البغداديُّ إلى وطنِهِ انتشرتْ بِدْعَتُهُ انتشارَ النَّارِ في الهشيم. وبلغتْ شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا بين صفوفِ جميعِ رعايَا الدولةِ العثمانيَّةِ مِمَّنْ كانوا يدَّعون أنَّهم مسلمين!

تَوَجَّسَتْ الحكومةُ العثمانيَّةُ الخطرَ في بدايةِ الأمرِ من تصرُّفاتِ خالدِ البغدادِيّ، وَتَمَكُّنِهِ من الهيمنةِ على نفوسِ الناسِ وحظِّهِ الوافرِ من الشهرةِ، فحاولتْ الحدّ من توسُّعِهِ بإصدارِ الأوامرِ إلى والي بغدادَ سعيد باشا[95]، غير أنَّ الذي خَلَفَهُ (وهو داود باشا[96]) كانَ متواطئًا مع البغدادِيّ لسببٍ هامٍّ جدًّا؛ ذلك أنَّ تعاليمَ خالِدِ البغدادِيّ كانت بمنزلةِ دواءٍ منقطعِ النظيرِ لتهدئةِ النفوسِ وكبحِ الجموحِ، أسهمتْ في تخفيفِ الإنفلاتِ الأمنِيّ المتفاقمِ على الساحةِ العراقِيَّةِ منذ القديم. وهذا ما يتمنَّاهُ كلُّ حاكمٍ، خاصَّةً حُكَّامُ العراقِ الذين طالما حاروا في إخمادِ الثوراتِ، وإيجادِ السكينةِ والاستقرارِ، وتأسيسِ الأمْنِ على الساحةِ العراقيَّةِ. تشهد على هذه الحقيقة ما يجري اليومَ في هذه المنطقةِ من الفوضَى والفتن والحروبِ والقتالِ والجنايات...

فما كان من الوالي أنْ قامَ بإشعارِ (البابِ العالي) عن أمرِ خالدِ البغدادِيّ والإشادةِ بدورِهِ في استتبابِ الأمنِ. فارتاحَ السلطان محمود الثاني للخبرِ وذهبَ عنه القلقُ، لكنَّهُ لم يعبأْ بِكُنْهِ تعاليمِ البغدادِيّ ومَدَى توافُقِهَا مع العقيدةِ الإسلاميَّةِ، إذ لم تكنْ هذهِ المسألةُ مِمَّا يثيرُ اهتمامَهُ كرجلٍ سياسِيٍّ لا يكترثُ الاَّ لضبطِ نظامِهِ والحفاظِ على هيبتِهِ في قلوبِ رعايَاهُ. أمَّا العقيدةُ فكانتْ جانبًا ثانوِيًّا من الأمورِ، لم تتدخَّلْ فيها السلطةُ مباشرةً على مدى العهدِ العثمانِيّ، وإنَّما كان ينظرُ فيها رجالُ الدِّينِ. لذلك فإنَّ اختلافَ العقائدِ أو حتَّى تأثيراتِهِ الهدَّامَةَ على العقيدةِ الإسلامِيَّةِ لم تكُنْ مِمَّا يبعثُ القلقَ في نفسِ الحاكمِ إلاَّ إذا تطوَّرَ عنها شغبٌ يهدِّدُ الأمنَ والاستقرار.

---

[95] سعيد باشا بن سليمان باشا: أحد حُكَّامِ العراقِ في أواخر العهد العثمانِيّ. تولى في الفترة من (**1813**م.–**1817**م.). كان يجاري خالدًا البغدادِيَّ للحفاظِ على المصالح المشتركة.

[96] داود باشا: جورجي الأصل، ولد في مدينة تِفليس سنة **1774**م. اسمه الحقيقيُّ: Datuna Manvelishvili. استرقَّهُ الأتراكُ وحملوه إلى بغداد. كان شابًا ذكيًّا تعلّم العربية والفارسيةَ والتركيةَ. درس الفقهَ والأدبَ. تولّى مهامًّا للدولة، وارتقى في المناصب حتى احتلَّ منصب المساعد للوالي سليمان باشا وتزوّجَ من ابنته ثم خلفه بعد وفاته في الفترة من (**1817**م. – **1831**م.). ساير خالدًا البغدادِيَّ لَمَّا استعانَ به على كسب ثقة الأكرادِ. وهو آخر باشا من قبل المماليك.

يبدو أن السلطانَ العثمانيَّ (محمودَ الثاني) وبَلاَطَهُ وجدوا يومئذٍ في هذهِ الدعوةِ ما يُمَهِّدُ السبيلَ للهدوءِ في صفوفِ المجتمع الَّذِي كان يغلِي غَلَيَانَ الماءِ على النارِ، لأنَّ في تعاليم هذهِ الطريقةِ مُعْتَقَدَاتٍ تجعلُ من المريدِ جُثَّةً هامِدَةً بين يَدَيِ الشيخِ يتلاعبُ به كيفَ يشاءُ وإنْ كان المريدُ قبلَ ذلك مِنْ أقسَى الناسِ قلبًا وأشدِّهِمْ جنوحًا إلى الشرِّ. فوجدَ السلطانُ محمود الثاني ضالَّتَه في هذا الرجلِ و"خُلَفَائِهِ"، أيْ نُشَطَائِهِ الّذين كانوا يقومون بنشرِ دعوتِهِ، وتبشيرِ دِينِهِ. فَشَجَّعَهُ وسانَدَهُ وقَمَعَ مُعَارِضِيهِ بأقصَى سرعةٍ (وعلى رأسهم عبد الوهاب السوسي). كما اعتنقتْ الأميرةُ عادلة (بنت السلطان محمود بالذات) عقيدةَ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ وانخرطتْ في سلكِها. فاكتسبتِ النقشبنديَّةُ بذلك قاعدةً متينَةً لم تتزعزعْ أمامَ عواصفِ الحروب الَّتي جرتْ على الأراضِي العثمانيَّة، ورغم المجاعاتِ والمآسِي الَّتي تكبَّدها المجتمعُ العثمانيُّ الخليطُ إبَّانَ قرنٍ كاملٍ..

فلمَّا وضعتِ الحربُ أوزارَها وأُعْلِنَ عن قيام الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ، استيقظتِ الجماعاتُ النقشبتديَّةُ من سباتِها وانتفضتْ انتفاضةَ أسرابٍ من النسور، فزحفتْ على كلِّ بقعةٍ في البلدِ وتَسَرَّبَتْ إلى كلِّ مؤسَّسةٍ للدَّولةِ، واستحكمتْ سلطتَها على هذه المؤسَّسات. ولهذا التطوُّرِ قصَّة غريبةٌ.

ذلك أنَّ رئيسَ الوزراءِ التُّركِيّ الراحل (عدنان مندريس)، لَمَّا وجدَ هذا التَّيَّارَ عائِقًا يعترضُ سبيلَهُ عند كلِّ انطلاقةٍ وهو متأكِّدٌ من أنَّ قَمْعَ النقشبنديّينَ مستحيلٌ، عجزَ عنه حتى مصطفى كمال!، لكثافةِ عددِهِمْ، وَلِتَوَغُّلِ هذا التَّيَّار إلى كلِّ أرجاءِ البلادِ. ولذلك أرادَ أن يُوَجِّهَ جموعَهُمْ إلى شخصٍ مُعَيَّنٍ يمكن مراقبتُهُمْ (وهم ملتفُّون حَوْلَهُ)، بواسطةِ جهازِ الْمُخَابَرَاتِ. ولكنَّه أخطأ عندما كَلَّفَ الجهازَ أنْ يقومَ بتنظيمِ هذا التَّيَّار مُبَاشَرَةً وفِي خَفَاءٍ. فأَدَّى ذالك إلى إعادةِ بناءِ هذا الأنقاضِ، وجمعِ شَمْلِ هذه الجماعةِ الْمُبَعْثَرَةِ تحت مَظَلَّةٍ واحدةٍ تقريبًا، فَمَكَّنَهَا مِنْ توحيدِ الصفوفِ، مِمَّا أسفرَ عن تَضَخُّمِهَا في مُدَّةٍ وجيزةٍ نتيجةَ تَرَاكُمِ أموالٍ طائلةٍ وثَرَوَاتٍ كبيرةٍ في خِزَانةِ هذه العصابةِ الخطيرة، حتى تَحَوَّلَتْ إلى دولةٍ سِرِّيَّةٍ يعتمدُ عليها هيكلُ الدولة التُّرْكِيَّة اليوم، وهي تتصرَّف في السياسةِ والإقتصادِ، وتستدرِجُ مِنْ بينِ صفوفها رجالاً تَصْعَدُ بِهِمْ إلى قِمَّةِ الدَّولةِ، كمنصبِ رئاسةِ الوزراءِ ورئاسةِ الجمهورية!

يحتار الإنسانُ لا محالةَ عندما يرى انتشارَ جماعاتِ النقشبنديَّةِ في تركيا، وقد يتسائل: كيف تكوَّنتْ هذه الكثرةُ العظيمةُ، ومن أين لها هذه القدرةُ وَالْهَيْمَنَةُ حتى أصبحتِ الطُّغْمَةُ اليهوديَّةُ الحاكمةُ

تَتَهَيَّبُهَا وتحسب لها ألفَ حساب! غير أنَّ الباحثَّ الدقيقَ إذا تتبَّعَ مسيرةَ هذا الشعبِ وَسُلُوكَهُ عبر قرونٍ، وَتَقَلُّبَهُ بين أديانٍ ومُعْتَقَدَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، لا يلبثُ حتَّى يعثرُ لهذا التَّيَّار جذورًا في تاريخِهِ الْمُمْتَدِّ منذ ثلاثةِ آلافِ سنة. فمن حَظِيَ بدراسةٍ ميدانيةٍ شاملة، وأمكنه القيام بأعملِ بحوثٍ واسعةٍ عن الخلافاتِ الدينيةِ، وظهورِ المذاهبِ، وانتشارِ ظاهرةِ التصوُّفِ والطرائقِ الصوفيةِ، والتنظيماتِ السرّيَّةِ خاصَّةً منها الَّتي شَاعتْ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ بعد تعرُّفِهِ على الإسلامِ، يلتقي بألوانٍ مِنَ الغرائبِ في سلوكِ هذا القومِ من الإتّجَارِ بالدِّينِ، وفنونٍ مِنْ استغلالِ الضمائرِ، منها ما يُهْدَفُ بِهِ الحظوةُ من الشهرةِ والرياسةِ، ومنها ما يُستَخْدَمُ لأجلِ الرِّبْحِ والتجارةِ، ومنها ما يَتَبَنَّى هدمَ الإسلامِ واسْتِئْصَالَهُ من أساسِهِ. والباحثُ الدقيقُ، لابُدَّ أن يصلَ يومًا مَّا إلى رُكَامٍ من الكُتُبِ والوثائقِ الَّتي تَحوِي في بطونها من أنواعِ الخلافاتِ الفقهيَّةِ، والمجادلاتِ الكلاميَّةِ، والحروبِ المذهبيَّةِ، ومُساجَلاَتِ العلماءِ ومَشَاتَمَاتِهِمْ الَّتي لعبتْ الدورَ في تمهيدِ الطريق لهذه الفرقةِ الباطنيَّةِ بحال، وإن لم تكن مباشرةً. فلا يصعب عليه عندئذٍ أنْ يتأكَّدَ مِنْ أنَّ زَنَادِقَةَ اليومِ هم في الحقيقة إمتدادُ زَنَادِقَةِ الأمسِ، فيتحقَّقُ بعد ذلك من أنَّ الإسلامَ كان ولا يزال مُهَدَّدًا في الداخلِ أكثر مِمَّا يتعرَّضُ للتهديدِ والتدميرِ من الخارجِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة.

إنَّ النقشبنديَّةَ تَيَّارٌ صُوفِيٌّ خطيرٌ، وَضَعَ لَبِنَاتِهِ الأولى رَجُلٌ من أهلِ تركستان يُدعى عبدُ الخالقِ الْغُجْدَوَانِيُّ. اخْتَلَقَ الرَّجُلُ ثمانيةَ مصطلحَاتٍ، وبَنَى عليه عقيدتَهُ الْمُسْتَمِدَّةَ من الدياناتِ الهنديَّةِ. قيل أنَّ شخصًا آخر جاءَ بعده فأضافَ إليها ثلاثَ مصطلحاتٍ أخرى. تتَّضِحُ وجوهُ المشابهةِ بين دِيَانَتَي النقشبنديَّةِ والبوذيَّةِ في ضوء البراهينِ القاطعةِ بما لا يحتملُ الشكَّ ، ثُمَّ شاعتْ هذه العقيدةُ في بلادِ ما وراءِ النهر، كنتيجةٍ للفراغِ الدينيّ، إمَّا لِخُلُوِّ الساحةِ من علماءِ الإسلامِ، أو لانتشارِهَا بطريقةٍ سرِّيَّةٍ غفلتْ عنها سلطاتُ الدولِ الإسلاميَّةِ في المنطقةِ يومئذٍ. يبرهن على ذلك أنَّ هذه الحركةَ خلتْ من أيِّ اسمٍ حتى ظَهَرَ شخصٌ آخر يُدعى محمد بهاء الدين، الذي لقَّبَهُ أعوانُهُ بعنوان ((نَقْشَبَنْدْ)). وقد يكون هذا شخصيةً خياليةً.

اعتنقَ محمد بهاءُ الدين هذا الدِّينَ على يدِ شخصٍ اسْمُهُ أَمْير كُلاَل (ت. **1370**م.)، ثمَّ مزجَ بين تعاليمِ هذه الزَّنْدَقَةِ وبين تعاليمِ الاسلامِ، وزَيَّنَهَا للناسِ في لباسٍ يوحِي بأنَّه سلوكٌ روحانِيٌّ خاصٌّ يستدرج بالسَّالِكِ إلى مستَوَى الفناءِ والإنصهارِ في ذات الله سبحانه وتعالى عما يصفه الزَّنَادِقَةُ الكافرون!

انتشر هذا الدِّينُ بعدَ موتِهِ، بَيْدَ أنَّ محمدًا بهاء الدين أكْسَبَهُ نظَامًا خَاصًّا في حياتِهِ، وطَوَّرَهُ، حيث أضافَ ثلاثةَ مصطلحاتٍ أخرَى إلى ((المصطلحاتِ الأحد عشر)) الَّتِي كان قد اخْتَلَقَهَا الْغُجْدُوانِيُّ، ثُمَّ نسبَ هذا المزيجَ الغريبَ إلى الإسلام باسمِ "الطريقةِ النقشبنديَّةِ"!. فلم يلبثْ طويلاً حتى ازدادتْ الطريقةُ تطوُّرًا على مرِّ الزّمانِ بِضَمِّ أشكالٍ أخرَى من البدعِ إليها، فتَضَخَّمَتْ عبرَ القرونِ بِطقوسِها وآدابِها وأركانِها الأحد عشر، وأصبحتْ دينًا متكاملاً؛ كلُّ ذلك على حسابِ الدِّين الإسلاميِّ الذي هو براءٌ من هذهِ الزَّنْدَقَةِ براءَةَ الأنبياءِ من الإشراكِ بالله.

للفرقةِ النقشبنديَّةِ عقائدُ خطيرةٌ منها ما هو بدعةٌ قد لا يقعُ مرتكبُهَا في الكفرِ، كاستغلالِهِمْ اسمًا من أسمائِهِ تعالى وقد نسجوا حولَهُ من البدعِ، مثل ترديدِ لفظةِ الجلالِ بأعدادٍ كبيرةٍ كنوعٍ من الذكرِ؛ ومنها ما يقعون به في الكفرِ، كزعمِهِمْ: "أنَّ شيخَ الطريقةِ وكيلُ الله في أرضِهِ"[97]، وممارستِهِمْ لطقسٍ من طقوسِ الهندوسيَّةِ بسمِ "رَابطةِ الشيخِ".

ومن البِدَعِ الخطيرة للنقشبنديِّين: تأليهُ النبِيِّ عليه الصلاة والسلام؛ أثارَ هذه البدعةَ رجلٌ من النقشبنديِّين الْبُنْطُس في السنين الأخيرةِ، نُشِرَ له تسجيلٌ مُلْتَقَطٌ من إحدى القنواتِ الفضائيَّةِ، يقول فيه سائلاً ومجيبًا: "ماذا قال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم لجبرائيلَ عليه السلام؟ قال: – من أين تأتِي بالوحي؟ فأجابه جبريل: – أنِّي أحضرُ أمامَ سِتارٍ، فأتلقَّى الوحيَ من ورائِهِ، ثم أحملهُ إلى اللَّوحِ المحفوظِ، ثم إلى سماءِ الدنيا، ثم أُلْقِيهِ في قلبِكَ.. فقال له النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: – إذا تلقَّيتَ الوحيَ مرةً أخرَى عليك بكشفِ الستارِ. فلمَّا ذهبَ جبريلُ ليتلقَّى الوحيَ، كشفَ الستارَ فوجدَ وراءهُ النبيَّ جَالِسًا!"[98]. يعنِي بذلك: "أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم هو اللهُ بذاتِهِ". تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

---

[97] وَرَدَ في كتابٍ بعنوان (روح الفرقان) أَلَّفَهُ جماعةٌ من النقشبنديِّين الأتراك تَابِعَةٌ لرجلٍ يُدْعَى محمود أسطى عثمان أوغلو، ورد على لسانهم بالحرف الواحد: "أنَّ شيخَ الطريقةِ وكيلُ الله". سبحانه عما يشركون! وهذا نصُّ كلماتِهم نقلناها إلى العربية بقدر الإمكان: "إذا عرض للذَّاكِرِ شيءٌ من التفكُّرِ في ذاتِ اللهِ، فليصرِفْ همَّهُ إلى وكيل الله وخليفةٍ من خلفائِهِ، فيكون قد صان بذلك نفسَه من الخطر" المصدر: تفسير (روح الفرقان) باللّغة التركيّة، ص/ **74/2**. مكتبة سراج، إسطنبوا . **1992**م. وهذا نص كلمهم باللغة التركية:

«Zikreden kişiye Allah'ın zatı hakkında bir düşünce geldiğinde, bu düşünceyi Allah'ın vekili ve halifesi olan kişilere çevirmekle kendini tehlikeden kurtarmış olur…»

[98] هذا الرابط الذي نُشِرَ فيه التسجيل: https://www.youtube.com/watch?v=3UaBXlTo_Yk ، وهذه كلماتُهُ باللُّغةِ التُّركِيَّةِ وقد عرَّبْنَاهُ آنفًا:

Rasulullah (as). Cebrail Aleyhisselam'a ne dedi?
«-Sen dedi, vahyi nereden alıyorsun?»
«-Ben dedi: bir hicap perdesinin önüne geliyorum, perdenin önüne ilka buyurulan vahyi, perdenin oradan alıyorum; oradan levh-i mahfuza, oradan semayı dünyaya. Oradan da senin kalbine naklediyorum.»
«-Dedi ki bir daha vahiy olursa, o perdeyi arala. Cebrail o perdeyi araladı ki Rasulullah (sa.) İçeride oturuyor.»

يقول الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد التويجري في كتابه "البدع الحولية/**106**": "لقد كان السلفُ الصالِحُ أشدَّ مِمَّنْ بعدَهم تعظيمًا للنبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، ثم للخلفاءِ الراشدين من بعدِهِ، وناهيكَ ببذلِ أموالِهم وأنفسِهم في هذا السبيلِ، إلاَّ أنَّ تعظيمَهم رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم وخلفاءَهُ الراشدين، لم يكنْ كتعظيمِ أهلِ هذهِ القرونِ المتأخِّرَةِ، مِمَّنْ ضاعتْ منهم طريقةُ السلفِ الصالِحِ في الاهتداءِ والاقتداءِ، وسلكوا طريقَ الغوايةِ والضلالِ في مظاهرِ التعظيمِ الأجوفِ."

ترتكزُ الطريقةُ النَّقْشَبَنْدِيَّةُ على أحدَ عَشَرَ مصطلحًا من مصطلحاتِ مجوسِ الهندِ، وهي: هُوشْ دَرْدَمْ، نَظَرْ بَرْقَدَمْ، سَفَرْ دَرْوَطَن، خَلْوَتْ دَرْ أَنْجُمَنْ، يَادْكَرْدْ، بَازْكَشْتْ، نِكَاهْدَاشْتْ، يَادْدَاشْتْ، وُقُوفِ زَمَانِي، وُقُوفِ عَدَدِي، وُقُوفِ قَلْبِي.

كلُّ هذه المصطلحاتِ منقولةٌ من اللُّغةِ السَّنْسْكرِيتِيَّةِ إلى اللُّغَةِ العربيَّةِ والفارسيَّةِ؛ بعضُها مركَّبٌ من كلماتٍ فارسيةٍ بعد الترجمةِ مثل: "هُوشْ دَرْدَمْ"، و"يَادْكَرْدْ"، و"بَازْكَشْتْ"، و"نِكَاهْدَاشْتْ"، و"يَادْدَاشْتْ"... وبعضُها ممزوجٌ بكلماتٍ عربيَّةٍ وفارسيَّةٍ، مثل: "نَظَرْ بَرْقَدَمْ"، و"سَفَرْ دَرْوَطَن"، و"خَلْوَتْ دَرْ أَنْجُمَنْ"... وبعضُها يتكوَّنُ من كلمتين عَرَبِيَّتَيْنِ يتخلَّلُهُمَا لاحقةٌ فارسيَّةٌ بدلاً من حرفِ التعريف (أَلْ)، مثل: "وُقُوفِ زَمَانِي"، وَ"وُقُوفِ عَدَدِي"، وَ"وُقُوفِ قَلْبِي"[99].

هذه المصطلحاتُ دخيلةٌ وغريبةٌ على الإسلامِ، لأنَّها أوَّلاً مأخوذةٌ من ديانةِ أهلِ الْكُفْرِ، ومهما كان بعضُها موافقًا لتعاليمِ الإسلامِ فأنَّ الإسلامَ غنيٌّ عن جميعِ الأديانِ بدليلِ قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..[100] والعبادةُ في الإسلامِ توقيفيَّةٌ لا يجوزُ التصرُّفُ فيها لأحدٍ إطلاقًا. وَ"مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ".[101]

---

[99] واللاَّحِقةُ هنا: هي الكسرة التي في آخر كلمة (وُقُوفِ)

[100] سورة المائدة/**3**

[101] حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ ثَابِتٍ حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي مُنِيبٍ الْجُرَشِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ. سنن أبي داود (**11**/ **48**).

من أكاذيبِ النقشبنديّين زعمُهُمْ: "أنَّ المؤسِّسَ الأوَّلَ لطريقتِهِمْ هو أبو بكر الصدِّيقُ رضيَ الله عنه، ولا يعتمدون في ذلك على أدنَى حجَّةٍ سوَى عقولِهم وأهوائِهم، ومثْلُ هؤلاءِ لا عبرةَ بهم ولا بأقوالِهم. بل الصدّيقُ والصحابةُ وأئمةُ السلفِ الصالحِ رضي الله عنهم جميعًا بريئون منهم كُلَّ البراءةِ.

وَمِنْ أكاذيبهم أيضًا: "أنَّ بعضَ العارفين (على حدِّ قولهم) يطَّلِعُونَ على أسرارِ القلوب، كما كان يَحْدُثُ لِعبدِ الرحمن بْنِ محمد السقَّاف". ينقلون عن أحدِ تلاميذِهِ يقول: "ما خَطر لي في قلبي شيءٌ إلاَّ وفعله شيخُنَا!." ويزعمون أنَّه قال لزوجتِهِ التي بقريَةِ "العزِّ" –وكانت حاملاً–: "ستلدين غُلامًا، ويموتُ في يومِ كذا وأعطاهم ثوبَهُ، وقال: كفِّنوه بِهذا، وسافرَ، فكان الأمر كما قال!"[102]

وَمِنْ أكاذيبهم أيضًا، زعمهم: أنَّه لا بُدَّ من الانخراطِ في سلكِهِمْ، واتِّخاذِ شيخٍ من شيوخِهِمْ، وإلاَّ فإنَ مصيرَ الانسانِ الهَلاكُ. يقولُ في ذلك أحدُ رؤوسِهم: "فالشيخُ العارفُ الواصلُ وسيلةُ المريدِ إلى اللهِ، وبابُهُ الَّذي يدخلُ منه على اللهِ. فمنْ لا شيخَ لهُ يُرشِدُهُ فمرشدهُ الشيطان."[103]

وَمِنْ أكاذيبِهم أيضًا، زعمُهم: "أنَّ وشيجةَ الاتِّصالِ مستمرَّةٌ بين الأحياءِ والأمواتِ من سلسلةِ مشائخِ الطريقةِ، مِنْ لَدُنْ أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الطبقةِ الأخيرةِ من شيوخِهم". يتلقَّى الأحياءُ علومًا ومعارفَ وأسرارًا من أمواتِهم، ويطلبون من روحانيَّتِهِمْ المَدَدَ (يُسَمُّونَهَا "الْهِمَّةَ" في مصطلحِهِمْ) بمعنى النجدةِ والإسعافِ والإنقاذِ. يبرهن على هذا الاعتقادِ ما كتبهُ خالدٌ البغداديُّ لأحدِ مريدِيهِ في إسطنبولَ ضِمْنَ إحدَى رسائِلِهِ، يقول: "فالآن أُخبِرُكم بأنِّي وجميعَ رجالِ السلسلةِ تَبَرَّأْنَا من عبدِ الوهَّاب. فهو مطرودٌ عن الطريقةِ. فكلُّ مَنْ تصادَقَ معه لأجلِ الطريقةِ فَلْيَتْرُكْ

---

[102] المصدر: İslam Alimleri ans. 11/230

[103] راجع موضوعَ وجوبِ الانتسابِ إلى شيخٍ من شيوخِ الطريقةِ في اعتقادِ النقشبنديّين ضمن المصادر التالية:

* نعمة الله بن عمر، الرسالة المدنية ص/ **26** مخطوطة دمشق – **1213** هـ.
* أحمد البقاعي، رسالة في آداب الطريقة النقشبنديّة ص/ **36**. مخطوطة **1249** هـ.
* محمّد بن سليمان البغداديّ، الحديقة النديّة ص/ **39**. مخطوطة. بغداد/**1234**هـ. مستنسخة من قبل مكتبة الحقيقة. إسطنبول–**1992**م.
* أحمد ضياء الدين الگُمُوشْخَانَوِيّ، جامع الأصول ص/ **61**، **116**. ط. **1276** هـ.
* محمّد بن عبد الله الخانيّ، البهجة السنيّة في آداب الطريقة النقشبنديّة، ص/ **4** طبعة مصر – **1319**هـ.
* محمّد أمين الكرديّ الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ **525**. طبعة مصر – **1384** هـ.
* أحمد الفاروقيّ السرهنديّ، المنتخبات، المكتوب رقم/**61**
* عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبنديّة، ص/ **12**. مكتبة الحقيقة. إسطنبول – **1992**م.
* علي قدري، الرسالة البهائية (ترجمة: رحمي سرين) ص/ **133** إسطنبول–**1994**م.
* A. Faruk Meyan, Şah-ı Nakşibend. Pg. 35 Çile Publishing İstanbul-1970

مُصَادَقَتَهُ وَمُكَاتَبَتَهُ، وإلاَّ فهو بريءٌ من إمدادِ هذا الفقيرِ، وإمدادِ الساداتِ الكرام. ولا أَرْضَى أنْ يُكاتِبَنِي؛ ولا أنْ يستمِدَّ هِمَّتِي بعدَ وصولِ هذا المكتوبِ إليه. وأنتَ مأمورٌ بإيصالِهِ إلى كلِّ مُخلصٍ. فمن كان مريدَ الطريقةِ فليُظْهِرِ الْبَرَاءَةَ منه، ومن كان مريدَ نفسِهِ فلا يلومنَّ إلاَّ نفسَهُ إذا هلك مع الهالكين"[104] يزعمُ البغدادِيُّ في هذه السطورِ: أنَّه اتصلَ بساداتِهِ المقبورين منذ قرونٍ وأخذَ موافقتَهُمْ على أنَّ عبدَ الوهاب السوسِيَّ مطرودٌ من الطريقةِ النقشبنديَّةِ!". لأنَّه كان يُنَافِسُهُ على الزعامةِ!. وهذا الكذِبُ الشنيعُ لا شكَّ مؤدَّاهُ إلى الكفرِ. لأنَّ خالدًا قد ادَّعِي بهذه الأكذوبةِ أنَّه يعلم الغيبَ، وأنَّهُ اتَّصَلَ بساداتِهِ الأمواتِ، وكَلَّمَهم، وأخذَ منهم الموافقةَ! وفيها ما يدلُّ على أنَّ "رجالَ السلسلةِ النقشبنديَّةِ الأحياءَ منهم والأمواتَ يتصرَّفون في الكون؛ يطردون مَنْ يعصيهم...". والمطرودُ في مصطلحِهم هو (الْمُبْعَدُ مِنْ بابِ اللهِ وبابِ رسولِهِ!). يدلُّ ذلك على تَجَرُّئِهِمْ وتفريطهم في جنبِ اللهِ، وقِلَّةِ حيائِهِمْ منه تعالى عمَّا يصفه الفاسقون.

ابتدعَ زعماءُ النقشبنديَّةِ آدابًا للذكرِ في طريقتِهِمْ على نَمَطِ الذِّكْرِ في الديانَةِ الهندوسيَّةِ، من أهمِّها: "تغميضُ العينين، وإلصاقُ الشفةِ بالشفةِ، واللِّسانِ بسقفِ الحلقِ لِكمالِ الخشوعِ ولِقطعِ الخواطرِ التي يوجِبُها النظرُ."[105] (على حدّ قولهم)، بينما أجمعَ علماءُ الاسلامِ على أنَّ الذِّكْرَ اللَّفْظِيَّ لا يتحقَّقُ إلاَّ بالنُّطْقِ (أي بتحريكِ اللِّسَانِ). قالَ الإمامُ النووِيُّ: اعلمْ أنَّ الأذكارَ المشروعةَ في الصلاةِ وغيرِها، واجبةً كانتْ أو مستحبَّةً، لا يُحسَبُ شيءٌ منها ولا يُعتدُّ به حتَّى يُتَلَفَّظَ بِهِ، بحيثُ يُسمِعُ نفسَهُ إذا كانَ صحيحَ السمعِ لا عارضَ له."[106]

للنقشبنديّين ركامٌ من الكتبِ كلُّها مدوَّنَةٌ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ وبالحروفِ اللاَّتِينِيَّةِ، وقد ملئوا بطونَهَا بما لا يُحْصَى مِنَ البِدَعِ والخُرافاتِ والأساطيرِ، قَلَّ من يسلمُ بين قُرَّائِها من الوقوعِ في الكفرِ البَوَاحِ والاشراكِ باللهِ.

بدأتْ عقائدُ هذه الفرقةِ الباطِنِيَّةِ تنخرُ في جسمِ الإسلامِ منذُ أواخرِ القرنِ الثاني عشر الميلاديّ وأصبحتْ عقبةً كبيرةً بين سُكَّانِ المنطقةِ وبين عقيدةِ التوحيدِ أيَّام انتشارِها خاصَّةً في بلادِ تُرْكِسْتَانَ،

---

[104] عبد المجيد بن محمّد بن محمّد الخانيّ، الحدائق الورديّة في حقائق أجلاء النقشبنديّة ص/ 232.

[105] محمّد أمين الكرديّ الأربلي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ص/ 512. طبعة مصر – 1384 هـ.

[106] محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، ص/42. تحقيق: علي الشربجي– قاسم النوري. مؤسسة الرسال، بيروت–1992م.

لأسبابٍ متسلسلةٍ أوجدَ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ كالحروبِ والفتنِ السياسيَّةِ وما أسفرَ عنها من الجهلِ الْمُطْبِقِ، وتَنَامِي عَقَائِدِ الجاهليَّةِ من جديدٍ، لبقاءِ آثارِها في أعماقِ القلوبِ منذُ أنْ تعرَّفَ الأتراكُ على الإسلامِ، لأنَّ الجيلَ الأوَّلَ من هذا القومِ لم يتلقَّ تعاليمَ الإسلامِ على يدِ مرشدين أكفَّاءَ باعترافِ علمائِهِمْ وَبَاحِثِيهِمْ.[107]

تتضاعفُ خطورةُ النقشبنديّين على الإسلامِ والمسلمين من عدَّةِ وجوه. وهي بالإختصار:

- حِرْصُ شيوخِ النقشبنديَّةِ على إحياءِ المعتَقَدَاتِ الْوَثَنِيَّةِ "لأنَّها سُنَّةُ الآباءِ".
- الحقدُ على أهلِ التوحيدِ، ووصفُهُمْ بالوهابيَّةِ، وَعَدُّهُمْ مِنَ الإِرْهَابِيِّينَ والخوارجِ، والتعاونُ مع النظامِ في قَمْعِهِمْ.
- عدمُ اكْتِرَاثِهِمْ للأُمَّةِ وقضايَاهَا. (لعلَّ أكَابِرَهُمْ لا يعدُّونَ أنْفُسَهُمْ – في الواقعِ– جزءًا من أمَّةِ الإسلامِ، رغم تظاهُرِهِمْ في لباس العلماءِ نفاقًا)،
- محاولاتُ شيوخِ النقشبندِيَّةِ لِتَمْيِيعِ الْحَقَائِقِ، وعَبْثُهُمْ بِقِيَمِ الاسلامِ واقتحامُهُمْ حُرْمَةَ التوقيفيَّةِ تعمُّدًا.
- تأليهُ الشيوخِ والسلاطينِ، وتقديسُ أضرحتِهِمْ، والإنهماكُ في الحكاياتِ والأساطيرِ المختَلَقَةِ حولَهُمْ، وتأويلُ الشطحاتِ والكفرياتِ بأنَّها من كراماتِ أوليائِهم.
- التعاونُ مع المشركين والكفارِ في أهدافِهم المشتركة.
- التعاونُ مع النظامِ في أعمالِ التجسُّسِ والاستخباراتِ، والإشتراكُ في العملياتِ والملاحقاتِ مع أجهزة النظام وشبكاته ضِدَّ الحنفاءِ.
- العمل على تعزيزِ النشاطاتِ العنصريَةِ التُّرْكِيَّةِ.

إنّ الذين وضعوا مبادئَ التَّيَّار النقشبنديّ واختلقوا هذه العقيدةَ في أوَّلِ الأمرِ هم من آباءِ الأتراكِ الذين قَدَّسَهُمْ الجيلُ الَّذي عَاصَرَهُمْ وَمَنْ عاشوا بعدَهُمْ إلى اليومِ، "إذًا لا بدَّ من تقدِيسِهم وتَنْزِيهِهِمْ أسوةً بالآباءِ"، لأنَّ الآباءَ في عرف الأتراكِ "مُبَرَّؤُونَ مِنَ الخطأ والذنوبِ، كُلُّهُمْ من أَهْلِ الْجَنَّةِ، ولأنَّ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام قال: لا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ؛ وقال: أُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِئِهِمْ... ولم يُفَرِّقْ بين مؤمنيهم وكفارهم!" يبرهن على هذه العقيدةِ عند الأتراك: ما وردتْ في

---

[107] راجع المصدر: Prof. Dr. Fuad Köprülü, Türk Edebiyâtında İlk Mutasavvıflar, 8. Edition, page: 21. Ankara-1993. Directorate of Religious Affairs

كتابٍ أَلَّفَهُ رئيسُ أحدِ الْفِرَقِ النقشبنديَّةِ في تركيا صيغةٌ من الدُّعاءِ بالرحمةِ على أحدِ أباءِ الأتراك المشهورين قبل الإسلام، يُدْعَى أُوغُوزْ خَان Oguz Khan، يُفْتَرَضُ أَنَّه كان مجوسيًّا. يقول المؤلِّفُ في كتابِهِ بالحرف الواحد: " أُوغُوزْ خَان رحمةُ اللهِ تعالى عليه: إنَّ الأتراكَ قديمًا كانو منقسمين إلى تُرْكِ الشرقِ وتُرْكِ الغرب، فَالشَّرْقِيُّونَ منهم كانوا خَمْسَ قبائلَ، والْغَرْبِيُّون كانوا خَمْسَ عَشْرَةَ قَبِيلَةً. كانتْ قبيلةُ أُيْغُورْ مِنْ أتراكِ المنطقةِ الشرقيَّةِ، أمَّا قبيلةُ أُوُغُوزْ وَالْكِرْجِيز، فَإِنَّهُمَا كانَتَا مِنْ قبائلِ المنطقةِ الْغَرْبِيَّةِ. كانوا قد انتشروا في أنحاءِ الهندِ وإيران والعراقِ منذ خمسةِ آلافِ سنةٍ قبل الهجرة النبويةِ"[108].

إنْ كان شيخُ جماعةٍ من النقشبنديّين يَتَرَحَّمُ على رجلٍ جاهليٍّ مِن آبائِهِ، من منطلَقِ التعصُّبِ القوميّ، وهو يجهلُ عقيدةَ هذا الرَّجُلِ مع غالبِ الظَّنِّ أنَّه كانَ من أهل الشركِ (لأنَّهُ عاش قبلَ الإسلام بآلافِ سنةٍ) مع عِلْمِ هذا الشيخِ بالآياتِ الكريمةِ: "إنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..."[109]، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ"[110]، "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين"[111] وإنْ كانَ هذا الشيخُ النقشبنديُّ لا يَتَوَرَّعُ مِنَ القولِ بمثلِ هذا الكذبِ الفاحشِ، فما بَالُكَ بِمَنْ دونه من دراويشِ هذهِ الطائفةِ وعوامِّها البعيدين عن العلمِ والمعرفةِ المجبولين على التقليدِ الأعمى!

إنَّ أشكالاً خطيرةً من المؤامراتِ تُحَاكُ ضدَّ الإسلامِ وأهلهِ في محافلِ أهلِ الزَّنْدَقَةِ سرًّا وَبِأَغْرَبِ أساليبِ المكرِ وَالْخُدْعَةِ والتأويلِ والتعطيلِ والتحريفِ. تُسْتَخْدَمُ الآياتُ القرآنيةُ والأحاديثُ النبويةُ في تشويهِ الإسلامِ وترويجِ أنواعِ البِدَعِ والشركيَّاتِ في حينٍ يمتنعُ وقد يَسْتَحِيلُ الوقوفُ على نشاطاتِهم.

إنَّ الزنادقةَ المنتشرين في أنحاءِ تركيا قد انتظموا في السنين الإخيرة على هيئَةِ جماعاتٍ ومنظَّماتٍ متعدِّدةٍ، تحت أسماءٍ مختلفةٍ، ينقسمون بِعَامَّتِهِمْ إلى فئتين متباينتين، تربطُ بينهما العلاقةُ التنظيميَّةُ:

---

108 العبارة الْمُعَرَّبَةُ آنفًا منقولةٌ من كتابٍ ألّفهُ العقيد حسين حلمي إيشك (**1911–2001**م.)، وهذا نصُّ كَلاَمِهِ باللُّغَة التُّرْكِيَّة:

«Oguz Han rahmetullahi Teala aleyh: Eski Turkler, sark ve garb turkleri diye ikiye ayrilmisdi. Sark turkleri bes, garb turkleri onbes kabile idi. Uygurlar sark, Oguz ve Kirgizlar da garb turklerinden idi. Hicretden besbin sene önce Hind Iran ve Iraka yayilmislardi.» Huseyin Hilmi Isik, Tam Ilmihal, Hakikat Kitabevi, 79. Publishing, page: 1157. Istanbul/1999.

109 النساء/**48**

110 التوبة/**28**

111 التوبة/**80**

فئةٌ تضمُّ الخاصَّةَ منهم، وهم شيوخُ الطريقةِ النقشبنديَّةِ وَبِطَانَتُهُمْ الذين يتولَّوْنَ التوجيهَ والدعايةَ. لهم نشاطاتٌ سريَّةٌ واجتماعاتٌ، وعلاقاتٌ سياسيَّةٌ وتجاريَّةٌ عبرَ شبكةٍ من الشركاتِ والجمعيَّاتِ والمؤسَّساتِ الوقفيَّةِ في الداخلِ والخارجِ. وفئةٌ تَتَأَلَّفُ من المريدين من حُثالَةِ الناسِ المجبولين على التبعيَّةِ والطاعةِ لفئةِ النُّخْبَةِ التي مرَّ ذكرُها. الفئةُ الأُولَى قليلةُ العددِ، أفرادُها تمرُّ في سلكٍ من التعليم الخاصِّ، يتَّسِمُ في ظاهرِهِ بنوعٍ من الترويضِ على الرَّهْبَنَةِ، وأمَّا في باطنِهِ فهو تطبيقٌ لسلسةٍ من الطقوسِ المجوسيَّةِ الهنديَّةِ.

إنَّ الفئةَ القياديَّةَ لهذه التجمُّعاتِ تتمتَّعُ بمناعةٍ بالغةٍ ضِدَّ مناهضيها. لأنَّه مِنْ أشدِّ الأمورِ تعقيدًا وصعوبةً إقامةُ الحُجَّةِ على أفرادِ هذه الفئةِ، وإِلْزَامُهُمْ بِالدَّلاَئِلِ الْقَاطِعَةِ، لأنَّهم لاَ يَأْلُونَ جُهْدًا في استغلالِ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه واتِّخاذِهِمَا ذريعةً لتأويل أباطيلِهِمْ ونِسْبَتِهَا إلى الدِّين الحنيف كَذِبًا وَزُورًا. يُقِرُّون مَا يُخالفُ الشرعَ صراحةً. وإذا ما وَقَفَ أحدٌ من علماءِ الأمَّةِ على شيءٍ من أباطيلِهِمْ فَدَعَاهُمْ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ إلى نبذِهَا والكفِّ عن تضليل الناسِ وتشويهِ الإسلامِ والإتِّجارِ بالدِّين، وإذا بهم يبارزونَهُ بأقسَى لهجةٍ من السبِّ واللَّعْنِ والإهانَةِ ما يندَى له الجبين، خاصَّة إذا وجدوه وحيدًا، فضلاً عمَّا يتواعدونه، وقد ينالون منه باستخدامِ العنفِ من حيث لا يحتسب. يلجئون إلى ذلك كلَّمَا اضطرُّوا إلى الدِّفاعِ عن معتقَدَاتِهم، وأهدافِهِمْ، وآراءِهم، وتصرُّفاتِهِم... وَيَظْهَرُون على أهلِ الحقّ في الْمَحَاجَّةِ غَالِبًا، بشتَّى أساليبِ المضايقةِ والإحراجِ والمهاجمةِ والتهديدِ والسِّخْرِيَّةِ ورفعِ الصوتِ وإظهارِ الغضبِ إلى غير ذلك من وجوهِ الحربِ الكلاميَّةِ وَالجَْلَبَةِ والتَّشَدُّقِ... يظفرون بالغلبةِ في غالبِ الأحوالِ لإتقانهم صناعةَ الجدال، وفنونَ التعميةِ، وإفحامَ الخصمِ بمختلفِ أشكالِ المكرِ والحِْيَلِ والمغالطةِ... يتنطَّعون في تفسير آياتِ القرآنِ والآحاديثِ النبويَّةِ، ولا يرون في كلِّ ذلك بأسًا أنْ يفتروا على اللهِ الكذبَ، بل يصرُّون على الحِنْثِ والإثمِ لإثباتِ أباطيلهم وقد استيقنَتْها نفوسُهم. وإِذَا شِئْتَ أَنْ تَسْبُرَ غَوْرَهم، وَتَتَعَرَّفَ عَلَى ما يُسِرُّونَ مِنْ نشاطاتِهِمْ، إذْ تَنْظُرُ فِي قَسَمَاتِ وُجوهِهِمْ، وَتُحْصِي عَلَيْهِم أَفْعَالَهُم وَأَقْوَالَهُم، وَتُرَاقِبُ حَرَكَاتِهم وَسَكَنَاتِهم بِكُلِّ دِقَّةٍ، تَتَعَجَّبُ لِصلواتِهم ودعاءِهِمْ ومناجاتِهم، لأنَّك لاَ تُقَابِلُهُمْ إلاَّ مُقَابَلَةً سَرِيعَةً، وتجهلُ ما يصنعون في خلاياهم من طقوسٍ مجوسيَّةٍ، وما يتناقلون فيما بينهم من حكاياتٍ خُرَافيَّةٍ، وما يُحِيكون ضِدَّ معارضيهم من مؤامراتٍ، وهم يُخْفُونَ كُلَّ ذلك، وَيَتَكَلَّفُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ فَلاَ يَظْهَرُونَ عَلَى طِبِيعَتِهِمْ أبدًا. وهذا مما يجعل الْعَالِمَ النحريرَ في ارتباكٍ وحيرةٍ وتَشَوُّشٍ أَمَامَهُمْ! يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا، واللهُ وحدهُ يعلمُ ما في قلوبهِمْ من الكفرِ والشركِ والضلالِ...

وأمَّا الفئةُ الثانيةُ الَّتي تنسحبُ من وراء الفئةِ الأولى على غير هدًى من الله، فَأغلبُ الظنّ أنَّهم لا ينافقون فيما يفعلون، لأنَّهم ذُيُولٌ من أهل التبعيَّةِ المطلقةِ والتقليدِ الأعمَى، لا يكادُ أحدُهم يصدِّق أنَّ شخصًا من قدماءِهم – الذين اختلقوا هذه الأباطيل منذ قرون، وتبنَّوا هذه الأساليب السِّرِّيَّة الخطيرةَ في إضلالِ الناسِ–، إنَّما فعلوا ذلك لِيَهْدِمُوا أركانَ الإسلامِ ويصدُّوا الناس عن سبيل الله. إنَّ سرَّ اعتقادِ الأسلافِ اليومَ بِالْقُدَامَى من أئِمَّةِ الشِّرْكِ يَكْمُنُ في جهلهم بأحوال أولائك الذين تسلَّلُوا قديمًا إلى صفوفِ المسلمين وأخذوا على عاتقِهم حربَ الإسلامِ لأسبابٍ مختلفةٍ يتوارَى معظمُها بالغموضِ إلى اليوم. ولهذا قَلَّ مَنْ نجحَ في إثباتِ الخيانةِ والنفاقِ عليهم، لأنَّ ذلك مستحيلٌ في كثيرٍ من الأحوال.

ومن جهة أخرى قد تعلَّقتْ ملايينُ النفوسِ بشيوخِ النقشبنديَّةِ الذين يَتَمَتَّعُونَ بِشُهْرَةٍ بالِغَةٍ وَمَرَاكِزَ قَوِيَّةٍ، كنتيجةٍ للدعاياتِ الكثيفةِ الَّتي تَبُثُّهَا أجهزةُ الإعلامِ الخاصَّةِ بِهِمْ. يؤمنُ الملايينُ بكلّ ما يُبَثُّ ويُنْقَلُ عن لسانِ هؤلاءِ الشيوخِ إيمانًا لا يشوبُهُ ارتيابٌ ولو عرفوا أنَّ أقوالَهُمْ تتعارض مع الكتابِ والسنةِ! ولهذا؛ لا يكادُ أحدٌ يُصَدِّقُ مَنْ خَالَطَهُمْ في اجتماعٍ من اجتماعاتهم السِّرِّيَّةِ، ثم خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ يُخْبِرُ عَنْهُمْ ويُعلنُ عن مساويهم... ذلك لالتباسِ الحقّ بالباطلِ على العامَّةِ، ولاسيَّمَا في أيَّامنا الَّتي انتشرتْ فيها الجهلُ بالإسلامِ والْعُجْمَةُ في الدّينِ واللُّغة، وحلَّ ملايينُ الناسِ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ وهم يصلُّون ويصومون ويحجُّون ويشهدون أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله! وَهَذَا مِنْ أَغْرَبِ مُدْهِشَاتِ الأُمُورِ.

ومما يفسحُ المجالَ لهذه الزمرةِ الخطيرةِ؛ اسْتِحَالَةُ شَخْصِيَّةِ الْعَالِمِ اليومَ إلى دُميةٍ جامدةٍ تَتَمَثَّلُ فِي رَاهِبٍ انْحَصَرَتْ مُهِمَّتُهُ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَإِلْقَاءِ الخُطَبِ الدِّينِيَّةِ، وَالاِنْشِغَالِ بِالْعِمَامَةِ وَالطَّيْلَسَانِ وَالْعَبَاءَةِ وَاللِّحْيَةِ وَمَا أَشْبَهَ مِنْ أُمُورٍ شَكْلِيَّةٍ تَافِهَةٍ. إنَّ المتَّسِمَ بمثلَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الهزيلةِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَثْبُتَ في وجهِ الزَّنَادِقَةِ وَالْفَسَقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ السِّيَاسِيِّينَ وَالأَثْرِيَاءِ وَالْمُنَظَّمَاتِ السِّرِّيَّةِ وَالْمَافْيَا وَلَوْ كَانَ مُتَبَحِّرًا فِي أصنافِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ. لأَنَّ مُجَرَّدَ الْعِلْمِ النَّظَرِيّ لاَ يَكْفِي أَبَدًا لِمُقَاوَمَةِ الْبَاطِلِ وَلاَ يُكْسِبُ الإِنْسَانَ الْمَنَاعَةَ أَمَامَ الْعَدُوّ، بَلْ يَحْتَاجُ الْعَالِمُ إِلَى الجرأةِ والإخلاصِ في دينِ اللهِ أولاً، ثُمَّ إلى ثَقَافَةٍ عَالَمِيَّةٍ وَاسِعَةٍ، وَمَقْدَرَةٍ عَلَى إِثَارَةِ الإِيمَانِ الرَّاكِدِ فِي الْقُلُوبِ، وَنَفْخِ رُوحِ الْيَقَظَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبَثِّ الْوَعْيِ، وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ وَإِعْدَادِهَا لِلتَّضْحِيَةِ، وَتَنْظِيمِ الصُّفُوفِ، وَتَعْلِيمِ أَسَالِيبِ الجِهَادِ وَتَطْوِيرِهَا بِحَسَبِ الظُّرُوفِ. هَذِهِ هِيَ مُقَوِّمَاتُ الشَّخْصِيَّةِ الْمِثَالِيَّةِ لِلْعَالِمِ الَّذِي تشْتَاقُهَا أُمَّةُ

الإِسْلاَمِ الْيَوْمَ وَتَتَفَقَّدُهَا، خاصَّةً المسلمون على الساحةِ التُّرْكِيَّة يفتقرون إلى مثلِ هذه الشخصيَّةِ في مقاومة التَّيَّار النَّقْشَبَنْدِيِّ الهدَّام.

***

ومن أسبابِ خطورةِ النقشبنديَّةِ؛ أنَّها عَقَبَةٌ أمامَ الدعوةِ إلى توحيدِ اللهِ، ونبذِ الإشراكِ به سبحانه. إذ كانتْ هذه الفرقةُ الباطنيَّةُ منذ قرنين تقريبًا ولا تزالُ عقبةً كبيرةً في وجهِ الدعوةِ الإسلاميَّةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة بأشكالٍ مختلفةٍ. وقد تضاعفتْ شدةُ هذه العقبةِ خاصةً بعد قفزِ النقشبنديِّين على قمَّةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ، وفي ذلك أسرارٌ غريبةٌ:

منها: أنَّ عقيدةَ التوحيدِ إذا انتشرتْ في تركيا ونَبَذَ الناسُ الإشراكَ باللهِ، وقلعوا عن البِدَعِ والخرافاتِ، فسيؤدِّي مثلُ هذا التطوُّرِ إلى زوالِ هيمنةِ النقشبنديِّين على النفوسِ والمعنويَّاتِ، بينما تُعَدُّ هذه الفرقةُ من أهمِّ صمَّاماتِ الأمانِ للنظامِ الكماليِّ في تركيا. إذ هي القوَّةُ الثانيةُ بعد الطغمةِ الكماليَّةِ الحاكمَةِ في توجيهِ المواطنِين وتعيِين إتِّجاهاتِهم الاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ والدينيَّةِ. ولاَ يخفَى أنَّ قطاعًا كبيرًا من المجتمعِ التُّرْكِيِّ مُصَابٌ من القديمِ بِعِلَّةِ اللُّجُوءِ إلى وَسَائطَ من الآلِهَةِ: "تَحْمِيهِ من أَعْدَائِهِ، وتشفِيهِ مِنْ أمراضِهِ، وتُيَسِّرُ له سُبُلَ النصرِ في معاركهِ، وتُنْزِلُ البركةَ في مالِهِ، وترزُقُهُ الأرباحَ في تجارتِهِ..."

إنَّ النظامَ الأَتَاتُورْكِيَّ – رغم اعتمادِهِ واستنادِهِ على الكفرِ والإلحادِ – لا يستغنِي عن هذه الآليَةِ السحريَّةِ المتمثِّلَةِ في الديانةِ النقشبنديَّةِ، ولن يُسرِفَ هذا النظامُ يومًا من الأيَّامِ في معارضتِهِ لهذه الحركةِ الصوفيَّةِ، بل سيحافظُ على التوازنِ بينه وبينها، وسوف تتناغمُ مع موجاتِها في التوسُّعِ والتضخُّمِ، بالإغضاءِ عنها، وبسياسَةٍ مَرِنَةٍ لا تضرُّ بمصالِح الطرفين.

من الجدير بالاشارة هنا؛ أنَّ موالاةَ عَدَدٍ من علماءِ السوءِ إلى الفكر الصوفيِّ قديمًا وحديثًا كان لها أثرٌ كبيرٌ في ترويج الطريقةِ النقشبنديَّةِ ونسبتِها إلى الإسلامِ، وفسحِ المجالِ لانتشارِها. يأتِي على رأسِ هؤلاءِ البلاعمةِ كمثالٍ: ابنُ حجر الهيتميُّ الفقيهُ الصوفيُّ (ت. **909–973**هـ.). لقد كان ابنُ حجرٍ رجلاً متزمِّتًا على رغمِ باعهِ الطويلِ في علمِ الفقهِ، وإلْمَامِهِ بالحديثِ. لم يسبِق له أنْ اهتمَّ بشيءٍ من تاريخِ الأديانِ وعلمِ الإجتماعِ. فكانَ جاهلاً بأساليبِ التضليلِ وحِيَلِ الزنادقةِ والمحرِّفِين. لذلك تورَّطَ في مدحِ الطريقة النقشبنديَّةِ في فتاواهُ على غيرِ بصيرةٍ، لِخُلُوِّهِ من المعرفةِ بما تعرضتْ له

الطوائفُ الْمُنْتَسِبَةُ إلى الإسلامِ في بلادِ تُرْكِسْتَانَ وشبهِ القارَّةِ الهنديَّةِ من آثارِ عقائدِ البوذية والبرهمية..

ومن هؤءِ الغافلين: ابْنُ عابدين الفقيهُ الدمشقيُّ (**1784–1836**)، وأبو الثناء محمود شهابُ الدين الآلوسِيُّ (**1803–1854**م.)، ويوسفُ بْنُ إسماعيل النبهانِيُّ (**1849–1932**م.)، ومحمد زاهد الكوثرِيُّ (**1878–1952**م.)، وكثيرٌ ممَّنْ اغتروا بهم من الشيوخِ وَالْمَلاَلِي المعاصرين... نالَ الفكرُ الصوفِيُّ رواجًا بالغًا بين الناسِ، وانتشرتْ الطريقةُ النقشبنديَّةُ بخاصةٍ في تركيا وسوريا والعراق، جَرَّاءَ وقوعِ هؤلاءِ في مستنقَعِ هذا التيارِ الخطير، وتضلِيلِهم للناسِ بما أصدروا من كتاباتٍ جمعوا في بطونها من كل أنواعِ الباطلِ، وما كتبوا من مدائح للزنادقة والمشعوذين نثرًا ونظمًا. والطامَّة الكبرى أنَّ هذا التَّيارَ قد تحوَّلَ اليومَ إلى دينٍ يهدِّدُ الإسلامَ في هذه المنطقةِ التي تُعَدُّ من أهمِّ بقاعِ الوطنِ الإسلاميِّ.

***

النقشبنديَّةُ، طريقةٌ دسَّاسةٌ إلى حدٍّ غابَتْ أسرارُها عن جمهورِ علماءِ الأمةِ، لم يفطَنْ إلى خطرِها على الإسلامِ إلاَّ عددٌ قليلٌ من أزكياءِ أهلِ العلمِ والبحثِ، لاشتمالِها على أمورٍ يتضافرُ في غمرِها الحقُّ والباطلُ، والتوحيدُ والإشراكُ، والأصيلُ والدخيلُ، والسنةُ والبدعةُ...

ولمَّا كان رصيدُ علماءِ الإسلامِ – منذ بدايَةِ عصورِ الظلامِ إلى اليومِ – محصورًا في علومِ الحديثِ والتفسيرِ والفقهِ ومُمَهِّدَاتِهَا من العربيَّةِ ومُتَمِّمَاتِهَا من الأصولِ فحسب؛ نشأ هذا الجمهورُ عديمَ الثقافةِ، أُحَادِيَّ الجانبِ في مَعارِفِهِ، جاهلاً بعلوم التاريخِ والفلسفةِ والمللِ والنحلِ، غير متمكِّنٍ من حقيقةِ مفهومِ التوقيفِيَّةِ في العبادَةِ، فلم يعدْ أحدٌ منهم قادرًا على التفريقِ بين الصالحِ والزندِيقِ. فالتبسَ على هذا الجمهورِ: الناسِكُ الْمُتُسَنِّنُ بِالعابِدِ الْمُبْتَدِعِ. والطامَّةُ الكبرى أنَّ علماءَ الأزهرِ وشيوخَ الوهَّابِيَّةِ يأتونَ على رأسِ هذا الجمهورِ الجامِدِ الخاملِ. لهذا اغترَّ الناسُ بالشكلِيَّةِ، وأُعجِبُوا بكثرَةِ العبادةِ ولو كانتْ على أسلوبِ اليهودِ والنصارَى والمجوسِ، فتحوَّلَ عَبَدَةُ الأصنامِ والجِيَفِ إلى "أولياءِ الله" في نظر العامَّةِ.

وأمَّا الذي تنبَّهَ إلى مدَى خطورةِ النقشبنديَّةِ من العلماءِ، فلم يبذُلْ هو الآخر جهدًا يُذْكَرُ في كشفِ القناعِ عن أسرارِ هذا السرطان الخطيرِ وآثارِه الهدَّامةِ. منهم على وجهِ الخصوصِ الشيخ رشيد رضا.

نقلَ عنه أبو عمر المنهجي كلماتٍ وجيزةً تبرهن على هذه الحقيقةِ، وهي قوله: "إنِّني قد سلكتُ الطريقةَ النقشبنديَّةَ، وعرفتُ الخفِيَّ والأَخْفَى من لَطَائِفِهَا وأسرارِهَا، وخُضْتُ بحرَ التصوُّفِ[112] ورأيتُ ما استقرَّ باطنَهُ من الدُّرَرِ، وما تقذِفُ أمواجُهُ من الجِيَفِ، ثم انتهيتُ إلى مذهَبِ السلَف الصالحين، وعلمتُ أنَّ كلَّ ما خالَفَهُ فهو ضَلاَلٌ مبين."[113]

---

[112] التَّصْرِيفُ: تَصَوَّفَ – يَتَصَوَّفُ تَصَوُّفًا فهو مُتَصَوِّفٌ. وَلَفْظَةُ (تَصَوُّفٌ): مَصْدَرُ مِنْ بَابِ التَّفَعُّلِ. كَثُرَتِ الأَقْوَالُ فِي اشْتِقَاقِ لَفْظَةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ عَلَى عِدَّةِ أَقْوَالٍ، أَشْهَرُهَا: أَنَّهَا مِنَ الصُّوفَةِ، زَعَمُوا أَنَّ الصُّوفِيَّ مَعَ اللهِ كَالصُّوفَةِ الْمَطْرُوحَةِ، لاسْتِسْلاَمِهِ للهِ تَعَالَى، أَوْ لأَنَّ الزُّهَّادَ كَانُوا يَرْتَدُونَ ثِيَابًا مِنَ الصُّوفِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْخُشُونَةِ، وَلِكَوْنِهَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّقَشُّفِ وَالتَّذَلُّلِ وَالتَّوَاضُعِ. وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَنْ الصِّفَةِ، إِذْ أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ اتِّصَافٌ بِمَحَاسِنِ الأَخْلاَقِ وَالصِّفَاتِ، وَتَرْكُ الْمَذْمُومِ مِنْهَا. وَقَالَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ مِنْ الصُّفَّةِ، نِسْبَةً لـ"أَهْلِ الصُّفَّةِ" الَّذِينَ هُمُ الرَّعِيلُ الأَوَّلُ مِنْ زُهَّادِ الصَّحَابَةِ (وَهُمْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمَسَاكِينِ الْفُقَرَاءِ، كَانُوا يُقِيمُونَ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيّ، يُعْطِيهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالزَّكَاةِ). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ مِنَ الصَّفِّ، فَكَأَنَّهُمْ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ حَيْثُ حُضُورِهِمْ مَعَ اللهِ؛ وَتَسَابُقِهِمْ فِي سَائِرِ الطَّاعَاتِ... إلاَّ أَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقَاوِيلِ الْمُتَبَايِنَةِ جَمِيعَهُمْ قَدْ أَغْفَلُوا جَانِبًا أَسَاسِيًّا هَامًّا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَهِيَ أَنَّ كِتَابَ اللهِ يَخْلُو تَمَامًا مِنْ كَلِمَةِ التَّصَوُّفِ، وَلاَ ذِكْرَ لَهَا قَطُّ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، كَمَا تَخْلُو أَشْهَرُ الْمَعَاجِمِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ كَلِمَةِ التَّصَوُّفِ عَبْرَ الْقُرُونِ، وَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ؛ فَإِنَّ الْمُعْجَمَ الْمَوْسُوعِيَّ الْمَوْسُومَ بِـ"لِسَانِ الْعَرَبِ" خَالٍ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَمَامًا، وَهُوَ مِنْ تَأْلِيفِ مُحَمَّدِ بْنِ مُكْرِمِ بْنِ عَلِيّ أَبِي الْفَضْلِ جَمَالِ الدِّينِ ابْنِ مَنْظُورِ الأَنْصَارِيّ الرُّوَيْفِعِيّ الإِفْرِيقِيّ. (1232 م – 1311 م) (630 هـ – 711 هـ). لَقَدْ كَانَ ابْنُ مَنْظُورِ أَدِيبًا وَمُؤَرِّخًا وَعَالِمًا فِي الْفِقْهِ الإِسْلاَمِيّ وَاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. لَمْ يَغْفَلْ عَنْ لَفْظٍ عَرَبِيّ، وَلَمْ يَعْثُرْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَقْوَالِ أُدَبَاءِ الْعَرَبِ وَشُعَرَائِهِمْ وَحُكَمَائِهِمْ إِلاَّ وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي مُعْجَمِهِ الذِّي أَنْجَزَهُ بَعْدَ سِتَّةِ قُرُونٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَمَا كَلِمَةُ التَّصَوُّفِ لاَ ذِكْرَ لَهَا فِي هَذَا الْمُعْجَمِ عَلَى ضَخَامَتِهِ وَشُمُولِهِ وَغَزَارَةِ مَوَادِّهِ.

خَاصَّةً وَأَنَّ رَبْطَ الْمُدَّعِينَ بَيْنَ كَلِمَتَيِ الصُّوفِ وَالتَّصَوُّفِ لاَ أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصِّحَّةِ. بَلْ لَفْظَةُ التَّصَوُّفُ يُونَانِيَّةُ الأَصْلِ، مُحَرَّفَةٌ مِنْ كَلِمَةِ (ثِيُوزُوفِي Theosophy) لَفْظًا وَمَعْنىً، مِثْلُ كَلِمَةِ (فَلْسَفَة) وَهِيَ أَيضًا يُونَانِيَّةُ الأَصْلِ، مُحَرَّفَةٌ مِنْ كَلِمَةِ (فِيلُوزُوفِي Philosophy) لَفْظًا فَحَسْبُ. لأَنَّ لَفْظَةَ التَّصَوُّفِ لاَ يَجُوزُ اشْتِقَاقُهَا مِنَ الصُّوفَةِ فِي إِطَارِ مَنْطِقِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ الْعَرَبِيَّ لاَ يَقُولُ: "فُلاَنٌ تَصَوَّفَ" لِكَوْنِهِ ارْتَدَى ثِيَابًا مِنَ الصُّوفِ. بَلْ يَقُولُ: "لَبِسَ فُلاَنٌ ثِيَابًا مِنَ الصُّوفِ، أَوِ اكْتَسَى بِقُمَاشٍ مِنَ الصُّوفِ" أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. كما لاَ يَجُوزُ اشْتِقَاقُهَا مِنَ كلمة الصِّفَةِ، ولاَ مِنَ الصَّفِّ، ولاَ مِنَ الصُّفَّةِ وَلاَ مِنْ كَلِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ أُخْرَى فِي إِطَارِ قَوَانِينِ التَّصْرِيفِ عَلَى الإِطْلاَقِ. هَكَذَا تَحَذْلَقُوا فِي تَشْكِيلِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ عَلَى هَيْئَةِ (تَصَوُّفٍ)، كَمَا تَكَلَّفُوا فِي تَعْرِيبِ مُصْطَلَحِ philosophy، عَلَى هَيْئَةِ (فَلْسَفَةٍ) وَتَحَايَلُوا فِي نِسْبَةِ مُصْطَلَحَاتٍ دَخِيلَةٍ إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ بَيْنَمَا لاَ صِلَةَ لَهَا بِالإِسْلاَمِ إِطْلاَقًا. أَمَّا مَفْهُومُ التَّصَوُّفِ، فَقَدْ كَثُرَ اللَّغَطُ وَالْجَدَلُ فِيهِ أَيْضًا. زَعَمَ الصُّوفِيَّةُ أَنَّ التَّصَوُّفَ: هُوَ تَجْرِيدُ الْعَمَلِ للهِ تَعَالَى، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا وَتَرْكُ دَوَاعِي الشُّهْرَةِ وَحُبِّ الرِّئَاسَةِ، وَالْمَيْلُ إِلَى التَّوَاضُعِ وَالْخُمُولِ، وَإِمَاتَةُ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْسِ. وَهَذَا التَّعْرِيفُ أَيْضًا غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّصْدِيقِ لِمَا تَنْقُضُهُ أَقْوَالُ الصُّوفِيَّةِ بِالذَّاتِ، وَشَطْحِيَّاتُهُمُ الَّتِي وَرَدَتْ عَبْرَهَا ضُرُوبٌ مِنَ الْكُفْرِ وَالزَّنْدَقَةِ. فَقَدْ تَوَاتَرَ وَنَقَلَ النَّاسُ عَنْ أَبِي يَزِيدِ الْبَسْطَامِيّ أَنَّهُ قَالَ: "رَفَعَنِي مَرَّةً فَأَقَامَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ لِي: يَا أَبَا يَزِيدٍ إِنَّ خَلْقِي يُحِبُّونَ أَنْ يَرَوْكَ!! فَقُلْتُ: زَيِّنِّي بِوَحْدَانِيَّتِكَ وَأَلْبِسْنِي أَنَانِيَّتَكَ وَارْفَعْنِي إِلَى أَحَدِيَّتِكَ حَتَّى إِذَا رَآنِي خَلْقُكَ قَالُوا: رَأَيْنَاكَ، فَتَكُونُ أَنْتَ ذَاكَ، وَلاَ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ" (اللمع ص461). وَنُقِلَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: "سُبْحَانِي سُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي". وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورِ الْحَلاَّجِ أَنَّهُ قَالَ: "أَنَا الْحَقُّ"، وَقَالَ: "كَفَرْتُ بِدِينِ اللهِ وَالْكُفْرُ وَاجِبٌ * عَلَيَّ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَبِيحٌ".. وَكَانَ يَتَنَبَّأُ وَيَتَكَهَّنُ وَيَتَعَاطَى السِّحْرَ وَالشَّعْبَذَةَ، فَيَسْتَوْلِي بِذَلِكَ عَلَى عُقُولِ الرَّعَاعِ إِلَى أَنْ قُتِلَ فِي عَهْدِ الْمُقْتَدِرِ بِاللهِ الْعَبَّاسِيّ. وَقَدْ بَالَغَ بَعْضُهُمْ فِي الْقَوْلِ بِأَبْشَعِ أَنْمَاطِ الشَّطَحِيَّاتِ وَالزَّنْدَقَةِ مِثْلُ فَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ الَّذِي نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ. وَمَا الْكَلْبُ وَالْخِنْزِيرُ إِلاَّ إِلاَهُنَا * وَمَا اللهُ إِلاَّ رَاهِبٌ فِي كَنِيسَةِ. فَقَدْ هَلَكَ الْقَوْمُ بِمَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ اللهِ تَعَالَى بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ الْخَطِيرَةِ، وَلَمْ يَرْجَوْا للهِ وَقَارًا. فَإِنَّ حُجَجَهُمْ دَاحِضَةٌ وَأَسَالِيبَ دِفَاعِهِمْ بَاطِلَةٌ مِنَ الأَسَاسِ، وَأَقْوَالَهُمْ مَرْدُودَةٌ فِي مِيزَانِ الْعِلْمِ، وَمَزْمُومَةٌ فِي ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. فَقَدْ أَخْطَأَ مَنِ اعْتَذَرَ لَهُمْ بِأَنَّ مَا قَالُوهُ قَدْ قَالُوهُ فِي حَالَةِ سُكْرٍ بِمَا تَجَلَّى لَهُمْ مِنْ حَقَائِقَ وَبِمَا عَايَنُوا مِنْ عُلُومٍ وَزَعَمُوا أَنَّهَا أَسْكَرَتْهُمْ وَأَطَارَتْ صَوَابَهُمْ، وَجَعَلَتْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ. فَهَذَا التَّبْرِيرُ السَّمِجُ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ الصُّوفِيَّةُ لاَ يُغَيِّرُ مِنَ الْحَقَائِقِ شَيْئًا. فَمَا قَالُوهُ كُفْرٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ وَافْتِرَاءٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ. كَذَلِكَ أَخْطَأَ مَنْ قَسَمَ التَّصَوُّفَ إِلَى تَصَوُّفٍ إِسْلاَمِيّ وَتَصَوُّفٍ غَيْرِ إِسْلاَمِيّ كَابْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيّ. إِنَّمَا وَقَعَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الإِسْلاَمِ فِي هَذَا الْخَطَأِ الْجَسِيمِ لِجَهْلِهِمْ بِاللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ وَتَارِيخِ الأَدْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ، وَلاحْتِقَارِهِمْ الْكُفَّارَ وَالزَّنَادِقَةَ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ سُلْطَةَ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ تُرَاقِبُهُمْ بِدِقَّةٍ وَتُعَاقِبُهُمْ إِذَا أَقْدَمُوا عَلَى إِفْسَادِ عَقِيدَةِ الْمُسْلِمِينَ. لَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الإِسْلاَمِ مَغْرُورِينَ بِسَطْوَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ فِي أَيَّامِ عِزِّهَا، فَلَمْ يَتَصَوَّرُوا سُقُوطَ الأُمَّةِ يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ إِلَى الدَّرْكِ الْمُؤْلِمِ الَّذِي نَعِيشُهُ الْيَوْمَ. كَانَ مَثَلُهُمْ يَوْمَئِذٍ كَمَثَلِ الَّذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ * وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا * فَفِي صَفَاءِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ.

(المصدر: فريد صلاح الهاشمي، المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية – محفوظ في خزانة المؤلف، غير مطبوع)

[113] المصدر: http://www.saaid.net/feraq/el3aedoon/17.htm

هكذا وجدتْ النقشبنديَّةُ الساحةَ خالِيةً، والأبوابَ مفتوحةً على مصاريعِها لِتَنْفُذَ إلى ضمائرِ الملايِينِ، ولتقطعَ الحبلَ بينهم وبينَ الإسلامِ وهم عن الحقِّ غافلون.

***

4) الحركةُ النُّورْسِيَّةُ Nurculuk (جماعة النور Nur Cemaati)

النُّورْجِيَّةُ (أو النورسيَّةُ): تيَّارٌ شِبهُ صوفِيٍّ نشأ في أعقابِ فترةٍ عصيبةٍ تملؤُها حروبٌ وثوراتٌ واضطراباتٌ، كنتيجةٍ لظروفِ تلك الفترةِ التي عُرِفَتْ بأيَّامِ الدمارِ الذي خلَّفَتْهُ الحربُ العالميَّةُ الأولى. لذا لا يمكنُ أنْ تتكشَّفَ أسرارُ هذا التيَّارِ للباحِثِ إلاَّ بعدَ أن يقومَ بإجراءِ فحوصٍ وبحوثٍ ودراساتٍ شاملةٍ حولَ ظروفِ تلك الفترةِ، ويَتَعَرَّفَ على رموزِ السياسةِ الإنتهازيّين والدَّجَالِينَ الذين لَعِبُوا أدوارًا هامَّةً لسحبِ جماعاتٍ من الناسِ وراءَهم. كما يجبُ على الباحثِ أيضًا أن يكونَ ذا معرفةٍ وخبرةٍ بالطابعِ الدينِيّ لِمُكَوِّنَاتِ المجتَمَعِ العثمانِيّ (من الأتراكِ والأكرادِ والأَقَلِّيَّاتِ الْمُسْلُمَان)؛ وذا خَلفيَّةٍ واسعةٍ حولَ مفهومِ التصوّفِ، والطرائقِ الصوفِيَّةِ وخلافاتِها، ونزاعَاتِها، وتناقُضاتِها؛ مع باعٍ طويلٍ في العلوم الإسلاميَّةِ، وَتَخَصُّصٍ في عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعة...

إنَّ قِصَّةَ "النورجيَّةِ" ترتبطُ بالأوضاعِ التي تَرَكَتْهَا الحربُ العالميَّةُ الأولى ارتباطًا وثيقًا. إذ نشأتْ "النورجيةُ" كنتيجةٍ من نتائج ظروفٍ غامضةٍ، ورسحتْ في ضميرِ الشعبِ قبل أن يثوبَ إلى وعيِهِ ويتسائلَ عن حقيقةِ الرجل الذي أنشأ هذا التنظيمَ وقادَه، وعن خلفيَّاتِ هذه الحركةِ وأسبابِ نشوئِها. كانتْ "النورجيةُ" وليدةَ جهلٍ قبلَ كلّ شيءٍ. أنجبَتْهُ ظروفٌ تتلاطمُ في ظلامِهَا التصوُّفُ والعنصريَّةُ والتقليدُ والعاطفيَّةُ والفقرُ والعجزُ والعُجمةُ[114] والبِدَعُ والخرافات...

---

[114] وَالْعُجْمَةُ لُغَةً: الإِبْهَام، وَعَدَمُ الإِفْصَاحِ، وَاللُّكْنَةُ فِي اللِّسَانِ. يُقَالُ: فُلاَنٌ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُكْنَةٌ. أَيْ لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا، كَمَا وَرَدَت فِي قَامُوسِ تَرَاجُمِ الأَعْلاَمِ لِلزِّرِكْلِي ضِمْنَ تَرْجَمَةِ مُحَمَّدٍ زَاهِدِ الْكَوْثَرِيِّ، يَقُولُ: «كَانَ يُجِيدُ الْعَرَبِيَّةَ وَالتُّرْكِيَّةَ وَالْفَارِسِيَّةَ وَالجَرْكَسِيَّةَ وَفِي نُطْقِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ لُكْنَةٌ خَفِيفَةٌ». بَيْمَا كَانَ الْكَوْثَرِيُّ مِمَّنْ طَالَ بَاعُهُ فِي شَتَّى الْعُلُومِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَمُؤَلَّفَاتُهُ وَمَقَالاَتُهُ شَاهِدَةٌ عَلَى مَهَارَتِهِ وَعُلُوِّ كَعْبِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَمَّا لُكْنَتُهُ اللِّسَانِيَّةُ فَلَمْ تَكُنْ إِلاَّ لأَنَّهُ كَانَ مُسْتَعْرِبًا، لَمْ يَتَكَلَّمْ عَنْ سَلِيقَةٍ، وَإِنَّمَا تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ بَعْدَ لُغَتِهِ الْمَحَلِّيَّةِ كَمَا سَيَأْتِي شَرْحُ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ فِيمَا يَلِي. فَالْعُجْمَةُ إِذَنْ صِفَةٌ تُطْلَقُ بِمَعْنَى الرَّكَاكَةِ فِي التَّعْبِيرِ الشَّفَهِيِّ وَعَدَمِ الإِفْصَاحِ لأَسْبَابٍ، إِلاَّ أَنَّ كُلَّ كَلاَمٍ غَيْرِ مُتَّصِفٍ بِالْفَصَاحَةِ لَمْ يَعُدَّهُ اللُّغَوِيُّونَ وَلاَ الْبَلاَغِيُّونَ الْعَرَبَ مِنَ الْعُجْمَةِ، بَلْ وَصَفُوهَا بِالرَّكَاكَةِ وَالتَّعْقِيدِ وَالْغُمُوضِ فَحَسْبُ، وَهَذَا شَيْءٌ مِنَ الْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ. فَكَأَنَّهُمْ تَحَاشَوْا بِذَلِكَ عَنْ إِنْزَالِ الطَّبَقَةِ الْعَامِّيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ مَنْزِلَةَ الأَعْجَامِ لِعَدَمِ إِتْقَانِهِمْ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفُصْحَى، تَنْزِيهًا لَهُم، وَفِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ التَّشْوِيهِ لِلْحَقِيقَةِ. لأَنَّ الأَكْثَرِيَّةَ السَّاحِقَةَ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ لاَ يُتْقِنُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفُصْحَى أَعْجَامٌ لاَ مَحَالَةَ، وَأَخْلاَطٌ وَحُثَالَةٌ مِنَ الْبَشَرِ، لاَ حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْوَعْيِ وَالْمَعْرِفَةِ بِحَقَائِقِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ. وَمَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ جَهْلُهُمْ بِحَقَائِقِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَمَكَانَتِهَا، وَعَظَمَتِهَا، وَقَدْرِهَا كَلُغَةِ الْوَحِي، وَدَوْرِهَا فِي بِنَاءِ أُسُسِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَفَتْحِ آفَاقِ التَّفْكِيرِ وَالإِبْدَاعِ وَالتَّطْوِيرِ الْمُؤَدِّي إِلَى تَوْفِيرِ وَسَائِلِ التَّنَوُّرِ وَالإِنْفِتَاحِ وَالتَّقَدُّمِ وَالازْدِهَار، مِمَّا فَرَّقَ جَمْعَهُمْ وَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَشَدِّ حَالَةٍ مِنَ التَّخَلُّفِ. إِنَّ الْعُجْمَةَ ظَاهِرَةٌ لُغَوِيَّةٌ تَتَمَثَّلُ فِي أَشْكَالٍ مِنَ الْفَسَادِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ غَيْرِهَا. لأَنَّ سَائِرَ اللُّغَاتِ عَجَمِيَّةٌ أَصْلاً،

وَالتَّكَلُّمُ بِهَا عُجْمَةٌ وَالْفَصَاحَةُ فِيهَا مَجَازٌ، لاَ اسْتِقْرَارَ وَلاَ بَقَاءَ لَهَا؛ تَتَغَيَّرُ طَبِيعَتُهَا بَيْنَ مَرْحَلَةٍ زَمَنِيَّةٍ وَأُخْرَى، تَتَرَنَّحُ أَمَامَ أَيِّ عَاصِفَةٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ أَوْ حَادِثَةٍ مُدَمِّرَةٍ، فَتَتَفَرَّقُ إِلَى لَهَجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ أَوْ حَتَّى إِلَى لُغَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ مَعَ الزَّمَانِ. أَمَّا الْعَرَبِيَّةُ فَلاَ سَبِيلُ لِلْفَسَادِ إِلَى أَصْلِهَا، وَلَوْ اسْتَعْجَمَ أَبْنَاؤُهَا قَاطِبَةً. فَإِنَّ أَصْلَهَا كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا. وَهِيَ لُغَةٌ شَرِيفَةٌ رَصِينَةٌ تَتَمَتَّعُ بِحِمَى الْقُرْآنِ وَضَمَانِهِ الْمَنِيعِ والسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ. وَإِنَّمَا الْفَسَادُ يَنْحَصِرُ فِي نِطَاقِ عُجْمَةِ الإِنْسَانِ فَحَسْبُ، الَّذِي لاَ يَكَادُ يَجْهَلُ قَدْرَ حَاجَتِهِ إِلَى هَذِهِ الْوَسِيلَةِ الْعَظِيمَةِ وَمَدَى حِرْمَانِهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِسَبَبِ هَذَا الْجَهْلِ. تَظْهَرُ الْعُجْمَةُ وَتَسُودُ عَلَى اللِّسَانِ فِي صُورَتَيْنِ مُتَعَاكِسَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا: الاسْتِعْرَابُ بَعْدَ نَشْأَةٍ عَجَمِيَّةٍ مِثْل نَشْأَةِ الشَّيْخِ الْكَوْثَرِيِّ كَمَا مَرَّ آنِفًا، وَهِيَ أَنْ يُولَدَ الشَّخْصُ وَيَتَرَبَّى فِي بِيئَةٍ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ مُثَقَّفَةٍ، فَيَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بَعْدَ لُغَتِهِ الْمَحَلِّيَّةِ. وَهَذِهِ كَارِثَةٌ مِنْ كَوَارِثِ الْقَدَرِ الإِلَهِيِّ كَمَنْ يُولَدُ مَشْلُولَ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِهِ أَوْ مَبْتُورَهُ لاَ حِيلَةَ لَهُ فِي مُعَالَجَتِهِ وَلاَ اسْتِبْدَالِهِ، كَذَلِكَ تَبْقَى آثَارُ الْعُجْمَةِ فِيهِ مَهْمَا طَالَ بَاعُهُ فِي عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ. يَجُوزُ أَنْ تُسَمِّيَ هَذِهِ الْحَالَةُ بِالْعُجْمَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، تَكُونُ آثَارُهَا مُتَأَصِّلَةً فِي الشَّخْصِ الْمُسْتَعْرَبِ فَلاَ يَكَادُ يَخْلُصُ لِسَانُهُ مِنَ اللُّكْنَةِ أَبَدًا، كَالْمُسْتَشْرِقِينَ والطَّلَبَةِ وَالْمُوَظَّفِينَ الأَجَانِبِ الْوَافِدِينَ إِلَى الْبِلاَدِ الْعَرَبِيَّةِ لِلدِّرَاسَةِ. والنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْعُجْمَةِ: هُوَ التَّعَجُّمُ. وَهُوَ أَنْ يُولَدَ الشَّخْصُ فِي بِيئَةٍ عَرَبِيَّةٍ غَيْرِ مُثَقَّفَةٍ، ثُمَّ يَتَعَلَّمَ اللَّهْجَةَ الْفُصْحَى عَنْ طَرِيقِ الدِّرَاسَةِ والتَّعْلِيمِ. وَهَذَا أَشْبَهُ بِطِفْلٍ يُولَدُ وَبِهِ شَيْءٌ مِنَ مَرَضٍ قَابِلٍ لِلْعِلاَجِ، يَبْرَأُ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الرِّعَايَةِ الصِّحِّيَةِ وَالْمُدَاوَاةِ الطِّبِّيَّةِ. لِلْعُجْمَةِ آثَارٌ سَلْبِيَّةٌ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ تَحُولُ دُونَ جَمَالِهَا الأَدَبِيِّ وَرَوْعَتِهَا الْبَلاَغِيَّةِ، هَذَا مِنَ الْوَجْهِ الْعَامِّ. أَمَّا عُجْمَةُ الشَّخْصِ الْمُسْتَعْرَبِ خَاصَّةً، فَإِنَّهَا تَأْتِي بِسَلْبِيَّاتٍ خَطِيرَةٍ فِي أَعْمَالِ التَّرْجَمَةِ وَالتَّأْلِيفِ بِالتَّحْدِيدِ. لأَنَّ الرَّجُلَ الْمُسْتَعْرَبَ لاَ يَتَأَتَّى لَهُ النُّفُوذُ إِلَى أَعْمَاقِ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعَلْمِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ، وَالإِحَاطَةُ بِدَقَائِقِ مَكْنُونَاتِهَا. وَقَدْ يَتَوَرَّطُ فِي تَفْسِيرَاتٍ غَرِيبَةٍ وَتَأْوِيلاَتٍ شَاذَّةٍ لِهَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ نَتِيجَةَ قُصُورِهِ وَعَجْزِهِ عَنْ فَهْمِهَا فَهْمًا دَقِيقًا. لأَنَّ مَعْرِفَتَهُ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَقْصُورَةٌ عَلَى حَوَاسِّهِ الْخَمْسِ وَقُدُرَاتِهِ الذِّهْنِيَّةِ بَعْدَ سِنِّ الطُّفُولَةِ بِخِلاَفِ الإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَمْتَصُّهَا عَادَةً مَعَ لَبَنِ أُمِّهِ وَيَخْتَزِنُهَا فِي أَعْمَاقِ ضَمِيرِهِ وَوُجْدَانِهِ وَخَلاَيَاهُ... فَتَتَمَخَّضُ عِبَارَاتُ الشَّخْصِ الْمُسْتَعْرَبِ عَنْ آثَارِ هَذَا الْعَجْزِ بِأَخْطَاءٍ تَتَفَاوَتُ فِي عُيُوبِهَا وَخُطُورَتِهَا، فَتُؤَدِّي بَعْضُهَا إِلَى تَشْوِيهِ الْحَقَائِقِ وَإِرْبَاكِ الْقَارِئِ فَضْلاً عَمَّا تَسُودُهَا مِنَ الْغُمُوضِ وَالرَّكَاكَةِ وَسُوءِ التَّأْلِيفِ. وَمِنْ سَلْبِيَّاتِ الْعُجْمَةِ: أَنَّهَا تَغُرُّ صَاحِبَهَا بِالتَّسَاهُلِ فِي تَنَاوُلِ الْمَهَامِّ الْعِلْمِيَّةِ، إِذْ تَفُوتُهُ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ لاَ يَكَادُ يَنْتَبِهُ إِلَيْهَا، يَدْرُسُ مَوْضُوعًا وَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْكَفَاءَةِ الْعِلْمِيَّةِ لاسْتِيعَابِهِ، قَاصِرُ النَّظَرِ عَنْ تَعَدُّدِ الصِّلَةِ بَيْنَ الْقَضِيَّةِ وَاعْتِبَارَاتِهَا الْكَمِّيَّةِ والْكَيْفِيَّةِ، مُتَرَدِّدٌ فِي مَدِّ الرَّوَابِطِ بَيْنَ مُخْتَلِفِ جَوَانِبِهَا وَالْخُلُوصِ مِنْهَا بِنَتِيجَةٍ تَشْرَحُ الصَّدْرَ. ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْتَعْرَبِينَ الَّذِينَ يَدْرُسُونَ اللُغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مُدَّةً غَيْرَ قَصِيرَةٍ يِنْسَوْنَ أَنَهُمْ اشْتَغَلُوا فِي كُلِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ بِإِحْصَاءِ قَوَاعِدِ الصَّرْفِ والنَّحْوِ والْبَلاَغَةِ فَحَسْبُ، وَالْتَهَوْا بِهَذِهِ الْقَوَانِينِ اللُّغَوِيَّةِ الْبَحْتَةِ إِلْتِهَاهًا مُطْبِقًا مُنْصَرِفِينَ عَنْ تَطْبِيقِهَا فِي الْحِوَارِ وَالْمُحَادَثَةِ، فَحُرِمُوا مِنْ طَلاَقَةِ اللِّسَانِ وَفَصَاحَةِ الْبَيَانِ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ. إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلاَءِ تَتَلَوَّثُ سَرِيرَتُهُمْ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، فَيَبْغُضُونَ كُلَّ مَنْ يَفُوقُهُمْ فَصَاحَةً وَبَلاَغَةً وَبَيَانًا. لأَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى الْحَدِيثِ بِانْسِجَامٍ وَسَلاَسَةٍ وَهُمْ قَدْ افْتَدَوْا بِأَحْلَى أَيَّامِ شَبَابِهِمْ وَسَهَرُوا عَلَى حِفْظِ قَوَانِينِ اللُّغَةِ وَمُتُونِ عُلُومِ الآلَةِ، وَقَدْ خَرَجُوا مُفْلِسِينَ مِنْهَا، لأَنَّ سَعْيَهُمْ لَمْ يُثْمِرْ بِمَا يَجْعَلُهُمْ نَاجِحِينَ فِي مَيْدَانِ اللُّغَةِ خَاصَّةً عِنْدَ الْمُكَالَمَةِ وَالْحِوَارِ وَتَبَادُلِ الْحَدِيثِ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالثَّقَافَةِ. وَمِمَّا لاَ شَكَّ فِيهِ؛ أَنَّ عَدَدًا مِنْهُمْ يَمْتَلِئُونَ غَيْظًا بِدَافِعِ هَذِهِ النَّفْسِ الْمَهْزُومَةِ فَيَلْجَئُونَ إِلَى الانْتِقَامِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَتَوَقَّفُ عَلَى عُيُوبِهِمِ اللِّسَانِيَّةِ وَقُصُورِهِمِ اللُّغَوِيَّةِ وَعَجْزِهِمْ عَنِ التَّعْبِيرِ الأَمْثَلِ، فَيَنْتَقِمُونَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِطَرِيقِ التَّشْوِيهِ وَالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ وَيَنْتَقِمُونَ مِنْ كُلِّ فَصِيحِ اللِّسَانِ بِفِرْيَةٍ يَحُطُّ مِنْ شَأْنِهِ. هَذَا، وَالتَّارِيخُ لاَ يَنْسَى مَا وَقَعَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمَنْهَجِ الدِّرَاسِيِّ عَلَى يَدِ الْمُسْتَعْرَبِينَ الْفُرْسِ وَالأَتْرَاكِ وَالْهُنُودِ بِسَبَبِ مُؤَلَّفَاتِهِمْ الْعَقِيمَةِ وَعِبَارَاتِهِمِ الرَّكِيكَةِ الْمُعَقَّدَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الانْتِقَامِ. وَرَدَ فِي مَقَالٍ جَدِيرٍ بِالاهْتِمَامِ جِدًّا صَدَرَتْ بِقَلَمِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُوَيْقِلٍ السلمي تَحْتَ عُنْوَانِ: "الْمُتُونُ وَالشُّرُوحُ وَالْحَوَاشِي"، وَهُوَ يَتَطَرَّقُ إِلَى آثَارِ الْعُجْمَةِ فِيهَا، يَقُولُ فِي مَقْطَعٍ مِنْهَا: «الْمُتُونُ لاَ يُسْتَفَادُ مِنْهَا كَثِيرًا فِي مَجَالِ التَّطْبِيقَاتِ النَّحْوِيَّةِ؛ لأَنَّ مَا فِيهَا مِنْ قَوَاعِدَ لاَ يُنَاسِبُ قَابِلِيَّاتِ الطُّلاَّبِ بِصُورَةٍ عِلْمِيَّةٍ؛ وَلأَنَّهَا تُرَاوِحُ – أَحْيَانًا – بَيْنَ الزِّيَادَةِ فِي بَعْضِ الأَبْوَابِ وَالنَّقْصِ فِي أَبْوَابٍ أُخْرَى، فَأَسَالِيبُهَا وَمُحْتَوَيَاتُهَا وَمَنَاهِجُ تَصْنِيفِهَا لاَ تَتَّفِقُ مَعَ الْحَقَائِقِ التَّرْبَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَالْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ. أَمَّا الشُّرُوحُ وَالْحَوَاشِي وَالتَّقْرِيرَاتُ، فَهِيَ تُكْثِرُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِقَضَايَا الْمَنْطِقِ وَالْكَلاَمِ وَالتَّعْلِيلِ الْفَلْسَفِيِّ, وَفِيهَا مِنَ الْحُدُودِ وَالْقُيُودِ وَالاحْتِرَازَاتِ مَا لاَ يَتَلاَءَمُ مَعَ الْمُسْتَوَى الْعَقْلِيِّ لِلطُّلاَّبِ الْمُتَلَقِّينَ الَّذِينَ صُنِّفَتْ فِي الأَصْلِ لَهُمْ. هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ التَّأْلِيفِيَّةُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُضِيفَ إِلَى مَبَاحِثِ النَّحْوِ جَدِيدًا يَجْعَلُهُ مُزْدَهِرًا نَامِيًا، وَإِنَّمَا حَوَتْ قَوَاعِدَ مُتَحَجِّرَةً وَأَصْبَحَ هَمُّ الْعُلَمَاءِ تَلْخِيصَ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ ثُمَّ شَرْحَ التَّلْخِيصِ، ثُمَّ التَّحْشِيَةَ عَلَى الشَّرْحِ، ثُمَّ التَّقْرِيرَ عَلَى الْحَاشِيَةِ... لِذَلِكَ فَإِنَّ النَّاظِرَ لاَ يَرَى إِلاَّ كَلاَمًا مُعَادًا مُكَرَّرًا فِي هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ لاَ يُنَمِّي ذَوْقًا وَلاَ يُرَبِّي مَلَكَةً. هَذِهِ هِيَ الْعُيُوبُ الْمَنْسُوبَةُ أَوْ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ التَّأْلِيفِيَّةِ فِي النَّحْوِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ، وَهِيَ الظَّاهِرَةُ الَّتِي تَرْسُمُ صُورَةً عِلْمِيَّةً وَثَقَافِيَّةً وَاضِحَةً لِعَصْرِ الْمَمَالِيكِ وَعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّينَ، وَقَدْ رَكَّزَتْ هَذِهِ الْعُيُوبُ عَلَى جَعْلِ هَذَيْنِ الْعَصْرَيْنِ عَصْرَيْ تَخَلُّفٍ وَانْحِطَاطٍ، وَعَلَى أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ مِنَ التَّصَانِيفِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الاهْتِمَامِ الْعِلْمِيِّ عَامَّةً، وَعَلَى الْجَهْلِ لَدَى حُكَّامِ هَذِهِ الْقُرُونِ جَمِيعًا مِمَّا انْعَكَسَ عَلَى الْمُؤَلِّفِينَ، فَجَاءَتْ تَصَانِيفُهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بِصِيَاغَةٍ تُوهِمُ أَنَّهُمْ أَتَوْا بِجَدِيدٍ وَوَاقِعُ الأَمْرِ غَيْرُ ذَلِكَ، إِذْ كَانَتْ مُؤَلَّفَاتُهُمْ قَلَّمَا تَسْلَمُ مِنْ غُمُوضِ الْعِبَارَةِ أَوْ خَطَأِ الْفِكْرَةِ، أَوْ مُخَالَفَةِ الاصْطِلاَحِ السَّلِيمِ، أَوْ غَلَطِ الرِّوَايَةِ الْمَعْزُوَّةِ، وَهِيَ – فِي مُجْمَلِهَا – كَمَا يَقُولُ هَؤُلاَءِ الْمُنْتَقِدُونَ صَرَفَتْ عَنِ اللُّبِّ إِلَى الْقُشُورِ، كَمَا أَنَّهَا – فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ – سَلَبَتْ مِنَ النَّحْوِ بَهْجَتَهُ وَرُوَاءَهُ. أَمَّا مُصَنِّفُو هَذِهِ الْكُتُبِ فَقَدْ قَالُوا فِيهِمْ أَيْضًا إِنَّهُمْ مُتَّصِفُونَ بِغَلَبَةِ الْعُجْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَقِلَّةِ إِلْمَامِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ بِالأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مِمَّا جَعَلَ أَقْلاَمَهُمْ وَأَقْلاَمَ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ تَتَبَارَى وَتَتَنَافَسُ فِي إِقَامَةِ الصِّيَغِ الْخَفِيَّةِ، وَفِي إِقْحَامِ مُصْطَلَحَاتِ الْمَنْطِقِ وَالأَلْفَاظِ الْفَلْسَفِيَّةِ، وَفِي التَّلاَعُبِ بِالأَلْفَاظِ وَالإِيغَالِ فِي الإِيجَازِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الرَّمْزِ وَالإِلْغَازِ، وَفِي الْجُنُوحِ إِلَى الاسْتِطْرَادِ أَوِ الإِيجَازِ بِلاَ دَاعٍ، حَتَّى بَاتَتْ مُصَنَّفَاتُهُمْ لَيْسَ فَقِيرَةً فِي الأَسَالِيبِ الأَدَبِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ تَقَعُ فِيهَا أَيْضًا أَشْيَاءُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ أَوِ الصَّرْفِيَّةِ...». أَمَّا التَّعَجُّمُ، وَهُوَ عَكْسُ الاسْتِعْرَابِ، فَإِنَّ آثَارَهُ السَّلْبِيَّةَ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَشَدُّ مِنْ مُحَاوَلاَتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَخَبْطِ الْمُؤَلِّفِينَ الأَعْجَامِ. لأَنَّ الطِّفْلَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي يَتَرَبَّى فِي بِيئَةٍ غَيْرِ مُثَقَّفَةٍ يَعْتَادُ عَلَى اسْتِخْدَامِ مَا يُسَمَّى بِاللَّهْجَةِ الْعَامِيَّةِ أَوِ الدَّارِجَةِ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى إِنْسَانٍ أَعْجَمِيٍّ. وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّ لِلْعَامِّيَّةِ عَوَاقِبُ هَدَّامَةٌ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. لأَنَّ الإِنْسَانَ الْعَرَبِيَّ الْمُتَعَجِّمَ، دَوْرُهُ فِي تَدْمِيرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَدَوْرِ الْعَدُوِّ الْمُنْدَسِّ فِي صُفُوفِ الْمُجْتَمَعِ. وَهُوَ أَخْطَرُ مِنَ الْعَدُوِّ الَّذِي يَتَرَبَّصُ الدَّوَائِرَ بِهَا مِنَ الْخَارِجِ، وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ السَّاذِجِ خَلَلٌ قَدْ يَتَسَلَّلُ مِنْ ثَغْرِهِ الْمُغْرِضُونَ الْمُعْتَرِضُونَ لِمُجَرَّدِ التَّفْنِيدِ حِقْدًا أَوْ جَهْلاً: بِأَنَّ

نشأتِ "النورجيةُ" في جوٍّ خالٍ كاملَ الخلُوِّ من العلمِ والمعرفةِ، كردِّ فعلٍ ضدَّ الكماليَّة المادِّيَّةِ، ولكنَّها ظهرتْ هيَ الأخرى شكلاً لإلحادٍ روحِيٍّ متقمّصٍ بلباسِ الإسلامِ. ذلك لَمَّا خلتِ الساحةُ من العلماءِ تمامًا بعدَ أن سادَ الفوضَى على أجواءِ البلدِ في أعقابِ الحربِ، ظهرتْ رموزٌ من الدجاجلةِ يملئونَ فراغَ أهلِ العلمِ، ينسجونَ خيوطَ عهدٍ إلحادِيٍّ جديدٍ، يستعرضونَ مهاراتِهِم في إبداعِ أشكالٍ من الأباطيلِ، وإنتاجِ أنواعٍ من البِدَعِ على حسابِ الإسلامِ ليتسلَّقوا بها مدارجَ الشهرةِ. فكانَ سعيدُ النورسِيُّ[115] في مقدِّمَتِهِمْ.

الْعَرَبِيّ الْعَامّيّ لاَ يَجُوزُ وَصْفُهُ بِالْعَدَاوَةِ لِمُجْتَمَعِهِ وَلُغَتِهِ، بِذَرِيعَةِ جَهْلِهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَلاَّ نَتَنَاسَى بِأَنَّ الْجَهْلَ فِي ذَاتِهِ عَدُوٌّ لَدُودٌ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ، فَإِذَا نَشَأَ الإِنْسَانُ فِي أَحْضَانِهِ شَبَّ عَلَى الْعَدَاوَةِ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ تَبَعًا لِحَاضِنِهِ كَأَبِي جَهْلٍ!. لاَ يَكَادُ يَفْطَنُ إِلَيْهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَمِّدًا فِي جَهْلِهِ أَوْ عَدَاوَتِهِ. الإِنْسَانُ الْعَرَبِيُّ الْيَوْمَ يَجْهَلُ الأَسْلُوبَ الأَصِيلَ لاسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَهْمَا كَانَ مُثَقَّفًا. فَلَيْسَ مِنَ الْفِرْيَةِ إِذَنْ وَصْفُ الْعَرَبِ بِالْعَجَمِيَّةِ (إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ!). فَهُمْ لاَ شَكَّ طَائِفَةٌ مِنَ الأَعْجَامِ الْمُتَعَجِّمِينَ، وَذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْعِلْمِيِّ الْقَاطِعِ، أَدْنَاهُ: كَلِمَاتٌ يَسِيرَةٌ لأَعْرَابِ الْعَهْدِ الْجَاهِلِيِّ، فَضْلاً عَمَّا تَضُمُّهُ مُجَلَّدَاتٌ ضَخْمَةٌ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَلاَمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم. نَنْقُلُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَلِمَاتٍ وَجِيزَةً لِحَاضِنَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلِيمَةِ السَّعْدِيَّةِ، ثُمَّ لِنُقَارِنْهَا مَعَ كَلاَمِ فُحُولِ أُدَبَاءِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، لِنَقِفَ عَلَى الْفَرْقِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَتَمَيَّزُ بِهَا كَلِمَاتُ هَذِهِ الأَعْرَابِيَّةِ مِنَّ الْفَصَاحَةِ والاعْتِدَالِ وَالرَّوْعَةِ والْجَمَالِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى إِذَا قِسْنَاهَا مَعَ كَلاَمِ أُدَبَاءِ عَصْرِنَا. وَهَذِهِ كَلِمَاتُهَا، تَقُولُ: «خَرَجْتُ عَلَى أَتَانٍ لِى قَمْرَاءَ، وَمعَنَا شَارِفٌ (أَي نَاقَةٌ مُسِنَّةٌ) لَنَا، وَاللهِ مَا تَبِضُّ (أَيْ مَا تَدْمَعُ) بِقَطْرَةٍ، وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِنَ الْجُوعِ. مَا فِي ثَدْيِي مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغْذِيهِ، وَلَكِنْ كُنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ، فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانٍ تِلْكَ، فَلَقَدْ أَذَمَّتْ بِالرَّكْبِ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، ضَعْفًا وَعَجَفًا، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلاَّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ، فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلاَّ أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي. فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الانْطِلاَقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاللهِ، إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاللهِ لأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فلآخُذَنَّهُ. قَالَ: لاَ عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ وَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي. فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّى رَوَى، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوَى، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا هِيَ حَافِلٌ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رَيًّا وَشَبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تَعْلَمِي وَاللهِ يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو ذَلِكَ. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ أَنَا أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِي. فَوَاللهِ لَقَطَعْتُ بِالرَّكْبِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ صَوَاحِبِي لَيَقُلْنَ لِي: يَا ابْنَةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ! أَرْبِعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانُكِ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَى وَاللهِ، إِنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاللهِ إِنَّ لَهَا شَأْنًا. قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلاَدِ بَنِي سَعْدٍ، وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلاَ يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ، حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرِعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ، اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا. فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنَ اللهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ». فَأَيْنَ كَلاَمُ الْعَرَبِ الْيَوْمَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْفَصِيحَةِ الرَّنَّانَةِ الْخَالِصَةِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ وَالرَّكَاكَةِ وَالْغُمُوضِ وَالتَّعْقِيدِ! لَقَدْ كَانَتْ حَلِيمَةُ أُمِّيَّةً مَعَ أَغْلَبِ الظَّنِّ، لاَ تَقْرَأُ وَلاَ تَكْتُبُ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ فَصَاحَةِ اللِّسَانِ. وَلاَ يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ مُعَاصِرِيهَا رِجَالاً وَنِسَاءً مُتَمَيِّزِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي تُعَدُّ فَرِيدَةً فِي عَصْرِنَا. فَتَبْدُو إِذَنْ الشُّقَّةُ الْبَعِيدَةُ بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ وَبَيْنَ أَبْنَاءِ عَصْرِنَا مِنَ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ مُسْتَوَى الإِتْقَانِ وَالْمَهَارَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَهَذَا يُبَرِّرُ نِهَائِيًّا إِطْلاَقَ صِفَةِ الْعُجْمَةِ عَلَى الْعَرَبِ الْمُعَاصِرِينَ أَجْمَعِينَ، كَمَا يُبَرْهِنُ عَلَى مَدَى خُطُورَةِ هَذَا الْجِيلِ مِنَ الْعَرَبِ فِي تَدْمِيرِ لُغَةِ الْقُرْآنِ فَضْلاً عَنْ مُحَاوَلاَتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ الدُّعَاةِ إِلَى الْعَامِّيَّةِ. إِذَنْ لَنْ نُبَالِغَ أَنْ نَقُولَ فِي النِّهَايَةِ: إِنَّ الْعَامِّيَّةَ إِصْرَارٌ عَلَى التَعَجُّمِ وَانْسِلاَخٌ مِنَ الْفِطْرَةِ لاَ مَحَالَةَ، وَهَذَا حَرْبٌ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْعُرُوبَةِ وَالإِسْلاَمِ! (المصدر: فريد صلاح الهاشمي، المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية).

[115] سعيدُ النُّورْسِيُّ: شخصيةٌ من مشاهير رجالِ الدين، وليس عالمًا بالمعنى الإصطلاحِيّ. ورد في تَرَاجُمِهِ اسماءُ خمسةٍ من أجدادِهِ فحسب؛ قالو: هو بنُ مِيرْزَا، بنُ علي، بنُ خضر، بن مِيرْزَا خالد، بن مِيرْزَا رَشَانْ.. أمَّا أسماءُ الذين قبل هذا الأخير فإنَّها مجهولة. قال النُّورْسِيُّ في بيانٍ كتابِيٍّ قَدَّمَهُ إلى دارِ الحكةِ الإسلاميةِ: "لاَ أنتسِبُ إلى أسرةٍ معروفةٍ."، نعم، هكذا في غايةٍ من الصراحةِ أفادَ أنه من أسرةٍ متواضعة. وهذ مقطعٌ من كلامه مقتَبَسٌ من المصدر آنفِ الذِّكْرِ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّة:

Said Nursi Daru'l-Hikmeti'l-İslamiye'ye verdiği terceme-i hal varakasında: "bir sülâle-i ma'rûfeye nisbetim yoktur" demiştir. (http://www.dunyabulteni.net/yazar/abdullah-demir/18956/arsiv-belgelerine-gore-said-i-nursi-seyyid-midir)

هذه الوثيقةُ تكشف لنا المستوى الإجتماعيَّ لأُسرتِهِ، كما تدلّ على مدى صدقِهِ في إخبارِهِ عن نفسِهِ.

وُلِدَ سعيدُ النُّورْسِيُّ عامَ **1876**م. في قرية نورس Nurs التابعةِ لقضاءِ هيزان، وهي من مُلحقاتِ مدينةِ بِتْلِيسْ Bitlis، تقع شَمَالَ شرقي المنطقة الكرديَّةِ. تَرَبَّى النُّورْسِيُّ في أحضانِ أسرةٍ رِيفِيَّةٍ تعيشُ على الفِلاحةِ وتربيةِ المواشي. اختلفَ مترجموه في تاريخ ولادتِهِ، وَرَدَ في بيانٍ لِ"وَقْفِ الزهراءِ" الْمُهْتَمِّ بشخصيَّةِ النورسِيّ: أنّه وُلِدَ سنة **1876**م. بينما زعم إحسان قاسم الصالحي الذي تَرْجَمَ كُتُبَ النورسِيِّ إلى العربيَّةِ، أنَّ مَوْلِدَهُ كان في عامِ **1293**هـ. الموافق لسنة **1873**م.

قضى سعيدٌ طفولتَهُ في هذه القريَةِ الخاليةِ من أهلِ العلمِ، بعيدًا عن أجواءِ المعرفةِ والثقافةِ. خرجَ منها طَلَبًا للدّراسةِ وهو مراهقٌ. تردَّدَ بين عددٍ من قُرَى المنطقةِ، وردتْ أسماؤها في سطورِ مُتَرْجِمِيهِ، وهي بالتحديد: قريةُ تَاغْ Tağ، وبيرْمِس Pirmis، وَأَرْوَاس Arvas، وَغَيْدَا Gayda، وَنُورْشِين Norşin... انخرطَ في مدارسِها التعيسةِ المتخلِّفةِ فَتَرَاتٍ وجيزةً وهو يلتقطُ من أفواهِ مَلاَلِيهَا دروسًا متقطِّعةً من كُتُبٍ متفرِّقةٍ، عابثًا بنظامِ الدراسةِ، غيرَ مكترثٍ بالترتيبِ والموالاةِ، غيرَ ملتزمٍ بالمبادئِ... لأنَّه كانَ غريبَ الطبعِ، نازعًا إلى الخلافِ والْعُنْفِ، متجافًا للنُّفُورِ، متجانبًا لِلْوِفَاقِ، مُتَرَفِّعًا على غيرِهِ، شَرِسًا مغترًّا بنفسِهِ، مُعجِبًا بِرَأْيِهِ... يدلُّ على هذه الحقيقةِ إخبارُهُ عن نفسِهِ، واعترافاتُهُ التي وردتْ في تراجُمِهِ بقلمِ أقربِ الناسِ إليه.

وردتْ قصةُ حياتِهِ في كتابٍ مُوَثَّقٍ ومُعْتَبَرٍ بين جماعتِهِ، مدوَّنٍ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ، اسمه: (تَارِيخْجَهءِ حَيَات Tarihçe-i Hayat ص/**32**، **33**). ورد فيه: "أنَّهُ استأذنَ أباهُ ليذهبَ إلى قريةِ أَرْوَاس Arvas للدِّراسةِ. كان هناك مُدَرِّسًا مُشْتَهَرًا يُدعَى الْمُلاَّ محمّد أفندي، غير أنَّ الأستاذَ هذا، لم يوافقْ على أنْ يتلقَّى منه سعيدٌ مباشرةً، بل وَكَلَهُ إلى أحدِ تلاميذِهِ، فاشْمَأَزَّ سعيدٌ من مثلِ هذا التصرُّفِ وأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ، فتربَّصَ بهذا المدرِّسِ الشهير حتّى إذا أقبَلَ يُدرِّسُ يومًا في المسجدِ، فاعترضَ عليهِ في مسألةٍ. فقال له بعنف:"

"– يا سيدي، ليس الأمرُ كذلك!"

"ثم أنكرَ عليه تَرَفُّعَهُ عن قَبُولِهِ إلى حَلَقَتِهِ للتدريسِ المباشرِ، فغادرَ المدرسةَ قاصدًا مدرسةَ (مير حسين علي)، لكنَّه لَمَّا عَلِمَ أنَّ هذه المدرسةَ أيضًا قد اعتادتْ عدمَ الإهتمامِ بالمبتدئين، أهملَ سبعةَ كُتُبٍ من مقرَّرَاتِها، فتخطَّاها عمدًا وبدأ دراستَهُ من الكتابِ الثامن خلافًا للترتيب المدرسِيِّ المعتاد". وهذا نصُّ كلماتِ الْمُتَرْجِمِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، وَالْمُعَرَّبَةِ فيما سبق:

«Pederinden izin alarak, tahsil yapmak üzere Arvâs Nahiyesine gider. Burada icra-yı tedris eden meşhur Molla Mehmed Efendi, kendisine ders vermeye tenezzül etmeyip, talebelerinden birisine okutmasını tavsiye edince, izzetine ağır gelir. Bir gün bu meşhur müderris camide ders okutmakta iken, Molla Said itiraz ederek:»

«-Efendim, öyle değil!»

«Hitabında bulunur. Okutmasına tenezzül etmediğini hatırlatır. Orada bir müddet kaldıktan sonra, Mir Hasan Veli Medresesine gitti. Aşağı derecede okuyan yeni talebelere ehemmiyet verilmemek bu medresenin âdeti olduğunu anlayınca, sıra ile okunması icabeden yedi ders kitabını terkederek, sekizinci kitaptan okuduğunu söyledi.»
(Tarihçe-i Hayat, 32-33, İlk Hayatı; İctimâi Reçeteler I, 9-10, Tarihçe-i Hayat/Latife.:المصدر)

طافَ سعيدٌ في المنطقةِ ومرَّ على عددٍ من أوكارِ النقشبنديّين وخَلاَيَاهُمْ وتَكَايَاهُمْ، أقامَ فيها وانخرطَ في مدارسِهم يريدُ النهوضَ بمستواه الثقافِيِّ، لكنَّهُ لم يستقر في أيٍّ منها، ولم تأخُذْ إقامتُهُ في كلِّ هذه المدارسِ إلاَّ شهورًا. لأنَّهُ كانَ درَّاكًا ذَكِيًّا للغاية. سرعان ما فطِنَ إلى ما في هذهِ العُشَشِ والحجراتِ الْمُظْلِمَةِ من العقليَّةِ المتخلِّفةِ، والتقليدِ الأعمَى، وسلبيَّاتِ العقيدةِ النقشبنديَّةِ... فَأَبَى أنْ يسكتَ عليها ويمكثَ فيها طويلاً. خاصَّةً وأنَّهُ كان يشعرُ بآلامِ المجتمع وما تعرَّضَ له من نكباتٍ بفعلِ شيوخِ النقشبنديَّةِ، فكانَ حَذِرًا محتاطًا متوتّرَ الأعصابِ في هذه البيئةِ التي لا تُلاَئِمُهُ، وإنَّما تحمَّلَ شقائَها لأنَّهُ كان مضطرًّا يومئذٍ لِمُسَايَرَةِ أهلِهَا قَدْرَ الإمكانِ حتى ينالَ قسطًا من المعرفةِ عَسَاهُ أن يهتدِيَ بِهَا إلى عالمٍ مضيءٍ، فيتمكَّنَ بعد ذلك من التمييزِ بين الصالحِ من آدابِ هذه النحلةِ وبين الفاسد منها.

كانَ سعيدٌ ذا نفسٍ توَّاقةٍ إلى مكانةٍ مرموقةٍ تُخَلِّدُ ذِكرَهُ وينالُ بها توقيرَ الناسِ وإجلالَهم. كُلُّ محاولاتِهِ ومغامراتِهِ يومذاك، تبرهنُ على هذهِ الحقيقةِ.

تنبَّهَ سعيدٌ في النهايةِ إلى أنَّ هناك وسيلتانِ لن ينالَ بغيتَهُ إلاَّ بِهِمَا: حظٌّ من المعرفةِ وثقافةِ العصرِ؛ ومهارةٌ في التعبير باللُّغَتَيْنِ العربيَّةِ والتُّرْكِيَّةِ. إذ كان جُلُّ معاناةِ الأكرادِ يومئذٍ ناشئًا من جهلِهم بهذه الأخيرة. كانوا يتعرَّضون للاحتقارِ والإهانةِ من قِبَلِ السلطاتِ التُّرْكِيَّةِ لعجزِهم في التعبيرِ، فلم يتمكّنوا من الدفاعِ عن أنفسِهم.

أدركَ النورسِيُّ أنَّه لن يتمكَّن من إتقانِ اللُّغَتَيْن: العربيَّةِ والتُّركيَّةِ إلاَّ بين أَهْلِهِمَا. فصمَّمَ أوَّلاً أنْ يتعلَّمَ اللغةَ العربيَّةَ، فانتقلَ إلى مدينةِ أَسْعِرْدَ Siirt التي سُكَّانُها عربٌ، وبِهَا علماءُ بارعونَ في العربيَّةِ، كانوا فَائقين في مختلفِ العلومِ الإسلاميَّةِ وغيرِها من المعقولِ والمنقول. تلقَّى النورسِيُّ دروسًا من شخصٍ يُدعى ملاَّ فتح الله، لكنَّهُ لم يقتنعْ بِهِ، فلم يَرْكَنْ إليه طويلاً حتى انخرطَ في الحَلَقَةِ التابعةِ للعلاَّمَةِ الْمُلاَّ حامِدِ العُمَرِيِّ فترةً، ونالَ حظًّا من اللغةَ العربيَّةَ وإن لم يُتْقِنْها حقَّ الإتقان، كما أنَّ لغتَهُ الكُردِيَّةَ ظَلَّتْ تَطْغَى على أسلوبِهِ، فكانت عِبَاراتُهُ ركيكةً معقَّدَةً غيرَ مُسْتَسَاغَةٍ، تبدو عليها القصورُ الأدبِيُّ والجفافُ والجمود... فإنَّ خُطْبَتَهُ الشامِيَّةَ التي ألقاها فوقَ منبرِ الجامعِ الأمويِّ لَتَشْهَدُ على هذه الحقيقة. لقد كانتْ الركاكةُ سائدةً على عباراتِها، فتركتْ آثارًا من الْمَلَلِ على وجوه العلماءِ الذين كانوا آنذاكَ يستمعونَ إليه. فَأَحْرَجَهُ ذلكَ، وتركَ في نفسِهِ حسرةً إلى حدٍّ كلَّفَ مَنْ يُعِيدُ كتابَةَ هذهِ الخُطْبَةِ من جديدٍ، ويُكَيِّفُهَا، ويزيلُ الغرابَةَ من عباراتِهَا بعد عشراتِ سنين مضتْ على زيارَتِهِ لِدِمَشْقَ!

تعرّض النُّورْسِيُّ لأشكالٍ من الإهانةِ والتهكُّمِ أيَّامَ دراسَتِهِ في مدينة أَسْعِرْدَ مِنْ قِبَلِ الطَّلَبةِ المتطرِّفين الذين أَفْسَدَتْهُم العقيدةُ النقشبنديَّةُ. ذلك أنَّ النورسيَّ كان ينصحُهُم ويُنَبِّهُهُمْ على خطورةِ ما يعتقِدونَ من الأباطيلِ التي تُفضِي بهم إلى الإشراكِ بالله، ويُحَذِّرُهُمْ مِمَّا يعتادونَ من البِدَعِ وطقوسِ مجوسِ الهندِ، فينهالونَ عليه بالضربِ والشتائِمِ. فلم يسعهُ الْمُقامُ هناكَ. فغادرها. لكنَّهُ ظَلَّ يكتُمُ أسرارَ هذه المرحلةِ من حياتِهِ، فلم يَكْشِفْهَا لأحدٍ غير القدرِ الذي قصَّهَا على صديقه الشيخ سعد الله أفندي (مفتي مدينة آغري).

انتقل سعيدٌ إلى مدينة ماردين، إلاَّ أنَّ والِيَ المدينةِ أجبره على مغادرتِها، فعادَ إلى أَسْعِرْدَ ومنها إلى بِتْلِيسَ بتوصيةٍ من الشيخ إبراهيم النُّوَيْنِيِّ الشِّيرْوِيِّ (خليفةِ الشيخ محمّد الحزين الهاشِمِيِّ)، فانخرطَ هناكَ في مدرسة الشيخ محمّد الكُفْرَوِيِّ ودرسَ مدّةً قصيرةً تحت إشرافِ الشيخ أمين النُّوَيْنِيِّ (خليفةِ الكُفْرَوِيِّ وشقيقِ الشيخ إبراهيم النُّوَيْنِيِّ). إلاَّ أنَّ هذه البيئةَ لم تلائِمْهُ. لأنَّها أيضًا كانتْ تحتَ سيطرةِ أسرةٍ نقشبنديَّةٍ حيث تُقامُ فيها طقوسٌ هندوسيَّةٌ، فغادرها وسافر إلى مدينةِ (فان Van)، وأقامَ فيها يتَّصلُ ببعضِ أهلِها الْمُثَقَّفِينَ الأتراك يلتمسُ المساعدةَ لِيُعَلِّمُوهُ اللُّغَةَ التُّرْكِيَّةَ، فوجدَ ضالَّتَهُ في أحد مُدَرِّسِي الإبتدائية بمساعدة والي المدينة طاهر باشا، فَأَتْقَنَهَا بفضلِهِمَا في فترةٍ قصيرة. ملكَ ناصيةَ النطقِ بعد ذلك وأحسَّ في نفسِهِ بجرأةٍ بالغةٍ، فأصبح يُطِلُّ على عالمٍ مُضِيءٍ لا يَتَحَمَّلُ أن يتناغمَ مع تلك البيئةِ المظلمةِ التي يقيم فيها. دخلَ في مرحلةٍ جديدةٍ من حياتِهِ التي قضاها في صراعٍ مع نفسِهِ ومع غيرِهِ. فأسرعَ إلى إسطنبول عاصمةِ الخلافةِ ومُعْتَرَكِ السياسة ليخوضَ مثارَ نقعِها، ويتسابقَ صناديدَها، ويُنافِسَ عفاريتَها...

أقامَ فترةً في (خَان شَكَرْجِي) بجوارِ جامع السلطان محمد الفاتح وقد أخذَ برأسِهِ جنونُ العظمةِ، فعلَّقَ على بابِ حُجرتِهِ لوحةً عليها إعلانٌ (باللغة التُّرْكِيَّة) وهذا نصُّهُ مُعَرَّبًا: "هنا يُعالَجُ كُلُّ مُشكِلٍ ولكن لا يُوَجَّهُ سؤالٌ إلى أَحَدٍ. المصدر، والنص الأصليُّ للعبارة:"

«Burada her müşkil halledilir; her suale cevap verilir, fakat sual sorulmaz.» (Tarihçe-i Hayat, 47, İlk Hayatı.)

إذا دلَّتْ هذه الكلماتُ على شيءٍ فإنَّمَا تدلُّ على مدى اغترار النورسِيِّ بنفسِهِ. إذ يُعلِنُ أنه محيطٌ بكل شيءٍ علمًا، ولا يحتاج إلى سؤالِ غيرِهِ على الإطلاق! فَقَبَضَتْ عليه السلطاتُ العثمانيَّةُ عام **1907**م. وأَحَالَتْهُ إلى مستشفَى ألأمراضِ العقليَّةِ والنفسِيَّةِ لعلَّ ذلك بسببِ مثل هذه التصرفاتِ الغريبَةِ. وهذه كلماتُ النورسِيِّ باللُّغة التُّرْكِيَّة يتحدّثُ بها عمَّا جرى معه بواقعيَّةٍ، فيقول:

Kırk sene evvel ehl-i siyaset, bana bir cinnet-i muvakkate isnadıyla tımarhaneye sevkettiler. Ben onlara dedim: Sizin akıllılık dediğinizin çoğunu ben akılsızlık biliyorum, o çeşit akıldan istifa ediyorum: (Şualar | On Üçüncü Şuâ | 303

مَآلُهَا بالعربية: "أهلُ السياسَةِ سَاقُونِي إلى دارِ المجانينِ قبل أربعين عامًا، بِإِلْصَاقِهِمْ بِي: (الجنونَ المؤَقَّتَ)، فقلتُ لهم: إنَّ ما تَرَوْنَهُ عقلانيًّا، فإنِّ أَرى أكثرَها غيرَ مطابقٍ للعقلِ وأَتَبَرَّأُ منه." (المصدر: الشُّعَاعَات، الشُّعَاعُ الثالث عشر)

ثم يستطردُ النورسِيُّ فيقول:

"وفي النهايةِ سُحِبْتُ إلى دارِ المجانينِ بأمرٍ من المغفورِ له السلطان عبد الحميد نتيجةَ وشايةِ مُنَافِسِيَّ..." (المصدر: الشُّعَاعَات، الشُّعَاعُ الرابع عشر). هذه كلماتُهُ باللغة التُّرْكِيَّة:

Nihayet rakiplerimin ifsadatıyla, merhum sultan hamid'in emriyle tımarhaneye kadar sürüklendim. (Şualar | On Dördüncü Şuâ | 426

اشترك النورسِيُّ في محاولة الإطاحةِ بالسلطان عبد الحميد الثاني، تعاونَ في هذه المحاولةِ مع حزبِ الاتِّحاد والترقِّي. سافر إلى سالونيك وَالْتَقَى بالنائب اليهودِيِّ (عمانويل قراصو) للمشورة.

(المصدر: الموسوعة الأكترونية: ويكيبيديا http://tr.wikipedia.org/wiki/Said_Nurs%C3%AE)

اعتُقِلَ في أعقابِ ثورة **31** مارس **1323**هـ الموافق: **13** أبريل **1909**م. مع جماعةٍ من أعضاءِ حزبِ الاتِّحادِ المحَمّدِيّ. ستَّةَ عشرَ منهم أُعْدِموا، أمَّا سعيدُ النورسِي فصدر الحكمُ ببرائتِهِ!

سافرَ إلى دِمَشْقَ وألقَى خطبةً على منبر الجامع الأمويّ سنة **1911**م. عادَ إلى المنطقة الكردية قُبَيْلَ الحربِ العالميَّةِ الأولى. جمع حوله ثلَّةً من الناسِ لمنافسةِ شيوخِ الطريقة النقشبنديَّةِ الذين خرجَ كلٌّ منهم على رأسِ جمهورٍ من مريديه لمقاومةِ قُوَّاتِ الإحتلالِ الروسِيّ، فأبى أنْ يدخلَ تحتَ رايةِ أحدِهِمْ لِمَا في نفسِهِ من الكراهيَّةِ لهم. وقع في أسرِ القُوَّاتِ الروسيَّةِ عام **1915**م. فأحيلَ إلى معسكر الأسرى في كوستروما Kostroma الواقعةِ على مسافةِ **320** كم. شَمَالَ شرقِي مدينةِ موسكو. مكثَ هناكَ عامين وأربعةَ أشهر. ثم أُطْلِقَ سراحُهُ وفقًا لشروطِ معاهدة **Brest Litovsk** التي تم اعتمادُها بين روسيا وألمانيا، والإمبراطورية النمساوية–المجرية والدولة العثمانية في **03**/مارس/**1918**م. أما روايةُ بعضِ المتحدِّثِين عن هذه الواقعةِ بأنه خرجَ هاربًا يوم **24** يونيو عام **1918**م. حتى وصلَ إلى إسطنبوا بعد أنْ مرَّ على وَارْسُو، وفِيَنَّا وصُوفْيَا، فلا أساسَ له من الصحة.

انضمَّ إلى الهيئةِ العلميَّةِ بِدَارِ الحِكْمَةِ الإسلاميَّةِ يوم **18** أغسطس **1918**م. واستمرَّت عضويَّتُهُ فيها إلى سنة **1922**م. ثم غادر إسطنبول (وهي محتلَّةٌ) قاصِدًا أنقره. استقبله مصطفى كمال في مجلسِ الشعبِ يوم **09** نوفمبر **1922**م. ألقى كلمةً في مجلسِ الشعبِ، انتقدَ فها النُّوَّابَ تَهَاوُنَهُمْ بالصلواتِ المفروضةِ فأثارَ بذلك غضبَ مصطفى كمال وأعوانِهِ. أدَّى ذلك إلى نشوبِ الخلافِ بينهما وانتهى بالفِرَاقِ والتنافُرِ.

عادَ النورسِيُّ إلى المنطقةِ الكرديَّةِ فلم يمكث طويلاً حتى اندلعتْ ثورة الشيخ سعيد البالوي. كان النورسِيُّ مِمَّن يُحْسَبُ له حسابٌ، فنُسِبَتْ إليه التهمةُ بأنَّهُ كان متلبِّسًا بالعصيانِ، فحُكِمَ عليه بالإقامةِ الجبريَّةِ في مدينةِ بوردور Burdur. استمرَّت معاناتُهُ بعد ذلك بين سجنٍ وتغريبٍ طيلةَ **25** عامًا إلى أنْ وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ في مدينة (أورفا) يوم **23** مارس **1960**م.

كان سعيدٌ شخصًا مغامرًا لكنَّهُ ناجحًا في تحقيقِ أهدافِهِ رغم تلك الأحداثِ الخطيرة التي تقلَّبَ بين أمواجها. فاقَ أقرانَهُ في جذبِ القلوبِ، وكان له أسلوبٌ خاصٌّ في التدليس وَغسلِ الدماغِ بطُرُقٍ عديدةٍ مِنْ سحرِهِ وتلوُّنِهِ وأفاعيله... وكان مع ذلك حَذِرًا محتاطًا. تحرَّشَ به رجلٌ من رؤوسِ النقشبندِيِّين يُدعى عبد الحكيم الأرواسي، غير أنَّ النورسِيَّ تَجَنَّبَ الإصطدامَ بهذهِ الطائفَةِ، فلم يتطاولْ عليهم تَوَقِّيًا من شرورهم، لكنَّهُ نبَّهَ على خطرهِمْ بكلمةٍ وجيزةٍ وهي قَوْلتُهُ:

"هذا العصر ليس عصرَ الطريقَةِ، وإنَّمَا هو زمانُ إنقاذِ الإيمانِ. كثيرٌ دخلوا الْجَنَّةَ دون انتسابٍ إلى الطريقة، لكنَّهُ لم يدخل الْجَنَّةَ أحدٌ عديمُ الإيمانِ. هذه كلماتُهُ المقتَبُسةُ من أصلِهَا بالتُّرْكِيَّةِ:

Zaman tarikat zamanı değil, imanı kurtarmak zamanıdır. Tarikatsız Cennete giden pek çok, fakat imansız Cennete giden yoktur. (Risale-i Nur Külliyatı, Mektubat, Onaltıncı Mektup.

استطاعَ النورسِيُّ في فترةٍ وجيزةٍ أن ينالَ شهرةً غيرَ مسبوقةٍ. طارَ صيتُهُ في الآفاقِ، وأصبحَ يشارُ إليه بالبنان، وأُطلِقَ عليه عنوان "بديع الزمان!"، والحال هذا، يستحيلُ يومئذٍ على مستوَى المجتمع أن يَخْطُرَ على بالِ أحدٍ هذه الكلماتُ المزخرفةُ بسببِ الجهلِ المطبق، وَالْعُجْمَةِ السائدةِ على القرائحِ باختفاءِ اللغة العربية، وانتشارِ التقليدِ الأعمى... مِمَّا يدلُّ على أنَّ النورسِيَّ هو الذي أوعز إلى بطانتِهِ أن يذكروه بهذه الصفةِ ويفخِّموه ويُعَظِّمُوا شأنَهُ... كما يُبرهن أيضًا على مهارتِهِ في كسبِ الشهرةِ بالسيطرةِ على عقولٍ ساذجةٍ خاضعةٍ لِسِحْرِهِ وَأَلاَعِيبِهِ التي استخدمَ فيها أسلوبًا معقَّدًا تتسلسلُ فيه تركيباتٌ مُصَاغَةٌ من ألفاظٍ عربيَّةٍ قَلَّ مَنْ يَفْهَمُهَا من القُرَّاءِ الأتراك! تحذلق النورسِيُّ باسْتِعْمَالِ الأَلْفَاظِ الْعَوِيصَةِ وَمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِ، واستعرَضَ الْبَلاَغَةِ، وتفنَّن في إظهارِ الْحِذْقِ وَالْمَهَارَةِ وعُمْقِ النظرِ وسِعَةِ الإِطْلاَعِ وَغزارةِ الْمَعْرِفَةِ في كلِّ عباراته.

لقد كان النورسِيُّ جريئًا في الغايةِ، وَلِعًا بالتعمية وإضمار المعاني في عباراته لتسحير العقول، طامِعًا في السيطرةِ على النفوسِ، جامحًا راكبًا هواهُ في المُحاجَّةِ والجدالِ، نازعًا إلى العنفِ ومغالبة الخصومِ... تشهد كلماتُ مُتَرْجِمِهِ على هذه الطبيعةِ الراسخةِ في كيانه، يقول:

"أهلُ القرية ومعهم الطلبةُ كانوا قد خرجوا إلى هضبةِ (شيخان) للاستراحةِ وَشَمِّ الهواءِ في موسم الصيف. هناكَ شَاجَرَ (سعيدٌ) أخاه عبدَ اللهِ، فنهره أستاذُ مَدْرَسَةِ (تَا غ)، محمد أمين أفندي قائلاً:"

"– لماذا تعصي أخاكَ!"

نجح سعيدٌ في جذبِ عقولٍ متخلِّفةٍ، فَانْكَبَّتْ شرذمةٌ على قراءةِ خربشاتِهِ وملاحظاتِهِ التي عبث فيها بالآياتِ القرآنيَّةِ عبر تفسيراتِهِ الغامضةِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّة، ثُمَّ طُبِعَتْ تحتَ عنوانِ "رسائل النور". فاشتهرتْ أخيرًا في سوقِ الكتُبِ! تحتفلُ بها جماعةٌ متطرِّفةٌ منذ نصفِ قرنٍ عُرِفَتْ بـ"النورجِيَّةِ" أو "النورسِيَّةِ"

يدندن المغترُّون بالنورسِيّ: أنَّه كان عالِمًا فذًّا منقطعَ النظيرِ، فاضِلاً، ورِعًا، وليًّا من أولياءِ اللهِ، مجاهِدًا في سبيلِهِ، حربًا على أعدائِهِ، لم تمنَعْهُ من قولِ الحقّ لومةُ لائِمٍ... إلى غير ذلك من ضروبِ الثناءِ عليه، والمبالغةِ في مدحِهِ، وإطرائِهِ. غير أنَّ هؤلاءِ المدَّاحين، لا يكلِّفُ أحدٌ منهم نفسَهُ بالعودةِ

"فَرَدَّ عليه (سعيدٌ)؛ – باعتبارِ إقامتِهِ في المدرسةِ الشهيرةِ التي يَؤُولُ أمرُهَا إلى الشيخ عبد الرحمن – رَدَّ على أساتاذِهِ قائلاً:" – سيِّدِي، إنَّكَ أنت أيضًا تلميذٌ مِثْلِي في هذه التَّكِيَّةِ، إِذَنْ ليس لك أن تحتلَّ منصبَ مُدَرِّسٍ هُنَا!" وهذه كلمات المترجم باللغة التُّرْكِيَّة:

Yaz olması dolayısıyle, ahali ve talebelerle birlikte Şeyhan Yaylâsına gittiler. Orada, biraderi Molla Abdullah ile bir gün döğüşmüş. Tâğî Medresesi Müderrisi Mehmed Emin Efendi, Küçük Said'e:

-Ne için kardeşinin emrinden çıkıyorsun? diye işe karışmış.

Bulundukları medrese, meşhur Şeyh Abdurrahman Hazretlerinin olması dolayısıyle, hocasına şu yolda cevap verir:

-Efendim, şu tekyede bulunmak hasebiyle, siz de benim gibi talebesiniz. Şu halde burada hocalık hakkınız yoktur! (Tarihçe-i Hayat, 32, İlk Hayatı.:المصدر)

لم يَقِفْ سعيدٌ عند هذا الحدِّ في تَصَرُّفَاتِهِ العنيفةِ، بل تجاوزه بالتهديدِ واستعمالِ السلاحِ. ورد في ترجمته:

"... إنه وصل إلى (غَيْدَا) حيث يقيمُ بها المشائخُ العظامُ، فما لبث حتى قاتل هناك صاحبَهُ الْمُلاَّ محمّد أفندي. فلمَّا شَهَرَ الْمُلاَّ محمد الخنجرَ عليه، أسرع إلى فأسٍ وقع عليه بصرُهُ. أسفر العراك عن إصابة تلميذٍ بجراحٍ، فترك الدراسةَ وعادَ إلى مقرِّ أبيه". وهذه كلمات المترجم باللغة التُّرْكِيَّة في قصته:

Oradan kalkarak meşayih-i âzam mevkii bulunan Gaydâ kasabasına gelir. Orada dahi arkadaşı Molla Muhammed Efendi ile döğüşerek, Molla Muhammed'in hançer çekmesi üzerine gözüne iliştiği baltaya sarılır. O sırada diğer bir talebe başından yaralı düşünce, medrese hayatını terkle pederleri nezdine gelir. (İctimâi Reçeteler I, 9, Tarihçe-i Hayat/Latife) :المصدر

طموحاتُ النورسِيّ اللاَّمحدودةُ سَحَبَتْهُ منذ عنفوان شبابه إلى أتونِ الفِتَنِ السياسيَّةِ. أقحمَ نفسَهُ في غمارِ أحداثٍ خطيرةٍ، وتصدَّى لكلِّ مسألةٍ بآرَائِهِ المتميِّزةَ المخالفةِ للقياس في الأغلب، كان يستعرضُ بذلك علوَّ هِمَّتِهِ، ويتبجَّحُ ويراوغُ في كلامِهِ ويتشدَّق بأسلوبِهِ المعقَّدِ لِيُعْجِبَ به الناسُ وينبهروا بذكائِهِ الفائق!...

كانت حياتُهُ كلُّها مغامرةً ورِهَانًا وعراكًا وسِبَاقًا وَمُنافسةً ووشايةً وخيانةً... لأنَّه كان مجبولاً على الإعتراضِ والرفضِ والبحث عن العيوب في كل شيءٍ، عَالَمُهُ الدَّاخِلِيُّ الغامضُ لم يعرف الهدوءَ، لم يَشْفِ غليلَهُ من النقاشِ والجدالِ طوالَ عمره. لعلَّ هذه السجيَّةَ هي التي ثَبَّطَتْهُ عن الزَّوَاجِ، كما أنبتتْ في قلبِهِ الكراهِيَّةَ ضِدَّ الشيوخِ النقشبندِيّين الذين احتقروه واستهانوا به. وإلاَّ فإنَّهُ كان يلتقي معهم في النُّزوعِ إلى البِدعِ والشعوذةِ والزندقة.

ما كان سعيدٌ متواضعًا لحظةً في حياتِهِ، لم يَرَ أحدٌ ابتسامةً على وجهه. تصدَّى لِمَهامّ لم يكن من أهلِها. حاولَ دائِمًا أن يفرِضَ نفسَهُ على كلِّ مَنْ جَمَعَ القدرُ بينهما. لأنَّه كان يَرَى لِنفسِهِ فضلاً على كلِّ ذِي علمٍ، ومَنْزِلةً فوقَ كلِّ ذي جاهٍ. اتَّخَذَ موقفًا مُسْتَعْلِيًا من كلِّ مَن خاطَبَهُ وكان صارمًا في ذلِكَ شديدَ الخصومةِ والجدالِ. فَهَابَتْهُ النفوسُ إمَّا اتِّقاءَ شَرِّهِ، وإمَّا انبهارًا واغتباطًا بمهارتِهِ في إذلالِ المخاطَبِ.

إلى ضميرِهِ فيتسائلَ: هل في وسعِهِ أن يأتِيَ ببيّنةٍ واحدةٍ فحسب، ليُثبِتَ بها: أنَّ هذا الرجلَ هو في الحقيقةِ متَّصفٌ بكلِّ هذه النعوتِ! نعم، من أين للنورسِيَّةِ وغيرِهم من مدَّاحِيهِ أنْ يخلعوا عليه هذه الصفاتِ دون أنْ يملكوا حتَّى دليلاً واحِدًا لإثباتِها. وما برهانُهُم في دعواهم أنَّ سعيدًا النورسِيَّ أعلمُ الناسِ قاطبةً، وأنَّهُ يمتازُ بالكراماتِ الباهرة، وأنَّهُ تبوَّأ في الجنَّةِ منزلاً؟! أليس كل ذلك رجمًا بالغيب، وخروجًا على ضوابطِ الإسلام؟ فكيف بهؤلاءِ يتحمَّلون هذه المسؤوليَّةَ الخطيرةَ ويتجاهلون أن الغيبَ كُلَّهُ لله. ولماذا يُخْفُونَ بعضًا من دجلياتِهِ فيما بينهم ويتواطئون عليها، ويكتمونها؟..

***

كان النورسِيُّ رجلاً عاطفيًّا في الغايةِ، ادَّعى "أنّ المصحفَ الذي أمرَ بِنَسْخِهِ هو طِبْقُ أصلِ القرآن المكتوبِ في اللَّوحِ المحفوظِ". وهذه كلماتُ مترجِمِهِ (بعدَ التعريب) عن قصَّةِ المصحف:

"رغم أنَّ أحدًا لم يستطعْ أن يكتبَ القرآن هكذا بصورةٍ خارقةٍ للعادةِ منذُ العهدِ النبوِيِّ، فإنَّ بطلاً من كُتَّابِ "رسائلِ النور" يُدعى (خُسْرَوْ) قد استطاعَ أن يكتُبَ نسخةً منه طِبْقَ أصلِهِ المكتوبِ في اللَّوْحِ المحفوظِ وفق ما أوحِيَ إليه". وهذه كلماتُهُ باللُّغةِ التُّرْكِيَّة.[116]

(Kur'an'ın) Asr-ı Saadetten beri böyle hârika bir sûrette mu'cizeli olarak yazılmasına hiç kimse kadir olmadığı halde Risale-i Nur'un kahraman bir kâtibi olan Hüsrev'e "yaz!" emir buyurulmasıyle، Levh-i Mahfuzdaki yazılan Kur'an gibi yazılması.

***

كتب سعيدٌ ما يربو عن مائةِ رسائلَ في تفسرِ آياتٍ قرآنيَّةٍ بأساليب مُلْتَوِيَةٍ فيها أشكالٌ من الدَّجَلِ وَإِلْبَاسٌ لِلحقِّ بالباطلِ. يزعمُ الذين يبالغون في تعظيمِهِ أنَّه حاولَ في هذه الرسائِلِ أنْ يُحْبِطَ جهودَ المُلْحِدِين ويُضيئَ طريقَ الإيمانِ للمجتمعِ في مواجهةِ تلاعبِ العَلْمَانيِّين والكماليِّين بِالدِّين. إلاَّ أنَّ هذه الرسائِلَ هِيَ الأخرى أَفْسَدَتْ عقيدةَ ملايينِ الناسِ بما تحملُ بين طيَّاتِها من الأباطيلِ والأكاذيبِ ما يصعب حصرها. لذا تأهَّبَ عددٌ من العلماءِ لتنبيهِ الناسِ على خطورةِ هذهِ الرسائلِ في تحريفِ حقائقِ الدِّين، لكنَّهم تعرَّضوا لتهديداتِ أنصارِ النورسِيِّ، فلم يُفلح أحدُهُمْ.

[116] المصدر:
(Âsâ-yı Mûsa, 85, Meyve Risalesi/Isparta'daki umum Risale-i Nur Talebeleri namına Ramazan tebriki münasebetiyle yazılmış ve onüç fıkra ile ta'dil edilmiş bir mektuptur.)

مِنْ ذكاءِ النورسِيّ أنَّهُ كشفَ أسرارَ عقلِيَّةِ المجتمعِ، وأدركَ أنَّ هذا الشعبَ يحتقِرُ الصراحَةَ والسهولَةَ ويُعجِبُ بكلِّ غامضٍ ومُشْكِلٍ، ويَنْبَهِرُ بكلِّ صعبٍ ومُتَحَجِّرٍ... فَتَنَبَّهَ إلى أَنَّهُ لن يَحْظِيَ من الشهرةِ شيئًا إنْ هو التزمَ جانبَ الصراحةِ في أسلوبِهِ وأقوالِهِ وتعبيرِهِ. فعكفَ على تفسيرِ آياتٍ قُرآنيَّةٍ بتأويلاتٍ غريبةٍ عبر جُمَلٍ طويلةٍ وصياغةٍ متلبِّدةٍ، وأفَرَغَ جهودَهُ مستميتًا ليجعلَ من كلماتِهِ ألغازًا لا يستطيعُ أحدٌ أن يَفُكَّها إلاَّ بعد عناءٍ مُعَنًّى ونصبٍ منصَّبٍ، لا يكادُ القارئُ يعلمُ أين يقعُ المبتدأ وأين يقعُ الخبر فيها. فاستطاعَ بذلك أن يصطادَ العقولَ الساذجةَ ويستغِلَّ جمهورًا من الناسِ، فزيَّن لهم أعمالَهُ بِلِبَاسِهِ العجيبِ، ونَزَوَاتِهِ وتصرُّفاتِه الْمُلْفِتَةِ، ومخالفاتِهِ للمألوفِ لكيْ يَغْبِطُوهُ ويُعَظِّموهُ ويتَّخذوا منه صنمًا يُعبَدُ، فحظِيَ بذلك حضورًا وشهرةً فاقَ بها جميعَ خواجواتِ الأتراك، وشيوخِ الصوفِية.

كان سعيدُ النورسِيُّ مُدَلِّسًا خلاَّطًا، جمعَ بين الحقِّ والباطلِ في ثنايا عباراتِهِ، ونَظَمَ الأضدادَ في سلكٍ واحدٍ وَضَفَرَهَا بأشكالٍ من الحِيَلِ ضِمْنَ صياغةٍ يتخفَّى الباطلُ منها وَرَاءَ ضَبَابِهَا في الْوَهْلَةِ الأولى ويتغيَّبُ بين تجاعيدِها، فيتخطَّاها ضُعَفَاءُ الْعلمِ وقليلوا الحظِّ مِنْ هَدْيِ الكتابِ والسنَّةِ، فينشغلُونَ بما يظهرُ فيها من بصائصِ الحقِّ فحسب، ويغفلُونَ عن أباطيلِهِ فيغترُّون به. وهذه مقاطع من ضلاَلاَتِهِ:

ورد في إحدَى مدوَّناتِهِ بعنوان: "مصير الابرياءِ من الكفارِ في البلايا"، يقول:

"لقد مسَّ مسًّا شديدًا مشاعرِي وأحاسِيسِي المفرطةِ في الرأفةِ والعطفِ ما أصابَ الضعفاءَ المساكين من نكباتٍ وويلاتٍ ومجاعاتٍ ومهالكَ من جَرَّاءِ هذه الطامَّةِ البشريَّةِ التي نزلتْ بهم، وفي هذا الشتاءِ القارِسِ... ولكن على حين غَرَّةٍ نُبِّهتُ الى: أنَّ هذه المصائبَ وأمثالَهَا ينطوي تحتَها نوعٌ من الرحمةِ والمُجازاةِ – حتى على الكافِرِ – بحيث يهوِّنُ تلك المصيبَةَ، فتظلُّ هيِّنَةً بسيطةً بالنسبةِ اليهم. وأصبح هذا التنبيهُ مَرْهَمًا شافيًا لإشفاقِي المؤلمِ على الأطفالِ والعوائِلِ في أوروبا وروسيا، رغم أنَّني لم أتلقَّ شيئًا عن أوضاعِ الدنيا وأخبارِ الحربِ منذ بضعةِ أشهر.

نعم، إنَّ الذين نزلتْ بهم هذه الكارثةُ العُظمَى – الَّتي ارتكبَها الظالمون – إنْ كانوا صِغارًا وإلى الخامسة عشرة من العمر، فهم في حُكْمِ الشهداءِ، من أيِّ دينٍ كانوا. فالجزاءُ المعنويُّ العظيمُ الَّذي ينتظرُهم يهوِّن عليهم تلك المصيبَةَ.

أمّا الذين تجاوزوا الخامسةَ عشرةَ من الْعُمُرِ، فإنْ كانوا أبرياءَ مظلومين، فلهم جزاءٌ عظيمٌ ربما يُنْجِيهِمْ من جهنَّمَ، لأنَّ الدِّين – ولاسيما الاسلامَ – يَسْتُرُ بِستارِ اللاَّمُبَالاَةِ في آخر الزمان، وإنَّ الدِّينَ الحقيقِيَّ لسيِّدِنَا عيسى عليه السلام سيحكم ويتكاتف مع الاسلام. فَيُمْكِنُ القولُ بلا شكٍّ أنَّ ما يُكابِدُهُ المظلومون من النصارى المنتسبين إلى سيِّدِنَا عيسى عليه السلام، والَّذين يعيشون الآن في ظلماتٍ تُشبهُ ظلماتِ "الفترة" وما يقاسونه من الويلاتِ، تكون بحقهم نوعًا من الشهادةِ. ولاسيَّما الكهولُ، وأهلُ النوائِبِ، والفقراء، والضعفاء، المساكين الذين يقاسون النكباتِ والويلاتِ تحت قهرِ الْمُسْتَبِدِّينَ والطغاةِ الظالمين...

وقد بلغتني من الحقيقةِ: أنَّ تلك النكباتِ والويلاتِ كفَّارةٌ بحقِّهم من الذنوب الْمُتَأَتِّيَةِ من سفاهاتِ الْمَدَنِيَّةِ وكفرانها بالنِّعَمِ، ومن ضلالاتِ الفلسفةِ وكفرِها، لذا فهي أربحُ لهم مئة مرة.

وبهذا وجدتُ السُّلْوَانَ والعزاءَ من ذلك الألم المعذِّبِ النابعِ من العطفِ المُتزايدِ، فشكرتُ الله شكرًا لا نهاية له."[117]

***

لقد أظهر النورسِيُّ عَبْرَ هذه الكلِماتِ عقِيدَتَهُ المنافِيةَ لنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ بشأنِ الكفارِ، لكنَّهُ حاولَ من خلالِ هذا الإسهابِ والحشوِ الكلامِيِّ والصياغةِ الماكرةِ أنْ يُرِيكَ ضعيفَ العلمِ وهجِينَ العقيدةِ ليتظاهرَ بذلك في ثوبِ رجلٍ رؤوفٍ رحيمٍ شَفيقٍ على خلقِ الله! فقد جمع هنا بين الحقِّ والباطل ضِمْنَ سطورٍ متضافرةٍ للتَّعْمِيَةِ. أمَّا الحقُّ من ذلك فهو: "الرحمةُ بالمنكوبين والمظلومين؛ وأنَّ أهلَ الْغَرْبِ ارتكبوا سفاهاتٍ وتلطخوا بضلاَلاَتِ الفلسفةِ وَكُفْرِهَا"، لقد صدق النورسِيُّ في هذا البيان كلِّهِ. وأمَّا الباطلُ من كلامِهِ، فهو: "اعتبارُ قَتْلَى الكفَّارِ شهداءَ؛ والمظلومين منهم أَهلَ الجنَّةِ؛ وَأنَّ تلك النكباتِ والويلاتِ التي ذاقوا آلامَها كفَّارةٌ بحقِّهم".

والله تعالى يقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ. (البينة/6)؛ ويقول تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا

---

[117] المصدر: ملحق قسطموني، ص/149، 150.

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ. (النور/39، 40). ويقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. (آل عمران/91). كل هذه الآيات (وكثيرٌ غيرُها في كتاب الله)، مُطْلَقَةٌ لا قيدَ عليها.

نعم، إنَّ أهلَ السلمِ من الكُفَّارِ (بخاصَّةٍ أهلَ الذِّمَّةِ منهم)، حقٌّ على المسلمين معاملتُهم بالحُسْنَى. أمَّا هذا، فلا يعني أنَّ اللهَ يغفرُ لهم وَيُدْخِلُهُمْ الجنةَ. وقد بيَّن اللهُ مصيرَهم في دارِ الآخرةِ. لكنَّ ظاهرةً خطيرةً انتشرتْ في عصرِنا بين عوامِّ المسلمين، فَحْوَاهَا: أنَّ الإسلامَ دينُ الرحمةِ، وأنَّ اللهَ إنْ يشأْ يغفرْ للكافِرِ إذا حسُنتْ أفعالُهُ وصلُحَتْ أعمالُهُ، إلى غير ذلك من هفواتٍ... إنَّ فريقًا من هؤلاءِ تصدُرُ عنهم مثلُ هذه الهذياناتِ عن جهلٍ، فلا اعتبارَ لأقوالِهِم. أمَّا سعيدُ النورسِيُّ، فإنَّهُ لم يكن جاهلاً، فيتحرَّى له المعذرَةَ أحدٌ من أهلِ العلم، بل كان متعمّدًا في تمنّياتِهِ للكُفَّارِ كما يظهرُ من أقوالِهِ.

***

يقول النورسِيُّ في كتاب له بعنوان (اللَّمَعَات):

"اعلمْ أنَّ علمَ الجَفْرِ يُشغِلُ الانسانَ عن وظيفتِهِ الحقيقيَّةِ ويصرِفُهُ عنها، لِمَا فيهِ من ذوقٍ وَوَلَع. حتَّى كانتْ تُحَلُّ لي أسرارٌ تخصُّ القرآنَ بذلك المفتاحِ لِمَرَّاتٍ عِدَّةٍ، ولكنْ ما إنْ اتوجَّهُ إليهِ بشوقٍ وذوقٍ حتَّى تُوصَدُّ الابوابُ دوني. فوجدتُ في هذا الأمرِ حِكْمَتَيْنِ:
الاولى: احتمالُ الوقوعِ في موضعٍ ينافِي الادبَ اللاَّئِقَ بالقاعدةِ الاساسيَّةِ: "لا يعلم الغيب الاّ الله".

والثانية: إنَّ العملَ على إرشادِ الأُمَّةِ إلى حقائقِ الايمانِ والقرآنِ بوساطةِ البراهينِ الدامغةِ، له من الفضائلِ والمزايا ما يفوقُ مائةَ درجةٍ على العملِ بارشادِهِمْ بالعلومِ الخفيَّةِ كعلمِ الجفرِ. حيث أنَّ الحججَ القاطعةَ والدلائلَ الثابِتَةَ لا تَدَعُ مجالاً لِلْمُدَاخَلَةِ في تلك الوظيفةِ السامية. بينما علم الجفر وأمثاله من العلوم الخفيَّةِ غير المنضبطةِ بِقَوَاعِدَ مُحْكَمَةٍ، قد يُسَاءُ استعمالُهُ بولوج الماكرين فيه. علمًا أنَّهُ متى ما احتاجَ الامرُ اليهِ لِخدمةِ الحقائقِ، فانَّ اللهَ سبحانه يفتحُ علينا نبذَةً منه حسب الحاجة."[118]

---

[118] المصدر: اللمعات/ اللمعة التاسعة.

تجدون الحقَّ والباطِلَ أيضًا مُجْتَمَعَيْنِ، متداخلَيْنِ في هذه الصياغةِ؛ ينبِّهُ النورسِيُّ على خطورةِ علمِ الجفرِ، وضرورةِ التمسُّكِ بالبراهينِ في إرشادِ الأُمَّةِ، وهذا حَقٌّ لا مريَةَ فيهِ. لكنَّهُ عاد يقول بلباقةٍ: "علمًا أنَّهُ متى ما احتاجَ الأمرُ إليهِ لخدمةِ الحقائق، فانَّ الله سبحانه يفتحُ علينا نُبْذَةً منه حسب الحاجة..." يُبيحُ النورسِيُّ من خلالِ هذه المراوغةِ استعمالَ الجِفْرِ بهذه الحُجَّةِ الواهية، لأنَّهُ كان يصبوا إلى الشعوذةِ، يستعملُ الطَّلاَسِمَ، يَدَّعِي علمَ الغيب،[119] يعمد إلى تأويلِ الآياتِ القرآنيَّةِ بطريقةٍ لَغْزِيَّةٍ وباستعمالِ الرموزِ الجفريَّةِ على غرارِ الحروفِيِّين. له كتابٌ اسْمُهُ "مجموعةُ الطلاسم"، غير مطبوعٍ. لا يوافقُ أتباعُهُ على نشرِهِ، مخافةَ أن يُسِيءَ بِسُمْعَتِهِ!. كما له كتابُ آخر سمَّاه "سِكَّةَ تصديقِ الغيبِ" يضمُّ بين طياته من المساوي ما لا يسهل حصرُهُ. يجهلُهُمَا باحثوا العربِ الذين اهتمُّوا بحياةِ النورسِيّ وترجموا له وهم يجهلون اللُّغةَ التُّرْكِيَّة، مثل محمد سعيد رمضان البوطي[120]، وعبد الله الطنطاوي[121]. ويتجاهلهما فريقٌ منهم في تركيا لمجرَّدِ المصلحةِ الشخصية.

عُنِيَ النورسِيُّ بإطراءِ رسائِلِهِ في مواطنَ عديدةٍ منها. وقد لا يؤخَذُ المؤلِّفُ بذلك إذا كان عملُهُ موافِقًا للكتابِ والسنَّةِ، وأرادَ به الخيرَ والإصلاحَ والنفعَ للأمَّةِ، مع الإخلاصِ في القصدِ. إلاَّ أنَّ

---

[119] يقول النورسي: " تلقيتُ درسَ الحقيقةِ – على طريقةِ أويس القرني – مباشرةً من الامامِ عليٍّ رضي الله عنه بوساطةِ الشيخ الكيلانِيِّ (قدس سره)، والامامِ زين العابدين، والحسنِ، والحسينِ رضي الله عنهم، لذا فانَّ دائرةَ عملِنَا وخدماتِنا هي دائرتهم.

نستنتج من هذه الألفاظِ، ومِنْ جميعِ ماوردَ في رسائلِ سعيد النورسِيّ بالاستقراء: أنّه لم يكن على عقيدة أهلِ السنّة والجماعةِ، رغم صحّةِ قصدِهِ وإخلاصِهِ في الدفاعِ عن قِيَمِ الإسلامِ، وحربِهِ على العلمانيِّين والمارقين. إذ لا شكَّ في أنَّ كلَّ مَنْ حارَبَ الإلحادَ والمروقَ، لا يشترطُ فيه أن يكون هو على العقيدة الحنيفةِ ومن أهل الصلاحِ. بل قد يدافع الرجلُ عن الإسلام والقِيَمِ المقدَّسَةِ وهو فاسقٌ أو مبتدعٌ من أهلِ الأهواءِ. وهذا هو بيتُ القصيدِ والأمرُ الذي يرتبك فيه كثيرٌ ممَّنْ لم ينالوا نصيبًا وافرًا من المعرفةِ والرويَّةِ في أصولِ الدين.

[120] تناول البوطيُّ جوانبَ من حياةِ سعيد النورسِيّ، "اعتمادًا على مخطوطٍ كبيرٍ باللغة التُّرْكِيَّة وقع في يده عام **1961**م." كما سجَّله بالذّات في مقدّمتِهِ الخاصَّةِ بالنورسِيّ (ص/**157**). من بحثه الذي سمَّاه "شَخْصِيَّاتٌ اسْتَوْقَفَتْنِي". طبعَتْهُ دارُ الفكر المعاصر سنة **1999**م. وتمَّ نشرُهُ عن طريق مكتبةِ الأسدِ بدمشق. أقحم البوطيُّ نفسه في مثلِ هذا العملِ وهو غير مُتَمَكِّنٍ من اللّغة التُّرْكِيَّة على عكسِ ما كان يزعمُ أنَّه يُتقِنُها! وهذا ممَّا يثير الشكَّ في صدقِ ما ورد مِنْ محاولاتِهِ للإطراءِ بالنورسِيّ عبر بحثِهِ من غير مناسبةٍ ملحَّةٍ. كما ليس من الخفِيِّ ما يفاجئ القارئَ في أسلوبِهِ من أدبِ المراوغةِ والتنطُّعِ في جعل الحبَّةِ قُبَّةً حين يقول: "ولكنّي أكتفي لأن أؤكِّد للناسِ جميعًا، أنَّ الدفاعَ عن الحقِّ وعن أصحابِهِ، وأنَّ تصويرَ المواقفِ والمشاهدِ الإنسانيَّةِ وإبرازَهَا على النحو الإنسانِيِّ السليمِ لا يتمُّ شيءٌ من ذلك من خلالِ درايةٍ عقليَّةٍ جافَّةٍ، بل لا بُدَّ من إنضاجِهِ على وَقودِ العاطفةِ والوجدانِ. فمن حُرِمَ مِنْ هذا الوَقودِ حُرِمَ مِنَ الروح التي ينبغي أنْ يودعها في كلامِهِ وأفكارِهِ. وإذا انتهتِ الكلماتُ والأفكارُ إلى الآذانِ والأذهانِ منفصلةً عن جذورِ الروحِ وقفتْ عند دهليزِ كُلٍّ منهما ميتةً باردةً، لا تُصلِحُ فسادًا ولا تُقَوِّمُ اعوجَاجًا ولا تُقنِعُ مُنْكِرًا!. ومن حُرِمَ هذا الوَقودَ الوجدانِيَّ، حُرِمَ أيضًا معرفَةَ قيمةِ الرجالِ الرَّبَّانِيِّين الذين كانت لهم قدمَ صدقٍ عند ربِّهم" انتهى كلامُهُ (مقدمة الكتاب، ص/**12**).

يحاول البوطيُّ من خلالِ هذا الإستعراضِ المزخرفِ ليجعلَ من النورسِيّ "رجلاً من الرجالِ الربَّانِيِّينَ الذين كانت لهم قم صدقٍ عند ربهم!"، وهو يجهل أو يتجاهل ما ورد على لسان النورسِيِّ مِنْ شتّى صِيَغِ الإلحادِ، خاصَّةً في كتابِهِ الذي سمَّاه "سِكَّةَ تصديقِ الغيب". وهو مدوَّنٌ باللغةِ التُّرْكِيَّة، لا يتجرَّأ النورسِيُّونَ على تعريبه مخافةَ أن يُسِيءَ بسمعته في العالمِ العربِيِّ! كما للنورسِيّ كتابٌ آخر سماه "مجموعة الطلاسم" يضم أشكالاً من تأولاتٍ غريبة على الإسلام.

[121] عبد الله الطنطاوي، أيضًا من الكتّابِ العرب المعدودين الذين اهتمّو بحياة سعيد النورسِيّ. له مقالةٌ بعنوان "بديع الزمان" نشرت في مجلة المنار، العدد **63**، شوال **1423**هـ

النورسِيَّ تبنَّى استغلالَ العقولِ والضمائرِ كما يظهرُ من عباراتِهِ حينَ يزعمُ أنَّ في القرآن الكريم إشاراتٍ تدلُّ على أهمِّيَّةِ رسائِلِهِ (التي سمَّاها "رسائلَ النور"). يقول في إحدى زندقيَّاتِهِ:

" تذكّرتُ أوضاعَ طُلاَّبِ "رسائلِ النورِ" المندمجين في الحياةِ الاجتماعيَّةِ، وفكَّرْتُ في الوقتِ نفسِهِ في إشاراتٍ قرآنيَّةٍ وبشاراتِ الامامِ عَلِيٍّ والشيخِ الكيلانِيِّ حولَ نجاةِ طُلاَّبِ "رسائلِ النُّورِ" وكونِهِمْ من أهلِ السعادة."[122]

من ضلاَلاَتِ النورسِيِّ أيضًا: أنَّهُ كانَ مُعْجِبًا بمحي الدين بن عربي الذي رماه كثيرٌ من العلماءِ بالزندقةِ ودارَتْ حولَ عقيدتِهِ شُكوكٌ. يعتذرُ له النورسِيُّ ويحاولُ تَبْرِئَةَ ساحتِهِ بتأويلاتٍ واهِيَةٍ، فيقول:

"نعم، إنّ محي الدين بْنَ عربي مهتدٍ ومقبولٌ، ولكنَّه ليس بمرشدٍ ولا هادٍ وقدوةٍ في جميع كتاباتِهِ، إذ يمضِي غالبًا دون ميزانٍ في الحقائِقِ، فيخالِفُ القواعدَ الثابتةَ لأهلِ السنَّةِ، ويُفِيدُ بعضُ أقوالِهِ – ظاهرًا – الضلالةَ، غير أنَّهُ بريءٌ من الضلالةِ، إذ الكلامُ قد يبدو كفرًا بظاهرِهِ، إلاَّ أنَّ قائلَهُ لا يكون كافرًا."[123]

***

يقول النُّورْسِيُّ في كتابٍ آخرَ له:

"إنَّ "رسائلَ النورِ" قد كشفتْ وحلَّتْ ما يقربُ من مائةٍ من طَلاَسِمِ الدِّينِ وأسرارِهِ ومُعَمَّيَاتِ الحقائقِ القرآنيَّةِ. بحيث أنَّ الجهلَ بِطِلَّسْمٍ وَسِرٍّ يُوقِعُ الكثيرين في الشبُهاتِ والشكوكِ، ولا ينجون من الريوب. بل قد يفقدون إيمانَهم. أمَّا الآن وبعد فكِّ تلك الأسرارِ وحلّ تلك الْمَغَالِيقِ لا يتجرّأُ الملحدون على الظهورِ والغلبَةِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا. وقد أشرنا إلى قسمٍ منها في المكتوبِ الثامنِ والعشرين (العنايات السبع). وستُجمَعُ تلك الطَّلاَسِمُ بإذنِ اللهِ في مجموعةٍ مستقلة." [124]

---

[122] المصدر: ملحق قسطموني. ص/**133**. http://webcache.googleusercontent.com

[123] المصدر: اللمعات. ص/**446**. http://www.odabasham.net/show.php?sid=1787

[124] المصدر: ملحق قسطموني. ص/**204**. http://www.nafizatalnoor.com

***

اختلفتْ الآراءُ وتضاربتْ حولَ شخصيَّةِ سعيدِ النورسِيّ وعقيدَتِهِ وتصرُّفَاتِهِ وَنَزَعَاتِهِ اختلافًا شديدًا. بَالَغَتْ طائفةٌ في تفخيمِهِ وأفرطتْ في تعظيمِهِ، وأسرفتْ في الإجلالِ من قَدْرِهِ وعلوّ همَّتِهِ، وَحِدَّةِ نظرِهِ وَفِرَاسَتِهِ بأَنَّهُ عالِمٌ لاَ يُشَقُّ له غبارٌ، وبحرٌ من العلمِ لا ساحلَ له... وأطالتْ هذه الطائفةُ الحديثَ في ذكرِ مناقبِهِ وورعِهِ وزُهدِهِ، واشتدادِهِ على الْعَلْمَانِيّنَ والمارِقِين إلى غير ذلك من ضروبِ الإطراءِ والمدحِ والثناءِ. فبلغَ تفخيمُهُ على لسانِ الْمُفْتَتِنِينَ به والمتفانين فيه (من النورسيّين خاصَّةً)، إلى حدٍّ اعتقدوا الإستغناءَ من القرآن الكريم بِرَسَائِلِه!. أمَّا هذه الحقيقةُ قد لا يتأكَّدُ منها إلاَّ من يخالط النورسِيّين بِرِفْقٍ وتقِيَّةٍ حتَّى يكسبَ ثِقَتَهم، فيكشفوا له أسرارَهم!

لم يكن إفراطُ هؤلاءِ إلاَّ من أثرِ دعاياتِ النورسِيّ وامتداحِهِ المتواصِلِ بحقِ رسائِلِهِ عبر جميعِ مدوَّناتِهِ وبإسهاب.[125]

---

[125] على سبيل المثال، تجدون مَدَائِحَهُ فيما يلي بشأن (رسائل النور). كُلُّهَا مُقتبسةٌ من رسالةٍ واحدة فحسب، فضلاً عمَّا ورد ضِمْنَ بقيّةِ كُتُبِهِ. مع أن هذا القدر من الإطراءِ ليست إلا قسطًا يسيرًا من مبالغاته اكتفينا بنقلها تفاديًا للملل. يقول النورسِي في مستهلِّ رسالته المسماة (ملحق قسطموني) مخاطبًا تلاميذه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بعدد حروف رسائل النور المكتوبة والمقروءة والمتمثلة في الهواء الى يوم القيامة". يواصل النورسي مدائحه بعد هذا الإستهلالِ فيقول:

"نعم، لله الحمد والمنة بعدد الذرات من الازل الى الابد، بما أنعم بكم على رسائل النور بثلاثين من أمثال عبدالرحمن، بل مائة وثلاثين، بل ألفاً ومائة وثلاثين من أمثاله، كل منهم يقابل ألفًا." * "وحيث أنني أرى إخوتى الذين يلازمونني في الخدمة دائمًا ولا يغادرون بالي أبدًا، يسعون للعمل لرسائل النور ويَتَبَنَّوْنَهَا بِجِدِّيَّةٍ تَامَّةٍ ويحافظون عليها ويتوارثونها مثلكم ناشدين الحقيقة." * "ولله الحمد فإنَّ رسائل النور قد أظهرت – حتى للعُمْيَانِ – بتجارُبَ كثيرةٍ وحوادِثَ عديدةٍ أنّها معجزةٌ قرآنيّةٌ تستطيع أنْ تُنَوِّرَ هذا العصرَ، بل العصر المقبل. فمهما بَالَغْتُمْ في مدحها والثناء عليها فهي أهلٌ لها وحقيقٌ بها." * "أَجِدُنِي فخورًا الى الأبد بإسم رسائل النور التي أولاها الْمُنْعِمُ الكريم نعمةً عظمى بسعيكم الحثيث إلى الاعمال الجليلة واشتراككم الجاد مع طلابها النجباء." * "أما الآن فقد بعث المولى الكريم "رسائل النور" التي هي بحكم شخص معنوى، وبعث طُلاّبَها الذين هم – بِسِرِّ التساند والترابط – بِحُكْمِ الفرد الفريد، إلى هذا العصر." * "وهكذا الرسالة تلو الاخرى حتى اقتنعتُ قناعةً تامَّةً – وتغمرني الحيرة – أنّ إجزاء رسائل النور لا تفضل إحداها الاخرى، فلكلًّ منها رئاسةٌ في مقامِها، ولا غرو فإنّها معجزةٌ قرآنيّةٌ تُنَوِّرُ هذا العصرَ." * "إنّ للمجموعة الكاملة لرسائل النور – التي هى مرشدٌ علمِيٌّ معنوِيٌّ مُهِمٌّ لهذا العصر – كراماتٌ مثل كراماتِ الاشخاص الافذاذ" * "إنّ وقائعَ عديدةً أورثَتْني قناعةً تامّةً لا يداخلها الشكُّ من أنّ المجموعةَ الكاملةَ لرسائل النور بمثابة مرشدٍ معنوِيٍّ لإِنْقَاذِ إيمان طُلاَّبِهَا عند سكرات الموت" * " أمّا رسائل النور، فَلِكَوْنِهَا معجزةً معنويَّةً للقرآن الكريم فهي تُنْقِذُ أسسَ الايمان وأركانَه." * " إنّ الدواوينَ والمؤلفاتِ السابقةَ تقول: كُنْ وليًّا وشاهدْ وارقَ في المقاماتِ والدرجاتِ، وأَبْصِرْ وتناولْ الأنوارَ والفيوضات!. بينما رسائل النور تقول: كُنْ مَنْ شئتَ وَأَبْصِرْ! وافتحْ عينيك فحسب، وشاهدِ الحقيقةَ وَأنقذْ ايمانَك الذي هو مفتاحُ السعادةِ الابديّةِ." * "إنَّ رسائل النور تنتشر بِذَاتِهَا تحت حماية القرآن الكريم والحفظ الرَّبَّانِيِّ.. وهي تَتَفَيَّضُ وتَتَنَوَّرُ أكثر في السِّرِّ"...

يتحذلق النورسِيُّ في مواطن من عباراتِهِ ويتظاهر بالتواضع، فيقول: " إنّه لا يمكن قبولُ حُسْنِ الظَّنِّ المفرط نحوي، ومنحي مقامًا وأهمِيّةً تفوق حدِّي ألف درجة، الاّ إذا كان باسم رسائل النور وخدمتِهَا، وكونها داعيةً ودلاّلةً إلى جواهر القرآن الكريم."

كان هذا نذرًا يسيرًا من مدائح النورسِيّ لـ"رسائل النور" الواردة فقط ضمن سبع صفحاتٍ، من أصل **87** صفحةً من كتابه المسمى (ملحق قسطموني). أما حصر ما ورد في جميع كتاباته من الإطراءِ برسائل النور فإنّ ذلك من العناء الْمُعَنَّى لِكَثْرَتِهِ. يظهر للقارئ بوضوحٍ – من خلال هذا القدر من المبالغة والإطراءِ– أنّهُ قد انتهجَ أسلوبًا خاصًّا لغسل الدماغ باستغلالِ كتاب الله لتضليل العقولِ وتشويش العقيدة وزعزعة الإيمان الخالص!

واصلتِ الحركةُ النورسيَّةُ نشاطَها بجهودِ طائِفةٍ عُرِفَتْ بـ"طُلاَّبِ رسائِلِ النور". تَعَاوَنَ أفرادُ هذه الجماعةِ وتضامنوا فيما بينهم على بذلِ الإمكاناتِ لنشرِ "رسائِلِ النورِ" وكسبِ مزيدٍ من الأنصارِ للحركةِ في ربوعِ البلاد.

اصطدمتْ هذه الجماعةُ بعقبتين اعترضتا سبيلها، وحالتا دون توسُّعها فترةً من الزمن. أولها: ملاحقةُ النظامِ لأفرادِ الجماعةِ، حيث قضَى كثيرٌ منهم سنين من حياتهم في السجون. والعقبةُ الثانيةُ: جهلُهم باللُّغةِ العربيَّةِ. فكانتْ ثقافتُهم محدودةً مِمَّا ثَبَّطَهم في فكِّ معضلاتِ "رسائِلِ النور". إذ كانتْ عباراتُ هذه الرسائلِ معقَّدةً تتشَابَكُ فيها تركيباتٌ إضافِيَّةٌ ووصفيَّةٌ متسلسلةٌ، وحلقاتٌ من تعبيراتٍ غامضةٍ متضافرةٍ تتخلَّلُها آياتٌ قرآنيَّةٌ، ومصطلحاتٌ يحتاجُ فهمها إلى معرفةٍ واسعةٍ بمفرداتِ القاموسِ العربِيِّ ومعاجِمِ إختصاصاتِ العلوم.

طُلاَّبُ "رسائِلِ النورِ" كانوا يجتمعون في بُيوتاتٍ وخَلايَا هربًا مِنْ مراقبةِ جهازِ الأمنِ، يتحرَّكون بحيطةٍ ويحافظون على سرِّيَّتهم، يتدارسون الرسائلَ؛ يتناولُ أعلمُهم رسالةً منها، يقرؤها على من حَضَرَ مِنْ أصحابِهِ، ويحاوِلُ تفسيرَ عباراتِها. وقد يستعينون بشخصٍ له إلْمامٌ بالعربيَّةِ فلا يلبث حتَّى ينضمُّ هو الآخر إليهم ويداوِمُ معهم على الدروس.

دامتْ هذه الحالةُ السرِّيَّةُ التي كانوا يعانونها فترةً، إذ كانت الحركةُ النورسيَّةُ تُعَدُّ جريمةً وخروجًا على النظامِ بموجبِ قانونِ العقوباتِ رقم: **163**، والقرارِ الصادرِ من محكمةِ الإستئنافِ بتاريخ: **20** سبتمبر **1965**م. فلمَّا أُلغِيَتْ هذه المادَّةُ في **12** أبريل سنة **1991**م. رُفِعَ الحصارُ عن مزاولةِ "رسائِلِ النورِ" وأصبحَ النورسيُّونَ أحرارًا استشاطوا بعد ذلك باندفاعٍ بالغٍ، وأقدموا على النهوضِ بالحركةِ النورسِيَّةِ مستخدمين كل وسيلةٍ، خاصَّةً وأنَّ عددًا منهم كانوا أثرياءَ، فنذروا في سبيلِ نشرِ "رسائِلِ النورِ" أموالاً طائلةً، وبحثوا عن شخصٍ مُتَمَكِّنٍ من العربيَّةِ لأجلِ مواصلةِ التبشيرِ بالحركة النورسِيَّةِ في العالم العربِيِّ. فوجدوا ضالَّتَهم في شخصٍ تركمانِيٍّ من سُكَّانِ العراق، اسمه إحسان قاسم الصالحي. فنقلَ الرجلُ جميعَ مُؤَلَّفَاتِ سعيدِ النورسِيِّ إلى العربِيَّةِ بنجاحٍ، وبالتزامِ جانبِ الأمانَةِ في تعريبِها بعبارةٍ مستساغةٍ وصياغةٍ سَلِسَةٍ حيثُ أصبحَ فَهْمُ محتوياتِ هذهِ الرسائِلِ أسهلَ منه على القارئِ العربِيِّ من فهم القارئ التركي لمحتوياتِهَا باللُّغةِ التُّرْكِيَّة.

كان النورسيُّونَ يلتقون عند شخصيَّتين من خلفائِهِ في السنواتِ الأولى بعد موتِ سعيدِ النورسِيّ. وهما؛ زبير قندوز آلب Zübeyir Gündüzalp، وخُسْرَوْ آلتونباشاك Hüsrev Altınbaşak. ولكنَّهم اختلفوا فيما بينهم وانقسموا إلى فئتين رئيستَيْنِ أوّلاً. عُرِفَتْ إحداهما بـ"الْكُتَّاب"، والثانيَةُ بـ"القرَّاء". كانَ الكُتَّابُ يُصِرُّونَ على أنْ يتمَّ كتابةُ واستنساخُ "رسائلِ النورِ" بالحروفِ العربيَّةِ. وأمَّا القُرَّاءُ، فيريدون التساهُلَ باستعمالِ الحروفِ اللاَّتينيَّةِ في كتابتِهَا واستنساخِهَا، حيث لا يكادُ يُتْقِنُ القراءةَ بالحروفِ العربيَّةِ إلاَّ قلَّةٌ في المجتمعِ. أدَّى ذلك إلى انشقاقٍ في صفوف النورسيِّين لأوَّلِ مرّةٍ. ثمَّ تفرَّقوا إلى عدَّةِ فئاتٍ، وهي بالإختصار:

- **جماعةُ الْكُتَّاب** Yazıcılar; Hayrat Vakfı **(التابعةِ لِخُسْرَوْ آلتونباشاك)**
- **جماعةُ القُرَّاء** Okuyucular; Sözler Yayınevi **(التابعةِ لِمصطفى سُنْغُورْ)**
- **جماعةُ الصُّفَّة** Suffa Vakfı **(التابعةِ لِمحمّد كِرْكِينْجِي)**
- **جماعةُ الإخلاص** İhlâs Nur Neşriyat **(التابعةِ لِمحمّد سعيد أوزدمير)**
- **جماعةُ يَنِي نَسل** İst. İlim ve Kültür Vakfı **(الجيل الجديد، التابعة لِمحمّد فُرُونْجِي)**
- **جماعةُ يني آسيا** Asya Vakfı **(التابعة لِمحمّد كُتْلُولاَرْ)**
- **جماعةُ الزهراء** Zehra Vakfı **(التابعة لِعز الدين يِلْدِرِيمْ)**
- **جماعةُ مدرسة الزهراء** Med Zehra Vakfı **(التابعة لِمحمّد صديق دُرْسُون)**

كلّ فئةٍ من هذه الجماعةِ تختلفُ عن أَخَوَاتِهَا بِنَظْرَتِهَا الخاصَّةِ إلى أهدافِ "رسائلِ النورِ" وكيفيةِ التعامُلِ معها.

ظهرتْ جماعةٌ أُخرَى أنشأها رجلٌ غريبُ الأطوارِ ذكِيٌّ مَكَّارٌ متلوّنٌ استغلَّ اسمَ سعيدِ النورسِيّ وسارَ على أسلوبِهِ في الظاهر؛ لم يتزوَّجْ ولم يُعفِ لحيتَه على مثال النورسِيّ. فما لبث حتى طارَ صيتُهُ في الآفاقِ، لأنَّهُ انتهج سبيلاً استطاعَ أن يتغلَّبَ به على نفوسِ الملايين ويستخدمَهُمْ في أكبرِ حيلةٍ طالما يحلمه منذ كان مراهقًا! سحر عقولَ مَنِ الْتَفُّوا حَوْلَهُ بالتركيز أولاً على أهمّيةِ المعرفةِ بإصرارٍ بالغٍ في كلِّ مناسبةٍ حتى أيقنوا أنَّهُ أعلمُ الناسِ قاطبةً وأنَّهُ عاشقٌ متفانٍ في العلمِ. ثمَّ أخذ يُرَغِّبُهُمْ في إنشاءِ مدارسَ ومعاهدَ خاصَّةٍ تمتازُ بمقرَّراتِها العلميَّة الراقيةِ بدأ يتخرجُ منها طلاَّبٌ يفوقون على أمثالهم بِمُسْتَوَيَاتِهِمْ الثقافيَّة وعقولِهِم الناضجةِ ومهاراتِهم وإبداعِهِم في كل فنٍّ حتَّى اغتبطَهم الناسُ وأشَاروا إليهم بالبنان.

أمَّا حياكةُ الحيلةِ منذ الخطوةِ الأولى بمثلِ هذا الإقدامِ الذي لا يُقَابَلُ إلاَّ بالتقدير والثناءِ، فإنَّما كان لمجرَّدِ التعميَةِ، لأنَّ الهدفَ كان عظيمًا وخطيرًا جدًّا. لقد كان مُنْتَهَى قصدِ الرَّجُلِ أنْ يُنْشِئَ جيلاً يستخدِمُها في احتواءِ الدولة التُّرْكِيَّة بخطواتٍ هادئةٍ مع الزمان، وليقبضَ على زمامها بتريُّثٍ وتمهُّلٍ، وبطريقةٍ لا يثير الشكَّ!

بدأ يُنْفِذُ بطانتَهُ إلى شرايينِ الدولةِ وهم ينتشرون عبر أجهزتِها منذ أكثرَ من ثلاثين عامًا، وهو يتوارَى خلفَ مدارسِهِ المبعثَرَةِ في أنحاءِ العالمِ، والتي أصبحتْ محطَّ أنظارِ المادِحين. فاستعدَّ لتجربَةِ إنقلابٍ على غرارِ ما دبَّرَهُ الخمينيُّ فأطاح به نظامَ شاهِ إيران! كان الرجلُ يحلمُ أن يهبطَ على متنِ طائرةٍ إلى مطارِ إسطنبولَ، وملايينُ الأتراك في استقبالِهِ وقد قُبِضَ على رئيسِ الوزراءِ (رجب طيب أردوغان) ورجالِ حكومتِهِ وهم محشورون جميعًا إلى السجن... كان يحلم بمثل هذا الإنقلابِ بخلافِ الإنقلاباتِ العسكريَّةِ. ثُمَّ اندفعَ يوم 17 ديسمبر من عام 2013م. ليُحقِّقَ هدفَهُ. إلاَّ إنَّهُ فشلَ في خُطَّتِهِ وافتضح وهو قابعٌ في قصرِهِ بناحية من الولايات المتَّحدَةِ الأميركِيَّةِ. وكان في القدَرِ أنْ تُلَقَّبَ عصابتُهُ بـ"الحشاشين الجُدُد" على لسان رئيس الوزراءِ التُّرْكِيِّ!

***

يغلب الظَّنُّ أنَّ سعيدًا النورسِيَّ كان حَسَنَ النِّيَّةِ في تأويلاتِهِ لكتابِ اللهِ أصلاً، نجدُ ذلك في رسائِلِهِ كأنَّه يصرخُ بأعلَى صوتِهِ يريدُ إنقاذَ الإيمان بإصرارٍ متواصل! لأنَّهُ يرى الناسَ جميعًا مغمورين في الكفرِ والضلالِ. لكنَّه أختلقَ لنفسِهِ أسلوبًا متميِّزًا غريبًا وعرًا، لينافسَ به جميعَ المفسرين الذين سبقوه، ولشعورِهِ بالنقصِ من منطلَقِ "خَالِفْ تُعرَفْ!"، بسسبِ طبيعتِهِ الرافضةِ التي طالما دَفَعَتْهُ إلى التمسُّكِ بالسلبيَّاتِ، ولجهلِهِ بحقيقة الكتابِ والسُّنَّةِ. لأنَّهُ كان ضعيفَ العلمِ. فتجاوز أسلوبُهُ حدودَ الخطأِ، فَأَوْقَعَهُ في الخطيئةِ. والفرق بين الخطإِ والخطيئة: أنَّ الخطأ وليدُ السهوِ، وأمَّا الخطيئةُ، فإنَّها وليدةُ العمدِ. أرهقَ النورسِيُّ نفسَهُ على مدَى حياةٍ مديدةٍ في سبيلِ اختلاقِ شيءٍ جديد، والأُمَّةُ في غِنًى عنه إطلاقًا. فانتهى أمرُ مَا خلَّفَ من ركامٍ سمَّاها "رَسَائِلَ النُّورِ!": أنَّ "الْهَضْبَةَ أَنْجَبَتْ فَأْرَةً" كما في المثالِ التُّرْكِيِّ. بل تمخَّضتْ مُغَامَرَتُهُ عن أُسوةٍ سيِّئةٍ تمثَّلتْ في رجلٍ خطيرٍ لابسٍ جلدَ الضأن على قلبِ ذئبٍ تشبَّهَ بِسَلَفِهِ مكرًا وخديعةً وليس اقتداءً به في الحقيقةِ. قد جمع حولَهُ معشرًا من الوحوشِ، سلَّطهم على الدولةِ التُّرْكِيَّة في هذه الأيَّامِ، وهو لا يزال يُؤَجِّجُ الفتنةَ بالتعاونِ مع دولةِ الإرهابِ من وراءِ المحيطِ الأطلسي.

***

5) تَنْظِيمُ "الْحَشَّاشِينَ الجُدُد the neo-assassin association"

هذه التسميةُ، أطلقَهَا رئيسُ الوزراءِ رجب طيّب أردوغان على جماعةٍ شِبْهِ صوفِيَّةٍ، على سبيل التشنيعِ لمحاولاتِهَا المشبوهَةِ ونشاطاتِهَا المضلِّلةِ بعد أنْ افتضحتْ وفَحُشَتْ أعوارُها وفَشَتْ أسرارُها وتهتَّكتْ أستارها.

يكفينا عددٌ من الكُتَّابِ مؤنةَ الحديث عن هذه الجماعةِ، منهم إسماعيل ياشا يقول:

"ولعلَّ وجهَ الشَّبَهِ بين الحشَّاشين وتنظيمِ الجماعةِ الْمُتَغَلْغِلِ في أجهزةِ الدولةِ: تَمَيُّزُهُمَا بالسِّرِّيّةِ، واستخدامِ التقيَّةِ حتَّى الوصولِ إلى الأهدافِ وتصفيةِ الخصومِ، إلاَّ أنَّ أساليبَ التصفيةِ اختلفتْ مع مرورِ القرون. وبخلافِ الحشَّاشين القُدَامَى، يستغلُّ «الحشَّاشون الجُدُد» في التصفياتِ السياسيَّةِ نفوذَهُمْ في الاستخباراتِ والشُّرطةِ والقضاءِ، ويُسقِطُونَ خصومَهُمْ سياسِيًّا بالملفاتِ والابتزازِ والتُّهَمِ المُلَفَّقَةِ بدلاً من التصفياتِ الجسديَّةِ.[126]"

كاتبٌ آخر (طلال جامل)، يُسجّلُ في دراسةٍ له نُشِرَتْ، وعنوانُهُ: "محطاتٌ لأهمّ الأحداثِ الأخيرةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة"، يقول فيها:

"وبالرّغمِ من عملِها على الساحة التُّرْكِيَّة منذ عشراتِ سنين، لم تُؤَسّسِ الجماعةُ حتَّى الساعةِ حزبًا سياسيًّا ولا احترفتِ العملَ السياسِيَّ، بل كانتْ تسعَى دائمًا للتَّغَلْغُلِ في مؤسَّساتِ الدولةِ من جيشٍ، وشرطةٍ، وقضاءٍ، وأَمْنٍ عامٍّ، مكتفيَةً في الانتخاباتِ بدعمِ مرشَّحِينَ أو أحزابٍ مُعَيَّنَةٍ، مثل حزبَيِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَالْوَطَنِ الأُمِّ الْيَمِينِيَّيْنِ، وحزبِ اليسارِ الديموقراطِيّ بقيادةِ بُولَنْدْ أَجَاوِيدْ Bülent Ecevit (صاحبِ الحادثَةِ الشهيرةِ بِطَرْدِ النَّائِبَةِ الْمُحَجَّبَةِ مِنَ الْبَرْلَمَان)، حيث لم تكنْ يومًا على وِفَاقٍ سياسِيٍّ مع زعيمِ الحركةِ الإسلاميَّةِ في تركيا الراحل نجم الدين أربكان.[127]"

---

[126] المصدر: http://www.almoslim.net/node/199298

[127] المصدر: http://elshaab.org/thread.php?ID=102496

يستطردُ الكاتبُ في مَقَاطِعَ مختلفةٍ من دراستِهِ، فيقول:

"وعلى خلافِ تاريخِها، دخلتِ الجماعةُ المسمَّاةُ بِ"الخِدْمَةِ"، في السنواتِ الأخيرةِ، في خلافٍ متصاعدٍ مع حزبِ العدالةِ والتنميةِ الحاكمِ، وذلك لأسبابٍ عديدةٍ أهمُّهَا شخصُ رئيسِ جهازِ الاستخباراتِ التُّرْكِيَّة، (هَاكَانْ فِيدَانْ Hakan Fidan)، أقربُ رجالِ الدولةِ إلى رئيسِ الوزراءِ رجب طيِّب أردوغان، والَّذي وقفَ حائلاً في وجهِ محاولاتِ الجماعةِ للتَّغَلْغُلِ داخلَ جهازِ الاستخباراتِ، وتسبَّبَ – بِرِفْقَةِ أردوغان– في إحداثِ أزماتٍ دبلوماسيَّةٍ مع "إسرائيل" أثَّرَتْ سَلْبًا على المصالِحِ الاقتصاديَّةِ للجماعةِ."

"زعيمُ الجماعةِ يُقيمُ في الولاياتِ المتّحدةِ[128]، وكان قد رفضَ دعوةً من أردوغان، وأخرَى من الرئيس غول للرجوعِ إلى تركيا بعد انتهاءِ القضايا التي كانتْ مرفوعةً ضِدَّهُ من الأنظمةِ السابقةِ. وتُثَارُ دائمًا إشاعاتٌ عن قُرْبِهِ من الغَرْبِ وعلاقاتِه مَعَهُ."

---

[128] زعيم هذه الجماعة: رجلٌ تركيٌّ الأصلِ، خطيرُ الأفكارِ، غريبُ الأطوارِ، متلوّنٌ في الأسلوبِ، دسّاسٌ، مفوَّهٌ؛ يتشدَّقُ بملْءِ فيهِ فيسحر العقولَ، بارعٌ في إلْبَاسِ الباطلِ بالحقِّ، يَنْفُذُ إلى قرارة النفوسِ، يستطيع أنْ يُحَرِّكَ عاطفةَ أقسى الناسِ قلبًا ببكائِهِ الحارِّ، وانتهاجِهِ المراوغةَ في الخطابِ والتعبيرِ، ومهارَتِهِ في اصطيادِ العقول.

هذا الرجل داهيةٌ منقطعُ النظيرِ في الذكاءِ والفطنة، له طموحاتٌ لا حدودَ لها. وضعَ نصبَ عينيهِ منذ عنفوانِ شبابِهِ أنْ يحظى بشهرةً تبلُغُ الآفاقَ وتتردَّدُ أصداؤُهَا في مشارقِ الأرضِ ومغارِبِهَا حتّى تخضعَ له أعناقُ الملوكِ، وتذِلَّ رقابُ الوافدين بين يديه!.. كان هذا الحُلْمُ يُشغِل بالَهُ إذ كان إمامًا لأحدِ المساجدِ بمدينة إزمير. لكنّه كان شخصًا من أوساطِ الناسِ لا يعرفُهُ إلاَّ جماعةٌ قليلةٌ من المصلّين ورائَهُ، وعددٌ من الطلبة يتلقّونَ منه دروسَ قواعدِ اللُّغَةِ العربيّةِ، وذلك قبلَ أربعين عامًا (تقريبًا).

دفعتْهُ تطلُّعاتُهُ المتناميةُ في ذِهْنِهِ إلى تحقيقِ أهدافِهِ، وكان على رأسِها: أن يطيرَ صيتُهُ يومًا فيتمتّعَ بمقامٍ فوقَ كلِّ ذي جاهٍ يتهافتُ عليه ملايين الناسِ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، يُوَقِّرُونَهُ ويفتدون في سبيله بنفوسِهِمْ وَنَفِيسِهِمْ!. بدأ الرجلُ ينطلقُ لكسبِ قسطٍ من السُّمْعَةِ ولكنّ خطوتَه الأولى كانتْ غريبةً وجريئةً جدًّا قد تَجْعَلُهُ ضحيّةَ صنيعِهِ! وما عسى فعل هذا الرجلُ المجهولُ لأجلِ هدفِهِ الخياليّ المستحيل؟ إذ لم يكن من عائلةٍ معروفةٍ بِثَرْوَتِهَا أو جاهِها لتكونَ سُلّمًا له يرقى به إلى المقامِ الذي يطلُبُهُ. بل كان ابنَ اسرةٍ متواضعةٍ من الطبقةِ الشعبيَّةِ يسكنُ بالمنطقةِ الشرقيّةِ أيّامَ طفولتِهِ وشبابِهِ، بعيدًا عن المناطقِ المتحضّرةِ المزدهَرَة، لا حظّ له من الشهرةِ والعنوان.

صَمَّمَ أن يُخَاطِرَ بنفسِهِ فَيَقَعَ في قبضةِ الشرطةِ بِتُهْمَةِ "تطاوُلِهِ على النظامِ واحتجاجِهِ ضِدَّ الاضطهاد!". فقامَ بإعدادِ كميّاتٍ من الْمُلْصَقاتِ، عليها صورتُهُ من الجبهةِ الأماميّةِ وتحتَها كلمةُ (مطلوب!). أمرَ عددًا من تلاميذِهِ أن يقوموا بِإِلْصَاقِ هذه الصُّوَرِ في ظلامِ الليلِ على الواجهاتِ عَبْرَ شوارعِ المدينة. فلم يَلْبَثْ حتى ألقتِ الشرطةُ القبضَ عليهِ واعتُقِلَ عدّةَ أشهر.

هكذا تَعَرَّفَ عليه المجتمعُ لأوّلِ مرّةٍ وشاعَ خَبَرُهُ: "أنَّ السلطاتِ الأمنيّةَ اعتقلتْ عَالِمًا يدافعُ عن الحرّيّةِ الدينيّةِ!". ثم أُطلِقَ سراحُهُ. فحقَّقَ الرجلُ بذلك أوّلَ هدفٍ من أهدافِهِ "التي سوفَ تعرُجُ به إلى مقامٍ رفيع" طالما يحلمه. نعم، حقّقَ أولَ هدفِهِ بنجاحٍ، لأنّهُ استطاعَ أن يخرُجَ من عالمٍ مجهولٍ إلى العيانِ ويُشغِلَ الرأيَ العامَّ فيتحدَّثَ عنه آلافُ الناسِ بعدَ أن كانَ رجلاً عاديًّا من أوساطِ العامّة.

لم يلبث طويلاً حتى نالَ شهرةً بالغةَ الانتشار فاحتكرها بلباقة ودهاءٍ جذبت إليه جمهورًا من نخبة المجتمع بينهم أثرياءُ، وأكاديميون، ورجالُ العملِ، وأطبّاءُ، ومهندسون، وصحافيّون، وَكُتّابٌ مشهورون، ورجالُ السياسة... فاستحوذَ على عقولِهم، ونفذ إلى أعماقِ نفوسهم وبدأ يُجَنِّدُهُمْ في كثير من مجالاتِ العمل، والتَّحَالُفَاتِ التجاريّةِ، وتأسيسِ شركاتٍ عملاقةٍ، ومَصَانِعَ، وبنوكٍ، وإصدارِ صُحُفٍ ومجلاّتٍ ذاتِ تداولٍ عالية... أشارَ على هؤلاءِ وحثَّهم في بَدْأِ الأمرِ على تأسيسِ مدارسَ لِتَنْشِأَةِ جيلٍ يستعينون به في المستقبلِ القريبِ. فامتثلوا لأمرِهِ بكلّ انقيادٍ وفتحوا عددًا كبيرًا من المدارس والمعاهدِ الخاصّةِ والجامعاتِ داخلَ تركيا، كما فتحوا مدارسَ في مُعْظَمِ عواصمِ العَالَمِ.

طالما ادّعى الرجلُ لدَى كلّ مناسبةٍ أنّه لا يهتمُّ بالسياسة، لكنّه أصبح – بعد أنْ نفذَ إلى أعماقِ قلوبِ الملاين واستولى على وجدانِهِمْ –، قد أصبح اليوم قادرًا على أن يُرسِلَ هذا المعشرَ العظيمَ لِيَنْقَضَّ على أيّ قوّةٍ بإشارةٍ منه في أيّ لحظة (كما فعل بحكومة أردوغان). هذا، ويُسْتَبْعَدُ أنْ يكون فيهم مَنْ يعصي له أمرًا! حاصةً وأنّ الجيل الذي صنعه بيده منذ أربعين عامًا، قد تسرّبَ في شرايين الدولة التُّرْكِيَّة بحيث لا تخلوا مؤسّسةٌ حكوميَّةٌ، ولا دائرةٌ رسميّةٌ، ولا وزارةٌ، ولا حتى حزبٌ سياسيٌّ إلاَّ وفيه أحدُ رموزِهِ، يراقبُ الحركاتِ هناك ويقوم بجمع الأخبار والمعلومات وفقًا للتعليمات التي يتلقَّاهَا.

فَشَى في الأوانِ الأخيرةِ بعضُ الشيءِ من أسرار جماعتِهِ بعد اعترافاتِ عددٍ من المنشقِّينَ عنها يدَّعون: أنَّ هذه المعلومات تُنقلُ إلى مركزٍ معيّنٍ بتنسيقٍ دقيقٍ لتُستخدَمَ "في أغراضٍ مباركةٍ" ولِتُوَاصِلَ بفضلِها "الجماعةُ الخيريّةُ!" نشاطاتِها "لأجل نشر السلام والوفاق في ربوع البلاد!!".

من هذه الإعترافات المدهشة، كلماتٌ للباحثِ التُّرْكِيّ سعيد ألبصوي Sait ALPSOY، وردت في موقع ألكتروني، وهذا نَصُّها:

"اعتبر الكاتب والباحث التركي سعيد ألبْصُويْ، المنشق عن جماعة "الحشاشين الجدد" أنَّ الجماعةَ تُبيحُ كلَّ شيءٍ لأعضائِها ما دام يصبُّ في مصلحتها، دون مراعاةٍ لتعاليم الاسلام.

وأفاد ألبْصُويْ، في تصريح للأناضول، اليوم الأحد، أنه تعرف على الجماعة– التي تصفها الحكومةُ التركيّةُ بـ"الكيان الموازي"– عندما كان بعمر السابعة عشرة، وبقي فيها **17** عامًا، وقطع صلتَهُ بها تمامًا عام **2003**م. بسبب "الانحطاط الاخلاقي" الذي تشهده الجماعة، على حد وصفه.

وقال ألبْصُويْ: "لاحظتُ أنَّ هذا الكيانَ الذي يدَّعي أنَّه اسلاميٌّ، شهدَ انحطاطًا اخلاقيًّا بشكلٍ خطيرٍ، لا سيَّمَا في الآونةِ الأخيرةِ، ويَعتبر نفسَهُ غيرَ مُلزَمٍ بتعاليم الاسلام."

واتَّهم ألبْصُويْ "الكيانَ الْمُوَازِيَ" بالتعاون مع قوى دولية، تمتدُّ جذورُها للصهيونية، ضِدَّ الحكومةِ التركيَّةِ، التي تتَّهمُ الجماعةَ بالتغلغلِ في أجهزة الدولة.

جدير بالذكر أنَّ جماعة "زعيم الحشاشين" – المقيم في ولايةِ بنسلفانيا الأميركية – تُوصَفُ بِـ"الْكِيانِ الْمُوَازِي" حسبَ الحكومةِ التركيَّةِ، حيث تُتَّهمُ بالتغلغلِ داخلَ سِلْكَي القضاءِ والشرطةِ، وتجري محاكمةُ عناصرَ تابعينَ لها بِتُهَمِ استغلالِ مناصبِهم، وقيامِهم بالتنصُّتِ غيرِ المشروعِ على مسؤولين حكوميّين ومواطنين."
المصدر: http://akhbarturkiya.com/?p=61250

هنا سؤالٌ يتردَّدُ في الذِّهنِ، وهو: أنَّ رجلاً مجهولاً من أسرة فقيرة ولد قبل سبعين سنةً في قرية بأقصى شرق تركيا، كيف استطاعَ أنْ يصلَ إلى هذا المستوَى من الشهرة؟ كيف استطاعَ هذا الإمامُ البسيطُ (وهو لا يحمل أيَّ شهادةٍ علميَّةٍ غيرَ التي حصلَ عليها من المدرسةِ الإبتدائيَّةِ)، كيف استطاعَ أن يَحْظَى مِنَ الجْاهِ والمكانةِ، والهيمنَةِ على القلوبِ والعقولِ قدرًا يؤرّقُ الحكومةَ التُّرْكِيَّة اليومَ؟!

تُرى من يكون هذا الرجل الذي يقول دون أيّ تردّدٍ "أنا زعيمُ الكون بأسره!"

هذه اعترافات أحد المقرَّبِينَ إليه (الكاتب: سليم جُورَاكْلِي Selim Çoraklı) بعد انفصالِهِ من الجماعة؛ نُشِرَتْ في جريدةِ الصباح التُّرْكِيَّة، يقول:

"هناك (في هذه الجماعة) أناسٌ أطهارٌ، يحتسبون أعمالَهم عند الله، وهؤلاءِ كُتْلَةٌ عظيمة تَبْلُغُ نسبتُهم **98%** من أصلِ جُمْهُورِهِمْ. لكنّه من النادر جدًّا على مستوى العالَمِ كُلِّهِ: أنْ تخضعَ وتنقادَ أغلبيّةٌ مخلِصَةٌ لشرذمةٍ قليلةٍ فتتحوّلَ إلى لُعْبَةٍ في أيديها، كما حدث في هذه الجماعةِ."

"هناك (للتنظيم) في كُلّ ولايةٍ وفي كُلّ قَضَاءٍ إمَامٌ (أي زعيمٌ). لقد عَمَلْتُ **16** عامًا بصفةِ إمَامٍ في وَحداتٍ مختلفةٍ داخلَ هذا التنظيم. تولّيتُ الإمامةَ في الجامعة، وفي ثكنات الطلاّبِ، كما توليتُ الإمامةَ في بعضِ المناطقِ السكنيّةِ. غير أنّيْ لَمَّا وجدتُ التنظيمَ لا يخضعُ لمراقبة الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة، فارقتُهُ. هذا، وعلى سبيل

المثال: فإنّ تركيا تُعدُّ أيالةً من أيالاتِ التنظيم، وقد تمّ نصبُ إمامٍ عليها. كذلك لِكُلِّ بلدٍ من بلدان العالم إمامٌ، وحتّى لِكُلّ قارَّةٍ إمامٌ قد نصبهم زعيم التنظيم. يحتل (الرجلُ) المنصبَ الأعلَى فوقَ هؤلاءِ الإئمة، يصفونه: بِ(إمامِ الْكَوْنِ). يرفعون شأنَه إلى درجةٍ تفوقُ حتّى على مقام الأنبياءِ!"

وهذا نصّ كَلِمَاتِهِ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّة:

«Eski Cemaat İmamı Yazar Selim Çoraklı canlı yayında:
"Allah rızası için çalışan temiz insanlar var ve bunlar yüzde 95'i 98'i oluşturan bir büyük kitle. Dünyada böyle çok insan böyle az insanın elinde bu kadar oyuncak olmamıştır."

"(…) Cemaati'nin her ilçede her vilayette bir imamı vardır. Ben bu yapının içersinde 16 yıl değişik ünitelerinde imamlık yaptım. Üniversite imamlığı, yurt müdürlüğü, bölge imamlığı yaptım. Fakat bu yapının kontrolsüz güç haline geldiğini görünce terk ettim. Mesela Türkiye bir eyalettir oranın bir imamı var. Her ülkenin bir imamı her kıtanın da bir imamı vardır. En üstte de (…) var. Ona da kainat imamı diyorlar. Öyle bir noktaya getiriyorlar ki peygamberlerin bile üstüne çıkarıyorlar. Rahatlıkla duyuyorsunuzdur "Ben sıkıştığımda yetiş ey Geylani diyorum 1000 sene önce vefat etmiş gelmiş bana yardım ediyor" diyor yani." ». http://www.sabah.com.tr/Gundem/2014/02/15/gulen-cemaatinin-organizasyon-yapisi-desifre-oldu.

كيف استطاعَ هذا الرجلُ أن يسحرَ عقولَ آلافٍ يكادُ كلُّهم يتمتَّعونَ بثقافةٍ عاليةٍ، ومناصِبَ اجتماعيّةٍ رفيعةٍ، وأموالٍ طائلةٍ، منهم شخصيّاتٌ بارزةٌ في عالَمِ التجارةِ والسياسة والمعرفة؛ وهم رهنُ إشارتِهِ، لو أمرهم لَنَهَضُوا نُهُوضَ الرجلِ الواحدِ، ولَسَارُوا في رِكَابِهِ زحفًا على بطونهم إلى برك الغماد! مَنْ هذا الرجل الذي يُرَدِّدُ في كلِّ مناسبة مقولةَ سعيد النورسِي "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة!"، ويصرخ فوق المنابر قائلاً: "لو أنّ جبريل أسّسَ حِزْبًا سياسِيًّا لن أُبايعه!" مع كونه غارقًا في السياسة من أخمص قدميه إلى قِمَّةِ رأسِهِ؛ مَنْ هذا الرجلُ الذي لا يَتَوَرَّعُ من التطاوُلِ على الله، في سياقِ انتقادِهِ لِلَّذِي يَسْتَرِقُ النظرَ إلى ما حولَهُ في صلاته حين يقول:

"إنّ أولئك الذين يَسْتَرِقُونَ النظرَ إلى ما حولَهُمْ في صلاتِهِمْ، يُؤْلِمُونَنِي، لأنهم يغتصبون عِرْضَ اللهِ! يا لَيْتَهُمْ أخرجوا ذُكُورَهُمْ في غضونِ ذلك وَبَالُوا على رَأْسِي. أرجو سماحَكُمْ ،كانت هذه كلمةً بَشِعَةً! ولكنّي أَسْتَبْشِعُ حركاتِ أولئكَ المصلّين الذين يركعون وينتصبون بين يدي الله من غير مبالاتٍ، أستبشعها إلى حدٍّ تبقى هذه الكلماتُ الْبَشِعَةُ التي أَتَلَفَّظُ بها أقَلَّ بشاعةً إذا قُورِنَتْ بحركاتهم الجافية في صلاتهم. أستبشعها إلى حدٍّ لو بالوا على رأسي ما عَدَدْتُ ذلك إهانةً بي. هذا مدى أَلَمِي عندما أراهم يتهاونون بالصلاةِ. والذين يُقَلِّبونَ أبصارَهم في الصلاةِ يمينًا وشمالاً، والذين يقبضون أيديَهم على رُكْبَاتِهِمْ إنّهم بمعزلٍ عن الشعور بالوقوفِ بين يدي الله، فإن حالَتَهم هذه لَيُؤْسِفُنِي إلى حدٍّ أقول لأحدهم: أتمنَّى لو طَعَنْتَ صدري بخنجرٍ، نعم سَتُصْبِحُ قاتلي عندئذٍ، لكنّني سوف أرفعُ يَدَيَّ إلى الله متضرّعًا فأقولُ له: "أَيْ رَبِّي! إِنِّي لن أقومَ بين يديك إلاّ بعد أن تعفو عن هذا!"

وهذا نصّ كَلِمَاتِهِ باللغة التُّرْكِيَّة التي ما زالت تُنْشَرُ عبر الشبكة العنكبوتية في تسجيلٍ مَرْئِيٍّ على موقع (اليوتوب youtube):

«Namaz kılarken sağa sola bakan, gözlerini sağa sola gezdiren insanlar, Rabbimin namusuna dokunmuş gibi bana dokunduruyorlar! Keşke o esnada tenasül uzuvlarını çıkarıp başıma işeseler; bağışlayın çok çirkin oldu. Fakat ben o işi o kadar çirkin buluyorum ki, o kadar münasebetsiz yatıp kalkmaları o kadar çirkin buluyorum ki şu söylediğim çirkin sözler onun yanında hafif kalır. Başıma işeseler okadar hakaret saymam. O kadar dokunuyor bana. Gözleri çevrede gezen insanlar, ellerini dizlerinin üzerine büküp koyan insanlar, Rabbin huzurunda durmuş olmanın şuurundan mahrum insanlar, o kadar rencide ediyor ki beni… Keşke bir hançer çıkarıp sineme saplasaydınız, katil olacaksınız! Ama ellerimi açıp yalvaracaktım, diyecektim ki: Allahım, bunu affetmeden senin huzuruna gelmiyorum! » http://www.youtube.com/watch?v=bga1K2eRQVI

شاعت اعترافاتٌ رهيبةٌ من أفواهِ المنشقِّينَ عن هذا الرجل (بعد حادثة **17** ديسمبر **2013**م.)، كُلُّها تؤكِّدُ على أنَّه إنسانٌ غيرُ عادِيٍّ؛ ذلك مع حظِّهِ الوافرِ من الذّكاءِ، وما يمتاز به من الثقافةِ الواسعةِ، والأسلوب البليغِ في الخطابة والتعبير، إنّه يعاني من مَرَضٍ نفسِيٍّ خطيرٍ.. فالرجل مُصابٌ بِهَلْوَسَاتٍ غريبَةٍ، تَنْتَابُهُ نوباتُ من الْبُكاءِ الحارِّ الْهِسْتَرِيِّ في أثناءِ خطابِهِ، بل يتعمَّدُ ذلك من تلقاءِ نفسِهِ، ويبدُو أنّه مُحْتَرِفٌ في حيلةِ التَّبَاكِي، يستطيعُ أنْ يصبَّ دموعَهُ بِغَزَارَةٍ مع نحيب وعويل متى يشاء وفي أيِّ لحظةٍ. هذه المِيْزَةُ في الرجلِ تستوقِفُ المستمِعَ إليه وتَسْلُبُ عقلَهُ، وتجعلُهُ يبكي هو الآخر. لذا، فإنّ مجلسَ وعظِهِ سرعان ما يتحوّلَ إلى حفلةِ بكاءٍ ونُوَاحٍ على مدى ساعاتٍ طويلة. تضيقُ المساجدُ عن استيعابِ القاصدين إليه لكثرتهم، فيُقيمون حفلاتِهِمْ في ملاعبِ كرةِ القدم أحيانًا، تكتظُّ الساحةُ والمدارجُ بِالْمُتَفَانِينَ فيه، ثم ينصرفُ الحشدُ وهم صَرْعَى ومشتاقونَ بأشدِّ ما يكون للاستماعِ إلى (خُوَاجَه أفندي) في الحفلة المقبلة.

هناك إشاراتٌ تُوحِي بعضَ الشيءِ عن الأسبابِ التي تكون قد لَعِبتْ دورًا كبيرًا في نشأةِ هذا الرجلِ وتكوينِ شخصِيَّتِهِ المضطربة وطبائِعِهِ الغريبَةِ.

وُلِدَ الرجلُ في مرحلةٍ حَرِجَةٍ جدًّا. كانتِ السلطةُ تمارسُ سياسةً قاسيةً، فكانت الحرّياتُ محدودةً جدًّا، والمواطنُ مقهورًا مُضْطَهَدًا، والإِدْلاَءُ بِشَيْءٍ من أمورِ الدِّينِ – يومئذٍ على وجه الخصوص– كان مغامرةً ومسألةَ إِقْدَامٍ وَجُرْأَةٍ. لعلَّ الرجلَ تعرَّضَ لِظُلْمِ السلطاتِ أيَّامَ دراستِهِ (الدينيّة) التي كان يَتَلَقَّاهَا سرًّا. فامتلأَ غيظًا ضدَّ السياسةِ وأهلِها، دَفَعَتْهُ مشاعِرُهُ المضطرِبَةُ فِي اللاَّوَعْيِ إلى كسبِ أكبرِ قدرٍ مِنَ الجاهِ والنفوذِ والمكانَةِ لِيَتَغَلَّبَ بها على السياسِيِّينَ فينتقمَ منهم، ويتلاعَبَ بهم وبأحزابهم؛ فيدعمَ طرفًا ويحاربَ طرفًا آخر بِغَضِّ النظر عن إنتماءَاتِهِمْ وأهدافِهِمْ، حتّى يشفِيَ بذلك غليلَهُ بتأجيج الفتنةِ وتهييج المَعْمَعَةِ وَالْعِرَاك!

يذكر الباحث طلال جامل أسبابَ إنتفاضة الجماعةِ واتِّهاماتِها ضِدَّ أردوغان وحزبِهِ، فيقول: "إذا أردنا أنْ نذكرَ أبرزَ مآخذِ الجماعةِ على حكومةِ أردوغان يمكن أنْ نُلَخِّصَهَا في النقاطِ التاليةِ:" ثم يذكر ردودَ فعلِ أردوغان ودفاعَهُ في مقابلِ هذه الإتِّهاماتِ ويتناولُ الصراعَ بين الطرفين بإسهابٍ. ولمن أرادَ المزيدَ من المعرفةِ بتفاصيلِ هذا الصراعِ أنْ يعودَ إلى الموقعِ الألكتروني الذي تمَّ نشرُ هذه الدراسةِ فيه[129]

6) التَّيَّارُ الخارجِيُّ التَّكْفِيرِيُّ

التكفيرُ: مصطلحٌ فِقْهِيٌّ، معناه: إِطْلَاقُ صفةِ الكُفْرِ على الشخصِ واتِّهَامُهُ بالخروجِ مِنْ مِلَّةِ الإسلام. ولا شكَّ في أنَّ الحُكْمَ على شخصٍ أو جماعةٍ بالكُفْرِ (بغيرِ برهانٍ واضحٍ ودليلٍ قاطعٍ) أمرٌ في منتهَى الخطورةِ، بسببِ نتائجهِ الهدَّامةِ التي قد تؤدِّي إلى تطوُّراتٍ وَفِتَنٍ تَعُمُّ الأعراضَ والأرواحَ البريئةَ، وتُستباحُ في غمرتِها بَيْضَةُ المسلمين. وقد نبَّهَ على خطورةِ التسرُّعِ في التكفيرِ كثيرٌ من علماءِ الأمةِ لِمَا ينشأ عنه من سفكِ الدماءِ وإتلافِ الأموالِ وترويعِ الناسِ وزعزعةِ الأمنِ والإستقرارِ..

تركَ الزواجَ ولم يُعفِ لِحْيَتَهُ أسوةً بالسعيدِ النورسِيّ الذي عدَّ النكاحَ عَقَبةً على طريقه إذ هو يَرْكُضُ وراءَ أهدافٍ خطيرةٍ لا يألو جهدًا في سبيل تحقيقها، يأتي على رأسِها كسبُ الشهرةِ والجاهِ والمكانةِ، فنشأ مقلِّدُهُ هذا على شاكلتِهِ. احترفَ هو الآخر استغلالَ الدِّين وتَسْوِيقَهُ ليشترِيَ بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلاً على غِرَارِ قُدْوَتِهِ (النورسِيّ)، فكان هو نظيرَهُ عبوسَ الوجهِ، شديدَ الحقدِ والضغينةِ على كلِّ مَنْ لا يستسلمُ لِرَأْيِهِ، سريعَ الردِّ قاسِيَهُ؛ دسَّاسًا مُدَلِّسًا، بِدْعِيًّا، قبوريًّا، مُرَاوِغًا وَمُشَعْوِذًا... عاشَ مستكبِرًا، لم يتواضعْ لأحدٍ من عباد اللهِ في حياتِهِ، ولا رَجَى للهِ وقارًا. لم يشهد أحدٌ مِسْحَةَ بَشَاشَةٍ على وجهِهِ قطُّ. كانت السلبيَّةُ والنفورُ والغضبُ والكراهيَّةُ سائدةً على أسلوبِهِ طوالَ حياتِهِ. لم يكن صريحًا في حديثِه وخُطَبِهِ، بل كان مُعْظَمُ كَلِمَاتِهِ وتعبيراتِهِ غامضةً تتضافر فيها ألفاظٌ غريبةٌ، ومصطلحاتٌ علميَّةٌ، وتعبيراتٌ يجهلُها أغلبُ الناسِ لِيُوهِمَ بذلك أنَّه أعلمُ البشر قاطبةً. ظهر بعد اعترافاتِ أشخاصٍ من المقرَّبين إليه أنَّه أَوْعَزَ إلى بِطَانَتِهِ أنْ يعظِّموا شأنَهُ ويبالغوا في توقِيرِهِ وإجلالِهِ عند الناسِ. فامتثلوا لأمرِهِ، واعتادوا تَفْخِيمَهُ كُلَّمَا مرَّ ذكرُهُ، ورفعوهُ فوقَ مقامِ الأنبياءِ فاشتهر أخيرًا بصفة "إمام الكونِ" و"إمام الأئمة".

لمزيدٍ من المعرفة حول هذا الشخصِ وأفاعيلِهِ، يُوصَى بمراجعةِ الإعترافاتِ التي أدلى بها المنشقُّونَ من جماعةِ "الحَشَّاشِينَ الجُدُدِ"، وعلى رأسِهِمْ: نور الدين فيرين Nurettin Veren، وفاتح تزجان Fatih Tezcan، وحسين كولرجه Hüseyin Gülerce، وَلطيف دوغان Latif Doğan، والأستاذ الدكتور أحمد كلش Prof. Dr. Ahmet Keleş.

[129] راجع الرابط: http://elshaab.org/thread.php?ID=102496

ظهرتْ بعدَ منتصفِ القرنِ العشرين تيَّاراتٌ باسمِ السلفيَّةِ[130] منها جماعاتٌ خارجيةٌ متباينةٌ في مواقِفِها السياسيَّةِ وأهدافِها الأيديولوجيَّةِ والإستراتيجيَّةِ، وإنْ اتَّحَدَتْ في الفكرةِ والعقيدةِ.. بينها فئاتٌ متشدِّدةٌ ومتطرِّفَةٌ نازعةٌ إلى العنف سُمِّيَتْ (بالسلفيَّة الجهاديَّة). انتشرتْ هذه الجماعاتُ في أنحاءِ الوطنِ الإسلاميِّ متزامنَةً مع بروزِ الأفكارِ المضادَّةِ للإسلامِ، وهجماتِ الحاقدين على المقدَّساتِ الإسلاميَّةِ، والاستيلاءِ على بلادِ المسلمين وقتلِ الملايينِ منهم، وتشريدِهِمْ، واغتصابِ نسائِهِمْ، وإرهابِ الآمنين الْعُزَّلِ منهم، وتدميرِ مساجدِهِمْ، وتمزيقِ المصاحِفِ الشريفةِ، والسخريَّةِ بالنبيِّ محمَّد عليه السلام، وغيرِ ذلك مِمَّا لا يُحْصىَ من أشكالِ الجرائِمِ والجناياتِ والتخريبِ والقهرِ والإزلال..

بدأ الفكرُ التكفيريُّ يتنامَى في العالمِ الإسلاميِّ خاصَّةً في المنطقةِ العربيَّةِ، بعد أن رأتْ قِلَّةٌ متحمِّسةٌ: أنَّ السوادَ الأعظمَ من المسلمين يتقاعسُ عن مقاومةِ الإحتلالِ الصهيونيِّ للأراضِي الفلسطينيَّةِ، ويشاهدُ جناياتِ الجيوشِ الإسرائيليَّةِ ضِدَّ الفلسطينيّين بدمٍ باردٍ. فلمَّا ثبتتْ بالبراهينِ القاطعةِ أنَّ هناك حِلْفًا (يهوديًّا–مسيحيًّا عَوْلِمِيًّا)، يقفُ وراءَ مداهمةِ بلادِ المسلمين في أفغانستانَ والعراقِ، والشيشانَ، والصومال، والفلبينَ، وغيرِهَا، ثارتْ حفيظةُ هذه الْفِئَةِ القليلةِ، فَعَمَدَتْ إلى تكفير المسلمين بسببِ تَخَاذُلِهِمْ عن نُصْرَةِ إخوتِهِمِ المظلومِين في هذه البلادِ المقهورةِ مِنْ قِبَلِ جيوشِ الْمُعَسْكَرَيْنِ الروسِيِّ والأميركِيِّ. ثُمَّ تطوَّرَ الأمرُ حتَّى قامتْ هذه (الفئةُ القليلةُ) بتشكيلِ منظَّماتٍ مُسَلَّحَةٍ للدفاعِ عن المناطق المحتلَّةِ في أنحاءِ الوطنِ الإسلامِيِّ، على رأسِهَا: فلسطين، والمنطقةُ الأفغانيَّةُ، والشيشان.. مع التركيز على القيامِ بأعمالٍ إرهابيَّةٍ ضد الحكومات الْعَلْمَانِيَّةِ والطاغوتيَّةِ الْمُتَقَمِّصَةِ بوشاحِ الديموقراطيَّةِ في المناطقِ الإسلاميَّةِ، مثل: تركيا، ومصر، وسوريًا، وتونس وغيرها

---

[130] السَّلَفِيَّةُ: نِسْبَةٌ إِلَى السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ وَهُمْ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلاَثَةِ الْمُفَضَّلَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ: خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِين يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. وَالْمُرَادُ بِالسَّلَفِيَّةِ (عَلَى لِسَانِ السَّلَفِيِّينَ): "هِيَ الْعَقِيدَةُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَمَن تبِعَهم وَشُهِدَ لَهُ بِالإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَعُرِفَ فَضْلُهُ وَعَظُمَ شَأْنُهُ فِيهِ، وَتَلَقَّى النَّاسُ كَلاَمَهُ بِالْقَبُولِ؛ كَالأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ: أَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيّ، وَأَحْمَدَ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيّ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَالنَّخَعِيّ، وَالْبُخَارِيّ، وَمُسْلِمٍ، وَأَصْحَابِ السُّنَنِ". وَتُطْلَقُ صِفَةُ (السَّلَفِيّ) عَلَى الْمُتَمَسِّكِ بِهَذِه الْعَقِيدَةِ. إِنَّمَا ظَهَرَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ وَشَاعَتْ عِنْدَمَا تَفَاقَمَتِ الْبِدَعُ وَشَذَّ أَهْلُ الأَهْوَاءِ عَنِ الْجَمَاعَةِ فِي الْمَنْهَجِ وَالاِعْتِقَادِ؛ فَتَسَمَّى الْمُتَمَسِّكُونَ بِمَنْهَجِ وَعَقَائِدِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ فِي عَهْدِ تَابِعِي التَّابِعِينَ بِ"أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ" فِي مُقَابَلَةِ "أَهْلِ الْبِدْعَةِ" مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَالْخَوَارِجِ، وَالْمُرْجِئَةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ، وَالرَّافِضَةِ، وَنَحْوِهِمْ. وَلَمَّا حَاوَلَ الْخَلَفُ مِنَ الأَشَاعِرَةِ نُصْرَةَ عَقَائِدِ سَلَفِ الأُمَّةِ بِالْمَنْهَجِ الْعَقْلِيِّ سُمِّيَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِمَنْهَجِ السَّلَفِ بِ"السَّلَفِيِّينَ". إِنَّ تَعْبِيرَ "السلفيةِ" أَصْلاً: مُصْطَلَحٌ مُسْتَحْدَثٌ حَاوَلَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ تَأْصِيلَهَا، بَيْنَمَا ادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ مُخْتَلَقَةٌ، وَلاَ خِلاَفَ فِي أَنَّهَا ظَهَرَتْ حِينَ دَارَ النِّزَاعُ حَوْلَ أُصُولِ الدِّينِ بَيْنَ الْفِرَقِ الْكَلاَمِيَّهِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ انْتَسَبُوا إِلَى السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَعُرِفُوا بِاسْمِ "أَهْلِ الأَثَرِ"، وَ"أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ". وَبِهَذَا الإِعْتِبَارِ؛ فَإِنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْهَجِ الصَّحَابَةِ هُوَ الأَصْلُ الَّذِي انْشَقَّ عَنْهُ الْمُخَالِفُونَ، وَالأَصْلُ لاَ يَحْتَاجُ إِلَى سِمَةٍ خَاصَّةٍ تُمَيِّزُهُ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُسْتَحْدَثُ لَهُ اسْمٌ معيَّنٌ لِتَمْيِيزِهِ هُوَ الْخَارِجُ عَنْ هَذَا الأَصْلِ. لِذَا لَمَّا سَأَلَ رَجُلٌ الإِمَامَ مَالِكًا عَنْ تَعْرِيفِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَجَابَهُ بِقَوْلِهِ: "الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ لَقَبٌ يُعرَفُونَ بِهِ، لاَ جَهْمِيٌّ ولاَ رَافِضِيٌّ وَلاَ قَدَرِيٌّ"... مَعْنَاهُ: أَنَّ أَهلَ السُّنَّةِ إِنَّمَا يَلْتَزِمُونَ الأَصْلَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ. وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ إِنَّمَا اسْتُعْمِلَتْ بَعْدَ الْفِتْنَةِ عِنْدَ بِدَايَةِ ظُهُورِ الْفِرَقِ الدِّينِيَّةِ فِي الأُمَّةِ وَتَعَدُّدِ الاتِّجَاهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ فِيهَا حَوْلَ أُصُولِ الدِّينِ. المصدر: فريد صلاح الهاشمي، المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية (غير مطبوع).

التي كانت لها علاقاتٌ مع (الحلفِ اليهوديّ–الْمسيحيّ الْعَوْلَمِيّ)!. فكان لِتُرْكِيَا أيضًا نصيبٌ نسبيٌّ وقليلٌ جدًّا من نشاطاتِ هذه الجماعاتِ كنتيجةٍ لِمَوْجَاتِ الإنفعالِ الْمُتَفَاقِمِ في العالَمِ الإسلاميِّ ضدَّ غطرسةِ (العَلمانيَّةِ–الوثنيَّةِ) وتحويلِ هذه البلادِ إلى ساحةٍ خصبةٍ للغزو الثقافي الْغَرْبِيِّ.

إنَّ الساحةَ التُّرْكِيَّة قديمًا كانت خاليةً من التكفيريّين، لأنَّها أوَّلاً: بعيدةٌ عن المناطقِ التي ظهرَ فيها الخوارجُ الذين أورثوا الفكرَ التكفيريَّ، فلم يلتقِ المجتمعُ التركيُّ عبرَ تاريخِهِ بالخوارج. لذا، بَقِيَ الفكرُ التكفيريُّ غريبًا عليه. وثانيًا: نشأ الأتراكُ ومَنْ تابعَهم من الأكرادِ والشراكِسَةِ واللاَّزِ وغيرِهم من الأقلّيّات (الْمُسْلُمَانِ)، على العقائدِ الصوفيَّةِ، والتقليدِ المحضِ لِدِينِ الآباءِ، بعيدين عن التوحيدِ الخالصِ، فضلاً عن الفكرِ التكفيريِّ الذي منشؤه الغلوُّ في الدعوةِ إلى التوحيدِ، فباتوا متسامحين لكلِّ أشكالِ الإشراكِ، متوغِّلين في القبوريَّةِ، ومنهمكين في تأليهِ الْمَوْتَى من شيوخِهم، وَملوكِهم وسلاطينِيهم عبر القرون. وثالثًا: كانتِ العلاقاتُ بين الأتراكِ والعربِ محدودةً عبرَ التاريخ، فلم يجدوا فرصةَ التعايُشِ مع العربِ حتَّى تتجانسَ عقيدةُ الطرفين في توحيدِ اللهِ الَّذِي هو أساسُ الدِّينِ. وهذا أدَّى إلى تفسيرِ الأتراكِ للإسلامِ مخالفًا عمومًا عن تفسيرِ العربِ له.

فلهذه الأسبابِ وغيرِها انْسَدَّتْ الأبوابُ على الفكرِ التكفيريِّ من التَسَرُّبِ إلى الساحةِ التُّرْكِيَّةِ حتَّى بدأ تتطوَّرُ أجهزةُ الإتِّصالاتِ، فكثُرتْ سُبُلُ المواصلاتِ، وازدادَ فضولُ الشبابِ الأتراك حولَ الأحداثِ والأخبارِ المتدفِّقة من المنطقةِ العربيَّةِ مع ازديادِ عددِ الْمُلِمِّينَ منهم باللُّغة العربيَّةِ في السنين الأخيرةِ خاصَّةً بعد رفعِ الحظر عنها.[131] هذا بالإضافة إلى علاقاتِ الطلاَّبِ العربِ مع زملائِهِمْ الأتراك في الجامعاتِ التُّرْكِيَّةِ، خاصَّةً المتوافدين من الجزائرِ والأردن، حيث كَثُرَتْ فيهما نشاطات السلفيِّين.. فظهرتْ على أثرِ هذه التطوُّراتِ تجمعاتٌ صغيرةٌ تدعو إلى التوحيدِ الخالِصِ، ونبذِ الإشراكِ باللهِ، والإهتمامِ بقضايا المسلمين وآلامِهِمْ من جراءِ جناياتِ الصهاينةِ وهجماتِ الصليبيَّةِ المعاصرةِ وغزواتِهَا المسلَّحةِ وغيرِ المسلَّحةِ في أنحاءِ الوطنِ الإسلاميّ. فما لبث حتى أثارتْ الجماعاتُ الصوفيَّةُ الرأيَ العامَّ المحليَّ بأنَّ هؤلاءِ تكفيريُّونَ وإرهابيُّون. وحاولَ النقشبنديُّونَ خاصَّةً أنْ يُضَخِّمُوا الأمرَ بضجيجهم فأثاروا زَوْبَعَةً في فنجانٍ ضدَّ الأقلِّيَّةِ الحنيفةِ والسلفيّين الذينَ طالما يتعرَّضونَ لاضطهادٍ شديد، وإذلالٍ وتَهَكُّمٍ، وسخريَّةٍ، واحتقارٍ، ومطاردةٍ واعتقالات..

---

[131] أُلْغِيَ قانونُ منعِ تدريسِ وتعليمِ اللّغةِ العربيّةِ في عهد تُرغوت أوزال بالقانون رقم: **2789/92**، الصادر بتاريخ: **20** مارس **1992**م. والذي نُشِرَ في الجريدة الرسمية رقم: **21177**.

وعلى رغم خلوّ الساحةِ التُّركيَّةِ مِنَ الفكرِ التكفيريِّ والمنظماتِ التكفيريَّةِ قد يتجرَّأُ بعضُ المتطرّفين على إشْعَالِ هذه الفتنةِ كما حدثَ ذلك في سنة 1989م. حيث ظهرَ طبيبٌ فلسطينيٌّ متخرجٌ في جامعةِ جابا Çapa بمدينةِ إسطنبول، فأقحمَ نَفْسَهُ في هذه المغامرةِ أيَّامَ دراستِهِ، فجمعَ حوله نفرًا من زملائِهِ من الطلابِ الأتراك، فغرَّهم بطريقةِ غسلِ الدِّمَاغِ، فحوَّلَهُمْ إلى آلياتٍ تكفيريَّةٍ. والطامَّةُ الكبرى؛ أنَّهم جميعًا يتمتَّعون بمؤهَّلاتٍ علميَّة في الطبِّ مِمَّا بعثَ الثقةَ في نفوسِ طائفةٍ من الموحِّدين، فاعتقدوا "أنَّهم مُثَقَّفُونَ على مستوياتٍ عاليةٍ، وأنَّهم يَجْمَعُونَ بين عِلْمَيْنِ جليلين: الطبِّ والعقيدةِ الإسلاميَّةِ، إذنْ أنَّهم على حقٍّ."، مع أنَّ الحقيقةَ عكسُ ذلك. لأنَّ معرفتَهم عن الإسلامِ لم تتعدَّ عن معلوماتٍ ملتقطةٍ من هنا وهناك، وملفَّقَةٍ لا تتَّسمُ بالعلميَّةِ والمنهجيَّةِ. وذلك لِتَشَبُّعِ هذا الرجلِ التكفيريِّ المتعالِمِ بما لَمْ يُعْطَ، وَتَفَاهَةِ حَظِّهِ من علمِ أصولِ الدِّين، مع تفانيهِ في حب الشهرة الزائفة..

ثم أُذيقُوا وبالَ أمرهم أنْ سَطَتْ عليهم شُرْطَةُ الدولةِ العَلْمَانيَّةِ فَاعْتُقِلُوا فترةً من الزمن[132]. ولكنَّهم أثاروا فتنةً في قومٍ كانوا ولا يزالونَ يتقلَّبون في أمواجِ فتنةِ القبوريَّةِ منذ ألفِ عامٍ وهم في غِنًى عن أن يُكَفَّرُوا أصلاً، لحاجتِهم قبل كلِّ شيءٍ إلى دُعَاةٍ من أهلِ العلمِ والحلمِ والتقوى، لِيُرْشِدُوهُمْ، فَيُمَيِّزُوا لهم بين الْمُسْلُمَانيَّةِ والإسلامِ أوَّلاً، ثُمَّ يدلُّوهم إلى هَدْيِ الإسلامِ. إذ كيفَ يجوز عقلاً (فضلاً عن وجهة نظر الدِّين)، أن تُطلَقَ صفةُ الكفرِ على مجتمعٍ بأسرِهِ، وفيه جمهورٌ من المؤمنين (وإن كانوا زمرةً من الأقلِّيَّاتِ)، وفي مكوِّناتِ الشعب فئاتٌ من المنافقين، والزنادقةِ والملحدين وطوائف أخرى من الكفَّارِ والمشركين!. ثم مَنْ يملك القدرةَ على تفريق الكافرِ من المؤمن، أو تَمْيِيزِ الفاسِقِ من الصالِحِ في صفوفِ الملايين من هذا المزيجِ الغمرِ، اللهم إلاَّ عند نشوب خلافٍ أو جدلٍ بين اثنين، يظهر كُفْرُ أحدِهِمَا في خِضَمِّ الجدال، وليس ذلك إلاَّ حالةً استثنائيةً قد يمكن ضبطها بِدِقَّةٍ.

ظهرَ في الآونَةِ الأخيرةِ شخصٌ آخر دَيْلَمِيُّ الأصْلِ (من أكرادِ الظاظا)، من سُكَّانِ مدينةِ بينكول Bingöl الواقعةِ بالمنطقةِ الشرقيَّةِ، اسْمُهُ الحقيقيُّ: خالص بايانجوك Khalis Bayancuk مُلَقَّبٌ بـ (أبي حنظلة)، يزعم البعضُ أنه اشتهرَ بتسرُّعِهِ في تكفيرِ الناسِ، ووصفِهِ المساجدَ التابعةَ لرئاسةِ الشئونِ الدينيَّةِ بِـ (مساجدِ ضرارٍ). وقد تكون نسبةُ هذا الموقف إليه فريةً اختلَقَهَا الْمُغْرِضُونَ من الصوفية ونسبوها إليه لإغراءِ السلطة عليه بُغْيَةَ سَحْقِهِ ومن معه من الحنفاء الْمُوَحِّدِينَ. هذا، ويبدو أنَّ التكفيريِّن في تركيا، قد تأثروا بِكُتُبِ وفتاوَي المتشدِّدِين من علماءِ العربِ، ومقالاتِ نُشَطَائهم،

[132] هذا نص الخبر المنقول من جريدة الجمهورية الصادرة في إسطنبول بتاريخ: **09** أبريل **1985** م. ص/**8**.:

Bursa Emniyet Müdürlüğü'nden yapılan açıklamaya göre Ürdünlü Melaz Cemil Awwad, Recep Can, Orhan Özdemir, Mehmet Bahadır, Abdülkadir Akdere ve Tamer Dişbudak gözaltına alındılar. Cumhuriyet, 09 Nisan 1985, Sayfa 8

مثل: شكري أحمد مصطفى المصري،[133] وأبي عبد الله صادق بن عبد الله السوداني،[134] والخطيب الإدريسي التونسي،[135] وعبد القادر بن عبد العزيز المصري،[136] وأبي مصعب الزرقاوي،[137] وأبي مصعب السوري[138]. لا يزال أبو حنظلة يواصل نشاطاتِهِ في تركيا، ويزعم "أنَّ الصلاةَ في هذه المساجد، خلفَ أولياءِ الطاغوت ونُوَّابِهِ" باطلةٌ. أثارتْ أقوالُ هذا الرجلِ الإنتباهَ في أوساط النقشبنديّين خاصَّةً، فأقاموا الدنيا عليه.

وجملةُ القولِ: إنَّ الواقعَ قد أثبتَ: أنَّ أيَّ حركةٍ تكفيريَّةٍ[139] تظهرُ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ، لا يُستَبْعَدُ أنْ تَدْفَعَ السلطةَ وَمَعَهَا ملايينُ الصوفيَّةِ والقبوريّين المتربّصين بالأقلّية الحنيفةِ والسلفيّين ليتَّخذُوا (من

---

[133] هو شكري أحمد مصطفي عبد العال من أهالى (أبو خرص) مركز أبو تيج أسيوط (مصر). ولد في اليوم الأول من شهر يونيو عام **1942**م. تخرَّج من كلّيَّةِ الزراعة، لكنَّه توغَّلَ في مسائلِ أحكامِ الدِّين. كانَ متسرّعًا في الحكم، نازعًا إلى الغلوّ. أسَّس جماعةَ التكفير والهجرة. صدرت ضد جماعته فتاوَى عِدَّةٌ، اشهرُها فتوى الشيخ الذهبي الذي اغْتِيلَ على خلفيتها. تمَّ إدانة الجماعة باغتيالِهِ عام **1977**م. في محاكمةٍ عسكرية، وانتهت بحكمِ الاعدامِ شنقًا لخمسةٍ من المتَّهَمِين. وكان منهم شكري مصطفى، وقد اثار حكم الاعدامِ وطريقَةُ القتلِ بعضَ التساؤلاتِ عن الرحمةِ وحقوقِهِمْ أثناءَ ممارَسَةِ طقوسِ الاعدامِ. تمَّ القبضُ عليهم ومثَلُوا أمامَ المحاكمة في القضيةِ رقم **6** لسنة **1977**م ونُفِّذَ فيهم حكمُ الإعدامِ في **30** مارس **1978**م صبيحةَ زيارَةِ أنور السادات للقدس.

[134] فاضل سوداني من تلامذة الشيخ سليمان العلوان، له إلمام بالحديث. زعم البعض أنه تكفيريٌّ، والله أعلم.

[135] مُثَقَّفٌ عربيٌّ متشدِدٌ، وصفه البعضُ بـ"شيخِ التكفيريّين"

[136] طبيبٌ وعالِمٌ مصريٌّ، نذرَ حياتَهُ للجهاد، من مؤلفاته: "العمدة في إعداد العدة"

[137] ناشط، حركيٌّ ،عربيٌّ أردنيٌّ متشدِدٌ، له محاضراتٌ تأثَّر بها جمهور من الشباب، قُتِلَ في غارةٍ بمدينة بعقوبة (العراق)، يوم **2006/6/8**م.

[138] مهندس حلبي، من النشطاءِ الجهاديين، له كتابٌ اسمه "أفغانستان وطالبان".

[139] التكفير: مصطلحٌ فقهيٌّ، معناه: إطلاقُ صفةِ الكُفْرِ على الشخصِ واتِّهامُهُ بالخروجِ من ملَّةِ الإسلام. وأمَّا الحكمُ على شخصٍ أو جماعةٍ بالكُفْرِ بغيرِ برهانٍ واضحٍ ودليلٍ قاطعٍ، فأمرٌ في مُنتهَى الخطورةِ، بسببِ نتائجِهِ الهَدَّامَةِ التي قد تؤدِّي إلى تطوُّراتٍ وَفِتَنٍ تَعُمُّ الأعراضَ والأرواحَ البريئَةَ، وتُستباحُ في غمرتِها بيضةُ المسلمين.

ظهرتْ بعد منتصفِ القرنِ العشرين تيَّاراتٌ سلفيَّةٌ متباينةٌ في مواقفها السياسيَّةِ وأهدافِها الإستراتيجيَّةِ وإن اتَّحدتْ في الفكرةِ والعقيدةِ. منها فئاتٌ متشدِّدَةٌ نازعةٌ إلى الْعُنْفِ سُمِّيتْ (بالسلفيَّةِ الجهاديَّةِ). انتشرتْ هذه الجماعاتُ في أنْحاءِ الوطنِ الإسلاميّ متزامنةً مع بُرُوزِ الأفكارِ المضادَّةِ للإسلام وهجماتِ الحاقدين على المقدَّساتِ الإسلاميَّةِ. ينتشرُ الفكرُ التكفِيرِيُّ عادةً عندَ انتشارِ مظاهرِ الخروجِ على الدِّينِ وتعاليمِهِ، وشيوعِ الفسادِ، وإعراضِ الحكوماتِ عن تحكيمِ الشريعةِ، واستبدالِ ذلك بالقوانينِ الوضعيَّةِ المستَوْرَدَةِ من بلادِ الْكُفْرِ، وعند ممارسةِ الاضطهادِ والمعاملةِ الوحشيَّةِ ضدَّ أهلِ التوحيدِ بسببِ مُطَالَبَتِهِمْ بتطبيقِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ. كذلكَ من أسباب انتشارِ نزعةِ التكفيرِ: قِلَّةُ الفِقْهِ في الدِّين، وضَعفُ العلمِ بتعاليمِ الإسلام.

من ضوابط التكفير باختصارٍ شديد: أَنَّهُ حُكْمٌ شرعيٌّ لا مدخلَ للرَّأْيِ المجرَّدِ فيه؛ وَأَنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يكفِّرونَ أحدًا بالمعاصِيةِ إلاَّ إذا استحلَّهَا، وأَنَّ لِلْحُكْمِ بالرِدَّةِ والكُفْرِ موجباتٌ وأسبابٌ هي نواقضُ الإيمانِ والإسلامِ من اعتقاد؛ وأنَّ كلَّ مخالفٍ لأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يُكَفَّرُ لِمُجَرَّدِ مخالفتِهِ. بل يُنْزَلُ حُكْمُهُ حسب مخالفتِهِ من كُفْرٍ، أو بِدْعَةٍ، أو فِسْقٍ، أو مَعْصِيَةٍ؛ وأنَّ إصدارَ الْحُكْمِ بالتكفيرِ لا يكونُ لكلّ أحدٍ من آحادِ الناسِ أو جماعاتِهِم، وإنَّمَا مَرَدُّ الإصدارِ إلى أهلِ الإختصاصِ من العلماءِ الراسخين.

هذهِ الحركةِ) ذريعةً فيَسْحَقُوهُمْ بِسَبَبِهَا، وَيُبِيدُوهُمْ عن بكرة أبهم في ساعاتٍ محدودةٍ! علمًا بأنَّ الطُّغْمَةَ السبطائيَّةَ الْمُنْدَسَّةَ في قمَّةِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ تنتهزُ أدنى فرصة لِتُورِّطَ الحكومةَ في مثلِ هذه الفتنةِ، لكي تستأنفَ لُعْبَتَهَا بالتعاونِ مع (الحلفِ اليهوديّ–الْمسيحيّ الْعَوْلَمِيّ) من جديد!.

7) التيارُ الْعَصَبِيُّ الطَّائفيُّ

انتشرَ التَّيارُ العَصَبِيُّ التُّرْكِيُّ بين قِطَاعَاتٍ من الذين يَدَّعونَ أنَّهم من امتدادِ سلالاتٍ هاجرتْ مع زحفِ القبائلِ التُّرْكِيَّة عَبْرَ القرونِ الوُسطَى من بلادِ ماوراءِ النهرِ إلى منطقةِ أناضولَ، حيث آخِرُ مستقرِّهَا. هؤلاءِ يبالغون في الاعتزازِ بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّة، وأمجادِ الأُمَّةِ التُّرْكِيَّةِ، يستحقرون العربَ خاصَّةً ويسخرون منهم، ويستضعفون الأكرادَ... لهم هُتَافَاتٌ غريبةٌ، منها: "المرءُ التُّرْكِيُّ الواحدُ يَعْدِلَ البشريَّةَ كلَّهَا"[140]، و"طُوبَى لِمَنْ يقولُ أَنَا تُرْكِيٌّ"[141]. يكرهون كُلَّ من ليس من عِرْقِهم، أَوْ يتحدَّثُ بغيرِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، مثل الأكرادِ والعربِ وغيرِهم من الفصائلِ العرقيَّةِ الَّتِي يتكوَّنُ منها المجتمعُ التُّرْكِيُّ.

لا شكَّ في أنَّ نزعةَ التكفيرِ والعنفِ متلازمتان. فالإنسانُ التكفيريُّ مستعدٌّ لاستعمالِ العنفِ في كلِّ لحظةٍ بدافع هَوَاهُ وعقليتِهِ البسيطةِ (كما يصدر ذلك من بعضِ عناصرِ –داعش– الإرهابيِّين الخوارج). لهذا؛ نبَّهَ العلماءُ قديمًا وحديثًا على خطورة التكفير، وقد عَدَّ جمعٌ منهم أفرادَ تنظيم القاعدةِ مِنَ الخوارج، كما أنَّ الأغلبيَّةَ في تركيا تكره هذا التيارَ وتراها "تنظيمًا إرهابيًّا"، يدلُّ على ذلك كلماتُ رئيسِ الجمهوريَّةِ عبد الله غُولْ، التي عَبَّرَ فيها "أنَّهُ فَرِحٌ جدًا بالقضاءِ على رأسِ الإرهاب"، إشارةً إلى قتلِ أسامةَ بن لادن.

وهذه كلماتُ رئيسِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة عبد الله غول، عقبَ استشهادِ أسامةَ بنِ لادن رحمه الله تعالى. نُشِرتْ في معظم الجرائد التُّرْكِيَّة، وهذا نَصُّهَا.

http://www.samanyoluhaber.com/gundem/Abdullah-Gulden-bin-Ladin-cevabi/549160/

«Bu şunu gösteriyor; teröristler ve terör örgütlerinin başlarının sonu, eninde sonunda canlı veya cansız ele geçirilmektir. Dünyanın en tehlikeli ve sofistike başının da bu şekilde ele geçirilmiş olması, herkese ibret vesilesi olmalı. Büyük memnuniyetle karşılıyorum'». Samanyolu Gazetesi: 02 Mayıs 2011.

هذا، ومن بابِ تحذيرِ المسلمين من الإغترارِ بدعاياتِ التكفيريّين والانسحابِ من ورائِهِمْ، ينبغي الإشارةُ بالمناسبةِ إلى إنَّ أسامةَ بْنَ لادن كان رجلاً وهَّابيًّا متشدِّدًا يجهلُ الحكمةَ في التعامل، (والله أعلم بما إذا كان تكفيريًّا خارجيَّ النَّزْعةِ، فلا يجوز اتّهامه بدون دليل!). أقحمَ نفسَهُ في متاهاتٍ بتَصَدّيهِ لِلْحِلْفِ اليهوديّ–المسيحيّ الْعَوْلَمِيّ. جَهِلَ أو تجاهل ما يملكُ عالَمُ الكُفْرِ من القدرةِ والهيمنةِ في حين تُعَانِي الأمَّةُ (الْمُتَأسْلِمَةُ) من الضعفِ وشتاتِ الشمل، تتمرَّغُ في أوحالِ الوثنيَّةِ لِجَهْلِهَا بالإسلامِ. تورَّط ابْنُ لادن في مغامرةٍ عمياءَ وسَحَبَ وراءَهُ آلافًا من شبابِ المسلمين على غير بصيرة، فهلكَتْ منهم جماعاتٌ غفيرةٌ وذهبتْ دماؤُهم سُدًى فلم يتمكَّنوا من جمع شَمْلِ الشعبِ الأفغانِيّ فضلاً عمَّا تركوا من سُمْعَةٍ سيِّئَةٍ للأُمَّةِ (الْمُتَأسْلِمَةِ) على حسابِ الإسلامِ حتى اعتقد الكفارُ "أنَّ الإسلامَ دينُ القتلِ والإرهابِ!". فأين إذَنْ بِهؤلاءِ الهمجيّين أنْ يُحَوِّلُوا هذا السوادَ العظيمَ إلى أُمَّةٍ مُسْلِمَةٍ للهِ، مُوَحِّدَةٍ له، مُتَمَاسِكَةٍ، راشدةٍ، متعاونةٍ على الْبِرّ والتَّقْوَى! بينما يعتذرُ البعضُ لابْنِ لادن: "بأنَّهُ إنَّمَا فعل ما فعل لغيرتِهِ على الإسلامِ وأهلِهِ الْمُعَرَّضِين للقتلِ والإبادةِ، وأنَّ كثيرًا من المسلمين في مختلفِ أنحاءِ العالم عَدُّوهُ من أعظم الشهداءِ وأجلّهِمْ، ولَعَنُوا دولةَ الإرهاب التي تَلَبَّسَتْ بالجنايةِ عليهِ". وعلى كل حالٍ نرجو أن يكون قد نال منزلة الشهداءِ، ونسأل الله تعالى أن يتغمَّدَهُ بواسعِ رحته، وأن يغفرَ لكلِّ مَنْ جاهد أعداءَ الإسلامِ في صفوفِهِ وقُتِلَ في سبيل الله، إنه تعالى ولي المؤمنين.

[140] نص الْهُتَافِ باللُّغَة التُّرْكِيَّة: Bir türk dünyaya bedeldir.

[141] نص الهتاف باللُّغَة التُّرْكِيَّة: Ne mutlu Türküm diyene

يتعدَّى احتقارُهم لغيرِ بَني قومِهم إلى حدٍّ يُفَضِّلُ الكثيرُون منهم انتماءَهُمْ القوميَّ على إنتمائهم الدِّينِيّ. لهذا ليس من القليلِ مَنْ يُعَبِّرُ عن هذا الترجيحِ بقوله: "أَنَا تُرْكِيٌّ أَوَّلاً ثُمَّ مُسُلْمَانٌ"[142] قد تحوَّلتْ هذه النَّزْعةُ في بعضِهم إلى عُقْدَةٍ نفسيَّةٍ حادَّةٍ جَرَّتْهُ إلى وصفِ الإسلامِ بِ((دين العرب!)). يُقَدَّرُ عددُ هؤلاءِ بملايين، وأكثرُهم الكماليُّون. قال أحدُ شعرائِهم: كمال الدين كامو، يُعَبِّرُ عن كراهِيَّتِهِ ورفضِهِ لِلإسلامِ في أبيات له:

لا عنكبوت ولا طحلب،
لا مُعْجِزَه ولا شعوذه،
فَلْتَكُنِ الكعبةُ للعرب،
يكفينا قَصْرُ شَنْكَايَا...[143]

أمَّا قصرُ شَنْكَايَا، هذا الَّذي يعتزُّ به الشاعرُ كمال الدين كامو Kemalettin Kamu، ويجعل منه بديلاً من ((كعبةِ العربِ)) على حدِّ قوله، فكان مقرَّ مصطفى كمال في أنقره طوالَ حياتِهِ، ثمَّ تخصيصُهُ كقصرٍ لِرئيسِ الجمهوريَّةِ، يُقِيمُ فِيهِ فَتْرَةَ رِئَاسَتِهِ كُلُّ مَنْ يُنتَخَبُ رئيسًا للجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة[144]. ولم يكنْ يومئذٍ قد أُنْشِئَ بعدُ، ضريحُ مصطفى كمال الذي أُتُّخِذَ بديلاً عن كعبةِ الإسلامِ، والذي دامَ إنشاؤُهُ تسعةَ أعوامٍ، ما بين: 1944–1953م.

إنَّ التيَّارَ العنصريَّ التركيَّ يتنوَّعُ مِنْ حَيْثُ شِدَّتُهُ وخطورتُهُ، ويتشعَّب إلى اتِّجاهاتٍ متباينةٍ تحت دوافعَ سياسيَّةٍ من مرحلةٍ إلى أخرى. يَتَوَلاَّهَا أشخاصٌ بِحُكْمِ مركزِهِمْ، تختلفُ مواقفُهُم من الإسلامِ

---

[142] **هذا ضبط المقولة باللُّغَة التُّرْكِيَّة:** Ben önce Türküm, sonra müslümanım!

[143] **هذا نصُّ أبياتِ الشاعر كمال الدين كامو** Kemalettin Kamu **باللُّغَة التُّرْكِيَّة:**

«Ne örümcek ne yosun
Ne mucize ne füsun
Kâbe arabın olsun
Bize Çankaya yeter.»

المصدر: Dr. Mehmet Doğan, Batılılaşma İhaneti, Yazar publcations, 34th edition, pg: 74, İstanbul-2012.

[144] **كان قصر شانكايا مقرًّا لرؤساء الجمهورية التركية منذ عهد أتاتورك، وكان عبد الله غول آخر رئيسٍ أقام فيه. حيث بُنِيَ قصرٌ جديدٌ كمقرٍّ لرئيسِ الجمهوريةِ في ناحيةٍ من مزرعةِ أَتَاتُورْكْ الكائنَةِ في أنقره، وذلك في الفترةِ التي كان رجب طيّب أردوغان رئيسًا للوزراء. يُعْتَبَرُ المبنَى من أفخمِ القصورِ بتصميمِهِ الأنيقِ ومنظرِهِ الجميلِ، ممَّا أثارَ جدلاً في الأوساطِ السياسيَّةِ بأنَّهُ يزدادُ عظمةً على القصرِ الْمَلَكِيّ البريطانِيّ، وقصرِ الإليزيه في باريس، إذ يتكوَّنُ من ألفِ غُرْفَةٍ فارهةٍ وتتجاوزُ تكلفتُهُ 616 مليون دولار. يمتازُ القصرُ بملامِحَ متضافرةٍ من الفنِّ السلجوقِيِّ والعثمانِيِّ والأوروبي. كان أردوغَان أول رئيس أقام فيه.**

بحسبِ مشاعرِهم وانتماءاتِهم وأغراضِهم. منهم مَنْ يعتقدُ أنَّ الأتراكَ لا يمكنُ أن يتمتَّعوا باستقلاليَّةٍ ثقافيَّةٍ تامَّةٍ إلاَّ بعد إقصائِهم من الإسلامِ خاصَّةً ومن مفهوم الدِّين عامَّةً وبشكلٍ نهائيٍّ. هذا الإتِّجاه، دافعَ عنه عددٌ من مَلاَحِدَةِ الأتراكِ، على رأسهم: إلْهَانْ آرْسِيلْ، وتُورَانْ دُورْسُونْ...

وهناكَ اتِّجاهانِ تَوْؤَمَانِ، يؤمنانِ بوجودِ صبغةِ الإسلام على القوميَّةِ التُّرْكِيَّة، وبين الإتِّجاهين تضاربٌ من غير نزاعٍ شديد. أحدهما حركةٌ سياسيَّةٌ بحتة، يتولاَّها (حزبُ الحركة القوميَّةِ)، ومن أشهرِ رموزِ هذا الحزب: أَلْب أَرْسلاَنْ تُورْكَشْ Alparslan Türkeş، ودَوْلَتْ بَاخْجَلِي Devlet bahçeli.

أمَّا الإتِّجاه الثاني فإنَّها حركةٌ صوفيَّةٌ خطيرةٌ تتبنَّى تَتْرِيكَ الإِسْلاَمِ بِطُرُقٍ دَسَّاسَةٍ، وأساليبَ مَاكِرَةٍ. لهذهِ الحركةِ عجلتان، إحدَاهُما تتمثَّلُ في تنظيمٍ ضَخْمٍ واسعِ النطاقِ، يحاول احتواءَ الدولة التُّرْكِيَّة بالنفوذِ من الداخل إلى موسَّسَاتِهَا الإستراتيجيَّةِ عَبْرَ خُطَّةٍ مدروسةٍ. وَصَفَهُ رئيس الوزراءِ رجب طيب أردوغان بـ "العصابةِ الحشَّاشِيَّةِ"[145] إشارةً إلى ما يقوم به هذا التنظيم من التَّوَغُّلِ في أجهزة الدولةِ،

[145] وردت قصةُ هذه الجماعة في مقالٍ للكاتب إسماعيل ياشا، يقول:

جماعة (...) هي إحدى الجماعات المنتمية إلى مدرسة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، ولكنها تختلف عن الجماعات النورسية الأخرى بنفوذها الواسع الذي يعبر حدود تركيا وعلاقاتها مع الجهات الغربية. وكذلك من الصعب تصنيفها ضمن الجماعات الصوفية المعروفة.

ولا شك في أن آراء جماعة (...) ومنهجها كجماعة محسوبة على الجماعات الإسلامية بحاجة إلى دراسة معمقة من قبل أهل الاختصاص والباحثين بعيدا عن التطبيل والدعاية للجماعة، إلا أننا يمكن أن نشير هنا إلى أبرز ما تميزت به الجماعة:

الجماعة منذ بروزها وانتشارها في الساحة التُّرْكِيَّة، ميزت نفسها عمَا يُسمى "الإسلام السياسي"، ودعمت حزب الوطن الأم بزعامة تُرغوت أوزال وحزب اليسار الديمقراطي بزعامة بولنت أجاويد ولم تدعم أحزاب نجم الدين أربكان. وقال زعيم الجماعة في تصريح له: "لو كان لي حق الشفاعة في الآخرة لاستخدمتها لأجاويد".

وتصنَّف الجماعة في الغرب ضمن "الجماعات الإسلامية المعتدلة"، كما تحرص الجماعة نفسُها على الحفاظ على هذه السمعة. وبفضل هذه الدعاية، انتشرت في أنحاء العالم وفتحت المدارس، في الوقت الذي تحارَب فيه الجماعات الإسلامية الأخرى.

وترى الجماعةُ الحركاتِ الإسلاميةَ المسلّحةَ بما فيها المقاومة الفلسطينية "إرهابية" تشوِّه سمعة الإسلام. وقد أشار مؤسس الجماعة وزعيمها إلى أن أسامة بن لادن من ضمن أكثر من يكرههم.

وتؤيد الجماعة الحوار والتسامح بين الحضارات والأديان. وفي هذا السياق، قام زعيمها بزيارة الفاتيكان في **1998**م. والتقى البابا يوحنا بولس الثاني، وكذلك التقى رئيس رابطة مكافحة التشهير أبراهام فوكسمان اليهودي وشخصيات أخرى من الأديان والمذاهب المختلفة.

وكانت السلطات الروسية اتهمت شركات الجماعة ومدارسها بالعمالة لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية، ولكن الجماعة نفت هذه الاتهامات.

الجماعة لها اتصال أيضا ببعض المشايخ والدعاة والشخصيات المشهورة في العالم العربي. وعلى سبيل المثال لا الحصر، المفكر الإسلامي المصري محمد عمارة الذي يكتب في مجلة حراء التابعة للجماعة وكذلك الداعية المعروف الشيخ سلمان العودة الذي كشف عن مراسلات بينه وبين زعيم الجماعة.

وبالرغم من أن الجماعةَ محسوبة على المدرسة النورسية، إلا أن الجماعات النورسية الأخرى لا تؤيدها في كل مواقفها وآرائها. وقد انتقد شخصيات نورسية بارزة مثل البروفسور أحمد آكغوندوز موقف جماعة الأخير من حكومة أردوغان. وقال أحد أشهر تلاميذ النورسي الشيخ محمد كيركينجي إنه يحب أردوغان وحكومته ويقدرهما.

وتركز الجماعة على التعليم الحداثي في جميع المستويات، ولها مدارس ومعاهد منتشرة في جميع القارات، كما أن لها أنشطة ثقافية تنتقدها الجماعات الإسلامية الأخرى، كتلك التي تسمى "أولمبياد اللغة التُّرْكِيَّة"، وهي عبارة عن حفلات تقام في تركيا سنويا ويتسابق فيها طلاب مدارس الجماعة وطالباتها من مختلف دول العالم بالأغاني والرقصات التُّرْكِيَّة.

وعندما كانت الجماعات والحركات الإسلامية تحتج على حظر الحجاب في الجامعات في ثمانينات القرن الماضي، قال زعيم هذه الجماعة إن لبس الحجاب ليس من أصول الإسلام، بل هي قضية فرعية، وطلب من الطالبات خلع الحجاب لمواصلة دراستهن.

مواقفها السياسية:

كانت الجماعة تقول "أعوذ بالله من السياسة"، وأما اليوم فالسياسة تقول "أعوذ بالله من الجماعة".. هكذا يُقال هذه الأيام في تركيا، في إشارة إلى تورط الجماعة في السياسة من رأسها إلى أخمص قدميها. وتستغل الجماعة السياسة وعلاقاتها مع الأحزاب والحكومات لصالح مشروعها، وهو التغلغل في أجهزة الدولة ومؤسساتها وكذلك للحفاظ على مصالحها.

الجماعة لها مواقف سياسية تتناسب مع آرائها ومنهجها وتخدم مشروعها ومصالحها، وتعبر عنها من خلال وسائل الإعلام التي تملكها. وفي هذا السياق، تؤيد الحكومة في بعض سياساتها وتنتقدها في أخرى. ومن أبرز الانتقادات التي توجهها إلى حكومة أردوغان في الآونة الأخيرة عدم نجاحها في صياغة دستور جديد وكذلك انفتاحها الواسع على العالم العربي و"دخولها مستنقع الشرق الأوسط".

وتتهم الجماعة حكومةَ أردوغان بإثارة المشاكل مع تل أبيب، وترى أن إثارة التوتر في العلاقات مع إسرائيل في الوقت الراهن ليس في صالح تركيا ويبعدها عن المعسكر الغربي ويقربها من إيران وروسيا والشرق الأوسط، كما تتهمها بمحاباة إيران والابتعاد عن الواقعية في السياسة الخارجية وتبني أسلوب المغامرة في سوريا ومصر.

مشروع التغلغل والهيمنة على السلطة:

الجماعة لديها مشروع يهدف إلى التغلغل في المؤسسات الحكومية وأجهزة الدولة. وفي شريط مسرب قديم للقاء الجمع مع أقطاب جماعته، يحث الزعيمُ أتباعه على التخفي وعدم الظهور قبل أن يتمكنوا من السيطرة على جميع الأجهزة والمؤسسات الإستراتيجية، وكذلك يطلب منهم "شراء قضاة" لكسب القضايا في المحاكم.

الجماعة عملت سنين طويلة بصمت في تخريج القيادات وزرعهم في القضاء والشرطة والاستخبارات وغيرها، وكانت القوى العلمانية تتهم الجماعة بمحاولة السيطرة على الدولة وألف بعضُ الصحافيّين كتبًا لكشف خطة الجماعة ولكن الجماعة كانت دائما تنفي هذه الاتهامات.

وبلغت عملية التغلغل هذه ذروتَها بعد تحالف الجماعة مع حزب العدالة والتنمية، ولكن الحكومة تنبّهت أخيرًا وحاولت الحدَّ من هذا التغلغل.

ويرى مراقبون أن أزمة استدعاء رئيس الاستخبارات التُّرْكِيَّة، هاكان فيدان، من قِبَلِ المدّعي العامّ للإدلاء بصفتِهِ مشتبَهًا به في قضية اللقاءات مع قادة حزب العُمَّالِ الكردستاني كانت وراءها الجماعةُ، وأنها استهدفت فيدان للدور الذي يلعبه في مكافحة مشروع التغلغل، وكذلك لتوجيه رسالة إلى أردوغان ليتراجع عن قرار محاربة مشروع التغلغل.

ووفقًا لمصادرَ مقرَّبَةٍ من الحكومة، طلبت الجماعةُ من أردوغان أن تترك لها الحكومةُ أجهزةَ الشرطةِ والاستخباراتِ وأن تُوَجِّهَ السياسةَ الخارجيَّةَ. وكذلك طلبت من الحزب الحاكم **150** مقعدا في الْبَرْلَمَان، مع أنَّ أصواتَ الجماعةِ تتراوح ما بين **2** بالمائة و**5** بالمائة فقط.

بمعنى آخر، لو أسست الجماعةُ حزبًا سياسيًّا وخاضتْ به الانتخابات لما تجاوز حزبُها حاجزَ **10** بالمائة ولم تُدْخِلْ الْبَرْلَمَان نائبًا واحدًا.

وباختصار شديد، أرادت الجماعةُ أن تحلَّ محلَّ "الدولة العميقة"، فهل توهمت هي نفسها بأن بإمكانها أن تحل محل "الدولة العميقة" بعد تصفيتها وكسر نفوذها، أم إن هناك من وعدها بذلك؟ لا ندري.. المصادر:

https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=1131637; http://www.almoslim.net/node/197653

والتَّحَكُّمِ في مؤسَّسَاتِهَا بتوجيهٍ من مؤسِّسِهِ الذي يقيم في الخارجِ. وهو رجلٌ غريبُ الأطوارِ، مُشَعْوِذٌ، مُتَلَوِّنٌ، ماهرٌ في استمالةِ النفوسِ وغسلِ الأدمغةِ، يستغلُّ شخصيةَ سعيد النورسِيِّ ويقلِّدها بدقَّةٍ فائقة. يستطيع أن يُهَيِّجَ بِبُكَائِهِ الحارِّ في لحظاتٍ نفوسَ حشدٍ يقدَّرُ بآلافٍ من الذين يستمعون إليهِ وهم غَرْقَي في عالمٍ غريبٍ ودموعُهُمْ سجامٌ على خدودهم..

لقد تأثَّرَ وانْبَهَرَ به كثيرٌ من رجالِ الدِّينِ حتى في البلاد العربيَّةِ منهم أحدُ شيوخِ الوهابيَّةِ يُدعى (سلمان عودة). لهذه الحركةِ خلايا في معظم بلادِ العالَمِ، ولها مجلَّةٌ تَنْشُرُ أفكارَهَا بِلَبَاقَةٍ ودَهاءٍ في أحدِ البلادِ العربيَّةِ. يعمل "التنظيمُ الحشاشِيُّ" في الصورةِ كمؤسَّسَةٍ إسلاميَّةٍ إرشادِيَّةٍ وتعليميَّةٍ غايَتُها التثقيفُ والتهذيبُ ونشرُ العلمِ، وهي في حقيقتِها تَحَالُفٌ عملاقٌ تنضوي تحتها مئاتٌ من الشركاتِ، تعمل لأجل الدعوةِ إلى الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّة ونشرِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّة وَتَطْبِيعِ المشاعرِ على الكراهيةِ لِلْعَرَبِ والأكراد.

أما الْعَجَلَةُ الثانيةُ لهذا الإتِّجاهِ، فقد قامتْ بتحريكِها جماعةٌ كان يرأسُها عقيدٌ متقاعدٌ من متشيِّخي النَّقْشَبَنْدِيَّةِ يُدعَى حسين حلمي إشيك Hüseyin Hilmi Işık. احتلَّ مكانَهُ بعد موتِهِ زوجُ ابنتِهِ (د. أنور أورين Enver Ören)، ثم ما لبثَ حتى مات الرجل الثاني هو الآخر، وخلفه ابنه (أحمد مجاهد أورانِ Ahmet Mücahit Ören).

لهذه الجماعةِ النقشبنديَّةِ مؤسَّساتٌ تجاريَّةٌ ضخمةٌ تَضُمُّهَا شركةٌ قابضةٌ اسمها İhlas Holding. تُغَذِّي فَعَّالِيَّاتٍ توجيهيَّةً واسعةً لِتَتْرِيكِ الإسلام من خلالِ دعاياتٍ تبثُّها عبرَ قنواتٍ إذاعيَّةٍ مسموعةٍ ومرئيَّةٍ، وتوزيعِ كُتُبٍ مجَّانيَّةٍ بكمياتٍ كبيرة. يمكنُ تلخيص نشاطاتِهَا في ثلاثِ نقاطٍ هامَّةٍ:

- تُرَكِّزُ في دعاياتِهَا على عَظَمَةِ سلاطينِ وملوكِ وأولياءِ الأتراكِ، وتحاولُ تَقْدِيسَهُمْ وتأليهَهُم.

- تَدْعَمُ جهودَ النظامِ الكماليِّ الهادفةِ لِصَهْرِ الأكرادِ والعربِ في البوتقةِ التُّرْكِيَّةِ بمحاولاتِ تضليلِ النَّقْشَبَنْدِيِّين الأكرادِ في المنطقة الكرديَّةِ.
- تُشَوِّهُ سمعةَ العربِ بطريقِ استبشاعِ الوهابيَّةِ، وإدانةِ الموقفِ العربِيِّ من الدولةِ العثمانيَّةِ، ورميِهم بالخيانةِ العظمى.

***

8) المُنَظَّمَاتُ وَالمُؤَسَّسَاتُ والتيَّاراتُ الْيَمِينِيَّة

كان أصحابُ الثروةِ ومالكوا وسائلِ الإنتاجِ يتمتَّعونَ بالهيمنةِ والغلبةِ في كلِّ مُجْتَمَعٍ دائمًا وعلى مدَى تاريخِ البشرِ، كما لا يزالُ الأمرُ كذلك إلى هذه الساعةِ. إنما مكَّنَتْهُمْ من هذه الهيمنةِ والغلبةِ الْمُتَأَصِّلَتَيْنِ قُدْرَتُهم الماليَّةُ الَّتي استطاعوا أنْ يشتروا بها الذِّمَمَ، ويتصرَّفوا في توجيهِ الدولةِ والمجتمعِ، رغم أنَّهم قِلَّةٌ في كلِّ عصرٍ. ذلَّتْ لهم الرقابُ، وخضعتْ لهم الأعناقُ إلى أنْ جاءَ الإسلامُ فَحَدَّ مِنْ أشَرَهِمْ وَبَطَرِهِمْ بفرضِ الزكاةِ عليهم في بُقْعَةٍ من جزيرةِ العربِ. فلم يلبثْ أنْ اخْتَفَى الإسلامُ بعد أربعين عامًا من نزولِهِ حتَّى عادتِ الهيمنةُ والغلبةُ لصاحبِ الثروةِ في المجتمعِ "الإسْلاَمَوِيِّ" كما كان الحالُ من ذي قبلٍ (في العهدِ الجاهليِّ).

استمرَّ هذا الوضعُ كقانونٍ من القوانينِ الأساسيةِ لحياةِ الإنسانِ في جميعِ أنحاءِ العالَمِ. ثمَّ اتَّسمتْ هذه الطبقةُ بِـ"الْيَمِينِيَّةِ" في مصطلحِ السياسةِ بعد الثورةِ الفرنسيَّةِ، في مقابلةِ الأكثريَّةِ والطبقة الكادحةِ لِتُطْلَقَ على هذه الأخيرةِ صفةُ اليساريّةِ كشامةِ عار.

لعلَّ أصحابَ اليمينِ في هذه الدنيا هم أصحاب الشمالِ في الحياةِ الآخرةِ. وهذا يُذَكِّرُنَا بقوله تعالى: ".. وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ. (الشورى/**20**)" لِمَا عُرِفَ عن هؤلاءِ من ممارسةِ القواعدِ الظالمةِ بحقّ الشغيلةِ والكادِحين، وما يرتكبون من أكلِ مالِ الحرامِ، وشراءِ الذِّمَمِ، وتمويلِ الحركاتِ الإرهابيَّةِ، واستغلالِ القِيَمِ المقَدَّسَةِ، واستباحةِ الأعراضِ إلى غيرِ ذلك من ألوانِ الجرائمِ والجناياتِ... "وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ.. (القرآن الكريم: الواقعة/**41 – 45**)

إنَّ هذه الطبقةَ في تركيا لَهِيَ أشدُّ خطرًا، وأعمُّ فسادًا منها على الحياةِ الإجتماعيَّةِ من بقيَّةِ الفئاتِ الهدَّامَةِ. لأنَّها المصدرُ الرئيسُ للفسادِ، كما أنَّهَا هي القوَّةُ المحرِّكَةُ لِعَجَلَةِ كلِّ فتنةٍ تندلعُ في أي بقعةٍ من بقاعِ البلادِ؛ إذ لاَ يجري صراعٌ بين الأحزابِ السياسيَّةِ، ولا قتالٌ بين الطوائف العرقِيَّةِ، ولا تقومُ

شبكةٌ من شبكاتِ الْمَافْيَا بالسطوِ على أعراضِ الأبرياءِ ومُمْتَلَكَاتِهِمْ إلاَّ وَجَنَاحٍ من أجنحةِ اليمينِ المتطرِّفِ يدٌ ورائَها بصورةٍ غير مباشرة!

تتألَّفُ الجبهاتُ اليمينيةُ في تركيا من طُغَمٍ ماليَّةٍ عملاقةٍ، وشبكاتٍ ضخمةٍ مكوَّنَةٍ من شركاتٍ تجاريَّةٍ، وجمعياتٍ مدنيَّةٍ (غير حكوميةٍ)، ومؤسَّساتٍ وقفيَّةٍ، وجماعاتٍ صوفِيَّةٍ، وأحزابٍ سياسيَّةٍ، كلُّها تتشاركُ أحيانًا وتتواطأ مع رؤساءِ النقاباتِ وتتعاونُ معها في ممارسَةِ ألوانٍ من الظلمِ، وقهرِ جماهيرِ العُمَّالِ بخاصَّةٍ.. تستغلُّ القِيَمَ المقدَّسَةَ لتخديرِ المشاعرِ، وغسلِ الأدمغةِ، وامتصاصِ أموالِ المجتَمَعِ.. تمارسُ أشكالاً مِنَ الإِتّجارِ بالدِّين، وتستعرضُ ضروبًا من الحِيَلِ في استغلالِ الضمائرِ؛ كَبِنَاءِ المساجدِ، وفتحِ الكَتَاتِيبِ لتحفيظ القرآن الكريم، وتوزيعِ الْمِنَحِ الدِّرَاسِيَّةِ على الطلبةِ، وتقديمِ مساعداتٍ ماليَّةٍ بسيطةٍ (في الحقيقةِ) لعائلاتٍ فقيرةٍ في وسطِ ضَجَّةٍ مِنَ التضخيمِ بأغراضٍ دعائيَّةٍ ونحو ذلك..

للجبهات اليمينِيَّةِ في تركيا أجهزةٌ قويَّةٌ تتكوَّنُ من وكالاتٍ للدعايةِ، وروابِطَ، ونوادِيَ، وقنواتٍ إذاعيَّةٍ وفضائيةٍ، ومواقعَ ألكترونيَّةٍ. كما لها عُمَلاءُ مُتَفَوِّقُونَ بِثقافاتِهِم الغزيرةِ، ورصيدِهِم الفكرِيِّ، وتشدُّقِهِم الْخِطَابِيِّ، ونِفَاقِهِمْ في صِنَاعَةِ اصْطِيَادِ العقولِ، وأساليبِهِم الأَخَّاذَةِ النافذةِ إلى قرارةِ النفوسِ. هذه القدرةُ الجبَّارةُ التي تَمْلِكُهَا الجبهاتُ اليمينيَّةُ قد أكسبتْها تفوُّقًا متميَّزًا على كلِّ حزبٍ سياسِيٍّ، وقطاعٍ مِهَنِيٍّ، وحتَّى على أجهزةِ الدولةِ بما فيها الجيشُ والحكومةُ والْبَرْلَمَان...

من أهمِّ الجبهات اليمينِيَّةِ في تركيا: القطاعُ الرأسْمالِيُّ. وهذا القطاعُ له جناحانِ متنافسانِ في سِبَاقِ الْهَيْمَنَةِ على الإقتصادِ التُّرْكِيِّ واحتواءِ السلطةِ بالقوةِ الماليَّةِ. وهما: الجناحُ اللِّيبرالِيُّ الْعَلْمَانِيُّ (TÜSİAD)؛ والجناحُ الليبرالِيُّ الْمُسْلُمَانُ (MÜSİAD). كان بين الجناحين تنافرٌ شديدٌ قبلَ وصولِ حكومةِ أردوغان إلى سُدَّةِ الْحُكْمِ. إلاَّ أنَّ هذه الكراهيةَ تبدو كأنَّهَا فقدتْ بعضَ الشيءِ من حِدَّتِهَا في الأوانِ الأخيرةِ. لأنَّ الجناحَ الْوَثَنِيَّ TÜSİYAD كان من قَبْلِ هذا، يتعاون مع الجيشِ في الضغطِ على الحكوماتِ، إذ كانت القواتُ المسلحةُ متوغِّلةً في السياسَةِ، قابضةً على أجهزةِ الدولةِ. فكانتْ سلبيَّاتُ هذا التعاونِ تنعكسُ على القطاعاتِ الْعُمَّالِيَّةِ بشكلٍ مباشر. وكان الجناحُ المحافِظُ MÜSİAD يومئذٍ مغلوبًا على أمره. أمَّا الهدوءُ الذي يلاحَظُ بين الطرفين فإنَّ معناه: الويلُ للكادِحين والطبقةِ الفقيرةِ في هذه الأيام بأوجز تعبير.

***

9) التيّارُ اليسارِيُّ

لفظُ اليسارِ (في اللغة العربيَّةِ): ظرفُ مكانٍ واسْمُ جهةٍ، وهو نقيضُ اليمينِ.

واليساريَّةُ: مصطلحٌ يُطْلَقُ على تَيَّارٍ فِكْرِيٍّ سِيَاسِيٍّ يُعَبَّرُ به عن الإنتماءِ الإشتراكِّي، أو الشيوعيّ أو الديمقراطِيّ الإجتماعِيّ.. يرجعُ أصلُ هذا المصطلحِ إلى الْعُرْفِ السياسيّ أيامَ الثورةِ الفرنسيَّةِ. ورد عن أهلِ الإختصاصِ في علمِ تاريخِ السياسَةِ: أنَّ النُّوَّابَ الفرنسيِّين أيامَ الملكِ لويس السادس عشر، كانوا يجلسون عن يسارِهِ في مجلسِ الشعبِ الفرنسيّ، تعبيرًا عن كونِهِمْ يُمَثِّلون القاعدةَ الشعبيَّة. وأمَّا النبلاءُ ورجالُ الدين فكانوا يجلسون عن يمين الملك.

إنَّ أوَّلَ مَنْ استخدمَ لفظَ اليساريَّةِ بالمعنَى الإصطلاحيّ في المجتمعِ العثمانِيّ وأعلنَ أنَّهُ معتنقٌ للفكرِ الإشتراكيّ، شخصيَّتان من رجالِ السياسَةِ في الْبَرْلَمَانِ العثمانِيّ، وذلك عام **1908**م. وهما: دِيمِيتْرِي وَلاَهُوفْ Dimitri Valahof، وكِرْكُورْ زُهْرَابْ أفندي Zohrab Efendi. كانا مندوبَيْنِ عن الحزبِ الشعبِ الفدرالِيّ (مقرُّه يومئذٍ في مدينَةِ سالونيك).

كان أعضاءُ هذا الحزبِ يُعلنون عن أنفسِهِمْ يومئذٍ أنَّهم إشتراكيُّون. أمَّا اجتماعُ أصحابِ الفكرِ الإشتراكِيّ تحتَ مظلةِ حزبٍ سياسِيٍّ في الْبَرْلَمَان العثمانِيّ إنَّما تَيَسَّرَ في عام **1910**م. وذلك برعايةِ الصحفِيّ حسين حلمِي، وبعنوان: «الحزبِ الإشتراكِيّ العثمانِيّ» Osmanlı Sosyalist Fırkası. ولمَّا أُلغِيَ الْبَرْلَمَان العثمانِيُّ الأوَّلُ في **28** حزيران/يونيو **1877**م. تحوَّلَ هذا الحزبُ إلى مُنَظَّمَةٍ سِرِّيَّةٍ، ولكن استمرَّ نشاطُ اليسارِيِّين وظَهَرُوا إلى العيانِ بين حينٍ وآخرَ كُلَّمَا أتاحتْ لهم الفرصةُ.

حاولَ الدكتور حسن رضا للنهوضِ بهذا التيَّارِ ضمنَ حزبٍ جديدٍ أسَّسَهُ في العهدِ المشروطِيّ الثاني عام **1918**م. وذلك بالمشاركةِ مع صَاحِبَيْهِ: جميل عارف، وتحسين حبيب بك، وسمَّاه: «الحزبَ الديمقراطيَّ الإشتراكيَّ Sosyal Demokrat Fırkası» إلاَّ أنَّهُ لم يُفْلِحْ. ثُمَّ احْتَذَى به الدكتور شفيق حُسْنِي، بتأسيسِ «الحزبِ الاشتراكِيّ التُّرْكِيّ Türkiye Sosyalist Partisi» عام **1919**م. وَاصَلَ شفيق حسني مغامرتَهَ بتأسيسِ أحزابٍ يساريَّةٍ مُتَتَالِيَةٍ، منها: «حزبُ العُمَّالِ والفلاَّحين الإشتراكيّ التركِيّ Türkiye Sosyalist Emekçi Köylü Partis». كان شفيق حسنِي متحمِّسًا في مُهِمَّتِهِ، كلَّما

اصطدمَ بِعَقَبَةٍ وحَكَمَ عليه القضاءُ بعقوبةٍ وأُلْغِيَ حزبُهُ، قام بتأسيسِ حزبٍ آخر إلى أنْ ماتَ فِي 28 أبريل 1959م. في منفاه بمدينَةِ مَغْنِيسْيَا Manisa (الواقعةِ غربَ تركيا).

كان حزبُ العُمَّالِ والفلاَّحين الإشتراكيُّ التركيُّ يتلقَّى الدعمَ من كُتلةِ القُرَّاءِ المتضامِنِين الملتقِّين حولَ مجلَّةِ الضياءِ بإيحاءٍ من الحزبِ الشيوعِيِّ الذي تمَّ تأسيسُهُ خارجَ تركيا (في مدينَةِ بَاكُو عاصمةِ آذريبجان) عام 1920م. برعايةِ مصطفى صُبْحِي. هذه الكُتْلَةُ اليساريَّةُ لم تَنْظُرْ يومئذ إلى رجالِ السياسةِ في الحكومةِ التُّرْكِيَّة كفئةٍ برجوازيَّةٍ، بل البرجوازيُّونَ في نظرِهم كانوأ أفرادَ الأقليَّةِ الثريَّةِ وطبقةَ النُّبَلاَءِ فحسب. لأنَّ هاتين الطبقتين كانتا تنعمُ بالرفاهيةِ رغم النكبات والمئاسي التي تعرَّضَ لها الشعبُ أيّامَ الحربِ العالميَّة. "إذًا يجب النضالُ ضدَّهما دون رجال السياسَةِ الذين تحمَّلوا أعباءَ إدارةِ الشعبِ وقاموا بالدِّفاعِ عن الوطنِ في تلك الأيامِ العصيبَةِ والظروف القاسية".

إن الحزب المتفرِّدَ والْمُتَحَكِّمَ في الدولةِ التُّرْكِيَّةِ يومئذ (أي حزبَ الشعبِ الجمهورِيِّ برئاسةِ عصمت إنونو) كان قد أرخَى العنانَ للتيَّار اليساري نسبيًّا، ربما لإيجادِ التوازنِ بين الفئاتِ في الْمُعْتَرَكِ السياسِيِّ، إلاَّ أنَّ الحزبَ الشيوعيَّ –رغم ذلك– باتَ يواصلُ نشاطَهُ من وراءِ ستارِ السرِّيَّةِ بسببِ الْحَظْرِ القانونِيِّ الذي حالَ دونَ إعلانِ الشيوعيّين عن أنفسِهم أكثرَ من نصفِ قرنٍ، إلى أن تمَّ إعادةُ تأسيسِ الحزبِ الشيوعِيِّ التُّرْكِيِّ بصورةٍ قانونيَّةٍ يوم 11 نوفمبر 2001م.

لفظُ «اليسارِيَّةِ»، تَلُوكُهُ الألسنَةُ في تركيا منذ عصرٍ من غير تَدَبُّرٍ وَرَوِيَّةٍ، حتى تحوَّلَ إلى لُعبةٍ استغلَّها أشخاصٌ وجماعاتٌ في التوجيهِ السياسِيِّ بل وفي إثارةِ الكراهيَّةِ ضِدَّ مفهوم الدِّينِ عامَّةً والإسلامِ خاصَّةً. ثم تعرَّض هذا المصطلحُ لاسْتِحَالاَتٍ وتشويهاتٍ بمرورِ الزمانِ خاصَّةً بِدَوَافِعِ الْخَلْطِ، والْعَبْثِ، واللَّبْسِ، والجهلِ، والفوضَى الفكرِيِّ، فتعقَّد وتَلَبَّدَ إستعمالُ مصطلحاتِ الفكرِ اليسارِيِّ حتى أصبحَ من الصعوبةِ بمكان، بل من المستحيلِ إستعمالُها في إطارِ المعانِي المحدَّدةِ لها وفقًا للضوابطِ المنصوصَةِ في الْعُرْفِ الْيَسَارِيِّ. إنَّ الشقاقَ والنِّزاعَ القائمَ بين التيَّاراتِ اليساريَّةِ (في تركيا)، بسببِ الفوضَى السائدِ على مصطلحاتِ هذه الكُتْلَةِ الإجتماعيَّةِ لَمِنْ أوكدِ الدلائلِ على الفشلِ الواقعِ في صفوفِ اليسارِيّين في هذا البلد. هناك فئاتٌ عديدةٌ من التجمُّعَاتِ اليساريَّةِ في تركيا، كلُّها تطالب بالديمقراطيَّةِ والعدالةِ والمساواةِ في جميع مجالاتِ الحياة؛ والقضاءِ على الطبقيَّةِ والمحسوبيَّةِ والإستغلال... لكنَّهَا تختلف في تحديدِ المنهجِ الاستراتيجيِّ والنشاطِ السياسِيِّ، وفي التعامل مع الواقع.. وأحيانًا يتطور النزاع بين هذه الفئات إلى مستوى التناحر والإقتتال.

هذا، ومن الجدير بالذكر أنَّ جميعَ اليساريّين من الأصل التُّرْكِيّ خاصَّةً، بدؤوا في السنين الأخيرةِ يعتزُّون بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّة، وأصبحوا يتناغمون مع العنصريّين اللِّيبراليّين الأتراك، بينما كانوا قبل ذلك يهاجمون القوميّين والمحافظين، ويرمونهم بالعنصريَّةِ والفاشيَّةِ، كما وقعتْ أحداثُ القتالِ بين اليساريّين والعنصريّين عبر الثمانينيَّات من القرنِ العشرين ذهبتْ ضحيَّتَهَا آلافٌ من الأرواحِ من كِلاَ الطرفين. لا شكَّ في أنَّ هذا الإختلافَ الجذريَّ والتراجُعَ الذي حدثَ في موقفِ اليساريّين إنَّما نشأ كَرَدِّ فعلٍ ضِدَّ الصحوةِ الكرديَّةِ، واعتراضٍ على مُطَالَبَةِ الأكرادِ بالإدارةِ اللاَّمركزيَّةِ وحُرِّيَّةِ استخدامِ اللُّغةِ الكرديَّةِ وحُرِّيَّةِ التعليمِ بِهَا.

تختلف اليساريَّةُ التُّرْكِيَّة بصبغتِها المحليَّةِ والْمُشَوَّهِ عن الطابعِ اليساريِّ العالَميّ كُلَّ الإختلاف. إنَّ اليساريّين الأتراك، معظمُهم يجهلون الأُسُسَ والمبادئَ المتعارَفَ لدى اليساريّين من أهلِ البلادِ المتقدِّمةِ؛ يجهلون منهجَ الجدلِ السياسِيّ، وهذا يؤدِّي (من جهةٍ) إلى بُعْدِ الشُّقَّةِ بين فئاتِهم، ويسحبُهم إلى مُعْتَرَكِ النِّزاع، فتتفرَّقُ بها صفوفُهُمْ وينهزمون أمام خصومِهِمْ من اللِّيبراليّين والمحافِظين؛ ويقعون في أخطاءٍ فكريَّةٍ وفلسفِيَّةٍ وعقديَّةٍ رهيبةٍ في جدالِهِمْ خاصةً مع الأقلِّيةِ الْمُسْلِمَةِ الحنيفة في تركيا.

اليساريُّونَ الأتراك هم أجهلُ الناسِ بالعقائِدِ والفلسفاتِ والأيديولوجيَّاتِ. وهذا الجهل ملأَ قلوبَهُمْ بالغيظِ والعداوةِ ضدَّ كل من لاَ يَتَبَنَّى فكرتَهُمْ، ويرفضُ أساليبَهُمْ، أو يدافعُ عن نفسِهِ وعِرْضِهِ أمامَ هجماتِهِمْ. لأَنَّهم لا يتعاملون إلاَّ بالعنفِ والعنادِ والصَّوْلَةِ والسطوِ... لَهْجَتُهُمْ قاسيةٌ، ضَمَائِرُهُمْ خاليةٌ من الرحمةِ، لا يعرفون الحوارَ، ولا يُقَدِّرُونَ للمخاطبِ حُرْمَةً ولا كرامةً...

يقول الدكتور أحمد إبراهيم خضر: "إذا أُحِيلَ مفهومُ (اليسارِ) على كافَّةِ اللُّغاتِ، لَمَا كان الأمْرُ سارًّا؛ فهو في (اللاَّتينيَّة) يَعني: التَّشاؤُمَ وسوءَ الحَظِّ، وفي (الإنجليزيَّةِ) يُعطِي نفْسَ المعنى تقريبًا، وفي (الفرنسيَّة) يعني التَّشْويهَ والانحرافَ، وفي (العربيَّةِ): اليسارُ نقيض اليمين، ويعني كل ما يؤدِّي إلى التَّشاؤم أيضًا، ويُكنَى به عن المنْزلةِ الخَسِيسَة. وعلى مستوى (الْقِيَمِ) لا يَعني اليسارُ إلا القِيَمَ الشاذَّة المنحرِفة."[146]

---

[146] http://www.alukah.net/web/khedr/0/41000/

اصْطَلَحَ مَنْ اصطلحَ "اليساريَّةَ" لِيُعَبِّرَ بها عن مقاومَةِ القهرِ الذي يمارسُهُ صاحِبُ العملِ ضِدَّ أجيرِهِ. فاليساريَّةُ إذنْ مصطلحٌ يفيدُ: دفاعَ العاملِ المقهورِ والمسلوبِ حقُّهُ، في وجهِ الظلمِ الذي يتعرَّضُ له على يَدِ ربِّ العمل. فغدا مفهومُ اليساريَّةِ بذلك رمزًا يستخدمُهُ الْمُسْتَضْعَفُونَ الذين يعملون بأجورٍ طفيفةٍ يستحقُّونَ أضعافَهَا وهم يعانون الظلمَ والسحقَ في كثير من الحالات.

لا شكَّ في أنَّ هذه البشاعةَ كانت ولا تزالُ سائدةً على علاقاتِ التشغيل في جميعِ أنحاءِ العالَمِ بما فيه البُلدانُ الإشتراكيَّةُ. لا يزالُ العاملُ ضحيَّةً للاستغلالِ والقهرِ والسحقِ بأشدِّ أشكالِهِ في جميعِ البلادِ، خاصَّةً في الوطنِ الإسلاميِّ الذي لا تخلو ساحةٌ منها إلاَّ وتُتْلَى بِإصرارٍ وتكرارٍ على أهلِها ما جاءَ في الكتابِ والسنَّةِ من الأمرِ بالعدلِ، والنهيِ عن الجورِ والغبنِ والغشِّ والخديعةِ والتطفيف... لذلك لا يجدُ العاملُ والأجيرُ ملجأً يحتمِي به غيرَ هذه المقولةِ الفارغةِ (المتمثِّلةِ في كلمةِ اليساريَّةِ) وهو يجهل – في الوقت ذاته– أنَّ هذا المصطلحَ غريبٌ على الإسلام، وعلى المنطقِ الإسلاميِّ الذي ينظرُ إلى مفهومِ العدالةِ والمساواةِ بأعلى درجات الإهتمام.

لقد بالغَ الإسلامُ في الإهتمامِ بتوزيعِ الحقوقِ على أصحابِهَا لحدٍّ لم يبلغه دِينٌ، ولا نظريَّةٌ، ولا فلسفةٌ، ولا مؤسَّسةٌ على مدَى تاريخ البشر. يعتمدُ هذا الاهتمامُ، على التشريعاتِ، واجتهاداتِ العلماءِ الْمَنْصُوصَةِ في التراثِ الإسلاميِّ المستمدَّةِ من آياتٍ قرآنيَّةٍ وأحاديثَ نبويَّةٍ يشقُّ على الباحث الْمُحَنَّكِ حصرُها لكثرتِهَا[147]. فلا شكَّ في أنَّ الإسلامَ دينُ العدلِ والإحسانِ، وأنَّهُ حربٌ على كلِّ

---

[147] وهذه أمثلة منها:

"إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ" (النحل: 90، 91)؛ "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن: 7 – 9)؛ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون" (المائدة: 8). "وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين" (المائدة: 42)؛ "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام: 152)؛ "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " (المطففين: 1 – 6).

فقد وردت كلمة «العدل» ومشتقَّاتُها في السنةِ النبويَّةِ بإعدادٍ لا يسهلُ حصرُها، كذالك ورد النهيُ عن الظلمِ والوعيدِ للظالم. وهذه أمثلة منها: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين». وعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لَيُمْلِي للظالِمِ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ»؛ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَنْ كَانَتْ لأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ مَالٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُ يَوْمَ لا دِينَارَ وَلا دِرْهَمَ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ.

أشكالِ الظلمِ. تدلُّ مَعَالِمُهُ الواردةُ عبرَ تعاليمِهِ على مَدَى اهتمامِهِ البالغِ في تنبيهِ المسلمين على أداءِ الحقوقِ إلى أصحابِهَا.

لكنَّ المسلمين خالفوا هذه المبادئَ كما خالفوا الكثيرَ من تعاليمِ الإسلامِ بعد عصرِ السلفِ الصالحِ على مَدَى تاريخِهم الذي يستحقُّ أنْ يوصَفَ بعضُ المراحلِ منه بعصورِ الظلامِ. يبرهن على هذه الحقيقةِ ثوراتُ الزَّنْجِ، والصراعاتُ السياسيَّةُ الدمويَّةُ التي دامتْ إلى يومِنَا هذا. فتأخَّرتِ الأمَّةُ نتيجةَ هذه الأسبابِ، وتشرذمتْ حتَّى أصبحتْ فريسةً للحلفِ اليهودِيِّ-المسيحِيِّ، وانصهرتْ في بوتقتِهِ، وانتشرَ الجهلُ بين مُعْظَمِ أجزائِها إلى حدٍّ بدأ يلجأُ المظلومون من أبناءِ هذه الأمّةِ إلى أساليبَ أجنبيَّةٍ ويستخدمون مصطلحاتِ الْمُلْحِدِينَ في الإحتماءِ من شرِ الظالمين من أبناءِ الأمَّةِ نفسِها. ومن أهمِّ هذه المصطلحاتِ: "اليساريَّةُ". إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!.

التَبَسَ على اليساريِّين (الأتراكِ بخاصَّةٍ)، الْتَبَسَ عليهم الإسلامُ بِالْمُسْلُمَانِيَّةِ وَالنَّقْشَبَنْدِيَّةِ، فصبُّوا جامَ غضبهم على الإسلام والمسلمين لدَى أدنى فرصةٍ، ولا يزالون مصرّين على هذا الأسلوب، بينما كان عليهم أن يتخاصموا مع القطاعات الْمُسْلُمَانِ من الْحَنَفَانِيِّينَ وَالصوفيَّةِ الذين يملكون ثرواتٍ طائلةً وشركاتٍ عملاقةً ويستغلُّون عَرَقَ جبينِ الْعُمَّالِ، ويمارسون كلَّ القواعدِ الظالمةِ ضدَّ الكادحين.
الحكوماتُ السَّبَطَائِيَّةُ والكماليُّونَ استغلُّوا اليساريِّين من كلِّ فئةٍ على مدى القرنِ العشرين، فأثارُوهم تارةً على النقشبنديِّين، وتارةً على المسلمين، فظلَّ اليساريُّون هكذا آلِيَةَ قهرٍ وسلاحَ تعذيبٍ في يدِ الحكوماتِ الكمالِيَّةِ، فَكَفَوْهَا مؤنةَ استخدامِ قُوَّاتِ الأَمْنِ في قهرِ المحافظين وإذلالِ المسلمين طوالَ قرنٍ كامل. ثم تحوَّلَ الأمرُ على عكسِ ذلك تمامًا، فاستغلَّتِ الحكوماتُ النقشبنديِّين والنورسيِّينَ هذه المرَّةَ في حربِ اليساريِّين. ولكنَّ الطامَّةَ؛ أنَّ اليساريِّين حاولوا ليأخذوا ثأرهم من المسلمين دائمًا وبغير وجه حقٍّ، بدل أن ينتقموا من الصوفية النقشبنديِّين.

هذا، ومن أعظمِ البراهينِ على جهلِ اليساريِّين: أنَّهم لم يُفَرِّقوا بين المسلمين الأبرياءِ وبين النقشبنديِّين الذين تحوَّلوا إلى آليةٍ جنائيةٍ في يد الدولةِ الْعَمِيقَةِ (من خلالِ جمعيَّةِ مكافحةِ الشيوعيَّةِ) طوال عشراتِ السنين إلى أنْ تبعثروا في أجهزة الدولة، ووثبوا على المناصبِ الهامَّةِ فيها، وقبضوا أخيرًا على زمامِ الْحُكْمِ عبر الشبكة السياسيَّةِ الرهيبة التي تتمثَّل اليومَ في حزب العدالة والتنمية.

***

10) مُحَاوَلاَتُ تَحْرِيفِ الْحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ.

محاولةُ تحريفِ الحقائقِ التاريخيَّةِ ظاهرةٌ تُنبئُ عن العجزِ والإعياءِ والإجهادِ والخيبةِ والْمَلَلِ، قبلَ أنْ يدلَّ على الإنحلالِ في الْخُلُقِ من الغشِّ والتزويرِ والتزييفِ والكذِبِ والفريةِ... أَيُّ إنسانٍ أو مجتمعٍ أقحمَ نفسَهُ في تشويهِ ماضيهِ سواءُ تعمَّدَ تعظيمَ شأنِهِ وتضخيمَ أمجادِهِ أو تحقيرَ غيرِهِ، وأفرطَ في المفاخرةِ بِبُطُولاَتِ أسلاَفِهِ... فقد شهد – لا ريب – على نفسِهِ باليأْسِ والطُّفَيْلِيَّةِ واعترفَ بالعجزِ والْخِسَّةِ والمسكنة... يقول الشاعر ابن الوردي:

لاَ تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدا * إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ.

هذه البَدَهِيَّاتُ تبرهنُ بالاستقراءِ على أنَّ الشخصَ الَّذِي يتصرَّفُ في التاريخِ بالتحريفِ والتشويهِ إنَّما يريد أنْ يُخْفِيَ إمَّا بشاعةً أو أثرًا جميلاً منه، فهو إذنْ إنسانٌ عاجزٌ تعيسٌ يلجأ إلى التزييفِ والتحريفِ لِيُخْفِي بذلك أصلاً بشاعةَ نفسِهِ وخِسَّةَ شأنِهِ بالذَّات. ولاَ بدَّ هنا من التوضيحِ بأنَّ العجزَ والقدرةَ ضدَّانِ. والعجزُ في الإنسانِ، كثيرًا مّا يُفْرِزُ الْحِقْدَ ويُنبتُ الْحَسَدَ في قلبهِ ضدَّ مَنْ يفُوقُهُ، ويريدُ أنْ يحتقرَ من هو أعلى منه قدرةً وكفائةً. كذلك الأمرُ بالنسبةِ للمجتمع العاجزِ الخاملِ الهزيلِ الذي أنْهَكَهُ التَّخَلُّفُ وَالتَّدَهْوُرُ. فإنَّهُ حاقدٌ في الأغلبِ على المجتمعِ الناشطِ المبدعِ الْمُزْدَهِرِ الذي أثبتَ كفائتَهُ في سباقِ الحضارةِ.

هذه الظاهرةُ، نشاهدُها عيانًا وفي صورةٍ برَّاقةٍ كحقيقةٍ من حقائقِ عصرِنا بخاصةٍ عندما نقارنُ بين شعوبِ الشرقِ الأوسطِ وبين شعوبِ الغربِ. وهذا بطبيعةِ الحالِ يفرضُ علينا سؤالاً هامًّا، وهو:

– لماذا تأخَّرَ المسلمون، وتقهقروا أمام الغربِ؟

مع صعوبةِ الإجابةِ على هذا السؤالِ، لحاجتِهَا إلى إسهابٍ وليس هذا مقامُهُ، لاَ بدَّ من الإشارةِ هنا إلى أنَّ العجزَ الذي يعانِيهِ «العالَمُ الإسلاميُّ» اليومَ أمامَ شعوبِ الغربِ يُفَسِّرُ لنا أصلاً مشكلةَ محاولاتِ المسلمينَ لتحريفِ الحقائقِ التاريخيَّةِ. والمجتمعُ التركِيُّ بوجهٍ خاصٍّ، لا يجدُ مناصًا لِيُبْرِئَ

سَاحَتَهُ من نقيصةِ العجزِ إلاَّ بِكَتْمِ كثيرٍ من حقائِقِ ماضيهِ، كما هو الحالُ في جميعِ البلادِ الإسلاميَّةِ. إنَّما يتَّخِذُونَ الْكَتْمَ، والتحريفَ والتشويهَ للحقائقِ التاريخيَّةِ كوسيلةٍ لإثباتِ قُدْرَتِهِمْ، والإستدلالِ بِهَا «على أنَّهم لم يكونوا في الحقيقة أمَّةً متأخِّرةً، بل تأخَّروا بعدَ أن تعرَّضوا لِهَجَمَاتِ الغربِ واعتداءاتِهِ، ودُمِّرَتْ بلاَدُهُمْ، وانتُهِكَتْ أعراضُهم منذ أيَّامِ الحروبِ الصليبيَّةِ وما امتدَّ بِدَافِعِهَا بعد قرونٍ من الزحفِ الإستعماريِّ، والإستيلاءِ على أوطانِ المسلمين، وإذلالِهِمْ بالاستغلال السياسيِّ والإقتصاديِّ، والقضاءِ على طبائعهم وقِيَمِهم السامية بطريق الغزو الثقافي...إلخ»

إنَّ «الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ» عامَّةً، والمجتمعَ التركيَّ خاصَّةً لا يستطيعُ اليومَ أن يتجاهلَ هيمنةَ شعوبِ الغربِ على الشرقِ الأوسطِ وَتَفَوُّقَهَا الْحَضَارِيَّ والتقنيَّ والفنِّيَ، وقدرتَهَا العسكريَّةَ الْجَبَّارَة. ولا يُعْقَلُ أنْ يتهاونَ بالبون الشاسعِ بين الجبهتين في سباقِ العصرِ. ولهذا قد يرى أنَّهُ لا خيارَ له إلاَّ أنْ يتشبَّثَ بالأحلامِ فَيُسَلِّيَ نفسَهُ بماضيهِ الزاهرِ من جهةٍ، ويسلُكَ طريقًا ملتويًا فَيُضَخِّمَ أمجادَهُ الَّتي أصبحَ اليومَ أثرًا بعد عينٍ من جهةٍ أخرَى.

لتسليطِ الضوءِ على هذه الحقيقةِ التي أصبحتْ نزعةً شائعةً في عقليةِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ، يحسنُ بنا أن نقارنَ نبذةً بين الدولةِ العثمانيَّةِ وما عاصرتْهَا من دولِ الغربِ من حيث المستوَى الحضاريِّ، ليتَّضِحَ بذلك أسبابُ تحريفِ الحقاقِ التاريخيَّةِ وتتعرَّى هذه النزعةُ بدوافِعِها وخلفياتِهَا.

يفخرُ الأتراكُ – لا شكَّ – وحتى أغلبُ المسلمين في أنحاءِ العالَمِ، بفتحِ مدينةِ القسطنطنيَّةِ عام 1453م. على يدِ العاهلِ العثمانيِّ السلطان محمَّد الثاني الذي لُقِّبَ بعد ذلك بـ (الفاتح). ولكنَّهم يتجاهلون أنَّهُ كان يعتمدُ على خُبَرَاءَ من عناصرَ أوروبيَّةٍ في تدابيرِهِ الحربيَّةِ، بل في كثيرٍ من أمورِهِ. ومن هؤلاءِ الخبراءِ: المهندسُ المجريُّ أوربان الذي تولَّى صبَّ المدافعِ التي اسْتُخْدِمَتْ في فتحِ المدينةِ. وهذا يُنْبِئُ عن الأتراك أنَّهم لم يكونوا أهلَ علمٍ وفنٍّ، ولم يكنْ فيهم حتَّى مهندسٌ واحدٌ في ذلك العصرِ على أقلِّ تقدير. كما يؤكِّدُ على هذا العجز؛ أنَّ طائفةً من بُسَطَاءِ الكُتَّابِ الذين لا شهرةَ لهم في عالَمِ المعرفةِ تصدَّوْا في الأوانِ الأخيرةِ لِتَفْنِيدِ دعوَى استعانةِ السلطان محمَّد الفاتح بغيرِ الأتراكِ في عملياتِ الفتحِ، إلاَّ أنَّ شخصياتٍ من مشاهيرِ علماءِ التاريخِ في تركيا يؤكِّدُونَ على "أنَّ آلاَفًا من الصِّرْبِ وَالْخِرْوَاطِ وَالْمَجَرِ وَالأَلْمَانِ والأفرنجِ وحتَّى من الروم الذين كلُّهم نصارَى كانوا يحاربون في صفوفِ الجيش الإسلاميِّ ضِدَّ أبناءِ دينيهم أثناءَ فتحِ القسطنطنيَّةِ. يأتِي على رأسِ هؤلاءِ

العلماءِ؛ الدكتور أرخان أفيونجي Dr. Erhan Afyoncu[148] **والأستاذ الدكتور خليل إنالجك** Prof Dr. Halil İnalcık**، والأستاذ الدكتور فريدون أَمَجَانْ** Prof. Dr. Ferudun Emecen...

***

وَرَدَ في الوثائقِ أنَّ السلطانَ محمدًا الفاتحَ طلبَ رَسَّامًا من الحكومةِ البندقيَّةِ كجزءٍ من الإتاوَةِ التي كان يتقاضاها من تلك الدولةِ، فأرسلتْ إليه الرسَّامَ جَنْتِيلْ بَلّيني Gentile Bellini**، فَرَسَمَ صورةً له، وهي موجودةٌ إلى اليوم[149]. وهذا يدلُّ أيضًا على أن المجتمعَ العثمانِيَّ لم يكن فيه أحدٌ يُتْقِنُ فَنَّ الرسمِ ليقومَ بهذه المهمَّةِ حتَّى أضطرَّ السلطان إلى طلبِ رسَّامٍ من بلدٍ آخر مقابلَ جزءٍ من الإتاوةِ التي يُؤَدِّيهَا له ذلك البلد. ومن هنا تبدأُ تتبلورُ حقيقةُ الصراعِ بين البطشِ والمعرفةِ، وبين العنفِ والحكمةِ، ويتضحُ الفرقُ بين بناءِ الحضارةِ بالغضبِ والسيفِ وبنائِهَا بالعقلِ والقلمِ... لن يغفل التاريخُ هذه الحقائقَ وإنْ كَتَمَهَا آلافٌ من بُسَطاءِ الكُتَّابِ الذين يتشدَّقون بِمِثْلِ قولِ البعضِ منهم: "المسلمون إنَّما أهملوا فنَّ الرسمِ لأن مُمَارَسَةَ هذا الفنِّ محظورٌ في الإسلام"، وقد يتفلسفُ البعضُ بقولِهِ: "انتظرَ المسلمون أكثرَ من ثمانيَةِ قرونٍ حتى تحقَّقتْ البشارةُ النبويَّةُ بفتحِ القسطنطينيَّةِ، وكان حُلْمًا غاليًا وأَمَلاً عزيزًا حتى يسَّرهُ الله على يدِ السلطانِ العثمانِيّ محمد الثاني!"، لن يغفلَ التاريخُ الصحيحُ الصادقُ عن مثلِ هذه الإستعراضاتِ الحماسيَّةِ التي لا أساسَ لها من الصحةِ.**

وبالمناسبةِ؛ تسمعون «حديثًا»،من كثيرٍ من الأتراكِ المتديّنين (خاصَّةً في أيَّامِ ذِكرَى فتح إسطنبولَ، يوم 29 مايو بالتحديد من كلِّ عام)، وهذا نَصُّهُ: "لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ". يزعمون أنَّه من الأحاديثِ الصحيحةِ للرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلام. إلاَّ أنَّ أهلَ الحديثِ يكادُ كلُّهُمْ يُجمِعون على تضعِيفِهِ. فلا يخفَى أنَّ إصرارَ العنصريّين الأتراكِ على دعواهم "أنَّه حديثٌ صحيحٌ" لا يعدو عن ضربٍ من ضروبِ تحريفِ الحقائقِ التاريخيَّةِ.

---

[148] وردت هذه الكلمات للدكتور أرخان أفيونجي في كتابه: Sorularla Osmanlı İmparatorluğu:

Fatih, ilk olarak azapları ve ordusundaki Hıristiyanları surlara saldırttı. İşin en garibi Avrupalı Hıristiyanlardan Bizans'a birkaç yüz kişilik yardım gelmişken, Osmanlı ordusunda Alman'dan Macar'a, Hırvat'tan Sırp'a kadar binlerce Hıristiyan vardı. Hatta ganimet almak umuduyla şehre saldıran bu Hıristiyanların içerisinde Rum kökenli olanlar bile bulunuyordu.

[149] الصورة مسجلة تحت رقم: The National Gallery Collection Selecter by Michael Levey ISBN 0-9476445-34-9

قيل: إنَّ السلطانَ محمدًا الفاتحَ كانَ مُتَفَانيًا في محبَّةِ المسحيّين، مُنْبَهِرًا بآثارِهِمْ، يتردَّدُ إلى كنسةٍ لهم في حيِّ (غَلَطَا Galata). وله أبياتٌ يُعَبِّرُ خِلالَهَا عن بالغِ إعجابِهِ بالمعالِمِ المسيحيَّةِ، فيقولُ في تلك الأبياتِ التي أنشأها باللُّغةِ التُّرْكِيَّة العثمانيَّةِ، وقد عَرَّبْنَاهَا نَثْرًا قدرَ الإمكانِ كما يلي:

مَنْ شاهد "غَلَطَا" لا يكادُ يربطُ قلبَهُ بالفردوسِ،
مَنْ شاهد محبوبةً في "غَلَطَا"،
لا يكادُ يَعْشِقُ فتاةً هَنْدَامُهَا مثل شجرةِ السروِ.

لقيتُ مَسِيحًا في "غَلَطَا"، لهجتُهُ أفرنجية،
مَنْ شاهد عالِمَ المسيح يَغْدُو شَفَتَاهُ صَومَعَةً

كيف تستطيعُ أنْ تَثْبُتَ على دينِكَ وتضبطَ الإيمانَ ياتُرى!
أيها المسلمون من يرى تلك الكنيسةَ يَغْدُو لاَ مَحَالَةَ كافرًا.

لن يعتدَّ بِالكوثَرِ من تَجَرَّعَ من ذلك الرحيقِ المختومِ
لن يدخلَ المسجدَ من شاهد تلك الكنيسةَ العظيمةَ.

أيْ عوني![150] لقد تعلمُ أنك كافرٌ أفرنْجِيٌّ،
في وسطك الزُّنَارُ وفي عُنُقِكَ الصليبُ.[151]

---

[150] **عوني: اسمٌ مستعار اتّخذهُ السلطان محمد الفاتح للإشارةِ إلى نفسِهِ في أشعارِهِ.**

[151] **هذه الأبيات منقولة من ديوان السلطان محمد الفاتح الذي قام بتحقيقه ونشره الأستاذ الدكتور محمد نور دوغان عام 2004م. بمناسبة ذكرى فتح إسطنبول لعام 551. والنصُّ الأصلِيُّ لهذا الديوان، عَثَرَ عليه الأديبُ العثمانِيُّ علي أميري أفندي وهو مُسَجَّلٌ تحت رقم: 305 في مكتبة** Millet Kütüphanesi **بمدينة أسطنبول، وهذا نصّ الأبيات باللغة التُّرْكِيَّة العثمانية.**

Bağlamaz firdevse gönlünü Kalata'yı gören * Servi anmaz onda ol serv-i dilârâyı gören
Bir firengî şîveli İsayî gördüm anda kim * Lebleri dirisidür der idi İsâ'yı gören
Akl u fehmin dîn ü îmânın nice zabt eylesün * Kâfir olur hey müselmânlar o tersâyı gören
Kevser'i anmaz ol içdiği mey-i nâbı içen * Mescide varmaz o varduğı kilisâyı gören
Bir Frengi kafir olduğun bilürdi Avniya * Belün-ü boynunda zünnar–i çelipayı gören

إنَّ العنصريّين الأتراك لا يستطيعون كتمَ هذه الحقيقةِ لكنَّهم يتشدَّقون بأنَّ السلطانَ محمَّدًا الفاتحَ إنَّما قال هذه الكلماتِ على سبيل المجاز، وأنَّ فيها حِكَمًا لا يبلغُ إلى فهمِها إلاَّ أهلُ الحكمَةِ والْعِرْفَان!

***

مدحتْ فئةٌ من الكُتَّابِ والمؤرِّخين سياسةَ سلاطينِ بَنِي عثمانَ بوجهٍ عامٍّ، بينما ندَّدتْها فئةٌ أخرَى منهم، واستنْكَرَتْ أسلوبَ تعامُلِهِمْ مع الرجالِ من أفرادِ الأُسرة خاصَّةً، فركَّزتْ اهتِمامَها على عادةٍ شاعتْ فيهم؛ وهي قتل الإخوةِ والأولاد.

بَدَأَ قتلُ الرجالِ من الأقاربِ في أسرةِ آلِ عثمانَ بمؤسِّسِ هذه الدولةِ بالذَّات (عثمان بن أَرطُغرول)، حين قَتَلَ عمَّهُ (دُونْدارْ). وقد دامتْ هذه العادةُ فيهم إلى نهايةِ دولتِهم تقريبًا. تبرهنُ الوثائقُ على أنَّ عددًا من حُكَّامِ هذه الأسرةِ (ومجموعهم 36)، قد تلبَّسوا بقتلِ الرجلِ الأقربِ إليهم مِنْ أخٍ أو ولدٍ. وقد بلغتْ هذه الجناياتُ إلى حدِّ الإبادةِ الجماعيةِ في عهدِ بعضِ هؤلاءِ الحُكَّامِ. فمثلاً؛ السلطان مرادُ الثالثُ بْنُ سليمِ الثاني، قتلَ أشقَّائَهُ الْخَمْسَ فورَ جلوسِهِ على العرشِ. وسَبَقَهُ ابنُهُ محمدٌ الثالثُ في سفكِ دماءِ الإخوةِ، فَقَتَلَ إخوتَهُ التسعةَ عشرَ صبيحةَ تسلُّمِهِ للسلطةِ. وقد تكونُ مُبَرِّرَاتٌ شرعيَّةٌ لِبَعْضِ هذهِ الإعداماتِ، إلاَّ أنَّ الدفاعَ عن كُلِّ هذه الأحداثِ الرهيبةِ بوجهٍ عامٍّ، يُنْبِئُ عن الفكرةِ الوثنيَّةِ المتمثِّلةِ في تأليهِ الزعيمِ، وهي منتشرةٌ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ؛ "لأنَّ الزعيمَ لا يُسْؤَلُ عما يفعل، وهو ظِلُّ الله على عبادِهِ يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريد".

كانت لهم عادةٌ أخرَى داموا عليها إلى آخرِ حُكْمِهِمْ؛ وهي: أنَّهم أهملوا التزوُّجَ بالحرائرِ واقتصروا على مضاجعةِ الإماءِ الْمَسْبِيَّاتِ من البلادِ التي استولوا عليها في أثناءِ الفتوحاتِ. وقد فسَّرَ بعضُ المؤرِّخين عادتَهُمْ هذه بأنَّها كانت ناشئةً من كراهيَّتهم لرعاياهم الأتراك الذين كانوا من بَنِي جلدتِهم. يدلُّ على صحَّةِ هذا الإدِّعاءِ قولُهم: «أَتْرَاكِ بِي إِدْرَاكْ». أي الأتراك السُّذَّجُ البُسَطَاء الذين لا إدراكَ لهم.

على رغمِ ثبوتِ هذه الحقائقِ فإنَّ جمهورًا من الْكُتَّابِ والمؤرِّخين خاصةً من القطاعِ النقشبنديِّ متواطئون على إخفائِهَا (بخاصةٍ قتلِ الرجالِ من أفرادِ الأسرةِ، لأنَّهُ "يُستبعَدُ – في اعتقادهم – أنْ

يرتكبَ أحدُهُمْ أدنى ذنبٍ، فضلاً عن أنْ يتلبَّسَ بِجَنَايَةٍ. ذلك لأنَّهم جميعًا أولياءُ اللهِ وخاصَّتُهُ، سيدخلون الْجَنَّةَ بغيرِ حساب"). بينما يزعمُ بعضُهم أنَّ السلاطين إنَّما أقدموا على ذلك بعدَ أخذِ الموافقةِ الشرعيَّةِ من مفتِي الديار، ولم يكنْ هذا التصرُّفُ منهم إلاَّ بغرضِ الحفاظِ على وحدةِ الدولةِ ومصالحِهَا الْعُلْيَا.

***

تولَّى منصبَ الصدارةِ العظمَى في الدولةِ العثمانيَّةِ **218** شخصيةً؛ **101** منهم كانوا من أصولٍ تُرْكِيَّةٍ، و**117** شخصيَّةً كانو من أصولٍ مختلفةٍ أكثرهُم مِنَ السُّبِيِّ أو اللُّقَطَاءِ. كذلك الأمرُ بالنسبَةِ للشخصيَّاتِ الذين احتلُّوا منصبَ المشيخَةِ الإسلاميَّةِ. يبلغُ عددُهم **131** شخصيّةً من رِجَالِ الدِّينِ. تَوَلَّوْا مُهِمَّةَ الفتوَى ابتداءً من عهدِ السلطان مرادِ الثاني، وذلك ما بين **1424–1922**م. كان لهم دورٌ كبيرٌ في إدارةِ شئونِ الدولةِ. قيلَ: إنَّ جميعَ هؤلاءِ الْمُفْتِيِّين (باستثناءِ تسعةٍ منهم) كانوا من أصولٍ غيرِ تركيَّةٍ. إلاَّ أنَّ هذا الواقعَ ظلَّ أمرًا مكتومًا في كُتُبِ التاريخِ الرسميَّةِ، ولا يكادُ أحدٌ في تركيا يتجرَّءُ على إعلانِ هذهِ الحقيقةِ إلاَّ قلَّةً من الباحثين وأهلِ العلمِ. تتجاهلُ الجهاتُ التعليميَّةُ هذا الواقعَ التاريخِيَّ مخافةَ أنْ تفقِدَ دولةُ الآباءِ قداستَهَا وهيبتَهَا في قلوب الناشئَةِ!

***

وردتْ عِدَّةُ أسْماءٍ لِرِجالِ الفنِّ العثمانِيِّ ضمنَ سطورٍ وجيزةٍ لبعضِ الباحثين الأتراك، مثل: قاضِي ذاده الرومي، ومَطْرَقْجِي نصوح، وتقِيّ الدِّين محمد، وعلى قوشْجِي، وخواجه ذاده مُصْلِح الدِّين مصطفى، ومحمد زَيْرَكْ، ومُلاَّ لطفي، ومُلاَّ خُسرَو... لعلَّ أكثرُ هؤلاءِ أيضًا من أصولٍ غيرِ تركيَّةٍ. كما أنَّ مصادرَ تاريخِ الفنِّ الْمُعْتَبَرَةَ خاليةٌ تمامًا من هذه الأسماءِ باستثناءِ عَدَدٍ قليلٍ مِنْ غَيْرِ هؤلاءِ، يأتِي على رأسِهِمْ المهندسُ الشهيرُ سنان الأَغْرِيَانُوسِي (**1489–1588**م.)، والمهندس أوربان المجري، والمهندس الراهب إبراهيم مُتَفَرِّقَة المجري (**1674–1745**)، ونصوح مَطْرَقْجِي... أمَّا سِنَان الأَغْرِيَانُوسِي، فقد اختلفَ المؤرِّخون فيما إذا كان من أصلٍ أرْمَنِيّ أو رُومِيّ (أي يونانِيّ). أمَّا مَنِ ادَّعى أنّه تُرْكِيُّ الأصلِ فدعواه باطل من الأساس، ولا برهانَ له علميًّا أبدًا.

كذلك، ثَمَّ شخصيَّاتٌ من العلماءِ والشعراءِ، يفخرُ بهم الأتراك بأنَّهم من أصولٍ تركيَّةٍ، والحقيقةُ عكسُ ذلك، مثل جلال الدين الرومي، فإنه عربِيُّ الأصلِ صِدِّيقِيٌّ (من سلالةِ أبي بكر الصديق)، فارسيُّ النشأةِ، جُلُّ مُؤَلَّفَاتِهِ فارسيَّةٌ بما فيها دِيوانُهُ الشهيرُ المعروفُ بـ (الْمَثْنَوِيّ الْمَعْنَوِيّ)، كما ورد

على لسانِ بعضِ رجالِ العلمِ[152] أنَّه كان يكره الأتراك وينتصرُ للمغول أثناءَ احتلالِهِمْ أراضي أناضول.

تتواطأ الجهاتُ التعليميَّةُ في تركيا مع القطاعِ العُنْصُرِيّ النَّقْشَبَنْدِيّ على إخفاءِ هذهِ الحقائقِ كُلِّهَا؛ إمَّا بالتزييفِ والتحريفِ، وإمَّا بالكتْمِ والتجاهُلِ؛ يلتقِي الكماليُّون والنقشبندِيُّون في اللجوءِ إلى هذه الحيلةِ إثارةً للروحِ الوثنِيّ الْمُتَنَامِي في المجتمعِ التُّرْكِيِّ المتمثِّلِ في الديانةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ، وهي مصدرُ أنواعٍ من الكفرياتِ؛ يأتي على رأسِها تألِهُ السلاطينِ والملوكِ والأضرحةِ، لِمَا يرون في ذلك وسيلةً للافتخارِ بالآباءِ والأمجادِ، وسبيلاً للاستدلالِ على عُمْقِ جذورِهم في التاريخ، كقاسمٍ مشتركٍ بين فئاتِهِم المتباينَةِ، إنَّما يتشبَّثون بهذه الحيلةِ الرخيصةِ لاعتقادِهم بدورِهَا في جمعِ شملِهِمْ وتوحيدِ كلمتِهِمْ، وتَمْييزِهِمْ من العربِ خاصَّةً.

***

لقد كانت الدولةُ العثمانيَّةُ في الحقيقةِ دولةً عملاقةً تمتازُ في أيَّامِ عِزِّهَا بِبِنْيَةٍ رصينةٍ، وقوَّةٍ قاهرةٍ رهيبَةٍ تُثيرُ الهيبَةَ في النفوسِ، وطابعٍ شبهِ إسلامِيّ، وتسامُحٍ في سياستِها مع غيرِ المسلمين من رعاياها... تجمعُ في نظامِها بين إيجابِيَّاتٍ كثيرةٍ (يستغلُّها اليومَ في تحقيقِ أغراضِهِ تيَّارٌ عنصريٌّ خطيرٌ في تركيا)، كما كانتْ لهذهِ الدولةِ نَفْسِهَا سلبيَّاتٌ كثيرةٌ (يمنعُ هذا التيارُ العنصرِيُّ الآنفُ الذكرِ من إظهارِهَا، ويلجأُ إلى تحريفِ الحقائقِ التاريخيَّةِ لهذه الدولةِ) فلا تتبلورُ إلى العيانِ بصورةٍ واضحةٍ، فتتمخَّضُ عن ذلك ضبابٌ يحيطُ بالْهيئَةِ التاريخيَّةِ لهذه الدولةِ، فلا يكادُ الباحثُ يقدرُ على تقييمِها بِرُؤْيةٍ واضحةٍ ورأيٍ محايدٍ. وقد يؤدِّي ذلك إلى سوءِ الظنّ وفسادِ القناعةِ والنزاعِ بين وجهاتِ النظرِ، فيتطوَّرُ منهُ الخلافُ والضغينَةُ والفوضَى...

إذًا يحسنُ هنا مقارنَةٌ بين صُوَرٍ وأحداثٍ من التطوُّراتِ التي كانتْ تجرِي يومئذٍ على الساحةِ العثمانيَّةِ وعلى مناطقَ مختلفةٍ في أوروبا متزامنًا، لِيَتَبَيَّنَ بذلك البونُ الشاسِعُ بين المستوَى الحضارِيّ للدولةِ العثمانيَّةِ وبين الدُّوَلِ الغربيَّةِ، ولكي تظهرَ أنَّ هذه الدُّوَلَ كيفَ كانتْ في الحقيقةِ أرقَى مستوًى من الدولةِ العثمانيَّةِ في العلومِ والفنونِ، رغم اتِّساعِ رقعةِ هذه الدولةِ العملاقةِ وتفوُّقِها العسكريّ. وذلك تفاديًا لاستغلالِ التاريخِ واستخدامِهِ في إثارةِ العنصريَّةِ وتأجيجِ الفتنِ بين الشعوبِ. وليتَّضِحَ بعد ذلك جانبٌ من الإجابَةِ على السؤالِ عنِ الأسبابِ التي أَخَّرَتِ المسلمين وَعَرْقَلَتْهُمْ عن مواصلةِ

---

[152] راجع: Prof. Dr. Mikail Bayram, Sosyal ve Siyasi Boyutlarıyla Ahi Evren- Mevlana Mücadelesi.

بناء الحضارةِ الإسلاميَّةِ. وإليكم خلاصةً من ذكرِ أهمِّ ما حدثَ في أيَّامِ سلاطِين آلِ عثمانَ بالترتيبِ وفقَ التسلسلِ الزمَنِيّ:

في الأيَّامِ التي كانتْ نواةُ المجتمعِ العثمانِيّ مجرَّدَ عشيرةٍ تحاوِلُ إرساءَ دعامتِهَا الأولَى لتتحوَّلَ إلى دولةٍ، كان هذا المجتمعُ الصغيرُ يومئذٍ عبارةً عن (قبيلةِ قَايِ) من التُّرْكَمَانِ الْغُزِّ، خاليَةً من العلماءِ والشعراءِ والخبراءِ والفنَّانين، يرأسُها أرْطُغْرُولْ بيك Ertuğrul Bey (**1198–1281**م)، **الذي لم يدخُلْ اسْمُهُ أبدًا في سجلِّ التاريخِ بعنوانِ سلطانٍ أو ملِكٍ أو حتَّى أمير. كما كان هذا المجتمعُ الصغيرُ على حالةٍ من السذاجةِ والجمودِ والسُّباتِ، بينما بدأتْ الإرهاصاتُ في أنحاءِ أوروبا تُنْبِئُ عن ميلادِ عصرٍ جديد.**

ومن بشائرِ هذا العصرِ؛ الأديبُ الشاعرُ الإطالِيُّ دانتي أليغييري Dante Alighieri (**1265–1321**م.)، **كاتبُ الملحمةِ الشعريَّةِ الشهيرة بعنوانِ "الكوميديا الإلهيَّة". التي ظلَّتْ موضوعَ خلافٍ بين أهلِ البحثِ العلمِيّ مِمَّنْ حاولوا إثباتَها للشاعرِ دانتي، ومن أدَّعوا أنَّها وليدةُ انتحالٍ وسَرِقَةٍ عن (رسالةِ الغفران) للشاعرِ العربِيّ أبي العلاءِ المعريّ.**

على أيَّةِ حالٍ، فإنَّ قبيلةَ (قَايِ Kayı**) ربما لم يكنْ فيها يومئذٍ شخصٌ واحدٌ له علمٌ بالشاعرِ الإيطالِيّ وملحمتِهِ "الكوميديا الإلهيَّة"، ولا بالشاعرِ العربِيّ أبي العلاءِ المعريّ وكتابِهِ (رسالة الغفران).**

في الأيامِ التي خَلَفَ عثمان بيك أَبَاهُ أرطغرول في قومِهِ وهو مشغولٌ بقتلِ عمِّهِ (دُونْدَارْ)، وتتحرَّشُ كتائبُهُ الصغيرةُ بقوَّاتِ الحرسِ البيزنطيَّةِ في ثغورِ القسطنطنيَّةِ، كان قد وَصَلَ الرَّحَّالَةُ والمستكشِفُ الإيطالِيُّ ماركو بولو Marco Polo **إلى المناطقِ الصينيَّةِ في المشرقِ الأقصَى. وقبيلةُ (قِايِ) البدويَّةُ لم تكنْ تعلمُ شيئًا عن المناطقِ النائيَةِ وحتَّى عنِ المنطقةِ التي غادرَهَا أسلافُها قبلَ قرونٍ زاحفين من تخومِ الصينِ إلى أراضِي أناضولَ الخصِيبَةِ وقد أنهكتْهُم المجاعةُ نتيجةَ الجَدْبِ والقحطِ الذي أصابَهم هناك. كانتْ أوروبا يومئذٍ تهتمُّ بالاكتشافاتِ الجغرافيَّةِ الكبرى مِمَّا مَكَّنَهَا من الوصولِ إلى الهندِ والصينِ، واكتشافِ عوالِمَ جديدةٍ تَرَتَّبَ عنه نتائجُ هامَّةٌ غيَّرَتْ مسارَ العلاقاتِ التاريخيَّةِ في العالَمِ. نجحَ التُّجَّارُ الأوروبيُّون بعد الوصولِ إلى مناطقِ آسيا القُصوَى دون المرورِ من المناطقِ العربيَّةِ، فكانت الرغبةُ في تجاوزِ هذا الخطِّ من أهمِّ دوافعِ الإكتشافاتِ، فتجنَّبوا بذلك من العَقَبَاتِ والأخطارِ التي قد تُعَرْقِلُهُمْ عن أهدافِهِمْ، فعثروا على مصادرِ الثروةِ في الشرقِ بفضلِ هذهِ الإكتشافاتِ، وسيطروا**

عليها واستنزفوها ونقلوا عَبْرَ القرونِ منها الأحجارَ النفيسَةَ والحريرَ وأنواعًا من الخاماتِ ما أشبعَ القارَّةَ الأوروبيَّةَ وأغنتْها وساعدتْ على ازدِهارِها في عصرِ النهضةِ وبناءِ حضارتِهَا وتفوُّقِها السياسِيِّ والإقتصادِيِّ والعسكرِيِّ. بينما كان المسلمون عامَّةً وقبيلةُ (قايِ) وهي نواةُ الدولةِ الثمانيةِ بوجه خاصٍّ، كانوا يومئذٍ في غفلتِهِمْ يعمهوم.

مات الأميرُ عثمان بيك بن أرطغرول سنة **1326**م. وقد اتَّسمتْ رقعتُهُ بالإمارةِ العثمانية، وخَلَفَهُ ولدُهُ أورخان غازي، والإمارةُ كانت يومئذ تضمُّ ثمانيةَ مدنٍ صغيرةٍ فحسب، وهي:Mudurnu، Eskişehir،Karacahisar، Söğüt، Bilecik، İnegöl، Yarhisar. كانتْ بعضُ هذه المواقعِ على مستوَى قريةٍ، لم تتطوَّرْ إلى هيئةِ مدينةٍ بعدُ.. قام أورخان غازي بتوسيعِ رقعتِهِ بعد موتِ أبِيهِ، ففتحَ مدينةَ بورصا[153] (Bursa) عام **1326**م، ثم استولى على مدينةِ نيقيا (İznik) عام **1331**م. وعلى مدينةِ نِيكُومِيدْيَا (İzmit) سنة **1337**م. إلاَّ أنَّ هذه الدولةَ الصغيرةَ لم تكنْ رعاياها أهلَ صناعةٍ وعلمٍ، كما يشهدُ على ذلك تاريخُ هذه المرحلةِ، ولم يكنْ العلمُ والمعرفةُ ولا الصناعةُ والفنُّ من أسبابِ فتوحاتِ الأمير أورخان غازي، بل أسبابُ نَجاحِهِ تعود إلى ضعفِ الدولةِ البيزنطية الْمُتَضَعْضِعَةِ، والمشرفةِ على الإنهايارِ، جرَّاءَ صراعِ أفرادِ الأسرةِ المالكةِ على عرشِ القسطنطنيَّةِ. كان الأميرُ أورخان، أوَّلَ مَنْ تزوَّجَ من فتاةٍ بيزنطيَّةٍ اسمها: Horofira، ثم تزوَّجَ من الأميرةِ: Asporca بنتِ ملكِ بيزنطة، Andronicus Paleologos ومن الأميرةِ Theodora بنتِ الملك Ioannis Cantacuzeni.. بدأ يتربَّصُ بالدولةِ البيزنطيَّةِ ويتحيَّنُ الفرصةَ للإنقضاضِ عليها مستفيدًا من ضعفِها ومن وراءِ هذه الصهريَّةِ، إلاَّ أنَّ هذا الحظَّ انتظر لِيَنَالَهُ حفيدُهُ من الطبقةِ الخامسةِ محمد الثاني.

من أوائلِ سِماتِ الدولةِ العثمانيَّةِ التي بدأتْ في عهدِ الأمير أورخان: سَكُّ الْعُمْلَةِ، وفتحُ مدرسةٍ بمدينةِ (نِيقْيَا) عام **1330**م. وهي أوَّلُ مدرسةٍ في تاريخِ الدولةِ العثمانيَّةِ. يزعمُ شرذمةٌ من الكُتَّابِ الأتراك المعاصرين أنَّ المؤسَّساتِ التعليميَّةَ كان قد بلغَ عددُها إلى **82** مدرسةً في انحاءِ المملكةِ العثمانيَّةِ ما بين اعوام **1463-1471**م. إنَّما تدفعُهم أغراضُهم إلى مثلِ هذا الإدعاءِ، لِيُبَرْهِنُوا بذلك على اهتمامِ الأتراكِ بالعلمِ والفنّ والمعرفةِ، بينما الحقائقُ التاريخيَّةُ تدلُّ على عكسِ ذلك، ويجبُ هنا التمييزُ بين جهازِ الدولةِ وبين المجتمَع. ذلك أنَّ الدولةَ كانت تعتمدُ على عناصرَ أجنبيَّةٍ في الاستفادةِ مِنَ الفنونِ والصناعاتِ والعلومِ العقليَّةِ... يدلُّ على هذه الحقيقةِ استخدامُ السلاطينِ أطبَّاءَ من اليهودِ والنصارى في استشاراتِهم الطبّيَّةِ ومداواتِهم. دامتْ هذه العادةُ فيهم إلى آخرِ

---

[153] كان ضبطُ هذا الاسم في المصطلح العثمانيّ على شكل "بُرُسَه"

حكمِهم. كما كانوا يستخدمون المهندسِين والفنَّانين من (المجموعاتِ الْمُلْتَقَطَة)، وهي طائفةٌ من حاشيةِ السلطانِ. وذلك أنَّ الدولةَ كانتْ تبحثُ عن الأطفالِ الممتازين بالعافيَّةِ والخِلقَةِ الجميلَةِ، فتأخذُهم من أُسَرِهم (من القطاعِ المسيحيّ واليهوديّ) بعد موافقتِها، فَتُرَبِّيهِمْ في المدرسةِ السلطانيَّةِ الخاصَّةِ المسمَّاةِ بـ"أَنْدَرُون"، فَيَنْشَؤُونَ على العقيدةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ، ويتلقَّونَ فيها فنونًا وصناعاتٍ مختلفةً تستعين بِهِم الدولةُ في تسييرِ شؤونِها وتدابيرِهَا. اشتهرَ من هؤلاءِ الْمُلْتقَطين شخصيَّاتٌ بارِزَةٌ يأتِي على رأسِهم المهندسُ المعماريُّ سنان الأَغْرِيَانُوسِي، وقد احتلَّ عددٌ منهم مقامَ الصدارةِ العُظمَى،. أمَّا العناصرُ التُّرْكِيَّة، فإنَّهم كانوا غيرَ محظوظين بالقبولِ إلى هذه الجامعةِ الراقيَةِ، وإنَّما كان أمامَ العائلاتِ من القطاعِ الْمُسْلُمَان – بما فيهم الأتراك الخيارُ الوحيدُ لتثقيفِ أبناءِهَا: هو المدرسةُ الإسلاميَّةُ التقليدِيَّةُ التي كانت تعتمدُ تحفيظَ آلافٍ من قواعدِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وتصريفَ الأفعالِ على مدَى سنين، يتخرَّج الطالبُ فيها وقد تحوَّل إلى مخلوقٍ غريبٍ وإنسانٍ متزمِّتٍ لا يرَى الأشياءَ إلاَّ في لونين: إمَّا أسود وإمَّا أبيض!

مات الأمير أورخان بك بن عثمان بك. وقد اختلفَ المؤرِّخون في تاريخِ موتِهِ، قال بعضُهم: إنَّهُ مات سنة **1360**م، بينما ادَّعَى آخرون أنَّهُ مات عام **1362**م. وهذا يدلُّ على الجوِّ الخالي من أهلِ الضبطِ والكتابَةِ في عهدِهِ. وخَلَفَهُ وَلَدُهُ مرادُ الأَوَّلُ، من زوجتِهِ البيزنطيَّةِ Horofira. تَحَوَّلَتِ الإمارةُ العثمانيَّةُ في عهدِهِ إلى سلطنةٍ تُهَدِّدُ الدولةَ البيزنطيَّةَ بعد فتحِ مناطقَ هامَّةٍ منها: مدينةُ أَدِيرْنَه، وفِلِيبَه، وسالونيك، ونيش، وصوفيا. كانت شؤونُ الدولةِ تُدَارُ على أساسِ التقاليدِ والعرفِ، إذ لم تكنْ لها قوانينُ منصوصةٌ بعدُ. وهذا يبرهنُ على مدَى علاقةِ المجتمعِ العثمانِيّ الأَوَّلِ بالإسلامِ والعلمِ والمعرفةِ في تلك المرحلةِ. واشتهرَ السلطانُ مرادُ هذا بقتلِ أخويه أبراهيم (من الجارية Asporca) وخليل (من الجارية Theodora) كما سَمَلَ عَيْنَيْ ولدِهِ صاوجي بيك ثم أَعْدَمَهُ. بينما ظهرت تيَّاراتٌ ثقافيَّةٌ وفنيَّةٌ على الساحةِ الأوروبيَّةِ في تلك المرحلةِ وفي وقتٍ مبكّرٍ بدءًا من الأديبِ الإيطالي جيوفانِيّ بوكاتشو Giovanni Boccaccio (**1313–1375**م.) الذي احتلَّ اسْمُهُ مكانًا مرموقًا في سجلِّ الأدبِ الإنسانِيّ. وهو مؤلِّفُ عددٍ من الأعمالِ البارزةِ، على رأسِها "ديكاميرون".

بايزيدُ الأَوَّلُ خَلَفَ أباه (مرادَ الأَوَّلَ فورَ استشهادِهِ في معركة كوسوفو)، وأمُّهُ Maria بنتُ ملكِ بلغاريا Ivan Alexandre (كانتْ من أبٍ مسيحيٍّ وأمٍّ يهوديَّةٍ). تزوَّج بايزيدُ الأَوَّلُ من Olivera بنتِ ملكِ الصربِ، كذلك من الأميرةِ Olga البلغاريَّةِ، فأنجبتْ له محمَّدًا تشلبيَّ الذي خَلَفَهُ من

بعده. كان لِبَايَزِيدِ الأَوَّلِ عددٌ آخرُ من الزوجاتِ، منهنَّ: Maria ،Angelina،...Anita . قَتَلَ أخاه يعقوبَ، وَأبوه مراد آنذاك في ساحةِ المعركةِ. دخلَ بايزيدُ الأَوَّلُ في أسرِ المغولِ أيَّامَ احتِلاَلِ تَيْمُورْ لَنْك لأَراضِي أناضولَ، وماتَ في الأسر.

وَثَبَ على عَرْشِهِ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ تشلبِيُّ بعد صراعٍ مريرٍ جَرَى بين أبناءِ بايزيدِ الأَوَّل: محمد تشلبي، وموسى تشلبي، وعيسى تشلبي، وسليمان تشلبي (وذلك ما بين أعوام **1402-1413**م.) والدَّوْلَةُ يومئذ على شفا جرفٍ هار. قُتِلَ ثلاثةٌ منهم وظفر محمّدٌ بالعرشِ. وهو ابن Olga البلغاريَّةِ. كلُّ زوجاتِهِ وإماؤُهُ أجنبيَّاتٌ. أشهرُهُنَّ: Sophia، Anna، Veronic. بينما كان المجتمعُ العثمانِيُّ الصغيرُ في حالةٍ من الشتاتِ والفوضَى خاليًا من أهل العلمِ والفنَّ والصناعةِ، معزولاً عن العالَمِ الخارجِيّ مُنْغَلِقًا على نفسِهِ، منذ بدايةِ عهدِ بايزيدِ الأَوَّلِ إلى نِهَايَةِ عهدِ وَلَدِهِ محمَّد تشلبي، كانت أبوابُ التجدُّدِ الحضارِيّ في أوروبا يومئذٍ مفتوحةً على مصاريعِها؛ طوَّرَ الراهبُ الإنجليزيُّ Walter Skirlaw كيرَ الحدَّادِ من الحالةِ اليدويَّةِ إلى جهازٍ آلِيّ يعملُ بقوَّةِ الماءِ؛ نَجَحَ المهندسان الإيطاليان: Filippo Bruneleschi و Leon Alberti، نَجَاحًا في تخطيط الصورةِ بأبعادها الثلاثةِ؛ اسطعاعَ مَلِكُ كُورْيَا Htai Tjong أن يخترعَ الحروفَ البرونزيةَ عام **1403**م. وذلك بطريقِ التطويرِ من الحروفِ الحجريَّةِ التي كان الصينيون قد اخترعوها عام **868**م. بعد ميلاد عيسى عليه السلام.

مات محمَّدٌ تشلبِيُّ ولم يتجاوز ال**32** من عمرِهِ. خَلَّفَ ثلاثَ بنين من Veronica، وهم: مرادُ (الثاني)، وأحمدُ، ويوسفُ، وولدًا من Anna، وهو محمودٌ، وولدًا من Sophia، وهو قاسمٌ. تَرَبَّعَ على عرشِ أبيه (محمَّدٍ تشلبِيّ) ابنُهُ مرادُ الثاني، فلم يلبث السلطانُ مرادٌ هذا، حتى قَتَلَ عَمَّهُ مصطفى تشلبي، وأخاه (سَمِيَّ عَمِّهِ) مصطفى تشلبي (وعمره: **13** سنة). كما سَمَلَ عيونَ إخوتِهِ الثلاثة بِحَدِيدَةٍ مُحْمَاةٍ، وهم: أحمدُ، ومحمودٌ، ويوسفُ..

تزوَّجَ مرادُ الثاني من Mara Despina، التي أنجبتْ له محمدًا الثانِيَ (فاتحَ القسطنطنيَّةِ). وهي بنتُ ملكِ صربيا Curac Brankovitsh. وكان له عددٌ كثيرٌ من الإماءِ، على رأسهنَّ Naché de la Bozary الفرنسيَّةُ، و Stella الإيطاليَّةُ. حاولتْ Naché de la Bozary الفرارَ من القصرِ، إلاَّ أنَّها وقعتْ في قبضةِ الحرسِ وقُتِلتْ بأمرٍ من السلطان مراد.

تنازلَ السلطانُ مرادُ الثاني عن العرش لِوَلَدِهِ محمَّدٍ الثاني مرَّتين. في المرَّةِ الأخيرة كان محمَّدٌ في أل21 من عمره. فَتَحَ القسطنطنيَّةَ في أيَّامٍ كانتِ الدولةُ البيزنطيَّةُ على وشكِ التداعِي وهي تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ، ولمِ يكنْ يومئذٍ مانعٌ يردُّ عنها الأمرَ المحتومَ حتَّى ولو تصدَّى لِفتحِها غيرُ محمَّدٍ الثاني، لِمَا نَخَرَتْهَا عواملُ متضافرةٌ وقد أصابَهَا من الشيخوخةِ والضعفِ والإنفلاتِ والفسادِ ما يعجز اللسانُ عن وصفِها.

وما إنْ دخل الجيشُ العثمانِيُّ المدينةَ حتَّى بادرَ بالفرارِ منها مئاتٌ من رجالاتِ المجتمعِ البيزنطِيِّ من أهل الفنونِ والعلومِ والصناعاتِ، فتبعثروا في مُدُنِ أوروبا. أكثرُهم رحلوا إلى إيطاليا وبدءوا يساهمون في حركةِ النهضةِ التي ظهرتْ ثَمَرَاتُهَا بعد فترةٍ، وساعدتْ شعوبَ الغربِ على بناءِ حضارةٍ جديدةٍ غلبتْ بفضْلِها الدولةَ العثمانيةَ التي أهملتْ العلمَ والفنَّ، وظلَّت تعتمدُ على مجرَّدِ جيشِها الذي تحوَّل فيما بعد إلى ثعبانٍ الْتَفَّ بخناقِها وساهم في انهيارها على غرار الدولة البيزنطية!

كتبَ عددٌ من المؤرِّخينَ سيرةَ السلطان محمَّدٍ الفاتحِ، والوقائعَ التي حدثتْ في أيَّامِهِ. وردتْ رِوايةٌ في سيرتِهِ أنَّهُ أصدرَ قانونًا يُبِيحُ قتلَ الإخوةِ "لأجلِ سلامةِ النظامِ وَدَرْءًا لِلْفِتْنَةِ". ولا يزال هذا الإدِّعَاءُ موضوعَ خلافٍ بين المؤرِّخين. إلاَّ أنَّ كثرةَ لجوءِ سلاطينِ بني عثمانَ إلى هذا الأسلوبِ يؤكِّدُ على صِحَّةِ الروايةِ[154]. ورُوِيَ أيضًا أنَّهُ أمرَ بقتلِ أخيهِ (الطفلِ) أحمدَ، الذي لم يتجاوزِ الثانيَةَ من عمره. فنُفِّذَ أمرُهُ في الحال. كذلك من غرائبِ تصرُّفاتِهِ: أنَّهُ أصدرَ فَرْمَانًا سُلْطَانِيًّا وافقَ فيهِ على طلبِ وَالِدَتِهِ المسيحيَّةِ (الملكة Mara Despina)، كانت قد اشْتَرَتْ دَيْرًا في مدينةِ سالونيك، تُرِيدُ أنْ تَتَفَرَّغَ للعبادةِ فيه، فاعتمدَ السلطانُ محمَّدٌ الفاتحُ هذا البيعَ[155].

---

154 **هذا نصّ الفرمان الذي أصدره السلطان محمد الفاتح، (باللّغة التُّرْكِيَّة العثمانية)، أباح به قتلَ الإخوةِ "لأجل سلامة النظامِ وَدَرْءًا لِلْفِتْنَةِ":**
"وهر كمسنه كه أولادمدن سلطنت ميسّر أولا، قرنداشلرين نظام عالم إيجون قتل إيتمك مناسب كوريلوب أكثر علما دخي تجويز إيتمشدر. آنوكله عامل أولالر."

وهذه ترجمته إلى العربية: "أيُّما أحدٍ مِنْ ذرّيتي قُدِّرَ له أن يحتلَّ مقامَ السلطنةِ، له أنْ يقتُلَ إخوتَهُ لأجل سلامةِ النظامِ العامّ. وقد اعتمدَ هذا الرَّأْيَ أكثرُ العلماءِ. فَلْيُعْمَلْ به."

155 **هذا نصّ الفرمان الذي أصدره السلطان محمد الفاتح (باللّغة التُّرْكِيَّة العثمانية) واعتمد به ملكيَّةَ الدَّيْرِ لِوَالِدَتِهِ الملكة Despina:**
"سبب تحرير توقيع همايون، وموجب تسطير حكم نافذ ميمون، أنفذه الله تعالى إلى يوم يُبعثون، أولدر كيم: شمدي كه حالده سيّدةُ الخواتين المسيحية آنام دسبينا خاتون، محروسهء سلانيكده كوجوك آياصوفيا ديمكله مشهور أولان مناستري بر وجه شرع شريف صاتون آلميش، بو أوزره شرعي مكتوبي دخي وار إيميش. شمدي كه حينده بكا عرض أولندي أويله أولسه بن دخي مسلّم ومقرر طوتوب إيشبو حكم جهان آراي ويردم كه مذكور مناستيره بر وجه شرع مطهّر مالكا متصرف أوله، ديلرسه صاته، ديلرسه باغشليه. في الجمله هر نجه ديلرسه ملكيت أوزره متصرف أوله. هيج أحد كائنًا مَنْ كان مانع ودافع أولب تبديل وتغيير إتميه وإجنده موجود أولان عوارضدن معاف ومسلّم أوله. كمسنه أوشندرميه وزحمت ويرميه. بتي. مطلع قيلنلر تحقيق بلب اعتماد قيللر. تحريرًا في أوائل جمادي الأول سنة ثلاث وستين وثمان مأءة 863 به مقام أديرنه"

على رغمِ القوَّةِ العسكريَّةِ التي كانتْ الدولةُ العثمانيَّةُ تتمتَّعُ بها في عهدِ السلطانِ محمَّدٍ الفاتحِ، وعلى رغمِ الفتوحاتِ التي حقَّقَها، كان القِطاعُ الْمُسْلُمَانُ الخليطُ من المجتمعِ العثمانيّ أيَّامَ سلطنتِهِ في دركٍ سحيقٍ من التخلُّفِ غريقًا في سُبَاتٍ عميقٍ، خاليًا من الصُّنَّاعِ والفنِّيّين والمُبْدِعِين؛ بينما كانتْ شعوبُ الغربِ يومئذٍ قد أفاقتْ من نومتِها، فبدأ ينشأ بين ظهرانيها علماءُ ومهندسون ومُبدِعون، منهم العبقريُّ الألمانيُّ Johannes Gensfleisch Gutenberg (1398–1468م.) الذي طَوَّر فَنَّ الطباعةِ فاخترعَ الحروفَ المتحرّكَةَ بتشكيلِ المعدنِ المنصهِرِ في قوالبَ مُتَفَرِّقَةٍ للأحرُفِ، فمكَّن بذلك طباعةَ ونشرَ الكتبِ نُسَخًا كثيرةً من عملٍ واحدٍ وفي آنٍ واحد. انتظرتْ المملكةُ العثمانيَّةُ 280 عامًا بعد هذا الإختراعِ حتى قامَ رجلٌ مَجَرِيُّ الأصلِ باستيرادِ جهازٍ للطباعةِ من أوروبا إلى إسطنبول سنة 1727م. هذا، وكان الطبيبُ المختصُّ بالخدمةِ الصحيَّةِ للسلطان محمَّدٍ الفاتحِ رجلاً يهوديًّا يُدْعَى Meastro Lacobo، وهذا يدلُّ على أقلِّ تقديرٍ أنَّ شعبَهُ الْمُسْلُمَانَ كان جاهلاً بعلمِ الطبِّ.

مات السلطان محمد الفاتح سنة 1481م. وجلسَ على عرشِهِ ابنُهُ السلطان بايزيد الثاني (1447–1512م.) من زوجتِهِ Cornelia بنتِ زَغَنُوسْ باشا، وكانت له من غيرِها عددٌ من الْمُسْتَفْرَشَاتِ وهذه أسماؤُهُنَّ: Martha، Nina، Chaterin، Liliana، Suzi، Anita،Beti ، Danilova. اختلفَ المؤرّخون في وصف شخصيتِهِ؛ زعم البعضُ أنَّهُ كان مُدْمِنًا للخمرِ حشَّاشًا. وقال الأكثريَّةُ الْمُهَلْوَسَةُ بتأليه سلاطين بني عثمان: أنَّهُ كان مُتَنَسِّكًا نازعًا إلى التَّصَوُّفِ وهذا يبرهن على الغموض الذي يختفي وَرَاءَهُ كثيرٌ من حقائقِ تاريخِ هذه الأسرةِ، جَرَّاءَ اللَّغَطِ والضوضاءِ وَالْجَلَبَةِ التي يحاوِلُ جانبٌ منها أن يجعلَ من هذ التاريخِ صَنَمًا يُعبَدُ، وجانبٌ يريد أن يختلق منه رُكَامًا من الزبالة أو جيفةً مُنتنةً تَهارَش عليه وحوشٌ طوال ستة قرون!

هذه العبارات منقولةٌ من كتاب Padişah Anaları للمؤلّف علي كمال مرام. درا النشر: .Toplumsal Dönüşüm yy، الطباعة الخامسة، ص/**134**. إسطنبول–**1997**م. يزعم المؤلف أنّ النسخةَ الأصليَّةَ لهذا الفرمان محفوظةٌ في الأرشيفِ الكائنِ بِمُتْحَفِ (طوبكابي سراي). وقد عَرَّبْنَاهُ فيما يلي:

"إنَّ سببَ تحرير هذا الفرمانِ وتوقيعَهُ من قِبَلِ جلالتنا بموجَبِ حُكمِنا النافذِ الميمون، هو: أنَّ سيّدةَ نساءِ العالَمِ المسيحيِّ في الوقت الراهن حضرة والدتي دسبينا، قد اشترتْ الدَّيْرَ المشهورَ باسم (كُوجُوكْ آيَاصُوفْيَا) بمدينةِ سَالُونِيك المحروسة وفقًا للشرعِ الشريفِ، ولَهَا وثيقةٌ بذلك، عُرِضَ عَلَينا في الوقتِ الحاضر، والأمر هذا؛ فقد اعتمَدنا وأقررنا العقدَ، وأصدرنا هذا الفرمانَ العالَمِيَّ بأنَّ لها حقُّ التصرُّفِ في الدَّيْرِ وفقًا للشريعة المطهّرةِ، كما لها الحقُّ أن تبيعَهُ إن شاءَتْ، أو أنْ تَتَبَرَّعَ بِهِ إِنْ شَاءَتْ. وفي الجملة؛ لها الْخِيَارُ الْمُطْلَقُ بالتصرّفِ في مُمْتَلَكِهَا بأيّ وجهٍ مِنَ الْوُجُوه. ولا يجوزُ لأَيّ أحدٍ كائنًا مَنْ كانَ أنْ يَمْنَعَهَا من ذلك، أو يُزَاحِمَها، أو يقومَ بِأَيّ تغييرٍ أو تبديلٍ فيه، أو يفرضَ المكوسَ على مُمْلَكِها، فأنَّ هذا الدَّيرَ مَعْفُوٌّ عن الضرائب. ومن يطّلعْ على هذا الفرمان، عليه أنْ يعتمدَهُ بأنّهُ حقٌّ. تمّ تحريره في أوائل جمادى الأولى سنة **863**هـ."

أصدر السلطان بايزيد الثاني الأمرَ بقتلِ الأميرِ أُوغُوزْ خَانْ ابنِ أَخِيه جَمْ Cem، وهو يومئذٍ طفلٌ في التاسعةِ من عمره، وذلك عام 1483م. خوفًا من أنْ يتحوَّلَ إلى مصدرٍ للمشاكل في وجهَةَ احتزاءً بأبيهَ جَمْ الذي تمرَّدَ عليه عام 1481م. وهربَ إلى جزيرةَ رودوس، ثم وقع في قبضةِ بابا Alexandre Borgia رَهِينًا، بدأ يساوِمُ عليهِ مع الدولةِ العثمانيَّةِ.

تحققتْ فتوحاتٌ في عهدِ بايزيدِ الثاني واتَّسعتْ رقعةُ الدولةِ، غير أنَّ المجتمعَ العثمانيَّ ظلَّ نائيًا عن ساحةِ العلْمِ والمعارفِ والفنونِ في هذه المرحلةِ أيضًا، لأنَّها كانتْ تعتمِدُ على مجرَّدِ القوَّةِ البشريَّةِ والأسلحَةِ التقليديَّةِ، بينما اكتشفَ المغامرُ الإيطاليُّ كريستوفر كولومبوسChristopher Columbus في هذه المرحلةِ الزمنيَّةِ (عام 1498م.) قارَّةً جديدةً (وهي قارةُ أَمِيرِكَا American Continent) لِيُسَجِّلَ التاريخُ هذا النجاحَ على حسابِ شعوبِ الغربِ التي بدأتْ في النهوضِ لبناءِ حضارةٍ راقيةٍ مَكَّنَتْهَا مِنَ الإنقضاضِ على الدولةِ العثمانيَّةِ وَالعالَمِ الإسلاميّ بِأَسْرِهِ فيما بعد. وكان قد وصلَ إلى جنوبِ القارَّةِ – مِنْ قبلُ– البحَّارُ الإيطاليُّ أمريكو فسبوتشي Amerigo Vespucci عام 1497م. كذلك من تطوراتِ هذه المرحلةِ: أنَّ الْمُخْتَرِعَ البريطانيَّ بيتر هنلين Peter Henlein صمَّمَ الساعةَ التي تُشَدُّ على الْمِعْصَمِ عام 1510م. كانت الجماعةُ اليهوديَّةُ تُصْدِرُ كُتُبَهَا باستخدامِ جهازِ الطباعةِ في إسطنبول، وهي مُحَرَّمَةٌ على المسلمين في أيَّام بايزيدِ الثاني وبعدَهُ عَبْرَ قرونٍ (إلى سنة 1727م). وفي هذه المرحلةِ وَصَلَ الْبَحَّارُ الْبُرْتُغَالِيُّ بارثولوميو دياز Bartolomeus Diaz إلى جنوبِ إفريقيا وَاسْتَوْلَى على منطقةٍ واسعةٍ فيها. كما أنَّ الْبَحَّارَ الْبُرْتُغَالِيَّ فاسكو دا جاما Vasco da Gama وصلَ إلى سواحلِ الهندِ عام 1498م. واستَوْلَى على مناطقَ منها، فمهَّدَ السبيلَ بهذهِ الحملةِ للاستعمارِ الأُورُوبِيّ في القارَّةِ الهنديَّةِ أدَّى إلى استرقاقِ المسلمين ونهبِ ثرواتِهِمْ طَوَالَ القرون. بينما كان المجتمعُ العثمانيُّ في أناضول يومئذٍ يجهلُ المناطقَ الهنديَّةَ ولاَ يعلمُ شيئًا عن تلك الديارِ إلاَّ ما يتسرَّبُ إليه من المنطقةِ العربيَّةِ من قصصِ تجارِ العربِ الذين يتوافدون إلى الهند.

انطلقَ الأمير سليمُ بْنُ بايزيدَ الثاني بأمرٍ من أبيهِ على رأسِ جيشٍ عارمٍ من الإنكشاريَّةِ، فقضَى على أخيهِ أحمدَ الذي تمرَّدَ وهو يستعدُّ لِيُطِيحَ بِوَالِدِهِ فَيَحِلَّ مكانَه وأبوه لا يزالُ على قيدِ الحياةِ فوقَ سُدَّة الحُكْمِ. كما قَتَلَ سليمٌ إِخْوَتَهُ الآخرين: عبدَ الله، وكُوزْكُودْ، وشَهِينْشَاهْ، وشاه سلطان، وعَلَمْ شاه، وعددًا من أولادِهِمْ ونسائِهِمْ.. ثم أطاحَ بِوَالِدِهِ بايزيدِ الثاني، وأمرَ بِنَفْيِهِ إلى مدينةِ دِيمَاتُوكَا. إلاَّ أنَّ السلطان بايزيد المخلوعَ قُتِلَ هو الآخرُ وهو في طريقِهِ إلى منفاه.

اختلفَ المؤرِّخونَ في صورةِ قتلِهِ؛ فقال بعضُهُمْ: إنَّه قُتِلَ خَنْقًا بالوَهْقِ، وقيل دُسَّ السّمُّ في طعامهِ فأودَى بحياتِهِ. وقد اختلفَ المؤرِّخون أيضًا في اسْمِ وَالِدَةِ سليم، فلم يتمكَّنوا من تحديدِ مَن وَلَدَتْهُ مِنْ جَوَارِي السلطان بايزيدِ الثاني. وقيلَ إنَّ الجاريَةَ التي ولدتْهُ هي .Beti البُنطُسِيَّةُ.

كان سليمٌ الأوَّلُ حاكمًا جريئًا حازمًا مستبدًّا بالحكمِ، سفَّاكًا للدِّمَاءِ... زعم بعضُ الْمُؤَرِّخين أنَّهُ أرادَ إبادةَ العلويّين التركمان، فأخذَ الفتوَى من المفتي الشيخ ابْنِ كمال، والشيخ حمزة صارو كوزه، بأنَّهم ملاحدةٌ كُفَّارٌ خارجون عن الملَّةِ، يجبُ تطهيرُ البلادِ منهم؛ كما احتجَّ بأنَّهم يُعيثون الفسادَ بإيعازٍ من شاهِ إسماعيل (حاكمِ الدولةِ الصفويَّةِ)، فَعَمَلَ السيفَ في الجماعات القاطنةِ بالمنطقةِ الْمُتَاخِمَةِ للحدودِ الإيرانيَّةِ منهم، فقُتِلَ عددٌ كبيرٌ من هذه الطائفة[156].

مات سليمٌ الأوَّلُ فَحَلَّ مكانَهُ (سنة **1520**م.) ابنُهُ سليمانُ الأوَّلُ المشهورُ بـ(القانونِيّ)، من جاريتِهِ اليهوديَّةِ Helga البولونيَّةِ الأصلِ.

كان القانونِيُّ حاكمًا عالِيَ الهِمَّةِ، ثاقبَ الرأيِ، شديدَ البأسِ، مثقَّفًا، مهتمًّا بالعمرانِ والصناعاتِ والفنونِ وأهلِها. امتدَّتْ الساحةَ الجغرافيَّةُ للدولةِ في عهدِهِ بحدودِهَا المترامِيةِ الأطرافِ إلى آفاقٍ بعيدةٍ على القارَّاتِ الثلاث: أوروبا، آسيا وإفريقيا. إلاَّ أنَّ القطاعَ المسلمانَ من المجتمعِ العثمانِيّ كان في هذه المرحلةِ أيضًا مغمورًا متأخِّرَ العقليَّةِ تقليديًّا غريقًا في سبَاتِهِ. كان معظمُ الأمراءِ والفنَّانِينَ من عناصرَ أجنبيَّةٍ مثل إبراهيم باشا، والمهندس الشهير سِنَان الأَغْرِيَانُوسِي، وَنَصُوح أَفَنْدِي مَطْرَقْجِي، وكثير غيرهم.

أمر القانونِيُّ بقتلِ ابْنِهِ مصطفى من جاريتِهِ البولونيَّةِ Anna (مَاهِ دَوْرَان)، بتحريضٍ من زوجتِهِ اليهودية Roxalan (خُرَّمْ)، كما أعدمَ ابنَه بايزيد (من زوجتِهِ هذه) مع خمسةٍ من أحفاده: محمَّد، عثمان، عبد الله، محمود، مراد). وأعدمَ من وزرائِهِ: إبراهيم باشا (زوجَ أختِهِ خديجة)، وقَرَه محمَّد باشا.

---

[156] راجع المصادر والتالية:

1. Şehabettin Tekindağ. Yeni Kaynak ve Vesikaların Işığı Altında Yavuz Sultan Selim'in İran Seferi, Tarih Dergisi. Mart 1967, sayı: 22, s. 54-55.
2. Selahattin Tansel, Yavuz Sultan Selim, s. 35.
3. Nihat Çetinkaya, Kızılbaş Türkler, Kum Saati Yayınları, 3. Baskı, İstanbul, Ekim 2004, s. 484-485
4. Adel Allouche, Osmanlı-Safevi İlişkileri, Anka Yay., İstanbul, 2001, s. 188-190.
5. Hoca Sadeddin, Tacü't Tevârih, C. IV, s. 176.
6. Solakzade Tarihi, C.II, s.16.
7. Topkapı Saray Arşivi, E.11969 numaralı hüküm.

مات القانونيُّ وحلَّ مكانَه ابنُهُ سليمٌ الثاني من زوجتِهِ Roxsalan سنة 1566م. والدولةُ تعاني أزمةً إقتصاديَّةً حادَّةً. غير أنَّهُ لم يكن يُرهق نَفْسَهُ بأدنى انتباهٍ إلى شيءٍ من أمورِ الدولةِ، لأنَّهُ كان مُدْمِنًا للخمرِ شرّيبًا سكّيرًا، غافلاً منهمكًا في إشباعِ نفسِهِ يُمضِي أكثرَ أوقاتِهِ في مجالس اللَّهْوِ والسهراتِ، ومضاجعةِ الجوارِي، وحفلاتِ السباقِ والصيد...

من الغرائبِ أنَّ مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري المتوفي سنة 1323هـ. تصدَّى لكتابَةِ مناقبِ آلِ عثمان بِتَكَلُّفٍ بالغٍ وبخلافِ ما وردَ في عددٍ من مصادرِ التاريخِ العثمانيِّ المعتَبَرَةِ، فقال في وصف هذا الملك: "كان حَسَنَ السيرةِ، محمودَ السريرةِ، وغزواتُهُ كثيرةٌ ومآثرُهُ شهيرةٌ، وكان ملكًا شجاعًا مائلاً إلى التقوَى ووجوهِ الخير، مهيبًا جليلَ القدرِ، صحيحَ العقيدةِ حنفِيَّ المذهبِ، مواظبًا على الصلواتِ الخمس"!

خالف سليمٌ الثاني أسلافَهُ في شيئين: لم يقتُلْ أحدًا من أفرادِ أسرتِهِ، وكان أوَّلَ من تقاعس من السلاطين عن الخروجِ إلى الغزواتِ على رأسِ الجشِ. بل كان الوزيرُ الأعظمُ ينوب عنه في قيادَةِ العسكر.

تزوَّجَ بيهوديَّةٍ من أهالِي البندقيَّةِ اسمُها راشيل، استجابةً لدعوةِ الصيرفِي اليهودي Josepf Nasi. فكانت علاقاتُهُ وطيدةً باليهودِ على غرارِ أبيهِ سليمان القانوني وجدِّهِ سليمِ الأوَّل.

أخذتْ علاماتُ الركودِ تظهرُ على الدولةِ العثمانيَّةِ ومُجْتَمَعِهِ وكان الجهلُ مُتَفَشّيًّا بين القطاع الْمُسْلُمَان من التُّرْكِ والكُردِ والعربِ وبقيَّةِ فصائِلِ الشعبِ في عهدِ سليم الثاني.

مات سليمٌ الثاني فحلَّ مكانَه ابنُهُ مرادُ الثالث عام 1574م. من زوجتِهِ راشيل اليهوديَّةِ (نور بانو)، تزوَّج من Cecilia Venier Baffo، بنتِ Paros أحدِ نبلاءِ البندقيَّةِ، وسمَّاها صفيَّةَ. كان له عددٌ كبيرٌ من الجوارِي، يأتِي على رأسهنَّ: Mona البولونيَّةُ، و Minusca المَجَرِيَّةُ، و Olga الروسِيَّةُ، و Meri الرومانيَّةُ... فَوَلَدْنَ له بنينَ وبناتٍ بلغ عددهم 120 طفلاً. أمر بقتلِ إخوتِهِ الخمسةِ: عبد الله، مصطفى، عثمان، سليمان، جهانكير... تمَّ خنقهم بالأهواقِ يوم صعودِهِ على العرش.

أقيمتْ حفلاتُ السهرةِ بمناسبةِ ختانِ ولدِهِ البِكْرِ الأميرِ محمَّدٍ، فاستمرَّتْ ثلاثًا وخمسين ليلةً، وللعلم أنَّ التكلِفَةَ الماليَّةَ لهذه الحفلاتِ، قيل: بلغَ إلى حدودِ ما تمَّ صرفُهُ في تنفيذِ مشروعِ قناةِ السويسِ إذا جازتْ المقارنَةُ!

ماتَ مرادُ الثالثُ عام **1595**م. فتولَّى السلطنةَ بعدَهُ ابنُهُ محمَّدُ الثالِثُ من زوجتِهِ Baffo الإيطالِيَّةِ. أعدمَ تسعةَ عَشَرَ أخًا له صبيحة تَسَلُّمِهِ العرشَ. وأعمارُهُمْ مختلفةٌ؛ أصغرُهم رضيعٌ وأكبرُهم شابٌّ في الرابعِ والعشرين من عمرِهِ. وهذه أسماؤُهم: مصطفى، عثمان، بايزيد، سليم، جهانگير، عبد الله، عبد الرحمن، حسن، أحمد، يعقوب، عَلَم شاه، يوسف، حسين، كوركود، علي، إسحاق، عمر، علاء الدين، داود... لكنَّهُ لم يكتفِ بهذا القدرِ من القتلِ، بل أضاف إليهم ابنَهُ محمودًا (وعمره **15** عامًا) وسبعَ جوارِيَ حاملاتٍ مِنْ وَلَدَيْهِ، كلُّ ذلك ليتخلَّصَ من عقباتٍ قد تعترِضُهُ في حُكْمِهِ! كما أمرَ بإلقاءِ جميعِ أَخَوَاتِهِ في السجن وعددهن **24**[157]. كان لِمُحمَّدِ الثالث عددٌ من الزوجاتِ والجوارِي أشهرُهنَّ: Helena اليونانيَّةُ، وSindrella Violetta الإسبانيَّةُ.

مات السلطان محمدٌ الثالثُ سنة **1603**م. فخلفهُ ابنُهُ السلطان أحمدُ الأوَّلُ من جاريتِهِ اليونانيَّةِ Helena. وكان له عددٌ من الجوارِي أشهرُهنَّ: Evdoksia و Anastasia اليونانيتان. من غرائبِ أحداثِ أيَّامِهِ: إنَّهُ جلسَ على العرشِ ولم يُخْتَنْ بعدُ وعمره **13** سنةً. أَلْغَى قانونَ قتلِ أفرادِ الأسرةِ، إلاَّ أنَّ القانونَ دخل حيِّزَ التنفيذ مجدَّدًا بعد وفاتِهِ. تمرَّدَ عليهِ قبائلُ العلويّين التُّرْكمان، فأرسلَ عليهم مراد باشا الحفَّارَ على رأسِ جيشٍ عارمٍ، فقتلَ منهم ما يزيد عن أربعين ألفَ شخص.

مات السلطان أحمدُ الأوَّلُ (عام **1617**م.) في سنٍّ مبكِّرٍ لا يتجاوز الثمانية والعشرين عامًا، خلَّفَ سبعةَ أولادٍ أكبرُهُمْ عثمانُ وعُمْرُهُ **13** عامًا. والبقيَّةُ هم: محمَّد، بايزيد، سليمان، مراد، قاسم، إبراهيم... كانت لزوجتِهِ Anastasia (كُوسَمْ) الروميَّةِ مُدَاخَلاَتٌ في شؤونِ الدولةِ بعد وفاتِ زوجِهَا في أيَّامَ كلٍّ من نسيبِها السلطان مصطفى الأوَّل (المعتوه)، وربيبِها السلطان عثمان الثاني (الفَتَى)، وابنِهَا السلطان مرادِ الرابع.. فلمَّا تولَّى السلطنةَ ابنُها الآخرُ السلطان إبراهيمُ الأوَّلُ الملقَّبِ بـ(المعتوه أيضًا)، زادتْ استبدادًا وأصبحتْ طاغيةً مُتَجَبِّرَةً. تعاونتْ مع كِبَارِ رجالِ الدولةِ في اغتيالِ ابْنِها (السلطان إبراهيم المعتوه).

---

[157] من مدونات المؤرخ بستانذاده يحيى أفندي.

أُقيمَ السلطان مصطفى الأوَّلُ (المعتوه) مقامَ أخِيهِ السلطان أحمد الأوَّلِ مُكْرَهًا عام 1617م.، وهو ابن السلطان محمدٍ الثالثِ من مُسْتَفْرَشَتِهِ Violetta الإسبانِيَّةِ. وكان قد اختلَّ عقلُهُ تحت وطئَةِ الْكَبْتِ والمعاناة مدة 14 عامًا قضاها في الْقَفَصِ وهو مهدَّدٌ بالقتلِ في كلِّ لحظة. ثمَّ خُلِعَ بعد 96 يومًا من جلوسِهِ على العرش، وذلك عام 1618م.

أُقيم السلطان عثمانُ الثاني بْنُ السلطان أحمدِ الأوَّلِ من جاريتِهِ الصربيَّةِ Evdoxia، أُقيم مقامَ عَمِّهِ السلطان مصطفى الأوَّلِ (المعتوه)، وله يومئذ 13 عامًا من العمر. أرادَ أنْ يُغيِّرَ بعضَ الشيْءِ من تقاليدِ آبَائِهِ، منها: أباحَ زَوَاجَ أبناءِ الأسرةِ المالكةِ من الحرائرِ المسلماتِ بخلافِ ما كان المتعارَفُ قبلَهُ من الإكتفاءِ بالجوارِي الْمَسِيحِيَّاتِ واليهوديَّاتِ؛ فتح بابَ الجهادِ للرعايا المسلمين؛ أَلْغَى نظامَ لقاطِ أطفالِ أهلِ الذِّمَّةِ واستخدامَهم للجُنديَّةِ، فأصبح شبابُ الأتراكِ ينضمُّونَ إلى المعسكراتِ، ويُستَخدَمونَ في إدارةِ الدولةِ والجيشِ؛ أباحَ للسلاطين بعدَهُ أنْ يحجُّوا بيتَ اللهِ الحرامَ.. عزم هكذا على القيام بسلسلةٍ من تعديلاتٍ وإصلاحاتٍ تُعيدُ الأمورَ إلى نصابِهَا. وما إن طارَ هذا الخبرُ إلى قادةِ جيشِ الإنكشاريَّةِ (اللُّقَطَاءِ)، حتى داهموه في القصر، وَعُمْرُهُ يومئذ 18 عامًا، فقبضوا عليه، وسجنوه في زنزانة (يَدِي كُولاَ Yedikule)، فدخلَ حُجْرَتَهُ عددٌ من الجنود الثوار، فخنقوه بالحبال بعد أن اغتصبوه وانتهكوا عِرْضَهُ وعذَّبوه وذلك، عام 1622م.

استفادتْ Violetta أُمُّ السلطان مصطفى المعتوهِ والمخلوعِ من هذه الفتنَةِ، فتمكَّنتْ من إرقاءِ ابنِها على العرش للمرّةِ الثانيةِ بالتعاونِ مع صهرِها الوزير الأعظم داود باشا الأرنأوط، إلاَّ أنَّ كتيبةً من الجيش السِّبَاهِيَّةِ ثارتْ عليه، فضربوا عنقه وأطاحوا بالمصطفى المعتوهِ بإيعازٍ من Anastasia زوجةِ عمِّهِ أحمدِ الأوَّلِ، وذلك عام 1618م. وَظَلَّ السلطان المخلوعُ معتَقَلاً في القفص 16 عامًا إلى أن مات سنة 1639م. ودُفِنَ في حجرةِ التعميدِ للنصارى.

أُجْلِسَ السلطان مرادُ الرابعُ بْنُ السلطانِ أحمدَ الأوَّلِ من جاريتِهِ Anastasia اليونانيَّةِ، على العرشِ سنةَ 1623م. وهو صبيٌّ لم يتجاوزِ الحاديَةَ عَشْرَةَ من عمرِهِ. فتهيئتْ لأُمِّهِ بذلك فرصةُ التوغُّلِ في شئونِ البلادِ، فاحتكرتِ الْحُكْمَ بيدٍ من حديد، فكان من أبرزِ ميِّزاتِ هذه المرحلةِ الإرتشاءُ، والتعذيبُ، والإعداماتُ.

ومن جملة مَنْ قُتِلَ من أفرادِ الأسرةِ في أيَّام مرادِ الرابعِ: إخوتُهُ الثلاثةُ: بايزيد، وسليمان، وقاسم؛ ومن كبارِ رجالِ الدَّولة: الصدرُ الأعظمُ: كَمَانْكَشْ قره علي باشا؛ وحافظ محمَّد باشا؛ وخُسرو باشا؛ والصدرُ الأعظمُ: رجب باشا؛ وأباظه محمّد باشا؛ ودَمِيرْ كَاشِيكْ خليل باشا؛ وطَبَانِي ياسِّي محمّد باشا؛ وَدُودُو حسن باشا؛ وتشلبي أوغلو علي باشا؛ وكَسْكِنْلِي علي باشا؛ وباحصني علي باشا؛ وبُوسْنَالِي علي باشا؛ ومفتي الديار الشيخ حسين أفندي؛ وشقيقانِ من أعيان مدينة قونية؛ وقاضِي مدينة إِزْمِيتْ؛ وقاضِي مَدِينَةِ إزمير؛ وقاضِي مدينة قونية؛ وقاضي مدينة قرة أغاج، وآلافٌ من الرعايا.

كان السلطان مرادُ الرابعُ رجلاً دَمَويًّا، منهمِكًا في الخمرِ والتدخين واللَّهْوِ.. وكان شاذًّا مثليَّ الطبعِ، ولذلك لم يترك عقِبًا. أخذه الْغَرَامُ بِحُبِّ شابَّين: موسى مَلَكْ تشلبي، وحسن خليفة[158]. وقعا في يد المتمرِّدين عليه عام 1632م. ففتكوا بهما!

أُقيمَ إبراهيمُ المعتوهُ بْنُ السلطانِ أحمدَ الأوَّلِ مقامَ شقيقِهِ السلطانِ مرادِ الرابعِ فَوْرَ وفاتِه بحكمِ الضرورةِ، وذلك عام 1640م. لأنَّ مرادًا الرابعَ كان قد أبادَ الذكورَ من أبناءِ الأسرةِ عن بكرةِ ابيهم، خوفًا من أنْ يدخلوا الصراعَ معه على العرشِ، وكان قد تركَ إبراهيمَ بذريعةِ عجزهِ الناشِئِ عن حالتِهِ النفسيَّة. لأنه قضَى 23 عامًا وراء قُضبانِ القفصِ وفي قلبِهِ تدُقُّ نبضاتُ الخوف ينتظر أن تأتيه مفرزةُ الجلادين لِيُزْهِقُوا روحَهُ في أي لحظةٍ.

حانت فرصة العمر لأمِّهِ Anastasia كوُسَمْ، لتزدادَ طُغْيَانًا وجَبَرُوتًا، فضربتْ على رجالْ الدولةِ بيدٍ من حديدٍ والسلطان إبراهيم مغلوبٌ على أمرِهِ. لم يكنْ إبراهيمُ معتوهًا في الحقيقةِ، لكنَّهُ كان قَلِقًا متوتِّرًا، مُنهارَ الأعصابِ، سقيمَ المنطقِ، مشوَّشَ الفكر... يبحث عن الروحانيِّين ليعالجوه، فتمكَّن دجَّالٌ من كسبِ ثقتِهِ، واستغلَّهُ بالتمائِمِ والتعويذَاتِ وأشكالٍ من الشعوذَةِ. ومن غرائبِ تصرفاتِهِ أنَّهُ منعَ استخدامَ العرباتِ داخلَ مدينةِ إسطنبول. فاتَّفق أن صادفَ يومًا عربةً وهو في طريقِهِ إلى بيتِ دجالٍ يُدَاوِيهِ. فلمَّا عاينَ العربةَ جُنَّ جنُونُه، فأمرَ بإحضار وزيرِ الأعظمِ صالح باشا، فقضَى عليه فورًا في بهوِ الرجلِ المشعوذِ عقوبةً على تَهاونِهِ في تنفيذِ أوامرِهِ. كذلك قُتِلَ في أيَّامِهِ: الوزيرُ

---

[158] **ورد بقلم المؤرخ رشاد أكرم كوجو Reşat Ekram Koçu في كتابه الموسومِ «سلاطين بيني عثمان» يقول: إنّ هذا الملك الجبار الدموي المفعم بالحيويّة كان شاذًّا مثليَّ الطبع في حياته الخاصة.». وهذه كلمات المؤلّف باللغة التُّرْكِيَّة:energetic**
«Bu kudretli, enerjik ve kanlı genç hükümdar hususî hayatında bir cinsî sapık idi». R. E. Koçu, Nebi oğlu yy. S. 207. Tarihsiz.

الأعظمُ كَمَانْكَشْ قره مصطفى باشا، والصدر الأعظمُ يوسف باشا، وأمين الخزانةِ إبراهيم أفندِي. كما سلَّمَ الوزيرَ أحمد باشا للمتمرّدين عليه كفديةِ نجاةٍ عن نفسِهِ.

ولَمَّا أرادت أمُّهُ الأمِيرةُ (Anastasia كُوسَمْ) أن تُطِيحَ بِهِ وتُقِيمَ مقامَهُ ابنَهُ محمَّدًا (الرابعَ الذي أُجلِسَ بعده على العرش وهو صبيٌّ له 7 سنين)، حصلتْ على فتوًى من مفتِي الديار الشيخ عبد الرحيم الأرنأوط، ينصُّ على وجوبِ خلعه، فَأُطِيحَ بِهِ وأُلْقِيَ في الْقَفَصِ مرةً ثانيةً ثم قُتِلَ خنقًا بالوهق عام 1648م.. إلاَّ أنها لَمَّا عَزَمَتْ بعد فترةٍ على تدبيرِ مؤامرةٍ لإغتيالِ حفيدِها السلطان محمَّدٍ الرابعِ، ثارتْ عليها أمُّ السلطان الأميرة Nadia (التي كانت روسيَّةَ الأصلِ). فأمرتْ الجلاَّدين فداهموها في حجرتِها وخنقوها عام 1651م.

سَجَّلَ أحمدُ بْنُ زيني دحلان في كتابه (الفتوحات الإسلاميَّة)، سطورًا حولَ تاريخِ هذه المرحلةِ لِيُشَوِّهَ صورتَهُ الحقيقيَّةَ كما يبدو من كلماتِهِ الجوفاء، فيقولُ: "لم يَخْلُفْ المرحومُ السلطانُ مرادٌ ولدًا، وبَقِيَ من أَخَوَاتِهِ السلطانُ إبراهيمُ، فبويعَ بَعْدَ وفاةِ أخيهِ". ثم يَنْقُلُ من مصدرٍ آخر فَيُضِيفُ قائلاً: "قال في خلاصةِ الأثر: كانَ مَلِكًا معظَّمًا حَسَنَ النظر، سَمْحَ الكفِّ، وكان زمانُهُ أنْضَرَ الأزمانِ، وعصرُهُ أحسنَ العصورِ، وَأَطَاعَتْهُ جميعُ الممالِكِ، وسكنتْ بِيُمْنِ دولتِهِ الْفِتَنُ، واعتدلَ به الزمنُ... إلخ"![159]

أُجْلِسَ محمّدٌ الرابعُ (المعروفُ بالصيَّاد) على العرشِ بعد أبيهِ إبراهيمَ المعتوهِ وهو صبيٌّ، فلمَّا بلغَ الرابعةَ عَشْرةَ من عمرِهِ ضَمَّتْ إليه أمُّهُ جاريةً من الأصلِ اليونانيّ اسمُها Evemia، فولدتْ له بعد سنةٍ طفلاً سَمَّوْهُ مصطفى.

كانتْ Nadia، أمُّ السلطانِ محمَّدٍ هي التي تُدِيرُ شئونَ الدولةِ بالمشاركةِ مع الوزيرِ الأعظمِ أحمد فاضل باشا، والعصياناتُ مستمرّةٌ في أنحاءِ أناضولَ، والصراعُ قائمٌ بين رجالِ البلاطِ...

ومِمَّنْ أُعْدِمَ في عهدِ محمَّدٍ الرابعِ من كبارِ رجالِ الدولةِ: الصدرُ الأعظمُ مَرْزِفُونْلِي قَرَهَ مصطفى باشا، والصدرُ الأعظمُ صوفِي محمَّد باشا، والصدرُ الأعظمُ طَرْخُونْجِي أحمد باشا، والصدرُ الأعظمُ قَرَهَ إبراهيم باشا، وإبْشِير مصطفى باشا، وصارو سليمان باشا، وإحسان باشا؛ ومِنْ خَدَمِ القصر:

[159] أحمد بن زيني دحلان: رجلُ دينٍ، صوفيٌّ من أهل مكة (1816=1886م.). احتلَّ منصبَ الإفتاءِ في أواخرِ العهدِ العثمانيِّ. له كتاباتٌ، يبدو من عباراته أنه كان متهوِّرًا شَرِسًا، مغرورًا، ضعيفَ الرأيِ مراوغًا في أسلوبِهِ. ردَّ عليه وفنَّدَهُ جمعٌ من العلماء. لمزيدٍ من المعرفةِ راجعْ الكتابَ الموسومَ: "صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان" لمؤلفه: محمّد بشير بن محمّد بدر الدين السهسواني الهندي (المتوفى: 1326هـ).

تَلْخِيصْجِي إسماعيل آغا، وَقِيزْلَرْ آغَاسِي بَهْرَامْ آغا، والحاج بلال آغا، وشعبان آغا، وكثير من غيرهم...

لم تكنْ عهودُ السلاطين الذين توالوا على عرشِ الدولةِ العثمانيَّةِ متميّزًا بعضُهَا عن بعضٍ بكثيرٍ، لاَ قبلَ محمَّدٍ الرابعِ ولا بَعْدَهُ إلى حينِ سقوطِها عام 1922م. وقد توالى قَبْلَهُ ثمانيةَ عَشَرَ، وبَعْدَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ سلطانًا على الْحُكْمِ. بل كانتْ صورةُ الدولةِ وطابعُها وميّزاتُها السياسيَّةُ والإجتماعيَّةُ متقاربةً ومُمْتَدَّةً تقريبًا على نسقٍ واحدٍ، طوالَ ستَّةِ قرون. ولكنْ يجبُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ بعضَ الميّزاتِ الخاصَّةِ بالأسرةِ المالكةِ وبَلاَطِها؛ كالصراعِ على العرشِ، واعتقالِ أبناءِ الأسرةِ في سجنِ القصرِ، والقضاءِ عليهم بالقتلِ الجماعيّ، وزواجِ السلاطين من الْمَسْبِيَّاتِ الأجنبيَّاتِ، وكونِ أركانِ الدولةِ من (اللُّقَطَاءِ)، وكراهيَّةِ السلاطين لِلْعُنْصُرِ التُّرْكِيِّ ونحوِ ذلك... لا ينبغِي أنْ تكونَ هذه الميّزاتُ من أسبابِ الطعنِ في كِيَانِ الدولةِ العثمانيَّةِ ولاَ في أحدٍ من مسؤوليها. ذلك؛ لأنَّ الدولةَ أوّلاً: جهازٌ معقَّدٌ وشخصيَّةٌ اعتباريَّةٌ مستقلَّةٌ عن كل شخصيَّةٍ حقيقيَّةٍ كان لها دورٌ في تسييرِ هذا الجهازِ، فلا مداخلةَ بين مسؤوليَّةِ الشخصيَّاتِ الحقيقيّين وبين هذه الشخصيَّةِ الاعتباريَّةِ اللاَّمسؤلةِ حُكْمًا. ثَانيًا: خلتِ الدولةُ العثمانيَّةُ ودخلَ جميعُ مسؤوليها في طيِّ التاريخ، فأصبحَ من المستحيلِ إدانةُ أحدٍ منهم على الإطلاقِ. كما لايجوزُ الاستخفافُ بهم، ولا الدخولُ في مثالِبِهِمْ. وإنَّما يجوز دراسةُ تاريخِ هذه الدولةِ ورِجَالاَتِها، كما يجوزُ ذكرُ فضائِلِهم ورزائِلِهِمْ كوقائعَ شهدَ عليها التاريخُ، وذلك للاستفادَةِ منها باستنتاج الدروسِ والعِبَرِ فحسبُ.

إذنْ لا اعتبارَ بقولِ من يستهدفُ الدولةَ العثمانيةَ ويَشينُها بسبَبِ تصرُّفاتِ الحكَّامِ المخلَّةِ بالعدالةِ، أو لِعُيُوبٍ أخلاقيَّةٍ في السلاطين ورجالِ البلاط.. ذلك من البداهة أنَّ كلَّ مسؤولٍ لهذهِ الدولةِ قد تحمَّلَ ما له وما عليهِ بشهادةِ التاريخ الصادِقِ، وقد ذهبوا جميعًا واندرجوا في قائمةِ الأمواتِ، فلا يجوزُ مقاضاتُهم ولا مقاضاةُ الدولةِ التي حكموها، كما لا يحقُّ لأيِّ إنسانٍ أنْ يختلقَ من أحداثِ هذه الدولةِ أمجادًا لم يشهَدْ علها التاريخُ ولم يُجمِعْ عليها أهلُ البحثِ والخبرة. فمَنْ شكَّ في شهادةِ التاريخ، عليهِ أنْ يقارِنَ تاريخَ شعوبِ الغربِ مع التاريخِ العثمانيّ وأنْ يُتَابعَ التطوُّراتِ التي حدثتْ في أوروبا من إكتشافاتٍ، وإبداعاتٍ، وفنونٍ وصناعاتٍ تبهرُ لها العقولُ، ثمَّ لِيُرْجِعِ البصرَ إلى البونِ الشاسِعِ الذي يفصِلُ اليومَ بين أحفادِ العثمانيّين وأحفادِ الغربيّين لِيَتَثَبَّتَ من الأسبابِ التي تقلَّصتْ الدولةُ العثمانيَّةُ من جرَّاءِها يومًا بعد يومٍ وانكمشتْ حتى انهارتْ واضمحلَّتْ بعد أن كانتْ أعظمَ دولةٍ على وجهِ البسيطةِ، وفي ذلك عبرةٌ لأُولي الألباب!

إنَّ العهدَ العثمانيَّ من بدايتِهِ إلى نهَايَتِهِ – في واقعِ الأمرِ – كانَ خاليًا من العلماءِ والحركاتِ العلميَّةِ. أمَّا الشخصيَّاتُ الذين كانوا اشتهروا طوالَ هذه الحُقبَةِ بصفةِ العلمِ كلُّهم كانوا رِجالَ دينٍ وليس رجالَ عِلْمٍ. وردتْ كلماتٌ وجيزةٌ عميقةُ المعنَى على لسانِ الباحثِ الأديبِ جميلِ مريج الأنطاكِيِّ Cemil Meriç تُبَرْهِنَ على هذه الحقيقةِ، يقول:

"لم ينشأ مُفَكِّرٌ كبيرٌ في العهدِ العثمانِيّ، لأنَّه لم يكن هناكَ حاجةٌ للتَّفْكِير، ولأَنَّ الإنسانَ لا يُفَكِّرُ إلاَّ إذا أُجْبِرَ واضطرَّ. إنَّ التفكيرَ داهيةٌ! وإنَّ انْهِزامَ الْمُجْتَمَعِ العثمانِيّ أَمَامَ المجتمعِ الأوروبِيِّ يعني غلبةَ المجتمعِ الصناعِيّ على المجتمعِ العسكرِيّ."[160]

كذلك الشيخ محمّد عاكف أرصوي Mehmet Akif Ersoy يطرقُ هذه المشكلةَ في أبياتٍ له (عرَّبْناها نَثْرًا بقدرِ الإمكانِ)، يقول فيها:

"لقد فَسَدَتِ الطَّبَقةُ الْعِلْمِيَّةُ، وَبَلَغَ مِنْهَا الإنْحِلاَلُ كَأَنَّهَا مُخَلَّلٌ؛ وَبَابُ الْفَتْوَى تَحَوَّلَ إِلَى ثَكَنَةِ الأُمِّيِّينَ؛ فَأَصْبَحَ الْجَنِينُ خِرِّيجًا وَهُوَ فِي رَحْمِ أمِّهِ عَلَى غِرَارِ أَبِيهِ، تَكْفِيهِ عِمَامَةٌ فَحَسْبُ؛ خُذْ لَكَ هَذَا قَاضِي عَسْكَر، فَلْتَسِرْ بِهِ الأُمُورُ!"[161]

فمن شكَّ في هذهِ الحقائقِ، عليهِ أنْ يتباحثَ عن التطوُّراتِ التي حدثتْ في الغربِ منذ خمسمائةِ عامٍ، وَسَحَبَتْهُ إلى قمَّةِ الحضارةِ التي أصبحتْ ورثةُ الدولةِ العثمانيَّةِ (بل المسلمون بأجمعِهِمْ) عالةً عليها!.

---

[160] **هذا نصُّ كلماته باللغة التُّرْكِيَّة:**

«Osmanlı İmparatorluğu'nda büyük düşünür çıkmadı. Çünkü düşünceye ihtiyaç yoktu. Düşünce bir felakettir. Zorlanmadan, mecbur kalmadan düşünmez insan. Osmanlı İmparatorluğu'nun Avrupa karşısındaki bozgunu, endüstriyel toplumun, askeri bir toplumu yenmesidir». Cemil Meriç, Sosyoloji Notları ve Konferanslar. İletişim Publishing, 4.print. Page/220. İstanbul-1997

[161] **المصدر: محمد عاكف أرصوي، صفحات/ من منبر السلمانية Süleymaniye Kürsüsünden،؛ هذه نصّ أبياته:**

«Hele ilmiyye bayağdan da aşa bir turşu!
Bâb-ı fetva denilen daire ümmi koğuşu.
Ana karnından icazetlidir ecdada çeker;
Yürüsün, bir de sarık, al sana kadiasker!»
http://uam.mehmetakif.edu.tr/mehmetakif/files/sem/18.pdf; Page: 16, 40

إنَّ الغُلاةَ والمتطرِّفين الذين استشاطوا (خاصَّةً بعدَ صعودِ حزبِ العدالةِ والتنميَّةِ إلى سُدَّةِ الْحُكْمِ في تركيا)، ونهضوا بحماسٍ ليُضَخِّموا ويُفَخِّموا التاريخَ العثمانِيَّ وليجعلوا من سلاطينِ بني عثمانَ آلهةً يعبدهم القطاعُ التُّرْكِيُّ المحافِظُ؛ نعم، هؤلاءِ الغلاةُ المتطرِّفون، قد تحوَّلوا اليومَ إلى عصابةٍ خطيرةٍ تريدُ أنْ تسحقَ جميعَ الفصائلِ الإجتماعيَّةِ التي ليستْ من أصولٍ تركيَّةٍ (وعلى رأسِها الأكراد والعرب). لا شكَّ في أنَّ مستقبَلَ تركيا مهدَّدٌ بانتشارِ هذا التيَّارِ وإيديولوجيَّتِهِ العنصريَّةِ التي تعتمِدُ على أساسِ تقديسِ التاريخِ العثمانِيّ وتأليهِ سلاطينِ بني عثمانَ بطريقِ تشويهِ الحقائقِ التاريخيَّةِ. وقد عَظُمَ هذا الخطرُ وَفَاقَ اليومَ على بقيَّةِ الأخطارِ الأيديولوجيَّةِ المتمثِّلَةِ في الكماليَّةِ والسَّبَطَائيَّةِ واليساريَّةِ واليمينيَّةِ والعَلْمَانيَّةِ. إنَّ هذا الخطرَ الدَّاهِمَ يُضَخَّمُ ويُضَخُّ اليومَ مِنْ قِبَلِ قطاعاتٍ واسِعَةٍ من النَّقْشَبَنْدِيِّينَ، والحشَّاشِينَ، والعنصريِّين بكلِّ ما يملكونَ من قوَّةٍ وحِيَلٍ ودَجَلٍ وسَحْقٍ ومُؤَامَرَاتٍ؛ وبِتَجْنِيدِ عِصاباتِهِمْ وتنظيماتِهِمْ السرِّيَّةِ وشبكاتِهِمْ الاستخباراتية! تَشْمَلُهُم مظلَّةُ الْمُسْلُمَانِيَةِ المتمثِّلَةِ في الْحَنَفَانِيَّةِ والإرجاءِ والتجهيم.

***

11) الدَّولةُ السريّةُ (أو الدّولة العَمِيقَةُ)

الدولةُ السِّرِّيَّةُ (أو الدَّولةُ العَمِيقَةُ) بتعريفٍ جامعٍ: مصطلحٌ سياسيٌّ جديدٌ يرادُ به التعبيرُ عن ظاهرةٍ مشبوهةٍ تتجسَّدُ في وجودِ شبكةٍ خطيرةٍ لها كيانٌ خفيٌّ يَنْسِجُ خيوطَهُ داخلَ الدولةِ المدنيَّةِ ويتفاعلُ معها عَبْرَ مجموعةٍ من التحالفاتِ العسكريَّةِ والماليَّةِ والإعلاميَّةِ، والْمنظَّماتِ السِّرِّيَّةِ.

قلَّما تخلو دولةٌ من نشوءِ هذا الْكِيَانِ الْخَفِيِّ الذي يَنْبُتُ في قلبِهَا وينفذُ مع الزمان إلى أعماقِ شرايينِها. تأتي على رأسِ هذه الدولِ تركيا التي تُعَانِي من نَشاطاتِ الدولة السرِّيَّةِ منذ قيام الجمهوريةِ على أنقاضِ الدولةِ العثمانيَّةِ عام **1922**م. إلى اليوم.

إنَّ التحالفاتِ السِّرِّيَّةَ التي تقومُ بتخطيطِ مؤامراتٍ (ضدَّ السلطةِ الحاكمةِ والحكوماتِ الْمُنْتَخَبَةِ والأحزابِ السياسيَّةِ، والأقلِّيَّاتِ العرقيَّةِ والدينيَّةِ، والشخصيَّاتِ البارزَةِ الْمَعْرُوفِينَ بِمُنَاهَضَتِهِمْ لِلْعُنْصُرِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ)، هذه التحالفات قد تكونُ مرتبِطَةً برئيسِ الجمهوريَّةِ مباشرةً كما كان في عهد

مصطفى كمال، وقد تكون مرتبطةً برمزٍ كبيرٍ من الرموزِ العسكريَّة كما كان في عهودِ بعضِ الحكوماتِ التي أطاحَ بها الجيشُ في 27 مايو 1960م. و12 سبتمبر 1980م...

إنَّ الدولةَ السِّرِّيَّةَ في عهدِ مصطفى كمال كانتْ تحتَ سيطرتِهِ المرتبطةِ بشبكةٍ من المافيا والعصاباتِ والشخصيَّاتِ المشبوهةِ، وفئاتٍ من الْمُرْتَزَقَةِ. لقد كان مصطفى كمال هو الرجلَ الوحيدَ الذي يُهَيْمِنُ على الدولة التُّرْكِيَّة بالْحُكْمِ المطلقِ، فكان عليهِ بطبيعةِ الحالِ أنْ يحتاطَ في مواجهةِ أيِّ قوَّةٍ تعترضُهُ في سياستِهِ وإجراءاتِهِ (كرجلٍ أجنبيٍّ لا يُعرَفُ نَسَبُهُ!). وكان من الصفاتِ الملازمةِ له الشكُّ والريبُ والوهمُ والظَّن.. فإنَّه كان على حذرٍ شديدٍ مِمَّنْ يخالطُهُ. ولم يُكَلِّمْهُ أحدٌ بصوتٍ مرتفعٍ إلاَّ ودبَّ في روعهِ خطراتُ الريبِ، وأوجسَ منه خيفةً وفزعًا، فاحتاطَ في التعاملِ معهُ أو قضَى عليهِ إنْ رآه حَجَرَ عَثْرَةٍ في طريقه. تُبرهنُ على ذلك دلائلُ كثيرة.

اتَّخذَ مصطفى كمال بطانةً من أشخاصٍ ذوي نزَعَاتٍ عدوانيَّةٍ شريرةٍ، واستغلَّهم في القضاءِ على مُعَارِضِيهِ. فكانتْ الدولةُ السِّرِّيَّةُ في عهدِهِ تواصلُ نشاطاتِهَا بواسطةِ هؤلاء الأشخاصِ المشبوهين. يأتي على رأسهم العقيد إسماعيل حقِّي تَكْجَهْ İsmail Hakkı Tekçe**، ويحيى كَحْيَا** Yahya Kahya**، وَطُوبَالْ عثمان** Topal Osman**، وَشَرْكَسْ أدهم** Çerkez Ethem**...**

الدولةُ السِّرِّيَّةُ في تركيا فرضتْ نفسَها على الحكوماتِ الْمُنْتَخَبَة في بعضِ الفَتَرَاتِ وأقامتْ العقباتِ في طريقِهَا، وعرقلَتْهَا عن تنفيذِ مشاريعَ حيويَّةٍ تأخَّرَ البلدُ من جرّاءِ ذلك، وتدهورتِ الْحالةُ الإقتصاديَّةُ وتَزَعْزَعَتِ العلاقاتُ الإجتماعيَّةُ، كما زرعتْ بذورَ الشِّقاقِ بين فصائِلِ الشعبِ بإثارةِ النَّعَرَاتِ العصبيَّةِ والطائفيَّةِ والمذهبيَّةِ والأيدْيُولُوجِيَّةِ... تفاقمتْ بسببِها فِتَنٌ ونزَاعٌ وقِتَالٌ بين شرائحِ المجتَمَعِ التي يفصِلُ بينَهَا الفارِقُ المذهبِيُّ أو الإيدْيُولُوجِيُّ، خاصَّةً بين القطاعِ السُّنِّيِّ والعلوِيِّ، كذلك بين التجمُّعاتِ اليمينيَّةِ واليساريَّةِ.. حدثتْ وجرتْ هذه التطوُّرَاتُ على مدَى العقدِ السابعِ من القرنِ العشرين فأدَّتْ إلى فسادٍ في القراراتِ السياسيَّةِ، وفتورٍ في العلاقاتِ الإجتماعيَّةِ، وتدهورٍ في الحالاتِ الإقتصاديَّة والتجاريَّةِ.. فارتبكَ الناسُ وارتابتِ النفوسُ واختفتِ الثِّقَةُ، فأصبحَ الوسطُ أكثرَ فُسْحَةً للأعمالِ الإرهابيَّةِ إلى أنْ استفحلَ الشرُّ واسْتَعَرَ القتالُ في شوارعِ الْمُدُنِ الكبيرةِ على رأسِها إسطنبول وأنقره.

تَحَوَّلَتِ الدَّولةُ السِّرِّيَّةُ، هذا الكيانُ الْمُتَسَتِّرُ إلى وحشٍ في أواخر السبعينيَّاتِ من القرنِ العشرين، أطلقتْ عُمَلائَـهَا الْمُحْتَرِفِينَ يقتحمون المنازِلَ والمصانعَ والشركاتِ وحتَّى المساجدَ والجامعاتِ.. ينهبون البنوكَ ويختطفون رجالَ الأعمالِ خاصَّةً من الأكرادِ والعربِ.. يقتلونَ الرهائِنَ الذين يمتنعُ أو يتأخَّرُ أهلُهُمْ من دفعِ الأتاوةِ والفديَةِ لأجلِ الإفراجِ عنهم.

تسرَّبتْ جواسيسُ الدولةِ السِّرِّيَّةِ وعيونُها عبر شبكاتِ جهازِ الدولةِ إلى جميعِ المجالاتِ؛ العسكريَّةِ منها والقضائيَّة، والماليَّةِ، والدبلوماسِيَّةِ، والتخطيطِ، والبلديَّاتِ، كما تبعثرتْ وتوغَّلتْ في قلبِ الجمعيَّاتِ، والنِّقاباتِ والشركاتِ الخاصَّةِ، فحصلتْ بذلك على معلوماتٍ استراتيجيَّةٍ وأمنيَّةٍ وماليَّةٍ واستوعبتْ أسرارَ الدولةِ واستغلَّتْهَا في بثِّ الأراجيفِ وإثَارَةِ الشعبِ وتحريكِ الخصوماتِ عن طريقِ عُملائِهَا المتحكِّمين في القِطاعِ الإعلامِيِّ، وقامتْ بِتَكْوِينِ عصاباتٍ مسلَّحةٍ خطيرةٍ داخِلَ الجيشِ التُّرْكِيِّ. فكانتْ عصابةُ JİTEM، وعصابةُ ERGENEKON بخاصَّةٍ من أشدِّ هذه التنظيماتِ شرًّا. تَقَعُ عليهما مسؤوليةُ جناياتٍ وإباداتٍ جماعيَّةٍ تُقدَّرُ ضحاياها بعشراتِ الآلافِ، ماتَ أكثرُهُمْ تحتَ التعذيبِ خاصَّةً في مدينةِ دِيَاربَكْر وبَاطْمَانْ وَأَسْعِرْد وغيرِها من أنحاءِ منطقةِ جنوبِي شرقِ تركيا[162].

---

[162] هذه قائمةٌ بأسماءِ مشاهيرِ الشخصيّاتِ الذين ذهبوا ضحيَّةَ الجناياتِ السياسيَّةِ على أيدي العصاباتِ التابعة للدولة السِّرِّيَّةِ:

Turgut Özal تُرغوت أوزال، رئيس الجمهوريةِ

Nihat Erim نِهاد أريم، رئيس الوزراء

Gün Sazak جون سازاك، وزير الجمارك

Kemal Türkler كمال توركلار، رئيس نقابة العمال

Adnan Kahveci عدنان قهوجي، وزير الدولة

Musa Anter موسى عنتر، محامي كردي الأصل

Cem Ersever جَمْ أَرْسَفَرْ، عسكري برتبة رائد

Vedat Aydın وداد أيدين، رئيس بلدية أنقره الأسبق

Çetin Emeç جتين أَمَجْ، كاتب – صحفي

Muhsin Yazıcıoğlu محسن يازيجي أوغلو، رئيس حزب الاتِّحاد الأكبر BBP

Ahmet Taner Kışlalı أحمد تانير قيشلالي، سياسي وصحفي

Abdi İpekçi عبدي إيبكجي، صحفي

Eşref Bitlis أشرف بتليس، جنرال، القائد العام لقوات الدرك

Doğan Öz دوغان أوز، نائب عام

Necip Hablemitoğlu نجيب حَبْلَمِيتْ أوغلو، كاتب–باحث

Taylan Özgür طَيْلاَن أُوزْكُورْ، طالب جامعي

Kazım Çillioğlu كاظم جِلِّي أوغلو، عسكري، عقيد

Rahip Santoro آندريا صانتورو، راهب كنيسة سانتا ماريا في مدينة طربزون

Hamit Fendoğlu حميد فند أوغلو، نائب كردي في الْبَرْلَمَان

Hulusi Sayın خلوصي صاين، عسكري، جنرال متقاعد

Temel Cingöz تَمَلْ جِينْكُوزْ، عسكري، جنرال

Abdullah Çatlı عبد الله تشاتلي، إرهابي عنصري، رئيس مافيا

ومن أشهرِ مَنْ راحَ ضحيَّةَ هذه الفتن على يد عُملاءِ الدولة السِّرِّيَّةِ: رئيسُ الجمهوريةِ: تُرغوت أوزال Turgut Özal، قُتِلَ بطريقِ دسِّ السمِّ في طعامِهِ، مات يوم 17 أبريل 1993م. وقائدُ قوَّاتِ الدَّرَكِ: الجنرال أشرف بِتْلِيسْ Eşref Bitlis، قُتِلَ بتفجير الطائرة التي كان على متنها يوم 17 شباط/ فبراير 1993م. واستمرَّتْ جناياتُ الدولةِ السِّرِّيَّةِ في صفوفِ الكُتَّابِ ورجالِ الأعمالِ والأكاديميّين، لتتذرَّعَ بِهَا القواتُ المسلَّحةُ التي قامتْ بإنقلابٍ عسكريٍّ قَادَهُ الجنرال كنعان أفرين يوم 12 أيلول/سبتمبر 1980م.

نشأتْ في السنين الأخيرةِ عصابةٌ عجيبةُ التكوينِ، اتسمتْ في ظاهرِهَا بهيئةِ "جماعةٍ دينيَّةٍ" تهتمُّ بالتربيةِ والتعليمِ وفتحِ المدارسِ والمعاهدِ، ونشرِ المعرفةِ والثقافةِ... أقامتْ في أكثرِ بلادِ العالَمِ مَعَاهِدَ مثاليَّةً اغتبَطَهَا الناسُ وتَمَنَّى الآباءُ والأمهاتُ لو يَدْرُسُ أولادُهُمْ في مثلِ هذه المعاهد!

حظيَتْ "الجماعةُ" بذلك شهرةً واسعةً في تركيا وخارجِها، واكتسبتْ ثقةً بالغةً في نفوسِ الملايين. بدأتْ الأحزابُ السياسيَّةُ تراهن على الاستفادةِ من دعمِها. فوقفتْ "الجماعةُ" أوَّلاً بجانبِ الحزبِ الشعبِ الجمهوريِّ العلمانيِّ، ورفضتِ التعاوُنَ مع الإسلامَوِيِّين، فاكتسبتْ بذلك ثقةَ الكماليّين والقطاعِ العلمانيِّ الذي يتحكَّمُ في إدارةِ البلادِ منذ بدايةِ العهدِ الجمهوريِّ.

فلما قفزَ حزبُ العدالةِ والتنميةِ إلى سُدَّةِ الحكمِ واستقوَى في القبضِ على زمامِ السلطةِ، بدأتِ "الجماعةُ" تتظاهرُ بالتعاونِ معهُ وتستغِلُّ كلَّ فرصةٍ – بهذهِ الحيلةِ– للتسلُّلِ إلى أجهزةِ الدولةِ. فانضمَّ إليها عناصرُ رفيعةُ المستوَى داخِلَ أجهزةِ المخابراتِ المحلِّيَّةِ والأجنبيَّةِ، والقوَّاتِ المسلَّحةِ

Hiram Abas عباس هيرام، رئيس جهاز المخابرات

Üzeyir Garih عُزَيْر جريح، رجل عمل، يهوديُّ الأصل

Muammer Aksoy معمّر أَكْصُويْ، أكاديمي، رجل قانون وسياسي

Uğur Mumcu أوغور موجمو، صحفي– باحث

Hrant Dink خرانت دينك، صحفي– باحث أرمني الأصل

İlhan Darendelioğlu إِلْهَان دَارَنْدَلِي أوغلو، صحفي– باحث

Cevat Yurdakul جواد يورداكول، مدير أمن مدينة أضنه

Cemil Kırbayır جميل كِيرْبَايِرْ، ناشط يساري

Hüseyin Başbilen حسين بَاشْبِيلَنْ، مهندس مسؤول برامج ألكترونية – عسكرية

Halim Ünsem Ünal حليم أونسم أونال، مهندس مسؤول برامج ألكترونية – عسكرية

Evrim Yançeken أفريم يانجكين، مهندس مسؤول برامج ألكترونية– عسكرية

التُّرْكِيَّةِ، والأمنِ والقضاءِ والمافيا... فأصبحتِ "الجماعةُ" دولةً داخِلَ الدولةِ التركيَّةِ واطَّلعتْ على أسرارِها، فأوشكَ أنْ تتمكَّنَ مِنْ احتوائِها والاستيلاءِ على السلطةِ في أيِّ لحظةٍ لولاَ استعجلتْ في محاولةٍ انقلابِيَّةٍ فاشلةٍ ضدَّ الحزبِ يوم **17** ديسمبر من عام **2013**م.

الدولةُ العميقةُ كيانٌ غامضٌ محترِفٌ ومتمرِّسٌ في فنونِ حربِ العصاباتِ، يتخلَّلُ هيكلَ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ، يتبنَّى حمايةَ مصالحِها، والوَلاءَ للقوميَّةِ. لا يختلفُ اثنانِ منَ المواطنين في وجودِ هذا الكيانِ على أقلِّ تقديرٍ باستثناءِ مَنْ يُنْكِرُ ذلك لأسبابٍ تُجبِرُهُ. تلجأُ الدولةُ العميقةُ –في تحقيقِ أهدافِهَا– إلى استعمالِ العنفِ ووسائلِ الضغطِ الأخرَى ضدَّ أيِّ مواطنٍ خاصَّةً إذا وَجَدَتْهُ يُعلِنُ انتماءَهُ القومِيَّ إلى غيرِ الشعبِ التركِيِّ، فيتعرَّضُ (المواطنُ) لأقْسَى أشكالِ الْمُعَاقَبَةِ على يدِها، وتنتهِي في أغلبِ الأحوالِ بالتصفيةِ الجسديَّةِ.

اعتادتِ الدولةُ القانونيَّةُ استخدامَ الدولةِ العميقةِ – منذ بدايةِ العهدِ الجمهورِيِّ إلى اليوم –، وتَوْظِيفَهَا بصورةٍ خفيةٍ في تذليلِ العقباتِ التي تعترِضُها. ذلك أنَّ الدولةَ التُّرْكِيَّةَ ترى نفسَهَا عاجزةً من حينٍ لآخرَ في حلِّ مشاكلَ سياسيَّةٍ (تنشأُ بخاصَّةٍ عن علاقاتِهَا مع الأقلِّيَّاتِ العرقيَّةِ والدينية، على رأسِها الأكراد والسلفيَّة)، فلا ترغبُ في حلِّهَا بصورةٍ قانونيَّةٍ شفَّافَةٍ عن طريقِ الْمَحَاكِمِ، فتلجأُ إلى استعمالِ هذهِ الآليةِ الخطيرةِ تخلُّصًا من الأزمةِ دون أنْ تواجِهَ تبِعَاتِهَا من اعتراضاتٍ ورُدودِ فعلٍ من الداخلِ والخارجِ. كانتْ ولا تزالُ الحكوماتُ التُّرْكِيَّةُ تمارسُ هذه الطريقةَ تباعًا، كأسلوبٍ قديم تتَّقِي به خاصَّةً عِتابَ الغربِ، وَحفَاظًا على نظامِها العنصرِيِّ الأَتَاتُورْكِيِّ (الْعَلْمَاوَثَنِيِّ).

في الحينِ الذِي تَرَى القطاعاتُ الفاشِيَّةُ وجودَ الدولةِ العميقةِ من الضروريِّ، كضمانٍ لبقاءِ الدولةِ التركِيَّةِ، وتعتذرُ لجناياتِهَا بأنَّها من المبرِّرَاتِ من قبيلِ الْحُجَّةِ المتمثِّلَةِ في المقولةِ الشهيرةِ لأَهْلِ الإجتهاد: "الضرورات تبيح المحظورات" بينما يراها اليساريونَ (من الأقليات العرقية غير الأتراك)، والسلفيون، واليهودُ والنصارى، يرونَها من الأعمالِ الوحشِيَّةِ البتة.

إنَّ المجتمعَ في أيِّ بلدٍ من بلادِ العالمِ خليطٌ مُكَوَّنٌ من عناصرَ مختلفةٍ ذاتِ معتقداتٍ وثقافاتٍ وأعرافٍ وتقاليدَ متباينَةٍ؛ فالدولةَ القانونيَّةَ (سواءٌ كانتْ مُطْلَقِيَّةً، أو ديمقراطيّةً، أو شوريَّةً–إسلاميَّةً)، تَحْكُمُ – في الحقيقة – باسْمِها فحسبُ، وليس باسمِ طائفةٍ من المجتمعِ الخليطِ، وذلك وفقًا لأهدافِها ومخطَّطاتِها، وطبقًا لدستورِهَا وقوانينِهَا، رغم إرادة الشعبِ وأهدافِهِ وطموحاتِهِ... لأنَّ كلَّ شريحةٍ من

مكوّناتِ الشعبِ لها أهدافٌ قد لا تتناغمُ مع أهدافِ الدولةِ، ولا توافقُ على الأغلبِ أهدافَ بقيَّةِ الشرائح في الوقتِ ذاتِهِ. وهذا معناه: إنْ وقع زمامُ الأمر بيد أيّ فصيلةٍ من فصائلِ الشعبِ (بخاصَّةٍ إن كانتْ قويَّةً وكثيفةَ العددِ)، سوف تستغلُّ جهازَ الدولةِ في سبيلِ مصالحِهَا الطائفيَّةِ أو المذهبيَّة ضدَّ بقيَّةِ الفصائل. وَلِكَيْ يُمْكِنَ إقامةُ التوازُنِ بين أهدافِ وطموحاتِ جميع مكوّناتِ المجتمع، تُحَاوِلُ الدولةُ القانونيَّةُ مسايرةَ كلِّ الأعراقِ والجماعاتِ والعناصرِ ذواتِ الإتّجاهاتِ المختلفةِ والمتلاقيةِ تحت سقفِ الدولةِ، وَفْقَ دستورٍ وقوانينَ منصوصةٍ، مع علمِ الشعبِ بذلكَ، وإن كان رغم إرادتِهِ. وهذا لا يمنعُ شرعيَّةَ الدولةِ وإن كانت إطاعةُ المجتمعِ للسلطةِ بقوةِ القانون.

أمّا الدولةُ السِّرّيَّةُ، فإنَّها تفرضُ نفسَهَا على الدولة القانونيَّةِ من الداخل بالقوَّةِ، وبِأَشْكَالٍ من الحِْيَلِ والمكائِدِ والْمُؤَامَرَاتِ بدعوَى الوصايةِ عن الشعبِ والدفاعِ عن حقوقِهِ وأهدافِهِ وطموحاتِهِ دون علمِ الشعبِ بذلك، ودون إرادَتِهِ. بينما هذا الْمَوْقِفُ يتناقضُ مع نفسِهِ؛ لأنَّه يستحيل أنْ يتَّفقَ مع مطالبِ فصائلِ المجتمعِ، وأنْ يخدمَ أهدافَهُ المتباينةَ ويُحقِّقَ أحلامَها المتعارضةَ أوَّلاً؛ كما أنَّ قيامَ أيِّ قوةٍ مجهولةٍ بدعوَى الوصايةِ عن الشعبِ لا تتَّسِمُ بالشرعيَّةِ إطلاقًا. ولا يخفى أنَّ الدولةَ السِّرّيَّةَ تعتمدُ دائمًا على تحالفٍ يتبنَّى هيمنةَ فصيلةٍ قويَّةٍ من المجتمعِ عادةً على بقيَّةِ الفصائل. وهذا هو العنصريَّةُ بعينِهَا. وإنَّما نشأتِ الدولةُ السِّرّيَّةُ في تركيا من هذا الْمُنْطَلَقِ، لذا كانت قادتُها وأغلبُ عناصِرِهَا من أوصولٍ تركيَّةٍ، وإنْ كانتْ شرذمةٌ من عُمَلائِهَا أدعياءَ مُتَّهَمِينَ في أنسابِهِم.

ركَّزتِ الدولةُ السِّرّيَّةُ جهودَها على ثلاثةِ أهدافٍ رئيسةٍ:

- السحقِ بالمجتمعِ الكرديّ،
- محاربةِ التَّيَّارِ السلفِيّ؛ ومنعِ انتشارِ العقيدةِ القرآنيَّةِ الخالصةِ من الفكر الصوفِيّ ودياناتِ الآباءِ؛ وإحباطِ الصحوةِ الإسلاميَّةِ في تركيَا.
- المقاومةِ ضِدَّ مطالبِ الجاليَةِ الأرمنيَّةِ في المهجر.

استغلَّتِ الدولةُ السِّرّيَّةُ قُوَى الدولةِ القانونيَّةِ بأقصَى قدرٍ ممكنٍ لسحقِ الأكرادِ ضِمْنَ خُطَّةٍ خطيرةٍ تقومُ على هَدَفَيْنِ أساسِيَّيْنِ: أوَّلُهما: صَهرُ الأكرادِ في الْبَوْتَقَةِ التُّرْكِيَّة، والقضاءُ على اللُّغَةِ الكُرديَّةِ،

والمذهبِ "الشافعانِيّ"[163]؛ ومحوُ الشعورِ بالانتماءِ إلى الأصلِ الكردِيّ. ثانيهما: استخدامُ أيّ وسيلةٍ لتحديدِ النسبةِ العدديَّةِ في المنطقةِ الكُرديَّةِ تفاديًا لتضخُّمِ أفرادِ هذ القطاعِ الإجتماعِيّ الكبيرِ في تركيا، حفاظًا على الوضع الديموغرافِي وعلى النسبةِ العاليَةِ للقطاعِ التُّرْكِيّ. ذلك أنَّ نسبةَ الأتراك بدأتْ في النقصِ بعد انتشار الثقافةِ الغربيَّةِ بينهم منذ أواخرِ القرنِ العشرين. ومن ميّزات هذه الثقافةِ أنها تُقَلِّصُ علاقةَ الإنسانِ بالدّين والأعرافِ والقِيَم، وتُشجّعُهُ على البحث عن حياةٍ هادئَةٍ مُرَفَّهَةٍ. وهذا يجعل الفردَ مُهْتَمًّا بنفسِهِ أنانيًّا، حَذِرًا ومُتَجَنّبًا عن الإكثارِ من الأولادِ، ومُسْتَغْنِيًا عن الذُّرّيَّةِ والنسلِ، ليتمتَّعَ بأقصى قدرٍ ممكن بملذَّاتِ العيشِ الرغيدِ، ممَّا أسفرَ عن مَخَاوِفَ في أوساطِ الْعُنْصُرِيّين الأتراكِ حولَ هبوطِ نسبةِ بني جلدتِهم، والأكرادُ في ازديادٍ سريعٍ على غرارِ الفلسطينيّينَ في مواجهةِ محاولاتِ إسرائيلَ لإبَادَتِهم.

بذلتِ الدولةُ السِّرِّيَّةُ قُصَارَى جهودِها في دَعْمِ الجماعاتِ الصوفِيَّةِ (خاصَّةً منها النقشبنديَّةِ و"الفَتُّوشيَّةِ")، ونَشْرِ تعاليم الْمُسْلُمَانِيَّةِ عن طريقِ مؤسَّساتٍ وقفيَّةٍ وجمعيَّاتٍ ومؤتمراتٍ ودِعاياتٍ؛ وبِنَشْرِ الْكُتُبِ، وبثّ البرامج التوجيهيَّةِ، عن طريقِ قنواتٍ فضائيَّةٍ خاصَّةٍ، كما ركَّزتِ الاهتمامَ على تتبُّعِ أثرِ السلفيّينَ واتّهامِهِمْ بِالْعَمَالَةِ لِتَنْظِيمِ القاعدةِ، ورميِهم بالخيانةِ العظمَى، وإبلاغِ جهازِ الأمنِ باتّهاماتٍ مفترياتٍ ضِدَّهم بكلّ ذريعةٍ.

استغلَّتِ الدولةُ السِّرّيَّةُ (أيَّامَ سيطرةِ الفتوشيّين على المؤسَّساتِ العامَّةِ) استغلَّتْ شبكةً من الإرهابيّينَ لِمُضَايَقَةِ المواطنِين الأَرْمَنِ، وإسكاتِ المثقَّفين منهم، كما جنَّدتْ عددًا من عُمَلائِها في قَتْلِ أفرادِ تنظيمٍ سِرّيّ للأرمنِ معروفٍ باسمِ Asala. وأخيرًا قُتِلَ على أيدِيهِمْ صحفيٌّ وكاتبٌ أرمنِيٌّ بارزٌ اسمُهُ هيرَانْت دِينْك Hirant Dink.[164]

[163] الشَّافِعَانِيَّةُ: مذهبٌ شِبْهُ خرافِيّ، محرّفٌ من المذهبِ الشافعِيّ المنسوبِ إلى الإمام أبي عبد الله محمّد بن إدريس القرشي المتوفي عام **204**هـ. رحمه الله تعالى. تعرّضَ هذا المذهبُ لِفسادٍ بالِغٍ نَجَمَ عَنْ تأويلاَتٍ وتطبيقاتٍ متطرّفةٍ اخْتَلَقَهَا ملاَلي الأكرادِ، لِقِصَرِ نظرِهِم، وبِدَافِعِ العُجْمَةِ الراسِخَةِ في طبعِهِم، وانتفاءِ صفةِ الرجلِ العالم فيهم، وبسبب البِدَعِ الْمُنْبَثَقَةِ من الطريقة النقشبندية المنتشرة في المنطقة الكردية بخاصّةٍ، كذلك بتأثير اللُّغَةِ الفارسيّةِ وأعرافِ الشعبِ الفارسِيّ التي طالما كانَ لها أثَرٌ سلبِيٌّ على لغاتِ المنطقةِ وعلى رأسها اللغةُ العربيّةُ في العراق وسواحل الخليج العربي.

[164] خِرَانْت دِينْك Hırant Dink: كاتبٌ أرمنِيُّ الأصل، ومدير صحيفة Agos الأسبوعية، تصدر باللغتين الأرمنية والتُّرْكِيَّة. وُلِدَ Hırant Dink في مدينة ملطية بمنطقة شرق تركيا عام **1954**م. نشأ فقيرًا في دار حماية الأطفال، تخرّج في جامعة إسطنبول كلّية العلوم. قُتِلَ غِيلةً في مدينة إسطنبول أمامَ مقرِّ صحيفة Agos على يدِ شابٍّ إرهابِيٍّ من عملاءِ الدولة السِّرِّيَّة اسمه Ogün Samast، وذلك يوم **19** يناير/كانون الثاني **2007**م.

تلقَّتِ الدولةُ السِّرِّيَّةُ دعمًا كبيرًا من الحكوماتِ التُّرْكِيَّة في بعضِ الفتراتِ خاصَّةً على مدى العقودِ الأخيرةِ من القرنِ العشرين، ثُمَّ حانَ الوقتُ لِتُكشَفَ نُبذةٌ من أسرارِهَا، فكان من حظِّ حزبِ العدالةِ والتنميةِ أنْ تَمَكَّنَ من كشفِ طَيَّةٍ من القِناعِ عن وجهِ هذا الوحشِ المسعورِ.

تَمَّ القبضُ على عددٍ من رموزِ هذه "الْمُنَظَّمَةِ السِّرِّيَّةِ العملاقةِ" بعد الكشفِ على خليَّةٍ لها في حيِّ (العُمرانيَّةِ) بمدينةِ إسطنبول يوم 12 يونيو/حزيران 2007م. زَعَمَ المسؤولون بجهازِ الأمنِ العامّ أنَّ هذه العصابةَ انتظمتْ تحت اسم (أرْجَنَكُون Ergenekon)، وقد تلبَّستْ بسلسلةٍ من المؤامراتِ من أهَمِّهَا الإستعدادُ للإطاحةِ بحكومة حزبِ العدالةِ والتنمية، فافتضحَ بذلك بعضُ كبارِ قادةِ الجيشِ ومَنْ سانَدَهم من السياسيِّين. تَمَّ اعتقال 400 شخصٍ بهذه التُّهمةِ فَنُقِلُوا إلى مُجمَّعِ سجونِ السياسيِّين بمدينةِ (سِيلِيفْرِي Silivri) بعد أنْ جرتْ معهم تحقيقاتٌ واسعةٌ متعدِّدةُ الأبعادِ، وصدرتْ بحقِّ عددٍ منهم عقوباتٌ ما بين السجن المؤبَّدِ والسجنِ المؤقَّت. لكنَّ القضاةَ الذين حكموا بهذه العقوباتِ، ما لبثَ أن افتضحوا فورَ محاولة "الحشاشين الجُدُد" للإطاحةِ بحكومةِ أردوغان. فثبتَ أنَّهم كانوا من بطانةِ الذين تورَّطوا في المؤامرةِ ضدَّ الحكومةِ. وظهرَ أخيرًا أنَّ عصابةَ "الحشاشين" إنَّما أقدمتْ على حشرِ جماعةٍ من العسكريين ذوي الرُّتَبِ الرفيعةِ إلى السجنِ عن طريقِ جهازِ القضاءِ "بِتُهَمٍ مَوْهُومَةٍ؟"، ليستعرضوا بذلك مدَى قدرتِهم تمهيدًا لِدحرِ الحكومةِ من سُدَّةِ الْحُكْمِ. إلاَّ أنَّ يقظةَ الحكومةِ حالتْ دونَ هدفِهِمْ قبل أنْ يتمكَّنوا من تحقيقِهِ. فأُطلِقَ سراحُ مُعظَمِ المسجونين، وظلَّتْ قضيَّةُ "أَرْجَنَكُون" إلى هذه الساعةِ موضوعَ خلافٍ بين الأحزابِ السياسيةِ والحكومةِ وقطاعاتٍ مختلفةٍ من المجتمع.

***

الحياةُ الإجتماعيَّةُ فِي تُرْكِيا؛ العاداتُ، والأعرافُ، والتقاليدُ، والْمُعْتَقَدَاتُ الْخُرَافِيَّةُ.

العاداتُ، والأعرافُ، والتقاليدُ؛ مفاهيمُ مُتقارِبَةٌ في المعنى وليست مترادفةً. لِكلٍّ منها تعريفٌ يُناسِبُهُ ويحدِّدُهُ، وبينها فروقٌ لا محالة. وليس هذا مقامُ تعريفِها وتصنيفِهَا، إذ نحن بصددِ العاداتِ والأعرافِ والتقاليدِ السائِدَةِ في أنحاءِ تركيا فحسب.

قد تختلفُ العاداتُ والأعرافُ والتقاليدُ على الساحةِ التُّرْكِيَّة باختلافِ الطوائفِ العرقيَّةِ والجماعاتِ الدينيَّةِ من بِيئةٍ لأُخرَى. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ لِكلٍّ من معتقداتِ الآباءِ، والعاطفيَّةِ، والجوارِ، والعِشْرَةِ، والعلاقاتِ الإجتماعيةِ، أثرًا كبيرًا في نشوءِ وانتشارِ العاداتِ والتقاليدِ، كما لها دورٌ هامٌّ في تغييرِها وتركِها. وبخاصَّةٍ العاطفيَّةُ تأتي على رأسِ هذهِ الأسباب. لقد حلَّتِ العاداتُ مكانَ الدِّينِ وأصبحَ الناسُ يتشبَّثون بها أشدَّ ما يكون، بحيث لو تعرَّضَ أحدُهمْ للتعذيبِ لَهُوَ أهونُ عليهِ من أنْ يُخالفَ شيئًا من هذه العاداتِ التي تُصادِمُ أصلَ الدِّين!

إنَّ العاطفيَّة، قد تكون من أسبابِ نُمُوِّ الفضائِلِ في الإنسانِ، كالشعورِ بآلامِ الغيرِ، والإحساسِ بضرورةِ التعاونِ والإخاءِ والسلامِ، ونَبْذِ الأنانيَّةِ والشُّحِ والقسوةِ.. لكنَّهُ ينبغي أنْ لاَ ننسَى بأنَّ العاطفيَّةَ نفسَهَا من الأسبابِ الرئيسَةِ للإسرافِ في الثقةِ، والإغترارِ بالدعاياتِ، والإنزلاقِ مع أهلِ الأهواءِ، والفشلِ في العلاقاتِ الإجتماعيَّةِ، لأنَّ العاطفيَّةَ مُنافيةٌ للمنطقيَّةِ والعقلانِيَّةِ. ومن هذا الْمُنْطَلَقِ؛ ليس من الْمُراءِ أنْ نقولَ إنَّ المجتمعَ العاطفِيَّ أشدُّ نزعةً إلى الفسادِ والإفسادِ والتضليلِ، وتحريفِ الحقائِقِ، واختلاقِ البِدَعِ والأساطيرِ..

إنّ المجتمعَ العاطفِيَّ غيرُ قادرٍ على الرؤيَةِ الواضحةِ للأشياءِ والأحداثِ، لأنَّهُ يَسْتَنْكِفُ عن النقدِ الذَّاتِيّ ويرفضُ مواجهةَ الواقع بصدرٍ رحبٍ. بل يهربُ من الواقعِ الذي يشهدُهُ ويعيشُهُ، فلا يستيقنُ في نفسِهِ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يصطدِمَ بِهِ في يومٍ من أيَّامِ المستقبَلِ القريبِ أو البعيد.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه من صفاتِ مجتمعاتِ الشرقِ الأوسطِ، وفي مقدّمتِها الجماعاتُ القاطنةُ على الساحةِ التُّرْكِيَّة من تُرْكٍ، وعربٍ، وكُرْدٍ، وَشَرْكَسَ، وَجُورْجَ، وَلاَزٍ، وغيرِها. إنَّ هذه الجماعاتِ كانت ولا تزال تحتذِي حَذْوَ الأتراك، وتتبعُ أثرَهم في مُعظم عاداتِها وتقاليدِها وأعرافِها بسببِ نسبةِ الأتراكِ الغالبةِ على نِسَبِ بقيّةِ الفصائِلِ. والأتراكُ قومٌ تَطْغَى عليهم الصبغةُ العاطفيّةُ في التعاملِ مع الأحداثِ والقضايا والمشكلاتِ في أغلب الأحوال. هذا الذي اجْتَرَفَهُمْ إلى جوٍّ من الفوضَي في العقيدةِ والدّينِ والفكرِ والثقافةِ.. وهذا الذي جعلهم يتهاونون بألأصولِ ويتلاعبون بقوانين الوحي، ويعبثون بِقِيَمِ الدِّينِ... وهذا الذي أنساهمُ مبدأ "التوقيفيّةِ" ودَفَعَهُمْ إلى الخَلْطِ بين العبادةِ والعادةِ، كما يظهر من خلالِ براهينَ عديدةٍ، وإليكم بعضَها:

إنّ عامَّةَ الناسِ في تركيا لا ترَى بين مفهومِ الدِّينِ والحياةِ علاقةً عضويَّةً، بل "إظهارُ أدنى شيءٍ من أمورِ الدِّين مع الفعلِ والعملِ، فيه مُرَاءَاةٌ واستغلالٌ وانتهاكٌ لِحُرْمَتِهِ". فالدِّينُ عند الناسِ مفهومٌ مقدَّسٌ له حرمةٌ ما دامَ محفوظًا ومستورًا في القلبِ والضمير. أمَّا إذا أظهر الشخصُ أدنى شيءٍ منه بفعلِهِ خارج المسجدِ والبيتِ والْمَقْبَرَةِ، فيكونُ قد اقْتَحَمَ حُرْمَتَهُ. لذا، "لا يجوزُ قراءةُ القرآنِ بِصَوْتٍ يسمعُهُ غيره (حتى داخلَ المنْزل)! إذ أنَّ التلاوةَ مقدَّسةٌ، والاستماعَ إليها واجبٌ. فقد لا يستمعُ إليها الحاضرُ فيأثم بذلك التالي"!

بهذه النظرة قد تحوَّلَ القرآنُ الكريمُ في تركيا إلى كتابٍ خاصٍّ بالمسجد والمقبرةِ.

***

صلاة الاستخارة قد أصبحت عادةً شائعةً بين الجماعات الصوفيَّةِ خاصَّةً، ولكن لا يصلِّيها أحدٌ إلاَّ لِيَرَى في منامِهِ شيئًا يرمزُ إلى ما سوفَ يحدثُ في الْمُسْتَقْبَلِ من خيرٍ أو شرٍّ، ليحتاطَ وَلِيُقَرِّرَ بذلك مصيرَهُ، أو لِيُعِدَّ على ضوئِهِ برنامجَ عملِهِ ونحو ذلك. والحالُ هذه فإنَّ صلاةَ الإستخارةِ سنةٌ، ينبغي أن يصلَّيَها العبدُ وفقَ ما وَرَدَ في فقهِ العباداتِ، وأنْ يدعوَ اللهَ لِيُرْشِدَهُ ويهدِيَهُ إلى مطلوبِهِ، ويوفِّقَهُ.. وليس لِيُطْلِعَهُ على الغيب!.

***

ترتيبُ الحفلةِ وتلاوةُ (الْمَوْلِد النبوِيّ) في المناسباتِ أيضًا من العاداتِ الشائِعَةِ في تركيا. ملايينُ الأتراك ومَنْ على أثَرِهِمْ من عَنَاصِرَ أُخرَى، يعتقدون: "أنَّ قراءةَ (الْمَوْلِد النبوِيّ) عِبَادةٌ وعملٌ صالِحٌ، يُهدَى ثوابُهُ إلى أرواحِ الأمواتِ". يدلُّ على تمسُّكِهِمْ بهذا الإعتقاد: ما يَجْرِي على لسانِ قُرَّاءِ الْمَوْلِدِ من الدعاءِ في خِتامِ الْحَفْلَةِ، وهو قولهم: "اللهمَّ أوْصِلْ ثوابَ ما حَصَلَ من تلاوةِ الْمَوْلِدِ الشريف إلى روحِ النبِيّ... وإلى روحِ فلانٍ وفلانٍ...إلخ" ونحو ذلك. بينما تلاوةُ الْمَوْلِدِ لا تُعَدُّ نوعًا من العبادةِ بِوَجْهٍ. بل أجْمَعَ جمهورُ علماءِ المسلمين على أنَّ الإحتفالَ بـ"الْمَوْلِد النبوِيّ" بِدْعَةٌ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأمورِ. والفعلُ الْمُنْكَرُ ليس من العملِ الصالِحِ ولا تُرجَى بِهِ مَثُوبَةٌ بِحَالٍ[165].

[165] أمّا البدعةُ وأقسامُها: فقد ورد على لسانِ أهلِ العلمِ أنّها فعلُ ما لم يُعْهَدْ في عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وهي منقسِمةٌ إلى: واجبةٍ، ومحرَّمةٍ، ومندوبَةٍ، ومكروهَةٍ، ومباحَةٍ.. والطّريق في معرفة ذلك أنْ تُعْرَضَ البدعةُ على قواعد الشّريعة: 1) إن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبةٌ، كالإشتغالِ بعلم النّحو الّذي يُفهم به كلامُ اللهِ وكلامُ رسوله صلّى الله عليه وسلّم. لأنَّ حفظَ الشّريعةِ واجبٌ ولا يتأتّى حفظُها إلاّ بمعرفةِ ذلك ، وما لا يتمّ الواجبُ إلاّ به فهو واجبٌ؛ كحفظِ غريب الكتابِ والسّنّة من اللّغة، وتدوين أصول الفقه ونحوذلك. 2) إن دخلت في قواعد التّحريم فهي محرّمةٌ، كمذاهب الفِرَقِ الضالّة، مثل مذهب القدريّة، ومذهب الجبريّة، مذهب المرجئة، مذهب المجسّمة، ومذهب المشبِّهة.. والرّدُّ على هذه المذاهبِ وأهلِها من البدعِ الواجبة. 3) إن دخلتْ في قواعد المندوب فهي مندوبةٌ. كإحداثِ المدارس وبناء القناطر، والمستشفيات، وتأسيس مسالك الريّ، ودوائر المصالح العامّ لتسهيل سُبُلِ الحياة والعلاقاتِ الإجتماعيّة المشروعة... هذا، وكلُّ إحسانٍ لم يُعْهَدْ في العصر الأوّل يعدّ من البدع المندوبة. 4) إن دخلتْ في قواعد المكروه فهي مكروهةٌ. كزخرفةِ المساجدِ،

كَثْرَةٌ من الناس في تركيا تتبادلُ التهانِيَ بمناسبةِ "ليالِيَ مباركةٍ" يسمِّيها الأتراكُ "ليالِيَ الْقِنْدِيلِ Kandil geceleri"، هذه العادةُ شائعةٌ في تركيا؛ يهتمُّ الشخصُ في هذه اللَّيالي بِتَهْنِئَةِ أقارِبِهِ وأصدقائِهِ اهتمَامًا بالغًا، ويصرِفُ جهودَهُ لكي لا يَغْفَلَ عن هذهِ الْمهمَّةِ، كما تزدادُ الإتِّصالاتُ الهاتفيَّةُ خاصَّةً بهذهِ المناسبَةِ، فيتبادلُ الناسُ التهانِيَ بكثافةٍ عالِية. وهذه اللَّيالي هي بالتحديد:

1) **ليلةُ أوَّلِ جُمُعَةٍ من شهرِ رجب، يسمِّيها الأتراك "ليلةَ الرَّغَائِبِ Regaip kandili"**
2) **ليلةُ ال27 من شهرِ رجب، يسمِّيها الأتراك "ليلةَ الْمِعْرَاجِ Miraç kandili"**
3) **ليلةُ النِّصْفِ من شهرِ شعبان، يسمِّيها الأتراك "ليلةَ الْبَرَائَةِ Beraat kandili"**
4) **ليلةُ القدرِ، وهي ليلةٌ مباركةٌ معروفةٌ عند جميعِ المسلمين، لِما وَرَدَ مَدْحُهَا في القرآن الكريم. يسمِّيها الأتراك "Kadir gecesi"**

والعبرةُ هنا بذكر هذه العادةِ وشيوعِها في تركيا، إنَّما هي للإشارةِ إلى مدَى استحالةِ مفهوم الدِّين في المجتمعِ التركِيِّ، وغَلَبَةِ العاداتِ على تعاليمِ الإسلامِ بشكلٍ رهيبٍ إلى حدٍّ اختفتْ حقيقةُ الدِّينِ من وراءِ هذا الضبابِ المحيطِ به، وَالمتمثِّلِ في (الْمُسْلُمَانِيَّةِ)، و(الْحَنَفَانِيَّةِ)، و(التيارِ النقشبنديِّ)... وهي في الواقعِ رُكَامٌ من البِدَعِ والتحريفاتِ التي الْتفَّتْ بِخِنَاقِ الإسلامِ على يدِ جماهيرَ من البشرِ، حَجَبَتْهم الْعُجْمَةُ والتقليدُ عن الإحساسِ والمعرفةِ بحقائِقِ الوحيِ وهَدْيِ السُّنَّةِ النبويَّةِ النضِرَةِ الوضَّاء.

هذا، ولا شكَّ في أنَّ للأيامِ واللَّيالي المباركةِ قيمةً بالغةً في الإسلامِ، منها ليالي العشرِ الأوائِلِ من ذِي الحجة، فقد أقسمَ اللهُ تعالى بِهَا، وقسمُ اللهِ بهذه اللَّيالي يدلُّ على عظيم فضلِها، قال الله تعالى: "والفجرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ"[166]. وهي أيَّامُ الحجِّ وفيها عيدُ الأضحَى. وقال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ

وتزويقِ المصاحِفِ، وأمّا تلحين القرآن بحيث تتغيَّر ألفاظُهُ عن الوضعِ العربِيِّ، فالأصحُّ أنّهُ من البدعِ المحرَّمَةِ. **5**) إنْ دخلتْ في قواعد المباح فهي مباحةٌ. كالمصافحةِ عقيبَ الصَّلوات، والتّوسُّعِ في اللّذيذ من المآكلِ والمشاربِ والملابسِ والمساكِنِ، ولبس الطّيالِسَةِ، وتوسيع الأكمام ونحوذلك.

[166] سورة الفجر: **1**، **2**.

رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلاَمٌ هِيَ حتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ[167]. وقال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ[168].

لقد اعتادَ الناسُ في تركيا تبادلَ التهاني في تلك اللَّيالي التي مرَّ ذكرُها وبشكلٍ مُلْفِتٍ إلى حدٍّ من الإهتمامِ الذي لا ينال معشارَهَا الصلواتُ المفروضةُ، كَأَنَّ اللهَ أمرهم بذلك، أو فَعَلَهُ الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ! بينما هذا لم يَحْدُثْ قطُّ، كما لا نجدُ في الكتابِ السنَّةِ دليلاً على ذلك ولا حتَّى على إحيائِها.

هذه الهرطقةُ نشأتْ بدوافعِ الظروفِ التي أوْلَدَتِ (الْمُسْلُمَانِيَّةَ)، فاستمدَّتْ من خلفيَّات هذا الدِّين. ثُمَّ انضمَّت إلى أشكالٍ أخرى من البِدَعُ فتراكمتْ مع الزمان في ذاكرةِ المجتمعِ بالتقليد لِمُعتقدَات الآباءِ. كذلك لِلْعُجْمَةِ، والقبوريَّةِ، والعنصريَّةِ أثرٌ كبيرٌ في نشوئِها وانتشارِها. لأنَّ الإحتفالَ بهذه اللَّيالي إنَّما هي من سنَّةِ الآباءِ، وليس من سُنَّةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلَّمَ، "فالآباءُ إذَنْ هم أولى بالإتِّباعِ من الرسول عليه السلام؛ ولأنَّ هذه العادةَ تُمَيِّزُ الأتراك من سائرِ أجزاءِ الأمّةِ المحمَّديَّةِ؛ ولأنَّ هذه العادةَ وسيلةٌ للاتِّصالِ بأرواحِ الآباءِ وتعظيمها، وتطييبِ خاطرِها، والإعلانِ عن مكانتِها عند اللهِ، وتفوُّقِهَا على جميعِ أرواحِ البشرِ!".

وقد تكون هذه العاداتُ ناشئةً عن استقلالِ الناسِ حجمَ العباداتِ والمناسكِ في الإسلامِ، يرونه قليلاً جدًّا بالمقارنةِ مع حجمِ العباداتِ والمناسكِ في بقيَّةِ الدِّياناتِ، وهذا يؤدِّي إلى زوالِ هيبَةِ الدِّينِ من القلوبِ (في ظنِّهم!)، إذنْ لا بدَّ من إشباعِهِ وتضخيمِهِ بِحَشْدِ حفلاتٍ ومراسيمَ وعاداتٍ إضافِيَّةٍ في بطنِهِ ليبدوَ بذلكَ دينًا جَسِيمًا عملاقًا يملأُ العيونَ والضمائرَ، كالإنسانِ البَدِينِ الذي يتهيَّبُ الناسُ ظِلَّهُ، ويرونَ أنفسَهم عنده صِغارًا وضِعافًا في الوهلةِ الأولى!

هذا، ومن العبرةِ بمكان، أنَّ استقلالَ العبادةِ في الإسلامِ قد دبَّ في النفوسِ المريضةِ منذ عصرِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، وليس أمرًا جديدًا. وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ.

---

[167] سورة القدر: **1-5**.

[168] سورة الدخان: **3**.

قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا... فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي."[169]

إنَّ بدعةَ الإحتفالاَتِ والتهانِي في لَيالي الْقِنْدِيلِ أيضًا قد تكون من نتاج الهواجسِ للنفوسِ المريضةِ على غرار ما نبض في قلبِ هذا الرهط البدويِّ الساذج.

***

إنّ الحياةَ الدينيّةَ في تركيا متضافرةٌ مع أشكالٍ غريبةٍ من بِدَعٍ وهرطقاتٍ انتقلتْ من دياناتِ الأسلافِ بالتقليدِ المحضِ وامتدَّتْ عَبْرَ القرونِ من خلالِ الأعرافِ، ومارسَهَا الناسُ باسم الدِّينِ في أغلبِ الأحوالِ فاتَّسَمَتْ بصبغةٍ دينيَّةٍ وقَداسَةٍ راسخةٍ في النفوسِ والضمائرِ إلى حدٍّ يستحيلُ إقناعُ الناسِ ببُطلانها، وإرشادُهُم إلى التخلِّي عنها. كلُّ هذه العاداتِ البدعيَّةِ والهرطوقيَّةِ مردُّها إلى القبوريَّةِ.. والقبوريَّةُ مَنْشَؤُهَا تقديسُ أرواحِ الآباءِ في القرون الجاهليَّة الأولى[170]، والإعتقادُ بأنَّها طارتْ وارتفعتْ إلى عِلِّيِّين بعد تخلُّصِها من الجسد. يدلُّ على ذلك؛ أنَّ الأتراكَ لا يزالون يُعَظِّمونَ أيَّ إنسانٍ فارقَ الحياةَ "وإنْ ماتَ على الْكُفْرِ بصريحِ القولِ والفعلِ في آخرِ أنفاسِهِ، فإنَّه يستحِقُّ التعظيمَ والإحترامَ مهما كان". ومن البراهينِ القاطعةِ على ذلك أنَّ أيَّ إنسانٍ ناداهُ حتَّى شخصٌ واحدٌ بالولايَةِ، اعتقدَ جميعُ الناسِ أنَّه وليٌّ وزاعَ صيتُهُ. والوليُّ عندهم: هو كائنٌ مقدَّسٌ عملاقٌ يمتازُ بالكراماتِ والبركاتِ وإجراءِ الخوارِقِ، كالمشيِ على الماءِ والطيرانِ في الهواءِ، والتصرُّفِ في الكونِ،

---

[169] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ.

[170] طريفة حكاها أحد أطبّاء الأسنانِ، في إسطنبول، تبرهن على مدى انهماك الأتراكِ في القبوريّةِ وتوغّلهم في الإشراك بالله بتأليه الإنسان الميّت، يقول الطبيب:

كنتُ طالبًا في كلّية طبّ السنانِ بجامعة إسطنبول عام **1968**م. خرجتُ يومًا مع بعضِ زملائي من الطلاّبِ لِمذاكرةِ الدروسِ استعدادًا للامتحانِ. وصلنا إلى موقعٍ اسمه: فوليا Fulya، بناحية بشيكطاش، كانت منطقةً خاليةً يومئذ. فأمضينا برهةً من الوقتِ، فلمّا أردنا العودةَ دفنّا هناكَ جمجمةً صناعيّةً (من البلاستك)، كنّا قد حملناها معنا للتدريب، وعملنا لها قبرًا، وصففنا عليه أقداحنا. وكتبنا على لوحه "بَرْدَقْجِي بَابَا" أي بابا أبو الفناجين. ثمّ اتفق لي أن ممرتُ يومًا بتلكَ المنطقةِ، فإذا بالقبر قد تمّت إحاطتُهُ بشبكةٍ من الحديد، مدهونةٍ باللّون الأخضر، والقبرُ مزيّنٌ بالرخام وقد جُدِّدَ عنوانُهُ بخطٍّ ذهبيٍّ رائع: " الفاتحة إلى روح مولانا بردقجي بابا، قدّس الله روحه وأفاضَ علينا من بركاته". وهناك حشد من النساءِ يتضرّعن إليه ويطلبنَ منه قضاءَ حاجاتهنّ.

يقول الطبيب: "أخذتني الحيرةُ والدهشة أمام هذا المنظر، ولكنّي أرجو مِمَّن يسمع القصّةَ أن لا يذكر اسمي أبدًا! لأنّه لن يصدّقني أحدٌ، كما قد يتمخضُ عن حقدٍ عند بعض المتطرّفين يدفعهم إلى القيام بمؤامرةٍ أصبح ضحيّلها"

وله مناعةٌ لا تَحْرُقُهُ النارُ ولا يُؤثّر فيه السلاحُ. ويعتقدُ طائفةٌ من شيوخِهم أنَّ مقامَ الولايةِ فوقَ مقامِ النبوة، إلاَّ أنهم لا يَبُوحُونَ بهذا الإعتقادِ خوفًا من أنْ يُتَّهَمُوا بالكفر.

(يمتاز بهذه الشهرةِ خاصَّةً بعد موتِهِ!) له صفاتٌ إلهيَّةٌ ولعنةٌ يجب اتّقاؤُها إلى غيرِ ذلك من معتقداتٍ غريبةٍ. وما حاول شخصٌ ليُقنِعَهُمْ بالصفاتِ الحقيقيَّةِ للولِيِّ الواردةِ في القرآنِ الكريم، إلاَّ فشلَ ونالَ غضبَهم.

ولهذا لا يكادُ أحدٌ في هذا البلدِ يعتقدُ بأنَّ الولِيَّ إنسانٌ صالِحٌ يجوزُ أن يُطلَقَ عليه الصفاتُ التي وردتْ في الآيةِ الكريمةِ: "أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ"[171] نعم، لا يكادُ أحدٌ يعتقدُ بما وردَ في هذه الآيةِ الكريمةِ إلاَّ من رحم ربِّي..

***

ومن العاداتِ الناشئَةِ من الْفِكْرِ الْقُبُورِيِّ في المجتمعِ التركيِّ إنشاءُ الْقِبَابِ على قبورِ شيوخِ الصوفِيَّةِ، وشَدُّ الرحالِ إليها، والصلاةُ في المساجدِ اللَّصيقَةِ بِها، وإقامةُ الإحتفالاتِ على بعضِها في أيَّامٍ مُعيَّنة... هذه العادةُ قديمةٌ بين الأتراكِ والأكرادِ، تَعُودُ إلى أيَّامِ جاهليَّتِهِمْ. إذ كانوا يدينوا بِ"الشامانيَّةِ"، و"البوذيَّةِ"، و"الزرادشتيَّةِ" و"المانويَّةِ"... مرُّوا بهذِهِ الدياناتِ على مراحلَ من الزمن حتَّى تعرَّفوا على الإسلامِ، فانتهتْ بهم نزعاتُهُمْ الملَفَّقَةُ إلى أنْ قاموا بالتوفيقِ بين ما بَقِيَ عليهم من أثارِ هذه الدِّيَانَاتِ وبين الدِّينِ الجديد، فنشأتْ من هذا الخلْطِ والعبْثِ مزيجٌ سَمَّوهُ "الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık". وهي دينٌ بِدعِيٌّ خرافِيٌّ وَثَنِيٌّ قبورِيٌّ لا صلةَ له بالاسلامِ.

كان الأتراك قبلَ الإسلامِ يُعَبّرون عن الموتِ بِ"الطَّيَرَانِ"[172]. يقولون "طارتْ روحُ فلانٍ"، يقصِدون "أنَّها طارتْ إلى عالَمٍ روحانِيّ نورانِيّ بِأَعَالِي قُبَّةِ السماءِ". معناه: "إنَّ الإنسانَ إذا ماتَ تحوَّلتْ روحُهُ إلى طائرٍ أو حَشَرَةٍ ذاتِ أجنحةٍ، طارتْ إلى حيثُ جائتْ في بدايَةِ خَلْقِهَا وهي طاهرةٌ من كدوراتِ هذه الدنيا، تتبوَّؤُ مقامًا إلهِيًّا، وتتجلَّى بالعطاءِ والاحسانِ على مَن يتوسَّلُ بِها ويتضرَّعُ إليها..

---

[171] سورة يونس: **62، 63**

[172] ورد في بهجة التواريخ لِمُؤلِّفِهِ شكر الله أفندي (**1388–1464**؟)، يقول: إنّ الأتراك القاطنين بالمنطقة الغربيّةِ كانوا على هذا المعتقدِ حتّى بعد إسلامهم، فيقولون إذا مات أحدُهُم: Şunkar boldu şahin، أي فلانٌ أصبح صقرًا، كما يقولون: Uçmağa gitti، أي ذهبَ إلى الجنّةِ. وكلمة Uçmak في اللغةِ التُّرْكِيَّةِ معناها: الطَّيَرَانُ، وهي أيضًا اسمٌ للجنَّةِ.

كان هذا من معتقداتِ الأتراكِ الشامانيّين خاصَّةً، وكانتْ قبائِلُ منهم تؤمنُ بالتناسُخِ، أي عودةِ الروحِ إلى الجسدِ، وعودةِ الجسدِ إلى الحياةِ الدنيا مرَّةً بعدَ مرَّةٍ. لذا، كانوا في قدِيمِ الزمانِ يَدْفُنُونَ مع الميِّتِ أسلحتَهُ وما قد يحتاجُ إليه في عالَمِ الأرواحِ من أدواتٍ وعُدَّةٍ وزينَةٍ، خاصَّةً إذا كانَ رجلاً وله شأنٌ. وقد يدفنون معه جاريةً ليستأنس بها!

هذه الْمُعْتَقَدَاتُ عَلِقَتْ بنفوسِهِمْ كبقايا من العهدِ الوثنِيِّ وظلَّتْ راسخةً في ضمائرهم حتّى بعد انتسابهم إلى الإسلام، فدفعتْهم إلى إنشاءِ الأضرحةِ وَالقِبَابِ على قبورِ الشخصيَّات المعروفين والمشهورين بينهم، كالسلاطين والأبطالِ ورجال الدِّين وشيوخِ الصوفيَّةِ أسوةً بأسلافهم وتمسُّكًا بدين الآباءِ. ولهذا لا يوجدُ شخصيَّةٌ من المشهورين بين الأتراكِ إلاَّ وقد بُنِيَ على قبرِهِ قُبَّةٌ تعظيمًا لشأنِهِ وطلبًا للبركةِ بذكرِهِ. فنشأتْ من هذهِ العادةِ تسميةُ بعضِ الروحانيّينَ منهم بِـ"بَابَا فُلاَن". وأضرحةُ بَابَاوَاتِ الأتراكِ يربو عددُهَا على الْمِئَاتِ في مختلف أنحاءِ تركيا[173].

أمَّا الأساطيرُ التي تَمَّ حِيَاكَتُهَا حولَ هؤلاءِ البابَاواتِ، فلاَ حدَّ لَهَا. يعتقدُ بِهَا عشراتُ الْمَلاَيِينِ من الناسِ في تركيا، بينهم عددٌ كبيرٌ من خِرِّيجِي الجامعاتِ! ينقلونَهَا عَبْرَ الأجيالِ، ويعتزُّونَ بِهَا، ويعدُّونَهَا من مفاخرِهِمْ وأمْجَادِهِم التي بُنِيَ عليها تاريخُهُمْ. وقد تفرَّغَ كثيرٌ من كُتَّابِهِم لتدوينِ هذه الأساطيرِ تحتَ عنوانِ "كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ"، وهي متضافرةٌ بِأَشْكَالٍ وأنواعٍ من غريبِ الْخُرَافَاتِ. ومن أشهرِ ما تَمَّ تأليفُهُ ونشرُهُ في هذا الموضوع: موسوعةٌ أصدرتْهَا شركةٌ عملاقةٌ للنقشبنديّينَ بعنوان: " موسوعة علماء الإسلام İslam Alimleri ansiklopedisi"، تتألَّف من **18** مجلَّدًا تَضُمُّ – في الوقتِ ذاتِهِ– تراجُمَ عدد كبير من الدَّجَاجِلَةِ وَالْمُتَنَبِّئِينَ وَالْمُشَعْوِذِين!..

يقصدُ آلافُ الناسِ هذه الأضرحةَ للاستغاثَةِ بِهَا، خاصَّةً في شهرِ رمضانَ، وفي أيَّامِ الجمعةِ، يعرضونَ لها حاجاتِهِمْ، ويطلبون منها قضاءَهَا. تجتمعُ حشودٌ كبيرةٌ من الزائرين حول هذه الأضرحةِ، خاصَّةً

---

173 هذه أسماءُ عددٍ من مشاهير باباوات الأتراك الذين عليهم أضرحةٌ تُزَارُ:

Murat baba بابا مراد, Düzgün baba بابا مستقيم, Helvacı baba بابا حلوجي, Telli baba بابا أبو الزخارف, Kaymak baba بابا أبو قشدة, İmam Efendi baba بابا إمام أفندي, Fatih Ahmet baba بابا أحمد فاتح, Midilli baba بابا مِدِلّي, Garip Baba بابا غريب, Mah Baba بابا ماه, Gözcü Baba بابا رقيب, Buhur Baba بابا بخور, Ali Mansur Baba بابا على منصور, Seyit Ali Baba بابا السيد علي, Çoban Baba بابا الراعي, Koyun Baba بابا أبو غنم, Somuncu Baba بابا أبو رغيف, İskender Baba بابا إسكندر, Gül Baba بابا أبو الورد, Tavus Baba بابا طاووس, Mercimek baba بابا أبو عدس

منها التي تقعُ في أنحاءَ مختلفةٍ من مدينةِ إسطنبول. تأتي على رأسِها ضريحُ الصحابيِّ خالدِ بْنِ زيدٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه، وقد سَمَّاهُ الأتراك Eyüp Sultan، بينما ليس هذا هو اسْمُه. كما لم يكن هو أحدًا من السلاطينِ. فتسميتُهُ بـ(أيوبَ)، أيضًا خطأٌ ناشئٌ من الجهلِ والعُجْمَةِ. إذ هو في الأصحِّ أبو أيُّوبَ، أمَّا وصفهم له بالسلطان، فَلِمَدَى احترامِهم وتوقيرِهم له. إذ يجعلونه في مقامِ ملكٍ من ملوكِ العُثمانيِّين "الذين هم أعظم خَلْقِ الله مكانةً وجاهًا عند الله!" في نظر الأتراكِ السنِّيِّين.

للنساءِ اكثرُ اشتياقًا إلى الأضرحةِ، ولهنَّ أشكالٌ من الخرافاتِ يمارسنَهَا في أثناءِ زياراتِهِنَّ. ومن أشدِّها غرابةً؛ أنَّ آلافًا من النساءِ يجتمعْنَ في عَشِيَّةِ أوَّلِ يومٍ من شهرِ رمضانَ عند ضريح Oruç Baba (بابا الصوم)، في مدينةِ إسطنبول، مع كلٍّ منهنَّ زُجَاجَةٌ فيها خلٌّ، تُفطِرُ عليه. ولكلٍّ منهنَّ حاجةٌ ترفعُها إليه وتطلبُ منه قضاءَها. كلٌّ منهنَّ معها أداةٌ رمزيَّةٌ صغيرةٌ، تدلُّ على حاجتِها، كَلُعْبَةٍ على هيئةِ فستانِ زفافٍ، أو مفتاحٍ، أو مهدٍ ونحو ذلك. تجدُ إحداهنَّ وبيدِها لُعبةٌ من فستانِ زفافٍ تتضرَّعُ إلى (بابا الصوم) ليتقبَّلَ دعاءَها، فَيُقَدِّرَ لِبِنْتِهَا العانسِ حُسنَ طالِعٍ يأتيها مَنْ يخطبُهَا في مستقبلٍ قريبٍ؛ وتجدُ منهنَّ مَنْ بيدِها مفتاحٌ تطلبُ منه أنْ يهبَ لها شقَّةً تسكنُ فيها أسرتُهَا؛ ومنهنَّ مَنْ في يدِها مهدُ لُعْبَةٌ، تطلبُ منه أنْ يرزقَهَا ولدًا... وأمثالهنَّ كثيرةٌ والحاجاتُ متنوِّعةٌ لا حدودَ لها.

***

للقبوريِّين الأتراك ومَنْ على أثرهم من الأكرادِ والأقلّياتِ المتشبِّهَةِ بهم؛ لهم عاداتٌ وتقاليدُ وثنيَّةٌ مختلفةُ الأشكالِ من الزَّنْدَقَةِ والبِدَعِ والْخُرافاتِ، يمارسونها عند زياراتِهِمْ للأضرحة.

منها: أنَّهم يصنعون صندوقًا كبيرًا ينصبونه على قبرِ الشخصِ الذي يُعظِّمونه، وقد بنوا عليه قُبَّةً من ذي قبلٍ. ويُزَيِّنون هذا الصندوقَ بأقمشةٍ خضراءَ منقوشةٍ بآياتٍ من القرآن الكريم محرَّفَةِ الْمَعَانِي، ومَدْحِيَّاتٍ منظومةٍ ومنثورةٍ على غرارِ الرافضةِ. كلُّ ذلك لتفخيمِ شأنِهِ وتعظِيمِ مكانَتِهِ. يمارسُ الزائرُ ضروبًا من الخرافاتِ يطلبُ بها قضاءَ حاجتِهِ من صاحب الضريحِ، وقد يَذْبَحُ له أُضحيةً تقرُّبًا إليه، وبعضُهُمْ يُلصِقُ حصاةً بحائطِ الْقُبَّةِ، وهناك مَنْ يُشْعِلُ الشموعَ على غرار النصارى، ويشدُّ الخِرَقَ بِشُبَّاكِ الضريحِ، ومنهم مَنْ يرمِي نقودًا في صندوقِ التبرُّعاتِ الْمَوْجودِ على جانبٍ من الضريحِ، وغير ذلك من ممارساتٍ غريبة.

***

لقد اعتاد الناسُ منذ نصفِ قرنٍ كتابةَ بعض الشيءِ عن الْميّت على لوحِ القبر الذي يُنصَبُ إلى جهةِ رأسِهِ، كالبسملة، أو كلمةِ "الفاتحة"، يُطلَبُ بها من الزائرِ أن يقرأ فاتحةَ الكتابِ على روحه؛ أو كلمةِ "هو الباقي"، أيْ الله وحده الذي تفرَّدَ بالبقاءِ، وكلُّ مَنْ سواهُ آيلٌ إلى الفناءِ. وقد يُكتَبُ اسمُ الْميّتِ وتاريخُ ولادتِهِ ووفاتِهِ إلى غير ذلك من عباراتٍ حسب رغبةِ أهل الميّت.

كما رافقَ هذه العادةَ رفعُ بناءِ القبورِ بالرخامِ، وتزيينُهَا، وإحاطةُ بعضِها بسياجٍ من قضبانِ الحديدِ ونحوِ ذلك. إلاَّ أنَّ الْمُثِيرَ من هذه الأمورِ؛ أنَّها انتشرتْ بين العامَّةِ في جميع المدنِ وكثيرٍ من القُرى، بينما كانت قاصرةً – حتى الماضي القريب– على الطبقة الأرستقراطِيَّةِ فحسب. إلاَّ أنَّها شاعتْ مع زوالِ الأمِّيَّةِ، وتفاقُمِ نزعةِ التقليدِ، والمنافسةِ في جلب الإنتباهِ، وغيرِ ذلك من دوافعِ التفاعلِ الإجتماعِيِّ، كما كان لِتَدَهْوُرِ القِيَمِ الإسلاميَّةِ في تركيا أثرٌ كبيرٌ في انتشارِ هذه العادةِ.

كانت الكتابةُ على ألواح القبور بالحروفِ العربيَّةِ في العهدِ العثمانِيِّ وفي العقدِ الأولِ مِنَ العهدِ الجمهورِيِّ؛ فلمَّا مُنِعَتِ الكتابةُ بالحروفِ العربِيَّةِ بِقُوَّةِ القانونِ رقم: 1928/1353م. واعتادَ الناسُ الكتَابةَ بالحروفِ اللاتينيَّةِ تغيَّرتْ عادةُ الكتابةِ على ألواحِ القبورِ هي الأخرَى من الحروفِ العربيَّةِ إلى اللاتينيَّةِ. ولكن من الْمُثِيرِ أيضًا أنّ القلَّةَ العربِيَّةَ القاطنةَ في منطقةِ جنوبي شرقِ البلادِ أيضًا تأثَّرتْ بهذه العادةِ، فلا يكادُ أحدٌ منهم يكتبُ العباراتِ بالحروفِ العربِيَّةِ على لوحِ قبرِ فقِيدِهِ حتى في الْقُرَى التي لا يُتقِنُ سكانُهَا اللغةَ التُّرْكِيَّة إلى اليوم! والْمَقَابِرُ في تركيا مشاهدُ غريبَةٌ تتعاكسُ من خلالِها كثيرٌ من تناقضاتِ الدولةِ التُّرْكِيَّة والنظامِ الكمالِيِّ والمجتمعِ الخليطِ المتشوشِ في أفكارِهِ وديانَتِهِ وثقافتِهِ.[174]

***

ومن عادات السنيّين والعلويّين على السواء؛ أنَّهم يصنعونَ مقدارًا يغطِّي الحاجةَ من الحَلْوَى، ثُمَّ يُقدِّمون منه لِلْحاضرين في حَفْلَةٍ خاصَّةٍ تُقامُ بعدَ وفاةِ أحدِ أفرادِ الأسرةِ. هذه الحفلةُ تُعَادُ أربعَ

[174] **الفرصةُ متوفرةٌ لأيّ باحث يريد الإطلاعَ على هذه الغرابة إذا زارَ مدينةَ (تِلّوُ وقريةَ فُرْسَافَ التابعتين لمحافظِ أسعرد** Siirt)

مرَّاتٍ؛ مرةً بعد الوفاةِ مباشرةً، ومرَّةً بعد أسبوعٍ، ومرَّةً بعد **40** يومًا، وأخيرًا بعد **51** يومًا من الوفاةِ.

يدعو قريبُ الْميّت مُقرئًا ليتغنَّى بـ"الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ"، فيمارسُ الْمُقرئُ كلَّ مهاراتِهِ في استعراضِها، ويتلو سُوَرًا من القرآن الكريم، ثمَّ يهدِي ثوابَها إلى روحِ الْمَيّتِ. و"إذا كان الْمُقرئُ حَسَنَ الصوتِ، وأسهبَ في الدعاءِ، كان العملُ أكثرَ قبولاً عند اللهِ، وكانَ الْمَيّتُ أكثر حظًّا من الثوابِ!" (في اعتقادِهم). لذا، يهتمُّ صاحبُ الْمَيّتِ ليتَّفقَ مع مُقْرِئٍ تتوفَّرُ فيه الصفاتُ المطلوبَةُ. وفي أغلبِ الأحوالِ يُدعَى فِرْقَةٌ من الْمُقرِئِين لأداءِ الْمُهِمَّةِ، إلاَّ إذا كانت الأسرةُ ضعيفةَ الحالِ، فإنَّها إذن تكتفي بدعوةِ مُقرئٍ واحدٍ.

إنَّ القطاعَ الكردِيَّ لا تتماشَى مع القطاعِ التركِيَّ في كثيرٍ من هذه العاداتِ، لعلَّ السببَ ناشئٌ من اختلافِ البيئةِ واللُّغةِ والمذهبِ... لأنَّ الأكرادَ يقطنونَ المنطقةَ الشرقيةَ، ولم تكنْ بينهم وبين الأتراكِ علاقاتٌ اجتماعيَّةٌ كثيفةٌ على مدى التاريخ المشترك إلى منتصفِ القرنِ العشرين. كما أنَّ الأكرادَ يتبعونَ المذهبَ الأشعرِيَّ في العقيدةِ، والمذهبَ الشافعيَّ في العملِ الفقهِيِّ. إلاَّ أنَّ هذا الفارِقَ لم تدفعهم إلى التمايُزِ عن أهل السنَّةِ، بل ظلُّوا مُتَسَامِحِينَ مع بقية المذاهب الإسلاميَّةِ بخلافِ الأتراك، وهذا رغم تحريفهم للمذهب الشافعِيِّ، وإفسادِهِم للفقهِ الإسلامِيِّ بدافعِ التيَّارِ النقشبندِيِّ. أمَّا الحنفانيُّونَ الأتراك، فإنَّهم كانوا دائِمًا متحفِّظين حيالَ جميعِ المذاهبِ الإسلاميَّةِ وأفرطوا في تفضيلِ المذهبِ الحنفِيِّ عليها إلى حدِّ الكراهيَّةِ لغيرِ المنتسبين إلى مذهَبِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ.

ومن العاداتِ الصارمةِ عند الأتراك؛ إقامةُ حفلةٍ بمناسبةِ ختانِ الصبِيِّ. فالختان، سنةٌ في الاسلامِ مُتَّبَعَةٌ في بيئاتِ المسلمين جميعًا كما هو معروفٌ، لا يتهاون بهذه السنَّةِ طبقةٌ أو جماعةٌ من المسلمين على اختلاف مذاهِبِهِمْ ومشارِبِهِمْ ولُغاتِهِمْ وثَقَافاتِهِمْ وأوطانِهِمْ... إلاَّ أنَّ إقامةَ حفلةٍ بمناسبةِ الختانِ من أهمِّ العاداتِ في العُرفِ التُّرْكِيِّ، على رغمِ ما لا شكَّ في أنَّها بدعةٌ. تقامُ هذه الحفلةُ في إحدَى قاعاتِ الأفراحِ بعدَ دعوةِ الأقاربِ والأصدقاءِ وأهلِ الجوارِ، وفي أكثرِهَا تقامُ ولِيمَةٌ، وتُمارَسُ في أثناءِها نشاطاتٌ لَهَوِيَّةٌ من الموسيقى والرقصِ والسهرةِ...

للأكرادِ خاصِّيَّةٌ محلِّيَّةٌ مرتبطةٌ بهذه العادةِ؛ وهي أنَّ أسرةَ الطفلِ الْمُرَشَّحِ للختانِ قد تدعو شخصًا تراه مُخْلِصًا حَمِيمًا، بصرف النظرِ عمَّا إذا كانَ من ذوي قرابَتِها. تطلُبُ منه أن يحتضنَ الطِّفْلَ أثناءَ

عمليةِ الخِتَانِ. يُطْلَقُ على هذا الشخصِ صفةُ (كِرِيفْ Kiriv). قيل: إنَّها كلمةٌ كرديَّةٌ، وقيل: فارسيَّةٌ محرَّفةٌ من (كرفگر)، وقيل: يونانيَّةٌ محرَّفة من kirios. تقابلُ معنى (الْمُعَمِّدِ) في المسيحيَّةِ، وتفيدُ معنى الصاحبِ القريبِ، إذ يُصبِحُ هذا الشخصُ كفردٍ من أقاربِ الأسرةِ وتدومُ بين الطرفين صلةُ القرابةِ، "يُحَرِّمُ الزواج بين أفرادِ الأسرتين على التّأبيد"، باعتبار أنهم جميعًا إخوةٌ وأخواتٌ.

***

وللأتراك عاداتٌ ومعتقداتٌ بدعيَّةٌ وخرافيَّةٌ يمارسونَها في حياتِهم الإجتماعيَّةِ، وكانوا مُلِمّين بها إلى الماضِي القريبِ، إلاَّ أنَّ الطبقةَ المثقَّفةَ من سكانِ المدنِ (وخاصَّةً القطاعَ المتهاونَ بالدِّين) قد أهملَ الكثيرَ من هذه العادات، فلا تكادُ تعتدُّ بِهَا، غير أنَّ سكانَ الأريافِ والْمُتَزَمِّتِينَ غيرِ ذوي الحظِّ من التعليمِ والثقافةِ والصحوةِ، لا يزالون ملتزمين بها إلى حدّ.

من هذه العادات أيضًا: أنَّهم يُجَنِّبُونَ المرأةَ الحاملَ عن أكلِ الأطعمةِ الحامضةِ والبهارتِ، اعتقادًا منهم أنَّ ذلك يتمخَّضُ عن تكوين الجنين أنثى! يبرهن على هذا الإعتقاد قولهم: Ye ekşiyi doğur Ayşe'yi. **يعني: كُلي الحامضَ ياخَشْخِيشَة * لِتُصبِحِي أم عاشئة! ويحثُّونَها على أكل الأطعمة الحلوة اعتقادًا منهم أنَّ ذلك يساعدُ على تكوين الجنين ذكرًا! يدلُّ على ذلك المَثَلُ الهزليُّ السائر:** Ye tatlıyı، doğur atlıyı **يعني: كُلِي الحلوى واكسبي آنسًا * ليكون حَظُّكِ ولدًا فارسًا.**

ومن المعتَقَدَاتِ الخُرافيَّة بين سُكَّانِ الأرياف: أنَّهم يدفنون سُرَّةَ المولودِ في بَهوِ المسجدِ ليكون الولدُ عابدًا ناسِكًا. ومنهم مَنْ يدفنها في بَهوِ المدرسةِ لينشأ مُثَقَّفًا. وقد يُلقي بِهَا بعضُهُم في الماءِ ليكون ثرِيًّا واسع الرزقِ ألخ..

من المثيرِ أنّ عقليّةَ الناسِ في تركيا تتأثَّرُ بالظروفِ تأثُّرًا بالِغًا وتتغيَّرُ بسرعَةٍ من مرحلةٍ إلى أخرى، إذا كانتِ الدعايةُ قويَّةً، مصحوبةً بِمِسْحَةٍ من القوميَّةِ التُّرْكِيَّة، خاصَّةً إذا كان التوجيه مِنْ قِبَلِ الأشخاصِ المتسلِّطينَ والمنظماتِ الطاغيَةِ المهيمِنةِ على النفوسِ والضمائرِ، كالجماعاتِ الصوفِيَّةِ، والفِرَقِ الأيديولوجية، والتحالُفَاتِ الرأسْمالية الإحتكاريَّةِ التي تستغلُّ كلَّ فرصةٍ لترويجِ بضاعتِها بطريقِ الإتِّجارِ بالدِّين وتحريكِ العواطفِ بدعوَى القوميّةِ والوطنيَّة ونحو ذلك.

تستشيطُ ميولُ الناسِ في اختلاقِ عاداتٍ جديدةٍ بدافعِ هذه الأسباب. ومن هذه الْحِيَلِ: تَمَايُزُ بعضِ القطاعاتِ الإجتماعيَّةِ في تسميةِ الْمَوْلُودِ، كما اتَّجَهَ القطاعُ العلمانِيُّ العنصريُّ في السنين الأخيرة إلى تسميَةِ الْمَوْلُودِ بأسماءَ تركيَّةٍ بحتةٍ ليستعرضَ بذلك "هَجْرَهُ للثقافةِ العربيَّةِ الدخيلة" ومقاومتَهُ ضدَّ التيَّارِ المحافظ![175]

ومن العاداتِ البدعيَّةِ والمعتقداتِ الخرافيَّةِ الشائعةِ بين سكَّانِ القرَى بخاصَّةٍ: تعليقُ الحروزِ والتمائِمِ والحِجاباتِ والتعويذاتِ على أكتافِ الأطفالِ وعلى ظهورِهم ونواصِيهم... لِتَحْمِيَهُمْ من العينِ الحسودةِ والسحرِ والأمراضِ والحوادِثِ... ولتجذِبَ لهم الحظوظَ.

تختلفُ التعاويذُ والحروزُ والمعلَّقاتُ وتتنوَّعُ باختلافِ البيئاتِ والعقليَّاتِ والتقاليدِ. تُعلِّقُ الأمَّهاتُ على أطفالهنَّ جُسَيْمَاتٍ مختلفةً كالخرزِ الأزرقِ، والغشاءِ الصلبِ لِصغارِ السلحفاةِ، وفردةِ حذاءٍ للطفلِ الصغيرِ ونحوِ ذلك للحمايةِ، مع أنَّ كلَّ هذه المعتقداتِ والعاداتِ خرافاتٌ لا حقيقةَ لها من وجهةِ نظرِ الدين، والعقلِ والفطرةِ السليمةِ.

ومن عاداتِهم القديمةِ؛ أنَّ المرأةَ كانتْ إذا أنجبتْ تمتنعُ عن الخروجِ بالوليدِ أربعين يومًا، مخافةَ أن تمسَّهُ الأجنَّةُ أو الشمطاءُ (kara koncoloz)، على أنَّ الناسَ قد أصبحوا ينبذون هذه العادةَ في السنين الأخيرةِ بفضلِ الإرشاداتِ والنصائحِ التثقيفيَّةِ التي تقومُ بها الجهاتُ المعنيَّةُ.

ومن العاداتِ الشائعةِ بين السنّيِّين الأتراك (دون العلويّين): الأذانُ في الأُذُنِ اليمنى، والإقامةُ في الأُذُنِ اليسرَى للمولود، وتسميتُهُ بعدهما. هذه العادةُ بدعةٌ أيضًا لا أصلَ لها في الأصحّ. لأنَّ الحديثَ في ذلك واردٌ من طريق عاصم بن عبيدالله: "أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أذَّن في أُذُنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ حين وَلَدَتْهُ فاطمةُ. فقد ضعَّفَهُ رجالُ الإختصاص، وقالوا: إنه منكر الحديث مضطرب".

---

[175] **وهذه نبذة من الأسماءِ المختارة للمولود في أوساط هذا القطاع. الأسماءُ المختارة للذكور:**

Aksel, Alparslan, Atacan, Atakan, Ayhan, Barış, Başar, Batuhan, Cengiz, Demir, Deniz, Eralp, Erdem, Ertan, Ertuğrul, Gökhan, Gürbüz, Hakan, Hülâgü, Kaya, Oğuz, Okan, Onur, Orçun, Orhan, Savaş, Selçuk, Sergen, Sonay, Tansel, Tarkan, Timuçin, Timur, Toktamış, Turan, Turgay, Ügeday, Yavuz…

الأسماءُ المختارة للإناث: Döne, Yağmur, Işık, Gökçe, Güler, Gülsün, Tansu, Yıldız, Sevim, İlkay, Yüksel, Seval, Serpil……………

من عاداتِ سكّان الأريافِ قديمًا؛ كانت المرأةُ تنتظرُ عقبَ الإنجابِ لتسمعَ الأذانَ ثلاثَ مرّاتٍ حتّى تُرضِعَ مولودَها، وهذا يأخذ فترةً من الزمن قد تبلغ عشر ساعاتٍ، بينما أجمعَ علماءُ الطبِّ على أنَّ مِنْ أهمّ الأمورِ الإسراعُ في الإرضاعِ الأوَّلِ للمولودِ بعد الإنجابِ بقدرِ الإمكانِ، وعدمُ الإهمالِ أو المماطلةِ في ذلك، علمًا بأنَّ تأجيلَ الإرضاعِ الأوَّلِ قد يسبِّبُ في ثديِ الأمّ قِلَّةَ إدرارِ اللَّبَنِ، بالإضافةِ إلى قلَّةِ الإفرازِ لِمَادَّةِ Oksitosin التي تساعدُ على نزولِ المشيمةِ، ووقفِ النزيفِ، وحرمانِ الطفلِ من لبنِ السرسوبِ، وهو ذو قيمةٍ غذائيَّةٍ عاليةٍ، وغنيٌّ بالأجسامِ المناعيَّةِ. كانتْ هذه العادةُ الخطيرةُ من دواعِي الجهلِ المطبقِ، وقد قلَّ الإهتمامُ بها أخيرًا بعد كثرةِ الإرشاداتِ وأعمالِ التوعيَةِ.

ومن عاداتِ كثيرٍ من العائلاتِ (في الأريافِ): أنَّهم إذا ظهرتْ السنُّ الأولَى لطفلِهم، قاموا بترتيبِ حفلةٍ مع أهلِ الجوارِ، ثمَّ أجلسوه على قطعةٍ من البزِّ وصبُّوا على رأسِهِ مقدارًا من القمحِ المسلوقِ والمخلوطِ بالسُّكَّرِ.[176] يقدّمون منه للضيوفِ. ثم يضعون أمام الطفلِ نسخةً من القرآن الكريم، ومِقَصًّا، وقطعةً من النقدِ وهم يراقبونه؛ فإذا تناولَ القرآنَ فسَّروا ذلك أنَّه سوفَ يدرسُ وينجح في دراستِهِ، وإذا تناول المِقصَّ تكهَّنوا بأنَّهُ سوف يمارسُ حرفةً من الصناعاتِ، وإذا تناولَ قطعةَ النقدِ تفائلوا بذلك أنَّهُ سوف يتمتَّعُ بسعةِ الرزقِ ويصبح أحدًا من الأثرياء.

يقول أهل الإختصاص في علم التاريخ: إن هذه العادةَ تمتدُّ إلى قرونِ ما قبلَ الإسلام، كانتْ شكلاً من طقوسِهم، يلتمسون بها البركةَ من الآلهة، ثم أجرَوْا عليها تعديلاتٍ بإضافةِ رموزٍ إسلاميَّةٍ فأخذتْ شكلَها الأخيرَ.

***

للقطاعِ التركيِّ السنِّيِّ عاداتٌ مثيرةٌ عند توديعِ واستقبالِ الشابِّ المدعوِّ لقضاءِ فترةِ التجنيدِ الإلزامِيِّ، هذه العادةُ ترمزُ إلى الطبيعةِ العسكريَّةِ الراسخةِ في العنصر التُّرْكِيِّ، ويدلُّ على ذلك المثل التركيُّ السائر: "كلُّ فردٍ تُرْكِيِّ يُولَدُ جُنْدِيًّا!"[177]. ولِتكْسِبَ هذه الرؤيةُ والطبيعةُ قداسةً في عقليةِ المجتمعِ، فقد أُطلِقَ على المؤسَّسةِ العسكريَّةِ (أي القواتِ المسلَّحةِ التُّرْكِيَّةِ) صِفَةٌ خاصَّةٌ وهي تعبيرهم

---

[176] تُسمّى هذه التركيبة في اللغة التُّرْكِيَّة: Diş hediği.

[177] Her Türk asker doğar.

عنها بِ"مَوْقِدِ النَّبِيِّ Peygamber Ocağı"[178]. كما يُطلَقُ على كلِّ جنديٍّ اسمُ Mehmetçik، أي محمد الصغير، تيمُّنًا باسمِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، واعتقادًا بِأَنَّهُ هو أحد جنوده.

إنَّ كُلَّ شابٍّ يبلغُ سنَّ العشرين، يتلقَّى إشعارًا من شُعبة التجنيد، يُطلَبُ للالتحاقِ بمقرِّ التدريب العسكريِّ. وما إن يصلُهُ الإشعارُ حتَّى تَهتزُّ أسرتُهُ فرحًا واعتزازًا، ويُذاعُ "الخبرُ السعيدُ" في الجوارِ فورًا، فيجتمعُ رِفاقُهُ من شبابِ الحيِّ، ويقيمون سهرةً لتهنئَةِ صاحبِهِمْ، يُخْضَبُ يداه بالحنَّاءِ ابتهاجًا بأنَّ الأسرةَ مستعدَّةٌ لتضحيَةِ ولدِهَا في سبيلِ الوطنِ الغالي، إذ في الخضابِ بالحناءِ معنىً يرمزُ إلى الإفتداء وتقديم القرابين للآلِهَةِ عند الأتراك قبل إسلامِهِمْ، ذلك أنَّ الحناءَ لونُهَا قريب من لونِ الدَّم. ثمَّ يحضرُ رِفاقُهُ لوداعه. كذلك يحتفلون لاستقبالِهِ عند انتهاءِ فترةِ التجنيدِ وعودتِهِ إلى مقرِّ إقامتِهِ.

هذه العادةُ، ازدادَ الإهتمامُ بها بين السواد التُّرْكِيِّ بصورةٍ متمايزةٍ خاصَّةً في السنين الأخيرة، كما شاعتْ معها عادةُ تعليقِ الْعَلَمِ التركيِّ على نوافذِ البيوتِ والسيَّارتِ وأماكِنِ العملِ في جميعِ الأوقاتِ. ويبدو أنَّ الأتراك يُعبِّرونَ بهذه الظاهرة أنَّهم متمسِّكون بالوحدةِ الوطنيَّةِ بقيادةِ العنصرِ التُّرْكِيِّ، وغلبةِ الصِّبغَةِ التُّرْكِيَّة على هيكل الدولة، وأنَّهم مستعدُّون للقتالِ والإفتداءِ في سبيلِ هذه الْبُغْيَةِ خاصّةً ضدَّ التحدِّياتِ التي تَتَمَثَّلُ في الصحوة الكرديَّةِ.

هذه الظاهرةُ تكرَّرَتْ ولا تزالُ، وبأسالبَ متطرِّفةٍ وبشكلٍ ملحوظٍ يوميًّا منذ بدايَةِ حركةِ الإنشقاقِ إبَّانَ الحربِ التي جرتْ بين القواتِ المسلَّحَةِ التُّرْكِيَّة وتنظيمِ المقاومة المعروفة بعنوان PKK. على مدى ثلاثِينَ عامًا. ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه الممارساتِ كانتْ على سبيلِ الشماتَةِ بالأكرادِ في أغلبِ الأحوال.

---

[178] كلمة الموقد (أوجاق Ocak)، لها معانٍ في اللغة التُّرْكِيَّة: تُطلق بمعنى موقدِ النارِ وَالْمِدْفَئَةِ، وتأتي بمعنى المحجرِ والمنجمِ Taş ocağı, kireç ocağı، ولكنْ لها معنىً آخرُ اصطلاحِيٌّ مقدّسٌ قديمٌ، يمتدُّ إلى القرون التي كان آباءُ الأتراكِ يعبدون النارَ ويحتفلون بمواقدها في العهدِ المجوسِيّ. من آثار هذه العادة أن كثيراً من أهل الأريافِ لا يُطفئون النار برشّ الماءِ عليها توقيرًا وإجلالاً لقداسة النارِ، بل إذا أرادوا أن يُطفِؤُها طمروها بطبقةٍ من الرماد.

ويُطلق (عند العامّةِ) على المؤسّسةِ العسكريةِ اسمُ "عَسْكَر أُوجَاغِي Asker ocağı". تقديسًا لها. كما كان يُطلَقُ على وحدة الجيش الخاصّ بحراسةِ القصرِ السلطانِيّ والأُسرةِ المالكةِ، وَأَمْنِ مدينةِ القسطنطنيةِ في العهد العثمانِيّ: "الجيش الإنكشاري Yeniçeri Ocağı".

يقول المثقّفُ العربِيُّ عبد الرحمن الكواكبي: "وإنهم (يقصد الأتراك)، أتوا الإسلامَ بالطاعةِ العمياءِ لِلْكُبَرَاءِ، وبخشية الفلكِ أب المصائب، وباحترامِ مواقد النيران (أوجاقات)، فزادوا بذلك بلاّتٍ في طين الخرافاتِ". (عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: محمد عمّارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ص/**325**. بيرت–**1975**م.)

لقد أخطأَ الكواكبِيُّ في تعميمه هذا، إذ أن الأتراكَ ليس كلُّهم خُرَافيّين، بل فيهم قلّةٌ حنبفةٌ صالحةٌ من أهل التوحيد الخالصِ، يحذرون مواقع الإشراكِ فيتعرّضون من جرائه لاضطهادٍ شديدٍ على يد بيني قومهم، ولكنهم لا يخافون لومة لائم ولا يتهيَّبون بطشَ ظالِمٍ في الثبات على توحيدِ الله الذي لا شريك له.

هذا، ومن الْمُثِيرِ؛ أنَّ المؤسَّسةَ العسكريَّةَ لا تحفل بهذه العادةِ ولا تُوليها أيَّ اهتمامٍ ولا قيمةٍ، ذلك لِتَمَسُّكِها الشدِيدِ بالفكرِ الْعلمانِيِّ، وَلأَلاَّ تترُكَ بابًا لأيِّ نشاطٍ يتَّسمُ بِشَمَّةٍ دينيَّةٍ ولو كانت ممارسة خُرَافَةٍ أو قوميَة.

أمّا القطاعُ الكردِيُّ، فليس لِهذِهِ العادةِ عندَهم من أثرٍ، بل إذَا عادَ الشابُّ الكردِيُّ بعد قضاءِ الفترةِ الإلزاميَّةِ، وَاسَاهُ كلُّ مَنْ لَقِيَهُ بقوله: "جَفَايِ تَهْ كَفَّارَتِي گُنَهَانْ بِي". أي: ما تكبَّدْتَ من الأَذَى، جعلهُ اللهُ كفَّارةً لِذُنُوبِكَ. وهذا يعني في اعتقادِهم أنَّ الشابَّ لم يفعلْ شيئًا يُثَابُ عليه. بل مَا أصابَهُ من التعبِ في أثناءِ التدريبِ العسكرِيِّ كان مجرَّدَ أذًى قد يُمْحَى بِهَا بعضُ ذُنُوبِهِ.

من عاداتِ الأتراك ذاتِ الصلةِ بأيَّامِ جاهليَّتِهِم التي أُضفِيَ عليها ستارٌ إسلامِيٌّ، ولا تزال مرعِيَّةً في الأريافِ: أنَّهم يمتنعون عن إجابَةِ من يطلبُ النارَ أو الْمِلْحَ أو الخميرةَ بعد صلاةِ المغربِ اعتقادًا منهم: أنَّ ذلك يجلبُ الفقرَ، ويُذهِبُ بالبركةِ. ومن هذه العاداتِ أيضًا: أنَّ الشخصَ يرفضُ تزويدَ مَنْ يطلب البذرَ قبل أن يكون هو قد باشر الزراعةَ من منطلَق نفس المعتَقَدِ. ومن هذه العاداتِ أيضًا: أنَّ اليومَ المحدَّدَ للغسيلِ هو يوم الخميس، وأمَّا عمل الغسيل يوم الجمعةِ فَيُعَدُّ من الشؤم. ومن هذه العاداتِ أيضًا: أنَّ المنْزلَ الجديدَ، لا تنتقل إليها الأسرةُ إلاَّ بعد أنْ يُدْخَلَ فيه شيئًا من الدقيقِ، أو الأرزِ، أو الذرة.. اعتقادًا منهم أن ذلك جالبٌ للرزق والسعةِ والبركة. وإذا وجدوا جماعةً من النملِ قد زحفتْ إلى داخل المنْزِلِ، فسَّروا ذلك بحلولِ اليُمن والبركةِ. ومن هذه العادات أيضًا: أنَّهم إذا غسلوا المولودَ لا يصرفون ماءَ غَسْلَتِهِ إلى دورةِ المياهِ، بل يصبُّونه أرضًا فضَاءً، ويمضون في هذا التصرُّفِ مدَّةَ أربعين يومًا، ثُمَّ يصبُّون كفًّا من الشعير في ماءِ الغسلةِ الأخيرةِ ويرشونه في مستودع الزادِ، اعتقادًا منهم أنَّ أرزاقَهم تزدادُ بذلك في تلك السَّنَةِ. ثُمَّ يخرجون بالمولودِ من البيتِ لأوَّلِ مرَّةٍ ويحملونَهُ إلى مسافةٍ بعيدةٍ، لِيُصبِحَ في مستقبَلِه سائحًا جوَّالاً، طائفًا بالبلادِ، ليحظَى بفضلِ رَحَلاتِهِ فُرَصًا للعملِ، والكسبِ، وأنْ يتمتَّعَ بالهناءِ والعيشِ الرغيدِ.. ومن هذه العاداتِ أيضًا: أنَّهم يجتنبون القعودَ على العتبةِ، كما يُحَذِّرون أطفالَهم أيضًا من القعودِ عليها، "لأنَّ العتبةَ موضعُ جلوسِ الأجنَّةِ والشياطين!".

بالنسبة للعلاقاتِ داخلَ البيئةِ الواحدةِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ والكرديّ؛ فكانت تمتاز على امتداد القرون بحسن التعاملِ، والتعاوُنِ، والاحترامِ المتبادِلِ، حتَّى منتصفِ القرن العشرين. فلما نَشِبَ

النظامُ الرأسْماليُّ مخالِبَهَا في جسدِ المجتمعِ منذ عام 1950م. أخذتِ العاداتُ في التدهور إلى أنْ تنكَّرَ أكثر الناس للقِيَمِ العليا وانتشرت الفتن.

للأعرافِ والتقاليدِ القديمةِ – لا شكَّ – أثرٌ كبيرٌ في إيجابيَّةِ السلوكيَّاتِ الإجتماعيَّةِ. وذلك أنَّ الأتراك والأكرادَ من أقدمِ الشعوبِ التي تعرَّفوا على الدِّينِ الإسلامِيِّ، وتأثَّروا بتعاليمِهِ الحكيمةِ البنَّاءِ، على رغمِ إفسادِهِم للعقيدةِ الإسلاميَّةِ الحنيفةِ! فمهما ظلَّتْ عقائدُهم مشوبةً برسوبات العهدِ الجاهلِيِّ إلاَّ أنَّهم لم يُهمِلوا ما أوصَى به الإسلامُ من حسنِ المعاملةِ، وإكرامِ الضيفِ، وإغاثةِ الملهوفِ، ومساعدةِ المضطرِّ، ومناصرةِ المظلومِ إلى غيرِ ذلك من مكارمِ الأخلاقِ، فتغذى بِهَا الضميرُ الإجتماعِيُّ في البيئتين التُّرْكِيَّة والكرديَّةِ على مدى القرونِ، وظهرتْ ثمراتُهَا خاصَّةً في الأريافِ، حيث استطاعَتِ العشائرُ والقبائلُ أنْ تحافِظَ على كيانِهَا بفضل التعاون فيما بينها.

وممَّا يُبَرْهِنُ على مَدَى التعاوُنِ بين الناسِ في المناطق السُّكَّانيَّةِ للأتراك: عادةٌ لهم تسمَّى: (إِيمَجَه imece)، والأكرادُ يسمَّونَهَا (زِبَارَه zibare)؛ يتَّفقون على أنْ يقوموا جميعًا في كلِّ يومٍ بمساعدةِ أسرةٍ من سُكَّانِ القريَةِ في حَصَادِ محصولِها طوال الموسم، أو بناءِ بيتِهَا، أو حملِ عِبْءٍ من مهامِّها.. فيجتمعونَ في مَزْرَعَتِهَا، أو بَيْدَرِهَا أو في أيِّ موقعٍ من مواقع أَشْغَالِهَا... وينتهون من العمل خلالَ ساعاتٍ قليلةٍ، بينما لم يَتَيَسَّرْ ذلك للأُسرةِ لو قامتْ هي وحدها بهذا العملِ ربما لفترةِ شهر..

هكذا يدور العملُ التعاوِنِيُّ في مَزارِعِ القريَةِ وبَيَادِرِهَا وبَسَاتِينِهَا وغابَاتِهَا وبيوتَاتِهَا ومَشَاريعِهَا المشتركَةِ ومسجِدِهَا.. فينتهون من أعمالِ الحصادِ مثلاً في أيامٍ قليلةٍ، فيستفيدون جميعًا من الوقتِ، كما يزدادون بذلك محبَّةً فيما بينهم، وتلاحُمًا، بفضل الإجتماعِ والحوارِ والاستِئْنَاسِ، وما يتبادلون من الحديثِ والفُكاهةِ والمزاحِ والسباقِ في إظهار الجهودِ، والمنافسةِ في الإنتاجِ أثناءَ هذه النشاطاتِ التعاونيَّةِ.

كانت هذه العادةُ جاريةً بين الأتراكِ والأكرادِ على السواءِ إلى الماضي القريبِ. إلاَّ أنَّ التطوُّراتِ السياسيَّةَ والإجتماعيَّةَ التي اجتاحتِ العالَمَ بمساويها وتعدَّتْ إلى الساحةِ التُّرْكِيَّة، أسفرتْ عن نِزاعاتٍ وصراعاتٍ إيديولوجيَّةٍ وحزبيَّةٍ ومذهبيَّةٍ وطائفيَّةٍ بدوافعِ الأنانيَّةِ والمصالحِ الشخصيَّةِ.. وما جرتْ في السنين الأخيرةِ من القتالِ والتناحُرِ والْهِجْرَاتِ.. غيَّرَتِ الأوضاعَ والأخلاقَ وجَعَلَتْهَا رأسًا

على عَقِبٍ، وقضتْ أخيرًا على هذه العادةِ وعلى مُعْظَمِ العاداتِ الإيجابيَّةِ والسلوكيَّاتِ الإجتماعيَّةِ الطَّيِّبَةِ.

***

كلماتٌ حولَ الطابعِ المتميّزِ للإنسانِ التُّرْكِيِّ الرَّاسِخِ في كيانه.

تَنَبَّهَتِ الأذهانُ إلى التحوُّلات الجذريَّة التي شهدتْها الساحةُ التُّرْكِيَّة، وما حدثَ من انفتاحٍ في سياستِها منذ صعودِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ إلى سُدَّةِ الحُكمِ عام 2002م.؛ والتفتتْ الأنظارُ إلى هذا الحزبِ الذي استطاعَ أن يفوزَ للمرَّةِ الثالثةِ في الإنتخابات الْبَرْلَمانيَّةِ عام 2009م. فاختلفتْ وجهاتُ النظرِ وتضاربتْ الآراءُ خاصَّةً في العالَمِ العربِيِّ حولَ دورِ تركيا، وازدحمتْ الأقلامُ في تفسيره، وتسابقتْ الألسنةُ في المدحِ والذمِّ حِيَالَ مواقِفِها على مدَى موسمِ "الربيعِ العربي"، وكثُرت التساؤلاتُ عمَّا إذا اخترقتْ الدولةُ التُّرْكِيَّة حواجزَ طابِعِهَا العَلْمَانِيِّ المتعارَف؛ وهل رجعتْ إلى حظيرةِ الإسلامِ؛ أو هل عادتْ تتشوَّف للوصايةِ العثمانيَّةِ على العالَمِ العربِيِّ بسياستِها الجديدةِ الحماسيَّةِ ضدَّ إسرائيلَ لكسبِ الشارعِ العربِيِّ والإسلاميِّ؛ أو هل تبحثُ عن مجرَّدِ مصالحِها الخاصَّةِ وتستغلُّ أزماتِ المنطقةِ لترسيخِ نفوذِها و...و...إلخ.

إنَّ الإجابةَ على أيٍّ من هذه التساؤلاتِ والاستفساراتِ المتباينةِ تتوقَّف أصلاً على مجرَّدِ المعرفةِ بالطابعِ الأساسيِّ المتميّزِ الخاصِّ بالإنسانِ التُّرْكِيِّ وتفكيرِهِ الذي لم يتغيَّر منذ القديمِ إلى اليوم. هذه المعرفةُ ضروريةٌ لتفسيرِ المستجدَّاتِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة. وهذا الطابعُ المتأصِّلُ في خلاياه، بل في جِينَاتِهِ، يستمدُّ وجودَهُ من شيئين امْتَزَجَا في كيانِهِ امتزاجَ الملحِ بالماءِ. وهما: الدِّينُ، والقوميَّةُ.

فالدِّينُ عنده وجدانيٌّ أكثرَ منه عمليًّا، ولا يعني هذا بالضرورةِ أنْ يكونَ الدِّينُ هو الإسلامَ دون غيره، بل أيُّ معتقدٍ يستيقنُهُ، لا بدَّ من مدِّ الصلةِ بينهُ وبين القوميَّةِ التُّرْكِيَّة. وهما مصدرُ فخرِهِ واعتزازِهِ الذي لا يشارِكُهُ فيها أحدٌ من غيرِ بني جِلْدَتِهِ. ولهذا أجرَى على الإسلامِ تعديلاً لطيفًا وكساهُ خلعةً من قوميَّتِهِ (وإن شئتَ قل: حَرَّفَهُ) فسماه (الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık) منذ أوَّلِ يومٍ عَرَفَهُ!

وأمَّا القوميَّةُ فهي بِمَنْزِلَةِ ماءِ الحياةِ في جسدِهِ. ولعلَّ مَنْ اكتشفَ لأوَّلِ مرَّةٍ هذه الطبيعةَ التي جُبِلَ عليها الإنسانُ التركِيُّ، هو مصطفى كمال (أتاتورك)، فتعرَّفَ الرجلُ على كُنْهِهَا بِذَكَائِهِ، فاستغلَّها بمهارَةٍ وَلَبَاقَةٍ في كلِّ مواقِفِهِ وانطلاقاتِهِ وسياسَتِهِ الداخليَّةِ، لذلك حقَّق نجاحًا باهِرًا للعقول، وأصبحَ بفضلِ هذا النجاحِ أن يحتلَّ ضميرَ قطاعٍ واسعٍ من الأتراك بصفةِ إلهٍ، كما حلَّ نظامُهُ محلَّ دينٍ تَقَبَّلَهُ المجتمعُ التركيُّ وارتضاه لِنفسِهِ، فاتسعَ صدرُ هذا المجتمعِ لاحتضانِ ديانتين اثنتين: (الْمُسْلُمَانيَّة والأتاتوركيَّة)، كما اتسعَ لعبادةِ إلهين اثنين: (تَانْرِي Tanrı، ومصطفى كمال).

إذنْ لا يمكنُ فَهْمُ أيِّ شيءٍ تَمُتُّ بصلةٍ إلى تركيا، إلاَّ بعد كمالِ الوقوفِ والمعرفةِ التامَّةِ الراسخةِ بهذهِ الطبيعةِ المتميِّزةِ والخاصَّةِ بالعنصرِ التركيِّ. ولهذا قَلَّ مَنْ نجحَ من المحلِّلين السياسيِّين، والصحفيِّين، والأكاديميِّين والمثقَّفين العربِ في تقييماتِهم وتحليلاتِهم للسياسةِ التُّرْكِيَّة ومواقفِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ من المنطقةِ العربيَّةِ، أو مَا يتعلَّقُ بالحياةِ الدينيَّةِ والإجتماعيَّةِ في تركيا. هذا، رغمَ كثافةِ الإتصالات بين الطرفين خاصَّةً منذ العقدِ الأوَّلِ من القرنِ الحادِي والعشرين الذي شهدتْ الساحتان التُّرْكِيَّةُ والعربيّةُ خلالَهُ تطوُّراتٍ وتحوُّلاتٍ وثوراتٍ هائلة.

***

نبذةٌ مِنْ حَقَائِقَ تُمَهِّدُ السَّبِيلَ لِلْمَعْرِفَةِ بِطَبِيعَةِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة وَالْمُجْتَمَعِ التُّرْكِيِّ

أحد مشاهير الكُتَّابِ الأتراك (نجيب فاضل **1904–1983**م.)، قد تناولَ أوضاعَ تركيا عام **1968**م. في عملٍ له نُشِرَ تحتَ عنوان (صورةُ تركيا)[179]. على رغم تحفُّظِهِ الشديدِ وأسلوبِهِ الرمزيِّ المتقبِّضِ، ونصِّهِ الذي حصره ضمنَ أبعادٍ متدانيةٍ محدودةٍ، لا تتخفَّى الظلمةُ القاتمةُ التي خيَّمت على هذهِ الصورةِ الْمُلْتَقَطَةِ لتلك المرحلةِ. إنَّها – لا نبالغُ – إذا قلنا ظلمةٌ وراثيَّةٌ تركها تاريخُ هذا الشعبِ. ذلك لأنَّ اليومَ وليدُ أمسِ. ولهذا، لو استطعنا أنْ نربطَ الأيَّامَ بعضَها ببعضٍ بكُلِّ أحداثِها، لأَخْرَجْنَا جميعَ أسرارِ الماضِي القريبِ والبعيدِ بحذافيرهَا. ولكن هيهات ذلك!.

لا شكَّ في أنَّ لكلِّ حُقْبَةٍ زمنيَّةٍ خصائصَها ومفاهيمَها وملابساتِها الَّتي أفرزتْها ظروفُ تلك الحقبة، ولها أيضًا "منطقُ تَبَدُّلاَتِهَا وأسبابُ تَحَوُّلاَتِهَا المرهونةِ بمواطنِ القوَّةِ وتوازناتِها.." وكلُّ ما يجري عبر حُقبةٍ متجانسةِ الظروفِ، من أحداثٍ وتطوراتٍ وتَحَوُّلاَتٍ، لا يمكن أن تُقرأ إلاَّ في سياقِ حركاتِها

---

[179] Türkiye'nin Manzarası. Toker Publishing, Istanbul-1968

وأدوارِها المرحليَّةِ الخاضعةِ لظروفِها الزمنيَّة المحدَّدة. ولهذا لا يجوزُ الحكمُ عليها إلاَّ بقسطاسٍ لا يتركُ المجالَ للغفلةِ عن تلك الظروف وخصائِصِها.

يتنكَّر التاريخُ في بعضِ مراحلِهِ ويتوارَى بثوبٍ يأبى أن تتعرَّفَ على لونه العيونُ لِحِكْمَةٍ، ربما اقتضتْ أن يفسح المجالَ لِنِزاعِ البشرِ كما كُتِبَ في الأزل؛ وأحيانًا يتراءَى التاريخ في صورةٍ برَّاقةٍ ولكن يواريهِ الإنسانُ هذه المرَّةَ في ثوبٍ من التجاهُلِ، أو الكتمانِ أو النسيانِ، أو التحريفِ والتشويه.. فلا يختلف الأمرُ، فيبقى النِّزاعُ عليه مستمرًّا، تتلاطمُ حوله الآراءُ بالنقاشِ والتأويلِ والتقييمِ والطعنِ، وأحيانًا باللَّعنِ والاستهزاءِ على حسب المواقفِ المتباينةِ من الاستحسانِ والاستبشاعِ. تنطبقُ هذه الحالةُ على مرحلةٍ مضتْ من مسيرةِ تركيا ودخلتْ في نفقِ التاريخ، فظلَّتْ قلَّةٌ تبكي اليومَ عليها تحسُّرًا وإشفاقًا واشتياقًا، تَرى أنَّها "كانتْ مرحلةً زاهرةً تملؤُها السعادةُ، كانتْ أيَّامًا نيّرةً أشرقتْ عليها شمسُ (الزعيم الماجد)، فانقشعتْ بفضلِ بطولاتِهِ وإصلاحاتِهِ السُّحُبُ السوداءُ من آفاقِها، كانتِ الناسُ تتنعَّمُ يومئذٍ بحملِ القُبُّعَةِ على رؤوسهم. القُبُّعَةِ الَّتي تُمَثِّل رمزًا للحضارةِ والرُّقِيِّ والعصرنَةِ.. تحرَّرتْ المراةُ فاستطاعتْ أن تخرُجَ إلى الشارعِ سافرةَ الجسمِ مطليَّةَ الوجهِ، تستعرضُ جمالَها وأنوثتَها بجُرأةٍ وسخاءٍ وهي آمنةٌ على نفسِها.. أُلغِيَتْ الأبجديَّةُ العربيَّة والأذانُ العربيُّ، وتمَّ تطهير اللُّغةِ التُّرْكِيَّة من ألفاظٍ عربيَّةٍ.. كلُّ ذلكَ كانت من رموز الرجعية والتخلُّفِ!" هذه الخلاصة تتمثل فيها رثاءُ قلَّةٍ على تركيا، وقد أوشكَ أنْ تنفلتَ زمامُ الحكمِ من يدِ هذه الشرذمةِ مع بدايةِ العهد الأردوغاني.

بينما تبتسم أكثريّةُ المجتمع التركيّ اليومَ لأنَّها تتمتَّعُ بحريَّةِ التعبير، وتتحدَّثُ بأيِّ لغةٍ شاءتْ، وتتعاملُ بأيِّ عُملةٍ أجنبيَّةٍ دون مخافةٍ أنْ تتعرَّضَ لأيِّ عقوبة...

كتب عددٌ كبيرٌ من الكُتَّابِ عن تركيا بإسهابٍ، كُلٌّ منهم تناولَ الموضوعَ من وجهةِ نظرِهِ بالطبع. وبعضُهم حدَّدَ موضوعَه باختيارِ جبهةٍ معيَّنَةٍ من صورةِ هذا البلدِ. منهم الأستاذ الدكتور: أمْرَه كونغار Emre Kongar، عَنْوَنَ كتابَه بـ(تركيا في القرن الواحدِ والعشرين)، شرحَ فيه البناءَ الإجتماعيَّ للشعبِ التركيِّ؛ ومنهم الأستاذ الدكتور شريف ماردين Şerif Mardin، ألَّفَ كتابًا سمَّاهُ (الدين والسياسة في تركيا)، صدرتْ طبعتُهُ السابعة عشرة عام 2012م. ومن هؤلاءِ الكُتَّابِ الأستاذ الدكتور مَتَه تونجايْ Mete Tuncay، نُشِرَ له كتابٌ بعنوان (التيارات اليساريَّة في تركيا). ومن أهمِّ ما كُتِبَ عن هذا البلدِ كتابٌ اسمه: (وجهُ تركيا المخفي) للكاتبة: نشه دوزيل Neşe

Düzel. طارَ لهذا الكتابِ صيتٌ وحدثتْ له انعكاساتٌ وردودٌ دفعتِ القضاءَ إلى التحقيق مع المؤلِّفةِ. غير أنَّ أروع وأنفس ما كُتِبَ حولَ القضايا الفكريَّةِ والإجتماعيَّةِ والسياسيَّة للدولةِ التُّرْكِيَّةِ والمجتمعِ التُّرْكِيِّ هو الكتابُ الشهيرُ الذي ألَّفه الكاتبُ الأرمنِيُّ سيفان نيشانيان Sevan Nişanyan وسمَّاهُ (الجمهوريَّة الخطأ)"[180]

إنَّ الذين كتبوا عن تركيا هم أضعافُ هذا العددِ، وليس من السهلِ حصرُهم[181]. ومن الكُتَّابِ الأجانبِ ريتشارد تابر Richard Tapper جمعَ عددًا من مقالاتِ كُتَّابِ الأتراك، ونشرَها بعنوان (الإسلام في تركيا المعاصرة)؛ تتناولُ هذه المقالاتُ قضايا اجتماعيَّةً ذاتَ إشكاليَّاتٍ معقَّدَةٍ، مثل: الدِّين والسياسة والأدب والعَلْمَانِيَّةِ.

وإنَّ المكتبةَ التُّرْكِيَّة زاخرةٌ بأمثالِ هذه المؤلَّفاتِ، ولكنَّ أغلبَهَا تتَّسِمُ بهبوطِ المستوَى وسذاجةِ المحتوَى، قاصرةٌ عن تفسيرِ قضايا المجتمعِ، بعيدةٌ خاصَّةً عن ربطِ أسبابِهَا المعروفةِ بالمجهولةِ منها التي دخلتْ في نفقِ الماضِي، وهي غيرُ مجهولةٍ في الواقعِ، بل هي مضبوطةٌ في سجلِّ التاريخِ، تحتاجُ إلى مَنْ يقرئُهَا فحسب. بَيْدَ أنَّ كُتَّابَ اليومِ (من العنصرِ التُّرْكِيِّ) جميعَهُمْ يجهلون اللُّغةَ العربيَّةَ واللَّهجةَ العثمانيَّة. يجهلون قراءَةَ جميعِ الكتبِ المدوَّنةِ بالحروفِ العربيَّةِ. فقد كبَّلهم العجزُ اللُّغويُّ، وحَبَسَهَمُ الفقرُ الثقافِيُّ عن قراءَةِ أيِّ كتابٍ مؤلَّفٍ باللُّغةِ العربيَّة أو بالحروفِ العربيَّة حتَّى وإنْ كانتِ العبارةُ تُركيَّةً. هؤلاء الكُتَّاب هم حيارَى بين المكتباتِ المكتظَّةِ بالكتبِ العربيَّة والعثمانيَّة (في إسطنبول) وبين أحداثِ اليومِ وتطوراتِهِ. إنَّهم عالةٌ على المترجمين، ولا يُعقَلُ أن يتمَّ ترجمةُ هذا الكمِ العظيمِ من المصادرِ في أَمَدٍ قصيرٍ، وقد يستحيلُ نقلُها في المستقبلِ المجهولِ. هذا مع انتفاءِ الكفاءةِ في معظمِ المترجمين، وما يسودُ أعمالَهم من أخطاءٍ جسيمةٍ وقصورٍ بالغٍ وتحريفٍ لا حدَّ له. لذا، لا يكادُ الكُتَّابُ الأتراكُ يستطيعون ربطَ أحداثِ اليومِ بأسبابِهَا القريبَةِ فضلاً عن البعيدةِ منها.. هناك عقباتٌ كبيرةٌ تُعَرْقِلُهُم وتسُدُّ طريقَهم وتمنعُهم عن الإطِّلاعِ بوفرةٍ، وعن توسيعِ نطاقِ البحثِ وإثرائِهِ بغزارةِ الفكرِ؛ آفاقُهم ضيِّقةٌ، وتحليلاتُهُم سقيمةٌ، وَرُؤَاهُمْ ضعيفةٌ... خاصَّةً تحليلاتُهم السياسيَّةُ والإجتماعيَّةُ هزيلةٌ وإستدلالاتُهُم مبتورةُ الجذورِ، وعباراتُهم رُكامٌ مِنَ الحشوِ والفضولِ.

---

[180] Everest Publishing, 7. Edition, İstanbul-2012

[181] وهذا عدد آخر من الكُتَّابِ المعروفين الذين تناولوا قضايا الدولة التُّرْكِيَّة والمجتمع التركي:

Şevket Süreyya Aydemir: İnkılap ve Kadro, Bilgi Publishing. İst-1968
Ahmet Taner Kışlalı: Kemalizm, Lâiklik ve demokrasi, İmge Publishing. İst.- 2007
Can Dündar: Yükselen bir deniz. İmge Publishing, İst. - 2002
Soner Yalçın: Siz kimi kandırıyorsunuz. Dogan Publishing İst. – 2008
Niyazi Berkes: Türkiye'de Çağdaşlaşma: Yapı Kredi Kültür Sanat Y.Tic. AŞ. İst. – 2002.

هؤلاءِ الكُتَّابُ يكادُ جميعُهم يجهلون حتَّى اللاَّحِقَةَ (يَّهْ) في نهايةِ كلمةِ (التُّرْكِيَّة)، ويجهلون لُبَّ النقاشِ الذي دارَ حول هذه الكلمةِ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ أيامَ مصطفى كمال، ولماذا سُمِّيَتِ الدولةُ (الجمهوريَّةَ التُّرْكِيَّةَ Türkiye Cumhuriyeti) وليس (جمهوريَّةَ تُرْكْيَا Türkya Cumhuriyeti) على غرار (ليبيا) و (سوريا) و (بلغاريا) و (روسيا) و (بولونيا) و(بلجيكا) وغيرِها وهي كثيرة!

إنَّ كلمة (التُّرْكِيَّة) في مصطلح اللُّغة: اسمٌ منسوبٌ إلى (التُّرْكِ) واللاَّحِقَةُ التي في آخرها عربيَّةٌ، إلاَّ أنَّ هذه الكلمةَ لم تَرِدْ ضمنَ اسمِ أيِّ دولةٍ أقامَها الأتراك عَبْرَ تاريخِهم، بعكسِ ما يزعمُهُ بعضُ الْمُنْتَحِلِينَ من الكُتَّابِ. بل كانتْ كلُّ دولةٍ لهم تحمِلُ أسماءَ السُّلالاتِ الَّتي حَكَمَتْهَا، مثل الغزنويَّةِ، والسلجوقيَّةِ والعثمانيَّة...كان هذا شأنُ كلِّ دولةٍ؛ كالأمويَّةِ والعبَّاسيَّةِ وغيرِها من الدُّولِ العربيَّة.

غير أنَّ حُمَّى القوميَّاتِ لَمَّا تفاقمتْ في كلِّ أرجاءِ المعمورةِ، خاصَّةً النَّزَعاتِ العروبيَّةِ والفارسيَّةِ والطورانيَّةِ لَمَّا أثارتْ عاطفةَ الشعوبِ في الشرقِ الأوسطِ نحوَ التَّمَايُزِ – قُبيلَ الحربِ العالميَّةِ الأولى –، أصبحتْ ظروفُ المرحلةِ ذريعةً مواتيةً حملتْ الزعيمَ (أَتَاتُرك) على هذه التسميةِ للدَّولةِ الجديدةِ، فسمَّاها «الجمهوريةَ التُّرْكِيَّةَ Türkiye Cumhuriyeti» ربما لحاجةٍ في نفسهِ! مِمَّا يجعلنا نُرَكِّزُ على المماثلة بين هذه الكلمةِ وبين استعمالِ كلمةِ (العربيَّةِ) ضمنَ أسماء بعض الدول في المنطقة.

في الحقيقة ليس هناك ما يثيرَ الاستغرابَ لهذه التسميةِ ما دامتْ القوميةُ أو العصبيةُ هي الَّتي تدفعُ عجلةَ كلِّ حركةٍ سياسيَّةٍ وتُحَدِّدُ كلَّ موقفٍ إديولوجي في عصرِنَا، غير أنَّ لهذه التسميةِ سرًّا يُنْبِئُ عن تباحثٍ وتساؤلٍ يَدُبَّانِ في ضميرِ كلِّ إنسانٍ يؤمنُ بأنَّهُ تركيُّ الأصلِ. وهذا أهمُّ ما يستحقُّ البحثُ عن خلفيَّاتِهِ.

نعم، لا ينبغي أنْ نشكَّ في أنَّ الإنسانَ التركيَّ المثقَّفَ بالتحديد، ينشدُ اليومَ ضالَّتَهُ من وراءِ هذه التسميةِ، يَتَمَثَّلُ ذلك في تساؤلاتٍ عِدَّةٍ تجولُ في خَلَدِهِ، وهذه نبذةٌ يسيرةٌ منها:

1) لماذا أتعبَّدُ بلغةٍ غيرَ لُغَتِي؟

2) كيف تسلَّلتْ آلافُ كلماتٍ عربيَّةٍ وفارسيَّةٍ وغيرِهما مِنَ الألسنةِ فَانْحَشَدَتْ إلى لُغَتِي؟[182]

3) لماذا استعملَ علماءُ التُّرْكِ القدماءُ (من أمثالِ التافتازانِيّ، وَالنَّسَفِيّ والفَخْرِ الرازيّ، والْمَاتُرِدِيّ، والزَّمَخْشَرِيّ، وابنِ سيناءَ وغيرِهم...)، لماذا استعملوا اللُّغةَ العربيَّةَ في مؤلَّفاتِهم ونشاطاتِهم العلميَّةِ ومَرَاسلاتِهم، ولم يستعملوا مَكَانَهَا اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ؟

4) ماذا تعني كلمةُ (أناضول)، الَّتي هي الإسم الأساسيُّ التاريخيُّ لهذا الوطن الذي أعيشُ اليومَ على أرضِهِ؟ هل هي مُحَرَّفَةٌ من (Anatolia) اليونانيَّةِ، أم هي بمعنى «تَكْثُرُ فِيهَا الأُمَّهَاتُ» (في اللُّغة التُّرْكِيَّة) كما اعتمدهُ (أتاترك) وعَلَّمَهُ ملايينَ المدرسين قهرًا وبطريقِ غسلِ الأدمغةِ منذ ثمانين عامًا؟!

5) لماذا تختلفُ لُغَتِي عن لُغاتِ بَنِي جِلْدَتِي في الوطنِ الأمّ (في تُرْكِسْتَان)، ولماذا تختلفُ الأبجديةُ الَّتي نستعمِلُها في تركيا عن أبجدياتهم، (بخلافِ العربِ)، ولماذا لا أفهمُ مُعْظَمَهُمْ إذ يحدِّثونني بلغاتهم؟

6) لماذا أَلْغَيْنَا الأبجديَّةَ العربيَّة واعتمدنا الأبجديَّةَ اللاَّتينيَّةَ بعد ألفِ سنةٍ من اعْتِنَاقِنَا للإسلام، أليس لنا أبجديَّةٌ خاصَّةٌ؟

إنَّ هذا القدرَ يكفي أن يؤكِّدَ لنا بأنَّ هذه التساؤلاتِ، قد تمتدُّ وتتسلسلُ إلى حدٍّ يضيقُ عنها الصدرُ، ويَمَلُّ من تَعْدَادِهَا الباحثُ والقارئُ. مع هذا يجبُ علينا حتمًا أن لا ننسى: أنَّ قِلَّةً مِنْ أبناءِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ لا تَهْتَمُّ بهذه التساؤلاتِ، ولا تعتدُّ بها أبدًا (لو لاَ أنْ تعرَّضتْ لِمُضَايَقَةِ فريقينِ خطيرينِ يتنافسانِ على المسرحِ السياسيّ)! وسنعرضُ لهذا الواقعِ عبرَ تحليلٍ وجيزٍ بالمناسبةِ فيما بعد.

تركيا وطنَنَا الذي ورثناهُ من آبائِنا، وُلِدْنَا على أرضِهِ، ونشأنا وتربَّيْنَا بين أحضانِهِ الدافئَةِ. من حقِّنَا أنْ نُحِبَّ هذا الوطنَ الذي عاشتْ عليه أجيالٌ من أسلافِنَا بينهم رجالٌ صالحون، مضتْ على أرضِهِ حياتُهم، وأثمرتْ فوقَ ساحاتِهِ جهودُهم وأحلامُهم. نقلوا إلينا القِيَمَ الساميةَ على قلَّتهم، وَحملوا

---

[182] سجّل الكاتبُ الأرمِنِيُّ الأصلِ سيفان نيشانيان Sevan Nişanyan على غلاف قاموسٍ ألفه وسمّاه SÖZLERİN SOYAĞACI (أي شجرة أنساب الكلمات)، سجل تعريفًا ملخّصًا وَضّحَ فيه المناهلَ التي استقتْ منها اللُّغَةُ التُّرْكِيَّة فتكونَتْ من الألفاظِ المأخوذةِ منها عبر **3000** سنة. جاءَ في هذا التعريف أنَّ عددَ اللُّغاتِ التي استعارتْ منها اللُّغةُ التُّرْكِيَّة: يبلغ **120** لغةً؛ وأنَّ عددَ الكلماتِ المأخوذةِ من هذه اللغات: يبلغ **12000**، كلمة. كما ادّعَى المؤلّفُ في ثنايا مقدِّمَتِهِ: أنّ نسبةَ الألفاظِ ذات الأوصول التُّرْكِيَّة لا تعدو عن **15** أو **20** % من مجموعِ الكلماتِ الّتي تتألّفُ منها اللُّغة التُّرْكِيَّة. أثار هذا الإدعاءُ ضجةً واسعة النطاقِ واستنكارًا شديدًا في أوساط المثقفين الأتراك ضد المؤلف.

رسالةَ الإسلامِ الخالدةَ عبر قرون، وَتركوا لنا تاريخًا خافلاً بأحداثٍ تقدِّمُ لنا دروسًا نعتبرُ بها اليومَ في مواجهةِ تَقَلُّبَاتِ الحياةِ ومشاكِلِهَا.

ما أغلى الوطنَ وما أحلاهُ إذا استطاعَ أبناؤُهُ أنْ يتعارفوا ويتفاهموا على أرضهِ مترابطين فيما بينهم متعاونين على البرِّ والتقوى، متَّفقين ومتلاحمين في جميعِ المواقفِ خاصَّةً لأجلِ الحفاظِ على الوِفاقِ والإخاءِ والسلامِ الدائمِ.. ما أحلَى الوطنَ إذا انقشعَ ظلامُ الجهلِ عن أجوائِهِ وأضاءتْ على آفاقِها شمسُ المعرفةِ..

ولكنَّ هذا الوطنَ، هل يتمتَّعُ سكَّانُهُ اليومَ في الحقيقةِ بما نحلُمُهُ من التفاهُمِ والتسامُحِ والتئازُرِ؟ هل يحظَى المواطنُ ما يستحقُّ من حُرِّيَّةِ التعبيرِ وفُرصةِ العملِ وحقوقِ الإنسان؟ هل اختفتْ الطبقيَّةُ والمحسوبيَّةُ والارتشاءُ والاستغلالُ والطُّغيانُ الرأسماليُّ؟ هل قُضِيَتْ على الاتِّجارِ بالدِّينِ واستغلالِ الضميرِ وغسلِ الدماغِ وسباقِ الإديولوجيات؟ هل يغبطنا الأجنبِيُّ على ما نحن فيه من وحدةٍ في العقيدةِ وقوَّةٍ في الشكيمةِ ورحمةٍ بالضعفاءِ ونصرةٍ للمنكوبين، وهل يحترمُ بعضُنَا البعض؟ هل نأخذُ بأسبابِ التطوُّرِ العلمِيِّ، ونبذلُ جهودَنَا في استخدامِ الوسائلِ المباحةِ للرُّقِيِّ والتقدُّم؟ هل نحذرُ ونترفَّع عما يُخِلُّ بِالمروءَةِ والأدبِ، ويخدشُ الحياءَ... سوف نعثرُ على الإجابَةِ الصحيةِ على كل سؤالٍ من هذهِ الأسئلةِ عبر سطورِ هذا الكتابِ إنْ صَبَرْنَا على قرائتِها مع تركيزٍ وتأمُّلٍ وتفقُّهٍ وتعقُّلٍ وتَدَبُّرٍ وَاعْتِبار...

تركيا –في الحقيقة– بلدٌ غريبٌ، مليءٌ بالعجائبِ والغرائب، والتناقضات؛ "بلدٌ ديمقراطيٌّ، حُرٌّ، مُزْدَهَرٌ" بمنظرِهِ الخارجيِّ! شعبُهُ حريصٌ على النظافةِ، مطيعٌ لمن يتولاَّه ما دامَ مُعتَزًّا بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّة (ولو كانَ يهوديًا!) ولكن تتلاطمُ في بطنِ هذا البلدِ تيَّاراتٌ عِرقيَّةٌ، ومنظماتٌ سرِّيةٌ، وجماعاتٌ صوفيَّةٌ متطرِّفةٌ، وعاداتٌ ومعتقداتٌ رهيبةٌ من الإشراكِ باللهِ، وخُرَافِيَّاتٌ، ودجليَّاتٌ، وأساطيرُ، وبِدَعٌ، وأباطيلُ لاحصرَ لها... تحكُمُها شَرِكَاتٌ عميلةٌ للحلفِ المسيحيِّ–الصهيونِيّ؛ تتناوبُ في احتكارِ سلطتِها – من مرحلةٍ إلى أخرى– حكوماتٌ تختلفُ سياسةُ بعضِها عن بعضٍ اختلافَ الماءِ والنارِ، وهذا ما يُرْبِكُ المثقَّفَ العربِيَّ وهو متشوِّشُ الفكرِ أمامَ كلِّ ما يشاهدُ في هذا البلدِ ولا يدرِي كيفَ يُبدِي رأيَهُ عمَّا يَرَى ويسمعُ من أمورٍ متناقضةٍ، وأفكارٍ متعارضةٍ، ومعتقداتٍ متشاكسةٍ... كما ينبهرُ السائحُ العربِيُّ المسلمُ أمامَ المعالِمِ التاريخيَّةِ الَّتي تسحرُ العيونَ في أنحاءِ إسطنبول بخاصَّةٍ،

وهو خالي الذهن من كلِّ ما قد جرَى خلالَ الثمانين سنةً الأخيرةِ من تَغَيُّرَاتٍ وَتَبَدُّلاَتٍ جَذْرِيَّةٍ في هذا البلد.

تركيا بلدٌ شعبُهُ مُسلمٌ (هكذا يعرفُهُ الإنسانُ العربيُّ!)، تنتشرُ في أرجاءِها مدارسُ دينيَّةٌ، وشعائرُ إسلاميَّةٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ صباحَ مساءَ... غير أنَّك لا تجدُ شخصًا (إذا سَأَلْتَهُ عن دِينِهِ، أنْ يُجِيبَكَ: "أَنَا مُسْلِم")، إلاَّ أجابَك "الحمد للهِ أَنَا مُسْلُمَانْ elhamdülillah ben müslümanım**". ولا تُسَلِّمُ على أَحَدٍ منهم (أَنْ يَرُدَّ عليك: عَلَيْكُمُ السَّلاَم)، إلاَّ ردَّ عليك بلهجتِهِ الخاصَّةِ: "عَلَيْكِمْ سَلاَمْ** aleyküm selam**". ربما لم يستطعْ أحدٌ من العلماءِ حتَّى الإمامُ الجْزَرِيُّ[183](إمامُ قُرَّاءِ الأمَّةِ) الَّذي أقامَ في تركيا سنين، لم يستطعْ أنْ يُقَوِّمَ هَذَا اللِّسَانَ الَّذِي يُنبئُ عن حقائقَ كثيرةٍ، قد يُلَخِّصُهَا لِسَانُ حَالِهِمْ: "أَبَيْنَا إلاَّ أَنْ يَتْبَعَنَا الإِسْلاَمُ، وَلاَ نَتْبَعُهُ!" يبرهنُ على ذلك ما ألصقوهُ بالدِّينِ الإسلامِيِّ من الطرائقِ الصوفيَّةِ، وتأليهِ المشائخِ، وعبادَةِ الأضرحةِ، واحتفالاتِ المولدِ النبويِّ حتَّى في داخلَ المساجدِ، وتحويلِ المذهبِ الحنفيِّ إلى (الحنفانيَّةِ** hanefism**)، وحبسِ القرآنِ بين جدرانِ المساجدِ وأسوارِ المقابرِ، ونذرِ الأضاحي للموتَى، وغير ذلك ممَّا يصعُبُ حصرُهَا... هذه الحالةُ من المشهدِ الدينيِّ والإعتقاديِّ، يصحبُها جوٌّ مشحونٌ بالنِّزاعِ الفكريِّ والعراكِ السياسيِّ.**

إنَّ اختلافَ الأرضيَّةِ الفكريَّةِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ تتميَّزُ بِتَنَوُّعِهَا المتزايدِ وتضارُبِها الشديدِ ربما أكثر منها في أيِّ مجتمعٍ آخر. وقد أدَّى هذا الاختلافُ إلى حدوثِ فجواتٍ عميقةٍ وخطيرةٍ بين الانتماءاتِ الأيديولوجيَّةِ والجماعاتِ الدينيَّةِ والتَّيَّاراتِ الثقافيَّةِ والأحزابِ السياسيَّةِ في التركيب الاجتماعيِّ. ومن أبرزِ ما تمخَّضَ عن هذه الفَجَوَاتِ: اختلافُ مواقفِ الناسِ من التطوُّراتِ السياسيَّةِ وتبِعاتِها التي شَهِدَتْهَا المرحلةُ الأخيرةُ للدولةِ العثمانيَّةِ.

---

[183] الإمام الجزري: هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الدمشقي العمري الشيرازي الشافعي، وكنيته أبو الخير، وأطلق على نفسه لقب "السلفي"، ولكن يبدو من ترجمته أنه لم يكن سلفيًّا، بل كانَ صوفِيًّا! ولد عام **751** هـ الموافق**1350**م. و توفي سنة **833** هـ. الموافق **1429**م. اتجهت نفسهإلى علوم القراءات فبرع فيها. طاف مدنًا كثيرةً في العالم الإسلامي. كان غزير الإنتاج في ميدان التأليف، تجاوز عدد مصنفاته التسعين كتاباً. سافر إلى المملكة العثمانية فارًّا من بطش قُطْلُ بَك أَيْتَمُش، فاستقبله السلطان العثماني يلدرم بايزيد (**1360–1403**م.) بن مراد الأوّل، فإكرمه وعظمة، فإقام الجزريُّ سنين في مدينة بورسا، يدرّسُ التجويد والقراءات. ولكن لم يثبت أن تخرّج عليه أحد من تلامذته الأتراك، يدل على هذه الحقيقة أسماءُ تلامذته المشهورين في كتب التراجم.

من هذا المنطَلَقِ اعتادتْ أَلْسِنَةُ آلافِ المثقَّفِين من القطاعِ العلمانِيّ على الذَّمّ الشديدِ وإلقاءِ اللاَّئمَةِ على حُكَّامِ المرحلةِ الأخيرةِ للدولةِ العثمانيَّةِ بأنَّ أيَّامَهُمْ كانتْ عهدَ استبدادٍ بالْحُكمِ، وأيامَ بؤسٍ وشقاءٍ انتشرتْ فيها الفتنُ والفسادُ، وسادَ الفوضَى على جميعِ أرجاءِ المملكةِ العثمانيَّةِ.. يأتي هذا الوصفُ من الاستبشاعِ والتقبيحِ على غرارِ ما وَرَدَ بقلمِ الكاتبِ العربِيّ انيس المقدسي، حيث يقول: "إنَّها كانت مرحلةً ظلَّتْ بنجوةٍ من التَّيَّارِ الحضاريّ المندفعِ إلى الأمام. وهكذا تسرَّبتْ إليها عواملُ الضعفِ، فقدتْ مع الزمانِ سَطْوَتَها الحربيَّةَ ومكانَتَها السياسيَّةَ. ولم يَبْزُغْ فجرُ القرنِ التاسع عشر حتّى كانتْ قد أصبحتْ واهنةَ الْقُوَى، يسودُها الإضطرابُ ويهدّدها الإنحلالُ"[184].

بينما يختلفُ الكاتبُ الأرمنِيُّ سِيفَان نِيشَانْيَان Sevan Nişanyan مع جميعِ الْكُتَّابِ العلمانيّين الأتراك المناهضِين للإسلامِ (رغم أنَّهُ علمانِيٌّ شديدُ العلمنةِ، ومُلْحِدٌ جرِيءٌ استطاعَ أن يُعلِنُ إلْحَادَهُ على رؤوسِ الأشهادِ في ربوعِ المجتمعِ الْمُسْلُمَانِيّ الْمُتَزَمّتِ!) يختلفُ نيشانيان مع (أشباهِ أنيسِ المقدسي) بخاصَّةٍ من صنوانِهِ الكماليّين الأتراكِ في تقييمهِ للمرحلةِ الأخيرة من الحكم العثماني، فيقول: "كُلُّنَا نشأنا في مناخٍ فكريّ يتبنَّى التعريفَ بالقرنِ الأخيرِ من الحكمِ العثمانِيّ بأنَّه كانَ عهدَ تخلُّفٍ وانحلال. لكنَّني كُلَّمَا وجدتُ فرصةَ التّجْوالِ في أنحاءِ أناضول فترةً من الزمن، اضطررتُ أنْ ألتقيَ في كلّ خطوةٍ عدمَ الكِفَايَةِ في هذا الموديل (أي في الْخُطَّةِ الجديدةِ للعهدِ الجمهوريّ، بعكسِ فترةِ ما قَبْلَهَا). إنَّ القرنَ الذي سبقَ العهدَ الجمهورِيَّ، قد انعكس – في الحقيقة – على المناطق النائية للساحة التُّرْكِيَّة كعصرِ ازدهارٍ وتقدُّمٍ لا يُسْتَهَانُ به. إنَّ مَشاهِدَ تلك المرحلةِ بآثارِها الباقيةِ إلى يومنا، كانتْ تشير إلى مِسحةٍ واضحةٍ من التقدُّمِ والتفاؤلِ بدءًا من معالمها العمرانيَّةِ، إلى وسائلها الخاصَّةِ بالحياةِ اليوميَّةِ وإلى مؤسَّساتِها... أمَّا بالنسبة للعقودِ الثلاثةِ الأولى من العهدِ الجمهورِيّ، فإنَّها لم تأتِ بشيءٍ إلى المناطقِ النائيَةِ غير الركودِ، بل غير الإنهيارِ والإنحلالِ من الناحية الإقتصاديَّةِ والثقافية."

إنَّ هذه المشاهدة التي نبتت كارتيابٍ غامضٍ في البدايةِ، تحوَّلتْ مع الزمانِ في ذهني إلى يقين تام. بدأتُ بعد ذلك أفكّرُ في أسبابِ بعضِ الجبهاتِ لِعاصفةِ التطوُّرات التي عاشتْها تركيا منذ **1950**م.، فأيقنتُ أنَّهُ لا ينبغي التباحثُ عن صلةِ هذه التطوُّرَاتِ بما بعد **1950**م.، ولا بما قبل **1914**م. بل يجبُ ربطُها بالفترةِ التي بينهما"[185].

---

[184] أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة. ص: **12**. دار العلم للملايين، الطبعة الرابع. بيروت–**1984**م.

[185] هذا نصُّ (كلماتِهِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّة)، الذي عَرَبْنَاهُ فيما سبق:

***

مُقَوِّمَاتُ الْعَقْلِيَّةِ التُّرْكِيَّة وَبواعِثُ التَّطَرُّفِ فِي الْمُجْتَمَعِ التُّرْكِيِّ.

إنَّ لكلِّ فردٍ أو مجتمعٍ سلبيَّاتٍ وإيجابيَّاتٍ، تكادُ تستحيلُ المقارنةُ بينهما بقصدِ الحُكْمِ له أو عليه. وقد تطغَى صفةٌ من صفاتِه على كلِّ ما يُعرَف عنه من مَحْمَدَةٍ أو مَذَمَّةٍ، وهذا أمرٌ نسبيٌّ لا يكون حُجَّةً له أو عليه أبدًا، إلاَّ إذا اشتهرَ بصفةٍ أجْمَعَ أغلبُ أهلِ الإختصاصِ على أنَّها تُمَيِّزُهُ من بقيةِ الْمِلَلِ والنحلِ. فلم نسمعْ حتَّى اليوم أنْ اتَّفقَ العلماءُ والباحثون على إشْتِهَارِ مجتمعٍ عن بكرة أبيهِ بفضيلةٍ أو قبيحةٍ أثبتُوها بالحجج العلميَّةِ القاطعة، إلاَّ إقوامًا وردت أخبارهم في القرآن الكريم كقوم لوط وعاد وثمود، أهلكهم اللهُ بالعاصفةِ والصيحةِ والخسف.

غير أنَّ الأعرافَ والتقاليدَ وأنماطَ السلوكِ والتعاملِ، قد تَدُلَّ على أهَمِّ خصائصِ المجتمعِ وتُمَيِّزُهُ بِحالٍ عن بقيَّةِ الشعوبِ؛ كما ليس هناك ما يمنعُ الباحثَ المحنَّكَ من التعرُّفِ على حقيقةِ أيِّ مجتمعٍ بمجرَّدِ حصولِهِ على مُعْطَيَاتٍ من خلالِ الحياةِ الإجتماعيَّةِ العلنيَّة الَّتي يمارسُهَا ذلك المجتمعُ بصورةٍ طبيعيَّةٍ في الشارعِ، والسوقِ، والمجلسِ، والْمَعْبَدِ، والمدرسةِ، والْمَلْعَبِ، والْمَلْهَى، والمكتب... ولا حاجةَ له في ذلك أنْ يراقبَ أو يتجسَّسَ من وراءِ ما تُكِنُّه الصدورُ والضمائرُ من العواطفِ والهواجس.

كما لو كانَ معظمُ أفرادِ شعبٍ يكره الأجنبيَّ مخافةَ أنْ يكونَ وطنُهُ يومًا عُرْضَةً لاستيلاءِ الأجانبِ. وأغربُ من ذلك: أنْ ترى السوادَ الأعظمَ للمجتمعِ نفسِهِ – مع هذا التحفُّظِ الشديدِ–، يضربُ مثلاً رائِعًا في الكَرَمِ والجودِ، واستقبالِ الضيفِ بحفاوةٍ، وإنْ كان هذا الضيفُ من مواطنِي دولةٍ عَدُوَّةٍ.

Hepimiz, Osmanlı imparatorluğunun son yüz yılını bir gerileme ve çöküş dönemi olarak tanımlayan bir düşünce ikliminde yetiştik. Yıllar içinde Anadolu'yu gezmek ve tanımak fırsatını buldukça, bu modelin yetersizliğiyle adım adım yüzleşmek zorunda kaldım. Cumhuriyetten önceki yüz yıl, gerçekte Türkiye'nin taşrasına, hiç yabana atılmayacak bir kalkınma ve ilerleme çağı olarak yansımıştı. Dönemin mimarisinden, günlük yaşama ait nesnelerinden, kurumlardan ve anılardan bugüne kalanlar, belirgin bir yükselme ve iyimserlik dönemine işaret etmekteydiler. Cumhuriyetin ilk yirmi-otuz yılı ise, taşraya ekonomik ve kültürel bir duraklamadan, hatta çöküş ve çözülüşten başka bir şey getirmemişti.

Önce belirsiz bir kuşku olarak filizlenen bu gözlem, zamanla zihnimde kesinlik kazandı. Türkiye'nin 1950'den bu yana yaşadığı fırtınalı gelişmede aksak ve yanlış olan bazı yönlerin kaynağını, ne 1950 sonrasında, ne 1914 öncesinde, fakat ikisi arasındaki karanlık dönemde aramak gerektiğini düşünmeye başladım.

سِيفَانْ نِيشَانْيَانْ Sevan Nişanyan، الجمهورية الخطأ، دار إيفيريست، مقدمة الطبعة السابعة، إسطنبول– 2012م.

إنَّ هذا الموقفَ المتشاكسَ، تكاد أنتَ تشهدُهُ في كُلِّ إنسانٍ –تقريبًا– يعيشُ على أرض أناضول، ويؤمن بأنَّه تُرْكِيُّ الأصل. وإذا تيسَّرَ لك أن تحاورَهُ في ظروفٍ تسمحُ له أنْ يَصُبَّ أمامَكَ ما في صدرِهِ بدونِ تحفُّظٍ، تراه يُعدِّدُ لك أعداءَ الوطنِ التركيّ واحدًا واحدًا، من الأرمن واليونان والعرب...إلخ. ويفتحُ لك بابًا من الفتوحاتِ العثمانيَّةِ وبطولاتِهَا، ويقصُّ لك ما قد جرَى من الحروبِ الدفاعيَّةِ عن الوطنِ في بدايةِ العهدِ الجمهوريّ، وعن حربِ الإستقلالِ Kurtuluş savaşı... يبرهن على هذه الحقيقةِ أسماءُ بعضِ المدن الَّتي إضيفتْ إلى كلٍّ منها كلمةٌ لتدلَّ على بطولاتِ سُكَّانِهَا ضدَّ عزو الدُّوَلِ المتحالفة (إنجلترا وفرانسا وإيطاليا) أيَّامَ الحربِ العالميَّةِ الأولى. وهذه الْمُدُنُ، هي بالتحديد: 1) مدينةُ أورْفَا Urfa: مُنِحَتْ صفةَ المجدِ، فأضيفتْ إلي اسْمِهَا كلمةُ (شَانْلِي şanlı) تُدعَى «شانلي أورفا» أي أورفا المجيدة. 2) مدينةُ عَيِنْتاب Antep: مُنِحَتْ صفةَ المجاهِدَةِ، فأضيفتْ إلي اسْمِهَا كلمةُ (غَازِي gazi) تُدعَى «غازي عينتاب» أي عينتاب المجاهدة. 3) مدينةُ مَرْعَش Maraş: مُنِحَتْ صفةَ البسالةِ، فأضيفتْ إلي اسْمِهَا كلمةُ (قهرمان kahraman) تُدعَى «قهرمان مَرْعَش» أي مرعش الباسلة. وإطلاقُ هذه الألقابِ على المدن الَّتي تقعُ على الحدودِ السورية–التُّرْكِيَّة خاصَّةً، لا شكَّ في أنَّه يُنْبِئُ عن تحدٍّ وتباهٍ يعلنانِ عن اعتزازِ الدولةِ التُّرْكِيَّة بنفسِها؛ أنَّهَا لم تَسْتَسْلِمْ للمُحْتَلِّين كما استسلمتْ لهم جميعُ الدولِ العربيَّة!

إذًا يجوز في ضوءِ هذا الاستدلالِ الموثَّق أنْ نقولَ: إنَّ الخوفَ من الأجنبيّ هاجسٌ راسخٌ في كيانِ الإنسانِ التُّرْكِيّ، غالِبٌ على عقليَّتِهِ، يَسْتَحْوِذُ عليه ويُشْغِلُهُ ليلَ نهارَ على مَدَى حياتِهِ، مع أنَّه كريمٌ يستقبلُ ضَيْفَهُ بِحَفَاوَةٍ ولو كان أجنبيًّا، وفي تعامُلِهِ معه لطيفٌ، إذ لا شكَّ في أنَّ الجودَ والكرمَ وحُسْنَ الاستقبالِ للضيوفِ مِنْ أبرزِ خِصَالِ الأتراك. ولكنَّ الذُّعْرَ الذي يستولي على كيانِهِمْ تجاهَ جيرانِهِم يجعلهم يعيشون في قلقٍ مستمرٍّ، ظنًّا منهم، أن بلدَهُمْ هو دومًا على حافةِ الهاويةِ، وَأنَّ الدُّوَلَ المجاوِرَةَ لأرْضِهِمْ تتربَّص بهم الدوائرَ في كلِّ لحظةٍ، وتنتهزُ أدنى فرصةٍ لتنقضَّ على الوطن التُّرْكِيّ وتُبِيدَ العنصرَ التركيَّ عن بكرةِ أبيهِ من دون رحمة!

يبدو أنَّ هذا الخوفَ متأصِّلَ في كيانِ الإنسانِ التركيّ منذُ القديمِ، يبرهن على ذلك دلائلُ ناجمةٌ من هذا الخوف[186]:

---

[186] إنَّ الأتراك – بسبب هذه الهاجسة– قلما يندمجون مع غير بني جِلدتِهم من الأجانبِ وحتى مع المسلمين الذين يختلفون معهم في اللُّغةِ والأعرافِ والثقافة. يبرهن على ذلك المشاكلُ التي تعاني منها أقلِّيَّاتُهُمْ في بعض البلاد، مثل تركمان العراقِ، كذلك جالِيَاتُهُمْ في المهجر. ويشهد على ذلك ما ورد في بعض أجهزة الإعلام من تصريحاتٍ لرئيس وزراء آلمانيا هلموت كوهل، وهذا نَصُّهَا:

1) تأليهُ الزعيم، والاستسلامُ للنُّخْبَةِ.
2) الرُّوحُ العسكريَّةُ.
3) استهانةُ كلِّ شيءٍ يخلو من تمجيدِ الأتراك.

إنَّ هذه الملامحَ سائدةٌ على نفسيةِ أغلبِ الأتراكِ، وهي من الحوافزِ الرئيسةِ الَّتي تستمدُّ منها العقليَّةُ التُّرْكِيَّة منذ القديمِ، وتظهرُ مَعَالِمُهَا إلى العيان لَدَى كلِّ مناسبةٍ؛ فتتبدَّى واضحًا من خلالِ العلاقاتِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ. والأشدُّ خطورةً؛ انعكاسُ هذه العقليَّةِ على مفهومِ الدِّين ممَّا جعلَ العقيدةَ في تركيا عُرْضَةً للاستغلالِ بأبشعِ أشكالِهِ، وسيأتي تفصيلُهُ فيما يلي إن شاء الله تعالى.

ولا يفوتنا بالمناسبةِ أنْ نشيرَ إلى أنَّ العقيدةَ أو ما يقومُ مقامَها هو الركيزةُ الأساسيَّةُ في توجيهِ الحياةِ الإجتماعيَّةِ والسياسيَّة وتحديدِ الأعرافِ والتقاليدِ، وتكوينِ العقليَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ عند كافةِ المجتمعاتِ الإنسانيَّةِ على السواء... فيعودَ الأثرُ بهذا الدورِ مثلاً: إلى اليهوديَّةِ في المجتمع اليهودِيِّ، وإلى المسيحيَّةِ في المجتمعِ المسيحِيِّ، وإلى الإسلامِ في المجتمعِ الإسلامِيِّ، وإلى الشيوعِيَّةِ في المجتمعِ

Germany's Helmut Kohl 'wanted half of Turks sent back'02.08.2013 17:11 9 hour(s) 3 minute(s) ago AA

Former Chancellor Helmut Kohl wanted to halve the number of Turks living in West Germany in the early 1980s, British official papers cited by a German magazine reveal.

According to BBC, he discussed the idea with then UK PM Margaret Thatcher at a meeting in Bonn in 1982, Spiegel Online reported.

Mr Kohl said that Turks "did not integrate well", minutes of the meeting said.

He told Mrs Thatcher he wanted their numbers cut by half within four years.

Speigel Online said the minutes were marked "secret" but have now been released as the period of confidentiality has ended.

"Chancellor Kohl said... that it would be necessary over the next four years to reduce the number of Turks by 50% - but he could not say that publicly," notes from the meeting said, according to the Spiegel Online report.

"Germany had no problems with the Portuguese, the Italians, even the south-east Asians, because these communities integrated well," the notes read.

"But the Turks came from a very distinctive culture and did not integrate well."

The author of the report was said to be Mrs Thatcher's then private secretary, AJ Coles.

Turkish migration to Germany stems from October 1961 when a labour recruitment agreement was signed between the two countries.

Many so-called "guest workers" also came from Italy, Greece, Portugal, Tunisia and the then Yugoslavia.

Mr Kohl, who was chancellor until 1998 and a leader of the conservative Christian Democrats (CDU), often spoke out against immigration during his time in office. However, numbers of immigrants continued to rise steadily.

His office has so far not commented on the Spiegel Online report.

http://www.topnews.az/en/news/77637/Germany39s-Helmut-Kohl-39wanted-half-of-Turks-sent-back39.html

الشيوعِيّ، وإلى الإباحِيَّةِ في المجتمعِ الإباحِيّ... إلخ. وقد يتعرَّضُ الدِّينُ أو الفلسفةُ للتشويهِ مع الزمانِ، فيكون هذا الدِّينُ المحرَّفُ أو الفلسفةُ المشوَّهةُ أيضًا أساسًا لنظامِ المجتمعِ الذي اعْتَنَقَهُ ألبتَّة. كما تحوَّل الإسلامُ في تركيا إلى شكلٍ آخر يُسَمِّيهِ الناسُ منذُ الفِ سنةٍ (الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık)، يتناغمون معها في حياتِهِمْ.

إنَّ مِنْ أهمّ ميِّزاتِ الأتراك: أنَّهم يَلْتَفُّونَ حولَ أيِّ حاكمٍ عليهم مَا دَامَتْ قَدَمُهُ على رِقابِهِمْ، ويؤَيِّدُونَهُ، ويدافعونَ عنه، بل ويفتدون في سبيلِهِ بأموالِهم وأرواحِهم، وحتَّى بِدِينِهِمْ، إذا وجدوا فيه خصلتين:

1) الإعتزازُ الدَّائمُ بالكيانِ التُّرْكِيّ وأمجادِهِ وقوميَّتِهِ.

2) الاستخفافُ بكلِّ ما يخلو مِنْ تفضيل الأمَّةِ التُّرْكِيَّةِ على العالمين.

إنَّ هذه الْمَيِّزَةَ في المجتمعِ التركِيّ، تُثِيرُ كُلَّ مَنْ يطمعُ في الظفرِ بمنصبِ الزعامةِ، تُثِيرُهُ على مُنَافِسِيهِ بأخطرِ أساليبِ النّزاعِ والخلافِ، وَتُعَزِّزُ مَوْقِفَهُ وتُكسِبُهُ مناعةً بعد تَغَلُّبِهِ على غيره... بحيث يستحيلُ على مَنْ يستعدُّ للقبضِ على زِمامِ أمرِهِم، إلاَّ مَنْ تمتَّعَ بالقوةِ، والبطشِ الشديدِ، والمالِ الكثيرِ، والرجالِ والسلاحِ والحِيَل... وهي "هوايةُ انتهازِ الفُرَصِ، وحُبُّ اقتطافِ ثمارِ التغييرِ الاجتماعِيّ، وجَنْيُ ثمارِ التحوُّلاتِ الحضاريَّةِ، وعادةُ القفزِ على الثورات"... لذا يستحيلُ منازعةُ الزعيمِ القائمِ عليهم في حُكمِهِ، أو معارضةُ النُّخْبَةِ من وُرَّاثِهِ وأنصارِهِ حتى بعد موتِهِ، أو حتَّى انتقادُهُمْ بأدنى كلمةٍ. فمَنْ سوَّلَتْ له نفسُهُ أن يقارِعَ الزعيمَ، أو يعارِضَهُ، فأقدَمَ على مواجهتِهِ، سرعان ما زحفَ وانقضَّ عليه المجتمعُ التركِيُّ عن بكرةِ أبيهِ وسحقوه تحت أقدامِهِمْ.

يعاني المجتمعُ التُّركِيُّ من الغُلُوّ في كُلِّ مجالاَتِ الحياةِ تقريبًا، لأنَّ الفئاتِ الَّتي تُسيطرُ على مرافقِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ (خاصَّةً منها التعليميّةِ والدينيّةِ)، تُسَيِّرُ نشاطاتِهَا على أساسٍ من استِغلالِ العاطفةِ وَالدِّينِ، واحتكارِ القِيَمِ الساميَةِ والْمُقَدَّسَاتِ. لذلك قد أصبح الاستغلالُ ظاهرةً منتشِرَةً وجهازًا لا تتحرَّكُ عجلةُ الحياةِ على الساحة التُّرْكِيَّةِ إلاَّ بِهَا، ومن أخطرِ نتائِجِهَا: التَّطَرُّف.

إنَّ التطرُّفَ الذي تتَّسِمُ بِهِ العقليَّةُ التُّرْكِيَّةُ الساذَجَةُ، يمكن حصرُهُ في ثلاثة أَضْرُبٍ: **1**) تَطرُّفٌ دينيٌّ، مَنْشَؤُهُ: الفكرُ الصوفيُّ المتمثِّلُ في الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ المتطوِّرِ من الدِّياناتِ الهنديَّةِ؛ **2**) تطرُّفٌ إِلْحَادِيٌّ، مَنْشَؤُهُ: الوثنيَّةُ المتمثِّلةُ في الديانةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ (الكماليَّة Kamalism)، وهي صنيعةُ السَّبَطَائِيِّينَ، اختلقوها لإرباكِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ، وإقْصائِهِ عن (الإسلامِ التُّرْكِيِّ الْمُشَوَّهِ)، تحسُّبًا لتحوُّلِهِ إلى الإسلامِ الصحيح يومًا مَّا. **3**) تَطَرُّفٌ عَصَبِيٌّ، يتمثَّلُ في الْمُفَاخَرَةِ وَالْمُبَاهَاةِ واستعراضِ بُطولاتِ الأجدادِ وفتوحاتِهِمْ، والانشغالِ الدائمِ بحكاياتِ الملاحمِ، والاعتزازِ بالأمجاد. هذا الشعورُ يملأُ اليومَ صدورَ ملايينِ الأتراكِ المصابين بجنونِ العظمةِ وهَلْوَسَةِ الكبرياءِ تحتَ دافعِ الأيديولوجيَّةِ الكماليَّةِ. يفورُ التعبيرُ عن هذا الشعورِ من أفواهِهم بأدنىَ ذريعةٍ ولَدَى أيِّ مناسبةٍ على سبيلِ الشماتَةِ بِكلِّ مَنْ لا يعتنقُ هذهِ الأيديولوجيَّةَ، علمًا بأنَّ مقاليدَ الحُكْمِ والسلطةِ لا تزالُ بأيدِي هذا القطاعِ، على رغم "الإسلامَوِيِّين" الذين يستعدُّون منذُ بدايَةِ القرنِ الواحدِ والعشرين للإنقضاضِ على الحُكَّامِ السبطائيِّين.

والجالبُ للانتباهِ؛ أنَّ الساحَةَ التُّرْكِيَّة خاليَةٌ اليومَ تمَامًا مِنْ كُلِّ حركةٍ إصلاحيَّةٍ تَتَبَنَّى مكافحةَ هذه الأَشْكالِ الخطيرةِ من الاستغلالِ والتطرُّفِ. ذلك؛ أنَّ هذهِ المُهِمَّةَ تكادُ تكونُ مستحيلةً، لأنَّ كُلاًّ مِنَ التطرُّفِ الدِّينِيِّ والإلحادِيِّ والعصبِيِّ، يسدُّ بابَ الحوارِ على الإطلاق، ويقابلُ كلَّ دعوةٍ إصلاحيَّةٍ بأشدِّ اشكالِ العنفِ! لذا، أَيُّ إنسانٍ يتطوَّعُ لمكافحةِ التطرُّفِ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ، يُوَرِّطُ نفسَهُ في خطرٍ ولو اختارَ أفضلَ أسلوبٍ لأداءِ مهمَّتِهِ.

إنَّ التطرُّفَ قد أَلْهَى قطاعًا كبيرًا في هذا البلدِ عن كُلِّ شيءٍ، وجعلَهم يتخلَّونَ عن جميعِ مَا لهُمْ مِنْ الرصيدِ العلمِيِّ والحضارِيِّ، لأنَّ التطرُّفَ أصلاً مصدرٌ من أهمِّ مصادر القدرةِ الَّتي أضمنتْ لهذا المجتمعِ البقاءَ على مسرحِ التاريخ عَبْرَ القرونِ؛ فالْمَجْدُ عندهم محصورٌ في الفتوحاتِ، والاستيلاءِ على البلادِ، والإعتزازِ بالسيادةِ والقيادةِ ورموزِهَا من الأعلامِ وتماثِيلِ الزعماءِ وأضرحةِ الشيوخِ والملوكِ والسلاطين، وأساطيرِ كَرَامَاتِهِمْ...

فالدولة التُّرْكِيَّة، دولةٌ مقدَّسةٌ "أَبَدِيَّةٌ" في ضمير كلِّ عنصرٍ تُرْكِيٍّ استحوذتْ عليه فكرةُ الاعتزازِ بالأمجادِ، إذ تغمره بحرٌ من دعاياتِ التعظيم والتفْخيم والتأليه لِزُعماءِ الأمَّةِ التُّرْكِيَّةِ وأبطالهَا ووطنِها... لا تُفارِقُهُ هذه الفكرةُ حتَّى عند تناحُرِهِ فيما بينَهُ وبين أخيهِ التُّرْكِيِّ، تجدُ كلاًّ منهما يفاخر

خصمَهُ ببطولاتِ آبائه! تبرهن على هذه الحقيقةِ عباراتٌ وردتْ في مستهلّ التوطِئَةِ لِدُسْتُورِ الدولةِ التُّرْكِيَّة لِعام 1982م.، وهذا نصُّها:

"إِنَّهُ في الآوِنَةِ الَّتِي أوشكَ أنْ تَنْشَبَ حربٌ أهليَّةٌ داميَةٌ مدمِّرةٌ، فتَّاكةٌ بالدولةِ التُّرْكِيَّةِ المقدَّسةِ لم يسبِقْ لها مثيلٌ، وكادَتْ أنْ تُشَتِّتَ وحدةَ الشعبِ التركيِّ وَتُمَزِّقَ وَطَنَهُ الخالدَ الأبديَّ: تمَّ تشريعُ هذا الدستورِ بفضلِ الحركةِ الَّتِي قامتْ بها القواتُ المسلَّحةُ التُّرْكِيَّةُ، وَهي جزءٌ لا يتجزَّأُ من الشعبِ التُّرْكِيِّ، وذلك يوم 12 أيلول 1980م. بناءً على الدعوةِ الَّتِي تَلَقَّتْهَا من الشعب... إلخ"[187]

وَمِنْ أبرزِ ما يُعبِّرُ عن المفاخرةِ بالعصبيَّةِ التُّرْكِيَّةِ كلماتٌ للشاعر التُّرْكِيِّ محمد أمين يورداكول[188] Mehmet Emin Yurdakul (1869–1944م.)، يقول فِي مُسْتَهَلِّ شِعْرٍ له، كما عَرَّبْنَاهُ فيما يلي:

"أَنَا تُرْكِي، دِينِي وَجِنْسِي جَلِيل
صَدْرِي وَكِيَانِي مَليئٌ بِالنَّارِ
إِنَّمَا الإنسانُ: مَنْ كان عبدًا لِوَطَنِهِ
لاَ يَجُوزُ لأَوْلاَدِ التُّرْكِ الرُّكُونُ إِلَى الْمُقامِ، فَأَنَا مُنْطَلِقٌ!"[189]

تتلاطم بهم اليومَ أمواجُ هذه العقليَّةِ: بسببِ غفلتِهِمْ عن ماضيهم وجهلِهِمْ بإنجازاتِ عُلَمَائِهِمْ وَشُعَرَائِهِمْ وَفَنَّانِيهِمْ... فعلى سبيل المثال: لا يكادُ يوجدُ شخصٌ من الأتراكِ اليومَ يعرفُ حرفًا واحدًا من أبجديَّتِهِم (الأبجدية الأورخونية) الَّتِي يزعمون أنَّ آباءَهُم كانوا يستخدمونها في ماضيهم البعيد، ولا يكادُ أحدٌ منهم يعرِفُ أسماءَ المهندسين من آبائهم الذين قاموا بتخطيط مشاريع عظيمة

---

[187] هذا نصُّ العبارات آنفة الذكر، التي وردت في مستهل التوطِئَةِ لِدُسْتُورِ الدولة التُّرْكِيَّة لِعام **1982م.**

«Ebedî Türk vatan ve milletinin bütünlüğüne ve kutsal Türk Devletinin varlığına karşı, Cumhuriyet devrinde benzeri görülmemiş bölücü ve yıkıcı kanlı bir iç savaşın gerçekleşme noktasına yaklaştığı sırada; Türk Milletinin ayrılmaz parçası olan Silahlı Kuvvetlerinin, milletin çağrısıyla gerçekleştirdiği 12 Eylul 1980 harekâtı sonucunda…». T.C. Anayasası 1982.

[188] كلمة (يُورْدَاكُولْ yurdakul): معناها: عبد الوطن، وهي لقبُ الشاعر، يُلَخِّصُ للمتأمِّلِ ما يملأُ صدرَ الرجلِ من أحاسيس غريبة ومثيرة!

[189] وهذا نصُّ كلمات الشاعر محمد أمين يورداكول:

Ben bir Türk'üm; dinim, cinsim uludur;
Sinem, özüm ateş ile doludur.
İnsan olan vatanının kuludur.
Türk evladı evde durmaz giderim.

من القصورِ والجسورِ والحمَّاماتِ وبيوت الضيافة والمساجد، وأشرفوا عليها، وقد أصبحت اليومَ معالِمَ أثريةً في كثير من مُدُنِهِمْ مثل: بُخارَى وسمرقند، وطاشقند، وأَرْض الرُّوم، وأماسيا، وقونيا، وإسطنبول وأخلاط وغيرها...

وممَّا يبرهن على هذه الحقيقة: أنَّ آلافًا من الأتراك (الْمُسْلُمَان)، يدخلون المساجدَ العملاقةَ في إسطنبول كلَّ يومٍ، وهي مزيَّنَةٌ بالآياتِ القرآنيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ، كُتِبَتْ بأروع الخطوطِ العربيَّة، وبأجملِ أساليبِ الفنّ، كُلُّها بأقلامِ فنَّانيهم (ليس لرجلٍ عربيٍّ فيها أثر)، يرمقونَها بنظراتٍ فارغَةٍ، ولا يكادُ أحدٌ منهم يقرأ ويفهم كلمةً واحدةً منها إلاَّ قلة من المتعلّمين والدارسين. يغلب أنَّ ذلك ناشئٌ من هلوسةِ الاعتزازِ بالأمجادِ، وتأليهِ الفاتحين من سلاطينِهم وتقدِيسِ أضرحةِ شيوخِهم..

ومِن جملةِ ما يدلُّ على هذا الاضطرابِ الذي يتقلَّبُ فيه المجتمعُ التركيُّ – على سبيل المثال –: أنَّه لا يكادُ اليومَ يوجدُ منهم شخصٌ يعلمُ شيئًا حولَ حياةِ العبقريِّ المُبدِعِ من أبناءِ هذا القومِ، أحمد شلبي هَزَارْفَنْ Hezarfen Ahmet Çelebi (**1609–1640**م.)، الذي صنع جناحين طارَ بهما من (بُرْجِ جَلَتَا Galata) حتَّى هبطَ في ساحةٍ من منطقةِ أُسكودار بمدينة إسطنبول عام **1632**م.، بعد أنْ مرَّ فوقَ المضيقِ وقطعَ مسافةً تُقدَّرُ بـ **3358** مترًا. ولا أحدٌ من الأتراك يعرفُ اليومَ أدنى شيءٍ عن الجهازِ الذي صنعه أحمد شلبي واستطاعَ أنْ يَطِيرَ به فوقَ مضيقِ إسطنبول، كما لا يعلمُ أحدٌ منهم أين ماتَ هذا الرجلُ وأين قبرُهُ. على رغم هذه الحقيقةِ يُطلقون اليوم إِسْمَهُ على مَطَارَاتِهِمْ لِيُعَبِّرُوا به عن اعْتِزَازِهِمْ: أنَّ عَالِمًا كهذا نبغ في الْفَنّ بين ظهرانهم!

أمَّا عاقبةُ هذا العالِمِ الجليل، وما تعرَّض له من الإهانة والْمِحَنِ، جزاءً بما كسبت يداهُ من الإبداعِ وعجيبِ الفنّ، بَدَلَ أنْ ينالَ بهِ ما يستحقُّ من التشجيع والتقدير والاحترام؛ لهي مِنْ أكبر الدلائلِ على أنَّ الأتراكَ ليسوا مجتمعَ علمٍ ولم يحظوا هذه الصفةَ يومًا من الأيَّامِ. لأنَّ السلطان مراد الرابع العثماني المعاصر لهذا العالِمِ، الذي شاهده من قصره في حَيْرَةٍ بالغةٍ واستغرابٍ ودهشةٍ وانبهارٍ، وهو يطير في الجوِّ، لم يلبَثْ حتَّى أصدرَ الفرمانَ بنفيهِ إلى الجزائر، بعد أنْ قال: "إنَّ هذا رجلٌ يثيرُ الخوفَ، إنَّه يستطيعُ أنْ يصنعَ ما يبدو له، فلا يجوزُ بقاءُ مِثْلِهِ"[190]

---

[190] وهذا نصّ الفرمان باللُّغَة التُّرْكِيَّة:

«Bu adem, pek havf edilecek bir ademdur. Her ne murad eyler ise elinden gelur. Bu dürlü kimesnenin bekaasi caiz olmasa gerekdür.»

تصوَّروا شعبًا صامَ عن الكلام بأدنى لفظٍ عن هذا العالِمِ الفذِّ وأمثالِهِ طيلةَ قرون، ثم عادَ يحاولُ اليومَ ليعتذرَ إليهم – بإحياءِ ذكراهم– عمَّا أصابهم على يدِ أسلافِهِ من الإهانةِ والمحنةِ، وهو منشغلٌ في الوقتِ ذاتِهِ بتأليهِ السلاطين، وبتقديسِ الشيوخِ الذين أربكوهُ بهذه العقليَّةِ المضطرِبَةِ فأوقعوهُ في مثلِ هذا التناقُضِ الغريب!

أمَّا الرُّوحُ العسكريَّةُ الَّتي تتَّسمُ به المجتمعُ التركِيُّ من القديمِ، فإنَّها طبيعةٌ لا تقبَلُ الحوارَ؛ منشأُوُها: الريبُ، وقِوامُها: حبُّ الأمرِ والنهيِ فحسبُ؛ "كُلْ، اشْرَبْ، قُمْ، اِجْلِسْ، اِفْعَلْ، لاَ تَفْعَلْ..." هذه الطبيعةُ مُلاَزِمَةٌ للعنصرِ التُّرْكِيّ أينما وُجِد، وهي بِمَنْزِلَةِ الإيمانِ الراسخِ في أعماقِ كيانِهِ. لذا، يرفُضُ الحوارَ مع كلِّ من لا يَسْتَسْلِمُ لِزَعِيمِهِ، ولا يؤلِّهُ آلهتَهُ، وَلاَ يُمَجِّدُ عَلَمَهُ! تتمثَّلُ هذه الطبيعةُ والروحُ في مقولةٍ للأتراك: ((أَحْبِبْ، وَإِلاَّ ارْحَلْ!))[191]. هذه المقولةُ الشائعةُ في تركيا، تكفِي وَحْدَهَا لِلْبَرْهَنَةِ على الروحِ العسكريَّةِ الراسخةِ في الإنسانِ التُّرْكِيّ.

إذا كُنتَ كُردِيَّ النشأةِ، أو عربِيَّ النشأةِ ولكن تُرْكِيَّ الجنسيَّةِ، فأنتَ إذَنْ تعيشُ بين الماءِ والنارِ، لا مناصَ لك من إختيارِ أحدِ الأمرين: إمَّا أن تَتَبَرَّأَ عن كلِّ ما تَلَقَّيْتَهُ بين أحضانِ أسرتِكَ وعشيرتِكَ، وعن انتمائِكَ المحلِّيَّةِ، وَلُغَتِكَ وثقافَتِكَ... وتُقِرَّ رغمَ أنفِكَ بأنَّكَ تُرْكِيُّ الأصلِ، أو تسكُتَ فيكونَ الأمرُ عليكَ بردًا وسلامًا (لأنَّهُ أمرٌ موجَّهٌ إليكَ من قِبَلِ الشَّارِعِ!). وإمَّا أنْ تغادِرَ الوطنَ التُّرْكِيَّ فتختارَ لنفسِكَ وطنًا آخرَ، فيكونَ الأمرُ عليكَ نكبةً ووبالاً، لأنَّ المادَّةَ رقم: 66 من الدستور التُّرْكِيّ (لِعام/1982)[192] تَنُصُّ – بالحرفِ الواحدِ – على: "أنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مَرْبُوطًا بِالدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة بِحَبْلِ الْمُوَاطَنَةِ فَهُوَ تُرْكِيٌّ"[193]. وللعلم أنَّ كلَّ شيءٍ تمتُّ بصلةٍ إلى المجتمعِ التركيّ، والدولةِ التُّرْكِيَّةِ، مِنْ سِيَاسَةٍ ولغةٍ وعادةٍ وثقافةٍ وفنٍّ بما فيها مفهوم الدِّينِ، والعلاقاتِ الإجتماعيَّةِ بكلِّ أشكالِهَا، تخضعُ لهذهِ الروحِ الَّتي لا تَسَامُحَ ولا حِوَارَ ولا تَفَاوُضَ فِيهَا: "كُلْ، اشْرَبْ، قُمْ، إِجْلِسْ، اِفْعَلْ، لاَ تَفْعَلْ..." ((أَحْبِبْ، وَإِلاَّ ارحَل!))...

نعم، هذا معناه: أَحْبِبْ حتَّى بغيضَكَ، بل أَحْبِبْ حتَّى ما حَرَّمَهُ الله إنْ كان الْحُكَّامُ الكماليُّونَ قد أحبُّوه وقدَّسُوه؛ أَحْبِبْ الْمُثُولَ أمامَ تماثيلِ مصطفى كمال؛ أَحْبِبِ الإشراكَ بالله في كلِّ حفلةٍ رسْمِيَّةٍ؛

---

[191] هذا نصُّ المقولة باللُّغَة التُّرْكِيَّة: «Ya sev, ya terk et!»

[192] يحاولُ الْبَرْلَمَان التُّرْكِيُّ في هذه الأيام (2012) ليغيِّرَ هذه المادةً!

[193] هذه ترجمة المادّة المذكورة: Türk Devleti'ne vatandaşlık bağı ile bağlı olan herkes Türk'tür.

أَحْبِبِ الْمُكاءَ والتصديةَ عندَ كلِّ جنازةٍ تصلَّى عليها في مسجدين لليهود[194]؛ أَحْبِبِ القوانين الَّتِي تُبِيحُ لأيِّ مُوَاطِنٍ (أَنْ يَحَلَّ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ): أَنْ يُحِلَّ ما حَرَّمَهُ الله وَيُحَرِّمَ مَا أَحَلَّهُ اللهُ على رؤوسِ الأشهادِ؛ أَحْبِبِ القانونَ رقم **5816** الذي يَنُصُّ على تأليهِ مصطفى كمال؛ أحبب جموعَ الْمَارِقِين الذين يقومون بتنظيمِ مظاهراتٍ ضخمةٍ بذريعةٍ مَّا ضِدَّ أيِّ حركةٍ إسلاميَّةٍ ويُلْقُونَ – بِكُلِّ حُرِّيَّةٍ – هُتَافَهُم الشَّهِيرَ: "الْمَوْتُ لِلشَّرِيعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ!"؛ أَحْبِبِ الملايين الَّذين لاَ يَنْبِضُ فيهم عِرْقٌ أمامَ هذه الغطرسةِ؛ أَحْبِبْ أَحْبِبْ أَحْبِبْ... وإلاَّ غَادِرْ، إِرْحَلْ، أُخْرُجْ مِنَ الْوَطَنِ التُّرْكِيِّ من غير عودة!!!

هذه الحالةُ الْمَرَضِيَّةُ التي توصَفُ بِ"الإِكْزِينُوفُوبْيَا xenophobia أو رُهَابِ الأَجَانِبِ" في مصطلحِ الطِّبِّ النفسيِّ، رُبَّمَا هي محصورةٌ في قِلَّةٍ متطرِّفةٍ، لا يجوزُ تشميلُها على المجتمعِ التُّرْكِيِّ بعمومِهِ أبدًا! مع العلمِ أنَّ هذِهِ الْقِلَّةَ تربو عن ملايين شخصٍ متكاتِفِين ومُتَمَاسِكِين؛ فيهم قادةٌ، وسياسيُّون، وأثرياءُ، وكثيرٌ من زبالة المجتمع، قابضين على زمامِ الأمرِ، مُتَحَكِّمِينَ في رقابِ المجتمع. هذه القلَّةُ ربَّاها اليهودُ السَّبَطَائِيُّونَ خلالَ فترةٍ من الزَّمَنِ بعد أن أتاحتْ لها الفرصةُ في وسطِ الفراغِ الذي تركتْهُ الدولة العثمانيَّةُ، فتغيرتْ العقليةُ بصورةٍ جذريةٍ. تغيَّرَتْ عقليَّةُ المجتمعِ التُّرْكِيِّ في هذه الفترةِ تحت وطئةِ التطبيعِ الثقافيِّ بِطُرُقٍ متعدِّدةِ الوجوهِ يطولُ فيه الحديث! لا شكَّ في أنَّ هذه العقليةَ ضيِّقةٌ لا تسعَ لاستيعابِ مفاهيمَ عالَمِيَّةٍ، ولا تملكُ الطاقةَ المطلوبَةَ لحملِ قِيَمٍ علميَّةٍ. إنَّمَا عقليةٌ محلِّيَّةٌ بحتةٌ طالَمَا تستهينُ بِكلِّ شيءٍ يخلو من تمجيدِ الكيانِ التركيِّ، يستمرُّ تطبيقُها من خلالِ الدِّيَانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ (Kamalism) الْمُهَيْمِنَةِ على حياةِ الأتراكِ في كلِّ مكان. عقليَّةٌ تؤمنُ بعظمةِ الإنسانِ التُّرْكِيِّ. كُلُّ إنسانٍ غيرِ العنصرِ التركيِّ مَخْلُوقٌ خسيسٌ؛ إمَّا "لِكَوْنِهِ عدوًّا للأتراك؛ كالعربِ والأرمنِ والأكرادِ؛ وإمَّا لكونِهِ مِسكينًا يحتاجُ إلى رحمةِ الأتراكِ؛ كشعوبِ إفريقيا، والمنكوبين في العالَمِ الإسلامِيِّ، واللاَّجئين من العربِ وغير العرب". هذا على حسب ظَنِّهِمْ أو اعتقادِهِمْ.

***

غِيَابُ الْهُوِيَّةِ وَالتَّبَاحُثُ عَنْهَا

لَمَّا أحسَّ الأتراك بخطرٍ عظيمٍ على أَنْفُسِهِم قُبَيْلَ الحربِ العالميَّةِ الأُولى عندما تعرَّض وَطَنُهُمْ لغزوِ الشعوبِ الغَرْبِيَّةِ، وجدوا ضالَّتَهم في نداءِ رهطٍ مِنْ اليهودِ المنتحلين للقوميَّة التُّرْكِيَّةِ من أهالى

[194] مسجد شيشلي، ومسجد تشويقيّة في اسطنبول.

سالونيك، يهتفون بشجاعةِ الإنسانِ التركيّ ليكسبوا ثقةَ الأتراكِ فيستعينوا بهم في القضاءِ على أسرةِ آلِ عثمانَ، وتأسيسِ دولةٍ جديدةٍ على أنقاضِ الدولةِ العثمانيَّةِ. وفعلاً نجحتْ هذه الشرذمةُ في مهمَّتِها. وذلك بالتعاونِ مع الدولِ التحالفِ الثُّلاثِيِّ (إنجلترا وفرنسا وإيطاليا): في الخارجِ، (ومع شبكةٍ من العصاباتِ في الداخل)، فاستطاعتْ أن تَجْمَعَ الأتراكَ تحت زعامتِهَا بنفخِ الروحِ العصبيّ في رُوعِهِمْ. ولمَّا ظفروا بِبُغْيَتِهِمْ وأقاموا الجمهوريَّةَ التُّرْكِيَّةَ وعزَّزوا أركانَ الدولةِ برجالٍ من بطانتِهِمْ، استمرُّوا بِلَبَاقَةٍ في استخدامِ شِعاراتٍ لِتفخيمِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ، فَحَالَفَهُمُ الْحَظُّ أنْ أنْشَئُوا جيلاً يعتزُّ بقوميَّتِهِ إلى أبعدِ الحدودِ. غير أنَّ هذا الجيلَ أصبحَ بعد موتِ زعيمِهِ يبحثُ عن مقوّماتٍ تاريخيَّةٍ تبرهنُ للعالَمِ أنَّ للأتراكِ أمجادًا، وحضارةً مستقلةً عن الحضارةِ الإسلاميَّةِ، فوقعوا في دوَّامةٍ لا يجدونَ مَخْرَجًا منها ولاَ ما يَشفِي صدورَهم. وفيما يلي دلائلُ هذا الأملِ الخائِبِ وهي قطرةٌ مِنْ بحرٍ حالَ بينهم وبين مُبْتَغَاهُمْ.

- وَجَدُوا في تاريخهم؛ أنّ الدُّوَلَ التُّرْكِيَّة، قبلَ الدولةِ العثمانيَّةِ، (مثل الغزنويّين والسلاجقةِ وغيرِها...) قد اعتمدوا اللُّغةَ العربيَّةَ والفارسيَّةَ كَلُغَةٍ رسميَّةٍ للدولةِ، وقد حاروا في تفسيرِ هذا اللُّغْزِ، إذ اتَّفَقَ جمهورُ مؤرخِي التُّرْكِ المعاصرين على أنَّ أوَّلَ مَنِ اعْتَمَدَ اللُّغة التُّرْكِيَّة كَلُغَةٍ رسميَّةٍ للدولةِ هو: الأمير محمّد بك قَرَمَانْ أُوغْلو (**1280**م.). الذي احتلَّ منصبَ الوزارة في دولةِ سلاجقةِ الروم في العاصمة (قونيا) لفترةٍ قصيرةٍ جدًّا، أعلنَ بفرمانٍ له أنَّ اللُّغةَ الرسميَّةَ للدولةِ السلجوقيَّةِ هي اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ بتاريخ: **15** مايو **1277**م. إلاَّ أنَّ المؤرخين يعترفون بأنَّهم لم يعثرو على النصِّ الأصلِيّ لهذا الْفَرْمَانِ حتى اليوم. وإنَّما شاعتْ رواياتٌ بأنَّه وَرَدَ هذا الفرمانُ باللُّغةِ الفارسيَّةِ في تاريخ ابن بِيبِي وهذا نَصُّهُ: "بَعْدَ الْيَوْمِ بَرْ دِيوَانْ، بَرْ دَرْگَاهْ، بَرْ بَارِگَاهْ، دَرْ مَجْلِسْ، دَرْ مَيْدَانْ، چُونْ به زَبَانِ تُوزْكِي زَبَانِ دِيگَرْ نَدَارَدْ"

- اصطدموا باضطرابٍ شديدٍ في لغتِهِمْ، بعدَ أنْ انتبهوا من سُبَاتِهِمْ، فوجدوها قد انتقلتْ من حالٍ إلى حالٍ واكتظَّتْ بآلافِ كلماتٍ دخيلةٍ أخذتْها من **1200** لغةٍ أكثرُهَا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ والفارسيَّةِ، فلم تحظَ باستقرارٍ، كما يختلفُ استخدامُهَا اليومَ بين القطاعاتِ الأيديولوجيَّةِ المتباينةِ في تركيا. فلا تجدُ كاتبًا عِلمانيًّا أو يساريًّا، أو متحرّرًا إلاَّ وهو مشمئزٌّ من الأسلوبِ والألفاظِ الَّتي يستخدمُها الكاتبُ المحافظُ، أو المتمسّكُ بالتقاليد في حوارِهِ ومقالِهِ.

- لم يستخدمْ الأتراكُ أبجديةً خاصَّةً بهم عَبْرَ تاريخهم، بل استخدموا الأبجديَّةَ العربيَّةَ منذ اعتناقِهِمْ للإسلامِ حتى عام **1924**م. ثم استبدلتْها الطُّغْمَةُ السَّبَطَائِيَّةُ الحاكمةُ بالأبجديَّةِ اللاَّتينيَّةِ،

غير أنَّ في هذه الأبجديَّةِ شذوذًا غريبةً عن الحروفِ اللاَّتينيَّةِ؛ فأدَّى ذلك إلى مشاكلَ عَوِيصَةٍ في الكتابةِ الألكترونيَّةِ عَبْرَ الشبكة العنكبوتيَّةِ.[195]

- **يفخرون بوجودِ عددٍ من الأعلامِ الذين ماتوا في بلادِ أناضولَ، على فرضِ أنَّهم من رجالاتِ الأتراكِ، بينما اكتشفوا أخيرًا أنَّهم من غيرِ أصولٍ تُركيَّةٍ، مثل الشاعر الفارسيّ جلال الدِّين الرومي، وهو عربيُّ الأصلِ[196] فارسيُّ النشأةِ، كلُّ مؤلفاتِهِ باللُّغةِ الفارسيَّةِ والعربيَّةِ (وقيل إنَّه كان يكره الأتراكَ، وتعاونَ مع قادةِ الْمُغول ضدَّ السلاجقة الأتراك!)[197].. ومثله آق شمس الدين (شيخ السلطان محمد الفاتح)، وهو عربِيُّ الأصل[198] من سلالة أبي بكر الصديق، نظيرَ جلال الدين الرومي. كذلك خالدُ بْنُ زيدٍ الأنصاريُّ (المدفون في إسطنبول)، وهو من الصحابةِ. كما أنَّ معظمَ وزراءِ آلِ عثمان كانوا من أصولٍ غيرِ تُركيَّة، تَمَّ اقتناؤُهُمْ من بين أطفالِ السُّبِيّ. كذلك جميعُ نساءِ وأمَّهاتِ السلاطينِ العثمانيَّةِ لَسْنَ من أصولٍ تُركيَّةٍ، بل هنَّ سَبَايَا، استولتْ عليهنَّ الجيوشُ العثمانيَّةُ**

[195] إنّ الحكومة التُّرْكِيَّة التي اعتمدتْ الأبجديَّةَ اللاتّينيَّةَ عام **1924**م.، قرّرت ضمَّ خمسةِ أحرفٍ مختلَفَةٍ إلى الحروفِ المقتبسة لسدِّ الضرورات الصوتيَّةِ في اللغةِ التُّرْكِيَّة وهي: (Ç) مقابل (تْشَ)، (ı) مقابلَ (صوتٍ بين e-i تقريبًا)، (Ö) مقابلَ (صوتٍ بين u-e تقريبًا)، (Ü) مقابل (صوت بين u-i تقريبًا)، (Ş) مقابل (شَ)... وقد أصبحت هذه الأحرفُ الخمسةُ مصدرَ أزماتٍ كبيرةٍ في الإتصالاتِ الألكترونيَّةِ بعد ظهورِ وانتشارِ الشبكةِ العنكبوتيَّةِ.

[196] وردت سيرتُهُ الذاتيَّةُ بقلم سمير حلبي يقول: جلال الدين الرومي: شاعر من بين فحول شعراء الصوفية في الإسلام برز اسم الشاعر الفارسي الكبير "جلال الدين الرومي" كواحد من أعلام التصوف، وأحد أعلام الشعر الصوفي في الأدب الفارسي.

وُلد "جلال الدين محمد بن محمد بن حسين بن أحمد بن قاسم بن مسيب بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق" بفارس في (**6** من ربيع الأول **604**هـ = **30** من سبتمبر **1207**م) لأسرة قيل: إن نسبها ينتهي إلى "أبي بكر"، وتحظى بمصاهرة البيت الحاكم في "خوارزم"، وأمه كانت ابنة "خوارزم شاه علاء الدين محمد".

وما كاد يبلغ الثالثة من عمره حتى انتقل مع أبيه إلى "بغداد" سنة [**607**هـ = **1210**م] على إثر خلاف بين أبيه والوالي "محمد قطب الدين خوارزم شاه". وفي بغداد نزل أبوه في المدرسةِ المُسْتَنْصِرِيَّةِ، ولكنَّهُ لم يستقرْ بها طويلاً؛ إذ قام برحلةٍ طويلةٍ زار خلالَها "دمشقَ" و"مكَّةَ" و"مَلَطِيَّةَ" و"آذَرْبَيْجَانَ" و"لاَرَنْدَ"، ثم استقرَّ آخرَ الأمرِ في "قُونْيَةَ" سنةَ [**632**هـ = **1226**م] حيث وَجَدَ الحمايَةَ والرعايةَ في كَنِفِ الأمير السلجوقيّ "علاء الدين كَيْقُبَاذْ"، واختير للتدريس في أربعِ مدارسَ بمدينة "قونية" (الواقعة في تركيا اليومَ) حتى توفي سنة [**628**هـ = **1231**م]، فخلفه ابنُهُ "جلال الدين" في التدريس بتلك المدارس.

[197] وردتْ قصَّةُ علاقاتِهِ بِالْمُغُولِ (التتار) في كتابٍ للأستاذ ميكائيل بايرام Mikail Bayram. تناولَ المؤلِّفُ شخصيَّةَ جلال الدين الرومي وكشفَ جوانبَ هامَّةً من أسرارِ حياتِهِ وعلاقاتِهِ المشبوهةِ مع الشمس التبريزيّ (داعيةِ الإسماعيليّين)، ومساهَمَتِهِ في ارتكابِ جناياتٍ، منها: مقتلُ جُحا، (الشيخ ناصرِ الدِّين أبي الحقائق محمود بن محمّد الخُوئِيّ التُّرْكِيّ المقتولِ سنةَ **659** من الهجرة.). وقد كان علاءُ الدِّين تشلبي (وهو أحدُ أبناءِ جلال الدين الرومي)، كان ينتصرُ لِجُحَا ضدَّ أبيه، فكان هو الآخرُ من ضحايَا الجنايَةِ التي وافق عليها والدُهُ (جلال الدين الرومي). يدلُّ على هذه الحقيقةِ: أنَّه رفضَ أن يحضُرَ تشييعَ جِنَازَتِهِ لِمَا كان يُضمرُ له من الحقده الشديد.

وردت هذه القصّةُ بإسهابٍ في كتابٍ اسمه: Ahi Evren-Mevlana Mücadelesi. نَشَرَتْهُ دارُ NKM، في مدينة قونيا عام **2012**م.

[198] آق شمس الدين (الشيخ شمس الدين الأبيض): من أعلام عهد السلطان محمد الفاتح ومشاهير رجال الدين العثمانيّين. وُلِدَ في دمشق سنة **1389**م ومات في قرية كُويْنُوكْ Göynük من ضواحي مدينةِ بولو Bolu (تركيا) سنة **1459**م. وهو بن حمزة بن علي بن هدية الله بن موسى بن محمد بن شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه (وهو عبد الله) بن قاسم بن سعد بن نضر بن عبد الرحمن بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أثناءَ الفتوحاتِ. ومن الأعلامِ الذين يفخرُ به الأتراك؛ شيخُ المهندسين، المعماريُّ العملاقُ (سِنَانُ الأَغْرِيَانُوسِيُّ) رجلٌ من صُلْبِ رجلٍ أرْمنِيّ من سكَّانِ مدينةِ القيصريَّة، ثمّ جَلْبُهُ إلى المدرسةِ السلطانيَّةِ، فدرسَ فيها واعتنقَ الإسلامَ، وأبدعَ ما أبدعَ من نفائسِ الفنّ المعمارِيّ الَّتي خلَّدتْ ذكرَهُ.

- **يبحث المؤرخون الأتراكُ المعاصرون بحماسٍ شديدٍ عن مصادرَ في التاريخ، ليقتبسوا منها الأدلَّةَ على توثيقِ ماضيهم، فلا يجدونَ مصدرًا واحدًا دوَّنَهُ مؤلِّفٌ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ قبلَ ظهورِ الدولةِ العثمانيَّةِ. وخيرُ مثالٍ يُسلِّطُ الضوءَ على هذه الأزمةِ كتابٌ أَلَّفَهُ معاصرٌ بارزٌ مِنْ أشهرِ الباحثين الأتراك في تاريخ الأمّةِ التُّرْكِيَّةِ: الأستاذ الدكتور زكريَّا كِتَابْجِي Zekeriya Kitapçı، يُلاحَظُ بجلاءٍ من جهودهِ أنَّهُ يحاوِلُ مستميتًا ليوثّقَ ما أوردَهُ في كتابِهِ من الحقائِقِ فلا يجدُ مؤرّخًا من أصلٍ تُرْكِيّ ليقتبسَ منه، فيعودُ خائبًا، ثُمَّ يُسَجِّلُ مجموعةً من المصادرِ، يعود كلُّها إلى المؤرّخين الذين دوَّنوا أعمالَهم باللُّغة العربيَّةِ. وهم: 1) أبو الحسن، أحمدُ بْنُ يحيى بْنِ جابرٍ البلاذُرِيّ (ت. 284 هـ./892م.)، صاحبُ (فتوحِ البلدان)؛ 2) محمّدُ بْنُ جريرِ بْنِ يزيدِ بْنِ كثيرِ بْنِ غالبِ الشهير بالإمامِ أبي جعفرِ الطبرِيُّ (838–923م.)، صاحب (تاريخِ الأمُمِ والملوك)؛ 3) عزُّ الدّين أبو الحسنِ عليُّ بْنُ محمدِ بْنِ عبدِ الكريمِ الجزَرِيُّ المعروفُ بابنِ الأثيرِ (ت. 630 هـ./1232م.)، صاحب (الكاملِ في التاريخ)؛ 4) إسماعيلُ بْنُ عُمَرَ بْنِ كثيرِ بْنِ ضوءِ بْنِ كثير، عمادُ الدّين أبو الفداء، البصروِيُّ، ثُمَّ الدِمِشْقِيُّ، القُرَشِيُّ المعروفُ بابْنِ كثير، صاحب (البدايَةِ والنهايَةِ)؛ 5) أبو محمدٍ أحمدُ بْنُ أعثمَ بْنِ نذيرِ بْنِ الحبابِ بْنِ كعبِ بْنِ حبيبِ الأزدِيُّ الكوفِيُّ، صاحب (كتاب الفتوح)؛ 6) أبو بكرٍ محمدُ بْنُ جَعْفَرَ النارْشَاهِيُّ (تز هـ959/347م.)، صاحب (تاريخ بخارى)[199]؛**

إنَّ هذه الحقائقَ – لا شكَّ – تَرَكَتِ الإنسانَ التُّرْكِيَّ الذي اكتظَّ قلبُهُ وذِهْنُهُ وضميرُهُ بالروحِ العصبِيَّةِ حائرًا مُرْتَبِكًا لا يجدُ شيئًا يبرهنُ بهِ على أصالَةِ أمجادِهِ، بل وجدَ كُلَّ ما لديهِ من التاريخِ والدّينِ والصنَاعَةِ والموسيقَى خليطًا فيها أيدِي عناصرَ أجنبيَّةٍ لا يمتُّ أحدُهُمْ بِصِلَةٍ إلى قومِهِ، فأثَّرتْ هذه الحقائقُ على مشاعِرِهِ حتَّى دفعَتْهُ إلى كراهيةِ العربِ والأكرادِ والفرسِ واليونان والأرمن... ذلك تَهْدِئَةً لما في نفسِهِ من آلامِ الحسرَةِ والأسَى. فبادرَ بإثباتِ هويَّتِهِ وإنقاذِهَا من الضياعِ بطريقِ الإكثارِ من عددِ أوليائِهِ ونُسَّاكِهِ، وتأليفِ مناقِبِهِمْ، وإنشاءِ الأضْرِحَةِ، وتَزْيِينِ القبورِ، ونشرِ الطرائِقِ الصوفيَّةِ، وإقامَةِ طقوسٍ غريبَةٍ على الإسلامِ، وتقديسِ الْعَلَمِ التُّرْكِيّ، وإقامَةِ حفلاتِ المولدِ النبوِيّ،

---

[199] Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler. Prof. Dr. Zekeriya Kitapçı. Konya-1994.

وإنشاءِ صرحٍ عملاقٍ على زعيمهِ، ليطوفَ به ربما تحدّيًا للمؤمنِ الذي يطوفُ "بكعبةِ العربِ" إلى غيرِ ذلك من تناقضاتٍ واستهبالٍ. عملَ كلَّ ذلك ليشفِيَ بِهَا غليلَهُ، ويسلِّيَ بها نفسه.

إنَّ هذا الاضطرابَ السلوكِيَّ قد أرْبَكَ المجتمعَ التركِيَّ وَبَلْبَلَ أفكارَهُ، وأقصاهُ عن فَهْمِ الواقعِ الَّذِي يعيشُهُ اليومَ، فأوقعهُ في مأزقٍ وجدانِيّ وعكرٍ مزاجِيٍ، وأشْغَلَهُ بعبثِ المفاهيمِ والقِيَمِ ليصنعَ تاريخًا مزيَّفًا وهو يعاني – جراءَ ذلك – من أزماتٍ دينيَّةٍ وإجماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ حادَّةٍ، فَتَرَكَهُ متردّدًا في دوامةٍ يبحثُ في غِمارِهَا عن أمجادِهِ وكيانِهِ وهويَّتِهِ دون جَدْوَى.

***

دَوْرُ اللُّغة التُّرْكِيَّة فِي الْفَوْضَى السَّائِدِ عَلَى عَقْلِيَّةِ الإِنْسَانِ التُّرْكِيِّ

ليس من المبالغةِ أبدًا القولُ عن مسؤوليَّةِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ: بأنَّها كانتْ وراءَ سلبيَّاتٍ كثيرةٍ ابتلَى بِهَا المجتمعُ التركِيُّ عبرَ تاريخِهِ، وإنْ كانَ تأثيرُ هذه اللُّغةِ غيرَ مكشوفٍ، وكثيرًا مَّا غيرَ مباشرٍ في تسبُّبِهَا للأزَمَاتِ.

إنَّ الموقفَ الْحَذِرَ الْمُتَحَفِّظَ للأتراكِ من اللُّغاتِ الأجنبيَّةِ تُنْبِئُ عن حقائقَ تتخفَّى حتَّى عن أنفسِهم، فلا يكادُ احدٌ منهم يعلمُ سرَّ إحتياطِهم تجاهَ اللُّغاتِ الأجنبيَّةِ، ولعلَّ يستمدُّ هذا الإضطرابُ من طبيعة اللُّغة التُّرْكِيَّة. وأكبرُ دليلٍ على هذه الحقيقةِ أنَّهم إذا أرادوا انْ يتعلَّموا لغةً اجنبيَّةً اكتفَوْا بحفظِ قواعدِها فحسبُ، دونَ أن يلتفتوا إلى أنَّها وسيلةٌ للتواصُلِ والحوارِ وتبادُلِ الحديثِ... فلذا كانَ الأتراكُ ولا يزالون أكثرَ إتقانًا من العربِ لقواعدِ الصرفِ والنحوِ العربِيِّ، مع أنّكَ قلَّما تجدُ شخصًا منهم يتحدَّثُ بالعربيَّة، حتَّى علمائهم المتبحِّرِين...

إنَّ عَدَمَ الْتِفَاتِهِمْ إلى لغاتِ غَيْرِهِمْ من الشعوبِ، يُفَسِّرُ الشيءَ الكثيرَ عن مشاعرِهِمْ ومَوَاقِفِهِمْ من الأجانبِ. وهذا لا يحتاجُ إلى تفصيلٍ دقيقٍ لِمَنْ تجمعُهُ فرصةٌ مع عنصرٍ تركِيٍ مهما كان الموضوعُ الذي يَتَبَادَلاَنِهِ. لأنَّ اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ (في مفهومِ الكماليِّين ومَنْ كان على عقيدتِهم وعقليَّتِهِمْ وهم اليوم رُبْعُ المجتمعِ التُّرْكِيِ المسيطرُ على الدولة!): "هي مصدرُ جميعِ اللُّغاتِ الإنسانيَّةِ، اشْتُقَّتْ كُلُّها

وطُوِّرَتْ من اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ. واللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ مشتقَّةٌ من كلمةِ كُونَشْ (güneş) أي الشمسِ، انْبَثَقَتْ منها جميعُ المفاهيمِ بالتداعِي والتدريجِ مع الزَّمانِ وحَسَبَ الضروراتِ؛ اختلقَ الإنسانُ من هذه الكلمةِ أوّلاً مفهومَ (الإِلَهِ) لشعورِهِ بِالْهَيْبَةِ والإنبهارِ أمامَ الضياءِ الْمُنْبَعِثِ من الشمسِ، والْمُشْرِقِ الْمُتَهَوِّجِ الَّذي يَغْمَرُ الكونَ بأسرِهِ، نظرًا إلى سُمُوِّ الشمسِ وعلوِّ مكانتِهَا وَتَأَلُّقِهَا، وبذلك نشأَتْ ظاهرةُ التعبُّدِ وتطوَّرَتْ إلى أنْ تصوَّرَ الإنسانُ إلَهًا واحدًا يعبده، فسماه (اللهَ). ثم كَشَفَ الإنسانُ مَلَكَةَ إدراكِ المعانِي فسمَّاهَا العقلَ وَالذكاءَ بإيحاءٍ من أَشِعَّةِ الشمسِ الَّتي تُضِيئُ طَرِيقَهُ وتُسَهِّلُ له الهِدَايةَ إلى مقاصدِهِ وأهدافِهِ. ثم اهتدَى الإنسانُ بفضلِ هذا الإيحاءِ إلى تسميَةِ الضياءِ بالنورِ، وَوَصَفَهُ بالتألُّقِ وما يليقُ به من نعوتٍ كثيرة. وكان ذلك مصدرَ إلهامٍ له حتى اهتدَى إلى تسميَةِ الرُّوحِ والحرارةِ والشوقِ والمحبَّةِ والبركةِ والماءِ والهواءِ والترابِ والغِذَاءِ والحياةِ وهلمَّ جرًا... إلى أن اكتملَ أصلُ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ واشْتُقَّتْ منها بقيَّةُ اللُّغات!"

هذه نظريةٌ شهيرةٌ من نظرياتِ مصطفى كمال الَّتي سمَّاهَا (نظريةَ لُغَةِ الشمسِ)، واعتمدَ عليها في تاسيسِ الجمهوريَّةِ التركيَّةِ،[200] وطبَّعَ بِهَا العقليَّةَ التُّرْكِيَّةَ. ولهذا يستحيلُ أنْ تتناغمَ وتتفاعلَ هذه العقليَّةُ مع أيِّ فكرٍ عَالَمِيٍّ وَتُدْرِكَ المفاهيمَ الخالدَةَ الَّتي جاءَ بِهَا القرآنُ الكريمُ. لِذَا، فإنَّ أيَّ تفسيرٍ أو تعليقٍ أو تَرْجَمَةٍ يرادُ صِيَاغَتُهَا باللُّغة التُّرْكِيَّةِ (إذا كانتْ معطوبةً بهذهِ العقليَّةِ)، يستحيلُ أن يفهمَهَا الإنسانُ في كثيرٍ من الأحيان.

إنَّ البحثَ مفتوحٌ لكلِّ بارعٍ في اللُّغتين التُّرْكِيَّة والعربيَّةِ أنْ يقارِنَ بينَ أفضلِ ترجمةٍ تُركيَّة للقرآن الكريمِ وبين الآيات القرآنيَّةِ، ليجِدَ بِأُمِّ رأسِهِ مِنْ أشكالِ الخبطِ والإضطرابِ والغموضِ، والخروجِ على قواعدِ اللُّغة التُّرْكِيَّة... يكفي للاستدلالِ على هذه الحقيقةِ أنْ نختارَ مثالاً من ترجمةِ الشيخ محمَّد حَمْدِي يَازِيرْ رحمه اللهُ، وهو من أفضل علماءِ التُّرْكِ في ترجمةِ كتابِ اللهِ، يقولُ في ترجمةِ أوَّلِ آيةٍ مِنْ سورةِ البيِّنة، قوله تعالى: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (البينة/1). وهذهِ ترجمةُ الشيخ محمّد حَمْدِي يَازِيرْ، للآيةِ الكريمةِ باللُّغة التُّرْكِيَّة:

«Kitab ehlinden ve müşriklerden kâfir olanlar، kendilerine apaçık delîl gelinceye kadar ona iman edeceklerine dair verdikleri sözden ayrılmadılar!»

200

La théorie du langage-soleil et sa place dans la réforme de la langue turque; Erik-Jan Zürcher, s. 87.
Paradigmanın İflası, Resmi İdeolojinin Eleştirisine Giriş, Fikret Başkaya,
Türk Tarih Tezi, Güneş-Dil Teorisi ve Kürt Sorunu, İsmail Beşikçi, 1991
Türk tarih tezi ve Mu kıtası, Kemal Şenoğlu,

ينبغي هنا أن نُوَجِّهَ سؤالاً لأيّ عُنْصُرٍ تركيٍّ مُنصِفٍ يُتقِنُ اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ حقَّ الإتقانِ، فنقولَ له: هل تفهمُ شيئًا مِنْ هذه العباراتِ؟ لأنَّ هذه الصيغةَ الْمُعَقَّدَةَ، لَوْ تَنَاوَلَهَا أحدٌ مِنْ أَعْلَمِ الأتراكِ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ يكادُ مِنَ المستحيلِ أنْ يُعيدَ صِيَاغَتَهَا فَيُرَكِّبَ مِنْهَا جملةً جليَّةَ الْمَعْنَى واضحَةً مفهومةً، ثم يشهدَ شهادةَ الحقّ فيقولَ: هذا هو مرادُ الْمُتَرْجِم أو الْمُفَسِّرِ!

يجبُ التنبيهُ – بهذه المناسبةِ – على أنَّ هذا الإعتراضَ ليس معناه: أنَّ الشيخ محمّد حَمْدِي يَازِيرْ كان متأثرًا بالعقليَّةِ الكماليَّةِ (Kamalism)، أو أنَّ اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ لا تَصْلُحُ لنقلِ معاني الآياتِ القرآنيَّةِ!.. كلاَّ! بل هذه المقولةُ الخطيرةُ لا يَتَفَوَّهُ بها إلاَّ مُفْسِدٌ، ولا يَتَذَرَّعُ بهذا الإعتراضِ – ليرمِيَ صاحِبَهُ بِالْفِرْيَةِ على علماءِ التركِ، أو باِحْتِقَارِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ –، إلاَّ خبيثٌ يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عن مواضعه لِيُثِيرَ الْفِتْنَةَ! بل إنَّ القرآنَ مُيَسَّرٌ للنقلِ بكلّ لغةٍ من اللُّغاتِ الإنسانيَّةِ (ومنها اللُّغة التُّرْكِيَّة)، لَكِنَّ المغفورَ له الشيخ محمّد حَمْدِي يَازِيرْ، ربما ارْتَبَكَ أمامَ صلابةِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ الَّتي تَأْبَى الانقيادَ للمتكلّمِ خاصَّةً إذا تشبَّثَ بالكلمةِ أكثرَ من المعنى. فالآيةُ المذكورةُ آنفًا، كان من السهلِ جدًّا أن تُنقَلَ إلى التُّرْكِيَّة ضِمْنَ هذه الصيغةِ الجليَّةِ الواضحةِ.

«Ne Kitap ehlinden، ne de müşriklerden kâfirler، - kendilerine apacık delil gelinceye kadar- inançlarından vazgeçmediler.»

هذا، وثَمَّةَ حقيقةٌ لا يجوز كَتْمُهَا، ألاَ وهي أنَّ كثيرًا من الكلماتِ العربيَّةِ لايمكن صَبُّهَا في قالب ألفاظٍ من القاموسِ التُّرْكِيّ. وإذا كانتْ هذه الكلماتُ من مفرداتِ القرآن، فإنَّ الأمرَ يزداد خطورةً. وَهذهِ المشكلةُ قد أَرْبَكَ جميعَ مَنْ تصدَّوْا لترجمةِ القرآن الكريم إلى اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ. ذلك؛ لشعورِهِمْ بمسؤوليَّةٍ بالغةٍ، لأنَّه انْتَابَهُم الخوفُ مِنْ أنْ يقعوا في تحريفٍ غيرِ مقصودٍ فتشدَّدوا في التَّمَسُّكِ بالترجمةِ اللفظيَّةِ (وهو خطأٌ عظيم في غالبِ الأحوالِ)، وأهملو الترجمةَ الدِّلاَلِيَّةَ، فجاءَ جُلُّ تراجمِهم للقرآن الكريمِ في صِيَغٍ رَكِيكَةٍ غامضةٍ مُعَقَّدَةٍ ومخالفةٍ – في الوقتِ ذاتِهِ – للقواعدِ البلاغيَّةِ والأساليبِ المألوفةِ في الثقافةِ التُّرْكِيَّةِ. إنَّ أكثرَ هذهِ الأزماتِ ناشئٌ أصلاً من طبيعةِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ.

يجب أنْ يُضافَ إلى هذا: إهمالُ الأتراكِ لِلُغَتِهِمْ على مدَى تاريخِهم، مِمَّا جعلَها بعد ألفِ سنةٍ من إسلامِهِم لا تتَّسِعُ اليومَ لاستيعابِ معاني القرآنِ الكريمِ إذا قورِنَتْ بِلُغَةٍ أجنبِيَّةٍ أهلُها لا يدينونَ بالإسلام. ويشهدُ على ذلك: الإرتباكُ الذي وقعَ فيه جميعُ المترجمين الأتراك لِمَعَانِي الكتابِ العزيز.

إنَّ هذه المعلوماتِ التمهيديَّةَ لا تدلُّ على مدى شِدَّةِ التعارُضِ بين اللُّغتين التُّرْكِيَّة وَالعربيَّةِ فَحَسْب، بل شأنُ اللُّغة التُّرْكِيَّةِ في طبيعتِهَا المتشاكسةِ مع العربيَّة كشأنِها مع جميعِ اللغاتِ الهندو–أوروبيَّةِ. لذا، فإنَّ عمليَّةَ الترجمةِ من هذه اللُّغاتِ إلى التُّرْكِيَّةِ وبالعكس – خاصَّةً من العربيَّةِ إلى التُّرْكِيَّةِ – تُعَدُّ كابوسًا يُخَيِّمُ على المترجِمِ. أكثرُهم يتخوَّفونَ من العجزِ إنْ عرضَتْ لهم كلمةٌ أو صيغةٌ من العربيَّةِ أنْ لاَ يجدوا لها مُقابِلاً في القاموسِ التركيِّ أبدًا. ينتابُهُم قلقٌ شديدٌ قبلَ المهمَّةِ وفي أثنائِها. كُلُّ ذلكَ يبرهن على مدى شدَّةِ اختلافِ الطبيعةِ بين اللُّغَتَيْنِ. ذلك أنَّ العربيَّةَ هي من اللُّغاتِ الساميَّةِ، أمَّا التُّرْكِيَّة فإنَّها مِنَ الأُسْرَةِ الأَلْطَائِيَّةِ، لا تجمعُهُمَا أدنىَ مشابهةٍ ولا علاقة.

ولربَّما لَعِبَتْ هذه الأزمةُ دورًا كبيرًا تحتَ دوافعَ أخرَى في تضخيمِ التنافُرِ بين الشعبين التركيِّ والعربيِّ بعد تصعيدِ اليهودِ السَّبَطَائِيِّين للمشاكلِ السياسيَّة في آخرِ العهدِ العثمانيِّ الَّتي أدَّتْ بانشقاقِ العربِ عن دولةِ الأمِّ، وفتحتْ فجوةً عميقةً بين الأتراكِ والعربِ على مدَى قرنٍ كاملٍ إلى أنْ تولَّى "الإسلامَوِيُّون" السلطَةَ في تُرْكِيَا، وهم يحاولون اليومَ إعادةَ الأمورِ إلى نصابِها في العلاقاتِ التُّرْكِيَّة–العربيَّة؛ لكنَّهم يتخبَّطون في مغامرةٍ خطيرةٍ لا علم لأحدٍ بعاقبةِ المعركةِ الَّتي تدور بينهم وبين الكماليِّين لِمن تكونُ الغلبةُ في نهاية المطاف!

***

- مفهومُ اللُّغة وموقفُ الأتراكِ في تَقْيِيمِهَا.

يبدو أنَّ الأتراكَ لم يتنبَّهوا في بدايةِ تكوُّنِهِم وتطوُّرِهم كشعبٍ، إلى مدَى أثرِ اللُّغةِ في حياةِ الإنسانِ وعلاقاتِهِ مع بَنِي جنسهِ. لذا فإنَّ اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ مرَّتْ عبر تاريخها ولا تزال تمرُّ بأزماتٍ حادَّةٍ لم تُعالَجْ حتَّى اليومِ بسببِ الإهمالِ الذي تعرَّضتْ له مِنْ قِبَلِ أصْحَابِهَا بالذَّات. والحالُ هذه، فإنَّ اللُّغةَ قِيْمةٌ مِنْ أهمِّ الْقِيَمِ الإنسانيَّةِ، وهي أعظمُ وسيلةٍ من وسائلِ الاتِّصالِ الاجتماعِيِّ وَالْعِلمِيِّ وَالثَّقَافِيِّ. تمتازُ الجماعاتُ الإنسانيَّةُ عن جميعِ كُتَلِ الكائناتِ الحيَّةِ باستخدامِهَا لهذهِ الوسيلةِ الفريدةِ في اتصالاتِهَا.

كُلُّ مجتمعٍ له لغتُهُ الخاصَّةُ يصنعُهَا منذُ بُدُوِّ صلاحِهِ إثرَ إرهاصاتٍ سياسيَّةٍ خطيرةٍ ينطلقُ منها كزمرةٍ تشعرُ بكفائةٍ ذاتيَّةٍ في نفسِها، فتبدأ أوَّلاً ببِنَاءِ لغتِها لِتَكْوِينِ خصوصيَّاتِهَا ومزاياها الاجتماعيَّةِ وَالثقافيَةِ، فتعملُ على تكييفِ هذه الآلية لِتَتَأَقْلَمَ هي مع متطلباتِ الحياةِ ولتصلُحَ لغتُها للتعبيرِ عن حاجاتِهَا ورغباتِهَا في كُلِّ مجالاتِ التَّعَايُشِ وَالتَّعَامُلِ من دينٍ وأخلاقٍ وسياسةٍ واقتصادٍ وما إليها من علاقاتٍ إنسانيَّةٍ شتَّى. ثمَّ يبرهنُ كلُّ هذه التطوراتِ على إستقلالِها وتنتهي بانشقاقِها وانفصالِها

النهائيِّ من الأصلِ بعدَ معاناةٍ قد تأخذُ قرونًا من الزمن. ويكادُ يستحيلُ على المؤرّخين إثباتُ مراحلِ هذا الإنفصالِ في تاريخِ أيِّ مجتمعٍ، لمرورِ حُقُباتٍ سحيقةٍ في مسيرةِ الحياةِ البشريَّةِ على هذا الحدثِ القديمِ، ولإِنْتِفَاءِ ضَبْطِهِ بسببِ إمتدادِ مراحلِ النُّضْجِ اللُّغَوِي عبر آلاف السنين!

***

- أصلُ اللُّغة التُّرْكِيَّة وجذورها في التاريخ:

تنتمي اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ إلى فصيلةِ (اللُّغَاتِ الأَلْطَائِيَّةِ) الَّتي تتكوَّنُ مِنْ ثلاثِ أُسَرٍ مِنْ لُغَاتِ أَسْيَا الوسطَى. وهي: اللُّغَاتُ التُّرْكِيَّةُ، واللُّغَاتُ الْمُنْغُولِيَّةُ، واللُّغَاتُ المَنْشُورِيَّةُ التُّنْغُوسِيَّةُ. سُمِّيَتْ هذه الألسنةُ بـ(اللُّغَاتِ الأَلْطَائِيَّةِ) نسبةً إلى جبالِ أَلْطَايْ في أَسْيَا الوسطَى.

من الجديرِ بالذكرِ هنا: أنَّ اللُّغَاتِ الأَلْطَائِيَّةَ لا تتَّصفُ بالقِدَمِ والرسوخِ في التاريخ؛ فَأَقْدَمُ أثرٍ لِلُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ يعودُ إلى القرنِ الثامنِ الميلاديّ؛ كما أنَّ القبائِلَ ذواتِ الأصولِ التُّرْكِيَّةِ، لم تكنْ مُلِمَّةً بالكتابةِ عبرَ تاريخها ممَّا أدَّى ذلك إلى غيابِ جُلِّ المعلوماتِ الخاصَّةِ بهذه الأمَّةِ، وأسفرَ عن هذا الإهمالِ استحالاتٌ بالغةٌ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ عبر القرون. يبرهن على هذه الحقيقةِ الغموضُ الذي يتوارَى به تاريخُ الأتراكِ قبل الإسلامِ لِعَدَمِ اكتراثِهم لأهمِّ وسائلِ ضبطِ الوقائعِ الَّتي هي الكتابةُ.

يزعمُ البعضُ أنَّهُ كانتْ للأتراكِ أبجديةٌ خاصَّةٌ تُسَمَّى بـ(بالأبجديةِ الأُورخونيَّةِ) تتألَّفُ من **38** حرفًا تُكتبُ من اليمينِ إلى الشِّمالِ، ومن أعلَى إلى أسفلَ؛ إلاَّ أنَّ تاريخ البشرِ يخلو من أيِّ كتابٍ أو أيِّ رسالةٍ مكتوبةٍ بهذه الأبجديَّةِ. ولا يوجدُ نصٌّ كُتِبَ بها إلاَّ "سِتَّةُ نُصُبٍ حَجَرِيَّةٍ عليها كتاباتٌ تُركيَّة"، عَثَرَ عليها المؤرِّخ الروسِيُّ (يَارْدِيْنتسِيفْ)[201] عام. **1889**م. قيلَ استطاعَ الباحثُ المؤرِّخُ الدنماركِيُّ (وِيلْهَلْمْ تُومْسَنْ Wilhelm Thomsen 1842-1927)، استطاعَ فَكَّ رموزِ هذه النصوصِ وتَمَكَّنَ مِنْ قراءَتِهَا بمساعدةِ الباحث وَالْمُؤَرِّخِ الرّوسيّ (فِرِيدِيرِيكْ وِيلْهَلْمْ رَادْلُوفْ Friedrich Wilhelm Radloff 1837-1918).

***

- طبيعةُ اللُّغةِ التُّرْكِيَّة وخصائِصُهَا ومشاكِلُهَا.

---

[201] لم نَعْثُرْ على هذا الإسمِ في كُتُبِ التراجم!

قَبْلَ التوغُّلِ في لُبِّ الموضوعِ، لابدَّ هنا من التنويهِ بالعلاقةِ الَّتي بدأتْ بين اللُّغتين التُّرْكِيَّة والعربيَّةِ منذ ألفِ سنةٍ تقريبًا. هذه العلاقةُ تُحَتِّمُ علينا أن نتابعَ مسيرةَ اللُّغة التُّرْكِيَّةِ منذ بدايَةِ اعتناقِ الأتراكِ للإسلامِ، لنتعرَّفَ أولاً: على التغيُّراتِ الَّتي طرأتْ على هذه اللُّغةِ منذ ألفِ سنةٍ، ولنتعرَّفَ ثانيًا: على أوَّلِ كتابٍ ألَّفهُ أحد علماءِ الأتراكِ، يشتملُ على موضوعٍ علميٍّ يعترفُ به جمهورُ العلماءِ ويحتلُّ مكانًا هامًّا في المكتبةِ الإسلاميَّةِ. عندئذٍ يمكنُ أن يتبيَّنَ لنا مدَى الصلةِ الَّتي تربطُ هذه اللُّغةَ باللُّغةِ العربيَّةِ من خلالِ الآثارِ الَّتي تركتْ إحداهما على الأخرَى. كذلك تظهرُ عندئذٍ مدى كفائةِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ لِمُوَاكَبَةِ اللُّغَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ خاصَّةً منها المتطوِّرَةِ والمنتشِرَةِ في عصرِنَا.

سوف نحظَى قسطًا كبيرًا من هذه المعلوماتِ عبر متابعتِنا للفصولِ الآتيةِ إن شاء الله. فلذا ينبغي أن نعودَ الآنَ إلى موضوعِنَا بمقارنةٍ سريعةٍ بين طبيعةِ اللُّغتَيْنِ من خلالِ أمثلةٍ وجيزةٍ. لأنَّها سَتُمَهِّدُ لنا السبيلَ إلى المعرفةِ أوَّلاً: باجوانبِ الهامَّةِ من التعارُضِ بينهما، ثمَّ إلى المعرفةِ بتلك الفجوةِ الرَّهيبةِ الَّتي تفصِلُ بينهما وتتحوَّلُ أحيانًا إلى شَبَحٍ يعترضُ حتَّى الإنسانَ الْمُتَمَكِّنَ منهما، فَيُلْجِمُ لِسَانَ الْمَاهِرِ الحاذِقِ في المعرفةِ بدقائِقِهِمَا، بل يتحوَّلُ إلى شِبْهِ ثُعبانٍ يلتفُّ بِخِنَاقِهِ فلا يسمحُ له أنْ ينقُلَ ولو كلمةً واحدَةً مِنْ إحداهُما إلى الأخرى!

تُعاني اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ مشاكلَ عويصةً تختلفُ باختلافِ أسبابِها، ثمَّ تتحوَّلُ كلٌّ منها إلى عقبةٍ رهيبةٍ تُعيقُها عن مواكبةِ لغاتِ العصرِ في مسيرةِ الحضارة. مِنْ هذه المشاكِلِ ما هي ناشئةٌ مِنْ اختلافِ أصلِها مع غيرِها من اللُّغاتِ، ويأتي على رأسِها اللُّغةُ العربيَّةُ. إذ هما مختلفتان في الأصلِ كما مرَّتْ الإشارةُ إليه بإيجاز.

عُدْنَا مرَّةً أخرى لِنُقَارِنَ بين اللُّغتين العربيَّةِ والتُّرْكِيَّةِ هنا بالضرورة للصلةِ التاريخيَّةِ الوثيقةِ بينهما. إذ لا يجوز أنْ يتجاهلَ أيُّ باحِثٍ هذه الصلةَ وهو يدرسُ تاريخَ الأمَّةِ التُّرْكِيَّةَ، والحياةَ الإجتماعيَّةَ للشعبِ التركيِّ.

إنَّ أوَّلَ ما يتبادرُ إلى الذهنِ بهذهِ المناسبةِ: اختلافُ المنطقِ وانتفاءُ التَّكَافُؤِ بين اللُّغتين. وَمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ حاجزًا قاسيًا يفصِلُ بين منطقِ اللُّغتين التُّرْكِيَّةِ والعربيَّةِ، إذ يتعارضُ بِنَاءُ الجُمْلَةِ في كلٍّ منهما مع الآخر تعارضًا شديدًا لا يتركُ المجالَ لاقترابِهِمَا مِنْ أدنَى وصفٍ يجمعُ بينهما، حيث يُفضِي هذا

التعارُضُ إلى معاناةٍ وإرهاقٍ وتخبُّطٍ، خاصَّةً في تبادُلِ المسائِلِ العلميَّةِ والتعبيرِ عن أمورٍ حسَّاسَةٍ ومفاهيمَ دقيقةٍ عبرَ النقلِ من العربيَّةِ إلى التُّرْكِيَّةِ بخاصَّةٍ.

هذه المشكلةُ الخطيرةُ الَّتي لا يُستَبعَدُ أن تكونَ قد أسفرتْ عن خَلْقِ فَجَوَاتٍ ومَتَاهَاتٍ في العلاقاتِ التُّرْكِيَّةِ–العربيَّةِ عبر تاريخِ الشعبين المشترك، بسبب سوء التفاهم والفشلِ في الترجمة أثناءَ اللِّقاءاتِ والحواراتِ بين الطرفين. كما لا يُستَبعَدُ أنْ تكونَ قد نشأتْ مُعْظَمُ البِدَعِ والخرافاتِ عن هذهِ المشكلةِ أيضًا أثناء نقل رسالة الإسلامِ إلى أول جيل من الأتراك.

إنَّ كلَّ لغةٍ من اللُّغاتِ الإنسانيَّةِ تمتازُ بمنطقِها الخاصّ. وهو الفارقُ الرئيسُ الَّذي يُحَدِّدُ خصوصيَّاتِ تلكَ اللُّغةِ بذاتِها. كما يستمدُّ منطقُ كُلِّ لغةٍ مِنْ عقليَّةِ الشعبِ الناطقِ بها دونَ غيرِه. فالأتراكُ – على سبيل المثال –، لا شكَّ في أنَّهم هم الذين صنعوا لغتَهم، على حسبِ ذوقِهم وفهمِهم للحياةِ. كذلك الأمرُ بالنسبةِ لكلِّ أمّةٍ من الناسِ. لذا ينبغي وصفُ منطقِ كلِّ لغةٍ بنفس الوصف الذي تتَّسِمُ به عقليَّةُ ذلك الشعبِ. وانطلاقًا من هذه القاعدةِ فإنَّهُ يمكنُ القولُ: بأنَّ منطقَ كلِّ لغةٍ مرتبطٌ بطريقةِ بناءِ الجُمْلَةِ في تلك اللُّغةِ. فاللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ مثلاً، يتبدَّى منطقُهَا عَبْرَ تركيبِ الجُمْلَةِ التُّرْكِيَّة؛ اسميةً كانت أو فعليَّةً. كذلك الأمرُ بالنسبةِ للجملة العربيَّةِ، يظهر منطقُهَا عَبْرَ تركيبِهَا مُعَبِّرًا عن عقليَّةِ الإنسانِ العربيِّ. وبطريقِ المقارنةِ بين تركيبِ الجملةِ في اللغتين: نصطدمُ بِفجوةٍ عميقةٍ تفصل بين طريقةِ بناءِ الجملةِ في كُلٍّ مِنْهُمَا، كما نُدْرِكُ الفرقَ الكبيرَ الَّذي يفصلُ بين منطقِ كلِّ منهما فصلاً قاطعًا حادًّا قاسيًا بحيثُ يتعذَّرُ في الغالِبِ اجتيازُ هذه العقبةِ في النقلِ تفسيرًا وترجمةً، ويجعل مِنَ الباحثِ والدارسِ والمترجمِ في موقفٍ حرجٍ جدًّا.

***

- مقارنةٌ مُلفِتَةٌ بين موضعِ التَّرْكيزِ في كُلٍّ مِنَ الجُملةِ التُّرْكِيَّةِ والعربيَّةِ.

إنَّ تحديد مَوضِعِ التركيزِ في الجملةِ من أهمّ الأمور اللُّغَوِيَّةِ. والقسطاسُ في ذلك: أنَّ اللَّفظَ أو التَّرْكِيبَ الْمِحْوَرَ في الجملةِ العربيَّةِ الفعليَّةِ هو: (الأقربُ إلى الفعلِ). ففي قولِكَ مثلاً: "دَخَلَ زَيْدٌ الْقَاعَةَ بَعْدَ عَلِيٍّ"، يتوجَّهُ الإهتمامُ في هذا التركيبِ إلى كلمةِ (زيدٍ) بالدرجة الأُولى. وهذا يعني أنَّكَ قد رَكَّزْتَ اهتمامَكَ على (زَيْدٍ)، بِصَرْفِ النظر (عن عليٍّ، والقاعةِ، وفِعْلِ الدُّخولِ، ولحظتِهَا). وكانَ

عليٌّ ودخولُهُ إلى القاعةِ من الدرجة الثانيةِ في اعتبارِكَ. والقسطاسُ هذا، قائمٌ على أساسٍ مِنْ مَنْطِقِ اللُّغةِ العربيَّةِ؛ بينما الترجمةُ (الدلاليَّةُ) المطابقةُ للصيغة الآنفةِ الذكرِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ نجدُ موضعَ التركيزِ فيها على نقيضِ موضعِ التركيزِ في أصلها. وإليك ترجمة الصيغة باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ:

Zeyd، Ali'den sonra salona girdi.

فهذه جملةٌ اسميَّةٌ، وليست فعليَّةً؛ (بخلافِ أصلِهَا في العربيَّة!)، إذ تبدأ بكلمة (زيدٍ). والغريب: أنَّك إذا نقلتَ هذه الترجمةَ إلى العربيَّةِ لِلتَّثَبُّتِ من صِحَّةِ مطابقتِها لأصلِها، ظهرتْ في قالبٍ آخرَ غريبٍ جدًّا، وهذه صيغتُها:

"زَيْدٌ، بَعْدَ عَليٍّ دَخَلَ إِلَى الْقَاعَةِ". فيكونُ كلُّ شيءٍ في هذه الصورةِ رأسًا على عَقِبٍ (بما فيها موضعُ التركيزِ، وهي: "بَعْدَ عَليٍّ")، وذلك بمجرَّدِ إعادةِ الترجمة إلى أصلِها. وهذا، بالرّغم من أنَّ النصَّ التركيَّ صحيحٌ سليمٌ، مطابِقٌ للقواعِدِ، والعادةِ، والعُرْفِ اللُّغويِّ في اللسانِ التُّرْكِيِّ، كما أنَّه لم يتغيَّرْ منه شيءٌ. يبرهن ذلك على أنَّ هذه الصيغةَ قائمَةٌ على أساسٍ من منطقِ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ.

كان هذا، مثالاً واحدًا من آلافِ أشكالِ تلكَ العقبةِ الرهيبةِ الَّتي تعترضُ سبيلَ المترجِمِ، بل وتتعدَّاهُ إلى الدَّارِسِ الَّذي يُلِمُّ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، والحياةِ الإجتماعيَّةِ للمجتمعِ التركيِّ ويقوم بالبحثِ في تاريخهِ ومعتقداتِهِ وتقاليدِهِ وأعرافِهِ وقضاياهُ السياسيَّةِ والإقتصاديَّةِ وما إليها...

***

- أمثلةٌ مِنْ مَوَاطِنِ التعارُضِ بين اللُّغتين التُّرْكِيَّة والعربيّةِ، والأزماتُ الناشئَةُ عَنْهَا.

تختلفُ قواعدُ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ ومصطلحاتُها في كثيرٍ من خصوصيَّاتِهَا عن قواعد اللُّغةِ العربيَّةِ ومصطلحاتِها. وهذا يؤدِّي إلى ازماتٍ أثناءَ تعليم اللُّغةِ العربيَّةِ للطلبةِ الأتراكِ، كذلك في أثناءِ الترجمةِ. ومِنْ أشكالِ هذا الإختلافِ:

1) إنَّ المبتدأ والفاعلَ يجمعُهما مصطلحٌ واحدٌ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، وهو لفظةُ (özne). كذلك الخبرُ والمفعولُ بهِ يجمعُهما فيها مصطلحٌ واحدٌ، وهو لفظةُ (yüklem). لذا لا ينطبقُ تعريفُ الجملةِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ على تعريفِها في النحو العربي.

2) تخلو اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ من جميعِ المصطلحاتِ الصوتيَّةِ الإعرابيَّةِ، مثل: الرفعِ والنَّصبِ والجرِّ والسكونِ والتشديدِ، كما تخلو من جميعِ رموزِ هذهِ المصطلحاتِ، مثل: الضمَّةِ والفتحةِ والكسرةِ والجزمِ والشَّدَّةِ.

إنَّ خلوَّ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ من هذه المصطلحاتِ نشأت منها مشاكلُ غريبةٌ ومعقَّدةٌ أفضتْ بسلبيَّاتٍ على العقليةِ التُّرْكِيَّةِ في محاولةِ الأتراك لفهم الدين الإسلاميّ والتعاملِ مع قِيَمِهِ. ذلك لأَنَّ الجاهلَ بقوانينِ اللُّغةِ العربيَّةِ ولو كان عربيًّا، يستحيل عليه أن يُدرِكَ معاني مصطلحاتِ هذه اللُّغةِ، وهي ذاتُ قيمةٍ علميَّةٍ منقطعةِ النظيرِ، تبهرُ لها عقولُ العلماءِ وتتميَّزُ بها لغةُ الضادِ عن جميعِ اللُّغاتِ الإنسانيَّةِ؛ مثل: حالةِ الرفعِ، والنصبِ، والجرِّ، والسكونِ، والإعرابِ، والبناءِ وغيرِها... فلا يستطيعُ هذا الإنسانُ أنْ يلاحظَ عظمةَ القرآنِ الذي تشتملُ آياتُهُ على جميعِ هذهِ المصطلحاتِ، وتنعكسُ معالمُهُ من خلالِهَا. فلا يكادُ يُدرِكُ أنَّ الفاعِلَ ونائِبَهُ، والمبتدأَ والخبرَ، واسمَ كانَ وأخواتِها، وخبرَ إنَّ وأخواتها... كلٌّ منها مرفوعٌ أينما وقع من الآيات القرآنيَّةِ. كذلك المفعولُ به، واسمُ إنَّ وأخواتِها، وخبرُ كان وأخواتِها... كلٌّ منها منصوبٌ أينما وقع من الآيات القرآنيَّةِ.

وبالمناسبة؛ فإنَّ الجاهلَ بهذه المصطلحاتِ لا يكادُ أبدًا يُدرِكُ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلَّم الذي لم يتلقَّ درسًا من أحدٍ، ولا حتَّى تناوَلَ قلمًا بيدِهِ، قد نقلَ جميعَ الآياتِ القرآنيةِ موافقةً لهذه القواعدِ الدقيقةِ الَّتي بلغَ حجمها إلى اعدادٍ كبيرةٍ عكفَ على جمعِها وتعريفِ كلٍّ منها وتصنيفِها وتبويبِها وشرحِها علماءُ اللُّغةِ، بل حتَّى المفسِّرون والفقهاءُ، وأفرغوها في بطونِ آلافٍ من آثارِهم الَّتي تكتظُّ بها المكتبةُ الإسلاميَّةُ في جميع أنحاءِ العالَمِ.

إنَ هذه المعجزةَ القرآنيَّةَ الكُبْرَى يجهلُهَا كلُّ مَنْ يجهلُ اللُّغةَ العربيَّةَ ومصطلحاتِهَا وَعُلُومَهَا. إلاَّ أنَّ الجهلَ بهذهِ الحقائقِ لاَ يُستعظَمُ – في الحقيقةِ – مِنْ إنسانٍ لا يدينُ بالإسلامِ، لأنَّه أصلاً جاهلٌ، حتَّى ولو كان عالمًا خبيرًا ومتخصِّصًا في شُعَبٍ من العلومِ. ولكن يُسْتَعْظَمُ مِنْ أيِّ إنسانٍ يُقِرُّ بأنَّه مسلمٌ ويُعَبِّرَ عن اعتزازِهِ بهذا الدين الْعَالَمِيِّ الْعَظِيمِ. فالإنسانُ التركيّ الذي يجهلُ هذه الحقائقَ، لا

فرقَ – في الواقع – بينه وبين الإنسانِ العربيّ الذي يجهلُها. وإنَّما الفرقُ بينهما يتمثَّلُ في: أنَّ العربَ الذين يجهلون قواعِدَ لغتِهم، هم أصلاً قِلَّةٌ مِنْ حُثَالةِ المجتمعِ، لا يَعْتَدُّ بهم الأكثريةُ المثقَّفَةُ. ولكنَّ معظمَ الأتراكِ الذين يدينون بالإسلامِ ويعتزُّونَ بهِ مع جهلِهم بِلُغَةِ الضَّادِ، (وذلك أمرٌ طبيعيٌّ مع ما فيه من إشكاليَّةٍ عويصةٍ وَرَائَهَا بابٌ مفتوحٌ للنقاش ربما إلى يوم القيامة!) هم مسؤولون – على أي حالٍ – عن الدوافع الَّتي قد رَمَتْهُمْ بعيدًا عن البيئةِ القرآنيَّةِ وَتَرَكَتْهُمْ في مهبِّ عواصفِ الشعوذةِ، وحوَّلَتْهُمْ إلى مجتمعٍ تلعبُ بهم الصوفيَّةُ والطُّغْمَةُ الكماليَّةُ الحاكمةُ، والدجاجلةُ الذين يتَّجرون بالدين، كنتيجةٍ معظمُها ناشئةٌ من الجهلِ بهذه المصطلحاتِ ودورِها في تكييفِ اللُّغة وتهذيبِ العقلِ بالمعرفةِ.

3) تخلو اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ من الفَرقِ بين المؤنَّثِ والمذكَّرِ تمامًا. تقول: جاءَ عليٌّ، وجاءَ فاطِمَةُ: Ali geldi؛Fatma geldi . لذا؛ عددُ الأفعالِ المطَّرِدَةِ لِكُلٍّ من الماضي والمضارعِ في هذه اللُّغةِ محصورٌ في سِتِّ صِيَغٍ؛ بينما عددُها في التصريفِ العربيّ: أربعةَ عشرةَ صيغَةً مطَّرِدَةً في كُلٍّ من الماضي والمضارِعِ، مجموعها **28** صيغةً.

4) إنَّ اللُّغةَ التُّرْكِيَّةَ خاليةٌ تمامًا مِنْ أداةٍ تقابلُ (إنَّ) في اللُّغةِ العربيَّةِ. إلاَّ أن المتكلِّمَ (التركيَّ) إذا أراد أن يُرَكِّزَ على مسألةٍ مَّا لِيُلفِتَ انتباهَ المخاطبِ إليها، لَهُ أَنْ يستهلَّ كلاَمَهُ بتعبيرٍ مركَّبٍ من ثلاثِ كلماتٍ يقومُ مقامَ (إنَّ)، وهي: gerçek şudur ki.

إنَّ المدرِّسين الأتراك الذين يتولَّوْنَ مهمَّةَ تعليم اللُّغةِ العربيَّةِ، والعلومِ الإسلاميَّةِ في تركيا، قد اعتادوا منذُ القديمِ ترجمة (إنَّ) بتعبير آخر، وهو: muhakkak ki. أي إنَّهُ من المؤكَّدِ. وربما كانت هذه الترجمة مقبولةً في العُرفِ المدرسيّ القديمِ، إلاَّ أنها غدتْ منافيةً للطريقةِ المعاصرةِ بحكم التغيُّرات الَّتي تطرأ على اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ مِنْ حُقبةٍ إلى أخرَى، سواء في الأسلوبِ وفي البِنْيَةِ. وعلى كلِّ حالٍ يبدو هذا الإضطرابُ شكلاً من أشكال التعارضِ بين اللُّغتين التُّرْكِيَّةِ والعربيَّةِ.

5) من خصائصِ اللُّغةِ العربيَّةِ: رجوعُ ضميرٍ إلى المبتدإِ في كثيرٍ من الجُمَلِ الإسميَّةِ. وقد يكون هذا الضميرُ متعلِّقًا بالخبرِ، كما في قولك: "الثَّوْرُ لَهُ قَرْنَانِ": Öküzün iki boynuzu var

إنَّ الضميرَ المتَّصلَ في (لَهُ)، يختفي تمامًا في الترجمة التُّرْكِيَّةِ، ويتحوَّلُ فيها إلى لاَحِقَةٍ (zu)، لا تُسمَّى هذه اللاحقةُ ضميرًا أبدًا في النحو التركيّ! كما أنَّ ثَمَّةَ لاَحِقَةٌ أخرَى تنضمُّ إلى كلمةِ (الثورِ)، وهي (ün)، بينما كلمةُ (الثور) مجرَّدةٌ مِنْ أيّ لاحِقَةٍ في الصيغة العربيَّة، ولا تسمَّى هذه الكلمةُ (مبتدأ) في النحو التركيّ!

6) الضمائرُ المنفصلةُ في اللُّغةِ العربيَّةِ عَدَدُهَا إجمالاً: أحد عشر ضميرًا. وهي: أَنَا، أَنْتَ، أَنْتِ، أَنْتُمَا، أَنْتُمْ، أَنْتُنَّ؛ هُوَ، هِيَ، هُمَا، هُمْ، هُنَّ.

في هذا العددِ؛ ضميرانِ يُستَخْدَمَانِ للمذكَّرِ والمؤنثِ على السواء، وهما: (أنتما، هما). أمَّا اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ، فعددُ الضمائرِ فيها ستَّةٌ إجمالاً. وهذه ألفاظُها:ben،sen ،o ،biz ،siz ، onlar . هذه القِلَّةُ ناشئةٌ مِنْ انتفاءِ الفَرْقِ بين المذكَّرِ والمؤنَّثِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، ولِعدم مفهوم التثنيةِ فيها.

7) لا وجودَ للضمائرِ الْمُتَّصِلَةِ في اللُّغة التُّرْكِيَّة، وإنما تحلُّ محلَّها أكثر من أربعين لاحقةً؛ بحسب الصيغةِ والصوت الأخير للكلمة. منها ما يتَّصلُ بالأسماء، ومنها ما يتصل بالأفعال. بينما الضمائر المتَّصلةُ في اللُّغةِ العربيَّةِ تسعةٌ. وهي: تاءُ المتكلِّمِ وَحْدَهُ (تُ)، ألفُ الإثنين (ا)، واوُ جماعةِ الذُّكُورِ (وا)، نونُ النسوةِ (ن)، ياءُ المخاطبةِ في صيغةِ الأمرِ للأُنْثَى (ي)، كافُ الخطابِ للذَّكَرِ وَالأُنْثَى (تَ، تِ)، هاءُ الغائبِ والغائبةِ (ه، ها)، ياءُ المتكلِّمِ (ي)، ناءُ المتكلِّمِين (نا).

8) ترتيبُ أجزاءِ الجملةِ الاسميَّةِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ لا يختلفُ عن ترتيبها في الجملة الاسميَّةِ العربيَّةِ (إذا كانتِ الجملةُ مؤلَّفَةً من لفظتين فحسبُ: المبتدأ özne، والخبر yüklem).

أمَّا إذا كانتْ أجزاءُ الجملةِ الاسميَّةِ أكثرَ من كَلِمَتَيْن، يعني: إذا كانَ الخبرُ جملةً مُمْتَدَّةً وليس مقصورًا على اسمٍ واحدٍ؛ عندئذٍ يختلف ترتيبُ أجزاءِ الجملةِ التُّرْكِيَّةِ عن ترتيبها في الجملة العربيَّةِ اختلافًا كبيرًا. فقولك مثلاً: .Salon büyüktür: القاعةُ كبيرةٌ، يتألَّفُ من كلمتين: **1)** salon القاعةُ؛ büyüktür كبيرةٌ. وهذه جملةٌ اسميَّةٌ في كِلْتَا اللُّغتين، مؤلَّفةٌ من كلمتين: المبتدأِ والخبرِ. والجملتان متطابقتان من حيث ترتيبُ جُزئَيْهِمَا، إذ تبدأُ كلٌّ منهما بالمبتدأ وتنتهي بالخبر. فإنَّنا لا نلمس إشكالاً في مثل هذه الجملةِ البسيطةِ ما عدا فرقٍ واحدٍ، وهو: أنَّ القاعةَ لفظٌ مؤنَّثٌ في اللُّغةِ

العربيَّةِ، وقد اقتضى أنْ يكونَ خبرُهُ مؤنَّثًا أيضًا، وفقًا للقواعد. أمَّا ترجمتُها، فإنَّها خاليةٌ من هذه الميّزة وفقًا لطبيعة اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ.

وأمَّا إذا كان الخبرُ جملةً مُفَصَّلَةً (كما لو كانت جملةً اسميَّةً أو فعليَّةً فيها جملٌ إعتراضيَّةٌ وعطوفٌ متسلسلةٌ)، فإنَّ ترتيبَ الكلماتِ فيها تختلفُ اختلافًا رهيبًا عن ترتيبها في الجملةِ العربيَّةِ، يُربِك المترجمَ ويروِّعُهُ ويُرْهِقُهُ، ويجعلُ صدرَهُ ضيّقًا حرجًا كأنَّما يصعَّدُ في السماءِ، خاصَّةً إذا كانَ يتولَّى ترجمةً فوريَّةً فيها مسؤوليَّةٌ، كالترجمة بين رجالِ الدولةِ، والأكاديميّين، والتجَّار.

وأما طريقةُ ترجمةِ الجملةِ الاسميَّةِ من التُّرْكِيَّةِ إلى العربيَّةِ (إذا كان خبرُها جملةً مُفَصَّلَةً)؛ فتُنقَلُ الميتدأ أوَّلاً، ثم تُنْقَلُ بقيَّةُ الكلماتِ من نهايةِ الجملةِ فصاعدًا باتّجاه المُعاكسِ إلى آخرِ كلمةٍ تَلِي المبتدأَ. ولكن ليس في كلِّ الأحوال، يجبُ متابعةُ سلسلةِ الكلماتِ فُرَادَى وباضطِّرادٍ وترتيبٍ، بل يتطلَّبُ الأمرُ أحيانًا أن يَتْرُكَ المترجمُ الكلمةَ الَّتي قد جاءَ دورُها، فَيَتَخَطَّاهَا إلى ما بعدها (بِحَسَبِ الحاجةِ)، ثُمَّ يعودَ إلى ما تَرَكَهُ آنفًا لِيُكْمِلَ ترجمةَ الجملةِ، وهكذا يتردَّدُ بين سلسلةِ الألفاظِ ذَهَابًا وإيَابًا إلى أنْ ينتهيَ من مهمَّتِهِ. وإليك مثالٌ لِترجمةِ جملةٍ اسميَّةٍ من التُّرْكِيَّةِ إلى العربيَّةِ: Zeyd، seyahatten üç ay sonra döndü.

هذهِ ترجمةُ مفرداتِ الجملةِ السابقةِ (مع مراعاةِ ترتيبِ الكلماتِ في الجملةِ التُّرْكِيَّة مُتَقَطِّعَةً):
1) زيدٌ، **2**) الرحلةِ، **3**) مِنْ، **4**) ثَلاَثَةِ، **5**) شَهْرٍ، **6**) بعدَ، **7**) عَادَ.

وهذه ترجمتُها إلى العربيَّةِ وفقا للترتيبِ السابق (مُتَرَابِطَةً): "زَيْدُ الرِّحْلَةَ مِنْ ثَلاَثَةِ شَهْرٍ بَعْدَ عَادَ.

إنَّ الغموضَ الرهيبَ الذي تتوارى به هذه الترجمةُ لا يخفى على أحدٍ من أهلِ اللُّغةِ، ولا يُرْضِي طَبْعًا أَيَّ مُتَرْجِمٍ، كما لا يفهمُهَا أَيُّ مُخَاطَبٍ. فإنَّ المترجمَ إذنْ مضطرٌّ لا محالةَ إلى تعديلٍ جذريٍّ لمثلِ هذهِ الصيغةِ الْمُعَقَّدَةِ بأقَصَى سرعةٍ لتأخذ الجملةُ شكلَها الصحيحَ في هذا الترتيبِ: "عَادَ زَيْدٌ مِنْ رِحْلَتِهِ بَعْدَ ثَلاثَةِ أشْهُرٍ".

يتَّضح من خلالِ هذا المثالِ أنَّ ترتيبَ الكلماتِ في أثناءِ الترجمةِ من اللُّغةِ التُّرْكِيَّة إلى اللُّغةِ العربيَّةِ (وَبِالْعَكْسِ) أمرٌ خطيرٌ ومهمَّةٌ لا يجوز أن يتولاَّها إلاَّ من كانَ بارعًا في اللُّغتين على مستوًى واحدٍ، ومتخصِّصًا في فنِّ الترجمةِ، كما يتَّضح من المثال السابق أن عمليَّةَ التعديلِ للجملةِ الخبريَّةِ أيضًا

مسألةٌ مهمَّةٌ جِدًّا، تتطلَّبُ مهارةً فائقةً في قواعدِ اللُّغَتين. فعلى سبيلِ المثال: كلمةُ (شَهْر) في الجملةِ التُّرْكِيَّةِ السابقةِ، لا يجوز نقلُها إلى العربيَّة بصيغةِ الْمُفْرَدِ، بل يجب نقلُها بصيغة الجمع (أَشْهُر) للسبب المعروف في النحو العربيِّ. كما لا يجوز تأخير (مِنْ) الابتدائيةِ عن كلمة (الرحلةِ)، مع أنَّ مُقَابِلَهَا (ten) قد جاءت مؤخَّرَةً في الجملةِ التُّرْكِيَّة (seyahatten).

9) يَتَمَيَّزُ مفهومُ الْخَبَرِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّة بِلاَحِقَةٍ في آخره، يختلف ضبطها في ثمانية أشكالٍ، وهي: Dır، dir، dur، tır، tir، tur، tür.

كلُّ خبرٍ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ ينتهي حتمًا بإحدى هذه اللاَّحِقَاتِ، وفقًا لقوانينِ النحوِ التركيّ، وتسمَّى هذه اللاَّحقةُ (كوشاج koşaç)، تدلُّ على معنى الإِخْبَارِ حقيقةً. نحو: su akıcıdır: المَاءُ سَائِلٌ. وكلمة akıcı في القاموس التُّرْكِيّ وإنْ كانت دالَّةً على (السَّيَلاَنِ) بدون لاحقةٍ في آخرها، لكنَّها لا تدلُّ (على الإِخْبَارِ عن السَّيَلاَنِ) في حقيقةِ الأمرِ، بل تُفيدُ بالأحرَى معنى قابليَّةِ السَّيَلاَنِ فحسب. وإنما تدلُّ على الإِخْبَارِ عن فِعْلِ السَّيَلاَنِ بعد انضمامِ هذهِ اللاَّحقةِ في آخرِها بخلاف اللُّغَةِ العربيَّةِ.

إنَّ الخبرَ في اللُّغةِ العربيَّةِ خالٍ من مثلِ هذه اللاحقةِ، لكنْ مشتملٌ على معناهَا، فالإنسانُ العربِيُّ المثقَّفُ يُدركُ بالسليقةِ معنى الإِخْبَارِ فور تلقِّيهِ الْخَبَرَ مباشرةً.

10) أغلبُ الجُمَلِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ اسميَّةٌ عادةً، بينما يجبُ نقلُ هذه الْجُمَلِ إلى العربيَّةِ في صِيَغٍ فِعْلِيَّةٍ، تقتضِيهِ طبيعةُ اللُّغتَيْنِ، وقوانينُ الترجمةِ. نحو: Hatice geldi. يجب تعريب هذه الجملة في صيغةِ: "جَاءَتْ خَدِيجَةُ"، مع أنَّ صيغتَهَا في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ: "خَدِيجَةُ جَاءَتْ". لا يُقَدَّمُ الفعلُ على الفاعِلِ في الجملةِ البسيطةِ دون ضرورةٍ مُلِحَّةٍ كما في المثالِ السابقِ، إلاَّ إذا كان المتكلِّمُ مهتَمًّا بالفعلِ أكثر من فاعلِهِ في مثل قولك: Uyardım Ali'yi. أي نَبَّهْتُ عَلِيًّا (بمعنى عَلِيًّا نَبَّهْتُ). يدلُّ هذا المثالُ على أنَّكَ مهتمٌّ بأمر التنبيهِ أكثر من اهتمامِكَ بشخصِ عليٍّ. أمَّا إذا قدَّمَ الناطق (التُّرْكِيُّ) الفعلَ على الفاعِلِ فإنه يريد بذلك أن يُلفِتَ انتباهَ المخاطبِ إلى خطورة الفعل أو إلى عاجليَّتِهِ، كما في المثال السابق.

11) استخدمَ الأتراك الأبجدية العربيَّةَ منذ اعتناقِهِمْ للاسلامِ، أسوةً بالْفُرْسِ الذين أسلموا قبلَهم. إلاَّ أنَّهم تأخَّروا عن استخدامِ لُغَتِهِمْ في التدوين إلى ما بعدَ فَتْحِهِمْ للمنطقة الأناضوليَّةِ. ولَمَّا كانت

لغتُهُم قاصرةً عن استيعابِ ما يتلقَّوْنَهُ من مصطلحاتِ العلومِ (وهي كلُّها عربيَّةٌ يومئذٍ)، بدؤوا يقتبسون كلماتٍ من القاموسِ العربِيِّ لإثراءِ اللغةِ التُّرْكِيَّةِ وتطويرِهَا إلى مستوَى الكفَائَةِ لنقلِ المعارفِ الإسلاميَّةِ بخاصَّةٍ. إلاَّ أنَّ هذا الاقتباسَ كانَ عشوائيًّا نشأتْ منه أزماتٌ لغويَّةٌ معقَّدةٌ أفضتْ إلى تحريفِ كثيرٍ من المفاهيم، كما قطعتِ الصلةَ بين اللغةِ التُّرْكِيَّة وبين أصلِها، فاختزلت منها لغةً مستقلَّةً بحيث أصبحتْ لُغَتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ أسفرتْ عنه مشاكلُ اجتماعيَّةٌ متعدِّدةُ الوجوهِ خاصَّةً في العهدِ الأخيرِ من الحكمِ العثمانِيِّ[202]. لأنَّ هذا الاقتباسَ لم يكن على أساسٍ من التنسيقِ، ولا كانتْ

---

[202] تحوّلت الطبقةُ الحاكمةُ (بما فيهم جميعُ الموظفين في اجهزة الدولة العثمانية) إلى فئةٍ متباينةٍ من المجتمع. كانت لهذه الطبقة لغةٌ خاصّةٌ (وهي اللغةُ العثمانيّةُ المتضافرةُ من كلماتٍ وتركيباتٍ ومصطلحاتٍ عربية وفارسيّةٍ)؛ وللشعبِ لغتُهُ الأصليَّةُ (اللغةُ التُّرْكِيَّة الأناضوليَّةُ). فلم يكن أحد من العامّةِ يفهمُ كلامَ هذه الطبقةِ، كما لم يفهم الناسُ شيئًا من الصِيَغِ الرسميّةِ (الواردةِ في المستندات الخاصّةِ بمصالحهم). لذا كانوا دائمًا بحاجةٍ إلى من يُتَرْجِمُ لهم القوانينَ والقراراتِ الصادرةَ بشئونِ قضاياهم وعلاقاتِهِمْ ونِزَاعِهِمْ... لم يستطعْ أحدٌ من العامّةِ أنْ يرفعَ شكواهُ بمجرَّدِ نفسِهِ إلى مراكز الأمنِ والْمَحَاكِمِ، بل كلُّ شخصٍ عامّيٍّ كان يلجأ إلى وسيطٍ لِمُتَابَعَةِ شؤونه لدى الجهات الرسميةِ، ذلك لأنّه يجهل اللغةَ العثمانيّةِ ليس إلاّ.. فكان لهذه المشكلةِ أثرٌ غريبٌ في نفوس المواطنين، جَعَلَهُمْ يرون أنفسَهم حقيرين من الطبقة الثانية أمام الموظّفين ورجالِ الدولةِ. يخاطبونهم بصفات خاصّةٍ على سبيل التوقير والإجلال، كقولهم: "أَفَنْدِيمِزْ" أي مولانا، أو خضرة الفلاني، أو "ذَاتِ عَالِينِزْ"، أو "ذَاتِ عَالِيلَرِي" (بصيغةِ الغائب احْتِرَامًا لَهُ) ونحو ذلك.

كان الناسُ يتواضعون حتى لأدنى موظّفٍ تَوَاضُعَ العبيد لسادتِهِمْ، فلم يفطنوا أبدًا إلى انهم مواطنون أحرارٌ أصلاً. بل أصبحوا مع الزّمانِ يعتقدون أن مَنْ يتكلّم باللغة العثمانيةِ إنّما يفوق من لا يتكلمونها، بموهبةٍ امتازوا بها، إذن يجب احترامهم!

كانت اللغةُ العثمانيةُ في بداية أمرها مفهومةً إلى حدٍّ (يظهر ذلك من فَرْمَانَاتِ السلاطينِ، وَمُدَوَّنَاتِ الدَّوْلَةِ، وَالْمُكَاتَبَاتِ...). ولكنها تحوّلت في العهدِ الأخيرِ إلى لغةٍ معقّدَةٍ لما تشتمل عليها من تركيباتٍ متسلسلةٍ متضافرةٍ من الكلمات العربيّة والفارسيّة. كان الغرضُ في صياغةِ معظمِها إظهارُ المهارةِ الأدبيّةِ، والتمويه إلى أنّ الكاتبَ أو المتكلّمَ له باعٌ طويلٌ في العلومِ والمعارفِ، ذلك لإلقاءِ الهيبةِ والعظمة على السامعِ والقارئِ، وكسبِ إعجابهما واغتباطهما. كانت العبارات تصاغُ أحيانًا بأساليبَ شيطانيّةٍ يسودهل ألوانٌ من المبالغةِ يتخلّلها تركيبَاتٌ من قبيل الألغاز والأحاجي، يتفلسف فيها القائلُ أو الكاتبُ بفنون من الزخرفةِ والمراوغةِ واستعراضِ البلاغةِ، كعبارات سعيد النورسِيِّ و أمثاله الذين كانت حياتهم كلها منافسةٌ وعراكٌ وحسد في سبيل الشهرةِ والاستيلاءِ على القلوب.

من هذه العبارات (على سبيل المثال)، تجدون فيما يلي مقطعًا مُقْتَبَسًا من كتابٍ طُبِعَ ونُشِرَ في أواخر أيام الدولة العثمانية. يشكو الناشر الثاني في مقدمته من سوءِ تصرّفِ الناشرِ الأوّلِ. إلاَّ أنَّ صاحبَ المقدمةِ يخاطبُ قُرَّائَهُ بصيغةٍ لا يكادُ يفهمها شخصٌ من الأتراك إلاَّ بمساعدةٍ من يترجم له هذه المقدّمةَ إلى اللغة التُّرْكِيَّة! وإنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَاب!

إليكم المقطعُ الْمُقْتَبَسُ (باللغة العثمانية، دون أيّ تصرُّفٍ فيه، أو أيّ تصحيحٍ للأخطاءِ النحويّةِ واللُّغويّةِ الواردةِ فيها) مع ترجمتها إلى اللغة التُّرْكِيَّة الأناضوليّةِ، على أنّ المقارنةَ بين الْمَتْنِ الْمُقْتَبَسِ وَتَرْجَمَتِهِ لا يمكن أنْ يقومَ بها إلاَّ من يُتقِنُ اللُّغتين حَقَّ الإتقَانِ، وقليلٌ مّا هم اليومَ. إليكم أوّلاً: المقطعُ الْمُقْتَبَسُ (باللغة الغثمانية):

"حيفا كه أدباي مسلمينك عند الغربيون مايهء فخر ومباهاتلري بولنان بويله بر أثر بهين وديوان كزينك طبع ونشري بعض نا أهل طابعلرك دست جهالت بيوستلرنه دوشوب شيرازهء نظم وإنتظامي برهم، ورباعيات وغزللري موي سرزنكي كبي بيجيده ودرهم أولوب استفادكاه أرباب شعر وإنشادن دور، وبيشكاه مطالعهء عرفاي بلاغت انتمادن مهجور قالوب نقل محافل أدبا ومجالس عرفا بولنان أغلب أشعار آبداري، طابعك لئامت طبعنه فدا وأنداختهء زير دستكاه نسيان أوله رق محو هبا أولمشدر." (ديوان الحافظ الشيرازي، مطبعة أختر. إسطنبول–**1886**)

وهذه ترجمة المقطع السابق إلى اللغة التُّرْكِيَّة الآناضولية بالحروف اللاتينية:

«Ne yazık ki bütün Müslüman ediplerin batılılara karşı gurur ve üstünlük duygularının temeli olan böyle güzel bir eser ve seçkin bir şiir kitabının basım ve yayımı, bazı iş bilmez yayıncıların bilgisizlikle özdeş olmuş ellerine düşüp kitabın dirlik ve düzeni bozularak birbirine karışmış, rubai ve gazelleri zenci saçı gibi birbirine dolaşıp perişan olmuş şiir ve yazı sanatı ustalarının düşünce alanının dışına terk edilmiş, ediplerin ve bilginlerin toplantılarında ancak alıp verilen pek parlak şiirleri basımcının kötü zevklerine kurban ve unutkanlık tezgahına fırlatılıp atılarak ziyan olmuştur.»

هناك مراقبةٌ تقومُ بها سلطةٌ علميَّةٌ مسؤولةٌ. بل كلُّ مَنْ أشكلَ عليه التعريفُ بشيءٍ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ اقتبسَ من القاموسِ العربيِّ ما أعجبَهُ، وضمَّهُ إلى التُّرْكِيَّةِ بدون رَوِيَّةٍ ليعبِّرَ به عن ذالك الشيءِ وإنْ لم يكنْ موافقًا للغرضِ في حقيقةِ الأمر.

دامتْ هذه العشوائيَّةُ في الاقتباسِ عَبْرَ القرون، وهكذا حُشِيَتْ اللغةُ التُّرْكِيَّةُ بآلافٍ من الكلماتِ العربيَّةِ[203]

[203] يشير أحد الباحثين (سيفان نيشانيان) في كلمةٍ رمزيَّةٍ له، يقول: "إنَّ اللغةَ التُّرْكِيَّةَ تغذَّتْ من مائةٍ وعشرين لسانًا على مدى ثلاثةِ آلافِ سنين، وأخذتْ من هذه اللُّغَاتِ قرابةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ألفِ كلمةٍ".

لعل هذه الإقتباسات، معظمها كان من اللغة العربية. وأمَّا مجموعُ الكلماتِ العربيَّةِ التي نُقِلَتْ إلى التُّرْكِيَّةِ، – سواءٌ المحرَّفَةُ منها والمستعمَلَةُ على الوجهِ الصحيحِ– فقد جمعناها على سبيلِ الحصرِ فيما يلي. وهذه قائمةٌ بالكلماتِ التي اقتبسها الأتراك على مدى تاريخهم من اللغةِ العربيةِ فحسب، عدا ما أخذوا من بقية اللغات:

A: aba, abbas, abdal, abdülaziz, abdülbaki, abdülbari, abdulcebbar, abdülcelil, abdülfettah, abdülgaffar, abdülgafur, abdülhakim, abdülhamit, abdülkadir, abdülkerim, abdullah, abdüllatif, abdülmecit, abdülmelik, abdurrahim, abdurrahman, abdürrezzak, abdüsselâm, abdülvahap, abdülvahit, abes, abide, ablak, abullabut, abraş, abus, abuzer, acaba, acayip, acele, acem, acemi, acep, acil, aciz, aclân, acur, acuze, acz, adalet, adam, adap, add, adem, adese, adet, âdet, âdeta, adî, âdil, adl, âdilâne, adlî, adliye, adnan, af, afakî, afet, afif, afiyet, afyon, ağyar, ah, ahali, ahar, ahbap, ahdî, ahfat, ahi, ahir, ahiren, ahit, ahize, ahkâm, ahlâk, ahlâkî, ahmak, ahmet, ahret, ahşa, ahşap, ahval, ahzu-kabz, aidat, aidiyet, aile, ailevî, ait, akait, akamet, akap, akar, akaret, akıbet, akıl, akif, akide, akik, akil, akim, akis, akit, aklıselim, aklî, akraba, akran, akrep, aksiseda, aksülamel, aktar, (attar), aktariye, (attariyye), akvam, âla, Alaettin, alâka, alelacele, alelhusus, alelumum, alelusul, alem, âlem, alenen, alenî, aleniyet, alet, alevî, aleyh, aleykümselâm, (aleykumusselâm), ali, âlî, alîl, âlim, alimallah, Allah, allâme, âmâ, ama, aman, amber, amca, amel, amele, amelî, ameliyat, ameliye, amenna, amentü, âmil, amin, amir, amme, amut, amudî, an, anane, anasır, anî, anzarot, ar, araba, âraz, arazi, arbede, ardiye, arıza, arızî, ârî, arif, arife, ariyet, ariza, arsa, arş, aruz, asa, asabî, asalet, asaleten, asap, asgarî, ashap, asıl, âsım, asır, asi, asil, aslı, asker, askeri, askeriye, asla, aslen, aslî, aşâr, âşık, aşk, aşiret, aşure, atâ, atalet, atfen, atıf, atıl, âtî, atik, atlas, avam, avane, avarız, avdet, avret, ayan, âyan, ayar, âyet, ayıp, ayn, aynen, aynî, ayniyat, ayniyet, ayşe, ayyar, ayyaş, ayyuk, aza, azamet, azamî, azap, azil, azim, azimet, aziz, azmi;

B: babıalî, badana, badema, badire, bahaettin, bahar, bahir, bahis, bakaya, baki, bakiye, baki, bakir, bakire, bakkal, bakkaliye, bakla, bakliyat, balgam, baliğ, bamya, bap, bariz, barut, basiret, basit, basri, basur, basübadelmevt, batıl, batın, battal, battaniye, bayat, bayezit, bayır, bayi, baytar, bazen, bazı, bedel, beden, bedevî, bedia, bedrettin, bedri, beis, bedriye, behçet, behiç, behice, behiyye, behlül, beka, bekir, belâ, belâgat, belde, belediye, beleş, beraat, berat, bereket, berrak, besim, besime, besmele, beşer, beşir, beşire, beşuş, bevvap, beyan, beyaz, beyit, beyn, beynelmilel, beytülmâl, beyza, bez, bezir, bezzaz, bızır, biat, bid’at, bidayet, bihakkın, bilahare, bilâistisna, bilakaydüşart, bilakis, bilcümle, bilâvasıta, bilfarz, bilfiil, bilhassa, billahi, bililtizam, billur, bilmukabele, bilumum, bilvasıta, bilvesile, bina, binaen, binaenaley, bismillah, bittabi, bizatihi, bizzat, bornoz, budala, buhar buhran, buhur, buhurumeryem, bukalemun, bulûğ, burak, burç, burhan, buşra, butlan, buut, bühtan, büluğ, bünyan, bünye,

C: cafer, caiz, cadde, cahide, cahit, camia, casus, cazibe, cazip, cebbar, ceberut, cebir, cebren, cebrî, cedit, cefa, ceffelkalem, cehalet, cehil, cehit, cehrî, celâdet, celâl, celep, cellât, celse, cemaat, cemal, cemalettin, cem’an, cemil, cemile, cemiyet, cemre, cenah, cenap, cenaze, cenubî, cenup, cephe, cep, cerahat, cerrah, cerrahî, cesamet, cesaret, cesim, cesur, cetvel, cevaben, cevabî, cevap, cevat, cevaz, cevelân, cevdet, cevir, ceviz, cevval, ceza, cezir, cezmi, cidar, cidal, cidden, ciddi, ciddiyet, cihat, cihaz, cihet, cilâ, cildiye, cilt, cin, cinaî, cinas, cinayet, cinnet, cinsî, cinsiyet, cisim, cismanî, civar, coğrafya, cudi, cuma, cumhur, cumhuriyet, cumhurreisi, cüppe, cühelâ, cülûs, cümle, cümleten, cümudiyet, cüneyt, cünup, cüret, cüruf, cürüm, cüsse, cüz, cüzam, cüz’î, çeyiz, çul (cull),

D: dâhi, dahil, dahilî, dahiliye, dahl, daima, daimî, daire, dakik, dakika, deha, dalâlet, darbe, darbımesel, darbuka, darp, darülaceze, darulfünun, dava, davul (tıbl), def, defaten, defin, define, deha, dehalet, dehşet, delâlet, delil, derece, dereke, ders, derz, desise, dessas, deva, devam, deveran, devir, devlet, devre, devren, devrî, devriye, deyyus, dibace, dimağ, din, dinî, diyanet, diyar, diyarbakır, dolap, dua, duhul, dumur, dübür, dükkân, düldül, dünya, dünyevî, düriye, düstur,

E: ebat, ebedî, ebediyyen, ebediyet, ebeveyn, ebleh, ecdat, ecel, ecinni, ecir, ecnebi, eda, edat, edebî, edebiyat, edep, edevat, edibe, edip, ednâ, edvar, efdal, efkâr, efkârıumumiye, efrat, ehemmiyet, ehil, ehlî, ehliyet, ehven, ekalliyet, ekmel, ekrem, ekser, ekseriyet, elan, elvan, elem, elbette, elbise, elbistan, elhasıl, elifba, emanet, emare, emaret, emel, emin, emine, emir, emlâk, emniyet, emraz, emsal, emtia, emval, ender, enkaz, enes, enfiye, enis, enver, erbap, erzak, erzincan, erzurum, esami, esaret, esas, esasen, esasî, esat, esbap, esef, eser, esham, esir, esma, esmer, esna, esra, esrar, esvap, eşkâl, eşkıya, eşhas, eşraf, eşref, eşya, ethem, etraf, evham, eviye, evkaf, evlâ, evleviyyet, evliya, evrak, evsaf, evvel, evvelâ, evveliyat, ey, eylül, eymen, eytam, eyvallah, eyyam, eza, ezel, ezelî, eziyet,

F: faal, faaliyet, fahiş, fahişe, fahrettin, fahrî, fahriye, fahrünnisa, faik, fail, faiz, fakih, fakir, fal, falan, fani, filan, faraş, faraza, farazî, fare, fariğ, farika, fariza, fark, faruk, farz, fatma, fasıl, fasıla, fasih, fasit, fatih, fayda, fazıl, fazilet, fecaat, feci, fecir, feda,

fedaî, fehamet, fehim, fehmi, fehva, fek, felâh, felç, felek, fellâh, felsefe, felsefî, fen, fena, fennî, feragat, ferağ, ferah, feraset, ferç, fert, ferdî, fer'î, ferih-fahur, feriha, ferik, ferit, fersah, ferdî, ferid, fethi, fethiye, fethullah, fesahat, fesat, fesih, fethiye, fetih, fetret, fettan, fetva, fevc, feveran, fevk, fevkalade, fevrî, fevzi, fevziye, feyezan, feyiz, feyza, feyzullah, feza, fezleke, fikra, fırka, fırsat, fısk, fıskiye, fıtık, fıtrat, fıtrî, fidye, fikret, fiil, fiilen, fiilî, filiyat, fikir, fikrî, fikren, fikriyat, fil, filân, firak, firar, firkat, firkateyn, fistan, fitil, fitnat, fitne, fitre, fiyat, filhakika, fuzulî, fücceten, fücur, fütur,

G: gabavet, gabi, gaddar, gafil, gaflet, gafur, gaile, gaip, gaita, galat, galebe, galeyan, galibiyet, galip, galiz, gammaz, ganimet, garaz, garip, gark, garp, gaseyan, gasil, gasp, gaybubet, gaye, gayret, gayrı, gayur, gaza, gazel, gazeliyyat, gazi, gazve, gıyaben, gıyabî, gıyap, gıybet, gıyasettin, gudde, gufran, gurbet, gurup, gurur, gusül,

H: habaset, habbe, haber, habibe, habip, habis, hacamat, hacet, hacim, hacir, haciz, had, hadde, hademe, hâdî, hadim, hadise ,hafakan (afagan), hafif, hafiye, hafriyat, hail, hain, haiz, hak, hakaret, hakem, hakeza, hakikat, hakiki, hakim, hakimiyet, hakir, hakkaniyet, hakkı, hal, hala, hâlâ, halâs, hale, halef, halel, halen, halet, halhal, haliç, halife, halim, halime, halis, halise, halide, halit, halk, halka, hallaç, halt, haluk, halvet, hamail, hamakat, hamal, hamam, hamaset, hamasî, hamdi, hamdullah, hamil, hamile, hamiş, hamit, hamiyet, hamle, hamule, hamur, hamza, hançer, hançere, hanife, hap, harabat, harabe, haraç, haram, haramî, harap, hararet, harbe, harbiye, harç, hardal, hareket, harem, harf, harfiyyen, haricen, haricî, hariciye, hariç, harika, harikulade, haris, harnup, harp, hars, has, hasan, hasankeyf, hasar, hasat, hasmî, hasenat, haset, hâsıl, hâsıla, hâsılât, hasır, hasibe, hasis, hasiyet, haslet, hasret, hassa, hassasiyet, hassaten, haşa, haşarat, haşere, haşim, haşhaş, haşim, haşin, haşir, haşiş, haşiye, haşmet, hat, hata, hatır, hatıra, hatırat, hatice, hatip, hatta, hattat, hava, havale, havarî, havas, havsala, havuz, havya, havza, haya, hayal, hayalî, hayat, haydar, hayır, hayran, hayrat, hayrettin, hayri, hayriye, hayrullah, hayrünnisa, haysiyet, hayvan, hayvanat, hayvanî, haz, hazakat, hazf, hazım, hazır, hazin, hazine, haziran, hazire, hazne, hazret, heba, hece, hedef, heder, hediye, hekim, helâ, helâk, helâl, helecan, helezon, helva, hendese, hendesî, hesabî, hesap, heybet, heyecan, heyelân, heyet, heyhat, heykel, heyulâ, hezel, hezeyan, hizmet, hezimet, hınzır, hırs, hıyar, hiyanet, hızır, hibe hicap, hiciv, hicret, hicri, hidayet, hiddet, hikâye, hikmet, hikmetullah, hilâf, hilâl, hile, hilkat, hilkaten, himaye, himmet, his, hisar, hu, hububat, hudut, hukuk, hukuki, hulasa, hulasaten, hulul, hulus, humar, humma, hurafe, huri, hurç, hurufat, huruç, husul, husumet, hususi, hususiyet, husye, hutbe, huzme, huzur, hüccet, hücre, hücum, hükmen, hükmî, hükümet, hüküm, hülle, hüsna, hür, hürmet, hürmeten, hürriyet, hüsamettin, hüseyin, hüseynî, hüsnü, hüsnühat, hüsna, hüsün, hüsran, hüviyet, hüzün,

I – İ: ırk, ırz, ıslah, ıslahat, ısrar, ıstılah, ıstırap, ıtır, ıtriyyat, ıttıla, iade, iaşe, ibadet, ibare, ibaret, ibate, iblâğ, ibra, ibraz, ibre, ibret, ibrik, icabet, icap, icar, icazet, icmal, icra, icraat, idadi, idam, idame, idare, idareten, idarî, iddia, idman, idrak, ifa, ifade, iffet, iflah, iflas, ifna, ifrat, ifraz, ifrazat, ifrit, ifsat, ifşa, ifşaat, iftar, iftariye, iftihar, iftira, ihale, ihanet, ihata, ihbar, ihbariye, ihdas, ihlâl, ihlâs, ihraç, ihraz, ihsan, ihsas, ihtar, ihtida, ihtifal, ihtikâr, ihtilâç, ihtilâf, ihtilâl, ihtilâm, ihtilât, ihtimal, ihtimam, ihtira, ihtiram, ihtiras, ihtisar, ihtisas, ihtiyar, ihtiyat, ihtiyaten, ihtiyati, ihtizaz, ihram, ihya, ihzar, ihzari, ikame, ikamet, ikaz, ikbal, ikdam, iklim, ikmal, ikna, ikrah, ikram, ikramiye, ikrar, ikaz, iksir, iktibas, iktidar, iktifa, iktisadî, iktisadiyat, iktisap, iktisat, iktiza, ilaç, ilâh, ilâhe, ilâhî, ilâhiyat, ilâm, ilâmaşaallah, ilân, ilânen, ilânihaye, ilâveli, ilelebet, ilga, ilhak, ilham, ikrah, ille, illet, ilmî, ilmiye, ilmuhaber, iltibas, iltica, iltifat, iltihak, iltihap, iltimas, iltizam, ima, imal, imalât, imale, imame, imar, imaret, imbisat, imdat, imha, imkân, imtihan, imtina, imtisal, imtiyaz, imtizaç, imza, inat, inayet, indî, indifa, infaz, infial, infilâk, infisah, inha, inhidam, inhilâl, inhina, inhisar, inhitat, inikâs, inikat, inkâr, inkıbaz, inkılâp, inkıraz, inkıta, inkıyat, inkisar, inkişaf, insaf, insan, insicam, insiyak, inşa, inşirah, intaç, intak, intan, intanî, intaniye, intibah, intibak, intihar, intikal, intikam, intisap, intişar, intizar, inzal, inzibat, inzimam, inziva, iptal, iptida, iptidaî, iptilâ, irade, iradî, irap, irat, irca, irfan, irs, irsal, irsen, irsî, irşat, irtibat, irtica, irticaî, irticalen, irtifa, irtifak, irtihal, irtikâp, irtişa, isabet, isale, ishal, isim, iskân, islahiye, ismen, ismet, isnat, ispat, istiap, istiare, istibdat, istical, isticar, isticvap, istida, istidat, istidlâl, istifa, istifade, istifham, istifra, istifsar, istiğna, isitğrak, istihale, istihbarat, istihdaf, istihdam, istihfaf, istihkak, istihkâm, istihkar, istihlâk, istihrac, istihsal, istihza, istika, istikamet, istikbal, istikra, istikrah, istikrar, istikraz, istikşaf, istifa, istimal, istimdat, istimlâk, istinabe, istinaden, istinaf, istinat, istinkâf, istinsah, istintak, istirahat, istirdat, istirham, istiskal, istismar, istisna, istisnaî, istişare, istitrat, istizan, isyan, işaret, işba, işgal, işret, iştah, iştial, iştigal, iştikak, iştirak, iştiyak, ita, itaat, itfa, ithaf, ithal, ithalât, itham, itibar, itibaren, itibarî, itidal, itikat, itilâf, itimat, itina, itiraf, itiraz, itiyat, itizar, itlâf, ittirat, ittifak, ittihaz, ivaz, izabe, izaç, izafe, izafet, izafeten, izafiyet, izah, izahat, izale, izan, izaz, izdiham, izdivaç, izhar, izin, izmihlâl, izzet, izzettin;

K: kabahat, kabız, kabiliyet, kabir, kabul, kâbus, kabzımal, kadeh, kademe, kader, kadayıf, kadı, kadife, kadim, kadir, kadri, kadriye, kafes, kâfi, kâfir, kafiye, kâfûr, kahır, kâhil, kâhin, kahkaha, kahpe, kahve, kaide, kakûle, kail, kaim, kâin, kâinat, kalben, kalbî, kale, kalem, kalevî, kalıp, kalleş, kalp, kalubelâ, kâmil, kâmilen, kamus, kanaat, kandil, kani, kantar, kanun, kanunen, karabet, karar, kari, kariha, karine, karnabit, kasa, kasap, kasavet, kâse, kasım, kasıt, kaside, kasten, kastî, kasvet, kâaşif, katar, kati, kâtibe, kâtibiadl, katil, kâtip, katiyen, katiyet, katran, katre, kavas, kavat, kavi, kavis, kavim, kavmî, kavmiyet, kayıp, kaza, kazaen, kazasker, kâzım, kaziyye, kazurat, kebap, keder, kefalet, kefe, kefen, kefere, kefil, kefiye, kehanet, kelâm, kemal, kerahet, keramet, kerem, kerhen, kerih, kerim, kerime, kesafet, kesat, kesif, kesir, kerrake, kesre, kesret, keşif, kaşşaf, ketum, ketumiyet, kevser, keyfî, keyfiyet, keza, kezzap, kıdem, kılıf, kına, kınnap, kıraat, kırmızı, kısas, kısmen, kısmet, kısmî, kıssa, kıstas, kıta, kıvam, kıyam, kıyamet, kıyas, kıyamet, kibar, kibir, kibrit, kimya, kimyevî, kinaye, kira, kitabe, kispet, kitabet, kitabî, kitap, kubbe, kubur, kudret, kudüm, kûfi, kule, kumar, kumaş, kurban, kurna, kusur, kudbettin, kutsî, kutsiyet, kutup, kuvvet kuyudat, külfet, küllî, külliyat, külliyet, külliyen, künh, küre, kürevî, kürsü, küsur, küsurat, künye,

L: lâdin, lâdinî, lâfzî, lâğıv, lâhavle, lâhika, lâhin, lâhit, lâhmacun, lâhût, lâhûtî, lâhza, lâkap, lâkaydî, lâkayt, lâklaka, lâklakiyat, lâlettayin, lâmi, lamia, lânet, lâteşbih, lâtif, lâtife, laubalî, lâyemut, lâyık, lâyıha, lâzım, leh, lehçe, lehim, leman, letafet, levazım, levha, leylâ, leylek, leylî, lezzet, libas, lif, lisan, liva, liyakat, lûtî, lugat, lütfen, lütfiye, lütfü, lütuf, lüzum,

M: maada, maalesef, maarif, maaş, maazallah, mabad, mabed, mabeyn, mabude, mabut, macide, macit, macun, madde, maddeten, maddi, maddiyat, madem, maden, madenî, madun, mafevk, mafsal, mağara, mağaza, mağdur, mağduriyet, mağfiret, mağfur, mağlubiyet, mağlup, mağmum, mağribî, mağrip, mağrur, mağşuş, mahal, mahalle, mahallî, maharet, mahbup, mahcubiyet, mahcup, mahcur, mahcuz, mahdum, mahdut, mahfaza, mahfil, mahfuz, mahir, mahiyet, mahkeme, mahkûkât, mahkûm, mahkûmiyet, mahlas, mahlep, mahlûk, mahlûkât, mahlûl, mahlût, mahmut, mahmudiye, mahmul, mahmur, mahpus,

mahreç, mahrek, mahrem, mahremiyet, mahrukat, mahrum, mahrumiyet, mahrutî, mahsuben, mahsul, mahsulât, mahsun, mahsup, mahsur, mahsus, mahşer, mahşerî, mahut, mahviyet, mazhar, mahzen, mahzun, mahzur, mail, maişet, maiyet, makabil, makale, makam, makara, makas, makat, makber, makbul, makbuz, maksat, maksure, maktu, maktul, makul, makule, makûs, mal, malayani, malî, malik, maliye, maliyet, malûm, malûmat, malzeme, mamafih, mamelek, mamul, mamulât, mamur, mamure, manâ, manen, manevî, maneviyat, mangal, mani, mania, mansur, mantık, mantıken, mantıkî, manzara, manzum, manzume, maraz, marazî, marifet, mariz, maruf, maruz, maruzat, masal, masarif, maskara, maslahat, maslak, masnuat, masraf, mastar, mastara, mastur, masum, masumiyet, masun, masuniyet, maşallah, maşer, maşlah, maşrapa, maşrık, maşuk, matah, matara, matbaa, matbu, matbuat, matem, matkap, matla, matlup, matrah, matrak, matuf, matuh, maval, mavera, mavi, (semavî) mavna, mayi, mazarrat, mazbata, mazbut, mazeret, mazhar, mazhariyet, mazi, mazlum, mazmun, maznun, mazruf, mazur, meal, mealen, mebde, meblağ, mebni, mebus, mebzul, mebzuliyet, mecal, mecaz, mecazen, mecazî, mecbur, mecbure, mecburen, mecburî, mecburiyet, meccanen, meccanî, mecelle, mecidiye, mecit, meclis, meclup, mecmu, mecmua, mecnun, mecra, mecruh, meczup, meçhul, meçhulat, medar, meddah, meddücezir, medenî, medeniyet, medet, medlul, medrese, mefahir, mefharet, mefhum, mefkûre, meflûç, mefruşat, mefsuh, meftun, meful, mehabet, mehaz, mehdi, mehil, mekân, mekkâre, mehdi, mehmet (muhammed) meksefe, mektep, mektup, melâl, melanet, melce, meleke, melfuf, melik, melike, mel'un, memat, memba, memduh, memleha, memleket, memlûk, memnuiyet, memnun, memnuniyet, memur, memure, memurin, memuriyet, men, mendil, menfaat, menfez, menfi, menfur, menhus, meni, menkıbe, menkul, menkuş, mensubiyet, mensucat, mensup, mensur, menşe, menzil, merak, meram, merasim, meratip, merbut, merbutiyet, marcan, merci, merhaba, merhale, merhamet, merhem, merhum, merhume, merih, mer'iyet, merkep, merkez, merkezî, merkeziyet, merkup, mermi, mersiye, mertebe, merve, mesafe, mesaha, mesai, mesamat, mesane, mescit, mesel, meselâ, mesele, meserret, mesih, mesire, mesken, meskûkât, meskûn, meskût, meslek, meslekî, mesmu, mesnevi, mesrur, mestur, mesture, mesudiye, mesul, mesuliyet, mesut, meşakkat, meşale, meşgale, meşgul, meşguliyet, meşher, meşhur, meşkûk, meşrep, meşru, meşrubat, meşruhat, meşruta, meşruten, meşrut, meşrutiyet, meş'um, meşveret, meta, metanet, metfun, methal, methiye, metin, metrûk, metrûkât, mevcudiyet, mevcut, mevdu, mevduat, mevhum, mevki, mevkuf, mevkute, mevlâ, mevlevî, mevlit, mevsim, mevsuk, mevta, mevut, mevi, mevziî, mevzu, mevzuat, mevzun, mevzuubahis, meyil, meymenet, meyus, meyyal, meyyit, mezalim, mezar, mezat, mezbaha, mezbele, mezhep, meziyet, mezkûr, mezraa, mezru, mezun, mezuniyet, mıknatıs, mıntıka, mısra, mızrak, mızrap, mide, midevî, miftah, miğfer, mihenk, mihnet, mihrak, mihver, mikâp, miktar, mikyas, milâdî, minare, minkale, minnet, minval, miraç, miras, misafir, misak, misal, misk, miskin, mithat, miyar, mizah, mizahî, mizan, muaccel, muadele, muadelet, muadil, muaf, muafiyet, muahede, muaheze, muahhar, muallâ, muallak, muallel, muallim, muallime, muamelât, muamma, muammer, muannit, muarefe, muariz, muasır, muaşeret, muattal, muavenet, muavin, muayene, muayyen, muazzam, muazzep, muazzez, mubassır, mubayaa, mucip, mucit, mucize, mudi, mufassal, mugaddi, mugalata, muganni, muganniye, mugayir, muğber, muğlâk, muhabbet, muhabere, muhabir, muhaceret, muhacim, muhacir, muhafaza, muhafız, muhakeme, muhakkak, muhalefet, muhalif, muhallebi, muhammed, muhammen, muhammes, muhammin, muharebe, muharip, muharrem, muharrer, muharrik, muharrir, muhasamat, muhasara, muhasebat, muhasebe, muhasip, muhassala, muhatap, muhatara, muhavere, muhavvile, muhayyel, muhayyer, muhayyile, muhbir, muhip, muhit, muhkem, muhlis, muhrip, muhsin, muhsine, muhtaç, muhtar, muhtariyet, muhtasar, muhtekir, muhtelif, muhtelit, muhtemel, muhtemelen, muhterem, muhterif, muhteris, muhteşem, muhteva, muhtevî, muhteviyat, muhtıra, muhzır, muin, mukabele, mukabil, mukaddem, mukaddema, mukaddeme, mukadder, mukadderat, mukaddes, mukaddesat, mukaffa, mukallit, mukannen, mukarenet, mukarrer, mukarrerat, mukataa, mukavele, mukavemet, mukavim, mukavva, mukavves, mukayese, mukayyet, mukayyit, mukim, muktebes, muktedir, muktesit, munis, muntazam, muntazaman, muntazır, munzam, murabaha, murabaa, murabıt, muradiye, murafaa, murahhas, murakabe, murakıp, murat, musahabe, musahhih, musahip, musakka, musalla, musallat, musibet, muska, musluk, mustafa, muta, mutaassıp, mutabakat, mutabık, mutaf, mutantan, mutariza, mutasarrıf, mutasavver, mutasavvıf, mutat, mutatabbip, mutavaat, mutavassıt, mutazarrır, muteber, mutedil, mutekit, mutemet, mutena, muteriz, mutfak, muti, mutlak, muz, muzaffer, muzip, mübadele, mübadil, mübahase, mübalağa, mübarek, mübareze, mübaşeret, mübaşir, mübayenet, müberra, mübrem, mücadele, mücahit, mücavir, mücbir, mücehhez, mücellit, mücerret, mücerrep, mücessem, mücevher, mücevherat, mücmel, mücrim, müçtehit, müdafaa, müdahale, müdahil, müdana, müdara, müdavi, müdavim, müddei, müddeialeyh, müddeiumumi, müddet, müdebbir, müdekkik, müdellel, müderris, müdevven, müdevvenat, müdevver, müdire, müdrik, müdrir, müdür, müdüriyet, müebbet, müeddep, müellif, müemmen, müennes, müesses, müessif, müessir, müessis, müeyyide, müezzin, müfessir, müfettiş, müflis, müfredat, müfret, müfreze, müfrit, müfsit, müftehir, müfteri, müftü, mühendis, müheyya, mühim, mühimmat, mühlet, mühmel, mühtedî, mükâfat, mükâleme, mükellef, mükellefiyet, mükemmel, mükemmeliyet, mükerrer, mükeyyifat, mükremin, mükrim, müktesebat, müktesep, mülahaza, mülahazat, mülahham, mülakat, mülâki, mülâyemet, mülâyim, mülâzım, mülemma, mülevves, müleyyin, mülga, mülhak, mülhakat, mülhem, mülhit, mülk, mülkî, mülkiye, mülkiyet, mülteci, mültefit, mümanaat, mümarese, mümasil, mümbit, mümessil, mümeyyiz, mümin, mümkün, mümtaz, münacat, münadi, münafık, münakalât, münakale, münakasa, münakaşa, münasebet, münasip, münavebe, münazara, müncer, mündemiç, münderecat, münebbih, müneccim, münekkit, münevver, münferiden, münferit, münfesih, münhal, münhasır, münhasıran, münir, münire, münkariz, münkir, münşeat, münşi, müntahabat, müntahip, müntehir, müntesip, münteşir, münzevi, müphem, müphemiyet, müptedi, müptelâ, müptezel, müracaat, müradif, mürai, mürailik, mürebbi, mürebbiye, mürеccah, müreffeh, mürekkep, mürettebat, mürettip, mürit, mürşit, mürteci, mürtekip, mürteza, mürur, müruruzaman, mürüvvet, müsaade, müsabaka, müsabık, müsademe, müsadere, müsait, müsamaha, müsamere, müsavat, müsavî, müsebbip, müeccel, müseddes, müsekkin, müsellem, müselles, müsemma, müshil, müskirat, müslim, müspet, müsrif, müstacel, müstaceliyet, müstafi, müstağni, müstahak, müstahdem, müstahkem, müstahsil, müstahzar, müstahzarat, müstait, müstakar, müstakbel, müstakil, müstamel, müstantik, müstear, müstebit, müstecir, müstefit, müstehcen, müstehlik, müstehzi, müstemleke, müsteniden, müstenit, müstenkif, müstensih, müsterih, müstesna, müsteşar, müsteşrik, müstevî, müstevlî, müstezat, müsvedde, müşabehet, müşabih, müşahede, müşahhas, müşahit, müşareket, müşarünileyh, müşavere, müşavir, müşekkel, müşerref, müşevveş, müşevvik, müşir, müşfik, müşkül, müşkülât, müşküle, müştak, müşteki, müştemilât, müşterek, müştereken, müşteri, mütalaa, mütareke, müteaddit, müteahhit, müteakiben, müteakip, müteallik, müteammim, mütearife, mütebahhir, mütebaki, mütebasbıs, mütebessim, mütecanis, mütecasir, mütecaviz, mütecessis, mütedair, mütedavil, mütedeyyin, müteessif, müteessir, mütefekkir, müteferrik, müteferrika, mütegallibe, mütehakkim, mütehammil, müteharrik, mütehassıs, mütehassis, mütehavvil, mütehayyir, mütehevvir, müteheyyiç, mütekabil, mütekabiliyet, mütekait, mütekâmil, mütekebbir, mütekellim, mütemadi, mütemadiyen, mütemayil, mütemmim, mütenakıs, mütenasip, mütenavip, mütenazır, mütenekkir, mütenekkiren, mütenevvi, müteradif, müterakim, mütercem, mütercim, mütereddit, mütenasip, müteselli, müteselsil, müteşebbis, müteşekkil, müteşekki,r mütevakkıf, mütevazı, müteveccih, mütevccihen, müteveffa, mütevehhim, mütevekkil, mütevelli, mütevellit, müteverrim, müteyakkız, müthiş, müttefik, müttefikan, müttehiden, müttehit, müvekkil, müverrih, müvesvis, müvezzi, müyesser, müzaheret, müzahir, müzahrefat, müzakerat, müzakere, müzayaka, müzayede, müzekker, müzeyyen, müzevvir, müzmin,

N: naaş, naat, nabız, naci, naciye, nadim, nadir, nadirat, nadiren, nafaka, nafi, nafia, nafiye, nafiz, nağme, nahit, nahide, nahiye, nail, naim, naime, naip, nakarat, nakden, nakdî, nakıs, nakış, nakil, nakit, nakkare, nakkaş, naklen, naklî, nakliyat, nakliye, nakzen, nal, nalın, nar, (ateş) nas, nasp nasır, nasihat, nasip, nasranî, naşir, natıka, natır, natuk, nazar, nazaran, nazarî, nazariyat, nazariye, nazım, nâzım, nazmiye, nazır, nazil, nazire, nebahat, nebat, nebatat, nebatî, nebze, necaset, necat, necati, necdet, necip, necibe, necmettin, necmi, nevlâ, nedamet, nedbe, nedim, nedime, nedret, nefaset, nefer, nefes, nefha, nefir, nefis, nefise, nefret, nefsani, neharî, nehir, nekahet, nekbet, nema, nesep, nesibe, nesim, nesime, neşe, neşet, neşide, neşir, neşren, neşriyat, neşvünema, netice, nevazil, nevale, nezaret, nezih, nezihe, nezir, nezle, nısfiye, nısıf, nida, nifak, nihaî, nihayet, nikâh, nikap, nimet, nisaî, nisaiye, nisap, nispet, nispeten, nisyan, nişadır, niyabet, niyet, niza, nizam, nizamî, nizamiye, numan, nur, nuranî, nurettin, nuri, nuriye, nurullah, nüfus, nüfuz, nükhet, nükte, nüsha, nüve, nüzûl,

O-Ö: osman, ömer, özür;

R: rabıta, rabia, radde, rafizî, rağbet, rağmen, rahat, rahibe, rahim, rahîm, rahime, rahip, rahman, rahmanî, rahmet, rakam, rakım, raks, (rakıs) rakip, rakkas, rakkase, ramak, ramazan, raptiye, rasat, rasim, rayiç, rayiha, razı, raziye, reaya, recaî, recep, recim, reddiye, redif, refah, refahiye, refakat, refik, refika, rehavet, rehin, rehine, reis, reisicumhur, rekabet, rekâket, remil, remiz, remzi, resen, resim, resmen, resmî, resmiyet, ressam, resul, reşat, reşadiye, reşide, reşit, ret, revaç, revak, revakiye, revnak, rey, reyhan, rezalet, reze, rezene, rezil, rifat, rika, rıdvan, rıza, rızk, riayet, rica, rical, ricat, rikkat, risale, rivayet, riya, riyaset, riyazet, riyazî, riyaziye, rubaî, ruh, ruhanî, ruhban, ruhen, ruhî, ruhiyat, ruhsat, ruhsatiye, rumuz, rutubet, rücu, rüçhan, rukiye, rüknettin, rükün, rüsum, rüsumat, rüşt, rüştiye, rüştü, rüşvet, rütbe, rüya, rüyet, rayiç, revnak,

S: saadet, saat, sabah, sabahattin, sabık, sabıka, sabır, sabi, sabiha, sabit, sabri, sabun, sac, sacide, sadaka, sadakat, saadet, sadık, sadır, sadme, sadrazam, saf, safa, safahat, safari, saffet, safha, safir, safiyet, safiyye, safra, safran, safsata, saha, sahaf, sahan, sahavet, sahi, sahibe, sahih, sahil, sahip, sahne, sahra, sahur, saik, saika, saim, saime, sair, sait, sakar, sakat, sakatat, sâki, sakil, sakim, sakin, sakene, salabet, salah, salahiyet, salep, salih, salik, salim, salimen, salise, salisen, samimi, samur, sanat, sanayi, sandal, sandalye, sanem, saniye, saraç, sarî, sarih, sathî, satıh, satır, savlet, sayfa, sayfiye, sayha, saykal, sebat, sebebiyet, sebep, sebil, seciye, seda, sedat, sedef, sedir, sefa, sefalet, sefaret, sefer, seferî, sefih, sefil, sefine, sefir, sefire, seher, sehven, sekene, sekte, sel, selâm, selâmet, selâmî, selâset, selâtin, selef, selika, selim, selime, selis, selma, selp, selva, selma, selman, semaî, semavî, semen, semih, semiha, semt, sena, senet, senevî, seracettin, seretan, seri, serserî, servet, setre, setriavret, sevap, sevda, seviye, sevk, sevkiyat, seyahat, seyelân, seyfettin, seyfi, seyfullah, seyir, seyis, seyit, seyitgazi, seylâp, sıfır, sıhhat, sıhhî, sıhhiye, sınaî, sınıf, sıddık, sıdkı, sihir, sikke, silâh, sima, simsar, simya, sinan, sirayet, sirkat, sof, somak, somaki, sual, suat, süikast, sukut, sulh, sulp, sulta, sultan, sultanî, sunî, suphi, sur, surat, suret, sureta, sübut, sübyan, süflî, süheyl, süheyla, sühunet, sükun, sükunet, sükût, sülâle, sülük, sülüs, sümbül, sünnet, sünnî, sürahi, süreyya, sürfe, sürur, sururî;

Ş: şaban, şafak, şahadet, şahap, şahıs, şahika, şahit, şahne, şahsen, şahsi, şahsiyet, şaibe, şair, şak, şakayık, şaki, şakir, şakul, şakulî, şalvar, şamil, şan, şarabî, şarap, şark, şarkî, şarkiyat, şart, şaşaa, şahsiyet, şavk, şayi, şayia, şeamet, şebabet, şebek, şebeke, şecaat, şecere, şeci, şeddadî, şedde, şedit, şefaat, şeffaf, şefik, şefika, şefkat, şehevî, şehit, şehriye, şehevanî, şehvet, şek, şekavet, şeker, şekil, şeklen, şeklî, şekva, şelâle, şemail, şamata, şemsettin, şemsî, şemsiye, şenaat, şer, şerafettin, şerait, şerare, şerbet, şerc, şeref, şerefe, şerefiye, şerh, şerha, şer'î, şeriat, şerif, şerik, şerir, şerit, şetaret, şetim, şevk, şevket, şey, şeyh, şeytan, şeytanet, şeytanî, şiar, şiddet, şifa, şifahen, şifahî, şifre, şikâyet, şimal, şimalî, şimalen, şirk, şirket, şirret, şiryan, şua, şuayp, şubat, şube, şuhut, şule, şura, şuur, şüheda, şükran, şükür, şükrü, şümul, şüphe, şüreka, şüyu,

T: taaccüp, taaddüt, taafün, taahhüt, taalluk, taam, taammüden, taammüm, taammüt, taannüt, taarruz, taassup, taayyün, taayyüş, tababet, tabak, tabaka, tabasbus, tabi, tabiat, tabii, taallukat, tabiiyet, tabut, tabya, tacettin, tacil, tacir, taciz, taç, tadil, tadilât, tafra, tafsil, tafsilât, tegaddî, tegallüp, tegayyür, tağşiş, tağyir, taha, tahaccür, tahaffuz, tahakkuk, tahakküm, tahammül, tahammür, taharri, tahassür, tahassüs, tahattur, tahavvül, tahayyül, tahdit, tahfif, tahin, tahkik, tahkikat, tahkim, tahkimat, tahkir, tahkiye, tahlil, tahlilî, tahlis, tahlisiye, tahliye, tahmil, tahmin, tahminen, tahminî, tahmis, tahnit, tahribat, tahrif, tahrifat, tahrik, tahrikat, tahrip, tahrir, tahrirat, tahriren, tahrir, tahriş, tahsil, tahsilât, tahsis, tahsisat, tahşiye, tahvil, tahvilât, taife, takaddüm, takallüs, takarrür, takat, takaza, takbih, takdim, takdir, takdis, takibat, takiben, takip, takiyye, takke, taklidî, taklit, takriben, takribî, takrir, takriz, taksim, taksimat, taksir, taksirat, taksit, taktir, takvim, takviye, takyit, talak, talebe, talep, talha, talî, talih, talik, talim, talimat, talip, taltif, tam, tamah, tamam, tamamen, tambur, tamburî, tamim, tamir, tamirat, tanassur, tandır, tantana, tanzifat, tanzim, tanzimat, tanzir, taraf, tarafeyn, taravet, taraz, tarh, tarık, tarif, tarife, tarih, tarihî, tarik, tarikat, tariz, tasallut, tasavvuf, tasavvufî, tasavvur, tasdik, tasfiye, tashih, tasnif, tasrif, tasrih, tasvip, tasvir, tasvirî, tatbik, tatbikat, tatbikî, tatil, tatmin, tavassut, tavattun, tavazzuh, tavır, taviz, tavsif, tavsiye, tavus, tavzif, tavzih, tay, tayfa, tayin, tayyar, tayyare, tayyip, tazim, tazimat, tazip, taziye, taziz, tazmin, tazminat, tazyik, teadül, teaddüt, teakup, teali, teamül, tearuz, teati, tebaa, tebahhür, tebarüz, tebcil, tebdil, tebeddül, tebeddülât, tebellüğ, tebellür, teberru, teberrüken, tebessüm, tebeşir, tebeyyün, tebligat, tebliğ, tebrik, tebriye, tebşir, tebyiz, tecahül, tecanüs, tecavüz, tecdit, teceddüt, tecelli, tecemmu, tecennün, tecessüs, tecezzi, tecil, tecrit, tecrübe, tecrübî, tecvit, tecviz, tecziye, techil, teçhizat, tedafüî, tedahül, tedaî, tedarik, tedavî, tedavül, tedbir, tedennî, tedfin, tedhiş, tedip, tediye, tedricen, tedricî, tedrisat, tedvin, tedvir, teeddüp, teehhül, teehhür, teemmül, teenni, teessüf, teessür, teessüs, teeyyüt, tef, tefahür, tefavüt, tefcir, tefehhüm, tefekkür, tefenni, teferruat, teferrüç, teferrüt, tefessüh, tefevvuk, tefeyyüz, tefhim, tefrik, tefrika, tefriş, tefrit, tefsir, teftiş, tefviz, tegafül, teganni, tehacüm, tehalük, tehcir, tehdit, tehevvür, teheyyüç, tehir, tehlike, tehzil, tekabül, tekâlif, tekâmül, tekâsüf, tekâsül, tekaüdiye, tekaüt, tekebbür, tekeffül, tekellüf, tekellüm, tekemmül, tekekrrür, tekevvün, tekfin, tekfir, tekit, tekke, teklif, tekmil, tekrar, tekrir, teksif, teksir, tekvin, tekzip, telaffuz, telâfi, telâki, telâkki, telaş, telef, telefat, telhis, telif, tel'in, telkih, telkin, tellâk, tellâl, tellâliye, temadi, temaruz, temas, temayül, tembih, temcit, temenna, temenni, temerküz, temerrüt, temettü, temevvüç, temeyyüz, temin, teminat, temkin, temlik, temmuz, temrin, temsil, temyiz, tenafür, tenakuz, tenasüh, tenasül, tenasüp, tenazur, teneffüs, tenevvu, tenevvür, tenezzüh, tenezzül, tenkiye, tenkil, tenkis, tenkit, tennure, tensip, tenvir, tenvirat, tenzih, tenzil, tenzilât, tephir, terakki, terbi, terbiye, terbiyevi, tercih, tercihen, tercüman, tercüme, tereddi, tereddüt, terekküp, teressüp, terettüp, terfi, terfian, terfih, terhin, terhis, terk, terkibî, terkip, tertibat, tertip, terviç, tenzil, tesadüf, tesadüfen, tesadüfî, tesahup, tesanüt, teselli, tesellüm, teselsül, tesettür, teseyyüp, teshil, teshin, teshir, tesir, tesis, tesisat, tesit, teskin, teslim, teslimat, teslimiyet, tesmiye, tespih, tespit, tesviye, teşbih, teşci, teşdit, teşebbüs, teşekkül, teşekkür, teşerrüf, teşevvüş, teşhir, teşhis, teşkil, teşkilât, teşmil, teşri, teşrif, teşrifat, teşrih, teşriî, teşrik, teşvik, teşyi, tetabuk, tetebu, tetkik, tetkikat, tevabi, tevafuk, tevahhuş, tevakkuf, tevali, tevarüs, tevatür, tevazu, tevcih, tevdi, tevdiat, teveccüh, tevehhüm, tevekkel, tevekkül, tevellüt, teverrüm, tevessü, tevessül, tevettür, tevfik, tevfikan, tevhit, tevil, tevki, tevkif, tevkil, tevlit, tevliyet, tevsi,

جَمَعَ الأستاذُ الدكتور أمر الله إيشلر Emrullah İşler في كتابٍ له سَمَّاهُ "كَلِمَاتٌ عَرَبِيَّةٌ مُفْرَدَةٌ وَمُرَكَّبَةٌ انْزَلَقَتْ مِنْ مَعَانِيهَا فِي اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ"[204]، جَمَعَ فيه **536** كلمةً مفردةً، و**84** كلمةً مُرَكَّبَةً. إلاَّ أنَّ الكلماتِ العربيَّةَ التي تعرَّضَتْ للتحريفِ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ، يُستبعَدُ أنْ يكون قدرُها محصورًا في هذا العددِ، ولكنَّ الأستاذ أمر الله إيشلر قد أثْبَتَ قِسْطًا منها، فكانتْ جهودُهُ برهانًا على أقلِّ تقديرٍ يهتدِي الباحثُ على ضوئِهِ إلى أوسعِ نطاقٍ من المعرفةِ بمَدَى إشكالاتٍ نشأتْ من تحريف الكلماتِ العربيَّةِ بعد أنْ اقْتَبَسَهَا الأتراك واستعملوها في لغتِهِم. يُستخدم اليومَ معظمُها بمعانٍ مُحَرَّفَةٍ تارةً، وبألفاظٍ مُحَرَّفَةٍ تارةً أخرى، وبِكِلَيْهِمَا في بعض الأحيان... وهذه قائمةٌ (على سبيل المثال) فيها عددٌ قليلٌ من الكلماتِ العربيَّةِ المضمومَةِ إلى اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ، بعضُها مُحَرَّفٌ معنًى، وبعضُها مُحَرَّفٌ معنًى ومُشَوَّهٌ لفظًا:

الكلمةُ العربيَّةُ الْمُقْتَبَسَةُ، أو الْمُخْتَلَقَةُ على حسابِ اللغةِ العربيَّةِ.	دلاَلَتُهَا في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ.
تَشَبُّثٌ: مِن تَشَبَّثَ يَتَشَبَّثُ، أي تَعَلَّقَ بالشيءِ وتَمَسَّكَ	Teşebbüs etmek: girişmek، kalkışmak

tevsik, tevzi, tevziat, teyakkuz, teyit, tezahür, tezahürat, tezat, tezayüt, tezekkür, tezellül, tezelzül, tezhip, tezkere, tezkiye, tezvir, tezvirat, tezyif, tezyin, tezyinat, tezyinî, tizyit, tıbben, tıbbî, tıbbiye, tıfıl, tılsım, ticaret, ticarî, tilmiz, timsah, timsal, tuba, tufan, tufeylî, tuğyan, tuhaf, tuhafiye, tulânî, tulû, tulûat, turfa, türap, türbe,

U-Ü: ubeydullah, ubudiyet, ucube, udî, uf, ufkî, ufuk, ufunet, ukalâ, ukde, ukubet, ulema, ulûfe, uluhiyet, ulvî, ulviyet, umman, umumî, umumiyet, umur, usare, uşşak, ut, utarit, uzlet, uzuv, uzvî, uzviyet, ümera, ümmet, ümmügülsüm, ümmühan, ümraniye;

V: vaat, vaaz, vade, vadi, vahamet, vahdet, vahim, vahşet, vahşî, vaiz, vak'a, vakar, vakfiye, vakıf, vâkıf, vaki, vakit, vakkas, vakur, vali, valide, vâris, varit, vasat, vasatî, vasfi, vasfiye, vasıf, vasıl, vasıta, vasi, vasiyet, vatan, vatanî, vaveylâ, vay (veyl), vazıh, vazife, vaziyet, veba, vebal, veca, vecibe, vecit, vecihi, veciz, vecize, veçhe, veda, vedia, vefa, vefat, vehim, vehleten, vekâlet, vekâleten, vekil, vekilharç, velâdet, velâyet, velet, velev, velhasıl, velhasılıkelâm, veli, veliaht, velinimet, velût, velvele, veraset, verem, verese, vesaik, vesair, vesait, vesayet, vesika, vesile, vesselâm, vesvese, vetire, vezaret, vezin, vezir, vezne, vicahen, vicahî, vicdan, vicdanen, vicdanî, vikaye, vilâyet, virt, visal, vuku, vukuat, vukuf, vuslat, vusul, vuzuh, vücut, vükelâ, vüs'at;

Y: yani, yasin, yekûn, yemin, yetim, yevm, yümni;

Z: zaaf, zabıt, zabıta, zabit, zafer, zafiyet, zahir, zahire, zahiren, zahirî, zahit, zahmet, zahter, zail, zait, zakir, zakkum, zalim, zam, zaman, zamir, zanlı, zapt, zarafet, zarar, zarf, zarif, zarp, zaruret, zarurî, zat, zaten, zatî, zatülcenp, zatülkürsi, zatürree, zaviye, zayıf, zayi, zayiat, zaamet, zebanî, zeberat, zebra, zebun, zecren, zecrî, zefir, zehap, zekâ, zekâvet, zeker, zeki, zekiye, zelil, zelzele, zem, zembil, zemheri, zencefil, zencî, zephiye, zerk, zerre, zevahir, zeval, zevat, zevce, zevç, zeveban, zevk, zeyil, zeynep, zeytin, zeytunî, zeyyat, zıddiyet, zıkkım, zılgıt, zımnen, zimmi, zındık, ziya ,zifaf, zihaf, zihin, zihnen, zihnî, zihniyet, zikir, zillet, zilyet, zimmet, zina, zincir, ziraat, zirai, zirve, ziya, ziyade, ziyafet, ziyaret, ziynet, zuhur, zuhurat, zuhurî, zulmet, zulüm, zübde, zübeyde, zübeyir, züccaciye, zühal, zühre, zührevî, züht, zühul, zükâm, zül, zülâl, zümre, zümrüdî, zümrüt, zürafa, zürra, zürriyet, züyuf.

[204] اسم الكتاب باللغة التركية: Türkçede Anlam Kaymasına Uğrayan Kelime ve Kelime Grupları

بِهِ.	النطق بالكلمة: تَشَبُّسْ: بمعنى: الشروع، المباشرة، المحاولة (مُحَرَّفَةٌ مَعْنًى).
احْتِلاَلٌ: مِنْ احتَلَّ يَحْتَلُّ، أي حَلَّ بِهِ، أَشْغَلَهُ، اسْتَوْلَى عَلَيْهِ.	İhtilal: İnkılap، Devrim: النطق بالكلمة: إهْتِلاَلْ بمعنى:إنقلاب عسكري (مُحَرَّفَةٌ مَعْنًى).
مُسَاعِدٌ: مِنْ سَاعَدَ يُسَاعِدُ، أي عَاوَنَ، قَدَّمَ مَعُونَةً.	Müsait: Münasip، Uygun النطق بالكلمة: مُوسَائِتْ (مُحَرَّفَةٌ لفظًا ومَعْنًى).
جُمَادَى الأُولَى: هو اسْمُ الشَّهْرِ الخَامِسِ مِنَ الشُّهُور القَمَرِيَّةِ.	Cemaziyel-evvel: النطق بالكلمة: جَمَازِيَ الأَوَلْ: الجُزْءُ الأَوَّلُ مِنَ التَّرْكِيبِ مُحَرَّفٌ لَفْظًا.
خَمِيرٌ: وَالْخَمِيرُ: عَجِينَةٌ مُخْتَمَرَةٌ بِهَا فُطْرٌ خَاصٌّ، لِيُوَلِّدَ ثَانِيَ أُكْسِيدِ الْكَرْبُون. تُتَّخَذُ لِتَخْمِيرِ الْعَجِينِ لِيَنْتَفِخَ عِنْدَ خَبْزِهِ.	Hamur النطق بالكلمة: هَامُور بمعنى: العجين (مُحَرَّفَةٌ لَفظًا وَمَعْنًى) مِنْ كَلِمَةِ (خَمِيرٍ). والصوابُ هو العجين. مِنْ عَجَنَ يَعْجِنُ: مَزِيجٌ مِنَ الدَّقِيقِ (الطَّحِينِ) والْمَاءِ وقَلِيلٍ مِنَ الْمِلْحِ.
إِهَانَةٌ: مِنْ أَهَانَ يُهِينُ؛ وَهِيَ الإِذْلاَلُ، وَالاِحْتِقَارُ، وَالاسْتِخْفَافُ بِالشَّيْءِ.	İhanet: النطق بالكلمة: إِهَانَتْ تُسْتَعْمَلُ بمعنى الخيانة. والصواب: الْخِيَانَةُ. وهي: الْغَدْرُ. أَنْ يُؤْتَمَنَ الإِنْسَانُ فَيَنكُصَ عَنْ الْتِزَامَاتِهِ وَيَنْقُضَ عَهْدَ ذِمَّتِهِ. (مُحَرَّفَةٌ لَفْظًا وَمَعْنًى). وهذا، رغمَ أنَّ كلمةَ (الخيانة) قد وردتْ في خطابٍ لمصطفى كمال بشكلٍ صحيحٍ وهو القدوةُ الذي يحرصُ الأتراك على

	الإحتذاء به! وهذه كلماته: «İktidara sahip olanlar gaflet ve dalâlet ve hattâ hıyanet içinde bulunabilirler.»
مُعَنِّتٌ: مِنْ عَنَّتَ يُعَنِّتُ. وَالْمُعَنِّتُ: هو الذي يُجْبِرُ غَيْرَهُ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ وَيُلْزِمُهُ مَا يَصْعُبُ عَلَيْهِ.	Muhannet: النطق بالكلمة: مُحَنَّتْ: تُسْتَعْمَلُ بمعنى: خَائِن. الكلمةُ مُحَرَّفَةٌ لَفْظًا وَمَعْنًى.
فَلاَكَةٌ (بِمَعْنَى: مُصِيبَةٌ):	Felaket: النطق بالكلمة: فَلاَكَتْ تُسْتَعْمَلُ بمعنى: مصيبة، نازلة، كارثة. هذه الكلمةُ مُخْتَلَقَةٌ اختلاقًا محضًا على حساب اللُّغةِ العربيَّةِ، لا وجودَ لها أصلاً في القاموس العربِيّ!
المجادَلَةُ (في علمِ المناظرةِ): هي المناقشةُ في صدد الدفاعِ عن فكرةٍ أو عقيدةٍ لإِلْزَامِ الخَصْمِ.	Mücadele: تُسْتَعْمَلُ بمعنى: الكفاحِ المسلَّحِ، وأحيانًا بمعنى النقاش. (مُحَرَّفَةٌ مَعْنًى).

إنَّ هذا التحريفَ الذي تعرَّضَ له الكلماتُ والمصطلحاتُ العربيَّةُ في اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ تحوَّلَ مع الزمان إلى عَقَبَةٍ تعترضُ سبيلَ طالبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، تَتْرُكُهُ حائرًا بين مَعْنَيَيْنِ للكلمةِ الواحدةِ، يلتبسُ عليهِ أحدُهُمَا بالآخَرِ ويُربِكُهُ على مدَى أيَّامِ دراستِهِ. وقد استغلَّتْ الطُّغْمَةُ الحاكمةُ والأقلِّيَّةُ المارِقَةُ هذه المشاكِلَ اللغويَّةَ وما أسفرَ عن هذَا التحريفِ من العقباتِ خاصَّةً لِتَتَّخِذَا بِحُجَّتِهِمَا من اللُّغةِ العربيَّةِ هدفًا وموضوعًا للسخرية على مدى قرنٍ، فحاولتا من هذا الْمُنْطَلَقِ وبالتعاون إثارةَ الكراهيَّةِ في ضميرِ المجتمعِ تجاهَ اللُّغةِ العربيَّةِ باعتبارِها لغة القرآن، وذلك لِاخْتِلاَقِ فجوةٍ بينهُ وبين الإسلامِ! ومن هذه المحاولاتِ: أحجيةٌ شعريَّةٌ اخْتَلَقَهَا بعضُ الْفَنَّانِينَ من الطائفةِ المارقةِ للاستهزاءِ بطريقةِ تدريسِ الأبجديَّةِ العربيَّةِ للأطفالِ في الدَّوْرَاتِ القرآنية[205].

[205] وهذه صيغتها:

Ee eyli ala ula umburleydi ala up
Be beyli bala bula bumburleydi bala bup
Ce ceyli cala cula cumburleydi cala cup
De deyli dala dula dumburleydi dala dup

كان هذا عددًا قليلاً جدًّا، من مِئَاتِ الحواجزِ الَّتي تَحُولُ بين اللُّغتين التُّرْكِيَّة والعربيَّةِ، وتتركُ ذهنَ الإنسانِ العربِيِّ عاجزًا عن إدراكِ حَقَائِقَ دينيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وتاريخيَّةٍ مجهولةٍ عنها، ولو بذلَ ما عنده من أنواعِ المهاراتِ اللُّغَوِيَّةِ والثقافيَّةِ أثناءَ حوارِهِ مع أخيهِ التركيِّ!. هذه الْعَقَباتُ الرهيبةُ هي الَّتي أربكَ الإنسانَ العربِيَّ وحجبهُ بحاجزٍ فولاذِيٍّ لا يكادُ يجتازه ليصلَ إلى كُنهِ الشيءِ الذي يراه على الساحة التُّرْكِيَّة بِعَيْنَيْهِ، ويسمعهُ بأُذُنَيْه... هذا الَّذي تركه يسمعُ الإنسانَ التركِيَّ يسمِّي الإسلامَ (مُسْلُمَانلِكْ Müslümanlık)، فلا يفطن (منذ قرونٍ!) إلى أنَّ هذه الكلمةَ لا تحلُّ محلَّ كلمةِ (الإسلامِ) أبدًا. "هَذَا الَّذِي تَرَكَ الأَوْهَامَ حَائِرَةً * وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النَّحْرِيرَ زِنْدِيقًا!"

يغلبُ الظنُّ أنَّ الأتراكَ من (حيث العموم)، لم يهتمُّوا بالكتابةِ والقرائةِ منذ القديمِ وعلى مدَى تاريخِهِمْ حتى في العهدِ الجمهورِيِّ. تدلُّ على ذلك إحصائيَّاتٌ تُفيدُ أنَّ نسبةَ الذين يُحْسِنُونَ الكتابةَ والقرائةَ منهم كانت **25،19%** عام **1935**م. وأمَّا القِلَّةُ القليلَةُ منهم الذين درسوا العلومَ والفنونَ، إنَّما نبغوا فيها بدافعِ ظروفِ المرحلةِ التي عاشوها يومئذٍ بصورةٍ استثنائيَّةٍ. ذلك أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ (قبلَ الدولةِ العثمانيَّةِ) كانت هي لغةَ التدوين والتأليفِ، وإنْ كانتِ الفارسيةُ هي الآلةَ لضبطِ الشؤونِ والمصالحِ في أجهزةِ الدولة. كما لم يكنْ يومذاكَ إحساسٌ بالقوميَّةِ في مفهومِ الناسِ. فلم يكنْ أحدٌ يتعصَّبُ في المقارنة بين لغةِ قومِهِ وبين لغاتِ بقيَّةِ الطوائفِ في المجتمع الإسلامِيِّ.

بلغَ إهمالُ الاتراكِ للكتابةِ والقرائةِ إلى حدٍّ لم يَسْبِقْ أنْ قامَ أحدٌ منهم بوضعِ قواعدِ اللغةِ التُّرْكِيَّة إلاَّ في العهدِ الأخيرِ للدولةِ العثمانيَّةِ. هذا، ومِنَ الغريبِ جدًّا أنَّ أوَّلَ مَنْ وَضَعَ قواعدَ اللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ (فِيمَا نَعْلَمُ)، هو عَالِمٌ بَرْبَرِيُّ الأصلِ يُدْعَى محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيَّان الغرناطي الجبائي (**1256–1344**م.)[206]. سَمَّى كِتَابَهُ: "الإدراك لِلِسانِ الأتراك". وهو شائعٌ مُتَوَفِّرٌ على الشبكةِ العنكبوتيَّةِ. ثم يليهِ مُثقَّفٌ عثمانِيٌّ اسمُهُ مُلاَّ قَدْري الْبَرْغَمِي Bergamalı Molla Kadri. أَلَّفَ كتابًا في النحو التُّرْكِيِّ سنة **1530**م. سمَّاه: "مُيَسِّرَة الْعُلُومِ"، وقدَّمهُ إلى السلطان سليمِ الأوَّل بن بايزيد الثاني. لكنَّ هذا الكتابَ والذي قبْلَهُ لم يلقَيا اهتمامًا من المجتمع التُّرْكِيِّ إلى اليوم.

نصبتْ الحكوماتُ السَّبَطَائِيَّةُ العداءَ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وأعلنتِ الحربَ عليها على مَدَى حُكْمِها من بدايةِ العهدِ الجمهورِيِّ إلى العقدِ السابعِ من القرنِ المنصرم. فقامتْ بإسقاطِ وَحَذْفِ آلافٍ من الكلماتِ والمصطلحاتِ العربيَّةِ والفارسيَّةِ من القاموسِ التُّرْكِيِّ. صدرتْ القراراتُ بهذَا الشأنِ باسمِ "حركةِ

---

[206] راجع: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين: **784/3**: İslam alimleri ansiklopedisi, 10/101-103

تطهيرِ اللُّغَة"، باعتبارِ أنَّ الكلماتِ العربيَّةَ خاصَّةً "كانتْ دخيلةً، بل أوسَاخًا عَلِقَتْ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ مع الزمانِ!" (على حدِّ قولِهِمْ). فعادتِ اللغةُ التُّرْكِيَّةُ بعد ذلك فقيرةً هزيلةً حارَ الناسُ خاصَّةً المثقَّفون في التعبيرِ عن مقاصدِهِمْ بها. فَتَبَنَّتِ الحكومةُ اشتِقَاقَ كلماتٍ ومصطلحاتٍ جديدةٍ زعمتْ أنَّها مأخوذةٌ من ألفاظٍ تركيَّةٍ، وَكَّلَتْ هذه المهمَّةَ إلى مجمعِ اللُّغَةِ التُّرْكِيَّة Türk Dil Kurumu.

انتصرتِ الطوائفُ المارقةُ لهذهِ السياسةِ؛ كاليساريِّين، والكماليِّين، والعلويِّين.. فأصبحتْ اللُّغةُ التُّرْكِيَّةُ لُعبةً في حربِ الإيديولوجياتِ بين الأحزابِ عقودًا من الزمن. ثم اشْتُقَّتْ كلماتٌ غَرِيبَةٌ لِرَدْمِ الحُفْرَةِ التي تَرَكَتْهَا الكلماتُ العربيَّةُ الْمَحذوفةُ. وهذه عددٌ منها على سبيل المثال:

الكلمة العربية الْمحذوفةَ	الكلمة الْمُخْتَلَقَةُ الْبَدِيلَةُ عَنْهَا
إمكان İmkan	Olanak
كتاب Kitap	Betik
جواب Cevap	Yanıt
مسكن Mesken	Konut
تصديق Tastik	Onay
حريت (حرية) Hürriyet	Özgürlük
فضاء Feza	Uzay
شبهة Şüphe	Kuşku
دليل Delil	Kanıt
صحت (صحة) Sıhhat	Sağlık
غاية، مقصدGaye، Maksat	Amaç
وثيقة Vesika	Belge
معلم Muallim	Öğretmen
حاكم Hakim	Yargıç
جهاز Cihaz	Aygıt
جلسة Celse	Duruşma، Oturum
شاهد Şahit	Tanık
توقيف Tevkif	Tutuklama

مظنون (متهم) Maznun	Sanık
عادت (عادة) Adet	Töre

إنَّ اللغةَ التُّرْكِيَّة لم تحظَ بالاستقرارِ على مدى قرونٍ كما يبدو من كلِّ هذا العرضِ الْمُوَثَّقِ بالأدلَّةِ والبراهين. وهذا التَّمَوُّجُ الذي تعرَّضتْ له عبر تاريخِها أربَكَ الإنسانَ التركِيَّ في التعامُلِ معها، كما أوْحَشَهُ في وجهِ اللُّغَاتِ الأجنبيَّةِ، فلم يتمكَّنْ بسببِ هذه الأزماتِ أنْ يَتَنَبَّهَ إلى أهمِّيَّةِ الإتقانِ لِلُغةٍ ثانيةٍ فما فوقها في الحياة الإجتماعيَّةِ.

هذه النفسيَّةُ الأَنِفَةُ الْمُتَحَفِّظَةُ جعلتِ الأتراكَ لا يُبَالون بأيِّ لغةٍ أجنبيةٍ مهما كانت حاجتُهُمْ تمسُّ إليها. ولهذا لا يوجد بين آلافٍ من مدرِّسِي اللُّغةِ الإنجليزيَّةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة مَنْ يُتقِنُ هذه اللغةَ حقَّ الإتقانِ، إلاَّ عددًا قليلاً جدًّا. وإذا سُؤِلَ أحَدُهُمْ عن سببِ ذلك، فإنَّ الردَّ يكونُ عنيفًا في أغلبِ الأحوالِ (إذا ظنَّ أنَّ السائلَ يَشُكُّ فِي كَفَائَتِهِ). وقد يُفَاجَئُ السائِلُ أحيانًا بإجابةٍ غريبةٍ، وهي قولهم: "وَمَاذَا أَفْعَلُ بِلُغَةِ الكُفَّارِ، فإنِّي لستُ بحاجةٍ إليها، بل عليهم أصلاً أن يتعلَّمُوا هم لُغَتِي![207]"

***

أَزْمَةُ الْفَوْضَى السائِدِ فِي مَفْهُومِ الدِّينِ على السَّاحَةِ التُّرْكِيَّة.

يزعم مُعظمُ الأتراكِ أنَّهم من أهلِ السنَّة والجماعةِ؛ ولكنَّك إذا تتبَّعتَ أثرَهم في مساجدِهم، وصلواتِهم، وجُمُعَاتِهم، وجماعاتِهم، وأعيادِهم، واحتفالاتِهم الدينيَّةِ؛ وإذا استمعتَ إلى مواعظِ شيوخِهم، خاصَّةً إذا قرأتَ ما أودعوه في بطونِ آلاَفٍ من الكتبِ الَّتِي دوَّنوها باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ باسمِ الدِّينِ من تفسيراتٍ وتعليقاتٍ، وتأويلاتٍ، وصيغٍ للدُّعَاءِ والابتهالاتِ، تندهشُ حائرًا، وربما لا تكفيكَ عشراتُ السنينَ من العُمُرِ لكي تتمكَّنَ من جمعِ ما تعثُرُ عليه بين سطورِها من أشكالِ الأباطيلِ، والكفرِيَّاتِ، والإشراكِ، والزندقةِ، والبِدَعِ، والفِرْيَةِ على دينِ اللهِ. كُلُّهَا مسموحٌ قانونًا، وقد تمَّ طبعُها ونشرُها. تحتَ حمايةِ القوانينِ المرعيَّةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ![208]

---

[207] الصيغة باللغة التُّرْكِيَّة: «Ben gavurcayı ne yapayım, onlar benim dilimi öğrensinler!»

[208] الدعواتُ البِدْعِيَّةُ الشائعةُ بين السنِّيِّين والصوفيَّةِ في تركيا؛ منها: "الصلاة التفريجيَّةُ". وهذه صيغتُها: " اللهمَّ صلِّ صلاةً كاملةً، وسلِّم سلامًا تامًّا على سيدِنَا محمّدٍ الَّذِي تَنْحَلُّ بهِ العُقَدُ وتَنْفَرِجُ بِهِ الكُرَبُ وتُقْضَى بِهِ الحوائجُ وتُنَالُ بهِ الرّغائِبُ وحُسْنُ الخواتيمِ ويُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهِهِ الكَرِيمِ وعلى آلهِ وصحبه وسلِّم." قد وَرَدَ تحذيرٌ شديدٌ من علماءِ الأمَّةِ عن قراءةِ هذه الصيغةِ الْمُبْتَدَعَةِ التي لا أصلَ لها في السنَّةِ. أمَّا الصِيَغُ الصحيحةُ للصلاةِ على النبِيِّ على الله

إنَّ الفوضَى الذي يغمرُ مفهومَ الدِّينِ في تركيا اليومَ، يعجزُ اللِّسانُ عن قَصِّهِ، لأنَّ المجالَ الوحيدَ الذي لا يُعاقَبُ فِيه المواطِنُ على تصرُّفاته، هو: مجالُ الدِّينِ والعبادةِ والمقَدَّسَاتِ... فالمواطنُ التركيُّ حُرٌّ في الإعلانِ عن إيمانِهِ وعن انتمائِهِ لأيِّ دينٍ؛ حُرٌّ إلى أبعدِ الحدودِ في الإعلانِ عن كُفْرِهِ وإلحادِهِ وإشراكِهِ باللهِ جهارًا وعلى رؤوسِ الأشهادِ؛ حُرٌّ في تفسيرِهِ للآياتِ القرآنيَّةِ والسنَّةِ النبويَّةِ عن جهلٍ وعن حظِّ نفسٍ؛ حُرٌّ في التحريفِ، والوضعِ، وفي الحُكْمِ على الشيءِ بالتحليلِ والتحريمِ، لا يُعَدُّ شيءٌ من كُلِّ ذلك جريمةً ولا جُنْحَةً ولا مُخَالَفَةً للقوانين، ولا عَيْبًا ولا إساءَةً بالآخرين...

على سبيلِ المثال: يستطيعُ المواطنُ بكلِّ حرِّيَّةٍ أنْ يصفَ الشريعةَ الإسلاميةَ بِـ ((قانونِ الْغَابَةِ))؛ ويصفَ الحدودَ الشرعيَّةَ (كحدِّ الزِّنَى والقصَاصِ) بالوحشيَّةِ، وله أنْ يستهينَ بآياتِ الأحكامِ الَّتي تنصُّ على الأحوالِ الشخصيَّةِ من الزواجِ والنكاحِ والطلاقِ والعِدَّةِ والحدودِ ونحوِها؛ وله أنْ يستهزئَ بها عَلَنًا (كما يجرِي ذلك في عشراتٍ من الأفلامِ والحلقاتِ السينمائِيَّةِ). لا يسمحُ القانونُ لأحدٍ من ردعِ فاعلِيهَا وَلاَ مَنْعِهِمْ بأسلوبٍ يُعَدَّ شكلاً من تحديدِ الحريَّةِ، بينما هذه الأفعالُ والأقوالُ والتصرُّفاتُ كلُّها تجاوزاتٌ لتحديدِ حرِّيَّةِ الشخصِ المؤمنِ! كما لا يُعْتَدُّ بأيِّ شكوَى تُرفَعُ ضدَّ أصحابِ تلك الأقوالِ والأفعالِ، بالإضافةِ إلى كلِّ ذلك يتلاعبُ النظامُ الحاكمُ بالدِّين، بأساليبَ

عليه وسلم، فهي كثيرةٌ وردتْ عن الصحابةِ بروايات صحيحةٍ منها: عن طلحةَ بن عبيد الله رضي الله عنه: "أَنَّ رَجُلاً أَتَى نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. (رواه النَسَئِيُّ في السهوِ (**1274**)، وأحمد (**1323**). وعن ابْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ : لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ: أَلا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً: "خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا: قَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (**3119**)، ومسلم في الصلاة باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (**614**)، والترمذي في الصلاة (**445**)، والنسئي في السهو (**1270**)، وأبو داود في الصلاة (**830**)، وابن ماجه في الصلاة (**894**)، وأحمد (**17425**) والدارمي في الصلاة (**1308**).

ومن البدع في الذِّكْرِ: اشتراطُ تكرارِ الصيغةِ الدُّعائِيَّةِ أو الآيةِ الكريمةِ بِعَدَدٍ مُعَيَّن. وهذا شائعٌ في تركيا.

ومن الأدعية المنكرة "الجَوْشَنُ" الذي أوصى به سعيدُ النورسِيُّ، تُطبَعُ وتُنشَرُ منه مئاتُ آلافِ نُسَخٍ على نفقةِ النورسيِّين، وهي جماعةٌ واسعةٌ خطيرةٌ تَتَّجِرُ بِالدِّين. وهذا الدعاءُ مكذوبٌ على الله تعالى وعلى رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلّم.

ومن الأدعية المنكرة أيضًا: الأورادُ البهائيَّةُ النقشبنديَّةُ. يَسْتَهِلُّ الدعاء بقوله: "أُقْسِمُ عليكم أيتُها الأرواحُ الروحانيُّونَ، والملائكةُ النورانيُّون"، يتخلله كلماتٌ غريبة فارغة، وهي من قبيل الجعجعةِ، منها قولهم: "بسم الله النور. أذًا أذانٍ نورٍ. آلِ آلٍ نورٍ. آرى آرِي نورٍ. هَامِرِيّ ذو مِرِيّ نورٍ. تكسوِيّ نورٍ. مكسبون نورٍ. الله رب النو الأعلى نورٍ. أَلُوحًا، أَلُوحًا، أَلُوحًا... آهِ آهٍ رب النور. رهانٍ، رهانٍ. بارخٍ بارخٍ. ربِّ، ربِّ. شَلْشَهِيّ، كَلْشَهِيّ، لَمْشَهِي، رَبْشَهِي تَرْشَهِيّ..." لا شكَّ في أنَّ الدعاءُ بهذه الكلمات الغريبة والبَشِعَةِ كفرٌ باللهِ وإلْحادٌ في الدين. وردت هذه الصِيَغُ الشيطانيَّةُ في كُتيبٍ طُبِعَتْ منه نسَخٌ وتَمَّ نشرُها وبيعُها من قِبَلِ دارٍ للطباعة والنشر اسْمها. Esma Yayınları. لهذه الدار عناوينُ على الشبكة العنكبوتيَّة. أمَّا صِيَغُ الدعواتِ الصحيحةُ فكثيرةٌ في كتب السنة. وقد جَمَعَ مُعظمها النوويُّ في كتابٍ سَمَّاهُ "الأذكار المنتخَبَة من كلام سيد الأبرار"

ماكرةٍ خطيرةٍ تُشجِّع الكفَّارَ والمشركين والدَّجّالين والزَّنَادِقَةَ من المواطنين على العبثِ بالدِّين وشعائرِه المقدَّسة.[209]

إنَّ هذا الخلطَ والتلاعبَ بالدِّين على الساحةِ التُّرْكِيَّة لا بدَّ أن يُثِيرَ في الباحث الْمُحْتَرِفِ حافزًا يحملُهُ على الاستطلاعِ لِخَلْفِيَّاتِ هذا المجتمعِ، لأنَّه لاَ شكَّ من وجودِ اضطرابٍ خطيرٍ واتِّجاهاتٍ غريبةٍ في سلوكياتِ هذا المجتمعِ دَفَعَتْهُ إلى ارتكابِ هذهِ الجرائمِ (ولكن من غيرِ تَعَمُّدٍ في أغلبِ الأحوالِ، أو نَقُولُ: معظمُها من جهلٍ صرفٍ). إنَّ هذه المشاكلَ تحتاجُ إلى تحليلٍ مستقلٍّ في أبعادِها المختلفةِ من قِبَلِ أهلِ الإختصاصِ.

أمَّا إذا حملنا كلَّ ذلك على مجرَّدِ الجهلِ الْمُطْبِقِ، فالجهلُ في المجتمعِ التركيِّ مُتَفَشٍّ في الغايةِ، ومن نتائجِها: ظهرتْ في السنين الأخيرة عددٌ مِنَ الدَّجَاجِلَةِ ورموزِ الضلالِ، اتَّخذوا الدِّينَ مطيَّةً لأهدافِهِمْ، كما ظهرتْ جماعةٌ من المنافقين والإنتهازيِّين في صفوفِ السياسيِّين ورجالِ العملِ، ورجالِ الدِّينِ بخاصَّةٍ؛ كلُّهم مثقَّفون محترِفون في صناعةِ التضليلِ بالتنطُّعِ والتشدُّقِ والمراوغةِ وسحرِ العيونِ والآذانِ... اشتهروا بأشكالٍ متمايِزَةٍ من الجدلِ الثُّعْلَبَانِيِّ والبلاغةِ الشيطانيَّةِ وحِيَلِ التعبيرِ... ظهر هؤلاءِ كنتيجةٍ لتفاقُمِ الجهلِ، استغلُّوا الفرصةَ لتضليلِ الناسِ في مختلفِ مجالاتِ الحياةِ من الدِّينِ والسياسةِ والاقتصادِ والتجارةِ والتعليمِ والحياةِ الإجتماعيَّةِ... فَارْتَبَكَ الناسُ تحتَ هطولِ دِعَايَاتِهِمْ الخَلاَّبةِ ونداءاتِهم الجذَّابةِ ودعواتِهم وَهُتَافَاتِهِم الْمُثِيرَةِ، ومغالطاتِهم الْمُقْنِعَةِ بطريقِ تأويلاتٍ ماكرةٍ لإرباكِ العقولِ[210]. وانسحبَ من وراءِ كلِّ منهم ملايينُ من الناسِ، فالتبسَ عليهم الحقُّ بالباطلِ،

---

[209] قد تحوَّلَ هذا الموقفُ للدولةِ التُّرْكِيَّةِ من الدِّينِ والقِيَمِ المقَدَّسةِ في العهدِ الأردوغانِيِّ بشكلٍ جذريٍّ، إنَّما وُضِعَ الحدُّ من الاستفزازاتِ الإلحادِيَّةِ والاستخفافِ بالمقَدَّساتِ في الأوانِ الأخيرةِ درءًا لنشوبِ النزاعِ بين الْمُتَدَيِّنِين وَالْمُلْحِدِينَ لِكَيْ لا تتحوَّلَ إلى فتنةٍ يتأثَّرُ بها النظامُ، وليس احترامًا للدِّينِ الاسلامِيِّ في واقعِ الأمرِ. أخذَ قُضاةُ النظامِ (الْعَلْمَاوَثِنِيّ) يهتمُّون بتطبيقِ القانونِ رقم.**3/216** من قانون العقوباتِ بهذا الغَرضِ. وهذا نصُّهُ مُعَرَّبًا: "يُعاقَبُ الشخصُ بالسجن مدَّةَ ستةِ أشهرٍ إلى سنةٍ كاملةٍ في حالةِ استحفافِهِ بالقِيم الدينيَّةِ بصورةٍ علنيَّةٍ إذا كان التصرفُ يوشِكُ أنْ يؤدِيَّ إلى الاخلالِ بالنظامِ العامّ". وهذا نصُّهُ الأصلِيُّ باللُّغةِ التُّرْكِيَّةِ:

TCK. 216/3: Halkın bir kesiminin benimsediği dinî değerleri alenen aşağılayan kişi, fiilin kamu barışını bozmaya elverişli olması hâlinde, altı aydan bir yıla kadar hapis cezası ile cezalandırılır.

[210] على سبيل المثال: يقول أحد من هؤلاءِ في تبرير الاستدلالِ بالحديث المفترى والملحون: "هَلَكَ النَّاسُ اِلاَّ الْعَالِمُونَ وَهَلَكَ الْعَالِمُونَ اِلاَّ الْعَامِلُوْنَ وَهَلَكَ الْعَامِلُونَ اِلاَّ الْمُخْلِصُونَ وَالْمُخْلِصُونَ عَلٰى خَطَرٍ عَظِيمٍ"؛ يقول بالحرف الواحد: " أناشدكم الله! أن تشيروا عليَّ؛ أين الخدمةُ لِدِينِ اللهِ في انتقادِ هذا الحديث الذي يوقِّرُ الإخرصَ في نفوس الناسِ وإن كان ضعيفًا، وقد اجازَ العلماءُ بروايتِهِ ولم يروا بأسًا في ذلك. أين رضى الله في هذه المحاولة! وإذا كان أحدٌ يعلمُ فائدةً من وارئِها فنرجو منه أنْ لا يُحَرِّمَنَا منها".

كانت هذه قطرةً من بحرٍ لأعمالِ التضليل، وهذه كلماته باللغة التركية.

والصالِحُ بالفاسدِ، فأدَّى ذلك إلى تَمَايُزِ فئاتٍ متباينةٍ، وظهورِ قِطْعانٍ متطرِّفةٍ، وجماعاتٍ صوفيةٍ، وأحزابٍ تتَّجِرُ بالدِّين، ومُنَظَّمَاتٍ سرِّيَّةٍ، وشَبَكَاتٍ إرْهَابِيَّةٍ. أَسْفَرَ عن ذلك انتشارُ أيدْيُولُوجِيَّاتٍ خطيرةٍ واتِّجَاهاتٍ متشاكسةٍ، ومُعْتَقَدَاتٍ مُتَضَارِبةٍ، وطروحاتٍ متناقضةٍ فتحتْ الأبوابَ على مصاريعِها لِتَمْيِيعِ الحقائق، وتحريفِ الْقِيَم الساميةِ، والفوضَى في الدِّينِ والتفكيرِ والثقافةِ، وانهيارٍ في الأخلاقِ.

لهذا الخلطِ لا شكَّ سلبياتٌ كثيرةٌ في حياةِ الأتراك، ومن نتائجِها: التَّيارُ المذهبِيُّ. فهو مِنْ أهَمِّ أسبابِ الفوضَى والنزاعِ، كما أنَّ للنَّزعةِ العصبيَّةِ القوميَّةِ أيضًا دورًا كبيرًا في ظهورِ البِدَعِ والتمايُزِ الطائفي والفِتَنِ وتفاقُمِهَا.

قديمًا كان المذهبُ الحنفيُّ منتشرًا في غربِ تركيا وبالتحديد بين الأتراكِ والأقلِّيَّاتِ التي انْصَهَرتْ في الْبَوْتَقَةِ التُّرْكِيَّةِ إبَّانَ العهدِ العثمانِيِّ؛ كالجُرْجِ، واللاَّزِ، والْبُنطُسِ... (ما عدا الأكرادِ والظاظا والشراكِسَةِ). والمذهبُ الحنفيُّ يتمثَّلُ في اجتهاداتِ الإمَامِ أبِي حنيفةَ النعمان[211]، وتلاميذهِ (أبي يوسفَ يعقوب بن إبراهيم[212]، ومحمّد بنِ الحسنِ الشيبانِيِّ[213] وزُفَرِ بْنِ الْهُزَيْلِ[214]). وهم من أعلامِ الجيلِ الثاني، في الفقهِ الإسلامِيِّ رحمهم الله تعالى.

والمذهبُ الحنفيُّ، مذهبٌ معترَفٌ بِهِ بين جمهورِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ مِنْ أُمَّةِ الاسلامِ، يُقَدِّمُ حُلُولاً لمسائلِ الدِّينِ والحياةِ على ضوءِ الكتابِ والسنَّةِ والعقلِ السديدِ، إلاَّ أنَّ هذا المذهبَ قد تعرَّضَ لتحريفاتٍ رهيبةٍ مِنْ قِبَلِ خُوَاجَوَاتِ الأتراك المتعصِّبين فتحوَّلَ إلى شبهِ دينٍ مستقلٍ لا علاقةَ له

«İnsanların ihlasına katkı sağlayacak ve -yukarıda zikredildiği üzere- zayıf da olsa alimlerin zikredilmesinde hiçbir sakınca görmediği bir hadis rivayetini eleştirmekle İslam dininin nesine hizmet edilmek isteniyor? Allah aşkına bunun neresinde Allah'ın rızası vardır? Bilen varsa lütfen bizi de mahrum etmesin!»
http://www.sorularlarisale.com/makale/11558/insanlar_helak_oldu_alimler_mustesna_seklinde_devam_eden_hadis_hem_sihhat_ve_hem_de_icerik_acisindan__elestirilmektedir_bu_elestiri_sahibi_hakli_midir_bizleri_bu_konuda_aydinlatir_misiniz.html

[211] أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن قيس المرزبان بن زوطا بن ماه. ولد سنة (80 هـ/699م) بالكوفة، وتُوُفِّيَ في بغداد عام (150هـ/767م). يقعُ قَبْرُهُ في مدينةِ بغدادَ بمنطقةِ الأعظمِيَّةِ في مقبرة الخيزران على الجانب الشرقي من نهر دجلة.

[212] ولد الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري سنة (113هـ،/731م.) بالكوفةِ، وتوفي عام (183هـ./798) في بغداد.

[213] ولد الإمام محمد بن الحسن الشيباني سنة (132هـ/749م.) بمدينة الواسط، وتوفي عام (189هـ./805م.) قرب مدينة الري.

[214] ولد الإمام زُفَرُ بْنُ الْهُزَيْل سنة (110هـ./ 728م.) في البصرة وتوفي عام (158هـ./775) في مسقط رأسه.

اليومَ بِالمذهبِ الحنفيّ بحيث يجوز أن يُطلَقَ عليه اسمُ "الْحَنَفَانِيَّةِ Hanafisme". وقد انتشرتْ الحنفانيّةُ في جميعِ أرجاءِ أناضول وبالتحديد بين العنصرِ التركيّ فأصبحتْ مشكلةً عظيمةً تطوَّرتْ منها مشاكلُ اجتماعيَّةٌ وسياسيَّةٌ مهَّدتْ السبيلَ للشّقاقِ والتفرقةِ والتمايُزِ العصبيّ، والطغيانِ العُنصُريّ... يبدو من الموقفِ الذي يتّخذُهُ الحنفانيُّون الأتراكُ أنَّهم يحتقرون بقيَّةَ المذاهبِ الاسلاميَّةِ خاصَّةً الشافعيَّةَ، بدافعِ كراهيَّهم للأكرادِ الشوافع، كذلك يحتقرون العربَ "لأنَّهم سجنوا أبا حنيفةَ وعذَّبوه وقتلوه..." يبالغونَ في تعظيم أبي حنيفةَ "لأنَّهُ ليس عربِيًّا"، ويزعم كثيرٌ من الأتراك "أنَّ أبا حنيفة تُرْكِيُّ الأصلِ!"[215] ولا يذكرون اسْمَهُ أبَدًا، بل يصفونه بـ"الإمامِ الإعظَمِ" على سبيلِ المبالغةِ في إجلالِهِ، يقصدون بذلك أنَّه أفضلُ أئمَّةِ الإسلامِ قاطبةً. وبلغ احتقارُ الأتراكِ الْحَنَفَانِيّينَ لأتباعِ بقيَّةِ المذاهبِ الإسلاميَّةِ، حتَّى أنَّ بعضَهم يُعِيدُ صلاتَهُ إن كان قد اضطرَّ أن يصلِّيَ وراءَ شافعِيٍّ، أو مالِكِيٍّ أو حنبلِيٍّ خاصَّةً، لأنَّهم يكرهونَ الوهَّابِيِّين الحنابلَةَ. يُبَرْهِنُ على ذلك أنَّ طائفةً من النَّقشبنديِّين الَّذينَ تَمَرْكَزُوا في حيّ (شَرْشَنْبَه Çarşamba) ناحيةٍ مِنْ منطقةِ الفاتحِ بمدينةِ إسطنبول، يُعِيدونَ صلاتَهم أيَّامَ الحجِّ، لأنَّهم يشُكُّونَ في صحَّتِها إنْ كانوا قد أدَّوْهَا خلفَ إمامٍ "حنبليٍّ وهَّابِيٍّ!".

لا يقتصرُ التعصُّبُ المذهبيُّ في حدودِ الْحَنَفَانِيَّةِ عند الأتراك، بل تتعدَّى إلى التمايُزِ بـ"الماتُريديَّة"، لأنَّ الرجلَ التركيَّ الحنفانيَّ عندما يُسأَلُ عن هُوِيَّتِهِ الدينيَّةِ يقول: "الاسلامُ ديني، والحنفيَّةُ مذهبِي في العمل، والماتريديَّةُ مذهبِي في الْمُعْتَقَدِ".. نعم، يتَّخذ الحنفانيُّونَ مذهبًا آخر هكذا ليؤكِّدوا بذلكَ تمايُزَهم عن بقيَّةِ المسلمين في العالَمِ بمثل هذا الإنتماءِ الثنائيِّ.[216]

أمّا المذهبُ الماتريديُّ، فإنَّهُ فلسفةٌ ابتدعَها أبو منصور بن محمد بن محمود السمرقنديُّ المتوفِّي سنة 944م. غفر الله له. وهو مِن مشاهيرِ علماءِ الإسلامِ؛ كانَ ذا نبوغٍ وذكاءٍ وعقلٍ

---

[215] قال الدكتور مصطفى جواد: إن الامام أبا حنيفة من اعلام الأفغان تعود أصوله إلى كابل (انتهى كلامه). اصول التاريخ والادب –المجمع العلمي العراقي– **1933**–ص**543**. ومعنى هذا أنَّ أبا حنيفة فارسيُّ الأصلِ في أغلب الظنّ، كما لم يُسمع أنه تكلَّمَ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّة.

[216] يعلِّمون أولادَهم كلماتٍ للاجابةِ عن سؤالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ. وهذه صيغتُها معرَّبَةً يليها أصلُ العباراتِ باللغة التركية:

أللهُ ربي، ومحمدٌ عليه السلام نبيّ، والإسلامُ دينِي، والقرآنُ كتابي، والكعبةُ الشريفةُ قبلتِي، ومذهبِي في الْمُعْتَقَدِ: مذهبُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ. ومذهبِي في العملِ: مذهبُ الإمامِ أبِي حنيفَةَ.

Rabbim, Allahü teâlâ, Peygamberim, Muhammed aleyhisselam, dinim, İslam dini, kitabım, Kur'an-ı kerim, kıblem, Kâbe-i şerif, itikatta mezhebim, Ehl-i sünnet vel-cemaat, amelde mezhebim, İmam-ı a'zam Ebu Hanife mezhebi.
http://www.gonulsultanlari.com/detay.asp?Aid=8978

وقد تختلف هذه الصيغةُ (لبعض الجماعات) بإضافةِ ذكر المذهب الماتريدِيّ بدلَ " مذهبِ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ "

ناضجٍ، جهبذًا من جهابذة الفكر الإنسانيّ، يُعَدُّ أرسطو المسلمين، له تفسيرٌ جليلٌ، وكُتُبٌ في العقيدةِ وأصولِ الفقهِ، اعتمدَ العقلَ بعد الكتابِ والسُّنَّةِ، اعتبرَ للعقلِ قدرتَهُ في مجالاتِ الحياةِ، وتَرَكَ للنصوصِ سلطانَها في مجالِ الغيبِ والعقائدِ، وتبنَّى أسلوبًا كلاميًّا على أساسِ الاستدلاَلِ والاستقراءِ. يعارِضُهُ متعصِّبوا السلفيَّةِ، وقد يبالغُ بعضُهم في تشنيعِ مذهبِهِ، ويرميهِ بالزندقةِ والشذوذِ عن جادَّةِ الحقّ!

غير أنَّ الحنفانيّين الأتراك يبالغونَ في الإعتزازِ بالماتريديَّةِ وَيَتَحَدَّونَ بها بقيَّةَ المذاهبِ الإسلاميَّةِ، ويحتقرون السلفيَّةَ منها خاصَّةً. دَفَعَهُمْ ذلك إلى الإفراطِ في العداوةِ للعربِ عامَّةً وللسلفيّينَ منهم خاصَّةً. وربما كانتْ نَزْعَتَا "الْحَنَفَانِيَّةِ" و"الماتريدَانِيَّةِ" من الأسبابِ الَّتي جرفتْ بهم إلى فكرِ الإرجاءِ، والإرجاءُ منتشرٌ انتشارًا ذريعًا في تركيا. يبدو أنَّ هذه النَّزعةَ شجَّعَتْهُمْ قديمًا ليتجرَّؤوا على تسميةِ الإسلامِ بـ"الْمُسْلُمَانيَّةِ Müslümanlık" وليتمايزوا بذلكَ عن جميعِ المسلمين بأنَّ للأمَّةِ التُّرْكِيَّةِ استقلالاً دينيًّا، كما لهم استقلالٌ لُغَوِيٌّ، واستقلالٌ سياسيٌّ "لم يرضخوا لِحُكْمِ أجنبِيٍّ عَبْرَ تاريخهم، بخلافِ العربِ والفُرسِ والأكرادِ وغيرِهم من أجزاءِ الأمَّةِ!" على حدِّ قولِهم..

إنَّ فكرةَ الإرجاءِ والتَّجَهُّمِ المنتشرَيْنِ في المجتمعِ التُّرْكِيّ لَمِنْ أهمِّ البراهينِ على غفلتِهِمْ عن الإسلامِ وانهماكِهِمْ في الْمُسْلُمَانيَّةِ. فلو لاَ ذلك لانتبهوا إلَى الصلةِ الَّتِي بينهُمْ وبينَ الإمامِ البخارِيِّ الَّذِي طالمَا يفخرُ بهِ علماؤُهم، ويزعُمُ الكثِيرونَ منهم أَنَّهُ تُرْكِيُّ الأصلِ، والإمامُ البخارِيُّ رحمه الله تعالى يقول: "كتبتُ عن ألفٍ وثمانين نفسًا ليس فيهم إلا صاحبَ حديثٍ"، وقال أيضًا: "لم أكتُبْ إلا عمَّنْ قال: الإيمانُ قولٌ وعمل."[217]

يجدرُ الإشارةُ هنا إلى أن الفسادَ الذي يَعُمُّ الْمفاهيمَ الدينيةَّ والتفكيرَ والأخلاقَ على الساحةِ التُّرْكِيَّة مُعْظَمُهَا ناشئَةٌ مِنْ دِينٍ غريبٍ اسْمُهُ الْمُسْلُمَانيَّةُ (Müslümanlık). ومن أعجبِ العجائب، أنَّ أحدًا من رجالِ العلمِ والبحثِ في المنطقةِ العربيَّةِ لم يتعرَّفْ على شيءٍ من هذا الدِّينِ، ولم يهتدِ لِلإطِّلاَعِ على الجُرْفِ السحيقِ الذِي يفصِلُ بينَهُ وبين الإسلامِ، رغم العلاقاتِ الكثيفةِ الَّتي جرتْ بين الأتراكِ والعربِ على مدى التاريخِ الإسلامِيِّ بحكمِ الجوارِ. إنَّما أسفرَ ذلك عن إِلْتِبَاسِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ بألإسلامِ في نَظْرَةِ العربِ إلى هذا الدِّين لِلتَشَابُهِ بينهما من وجوهٍ كثيرةٍ!

---

[217] الإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح (ص: 3). أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (959/5).

***

- **الْمُسْلُمَانيَّةُ (Müslümanlık) وَخَطَرُهَا عَلَى الإِسْلَامِ.**

أسلمتْ طوائفُ من الناس بعد الْعَرَبِ بِحُكْمِ الفتوحات ابتداءً من فتح الأراضي الَّتي كانت تحت سيطرة الدَّولتين العُظْمَيَيْنِ: (البيزنطيَّة والساسانيَّة)، وذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لكنَّ الأتراك اعتنقوا الإسلامَ ودخلوا في دين الله أفواجًا بعد فتحِ بلادِ ماوراءِ النهر، على يد قتيبةَ بْنِ مسلمِ الباهليّ (669–715م.)، في عهدِ عبد الملك بن مروان الأمويّ. فأسلمتْ جماهيرُ غفيرةٌ منهم خاصَّة بعد فتحِ مدينةِ سَمَرْقَنْد (عام 705م.)، ومدينةِ بُخَارَى (عام 709م.) فَوْرَ انتصارِ الجيوشِ الإسلاميَّةِ على أهلهما.

نبغَ من الأتراك على مدى تاريخهم علماءُ وخبراءُ وصلحاءُ وزعماءُ ومجاهدونَ ساهموا في الدفاعِ عن الإسلامِ ونشرِ رايَتِهِ وبناءِ حضارَتِهِ. عُرِفَ عنهم قديمًا أنَّ أكثرَهم منذ دخولِهم إلى حظيرةِ الإسلام، يعتنقون عقيدةَ أهلِ السنَّةِ والجماعَةِ. يبرهنُ على ذلك سياسةُ سلاطينِ العثمانيَّة تجاهَ الدولةِ الصفويَّةِ المتشدِّدَةِ في التشيُّعِ، والحاقدةِ على أهل السنَّةِ والجماعةِ. كما يبرهن على هذه الحقيقةِ الفتاوَى الفقهيَّةُ الَّتي أصدرتْها المشيخةُ الإسلاميَّةُ عبر التاريخِ العثمانِيّ، كذلك كثيرٌ من تآليف علماءِ العثمانِيَّة تشهدُ على هذا الواقع البيِّن.

مع هذه الحقائق الْمُوَثَّقَةِ، ظهرتْ نزعاتٌ بِدْعِيَّةٌ وَتَيَّارَاتُ خَطِيرَةٌ في تاريخِ الأتراك، منها ما تَبَنَّى هدمَ الإسلامِ من أصلِهِ عمدًا لأسبابٍ مختلفة. مثل (الطَّرِيقَةِ الْمَلاَمَتِيَّةِ)، اعْتَنَقَتْهَا طائفةٌ صوفيَّةٌ احتقروا العباداتِ (كالصومِ والصلاةِ والحجِّ والإعتكافِ والجهادِ والتضحيةِ وغيرِها من فرائِضِ الإسلام)، فَرَأَوْا أداءَها جهارًا من الرياءِ والإشراكِ باللهِ وارتدادًا من الدِّين. زعموا أنَّ مَنْ أظهرَ مِنْ هذهِ الطاعاتِ والمناسكِ شيئًا فإنَّه مُراءٍ منافقٌ مغترٌّ بنفسهِ.. يُفْتَرَضُ أنَّهم تبنَّوْا هذه القناعةَ ليؤكِّدوا بها على أهمِّيَّةِ التواضُعِ والإخلاصِ، ولكنْ على سبيلِ التعميةِ والتشويش والإرباك، بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ. ومنها (الطَّرِيقَةُ الْقَلَنْدَرِيَّةُ) الَّتي ازدادتْ بتفريطِهَا في الدِّينِ على الطريقةِ الْمَلاَمَتِيَّةِ. اعتنقها آلافٌ من خنافسِ الدراويشِ، مَرَدُوا على الإلحادِ، ورفضوا الكدَّ والعملَ، عاشوا عالَةً على الناسِ بالتَّكَفُّفِ والسؤال، يحلقون حواجبَهُمْ ولِحَاهمْ وشواربَهَمْ وشعرَ رؤوسِهِمْ، يطوفونَ في طَيْشٍ وابتذالٍ وهيئةٍ رثَّةٍ يعيفها مَنْ يراهم، بل تبعثُ الرُّعْبَ في نفسِ مَنْ يشاهِدُهُمْ. ومن هذه الشذوذيَّات: الحركةُ الإلحاديَّةُ الَّتي قادها الشيخ محمود بدر الدين بن قاضي سِيمَاوْنَه (1360–1420م.)، الذي ضربَ الفقهَ

الإسلاميِّ عرضَ الحائطِ، فدعا إلى الشيوعِ في المالِ والممتلكات... نُفِّذَ فيه حكمُ الإعدام في عهدِ السلطان شلبي محمد العثماني بن بايزيد الأوَّل.

غير أنَّ للحدثِ (سالفِ الذِّكْرِ) وجهًا آخر يقتضي أنْ لا يُعتَبَرَ هذا التّمرُّدُ مجرَّدَ خروجٍ تقليديٍّ على النظامِ الشرعيِّ بِحُجَّةِ المصلحةِ، أو ثورةً هدفُها الإطاحةُ بالحاكمِ عن حظِّ نفسٍ، ولِمَحْضِ التغلُّبِ والاستيلاءِ ونحو ذلك، بل يجبُ على الباحثِ أن يتفهَّمَ ظروفَ تلكَ المرحلةِ، ويتعرَّفَ على مدى تعامُلِ السلطةِ مع قطاعٍ مِنَ الرعايا الذين لم يكونوا من أهل السُّنَّةِ؛ بَلْهَ أنَّهم كانوا مصدرَ شَغَبٍ وعجلةَ فِتَنٍ في المجتمعِ.. كما لا يخفى أنَّ سلطةَ الدولةِ العثمانيَّةِ التي بَدَأَتْ – منذ قيامِها على مسرح التاريخ – تنسج مذهبًا فقهيًّا مُغلَّفًا بـ"الحنفيَّةِ" على أساسِ التقليدِ الصِّرْفِ، وكراهيةِ مَنْ لا يعتنقُ هذا المذهبَ، فاتَّخذتْ من الجماعاتِ العلويَّةِ غرضًا تمارسُ ضِدَّها ضغطًا شديدًا بحجَّة "معتقداتهم الشاذَّةِ، والبِدَعِ والزندقة المنتشرةِ بينهم". كانتْ هذه السياسةُ في الحقيقةِ قاسيةً خاليةً من كلِّ عاطفةٍ إنسانيَّةٍ، بعيدةً عن الرحمةِ والحكمةِ، لجأتْ في معظم الحالاتِ إلى استعمالِ العنفِ والسطوِ مجرَّدةً من روحِ الإرشادِ والتعليمِ والإصلاحِ، وبخلافِ ما يقوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن... (النحل: **125**). بينما الحكمةُ في خطابِ الناسِ، وفي التعاملِ معهم يستوجبُ الإعتدالَ، وَلِينَ الجانبِ، ومراعاةَ مستوياتِهم الثقافيَّةِ والمعرفيَّةِ كما ورد في كلام الحكماءِ: "خاطب الناس على قدر عقولهم". ومن الخطأِ الفاحشِ، بل من الظلمِ بمكان؛ أنْ يتحاملَ الآمر بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ على إنسانٍ لم يتعرَّفْ على كُنهِ ما يُدْعَى إليهِ مِن الحقِّ، ولم يتذوَّق أصلاً طعمَ الحقيقةِ، ولم يشمَّ رائحةَ العلمِ والفقهِ، ولم يحظَ شيئًا من العلمِ في حياتِهِ، وهو مغمورٌ في عالَمٍ مظْلِمٍ يملؤُهُ الجهلُ والخرافاتُ. لذا لَقِيَتْ سياسةُ الدولةِ العثمانيَّة من المجتمعِ العلويِّ رَدًّا عنيفًا ومُواجهةً شديدةً وعِنادًا وإصرارًا على الزندقةِ والجهلِ إلى نهايَةِ حُكْمِهَا. كما أصرَّتِ السلطةُ على عزلِ العلويِّين عن العالَمِ الخارجيِّ حتى في العهدِ الجمهوريِّ إلى نهايةِ العقدِ الخامسِ من القرنِ العشرين. ومن جانبٍ آخر استغلَّتْهُم الحكوماتُ الكماليَّةُ في مناهضةِ الدِّين، وأثارتْ فيهم العداوةَ على أهل السنَّةِ ممَّا أدَّى ذلك إلى حرمانِهم من التعرُّف على الإسلامِ الصحيح، وأخَّرهم مِنْ إعدادِ الذَّاتِ بمعارفِ العصرِ وثقافتِهِ. فانتشرَ الجهلُ بين صفوفِهِمْ، ودفعَتْهُم النَّزَعَاتُ اليساريَّةُ إلى أتون الفتنِ السياسيَّةِ في السبعينيَّاتِ، كما سدَّتْ أبوابَ الحوارِ بينهم وبين الحكوماتِ حتى في الظروفِ الْمُتَاحَةِ التي توفَّرتْ فيها فُرصةُ التعبيرِ عن الرأيِ خاصَّةً في عهدِ كلٍّ من الرئيسين للوزراءِ تُرغوت أوزال، ورجب طيب أردوغان، ولكن تجربة الحواراتِ بائتْ بالفشلِ نتيجةَ انتفاءِ الكفائَةِ العلميَّةِ والثقافِيَّةِ وصياغَةِ الأسلوب المنطقي فيهم.

كانت هذه قطرةً من بحرٍ بالنسبة لِمَا يملأ تاريخَ هذا الشعبِ وحياتَهُ ومعتقداتِهِ وعَقْلِيَّتَهُ التي تأبى أن تتناغمَ مع ظروفِ العالَمِ الخارجيِّ.

هذا، وربما ظهرَ أضعافُ ذلك في تاريخِ العربِ كحركةِ الخوارجِ، والرافضةِ، والمعتزلةِ، والقرامطةِ والراونديَّةِ، والدُّرزيَّةِ، والنُّصَيْريَّةِ، وغيرِها مِمَّا يصعب عَدُّهَا. بيد أنَّ أنماطًا من الشِّرْكِيَّاتِ الَّتي نجدها منتشرةً في عقائدِ قطاعٍ كبيرٍ من الأتراكِ تدلُّ على أنَّهَا من امتدادِ معتقداتِهم قبل إسلامهم، وأنماطًا منها تدلُّ على أنَّهم قلَّدوا فيها الفُرْسَ تقليدًا أعمى.. وهذا ما ليس له أثرٌ في أهل السُّنَّةِ من العربِ، لأنَّهم حطَّموا أصنامَهُمْ ودمَّروها بأيديهِمْ، وقضوا عليها في أوَّلِ أمرِهِمْ تحت إمرة الرسول عليه الصلاة السلام بالذَّات، كما تشدَّدوا عبر تاريخهم على مَنْ وجدوا فيه شَمَّةً مِنْ مَيْلِ التأليهِ لغير الله، وذلك بأشكالٍ من التنكيلِ بِالقمعِ والسحقِ والتشريد...

ومن أهمِّ رموزِ الخروج على الإسلام في المجتمعِ التُّرْكِيِّ: تحريفُهُمْ لاسم الدِّين الإسلامي، واستبدالُهُ بكلمةِ (مُسْلُمَانْلِكْ müslümanlık)، اصطلحوها مكان الإسمِ الذي أطْلَقَهُ اللهُ على دِينِهِ بقوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ (آل عمران/**19**).

لا يكادُ يوجد شخص من الأتراك يُقِرُّ بأنَّهُ مُسْلِمٌ، أو يُجِيبُ على سؤالِ مَنْ يَسْأَلُهُ عن دِينِهِ، إلاَّ قال (أَنَا مُسْلُمَانْ ben müslumanım)، بينما غَيْرُهُمْ من المسلمين في جميع أنحاء العالَمِ، يُعَبِّرُونَ عن انتمائِهم للدِّين الإسلاميِّ بالوجهِ الصحيحِ، فالمُسْلِمُ الإنجليزيُّ مثلاً يقوال (I'm muslim). ومن الغَرَابَةِ بمكان، أنَّ علماءَ العربِ غفلوا عن هذه البدعةِ على مدى قرونٍ إلى يومنا هذا، بحيثُ لم يتناولْ أحدٌ منهم هذه البدعةَ الخطيرةَ ولو في سطورٍ وجيزةٍ بحثًا لفتح باب النقاشِ على أقلِّ تقدير، لعلَّ يتنبَّهُ إليها علماءُ الأمَّةِ فيسرعوا إلى إرشادِ الأتراكِ وإنقاذِهِم من هذا الكفرِ البواح.

قد يعترِضُ بعض الناسِ قائلاً: "إنَّ هذا الإختلافَ ناشِئٌ من اختلافِ اللُّغة، لا يستحقُّ الاكتراثَ له.. والانشغالُ والانهماكُ فيه فضولٌ بل مبالغةٌ لا طائل تحتَهَا، لأنَّ الشخصَ إذا كانَ ينطِقُ بكلمةِ الشهادةِ، ويؤمنُ باللهِ، وملائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، وباليومِ الآخِرِ، وبالقدَرِ؛ ويؤدِّي فرائضَهُ وفقًا للكتابِ والسُّنَّةِ، فأين الخطرُ والضَّرَرُ من هذهِ التّسميَةِ!

إنَّ الدفاعَ بمثلِ هذهِ الصيغةِ الْوَاهِيَةِ — في الحقيقةِ — ضربٌ من الْمُجَازَفَةِ والتَّحَزْلُقِ، وخروجٌ على ما أَثْبَتَهُ اللهُ في كتابِهِ — تقدستْ كلماتُهُ—، فقد سَمَّى دِينَهُ (الإسلامَ)، وهذا شيءٌ توقيفيٌّ لا دخلَ للبشَرِ فيه. ولعلَّ هذهِ التسميةَ تدخلُ تحتَ قوله تعالى: وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ (المائدة/**13**).

إنَّ (الْمُسْلُمَانيَّةَ) ليستْ محضَ تحريفٍ في الاسمِ وحسبُ، بل هي رمزٌ لِرُكَامٍ مِنَ البِدَعِ والعاداتِ والمعتقداتِ الدَّخيلةِ، تسرَّبت من الديانات القديمةِ للأتراكِ وامتدَّتْ إلى اليومِ عبرَ ممارساتِهم لها، وتفاعُلِهِمْ معها منذ أيَّامِ تَعَرُّفِهِمْ على الإسلام. يتمثَّلُ هذا الخليطُ في شِبْهِ دينٍ مستقلٍّ عن الإسلامِ، ويتميَّزُ عنه بفروقٍ كبيرةٍ في كِلاَ جَانِبَيْهَا الْعَقَدِيِّ والعمليِّ.

تلتبس الْمُسْلُمَانيَّةُ بالإسلامِ خاصَّةً على العربِ لِمَلاَمِحَ تسودُ صورَتَهَا الخارجيَّةَ، أخذَها الأتراكُ من الإسلامِ، واستعملوها كَغِلاَفٍ لِمُعْتَقَدَاتِهِمْ وطقوسِهم القديمةِ، فلا يكادُ الإنسانُ العربيُّ، حتى العلماءُ والمثقَّفون منهم اليومَ أنْ يميِّزوا بين الديانَتَيْنِ (الإسلامِ وَالْمُسْلُمَانِيَّةِ) بسبب المشابَهَةِ الناجمةِ من هذا التركيب الذي يغلِبُ عليه الطابعُ الإسلاميُّ، إذ أنَّ الْمُسْلُمَانِيِّينَ أيضًا يصلُّون، ويصومون، ويحجُّون، ويزكُّون كالمسلمين، ويؤدِّي كثيرٌ منهم العباداتِ المفروضةَ في الإسلامِ، كذلك كثيرٌ منهم من يواظبون على النوافلِ، ويتصدَّقون، ويتطوَّعون بأعمال البِرّ، ويساهمون في خدماتِ الإغاثَةِ والإسعافِ والمعاونَةِ ونشرِ الفضائِلِ وغيرِها من الخيرات...

أمَّا الفاصلُ الذي يُفَرِّقُ به بين الإسلام والْمُسْلُمَانيَّةِ في حقيقةِ الأمرِ، ولا يَتْرُكُ المجالَ للنِّقاشِ في أَنَّهُمَا لا يمكن أنْ يلتقيا بوجهٍ من الوجوه؛ إنَّمَا يتمثَّلُ في ثلاثةِ أمورٍ هَامَّةٍ جدًّا، ألاَ وهي: التوحيدُ في العقيدةِ، والتَّوْقِيفِيَّةُ في العبادَةِ، والتَّكَامُلِيَّةُ في التعالِيمِ.

لا شكَّ في أنَّ عددًا قليلاً من علماءِ الإسلامِ قد شرحوا هذه المفاهيم الثلاثَةَ بالتفصيل، وَبَيَّنوا حَقِيقَةَ كُلِّ مِنْهَا بإسهاب. لأنَّ جميعَ الفوارِقِ الَّتي تُمَيِّزُ الإسلاَمَ عن أيِّ دين آخر، تَكْمُنُ في هذه المفاهيم الثلاثَةِ. ولكنَّ أغلبَ العلماءِ لم يدخلو في تفاصيلِ مفهومِ الشركِ بخاصَّةٍ، غفلةً منهم أو تغافلاً لأسباب...

هذ القصور قد يكفي لكثيرٍ من الدجاجلةِ ليفتحوا به بابًا خطيرًا للنقاشِ والجدلِ، وربما يتَّخِذُ مَرْضَى النفوسِ من هذا البابِ ذريعةً لإشعالِ نارِ الفتنَةِ. لكنَّهم لن يتمكَّنوا مِنْ تحقيقِ آمالِهِمْ إنْ شاء الله تعالى، ذلك، لأنَّ المقارنَةَ الَّتِي سيجدونَهَا فيما يلي بين الإسلام والْمُسْلُمَانيَّةِ عَبْرَ سلسلةٍ من البراهين، سَيُعْجِزُهُمْ عن التفريط في الحق، وَسَتَظَلُّ لِجَامًا على أفواههم يُلزمهم أمامَ الحقيقةِ الَّتِي لا مرية فيها.

ولكي يفتضِحَ هؤلاءِ على رؤوسِ الأشهادِ قبل أنْ يُهَيِّجوا الوسطَ لاستغلالِ الفرصةِ واستعراض مهاراتِهم بالمراوغةِ والمداورةِ والمغالطةِ والتشدُّق، يجب هنا الوقوفُ على مفهومِ الشرك بُرْهَةً، ويحسنُ قبلَ ذلك التعريف بمفهوم التوحيد بإيجاز:

فالتوحيدُ: روحُ الإسلامِ ودَعَامَتُهُ الأساسيَّة، ولا تمتاز ديانةٌ أخرى بهذه الميْزةِ الفريدةِ على الإطلاقِ، (بما فيها الْمُسْلُمَانيَّةُ) على وجهِ البسيطةِ.. وأمَّا عكسُ التوحيدِ: فهو الإشراكُ بالله. لكنَّ حقيقةَ الشِّرْكِ على عِظَمِ خَطَرِهِ، باتت خافيةً على مُعْظَمِ الناسِ في العالَمِ، ممَّا سَهَّلَ المجالَ لأغلبِ المجتمعاتِ يتلبَّسون بهذه الجناية بغير مبالاةٍ، كما أنَّ أكثرَ المسلمين ظلُّوا يجهلون حقيقةَ هذا الوحش، والْمُسْلُمَانُ أكثرُ جهلاً به. لأنَّ أغلبَ علماءِ الإسلامِ إنما كَرَّسُوا جهودَهم في مجرَّد تنبيهاتِهم وتحذيراتِهم عن الوقوعِ في الإشراكِ دون أن يتوسَّعوا في دقائق هذا الخطر المحدق بعالَمِ البشرِ في كل عصر، فلم تُثْمِرْ محاولاتُهُم القاصرةُ بنتائجَ رادعةٍ للناس من الوقوع في مهالك الشِّرْكِ، لَعَلَّ القصورَّ الذاتِيَّ السائدَ على أساليبهم من السجعِ والإيجازِ الْمُخِلِّ والتقليد الجافِّ، جعل أقوالَهم غيرَ وافيةٍ لإفشاءِ أسرارِ الشِّرْكِ، وَوَصْفِ سُمُومِهِ، وتأثيراتِهِ الهدَّامةِ على الحياةِ والعلاقاتِ البشريَّة، وتعدادِ أشكالِهِ بالتفصيل...

إنَّ الله سبحانه وصفَ الشركَ (بِالظُّلمِ الْعَظِيمِ)، ولم يصفْ أيَّ ذنبٍ آخرَ بهذا الوصفِ على كثرتِها، فقال تعالى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.(لقمان/13)، وَأَنْبَأَنَا بِسِعَةِ رحمتِهِ، إشارةً إلى أنَّه قد يجود بعفوهِ الشاملِ عن كلِّ ما اقْتَرَفَهُ عبادُهُ من ألوانِ الذنوبِ إلاَّ الشِّرْكَ بقوله: إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...(النساء/48، 116).

حَسَنًا، هذه الحقائقُ كلُّها واضحةٌ، وقد بلغتِ الناسَ، ولكنْ ما هي حقيقةُ الشِّرْكِ، وكيف يتلبَّسُ الإنسانُ بهذه الجنايةِ، وما تعريفُ الإشراكِ باللهِ، وما أقسامُهُ؟... هذه الأسئلةُ، لا نجدُ اليومَ كتابًا مِنْ

كُتُبِ علماءِ الإسلامِ يَرُدُّ عليها بإسهابٍ، ويرفعُ الإبهامَ عن هذا المرضِ، ويكشفُ السَّتْرَ عنه بتوضيحٍ دقيقٍ، وبيانٍ لا يدع للشكِّ فيهِ والجهلِ به مِنْ أدنى أثر.

إنَّ أوضحَ ما ورد في تعريفِ الشِّرْكِ على لسانِ علماءِ الإسلامِ ربما لا يَعْدُو سَعَةً ولا يربو على قول الدهلوي: "إنَّ الشِّرْكَ لا يتوقَّف على أنْ يعدِلَ الإنسانُ أحدًا باللهِ، ويساويَ بينهما بلا فرقٍ، بل إنَّ حقيقةَ الشِّرْكِ أنْ يأتِيَ الإنسانُ بِخِلاَلٍ وأعمالٍ خَصَّهَا اللهُ تعالى بذاتِهِ العليَّةِ، وجعلها شِعَارًا للعبوديَّةِ لأحدٍ من الناسِ، كالسجودِ لأحدٍ، والذبحِ باسْمِهِ، والنذرِ له، والاستعانَةِ به في الشدَّةِ، والاعتقادِ أنَّه ناظرٌ في كلِّ مكانٍ، وإثباتِ التصرُّفِ له، كلُّ ذلك يَثْبُتُ به الشِّرْكُ وَيُصْبِحُ به الإنسانُ مشركاً"[218]

يقول الإمام سعود بن عبد العزيز رحمه الله (ت. 1229هـ.): "إنَّنا لا نكفِّرُ بالذنوبِ وإنَّما نقاتلُ مَنْ أشركَ باللهِ وجعلَ للهِ نِدًّا يدعوه كما يدعو اللهَ، ويذبحُ له كما يذبحُ له، وينذرُ له كما ينذرُ للهِ، ويخافُهُ كما يخافُ اللهَ، ويستغيثُ بِهِ عند الشدائدِ وجلبِ الفوائدِ، ويقاتِلُ دون الأوثانِ والْقِبَابِ الْمَبْنِيَّةِ على القُبور الَّتي اتُّخِذَتْ أوثانًا تُعْبَدُ مِنْ دُون اللهِ"[219].

هذا القدرُ اليسيرُ من التعريفِ بالشركِ، ربما يُعَدُّ من أوضحِ ما تناثرتْ من أَلْسِنَةِ العلماءِ حولَ هذا المفهوم. يدلُّ ذلك على الفجوةِ الخطيرةِ الَّتي أدَّى بالناسِ إلى ارتكابِ أعظمِ جنايةٍ في تركيا على مدى قرنٍ تقريبًا (وربما طوالَ قرونٍ من العهدِ العثمانِيِّ). بينما لا شكَّ في أنَّ معظمَ الذنوبِ والجرائمِ والجناياتِ، والخياناتِ، من القتلِ والإبادةِ والقمعِ والظلمِ بأشكالِهِ، كُلُّهَا ناجمةٌ ومُتَسَلْسِلَةٌ من الإشراكِ بالله مباشرةً أو بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ.

إنَّ الإشراكَ باللهِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ ظاهرةٌ متميِّزَةٌ وعلنيةٌ لا تواجِهُ ردَّ فعلٍ سلبِيٍّ من أحدٍ رغمَ انتشارِها. فلا يكادُ شخصٌ من أفرادِ هذا المجتمعِ يتذمَّرُ حيالَ هذه الظاهرةِ الخطيرةِ. كما لم يُسمَعْ من أحدٍ معروفٍ بسمةِ العلمِ في تركيا أنَّه أظهرَ النكيرَ على المشركين الْمُسْلُمَانِ، أو نَهَضَ لإرشادِهِمْ إلى التوحيد، أو هَجَرَهُمْ بسببِ هذه الفتنةِ العظيمة. فقد اعتادَ معظمُ الناسِ على

---

[218] رسالة التوحيد المسماة بتقوية الإيمان للشهيد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي (ص32، 33)

[219] مقتبس من رسالة الإمام سعود بن عبد العزيز إلى والي بغداد سليمان باشا. الدرر السنية. 397/7

الشركِ، أو تقبَّلوه بصمتٍ وهدوءٍ منذُ القديمِ، ربما لجهلِهِم المطبق بتوحيدِ اللهِ سبحانه، وهذا أمرٌ ملفتٌ للغاية.

هذا، وما من شكٍّ في أنَّ تعاليم الطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّةِ فيها مُعْتَقَدَاتٌ من الإشراكِ باللهِ ما ليس ضبطُها وجمعُها من السهولةِ بمكان، لكثرتِها وشيوعِها، والذين يعتنقونَ هذه التعاليمَ ويعبدونَ على أساسِها يُقَدَّرُ عددُهم بالملايينِ في المجتمعِ التركيِّ مِمَّا يُذَكِّرُنَا بحديثٍ عَنْ ثَوْبَانَ بْنِ بُجْدُدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ ".(حديث مرفوع).

يقولُ أحدُ علماءِ الحجازِ: صالحُ بْنُ فوزان بْنِ عبدِ الله الفوزان: "إنَّ في هذا الحديثِ ردٌّ على مَنْ زعمَ أنَّ هذهِ الأُمَّةَ لا يقعُ فيها شِرْكٌ، ووجهُ الرَّدِّ: لأنَّ الرسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرَ– وهو الصادقُ المصدوقُ– أنَّه لاَ بُدَّ أنْ تَعْبُدَ جماعاتٌ وليسوا أفرادًا من هذهِ الأُمَّةِ الأوثانَ.[220]

***

تتمحورُ إشكاليةُ الإشراكِ في تركيا حولَ أسبابٍ تاريخيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وثقافيَّةٍ خاصَّةٍ بالأتراك، يطول الكلام فيها. أمَّا الأسبابُ الرئيسةُ التي تثيرُ هذهِ النَّزْعَةَ، فيأتي على رأسِها الإفراطُ في الإنتماءِ القوميِّ العصبيِّ، والافتتانُ بالزعيمِ، وتقديسُهُ على مستوَى العبوديَّةِ له، وترويضُ العاطفةِ على تبجيلِ الأمجادِ التي معظمُها لا تتعدَّى عن أساطيرَ وقصصٍ لا حقيقةَ لها.

ثُمَّ إنَّ ملايينَ من الناسِ اليومَ، لا تعدو مَعْرِفَتُهُمْ حولَ الشركِ عن: أنَّه مجرَّدُ اعتقادٍ بأكثرَ مِنْ إلهٍ وحسبُ. ويظنُّ هؤلاءِ أنَّ الإنسانَ إنَّما يُشْرِكُ بالله متى ركعَ أو سجدَ لصنمٍ، أو اعتقدَ بأنَّ لِلْكَوْنِ أكثر من خالقٍ... ولهذا، لا علمَ لأحدٍ (تقريبًا) على الساحةِ التُّرْكِيَّة بأدنى قدرٍ: أنَّ الإنتصابَ أمامَ تِمْثَالٍ من تماثيلِ الإنسانِ هو إشراكٌ باللهِ، إنْ كان يقصد الإحترامَ له.

لَمَّا فَرَضَتْ الدولةُ التُّرْكِيَّةُ على جميعِ مواطنِيها بالوقوفِ قائمًا صامتًا أمامَ تمثالِ مصطفى كمال في أوقاتٍ معيَّنةٍ من الأيامِ، والشهورِ والسنةِ، (وهي محدَّدةٌ بِالقانونِ)، لَمْ يَنْبِسْ أَحَدٌ مِنْ خُوَاجَوَاتِ

---

[220] المصدر: صالحُ بْنُ فوزان بْنِ عبدِ الله الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (1/ 338)

الأتراك بِبِنْتِ شَفَةٍ منذ عام 1938م. إلى اليوم، ولَمْ يُسْمَعْ مِنْ أَحَدِهِمْ أَنَّهُ وَصَفَ هذه الْوَقْفَةَ بالشِّرك، مع أَنَّهَا أَبْشَعُ أشكالِ الشركِ الأكبر! وذلك ليس إلاَّ بسببِ هذا القصورِ –الفاحشِ في تعريفِ الشِّرْكِ–، الّذي تركَ الناسَ يجهلون حقيقةَ الإشراكِ باللهِ. وهذا من أكبرِ الدلائلِ على أنَّ الْمُسْلُمَانيَّةَ دِينٌ لا تَمُتُّ في أصلِه بصلةٍ إلى الإسلام. لأنَّ هذه الملايين الْمُعْتَنِقَةَ للدِّين الْمُسْلُمَانيَّةِ، تقومُ بأداءِ تلك الوقفةِ طوعًا ودون أدنى شيءٍ من إبداءِ الكراهيَّةِ والاشْمِئزازِ، فضلاً عن اظهارِ الغضبِ بِرَدِّ فِعْلٍ، مِنْ انْتِقَادٍ أو اعتراضٍ ضدَّ هذه الجنايةِ العظيمة!

فقدْ آنَ الوقتُ لِلْمُقَارَنَةِ بين الإسلامِ والْمُسْلُمَانيَّةَ بِسَرْدِ دلائلَ قاطعةٍ في التمييزِ بينهما:

إنَّ أوَّلَ دليلٍ في هذا التمييز وأَهَمَّهُ: إقرارُ علماءِ التُّركِ بالذَّات وإثباتُهُمْ لهذا التمييز، إلاَّ أنَّهم لا يرون الْمُسْلُمَانيَّةَ دِينًا مستقلاً عن الإسلامِ، وإنَّما يعدُّونَها ((اسْمًا عامًّا يُطْلَق على الرصيدِ الثقافيِّ الدِّينيِّ عندهم. وبهذا الاعتبار، فإنَّ الْمُسْلُمَانيَّةَ مفهومٌ يُعبِّرُ عن جميعِ العاداتِ والتقاليدِ والأعرافِ والْمُعتقَدَاتِ الَّتي صاغَها الشعبُ التركيُّ عبرَ تاريخِهِ وأضْفَى عليها صبغةً دِينِيَّةً)) على حدِّ قولهم. وهذا لا يعدو عن مراوغةٍ وتعميةٍ وتضليلٍ وتحريفٍ للحقيقةِ.

ومن هذه الدلائلِ: إذا سُئِلَ أحدُ علماءِ التُّركِ عنِ الْفَرْقِ بين الإسلام وَالْمُسْلُمَانيَّةِ، تَرَاهُ يَلْزَمُ جانبَ الصَّمتِ بقدرِ الإمكانِ إذا استطاعَ. وإذا أصرَّ السائلُ على سؤالِهِ تراهُ يتفوَّهُ بكلماتٍ يُرَاوِغُ فيها تَهَرُّبًا من الإجابةِ الصريحةِ والإقرارِ بالواقع. لأنَّه إذا أقرَّ بأنَّ هذا الدِّينَ المستحدَثَ: لا يَعْدُو عن رُكَامٍ من البِدَعِ والْخُرَافاتِ ورسوباتِ الأديانِ، مُزِجَتْ بِهَا قِيَمٌ ومفاهيمُ إسلاميَّةٌ مسروقةٌ ومحرَّفةٌ، يكون قد حَطَّ مِنْ شأنِ الأمَّةِ التُّرْكِيَّة! بينما لا شكَّ في أنَّ الْمُسْلُمَانيَّةَ في حقيقةِ الأمرِ خليطَةٌ، فيه أجزاءُ كثيرةٌ من الإسلامِ تمَّ جذبُها وانتشالُها بالتقليدِ الأعمَى، وَضَمُّها إلى معتقداتٍ جاهلِيَّةٍ بَقِيَتْ في أعماقِ الضمائرِ، ثُمَّ انتقلتْ من جيلٍ إلى آخرَ منذُ تَعَرَّفَ الأتراكُ على الإسلامِ إلى يومنا هذا.

يبرهن على ذلك ما سجَّلَهُ الباحث التركيُّ العملاق، الأستاذ الدكتور فؤاد كوبرولو، يقول:

"إنَّ الأتراكَ، لم يأخذُوا أكثرَ عناصرِ الدِّينِ الإسلاميِّ من العربِ مباشرةً، بل أخذُوها بواسطةِ الأعاجِمِ (أي الفُرْسِ). ولقد كانتْ تَصِلُ الحضارةُ الإسلاميَّةُ إلى الأتراكِ من منطقةِ خُرَسَانَ الَّتي تُمَثِّلُ مركزَ حضارةِ الْفُرْسِ، وذلك عبر منطقةِ ماوراء النهر."[221]

إنَّ الدوافعَ الَّتي حدَّدَتْ الْوِجْهَةَ الدينيَّةَ للأتراكِ بعد تعرُّفِهم على الإسلامِ، لا تبدو – البتَّة – بدقائِقِهَا من خلالِ هذه العباراتِ الوجيزةِ للأستاذ كوبرولو، بيدَ أنَّ كلماتِهِ الْمُقتَبَسَةَ فيما يلي حولَ موقفِ الشعبِ الفارسِيِّ من الإسلامِ، ودورِهِ في إفسادِ مفاهيمِ هذا الدِّينِ العَالَمِيِّ، تكشفُ الشيءَ الكثيرَ وتُفْشِي أسرارًا رهيبَةً لأغراضِ الشعبِ الرافضيِّ، تُضِيفُ إلى عباراتِهِ الآنفةِ الذِّكرِ معانِيَ هامَّةً تتَّضِحُ من خلالِهَا الرؤيةُ لِظَاهِرَةِ (الْمُسْلُمَانِيَّةِ) في الوقتِ ذاتِهِ. يقول الدكتور كوبرولو:

"إنَّ الشُّعُوبِيَّةَ الإيرانيَّةَ (الَّتي جعلتْ من الحسينِ بن علي وذرِّيتِهِ وَرَثَةً للدَّولةِ الفارسيَّةِ وحُرَّاسًا لَهَا)، أنزلتْ ضَرَبَاتٍ قاصِمَةً على الدِّينِ الإسلامِيِّ والقوميَّةِ العربيَّة تحتَ قِنَاعِ الدِّفَاعِ عن حقوقِ أهلِ البيتِ، وَعملتْ على إخفاءِ العقائدِ الزرادشتيَّةِ تحت ستارِ الإسلامِ، فأثبتتْ بذلك أنَّهُ من المستحيلِ بمكان القضاءُ على الحضارةِ الفارسيَّةِ الَّتي لَهَا من السابقةِ التاريخيَّةِ خمسةُ آلافِ سنة"[222].

إنَّ الصورةَ الحقيقيَّةَ لِلْمُسْلُمَانِيَّةِ ستنجلِي بعدَ إجراءِ سلسلةٍ من المقارنةِ بينها وبين الإسلامِ بطريقِ الاستدلالِ الاستقرائيِّ من خلالِ سردِ الفروقِ الفاصلةِ بينهما، كما سيأتِي إن شاء اللهُ تعالى. وستفتضحُ تلك الصورةُ الْمُشَوَّهَةُ أمامَ كلِّ مُتَتَبِّعٍ خبيرٍ لا محالة، وذلك بعد اطِّلاَعِهِ على الفروقِ الواردةِ في الترتيبِ الآتِي، وهي منقسِمَةٌ إلى ضربين رئيسينِ، وهما:

1) الفروق العقديَّةُ،
2) الفروق العمليَّةُ.

---

[221] تجدون فيما يلي نصَّ كلماتِ الأستاذ الدكتور فؤاد كوبرولو، باللُّغَة التُّرْكِيَّة التي نقلتُها إلى اللغة العربية فيما سبق:

«Türkler İslâmiyet'in» birçok unsurlarını doğrudan doğruya Araplardan değil, acemler vasıtasıyla aldılar. İslâm medeniyeti Türklere, İran kültürünün merkezi olan Horasan yolu ile Maveraü'nnehr'den geçerek geliyordu».

Prof. Dr. Fuad Köprülü, Türk Edebiyâtında İlk Mutasavvıflar, 8. Edition, page: 21. Ankara-1993. Directorate of Religious Affairs.

[222] فيما يلي نصّ كلماتِ الأستاذ الدكتور فؤاد كوبرولو، باللُّغَة التُّرْكِيَّة التي نقلتُها إلى اللغة العربية فيما سبق:

«İrânîlik, Hz. Hüseyin evlâdını Sâsânîler'in varis ve takipçisi sayarak, "Ehl-i Beyt'in hukukunu müdafaa perdesi altında Arap Milliyetine ve İslam dinine dehşetli darbeler vurdu ve eski bir medeniyetin kolayca yok edilemeyeceğini – Zerdüş akidelerini İslam kisvesi altına sokmak suretiyle – açıkça gösterdi»: Prof. Dr. Fuad Köprülü, Türk Edebiyâtında İlk Mutasavvıflar, 8. Edition, page: 15. Ankara-1993. Directorate of Religious Affairs.

أمَّا الفروقُ العقديَّةُ، فإنَّ كلَّها تتعلَّقُ بِرُكْنِ التوحيدِ الذي هو أساسُ الدِّين الإسلاميّ، وإنَّما يتحقَّقُ توحيدُ العبدِ للهِ بالإيمانِ الجازمِ في قلبِهِ، والشهادةِ نُطْقًا بلسانِهِ مع تَنْزِيهِهِ للرَّبِّ تعالى عن جميعِ سماتِ النقصِ والزوال... إنَّ توحيدَ المسلِمِ الحنيفِ لا يخرجُ عن إطارِ هذا التعريف. والحنفاءُ قليلون جدًّا، ومضطهَدونَ في وطنِهم، وقد لا يتجاوزُ عددُهُمْ عن خمسين ألفًا، من أصلِ خمسٍ وسبعين مليوم نسمةً من سُكَّانِ تركيا، بحسبِ استطلاعاتٍ سرّيَّةٍ غيرِ دقيقة.

أمّا الشخصُ الْمُسْلُمَانُ، فإنَّهُ وإنْ كان يوحِّدُ اللهَ بلسانِهِ، ولكنَّه يختلفُ عن المسلِمِ الحنيفِ في تَنْزِيهِهِ للهِ سبحانه، إذ يعتقدُ اعتقادًا جازمًا: "أنَّ الأولياءَ قادرون على التصرُّفِ في ملكه تعالى؛ لَهُمْ أنْ يُجِيبُوا الْمُضْطَرِّينَ إِذَا دَعَوْهُمْ؛ يَكْشِفُون عنهم السُّوءَ، ويدفعون عنهم البلايا، ويُسبِغُون عليهم النِّعَمَ..."، إلى غيرِ ذلك من ألوانِ الإشراكِ بالله... كما يُقِرُّونَ بمعتقداتِهِمْ هذه جهارًا، وأبعد من ذلك: إنَّهم يرمون الحنفاءَ: بـ"الْكُفرِ والزَّنْدَقَةِ والإساءةِ إلى الأولياءِ..."، يقصِدون بالأولياءِ: الأضرِحَةَ. وهي القِبابُ، والقبورُ المزيَّنَةُ بالدِّهانِ الأخضر. إذ يعتقدون: "أنَّ مَنْ أنكرَ قُدْرَةَ الأولياءِ على التصرُّفِ، وإجابةِ المضطرِّ، فإنَّهُ يكون قد حطَّ من شأنِهِمْ، وأساءَ إلى اللهِ في الوقتِ ذاته، لأنَّهم وُكَلاَءُ الله ونُوَّابُهُ في مُلْكِهِ (سبحانه وتعالى عمَّا يشركون!). راجع الهامش/92.

لا شكَّ في أنَّ هذا الاعتقادَ يمثِّل فرقًا عظيمًا، يَفْصِلُ بين الإسلامِ وبين الديانةِ الَّتي يعتنقُهَا مُعْظَمُ الأتراكِ ويسمونها: "الْمُسْلُمَانيَّةَ Müslümanlık".

يغلبُ أنَّ الإنسانَ الْمُسْلُمَانَ يتصوَّرُ "اللهَ في هيئةِ شيخٍ مُعَمَّمٍ عملاقٍ له لِحيةٌ بيضاءُ، جالسٌ فوقَ عرشِهِ في أعلى السماوات". وَلاَ مشقَّةَ في إثباتِ هذا الْمُعْتَقَدِ عند الشخصِ الْمُسْلُمَانِ بِطَرِيقِ الاستقراءِ، وذلك بقرينةِ ما يبدو لهم من المشابهةِ بين اللهِ وبين أندادِهِ من (الأولياءِ) الَّذين يبرهنُ موقفُ الشخصِ الْمُسْلُمَانِ منهم: في خوفِهِ من لعنتِهِمْ، وفي توقيره إيَّاهم، وفي دعائِهِ لهم، وفي وصفهِ إيَّاهم بصفاتِ اللهِ، سبحانه عما يشركون... وعلى سبيلِ المثال: تُقيمُ طائفةٌ صوفيَّةٌ من الْمُسْلُمَانِ حفلاتٍ شبهِ سِرِّيَّةٍ اسْمُها (الْخَتْمُ الْخُوَاجَكَانِيُّ)، وهو طقسٌ من طقوسِ النقشبنديَّةِ، مأخوذٌ من تعاليمِ رهبانِ المجوسِ؛ يذكرون في أثنائِهِ أسماءَ عددٍ من شيوخِهِمْ، ويُطْلِقُونَ على بعضِهِمْ نُعُوتًا تفيدُ التساوِيَ بين اللهِ وبين مخلوقِهِ، خاصةً عندما يذكرون شيخًا لهم اسمه محمد ضياء الدِّين، يصفونَهُ بـ(نُورِ

السماواتِ والأرضين)، بينما لا يجوز إطلاقُ هذه الصِفَةِ إلاَّ على اللهِ – جَلَّتْ عَظَمَتُهُ–، فقال تعالى: "اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ."(النور/35).[223]

في الحقيقةِ لا بأسَ من تسميَةِ الإنسانِ بالنورِ، بقصدِ أنَّه مُنِيرٌ لعقولِ الناسِ يُرْشِدُهُمْ إلى ما فيهِ صلاحُهُمْ، ولأنَّ أسماءَ اللهِ تعالى توقيفيَّةٌ، ولم يَثْبُتْ أنَّ (النورَ) من أسمائِهِ تعالى، إلاَّ أنَّ الآيةَ المذكورةَ آنفًا فيها تعميمٌ يفيدُ شمولَ نورِهِ (بِمَعْنَى هُدَاهُ تعالى الْعَمِيمِ)، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَأنه سبحانه مُنَوِّرُ الأنوارِ وَمُبْدِعُهَا وَخَالِقُهَا، بحكمتِهِ التي حصلتْ بها مصالِحُ العالَمِ، وانتظمتْ مُهِمَّاتُ الدنيا والآخرة، فيَسْتَحِيلُ على غَيْرِهِ أنْ يكونَ هاديًا لمن يشاءُ إلاَّ بإذنِهِ تعالى، كما يَسْتَحِيلُ على العبدِ أنْ يكونَ هو مُنَوِّرَ الأنوارِ وَمُبْدِعَهَا وَخَالِقَهَا فَتَحْصُلَ بدورِهِ مصالِحُ العالَمِ، وتَنْتَظِمَ مُهِمَّاتُ الدنيا والآخرة... إذًا وَصْفُ الشخصِ بـ(نُورِ السماواتِ والأرضين)، مبالغةٌ خطيرةٌ، وَجُرْأَةٌ على اللهِ، وتفريطٌ في جنبِ اللهِ، إذ فيهِ إرادةُ المساواةِ بين اللهِ وبين خلقِهِ، مِمَّا يفيد من غير شكٍّ أنَّ في هذه المقولةِ إشراكٌ بالله ظاهرٌ، سبحانه وتعالى عما يشركون.

إنَّ الشركَ بالقدرِ الذي ينطوي عليهِ من الخُبْثِ والفسادِ، فيه ما لا يتوقَّعُهُ الانسانُ من أشكالِ الحِيَلِ واللُّعَبِ الشيطانيَّةِ، يستدرجُ عبرَهَا الشخصُ المشركُ على حسب لَبَاقَتِهِ ومهارتِهِ ليُخفِيَ مَكْرَهُ وَدَنَاءَتَهُ فيَتَرَاءَى أنَّهُ من أخلصِ الناسِ في توحيدِ اللهِ، بينما هو من أخسِّ وأحقرِ وأخبثِ عباد الله.

وبهذهِ المناسبةِ يجبُ علينا ألاَّ ننسَى بأنَّهُ من المستحيلِ أن يُسمَعَ من أحدٍ من أفرادِ أمَّةِ الإسلامِ على اختلافِ مذاهِبِهِمْ واتِّجاهاتِهِمْ وثقافاتِهِمْ، أنْ يقولَ بتثنيةِ الخالقِ؛ أو يقول: للكونِ أكثرُ من خالقٍ واحدٍ. وحتَّى أشدُّ الناسِ حماقةً بين هذا الغمرِ العظيم، لا يمكنُ أنْ يَسْقُطَ إلى الدركِ الأسفلِ على هذا المستوى من الدناءةِ ليقول بهذه المقولةِ الخرقاء!

إذًا ما حيلةُ الإنسانِ الذي يؤمِنُ بأنَّ لهذا الكون أكثر من خالق؟ ما حيلتُهُ إذا وقعَ في هذا المستنقَعِ وهو يحذرُ تَهَكُّمَ الناسِ ويخافُ أنْ يضحكوا منه ويَرْمَوْهُ بالجنون؟! لا شكَّ في أنَّهُ سيبدأُ يحاوِلُ لِيَجِدَ له سبيلاً فَيُلْهِيَ به الناسَ، ويتَّقِيَ بِهِ خاصَّةً مُضَايَقَةَ أهلِ التوحيدِ، ويدفعَ احتجاجَهُمْ.

---

[223] هذه الحفلة الهندوسيَّةُ لها آدابٌ جمعها بعضهم في كتيبٍ بغرض الدعاية لهذه الطائفةِ، وطبع منها آلاف نُسَخٍ تمّ توزيعُها على الناسِ، ولم يُسمَعْ أنَّ شخصًا واحِدًا مِنْ خواجواتِ الأتراك والأكراد رَدَّ عليهم ولو بكلمة واحدةٍ، أو نبّه النّاسَ على هذه الجريمة.

إنَّ السبيلَ الوحيدَ هو أنْ يُعَظِّمَ آلِهَتَهُ بإطلاقِ صفةِ الولِيّ على كلٍّ منها، مع ذلك أنْ يتجنَّبَ خاصَّةً من إطلاقِ صفة الإِلهَيَّةِ أو الربوبيَّةِ على أحدِها، فلا بأس إذنْ من أن يخلعَ على جميع آلهته ما شاءَ من صفاتِ اللهِ سبحانهُ، كأنْ يبالغَ في إطرائِهَا ثم يقولَ: هؤلاءِ يعلمون الغيبَ، ويُنَزِّلون الغيثَ، ويحضرون ساحاتِ القتالِ وهم في طلائعِ المجاهدين في المعاركِ، يجيبون المضطرّين، ويُفَرِّجُونَ الكروبَ إلى غيرِ ذلك مِمَّا يستحيلُ على العبدِ العاجزِ المسكينِ. هذا هو سِرُّ أسلوب أهلِ الإشراكِ بالله من الصوفيَّة والجهلَةِ وحثالةِ البشر.

كانت هذه نبذةً من الفروقِ العقدية الَّتي تتميَّزُ بها الْمُسْلُمَانيَّةُ عن الإسلامِ وذلك على وجه الإختصار.

أمَّا تصرُّفاتُ الشخصِ الْمُسْلُمَانِ وسلوكِيَّاتُهُ الَّتي تبدو أنَّها ليستْ من الإسلامِ في شيءٍ، وتبرهنُ على أنَّ الْمُسْلُمَانيَّةَ ديانةٌ مستقلَّةٌ عن الإسلامِ كنتيجةٍ لهذه البرهنة، فهي أكثرُ من أنْ تُحصَى في مثلِ هذا المقامِ، وهذه نماذجُ منها:

تكثُرُ الزياراتُ إلى الأضرحةِ في تركيا، خاصَّةً في بعض الأيَّامِ المعلومةِ. والضريحُ: قبرٌ عليه قُبَّةٌ مشيَّدةٌ يختلفُ حجمُها وفخامتُها حسب شهرةِ الشخصِ المدفونِ تحتَهَا. يعتقدُ الزُّوَّارُ فيه البركةَ والكرامَةَ يزورونَهُ في بعض الأيَّامِ المقدَّسَةِ عندهم، ويتضرَّعون إليه بالسؤالِ لِيُحقِّقَ لهم آمَالَهُمْ، وليكشِفَ عنهم الكروبَ والْهُمُومَ، وليرزقَهُمْ ما يطلبون منه على اختلافِ مآربهم. منهم مَنْ يطلبُ إليه أنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا، أو يَرْزُقَهُ سيَّارةً، أو بيتًا، أو يُسَهِّلَ له الزَّواجَ، أو يَرُدَّ عليه عشيقتَهُ، أو ضالَّتَهُ الَّتي ينشدُها، إلى غيرِ ذلك من الآمالِ والأحلام والمطالبِ... علمًا بأنَّ كلَّ هذه التضرُّعاتِ والسؤالات والطلباتِ، موجَّهةٌ مباشرةً إلى الشخصِ المدفونِ في الضريحِ وليس إلى الله. ومنهم مَنْ يزعم أنَّ سؤالَهُ موجَّهٌ إلى اللهِ في الحقيقةِ، ولكنَّهُ يتوسَّلُ بصاحبِ الضريحِ، لأنَّه شخصيَّةٌ ذو قدرٍ رفيعٍ عندَ اللهِ لا تُرَدُّ شفاعتُهُ!.

لقد أجمعَ العلماءُ قاطبةً على أنَّ الغلوَّ في تعظيمِ الصَّالحين أمرٌ قديمٌ، وقد ينتحلُ زِنْدِيقٌ سِمَةَ أهلِ الصَّلاَحِ فيُعَظِّمُهُ النّاسُ ثُمَّ يتَّخذونَهُ نِدًّا من دون الله. والغلوُّ طبيعةُ التَّابعِ في المتبوعِ، وقد يبلغُ هذا التَّعظيمُ منهم إلى حدودِ التّأليه، ولايزال هذا الطِّابعُ مستمرًّا، وهو سُنَّةٌ جاهليَّةٌ من قديمِ الزَّمان، من عهدِ قومِ نوحٍ، ولاتزال...

قال العمادُ ابنُ كثير رحمه الله: "يذكر الله حالَ المشركين به في الدنيا ومآلَهُمْ في الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أندادًا، أي أمثالاً ونُظَرَاءَ يعبدونهم معه ويحبُّونهم كحبِّهِ، كما قال تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ.." (البقر/**165**). وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: "يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خَلَقَكَ"

"والدعاة إلى الكفر: هم من بني آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخا لأولئك الغاوين كأصحاب الطرق الصوفية، فإنهم الذين زيَّنُوا لمريدِيهم ومتبوعِيهم الشركَ والكفرَ بالله ورسولِهِ. فإنَّ أساسَ طُرُقِهِم الشيطانيَّةِ: أنْ يعبدَ المريدُ شيخَهُ بأنواعِ التعظيمِ والخوفِ واعتقادِ أنَّه جاسوسُ قَلْبِهِ يدخلُ ويخرجُ والمريدُ لا يشعر. وأنَّه قبلَ أنْ يذكرَ اللهَ يستحضِرُ الشيخَ في قلبهِ. ويعظِّمونَهم بأنواعِ الطاعةِ العمياءِ أحياءً وأمواتًا –كما هو مُدَوَّنٌ في كُتُبِهِمْ– من شروطِ المريدِ وما يسمُّوْنَهُ (العهدَ الوثيقَ). وتجدُ أكثرَ هذا الكفرِ والضلالِ في كتب الشعراني. وأمَّا آياتُ سورةِ الأحقافِ فإنها صريحة في أنَّ الذين يكفرون بِشِرْكِ المشركين: هم من عبادِ الله الصالحين الذين اتَّخذهم الناسُ آلهةً بعد موتِهِمْ، واتَّخذوا قبورَهم أوثانًا، وما كانوا يحبُّون ذلك ولا يرضَوْنَ به؛ من أمثال الحسين وإخوته وأبيه وأبنائهم، والإمام الشافعي في مصر، وأبي حنيفة وعبد القادر في بغداد ونحوهم، فإنهم يتبرَّأون يومَ القيامةِ من أولئك المشركين".[224]

وبسببِ هذا الإعجابِ الَّذي بالغَ فيه المتأخِّرون في تعظيمِ قُدَمَائِهِمْ فَاتَهُمُ العلمُ بحقيقةِ أمرِهِمْ، إذ تعلَّق الْخَلَفُ بالسَّلَفِ على غير بصيرةٍ، انبهارًا وخشوعًا وخشيةً، فوجدَ التَّابعُ متبوعَهُ عِمْلاَقًا وعبقريًّا، بل وإلهًا فوقَ كلِّ آلهةٍ، كما اعترفَ في نفسِهِ بالعجزِ والضَّعفِ والذُّلِّ والتَّقصيرِ، وأظهرَ ذلك كُلَّما جمعَ القدرُ بينَهُ وبين متبوعِهِ (وإن كان المتبوعُ ميتًا في قبرِهِ) خاطَبَهُ التَّابعُ بكلماتٍ يترفَّعُ ويتَوَرَّعُ عن النُّطقِ بها صاحبُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخر. مثل قولِ بعضِ المعاصرين منهم باللُّغةِ الكرديَّةِ ((أَزْ كَلْبِ دَرْگَاه ثَمَّهْ))، أي "أنا كَلْبٌ أَمَامَ بَابِكَ!". لا عجبَ ولا غرابَةَ في ذلك وقد قال كبيرُ النقشبندِيِّين خالدُ البغدادِيُّ ((أنا مِنْ كلابِ الساداتِ!))[225] وهو من أكابرِ شيوخِهِم.

---

[224] المصدر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تأليف: عبد الله بن حسن آل الشيخ، تحقيق: محمد حامد الفقي/**108**

[225] محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز ابن عابدين الدمشقي (**1784–1836**)، مجموعة رسائل ابن عابدين، الجزء الثاني، سل الحُسامِ الهندي في نصرة مولانا خالد أنقشبندي **310/2** (**28**) http://www.waqfeya.com/book.php?bid=793

نعم، بسببِ هذا الإعجابِ من المتأخِّرين بالقدماءِ، فَاتَهُمُ العلمُ بحقيقةِ الأمرِ فلم ينتبهوا إلى كُنْهِ ما تسرَّبَ إلى الإسلامِ قبلَ سبعمائةِ عامٍ، من معتقداتِ مجوسِ الْفُرْسِ والهنودِ على يدِ الزَّنادقةِ الَّذين كانوا يومئذٍ منتشرين في مدينةِ بَلْخ، وبُخارَى، وسَمَرْقَنْد، وياركَنْد، وخوقَنْد، وكيشْ، وفَرْغَانَه، وطاشكَنْد، وكشغار، وخرسان، وغيرِها في مناطقِ فارِسَ، وتركستان وما وراءِ النَّهر، إلى أعماقِ شِبْهِ القارَّةِ الهنديَّةِ، ابتداءً من القرنِ السَّابعِ الهجريِّ. لقد ارْتَبَكَ كثيرٌ من النَّاسِ في تمييزِ العالِمِ عن الصُّوفِيِّ الْمُشَعْوذِ على مدى عصورِ الظَّلَام، ولا غرابةَ في ذلك.. يبرهن على هذه الحقيقةِ ما وَرَدَ عن أبي واقدِ اللَّيْثِيِّ، «قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ –وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ–، ولِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، ويَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِالسِّدْرَةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ: اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: "اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ." (الأعراف/**138**)، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رواه التِّرمذِيُّ وصحَّحَهُ.

هذا كان صحابيًّا يتفوَّه بمثلِ هذهِ الكلماتِ الخطيرةِ، فما بالكم بأشباهِ رجالٍ جهلةٍ في تركستانَ وبلادِ فارس.. ظهرَ هناك عددٌ من الْمُتَنَبِّئِينَ والدجاجلةِ فعظَّمهم قطعانٌ من الأوغادِ والهَمَجِ في أيَّامٍ انتشرَ فيها الجهلُ. فَزَاعَ صيتُهُمْ ورسختْ محبَّتُهُمْ في ضمائرِ النَّاس حتَّى غدَوْا لا يشكُّون في أدنَى شيءٍ مِمَّا وَرَدَ عن أولئك الْمُشَعْوذِينَ ولو تطاولوا على الله بما يستحيل عليه تعالى.

نجد مشابهةً كبيرةً بين سُكَّانِ تُرْكِيَا (خاصَّةً منهم النقشبنديِّين) وبين الشيعةِ والمسيحيَّةِ والمجوسِ في تعظيمِ أئمَّتِهِمْ. هؤلاء يخلعون على كُبَرَائِهِمْ نعوتًا خاصَّةً مثل الْغَوْثِ وَالْقُطْبِ، كما يصفُ الشيعةُ أئمَّتَهُمْ بالآيات، يقولون: "آية اللهِ العظمى الفلانِي"، والمسيحيَّة الكاثوليك، يُطلِقون على حِبْرِهِم الأعظم، صفةَ (بابا المقدَّس)، والسِّيخُ الهندوس يُطلِقون على إمامِهِمْ صفةَ (غُورُو). كلُّ هذه الصِّفات تُعَبِّرُ عن معنًى يتضمَّن الإلَهِيَّةَ في الإمامِ. أمَّا المسلمون، فالقُدْوَةُ عندهم هو الْعَالِمُ الْبَشَرُ الذي يجوع، وَيَعْطَشُ، ويتألَّم، ويضحكُ، ويبكِي، ويأكلُ، ويشربُ، ويتغوَّطُ، ويمشي في الأسواقِ كسائر الناسِ، ثُمَّ يموتُ وأمرُهُ مفوَّضٌ إلى الله. إنَّما يُعَظِّمُهُ المسلمُ لِعِلْمِهِ بكتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ، وَسَنَدُهُ في ذلك: قول اللهِ تباركَ تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ

يَعْلَمُونَ"(الزمر/9)؛ ولم يأمرِ اللهُ تعالى نبيَّه صلّى الله عليه وآله وسلَّمَ بالاستزادةِ من شيءٍ إلاَّ من العلمِ، فقالَ له سبحانه وتعالى: "وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا.(طه/114).

ملايينُ الناسِ في تركيا، يُساقونَ بطريقةٍ مَّا إلى أشخاصٍ حِرْفَتُهُم الشعوذةُ، واستغلالُ الدِّينِ، يشترون بآياتِ الله ثمَنًا قليلاً. وعددُ هؤلاءِ غير قليلٍ في الحقيقة. وهم منتشرون في أنحاءِ البلدِ خاصَّةً في الْمُدُنِ الكبيرةِ حيث يكثرُ فيها عددُ الذين يُعانون مشاكلَ نفسيةً ولا يرتاحون إلاَّ عندَ مَنْ يُزَيِّنُ لهم حياةً موهومةً بحكاياتٍ لا أصلَ لها في الواقعِ، ويُعَبِّرُ أحلامَهم بأساليبَ جذَّابةٍ ويبشِّرهم بها أنَّ حياةً سعيدَةً تنتظرُهم... فيُصدِّقونه، ويتحوَّلُ هذا التصديقُ منهم إلى إيمانٍ راسخٍ في ضميرِهم ويفتحُ لهم أبوابًا من الاعتقادِ بالأباطيلِ، وعبادةِ الأضرحة. فقد انتشرتْ هذه المعتقداتُ بشكلٍ ذريع وَبِحُكْمِهَا تحوَّلتِ الأضرحةُ في تركيا إلى نوعٍ من أوثانِ العهدِ الجاهليِّ التي وَرَدَ ذكرُها في القرآن الكريم مثل: بَعْلٍ، وَاللاَّتِ، وَالْعُزَّى، وَمَناةَ، وَوَدٍّ، وَسُوَاعٍ، وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ.. فقد وصفَ اللهُ سبحانَهُ هذه الأوثانَ بالرِّجْسِ وَحَذَّرَ من التعاملِ معها بقولِهِ تعالى: "فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ"(الحج/30).

تدلُّ أفعالُ كثيرٍ من الناسِ وتصرُّفاتُهُمْ – خاصَّةً في أماكنَ وأوْقاتٍ مُعَيَّنَةٍ – أنَّهم يتقلَّبون في الشركِ وهم غافلون عمَّا يترتَّبُ على ذلك، لِجَهْلِهِمْ بالإسلام غالبًا، أو لاغْتِرَارِهِمْ بِمَنْ يلعبُ بعقولِهِمْ من شيوخِ الصوفيَّةِ وعلى رأسِهم: شيوخُ النقشبنديَّةِ؛ كبناءِ القِبَابِ على قبورِهِمْ، والتمسُّحِ بِهَا تيمُّنًا!، والنذرِ لَهَا وغيرِ ذلك من أشكالِ الإشراكِ. ولِكُلٍّ مِنْ هذه الأفعالِ سببٌ يتمثَّلُ في غرضٍ معيَّنٍ ينطلقُ منه الشخصُ الْمُسْلُمَانُ فيقعُ في المحظور. كما لو كان أَبْتَرَ لا عَقِبَ له، فيتوسَّلَ إلى الضريحِ ليرزقَهُ ولدًا. إنَّ كثيرًا من هذا القبيلِ يتردَّدون على الأضرحةِ، يستغيثونَهَا، ويتوسَّلُون إليها بِدَعَوَاتٍ مطوَّلَةٍ، أكثرُهم النساءُ؛ منهنَّ من تَصْنَعُ مهدًا صغيرًا، تصحبُهُ معها إلى جوارِ الضريحِ، تُعلِّقُهُ على ناحيةٍ منها أو على غُصْنٍ من أغصانِ إحدَى الأشجارِ الَّتِي بِفِنَائِهَا، تدعوه ليرزقَهَا ولدًا. ومن الزائرين مَنْ يَحْمِلُ معه مِفْتَاحًا من مفاتيح الأبوابِ أو السياراتِ، تراهُ يُعَلِّقُهُ على ناحيةٍ من الضريحِ، يسألُهُ أنْ يرزقَهُ بيتًا يسكنُهُ، أو سيَّارةً يركَبُهَا. ومنهم من يحمِلُ مَريضَهُ إلى جوارِ الضريحِ، يَشُدُّهُ بسلسلةٍ حديديَّةٍ مُعَدَّةٍ هناك لِلْمَرْضَى يُرْبَطُونَ بِهَا ويُتْرَكُونَ على حالِهِمْ ساعاتٍ طويلةً للاستشفاءِ وهكذا... يكفي للباحثِ أن يزورَ مسجدَ أبِي أيوبِ الأنصاريِّ خالدِ بْنِ زيدٍ رضي الله عنه في إسطنبول ليشهدَ بِأُمِّ رأسِهِ أشكالاً غريبَةً لِلْبِدَعِ والشِّرْكِيَّاتِ الَّتِي يفعلها جمهورٌ من الْمُسْلُمَانِ على عَتَبَتِهِ، خاصَّةً في أيَّام رمضان. كذلك ضريحٌ يسمَّى (أُورُوج بَابَا) في إسطنبول، تجتمعُ حَوْلَهُ آلافٌ

من النساءِ يفعَلْنَ ما يندَى له الجبين من ألوانِ الْبِدَعِ والمنكراتِ في اليوم الأَوَّلِ من شهرِ رمضان كلَّ عامٍ، أَهْوَنُهَا الإفطارُ على الخلِّ!

ومن هذه البِدَعِ: حفلةُ المولدِ النبويّ. تُقامُ هذه الحفلةُ في جميعِ مساجدِ تركيا عند مناسباتٍ مختلفةٍ، كَذِكْرَى مولدِ النَّبِيِّ عليه الصلاةُ السلام، كلَّ عامٍ في الثاني عشر من شهرِ ربيع الأَوَّلِ، بيدَ أنَّ القصدَ الغالبَ لإقامةِ هذهِ الحفلةِ: تَهْدِئَةُ روحِ الميّتِ[226] (وقد يكونُ الغرضُ منها طلبُ المغفرةِ له). يدلُّ على ذلك قول (الخواجه) في دعائِهِ عند ختامِ الحفلةِ ((اللهُمَّ أَوْصِلْ ثَوَابَ مَا حَصَلَ مِنْ هَذَا الْمَوْلِدِ الشَّرِيفِ إِلَى رُوحِ الْمَرْحُومِ الْفُلاَنِيّ...)).[227]

---

[226] ذلك بقرينة قولهم ruhunun şad olmasi icin أي لتبتهج روحه.

[227] هذه مقالة للمؤلف نُشِرَتْ في مجلةِ البيان ضمنَ عددها رقم: **257**، بعنوان: حفلةُ «المولد النبويّ» وثقافةُ التقليد..

"من التعبيرات الشائعة قولهم: «أَكَلَ عَلَيْهِ الدَّهْرُ وَشَرِبَ»، أو «أَكَلَ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَبَلَعَ..». ينطبق هذا التعبير على الإسلام المشوّه الّذي لم يعرفه السلف الصالح، ولكن الّذي عبث به المغرضون والمندسّون بين صفوف الأمّةِ، وتَابَعَتْهُمْ في ذلك حُثالةٌ كثيفةٌ من الناس في كلّ عصر، عن جهل وبالتقليد الأعمى، حتّى تحوّل مع الزّمان إلى شِبْهِ ديانةٍ مُحَرَّفَةٍ وَجَدْنَاهُ اليومَ في أثوابٍ غريبةٍ ومَظَاهِرَ بعيدةٍ عن أصله الطّاهر النقيّ، ومنهلِهِ المقدّس.

ولعلّ الرسولَ الكريمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتوقّع هذه العاقبةَ الوخيمةَ ويخاف منها على أمّته حين يقولُ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ». (الترمذي).

عبثَ بالإسلامِ مَنْ عَبَثَ – لأمرٍ مَّا – بعد الجيل الثالث، ونال منه كثيرٌ مِمَّنْ غَرَّتْهُ نفْسُهُ، ليس بطريقة العدوّ الْمُجَاهِرِ، ولكن بأسلوب الصاحب الماكر والرفيق الخائن الغادر، كلّما نَاوَلَهُ بطعنةٍ مسمومةٍ مِنْ قِبَلِ ظهره، تحرّفَ بمناورة سريعة فواساه وواسى أَهْلَهُ مِنْ قِبَلِ وجهه.

لقد ظهرت عادة «المولد النّبويّ» شكلاً من هذا العبث بالإسلام لأوّل مرّةٍ في مرحلة من عصور الظلام وبالتحديد في عهد الدولة العبيدية أيَّامَ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللهِ، كَمَا أُحْدِثَتْ في تلك المرحلة تغيّراتٌمذهبيةٌ تمثّلُ سيادةَ الفاطميين الشيعةِ في مصرَ: فزادوا في الأذانِ عبارةَ: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» والقنوتَ في الركعةِ الثانيةِ من صلاةِ الجمعةِ، وأن يقالَ في خطبةِ الجمعةِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى، وَعَلَى عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى وَفَاطِمَةِ الْبَتُولِ وَعَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ سِبْطَيْ رَسُولِ الرَّسُولِ الَّذِينَ أَذْهَبْتَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرْتَهُمْ تَطْهِيرا». وعلى رغم ما أَلْغَتِ الدّولةُ الأيوبيّةُ هذه البدعَ، فإنّ المماليكَ اهتمّوا خاصّةً بإقامة حفلاتٍ تحت شعار «المولد النبويّ» وعملوا على إشاعتها وترسيخها. ثُمَّ جَاءَ العثمانيون فنزعوا إلى هذه العادة واستحسنوها ربّما عن طريق العدوى كنتيجة للعلاقات الكثيفة بين الدّولة العثمانية والدّولةِ المملوكية. غير أنّ حفلات «المولد النبويّ» لم تكن شيئًا مذكورًا في المجتمع العثمانيِّ طيلةَ ثلاثةِ قرونٍ من تاريخه مع وجود أسبابِهَا. ومن أقواها شيوع القصص من حياةِ الرسولِ، وآلامِ أهلِ البيتِ، يتناقلها القصاصون في المجالس والمحافل بطريق الحديث الشفهي. وقد دَوَّنَهَا عددٌ من أُدَبَاءِ الأتراكِ باللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ نثرًا ونظمًا. وأمّا أشهرها: فهي الرسالة المسماة بـ«وَسِيلَةِ النَّجَاةِ»، نظمها الشاعرُ سليمان شلبي في مدينة بُورْسَا عام **1409**م. وهي قصيدة شعرية تُركيّة باللّهجة العثمانية، تتألّف من **800** بيتٍ فيها مدائحُ وذكرُ معجزاتِ الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا يخلو بيتٌ من بيوتِ ألأتراكِ السُّنِّيِّينَ اليومَ من نسخةٍ لهذه الرسالة. منها ما هي مطبوعة بالحروف اللاتينية وأخرى بالحروف العربية، والأُولى أكثر شيوعًا. يحفظُ مُعْظَمَهَا «قُرَّاءُ الْمَوْلِدِ» عن ظهرِ قلبٍ، خاصّةً أعضاءُ «جمعيّةِ المولدِ النبويّ» المختصون بتلاوة قصيدة المولد في الحفلات. وهم فئة تستدعيهم عائلات من الطبقة الثرية لقراءة المولد في أيام هناءهم وعزاءهم..

هذه القصيدة عند ألأتراك السُّنِّيِّينَ، هي بمنزلة البردة للبوصيريّ عند صوفية العرب، وفيها من الغلوّ ما في البردة. ولكنّ الطَّامَّةَ الكبرى: أنَ قصيدة المولد تتبوّأُ في ضمير كثير من الأتراك منزلةً لا تقلّ عن منزلة القرآن الكريم! فهي مصدر البركة عندهم، ووسيلة الغفران لموتاهم، تبدو هذه الحقائق بكل وضوح في صيغ دعاءهم حين يتضرعون بقولهم:

«İlâhi ya rabbi, okumuş olduğumuz bu mevlid-i şeriften hasıl olan sevabı Sevgili peygamberimizin ve bütün geçmişlerimizin ruhlarına hediye eyledik sen vasıl eyle».

ومعنى هذا الدعاء: «اللهمَّ أَوْصِلِ الثَّوابَ الحَاصِلَ مِمَّا تَلَوْنَاهُ مِنْ هَذَا الْمَوْلِدِ الشَّرِيفِ إِلَى رُوحِ نَبِيِّنَا الْحَبِيبِ وَإِلَى أَرْوَاحِ أَمْوَاتِنَا جَمِيعًا».

تقام حفلات «المولد النبويّ» في المساجد، وقد يحضرها مفتي الديار التُّرْكِيَّة ورجال الدين، والسياسيون ورجال العمل وجماهير من الناس. إلاَّ أنَّ هذه القصيدةَ التُّرْكِيَّة لم يُسمعْ أن تَنَاوَلَهَا أحدٌ من علماءِ الأتراكِ للنقدِ من مُنْطَلَقِ العقيدةِ الحنيفة بخلاف البردةِ، فإنّ كثيرًا من العلماء في البلاد العربية قد درسوا البردةَ وبيّنوا ما فيها من مواطنِ الغلوّ وَما يخالف عقيدةَ التوحيدِ في الإسلام. ولعلّ هذا يدل على سطحية معرفةِ رجال الدين بأصول التوحيد في تركيا. وقد ترتبطُ المشكلةُ بضعف علمهم بالعربية. ويغلب أنْ العُجْمَةَ السّائدةَ في الدين واللُّغةِ لدى المجتمع التركيّ هي العقبةُ العظمى التي حالتْ بينه وبين الإسلام الصحيح منذ اعتناقهم لهذا الدين، على رغم انتماءهم الشديد إلى الدين الإسلاميّ واعتزازهم به، ومحبتهم البالغة لكتاب الله ورسوله... وهذه المشكلةُ العظيمةُ جديرةٌ بأن يَتَنَاوَلَهَا هيئاتٌ علميّةٌ بالبحوث العميقة والدراسات الموسّعة في أبعادٍ متعددةِ الوجوه للوصول إلى الأسباب التي أسفرت عنها مشاكل أخرى يعاني منها العالم الإسلاميُّ اليومَ، خاصّةً في هذه المرحلة الّتي يرأس عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الأَتراكِ مُؤْتَمَرَ الْقِمَّةِ الإِسْلاَمِيِّ!

أُقِيمَتْ حفلةُ «المولدِ النبويّ» لأوّل مرّةٍ في عهد السلطان مراد الثالثِ (**1574–1595**م.)، وهو الثّاني عشر من سلاطين بني عثمان، معروفٌ بسيرةٍ غيرِ محمودةٍ على لسان أهل الاختصاص والحِيَادِ من المؤرّخين. ومن أهم وقائعه: إعدامُ إخوته الخَمْسِ صباح جلوسه على العرش، وإِدْمَانُهُ الخمرَ وانْهِمَاكُهُ في مضاجعةِ الجواري ومجالسةِ السفهاءِ، واستغلالُهُ الأثرياءَ، وتبذيرُهُ على حساب بيت مال المسلمين...

ورد بقلم المؤرخ رشاد أكرم كوجو Reşat Ekram Koçu في كتابه الموسوم «سلاطين بيني عثمان»: أنه استمرّت حفلات السهرة التي أقيمت بمناسبة تطهير ولده البِكْرِ الأمير محمّد، ثلاثةً وخمسين يومًا، وبلغ ما تمّ إنفاقه من المال في هذه المدّة إلى حدود ما تمّ صرفه في تنفيذ قناة السويس. أقيمت حفلةُ «المولدِ النبويّ» بفرمانٍ (أي رسمٍ ملكيّ) أصدره السلطان مراد الثالث في أيام هذه السهرات عام **1582**م. ويكفي هذا فحسب لكشف القناعِ عن أسرار ما يسميه الناس بحفلةِ «المولدِ النبويّ»!

إنّ قصائد «المولدِ النبويّ» في تركيا تختلف من حيث اللّغةُ باختلاف الطوائف العرقيّة من أهل السنّة التقليديّة، فَلِكُلٍّ من العرب وَالأكراد والظَّاظَا، والشراكسة قصائد المولد بلغاتهم، إلاَّ أَنَّ أشهرَهَا وأكثَرَهَا انتشارًا: هي القصيدة التُّرْكِيَّة للشاعر سليما شلبي، ومطلعها:

الله آدِينْ ذِكْر ايدَلِمْ أَوّلا * وَاجِبْ أُولْدُرْ جُمْلَهْ إِيشْدَهْ هَرْ قُولَه».

ثمّ تأتي بعدها القصيدة الكُرْدِيَّةُ الّتي نظمها الشاعر الْكُرْدِيُّ (مَلاَ بَاتَهْ)، وقد عُرِفَ باسم: الملاَّ حسن الأرطوشِيّ (أو الهرطوشيّ). ومطلع هذه القصيدة: «حَمْدِ بِي حَدْ بُو خُدَاي عَالِمِين * أَوْ خُدَاي دَايَهْ مَهْ دِينِ مُبِين».

كانت هذه القصيدةُ الكُرْدِيَّةُ ممنوعةَ الطبعِ والنّشرِ إلى الماضي القريب، ثمّ أغضتْ عنها السلطةُ ضمن جملة من مطالب الأكراد بعد ضغوط من الاتّحاد الأوروبيّ الّتي استسلمت لها الحكومات التُّرْكِيَّة أخيرًا.

إنّ الصورة الّتي تتراءى من خلال هذه السطور الوجيزة فحسب دونما أيّ تعليق، لهي شاهدةٌ على الشتاتِ والتفكُّكِ والتشؤذم الرهيب الّذي لحق بأمة الإسلام نتيجة تحويل الدين إلى سلسلة من العادات، وتفرض هذه الصورةُ نَفْسَهَا في كلّ بقعة من الوطن الإسلاميّ الْكبير، ممّا يدعو إلى تأمُّلٍ بالغٍ في شأن العادات الْمُخْتَلَقَةِ باسم الدين. وتجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن كلّ شريحة من نسيج هذه الأمّةِ قد اتّخذتْ موقفًا من الإسلامِ بحسب نزعاتها التقليدية وثقافتها الموروثة من العهد الجاهليّ، يختلفُ موقفُ كلٍّ منها من الكتاب والسنّة. يتميّزُ بخاصّةٍ موقفُ ثلاثِ فئاتٍ رئيسةٍ من الاسلامِ عن موقف عامّةِ المسلمين: الموقف الصوفيُّ، والموفق العصبيُّ، والموفق الفلسفيُّ (وتتشعّب من هذه الأخيرةِ مواقفُ سياسيةٌ وفلسفيّةٌ عديدةٌ: كَالموقفِ الشيعيّ، وَالموقف الخارجيّ، وَالموقف الجهميّ، وَالموقف المعتزليّ)... وهذا موضوع دراسةٍ مستقلّةٍ في غير هذا المقام، علمًا بأنّ عادةَ «المولدِ النبويّ» سِمَةٌ تمَثّلُ الموقف الصوفيَّ والعصبيَّ (من الإسلام) في آنٍ واحد على الساحة التُّرْكِيَّة بالتحديد!

لذا، ليست حفلةُ «المولدِ النبويّ» مجردَ عادةٍ يناقشها الأطراف المتنازعة من وجهة نظر الدين كبدعةٍ فحسب، – وإن كان يبدو هذا المنطلق أقوى الذرائع –، ولكنّها قضيّةٌ ذاتُ جذورٍ تاريخيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ تحتاج إلى أكثر من هذا تأمُّلاً وبحثا.

فريد صلاح الهاشمي
Feriduddin AYDIN
إسطنبول/الخميس، **29** أيار، **2008**م. الخميس، **24** جمادى الاولى، **1429**هـ.

هذه البِدعُ والمستحدثاتُ، لابدَّ أنْ تَحْمِلَ الباحثَ الدقيقَ على العودةِ إلى ما قبلَ ألفِ سنةٍ تقريبًا، إلى الأيَّامِ الَّتي تَعَرَّفَ الأتراكُ فيها على الدِّين الإسلاميّ، إذْ تفرِضُ بعضُ الأسئلةِ نفسَهَا على الإنسانِ بهذه المناسبةِ ليتأكَّدَ عن الصِّلةِ الَّتى ربطتْ هذا القومَ بالإسلامِ في أوَّلِ أمرِهِم. نعم:

– كيف اعتنقَ الأتراكُ هذا الدِّينَ؛ أجماعاتٍ أم فُرَادَى؛ طائعين أم على كراهيةٍ منهم؛ بِرَوِيَّةٍ وفَهْمٍ تامٍّ أم تقليدًا بِمَنْ كانوا يتّبعونه ويعظّمونه من قادتهم؟...

– مَنْ كانوا الّذين عرضوا عليهم الإسلامَ يومئذٍ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ هل كان بين أولئك الدُّعَاةِ مَنْ يُتقِنُ العربيَّةَ ويحظَى شيئًا من العلمِ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ، أم كانوا أعاجِمَ أُمِّيِّينَ؛ هل كانوا من أهلِ الإختصاصِ في الدَّعوةِ والإرشادِ، أم كانوا أشخاصًا من القصَّاصين والدَّجَاجِلَةِ المشعوذِينَ الّذين يستغلُّون الضمائرَ ويتَّجرون بالدِّين؟..

هذه أسئلةٌ هامَّةٌ، تحتاجُ إلى إجاباتٍ صحيحةٍ، ولا يمكنُ تحليلُ المظاهرِ الدِّينيَّةِ للأتراكِ ولا الوقوفُ على حقيقتِهَا إلاَّ بعد الحصولِ على مُعْطَيَاتٍ علميَّة دقيقةٍ تَتَبَلْوَرُ من خلالِها المسيرةُ التاريخيَّةُ لهذا القومِ في انتقالِهم مِنْ دياناتِهم القديمةِ إلى حظيرة الإسلامِ.

وردتْ عِباراتٌ في كتابٍ اسمه (الزَّنَادِقَةُ وَالْمُلْحِدُون في المجتمع العثمانيّ) للباحثِ التُّرْكِيّ الشهير، الأستاذ الدكتور أحمد ياشار أوجاك Ahmet Yaşar Ocak، تُشِيرُ إلى عواقبِ معتقداتِ الأتراكِ قبلَ اعتناقِهم للإسلامِ، يقول: "على رغم قبولِهم لِلْمُسْلُمَانِيَّةِ (أي الإسلامِ، ويقصدُ الأتراكَ)، لم يتخلَّواْ بِسهولةٍ عن مُعْتَقَدَاتِهِمْ وثقافتِهِمْ الَّتي كانتْ ترمزُ إلى ماضٍ سحيقٍ، واستخدموا مضامينَ الأديانِ والثقافاتِ الَّتي كانوا وارثين لها قديمًا، استخدموها كَمَرَاجِعَ في مفهومِهِمْ وتفسيراتِهِمْ للدِّين الجديد"[228].

---

[228] قد ألَّفَ الأستاذُ الدكتور أحمد ياشار أوجاك كتابه هذا باللُّغَة التُّرْكِيَّة تحت عنوان: «Osmanlı Toplumunda ZINDIKLAR ve MULHİDLER»، ومن الجدير بالإشارة هنا للمناسبة: أنَّ علماءَ الأتراك الّذين يدرسون اللُّغةَ العربيَّةَ، لا يُتْقِنُونَهَا إلى مُستوى الكفاءة على رغم توسّعهم في حفظ قواعدها، فلا يَتَمَكَّنُونَ من تأليفِ أعمالهم بالعربية. وهذه عبارات الأستاذُ الدكتور أحمد ياشار أوجاك باللُّغَة التُّرْكِيَّة، والْمُعَرَّبَةِ فيما سبق:

«Müslümanlığı kabul etmelerine rağmen çok uzun bir geçmişi simgeleyen eski inanç ve kültürlerinden kolayca vazgeçmediler. Mirasçısı oldukları eski dinlerin ve kültürlerin muhtevalarını, yeni dini anlayış ve yorumlarında referans olarak kullandılar» (Osmanlı Toplumunda ZINDIKLAR ve MULHİDLER, Tarih Vakfı Yurt Edition. Pg.: 16. 1998-İstanbul)

هذه العباراتُ الَّتي صاغَها عالِمٌ من أبرز علمائِهِمْ في هذا العصر، تَدُلُّ بِكُلِّ صراحةٍ على أنَّ الأتراكَ لم يَتَخَلَّوْ عن كثيرٍ من معتقداتِهِمْ الرَّاسخةِ في ضمائرِهِمْ، منذ تَعَرَّفُوا على الدِّين الإسلامِيِّ قبلَ ألفِ سنةٍ، واصطحبوا هذه المعتقداتِ في أعماقِ كيانِهِمْ إلى يومِنا هذا، وربما أطلقوا اسمَ (الْمُسْلُمَانيَّةِ) على الدِّين الإسلامِيِّ ليتمايزوا بِهَا عن جميع الْمِلَلِ والنِّحَلِ الَّتي اعتنقتْ هذا الدِّينَ، وقد رأى بعضُ أهلِ الإختصاصِ أنَّ هذا بعيدُ الإحتمالِ، لأنَّ تسميةَ الأتراكِ للدِّين الإسلامِيِّ بِ(الْمُسْلُمَانيَّةِ) إنَّما كانَ من نتائج تأثيرِ الْفُرْسِ على الثقافةِ التُّرْكِيَّة القديمةِ، يبرهنُ على هذه الحقيقةِ كثيرٌ من الأدلَّةِ، أقواها: الْمُقَارَبَةُ في النطقِ بهذه الكلمةِ على لسانِ الشعبَيْنِ الفارسيِّ والتركيِّ حتى في عصرِنا[229]. ومنه يقولُ الإيرانِيُّ: ((مَنْ مُسَلْمَانَمْ))، ويقول التُّرْكِيُّ ((بَنْ مُسْلُمَانِمْ ben müslümanım))، ومعناهما واحدٌ، يعني: أنا مُعْتَنِقٌ للدِّينِ (الْمُسَلْمَانيَّةِ) في اللُّغة الفارسيَّةِ، أو (الْمُسْلُمَانيَّةِ) في اللُّغة التُّرْكِيَّة.

سوف تنجلِي هذه الحقائقُ أكثرَ وضوحًا للباحثِ الدقيقِ بعد متابعتِهِ لسلسلةٍ من المقارنَةِ السريعةِ بين معتقداتِ كلٍّ من الشخصِ المسلمِ والْمُسْلُمَانِ فيما يلي:

12) إنَّ الإنساَ التركيَّ المسلِمَ على علمٍ تامٍّ بأنَّ الإسلامَ كُلٌّ لا يتجزَّأُ؛ وأنَّ الإعتمادَ في جميعِ الأحوالِ مقصورٌ على كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؛ فتدلُّ كلُّ مواقِفِهِ وأعمالِهِ بصراحةٍ على إيمانِهِ القويِّ العميقِ بهذا المبدأِ الأساسيِّ، ويلاحَظُ ذلك في مُعْظَمِ تَصَرُّفَاتِهِ وتَقَلُّبَاتِهِ وَتَعَامُلِهِ سِرًّا كانت أو علانيَّةً مما يدلُّ على إخلاصِهِ في التزامِهِ.

أمَّا الإنسانُ التُّرْكِيُّ الْمُسْلُمَانُ، فإنَّهُ غيرُ مكترثٍ لِمَا إذا كان هناكَ صلةٌ تربطُ الإسلامَ بِمَصْدَرَيْهِ، إلاَّ أنَّ هذَا الموقفَ فيه شيءٌ من الغموضِ، إذ تختلِفُ النظرةُ إلى الإسلامِ من شخصٍ لآخر في أوساطِ الْكُتَلِ المعتنقةِ للْمُسْلُمَانِيَّةِ.

منهم مَنْ لا يفكِّرُ أبدًا بالعلاقةِ بين الإسلامِ وبين الكتابِ والسُّنَّةِ. إنَّ عددَ هؤلاءِ يفوقُ على الملايينِ مِنَ الفِرقَةِ الْعَلَوِيَّةِ خَاصَّةً، كذلك الأمرُ بالنسبةِ لِمَلاَيِينِ الناسِ المارقين واليساريِّين من الجناحِ السنِّيِّ الذين قد حلُّوا رِبقةَ الإسلامِ من أعناقِهِمْ خِلالَ الثمانين عامًا الأخيرةِ تقريبًا، كنتيجةٍ للْغَزْوِ الثقافِيِّ،

---

[229] الشخصُ الإيرانِيُّ يسمِّي الإسلامَ بكلمةِ (مُسَلْمَانِي، وَيَكْتُبُهَا بالحروف العربِيَّةِ)، مع استعمالِهِ لفظَ الإسلامِ في كثيرٍ مِنْ مَوَاطِنِ التعبيرِ عنه. والرَّجلُ التركِيُّ يسمِّي الإسلامَ بكلمة (مُسْلُمَانْلِكْ، وَيَكْتُبُهَا بالحروف اللاَّتينيّةِ: müslümanlık)، مع استعمالِهِ أيضًا لفظَ الإسلامِ في كثير مِنْ مَوَاطِنِ التعبير عنه، كما تبرهنُ على ذلك بطاقاتُ الْمُوَاطَنَةِ التي تُمْنَحُ لِكلِّ فردٍ من المواطنين. تحتلُّ كلمةُ (الإسلامِ) فيها بشكل صحيح، وبالحروف اللاَّتِينِيَّةِ: Islam، وذلك ضمن الخانةَ المختصَّةَ ببيانِ الديانَةِ التي يعتنقُهَا المواطن.

والمؤامرةِ الكماليَّةِ (الأَتَاتُوزْكِيَّةِ). وثَمَّةَ أسبابٌ أخرَى طرأتْ على الحياةِ الإجتماعيَّةِ مُبَاشِرَةً، وأحيانًا غيرَ مُبَاشِرَةٍ، فحالتْ بين جيلٍ وبين الإسلامِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة.

13) يحترمُ المسلمُ التُّرْكيُّ مبدأَ (التوقيفيَّةِ)، ويقفُ عندَ حدودِها في أثناءِ تعبُّدِهِ وتنفُّلِهِ ودُعائِهِ... ويمتازُ بمعلوماتٍ مفصَّلَةٍ حولَ أفعالِ الْمُكَلَّفِينَ: من الفرضِ والواجبِ والسنَّةِ والمستحبِّ والحلالِ والحرامِ والمكروهِ والصحيحِ والباطلِ... إنَّ الدارسين للفقهِ الإسلامِيّ من الأتراكِ، تُشْغِلُ أهمِّيَّةُ هذه المصطلَحاتِ بَالَهُمْ البتَّة، رغمَ أنَّ مُعْظَمَهُمْ يتلقَّونَ الفقهَ الإسلامِيَّ بطريقِ الترجَمَةِ، ولا يُتقِنُ العربيَّة بين آلافِهِم إلاَّ عشراتٌ درسوا في البلادِ العربيَّةِ واعتادوا النطقَ بها والتعبيرَ عن أنفسِهِمْ في حدودٍ تكفي للإفصاحِ عن حاجاتِهم الضَّروريَّةِ فحسبُ؛ ولكنَّ هذا القصورَ لا يمنعُهُمْ من دراسةِ العلومِ الإسلاميةِ من الحديثِ والتفسيرِ والعقيدةِ والفقهِ، والمعرفةِ بدقائِقِهَا ولو بطريق الترجمةِ. بيد أنَّهم قِلَّةٌ قليلةٌ في الوطنِ التُّرْكِيّ، وعددُ أهلِ التوحيدِ من هذه الطائفةِ قد لا يتجاوزُ ستين ألفًا من أصلِ خمسٍ وسبعين مليون مواطن (حسب إحصائيَّاتٍ واستطلاعاتٍ سرِّيَّةٍ غير دقيقة!). إنَّ أفرادَ هذه القلَّةِ الحنيفةِ الصالحَة يمتازون عن جميعِ مُكَوِّنَاتِ الفِرَقِ الدينيَّةِ، والمذاهبِ الفقهيَّةِ، والطرائقِ الصوفيَّةِ، والأحزابِ السياسيَّةِ في تركيا، بتوحيدِهِمْ الخالصِ للهِ سبحانه، وإيمانِهِمْ بكلِّيَّةِ كتابِ اللهِ (أيْ بأنه كُلٌّ لاَ يتجزَّأُ).

بينما الأتراكُ الْمُسْلُمَان، فِرَقٌ متباينةٌ تختلفُ مُعْتَقَدَاتُهُمْ واتِّجاهاتُهُم الدينيَّةُ اختلافًا كبيرًا، كما تتفاوتُ مُسْتَوَيَاتُ معرفتِهِمْ حولَ مبدأِ (التوقيفيَّةِ) والمصطلحاتِ الفقهيَّةِ تفاوتًا يُثِيرُ الدَّهشةَ عند الباحثِ الدقيقِ. لأنَّ أكثرَهُمْ حَيَارَى مُغَفَّلُونَ لِجَهْلِهِمْ الْمُطْبِقِ، ولا يكون الْمُتَأَمِّلُ في عقليَّتِهِمْ مُبَالِغًا، ولا الْمُلاَحِظُ في عَلاَقَاتِهِم الإجتماعيَّةِ وسُلُوكِيَّاتِهِم الأخلاقيَّةِ مُفَرِّطًا قطُّ، إذا وقف على هذا الإختلافِ الكثير والتبايُنِ الغريبِ.

فمنهم طائفةٌ صوفيَّةٌ؛ أفرادُ الطَّبقةِ الحاكمةِ منها يدرسون العقيدةَ الإسلاميَّةَ، والفقهَ الإسلاميَّ. وقد يمتازُ عددٌ منهم بالمعرفةِ الواسعةِ في علومِ الكتابِ والسنَّةِ، مع ذلك يُشْرِكُونَ باللهِ لاغْتِرَارِهِمْ واعْتِمَادِهِمْ على دَجَّالٍ قد سَيْطَرَ على عُقولِهْمْ وقُلوبِهِمْ وضمائِرِهِمْ، يصفونهُ بِـ(مُجَدِّدِ الْعَصْرِ!)، فلا يعبؤون بِمبدَأِ (التوقيفيَّةِ) في تعبُّدِهِمْ، ولا بِضَوَابِطِ الفقهِ الإسلامِيّ في مواقِفِهِمْ من الأشخاصِ والمجتمعاتِ والأحداثِ... ولا يمتنعونَ من الإفراطِ والتفريطِ في أشكال العبادةِ المنصوصةِ في الكتابِ والسنَّةِ. كما لو أمَرَهُمْ دجَّالُهُمْ أنْ يؤدُّوا فريضةَ الظهرِ مثلاً، خمسَ رَكَعَاتٍ بَدَلَ أربع ركعاتٍ، على

عكسِ ما وَرَدَ فِي السُّنَّةِ؛ خالفوا السُّنَّةَ ووافقوا الدَّجَّالَ وأطاعوه بكلِّ رغبةٍ منهم دونَ أيِّ اعتراضٍ، وصلُّوها خمسَ رَكَعَاتٍ إيمانًا منهم أنَّ الصلاةَ بهذه الصورة أفضل من الصلاةِ الواردة في السنَّةِ المحمَّدِيَّةِ. إلاَّ أنَّ دجَّالَهم يَحْذَرُ في الأغلب أنْ يُكَلِّفَهُمْ جهارًا بمثلِ هذا الأمرِ، خوفًا من نكيرِ العلماءِ عليه، وتطوُّرِ النِّزاعِ والجدلِ حوله ما قد يُذْهِبُ مِنْ هيبتِهِ على مقلِّدِيهِ.

14) إنَّ المسلمين الأتراك، يكترثون لأحوالِ المسلمين في جميعِ أنحاءِ العالَمِ، يفرحون لأَسْبَابِ فَرَحِهِمْ، ويتألَّمونَ لآلامِهِمْ، ويَمُدُّونَ إلى المنكوبين منهم يدَ المعونةِ على قدر إمكاناتِهِم الضئيلةِ، ومع ظروفِهم القاسيَةِ، إذ هم قِلَّةٌ قليلةٌ مضطهَدةٌ تحت مراقبةِ النظامِ الكماليِّ الوثَنِيِّ، ومضايقةِ الصوفيَّةِ النقشبنديِّينَ. وقد يتعاون الفريقان في محاولة تذليلِهم وتهميشِهم.

بينما الأتراك الْمُسْلُمَان غيرُ مكترثين بحالٍ لأوضاعِ المسلمين، بل من الجناحِ الْمُسْلُمَانِ طوائفُ وجماعاتٌ وأحزابٌ سياسيَّةٌ يُضْمِرُونَ العداوةَ للحُنَفَاء؛ إِنْ تَمْسَسِ المسلمين حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا، يبتهجون لِهَزَائِمِهِمْ، ويمتعضون عند إنتصاراتِهِمْ. يبرهنُ على ذلك الموقفُ المتجاهلُ للنقشبنديِّين، والكمالِيِّين والعلويِّين من النَّكبات الَّتِي حلَّتْ بفلسطين وأهلِهَا على مَدَى عصرٍ كاملٍ. فلم يَنْبِسْ أحدٌ من زعمائِهِمْ بِبِنْتِ شفةٍ حيالَ ظلمِ الصهاينةِ وممارساتِهم القمعيَّةِ ومجازرِهم الوحشيَّةِ على الأراضي الفلسطينيَّةِ المحتلَّةِ واعتداءاتِهم على المسجد الأقصى. بل وأبعدُ من ذلك: أفشى أحدُ خواجواتِ النقشبنديَّةِ سرَّهُ، وكشفَ النقابَ عن حقدِهِ على الفلسطينيِّينَ خاصَّةً وعلى العربِ عامَّةً عندما أعربَ عن ابتهاجِهِ بالمذبحةِ التي ارتكبها الصهاينَةُ في غزَّةَ يوم **03** يناير **2009**م. قَالَ وهو على منبرِ الوعظِ في أحدِ مساجدِ إسطنبول (وعليهِ رداءٌ فاخرٌ وعلى رأسهِ عمامةٌ كبيرةٌ) قال بالحرفِ الواحدِ: ((لقد انتقمَ اللهُ اليومَ للدولةِ العثمانيَّةِ من الفلسطينيِّين والعرب، لقد أخذ الله ثأرَنَا من العربِ الذين خانوا دولَتَنَا وطعنونَا من وراءِ ظهورِنَا، لَعَلَّهُمْ يستحقُّونَ أضعافَ هذا العذابِ والنكالِ جزاءً بما قدَّمتْ أيديهم من الخيانةِ والإجرام!)). هذا، وعندما اتَّفقَ جماهير المسلمين ليقوموا بمظاهراتٍ ضخمةٍ في إسطنبولَ، وأنقره، وإزميرَ، وديار بكر، يوم: السبتِ الموافق: **28** يوليو **2012**م.، استنكارًا للأعمالِ الوحشيَّةِ الَّتِي ارْتَكَبَتْهَا دولةُ (بُورْمَا) البوذيَّةُ ضدَّ مسلمِي (أَرَكَان Rohingya)، رفضَ زعماءُ النقشبنديَّةِ دعوةَ المسلمين ومنعوا مريدِيهم من المشاركةِ في هذهِ المظاهرات، لسببٍ يكادُ يَخْفَى على جميعِ المسلمين. وهي: أنَّ مَبَادِئَ الطريقةِ النقشبنديَّةِ (الأحدَ عَشَرَ) كُلَّهَا مأخوذَةٌ من الدِّيَانَةِ الْبُوذِيَّةِ، مقتَبَسَةٌ من (السُّطْرَايَاتِ) للراهب البوذي الهندي (بَتَنْجَلِي

Patanjali)![230] كما أنَّ "رئيسَ عصابةِ الحشاشين الجُدُد" تفوَّهَ ذاتَ مرةٍ بـ"أنَّ البوذيةَ دين الأخلاقِ".

كلُّ هذه الحقائقِ الَّتي تتبلورُ من خلالِ مقارناتٍ مُدَلَّلَةٍ سبقَ ذِكْرُهَا، تبرهنُ على أنَّ الإسلامَ دينٌ، والمسلمانيَّةُ دينٌ آخر مستقلٌ عن الإسلامِ، لا يمتُّ أحدُهُمَا إلى الآخر بأدنى صِلَةٍ مشروعةٍ ومباشِرَةٍ، وإنَّما ربطَ عددٌ من الباحثِينَ المسلمانيَّةَ بالإسلامِ مِنْ مُنطلَقِ ما يشاهدونَ بينَ الْمُسْلُمَانِ والمسلمين من وجوهِ المشابَهَةِ في أداءِ بعضِ العباداتِ؛ كالصلاةِ، والصوم، والحجِّ، والزكاةِ... غير أنَّ مجرَّدَ القيامِ بهذه العباداتِ لا يكفي للإنسانِ أن يكسِبَ بها صفةَ المسلمِ المؤمنِ المُوَحِّدِ، ما دامَ يرى للبشرِ حقَّ التصرُّفِ بالتبديلِ، والتغييرِ، والتعطيلِ، والتحريفِ لأُسُسِ الإسلامِ. فقد قال سبحانه في وصفِ المشركين: وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ.(التوبة/29). وقال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ .(يونس/59). وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.(المائدة/87).

فالأمرُ واضحٌ من الدِّين: أنَّ من أَحَلَّ ما حَرَّمَ اللهُ، وَحَرَّمَ ما جعلهُ اللهُ حلالاً فقد كَفَرَ بدليلٍ قاطعٍ. فالتحليلُ والتحريمُ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى. فإنَّ أقوامًا استحلُّوا بعضَ مَا حَرَّمَهُ اللهُ، وأقوامًا حَرَّمُوا بعضَ مَا أَحَلَّهُ اللهُ، وكذلك أقوامًا أحدثوا طُقوسًا وعِباداتٍ لم يُشَرِّعْهَا اللهُ، بل نَهَى عنها. وأصلُ الدِّين؛ أنَّ الحلالَ: مَا أَحَلَّهُ اللهُ ورسولُهُ، والحرامَ: مَا حَرَّمَهُ اللهُ ورسولُهُ، والدِّينَ: ما شَرَعَهُ الله ورسولُهُ... عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الْحَلاَلُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ، لاَ يَدْرِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْحَلاَلِ هِيَ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ؟ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَاقَعَ شَيْئًا مِنْهَا يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَ الْحَرَامَ، كَمَا أَنَّهُ مَنْ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ. وَلِهذا، ليس لأحدٍ أن يخرجَ عن الصراطِ المستقيمِ الَّذي بعثَ اللهُ به رسولَهُ. قال تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام/153). وقد ذكَرَ اللهُ في مواطنَ مِنْ كتابِهِ العزيزِ مِنَ الذَّمِّ للمشركين حيثُ حَرَّمُوا ما لم يُحَرِّمْهُ اللهُ كالبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ

[230] قال أحد شيوخ هذا التيار الصوفي (اسمه: محمد أمين الكردي الأربلي): «ومبنى هذه الطريقة العليّة على العمل بإحدى عشرة كلمة فارسيّة: ثمانية منها مأثورة عن حضرة الشيخ عبد الخالق الْغُجْدُوَانِيّ (ت. 575هـ. – 1179م.). وهي: هُوشْ دَرْدَمْ، نَظَرْ بَرْقَدَمْ، سَفَرْ دَرْ وَطَنْ، خَلْوَتْ دَرْأَنْجُمَنْ، يَادْ كَرْدْ، بَازْ كَشْتْ، نِكَاهْ دَاشْتْ، يَادْ دَاشْتْ». تنوير القلوب في معاملة علاّم الغيوب، ص: 506–507. طبعة مصر – 1384هـ. ثم أضافَ إليها ثلاث كلمات أخريات، زعم أنها مأثورة من محمد بهاء الدين البخاري (717–791هـ.) وهو أحد قدماء النقشبندية.

وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي... واستحلُّوا ما حَرَّمَهُ اللهُ كقتلِ أولادِهِمْ، وشَرَّعُوا طقوسًا وعباداتٍ لم يَأْمُرْهُمُ اللهُ بِها، فقال تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ..(الشورى/**21**). وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة/**44**)

كانتْ هذهِ نبذةٌ رمزيَّةٌ عن الْمُسْلُمَانِيَّةِ، إذ لا يسعُ المقامُ لِسردِ كُلِّ ما يتعارضُ منها مع نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ بصورةٍ مفصَّلَة.

***

15) استغلالُ الدِّينِ في أغراضٍ قوميَّةٍ وسياسيَّةٍ.

الاستغلالُ ظَاهِرَةٌ منتشِرَةٌ على مستوَى الْمُجْتَمَعِ البشريّ، له أثرٌ بالغٌ في خرقِ العدالةِ، وتفاقُمِ الظُّلمِ، واختفاءِ المساواةِ في العلاقات... يلجأ الإنسانُ إلى ممارسةِ الاستغلالِ طمعًا في تحقيقِ مصالحِهِ الشخصيَّةِ وإشباعِ أوطارِهِ بطريقِ مُنَافَسَةِ الغيرِ وأحيانًا بالسطوِ عليهِ إنْ أتاحتْ له الفرصةُ.

تُنبِئُ هذهِ الظاهرةُ عن غيابِ الفضيلةِ في الشخصِ المستغلّ وانسلاخِهِ من الأخلاقِ والصفاتِ الحميدةِ التي يتوقَّفُ عليها نظامُ الحياةِ الاجتماعيَّةِ، والسعادةُ، والعيشُ الكريمُ.. وَالاستغلالُ مردُّهُ إلى الأنانيَّةِ، ينبتُ في كيانِ الإنسانِ تحتَ دوافعَ مختلفةٍ أهمُّها سوءُ التوجيهِ أيَّام الطفولة. وله أشكالٌ متنوّعةٌ كالاستغلالِ الاقتصاديّ، والاستغلالِ الجنسيّ، واستغلالِ النفوذِ والقوَّةِ؛ ولكنَّ أخطرَ أشكالِهِ: استغلالُ الدِّينِ والاتِّجارُ بالْقِيَمِ المقدَّسة. وهو خصلةٌ مذمومةٌ في جميعِ الأديانِ، وفلسفاتِ السلوكِ، مُخَالِفَةٌ لآدابِ الْعِشْرِةِ في العُرْفِ العَالَمِيّ.

إنَّ هذا النَّمَطَ من الاستغلالِ منتشرٌ على الساحة التُّرْكِيَّة بشكلٍ ذريعٍ، يمارِسُهُ رجالُ السياسةِ بطريقِ النفاقِ واصطيادِ الْبُسَطَاءِ، والاستفادةِ من الجماعاتِ الصوفيَّةِ، واحتكارِ البِدَعِ والْهرطقاتِ على حسابِ الدِّينِ لِجَذْبِ النقشبنديّين بخاصَّةٍ، وتجنيدِهِمْ في مغالبةِ الخصومِ والمعارضين. وهذا مِمَّا يزيد من تحريكِ عَجَلَةِ الاستغلالِ في المجتمعِ التُّرْكِيّ.

لهذا الأسلوبِ من الحيلةِ مجالٌ فسيحٌ في تركيا، ودهاليزُ مُظْلِمَةٌ تجري فيها مساوماتٌ على صفقاتٍ لا علمَ لأحدٍ بِها غيرِ الأطرافِ المتعاقدةِ عليها! في هذه السوقِ سَمَاسِرَةٌ محترفون يتولَّونَ تسييرَ

الملايين باستعمالِ هتافاتٍ ومقولاتٍ دينيَّةٍ لكسبِ جماعاتٍ من الطَّغامِ وَالْهَمَجِ المتزمّتين والبلطجيَّة ومُدمني المخدِّرات في مواسم الانتخابات خاصَّةً.

راجتْ أسواقُ الاتِجَارِ بالدِّينِ رواجًا بالغًا في أعقابِ الأحداثِ الداميةِ التي جرتْ في البلادِ العربيَّةِ منذُ أواخر عام 2010م. خاصَّةً بعدَ أنْ تدفَّقتْ موجاتُ اللاَّجِئين السوريّين إلى الأراضِي التُّرْكِيَّةِ. فبدأتِ الجماعاتُ النَّقْشَبَنْدِيَّةُ تُجَنِّدُ عَنَاصِرَ من سَحَرَتِهَا الناجِحِين في اصطيادِ العقولِ الساذجةِ لاحتِواءِ هؤلاءِ الغرباءِ وَصَهْرِهِمْ في الْمُسْتَنْقَعِ الصوفيِّ وتَتْرِيكِهِمْ. فَتَسَلَّلُوا إلى مُخَيَّماتِ اللاَّجئِينَ الواقعةِ على الحدودِ التُّرْكِيَّةِ–السوريَّةِ يغسلونَ الأَدْمِغَةَ ويَمْلَؤُونَهَا بأشكالٍ من البِدَعِ والشركيَّاتِ والخُرَافِيَّاتِ. فتمكَّنُوا مِنْ تحقيقِ أهدافِهِمْ حيث اصطادوا عَدَدًا كبيرًا مِنْ اللاَّجِئِين السوريّين ممن كانت نفوسهم متاحةً للاستمالة، واصطحبوهم معهم إلى خارجِ هذهِ الْمُخَيَّمَاتِ كما الْتَقَطُوا عَدَدًا آخرَ كانو مُبَعْثَرِينَ في مُدُنِ تركيا (أكثرهم في أنطاكيا، وعَيْنتاب، وأَضَنَهْ، وإسطنبول، وقُونْيَا، وأنقره..). قاموا بتدريبِ هؤلاء المساكين على الشعوذةِ، وترسيخِ الدِّين النقشبنديّ في ضمائرِهم. بذلوا جهودًا بالغةً لأجلِ تهييجهم، وإشباعِ أطماعِهم بوعودٍ مُغريةٍ في الحين الذي كان هؤلاء التُعَسَاءُ في أشدِّ حاجةٍ إلى الحمايةِ والإِسْعَافِ.

لَعِبَ أباليسُ الصوفيَّةِ بعقولِ آلافٍ من المهاجرين العرب، ليضمُّوهُمْ إلى صُفُوفِ الْمُشَعْوِذِينَ الأتراك، في الحينِ الذي بَلَغَتْ بِهِم معاناةُ الْهِجْرَةِ وَالْغُرْبَةِ مبلغَهَا، وأثْقَلَتْ كاهِلَهُمْ، وَتَرَكَتْهُمْ ضُعَفَاءَ مُنهزِمِينَ نَفْسِيًّا، مستعدِّين لاستجابةِ أيّ دعوةٍ تُفَرِّجُ شَيْئًا من كُرْبَتِهِمْ؛ فاضطرَّ كثيرٌ منهم للانْصِياعِ، وغرقُوا في الْمُسْتَنْقَعِ النَّقْشَبَنْدِيّ يَرْكَعونَ أَمَامَ شُيُوخِهِم الذين يعيشونَ حياةَ الملوكِ في الْقُصُورِ بِخَاصَّةٍ منهم شَيْخُ جماعةِ الْبُنْطُسِيِّينَ الذي يُقيمُ في حَيِّ شَرْشَنْبَه قُرْبَ مسجدِ إسماعيل آغا بمنطقةِ الفاتح. وهي ساحةٌ متمايِزَةٌ بين أحياءِ اسطنبول، تضمُّ صنوفًا من فِرَقِ الصوفِيَّةِ الْمتطرِّفَةِ، يطوفُ عبر شوارعِهَا أشباحٌ من ذوي الجِبَابِ واسعةِ الأكمامِ والعمائِمِ البيضِ، تَحْتَهَا رؤوسٌ مليئةٌ بركامٍ من الخرافيَّاتِ والأساطير. يلهسُ وراءَ كُلٍّ منهم طابورٌ من جهلةِ العربِ المشرَّدِين، ينحشرون في تَكِيَّةِ شيخ الْبُنْطُسِيّينَ ليتمسَّحُوا بِعَتَبَتِهِ، ويأكلوا شيئًا من سؤرِهِ وفُتَاتِ طعامِهِ تيمُّنًا به!

فكَمْ كانتْ فرحةُ النَّقْشَبَنْدِيّينَ غَامِرَةً بمثلِ هذا المشهدِ الذي رَأَوْا فيهِ بعيونِهِمْ أنَّ الْعَرَبَ يَلْحَسُونَ أقْدَامَهُمْ، فعدُّوا ذلك من كَرَامَاتِ شيوخِهِمْ، كما عَدُّوهُ "انْتِقَامًا أخذَ اللهُ العربَ بِهِ، نكالاً، وعِقَابًا

لهم على خيانتِهِمْ للدَّوْلَةِ العثمانيَّةِ وتَمَرُّدِهِمْ عليها أيَّامَ الحربِ العالميَّةِ الأولى، عندما طعنوا جنودَ الأتراك من وراءِ ظهورِهِمْ!".

كان في مقدِّمَةِ الطفيليِّين العرب أشخاصٌ معروفون أحدهم يُدعى أسامة الرفاعي[231]، والثاني ابراهيم الإحسائي[232]. والثالث محمد عوَّامة[233]، توافدوا من الخارج للركوع أمام كبير المشعوذين في إسطنبول، وهو رجلٌ جاهلٌ غَبِيٌّ صَامِتٌ، لم يحظَ بأدنَى شيءٍ من العلمِ والفضيلةِ، بل اختارتْهُ الدولةُ العميقةُ لتتَّخِذَ منه ألةً تستخدمها في سياسة الضغطِ على الأروامِ من الأصل الإغريقي الذين كانوا يسكنون في منطقةِ (دراماان Draman) بجوار شرشنبه، لأجلِ إجبارهم على الهجرة وتشريدهم من تركيا، فقامتِ الدولةُ العميقةُ بالدعايةِ لهذا الرجل الخامل في الستينيَّاتِ من القرن المصرم، حتى جعلت منه صنمًا يُعبدُ، فما لبث حتى التفَّتْ حولَهُ جماعةٌ كثيفةٌ أكثرُهُمْ من الشعبِ الْبُنْطُسِيِّ الذين اعتنق أباؤُهم (الْمُسْلُمَانِيَّةَ) في وقتٍ مبكِّرٍ من العهدِ العثمانِيِّ. ولا يزالون يتحدَّثون باليونانيَّةِ، لأنَّهم أيضًا جزءٌ من العرقِ اليوناني. تُشَجِّعُهُمْ الأحزابُ السياسيةُ وَتُرَاهِنُ عليهم طمعًا في دعمِهِمْ أيَّامَ الإنتخابات، كما تُساعِدُهُمْ بعضُ الحكوماتِ ليتمكَّنوا من نشرِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ في البلادِ العربية خاصَّةً في منطقة الحجازِ لإثارة الإضطرابِ في النظام الوَهَّابِيِّ، وتحريض الخوارج في الجزيرةِ

---

[231] ورفعًا للالتباس يجب الإشارة هنا إلى أنَّ أسامة الرفاعي هذا الذي مرَّ ذكرُهُ، ليس هو الشيخ أسامة الرفاعِيّ ابن الشيخ عبد الكريم الرفاعي الدمشقي. بل هو رجل متشيّخٌ مشعوذ من متصوفة لبنان، وهو مفتي مدينة عكار، ترونه يرقص في "حفلة ذكر" مع جماعة من المشعوذين على شاكلته. وما أقبح بذي لحية يرقص!. للمشاهدة راجع:
https://www.youtube.com/watch?v=fvQBVhY2srI

وأما الشيخ أسامة الرفاعِيّ ابن الشيخ عبد الكريم الدمشقي، فهو خطيب جامع الشيخ عبد الكريم الرفاعي في منطقة كفرسوسة بدمشق. وهو الإبن الأكبر للعلاَّمة الراحل، صاحب تسمية المسجد (الشيخ عبد الكريم الرفاعي). وهو شخصية معروفة من علماء الشام، له شرحٌ على نظمِ نهايةِ التدريب في الفقه الشافعي.

شاهدْ أسامة الرفاعي على الرابط التالي، وهو يقبِّلُ يدَ صنمِ النقشبنديِّين ويجلسُ بين يديه جلوسَ العبد بين يدي سيده، يكلمه بالعربية إلاَّ أن الصنم لا يفهمه، لأنه لا يتقن اللغة العربية، فيتوسط هناك أحد أتباعِهِ للترجمة إلى اللغة التركية. وهذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=9CmrjBO5y2o

[232] إبراهيم الأحسائِيُّ: طفيليٌّ مشعوذٌ من سُكَّانِ شرقِ البلادِ الحجازيَّةِ، يدعمه تنظيمٌ خطيرٌ للنقشبنديِّين الْبُنْطُسْ في تركيا ضمنَ مشروعِ (نَشْرِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ في البلادِ العربيَّةِ، يتبنَّى تتريكَ الإسلامِ)، ويعملُ على إرباكِ الوهابيّين وزعزعةِ نظامِهِمْ بخاصّةٍ. شاهدْ أيضًا إبراهيم الأحسائِيُّ وهو يقبِّلُ يدَ صنمِ النقشبنديِّين ويجلسُ بين يديه جلوسَ العبد بين يدي سيده مثل أسامة الرفاعي شاهده على الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=zN127OR5gpM

[233] محمد عَوَّمة: مُشَعْوِذٌ سورِيٌّ خطيرٌ، تتلمذَ على عبدِ الفتَّاحِ أبو غدة الحلبي الذي كان من ألدِّ أعداءِ أهل التوحيد. لهذا المشعوذِ صِلَةٌ قويَّةٌ بالزنديقِ النقشبنديِّ البُنْطُسِيِّ محمود أسطى عثمان أوغلو الذي يبث سمومَهُ في تركيا، ومحمد عوَّامة هذا الصوفي المشعوذ، مُعْجَبٌ بِالبُنْطُسِيِّ غايةَ الإعجابِ، بدأ يلازِمُهُ خاصّةً بعد هجرته من سورية هربًا من هول الحرب الأهلية المتفاقمة في بلاده.

العربية! على غرار السياسَةِ العثمانيَّةِ التي جَنَّدَتِ النقشبنديين (الخالديّين) في صفوفِ الجيشِ المصريّ بقيادةِ طوسون باشا وإبراهيم باشا عام 1813م. لإحباطِ الحركة الوهابية.[234]

[234] "الوهابية: مصطلح أُطلِق على حركةٍ إسلاميَّةٍ سياسيَّةٍ قامتْ في وسطِ شبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ في أواخرِ القرنِ الثاني عشر الهجريّ، الموافقِ الثامن عشر الميلاديّ على يدِ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703 – 1792) ومحمد بن سعود، حيث تحالفا لنشر الدعوة السلفية..."

يدافع الوهّابيُّونَ عن انفسِهِمْ حين يرفضون هذه التسمية ب"أنَّها مصطلَحٌ أطْلَقَهُ الخُبَثَاءُ لتشويهِ صورةِ أهلِ السنَّةِ السلفيَّةِ والحركةِ الإصلاحيَّةِ التي أعلنها شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، والتي قامتْ على كاهلِ أُمَّةِ الإسلامِ رُكَامًا هائلاً من البِدَعِ والدَّجَلِ والخُرافةِ والشعوذة..."

لكنَّ أمرَ هذه الفرقةِ يحتاج إلى نظرٍ ودراسةٍ علميَّةٍ حتى لا يَصْدُرَ الحُكْمُ بحقِّهَا موافقًا لِرَأْيِ مَنْ دافعَ عنها، ولاَ لِرَأْيِ مَنْ طعنَ فيها من منطلَقِ العاطفةِ وبدون حجةٍ بالغةٍ وبرهان قاطعٍ. وهذا يطولُ الكلامُ فيه، كما لا يسعُ المقامُ للاسهابِ في عرضِهِ. وإذا كانت المناسبةُ تدعو إلى ذكرِ شيءٍ يكشفُ العتمةَ عن هذه الفرقة باختصارٍ وفي ضوءِ البراهين، فلا بُدَّ من الاشارةِ إلى بعضِ حقائقَ عنها مستخلصَةً بالاستقراءِ، وهذه نبذة منها:

1) يكاد جميعُ الوهابيّين الذين يتوافدون إلى تركيا (خاصةً رجال العمل منهم)، يتَّصِلون بالنقشبنديّين مباشرةً، ولهم علاقاتٌ وطيدةٌ بهذه الطائفةِ القبوريَّةِ الخطيرةِ، ومصالحُ مشتركةٌ بين الطرفين تدلُّ على نفاقِ الوهابيّين الذين يدَّعون أنَّهم على عقيدةِ السلف، مع العلم أنَّ النقشبنديّين (شيوخَهم بخاصةٍ، هُمْ أهل الشرك البواح) فضلاً عن أنَّهم يكرهون الوهابيّين. ومن أكبرِ الأدلَّةِ على هذه الحقيقةِ جهودُهم في نشرِ مذكّرات (همفر). ولا يشاركُ نقشبنديٌّ وهابيًّا إلاَّ لاستغلالِهِ ولِمحضِ الاستفادَةِ منه. هذا، وكم من مَدَارِسَ للنقشبنديّين في أنحاءِ تركيا يموِّلُها الوهابيُّون، يتخرَّجُ منها دفعاتٌ من الدجاجلةِ والزنادقةِ والمشعوزين ليبثُّوا البدعَ والقبوريَّةَ غدًا في ربوع الأمة ويصدُّوا الناسَ عن سبيل الله!

2) للنقشبنديّين الأتراك نشاطاتٌ تجاريَّةٌ وأخرى تبشيريَّةٌ كثيفةٌ في مختلفِ البلادِ الحجازيَّةِ (خاصَّةً منها مكة المكرمة والمدينة المنورة). بدأتْ السلطاتُ الوهَّابيَّةُ تتساهلُ معهم منذ اندلا ع الثوراتِ على الساحة العربيَّة، يبرهن على ذلك: تغاضي الأمنِ الوهابيّ عن نشاطات النقشبنديّين في أنحاء البلاد الحجازية، خاصة داخل الحرمين الشريفين، وعدمُ إدانةِ القضاءِ الوهابيّ لِمُبَشّرٍ يقوم ببثّ الدعوةِ النقشبنديَّةِ على كثرتِهِمْ في مهبطِ الوحيِ والإلهام حتى الآن. ذلك تحسُّبًا لامتدادِ الفِتَنِ (المنتشِرَةِ اليومَ على الساحةِ العربيَّةِ) إلى بلادِهِمْ، وطمعًا في تهدئَةِ الروحِ الخارجيّ على الساحةِ الحجازيَّةِ. لأنَّ النقشبنديةَّ من أنجحِ التَّيَّارَاتِ الصوفيَّةِ في تخديرِ المشاعر، وإقصاءِ المُرِيدِ عن التفكيرِ السياسيّ، وإخضاعِ النفوسِ والضمائرِ لأمر شيوخ الطريقةِ، وتحويل المُرِيدِينَ إلى جُثثٍ هامدةٍ بين أيديهم... وهذا ما يتمناه النظامُ الوهابيُّ.

3) طالما احتكر الوهابيُّون الدعوةَ إلى توحيدِ اللهِ تعالى، ومحاربةِ البِدَعِ والقبوريَّةِ والشركيَّات، وتجاهلوا بقيَّةَ الدُّعَاةِ الذين نذروا أنفسَهم لهذهِ المهمَّةِ العظيمةِ، بل تخاذلوا وتقاعسوا عن نصرتهم لما أنَّهم لم يكونوا من الفرقة الوهابية! وأضمروا لهم الحقدَ والضغينةَ، ممَّا يدلُّ على نفاقِ الوهابيّين وازدواجيَّةِ موقفِهم من السلفيّين من غيرهم. ومن البراهين القاطعة على ذلك رَفْضُهُمْ لِطبعِ ونشرِ كتابٍ وثائِقِيٍّ هامٍ جدًّا (في كشفِ الزندقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ)، ألاَ وهو الكتابُ المشتَهَرُ بشهادةِ علمائِهِمْ، والموسومُ: ب"الطريقة النقشبندية بين ماضِيهَا وحاضِرِهَا". رفضوا أنْ يُطْبَعَ ويُنْشَرَ هذا الكتابُ فينتفعَ به أهلُ العلمِ في البلاد الحجازية، ويتمكَّنُوا من الاستدلالِ بما فيه من الوثائِقِ والحِجَجِ على المشركين المتقمصّين بوشاحِ الإسلام.

4) شيوخ الوهابية أعلنوا الحربَ على الكلاميّين في عديدٍ من كتيباتهم، بينما اتَّخذوا الأسلوبَ الكلاميَّ نفسَهُ في محاولةِ تفنيدِ الأشاعرةِ والماتريديَّةِ وغيرِهِمْ من أهلِ الأهواءِ، فافتضحوا بذلك دون أن يشعروا بما تورَّطوا فيه من تناقضاتٍ رهيبة بسببِ عقليَّتِهِمْ الجامدةِ، وتفكيرِهم السقيم، وفَهْمِهِمْ القاصرِ، وتعصُّبِهم، واستخفافِهم بالعلماءِ على غرار الصوفية.

5) قد كبَّلَتْهم عقليَّتُهم الجامدةُ عن قبولِ أيّ جديدٍ لم يردْ نصٌّ صريحٌ بشأن حرمتِهِ. على سبيل المثال: رفضهم لقيادةِ المرأةِ سيارتها.

6) ادَّعى أحدُ أكابر شيوخهم (عبد العزيز بن عبد الله بن باز) أنَّ الأرضَ سَاكِنَةٌ قارَّة (يعني: لا تتحرَّك!). ورد ذلك في رسالة له سمَّاها: (الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب وعلى جريان الشمس والقمر وسكون الأرض). وردت في هذه الرسالة من تناقضاتٍ وتجاوزاتٍ للثوابت العلمية ما يدلُّ على مدى جهل الوهابيين بحقائق الكون والحياة.

تَهَافَتَتْ فِي الأوانِ الأخيرةِ على هذا المشعوذِ الْبُنْطُسِيّ جماعةٌ من حُثالَةِ العربِ الْمُعَمَّمِين، لانبهارهم بالكثرةِ التي حُشِرتْ حولَهُ، وليس اغتباطًا به لفضيلةٍ يتَّسِمُ بِها، بل جاؤوا يلهسون وراءَهُ للارتزاقِ لعلَّهم ينالون شيئًا من سؤرِهِ. يبرهن هذا الواقع على: أنَّ الإتّجارَ بالدِّين قد يُربِكُ حتَّى الرجلَ العالِمَ إلى حدٍّ يتعرَّى من كلِّ ما حظِيَ في حياتِهِ من العلمِ والمعرفَةِ، وينسلخُ من إيمانِهِ فَيَنْجَرِفُ وراءَ رجلٍ جاهلٍ وثنِيٍّ هالك!

---

7) وَجَّهَ الوهابيُّونَ اتِّهاماتِهم للرافضةِ بكثافةٍ بالغةٍ واستمرارٍ، وأهملوا النَّقْشَبَنْدِيَّةَ. بينما النفاقُ والزندقةُ والعنصريَّةُ والتضليلُ في الفِرقةِ النقشبنديَّةِ أكثرُ منها في الرافضةِ، لكنَّ النقشبنديّين انتحلوا صفةَ أهلِ السُّنِّيَّةَ جهلاً واغترارًا، (إن لم يكن نفاقًا!)، فأخفقَ الوهابيون في المعرفة بحقيقتهم. وهذا مبلغُ الوهَّابيِّين من العِلْمِ بالفِرَقِ الضَّالَّةِ والجماعاتِ الباطنيَّةِ وخطورتِها على الإسلامِ، ولا شك في أنَّ النقشبنديين أخسُّ الفِرَقِ الضالة وأخطرُها!

8) زاغَ الوهابية عن الحقِّ حين خاضوا في مسائل العقيدةِ بمنطقٍ سقيم، وجهلٍ وعنادٍ، فافتضحوا (خاصةً بنفيهم للتأويلِ)، مع أن معظم جدالهم دارَ على أسلوب التاويل نفسِهِ، فاختلفوا فيما بينهم؛ منهم مَنْ نزع إلى التجسيمِ، ومنهم مَنْ وقعَ في التشبيهِ، ومنهم مُعَطِّلَةٌ... فكذَّبوا بذلك أنفسَهم على رؤوسِ الأشهادِ، وقامتْ عليهم الحججُ بكثرةٍ لا يسع المقامُ لذكرها.

9) تقبَّلَ الوهابيةُ كلَّ ما ورد عن ابن تيمية الحراني، – رحمه الله – جملةً وتفصيلاً، واتَّبعوا أثرَهُ بالتقليد الأعمى، وبالغوا في تعظيمه ووصفِهِ بـ"شيخ الإسلام" في كلِّ مناسبةٍ؛ بينما له عثراتٌ منها: أنه نسب التصوفَ إلى الإسلامِ في مواطن من فتاواه، فَفَاتَهُ (على جلالة قدرِهِ وعلمِهِ الغزيرِ) أنْ يعزوَ الزهدَ، والورعَ، والتقوى، وصفاءَ السريرةِ، والذكرَ إلى الإسلامِ مباشرةً، فاعترفَ بالتصوُّفِ الذي طالما اتَّخذ المارقونَ هذه المفاهيمَ الإصيلةَ حكرًا ونسبوها إلى التصوفِ، ثمَّ ألصقوا التصوُّفَ بالاسلامِ بينما لا يمتُّ التصوفُ على الإطلاقِ بأدنى صلةٍ إلى الدين الإسلامِيِّ الحنيفِ الطاهر من كلِّ دنسٍ جاءَ به التصوُّفُ. فما من شكٍّ في أنّ التصوّفَ يونانيُّ الأصلِ لفظًا ومعنًى، وضبطه: ثيوزوفي Theosophy، عرَّبَهُ رموزُ الوثنيَّةِ وتحذلقوا في تشكيله على هيئة (تصوف)،كما تكلَّفوا في تعريب مصطلح فيلوزوفي philosophy، على هيئة (فلسفة) وهذا المصطلح أيضًا يوناني الأصل لفظًا ومعنًى. وهكذا تحايلوا في نسبةِ مصطلحاتٍ (لأهلِ الكفر) إلى الاسلام الذي هو براءٌ منها. ولكنَّهم لم يقفوا عند هذا الحدِّ، بل نسبوا الفضائل الإسلاميةَ الأصيلةَ إلى التصوفِ. وهذا إنَّما يبرهن على جهلِ ابن تيمية باللُّغاتِ الأجنبية، كما كان ذلك صفةً مَرَضِيَّةً في معظمِ علماءِ الإسلامِ عبر عصور الظلامِ لاغترارهم بأنفسهم، واستحقارهم لكلِّ ما يمتُّ بالأجنبِيِّ، مِمَّا دفعتْ تبعاتُ هذا الإغترارِ بالأمَّةِ إلى التخلُّفِ والإنهيارِ، وفسحَ المجالَ للمحرِّفين والدجاجلةِ فاقتبسوا من لغاتِهم عديدًا من المفاهيم والمصطلحاتِ، وقمَّصوها بأغلفةٍ من الأسلامِ بطريق التعريبِ والتأويل المقصودِ، من غيرِ أنْ يشعرَ العلماءُ بهذه الأفاعيل، فتسرَّبت أشكالٌ من الزندقةِ إلى عقائِدِ المسلمين على حين غرةٍ منهم.

وجملة القول: إن الوهابيّين فرقةٌ همجيَّةٌ متعصِّبةٌ على غرارِ الصوفية والمرجئة الجهميةِ، وقد يصح أنهم من امتداد الخوارج من أصلابِ ذي الخويصرةِ المشهورِ الذي ورد فيه حديثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِىَّ، يقول: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلّم وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ! فَقَالَ: «وَيْحَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِى فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلّم: «دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَوزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَىْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْىِ الْمَرْأَةِ وَمِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّى سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلّم وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِى طَالِبٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِىَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلّم الَّذِى نَعَتَهُ. رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ فِى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِى الْيَمَانِ وَأَخْرَجَاهُ مِنْ أَوْجُهٍ أُخَرَ.

إنَّ الوهابيةَ منعتْهم عقليتُهم المتخلِّفةُ من التزامِ جانبِ الحكمةِ، وأخذِ الحيطة في التعامل، واختيارِ التجاوُبِ والحوارِ، والتمسُّكِ بالضوابطِ العلميَّةِ. فأثاروا نزعةَ العُنفِ بأساليبهم الجافَّة في نقاشِ مسائل العقيدة، ومواقفهم المدَمِّرَةِ في العلاقات السياسية بخاصةٍ، فتمخَّضتْ عن ظهورِ التَّيَّارِ الخارجي وانتشارِ الإرهابِ عبرَ القارَّاتِ يهدِّدُ الأمنَ والهدوءَ، ويؤجِّجُ الفتنةَ ويجلبُ المساوئَ، وقد تعرَّض لها الإسلامُ والمسلمون اليومَ في مختلف أرجاءِ الوطن الإسلامِيِّ، فأسفر عن خرابٍ ودمارٍ رهيب للبلاد، وشلاَّلاَتِ دماءٍ أريقتْ ظلمًا وهدرا.

هكذا حقَّقَ النَّقْشَبَنْدِيُّون قِسطًا كَبِيرًا من أهدافِهِم التي طالَمَا كانوا يحلمونَهَا أنْ رأوا العربَ وقد أرغمَتْهُم النكباتُ للركوعِ أمامَ أحفادِ العثمانيّين! لقد شفتْ طوابيرُ المشعوذين الأتراك غليلَهُمْ مِمَّا يشهدون اليومَ من الذُّلِّ والهوانِ والضياعِ وشتاتِ الشملِ في العربِ. إنَّهم فَرِحُونَ لِمَا أصابَ العربَ من الكوارِثِ، وقد اتَّسَعَ المجالُ امامَهُمْ لِيَسْتَغِلُّوا الدِّينَ قَدْرَ ما يشتهون. ذلك بحكمِ هيمنتِهِمْ على الحكومةِ وما يملكون من ثرواتٍ وأموالٍ طائلة. نعم قد انفتحتْ لهم أبوابُ السياسَةِ والتجارةِ على مصاريعها، وانهمرتْ عليهم أمطارُ الحرِّيَّةِ في العهدِ الأردوغانيّ بخاصَّةٍ، فلا يكادون يجدون ما يمنعهم من الإتِّجارِ بِقِيَمِ الإسلامِ. يُحَرِّفوهَا كما يشاؤون ليجعلوا منها ألعابًا يستخدمونها لتخديرِ مشاعِرِ العربِ الذين يَتَسَوَّلُونَ في شوارعِ الْمُدُنِ التُّرْكِيَّةِ. لقد اتَّسَعَ أمامَهُمْ نِطَاقُ استغلالِ الدِّينِ، في هذه الأوان، وتوفَّرَتْ لهم الْفُرَصُ بِكُلِّ أشكالِها وأنماطِها مع انفجارِ الثوراتِ على الساحةِ العربيَّةِ منذ عام 2011م.؛ يُتَابِعُونَ المشهدَ بسعادةٍ، ويضحكون بوقاحةٍ، ويتغامزون بِخُبْثٍ، ويتراقصون في طَرَبٍ وسرورٍ وحبورٍ...

لا شكَّ في أنَّ ممارسةَ الاستغلالِ له تأثيراتٌ سلبيَّةٌ بالغةٌ على الحياة الدينيَّةِ لِمَا فيه من الْخُروجِ على أُسُسِ التوحيد. وتوحيدُ اللهِ تعالى هو الدعامةُ الكبرى التي تعتمدُ عليها العقيدةُ في الإسلام. واستغلالُ الدِّين بخاصَّةٍ، سلوكٌ خطيرٌ يَتَبَنَّى التضليلَ، وتسخيرَ العقولِ، وتصريفَ الضمائرِ عن الصراطِ السويّ مِمَّا فيه تدميرٌ لأركانِ الإيمان بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تعالى. فهو من هذه الوِجْهَةِ يمثِّل خطورةً عظيمةً على وحدةِ الصفوفِ، وَفيه بابٌ مفتوحٌ على إثارةِ الشقاقِ والْفِتَنِ، وَبَثِّ الْمُعْتَقَدَاتِ الوثنيَّةِ والأعرافِ الجاهليَّةِ. وفيه أيضًا قَطْعٌ للصِّلَةِ الَّتي تربطُ المجتمعَ التركِيَّ بالأمَّةِ المحمَّديَّةِ، كما فيه دافعٌ لإثارةِ المتشدِّدين والتكفيريّين ضد الوسطيَّةِ في الوقت ذاته.

من الجديرِ بالإشارةِ هنا: أنَّ استغلالَ الدِّينِ والإتِّجارَ بالْقِيَمِ المقدَّسةِ (على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ)، يرجعُ فيه السببُ نهائيًّا إلى أغراضٍ عِرْقِيَّةٍ، ومقاصدَ عنصريَّةٍ، وأهدافٍ عصبيَّةٍ لا يمكن تحقيقُها إلاَّ باستغلالِ الدِّينِ، وتحريفِ الْقِيَمِ المقدَّسة، ونشرِ البِدَعِ والخرافيات، وتشويهِ الإسلامِ بطريقِ تطبيعِهِ وَتَتْرِيكِهِ. ولن يبالغَ من يَدَّعِي أنَّ الطريقةَ النقشبنديَّةَ، والحركةَ النُّورْسِيَّةَ، وَالتيارَ (الفّتُّوشِيَّ)[235]، كلَّها تَخدمُ هذا الهدفَ وتصرِفُ جهودَهَا وقُوَاها لتحقيقِ هذا المقصود!

---

[235] الفَتُّوشِيَّةُ: تسميةٌ تهكُّمِيَّةٌ أطلقها الخصومُ على تيَّارٍ مُسْلُمَانِيّ جديدٍ،سمَّاهُ رئيس الوزراءِ التُّرْكِيّ الأسبق رجب طيب أردوغان بـ"الحشاشين الجُدُد"، ثم انتشرتْ هذه التسميةُ على الألسنةِ بقصد السخرية من مُحَرِّكِهِ الّذي أثاره وما زالُ يسيِّرُهُ. وهو رجلُ دينٍ تركيٍّ. قام بتنظيم هذه الحركةِ منذ فترةٍ تزيد عن أربعين سنةً.

أمَّا صلةُ استغلالِ الدِّينِ بالنَّزْعَةِ العصبيَّةِ القوميَّةِ، فَلَهَا أسبابٌ وكيفيَّاتٌ وأساليبُ لا يمكنُ الوقوفُ على حقيقتِهَا إلاَّ بعدَ تتبُّعٍ دقيقٍ ودراسةٍ شاملةٍ لخصوصيَّاتِ المجتمعِ التركيِّ وكسبِ المعرفةِ حولَ عقليَّتِهِ وأعرافِهِ وطبائِعِهِ الاجتماعيَّةِ واستيعابِهِ لِمَفْهُومِ (المقدَّسِ)

يبدو أن تقديسَ الْمَوْتَى من الآباءِ والروحانيِّينَ والزعماءِ عُرْفٌ قديمٌ، بل مُعْتَقَدٌ راسخٌ في كيانِ الإنسانِ التركيِّ، موروثٌ من سالفِ الزَّمانِ. لقد أصبحَ هذا المعتَقَدُ أرضيَّةً أساسيَّةً خصبةً في أعماقِ ضميرِه، بحيث إنَّهُ لا يملك شيئًا إلاَّ ينشأ وينمو على هذه الأرضيَّةِ ويرتبطُ بها ارتباطًا شديدًا. لذلك؛ "فإنَّ كلَّ نعمةٍ ينالُها، وكلَّ ربحٍ يكسِبُهُ، وكلَّ نصرٍ يظفَرُ بِهِ إنَّما هو مَدَدٌ وعطاءٌ يَأْتِيَانِهِ من قِبَلِ الأرواحِ المقدَّسَةِ للآباءِ والروحانيّينَ والسلاطينِ بفضلٍ من اللهِ لِمَا لهم من المكانَةِ وَالجْاهِ عنده". وإذا كانتِ "النعمةُ العظمى: أنْ يُخلَقَ الإنسانُ تُرْكِيَّ الأصلِ"، فإنَّه لاَبدَّ لذلك أن تمتازَ القوميَّةُ التُّرْكِيَّةُ بقداسةٍ تفوقُ بها جميعَ القوميَّاتِ في العالَمِ. ومصداقُ ذلك مقولةُ "للزعيم الماجد" مصطفى كمال: " شخصٌ تُرْكِيٌّ يعدلُ الدنيا كلَّها"[236]. يعني: "إنَّ البشريَّةَ بأجمعها لا تفوقُ على شخصٍ واحدٍ من الأتراكِ قيمةً".

استغلالُ الدِّينِ له سوقٌ رائجَةٌ في تركيا، وهي مهنةٌ مرغوبةٌ فيها بخاصَّةٍ في أوساطِ السياسيِّينَ والتجَّارِ، يمارسونَها بحذقٍ ومهارةٍ. إلاَّ أن هذه الظاهرةَ – في الحقيقة– هي مرضٌ أخلاقِيٌّ خطيرٌ ينتشرُ إنتشارًا ذرِيعًا بخاصَّةٍ في مواسمِ الإنتخاباتِ، ويدلُّ ذلك على أنَّ السياسَةَ هى الدافعُ الرئيسُ

أمضى الرجلُ مرحلةَ الاستعدادِ قبل أن يقومَ بتحقيق أحلامه بصورة فعليةٍ وهو يومئذٍ إمامٌ في أحدِ مساجدِ إزمير، لا يعرفه إلاَّ جماعةٌ قليلةٌ يقتدون به في الصلوات الخمسِ ثم ينصرفون عنه كالعادةِ في أغلبِ المساجدِ. استطاعَ الرجلُ بلباقتِهِ الفائقةِ أن يَخْرُجَ من أسرِ هذه العزلةِ التي كان يُحْرِجُ نَفْسَهُ الحريصةَ على الظهور، وهو يحلمُ بطموحٍ كبيرٍ هدفًا عظيمًا ومجدًا يُخَلِّدُ ذِكْرَهُ. فَحَظِيَ من الشهرةِ (بعد مُدَّةٍ من المعاناةِ) ما لم يَنَلْهَا إلاَّ قليلٌ من صناديدِ السياسةِ وأعلامِ الكشفِ والإبداع. لا شكَّ في أنَّ ذلك لم يكنْ نتيجةَ مصادفةٍ، بل كان الرجلُ يمتازُ بموهبةٍ خِطَابِيَّةٍ مكَّنَتْهُ من النفوذِ إلى قرارةِ نفوسِ السامعين وأخذتْ ألبابَهم.

نقلَ عددٌ مِمَّن لم يُجرَّب عليهم الكذبُ: أنَّ الرجلَ بدأ في أوَّلِ أمره باللجوءِ إلى أسلوبٍ غريبٍ للظهورِ كخطوةٍ أُولى لِيُلْفِتَ الإنتباهَ إلى نفسِهِ (ولو بثمنٍ باهظ)؛ فأعدَّ كميةً من لوحاتٍ إعلانيَّةٍ، على كل ورقةٍ منها صُورَتُهُ، وتحتَهَا كلمةُ (مطلوب!). ثم أمرَ جماعةً من تلاميذِهِ أنْ يُلصقوها على الواجهات والجدران عبر الشوارعِ الرئيسةِ للمدينة، وأنْ يقوموا بهذِهِ العمليَّةِ في اللَّيل. وما إنْ أصبح، سرعان ما أُلْقِيَ القبضُ عليه، وقام رجالُ الأمنِ بالتحقيقِ معه، فأُودِعَ في السجنِ مدةً قصيرةً، ثم أُطلقَ سراحُهُ وقد حقَّقَ هدفَهُ؛ لأنَّهُ مزَّقَ الجَوَّ الذي كان يحصرُهُ ويُخْفِيهِ عن المشهد، فظهرَ إلى العيانِ ولكنْ عُرِفَ عنه أنَّه إنَّما تعرَّضَ للعقوبةِ بسببِ إرشاداتِهِ الدينيَّةِ، ودِفاعِهِ عن القِيَمِ المقدَّسَةِ! ثم جرَى ما جرَى حتى أصبحَ اليومَ يتمتَّعُ بمكانةٍ يغتبطه حتى شيوخ الوهابية.

[236] «Bir türk dünyaya bedeldir».

http://xa.yimg.com/kq/groups/19848373/77047405/name/ATAT%C3%9CRK%C3%9CN+ANILARI-1.pdf. Page:101

لانتشارِ هذا المرضِ. ومن الحقائقِ البدهيَّةِ في النظام الديمقراطيِّ؛ أنَّه لا يخلو مسلكُ السياسَةِ عادةً من هذا المرضِ. ذلك أنَّ المنافسةَ في المجالِ السياسِيِّ تتَّسِمُ غالِبًا بدافعٍ مرضِيٍّ يتورَّطُ به الإنسانُ في متاهاتٍ، فيتوسَّلُ بكُّلِ رذيلةٍ، ويركبُ كلَّ ذنبٍ، لكي يتمتَّعَ بمكانةٍ مرموقةٍ، ويرقى إلى منصبٍ يغبطه الناسُ، بينما هو يراهم قطعانًا من البهائم، يستغلُّ جهلَهم، وكلَّ شيءٍ يُقَدِّسُونَه، ليتحكَّمَ في رقابِهم بهذهِ الوسيلةِ، ولِيُسَخِّرَهُمْ في تحقيقِ آمالِهِ وأهدافِهِ.

إنَّ الساحةَ التُّرْكِيَّة تُمَثِّلُ مرتعًا خصْبًا لاستغلالِ المقدَّساتِ، تتنافسُ وتتسابقُ عَبْرَهَا الأحزابُ والشخصيَّاتُ السياسيَّةُ في تسويقِ الدِّين. فَقَلَّ مَنْ يَرْبَحُ في هذهِ السوقِ بغيرِ اللجوءِ إلى آليةِ الاستغلالِ الدينيِّ، لأنَّ الطبيعةَ الأخلاقِيَّةَ والروحِيَّةَ للمجتمعِ التُّرْكِيِّ هي الحافزُ الرئيسُ لنموِّ نزعةِ الإستغلالِ في الشخصيَّة السياسيَّةِ، وهي –في الحقيقة– شخصيةٌ انفصاميَّةٌ! كما أنَّ السبَبَ نفسَهُ هو الذي جعلَ المواطِنَ عُرضَةً للاستغلالِ. ذلك أنَّ الرجلَ السياسِيَّ في تركيا يعلمُ بالتأكيد أنَّ التظاهُرَ العلنيَّ الْمُشعِرَ بالانتماءِ الدينِيِّ جالِبٌ لِمحبَّةِ الأكثريَّةِ من القاعدةِ الشعبيَّةِ. ولهذا التظاهرِ تأثيرٌ إيجابِيٌّ كبيرٌ لأجلِ الحصولِ على تأييدِهم ودعمِهم وكسبِ أصواتِهم أيَّامَ الإنتخاباتِ. كما يعلمُ أنَّ المجتمعَ لا يهتمُّ بأولويَّةِ جانبِ الكفاءَةِ في المرشَّحِ السياسِيِّ، ولا بِمَدَى قُدرتِهِ على تحقيقِ ما يحتاجُ إليه البلدُ من النهوضِ، والْمُوَاطِنُ من الرفاهيةِ في حياتِهِ ومعاشِهِ؛ بل كلُّ اهتمامِهِ يستقطبُ على تصرُّفاتِ المرشَّحِ وسلوكِهِ الدينِيِّ خاصَّةً. فمتى رآه فوقَ منصَّةِ الخطابِ في ساحةٍ من ساحاتِ المدينةِ، وهو يقطعُ كلمَتَه في أثناءِ نداءِ المؤذِّنِ، وينتظرُ ليستأنفَ خطابَهُ بعد انتهاءِ الأذانِ، يتحوَّلُ هذا المرشَّحُ في لحظاتٍ إلى شخصيَّةٍ عظيمةٍ في ذهنِ الْمَعْشَرِ الذي يستمعُ إليهِ، ويملأُ قلوبَهم، فمنهم مَنْ يتصوَّرُهُ عالِمًا نحريرًا متبحِّرًا في أصنافِ العلومِ، ومنهم مَنْ يعُدُّهُ فارسًا من فرسانِ ميادينِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ومنهم مَنْ يتخيَّلُهُ قائِدًا عظيمًا بعثهُ الله لِيُنقِذَ الأمَّةَ التُّرْكِيَّةَ، ولِيرفعَ شأنَها إلى ما كان عليه أيَّامَ السلطان محمد الفاتح، والسليمِ الأوَّلِ، والسلطان سليمان القانونِيِّ، ليصنعَ التاريخَ على مثالِ عمالقةِ ملوك الأتراكِ!

يبدو أنَّ هذهِ الطبيعةَ العاطفيَّةَ المتطرِّفةَ ناشئةٌ من تأثيراتِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ، وتلقيناتِ الخواجواتِ، وتعاليمِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ... تكادُ ثلاثةُ أرباعِ المجتمعِ تخضعُ للتوجيهاتِ الناشئَةِ من هذه العواملِ، وتتعرَّضُ للتطبيعِ بِحُكْمِ تلقيناتٍ مكثَّفَةٍ وإملاءاتٍ تبثُّها الجماعاتُ التبشيريَّةُ للصوفيَّةِ على غرار المسيحيَّةِ. وبهذا يتَّضحُ بأنَّ الغالبيَّةَ العظمَى للمجتمعِ التُّرْكِيِّ تتَّسمُ بشخصيَّةٍ صوفِيَّةٍ هشَّةٍ وهزيلةٍ، معتادةٍ على التبعيَّةِ لأيِّ دعوةٍ روحانيَّةٍ تُسَلِّيهِ وتزيِّنُ له مُسْتَقْبَلاً موهومًا تملؤُهُ السعادةُ، وعالَمًا

شبيهًا بالحلم، يطير على آفاقه أولياءُ الأتراكِ وشيوخُهم وسلاطينُهم، تُحَلِّقُ معهم الملائكةُ، ينتظرون هذا المستقبلَ الموهومَ لِيَخْلُدُوا فيه ويتقلَّبوا في نعيمِهِ إلى أعماقِ الأبدِ!

القِيَمُ المقدَّسةُ والشعائرُ الدينيَّةُ في الإسلامِ تحتلُّ مكانةً ساميةً لدى المجتمعِ المؤمنِ، ولها حَصَانَةٌ لا يجوزُ اقتحامُ حدودِها باتِّخاذِ شيءٍ منها مطيَّةً لأدنىَ مصلحةٍ دنيويَّةٍ تتعارضُ مع ضوابطِ الفقهِ العامِّ.

كلُّ شعيرةٍ من شعائرِ الإسلامِ مثل: الصلاةِ، والصومِ، والحجِّ والزكاةِ وغيرِها؛ وكلُّ شيءٍ له صفةٌ مقدَّسةٌ مثل: المصحفِ والمسجدِ، والكعبةِ، والصفا، والمروةِ، وغيرِها؛ وكلُّ رمزٍ من رموزِ التنسُّكِ، والتسنُّنِ، والتعبُّدِ، والتورُّعِ مثل: اللِّحيةِ، والسواكِ والسجَّادةِ، ومتونِ كتبِ العقيدةِ، والحديثِ، والتفسيرِ، والفقهِ وشروحِها ومصطلحاتِها؛ وكلُّ مفهومٍ متصلٍ بنصوصِ الكتابِ والسنَّةِ مثل: كلماتِ القرآنِ، ولفظِ الجلالةِ، وذاتِ اللهِ تبارك وتعالى وصفاتِهِ وأسمائِهِ، وشخصيَّاتِ الأنبياءِ والمرسلين والملائكةِ عليهم السلام.. كلُّها تتَّسمُ بقداسةٍ وحرمةٍ لِذَاتِهَا، وحصانةٍ يجب مراعاتُها في حدودِ ضوابطِ الإسلامِ وتعاليمِهِ، وذلك بغيةَ الحفاظِ على سلامةِ نظام الحياةِ والسلوكِ والعلاقاتِ الإجتماعيةِ، والإحترامِ المتبادلِ. هذا من وجهةِ نظرِ الإسلامِ.

وقديمًا حذَّر العلماءُ من استخدامِ هذه المفاهيم الحصينةِ لأجلِ التمايُزِ، وجَلْبِ منفعةٍ شخصيةٍ دُنْيَوِيَّةٍ بحتةٍ، واتَّفقوا على حرمةِ ذلك لِمَا فيه من الرياءِ والنفاقِ، ومخادعةِ الناسِ وتسخيرِهِمْ في تحقيقِ الأهدافِ والآمالِ الخاصَّةِ، والإكثارِ من الْحُطَامِ والْمَالِ، والفوزِ في السباقِ السياسيّ خاصَّةً، والتدرُّج إلى المناصبِ، وكسبِ الشهرةِ والرياسةِ والنفوذِ، حيث يختلُّ بها ميزانُ العدالةِ ومبدأُ المساواةِ في المجتمعِ، وتؤدِّي –بِحُكمِ التسلسلِ– إلى ممارسةِ القواعدِ الظالمةِ ضدَّ الفردِ والمجتمع.

فاستغلالُ الدِّين حيلةٌ لا تُكَلِّفُ، يعملُها الْمُسْتَغِلُّ لجذبِ القلوبِ، يلجأُ في ذلكَ إلى استخدامِ آليةٍ لها تأثيرٌ عظيمٌ في إثارةِ العواطفِ، وتحريكِ الْقُوَى الكامنةِ في القطاعاتِ البشريةِ النائمةِ، وتسخيرِ طاقاتِها. ينالُ الْمُسْتَغِلُّ بذلك وفي فترةٍ قصيرةٍ دعمًا كبيرًا يوفِّرُ له الفرصةَ لتحقيقِ آمالِهِ وأحلامِهِ والتغلُّبِ على خصومِهِ.

إنَّ استغلالَ الدِّينِ مشاركةٌ أصلاً، تعتمدُ (في الأغلبِ) على ثلاثِ أثافِيَّ؛ إحداها: محضُ آليةٍ تُستخدَمُ في عمليةِ الإستغلالِ مباشرةً، والثانيةُ: هي المقصودُ بها من الإستغلالِ والتسخيرِ بطريقةٍ

غير مباشرة، وهي الْمَرْتَعُ الخصبُ واللُّقمةُ المستساغةُ للاستغلالِ. وأمَّا ثالثةُ: فإنَّما هي المستفيدةُ وحدَهَا من الإستغلالِ، والرابحةُ في هذه السوقِ. فالآليةُ (في الغالبِ) ليستْ هي بذاتِها الدِّينَ نفسَهُ، وإنَّما هو إنسانٌ نذرَ كلَّ حياته للدِّينِ وانْهَمَكَ فيهِ (بغيرِ الوجهِ الذي يَأْمُرُهُ الدِّينُ)، بل بممارساتٍ شِمْطاويَّةٍ أَخْرَجَتْهُ من حدودِ الفطرةِ، وجعلتْ منه سَحَّارًا مُشَعْوِذًا، وَصُوفِيًّا غريبَ الأطوارِ، يتمثَّلُ في شيخٍ نقشبندِيٍّ يعيش في عالمٍ لاَهُوتِيٍّ شَعْشَعَانِيٍّ مَوْهُومٍ، بحيث يستطيع الْمُسْتَغِلُّ أنْ يتلاعبَ به ويستخدِمَهُ في تسخيرِ جماعاتٍ مُلْتَفَّةٍ حولَه من الرعاعِ والْحُثَالَةِ.

هذا، مع العلمِ، أنَّ الْمُسْتَغِلَّ متعمِّدٌ في اختيارِ هذه الآليةِ واستخدامِها في تحقيقِ مصالِحِهِ، واعٍ بخطورةِ ما يرتكِبُهُ. وهذا يدلُّ على أنَّه عديمُ الأيمانِ بِقَدَاسَةِ الدِّينِ وحصانتِهِ، لأنَّه على علمٍ بجنايتِهِ. أمَّا الإنسانُ المعرَّضُ للاستغلالِ، فإنَّه – لاشكَّ– جاهلٌ بحقيقةِ الدِّينِ، غافلٌ عن أغراضِ الْجِهَةِ التي تستغلُّهُ، متزمِّتٌ عاطفِيٌّ، ولكنَّه مُخْلِصٌ في نيَّتهِ وعملِهِ. هذه الصفاتُ بحذافيرها تنطبقُ على الشيخِ النَّقْشَبَنْدِيِّ ومريدِيهِ المتشبِّثِين به على أنَّه وسيلةُ نَجَاتِهِمْ من نار جَهَنَّمَ، وَدَلِيلُهُم الوحيدُ إلى الجَنَّةِ ونَعِيمِهَا. فهو لا يُعصَى له أمرٌ، ولا يُهْمَلُ شيءُ من تعليماتِهِ وتوجيهاتِهِ وإشاراتِهِ أبدًا، مهما كان القصدُ منها والهدفُ، حتى ولو كان محرَّمًا، "فقد يكون في ذلك حكمةٌ لا تُبلَغُ كُنْهُهَا، ولا تُدْرِكُ غايَتَهُ العقولُ!"

ثم إنَّ استغلالَ الدِّينِ في تركيا، لم يكنْ مقصورًا على مقاصدَ سياسيَّةٍ فحسبُ. بل ممارسةُ استغلالِ الدِّينِ بأغراضٍ قوميَّةٍ كان دائمًا أوسعَ نطاقًا وأشدَّ وَقْعًا وتأثيرًا على الناسِ. لقد اهتمَّتِ الطغمةُ الحاكمةُ منذُ إعلانِ الجمهوريَّةِ باستغلالِ الدِّين اهتمَامًا بالغًا رغمَ تظاهُرِها بتبنِّي العَلمانيَّةِ، وعداوتِها الشديدةِ للإسلامِ! وهذا لا شكَّ في أنَّهُ منتهَى أدْرَاكِ النفاقِ. ذلك؛ أنَّ مصطفى كمالاً، وأخْلاَفَهُ الذين احتذَوْا حَذْوَهُ، واتَّخَذُوهُ من بعدِهِ صَنَمًا، وابتدعوا حَوْلَهُ ديانةً مستقلَّةً، لم يُهمِلوا استغلالَ المقدَّساتِ الإسلاميَّة لتحقيقِ أهدافِهم، وسَمَحُوا لِبَقَاءِ ظِلاَلٍ ضعيفةٍ من الاسلامِ ليتمكَّنُوا بذلكَ من احتكارِها عند الحاجةِ. وقد عَلِمُوا أنَّ القضاءَ على الْمُسْلُمَانِيَّةِ أمرٌ مستحيلٌ، فاتَّخذوها آليةً للوصولِ إلى أهدافِهِم كُلَّمَا وجدوا أنفسَهم بحاجةٍ إليها.

لقد عرف مصطفى كمال وأخْلافُهُ (الأَتَاتُورْكِيُّونَ): أنَّ العاطِفَةَ الدِّينِيَّةَ كانتْ ولا تزالُ هي القوَّةَ الكامنةَ التي تدفعُ بالإنسانِ إلى منازلةِ العدوِّ دونَ تحفُّظٍ أو تخوُّف، وتَحُثُّهُ على الدفاعِ عن الوطنِ والأعراضِ.. كما علموا أنَّ القضاءَ على هذه القوَّةِ، وانتزاعَها من كيانِ الشخصِ معناه: تحويلُهُ إلى

كائنٍ جامدٍ، لا حراكَ ولا قدرةَ له؛ كائنٍ لا يَنْبُضُ فيه وَمِيضٌ من روحِ الحياةِ. لأنَّ الإنسانَ الذي لا يؤمن بالخالقِ يجهلُ كلَّ قيمةٍ رزقهُ الخالقُ، ويأتي على رأسِ النِّعَمِ التي يتمتَّع بِهَا: الوطنُ، والحريَّةُ والاستقلالُ...

هذه الطغمةُ (اليهودِيّةُ)، لَمَّا وجدتْ نفسَها في حاجةٍ إلى آلية الدِّين (وهي – في الحقيقةِ لا تدينُ بالإسلامِ ولا بِالْمُسْلُمَانِيَّةِ!–)؛ وعَلِمَتْ مع ذلك أنَّ الإسلامَ لا يسمحُ لها أن تَسْتَغِلَّهُ، اهتمَّتْ بجانبِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، فأعادتْ تَصميمَهَا من جديدٍ على وفقِ أغراضِها لِتَتَنَاغَمَ مع العلمانيَّةِ، والقوميَّةِ التركية؛ فتحوَّلتِ الْمُسْلُمَانِيَّةُ بذلكَ إلى ديانةٍ مُرَكَّبَةٍ من مفاهيمَ إسلامِيَّةٍ، ومعتقداتٍ تركيَّةٍ وَثَنِيَّة، وعادَاتٍ جاهلِيَّةٍ، تجمعُ في بطنِهَا بين مسمَّيَاتٍ لا تَأْتَلِفُ في الواقع؛ كالأذانِ وَالْعَلَمِ التُّرْكِيّ، وَلَفْظَةِ التكبيرِ، و"أَضْرِحَةِ الشُّهَدَاءِ"، والنشيدِ الوطَنِيِّ التُّرْكِيّ، وأرضِ الْوَطَنِ، وأمْجادِ الأمَّةِ التُّرْكِيَّةِ والْمَلاَحِمِ التي انتصرتْ فيها الجيوشُ التُّرْكِيَّةُ... يفتضحُ هذا الإستغلالُ بِمُجَرَّدِ مقولاتٍ وهُتَافاتٍ تَجْمَعُ عَبْرَ صياغَتِهَا من هذه الْمُسَمَّيَاتِ الْمُتَنَاقِضَةِ التي لا تمتُّ (بعضُها) بصلةٍ إلى الإسلامِ أبدًا، بل تتناقضُ معها تناقُضًا شديدًا!

استطاع مصطفى كمال بهذه المحاولةِ الْمُلْتَوِيَةِ أنْ يُنشِئَ جيلاً يتَّسِمُ كُلُّ فردٍ منهُ بشخصيَّةٍ يعتنقُ (المسلمانيَّةَ، والعلمانيَّةَ، والقوميَّةَ التركيَّةَ) في آنٍ واحد. كما نَجَحَ الكماليُّونَ في ترويضِ الشخصيَّةِ القوميَّةِ (الْمُتَدَيِّنَةِ!) والْمُتَّسِمَةِ بهذه الميّزاتِ الثلاثِ وفقًا لِتعاليمِ مصطفى كمال، وتمكَّنُوا من إنشاءِ جيلٍ (متديّنٍ) ومعتزٍّ بقوميَّتِهِ. من أهَمّ رموزِ هذا الجيلِ (كَبُرْهَانٍ على شخصيَّتِهِ الخطيرة)، هُتَافُهُ الشهير: "الأذانُ لَنْ يَسْكُتَ، وَالْعَلَمُ لَنْ يَسْقُطَ!".

إنَّ الشخصيَّةَ القوميَّةَ في تركيا، تُعتَبَرُ من أقوَى الضماناتِ التي تعتمِدُ عليها الْقِيَمُ التركِيَّةُ، والوطنُ التُّرْكِيُّ، والدولةُ التُّرْكِيَّةُ... ومن الحقائقِ التى لا مِرْيَةَ فيها: أنَّ هذه الشخصيَّةَ لا تؤمِنُ بِوَحْدَةِ أمَّةِ الإسلامِ أبدًا، بل تَرَاهَا من أكبرِ أسبابِ الضياعِ والإضمِحْلاَلِ للأُمَّةِ التُّرْكِيَّةِ، كما لا شكَّ في أنَّ الطبقةَ المكوَّنَةَ من هذه الشخصيَّةِ ستكون عَقَبَةً كبيرةً تعترِضُ سبيلَ المخلصينَ الذين يؤمنون بِوَحْدَةِ أمَّةِ الإسلامِ، ويعدُّون الشعبَ التُّرْكِيَّ جُزْءًا لا يتجزَّأُ مِنْهُ.

طابعُ السياسةِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الدولةِ التُّرْكِيَّة منذ تأسيسِ الجمهوريَّةِ إلى اليوم

إنّ سياسَةَ تركيا من وجهٍ عامٍّ؛ تتمثَّلُ في محاولةِ الوساطةِ لإيجادِ التوازُنِ بين التحالُفِ اليهودِيّ–المسيحِيّ الْعَالَمِيّ وبين كِيانَاتٍ سياسيَّةٍ "شرق–أوسطِيَّةٍ"، وذلك مع الإنحيازِ إلى الطرفِ الأقوَى في كلِّ حال!. إنَّ هذا الدورَ الخطيرَ الذي الْتَزَمَتْهَا الدولةُ الجديدةُ – لا شكَّ – تستمِدُّ من طابعِ مرحلةِ الانْهيارِ للدولة العثمانيةِ بصورةٍ شِبْهِ وراثيةٍ. تلك الدولة العملاقة التي كانت تُهَيمِنُ على ثلاثِ قارَّاتٍ، واستطاعتِ الْبقاءَ على مسرح التاريخ أكثرَ من ستَّةِ قرونٍ، وبسطتْ سلطانَهَا على مساحةٍ بلغتْ سعتُها **24** مليون كم^2، يومَ كانتْ في أوجِ عزّهَا ومجدِها، وبالتحديد سنة **1683**م.

تنعكسُ السياسةُ الخارجيَّةُ للدَّولةِ التُّرْكِيَّة مع كلِّ توجُّهاتِهَا وتموُّجاتِهَا وظروفِها من هذا الْمُنْطَلَقِ العامِّ وبتحديدِ سياسةٍ داخلِيَّةٍ متميِّزةٍ تقوم على أربعِ دَعَامَاتٍ رَئِيسَةٍ:

1) القوميَّة التُّرْكِيَّة
2) العلمانية الأتاتوركيَّة
3) الْمُسْلُمَانِيَّة
4) اللِّيبراليَّة

قد يشكُّ بعضُ المحلِّلين في إمكانيَّةِ التأليفِ بين هذه المفاهيم التي تبدُو مُتَبَاعِدَةً ومُتَنَافِرَةً، إلاَّ أنَّ التعاليمَ الكماليَّةَ التي هيمنتْ على دِماغِ الإنسانِ التُّرْكِيّ، ورسختْ في ضميرِ المجتمعِ عَبْرَ حملةٍ تبشيرِيَّةٍ كثيفةٍ في فترةٍ قصيرة؛ خلقتْ وسطًا ملائِمًا لِتَلاَحُمِ هذه المفاهيمِ الأربعةِ، وجعلتْ منها قاعدةً أساسيَّةً متينةً اعتمدتْهَا جميعُ الحكوماتِ التُّرْكِيَّة على اختلافِ اتجاهاتِهَا الأيديولوجيَّةِ (بما فيها حزبُ العدالةِ والتنميةِ المحافظ)، بل اضطرَّ هذا الأخيرُ أنْ ينطلقَ منها في بناءِ فلسفتِهِ وتحديد منهجِهِ الحزبِيّ ومواصلةِ سياستِهِ الداخليَّةِ دونَما شذوذٍ عن "الخطِّ الكماليِّ المقدَّس!" وسارتْ مع التزامٍ بالغٍ بِمَبَادِئِ هذا الْخَطِّ في مُمَارَسَةِ السياسَةِ الخارجيَّةِ المحدَّدَةِ للدَّولةِ التُّرْكِيَّة على ضَوءِ هذه الْخَلْفِيَّة الْمُتَعَارَفَةِ. نعم، دامتْ مسيرةُ السياسَةِ في تركيا على هذه الْوَتِيرَةِ منذ عام **1920**م. رغم بعضِ الإنحرافاتِ الطفِيفَةِ (لبعض الحكوماتِ) تحتَ ضغطِ الظروفِ الْمُجْبِرَةِ.

16) السياسةُ الداخليَّةُ في عهد مصطفى كمال(**1920–1938**م.)، ونبذة من سيرتِهِ.

عندما نُرَكِّزُ التفكيرَ في طابعِ السياسةِ للعهدِ الذي كان زمامُ الدولةِ في قبضةِ مصطفى كمال بشكلٍ مُطلَق، نجدُ أنَّ هذه المقوّماتِ الأربعَ كانتْ متضافرةً في تكوينِها، ليس ذلك بدافعِ الجهودِ المقصودةِ منه فحسبُ، بل بصورةٍ وراثيَّةٍ امتدّتْ من العهدِ السابقِ. ذلك لأنَّ العقليّةَ المتأصلةَ في العنصرِ التُّرْكِيِّ كانت منذُ القديمِ مجبولةً على فهمِ الكونِ والحياةِ والأحداثِ من زاويةٍ تُحَدِّدُهَا خصوصيَّاتٌ شبيهةٌ بالعلمانيَّةِ والقوميَّةِ، ولم تكنْ غطرسةُ الرأسْمَاليةِ (مع بدايةِ النظامِ التعدُّدي) إلاَّ وليدةَ الإقطاعيَّةِ العثمانيَّةِ، كما كانت الْمُسْلُمَانِيَّةُ راسخةً في ضميرِ المجتمعِ منذُ قرونٍ ابتداءً من تعرُّفِ الأتراكِ على الإسلامِ يومَ فاجئُوا به حَذِرين متردِّدين، فوجدو المناصَ منه بِنَسْجِ دِيَانَةٍ تَتَنَاغَمُ مع ميولِهِم وأذواقِهِمْ، فَسَمَّوْهَا "الْمُسْلُمَانِيَّةَ Müslümanlık" كَبَدِيلٍ عن الإسلام.

إذًا لا يجوزُ أنْ نقولَ: إنَّ مصطفى كمالاً جاءَ بسياسةٍ ثوريَّةٍ غَيَّرَ بِهَا العقليّةَ التُّرْكِيَّة، أو أَلْغَى الشريعةَ الإسلاميّةَ بِرُمَّتِهَا. كما لاَ يجوز أن ندَّعِيَ: بأنَّه ألغَى مؤسّستَيِ الخلافةِ والسلطنةِ، لأنَّ الخلافةَ الحقيقيّةَ كانت قد انتهتْ قبل خمسةَ عَشَرَ قرنًا بعد أنْ تنازلَ عنها حسنُ بْنُ علي رضي الله عنهما لمعاويةَ ابْنِ أبِي سفيان. فتحوَّلتْ الخلافةُ بعد ذلك إلى ملكٍ عَضوضٍ[237]، بل إلى أُلْعُوبَةٍ في يدِ الملوكِ والطواغيتِ. فلم تكنْ هي من الإسلامِ في شيءٍ منذ قرونٍ وهي على هذه الصورةِ المُشَوَّهَةِ. كذلك السلطنةُ دامتْ بمضمونِهَا – حتَّى بعد انْهِيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ– وظلّتْ مُهيمنةً على هيكلِ الدولةِ التُّرْكِيَّة، متمثلةً في النظامِ الكماليِّ المطلَقِ، لم يتغيَّرْ منها شيءٌ جوهرِيٌّ سِوَى بعضِ المصطلحاتِ والمسمَّياتِ فحسب.

لأنَّ مصطفى كمالاً وثب على السلطةِ وحلَّ محلَّ السلطانِ العثماني المطرودِ (أو الْهَارِبِ)، بشكلٍ مباشرٍ، وفرضَ نفسَهُ على الدولةِ التُّرْكِيَّة وعلى المجتمعِ بعنوان "رئيس الجمهورية"! كأمرٍ واقعٍ، رغم كلِّ مَنْ عارضَهُ وخالَفهُ وقاوَمَهُ، بينما لم يكن للجمهورِ الْمغلوبِ على أمره أيُّ دورٍ في تولِّيهِ الحكمَ، كما لم يكن هو مُنْتَخَبًا على الإطلاق.

إنَّ مصطفى كمالاً لم يعارضِ العقليَّةَ التُّرْكِيَّة، ولم يقاوِمْها أصلاً، ولم يقمْ بتغييرِ أيِّ شيءٍ منها، وإنَّما عَمَدَ إلى توجيهِها وتطبيقِها وفق ما بدا له من استراتيجيَّاتٍ تتمثَّلُ في ثلاثةِ أسسٍ رئيسةٍ:

---

[237] كما ورد في حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: "أوَّلُ دينِكم نُبُوَّةٌ ورحمةٌ، ثم خلافةٌ ورحمةٌ، ثم مُلكٌ ورحمةٌ، ثم مُلكٌ وجبريَّةٌ، ثم مُلكٌ عَضُوضٌ، يُسْتَحَلُّ فيه الحِرُ والحرير. قوله: "ثم يكونُ مُلْكٌ عَضُوضٌ": أي يُصِيبُ الرَّعِيَّةَ فيه عسْفٌ وظُلْمٌ كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًّا. والعَضُوضُ: من أبْنية المُبالغة.

1) إزالةُ جميعِ العقباتِ التي اعترضَتْه منذ بدايَةِ ممارستِهِ لِحُكْمِهِ الفرديّ،

2) استغلالُ هُتَافِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة بِأَدْنَى ذريعةٍ في جميعِ نشاطاتِهِ السياسيَّةِ،

3) استبدالُ المصطلحاتِ القديمةِ بمصطلحاتٍ جديدةٍ مع إبقاءِ معظمِ مدلولاتِهَا من الأفكارِ الدينيَّةِ والقوميَّةِ والأعرافِ الإجتماعيَّةِ والعقلِيَّةِ التُّرْكِيَّة المتميّزةِ.

فَلْنَتَنَاوَلِ الآن تفاصيلَ سياستِهِ عَبْرَ هذه الأسُسِ الثلاثةِ مع ذكرِ نبذةٍ من ميّزاتِ شخصيَّته:

أولاً: إزالة العقبات:

كان أمام مصطفى كمال عقباتٌ كبيرةٌ في الداخلِ تمنعُهُ من تحقيقِ أحلامِهِ، رغم اتّفاقِهِ مع العالَمِ الخارجِيّ (مع الغربِ بالتحديد) على تنفيذ مشروعِهِ الذي يريدُ به أنْ يجعلَ الساحةَ التُّرْكِيَّة جسرًا يربطُ بين الغربِ والشرق الأوسطِ، وَيُمَكّنُ الغربَ من السيطرةِ على المنطقةِ.

كان القطاعُ الصوفِيُّ النقشبندِيُّ من أكبرِ الْعَقَباتِ أمامَهُ، يُعَرْقِلُهُ في مسيرتِهِ. فرآى أنْ يُزيلَ هذه العقبةَ في المنطقةِ الكرديَّةِ "ليصطادَ عصفورين بطلقةٍ واحدةٍ"! كما في المثل التُّرْكِيّ. لقد كان مصطفى كمالٌ يعلمُ بواقعيَّةٍ أنَّ النقشبنديّةَ ليستْ من الإسلامِ في شيءٍ، وأنَّه إذا ناهضَ هذا التَّيَّارَ وقامَ بقمعِ هذا القطاعِ سوفَ يكسبُ ثقةَ الحُنَفَاء الذين طالما يعانون من اضطهادٍ شديدٍ تحت ضغوطِ الصوفيَّةِ، وإنْ كان هؤلاءِ قِلَّةً، ذلك لأنَّ أفرادَ هذه القلَّةِ مثقَّفون وَاعُونَ بخطورةِ الصوفيَّةِ على الإسلام، لذا لن يشاركوا الصوفيَّةَ في ردودِ فعلِهِمْ ضدَّ مصطفى كمال. ثم إذَا بدأ الرجلُ في قمعِ هذه القلّةِ بعد فراغهِ من النقشبنديّين، فإنَّهم لن يجدوا مفازًا للخلاصِ من بطشِهِ، وستبقى الساحةُ في نهايَةِ المطافِ خاليةً له على سعتِها، كما تحقَّق ذلك فعلاً.

لَمَّا انتهى مصطفى كمال من عَقَبَةِ النقشبنديّينَ الأكراد عام 1925م. بعد إخمادِ ثورة الشيخ سعيد الكُرْدِيّ البَالَوِيّ والمذابح التي ارْتَكَبَهَا جيشُهُ في المنطقة الكُرْدِيَّةِ وترك وراءَه أكثرَ من مائةٍ وسبعين ألفَ قتيلٍ، وجد الفرصةَ متاحةً لتحقيقِ جزءٍ كبيرٍ من أهدافِهِ وأحلامِهِ. فبدأ اوَّلاً باستغلالِ مفهوم

القوميَّة التُّرْكِيَّة في جميعِ تصريحاتِه، وتعليماتِه، وتوجيهاتِه، وهُتافاتِه، وبرامجِه السياسيَّةِ بتكرارٍ كثيفٍ وبشكلٍ غير مسبوقٍ، فتمكَّنَ بذلك من غسلِ أدمغةِ الملايينِ من العنصرِ التُّرْكِيّ، فاكتظَّتِ المقرَّراتُ التعليميّةُ والكتُبُ الْمَدْرَسِيَّةُ وحتَّى الكتبُ الدينيَّةُ ونصوصُ المحاضراتِ والقوانين والإرشاداتِ التثقيفِيَّةِ في عهدِهِ بعباراتِ التفخيمِ للإنسانِ التركيّ، وتقديسِ الشخصِيَّةِ التُّرْكِيَّة، وذكرِ أمجادِ الأتراكِ بأنَّهم أشرفُ الأممِ قاطبةً، وأفضلُها خَلْقًا وخُلُقًا، وأحسنُها نظامًا، وأعظمُها قُدرَةً، وأكثرُها شجاعةً وإقدامًا وبطولةً، وأشدُّها حزمًا وصرامةً... وأنَّ الشخصَ التركِيَّ الوحيدَ يَعْدِلُ الدُّنْيَا وما فيها! إلى غير ذلكَ من الإطراءِ والتضخيمِ والمبالغةِ والإفراط...

لقد كان الهدفُ من هذه السياسةِ: القضاءَ على الشخصيَّة العثمانيَّةِ للمواطنِ، ودمجَ جميعِ الشخصيَّات الفرعيَّةِ للأقلِّيَّاتِ في شخصيَّةٍ تُركيَّةٍ قوميَّةٍ متميَّزة. ولَمَّا كان أسلوبُهُ في تفخيمِ الشخصيَّةِ التُّرْكِيَّةِ مشوبًا باستحقارِ غيرِ الأتراكِ، أثارَ ذلك هواجسَ الغطرسةِ والإستكبارِ في نفسِ كلِّ مَنْ يعتقد أنّه تركِيُّ الأصلِ، بل حملَ كثيرًا من الأكرادِ والعربِ في الوقت ذاتِهِ على أنْ يفتخروا ويعتزُّوا بأنَّ عروقَهم يجري فيها الدمُ التركيُّ الخالِصُ الأصيلُ! إنَّما لجؤوا إلى هذهِ الحيلةِ تخلُّصًا من الإحتِقارِ والإضطهادِ والتهميش.

نجح مصطفى كمال بهذهِ الحيلةِ في كسبِ ثقةِ الأكثريَّةِ التُّرْكِيَّة، فتمكَّنَ بدعمِ هذا القطاعِ الواسعِ من تنفيذِ مشروعِهِ بكلِّ سهولةٍ. هذا ومن الجديرِ بالإشارةِ هنا؛ أنَّ جميعَ الأتراكِ بما فيهم الكثيرَ من مُعَارِضِيهِ والذين كانوا على نقيضِهِ عقيدةً وأخلاقًا وسلوكًا، أصبحوا مؤيّدين له بعد أنْ اقتنعوا بأنَّهُ مخلصٌ في قوميَّتِهِ، بل مُفْتَتِنٌ بِهَا على مستوَى الحُبِّ والتفاني، فازدادوا اعتزازًا بِقَوْمِيَّتِهِمْ، وأخذوا يرون: "أنَّ مصطفى كمالاً هو الذي احسَّهم ونبَّهَهُمْ على الجوهرِ العظيمِ الذي تجلتْ بِهِ قيمةُ الشيخصيَّةِ التُّرْكِيَّة الفذَّةِ، فظهرتْ إلى العيانِ بعد أن ظلَّتْ مجهولةً طوالَ قرون. ولولاهُ لما شعروا بأنَّهم أفضلُ الأُمَمِ، ولما عَلِمُوا أنَّهم أحفادُ أبطالٍ صنعوا التاريخَ بأمجادِهِم فركعتْ أمامَهُمْ الأممُ!"

إذن "يستحقُّ مصطفى كمال أن يُتَّخَذَ إلهًا يُعبَدُ؛ حقًّا إنَّهُ القائِدُ، وإنَّهُ الْمُرْشِدُ، وإنَّهُ المعلِّمُ المفكِّرُ، وإنَّهُ منقذُ الأُمَّةِ التُّرْكِيَّةِ من الضياعِ والفناءِ... بل إنَّهُ الإلهُ الذي خلق الشعبَ التُّرْكِيَّ من العدم!"

قد يَتَّهِمُ البعضُ مصطفى كمالاً بالفاشيَّةِ والعصبِيَّةِ الطورانيَّةِ، بينما هناك اختلافٌ بين الباحثين فيما إذا كان الرجلُ تركِيَّ الأَرُومَةِ أم يهودِيَّ الأصلِ، ولا تزالُ مسألةُ نَسَبِهِ تتوارَى بضبابٍ من الغموضِ

إلى اليومِ. هذا مع كثرةِ القيلِ والقالِ فيه. إذن يُفترضُ أنَّهُ كان يستغلُّ هذا المفهومَ ويُكْثِرُ من ذكرِ اعتزازِهِ بالقوميَّة التُّرْكِيَّة لأغراضٍ سياسيَّةٍ صرفةٍ، وليس إخلاصًا نابعًا من صميمِ قلبِهِ. غير أنَّهُ كان متسامحًا مع الفاشيّين. يدلُّ على ذلك موافقتُهُ على نصِّ اليمين الذي صاغهُ وزيرُ التعليمِ رشيد غالب[238]، وفرَضَهُ على التلامِذَةِ فِي أيَّامِ حُكمِهِ. فأصبحَ ملايينُ طلبةِ الإبتدائيَّةِ والإعداديَّةِ والثانويَّةِ مُلْزَمِينَ بأداءِ هذا القَسَمِ كُلَّ صباحٍ أمامَ مدخلِ المدرسةِ قبل الدُّخولِ في جميعِ أنحاءِ تركيا منذ عام **1933**م. إلى أن أُلغِيَ سنة **2013**م. بقرارٍ أصدرتْهُ حكومةُ رجب طيّب أردوغان.

كان هذا اليمينُ وصمةَ عارٍ على جبين الدولةِ التُّرْكِيَّةِ طِيلةَ ثمانين عامًا. لأنَّ فيه إجبارًا لكلِّ طالِبٍ أنْ يُقْسِمَ اليمينَ بأنَّهُ تُركِيُّ الأصلِ، وهذا نصُّهُ مُعَرَّبًا:

"أنا تُرْكِيٌّ مخلصٌ مجتهدٌ. مبدئِي: الشَّفَقَةُ على الصغيرِ، واحتِرَامُ الكبير، ومؤاثرةُ وطنِي وشعبِي على نفسِي. هدفِي: النهوضُ والتقدُّم. يا أتاتوركَ العظيم! سَأَسْعَى في الطريقِ الذي رَسَمْتَهُ لِي إلى الهدفِ الذي أشَرْتَ إليه. كِيَانِي فداءٌ للأُمَّةِ التُّرْكِيَّة. يا لَسَعَادَتِي أنِّي تُرْكِي.[239]"

كان مصطفى كمال يرى أنَّهُ مهدَّدٌ بخطرٍ آخرَ كبيرٍ جدًّا يتربَّصُ به وهو على وشكٍ من الوقوعِ، فلا بدَّ من التصدّي له قبلَ أنْ يتحوَّلَ إلى عَقَبَةٍ لا قِبَلَ له بِهَا. كان يَرَى هذا الخطرَ كامنًا في معارضةِ عددٍ مِنْ خصومِهِ السياسيّين الذين يُضمِرونَ له العداءَ الشديدَ، إذ كانتْ جماعةٌ منهم يعادونَهُ لغطرستِهِ، واستكبارِهِ، وانفرادِهِ بِالْحُكْمِ، وتجبُّرِهِ باستخدامِ شبكاتٍ مؤلَّفةٍ من الْمجرِمِينَ والبلْطَجِيَّةِ في القضاءِ عليهم؛ ومنهم مَن يكرهُهُ لتصرّفَاتِهِ بتغييرِ وتحريفِ القِيَمِ الدينيَّةِ والعُرفِيَّةِ واستبدالِ التقاليدِ المحلِّيَّةِ بما استوردَهُ من الغربِ؛ ومنهم مَنْ يراهُ عُنْصُرًا أجنبِيًّا مجهولَ النسَبِ جاءَ من منطقةِ بَلْقَانَ

---

[238] رشيد غالب. طبيب وسياسي تركي. وُلد عا **1893**م. في جزيرة رودوس اليونانية. كان منحدرًا من سلالة يهودية متأسلمة. بدأ دراستَه في مدرسة خاصّةٍ اسمها.Allianca İsraélite Universelle Schoul يرأسها رجل يهودِيٌّ اسمه: Edmond Rothchild. إلاَّ أنّ السلطات العثمانية أجبرتْه على الإنفصال من هذه المدرسة بحجّة أنّ الدراسةَ في مدارس اليهودِ محظورةٌ على المسلمين (بخلاف مدارس النصارى!). غير أنّ أسرة رشيد أرسلتْهُ بعد ذلك إلى معهد St. Jean Babtiste في إزمير. كانت مهمّةُ هذا المعهد تدريسُ تعاليم الإنجيل وإعداد الطلبةِ لأعمالِ التبشيرِ ونشر المسيحيّةِ. وكانت تابعةً لجمعيّة: Frère des ecole chrétiennes. ثمَّ أكمل دراستَهُ في كُلّية الطبِّ عام **1917**م. واحتلّ منصِبَ وزير التعليم في عهد مصطفى كمال. مات في أنقرة سنة **1934**م.

[239] هذا نصّ اليمين باللُّغة التُّرْكِيَّة:

“Türküm, doğruyum, çalışkanım,Yasam; küçüklerimi korumak, büyüklerimi saymak, yurdumu, milletimi özümden çok sevmektir.Ülküm; yükselmek, ileri gitmektir.Ey Büyük Atatürk!Açtığın yolda, gösterdiğin hedefe durmadan yürüyeceğime ant içerim.Varlığım Türk varlığına armağan olsun.Ne mutlu Türküm diyene”

وَفَرَضَ نفسَهُ على الشعبِ التُّرْكِيِّ في أناضول كأمرٍ واقِعٍ بحكم الظروفِ وبالتواطُؤِ مع القُوى المجَنَّدَةِ من الغرب.

كان مصطفى كمال على علمٍ بخطرِ هؤلاءِ، فأرادَ أنْ يستغلَّ الفرصةَ قبلَ أن يتغلَّبوا عليه، فبادرَ بتدبيرِ خُطَّةٍ للتخلُّصِ منهم. كانتْ هذه الخُطَّةُ تَمْثِيلِيَّةً لِمُؤَامَرَةٍ يقوم بها خصومُهُ لاغتيالِهِ في أثناءِ زيارةٍ له لِمدينةِ إزْمِير. لذا دخلتْ وقائعُ هذا الحدثِ في سجلِّ التاريخ باسْمِ "مُؤَامَرَةِ إزْمِير İzmir Suikastı". رتَّبها ودبَّرها مصطفى كمال بالذَّات، ووضعَها في حَيِّزِ التطبيق بعد أنْ حدَّدَ دورًا لكلِّ مَنْ يتورَّطُ في هذه اللُّعْبَةِ الخطيرة دون أن يكون لهم علمٌ بِمَنْ دَفَعَهُمْ إلى هذه الهاوية.

كلَّفَ مصطفى كمال امرأةً من خُلَّصِ بطانتِهِ اسْمُها ناجية نِعْمَتْ Naciye Nimet، لتتَّصلَ برجلٍ له سوابقُ يُدعى (لاَزْ إسماعيل Laz İsmail) من أهالِي مدينةِ صمسون، فَتُغْرِيَهُ لِيُوَرِّطَ ضِيَاء خرشيد Ziya Hurşit (نائبَ منطقةِ لاَزِسْتَان) في مَتَاهَةِ العمل ضدَّه، فيقوما باغتيالِهِ. وتَمَّ مشروع الخُطَّةِ طبقًا لِمَا رَسَمَهَا مصطفى كمال، وقد أدخلَ في القائمةِ عددًا من خصومِهِ الساسيِّينَ وحدَّد لكلٍّ منهم دورًا يقوم بِهَا أثناءَ مشاركتِهِ في تنفيذ الْمُؤَامَرَةِ. والخُطَّةُ – في الحقيقة –كانتْ مُرَتَّبَةً على مُستَوًى فائقٍ من الإتقانِ حيث ظلَّ المتئامرون يجهلون مصدرَ الْمُؤَامَرَةِ، لا علمَ لأحدِهِمْ بأدنى شيءٍ عن الشخصِ الذي رَسَمَ هذا السيناريو، ومَنْ ورَّطهم في الإنخراطِ إلى هذا التنظيم السرِّيِّ الخطير، فوقعوا في فخٍّ على حينِ غِرَّةٍ منهم، دون أن يعلموا مَنْ نَصَبَهُ لهم، وظلُّوا يجهلون حقيقةَ هذا الحدثِ إلى آخر أنفاسهم التي لفظوها على أعوادِ المشانق!

بدأ مصطفى كمال يراقبُ تحرَّكات أبطالِ السيناريو عن طريقِ شبكةٍ إستخباراتيَّةٍ خاصَّةٍ به، تأتيهِ بأخبارِ هؤاء المغفَّلين بصورةٍ دقيقةٍ، وقد أخذتْ احتياطاتٍ شديدةً لتشويشِ المتئامرين وإرباكِهِم وإحباطِ الْمُؤَامَرَةِ في لَحْظَتِهَا. وفعلاً داهمتْهم قواتُ الحرسِ وهم ينتظرونَ موعدَ مرورِ الموكب الذي فيه مصطفى كمال بأحدِ شوارعِ إزمير، وأُلْقِيَ القبضُ عليهم، وانتُزِعَ أخبارُ الباقين منهم، فتمَّ خشرُهم وحُمِلُوا إلى (محكمةِ التطهير İstiklal Mahkemesi)، يوم **14** حزيران/يونيو **1926**م. وتمَّ تنفيذُ إعداماتِهِمْ بسرعةٍ (حفاظًا على أسرارِ اللُّعْبَةِ!).

مُؤَامَرَةُ إزمير – في الحقيقة –كمينٌ سياسيٌّ خطيرٌ دخلَ في سجلِّ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ بعد ثلاثِ سنين من قيامِهَا نتيجةَ صراعٍ مريرٍ جرَى بين مصطفى كمال وخصومِهِ على السلطة. نجحَ الرجلُ في تنفيذِ هذه

الْمُؤَامَرَةِ التي قامَ بِحياكتِها ضدَّ نفسِهِ على أساسِ إحْباطِها في نِهايةِ اللُّعبة بطريقٍ غيرِ مباشر! فتنصَّلَ من تَبِعَاتِها بعدَ أن أوقع 19 شخصًا من أعدائِهِ ومعارضِيهِ في حبالِها وهم عنها غافلون![240]

من الجدير بالإشارةِ؛ أنَّ المحكمةَ التي نظرتْ في الدعوَى كانتْ بعيدةً كلَّ البُعدِ عن أدنى صفةٍ عُرِفَتْ بِهَا الْمَحَاكِمُ في تاريخِ القضاءِ؛ فمن غرائبِ هذه المحكمةِ، أن الْقُضَاةَ المكلَّفِين بِها لم يكن أحدُهم من رجالِ القانونِ، بل كانوا سياسيّينَ من أعضاءِ مجلس النُّوَّابِ لهم اختصاصاتٌ مختلفةٌ لا تمتُّ بصلةٍ إلى القانون! ومن غرائبِها أيضًا؛ أنَّها مَنَعَتِ المُتَّهِمِينَ من الاستعانةِ برجالِ المحاماة، والشهودِ وطلبِ الإستئنافِ...

ورد على لسانِ السفيرِ اللبنانيِّ مصطفى الزين، وهو يصوّرُ لنا المشهدَ لتلك الأيَّامِ، يقول: "راحتْ هذه الْمَحَاكِمُ تجرُّ كلَّ يومٍ مئاتِ الْمشبوهين إلى أقفاصِ الإتّهامِ وتُصْدِرُ بحقّهم الأحكامَ الصارمةَ التي كانت في مُعظمِها أحكامًا بالإعدامِ!.. كما أنَّ هذه الأحكامَ كانتْ تُصْدَرُ وَتُنَفَّذُ في نفس اليومِ الذِي بدأ فيه الْمُحَاكَمَةُ. حتَّى خَيَّمَ على البلادِ جوٌّ من الْهَلَعِ والرُّعبِ لم تُشهَدْ له مثيلاً في تاريخِها بحيث لم يَعُدْ أحدٌ يَجْرُؤُ حتَّى على حملِ عَصاةٍ في يدِهِ مَخَافةَ أنْ يُتَّهمَ بأنَّهُ يَسعَى للإخلاَلِ بالنظامِ والأمن!.." هكذا يقول مصطفى الزين الذي انبهرَ بمصطفى كمال ونظامِهِ إلى حدٍّ كلَّفَ نفسَهُ عناءَ القيام بتأليفِ كتابٍ في مناقِبِهِ، وأسهبَ في مدحِهِ والثناءِ عليه عَبْرَ هذا الكتابِ. وهكذا استطاعَ مصطفى كمال أن يُزيلَ عقبةً كبيرةً أخرى كانتْ تُقلِقُهُ أن يصطدِمَ بِها يومًا فتصدَّهُ عن سبيلِهِ. فَخَلَتْ له الساحةُ تمامًا بعد نجاحِهِ في القضاءِ على مُعظمِ خصومِهِ، فأصبح قابضًا على مقاليدِ السلطةِ بصورةٍ مطلقةٍ دون أنْ يُنافِسَه فيها أحد. فمضَى الرجلُ قُدُمًا في سياستِهِ وقد ركعتْ أمامَهُ العامَّةُ طوعًا أو كَرْهًا.

كثيرون من البَحَثَةِ والمحلّلين السياسيّين يدَّعون "أنَّ مصطفى كمالاً قام بإعادةِ بناءِ تركيا على أسسٍ جديدةٍ تجعلُها تَقِفُ في مصافِّ الدولِ العصرية المتحضِّرة".[241] بينما تبرهن التناقضاتُ الفظيعةُ التي وقعَ فيها أصحابُ مثلِ هذا الإدعاءِ، تبرهنُ على أنَّ ذلك لا أساسَ له من الصحَّةِ.

---

[240] **هذه قائمةُ خصومِهِ الذين لفظوا أنفاسَهم على اعواد المشانق قبلَ أن يتمكّنوا من معرفةِ شيءٍ حول الشخصِ الذي أعدَّ لهم هذا الكمين:**
Ziya Hurşid Bey, Laz İsmail, Gürcü Yusuf, Çopur Hilmi, Ahmed Şükrü Bey, Arif Bey, İsmail Canbulat Bey, Sarı Efe Edip Bey, Abidin Bey, Halis Turgut Bey, Rüştü Paşa, Hafız Mehmed Bey, Miralay Rasim Bey, Kara Kemal (**انتحر**), Abdulkadir Bey, Cavid Bey, Hilmi Bey, Nail Bey, Dr. Nazım Bey.

[241] **مصطفى الزين، أتاتورك وخلفاؤه ص/184. دار الكلمة للنشر. بيرون–1982م.**

إنّ سفيرَ الجمهوريَّةِ اللّبنانيّةِ مصطفى الزين الْمُعْجَبَ بمصطفى كمال أشدَّ الإعجابِ، بل الْمُنْبَهِرَ به إلى حدٍ ينشد في مدحِهِ ببيتٍ للشاعر بن بقيَّةَ وهو يقول: عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ * لَحَقٌّ أنتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ[242]. هذا الرجلُ بالذَّات يَسرِدُ قصَّةَ حفلةٍ أقامَهَا مصطفى كمال، ودعا إليها حاشيتَهُ من الوزراءِ والنوَّابِ، يقول في مقطعٍ من هذه القصَّةِ:

"كان الغازي (أي مصطفى كمال) يستقبِلُ الوافدين ببشاشةٍ لم يَرَهَا أحدٌ على وجهِهِ من قبلُ.. كما أنَّ إناقَتَهُ كانتْ فائقةَ الرَّوْعَةِ وهو بقميصِهِ الأبيضِ المنشيءِ وصدرِهِ العريضِ وقيافَةِ (الْفراكْ) الذي لم يظهر به قبل ذلك، وقد وضعَ في عُرْوَتِهِ قَرَنْفُلَةً بيضاءَ كبيرةً ممَّا زاده إنَاقَةً ومهابةً. وكان الْمَدْعُوُّون والْمَدْعوَّاتُ وهم يصافحونَهُ يشعرون بأنَّهم قد حصلوا على أكبرِ شَرَفٍ أصابوهُ في حياتِهِمْ!..."

"ثُمَّ بدأتْ أصواتُ الأنغامِ الراقصةِ تملأُ أرجاءَ الفيلاَّ، وأخذَ المدعوُّون يتقاطرون إلى حَلَبَاتِ الرقصِ وقد أخذتْهم النشوةُ بأنَّهم ضُيُوفُ الغازي. فراحوا يرقصون ويتحاضرون بِفَرَحٍ زائدٍ ويملؤون أجوافَهم بأكوابِ الشَّامْبَانْيَا والْمَآكِلِ الشهيَّةِ الفاخِرَة... وكانوا كُلَّمَا تعِبوا من الرقصِ وأرادوا أنْ يأخذوا قِسْطًا من الراحةِ أمَرَهَمْ مصطفى كمال باستئنافِ الرقصِ صائحًا فيهم: ارقصوا، ارقصوا جَمِيعًا وتمتَّعوا بِهذِهِ المناسبَةِ التي قد لا تُتاحُ لكم مرّةً أخرى!... أَظْهِروا أنَّكم قومٌ متمدّنونَ وتعرفون كيف تَحْيَوْنَ الحياةَ العصريَّةَ!"!...

إلاَّ أنَّ الرقّاصينَ أُرهِقُوا وبدأ الْعَرَقُ يتصبَّبُ من جِبَاهِهِمْ. ولكنَّ الغازِيَ لم يترُكْ لهم فُرْصَةً للرَّاحَةِ. فحتَّى الرقصُ كانَ أمرًا عسكريًّا يجبُ أن يُطاعَ ويُنَفَّذَ."

"واستمرّت الحفلةُ على هذا الشكلِ حتى بزوغِ الفجرِ وهو مَوْعِدُ تعليقِ مشانِقِ المحكومين. وكان أكثرُ المدعوّين قد لَعِبَتْ بِرؤوسِهِمْ الخمرةُ، فمنهم مَنْ انْزَوَى وتَمَدَّدَ في إحدَى الصالاتِ الصغيرَةِ ومنهم مَنْ أخذَ يَتَقَيَّءُ لكثرةِ ما أفرطَ في الأكلِ والشُّرْبِ... أمَّا (بالدعلي)[243]، فقد انبطح أرضًا

---

[242] مصطفى الزين، أتاتورك وخلفاؤه ص/**231**. دار الكلمة للنشر. بيرون–**1982**م.

[243] قد أخطأ المؤلّفُ في ضبط هذا الاسم، والصواب: هو (كَلْ عَلِي)، أي علي الأقْرَع. وهو أحد قُضاةِ محكمة التطهير المشهورين بسرعةِ إصدارِ حكم الإعدام بحق المتّهَمِين دون تأمُّلٍ وتريُّثٍ وتحقيقٍ كامل! تدلُّ كلماتُ المؤلّف مصطفى الزين – من جهةٍ أخرى – على مدى احتقار مصطفى كمال رِجَالَ دولَتِهِ، وعلى ظروفِ تلك المرحلة.

لفرطِ ما أكثرَ من الشمبانيا وراحَ يغطُّ في سباتٍ عميق.. وخرج الغازي إلى الشرفة المطلَّةِ على انقره وراحَ يتنشَّقُ الهواءَ برئَّتِهِ الواسعتين. وكانت الساعةُ قد قاربت الرابعةَ صباحًا!... فاتصل به مديرُ البوليس وأبلغَهُ أنَّ آخِرَ جُثَّةٍ من المشنوقِين قد لفظَ نفسَها الأخير. عندها دخل مصطفى كمال قاعةَ الرقصِ وأمرَ مَنْ بَقِيَ فيها من المدعوِّين بالإنصرافِ وهو في حالةِ انفعالٍ وغضبٍ شديدين. ثم شقَّ طريقَهُ إلى الطابقِ العلويِّ من الفيلاَّ فوجدَ (بالدعلي) مخمورًا عند أسفلِ الدرج. فما كان منه إلاَّ أن رَكَلَهُ بِرِجْلِهِ على قفاهُ ركلةً عنيفةً مؤلِمةً، ثم صرخ بِمَن بَقِيَ من المدعوِّين: كُلُّكُمْ كلابٌ!.. كُلُّكُمْ حقيري النفوسِ!... كُلُّكُمْ جُبَناء وتافهين!... هيَّا انصرِفوا إلى بيوتِكم!!.."[244]

إنَّ هذه القصَّةَ التي لا شكَّ في صحَّتِها لِما وردتْ في كثيرٍ من المصادر، لَغَنِيٌّ عن أيِّ تعليقٍ بقدرِ ما يدلُّ على الأسلوبِ الذي كان مصطفى كما يتعامَلُ بِهِ مع رجالٍ يحتلُّون أعَلَى مناصبَ في مجلِسِهِ وحكومتِهِ.

إنَّ هذا الاستعلاءَ والاستكبارَ كان سائدًا على جميع تصرُّفاتِهِ في تعاملِهِ وفي سياستِهِ خاصَّةً مع رجالِ الدولةِ. وأعظمُ دليلٍ على ذلكَ إعلانُهُ عن نفسِهِ أنَّه أبُ الأمَّةِ التُّرْكِيَّة واتخاذُهُ لقبَ "أتاتورك Atatürk" (أي أبو الأتراك) من تلقاءِ نفسِهِ دونَ أن يتجرَّأَ أحدٌ بأدنى انتقادٍ أو اعْتِرَاضٍ على ذلك ممَّا يدلُّ على الرُّعْبِ الذي كان يملأُ قلوبَ رجالِ الدولةِ مِنْ ظِلِّهِ.

وردَ في بعضِ الرِّوَاياتِ: أنَّ شِرْذِمَةً من الْمُدَاهِنِين وَالْمُتَمَلِّقِينَ مِمَّن كانوا يُرَاؤُونَ مصطفى كمال وينافقونه، أخذوا (بإيعاز غير مباشر وتعريض منه) يبحثون عن لقبٍ يُفَخِّمُونَهُ به لِيستغلُّوا بذلك عَاطِفَتَهُ في سبِيلِ مَصَالِحِهِم الشخصيَّةِ. فَاتَّفَقَ أنْ اقترحَ عليهم نائبُ مدينةِ قُونْيَا (نعيم حازم أونات Naim Hazım Onat)، فقال: "جديرٌ بِنَا أنْ نُلَقِّبَ غازِيَنَا العظيمَ بلقبِ (أَتَاتُورْكْ) مقابلَ

فقد أخطأ مصطفى الزين في ضبط أسْماءٍ عِدَّةٍ ذَكَرَهَا ضمنَ كتابِهِ رغم أنّ طائفةً منها عربيَّةُ الأصلِ. مثل قوله: (تَانين)، والصوابُ (طنين) مِنْ طَنَّ يَطِنُّ. وهو اسم جريدةٍ تركيّةٍ. ومن أخطائهِ قوله (سعيد خرشيد)، والصواب: (ضياء خرشيد)، وقوله (حاووز)، والصواب: (حوض)، وقوله (دنما بَهشي)، والصواب: (دُولْمَا بَخْجَه)...

هذا، وبالمناسة؛ فإن عددًا من كُتّابِ العرب الذين تناولوا قضايا الدولة التُّرْكِيَّة من أمثال مصطفى الزين، قلّمَنْ نجح منهم في إخراج أعمالِهِ بموضوعيَّةٍ والتزامٍ بمبادئ التأليفِ، فجاءت أساليبهم وعرةً، ووصفهم قاصِرًا مضطربًا وغيرَ مستوفٍ للمقصودِ في مواطن كثيرةٍ من مؤلّفاتِهم، مع أخطاءٍ كثيرة وردتْ في ثنايا تعبيراتِهم وتعليقاتِهم، كما قد فاتتْهم الْمعرفةُ بكثيرٍ من حقائقِ هذا البلدِ وشعبِهِ.

[244] مصطفى الزين، أتاتورك وخلفاؤه ص/**211**. دار الكلمة للنشر. بيرون–**1982**م.

جهودِهِ الجبَّارةِ في سبيلِ إنقاذِهِ لِلأُمَّةِ التُّرْكِيَّة واستقلاَلِهَا". عليه تمَّ إصدارُ قانونٍ خاصٍّ لِمَنْحِ مصطفى كمال هذا اللَّقَبَ بتاريخ: **24** أكتوبر **1934**م. تحت رقم/**2587**.[245]

كان مصطفى كمال داهيةً ذكيًّا جريئًا نافذَ الكلمةِ، يَهَابُهُ جميعُ رجالِ السلطةِ في عهدِهِ، ليس ذلك عن إخلاصِهم واحترامِهم له، بل خوفًا على حياتِهم، ومناصبِهم، ومصالِحِهِمْ، ومستقبلِهِمْ... لهذا؛ لو أنَّ مصطفى كمالاً أرادَ أن يُفرِغَ جهودَهُ في النهوضِ بتركيا إلى مستوَى دول الغربِ في الحضارة الإنسانيَّةِ اعتمادًا على تلك المقدرةِ العظيمَةِ التي كان يتمتَّعُ بِهَا، هل كان باستطاعتِهِ أنْ يحقِّقَ ذلك؟

إنَّ هذا السؤالَ الافتراضِيَّ – في الحقيقة – جديرٌ بالمناقشةِ لصعوبَةِ الإجابَةِ عليها. يفسِّرُ لنا مدَى هذه الصعوبَةِ إلى حدٍّ بعيد اتِّجاهُ السياسَةِ التي تبنَّاها، وأعْرَبَ عنها مِرارًا في توجيهاتِهِ، وركَّز عليها في "حَمَلاتِهِ التجديديَّةِ"؛ تدلُّ جهودُهُ وأهدافُهُ التي حقَّقَها، واسلوبُهُ وتصرُّفاتُهُ، ونظْرَتُهُ إلى غيرِهِ، تدلُّ بوضوحٍ على طبيعةِ تعامُلِهِ، كما تدلُّ على أنَّهُ لم يمارسْ سياستَهُ من منطلَقِ تفكيرٍ علمِيٍّ، أو مشاورةٍ، أو استفادةٍ من العقولِ الناضجةِ... لأنَّهُ كان مستكبِرًا جبَّارًا عاتِيًا مستبدًّا، يعتمدُ على الإكتفاءِ الذاتِيّ مغتَرًّا بفطانتِهِ ودهائِهِ وذكائِهِ ومواهِبِهِ إلى حدٍّ لم يعبأْ بالعلماءِ والخُبراءِ وأهلِ الرأيِ والنظر. بل كان في أغلبِ الأحوالِ ينطلقُ من معلوماتِهِ الشخصيَّةِ وتجارُبِهِ وخلفيَّاتِهِ فحسب.

كان شكلُ السُّلْطَةِ التي أنشأها مصطفى كمال حُكمًا عسكريًّا بحتًا لا ينازعُهُ فيه أحد. ولم يكن هو أصلاً يتبنَّى في سياسَتِهِ تحديثَ البلدِ وفق مبادِئِ الحضارةِ الغربيَّةِ. لذا، جاءتْ محاولاتُهُ مجرَّدَ تقليدٍ واقتباسٍ شَكْلِيَّيْنِ لِبعضِ مظاهرِ الْعُرفِ الْغَرْبِيِّ، وأساليبِ الْعِشْرَةِ والتصرُّفِ في العلاقاتِ فحسب؛ كإجبارِهِ النَّاسَ لُبسَ الْقُبُّعَةِ، وتشجيعِهِ إقامةَ حفلاتِ الرقصِ والْمُوسِيقَى، وإباحتِهِ المشروباتِ الروحيَّةَ، واستبدالِهِ الحروفَ اللاَّتينيَّةَ بالحروفِ العربيَّةِ، ويومَ الأحدِ بِيَوْمِ الجمعةِ للعُطلةِ، وتحويلِهِ التَّحيَّةَ الإسلاَمِيَّةَ (السلامُ عليكم) إلى (جون آيدين günaydın) أي (صباح الخير)... ونحوِ ذلك مِمَّا لا تَمُتُّ بِصِلةٍ إلى التحديثِ ولا إلى النهضةِ في واقع الأمر.

---

[245] المصدر:

Mustafa Kemal Olmak, Dr. Eren Akçiçek, Toplumsal Dönüşüm Yayınları, 1.Basım 2004. ISBN: 975-6448-56-3. Sayfa: 195-197.

وهذا نص القانون باللغة التُّرْكِيَّة:

Kanun Numarası: 2587; Kabul Tarihi: 24.11.1934; Resmî Gazete Tarihi ve No: 27.11.1934 – 2865; Yayımlandığı Düstur: Tertip:3, Cilt:16, Sayfa:4; Madde 1- Kemal öz adlı Cumhurreisimize "Atatürk" soyadı verilmiştir.; Madde 2- Bu kanun neşir tarihinden muteberdir; Madde 3- Bu kanun Büyük Millet Meclisi tarafından icra olunur.

Bu Kanun TBMM'nin 24 Kasım 1934 tarihli toplantısında oy birliği ile kabul edilmiştir. **17**Aralık 1934'te kabul edilen ikinci bir yasa ile "Mustafa Kemal'e verilen Atatürk soyadının veya bunun başına ve sonuna söz konularak yapılan adların hiç bir kimse tarafından öz yada soyadı olarak alınamayacağı" hükmü getirilmiştir.

لذا جاءت تجربتُهُ التي افْتَتَنَ بها مَنْ والاهُ، وأسْمَوْهَا بـ"التَّحْدِيثِ"، جاءتْ عقيمةً لا صلةَ لها بالحضارةِ الغربيَّةِ – على عكسِ ما فعلَتْها الدولة اليابانِيَّةُ من الأخذِ بالتطويرِ في الصناعةِ والفنِّ –، بل كانتْ للتجربَةِ الكماليَّةِ السطحيَّةِ والشكليَّةِ أثرٌ بالغٌ في تشويهِ مفهومِ النهضةِ، فَأَحْدَثَتْ مأزِقًا تورَّطتْ فيه تركيا ودخلتْ في متاهاتٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ دامتْ طوالَ قرنٍ تقريبًا إلى اليوم. تبرهن على هذه الحقيقة الْقراراتُ التي اتَّخَذَهَا مصطفى كمال في مؤتمرِ إزمير الإقتصادِيّ عام 1923م. إنَّ هذه القرارتِ لم تكن من منطَلَقِ دراسةٍ علميَّةٍ وبحثٍ عميقٍ في مدى تطابُقِها بِالْبِنْيَةِ الإقتصادِيَّةِ والإجتماعيَّةِ للمجتمعِ التُّرْكِيِّ والظروفِ العامَّةِ للبلدِ مِمَّا أدَّتْ فِيمَا بَعْدُ إلى أزماتٍ متسلسلةٍ دامَتْ إلى اليوم.[246]

ربما كانتْ لِسياسةِ مصطفى كمال الاقتصاديَّةِ بعضُ الأثرِ في فتحِ المجالِ أمامَ العنصرِ التُّرْكِيِّ للنهوضِ بنفسِهِ وقفزِهِ من دَرْكِ الفلاَّحِ الفقيرِ إلى مُستَوَى التاجرِ والصانعِ والفنِّيِّ، ولكن لم يتحقَّقْ هذا في عهدِهِ. بل حدثَ هذا التقدُّمُ إثْرَ تضييقِ الحكوماتِ التُّرْكِيَّة على الأقلِّيَاتِ المسيحيَّةِ (الرومِ منها خاصَّةً) وتَهجيرِهم إلى اليونان عَبْرَ مراحلَ مُتقاطِعَةٍ. ولهذا، لم يشعر المجتمعُ التُّرْكِيُّ بالصحوةِ الحضاريَّةِ على حقيقتِها إلاَّ بعد مرحلةٍ طويلةٍ من الصراعِ بين الأحزابِ السياسِيّةِ إلى بدايَةِ حركة

---

[246] لم يكن هذا المؤتمر وما اتُّخِذَ خلالَ اجتماعاتِهِ من القرارات إلاَّ سلسلةَ حِيَلٍ لجأ إليها الكماليّونَ لتعمية المجتمع، خاصّةً لتضليل القوى العاملةِ والجماهير الكادحةِ، وتمكينِ رموز الرأسماليّةِ من الاستغلال والاحتكار، والشعبُ المنكوبُ لا يزال يومئذ مشغولٌ بآلامِهِ. يدلُّ على هذا الواقع ما غابَ عن الأنظارِ من الحقائق وراءَ الضجيج والجلبة السائدة في أثناءِ هذا المؤتمر. وهذه خلاصتُها:

1) لم يتم تمثيل القُوى العاملةِ في المؤتمر إطلاقًا، بل أُحْضِرَتْ 5 سيّداتٍ لا علاقةَ لهنَّ بجمعيّات العمّالِ، كما لم يكن يومئذ وجود للنقابات العُمَّاليّةِ. يدلُّ على مدى تدبير الحيلةِ حضورُ هذهِ السيّداتِ الخمسِ يرأسهن رجلٌ مشبوه اسمه حسين أنيس.

2) لم يتم تنفيذ القرارات الهامّة التي اتُّخِذتْ بشأن الأراضي الزراعيّةِ فيما بعد.

3) لم يتم تحديد الأهدافِ الإقتصادِيّةِ بشكلٍ دقيق، بل أُهمِلَتْ التفاصيل في غمرة المناقشاتِ بسبب ضغوط الكماليّين وهيمنتهم على جوّ المؤتمر واحتوائهم للوسط في الحين الذي لم يكن المعارضون القلّةُ أصلاً مُتَّسِمِينَ بكفائةِ الدفاعِ عن حقوق الكادحين ولا حتى قادرين على التعبير الكافي عن أنفسهم. بل استمرّت الإجتماعات تحتَ وطأةِ التجّارِ ورموز الاستغلالِ والاحتكار.

4) تمّ تحديد مدينة إزمير لإقامة المؤتمر بقصدٍ مخصوص. لأنَّ هذه المدينةَ تقع في أقصى غربِ تركيا على مسافةِ **2000** كم. من الحدود الشرقيّةِ للبلد. فلم يتمكّن عشرات المدعوّين من الوصولِ إلى مقرّ المؤتمر، لِصعوبة السفر وَانتفاءِ وسائل النقل.

5) من أبرز ما تلبَّس به المؤتمر من الحِيَلِ: قيامُ الفريق كاظم قره بكر، بمهمَّة التمثيل عن قطاع الإنتاج والتصنيع، بينما هذه الشخصيَّةُ كان رجلاً عسكريًّا لا علاقَةَ له بأعمال التصنيع والإنتاج قيدَ نملة. كما أنَّ مثل هذا المؤتمر الهامّ الذي اشترك فيه **1135** عضوًا، ودامَ **35** يومًا (ما بين **14** يناير–**20** فبراير **1923**م.) بمجرَّدِ تعليماتٍ أصدرها مصطفى كمال دون أيِّ إبلاغٍ للحكومةِ التُّرْكِيَّة.

الإنفتاحِ أيَّامَ تُرْغُوتْ أوزال تحديدًا، واستمرَّتْ تدريجًا بدأت اليومَ تُعطِي الأملَ نسبيًّا إذا دامتِ الفرصةُ مُتاحَةً للرئيس الحالي رجب طيب أردوغان.

إنَّ من أهمِّ مواهبِ مصطفى كمال العظيمةِ؛ أنَّه اكتشفَ عقليَّةَ الإنسانِ التُّرْكِيِّ وتنبَّهَ إلى أنَّ هذه العقليَّةَ مَجْبُولَةٌ على تَأْلِيهِ الزعيمِ الجَبَّار الْمَهِيبِ الْقَوِيِّ في زعامتِهِ، الصارم في قيادَتِهِ، وأنَّ الْعُنْصُرَ التُّرْكِيَّ مستعدٌّ للافتداءِ في سبيلِ قائِدِهِ الذي يُرغِمُهُ بتسلُّطِهِ وتجبُّرِهِ.

بفضلِ هذا الاكتشافِ الْهَامِّ تابَعَ مصطفى كمال أُسْلُوبَيْنِ مختلفين متمايزين في سياستِهِ وتعامُلِهِ باعتبارِ الفَرْقِ بين علاقاتِهِ مع الخاصَّةِ وبينها مع العامَّةِ. فكان شديدَ الْحَذَرِ، محتاطًا، غيرَ متسامحٍ في علاقاتِهِ مع كبارِ السياسيِّين والعسكريِّين، لا يثِقُ بِهِمْ أبدًا، يراقبُهُمْ بِدِقَّةٍ عن طريقِ شبكةٍ استخباراتيَّةٍ مستقلَّةٍ خاصَّةٍ بِهِ، تأتِيهِ بأخبارِهم وتَحْمِيهِ عن أدنى تحرُّكٍ يستهدفُهُ، وتُحبِطُ عملَ أيِّ شخصٍ سياسيٍّ أو عسكريٍّ يقصِدُهُ بسوءٍ، فتقضي عليه في خطوتِهِ الأُولى وبسرعةِ البرقِ. بينما كان هو نفسُهُ متواضِعًا حليمًا مع العامَّةِ، يكلِّمُهُمْ بالقولِ اللَّيِّنِ، يستمِعُ إليهم بإصغاءٍ إلى آخر كلمةٍ، وأحيانًا يُمازِحُهُمْ ويتناغم مع أذواقهم بِوَقَار، لا يؤاخذُهم على هفواتِهم، يهتمُّ بأيِّ مواطنٍ يريدُ أن يقتربَ منه ويستقبِلُهُ ببشاشةٍ، وهو لا ينسى أبدًا عادَتَهُ من مدحِ الإنسانِ التُّرْكِيِّ عند لقائِهِ بأيِّ مواطنٍ عادِيٍّ حتَّى ولو كان زبَّالاً أو حمَّالاً، ويعيدُ كلمَتَهُ الشهيرةَ: "هنيئًا لكلِّ مَنْ يقولُ أنَا تُركي!"

هكذا استطاعَ أنْ يكسبَ ثِقةَ الشعبِ بهذا الأسلوبِ الْمَرِنِ فأصبح مَحْبُوبًا في قلوبِ عَامَّةِ الأتراك، مَهِيبًا لا يُعصى له أمرٌ. فلم يضرُّهُ عداءُ الخاصَّةِ الذين كانوا يكرهونَهُ ويسايرونَهُ بأَلْوَانٍ من التملُّقِ والْمُدَاهَنَةِ والنِّفَاقِ في الحين الذي يتربصون به الدوائر.

لقد كان مصطفَى كمال على علمٍ ويقينٍ تامٍّ بأنَّ الشعبَ بهيئتِهِ النفسيَّةِ والاجتماعيَّةِ حماسيُّ الروحِ، عسكرِيُّ الطبيعةِ، صوفِيُّ الْمَشْرَبِ، يستحيلُ ترويضُهُ على الصناعاتِ والفنونِ والإبداعِ بسهولةٍ وفي أمدٍ قريب. فاضطرَّ أنْ يحدِّدَ سياسَتَهُ الداخلِيَّةَ في إطارِ إنجازاتٍ شكلِيَّةٍ لا تمتُّ بصلةٍ إلى الحضارةِ الإنسانيَّةِ التى يقومُ عليه نظامُ الحياةِ في الغربِ. فلم يتجاوز "حملاتُهُ التجديديَّةُ" عن بعضِ تعديلاتٍ بسيطةٍ كتغييرِ اللِّباسِ، والحَدِّ من التزمُّتِ الدِّينِيِّ، واستبدالِ الأبجديَّةِ العربيَّةِ باللاَّتِينِيَّةِ، والسماحِ بِعَمَلِ النساءِ في الْمُؤَسَّساتِ العامَّةِ والخاصَّةِ، واقتباسِ تشريعاتٍ من الغربِ، وفرضِ المقاييس والكَيْلِ والْمَوَازِينِ العصريَّةِ، وإنشاءِ دُورٍ للأُوبِرَا والْمُوسِيقَى، وإباحة السُّفُورِ والموادِّ الروحِيَّةِ، وإنشاءِ البنوكِ، ودعمِ الفلاَّحينَ بِالْقُرُوضِ ونحوِها...

انطلق مصطفى كمال في هذهِ التعديلاتِ من استراتيجيَّةٍ تتمثَّلُ في التمسُّكِ بالقوميَّة التُّرْكِيَّة و"فصلِ الدِّينِ عن الدولةِ"، واستبدالِ بعضِ المصطلحاتِ، واعتمادِ الفكرِ الليبرالِيّ في النظام الإقتصادِيّ... لقد نجح مصطفى كمال إلى حدٍّ بعيدٍ في تحقيقِ أهدافِهِ؛ أوَّلاً بفضلِ كسبِهِ ثِقَةَ الأتراكِ الْمُسْلُمَانِ، وهم أكثريَّةُ المجتمعِ. فاتَّخذوهُ إلهًا مع اللهِ إلاَّ قِلَّةً منهم كانوا مُوَحِّدِينَ على عقيدةِ الإسلامِ الْخَالِصِ من شَوَائِبِ الإشراكِ. فَظَلَّ هؤلاءِ معارضين له إلى أن تَمَّ قمعُهُمْ وإبادَتُهُمْ عن آخرهم! أمَّا "فصلُ الدِّين عن الدولة"؛ فإنَّهُ أمرٌ معقَّدٌ لم يتمكَّن من فَهْمِهِ إلاَّ أهلُ العلمِ والخبرةِ. ذلك لأنَّ الدِّينَ لا يمكن – في الحقيقة – فصلُهُ عن الحياةِ إطلاقًا مهما حاول الإنسانُ أنْ يقطعَ الصلةَ بينَهُ وبين تصرُّفاتِهِ. إلاَّ أن تطبيقَ أحكامِ الإسلامِ كان عَفَوِيًّا عَشْوَائِيًّا في العهد العثمانِيّ بحيث يمكن أن يُقالَ أنَّ أحكامَ الدِّينِ كانتْ غيرَ مرعيَّةٍ في كثيرٍ من شؤونِ الدولةِ منذُ قرونٍ. وإذًا كان الدِّين في مفهوم العامَّةِ قاصرًا على محضِ أداءِ العباداتِ من الصومِ والصلاةِ والحجِّ والزكاةِ وذبح الأضحيةِ وما إليها من وظائف الفرد، فضلاً عن أنَّ العباداتِ كانتْ قد فقدتْ حقيقتَها وقَدَاسَتَها فَتحوَّلتْ إلى عاداتٍ وتقاليدَ وأعرافٍ في ظلِّ المذهبيَّةِ والنَّزعات الصوفِيَةِ... كما كان فِقْهُ المعاملاتِ هو الآخر قد تعرَّضَ لِتَشْوِيهٍ وإهمالٍ لم يبقَ له ضبطٌ ولا تطبيق إلاَّ في بعض البيئاتِ المحدودة. أمّا السلطةُ؛ فكانت مطلقيَّةً خارجةً عن نظام الشورى الإسلامِيّ تمامًا. إذ لم يكن للمجتمعِ فيها رأيٌ ولا خيارٌ، ولا هناك مجلسٌ ولا استشاراتٌ. أمَّا الجهادُ؛ فقد كان معَطَّلاً منذ القديم، ولم يكن الغرضُ من إعلانِ الحربِ إلاَّ الاستيلاءَ على أراضي الدولِ المجاورَةِ بذريعةٍ مَّا للحصولِ على الغنائِمِ واستعراضِ القوةِ وتسليط الهيبَةِ وإثارةِ الذُّعْرِ ونحوها...

إذًا لم يكن مصطفى كمال هو الذي فَصَلَ الدِّينَ عن الدولةِ لأوَّلِ مرَّةٍ، كما لم يكن هو قد غيَّرَ شيئًا كثيرًا سِوَى إلغاءِ بعضِ القوانين المنصوصَةِ في الشريعةِ الإسلاميَّةِ، واستبدالِ مصطلحاتٍ قديمةٍ بما يقابلها من جديدةٍ. فعلى سبيل المثال:

- ألغَى المشيخةَ الإسلاميّةَ فأقامَ مقامها رئاسَةَ الشئونِ الدِينِيَّةِ.
- أجرَى تعديلاً على قانون المحارم فألغَى حُرْمَةَ الرَّضَاعِ فحسب، معناه: أبطلَ الحكمَ الواردَ في الآية الكريمة: "وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَة" (النساء: **23**).
- ألغَى قانونَ التبنّي، فجعلَ الْمُتَبَنَّى وارثًا لِلْمُتَبَنِّي، يعني: أبطلَ قانون الميراثِ بِرُمَّتِهِ المستمدِّ من الآيات الكريمة: النساء/**7**، **11**، **176**؛ الأنفال/**75**؛ الأحزاب/**6**.

- استبدلَ يومَ الجمعةِ بيومِ الأحد لِلْعُطْلَةِ.
- حوَّل الأذانَ إلى اللُّغَةِ التُّرْكِيَّة.
- أمَرَ بِتَرْجَمَةِ القرآنِ الكريمِ إلى اللُّغَةِ التُّرْكِيَّة.

يبدو من هذه التغييراتِ والتعديلاتِ وغيرِها (في إطارِ فصلِ الدِّينِ عن شؤون الدولةِ)، أنَّهُ أبطلَ موادَّ قليلةً وردتْ في نصِّ القرآن الكريم؛ مثلَ إلغاءِ حُرْمَةِ الرَّضَاعِ، وتَوْرِيثِ الْمُتَبَنَّى لِلْمُتَبَنِّي، وإلغاءِ قانون الميراثِ. ولا شكَّ في أنَّ هذه الجُرْأَةَ منه عَبَثٌ بالدِّينِ مهما كان مقصورًا على نطاقٍ محدودٍ، يدلُّ بصراحةٍ على أنَّهُ كان قد حَلَّ بذلك ربقةَ الإسلامِ من عُنُقِهِ!.

من لَبَاقَةِ مصطفى كمال ودهائِهِ أنَّه كان قد اتَّخذ بطانةً من الأُدباءِ والشعراءِ؛ يؤلِّفونَ كُتُبًا، ويكتبون مقالاتٍ وقِصَصًا، وينشدون أشعارًا حول "بُطُولاَتِهِ، وملاحِمِهِ، والمعارِكِ التي خاضَها من أجلِ تحرير أرض الوطن!"... يُفَخِّمون فيها مكانَتَهُ، ويُعدِّدونَ مواهِبَهُ، ويذكرونَ "ما يجبُ أنْ يُعرَفَ عن شخصِيَّتِه الفذَّةِ"، ويصفونَهُ بنعوتِ الجلالِ والعظمةِ والهيبةِ، و"ما يمتاز به من الدهاءِ، والذكاءِ، والنظرِ الثاقِبِ، والقدرةِ الفائقةِ، بل ومن المعجزاتِ الباهرةِ التي تحقَّقتْ على يده مِمَّا لا يتَّصِفُ بِه إلهٌ غيرُهُ!.." وأبعدُ من ذلكَ "أنّه يخلُقُ ويُفْنِي، ويُحيي ويُميتُ، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير!!!"

هذه الشرذمة التي أخذتْ على عاتِقِهَا أنْ تجعلَ من مصطفى كمال إلهًا يُعبَدُ، بذلتْ كلَّ ما تملكُ من الإبداعِ والْمقدرَةِ الأدبيَّةِ واللَّباقةِ والتلوُّنِ في سباقِ الرِّيَاءِ والْمُدَاهَنَةِ لأجل مصالحِها الشخصيَّةِ إلى حدودِ خِسَّةِ العبوديَّةِ وبشاعَةِ النفاقِ.. وهذه أمثلةٌ منها:

أنشأ الشاعرُ بهجتْ كمال جاغلار Behçet Kemal Çağlar، أبياتًا لِتكونَ أذانًا للديانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ، وهذه كلماتُهُ التي عَرَّبْنَاهَا:

"أتاتورك أكبر، أتاتورك أكبر، إنما الموجود هو أتاتورك!
إنَّه الوليُّ، إنَّه النبيُّ، هو الصانعُ هو أتاتورك!
إنَّه الْمُهَيْمِنُ على القَدَرِ، إنّه الرائدُ للذَّكاءِ، إنَّه الملِكُ من الفطرةِ هو أتاتورك!
أحرزَ كلَّ ذلك الإنسانُ الكبيرُ، لا يعدِلُ نَفْسَهُ إلاَّ أتاتورك!
أتاتورك أكبر، أتاتورك أكبر، هو فِينَا هو أتاتورك!

دع الولِيَّ، دع النبيَّ.. هو الْمُحِبُّ لأمَّتِهِ هو أتاتورك!"[247]

***

يقول الشاعر آكا جندوز Aka Gündüz، في قصيدةٍ له:

"نحن نعبدُ أتاتورك، إنَّه كلُّ شيءٍ، إنَّه في كل مكان.
إنه الَّذي يَهُبُّ في كلِّ سماءٍ، إنَّه الذي يُقَبْقِبُ في كل سحيق".[248]

يقول الشاعر فاروق نافذ، في رَثَاءٍ عَقِبَ موتِ مصطفى كمال:

"نَعْشُكَ يتقدَّمُ في طريقٍ،
غيرِ الطَّريق الَّذي سَكَتَتْ على مداه قلوبُنَا،
بل عَبْرَ سيلٍ عارمٍ من الدموعِ.
يا أيها المنادَى الجليلُ الذي دعاه الإلهُ!
أطِلْ من السماءِ وانظُرْ،
سترى كيفَ وقفتْ قلوبُنا على صَنَمِكَ".[249]

مئاتٌ، بل آلافٌ من أنماطِ هذه التعظيماتِ والتبجيلات والتقديساتِ كُتِبَتْ في ألوان من الصياغةِ وأشكالٍ من التعبيرِ، تتنوَّعُ بين ابتهالٍ وتضرُّعٍ وتفجُّعٍ وصُّراخٍ وعويلٍ وخشوعٍ وعبودية... حُشِيَتْ

---

[247] هذا نصّ أبياته باللغة التُّرْكِيَّة (مقتبَسٌ من ديوان الشاعر بهجت كمال جاغلار):

Atatürk ekber! Atatürk ekber! Ancak O var Atatürk!
Evliya odur, Peygamber odur, Sanatkâr Atatürk.
Talihe hâkim, Zekâya önder, Doğma serdar Atatürk.
Bunları geçti insan büyüğü: Kendi kadar Atatürk!
Atatürk ekber! Atatürk ekber. Bizde O var. Atatürk!
Ne evliya, ne de peygamber.. Halkına yar Atatürk!

[248] هذا نصّ كلماته باللغة التُّرْكِيَّة:

Atatürk'ün tapkınıyız. Her şey (O)'dur. Her yerde O var.
Her gökte O eser. Her enginde O çağlar.

[249] هذا نصّ كلماته باللغة التُّرْكِيَّة:

Yürüyor, kalbimizin durduğu bir yolda değil,
Kanlı bir gözyaşı nehrinde muazzam tabutun.
Ey ilâhın yüce davetlisi, göklerden eğil,
Göreceksin, duruyor kalbimiz üstünde putun!

بِها بطونُ الكُتُبِ والصُّحُفِ والمجلاَّتِ نثرًا ونظمًا، وتُلِيَتْ على المنابر من خلالِ الخُطَبِ في الندواتِ والمحاضراتِ والحفلاتِ حتَّى غدا الفكرُ الكماليُّ دينًا متكاملاً بطقوسِهِ وآدابِهِ وقوانينه المرسومة.

بحكم هذه الدعاياتِ التي كانت تُنشَرُ عبرَ شبكةٍ إعلامِيَّةٍ كثيفةٍ ومن خلالِ المقرَّرات التعليميةِ والكُتُبِ المدرسيَّةِ، نشأ جيلٌ يسجدُ لمصطفى كمال كلَّما يُذكَرُ اسمُهُ وهو لا يزال على قيد الحياة!

هذه الدعاياتُ التي تسابقَ في تصعيدِها زمرةٌ قليلةٌ، إنَّما بهذه الطريقةِ تمكَّنوا يومئذٍ من التدرُّجِ و"أصبحوا من مشاهير أُدباءِ العالَمِ" في نظرِ المجتمع! بينما هم ضُيَّعٌ مجهولون، لا يعبأ بهم اليومَ أحد. ولكنَّ هذه الدعاياتِ رسختْ في أذهانِ الملايين وامتزجتْ بأرواحِهِمْ، وجرتْ في شرايينِهِمْ حتَّى جعلتْ من الرجلِ صنمًا حالَ بين المجتمعِ وبين كلِّ حقيقةٍ، بحيثُ لم يحفل احدٌ بمفهومِ الإسلامِ، ولا بمفهومِ العلمِ، ولا بالحرّيةِ، ولا بالكرامةِ الشخصيَّةِ، ولا بمكارمِ الأخلاقِ، ولا بالحضارةِ الإنسانيَّةِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربّي. فَاحتوتِ الكماليةُ (الأتاتُوركيةُ) كلَّ قيمةٍ للأتراكِ واستحوذتْ على حياتِهم حتَّى انضمَّتْ إلى المسلمانيَّةِ فامتزجتا في قالبٍ واحدٍ وأصبحتَا دينًا جديدًا بعد أنْ كانت السُّنّيَّةُ التُّرْكِيَّة التقليديَّةُ تعتمد على الفاشيَّةِ والإنتماءِ العثمانيِّ.

كان من حظِّ مصطفى كمال أنَّه وجدَ فرصةً ذهبيَّةً ومجالاً واسِعًا أمامَهُ وظروفًا مواتيةً بهذه الوسيلةِ لتحقيقِ كثيرٍ من أحلامِهِ. ذلك أنَّ الشعبَ كان منهارًا قد أنهكَتْهُ الحروبُ والفقرُ والمجاعةُ والجهلُ الْمُتَفَشّي، كما كانتِ العَقَبةُ الكرديَّةُ والمعارَضَةُ السياسيَّةُ مُذَلَّلَتَيْنِ. فأنشأ فلسفةً أقتنعَ الناسُ بها. وهي: "أنَّ الأتراكَ همْ أوَّلُ قومٍ وُجِدُوا على الكرةِ الأرضِيَّةِ، وأنَّ السومريّين الذين أقاموا أوَّلَ دولةٍ في تاريخِ البشرِ هم آباءُ الأتراكِ، وأنَّ الحتّيّين الذين عاشوا على أرَضِ أناضول هم مِنْ قدماء الأتراكِ، وأنَّ اللغةَ التُّرْكِيَّة هي أصلُ اللغاتِ الإنسانيَّةِ بأسرِها، وأنَّ جميعَ اللُّغاتِ نشأتْ وتطوَّرتْ وتشعَّبت منها..."

يقول محمد جميل بيهم في كتابه (العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب)، وهو يتحدَّث عن عهدِ عصمت إينونو İsmet İnönü الَّذي كان امتدادًا للعهدِ الأتاتوركِيَّةِ، يقول: "إنَّ سياسةَ الدولةِ في الناحية القوميَّة الطورانيَّة ظلَّت مرعيَّةً على ما كانتْ عليه من قبل. فقد سمعتُ السيَّد حسن قبلان وهو من كبار القضاة اللُّبْنانيّين يروي في جلسةٍ من جلساتِ (حلقة دراسات مفاهيم الحرّية) التي عُقِدَتْ بِبَيروتَ في **24** أيّار **1956**م. ويقولُ إنَّه أثناءَ وجودِهِ في تركيا شاهد كُتيبًا مدرسِيًّا ورد

فيه أنَّ آدمَ وحوَّاءَ كانا تُركِيَّيْنِ". ولَمَّا سَأَلَ أحدَ الوزراءِ عمَّا إذا كانتِ الحكومةُ تجيزُ تدريسَ هذه الأسطورةِ؟ أجابهُ الوزيرُ بالإيجابِ معلِّلاً ذلك بأنَّهم يريدونَ أن يؤمنَ الشعبُ بهذا الإعتقادِ.[250]

دخلتْ أشكالٌ من أمثالِ هذه الخرافاتِ إلى الْمُقَرَّرَاتِ التعليميَّةِ، فاستقتْ منها ملايينُ الأدمغةِ عبر ما يقاربُ من عصرٍ، فاعتقدَ جماهيرُ الناسِ بهذهِ الحكاياتِ التافهةِ، فرسختْ في عقولِهِمْ، وتشرَّبَتْها قلوبُهم، فاعتقدوها بيقينٍ وإخلاصٍ حتَّى تحوَّلت في أعماقِ كيانِهِمْ إلى إيمانٍ لا يتزعزع.

تهيَّأتِ الأسبابُ والظروفُ لمصطفى كمال على أثرِ هذهِ التطوُّراتِ أنْ يقومَ بِ"مُنْطَلَقَاتِهِ الفكريَّةِ والثقافيَّةِ وبناءِ مؤسَّساتِ الدولة المدنيَّة". فوضعَ نظامًا جديدًا للحياةِ الإجتماعِيَّةِ والإقتِصَادِيَّةِ.

وهذه أهمُّ الأعمالِ في إطارِ "حملاتِه التجديديَّةِ والإصلاحِيَّةِ" على حدِّ قول المؤرِّخين له والمتفرِّغين لتصعيدِ "إنجازاتِهِ الرائدةِ"!

1) تأسيسُ (وكالةِ أنباءِ أناضول) عام **1920**م.

2) بناءُ كُلِّيَّةِ الحقوقِ، عام **1925**م. (أول كُلِّيَّةٍ لدراساتِ القانون والأحكامِ العدلِيَّةِ. تمَّ تأسيسُهَا قبلَ وجودِ أيِّ جامعةٍ في أنقره)

3) تنفيذُ مشرعِ مزرعةِ أتاتورك على مقربةٍ من مدينةِ أنقرة عام **1925**م. مساحتُهَا: **52**كم^2. (كانت هذه الأرضُ لشخصٍ من الأثرياءِ في العهد العثماني اسْمه الحاج ضياء بيك. تمَّ تأميمُها ثم تمليكُها لمصطفى كمال من قِبَلِ حكومتِهِ!)

4) افتتاحُ مصنعِ مرينوس لِحِياكةِ السجَّادِ والمفروشاتِ في مدينة بورصا عام **1937**م.

5) تأسيسُ دارِ حمايَةِ الأطفالِ عام **1921**م.. كانت هذه المؤسَّسةُ في الحقيقةِ موجودةً في العهد العثماني باسم "جمعيَّةِ حمايَةِ الأطفالِ" منذ **1917**م.

6) تأسيسُ الخطوطِ الجوِّيَّةِ التُّرْكِيَّة عام **1935**م. بدأت الرِّحَلاَتُ الجويَّةُ بين إسطنبول وأنقره في اليوم الأَوَّل من حزيران/ يونيو **1937**م. وبلغتْ عددُهَا **306** رحلاتٍ ذهابًا وإيابًا، نُقِلَتْ عَبْرَهَا **743** مسافرًا خلالَ **9** أشهرٍ. كانت تركيا تملك **10** طائراتٍ مدنيَّةٍ في عام **1938**م.

7) إعادةُ تأسيسِ المعهدِ الدَّوْلِيِّ للإحصاء عام **1926**م. كان المعهدُ موجودًا منذ **1891**م.

---

[250] المصدر السالف ذكره، ص/**182**. طُبِعَ سنة **1957**م. اسم دار الطباعة مجهول.

8) تأسيسُ إدارةِ أعمالِ دراسةِ الكهرباءِ عام **1935**.

9) تأسيسُ مصرفِ Etibank لتمويلِ أعمالِ الطاقةِ والتعدين عام **1935**م.

10) تأسيسُ قاعاتٍ بعنوان "بيوتِ الشعب" عام **1932**م. أقيم في كلّ مدينةٍ بيتًا من هذه البيوت، "ليكون مركزًا للنهوضِ بالمستَوَى الثقافيّ للشعبِ، وتوفيرِ الوسطِ لتنشيطِ العلاقاتِ الإجتماعيَّةِ بين أفرادِ المجتمع". كان هذا هو الغرض بحسب الظاهر، إلاَّ أن هذهِ البيوتَ في الحقيقةِ أقيمتْ لترويضِ الشبابِ على الإنحلالِ باسم الْعَصْرَنَةِ، وتأمينِ انسجامِهم مع النظامِ العلمانيّ، والقضاءِ على الجوّ الدينيّ، وخلقِ جيلٍ يعتنقُ الفلسفَةَ الأتاتوركيّةَ كَدِينٍ بديلٍ عن الْمُسْلُمَانيَّةِ التَّقْلِيدِيَّة.

11) تأسيسُ معهدٍ لدراساتِ وبحوثِ الثروةِ المعدنيَّةِ عام **1935**م.

12) تأسيسُ البنكِ المركزيِّ عام **1931**م.

13) تأسيسُ معهدِ (حِفْظِ الصّحَّةِ) عام **1928**م.

14) تأسيسُ مصرفِ Sumerbank للأعمالِ المصرفيَّةِ من جانبٍ، ولتصنيعِ الأقمشةِ المحلّيَةِ وتسويقِها من جانب آخر.

15) إنشاءُ (مجمع اللُّغة التُّرْكِيَّة) لدراستِها وتطويرِهَا عام **1932**م.

16) إنشاءُ مؤسَّسَةِ دراساتِ تاريخِ الشعبِ التُّرْكِيِّ عام **1931**م.

مات مصطفى كمال عام **1938**م. وقد تحوَّلَت سياستُهُ إلى دِينٍ راسخٍ في قلوبِ ملايين الأتراكِ، كما قد تحوَّلتْ شخصيَّتُهُ إلى معبودٍ يقدِّسونه، ولا يزالون يَمْتَثِلُونَ أمامَ صُوَرِهِ وتماثيلِهِ باحترامٍ بالغٍ، ويحتفلون عند ضريحه، ويعبدونه بخشوعٍ. كما تتسابقُ الحكوماتُ في التمسُّكِ بمبادِئِهِ وسياستِهِ. يبرهن على ذلك ما يقومُ الحزبُ المعارضُ في كلّ مرحلةٍ بتوجيهِ تَهْدِيدَاتٍ شديدةٍ إلى الحزب الحاكمِ بْتُهْمَةِ عُدوُلِهِ عن سياسةِ مصطفى كمال، والاستهانَةِ بمبادئِهِ، والخروجِ على نظامِهِ! ومن أكبر الدلائل على هذه الحقيقةِ ما يدبُّ اليومَ في صفوف حزبِ العدالة والتَّنْمِيَةِ من الخوفِ والذُّعرِ بسبب ما يُلصقُ به من الخروجِ عن الخطِّ الكماليّ المقدَّس!.

اختلفت الآراءُ في سيرةِ مصطفى كمالٍ، وشيخصيَّتِهِ، وتصرُّفاتِهِ، وأخلاقِهِ، وسياستِهِ... وتضاربتْ إلى حدودٍ من الفَوْضَى حتَّى صارَ جمهورٌ من الناسِ يبالِغُونَ في وصفِهِ: أنَّهُ كان منقطعَ النظيرِ في العقلِ والذكاءِ والشجاعةِ والبطولةِ، وأنَّهُ كان أعلمَ الناسِ بِحِيَلِ الحَرْبِ وإرغامِ العدوِّ، وأشدَّهمْ نكالاً بِهِ، وأعلمَهُمْ بأساليبِ الجِدَالِ وإفحامِ الخصمِ. وغَالَى بعضُهُم في تعظيمِهِ وتقديسِهِ حتَّى وصفَهَ

بالربوبِيَّةِ والألوهيَّةِ، وجعلَ منه إلَهًا يستحقُّ أنْ يُعبَدَ! بينما رَمَتْهُ جماعةٌ بالفسقِ والزَّنْدَقَةِ والإلْحَادِ، وبعضُهُمْ اتَّهمهُ بالإجرامِ والخيانَةِ والغدرِ والْعَمَالَةِ لحسابِ دُوَلِ الغربِ والمستعمرين.

كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ انطلقَ من سببٍ ذَكَرَهُ أو كَتَمَهُ، ومِنْ حُجَّةٍ أصابَ في الدفاعِ بِهَا أو لم يُصِبْ. فهكذا كان مصطفى كمال موضوعَ خِلاَفٍ كثيفٍ، هبَّتْ حولَهُ عاصفةٌ من النقاشِ والجدالِ والنِّزاعِ بين ملايين الناسِ مِنْ مُؤيّدِيهِ ومناهضِيهِ منذ بدايَةِ أمرِهِ إلى هذه الساعةِ. أفرطَتْ في مدحِهِ وتعظيمِهِ طائِفةٌ، وفرَّطَتْ في ذمِّهِ وتشنيعِهِ طائفةٌ أخرى. وهناك مَنْ احتاطَ في القولِ عنه، فتابَعَ أسلوبًا هادِئًا، فانتقدَهُ بقدرِ ما ذكرَ من مثالِبِهِ وعيوبِهِ، ولم يكتُمْ ما بَدَا له من إيجابِيَّاتِهِ.

على أنَّنا لا نستطِيعُ الجزمَ بموافقةِ أيِّ فئةٍ من هؤلاء المختلفين فيه، غير الذي ثَبَتَ عنه في ضوءِ البراهين القاطعةِ؛ كمن نقلَ مِنْ أقوالِهِ التي كتبها بِيَمِينِهِ بالذَّات، مثل مذكراتِهِ التي أودعَها في ذِمَّةِ المتفانين في محبَّتِهِ. فلا محلَّ للشّكِّ فيما وردَ ضمن سُطورِهِ التي خطَّها بقلمِهِ، وهي محفوظةٌ إلى اليوم في خزانةٍ خاصَّةٍ داخِلَ ضريحِهِ بالعاصمةِ أنقره.

هذا واقعٌ لا مريةَ فيه. ولا يحتملُ أن يكونَ شخصٌ قد عَبَثَ بمذكّراتِهِ فوضعَ على لسانِهِ حتى كلمةً واحدةً، وقد نُشِرَتْ منها مقاطِعُ فيها ألفاظٌ لاذِعةٌ صُرِفَتْ بِجُرْأَةٍ بالغةٍ وقرأها الناسُ. ولكنَّ الكماليِّينَ لم يُنكِرُوا ذلك، ولم يقلْ أحدٌ منهم أنَّها مُفْتَرَيَاتٌ وأكاذِيبُ وُضِعَتْ على لسانِهِ، كما لم يتصدَّ أحدٌ لِبَرَائَةِ ذِمَّتِهِ من هذه الأقوال. منها على سبيل المثال: وصفُهُ للقرآنِ الكريم بِـ"خزعبلاتِ الولدِ العربي"![251] أثناءَ حوارِهِ مع كاظم قره بكر باشا، وهو يقصدُ القرآنَ والنبيَّ محمّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

أجمع كُتَّابُ سيرتِهِ على أنَّه وُلِدَ سنة **1881**م. في مدينةِ سالونيك، ونشأ في تلك المنطقةِ وقضى فيها مرحلةَ الْفُتُوَّةِ. ولكنَّهم اقتصروا على ذكر مواهبِهِ، ومدَى نجاحِهِ في الدراسةِ وتفوُّقِهِ على أصحابِهِ من الطَّلَبَةِ، ولم يطرُقْ أحدٌ منهم إلى نَسَبِهِ، ولم يذكروا أحدًا من أجدادِهِ وأسلافِ أُسْرَتِهِ؛ مِنْ أينَ ومتى انتقلوا إلى هذه المنطقة، وهل أسرتُهُ تركيّةُ الأصلِ، وهل كانتْ تدينُ بالإسلامِ قديمًا، ونحو

---

[251] هذه نصّ كلماته التي خطها بقلمه:

«-Evet Karabekir, arap oğlunun yavelerini Türk oğullarına öğretmek için Kur’an’ı Türkçeye çevirttireceğim.»
Şemseddin Guler, M. Kemal ve Din, s.63. Aspaş Printing Office İstanbul-1999.

وهذه معناها بالعربية: "نعم يا قره بكر! سَأُصْدِرُ الأمر بشأنِ ترجمة خزعبلات الولد العربي لأجل تعليمِ أبناءِ التُّرك القرآنَ"

ذلكَ مِنْ مَيِّزاتٍ اجتماعِيَّةٍ وثقافِيَّةٍ تقودُ الباحِثَ إلى كشفِ حقيقةِ هذه الشخصيَّةِ وأسرتِهِ. بل قِصَّةُ حياةِ مصطفى كمال خاليةٌ تمامًا من هذه التفاصيل. وهذا يُثِيرُ الشّكَّ فيما إذا كان معارضُوه ومناوؤوه يكذبون عليه فيما يدَّعونَ أنَّه يهودِيُّ الأصلِ! لأنَّ شخصِيَّةً كمثلِهِ وهو يمتاز بهذا القدرِ الواسعِ من الشهرةِ يجعل الناسَ يتشوَّقونَ إلى التعرُّفِ على آبائِهِ، وأسلافِهِ، وأسرتِهِ، خاصَّةً وأنَّ الذين يعظِّمونه إلى مستوَى الألوهيَّةِ، يُفتَرَضُ أنَّهم يُحبِّذون لو تعرَّفوا على آبائِهِ وأجدادِهِ لكي يُقَدِّموا لهم الشكرَ والتقديرَ، ولِيُقَبِّلوا أعتابَ أضرحتِهِمْ، ولِيُسَمَّوْا أولادَهم بأسمائِهِمْ تَيَمُّنًا بِهِمْ! كما هو حالُ الْمُنْتَسِبِينَ، والْمُحِبِّين، والْمُرِيدِين، وْالْمُتَوَسِّلِين، وَالْمَحْسُوبِين بالإنتماءِ إلى أسيادِهِم.

بعضُ الكارهِين لِمصطفى كمال، ساقَتْهم أغراضُهُم التي بنَوْها على مُبَرِّرَاتٍ من وجهة نظرِهِم، فأرادوا "أنْ يَكْشِفُوا الْعَتَمَةَ التي تَخْتَفِي ورائَها هويَّتُهُ الحقيقيَّةُ حتَّى يفتضحَ؛ لأنَّه عنصرٌ أجنبِيٌّ اندسَّ في قلبِ المجتمعِ واستغلَّ الفرصةَ فتدرَّجَ إلى قمَّةِ الدولةِ، بعد أنْ جنَى على دولةِ المسلمين وشتَّتَ شَمْلَهُمْ بالتعاوُنِ مع أعداءِ الأمَّةِ"، ونحو ذلك..

أمثالُ هذه المحاولات تُثِيرُ الانتباهَ خاصَّةً إلى حِجَجٍ تعتمِدُ عليها أصحابُها في دعواهم. يأتي على رأسِها الغموضُ الذي يحيطُ بِنَسَبِ مصطفى كمال، والأقاويلُ التي تتضاربُ فيه. والحجَّةُ الثانيةُ: هي إحدَى المدارِسِ التي أكملَ فيها قِسطًا من دراستِهِ بعد الإعدادِيَّةِ، وهي (ثانويَّةُ شَمْسِي أَفَنْدِي).

هذه المدرسةُ كانت لِطائِفةٍ من اليهودِ المتقمِّصِين بالإسلام تقيَّةً ونفاقًا، للتسلُّلِ إلى صفوفِ المسلمين والاستفادةِ من امتيازاتِهِمْ وهم يتربَّصون بهم الدوائر. كانت هذه الطائفةُ فِئَةً من السَّبَطَائيِّين، تقومُ بإعدادِ وتنشئَةِ جيلٍ يتولَّى في المستقبلِ مناصِبَ استراتيجيَّةً هامَّةً عَبْرَ سِلكِ النظامِ فيتدرَّجَ إلى قمَّتِهِ برفقٍ وحذرٍ، ليقومَ بدورِهِ يومًا تتوفَّرُ له الظروفُ فيه وتتهيَّءُ له الأسباب!

ظهرتْ فعلاً أسرارُ هذه الخُدْعَةِ فورَ قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة على أنقاضِ الدولة العثمانيَّةِ، فوثبَ هذا الجيلُ على جميع قطاعاتِ الدَّولةِ الفتيَّةِ – على حينِ غِرَّةٍ من المجتمعِ الْمُنْهارِ الذي كان يتخبَّطُ يومئذٍ في آلامِهِ –، ونَسَجَ نظامَهُ على أسُسٍ تَمَّ تخطيطُها قبل فترةٍ من الزمنِ في حجراتِ (ثانويَّةِ شَمْسِي أَفَنْدِي)!

لم يستطعْ أيُّ باحثٍ حتَّى اليومِ أنْ يكشفَ القناعَ عن وجهِ هذه المدرسةِ، ويُظْهِرَ أسرارَها على الحقيقةِ، كما لم يتمكَّنْ أحدُهُمْ من فرصةِ الحديثِ بأدنَى شيءٍ عن نسبِ مصطفى كمال، إلاَّ عبرَ قنواتِ التهامُسِ والتناجي. لأنَّ القانون رقم 5816 ينصُّ على عقوباتٍ صارمةٍ بحقّ مَنْ يتطاولُ على شخصيَّةِ مصطفى كمال، أو ينطقُ بشيءٍ يُخِلُّ بآدابِ التعظيمِ المخصوصِ به. فلم يُبدِي أحدٌ جُرأةً على البحثِ عن أصلِهِ ونسَبِهِ إلاَّ فشل في مبتغاهُ وعرض نفسَهُ للخطر.

مِنْ هؤلاءِ على سبيلِ المثالِ؛ شخصيَّةٌ من السياسيّين اسْمُهُ حسن مزارْجي Hasan Mezarcı (كان رجلاً مثقَّفًا ذكيًّا عبقريًّا مرموقًا)، أقحمَ نفسَهُ في البحثِ عن نَسَبِ مصطفى كمال، سنةَ 1997م. وهو يومئذٍ نائبٌ مُنتَخَبٌ عن مدينةِ إسطنبول من حزبِ الرفاهِ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيّ. ومَا إنْ نطقَ بأوَّلِ كلمةٍ في هذه المسألةِ حتَّى قامتِ الدنيا في جميعِ أنحاء تركيا ولم تقعد! فأُسْقِطَتْ حصانتُهُ فورًا وأُلقِيَ القبضُ عليهِ، وحَمَلَتْهُ شبكةٌ خاصَّةٌ في جهاز المخابراتِ إلى مكانٍ مجهولٍ انقطعتْ عنه الأخبارُ فترةً طويلةً، وَقضَى الرجلُ أيّامًا تحتَ التعذيبِ. قيل: "تمَّ حقنُ نوعٍ من السموم في جسدِهِ ليختلَّ به عقلُهُ فيتخبَّطَ في تصرفاتِهِ ويتحوَّلَ إلى معتوهٍ يسخرُ منه الناسُ انتقامًا للإلهِ المقدسِ!". ثُمَّ أُطلِقَ سَراحُهُ، فخرجَ في ثوبٍ غريبٍ أصفرَ اللَّوْنِ وقد فقدَ اتِّزَانَهُ وهو يُعلِنُ أنَّهُ المسيحُ بنُ مريم، فصارَ الناسُ يضحكون منه ويقولون: "أصابَتْهُ لعنةُ أتاتورك!"

***

- **السياسةُ الداخليَّةُ في عهدِ عصمت إينونو. (1938–1950م.)، ونبذة من سيرتِهِ.**

حلَّ عصمت إنونو İsmet İnönü[252] محلَّ مصطفى كمال يوم 11 نوفمبر سنة 1938م. أيْ بعدَ يومٍ مضَى على موتِهِ. فأصبحَ رئيسًا لجمهوريَّةِ تركيا نتيجةَ صراعٍ كان قائمًا بين شخصيَّتين سياسيَّتين بارزتين، وهما: القائدُ العامُّ للقوَّاتِ المسلَّحةِ التُّرْكِيَّة المشير فوزي جَقْمَقْ Fevzi Çakmak، ووزيرُ الداخليَّةِ شكري كايا Şükrü Kaya. فانتهَى الصراعُ بغلبةِ شكري كايا على فوزي جَقْمَقْ لأسبابٍ سياسيَّةٍ تتعلَّقُ بتفاصيلِ اتِّفاقِيَّةِ (مونترو).

---

252 وُلِدَ عصمت İsmet İnönü إينونو في مدينة إزمير عام **1884**م. ورد في بعض المصادر أنَّه كُردِيُّ الأصلِ، ينتمي إلى أُسرةٍ معروفةٍ باسم (آلِ كُرُوم Kürümoğulları)، من سكَّانِ مدينةِ بتليس الواقعةِ في شرقِ تركيا شِمالَ المنطقة الكردية. إلاَّ أنَّ كبيرَ هذه الأسرةِ العقيد المتقاعد محمّد أتيلاَّ كُرُوم أُغلو Mehmet Atilla Kürümoğlu رفضَ هذا الإدِّعاءَ بقطعِيَّةٍ وأكَّدَ أنَّ الأُسرةَ تُركِيَّةُ الأصلِ من قبائل الْغُزِّ المهاجرين من آسيا الوسطى عن طريق خرسان إلى قرية (كُرُوم) بجوارِ مدينة الهكَّاريَّةِ، ثمَّ توطَّنت في مدينة بتليس منذ قرون.

لقد كان فوزي جَقْمَقْ أحدَ المنافسين لِعصمتْ إنونو بصفتِهما رجلين من كبارِ العسكريّينَ يحظَى كلٌّ منهما مكانةً شبهَ مقدَّسَةٍ في الرأيِ العامِّ المحلِّيِّ، تعودُ إلى "جهودِهِمَا في قيادةِ الجيوشِ أيَّامَ الحربِ العالميّةِ الأُولى في الدفاعِ عن أرضِ الوطنِ وتحريرِها"! ولكنَّ عصمت إينونو نالَ تَأْييدَ حزبِ الشعبِ الجمهوريِّ الذي كانَ هو يحتلُّ منصِبَ الرئاسةِ له يومئذ، فأُعْلِنَ رَئيسًا للجمهوريَّةِ بعدَ أتاتورك بإجماعِ أعضاءِ مجلسِ الشعب.

لم يتميَّزْ عصمت إنونو – في الحقيقةِ – بِصفةٍ تَفَوَّقَ بها على أقرانِهِ، ولاَ كان يتمتَّعُ بثقافةٍ واسعةٍ، ولا كانَ يُتقِنُ لغةً غيرَ اللُّغةِ التُّرْكِيَّة. ولكنَّ الحظَّ حالَفَهَ دائِمًا، واتَّفقتِ الظروفُ مع تطلُّعاتِهِ وطموحاتِهِ فبرزَ في صورةِ رجلٍ سياسيٍّ غيرِ عادِيٍّ بِحُكْمِ القَدَرِ الذي فسحَ له المجالَ من غيرِ حولٍ ولا قوَّةٍ منه.

هناكَ أسرارٌ لا تزالُ تحيطُ بِعَلاَقَاتِهِ مع مصطفى كمال. لم يَقِفْ عليها إلاَّ قليلٌ من شُجعانِ الباحثين! كان عصمتْ إينون في البدايةِ من صفوةِ مصطفى كمال وأهلِ ثقتِهِ. إلاَّ أنَّ الصلةَ التي بينهما كان قد أصابَهَا شيءٌ من الزعزعةِ والإضطرابِ، خاصَّةً بعد عام **1935**م.

كان مصطفى كمال قد تنكَّرَ لصاحِبِهِ بعد هذا العامِ، ومن أسبابِهَا: أنَّ عصمت إينونو كان ضجِرًا متضيِّقًا من بعضِ تصرُّفاتِهِ، خاصَّةً أنَّ مصطفى كمالاً كان يُقيمُ سهراتٍ ويجمعُ فيها زملائَهُ الأقربين وعلى رأسِهِمْ عصمت إينونو، فيناقِشُ معهم قضايَا البلدِ وقد لعبتِ الخمرةُ برأسِهِ. فقالَ عصمت إينون ذات مرَّةٍ: "هل يجوز إدارةُ شئونِ هذا البلدِ على نطاقِهِ الواسِعِ من موضِعِ الجلوسِ على موائِدِ الْعَرَقِ![253]". فلمَّا قرعَ هذا الكلامُ سمعَ مصطفى كمال، بدأتْ علاقاتُهُ مع عصمت إينُونُو تتدهورُ، وغدا يُضمِرُ له الكراهيَّةَ فتبدو معالِمُ امتعاضهِ منه على وجهِهِ في أغلبِ الأحيان.

لقد كان مصطفى كمال غاضبًا على عصمت إنونو في آخر أيَّامِهِ التي أصابَهُ في أثنائِهَا مرضُ (التَّلَيُّفِ الكَبَدِيِّ cirrhosis)، جَرَّاءَ إدمانِهِ للخمرِ حتَّى أَلْزَمَهُ الفراشَ. فكان يكرهُ لقاءَهُ ويراهُ عقبةً على طريقِهِ إلى حدٍّ قيل "إنَّه أصدرَ تعليماتٍ إلى بِطانتِهِ يأمرُهُمْ بتصفيتِهِ جسدِيًّا. وبَقِيَ ينتظرُ الخبرَ حتَّى استفسرَ أحدَهُمْ قُبيلَ موتِهِ عمَّا إذا كان عصمتْ إينونو لا يزالُ على قيد الحياة؟".

---

[253] العرقُ: جنسٌ من الخمور التي تُصنَعُ في تركيا.

كان مصطفى كمال قد وصَّى أن يخلِفَهُ المشيرُ فوزَي جَقْمَقْ بحسبَ ما وَرَدَ على لسانِ رئيسِ قلمِهِ حسن رضا صُويَاك Hasan Rıza Soyak. كلُّ ذلك يدلُّ على مَدَى استعجالِهِ وحرصِهِ للقضاءِ على صاحِبِهِ إنْ أمْكَنَهُ ذلك، أو إبعادِهِ وسدِّ طريقِ السلطةِ عليه وإذلالِهِ لِيَتَذَوَّقَ طعمَ السعادةِ قبلَ أنْ يلفِظَ أنفاسَهُ الأخيرةَ! ولكنَّ الفرصةَ فاتَتْهُ، إذ عاجلتْهُ المنيّةُ بغتةً، فتدرَّجَ عصمت إينونو إلى سُدَّةِ الحُكمِ المطلقِ على طريقةِ صاحبِهِ بإجماعِ حزبِ الشعبِ الجمهوريّ الذي كان هو الحزبَ الوحيدَ على المسرحِ السياسِيّ يومئذٍ، وأعضاؤُهُ شرذمةٌ تسلَّقتْ إلى قِمَّةِ جبلِ السياسةِ بطرقٍ مُلْتَوِيَةٍ والشعبُ مغلوبٌ على أمرِهِ لا خيارَ له.

لذا لم يتَّسِمْ النظامُ، ولا حتَّى الدستورُ والقوانينُ يومئذٍ بأدنَى شيءٍ من الشرعيَّةِ في مصطلحِ أيِّ حُكمٍ سياسِيٍّ على وجه الأرضِ. فكانتِ السلطةُ مطلقيَّةً وأَمْرًا واقِعًا في كِلْتَيِ المرحلتينِ الكماليَّةِ والإينونيَّةِ في حقيقةِ الأمر.

أرادَ عصمت إينونو – فَوْرَ صعودِهِ إلى القصرِ الجمهوريّ – أن يكتسحَ ما أمكنه مِنْ معالِمِ شهرةِ مصطفى كمال، ليكونَ هو في الصورةِ بعد صاحِبِهِ. فأوَّلُ خطوةٍ منه في هذا الإتجاه كانَ إلغاؤُهُ صورةَ مصطفى كمالٍ من النقودِ التُّرْكِيَّة وإحلالُ صورتِهِ محلَّهَا.

لم يصرِفْ عصمت إينونو وجهَهُ عن المنهجِ السياسيّ الذي رسَمَهُ مصطفى كمال. يقوم هذا المنهجُ على ستَّةِ مبادِئَ كما هو منصوصٌ في نظام انعقادِهِ منذ **1927**م. وهي: "الجُمْهُورِيَّتِيَّةُ"، و"الشعبيَّةُ"،و"القوميَّةُ"، و"العلمانيَّةُ"، والدَوْلاَنِيَّةُ"، وَ"الثوريَّةُ"[254].لم يَنْثَنِ إينونو عن منهجِ مصطفى كمال برُمَّتِهِ، بل خالفَهُ في بعضِ جوانبهِ. ولكنَّهُ سعَى لإكمالِ ما لم ينتهِ منه صاحِبُهُ، خاصَّةً ركَّزَ اهتمامَهُ على "العلمانية اليعقوبيَّةِ Jacobin secularism"[255]، وصهرِ الأكرادِ والعربِ في الْبَوْتَقَةِ

---

[254] راجع الموقع الألكتروني للحزب عن طريق الرابط: http://www.chp.org.tr/a

[255] ورد تعليق على (العلمانية اليعقوبية) بقلم شخصيّتين من الأكاديميّين: الأستاذ الدكتور خاقان ياغوز وزميلِهِ John L. Esposito، وهذه نصُّ كلماتِهِمَا:

«Model of secularism, or laicism, which evolved in France, is antireligious and seeks to eliminate or control of religion. The second model of secularism, evolved from the Anglo-American experience, seeks to protect religions from state intervention and encourages faith-based social networking to consolidate civil society (Esposito 2001a, 9). İn short, the first model the state as the agent of social change and the source of the "Good" life, whereas the second treats the state with suspicion and sees civil society as a source of change and of the "Good" life.

Turkish secularism is based on the radical jacobin laicism that aimed to transform society through the power of the state and eliminate religion from the public sphere (Berkes 1998). This jacobin faith "in the primacy of politics and in ability of politics to reconstitute society" (Eisenstadt 1999, 73) guided Mustafa Kemal and his associates (it is this Jacobin tradition that would set a model for political action fort he İslamists, the nationalists, and the leftists). The Kemalist Project treats secularism as above and

التُّرْكِيَّة، على رغم ما قيل "إنَّه كردِيُّ الأصل"![256] إلاَّ أنَّه عَدَلَ عن المنهجِ الكماليِّ اللِّيبَرَالِيِّ، فتبنَّى (الدولانيَّةَ) في سياستِهِ الإقتصاديَّةِ، ومالَ إلى اليسارِ بعضَ الميلِ، فتضايقتْ منه الجبهةُ الرأسْماليَّةُ خاصَّةً عندما أصدرَ قانونًا يحملُ الأقلَّيةَ الثريَّةَ (من اليهود والنصارى) على دفعِ ضريبَةٍ باهظةٍ وردتْ تسميتُها في نصِّ القانون بـ(ضَرِيبَةِ الثَّرْوَةِ). كانتْ نسبتُها بالغةً جدًّا، أثقلتْ كاهلَ المكلَّفين بدفعِهَا، بل أَنْقَضَتْ ظهورَهم فاضطرَّ كثيرٌ منهم في النهايَةِ للتخلّي عن أموالِهِمْ ومُمْتَلَكَاتِهِمْ للدولةِ، أو صودِرَتْ منهم قسرًا.

هذا القانونُ الذي أُصدِرَ بتاريخ **12** نوفمبر **1942**م. تُعَدُّ كارثةً بالنسبَةِ لليهودِ والنصارَى، لأنَّ معظمَ الأثرياءِ كانوا من هاتين الطائفتين. لجأتْ جماعةٌ منهم إلى تمليكِ أموالِهِمْ وممتلكاتِهِم لبعضِ مَنْ كانوا يرجون الثقةَ والأمانةَ فيهم من الأتراك (المُسْلُمَان)، كحيلةٍ للتخلُّصِ مِنْ هذه الضريبةِ، لكِنَّ كثيرًا مِنْ هؤلاءِ خانوا أصحابَهُمْ فضربوا بِذِمَمِهِمْ عُرْضَ الحائطِ ورفضوا إعادةَ الأموالِ والممتلكاتِ إلى أصحابِها الحقيقيّين، فعظُمَتِ الكارثةُ على الأقلِّيَّاتِ المسيحيَّةِ واليهوديَّةِ.

كان الغرضُ من هذه الحملةِ – في حقيقتِها – الضغطَ على اليهودِ حتَّى يضطرُّوا للهجرةِ إلى فلسطين بغيرِ الوجهِ الذي تورَّطتْ فيه الدولةُ العثمانيّةُ في طريقةِ تَهجيرِ الأرمنِ من القتلِ والإبادةِ، لِكَي لا يُؤَدِّيَ الأمرُ إلى ردودِ فعلٍ ضدَّ تركيا على الصعيدِ الدولِيِّ. ذلك أن اليهودَ والأقلياتِ الأخرى غيرِ الْمُسْلُمَانِ والمسلمين، كانو مسيطرِين على إقتصادِ البلدِ، فيمتصون خيراتَها وقد يُهرِّبون أموالاً طائلةً إلى الخارج. قيل "تعاونتْ تركيا مع ألمانيا الهتلريَّةِ بعد إصدارِ هذا القانون لتوفير أسبابِ هجرة اليهودِ بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ ظلَّتْ أسرارُها مكتومةً إلى اليوم!". ولم يلبث طويلاً حتَّى تحقَّق الهدفُ وأُعلِنَ قيامُ الدولةِ العبريَّةِ على أرضِ فلسطين عام **1948**م. فكانت تركيا أسرعَ دولةٍ في الاعترافِ بالكيانِ الصهيونِيِّ!

---

outside politics. İn short secularism draws the boundaries of public reasoning.». Türkish Islam and Secular State. The Gulen Muvment,. Syracuse University pres (introduction), first edition 2003.

[256] المصادر:

* N. Pope, H. Pope, Turkey Unveiled: A History of Modern Turkey, Overlook Press, 1998, ISBN 1-58567-096-0, 9781585670963, p.254 (... president of republic, including Ismet Inönü and Turgut Özal, had Kurdish blood. Several cabinet miisters in 1980s and 1990s had been Kurdish...)
* The Young Turks – Children of the Borderlands? (Erik Jan Zürcher, Ekim 2002)/Retired Colonel Atilla Kürümoğlu speech.
* Burhan Kocadağ, Doğu'da Aşiretler, Kürtler, Aleviler, Second Printing, Publishing Can, ISBN 975-7812-70-6, p. 209.

لم يقتصرِ الأمرُ على تهجير اليهودِ فحسب، بل اضطرَّتِ الأقلِّيَّةُ الروميَّةُ للنُّزوحِ إلى اليونان في دُفُعَاتٍ، خاصّةً عام 1955م. عَقِبَ مؤامرةٍ مدروسةٍ دبَّرتْها (الدولةُ السرّيةُ) لِقَمْعِهِمْ، سَجَّلَهَا التاريخُ باسمِ "أحداث 6، 7 من أيلول[257]". فَخَلَتِ الساحةُ بعد ذلك للأتراك في السيطرةِ على إقتصادِ البلدِ، في الحين الذي كان الأكرادُ يتخبَّطون في غمرةٍ من مشاكِلَ إجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ وثقافِيَّةٍ أرغمتْهُمْ على الركونِ إلى الأرضِ في ظروفٍ قاسيةٍ طَوَّقتْهُمْ منذُ قرونٍ دونَ أن يتغيَّرَ منها شيءٌ.

من الحِيَلِ السيَاسِيَّةِ لتعميَةِ الرأي العامّ وغسلِ الأدمغةِ؛ أشاعتْ أجهزة النظامِ في تلك المرحلةِ "أنَّ القانونَ إنَّما أُصدِرَ من أجلِ توفيرِ المالِ اللاَّزِمِ لمواجهةِ تَبِعَاتِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ التي أوشكتْ أن تخوضَها تركيا بجانبِ حليفَتِهَا (ألمانيا)!" غيرَ أنَّ هذا القانونَ كانَ في أصدارهِ هدفٌ غير مكشوفٍ، وهو: تطهيرُ البلدِ من عناصرَ غيرِ مُعْتَنِقَةٍ لِلْمُسْلُمَانيَّةِ حتَّى تتوفَّرَ الفُرَصُ لسيطرةِ الأتراكِ على المجالِ الإقتصاديّ استكمالاً لِسُلْطَتِهم السياسيَّةِ والعسكريَّةِ، وليسهلَ بذلك صهرُ الأكرادِ والعربِ في البوتقة التُّرْكِيَّة". والحجَّةُ جاهزةٌ؛ "إنَّ الأتراكَ والأكرادَ والعربَ كلُّهم معتنقون لِلْمُسْلُمَانيَّةِ، فلا مانعَ إذنْ أنْ يجمعَهم القاسمُ المشتَرَك الذي ينسجمُ مع روحِ العصرِ ويمثّلُ الْمُسْلُمَانيَّةَ في الوقتِ ذاتِهِ. ألاَ وهو القوميَّةُ والْهُوِيّةُ التُّرْكِيَّة، كما يمكن القضاءُ على ما فَرَضَهُ القوى الرجعيَّةُ على هذا المجتمعِ من الْهُوِيَّةِ الزائفةِ التي تتمثَّلُ في الإسلام!". وهنا ينجلي للباحث الدقيقِ – مرَّةً أُخرى – الفرقُ بين الإسلام والْمُسْلُمَانيَّةِ.

لم يكنْ عصمت إينونو طورانيًّا قطُّ، ولا كان متسامحًا مع الفاشيّين الأتراك[258]. بل كان شديدًا عليهم ومسايرًا للقوميَّين المعتدلين بخلافِ مصطفى كمال الذي كان أكثرَ لباقةً منه، لتظاهرِهِ في بعضِ الأحيانِ طورانيًّا بحتًا حتَّى وصفوه بـ"الذئب الأغبر!"[259]. لكنَّ (أتاتورك) كان في عمومِ مواقفهِ شديدَ الإنتماءِ إلى القوميَّة التُّرْكِيَّة لكي يستغلَّ الفاشيّين ويكسبَ ثقتَهُمْ ويستخدمَهم في أغراضِهِ. لذلك ظلَّت التياراتُ الفاشيَّةُ تواصِلُ اعتزازَها بِمصطفى كمال في الظَّاهِرِ (أيَّامَ حُكْمِ إينونو وإلى

---

[257] «6, 7 Eylül olayları»

[258] إنَّ وثائقَ محاكمةِ الطورانيّينَ سنة 1944م. تبرهن بوضوح على سياسةِ عصمت إينونو وموقفِهِ من الفاشيّين.

[259] أُطلِقَتْ على مصطفى كمال صفةُ "الذئب الأغبر Bozkurt"، للاعتقادِ السائِدِ: أنَّه باعثُ النهضةِ التُّرْكِيَّة الحديثة، من منطلقِ الأسطورةِ التي يحفظُهَا الطِّفْلُ التُّرْكِيُّ منذ أوَّلِ يومٍ يحضرُ المدرسةَ. والأسطورةُ تروِي أنَّ الشعبَ التركِيَّ أُبيدَ عن بكرةِ أبيهِ غَيْرَ طِفْلٍ عَثَرَتْ عليه ذئبةٌ فَأَرْضَعَتْهُ وخرجَ مِنْ صُلْبِهِ الشعبُ التركِيُّ من جديد. وتسمَّى هذهِ الأسطورةُ بأسطورةِ (أَرْجَنَكُونْ Ergenekon)

اليوم). غير أنَّ الفاشِيّينَ كانوا على علمٍ بِلُعبَةِ مصطفى كمال، فإنَّ اعتزازَهُمْ به وإنْ كان تقيَّةً ونِفَاقًا من جانبٍ، ولكنْ كان تأييدًا لنِظامِهِ الذي أقامَهُ على أساسِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة رغمَ نِسْبَةِ الأتراك التي لم تتجاوز ثُلُثَ مكوِّنَاتِ المجتمعِ يومئذٍ؛ وتقديرًا لصمودِهِ ضدَّ صحوةِ الأكرادِ ونشاطاتِ الجماعاتِ الصوفِيَّةِ، والْمُتَدَيِّنِينَ، والمسلمين.

اشتدَّت معارضةُ الطورانيّينَ (الفاشِيّين الأتراك)، ضدَّ سلطةِ عصمتْ إينونو خاصَّةً أثناءَ الحربِ التي اندلعتْ بين روسيا وألمانيا يوم الأوَّلِ من شهر أيلول سنة **1939**م. بذريعةِ "أنَّ الحكومةَ التُّرْكِيَّة تتبعُ سياسةً متجاهلةً لحقوقِ الشعوبِ التُّرْكِيَّة المغتصَبَةِ والمستضعَفَةِ من قِبَلِ الاتِّحاد السوفيتِيِّ، وأنَّ الحكومةَ تتخاذَلُ أمامَ تحدِّيَاتِ هذه الدولة.". فقد كانتْ حكومةُ عصمتْ إينونو تمارسُ سياسةَ الإغضاءِ عن نشاطاتِ الشيوعيّينَ الأتراك في تلك الفترةِ. هكذا استطاعتْ أنْ تتجنَّبَ الطامَّةَ الكُبرى أيَّامَ الحربِ.

كان عهدُ إينونو (**1938–1950**م.) مرحلةَ ركودٍ وجمودٍ وانحسارٍ خسرتْ تركيا **12** عامًا من تاريخِهَا بسلبيَّاتِ هذه المرحلةِ. ذلك لَمَّا بدأتِ الدولُ الأوروبيَّةُ في العملِ لإعادةِ بنائِها بعد الدمارِ الذي لحقتْها جَرَّاءَ الحربِ العالميَّةِ الأُولى، رفضتْ التعاونَ مع تركيا، فلم تُوافقْ على انضمامِها إلى حلفِ ناتو Nato في عهدِ إينونو. ولَمَّا انعقدَ مؤتمرُ سانفرانسيسكو يوم **25** أبريل **1945**م. واتَّفقتْ دولُ الأعضاءِ على مناهضةِ أيِّ دولةٍ ترفضُ النظامَ التعدُّدِيَّ كَرَدِّ فعلٍ على ما اقْتَرَفَهُ الطاغيتان (هتلر وموصوليني) من الجناياتِ والتدميرِ والفسادِ الشاملِ، فخشِيَ عصمت إينونو أنْ يُصبحَ نظامُهُ مستهدَفًا من قِبَلِ المجتمع الدُّوَلِيِّ، فوافقَ على إجراءِ الإنتخاباتِ في تركيا عام **1946**م. إلاَّ أنَّ المؤشِّراتِ دلَّتْ على تلاعُبِ أيدٍ بالغشِّ والتزويرِ في تصنيفِ الأصواتِ، فانتهتْ بنجاحِ عصمت إينونو بصورةٍ غيرِ شرعيَّةٍ (حسب مصطلحِ الدموقراطيَّةِ!)، فكان ذلك آخرَ نجاحٍ أحرزهُ حزبُ عصمت إينونو (أي حزبُ الشعبِ الجمهورِيِّ). ثم لم يلبثْ حتَّى مُنِيَ بهزيمةٍ نكراءَ عام **1950**م. فلم يُفلِحْ حزبُ الشعبِ الجمهورِيِّ في أيِّ انتخابٍ بعد ذلكَ إلى اليوم! ولم يكن من نصيبِ هذ الحزبِ الفوزَ بالسلطةِ إلاَّ بطريقِ التحالُفِ مع أحزابٍ أخرَى ضمن حكوماتٍ ائتلافِيَّة.

كان الوضعُ الثقافِيُّ في عهدِ مصطفى كمال، كذلك في أيَّامِ حُكمِ عصمت إينونو مُصابًا بحالةٍ من التردِّي. تُشيرُ الإحصائِيَّاتُ إلى أنَّ نسبةَ الذين كانوا يُتْقِنونَ الكتابةَ والقرائَةَ لم تتجاوز أل**20**% في

بدايةِ حكمِ إينونو، وأنَّ كُلَّ هؤلاءِ كانوا يسكنون في الْمُدُنِ. يعنِي ذلك؛ أنَّ سُكَّانَ القُرى كُلَّهم تقريبًا كانوا أمِّيِّين.

لِحلِّ هذه الأزمةِ قرَّرتْ حكومةُ إينونو تنفيذَ مشروعٍ لإنشاءِ معهدٍ نموذَجِيٍّ إختصاصِيٍّ باسمِ معهدِ القريَةِ Köy Enstitüsü؛ يتمُّ فيه تدريسُ ما يحتاجُ إليه الْمُنْتِجُ الزراعِيُّ والحَيَوانِيُّ من المعلوماتِ وأنماطِ الأعمالِ والخدماتِ بصورةٍ تطبيقيَّةٍ، ثُمَّ إذا تخرَّجتْ فيه دُفعةٌ من الْمدرِّسِينَ يتمُّ توزيعُهم على القُرى والمناطقِ الريفيَّةِ، ليُعلِّموا السُّكَّانَ هناكَ الأساليبَ الفنِّيَّةَ للزراعةِ وتربيةِ المواشِي والبقرِ والدجاجِ وما إليها...

إقيمَ واحدٌ وعشرون معهدًا من هذا النوعِ في مختلفِ مناطقِ تركيا، فآتتْ ثِمارَها وكان لها دورٌ إيجابِيٌّ في النهضةِ الزراعيَّةِ، والإنتاجِ الحيوانِيّ. بيدَ أنَّ مقرَّراتِ هذه المعاهدِ كانتْ تعتمدُ على المذهب المادِّيِّ البحتِ خاليَّةً تمامًا من الإرشاداتِ الروحيَّةِ والإخلاقِيَّةِ ممَّا أسفرت عن انتشارِ الإلحادِ بين تلامذتِها، فتعدَّتْ فيما بعد إلى الطلبةِ الذين تلقَّوا تعليمَهم من خرِّيجي هذه المعاهدِ، فنشأ جَرَّاءَ ذلك جِيلٌ مُنَاهِضٌ لِلدِّين، كان لهم أثرٌ كبيرٌ في انتشارِ الإباحِيَّةِ والإنحلاَلِ بين الشبابِ عبرَ المؤسَّساتِ التعليميَّةِ. ثُمَّ تفاقمَ الأمرُ بعد فترةٍ قصيرةٍ فأفرزتْ أشكالاً من الشذوذِ السياسِيِ والإجتماعِيِّ. كانت الدعوةُ إلى الماركسيَّةِ من أهمِّ هذه التيَّارات. أدَّى هذا التطوُّرُ إلى نشوبِ النِّزاعِ الإيديولوجِيِّ والخلافاتِ السياسيَّةِ والفوضَى في العقائدِ والحياةِ الإجتماعيَّةِ على الساحة التُّرْكِيَّة.

***

- السياسةُ الداخليَّةُ في عهد مندريس وما بعده. (**1950–2013**م.)، ونبذة من سيرتِهِ.

بدأت الاستعداداتُ للتَّعَدُّدِيَّةِ في السياسةِ التُّرْكِيَّة عام **1945**م.، فاستشاطتْ التَّكَتُّلاتُ السياسيَّة في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيّ، فما لبث حتى أُعْلِنَ عن قيامِ الحزبِ الديمقراطِيِّ يوم **07** يناير **1946**م. وفاز الحزبُ في أوَّلِ إنتخاباتٍ نيابيَّةٍ بتاريخ **14** مايو **1950**م.

كانت هذه المبادرةُ في السياسةِ الداخليَّةِ أوَّلَ تجربةٍ لتأسيس نظامٍ ديمقراطِيٍّ فِي تركيا. يعود سببُ هذا التطوُّرِ إلى الضغوطِ التي كان المجتمعُ يعانِيها ويشكو الْمَلَلَ منها في عهدِ مصطفى كمال وخَلَفِهِ

عصمتْ إينونو بالاضافةِ إلى ضغوطِ المجتمعِ الدولِيِّ على تركيا، فكان مِنْ ردِّ فعلِ الشعبِ ضِدَّ سياستِهِمَا التعسفيَّةِ أنْ اختارَ الحزبَ الديمقراطيَّ للحكم.

وما إنْ احتلَّ عدنان مندريس Adnan Menderes **منصبَ رئيسِ الوزراءِ، وَغادرَ عصمت إينونو قصرَ الرئاسةِ تاركًا منصبَهُ للرئيس الجديد جَلاَلْ بَيَارْ** Celal Bayar**، اختلفتِ السياسةُ الداخليَّةُ والخارجيَّةُ نِسْبِيًّا وفقَ ظروفِ المرحلةِ، وأُلْغِيَتِ القيودُ القاسيَّةُ التي كانتْ تُقَلِّصُ من حرِّيَةِ التعبيرِ والحرِّيةِ الدينيَّةِ؛ كنقلِ الأذانِ إلى أصلِهِ العربِيِّ، ورفعِ حظرِ السفرِ للحجِّ والدراسةِ في البلادِ العربيَّة مِمَّا فتحَ المجالَ لِتَعَرُّفِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ على العربِ من جديد. فكلَّما ازدادَ عددُ الزُّوَّارِ والطلبةِ الأتراكِ إلى البلاد العربيَّة ازدادتْ معرفةُ الإنسانِ التُّرْكِيِّ بالعالَمِ العربِيِّ. كان هذا بمنزلةِ اكتشافٍ هامٍّ بالنسبةِ للأتراكِ في منتصف القرن العشرين بعد انقطاع الصلة بينهم وبين العرب منذ. تَعَرَّفُو بذلك على ما حولَهُمْ وبَدَؤُوا يُطِلّونَ على عالَمٍ يجهلونه منذ نصفِ قَرْنٍ. فتطوَّرتِ العلاقاتُ بين الأتراكِ والعربِ مع الزمان، خاصَّةً بين القاعدةِ الشعبيَّةِ من الطرفين، فكانت حافزًا مَهَّدَ السبيلَ لتخفيف السُّمْعةِ السيِّئةِ للعرب، التي اخْتَلَقَتْهَا السياسةُ السبطائيةُ في العهدِ الكمالِيِّ.**

لقد كان عهدُ مندريس يتَّسِمُ بِمُغَامَرَاتٍ وَتَنَاقُضَاتٍ أعَدَّتْ له فَشَلاً ذريعًا ومستقبَلاً مُظلِمًا ونِهايةً مأساوِيَّةً. هذا، ومن الغرابةِ بمكان؛ أنَّ جمهورَ المحافظين والصوفِيَّةِ و"الْمُتَدَيِّنِينَ" لا يزالون يصفونَ أيَّامَهُ بعهد الإزدهارِ، والإنفتاحِ، واتِّساعِ الحُرِّياتِ، وضمانِ حقوقِ الإنسان... كما يأسفون على سقوطِهِ وعاقبتِهِ الأليمةِ. إلاَّ أنَّ هذه القناعةَ عاطفيَّةٌ ناشئةٌ عن قِصَرِ النظر وسطحيَّةِ الرؤيةِ، خاليةٌ من عُمْقِ التفكيرِ في سياسةِ عدنان مندريس، وميّزاتِهِ الشخصِيَّةِ. إذ لم يكن مندريس يتَّصفُ بشخصِيَّةٍ جامِعةٍ لسماتِ الرجلِ السياسِيِّ المحنَّك في حقيقة الأمر. لذا، كانت حُظوَتُهُ من النجاحِ في أغلب الأحوالِ نتاجَ مصادفاتٍ لأحداثٍ تسلسلتْ بغرابةٍ أفرزتْها الظروفُ.

إنَّ أوَّلَ نجاحِهِ كانَ نتيجةً لِكبتِ المجتمعِ الذي بلغ منه الْمَلَلُ مبلَغَهُ في عهدِ إينونُو. فكان الناسُ يتباحثونَ عن مُنقِذٍ يُسعِفُهُمْ ولو كانَ أجنبِيًّا. فكانَ هذا المنقِذُ – من سوءِ حظِّ الشعب – هو عدنان مندريس الذي جاءت به المصادفةُ على حينٍ لا يعرفُ المجتمعُ الأُمِّيُّ شيئًا عن شخصِيَّتِهِ وخلفيَّاتِ حياتِهِ.

كان عدنان مندريس فيما سبقَ عضوًا من أعضاءِ حزبِ الشعبِ الجمهوريِّ الذي يرأسُهُ إينونو. أُنتُخِبَ نائبًا عن مدينة آيدِن عام 1931م. في أيَّام قحطِ الرجالِ! فلمَّا حلَّ عصمت إينونُو محلَّ مصطفى كمال وأرادَ أن يُؤَمِّمَ جميعَ قطاعاتِ التصنيعِ والإنتاج، وتوزيعِ أراضِي الإقطاعِيِّين على سُكَّانِ القُرَى، عارضهُ مندريس بشدَّةٍ. لأنَّ مندريس نفسَهُ كانَ أحدَ الإقطاعِيِّين. فكان قد ورثَ من جدِّهِ مزرعةَ (جَاكِيرْبَيْلِي Çakırbeyli) الواقعةِ بجوارِ مدينة آيدن مساحتُها 000 30 فدَّان. فامتلأَ إينونو حقدًا عليه يتحيَّن الفرصةَ لينتقِمَ منه يومًا تتهيَّأ فيه الأسبابُ له. وكان إينونو يومئذٍ صنمًا ثانِيًا في نظر كبارِ قادةِ الجيش التُّرْكِيِّ رغم كراهيَّةِ مُعظَمِ الشعبِ له.

فكانت مبادرةُ عدنان مندريس أوَّلَ سببٍ لِحِيَاكَةِ مؤامرةِ الإنتقامِ منه. وهي قيامُهُ بتقديمِ مذكِّرَةٍ إلى رئاسةِ مجلِسِ الشعبِ. هذه المذكِّرَةُ أعدَّها الفريقُ النيابِيُّ لِحزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ يوم 12 يونيو 1945م. صدرتْ بتوقِيعِ أربعةِ نوَّابٍ للحزبِ، وهم: جلال بايار Celal Bayar، وفؤاد كوبرولو Fuad Köprülü، وعدنان مندريس Adnan Menderes، ورفيق كورالتان Refik Koraltan .. طلبوا فيها بعضَ تعديلاتٍ للنظامِ الأساسِيِّ للحزبِ، ركَّزوا فيها على سلبيَّةِ الإستبدادِ للحزبِ الواحدِ، وضرورةِ الانتقالِ إلى التَّعَدُّدِيَّةِ. ولهذا السببِ تمَّ طردُهم من الحزب يوم 07 ديسمبر 1945م. فقاموا بتأسيسِ الحزبِ الدموقراطِيِّ في اليوم نفسِهِ. وبدأتْ منافسةٌ حادَّةٌ بين الحزبين تحوَّلتْ بدافعها المناقشاتُ بينهما في مجلس الشعبِ إلى حروبٍ كلاَمِيَّةٍ وأحيانًا إلى هجماتٍ فعليَّةٍ كان من نتائجِها الموافقةُ على إجراءِ انتخاباتٍ بَرْلَمَانِيَّةٍ سنة 1946م. انتهت بغلبة إينونو على منافِسِيهِ. قيل كانت وراءَ هذه الغلبةِ الغِشُّ والتزوير في تصنيف الأصوات.

ثمَّ أُعيدَ إجراءُ الإنتخاباتِ في 14 مايو 1950م. على أساسِ التصويتِ السِّرِّيِّ، والتصنيفِ العلنِيِّ؛ فكان نصيبُ الحزبِ الدموقراطِيِّ من الأصواتِ: 52،7%، ونصيبُ حزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ منها: 39،4%، وحصل الحزبُ الدموقراطِيُّ على 420 مقعدًا في الْبَرْلَمَان مقابل 63 مقعدًا لحزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ.

حقَّقَ الحزبُ الدموقراطِيُّ بذلك انتصارًا كبيرًا، فابتهجَ به عشراتُ الملايينِ من الجموعِ الأمِّيَّةِ والْبُسَطَاءِ، وحلَّ جلال بايار محلَّ عصمت إينونو كرئيسٍ ثالِثٍ لِجمهوريَّةِ تركيا. وصعدَ الحزبُ الدموقراطِيُّ إلى سُدَّةِ الحُكمِ برئاسةِ عدنان مندريس، وهكذا بدأت التَّعَدُّدِيَّةُ في السياسةِ التُّرْكِيَّة

خِلاَلَ جَوٍّ من العراكِ والشِّجارِ بعد 27 عامًا من قيامِ النظامِ الجديدِ الذي كان الْحُكَّامُ يَدَّعُون من ذي قبلٍ أنه نظامٌ جمهوريٌّ!.

كان من أوَّلِ ما بدأ به مندريس إلغاءُ صورةِ إينونو من النقودِ واسْتِبْدَالُهَا بصورةِ مصطفى كمال مجدَّدًا، ثُمَّ إعادةُ الأذانِ إلى العربيَّة. لكنَّهُ يُستَبْعَدُ أنْ يكونَ قد انطلقَ في هذه المبادرةِ بإخلاص. لأنَّه عمل من جانبٍ آخرَ على توطيدِ الأيديولوجيَّةِ الكماليَّةِ، وتأليهِ مصطفى كمال في أيَّامِ حُكمِهِ. يأتي على رأسِ هذه الأعمالِ: جهودُهُ لِبناءِ صرحٍ عِمْلاَقٍ دُفِنَ فيه جُثمانُ مصطفى كمال الذي كان يُحتَفَظُ بِهِ في مُتحفِ (أَتْنُوغْرَافْيَا). وقيل: تبرَّعَ مندريس بمبلغٍ يعدلُ وَارِدَهُ لشهرٍ واحدٍ، ساهمَ به في تمويلِ مشروعِ "الضريح المقدَّس Anıt Kabir**"!**

ومن تناقُضاتِهِ: أنَّهُ فتحَ المجالَ لنشاطاتِ النقشبنديِّين، ولم يكتفِ بالتساهُلِ والتسامُحِ في معاملتِهِمْ، بل ساعدَهُمْ في لَمِّ شعثِهِم بِطُرُقٍ مُلتويَةٍ خطيرةٍ، وعملَ لأجلِ انتعاشِهِم من جديد، وأغضَى عن ظهورِهِمْ إلى العلنيّةِ بعد أن كان مصطفى كمال فرَّقَ جموعَهُمْ، وأنزلَ بهم الضربةَ القاصمةَ في دياربكر Diyarbakır **(سنة 1925م.) وفي منامن** Menemen **(سنة 1930م.) وقَمَعَهُمْ بإصدارِ قانونٍ أَلْغَى به مؤسَّسَاتِهِم، وأغلقَ التكايَا والزوايَا والأرْبِطَةَ والأضْرِحَةَ والْخَانِقَاهَاتِ التي كانوا يجتمعون فيها، وتَمَّتْ مصادرةُ أوقافِهِمْ ومُمْتَلَكَاتِهِم، وأُعْلِنَ حظرُ إقامَةِ طقوسِ الصوفيَّةِ بكلِّ أشكالِها، فباتوا ممنوعين من الإجتماعِ لإقامةِ شعائرِهِمْ من الرقصِ والسماعِ وصلاةِ الرابطةِ والختمِ الخواجكانيَّةِ والتوجُّهِ واستعراضِ الشعوذةِ التي كانتْ لها أشكالٌ غريبةٌ ومُرْعِبَةٌ مثلَ طعنِ الأسياخِ في الجسمِ ومَضْغِ الزُّجَاجِ وابتلاعِ فُتَاتِهِ، والمشيِ على الجمرِ، إلى غير ذلك... فكانت قد تعطَّلتْ هذه المظاهرُ التي اختفتْ إلى اليوم، منها ما كان لغير النقشبنديّين من فِرَقِ الصوفِيَّةِ. أمَّا النقشبنديُّون فكانوا يمارسون طقوسَهُمُ الشبِيهَةَ بطقوسِ مجوسِ الهندِ في المساجِدِ، خاصّةً عقِبَ صلواتِ الفجرِ والعصرِ والعشاءِ لكي لاَ تُمَيِّزَهُمُ السُلُطَاتُ فَتَمْنَعَهُمْ. فاختلطتْ طقوسُهُم بأذكارِ المسلمين وصلواتِهِم حتى اعتادَ عليها كثيرٌ من جهلةِ المسلمين ولا يكادُ يستغربُها أحدٌ منهم بسببِ الإختلاطِ والاحتكاكِ المستمرِّ.**

استغلَّ عدنان مندريس القطاعاتِ الواسعَةَ للصوفيَّةِ، أرادَ أن يفسحَ المجالَ خاصَّةً للنقشبنديّين، لأنَّهم أكثر عددًا من إجمالِي بقيَّةِ الصوفِيَّةِ في تركيا، ومَنَحَهُمُ الحرِّيَّةَ لكسبِ أصواتِهِم في مواسمِ الإنتخاباتِ؛ ولكنَّه انطلقَ بِحيطَةٍ بالِغةٍ في بدايَةِ هذه الْمُحاولةِ لكي لا يُتَّهَمَ بالخروجِ على النظامِ

الكماليّ وقوانينِيه التي تتَّسمُ بِقَدَاسَةٍ عند الطُّغْمَة السبطائيَّةِ الحاكِمَة والْمُسَيْطِرَةِ على أجهزةِ الدولةِ بِكلِّ مرافِقِها. فعَقَدَ اجتماعًا مُغَلَّقًا مع حُكَّامِ عشرةِ ولايةٍ[260] في المنطقةِ الشرقِيَّةِ ليبحثَ معهم طريقَ السيطرةِ على الجماعاتِ النقشبنديَّةِ المُبَعْثَرَةِ في أرجاءِ البلدِ، لِتَتَمَكَّنَّ السلطةُ من استغلالِهِمْ واستخدامِهِمْ في أغراضٍ سياسيَّةٍ واستراتيجيَّةٍ! فكان مِمَّا اقْتَرَحَهُ في الاجتماعِ (باختصارٍ وشيءٍ من التصرُّفِ):

"إنَّ هذه الجماعاتِ قد بدأتْ تنتشرُ في ربوعِ المجتمَعِ بسرعةٍ وبصورةٍ عفويَّةٍ يُخشَى أنْ تَخْلُقَ عَقَبَاتٍ أمامَ حُكُومَتِنَا، بينما نحن – في واقعِ الأمرِ – بِحَاجَةٍ إلى هذا القطاعِ، إذ يُمْكِنُ الاستفادةُ منهُ إنْ قبضْنا على زمامِهِ واستخدَمْنَاهُ في كَبْحِ النشاطاتِ الممنوعةِ، وإصلاحِ النفوسِ الْجَامِحَةِ. ذلك أنَّ لِلصوفِيَّةِ دورًا هامًّا في تَهْدِئَةِ آلامِ الفاشلِين في معركة الحياةِ، وإصلاحِ مُدْمِنِي الموادِّ الروحِيَّةِ والمخدِّرات. فسيكون لِلنقشبنديّين دورٌ فعَّالٌ في حلِّ مشاكِلَ أخلاقِيَّةٍ واجتماعِيَّةٍ تُخَفِفُ العِبءَ عن كاهلِ الحكومةِ وتكفينا مُؤْنَةَ الإنْشِغَالِ بِمَا يُكَلِّفُنَا ويأخذُ من وَقْتِنَا وَيَسْتَنْزِفُ مَوَارِدَنا. إذنْ يجبُ الاستفادةُ من النقشبنديّينَ ولكن مع مراقبةِ نشاطاتِهِمْ، وإحكامِ السيطرةِ عليهم من حيث لا يشعرون!"

"فإنِّي – أيُّها السادةُ الولاةِ – أقترحُ عليكُمْ أنْ تبحثُوا أوَّلاً عن شخصٍ يَتَّسِمُ بصفاتٍ يطمئنُّ بها الْبُسَطَاءُ، لِيَلْتَفُّوا حولَهُ، فيكونُ رمزًا روحِيًّا مقدَّسًا لجميعِ هذه الطائفةِ، تَغلِبُ شهرتُهُ على شهرةِ بقيَّةِ الشيوخِ، لعلَّ يمتنعُ بذلك تعدُّدُ الجماعاتِ فتسهلَ السيطرةُ عليهم، ثُمَّ نقومُ بتوجيهِهِمْ وفقَ برنامجِ الحكومةِ. وأرَى أنْ يكونَ هذا الشخصُ الذي نتباحثُ عنه رجلاً هادِئَ الطبعِ، قليلَ الْمَعْرِفَةِ والثقافةِ، بطيءَ الحركةِ صامتًا. لأنَّ مثلَ هذا النموذجِ هو أكثرُ رواجًا بين العامَّةِ. ولأنَّ الرَّجُلَ الْمُتفتّحَ المثقَّفَ غالبًا مَّا يكون مُفَوَّهًا بليغًا سَلِسَ النطقِ كثيرَ الحديث، فيستثقِلُهُ البُسَطَاءُ، وقد لا يفهمونه، فَيَمَلُّونَ منه، فلا يكون له شأنٌ بينهم. ولكن الشخص الذي يحتلُّ مقامَ المشيخةِ فيهم إذا كان على شيءٍ من الغباوة، قابعًا، مُطرِقًا، مُسْتَغْرِقًا.. فإنَّهم ينظرون إليه بعين التوقيرِ والإجلال. يتهافتُ عليه الرَّعَاعُ من كلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، يُصبِحون رهنَ إشارَتِهِ ويُضَحُّون في سبيله... فيسهلُ عندئذٍ السيطرةُ عليه وعلى مُرِيدِيهِ."

---

[260] هذ المدن هي: ديار بكر، ماردين، أسعرد، بتليس، موش، وان، هكارية، بينكول، آغري، أرض الروم.

لقد تسرَّبتْ هذه الروايةُ بعد عشراتِ السنين على لسانِ أحدِ الولاةِ الذين حضروا الإجتماعَ يومئذٍ. ولم يقتصرِ الأمرُ على هذا القَدْرِ، بل جَنَّدَتْ حكومةُ مندريس شِرْذِمَةً من ضُبَّاطِ الصَّفِّ الْمُتَقَاعِدِينَ وشبكةً استخباراتيَّةً تَمَّ عن طريقِهِمْ العثورُ على شخصٍ وَفْقَ ما رَسَمَهُ رئيس الوزراءِ بِتَوْصِيَةٍ مِنْ والي مدينة بتليس (نادر توزون Nadir Tüzün) وذلك عام 1951م.

كان هذا الرجلُ البسيطُ المجهولُ قابعًا يومئذٍ في قريةٍ صغيرةٍ اسمُها (قَسْرِكْ) على مقربةٍ من مدينةِ بِتْلِيسَ. اختارتْه الشبكةُ شيخًا على النقشبندِيّين، فلم يلبث أنْ وجدَ نفسَهُ ملتفًّا بمعشرٍ من الناسِ في حينٍ لم يخطرْ على بالهِ قطُّ أنه سيحظَى هذا القدرَ من الشهرة يومًا من الأيَّام، وقد كان يجهلُ كلَّ مَا نَسَجَهُ فريقُ الإستخباراتِ ليجعلَ منه إلهًا يُعبَدُ في جميعِ أنحاء تركيا. إذ قامتْ الشبكةُ بتحويلِ هذه القريةِ إلى مركزٍ للنقشبنديّين، وكلَّفَتْ مئاتٍ من رجالِ الإستخبارات بتصعيدِ الدعاياتِ له، فتبعثروا إلى جميعِ الْمُدُنِ والقُرَى يجلبون آلافًا من البسطاءِ والبلطجية وَمُدْمِنِي الخمورِ والمخدِّراتِ إلى هذه القريةِ. فما لبثَ حتى طارَ صيتُ هذا الرجلِ المسكين فجاوز حدودَ البلدِ، وغلبتْ شهرتُهُ على شهرةِ جميع شيوخ النقشبنديَّةِ، واشتغلَ ملايينُ الناسِ بالحديثِ عنهُ وذكرِ "كراماتِهِ والخوارقِ التي تجرِي على يدهِ، وأنَّه الغوثُ الأعظمُ، والقُطبُ الأرشدُ، وأنَّهُ كادَ أنْ يكونَ نبيًّا لولا محمدٌ آخرُ الأنبياْ!" ونحو ذلك من الإطراءِ والمبالغةِ ما يَمُجُّهُ سمعُ الإنسانِ الرشيد.

بذلت الشبكةُ المسخَّرَةُ والعناصرُ المكلَّفةُ من قِبَل الدولةِ السِّرِّيَّةِ جهودًا بالغةً في جمعِ أكبرِ قَدْرٍ من الناسِ إلى هذا المركزِ، فَتَوَافَدَ مئاتُ القاصدين يوميًّا إلى هذه القريَةِ الصغيرةِ المجهولةِ من قبلُ والنائيةِ عن المناطقِ المتحضّرَةِ، حتى ضاقتْ بِهِم المكانُ. ثُمَّ بعد عهدِ مندريس تَمَّ نقلُ المركزِ إلى قريَةٍ أُخرَى اسْمُها (غدير)، ثُمَّ إلى قريةِ (مَنْزِل) بجوارِ مدينةِ (آدِيَمَانْ)..

لا يزالُ هذا المركزُ مقصِدًّا لآلافِ الناس الذين يُعَانُونَ متاعبَ الحياةِ وشقاءَها، يتباحثون عن مُنْقِذٍ يأخذُ بأيديهم ويُوَاسِيهِمْ ويُخَفِّفُ من آلامِهِمْ؛ كالْمُفْلِسينَ في تِجَارَتِهِمْ، وأفرادِ الأُسَرِ الْمُتَشَتِّتَةِ بعد الطلاقِ، والطلبةِ الفاشلين في دِرَاسَاتِهِمْ، والْمَنْكُوبِين، والْمُصَابِين بْالْهَلَوَسَةِ وَالْوَسَاوِسِ وَالْمَشَاكِلِ النَّفْسِيَّةِ... فوصل الأمرُ بالناس إلى حدٍّ انجرفَ من وراءِ هذه الدعايات حتى المثقَّفون ورجالُ الأعمالِ والأكاديميُون فيما بعد، ولا يزال الأمرُ متفاقمًا إلى حدٍ لو جاءَ أستاذٌ جامعيٌّ، أو طبيبٌ، أو مهندسٌ، وعاينَ هذا المشهدَ الْمُكْتَظَّ بحشودٍ توافدوا من كلِّ أنحاءِ البلدِ حتى انبهرَ وقال في نفسه "لا بدَّ أنْ يكونَ في هذا حكمةٌ لا يبلُغُهَا عقولُنا!".

كان عدنان مندريس قد نجحَ يومئذٍ في تنفيذِ هذا المشروعِ، فاستطاعَ أن يحافظَ على مركزه عَشْرَ سنين بِدَعْمِ الملايينِ من أصحابِ هذه العقليَّةِ الذين ساندوهُ بأصواتِهِمْ على صناديقِ الإقتراعِ. ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يُنقِذوهُ من مداهمةِ الجيشِ مَقَرَّ حكومتِهِ وإلقاءِ القبضِ عليه وتنفيذِ حُكْمِ الإعدامِ فيه يوم **17** أيلول **1961**م.

كان مندريس يحاول أنْ يُظهِرَ جُرأتَهُ وسطوتَهُ على الجيشِ وهو يتجاهلُ أنَّ الجيشَ كانَ هو الذي يحكم البلدَ منذ أوَّلِ يومٍ أُعلِنَ فيه قيام الجمهوريَّةِ! وأنَّ حكومَتَهُ هي أوَّلُ سُلطةٍ تسلَّمَ الحكمَ باختيار الشعب، ولكنْ في ظلِّ الجيش.

لقد كان مندريس مُغتراً بجماهيرِ الْمَدَنِيّينَ العُزَّلِ الذين أيَّدوه والتفُّوا حولَهُ، والسلاحُ بيَدِ الجيش الذي يراقِبُهُ في كلِّ لحظةٍ ويتفقَّد ظِلَّ عصمت إينونو. في مثلِ هذهِ الظروفِ التي لم يزلْ المجتمعُ في غُبارِهِ يتخبَّطُ ويجهل مَعَانِيَ الحرّية ويتهيَّبُ ظلَّ الجيش، في مثلِ هذهِ الظروفِ أقدَمَ مندريس على إصدارِ قرارٍ بتاريخ: **06** يونيو **1950**م. أحالَ بموجبِهِ القائدَ العامَّ للقوَّاتِ المسلَّحةِ الفريقَ نافذ كورمان و**15** جنرالاً و**150** عقيدًا إلى التقاعُدِ، بتُهْمَةِ أنَّهم كانوا مستعدِّين للقيامِ بانقلابٍ عسكرِيٍّ للإطاحةِ بحكومتِهِ المنتخَبَة.

تخبَّطَ عدنان مندريس في كثيرٍ من قراراتِهِ، فأوقعتْهُ في أزماتٍ حادَّةٍ رغمَ تأييدِ الجناحِ المحافظِ له (وهو الأكثريَّةُ الساحقةُ في تركيا). فاستطاعَ بفضلِ هذا الدعمِ الشعبِيِّ الغالبِ أنْ ينجحَ ثلاثَ مرَّاتٍ في الانتخاباتِ الْبَرْلَمَانيَّة (عام **1950**، و**1954**، و**1957**م.). غير أنَّ سياستَهُ كانتْ خاليةً من الحكمةِ، خاصَّةً استهانتُهُ بالجنرالاتِ جلبتْ عليهِ غضبَ كبارِ قادةِ الجيشِ، فأصبحَ مهدَّدًا في كلِّ لحظةٍ وهو لا يزالُ يُغامِرُ بِهَفَوَاتِهِ؛ منها: قولُهُ في أحدِ تصريحاتِهِ: "إنِّي لقادرٌ على إدارَةِ الجيشِ بقيادةِ الضُّبَّاطِ الإحتياطيّين فحسب!". فأعلنَ أنَّهُ يستغني عن جميعِ الضُّبَّاطِ الإختصاصيّين من الجنرالاتِ والخُبراء العسكريّين ومَنْ دونهم من أصحابِ الرُّتَبِ! فزرعتْ هذه الكلماتُ الجريئَةُ الضغينَةَ في نفوسِهِمْ، فأخذوا يُبطِنونَ له الحقدَ ويتحيَّنون فرصةً مناسبةً لينقضُّوا على حكومتِهِ فيُطيحوا بها، كما حدثَ ذلك عام **1960**م.

***

الإنقلاباتُ العسكريَّةُ

إنَّ الإنقلابَ العسكريَّ (في أيِّ بلدٍ من بلدانِ العَالَمِ): هو محاولةٌ مسلَّحةٌ سياسيَّةٌ (وليستْ أمنيَّةً في حقيقتِها)، يخوضُها الجيشُ لإنقاذِ الإستبدادِ عندَ صِراعِهِ مع الفوضَى. هذا هو التعريف الوحيدُ والصحيحُ والأوجزُ لِظاهرةِ الإنقلابِ العسكرِيِّ.

بينما القوَّاتُ المسلَّحةُ، مُهِمَّتُها الأصلِيَّةُ الوحيدةُ هي: المرابطةُ على حدودِ البلدِ، لِمَنْعِ أيِّ تسرُّبٍ أجنبِيٍّ إلى الداخِلِ؛ والدِّفاعُ عن الوطنِ والمُجْتَمَعِ في مواجهةِ تحدِّياتِ العدُوِّ. إذنْ ليسَ من إختصاصِ الجيشِ أصلاً مُمَارَسَةُ السياسةِ بحالٍ من الأحوال. بل يجبُ أنْ يكونَ خاضِعًا لأوامرِ الحكومةِ المدنيَّةِ الْمُنْبَثَقَةِ من مجلِسِ الأُمَّةِ على أساسِ الشورى. ذلك، لأنَّ القوَّاتِ المسَلَّحَةَ جهازٌ محضٌ من أجهزةِ الدولةِ الْمَدَنِيَّةِ، تتصرَّفُ في توجيهِهِ وتحديدِ مسؤولِيَّتِهِ الحكومةُ الْبَرْلَمَانيةُ "وفقَ مبادئ الديموقراطِيَّةِ المعاصرة".

غير أنَّ الجيشَ التركِيَّ لم يلتزمْ بهذهِ الضوابطِ منذُ قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ إلى أيَّامِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ برئاسةِ رجب طيِّب أردوغان، بل كانتْ القوَّاتُ المسلَّحةُ التُّرْكِيَّة طامعةً في الاستئثارِ بالسلطةِ، مُهَيْمِنَةً دائِمًا على الحكوماتِ المنتخَبَة بذريعةٍ مَّا؛ تارةً تُوَجِّهُهَا وتُمْلِي عليها الأمورَ والأوامِرَ، وتارةً تُهَدِّدُها بتهمة الْعُدُولِ عن الأيديولوجيَّةِ الأتاتوركيَّةِ، وتارةً تَتَّهِمُها بالتواطُؤِ مع الحركةِ الإسلاميَّةِ، فاغتصبتْ السلطةَ عدَّةَ مرَّاتٍ وأطاحتْ بالحكوماتِ بهذه الحجج.

إنَّ رغبةَ الجيشِ التُّرْكِيِّ في الهيمنةِ على الدَّولةِ، هي أصلاً نَزْعَةٌ شِبهُ جِبِلِّيَّةٍ لها صلةٌ بالإرثِ التاريخِيِّ. وهذه حالةٌ مرضيَّةٌ تصيبُ الدُّوَلَ الناميةَ خاصَّةً منها الدولة التركية. ومِنْ أكثرِ سُبُلِ فسادِ الحكمِ انتشارًا فى البلدانِ الناميةِ: تَحَوُّرُ وظائفِ جِهَازَيِ الجيشِ والشرطةِ، وَنُمُوُّهُمَا سَرَطَانِيًّا، بحيث يُصبحانِ أجهزةً لحمايةِ هيكلِ قُوَّةٍ قهريَّةٍ، تسيطرُ على مقدراتِ المجتمعِ، وَيُهَمِّشُ الناسَ، أو يَقْمَعُهُمْ عسفًا إنْ اقتضَى الأَمر."

فطالَمَا كان الجيشُ التركِيُّ يطمعُ التسلُّطَ والهيمنةَ على الدولةِ بصورةٍ اعتياديَّةٍ كشعورٍ مستوحاةٍ من الجيش العثمانِيّ (الإنكشاريةِ Yeniçeri) الذي كان قد تَحَوَّلَ إلى مركزِ قوَّةٍ نغصَ حياةَ الدولةِ العثمانيَّةِ، واشتهرَ بِتَمَرُّدِهِ وثوراتِهِ، وأصبحَ مصدرًا لِلْفِتَنِ والقلاقِلِ. إذ كان الإنكشاريُّون يَزُجُّونَ بأنفسِهِمْ في السياسَةِ الْعُلْيَا للدولةِ وفيما لا يعنيهِمْ من أمورِ الْحُكْمِ والسلطان؛ فكانوا يطالبون بخلعِ السلطانِ القائمِ بِالْحُكْمِ، وَيُوَلُّونَ غَيْرَهُ، ويأخذون العطايا عند توِلّي كلِّ سلطانٍ جديد...

هذه النَّزعةُ تأصَّلَتْ في قادةِ الجيشِ التُّرْكِيِّ، كذلك في العهدِ الجمهورِيّ، كطبيعةٍ موروثةٍ من أسلافِهِمْ، فلم تسمحْ لهم مشاعرُهُمْ أنْ يلتزموا جانبَ السمعِ والطاعةِ للحكومةِ باعتبارِها "قلَّةً مكوَّنةً من شخصيَّاتٍ مَدَنِيِّينَ يَرْتَدُونَ من ثيابِ العامَّةِ بخلافِ ما يمتازون هُمْ بِهِ من الأزياءِ العسكريَّةِ الْمُزَيَّنَةِ بالأَوْسِمَةِ والنَّيَاشِينِ والْمِيدَالِيَّات! وما يَشُدُّ ساعِدَهُمْ من الهيبةِ والسلاحِ والعتاد..."

فلمَّا قفزتْ تركيا إلى مستوَى التَّعَدُّدِيَّةِ عام **1946**م. وبدأتْ أصواتُ الْمَدَنِيّنَ ترتفعُ على الصعيد السياسِيّ، أَخَذَ القلقُ يدبُّ في نفوسِ قادةِ الجيشِ موازِيًا لهذا التطوُّر، فَأَنْتَابَهُمُ الْجَزْعُ وهم يبحثونَ عن ذريعةٍ لِيهدِّدُوا بِهَا الحكومةَ فترضخَ لهم، فجعلَ الجيشُ يتنكَّرُ للحكومةِ ويتحيَّنُ الفرصةَ لِيُثبِتَ عليها ذنبًا فيرمِيَها بالخروجِ على الأتاتوركيَّةِ، والاستهانَةِ بِمَبَادِئِهَا! لأنَّ ذلك يُعَدُّ أكبرَ خِيَانةٍ للدَّولة التُّرْكِيَّة، وأعظمَ جريمةٍ يرتكبُها أيُّ شخصٍ أو منظَّمةٍ ضِدَّهَا.

إلاَّ أنَّ رئيسَ الوزراءِ ورئيسَ الحزبِ الديموقراطِيّ عدنان مندريس لم يكن يعبأُ بمؤشِّرَاتِ الخطرِ الدَّاهِمِ أنْ يفاجأَهُ يومًا على حين غِرَّةٍ منه، فكان مُعْتَزًّا بالحشودِ التي تُصَفِّقُ له أيَّامَ الإنتخاباتِ، لا يُفكِّرُ في أنَّ الشعبَ العازِلَ غيرُ قادرٍ على الدِّفَاعِ عن نفسِهِ أمامَ هذا المَعْشَرِ الْمُسَلَّحِ، فضلاً عن الدِّفَاعِ عنه، وعاجزٌ كلَّ العجزِ عن تحريكِ أيِّ ساكنٍ خاصَّةً أمامَ أفواجٍ من المُسَلَّحِينَ يوم تخرجُ إلى الشوارِعِ وَتَنْصَبُّ إلى الساحاتِ كالسيلِ العرِمِ، وتَدُكُّ الأرضَ بِدَبَّابَاتِهَا لِتَسْحَقَ كلَّ مَنْ يعترضُها!

تلكَ طبيعةُ الجيش التُّرْكِيّ، وبهذه المناسَبَةِ يجبُ أنْ لا ننسَى أنَّ الأتراكَ بعد أنْ اعتنقوا الإسلامَ كانوا دائمًا هُمُ الذين ظهروا في مقدِّمةِ الفئاتِ العرقِيَّةِ أثناءَ الفتوحاتِ عَبْرَ تاريخِ الدولةِ الإسلامِيَّةِ منذُ عهدِ العبَّاسِيّينَ. لأنَّ الإنسانَ التُّرْكِيَّ يكادُ يكونُ أفضَلَ وأنجحَ عنصرٍ في الدِّفَاعِ الْمُسلَّحِ كما وَرَدَ في كتابِ "مناقبِ الأتراكِ للجاحظ. وكأنَّهُ خُلِقَ لهذه المهمَّةِ. ولأنَّ الأتراكَ كانوا أتقنَ الناسِ لاستعمالِ

السلاحِ، وأشدَّهم عزيمةً لِمواجهةِ العدُوّ عَبْرَ القُرونِ. لعلَّ هذه الطبيعةَ المتميّزةَ التي جُبِلُوا عليها واستورثوها منذُ أيامِ جاهِلِيَّتِهِمْ، هي مِنْ أهمّ الأسبابِ التي قَرَّبَ الإسلامَ إلى عقولِهِمْ. ذلك؛ لَمَّا اهتدَوْا إلى معاني آياتِ الجهادِ كقولِهِ تعالى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم..."[261] وقولِهِ تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ."[262] وقولِهِ تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"[263] وكثيرٍ من أمثالِها؛ ازدادوا شوقًا ورغبةً إلى الدِّينِ الجديد، وتشبَّثُوا دائمًا بالآياتِ والأحاديث التي تُثيرُ عزيمةَ المؤمنِ إلى مقارعةِ العدُوّ في ساحةِ الحربِ، (ذلك لانسجامِ طبيعتِهِم مع إيحاءاتِ هذه الآيات!)، فاشتهروا بالبطولةِ في أغلبِ المعارِكِ التي خاضواها.

إلاَّ أنَّ موقِفَ أكثرِهِم هذا من الإسلامِ قد أَكَلَ عليهِ الدَّهْرُ وشَرِبَ، وبَقِيَ في جَيشِهِمْ مجرَّدُ الْوَلَعِ بالسلاحِ، فأثارَ ذلك في نفوسِهِم حُبَّ السياسةِ، والهيمنةَ على الدولةِ، والاستبدادَ بِالْحُكْمِ... فازدادوا بطشًا على أيّ قُوَّةٍ تُنافِسُهُمْ في السيادةِ والرئاسةِ، وإن كانتْ تلك القوةُ حكومةً قانونيَّةً ومنتخَبَةً بإجماعِ أكثريةِ الشعب.

قامتِ الدولةُ التُّرْكِيَّة عام **1923**م. فأعلنتْ عن نفسِها كدولةٍ مَدَنِيَّةٍ. وكانتْ السلطةُ تتمثَّلُ في مجلِسِ الشعبِ بِحَسَبِ الظاهرِ. إلاَّ أنَّ زِمَامَ الأمرِ كانَ بيدِ مصطفى كمال. وكان هو يعتمدُ في حُكْمِهِ على الجيشِ، فاستمرَّ نظامُ السلطةِ على هذا الوضعِ شِبهَ مطلقِيَّةٍ حتَّى إعلانِ التَّعَدُّدِيَّةِ عام **1946**م. فاعتادَ الجيشُ بذلكَ على التحكُّمِ في الدولةِ، والتطرُّفِ في السياسةِ، والتسلُّطِ على الحُكوماتِ والإطاحةِ بِها... فكانتِ السيادَةُ – في الحقيقة – للجيشِ رغمَ كونِ الحكومةِ في الصورةِ. لأنَّ الجيشَ في نظرِ المجتمعِ "كانَ هو الحامِيَ للوطنِ والأعراضِ، والحُكومةُ لا تعدو عن مُجَرَّدِ جهازٍ دورِيّ مُهِمَّتُهَا: تطبيقُ التشريعاتِ والرقابةُ عليها". هذه القناعةُ لا تزالُ راسخَةً في ذهنِ قِلَّةٍ ساذجةٍ فاشِيَّةٍ مِنْ عَبَدةِ الأمْجَادِ.

---

[261] سورة الأنفال/**60**.

[262] سورة البقرة/**18**.

[263] سورة آل عمران/**142**.

إنَّ التدخُّلاتِ العسكريةَ في سياسةِ الدولة التُّرْكِيَّة لها أسبابٌ مختلفةٌ، كلُّها تتمثَّلُ في عزيمةِ الجيشِ وجهودِهِ ومحاولاتِهِ للحفاظِ على النظامِ الأتاتوركِيِّ، ومدِّ الفرصةِ للطُّغْيَانِ العصبِيِّ التُّرْكِيِّ على بقيَّةِ الإنتماءاتِ الْعِرْقِيَّةِ. وهذا يُعبِّرُ في مُجْمَلِهِ عن طبيعةِ السياسَةِ التُّرْكِيَّة وعن حقيقتِها بصورةٍ واضِحةٍ؛ كما تَتَبَلْوَرُ في الوقتِ ذاتِهِ أبعادُ النظامِ القائِمِ على هاتين الدَّعَامَتَيْنِ من خلالِ هذه الحقيقة. وهذا يبرهن على أنَّ الأيديولوجيَّةَ الكماليَّةَ المدعومةَ بالعُنصُرِيَةِ التُّرْكِيَّةِ، كُلَّمَا عرضتْ لَهَا عقبةٌ، (أو اخْتَلَقَتْهَا الطُّغْمَةُ الكماليَّةُ الحاكمةُ وَالْمُنْدَسَّةُ في أجهزةِ الدولةِ)، نَهضَ الجيشُ لإزالةِ هذه الْعَقَبَةِ وجدَّدَ عهدَهُ مع الإستبدادِ الأتاتوركِيِّ، وأعلنَ عن ذلك بإنزالِ ضربةٍ على الحكومةِ المُنتَخَبَةِ، وَطَرَدَهَا من الساحةِ بسرعةِ البرق. هذا هو معنَى الإنقلابِ العسكرِيِّ في تركيا.

ظلَّ الجيشُ التركِيُّ متواطِئًا مع الحكومةِ بعد وفاةِ مصطفى كمال حتَّى إعلانِ التَّعَدُّدِيَّةِ عامَ **1946**م. لأنَّ الأتاتوركيَّةَ كانتْ شِبهَ دينٍ اعتنقتْهُ الحكومةُ في هذه الْمُدَّةِ بالإضافةِ إلى أنَّ رئيسَ الجمهوريَّةِ (عصمت إينونو) كان شخصيَّةً ذاتَ مكانةٍ عند الجيشِ على خلفيَّةِ دورِهِ في تأسيسِ الدولةِ الجديدةِ مع مصطفى كمال، فلم يكن الجيشُ يرى بُدًّا لِمُعَارَضَتِهِ. فلمَّا فاز الحزبُ الديموقراطِيُّ في إنتخاباتِ **1946**م. واتَّسَعَ نطاقُ الحرِّيَّاتِ نسبِيًّا، ونَشِبَتِ الخلافاتُ بين الحكومةِ والحزبِ المعارِضِ، وتحوَّلَتِ الأتاتوركيَّةُ من ديانةٍ إلى أيديولوجية وتقاليدَ رسْمِيَّةٍ، كان هذا التَّطوُّرُ في اعتبارِ الجيشِ عُدُولاً عن الخطِّ الكمالِيِّ، وارتدادًا من الدِّينِ القومِيِّ، وخروجًا على تعاليمِ مصطفى كمال المقدَّسَةِ واستهانةً بِهَا...

شهدتْ تركيا عِدَّةَ تَدَخُّلاَتٍ عسكريَّةٍ في سياسةِ الدَّولةِ منذُ عامِ **1960**م. دامتْ هذه المحاولاتُ لتضليلِ الرَّأيِ العامِّ وإثارةِ الفوضَى في النظرةِ إلى مفهوم الحرَّيةِ حتَّى أيَّامِ الحكومة المُنْبَثَقَةِ مِنْ حزبِ العدالةِ والتنميةِ. اثنانِ من هذه التَّدَخُّلاَت وَقَعَا بصورةٍ فعليَّةٍ ودخلاَ في سجلِّ التاريخ باسمِ (انقلابٍ عسكرِيٍّ مسلَّحٍ وفعلِيٍّ). حدثَ أوَّلُهُمَا يوم: **27** مايو **1960**م.، وثانيهما يوم: **12** سبتمبر **1980**م. وقد تلقَّتِ الحكومةُ التُّرْكِيَّة تَهدِيدَاتٍ كتابِيَّةً من القوَّاتِ المسلَّحةِ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ أولها كانتْ مذكِّرةُ **12** مارس من عامِ **1971**م. وثانيها: قراراتُ القمَّةِ العسكريَّةِ بتاريخ: **28** فبراير **1997**م.، وثالِثُها: هي التصريحاتُ الصادرةُ من القيادةِ الأعلى للقواتِ المسلَّحةِ يوم: **27** أبريل **2007**م.

إنَّ التَّدَخُّلاَتِ العسكريةَ في سياسةِ الدولةِ التُّرْكِيَّة لم تقتصرْ عند هذا الحدِّ، بل تجاوزتْ إلى استعداداتٍ سرِّيَّةٍ للإطاحةِ بالحكومةِ سبعَ مرَّاتٍ في أوقاتٍ مختلفةٍ، وهي بالتحديد:

1) تَمَرُّدُ الضُّبَّاطِ السبعِ يوم: 22 فبراير 1962م.
2) العصيانُ العسكرِيُّ على خلفِيَّةِ تمرُّدُ الضبَّاطِ السبعِ
3) الاستعداداتُ العسكريَّةُ للإطاحةِ بالحكومةِ يوم: 09 مارس 1971م.
4) فضيحةُ (بُويْرَازْ كَويْ Poyrazköy)
5) محاولةُ الإطاحةِ برئيسِ الوزراءِ رجب طيِّب أردوغان في أرْبَعِ خُطَطٍ تحتَ أسْمَاء جفريَّةٍ: (صاري كيز Sarı kız، آي إيشيغي Ay Işığı، ياكاموز Yakamoz، ألدِوان Eldiven).
6) مؤامرةُ (باليوز Balyoz) للإطاحةِ بحكومةِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ في شهرِ مارس 2003م.
7) الاستعداداتُ العسكريَّةُ (باسم: مكافحةِ الرِّجْعِيَّةِ) الْمَفْضُوحَةُ في صحيفةِ (الطَّرَف) يوم 12 يونيو 2009م.
8)

***

انقلابُ 27 مايو عام 1960م. وأهمُّ أسبابِه[264].

إنَّ الإنفتاحَ والتَّعَدُّدِيَةَ واتِّساعَ نطاقِ الحُرِيَّاتِ عَقِبَ انتخاباتِ 1946م. كانتْ هي البِداياتُ التي مهَّدَ السبيلَ للحَراكِ السياسِيّ في تُركِيَا، أسفرَ عنه الخلافُ والنِّزاعُ بين الحكومةِ والحزبِ المعارِض، وكانَ يتجاوزُ إلى حدودِ العِراكِ والْمُشَاتَمَةِ في بعضِ الأحيان. بينما لم يكنْ هذا التطوُّرُ من الْمُعتادِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ القابعِ على نفسِهِ. إذ كانتْ الطاعةُ في هذا المجتمعِ دائمًا لِرَأْسٍ واحدٍ؛ لا يناقِشُهُ، ولا يجادِلُهُ أحدٌ في أمرٍ مَّا، فضلاً عن أنْ يُنَازِعَ في حُكمِهِ.

دامَ ذلك منذُ قرونٍ، ولم يتعرَّفِ الناسُ على الديموقراطِيَّةِ بعدُ. كما كانوا يجهلون في الوقتِ ذاتِهِ مفهومَ الشورَى الذي ترتكزُ عليها السياسةُ في الإسلامِ. فلمَّا ارتفعتِ الأصواتُ في مجلسِ الشعبِ، وتصاعدَ الْجِدَالُ والخصومُ بين رئيسِ الوزراءِ (عدنان مندريس)، ورئيسِ الحزبِ المعارِضِ (عصمت إينونو)، تمخَّضَ ذلك عن قَلَقٍ في الرأيِ العامِّ الْمَحَلِّيِّ وسُرعانَ ما تذمَّرَ الجيشُ من الأوضاعِ، فبدأتِ التَّعَدُّدِيَّةُ هكذا في وسطِ مشاحناتٍ ساخنةٍ منذُ أوَّلِ أيَّامِها.

---

264 تحدَّثَ كثيرٌ من السياسيّن والإعلاميّين والباحثين عن انقلاب 27 مايو 1960م. واختلفت الآراءُ حول أسبابه ونتائجه. ولكنّ الكاتب والباحث التركِيَّ سليمان كوجاباش Süleyman Kocabaş يكاد يكون أفضلَ من تناول قصّةَ هذه الثورة بأسلوبٍ موضوعيٍّ دقيق. صدر كتابه تحت عنوان (حقيقة الإعدامات İdamların İçyüzü).

ثُمَّ لم يلبثْ الأمرُ طويلاً حتَّى اصطدمتْ حكومةُ مندريس بأزماتٍ سياسيَّةٍ واقتصادِيَّةٍ أثارتِ المعارضةَ والجيشَ ضِدَّه. بدأتِ السلبيَّاتُ في سياستِهِ، فتوالَتْ أخطاؤُهُ خاصَّةً بعدَ السنَةِ الرابعةِ من تسلُّمِهِ إدارةَ الدَّولةِ. كانَ استغلالُهُ للدِّينِ في سياستِهِ أهمَّ خطإٍ وقعَ فيهِ. فأثارَ بذلكَ حفيظَةَ قادةِ الجيشِ الذين طالَمَا تخوَّفوا من الإسلامِ، ونذروا أنفسَهم لِحِرَاسَةِ الأتاتوركِيَّةِ والْمَزْعَمَةِ العلمانيَّةِ "ضِدَّ خطر (الرِّجْعيَّةِ) المتمثِّلِ في الدِّينِ أو الإسلام!" على حدِّ نظرتِهِمْ.

ذلك لَمَّا نالَ عدنان مندريس دعمًا كبيرًا من القطاعِ المحافظِ في أوَّلِ انتخاباتٍ خاضَها في منافسةِ (الحزبِ الشعبِ الجمهورِيّ) عام 1946م. وظفرَ بِفُرصةِ الصعودِ إلى سُدَّةِ الحُكْمِ بمساندةِ الأغلبِيَّةِ الساحقةِ، أرادَ أنْ يُوَطِّدَ علاقَتَهُ مع القطاعِ النقشبندِيّ الذي كانَ له دورٌ كبيرٌ في نجاحِهِ. فشمَّرَ عن ساعدِ الجْدِّ أوَّلاً لِيَجْمَعَ شملَ النقشبندِيّينَ، فَيلُمَّ شعثَهُم (بعدَ مَا أصابَهم من القمعِ والفتكِ على يد مصطفى كمال وبِطَانَتِهِ)، ويجعلَ منهم صفوفًا متراصَّةً تُدافِعُ عنهُ في مواجهةِ أيِّ عَقَبَةٍ قد تعترضُهُ، وآليَةً يستخدمُها في تحقيقِ أهدافِهِ السياسِيَّة. فأعدَّ مشروعًا مع نُخْبَةٍ من أُمَنَاءِ سِرِّهِ لحصرِ النقشبندِيّينَ وحشرِهم تحتَ مظلَّةٍ واحدةٍ، لِيُمكنَ بذلك مراقبتُهم والسيطرةُ عليهم، ولِيسْهَلَ التصرُّفُ فيهم.

تَمَّ تنفيذُ هذا المشروعِ في المنطقةِ الكردِيَّةِ، فأُقيمَ لهم مركزٌ قُرْبَ مدينة (بَتْلِيسَ Bitlis)، كما وسَّعتْ حكومتُهُ نطاقَ الحرِّيَّةِ لِجميعِ الصوفِيَّةِ فأصبحوا يقيمون طقوسَهم دونما تحفُّظٍ، وازدادتْ نشاطاتُهم في جميعِ أنحاءِ تركيا.

كانت قديمًا جماعاتٌ أخرى لِفِرَقِ الصوفِيَّةِ الأتراكِ متخفِّيَةً في مناطقِ غربِ تركيا. فلمَّا عَلِمَتْ هذه الجماعاتُ بما ناله النقشبندِيُّونَ الأكرادُ من الحرِّيةِ في المنطقةِ الشرقِيَّةِ خرجتْ من كهوفِها هي الأُخرَى وأعلنتْ عن نفسِها. من أهمِّ هذه الجماعاتِ: السليمانيةُ (النقشبندِيَّةُ) وغيرُها من الفِرَقِ كالجرَّاحِيَّةِ، والتِيجانِيَّةِ، والرفاعِيَّةِ، والقادريَّةِ...

ظهرَ شخصٌ في غضونِ هذه التطوُّراتِ اسْمُهُ (سعيدُ النورسِيُّ)، شرعَ في تأليفِ رسائلَ دينيَّةٍ تناولَ فيها قضايا إنسانيَّةً واجتماعِيَّةً، فَالْتَفَّ حولَه معشرٌ من المثقَّفينَ المحافِظِين فطارَ صيتُهُ. فلمَّا ازدادَ

الإقبالُ عليه حاولَ جَهَازَا الأمنِ والقضاءِ أنْ يحتوياه. إلاّ أنَّ سياسةَ حكومةِ مندريس حالتْ دون هدفِهِمَا بطريقِ تعليماتٍ سرِّيَّةٍ! فنجحَ الرجلُ في تنظيمِ فريقٍ باسمِ (جماعة النور).

إنَّ استغلالَ مندريس لِمَفْهُومِ الدِّينِ بهذه الطُّرُقِ الْمُلْتَوِيَةِ الْخَطِيرةِ، وموقِفَهُ المتسامِحَ من الجماعاتِ الصوفِيَّةِ كان أوَّلَ كمينٍ نصَبَهُ هو بالذَّات على طريقِهِ. وقد يعتقدُ البعضُ: "أنَّه كان يريد أن يُعِيدَ تركيا إلى حظيرةِ الإسلامِ بمثلِ هذه الإنطلاقَةِ!". بينما هذا الإعتقادُ لا يمتُّ بصلةٍ إلى الحقيقةِ. والدليلُ: إنَّهُ يُستَبعَدُ أنْ كان مندريس يُمَيِّزُ بين الإسلامِ وَالْمُسْلُمَانِيَّةِ كأَيِّ شخصٍ من الْمجتَمَعِ التُّرْكِيِّ (الْمُسْلُمَانِ)؛ وربَّما كانَ يجهلُ في الوقتِ ذاتِهِ أنَّ خطرَ الصوفِيَّةِ على الإسلامِ أكبرُ منه بكثيرٍ في جنبِ خطرِ الكماليِّينَ واليسارِيِّينَ والفاشِيِّين وغيرِهم، لذا مَنْ يتأمَّلْ في سياستِهِ بِدِقَّةٍ، يَتَبَيَّنْ له واضِحًا أنَّه لم يكنْ مخلصًا للاسلامِ في حقيقة الأمر، وإنَّما كان مستغِلاًّ لِمفهومِ الدِّينِ. ربما تحدَّى التشريعاتِ العلمانيَّةَ بعضَ الشيءِ، لكنَّه لم يُعِدِ الأذانَ إلى العربِيَّةِ إلاَّ لِيَجْذِبَ القطاعَ المحافظَ إلى صفِّهِ. لأنَّه كانَ يهدفُ حصادَ أصواتِ الصوفِيَّةِ في الانتخاباتِ الْمُقبِلةِ ويطمعُ في دعمِهِمْ، فلم يكن الدِّينُ يهمُّهُ. بل كان كلُّ همِّهِ الحفاظُ على مركزِهِ فحسبُ. وهذا أثارَ كراهِيَّةَ الجيشِ ضِدَّهُ عندَ أوَّلِ خطواتِهِ.

كذلك مِنْ أهمِّ الأخطاءِ التي تورَّطَ فيها مندريس؛ أنَّه سلكَ طريقًا خطيرًا في سياستِهِ الإستثماريَّةِ، فشوَّشَ بقراراتِهِ الْمضطرِبَةِ مسارَ الإقتصادِ التُّرْكِيِّ بحيثُ واجهَ البلدُ بعد ذلكَ سلسلةً من أزماتٍ إقتصاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ حادَّةٍ تعاقبتْ إلى اليوم.

كانت تركيا منذُ البدايةِ تَبَنَّتْ سياسةَ الحيادِ في الظاهرِ، مع ذلك تتودَّدُ إلى الغربِ بسببِ قَلَقِهَا حيالَ التوسُّعِ الشيوعِيِّ وتخوُّفِها من أطماعِ جارَتِها العملاقة. إذ دفعَ التهديدُ السوفيتِيُّ في أعقابِ الحربِ العالَمِيَّةِ الثانيةِ بتركيا إلى طلبِ الحمايَةِ من الغربِ. فوجدتْ تجاوبًا من الحكومةِ الأميركية، فتلقَّتْ مِنْ مُساعداتِهَا الْمعروفةِ باسمِ (مشروعِ مارشال The Marshall Plan) الذي أعدَّتْهُ وبرمجَتْهُ أميركا لإعادةِ تعميرِ الدولِ الأوروبيَّةِ وترميمِ آثارِ الدَّمَارِ والخساراتِ التي لَحَقَتْهَا بعد الحربِ العالَمِيَّةِ الثانية.

كان مندريس قد أعدَّ خُطَّةً تضُمُّ مشاريعَ ضخمةً استثماريَّةً تبلغُ قيمتُها أرقامًا فلكِيَّةً تتجاوزُ طاقةَ الخزانةِ. إنَّما أقحمَ نفسَهُ في هذه الْمُغَامَرَةِ ليستعرِضَ مَدَى سياسَتِهِ في النهوضِ بِتركيا. إلاَّ أنَّ هذه

الْمُغَامَرَةَ الخطيرةَ كلَّفتْهُ باهظًا. لأنَّهُ ما لبثَ طويلاً حتَّى اضطرَّ أن يتلقَّى مساعداتٍ ماليَّةً من أميركا مِمَّا أثقلتْ كاهلَ الخَزَانَةِ التُّرْكِيَّة، الأمر الذي أذلَّهُ أمامَ مطالِب أميركا.

انسحبتْ تركيا وراءَ المعسكرِ الغربِيِّ فَشَارَكَتْهُ في الدِّفَاعِ عن الكوريا الجنوبيَّةِ عام 1950م. فتعرَّضتْ لخسارةٍ بشريَّةٍ وماليَّةٍ كنتيجةٍ لهذا الإستدلالِ. ثم انْضَمَّتْ تركيا إلى حِلْفِ شمالِ الأطلسِيّ (ناتو Nato) سَنَةَ 1952م. فدخلتْ تحت رقابةِ دُوَلِ الْغَرْبِ خاصَّةً بعد أنْ أقامتْ أميركا قواعدَ عسكريَّةً في مختلف مناطقِهَا الإستراتيجيَّةِ (منها قاعدةُ إينْجِيرْلِكْ İncirlik) قربَ مدينةِ أضَنَهْ. أقامتْ حكومةُ مندريس علاقاتٍ قويَّةً مع الولاياتِ الْمُتَّحِدَةِ وساندَ مُخَطَّطَاتِهَا في المنطقةِ وخارِجِهَا، ووضعَ تركيا في مواجهةِ حركةِ القوميَّةِ العربيَّةِ الصاعدة آنذاك بزعامةِ جمال عبد الناصر.

تعاقبتِ الإرهاصاتُ بعد ذلك تُنْذِرُ بِقُرْبِ نِهَايةِ الحكومةِ خاصَّةً بعد ما تعرَّضتْ لاتِّهاماتٍ عديدةٍ أهمُّها إدِّعاءاتٌ بأنَّها كانت ضليعةً في أحداثِ 6–7 أيلول، وأنَّهَا زرعتْ بذورَ الشقاقِ بين صفوفِ المجتمعِ بتأسيسِ "الجبهةِ الوطنيةِ"، وأنَّها خرجتْ على الدستورِ في كثيرٍ من تصرُّفاتِها، وأنَّها أسرفتْ في الْمَالِ العامِّ، وأنَّ الفسادَ بأشكالِها مِنَ الإرتشاءِ والمحسوبيَّةِ والمحاباةِ والتحايُلِ على القوانينِ ضربتْ أطنابَهَا في جميعِ مرافقِ الدولةِ وأجهزتِها، وقد بلغَ الفوضَى مبلغَهُ على مستوَى البلد...

فلمَّا فَشِلَ مندريس في خُطَّتِهِ الإستثماريَّةِ استغلَّ الْحزبُ المعارضُ هذه الْفُرْصَةَ فاستهدَفَهُ بِهَجَمَاتٍ ساخنةٍ ونجحَ في إثارةِ الرَّأيِ العامِّ ضِدَّه بأنَّهُ أخلفَ وعودَهُ، وأسرفَ في إنفاقِ مُدَّخَراتِ الدَّولة، فأدَّى ذلك إلى اشتعالِ الغضبِ في نفوسِ قطاعٍ واسِعٍ من مختلفِ طبقاتِ الشعبِ، على رأسِهَا التَّكَتُّلاتُ اليساريَّةُ والكمالِيَّةُ والفاشيَّةُ. فلم يلبث طويلاً حتَّى قامتْ مظاهراتٌ عارِمَةٌ في الْمُدُنِ الكبيرةِ ضِدَّ سياستِهِ وإجراءاتِهِ، وقامَ طُلاَّبُ مدرسَةِ القوَّاتِ البريَّةِ بمسيرةٍ صامتَةٍ إلى مجلسِ الشعبِ في أنقرة، احتجاجًا على سياساتِ مندريس، فأعلنتِ الحكومةُ حَظْرَ التَّجَوُّلِ يومَ 01 مايو 1960م. في الحينِ الذي كانتِ الْقُوَّاتُ المسلَّحةُ تبحثُ عن حججٍ تتذرَّعُ بِهَا للانقضاضِ على حكومتِهِ، فوجدتْ بذلك فُرْصَةً سانِحَةً. فكانتِ الذريعةُ جاهزةً: "مندريس يخون الأتاتوركِيَّةَ!". ولا شكَّ في أنَّ هذهِ الذريعةَ كانت من إيحاءاتِ فكرةِ الحراسةِ للاستبدادِ الكمالِيِّ الموروثِ، وكانتْ هذه الحراسةُ خِصِّيصًا من مُهِمَّةِ الجيشِ، ولأنَّ هيمنةَ الجيشِ كانتْ موقوفةً على استمرارِ النظامِ الكمالِيّ. فتذرَّع قادةُ الجيش "بِوضعِ حدٍ للتطاحُنِ الحزبِيِّ وحالةِ الفوضَى والشقاقِ، وإعادةِ وضعِ البلادِ على مسارِ الديمقراطية من جديد."

كان هذا هو المبرّرَ الملِحَّ لقيامِهِ بالإطاحةِ بحكومةِ مندريس. غير أنَّ الخُطَّةَ تَمَّتْ دونَ علمِ رئيسِ الأركانِ (الفريق: رُشْدِي أَرْدَلْهُونْ Rüştü Erdelhun) وكبارِ قادةِ الجيشِ. وإنَّما قامَتْ بهذه العمليَّةِ مجموعةٌ من الضُّبَّاطِ من صغارِ الرُّتَبِ، كانوا سبعةً وثلاثين ضابطًا استطاعوا – بدهائِهِمْ وتعاوُنِهِمْ فيما بينَهُمْ في غايَةٍ من السِّرِّيَّةِ – أنْ يَمْتَلِكُوا قيادةَ القوَّات المسلَّحَةِ بكامِلِهَا. كان في مقدّمَتِهِمْ اللِّواء: جمال مَادَانْ أوغْلُو Cemal Madanoğlu، ومساعِدُهُ العقيد: أَلْب أَرْسْلاَنْ تُورْكَشْ Alparslan Türkeş. فكان من أمرِهِمْ أنْ تَحَرَّكُوا بمساندةٍ بالغةٍ وضبطٍ شديدٍ، فاعتقلوا رئيسَ الجمهورية (جلال بيار Celal Bayar) ليلةَ **27** مايو **1960**م. ثُمَّ انتشرتِ الشرطةُ العسكريَّةُ في مُلاَحَقَةِ السياسيِّين المنتسبين إلى الحزبِ الديموقراطِيِّ، فألقَوْا القبضَ على جميعِ النُّوَّابِ خلالَ أيَّامٍ قليلةٍ. وفي غضون تلك اللَّحَظاتِ الْمُتَوَتِّرَةِ بَثَّتِ الإذاعةُ خبرَ انتحارِ وزيرِ الداخليَّةِ (نَامِق جَدِيك Namık Gedik).

أمَّا رئيسُ الوزراءِ عدنان مندريس، فإنَّه كان تلك الليلةَ في مدينةِ (أَسْكِي شَهِرْ Eskişehir)، فلمَّا أبْلغوه في منتصفِ اللَّيلِ بما حدثَ، انتقلَ فورًا إلى مدينةِ (كُودَاهِيَّةَ Kütahya) الواقعةِ في غربِ تركيا، ولَجَأَ هناكَ إلى قاعدةٍ جوِّيَّةٍ. يقول اللِّواءُ المتقاعد (نجاتِي جولتكين Necati Gültekin) في مُذَكِّرَاتِهِ: "تلقيتُ تعليماتٍ من (لجنةِ الوحدةِ الوطنيَّةِ Milli Birlik Komitesi) بأنْ أُلْقِيَ القبضَ على مندريس، فَامْتَثَلْتُ لِلأَمْرِ، ولكنِّي قَابَلْتُهُ بِرِفْقٍ ونقلتُهُ بطائرةٍ عسكريَّةٍ إلى العاصمةِ أنقره".

حَلَّتْ (لجنةُ الوحدةِ الوطنيةِ) محلَّ مجلسِ الشعبِ من فجرِ يوم **27** مايو **1960**م. وبدأتِ الإذاعةُ التُّرْكِيَّة تَبُثُّ البلاغاتِ الصادرةَ من هذه اللَّجنةِ على مرِّ الأيَّامِ تباعًا. تولَّى القائدُ السابقُ للقوَّاتِ البَرِّيَّةِ الفريق (جَمَال جُورْسِيلْ Cemal Gürsel) رئاسةَ الحكومةِ العسكريَّةِ بعد يومٍ من انفجارِ الحركةِ الإنقلابِيَّةِ. إنَّمَا اختارَتْهُ (لجنةُ الوحدةِ الوطنيَّةِ) لهذه الْمُهِمَّةِ لِسَبَبٍ هامٍّ: ذلك أنَّ قائدَ الجيشِ الثالِثِ الفريق (راغب جُمُوشْبَالاَ Rağıp Gümüşpala) أَنْذَرَ اللَّجْنَةَ بِأَنَّهُ مستعدٌّ لِمُقَاوَمَةِ الإنقلابِ وأنَّهُ سوفَ يتوجَّهُ على رأسِ جيشِهِ من مدينَةِ (أرض الروم Erzurum) إلى (أنقره Ankara) لإخمادِ الثورةِ إذا لم يكنْ بينَ قادةِ الحركةِ ضابطٌ يفوقُهُ رُتْبَةً! فاتَّصلتِ اللَّجْنَةُ بالفريقِ (جَمَال جُورْسِيلْ) على وجهِ السرعةِ، وكانتْ حكومةُ مندريس قد أحالتْهُ إلى التقاعدِ، فَوَافَقَ على طلبِ اللَّجنةِ وانتقلَ من مقرِّ إقامتِهِ في (إزمير İzmir) إلى أنقره، وتولَّى قيادةَ الحركةِ، فتحقَّقَ الإجماعُ بذلك على مستوَى القُوَّاتِ المسلَّحةِ التُّرْكِيَّة، على مواصلةِ الثورة. وكان هناك سببٌ آخر لاتِّخاذِ اللَّجنةِ هذا القرارَ: ذلك أنَّ

جمال جورسيل[265] كان قد أنْذَرَ رئيسَ الجمهوريَّةِ (جلال بيار) بِرِسَالَةٍ كتابِيَّةٍ قُبيلَ الإنقلاب، فطلبَ منه أن يتنازلَ عن منصبه!

أحالَ الإنقلابِيُّونَ 235 جنرالاً، وخمسةَ آلافِ ضابطٍ إلى التقاعُد، وأوقفوا نشاطَ الحزبِ الديمقراطِيِّ وجمعوا السياسيِّين الْمُنْتَسِبِينَ إلى الحزبِ، فحشروهم في سجنٍ مُعَدٍّ لهم خِصِّيصًا في جزيرةِ (يَاسِّي آده Yassıada). وهي جزيرةٌ في وسطِ بحرِ مَرْمَرَه، مساحتُها: 18 هكتارًا، تقعُ على مسافةِ 2،27 ميلاً من إسطنبولَ.

أُقيمتْ هناكَ محكمةٌ خاصَّةٌ للنَّظَرِ في التُّهَمِ الْمُوَجَّهَةِ إلى عدنان مندريس وجلال بيار ورفاقِهِمَا من النُّوَّاب. جرتْ محاكمتُهُمْ بصورةٍ شكليَّةٍ وفي وسطِ وابلٍ من التَّهَكُّمِ والتشنيعِ والْمِسَاسِ بكرامتِهِمْ... وكان رئيسُ المحكمةِ (سالم باشول Salim Başol) يُكَلِّمُهُمْ بغضبٍ شديد، ويخاطبُهُمْ بلهجةٍ قاسِيةٍ. بدأتِ الجَلَسَاتُ يوم 10 يونيو 1960م. ودامتْ مدَّةَ اعتقالِهِمْ التي بلغتْ 450 يومًا، وانتهتْ بصدورِ أحكامٍ صارمةٍ وعقوباتٍ شديدةٍ بِحَقِّهِمْ. تَمَّ تنفيذُ حُكمِ الإعدامِ على وزيرِ الخارجيَّةِ (فطين رُشْدِي زُورْلُو Fatin Rüştü Zorlu)، ووزيرِ الشؤونِ الْمَالِيَّةِ (حسن بولاتكان Hasan Polatkan) فجرَ يوم 16 من شهر سبتمبر سنة 1961م. وأعدِمَ رئيسُ الوزراءِ (عدنان مندريس Adnan Menderes) بعدهم بِيَوْمٍ (17 سبتمبر 1961م.). أما رئيسُ الجمهوريَّةِ (جلال بيار Celal Bayar)، فحُكِمَ عليه أوَّلاً بالإعدامِ، ثُمَّ تَمَّ تخفيفُ عقوبَتِهِ بالسجن الْمُؤَبَّد، لِكِبَرِ سنِّهِ. ولكن أُطلِقَ سَرَاحُهُ يوم 07 نوفمبر 1964م. بسببِ مرضِهِ. ثُمَّ بعد عودةِ الحكوماتِ الْمَدَنِيَّةِ صدرَ الحكمُ بالإفراجِ عن بَقِيَّةِ النُّوَّابِ الْمُعْتَقَلين كلِّهِمْ.

دعا قائدُ الإنقلابِ الفريقُ: جمال جورسيل جماعةً من الأكاديميِّينَ يوم 27 مايو 1960م.؛ أي اليومَ الأوَّلَ من انطلاقَةِ الحركةِ، دعاهم وطلبَ منهم أنْ يقوموا بِتَقْنِينِ دُسْتُورٍ جديدٍ للدَّولةِ التُّرْكِيَّةِ؛ فساهموا في تنصيصِهِ وانتهَوْا منه بعد عام. إلاَّ أنَّ قادةَ الحركةِ اختلفوا في تعيِين الجهةِ التي ستقوم

---

[265] جمال جورسيل Cemal Gürsel: (**13** أكتوبر **1966**م.). شخصيّةٌ عسكريّةٌ تركِيّةٌ. رابعُ رؤساءِ الجمهورية التُّرْكِيَّة (**1960**م.–**1966**م.). يُرَجَّح أنَّهُ كردِيُّ الأصلِ. تابع دراستَه في المدرسةِ العسكريَّةِ في أواخرِ العهدِ العثمانِيّ، فلمَّا اندلعتْ الحربُ العالميَّةُ الأولَى اشترِكَ في معركةِ جَنَاقْ قَلْعَة عام **1914**م. و**1917**م.، ثُمَّ انتقلَ إلى جبهةِ فلسطين سنة **1917**م. وقعَ في أسرِ القوّاتِ الإنجليزيَّةِ في جبهةِ غزَّةَ يوم **19** سبتمبر **1919**م. وظلَّ مُحْتَجَزًا في قبضةِ الإنجليز مدَّةَ عامين في مصر. ثمَّ أُطلِقَ سراحُهُ يوم **09** أكتوبر **1920**م. فعادَ إلى إسطنبول واشترِكَ في حربِ الإستقلالِ. تدرَّجَ في مناصبَ عسكريّةٍ واحتلَّ أخيرًا منصِبَ القائدِ للقوَّاتِ البرِّيَّةِ. كان جورسيل مُعْتَدِلَ الطَّبْعِ، هادِئَ المزاجِ، وقورًا، يكره الْعُنْفَ، حاولَ أن يُنقِذَ مندريس ورِفَاقَهُ من الإعدامِ لكنَّه لم ينجحْ. وافقَ على طلبِ اللجوءِ السياسِيِّ للخمينِيِّ لمَّا علِمَ تعرُّضَهُ للظُّلْمِ في إيران. فنزلَ الخمينيُّ ضيفًا في منزلِ العقيد (علي جتينارAli Çetiner) بمدينةِ بُرُوسَة وفقًا لتعليماتِ جنرال جمال جورسيل. صدرَ الدستورُ الثانِي للجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة في عهدِهِ.

بِتَسْيِيسِ الدَّولةِ إلى فريقين: فريقٌ منهما ارادَ أنْ تُتْرَكَ السلطةُ لحكومةٍ مَدَنِيَّةٍ تَحْظَى بالحُكمِ بعدَ انتخاباتٍ عادِلَةٍ وشفَّافةٍ. أمَّا القريقُ الآخر، فأصرَّ على أنْ يَظَلَّ الأمرُ في قبضةِ الجيشِ. وإذا بمفاجأةِ عصيانٍ فِي قلب القوات المسلحة ضِدَّ الإنقلابِيِّين هزَّتِ الحكومةَ. اندلعتْ احتجاجًا على اعتقالِ زُمرةٍ من الضُّبَّاطِ وإحالةِ جماعةٍ منهم إلى التقاعُد.

كان هذا العصيانُ ثورةً محدودةً فجَّرَها قائدُ الأكاديميَّةِ العسكريَّةِ العقيدُ طلعتْ آيْدَمِيرْ Talat Aydemir **يوم 22 فبراير 1962م. فلم يلبثْ طويلاً حتَّى أُخْمِدَتِ الثورةُ وأُلقِيَ القبضُ عليه مع صاحِبِهِ العقيد فتحي جُرْجَان** Fethi Gürcan**، ونُفِّذَ فيهما حكمُ الإعدامِ رميًا بالرصاص فجرَ يوم 05 يوليو 1964م.**

اختلفتِ الآراءُ فيما بعدُ، حولَ طبيعةِ هذا الإنقلابِ، فذهبَ فريقٌ من الْمُحَلِّلِين اليسارِيِّين إلى "انَّ الأيديولوجيَّةَ التي تبنَّتْها الحركةُ العسكريَّةُ في ثورتها يوم 27 مايو 1960م. كانت تجمعُ بين العنصريَّةِ التُّرْكِيَّة، والفكرِ اليسارِيّ، والنهضةِ القوميَّةِ. لأنَّها نجحتْ في الْحَدِّ من شدَّةِ الظُّلْمِ الإقْطَاعِيِّ والْغَطْرَسَةِ الْبُرْجُوَازِيَّةِ إلى درجةٍ ملحوظةٍ". فلا شكَّ في أنَّ هذا التحليلَ وما يقارِبُهَا من رُؤَى مختلفةٍ لليساريّينَ، فيها خبطٌ ظاهرٌ، وخلطٌ لا يغفلُهَا العقلُ الثاقب. بينما ذهب فريقٌ آخر إلى أنَّ هذا الإنقلابَ كان من صُنْعِ الذِين أُشْرِبُوا في قلوبِهم الأتَاتُوركِيَّةَ والرأسْمالِيَّةَ من العسكريّين ومؤيِّدِيهم من البيروقراطِيّين والطبقةِ الثريَّة.

هذا يبدو صحيحًا. يبرهنُ عليهِ الفوضَى الذي سادَ على الساحةِ التُّرْكِيَّة بأسرِها في جميعِ مجالاتِ الحياةِ بعد هذا الإنقلابِ، دامَ على مَدَى عقدين السادِسِ والسابعِ من القرنِ العشرين، وأدَّى إلى انْهِيارِ الإقتصادِ التُّرْكِيِّ، وراحتْ ضحيَّتَهُ آلافٌ من الأرواحِ. احتدمتْ أعمالُ الشَّغَبِ خاصَّةً مع بدايَةِ السبعينيَّات، فاستشاطتِ القطاعاتُ اليساريَّةُ الْمُتَشَدِّدَةُ، فأرادوا أن يؤلِّبوا الرأيَ العامَّ على الحكومةِ، ويمهِّدوا الوسَطَ لتفجير ثورةٍ شيوعِيَّةٍ لدى أوّلِ فرصةٍ، فأخذوا يؤجِّجونَ الفتنةَ، فلم يلبث طويلاً حتَّى نَشِبَتِ الإشتباكاتُ بين النشطاء اليساريّين والشرطةِ، وانتشرتِ البلطجةُ وعمَّ الفوضَى في الشارعِ التُّرْكِيِّ أسفرَ عن وقوعِ عديدٍ من عمليَّاتِ السطوِ على البنوكِ والشركاتِ، واختُطِفَ عشراتٌ من الشخصِيَّاتِ البارزةِ بينهم كُتَّابٌ وأساتذةُ الجامعاتِ ورجالُ العمل...[266]

---

[266] قام الناشط اليساريُّ (دنيز. جزميش Deniz Gezmiş) ورِفَاقُهُ بالسطوِ على أحد البنوك في أنقره (إيش بانكاسي فرع أَمَكْ Emek İşbank، يوم **11** يناير **1971**م.، كما قاموا باختطافِ أربعةٍ من الجنودِ الأميركيّين في أنقره (حيِّ بَلْغَاتْ Balgat) يوم **04** مارس **1971**. (المصدر: الصحف)

إنذار 12 مارس 1971م.

وفي غضون ذلك أحسَّتِ القيادةُ الأعلى للقوَّاتِ الْمُسَلَّحَةِ دبيبَ حركةٍ تَمَرُّدِيَّةٍ يساريَّةٍ بريادةِ الجنرال جمال مادان أوغلو Cemal Madanoğlu، تستعدُّ للإنفجارِ والإطاحةِ بالحكومةِ في منتصفِ شتاءِ عام 1971م. إلاَّ أنَّ القيادةَ أحبطتْ المحاولةَ يوم 09 مارس 1971م. قبل أنْ تُحَقِّقَ هَدَفَها. وَأنذرتْ حكومةَ سليمان ديميريل بِمُذَكِّرةٍ كِتَابِيَّةٍ يوم 12 مارس 1971م. جاءَ فيها:

"إنَّ الْبَرْلَمَانَ والحكومةَ قد سَحَبَا وطَنَنَا إلى وسطٍ من الفوضَى والتناحُرِ بين الإخوةِ بتصرُّفاتِهِمَا، وموقفِهِما، وتفكيرِهما... ودفعا البلادَ إلى أزماتٍ إقتصادِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ حادَّةٍ؛ وأدَّيا الْمجتمعَ إلى خيبةِ الأملِ بتعويقِهِمَا له عن مُوَاكَبَةِ الحضارةِ المعاصرةِ، وعن تحقيقِ الهدفِ الذي رَسَمَهُ أتاتورك. كما عجزَا عن تحقيقِ الإصلاحاتِ التي يَتَبَنَّاهَا الدستورُ، وألقيَا بِالجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة في وسطِ خطرٍ عظيم"[267].

صدرتْ هذه الْمُذَكِّرةُ بتوقيعِ كلٍّ من القائدِ الأعلى للقوَّاتِ المسلَّحةِ الفريق: ممدوح طَغْمَاجْ Memduh Tağmaç**، وقائدِ القوَّاتِ الْبَرِّيَّةِ الفريق: فاروق جُورْلِيرْ** Faruk Gürler**، وقائدِ القوَّاتِ الجوِّيَّةِ الفريق: محسن بَاتُورْ** Muhsin Batur**، وقائد القوَّاتِ الْبَحْرِيَّةِ الفريق: جلال إيجي أوغلو** Celal Eyicioğlu.

قدَّمَ رئيسُ الوزراءِ سليمان ديميريل Süleyman Demirel **استقالتَهُ فورَ هذا الإِنْذَارِ، فاستُهدِفَ بذلك لاِنْتِقَادَاتٍ شديدةٍ (بعد إنسحابِ العسكريّين من المسرحِ). رماهُ المعارضون بالجُبْنِ والتواطُؤِ مع الإنقلابيّنَ حُرَّاسِ الإستبدادِ التقليديِّ![268]**

---

[267] هذا نصّ المذكّرة باللغة التركية:

Parlamento ve hükümet, süregelen tutum, görüş ve icraatıyla yurdumuzu anarşi, kardeş kavgası, sosyal ve ekonomik huzursuzluklar içine sokmuş, Atatürk'ün bize hedef verdiği çağdaş uygarlık seviyesine ulaşmak ümidini kamuoyunda yitirmiş ve anayasasının öngördüğü reformları tahakkuk ettirememiş olup, Türkiye Cumhuriyeti'nin geleceği ağır bir tehlike içine düşürülmüştür.

[268] رحَّبَ رئيسُ الجمهوريَّةِ جَوْدَتْ صوناي Cevdet Sunay باستقالةِ رئيسِ الوزراءِ، ووافق عليها. خَلَفَهُ نهاد أريم Nihat Erim في **26** مارس **1971**م..

كان من الحججِ التي تذرَّعَ بِهَا العسكريون في إنذارِهِم حكومةَ ديميريل: إنْهيارُ الإقتصادِ؛ وهبوطُ قيمةِ اللّيرةِ التُّرْكِيَّة؛ ومُظَاهَرَاتُ طَلَبَةِ الجامعاتِ يومِيًّا في ساحاتِ الْمُدُنِ الكبيرةِ واشتباكاتُهُمْ مع الشرطة؛ وتدهورُ الإنتاجِ نتيجةَ الإضراباتِ؛ والصراعُ الْمذهبِيُّ بين السنَّةِ والعلويَّةِ؛ واحتطافُ نُشَطَاءَ يسارِيّينَ للسفيرِ الإسرائيلِيِّ..إلخ.

من الجديرِ بالذكرِ؛ أنَّ الجبهةَ اليساريَّةَ ابتهجتْ بإنذارِ **12** مارس، ورحَّبتْ به. ومن جملةِ ما جاءَ من تأييدِ اليساريّين له؛ تصريحاتُ زعيمةِ حزبِ العمَّال بهيجة بوران Behice Boran، تقول فيها: "إنَّ حزبَ العدالةِ (أي حزبَ سليمان ديميريل)، قد أخذَ طريقَهُ نحو الفاشيَّةِ الْمَدَنِيَّةِ، والحكومةُ قد تَلَبَّسَتْ بالخروجِ على الدستور.". كما أعربَ إتحادُ النقاباتِ الثوريَّةِ العمَّاليَّةِ DİSK عن عزمِها لتأييدِ الإنذارِ. وأدلَى اللِّواءُ المتقاعدُ مُجِيب أَتَاكْلِي Mucip Ataklı في تصريحٍ له: "أنَّ الجيشَ إنَّما تحمَّلَ مسؤلِيَّتَهُ بهذا الإنذارِ، وحقَّق ثورةً موافقةً للقانون.". ونَشَرَتِ الجمعيَّاتُ الكماليَّةُ اليساريَّةُ بلاغًا مشتَرَكًا أعربتْ فيه عن تأييدِها للإنذار[269].

إنَّ قادةَ الجيشِ التُّرْكِيِّ قديمًا افْتَتَنُوا بالسياسَةِ، ولم يُشْبِعُوا نَهَمَهُمْ من التحكُّم في الدولةِ منذُ أوَّلِ انقلابٍ قاموا به في **27** مايو **1960**م. رغم فَشَلِهِمْ في مُمَارَسَةِ السلطةِ. نعم، قامتْ حكوماتٌ مَدَنِيَّةٌ بعد الإنقلابِ، إلاَّ أنَّ هذه الحكوماتِ ظلَّتْ دائمًا تحتَ ضغوطِ الجيشِ، فلم تتمكَّنْ من التفاعل بِحُرِّيَّةٍ، ولم تُفلِحْ في منطلقاتِها النهضويَّةِ. إذ كانتِ القوَّاتُ المسلَّحةُ تتشبَّثُ دائمًا بعدَّةِ ذرائعَ لِتُبَرِّرَ تَحَدِّيَاتِهَا وتهديداتِها في وجهِ الحكوماتِ. وتأتِي في مقدّمةِ هذه الذرائعِ "الْخَطَرُ الأَخْضَر!" على حدِّ قولِهم. يقصدون بها نشاطاتِ النقشبنديّين، لالتباسِ هذه الطائفَةِ عليهِمْ بالمسلمين. وهذا يدلُّ على مَدَى جهلِ الجنرالاتِ الأتراك بالاسلام، وعلى عِظَمِ الخوفِ الذي يملأُ قلوبَهُمْ حين يسمعون كلمةَ الإسلام! ذلك، طالَمَا استفزَّ قادةُ الجيشِ بادِّعاءاتِها الْمُغَالِيَةِ وتصريحاتِها التي لا تعدو أنْ تكونَ زوبعةً في فنجان. تارةً ادَّعَوْا أنَّ الرجعيَّةَ قد أخرجتْ قرونَهَا وهي مُحدِقَةٌ بالمجتمعِ، وتارةً خَوَّفُوا الناسَ بـ"الإرهابِ الإسلامِيِّ"، وتارةً بـ"الْخَطَرِ الشيوعِيِّ".. فأثاروا أحيانًا – بمثلِ هذهِ الإدّعاءاتِ – القطاعَاتِ الكماليَّةَ والفاشِيَّةَ، وأحيانًا التجمُّعاتِ اليساريَّةَ والعلوِيَّةَ، فدفعوا بِهَا إلى الشارعِ لِتَصْنَعَ لهم الْمُبَرِّراتِ المطلوبَةَ فتتذرَّعَ بِهَا القوَّاتُ المسلَّحةُ للانقضاضِ على الحكومةِ كُلَّمَا أتاحتْ لها الفرصةُ وهكذا دواليك...

[269] المصدر: العديد من الصحف التُّرْكِيَّة لِشَهْرِ مارس وأبريل/**1971**م.

إنقلاب 12 سبتمبر 1980م.

الكاتبُ المصريُّ محمد صدقي يكفينا مؤنَةَ الحديثِ عن هذا الإنقلابِ فيقول: "كانت إرهاصاتُ انقلاب 1980م. في تركيا قد بدأتْ قبل ذلك التاريخ بِعِدَّةِ سنواتٍ، حيث شهدتْ حُقْبَةُ السبعينيَّاتِ في تركيا صراعًا سياسيًّا حادًّا اتَّخذَ شكلاً عنيفًا وفي بعضِ الأحيانِ دمويًّا بين اليمينِ واليسارِ السياسِيّ هناك، وذلك علي خلفيةِ ارتفاعِ معدَّلِ البطالةِ وتدهوُرِ الأوضاعِ الاقتصاديَّةِ بشكلٍ كبيرٍ، ومحاولةِ كلِّ فصيلٍ السيطرةَ على الأوضاعِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ في البلاد. وكان جانبٌ من الصراعِ أيضًا هو انعكاسٌ للحربِ الباردةِ التي تدورُ بين الولاياتِ الْمُتَّحِدَةِ والاتِّحادِ السوفيتِيِّ (سابقًا) في ذلك الوقت.

استمرَّ الوضعُ في التدهورِ بشكلٍ لافتٍ ولم تستطعْ حكومةُ (سليمان ديميريل)، التي تَمَّ تكليفُهَا في منتصفِ عام 1979م. السيطرةَ على الأوضاعِ ومعالجَةَ الأزمةِ، بل إنَّ معدَّلَ الاغتيالاتِ السياسيَّةِ وصلتْ إلى قتل 30 شخصًا يومياً في عام 1980م.

البعضُ أشارَ أيضًا لِدَوْرِ الجيشِ التُّرْكِيّ في تعزيزِ هذا الصراعِ، بل والعملِ في بعضِ الأحيانِ علي تصعيدِ حِدَّتِهِ حتي يكونَ ذريعةً لِتدخُّلٍ حِاسِمٍ كان يبحث عنه – بل وخَطَّطَ له– منذُ بدايَةِ عام 1979م. وبالفعل في 12 سبتمبر 1980م. قادَ رئيسُ أركانِ القوَّاتِ المسلَّحةِ (كنعان أفرين Kenan Evren) الانقلابَ، فَحَلَّ الْبَرْلَمَانَ، وأطاحَ بحكومةِ ديميريل، وأوقفَ العملَ بالدستورِ، وأعلن الأحكامَ الْعُرْفِيَّةِ.. ومن المثيرِ للدَّهشةِ – ربما وقتَهَا على الأقل– أنَّ أعمالَ الْعُنْفِ توقَّفَتْ بشكلٍ مُفَاجِئٍ بعد الانقلاب، ورحَّبَ البعضُ بهذا الانقلابِ واعتبرَهُ بدايةً لاستعادةِ النظامِ في البلاد!

وعلى الرغم من إعلانِ الجنرال (كنعان أفرين) في أوَّلَ بيانٍ ألقاهُ –بعد الانقلاب– على الشعبِ التُّرْكِيّ: أنَّ هدفَ الانقلابِ هو الْحِفَاظُ على الوحدةِ الوطنيَّةِ، والقضاءُ على الفوضَى والإرهابِ، وإعادةُ الأمنِ والاستقرارِ إلى البلادِ، وإصلاحُ الوضعِ الديمقراطِيّ الذي لَحِقَهُ الفسادُ (وهي الديباجةُ التي يُلقيها عادةً كلُّ قادةِ الانقلاباتِ العسكريَّةِ كمحاولةٍ لكسبِ تأييدٍ شَعْبِيّ لتلك الخطوةِ غير الشرعيَّةِ). على الرغمِ من ذلك فقد خلَّفَ الانقلابُ ضحايا من كلِّ التَّيَّاراتِ السياسيَّةِ والفكريَّةِ. فقد تَمَّ إعدامُ نحو 50 شخصًا، وماتَ نحو مائةٍ آخرين تحتَ التعذيبِ. وخضعَ مئاتُ الآلافِ

لِلْمُحَاكَمَاتِ العسكريَّةِ أو الاعتقالِ. وكان من بينِهِمْ زعماءُ الأحزابِ السياسيَّةِ الذين كان من بينهم "أَرْبَكَانْ"!

"لم يكتفِ (أفرين) بذلك، بل أرادَ أيضًا أن يُؤَمِّنَ نفسَهُ وزملاءَهُ مِمَّنْ شاركوا معه في هذا الانقلابِ، فقام بوضعِ دستورٍ جديدٍ للبلادِ عام **1982**م. يمنحُ صلاحيَّاتٍ وَاسِعَةً لرئيسِ الجمهوريَّةِ، كما يمنحُ حصانَةً قضائيَّةً مَدَي الحياةِ لِمُنَفِّذِي هذا الانقلابِ، ويمنحُ المؤسَّسَةَ العسكريَّةَ مجالاً أوسعَ للتَّدَخُّلِ في الحياةِ السياسيَّةِ، وذلك عن طريقِ مجلسِ الأمنِ القوميِّ MBK.

تَرَشَّحَ (أفرين) عَقِبَ ذلك لرئاسةِ الجمهوريَّةِ في عام **1983**م. في أجواء قمعيَّةٍ ليس فيها أيُّ نوعٍ من التنافُسِ أو تَكَافُؤِ الْفُرَصِ، حيث كان أغلبُ القادةِ السياسيّين – مِمَّنْ كانوا علي الساحةَ قبل الانقلاب– محرومين من مُزَاوَلَةِ أيِّ نشاطٍ سياسيّ."[270]

إنَّ هذه الحقائقَ، لا يكادُ احدٌ في تركيا اليومَ يعارضُها أو يشكُّ فيها. فقد جاءتْ كلماتُ الكاتب محمّد صدقي تعبيرًا عن إتّفاقِ جميعِ السياسيّين الأتراك في موقِفِهم المشترَكِ من انقلابِ **12** سبتمبر؛ على اختلافِ معتقداتِهِمْ، ومذاهِبِهِمْ، ومشارِبِهِمْ، وميولِهِمْ السياسيَّةِ والدينيَّةِ والعرقِيَّة...

ومن ناحيةٍ أخرى؛ فإنَّ هذا الانقلابَ يبرهن على أنَّ تركيا كانت يومئذٍ تعاني من إنعدامِ النُّضْجِ السياسِيّ رغم التجارُبِ التي مرَّتْ بها منذ قيامِ الجمهوريَّة. خاصَّةً وأنَّ هذا الإنقلابَ أثبتَ (بكلِّ ارهاصاتِهِ وعواقِبِهِ وتبِعاتِهِ) أنَّ البِنَاءَ السياسِيَّ للدولةِ التُّرْكِيَّة كان ضعيفًا فتداعَى حين فاجئتْهُ الظروفُ، كما أثبتَ في الوقتِ ذاتِهِ خُلُوَّ المجتمعِ من الوعيِ السياسِيّ.

توالتِ الإرهاصاتُ التي كانت تُنبِئُ عن انفجارِ ثورةٍ عسكريَّةٍ أو حربٍ أهلِيٍّ في تركيا. كان البلدُ بعمومِ أنحائِهِ تَحَوَّلَ إلى مُعتَرَكٍ للفوضَى والشقاقِ والتشرذُمِ والتخريبِ. بدأ الصراعُ بين الفئاتِ والطوائفِ والجماعاتِ والأحزابِ، فما لبث حتَّى احتدمَ القتالُ في الشوارِعِ والساحاتِ بين اليمينِ واليسارِ، وتفاقمتْ جرائمُ الإرهابِ. هذه الأحداثُ بدأتْ منذُ عِدَّةِ سنواتٍ قبلَ الإنقلابِ حيثُ شَهِدَتْ حُقْبَةُ السبعينيَّاتِ صِرَاعًا عنيفًا بين كياناتٍ مشبوهةٍ وعصاباتٍ وطوائفَ عرقِيَّةٍ ودينيَّةٍ

---

[270] المصدر:

http://www.nahdaislah.com/article/528-%D8%A3%D8%B1%D8%AF%D9%88%D8%BA%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D9%87%D8%A8.aspx

بعضُها يَتَبَنَّى الأيديولوجيةَ اليساريَّةَ، وبعضُها يَنْتَمِي إلى اليمين الفاشِيّ، يستغلُّ الجماعاتِ النقشبنديَّةَ ويُجَنِّدُها في مواجهاتِها ضدَّ اليسارِيّينَ...

تحوَّلَ الصراعُ من المشاجراتِ الفكريَّةِ إلى استعمالِ العنفِ بشكلٍ دَمَوِيٍّ بعدَ منتصفِ العقدِ السابعِ. وهذه قائمةٌ مُخْتَصَرَةٌ بأسْماءِ شخصيَّاتٍ بارزةٍ قُتِلُوا غِيلةً قُبَيْلَ الإنقلابِ:

1) الدكتور بدر الدين جُومَرتْ Dr. Bedrettin Cömert، أحدُ أساتذةِ جامعةِ حَاجَتْ تَبَهْ Hacettepe Universitiy: قُتِلَ في أنقره برصاص الإرهابيِّين الفاشِيِّين يوم: **11** يوليو **1978**م.

2) غَنِي بُوزْأَرْسلاَن Gani Bozarslan: شاعرٌ كردِيٌّ، وعضوُ حزبِ العمَّالِ والقروِيّين الأتراك TİKP، شوهد جثمانُهُ على ساحل البسفور في ميناء الحَرَم بإسطنبول، يوم **10** مايو **1978**م. قيل إنه قُتِيلَ بإيعازٍ من رئيسِ الحزبِ: دُوغُو بَرِينْجَكْ Doğu Perinçek.

3) عَبْدِي إِيبَكْجِي Abdi İpekçi (يهودي الأصل)، رئيسُ تحرير صحيفةِ (مِلِّيَّتْ Milliyet): قُتِلَ في إسطنبول برصاصِ أحدِ الإرهابيّين الفاشِيّين: محمد علي آغْجَا Mehmet Ali Ağca. وذلك يوم: **01** فبراير **1979**م. (حاولَ هذا الشخصُ نفسُهُ اغتيالَ بابا بولص الثاني في روما يوم **13** مايو **1981**م.)

4) جَيْحُون جَانْ Ceyhun Can (ناشطٌ يسارِيٌّ)، أمينُ حزبِ الْعُمَّالِ التُّرْكِيّ، فرعِ أضَنَهْ: قُتِلَ في مدينة أَضَنَهْ برصاصِ الإرهابيِّين الفاشِيِّين يوم: **10** سبتمبر **1979**م.

5) فِكْرَتْ أُونْصَالْ Fikret Ünsal (ناشط يساري)، نائبُ رئيسِ جامعةِ جُوكُورُوفَا: قُتِلَ أمامَ مَنْزِلِهِ في مدينةِ أَضَنَهْ برصاصِ الإرهابيّين الفاشِيِّين يوم: **10** سبتمبر **1979**م.

6) مُرْسَل كَارَاتَاشْ Mursel Karataş (ناشط عنصري)، طالبٌ في كلّيةِ الإقتصاد (أنقره): قُتِلَ في إسطنبول برصاصِ الإرهابيِّين اليساريِّين يوم: **19** سبتمبر **1979**م.

7) جواد يُورْدَاكُولْ Cevat Yurdakul، مديرُ أمنِ مدينةِ أضنه: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيِّين الفاشِيِّين داخلَ سيارتِهِ يوم **28** سبتمبر **1979**م.

8) إحسان دَارَنْدَلِي أُغلو İhsan Darendelioğlu**، نائبٌ مِنْ نُوَّابِ حزبِ العدالةِ (سابقًا) ورئيسُ جمعيةِ مكافحةِ الشيوعيَّةِ: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين اليساريّين في إسطنبول يوم: 19 نوفمبر 1979م.**

9) أُمِيدْ دُوغَانْجَاي Ümit Doğançay**، نائبُ رئيسِ جامعةِ إسطنبول: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين الفاشِيّين في إسطنبول يوم: 20 نوفمبر 1979م.**

10) كمال فدائي Kemal Fedai**، صاحِبُ مجلةِ فدائي: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين اليساريّين في إسطنبول يوم: 03 ديسمبر 1979م.**

11) الدكتور جاويد أورهان تُوتَنْجِيلْ Cavit Orhan Tütengil**، قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين الفاشِيّين في إسطنبول يوم: 07 ديسمبر 1979م.**

12) أُمِيد قَفْطَانْجِي أُوغْلُو Ümit Kaftancıoğlu**، المُخرجُ في إذاعةِ إسطنبول: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّ الفاشِيّ أحمد مصطفى كِيفِيلْجِيم** Ahmet Mustafa Kıvılcım **في إسطنبول يوم: 11 أبريل 1980م.**

13) جون سازاك Gün Sazak**، نائبُ رئيسِ حزبِ الحركةِ القوميَّة: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين اليساريّين في أنقره يوم: 27 أبريل 1980م.**

14) علي رضاء آلْتُونُوكْ Ali Rıza Altınok**، نائبُ رئيسِ مكتبِ حزبِ الحركةِ القوميَّة: قُتِلَ برصاصِ الإر هابيّين اليساريّين (مع زوجتِهِ وابْنَتِهِ داخلَ منزلِهِ بِحَيِّ غازي عثمان باشا) في إسطنبول يوم: 24 يونيو 1980م.**

15) عبد الرحمن كُوكْصَالْ أُوغْلُو Abdurrahman Köksaloğlu**، مِنْ نُوَّابِ حزبِ الشعبِ الجمهوريّ: قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين الفاشِيّين في إسطنبول يوم: 15 يوليو 1980م.**

16) نِهَادْ أَرِيمْ Nihat Erim**، رئيسُ الوزراءِ الأسبق: قُتِلَ برصاص الإرهابيّين من أقصى اليسار، قُتِلَ أثناءَ خروجِهِ مِنْ نادِي دَرَاجُوسْ البحري، في إسطنبول يوم: 19 يوليو 1980م.**

17) **كمال تُورْكْلَرْ** Kemal Türkler، رئيسُ نقابَةِ (معدن–إيش Maden-İş): قُتِلَ برصاصِ الإرهابيّين الفاشِيّين في إسطنبول يوم: **22** يوليو **1980**م.

لا شكَّ في أنَّ هذه الأحداثَ غَيضٌ من فَيضٍ، يَصْعُبُ حصرُهَا على أيّ باحثٍ لكثرتِهَا من جانبٍ ولِخطورةِ ما قد يَنْجُمُ من تَتَبُّعِ صفحاتِهَا![271]

---

[271] وهذه قائمةٌ بأسماءِ عددٍ من المقتولين غيلةً في أوقاتٍ وأماكِنَ مختلفةٍ على مدى العقدين السابعِ والثامنِ من القرنِ المنصرمِ، مع ذكرِ العامِ والشهرِ واليوم الّذي وقعُوا ضحيَّةً بسلاحِ عَنَاصِرَ مجهولةٍ من أفرادِ الدولةِ العميقةِ. وردتْ مسجَّلَةً باللُّغةِ التُّركيَّةِ عَبْرَ السطورِ التاليةِ على هذا الرابط:

http://jitemciler.blogspot.com.tr/2010/11/faili-mechuller.html#more

Hüseyin Morsümbül 800918 Bingöl, Cemil Kırbayır 801009 Kars, Hayrettin Eren 801210 İstanbul, Mahmut Kaya 801225 Kars, Zeki Altınbaş 810400 Yalova, Nurettin Yedigöl 810410 Istanbul, Gürkan Mungan 831200 Ankara, İsmail Cüneyt 831200 İstanbul, Nurettin Öztürk 840400 Ankara, Ömer Savun 890506 Siirt, Hüseyin Demirtaş 890526 Siirt, Adnan Bağca 900611 Siverek, Yusuf Erişti 910314 İstanbul, Süleyman Atalan 910916 Midyat, İbrahim Gündem 910925 Hazro, Hüseyin Toraman 911027 İstanbul, Mehmet Demir 920110 Siirt, Durmuş Çaylak 920209 Fethiye, Soner Gül 920504 İstanbul, Hüseyin Yaman 920504 İstanbul, Hasan Gülünay 920720 İstanbul, Mehmet Ertak 920822 Şırnak, Ayhan Efeoğlu 921006 İstanbul, Namık Erkek 921219 Mersin, Ali Kırlangıç 930307 İstanbul, İbrahim Akıl 930614 Şırnak, Şemdin Culaz 930614 Şırnak, Salih Demirhan 930614 Şırnak, Halit Özdemir 930614 Şırnak, Hamdi Şimşek 930614 Şırnak, Hikmet Şimşek 930614 Şırnak, Yüksel Alptekin 930706 İstanbul, İhsan Uygur 930706 İstanbul, Erdoğan Şakar 930813 İstanbul, Abdülvahap Timurtaş 930814 Silopi, Serhan Dehmen 930908 İstanbul, Muhsin Taş 931014 Cizre, Bahri Kağanaslan 931029 D.bakır, Şefik Geçgel 931111 Siverek, Üzeyir Kurt 931125 Bismil, Ahmet Çakıcı 931128 Hazro, Ahmet Kalper 931206 Siverek, Hüseyin Taşkaya 931206 Siverek, Faik Kevci 931208 Siverek, Hüseyin Karalı 931209 Siverek, Beşir Bulut 940000 Batman, Şerif Budak 940000 Cizre, Resul Şakar 940000 Cizre, Abdullah Aksoy 940000 Derik, Hüseyin Aksoy 940000 Derik, Salih Aksoy 940000 Derik, Eyüp Akdemir 940000 Diyarbakır, Salih Çelik 940000 Diyarbakır, Sinan Özkaya 940000 Diyarbakır, Abdullah Pişkin 940000 Eruh, Abdülvahap Koçer 940000 Erzurum, Mahmut Koçer 940000 Erzurum, Hacı Sait 940000 Güçlükonak, Mehmet Günkan 940000 Hani, Mehmet Selim 940000 Hani, Ahmet Demirel 940000 Hazro, Mehmet Aktaş 940000 Hozat, Nejat Çelebi 940000 Hozat, Ahmet Ocun 940000 İdil, Abdullah Tekin 940000 İdil, Mehmet Tunç 940000 Kızıltepe, Kudusi Adıgüzel 940000 Kulp, Mirza Ateş 940000 Kulp, Ahmet Tekin 940000 Kulp, Ahmet Batur 940000 Kulp, Hüseyin Haran 940000 Lice, Süheyla Karakaya 940000 Lice, Şakir Öner 940000 Lice, Mahmut Özer 940000 Lice, Hikmet Şahin 940000 Lice, Halil Acar 940000 Midyat, İsmail Akan 940000 Midyat, Kasım Ay 940000 Nusaybin, Hüseyin Ulucan 940000 Ovacık, Sıddık Bingöl 940000 Şemdinli, Şirin Serin 940000 Şemdinli, Şükrü Güler 940000 Urfa, Ali Bekir 940000 Viranşehir, Eyüp Kaplandere 940000 Viranşehir, Yeter Serin 940000 Yüksekova, Bayram Tekin 940000 Yüksekova, Hasan Tekin 940000 Yüksekova, Burhan Aksi 940000, Nuri Aksi 940000, Selami Aksi 940000, Mehmet Ekti 940000, Hasan Selim 940000, Ahmet Işık 940100 Bitlis, Seyfettin Işık 940100 Bitlis, Aziz Alptekin 940100 Midyat, Hüseyin Uğurlu 940100 Muş, Ali Efeoğlu 940105 İstanbul,
Fethi Yıldırım 940105 Viranşehir, Bahattin Sürücüoğlu 940200 Antalya, İbrahim Adak 940200 Cizre, İskan Aslan 940200 Cizre, Hasan Baykara 940200 Cizre, Halil Gürel 940200 Cizre, Ali Karagöz 940200 Cizre, Kemal Mübariz 940200 Cizre, Guri Özel 940200 Cizre,
Şevki Şeker 940200 Hasankeyf, Enver Özmen 940200 Hizan, Ercan Cihangir 940200 Isparta,
Ramazan Şarlı 940200 Tatvan, Nihat Cazan 940200 Yüksekova, Mustafa Beysu 940201 Pazarcık, Memiş Halıgür 940201 Pazarcık, Hasan Kiraz 940201 Pazarcık, Hasan Sonzamancı 940201 Pazarcık, Yusuf Tunç 940209 Kızıltepe, Ali Cengiz 940211 Kulp,
Tekin Pusa 940211 Kulp, Medeni Bican 940211 Silvan, Seyfettin Gürel 940211 Silvan, Ali Katar 940211 Silvan, Ramazan Oktay 940213 Hani, Halim Akın 940215 Diyarbakır,
Şehmuz Güzel 940216 İskenderun, Cüneyt Aydınlar 940220 İstanbul, M.Mehdi Akdeniz 940220 Kulp, Süleyman Doğan 940221 Elbistan, Halil Akyanak 940226 Cizre, Mahmut Yıldız 940226 Cizre, Hatip Yapıştır 940304 Derik, Cemile Şarlı 940306 Tatvan, Nazım Babaoğlu 940312 Urfa, Ercan Cihangir 940316 Malazgirt, Zeynel Kürsad 940323 Batman,
A. Kerim Pusat 940329 Cizre, İlhan Aksi 940329 Silvan, İhsan Çiçek 940329 Silvan, Turan Çiçek 940329 Silvan, Selahattin Gösteren 940329 Silvan, Seyfettin Gösteren 940329 Silvan,
Vahap Gösteren 940329 Silvan, İbrahim Gözetir 940329 Silvan, Mehmet Gözetir 940329 Silvan, Evren... 940329 Silvan, Halit Saray 940400 Eruh, Abdülsamet Şahin 940400 Yüksekova, Osman Geçer 940401 Adana, Kazım Sağın 940402 Şemdinli, Salih Kara 940409 Urfa, Piro Ay 940416 Derik, Ali Kılıç 940419 Güçlükonak, Salih Kılıç 940419 Güçlükonak,
Ahmet Ökmen 940422 Adana, Cihat Tunç 940422 Adana, Murat Tunç 940422 Adana,
Cemil Kara 940425 Uludere, Hüseyin Kara 940425 Uludere, M.Tahir Kara 940425 Uludere,
Salih Kara 940425 Uludere, Nazlı Aslan 940500 Ahlat, Ebubekir Coşkun 940500 Ahlat,
Sadullah Coşkun 940500 Ahlat, Mirali Timur 940500 Ahlat, Cahide Bayram 940500 Cizre, Kamil Bayram 940500 Cizre, Süleyman Bayram 940500 Cizre, Mehmet Tanrıverdi 940508 Lice, Muharrem Tanrıverdi 940508 Lice, Fikret Biçer 940509 Silvan, Şahin Biçer 940509 Silvan, Cemal Bilen 940509 Silvan, Halil Demirtoz 940509 Silvan, Fevzi Kızılırmak 940512 Eleşkirt, Osman Kızılırmak 940512 Eleşkirt, Resul Kızılırmak 940512 Eleşkirt, Ali Bulut 940513 Lice, Ekrem Bulut 940513 Lice, Ramazan Bulut 940513 Lice, Kasım Alpsoy 940518 Adana, Fahri Bulut 940518 Lice, Mustafa Bulut 940518 Lice, Ali İhsan Çiçek 940518 Lice, Çayan Çiçek 940518 Lice, Tahsin Çiçek 940518 Lice, İkram İpek 940518 Lice, Servet İpek 940518 Lice, Seyithan Yolur 940518 Lice, İlyas Edip Diril 940519 B.şebap, Zeki Ercan Diril 940519 B.şebap, Halide Tüzer 940520 Antalya, Veysi Tüzer 940520 Antalya, Mehmet Can Ayşin 940524 Lice, Cezayir Orhan 940524 Lice, Hasan Orhan 940524 Lice, Mehmet Selim Orhan 940524 Lice, Metin Yılgan 940525 Diyarbakır, Besra Yılgın 940525 Diyarbakır, Memduh Ökmen 940528 Mardin, Hasan Aksu 940600 Mardin, Mehmet Saim 940600 Siirt, Kemal Çelik 940605 Kulp, Vedat Çelik 940605 Kulp, Muhsin Ekinci 940605 Kulp, Cemal Kahraman 940605 Kulp, Sinan Fidan 940606 Diyarbakır, Hacı İsa Gök 940612 Batman,

Ahmet Aslan 940628 Ağrı, Kazım Aslan 940628 Ağrı, M. Zeki İlkan 940628 Ağrı, Mehmet Kaya 940628 Ağrı, Alaaddin Nehir 940628 Ağrı, Ali Rıza Kılıç 940700 Adana, A. Haydar Eren 940700 Pülümür, İsa Gül 940700 Pülümür, Hanifi Boğa 940701 Diyarbakır, Mahmut Kaya 940701 Diyarbakır, Mehmet Yaşa 940701 Diyarbakır, Recai Aydın 940702 Çınar, Hüseyin Çelik 940704 Diyarbakır, Ahmet Ankol 940708 Lice, Ahmet Karakuş 940708 Lice, Cuma Karakuş 940708 Lice, Hanifi Karakuş 940708 Lice, Mahmut Karakuş 940708 Lice, Mehmet Karakuş 940708 Lice, Recep Karakuş 940708 Lice, Hidayet Mamik 940708 Lice, Mehmet Özden 940708 Lice, Süleyman Çakar 940709 Beşiri, Halit Yakacı 940709 Hani, A. Gani Yıldız 940709 Hani, Abdullah Yıldız 940709 Hani, Nuri Kalçık 940709 Kozluk, Resul Ay 940709 Nusaybin, Ubeydullah Karatekin 940710 Diyarbakır, Ahmet Tümrit 940710 Diyarbakır, Fehmi Aslan 940713 Yüksekova, Hasan Bayram 940713 Yüksekova, Abdülnasır (Nasır) Tekin 940713 Yüksekova, H.Hamdi Yardımcı 940713 Yüksekova, Refik Yardımcı 940713 Yüksekova, Tuncay Yemen 940713 Yüksekova, Ebubekir Aras 940715 Cizre, Ahmet Özdemir 940718 Genç, Zeki Özdemir 940718 Genç, Faris Toy 940719 Beşiri, Lezgin Toy 940719 Beşiri, Mehmet Toy 940719 Beşiri, Abdülgani Dağ 940723 Nusaybin, Casım Çelik 940724 Şemdinli, Mirhaç Çelik 940724 Şemdinli, Yusuf Çelik 940724 Şemdinli, Abdullal İnan 940724 Şemdinli, Kemal İzce 940724 Şemdinli, Aşur Seçkin 940724 Şemdinli, Naci Şengül 940724 Şemdinli, Salih Şengül 940724 Şemdinli, Sıddık Şengül 940724 Şemdinli, Cebbar Sevli 940724 Şemdinli, Reşit Sevli 940724 Şemdinli, Hurşit Taşkın 940724 Şemdinli, Resul Çakar 940727 Beşiri, Ahmet Akın 940800 Adana, Halil Dündar 940800 Adana, Fehime Sarhan 940800 Adana, Hasan Üzüm 940800 Adana, Mahmut Demirel 940800 Batman, Mehmet Salim Acar 940800 Bismil, Eyüp Demir 940800 Çemişgezek, Çimen Çiçek 940802 Eruh, Halit Deniz 940802 Eruh, Reşit Elçiçek 940802 Eruh, Salih Kaya 940802 Eruh, Murat Yaman 940803 Doğanşehir, Kadir Ekin 940806 Hani, Ömer Ekin 940806 Hani, Mahmut Yılmaz 940806 Hani, Kemalettin... 940806 Hani, Yusuf Kocabey 940807 Adana, Davut Üzüm 940809 Adana, Resul Saçan 940809 Batman, Mahmut Yaman 940809 Malatya, Doğan Yıldırım 940809 Malatya,
Haşim Yıldırım 940809 Malatya, İbrahim Yıldırım 940809 Malatya, Hayrettin Tatlı 940813 Batman, İsmail Mete 940814 Nusaybin, Mahmut Mete 940814 Nusaybin, İbrahim Kartay 940817 Hani, Safura Yıldırım 940831 Nusaybin, M. Şirin Özalp 940900 Beşiri, Veysi Kırmızıgül 940900 Burhaniye, Murat Yardımcı 940900 Burhaniye, İzzettin Bilginç 940900 Cizre, Nezir Demir 940900 Cizre, Nizamettin Demir 940900 Cizre, Zeki Dağ 940900 Diyarbakır, Şehmuz Gök 940900 Nusaybin, Seyhan Gök 940900 Nusaybin, Aziz Tunç 940900 Nusaybin, Mehmet Zengin 940900 Nusaybin, İbrahim Gencer 940900 Tunceli, Elif Işık 940900 Tunceli, Hatun Işık 940900 Tunceli, Hıdır Işık 940900 Tunceli, Yeter Işık 940900 Tunceli, Dilek Serin 940900 Tunceli, Düzali Serin 940900 Tunceli, Gülizar Serin 940900 Tunceli, Türkan Aydın 940901 Adana, Resul Öztop 940901 Adana, Tarık Taş 940901 Adana, Emin Unay 940901 Adana, Mehmet Yamaç 940901 Adana, Mahmut Saim 940902 Adana, Lütfiye Kaçar 940905 İstanbul, Reşit Orak 940906 Tatvan, Yüksel Uğurlu 940908 Suruç, Hasan Halmert 940910 İdil, Kenan Bilgin 940912 Ankara, Erdal Karaçalık 940913 İstanbul, Derviş Taş 940915 Tatvan, İsmail Atay 940916 Tunceli, Mehmet Serik 940917 Diyarbakır, İzzettin Akgün 940919 Kurtalan, Rahime Ergin 940920 Cizre, Bedri 940920 Cizre, Sabiha… 940920 Cizre, Selman… 940920 Cizre, İdris Bakır 940923 Adana, Neslihan Uslu 940927 Mersin, A. Kerim Mecefoğlu 940928 Mersin, Ali Gür 941000 Mazgirt, M. Zeki Kılıç 941000 Ankara, Rıdvan Temiz 941000 Derik, Ahmet Ağgün 941000 Hozat, Ahmet Akbaş 941000 Hozat, Müslim Aydın 941000 Hozat, Nazım Gülmez 941000 Hozat, Adnan Şeker 941000 Hozat, Veli Yeşil 941000 Hozat, Bahri Menteş 941000 İstanbul, İbrahim Gezer 941000 Mazıdağı, İlhan Aslan 941000 Silopi, Kazım Çay 941000 Tunceli, Hıdır Öztürk 941000 Tunceli, Hasan Şaraoğlu 941000 Tunceli, Seyit Ali Şaraoğlu 941000 Tunceli, Murat Güzel 941002 İstanbul, İzzettin Kılıç 941004 Bismil, Turgut Yenisoy 941004 Bismil, Selim İşler 941004 Karlıova, Salih Şahin 941010 Mersin, Salih Toraman 941010 Mersin, Sadık Sülük 941014 Adana Sedat Akgök 941018 Diyarbakır, Abdullah Öner 941018 Diyarbakır, İbrahim Gezer 941019 Elbistan, Faysal Dal 941100 Diyarbakır, Ahmet Öztürk 941100 Kulp, Vasıf Öztürk 941100 Kulp, Bayram Bal 941100 Nusaybin, Hamit Bal 941100 Nusaybin, Saruhan Bal 941100 Nusaybin, Ozan Gürbüz 941100 Suruç, Fikret Yağan 941102 Karakoçan, Cemil Yakut 941106 Lice, Nurettin Yakut 941110 Nusaybin, Ahmet Yetişen 941114 Batman, Ali Yetişen 941114 Batman, Alaattin Yalçın 941115 Viranşehir, Şehmuz Özen 941116 Mardin, Mehmet Özer 941117 Kızıltepe, İskender Güneş 941124 Edirne, Ali Tekdağ 941126 Diyarbakır, Ender Toğcu 941129 Diyarbakır, İsmail Toğcu 941129 Diyarbakır, Mehmet Ay 941129 Nusaybin, Mursal Zeyrek 941129 Silopi, Eyüp Yaşar 941129 Yüksekova, Abdullah Ağaya 941200 Batman, Abdullah Kızıler 941200 Diyarbakır, Osman Akyal 941200 Ömerli, Şerafettin Ersoy 941200 Ömerli, İzzettin Gültekin 941200 Ömerli, Aslan Yılmaz 941200 Ömerli, Jale İzzetoğlu 941201 İstanbul, Ali Çakar 941201 Ömerli, İsmail Fidan 941201 Ömerli, Ahmet Salman 941201 Ömerli, Ali Salman 941201 Ömerli, Bedran Salman 941201 Ömerli, Mehmet Salman 941201 Ömerli, Kerim Ütgen 941201 Ömerli, Rıfat Ütgen 941201 Ömerli, Aslan... 941201 Ömerli, Behram Taşman 941203 Midyat, Veysi Bilir 941207 Bismil, Mehmet Ader 941207 Diyarbakır, Şirin Ader 941207 Diyarbakır, Hasan Hüseyin Bülbül 941210 Karlıova, Hüseyin Subaşı 941211 Bismil, Kasım Batu 941212 Cizre, Nezihe Batu 941212 Cizre, Salih Batu 941212 Cizre, Gazi Akçay 941213 Midyat, Remo Atay 941213 Midyat, Tacettin Atay 941213 Midyat, Hüseyin Bülbül 941213 Midyat, Şerif Çiçek 941213 Midyat, Seyit Çiçek 941213 Midyat, Naif Demir 941213 Midyat, Nesif Durmuş 941213 Midyat, İrfan Korkar 941215 Diyarbakır, Ramazan Korkar 941215 Diyarbakır, İsmet Atlı 941215 Hatay, İlhan Dilmen 941215 Nusaybin, Abdullah Efeli 941215 Şırnak Cizre, İhsan Efeli 941215 Şırnak Cizre, İsmail Ceren 941217 Dörtyol, Seyfettin Esmer 941219 Bismil, Oktay Çakmak 941221 İstanbul, Turgut Tan 941221 İstanbul, İhsan Haran 941224 Diyarbakır, İsmail Bahçeci 941224 İstanbul, M. Şirin Bahçeci 941224 İstanbul, Şehmus Tanık 941225 Mardin, Cemil Çiçek 941229 Mersin, Yılmaz Özdemir 950000 Antep, Yusuf Aktaş (Ertaş) 950000 Başkale, M.Emin Yılmaz 950000 Başkale, Halil Aydemir 950000 Batman, Hatice Şimşek 950000 Bismil, Cemil Aslan 950000 Diyarbakır, Eşref Bayram 950000 Diyarbakır, M.Zafer Demirkıran 950000 Diyarbakır, Metin Yıldız 950000 Ergani, Ramazan Çelik 950000 Genç, Hüseyin Kaya 950000 Genç, Mehmet Morgül 950000 Genç, Reşit Yılmaz 950000 Genç, Mehdin Çelik 950000 Genç/Akçadağ, Ömer Soğüt 950000 Lice, Hüseyin Bilen 950000 Ovacık, İmam Uzun 950000 Ovacık, Kamil Yuva 950000 Tekman, Ahmet Yaman 950000 Uludere, Mustafa Çelik 950000 Urfa, Yusuf Kestop 950000 Urfa, Bülent Türkmen 950000 Urfa, M. Şirin Mutlu 950100 Batman Kozluk, Nihat Mutlu 950100 Batman Kozluk, Veli Osmanoğlu 950100 Diyarbakır, Ahmet Çelik 950101 Elazığ, Bahri Kaya 950107 Diyarbakır, Umut Kaya 950107 Diyarbakır, Mehmet Emin Abak 950114 Mardin, Bedri Algan 950125 Diyarbakır, Halil Tunç 950200 Batman, Bedri Olmaz 950200 Diyarbakır Bismil, Muhittin Olmaz 950200 Diyarbakır Bismil, Muhittin Aslan 950200 Midyat, Nihat Aslan 950200 Midyat, Murat Algan 950201 Diyarbakır, Hakan Durmaz 950205 Yüksekova, Murat Yıldız 950223 İzmir, Tarık Yıldız 950223 İzmir, Celal Ersöz 950300 Ankara, Cahit Özver 950300 Kızıltepe, Tarık Ümit 950302 İstanbul, Naif Demir 950306 Çukurca, Ali İhsan Alabalık 950329 Kızıltepe, Zeki Alabalık 950329 Kızıltepe, A. Baki Birlik 950329 Kızıltepe, Kemal Birlik 950329 Kızıltepe, Zeki Birlik 950329 Kızıltepe, Zübeyir Birlik 950329 Kızıltepe, Ertan Biçer 950400 Mersin, M.Ali Şeker 950403 Gercüş, Abdullah... 950403 Gercüş, İbrahim... 950403 Gercüş, Şevki.... 950403 Gercüş, Mehmet Alcan 950410 D.bakır, Ali İhsan Dağlı 950414 Silvan, Nezir Dağlı 950414Silvan, M. Sait Tekçi 950428 Yüksekova, Nezir Tekçi 950428 Yüksekova, Abdullah Akın 950500 Adana, Edip Zengin 950506 Midyat, M. Sait Zengin 950506 Midyat, Ali Deniz 950524 Lice, Kasım Deniz 950524 Lice, Hamdin Yıldırım 950524 Lice, Serhat Osmanoğlu 950600 Diyarbakır, Naşide Türkekul 950600 Diyarbakır, Serbest Türkekul 950600 Diyarbakır, A. Rahman Elçi 950600 Eruh, Ömer Yılmaz 950600 Eruh, Davut Ceyhan 950600

Hakkari, İbrahim Ceyhan 950600 Hakkari, Naif Ceyhan 950600 Hakkari, A. Rahman Demir 950600 Hakkari, Recep Demir 950600 Hakkari, İbrahim Sevmiş 950600 Hakkari, Fevzi Seyhan 950600 Hakkari, M. Emin Kızılsu 950603 Diyarbakır, Ahmet Yakacı 950603 Lice, Orhan Yakacı 950603 Lice, Mehmet Gül 950604 Erzincan, M. Nuri Kelekçi 950619 Batman, Selahattin Akbulut 950620 Bismil, Kazım Gündüz 950700 Diyarbakır, Sebo Sevilen 950700 Viranşehir, Ahmet Pehlivan 950704 İstanbul, Servet Pehlivan 950704 İstanbul, Bedri Balta 950704 Lice, Selim Bayram 950708 Hazro, Servet Bayram 950708 Hazro, Selim Acar 950721 Midyat, Ahmet Yıldız 950722 Diyarbakır, Mehmet Yıldız 950722 Diyarbakır, Abdurrahman Demir 950800 Derik, Abdullah Eken 950800 Diyarbakır, Mehmet Doğan 950800 Gazi Antep, Mehmet Asay (Asan) 950800 Söke, Mustafa Saygı 950800 Suruç, Mehmet Aktay 950805 İstanbul, Bahri Esenboğa 950813 Güçlükonak, İlhan İbak 950813 Güçlükonak, Ahmet Özdemir 950813 Güçlükonak, Ahmet Özer 950813 Güçlükonak, Fikri Şen 950813 Güçlükonak, Abdurrahim Demir 950817 Kızıltepe, Osman Demir 950817 Kızıltepe, Makso Ağırman 950824 Midyat, Zeki Sever 950825 Tekman, Osman Buluttekin 950826 Kulp, Reşit Buluttekin 950826 Kulp, Reşit Yıldız 950827 Nusaybin, Şehmuz Yıldız 950827 Nusaybin, Hayri Göktaş 950900 Tunceli, Selami Şimşek 950900 Tunceli, Sinan... 950900 Tunceli, Cemil Eroğlu 950903 Batman, Şehmuz Eroğlu 950903 Batman, Hamza Güneri 950911 Ağrı, Cemil Çelik 950926 Ömerli, M. Emin Çelik 950926 Ömerli, Erol Yıldırım 951000 Divriği, Mustafa Yıldırım 951000 Divriği, Ali Toprak 951000 Divriği, Hüsnü Çetinkaya 951010 Midyat, Kerevan Ertaş 951015 Başkale, Yusuf Ertaş 951015 Başkale, Beşir Sayın 951015 Başkale, Yusuf Sayın 951015 Başkale, Beşir Yılmaz 951015 Başkale, Haydar Yılmaz 951015 Başkale, Fehmi İzmez 951015 Silopi, Fehmi Tosun 951019 İstanbul, Düzgün Tekin 951021 İstanbul, Mahfuz Tanrıverdi 951026 Diyarbakır, Nedim (12) Akyön 951029 Dargeçit, Davut (12) Altunkaynak 951029 Dargeçit, M.Emin (19) Aslan 951029 Dargeçit, Abdurrahman (12) Coşkun 951029 Dargeçit, Seyhan (13) Doğan 951029 Dargeçit, Abdurrahman (12) Olcay 951029 Dargeçit, Abdüllatif Yağızay 951100 Nusaybin, Ömer Yağızay 951100 Nusaybin, Abdullah Yağlı 951100 Nusaybin, Şemsettin Yağlı 951100 Nusaybin, Necim Çelik 951100 Ömerli, Musa Göktaş 951111 Diyarbakır, Mikdat Özeken 951127 Yüksekova, Münir Sarıtaş 951127 Yüksekova, Şemsettin Yurtseven 951127 Yüksekova, Müslüm Güler 951208 Diyarbakır, Yakup Aslan 951217 Diyarbakır, İsa Aydın 951221 Dicle, Asiye Doğan 951224 Dargeçit, Eyüp Karabey 951227 Yüksekova, Mahir Karabey 951227 Yüksekova, M. Emin Fındık 951231 Silopi, Ömer Kartal 951231 Silopi, Sabah Çoruç 960000 Bismil, Tekin Demir 960000 Diyarbakır, Aziz Kurtulmaz 960000 Elazığ, Hazım Ünver 960000 Silopi, Hanifi Yaman 960105 Lice, Bilal Turan 960108 İstanbul, Yusuf Işık 960109, Beşir Deniz 960111 Nusaybin, Alaattin Kılıç 960111 Nusaybin, Mustafa Yıldırım 960111 Nusaybin, Ahmet Çelik 960118 Hazro, Osman Filiz 960120 Adana, Cemal Aktay 960124 Diyarbakır, M, Şirin Göl 960201 Hazro, Ahmet Oğuz 960202 İstanbul, M.Emin Şenocak 960209, Ejder Levent 960210 Bismil, Mahmut Dağ 960213 Payaz, Mehmet Özenç 960216 Ankara, Yahya Temur 960217 Diyarbakır, Latif Başçı 960217 Gercüş, Veysel Olcu 960221 Adana, Mehmet Sezer 960300 Arıcak, Recep Çiçek 960300 Kozluk, Şefika Şahin 960303 Varto, Abdullah Taş 960303 Varto, Hicri Kutbehan 960304 Mazıdağ, Muhterem Özer 960305 Diyarbakır, Adil Çakır 960310 Lice, Necmettin Emeç 960312 Savur, Talat Türkoğlu 960401 İstanbul, Hacı Çelik 960404 Diyarbakır, Mehtap Çelik 960404 Diyarbakır, Hasan Kavak 960404 Diyarbakır, Eylem... 960404 Diyarbakır, İbrahim... 960404 Diyarbakır, A. Kadir Coşkun 960410 İstanbul, M. Sekan 960410 İstanbul, Hasan ... 960500 Bingöl, Hikmet Karaca 960501 Habur, H. Mehmet Gündüz 960501 Kulp, Mehmet Ekinci 960523 Kozluk, Muhyettin Ekinci 960523 Kozluk, Ayten Kaya 960523 Kozluk, Sabri Kaya 960523 Kozluk, Lezgin Akay 960600 Dargeçit, Fehmi Çelik 960611 Lice, Aziz Okçu 960611 Lice, Mevlüt Aydoğan 960614 İstanbul, Kadriye Korkmaz 960618 İstanbul, Cemal Başbuğ 960619 Lice, Heybet Çiçek 960619 Lice, Vedak Akyol 960620 Derik, Sadık Erdil 960626 Halfeti, H.Kamber Kaplan 960626 Halfeti, Fahri Balyeci 960636 Diyarbakır, İsa Efe 960708 Derik, Mücahit Ekengil 960716 Silvan, Hikmet Kara 960716 Silvan, İbrahim Malgir 960721 Çınar, Mikal Temiz 960721 Çınar, Ender Kelekçi 960725 Bismil, Yıldırım… 960725 Karamürsel, Kadir Karaoğlu 960800 Diyarbakır, Ali Haydar Kaya 960800 Silvan, Orhan Karabağ 960810 Karlıova, Mehmet Çelik 960813 Lice, Selim Kaya 960813 Lice, Hüseyin (Muhtar) 960813 Lice, Sabri… 960813 Lice, Selahattin Aşkan 960824 Hakkari, Ahmet Bozkurt 960824 Hakkari, Salih Ertuş 960824 Hakkari, Lokman Kaya 960824 Hakkari, Süleyman Tekin 960824 Hakkari, Orhan Yakar 960900 Bingöl, Hasan Oduncu 960900 Silopi, İkram Oduncu 960900 Silopi, Aziz... 960917 Diyarbakır, Sait Demir 960918 Nusaybin, İrfan Aslan 961023 Pertek, Ali Geçgel 961023 Pertek, Nihat Kaya 961023 Pertek, Bedir Taşkale 961023 Pertek, Hıdır Öztürk 961031 Diyarbakır, Hakkı Kaya 961100 D.bakır, Şirin Bayram 961104 Kulp, Ramazan Tekin 961104 Kulp, Mehmet Bilgiç 961107 Silopi, H. Halil Birlik 961107 Silopi, Hasan Geçgel 961123 Pertek, Selahattin Gümürcü 961125 D.bakır, Kadir Acar 961129 Diyarbakır, Süleyman Anıl 961130 Mersin, İsmet Güngör 961201 Hizan, Necmettin Güngör 961201 Hizan, Sait Güngör 961201 Hizan, İhsan Yılmaz 961201 Hizan, Şükrü Yılmaz 961201 Hizan, Gıyasettin Alkan 961210 İstanbul, Mehmet Uslu 961216 İstanbul, Yasin Eryılmaz 961226 Silvan, Cafer Özgül 961228 Mazgirt, Vakkas Sabancı 970000 Antep, Musa Kalama 970000 Batman, Ömer Açmaz 970000 Diyarbakır, Süleyman Bayrak 970000 Diyarbakır, M.Emin Çağlar 970000 Diyarbakır, Zülfü Çetintaş 970000 Diyarbakır, Sıddık Demir 970000 Diyarbakır, Şükrü Salman Demir 970000 Diyarbakır, M.Zülfü Genç 970000 Diyarbakır, Cafer Kılıç 970000 Diyarbakır, Şeyhmus Kılıç 970000 Diyarbakır, Tahir Kılıç 970000 Diyarbakır, Ahmet Özçelik 970000 Diyarbakır, Yusuf Yıldırım 970000 Diyarbakır, Şakir Karataş 970000 Hakkari, Abdullah Demir 970000 Kızıltepe, Ali Karaen 970000 Kızıltepe, Abdurrahman Demir 970200 Kızıltepe, Mehmet Yoldaş 970201 Urfa, Kerem Şahin 970206 Varto, Ramazan Denk 970208 Diyarbakır, İlyas Eren 970211 Diyarbakır, Hanifi Tatar 970212 Tarsus, Kurtuluş Durak 970213 İstanbul, Ziya Özkılıç 970214 Hazro, Selma Gürhan 970312 Diyarbakır, Ramazan Gökhan 970313 İzmir, Mehmet Nazik 970314 Diyarbakır, Necmettin Beksek 970329 Lice, Mahfuz Çakır 970329 Lice, Mehmet Çakır 970329 Lice, Mehmet Işıktaş 970329 Lice, Mecnun Yüce 970329 Lice, Hanifi Gün 970400 Amasya, Hasan Ölmez 970400 Kulp, Şükriye Yıldız 970404 Diyarbakır, Celal Yalçın 970404 Lice, Mehmet Bali 970409 Lice, Mehmet İşcan 970409 Lice, Ramazan Ulan 970409 Lice, Ramazan Uran 970413 Midyat, Engin Bilgin 970415 İzmir, Ali Akçay 970416 Çınar, Ekrem Akın 970419 Manisa, Ali Kardeş 970419 Manisa, Sadrettin Altun 970427 Adana, Saime Yengi 970500 Mazgirt, Ekrem Gümüşova 970519 Mazgirt, Sevil Çelik 970600 Mersin, Bedri Gönül 970700 Karakoçan, Yusuf Yıldız 970700 Karakoçan, Saadet Gönül 970700 Yayladere, Ahmet Topkan 970701 Batman, Bedrettin Topkan 970701 Batman, Hanefi Baran 970702 İstanbul, Mahmut Abir 970719 Karlıova, Abdulkadir Çakar 970729 Tarsus, Kadir Tekel 970800 Patnos, Nurettin Kurt 970800 Türkoğlu, A. Gani Uçar 970812 Van, Lokman Karasu 970818 Şırnak-Cizre, Hikmet Boyuneren 970819 Lice, Mehmet Aydınlar 970918 Kızıltepe, Orhan Eren 970926 Lice, Zozan Eren 970926 Lice, Yusuf Nergiz 971003 Kulp, Mehmet Özlük 971010 Bingöl, Hacı Özlük 971012 Kığı, Abdülselam Çelik 971106 Diyarbakır, Hasip Demir 971120 Mazıdağı, Hikmet Demir 971120 Mazıdağı, Ali Onat 971120 Mazıdağı, Ramazan Onat 971120 Mazıdağı, Ramazan Bayındır 971200 Mazıdağı, Kutbettin Kayı 971201 Lice, Sadık Ulumaskan 971204 Diyarbakır, Seyithan Ulumaskan 971204 Diyarbakır, Mehmet Özdemir 971226 Diyarbakır, Yusuf Yürük 980113 Mersin, Mehdi... 980200 İzmir, M. Hadi Oğuz 980223 İstanbul, Metin Andaç 980431 İzmir, Hasan Aydoğan 980431 İzmir, M.Ali Mandal 980431 İzmir, Neslihan Uslu 980431 İzmir, Mahmut Keskin 980510 Silvan, Muzaffer Çınar 980520 Siirt, Hasan Hüseyin Gündüz 980528 Pendik, Naif Korkut 980604 Batman, Nezir Kükürt 980604 Batman, Mehmet... 980604 Batman, Abdülhakim Doğan 980608 İstanbul, Lezgin Kıvılcım 980610 Mazıdağ, Hacı Özen 980611 Eruh, M.Emin Acar 980625 Van, Levent Büker 980629, Yahya İpek 980723 Silopi, Mehmet Mungan

كانت تركيا يومئذ تعيش انقسامًا سياسيًّا رهيبًا، بل تحوَّل البلدُ إلى مجزرةٍ وحَمَّامِ دمٍ. وليس من القليلِ مَنْ يدَّعِي عَبْرَ "صحيفة الْوَشْوَشَةِ": أنَّ الجنرالات، كان لهم دورٌ كبيرٌ في تحريكِ هذا الصراعِ، بل والعملِ في بعضِ الأحيانِ علي تَهْيِيجِ حِدَّتِهِ تمهيدًا للانقلابِ ليكون مُبَرِّرًا يحتجُّون به بعد الإطاحةِ بالحكومةِ!. والْمُثِيرُ للدَّهشةِ فيما قيل: إنَّهم كانوا خطَّطوا للانقلابِ منذ بدايَةِ عامِ 1979م. وكانوا يُؤَجِّجُونَ الخلافَ بين الأحزابِ السياسيَّةِ بصورةٍ مَنْهَجِيَّةٍ. فتطوَّرَ الصراعُ كنيجةٍ لهذه الجهودِ، فكان ما حَدَثَ قُبَيلَ الإنقلابِ من الأَزَمَاتِ السياسِيَّةِ الحادَّةِ أنْ تعذَّرَ الإتِّفاقُ على اختيارِ مُرَشَّحٍ لرئاسةِ الجمهوريَّةِ بعد فراغِ هذا المنصِبِ من الرئيس فخري كُورُوتُورْكْ Fahri Korutürk، في 06 أبريل 1980م. فاحتدمَ الصراعُ بين بُولَنْدْ أَجَاوِيدْ Bülent Ecevit (رئيسِ حزبِ الشعبِ الجمهوريِّ)، وسليمان دِيمِيرِيلْ Süleyman Demirel (رئيسِ حزبِ العدالةِ). كُلٌّ منهما كانَ قد رَشَّحَ شخصيَّةً من كبارِ العسكريّين، إلاَّ أنَّ الإتّفاقَ لم يحصُلْ على أحدٍ منهما فترةً طويلةً رغم المفاوضاتِ والمناقشاتِ المستمرَّةِ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ، ممَّا أدَّى ذلك إلى اشتدادِ الأزمةِ التي تذرَّعَ بِهَا قادةُ الجيشِ التُّرْكِيِّ. ولَمَّا قامَ حَشْدٌ كبيرٌ بدعوةٍ من نجم الدين أربكان Necmettin Erbakan، في مدينة قونيا Konya بمظاهرةٍ ضخمةٍ يوم 06 يوليو 1980م. استنكارًا لِمُبَادَرَةِ الحكومةِ الإسرائيليَّةِ بإعلانِهَا القدسَ عاصمةً للدَّولةِ العبريَّة، كان ذلك بِمَنْزِلَةِ القَشَّ التي قَصَمَتْ ظهرَ البعير، فاستعدَّ الجنرالاتُ منذ ذلك الحين بتخطيطِ مُؤَامَرَةٍ ضِدَّ الحكومةِ إلى أنْ قاموا بإنقلابِ عسكرِيٍّ في 12 سبتمبر 1980م. فتَمَّ حَلُّ الْبَرْلَمَان، وأُطيحَ بحكومةِ ديميريل، وأُوقِفَ العملُ بالدستورِ، وأُعْلِنَ الأحكامُ العرفيَّةُ.

بعد أكثرَ من ثلاثين عامًا من الانقلابِ اتَّفقتْ آراءُ السياسيّين من جميعِ الأحزابِ على فتحِ مَلَفِّ الإنقلاباتِ وَمُسَاءَلَةِ الْمُتَلَبِّسِينَ بهذهِ المؤامراتِ باعتبارِهَا جرائمَ ارتُكِبَتْ بحقِّ الدَّوْلَةِ والْمُجْتَمَعِ، في حينٍ لم يتصوَّرْ (كنعان أفرين) أنْ يتمَّ تقديمُهُ للمحاكمةِ يومًا من الأيَّام، ولم يَدُرْ بِخَلَدِهِ أنْ تكونَ

980723 Silopi, Ahmet Elçiçek 981000 Diyarbakır, A. Celil Babur 981100 İstanbul, Çetin Pişirici 981124 Araban, Durmuş Aslan 981124 İstanbul,
Rıza Turhan 981125 Ankara, Ahmet Küçükdal 981126 Ağrı, Sevim Adıbilen 981129, Sedat Bayraktar 981129, Aydın Şahin 981129, Gülseren Yeşiloğlu 990421 İstanbul, Cevdet Çoban 990506 Batman, A. Kadir Korkmaz 990509 Batman, M. Selim Sansarkan 990523 Diyarbakır, İsmet Akbulak 990525 İzmir, Ömer Sağar 990600 Diyarbakır, Mustafa Özmen 990600 Midyat, A. Aziz Yiğit 990603 Siverek, M. Şerif Erdem 990609 İzmir, Cahit Tekdemir 990612 Diyarbakır, Hakkı Alpan 990629 Edirne, Cemil Yöyler 990715 İzmit, Abdullah efelti Cizre, Musa Demir 990802 İzmir, Aydın Esmer 990910 Kulp, Hikmet Utanç 990925 Derik, Sıddık Kuzu 991001 Muş, Mehmet Şah Şeker 991009 Bismil, Mehmet Koç 991018 Şırnak, İdris Sökmen 991018 Şırnak, Serdar Deviren 991100 Diyarbakır, Şafak Akbulut 991124 İstanbul, Hüseyin Arı 991211 Lice, Erkan Çınar 991218 İstanbul, Serdar Tanış 000114 Silopi, Ebubekir Deniz 000114 Silopi.

تُهْمَتُهُ هي "الانقلابَ علي الشرعيَّةِ". فقد تغيَّرَ كلُّ شيءٍ وسقطتِ الحصانَةُ التى منحها الإنقلابيُّون لأنفسِهِمْ، وفُتِحَ مَلَفُّ الانقلابَ فأُجْرِيَ على دُسْتُورِ 1982م. العسكرِيّ تعديلاتٌ، كان من ضِمْنِهَا إلغاءُ المادة/15 التي تُحصَّنُ قادةُ الانقلابِ من الْمُحَاكَمَةِ (إلى جانبِ 28 مادةً أُخرَى)، فتمَّتْ الموافقةُ عليها فِي الْبَرْلَمَان بأغلبيَّةٍ. وبعدَ عَرْضِهَا للإستفتاءِ الشعبِيّ أُحيلَ كنعان أفرين Kenan Evren **وَأَحَدُ رُفَقَائِهِ للمحاكمةِ. وقضتِ المحكمةُ أخيرًا عليهِ وعلى زميلِهِ الجنرال تحسين شاهين كايا** Tahsin Şahinkaya **بالسجنِ مَدَى الحياةِ، وتخفيضِ رُتْبَتِهِمَا إلى رُتْبَةِ جندي.**

لقد نشرتْ وكالةُ جيهانِ التُّرْكِيَّةُ للأنباءِ تقريرًا فى 14 سبتمبر 2010 يحوى مُلَخَّصًا عن الجرائمِ التى ارْتَكَبَهَا الجنرال كنعان أفرين بحقِّ الشعبِ التُّرْكِيّ بعدَ القيامِ بانقلابِهِ نقلاً عن كتابٍ أَلَّفَهُ الصحفيُّ التُّرْكِيُّ أوغوز جوفين Oğuz Güven**، كان من أهَمِّهَا:**

1) اعتقالُ 650 ألفَ شخصٍ تعرَّضُوا لِشَتَّى أشكالِ التعذيب.

2) ضبطُ أسماءِ مليون و683 ألفِ شخصٍ فى سجلاَّتِ الأمنِ كمجرمين،

3) مُحاكمةُ 230 ألفَ شخصٍ فى 210 آلافِ قضيَّةٍ سياسيَّةٍ.

4) الحُكمُ بالإعدامِ على 300 شخصٍ نُفِّذَ فِى 50 منهم.

5) قُتِلَ 171 شخصًا تحتَ التعذيبِ، وتوفِّيَ 144 شخصًا فى السجونِ، ومات 14 شخصًا بسببِ الإضرابِ عنِ الطعامِ، وانتحرَ 43 شخصًا فى السجونِ، وقُتِلَ 16 شخصًا خلالَ محاولاتِهِم الهروبَ، بينما لا يزالُ الآلافُ فِى عدادِ المفقودين.

6) فرَّ ثلاثونَ ألفَ شخصٍ من المعارضِين السياسيِّين من خِيَرَةِ العلماءِ والمفكِّرِينَ وطلبوا اللُّجُوءَ السياسِيَّ خارجَ تركيا، كما نُفِيَ 14 ألفًا من المعارضين خارجَ البلاد.

7) أُقِيلَ 3654 مدرِّسًا و120 أستاذًا جامِعِيًّا و47 قاضيًا من وظائِفِهِمْ بسببِ معارضتِهِمْ السياسيَّةِ للعسكر.

8) اعتُقِلَ مئاتُ الصحفيِّين، وطالبَ الإدِّعَاءُ العسكرِيُّ عقوبةَ السجنِ لِمُدَّةِ أربعةِ آلافِ عامٍ لـ400 صحفيٍّ، صدرتْ أحكامٌ بِحَقِّ 31 منهم، ومُنِعَ الصحفيُّون من النشر 300 يوم، وتَمَّ ملاحقةُ الصحفِ وإغلاقُهَا وحرقُ أعدادٍ منها بعد صدورها.

9) تَمَّ إلغاءُ جميعِ الأحزابِ السياسِيَّةِ في 16 أكتوبر 1981م.[272]

نعم، بدأ جهازُ القضاءِ التُّرْكِيِّ بمحاكمةِ الإنقلابيِّين يوم 05 أبريل 2012م. بعد مرورِ ثلاثينَ عامًا على الإنقلابِ. إنما تمكَّنَ جهازُ القضاءِ من هذهِ الفرصةِ بفضلِ التعديلاتِ التي أُجْرِيَتْ على الدُّسْتُورِ الذي أعدَّه الإنقلابيُّون عام 1982م. غيرَ أنَّ هذهِ الفرصةَ لم تأتِ إلاَّ بعدَ ضغوطٍ من الاتِّحادِ الأوروبِّي على حكومةِ رجب طيِّب أردوغان، وليسَ نتيجةَ جهودِهِ فحسب.

ثورة 28 فبراير 1997م.

عادتْ "الديموقراطيَّةُ" نِسبيًّا إلى المسرحِ السياسِيِّ بعد هبوطِ حرارةِ الإنقلابِ الثالثِ، (هذا بحسب الظاهر!). وبدأتِ النشاطاتُ الحزبيَّةُ في وسطٍ من الضوضاءِ والْمُهَاتَرَةِ، فنشأتْ في جَوِّهَا حكومةٌ ائتلافيَّةٌ بمشاركةِ حزبِ الرَّفَاهِ (RP) يرأسُهُ يومئذٍ نجم الدين أربكان Necmettin Erbakan، وحزبِ الطريقِ القويم (DYP) ترأسُهُ طانسو تشيلر Tansu Çiller. وذلك في 28 يونيو 1996م. باشرَتْ الحكومةُ أعمالَهَا في 08 يوليو 1996م.، بعد الحصولِ على الثقةِ من الْبَرْلَمَان.

لكنَّهُ ما لبثَ حتَّى فكَّرَ قادةُ الجيشِ التُّرْكِيِّ فِي نسجِ الخيوطِ لانقلابٍ رابع. فقامَ رئيسُ هيئةِ الأركانِ للقوَّاتِ المسلَّحةِ الجنرال إسماعيل حقِّي قَرَضَاي İsmail Hakkı Karadayı بتخطيطِ العملِيَّةِ، وشارَكَهُ الجنرالاتُ: تْشَوِيكْ بِيرْ Çevik Bir، وتِيُومَانْ كُومَانْ Teoman Koman، وَتْشَتِينْ دُوغَانْ Çetin Doğan، وَنَجْدَتْ يِلْمَازْ تَيْمُور Necdet Yılmaz Timur، وَأَرُولْ أُوزْكَاسْنَاكْ Erol Özkasnak. إلاَّ أنَّ هؤلاءِ اختاروا طريقةً أُخرَى لِتنفيذِ خُطَّةِ الانقلابِ تختلفُ عن أسلوبِ الإنقلابيِّين السابقين؛ سُمِّيَتْ فيما بعد بـ"الانقلابِ مَا بَعْدَ الحَدَاثَةِ postmodern revolution"؛

[272] هذه أسْماء الأحزاب السياسية التي تم حلُّها بقرار صادر من المحكمة العسكرية بتاريخ: 16 أكتوبر 1981م.:

Adalet Partisi, Cumhuriyet Halk Partisi, Cumhuriyetçi Güven Partisi, Demokrat Parti, Hür Demokratlar Partisi, Hürriyetçi Millet Partisi, Millet Partisi, Milli Selamet Partisi, Milliyetçi Hareket Partisi, Sosyalist Parti, Sosyalist Vatan Partisi, Türkiye Birlik Partisi, Türkiye İşçi Partisi, Türkiye İşçi Köylü Partisi, Türkiye Sosyalist İşçi Partisi, Türkiye Ulusal Kadınlar Partisi, Vatan Partisi.

فاكتفَوْا بمجرَّدِ الضغوطِ على الحكومةِ والْبَرْلَمَان وأجهزةِ الدولةِ عبرَ قنواتٍ إعلاميَّةٍ وبيروقراطِيَّةٍ، بَدَلَ تشهيرِ السلاحِ واجتياحِ الشوارعِ وَبَثِّ الدبَّابَاتِ والكتائبِ العسكريَّةِ في الميادينِ واعلانِ حَظْرِ التَّجَوُّلِ... لم يكنْ في أسلوبِ الإنقلابيّينَ هذه الْمَرَّةَ تَهْدِيدُ الحكومةِ بهذه الطُّرُقِ التقليديَّةِ، وإنَّما قاموا بتسليطِ الرُّعْبِ على الْمُحِيطِ السياسِيّ عبرَ ارتباطاتٍ سرّيَّةٍ مع الإعلامِ التُّرْكِيّ، وعلاقاتٍ مَصْلَحِيَّةٍ مع أصحابِ الصحفِ الرئيسَةِ التي كانتْ لَهَا دورٌ كبيرٌ في توجيهِ الرَّأْيِ العامِّ وتَطْبِيعِهِ.

كانتْ هناكَ خليَّةٌ مشبوهةٌ داخلَ الجيشِ التُّرْكِيّ، تقومُ بِبَرْمَجَةِ الإنقلابِ وفقًا للتعليماتِ الصادرَةِ إليها من رئيسِ هيئَةِ الأركانِ بِالذَّاتِ. هذه الخليَّةُ لم تكن مُعْتَرَفًا بِهَا من قِبَلِ الحكومة. بل كانت مُنَظَّمَةً شِبْهَ عِصَابَةٍ تختفي وراءَ اسْمِ "الاسْتِخْبَارَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ"! وتُرَاقِبُ أعمالَ الحكومةِ والْمُنَظَّمَاتِ الإجتماعيَّةِ من الجمعيَّاتِ الْمَدَنِيَّةِ، والْمُؤَسَّسَاتِ الوقفيَّةِ والخيريَّةِ، والمدارسِ الخاصَّةِ ونحوِهَا... عُرِفَتْ هذه العصابَةُ باسْمِ (بَاتِي تْشَالِيشْمَا جُرُوبُو Batı Çalışma Grubu). وكانتْ هناكَ مُنَظَّمَةٌ سِرِّيَّةٌ أخْرَى أيضًا داخلَ الجيشِ تُدْعَى (جِيتِيمْ JİTEM)[273]، مُهِمَّتُها تخطيطُ مؤامراتٍ ضدَّ الذين

---

[273] جيتيم JİTEM: كلمةٌ رمزيةٌ، مختزَلةٌ من اسمِ تنظيمٍ سِرّيٍ نشأَ في صفوفِ القوَّاتِ المسلَّحَةِ التركيَّةِ يوم 27 أغسطس 1987م. بعلمٍ من رئيس الأركان، على أنْ يكونَ هذا التنظيمُ تَابِعًا لقوَّاتِ الدَّرَكِ، فيقومَ بِتَصْفِيَّاتٍ جسديَّةٍ لِعَنَاصِرَ يُشْتَبَهُ فيهم، قَبْلَ القبضِ عليهم ومثولِهِمْ أمامَ القضاءِ، وذلك تسهيلاً لقمعِ المعارضين للنظامِ الأَتَاتُورْكِيّ! (على رأسِهِم النُّشَطَاءُ الأكراد)

رفضَ القائدُ العامُّ لِقواتِ الدرك الجنرال تيومان كومان Teoman Koman أمامَ لجنةِ التحقيق في الْبَرْلَمَانِ التُّرْكِيّ، رفضَ وجودَ تنظيمٍ قانونيٍّ أو غير قانونيٍّ بهذا الإسمِ ضِمنَ القوَّاتِ التابعة له. إلاَّ أن الكاتبَ صُونِيرْ يَالْجِين Soner Yalçın ذَكَرَ في كتابٍ أَلَّفَهُ بعنوان "اعترافات الرائد جيم أرسفير Cem Ersever"، ذكر فيه: أن تنظيمًا سرِّيًّا بعنوان جيتيم JİTEM قد تمَّ إنشاؤُهُ من قِبَلِ الرائدِ عارف دوغان Arif Doğan داخلَ الشبكةِ الإستخباراتيَّةِ التابعةِ لقوَّاتِ الدَّرَكِ عام 1987م. كما تمَّ إنشاءُ فروعٍ لهذا التنظيمِ في بعضِ المحافظات وهي بالتحديد: محافظةُ إسطنبول، وأنقره، وإزمير، وأَضَنَهْ، وديار بكر، وصَمْصُونْ، وأرض الروم.. كما ادَّعَى أنَّ عددًا من الضباط القائمن بالخدمةِ الفعلية، ومجموعةً من الناشطين المعتقَلِينَ الأكراد الذين انتُشِلَ منهم اعترافاتٌ، قد تمَّ استخدامُهُم في هذا التنظيم.

هذا، وقد أَكَّدَ رئيسُ لجنةِ التحقيقِ التابعةِ لرئاسةِ الوزراءِ، كُوتْلُو سَاوَاشْ Kutlu Savaş، في تقريرٍ أعدَّهُ بعدَ عام تقريبًا من اندلاع فضيحةِ سوسورلُوك، أكَّدَ على صحةِ ما وَرَدَ في كلماتِ الصحفي صُونِيرْ يَالْجِين Soner Yalçın، "بِأَنَّهُ كان لِهذا النظيمِ وجودٌ داخلَ هيكلِ القوَّاتِ المسلَّحَةِ التركيَّةِ، وتَمَّ إنشاؤُهُ في الفترةِ التي كان الجنرال خُلُوصِي صَايِنْ Hulusi Sayın قائدًا عامًّا على قواتِ الدَّرَكِ"، كما صرَّحَ كاتبُ التقرير، بـ"أنَّ التنظيمَ كانتْ له نشاطاتٌ ذاتُ تأثيرٍ بالغٍ في المنطقةِ، وأنَّ نسبةَ الجناياتِ والإغتيالاتِ التي تَلَبَّسَ بها التنظيمُ كان عاليًا، بسببِ استخدامِهِ أعداداً كبيرةً من العملاءِ الأكرادِ الذين انْتُشِلَ منهم اعترافاتٌ تحت التعذيب، بالإضافة إلى مجموعةٍ من خُفَرَاءِ القُرَى المأجورين من قِبَلِ النظام".

ورد في تقريرٍ أعدَّهُ لجنةُ التحقيقِ التابعةِ لِلْبَرْلَمَانِ التُّرْكِيّ: "أنَّ النشاطاتِ التي قامَ بها تنظيمُ (جيتيم JİTEM) السرّيُّ، غيرُ قابلٍ للاستيعابِ بشكلٍ دقيقٍ لغموضِهِ. فقد اخترقَ التنظيمُ القوانينَ التي حدَّدَتْها الدولةُ لأجهزَةِ السلطةِ، فاستفادتْ من الفجواتِ القانونيَّةِ في محاولةِ التقمُّصِ بهيئةِ جهازٍ شرعيٍّ من أجهزةِ الدولة." كما وردَ في التقريرِ نفسِهِ: "أنَّ التنظيمَ فرضَ نفسه على الدولةِ وقامَ بعملياتٍ أمنيَّةٍ في مناطقَ تابعةٍ لسيطرةِ الشرطةِ دون عِلْمِهَا، وتلبَّسَ بأعمالٍ مشبوهةٍ دون اعتمادٍ على أيِّ حجةٍ قانونيةٍ، وهذا يستوجِبُ إيقافَ نشاطاتِهِ على الفور."

ومن جهةٍ أخرى؛ جاء في كلماتٍ لأحد مديري الأمن يُدعى حنفي آوجي Hanefi Avcı، تَمَّ ضبطُهَا في محضرٍ خاصٍّ بناءً على تعليماتِ النيابَةِ العامَّةِ، يقول فيها: "إنَّ تنظيمَ (جيتيم) قد أصبحَ شِبْهَ معترَفٍ بِهِ رسميًا! فكان عددٌ من اللَّوْحَاتِ تحملُ اسمَ (جيتيم JİTEM) وهي الْمُعَلَّقَةَ فوقَ وَحَدَاتِهَا في أماكِنَ مُخَصَّصَةٍ لَهَا داخلَ معسكرِ التابعِ لقيادَةِ الأمنِ الداخليِّ بمدينَةِ ديار بكر". وأضافَ: "أنَّ مسئولَ التنظيمِ الرائد جيم أرسفير Jem Ersever وأعوانَهُ قاموا بتنفيذِ

يتمُّ وصمُهُمْ وإدْرَاجُهُمْ في القائمَةِ السوداء من قِبَلِ جهازِ الإستخباراتِ العسكريَّةِ؛ والقيامُ باغتيالاتٍ وتصفياتٍ جسدِيَّةٍ... وقع كثيرٌ من تهديداتٍ، واغتيالاتٍ، وقتلٍ، وخطفٍ، وتعذيبٍ، وتَهْجِيرٍ، عن طريقِ هذهِ الْعِصَابَةِ، راحَ ضحيتَهَا عشراتُ آلافٍ من السياسيّين، ورجالِ الأعمالِ، والطَّلبةِ، والنُّشَطَاءِ، والمواطنين من جميعِ الطوائفِ، خاصَّةً من الأكراد.

اغتيالاتٍ عديدةٍ، منها؛ اختطافُ رئيسِ مكتبِ حزبِ (هادَبْ Hadep)، وِدَاد آيدن Vedat Aydın، حيثُ قُتِلَ على أيديهم؛ ونَسْفُ سيارةِ رئيسِ نقابةِ المحامين، وإشعالُ الحريقِ في مبنى جريدة (أولكي Ülke)، ومداهمةُ مقرِّ إحدَى الْمَجَلاَّتِ، وقتلُ شخصٍ كانَ فِيهِ".

ثمَّ ناشطٌ كردِيٌّ يُدْعَى عبد القادر أيجان Abdülkadir Aygan، تَمَّ استغلالُهُ من قِبَلِ (جيتيم) بانتزاعِ اعترافاتٍ منه، أدلى بتصريحاتٍ أثناءَ حوارٍ صحفيٍّ، أُجْرِيَ معه مؤخَّرًا، قال فيها: "إنَّهُ كان يَتَقَاضَى راتبًا شهريًّا من قيادةِ تنظيم (جيتيم)، وبَرْهَنَ ذلك بنسخةٍ من جدول الرواتب كان بحوزتِهِ. كما اعترفَ أنَّ الوحدةَ التي خَدَمَ فيها كان فوقَ مدخلِهَا لوحةٌ معلَّقَةٌ، مكتوبٌ عليها عبارةُ جيتيم".

من اعترافات أيجان أنّه قال: "لم أسمع من ذي قبلٍ بوجود تنظيمٍ اسْمُهُ (أرجنكون). لكنَّهُ لَمَّا ظهر إلى العيانِ بعد عملياتِ الكشفِ عنه عامَ **2001**م. علمتُ أنَّ تنظيمَ (جيتم) فرعٌ عسكريٌّ تابعٌ لتنظيم (أرجنكون)."

ظهرتْ مزيدٌ من معلوماتٍ جديدةٍ في الأَوَانِ الأخيرةِ حولَ (تنظيمَ جيتم السِّرِّيِّ)، خاصَّةً بعد القبضِ على العقيد المتقاعد عارف دوغان Arif Doğan، يوم **14** أغسطس **2008**م.

تَمَّ العثورُ على عددٍ كبيرٍ من الوثائقِ، وبُنْدُقِيَّتَيْنِ من طراز كلاشنيكوف، وكميةٍ كبيرةٍ من الذخيرةِ، و**280** قنبلةً يدويَّةً وقذائفَ فارغةً، تَمَّ العثورُ عليها في مستودعٍ تابعٍ للعقيد عارف دوغان في أثناء البحثِ والتفتيشِ كجزءٍ من العملياتِ، كما وُجِدَتْ اسمُ تنظيم جيتيم على هذه الوثائقِ الْمُحْتَجَزَةِ التي تعودُ إلى أعوام **1989–1991**م. وقد اعترفَ العقيد عارف دوغان "أنَّه بالذَّات هو الذي أَسَّسَ التنظيمَ، ثمَّ وَكَلَهُ إلى الجنرال ولي كجوك Veli Küçük".

وَرَدَ في محضرِ الإِدِّعاءِ: "أنَّه ثبتَ على ضوءِ وثيقةٍ من تلك الوثائقَ الْمُحْتَجَزَةِ أنَّ العقيد عارف دوغان قام باتصالاتٍ مع قادةِ تنظيمٍ إرهابِيٍّ كردِيٍّ، (وقد يكون هذا حزبَ اللهِ الكردِيّ). وأجرَى علاقاتٍ معهم لاستغلالهم في ضربِ حزب العمَّالِ الكردستانِيّ (بي كَ كَ)".

اعترف العقيد عارف دوغان في حوارٍ أجرتْ معه قناةُ (خبر تورك Haber Türk)، أنَّه بالذَّات هو مؤسّسُ تنظيمِ (جيتم)، وأنَّ عددَ العاملين فيه كان يُقَدَّر بعشرةِ آلافِ شخص.

ومن الاعترافاتِ الرهيبَةِ التي صرَّح بها الناشط الكرديُّ عبد القادر أيجان لقناةِ NTV، قوله: "إنَّ التنظيمَ السِّرِّيَّ الذي تمَّ الكشفُ عنه مؤخَّرًا إنَّما أسِّسَ – في الحقيقة– بموافقةِ رئيسِ الجمهوريَّةِ سليمان ديميريل، فكان الهدفُ الأساسِيُّ للتنظيم، هو الكفاحَ ضدَّ حزبِ العمَّالِ الكردستانِي". ولكن التنظيم تحَوَّلَ إلى عصابةٍ ترتكبُ جناياتٍ في المنطقةِ الكرديَّةِ، وتقوم باغتيالاتٍ، واغتصاباتٍ، وقتلٍ جماعيٍّ في صفوفِ المواطنينَ الأكرادِ العُزَّلِ. لقد قُتِلَ على يد هذه العصابةِ عشراتُ آلافٍ من الأكرادِ الأبرياءِ في حينٍ كانوا مشغولين بأعمالِهم في قُرَاهُمْ وَمَزَارِعِهِمْ. فكان التنظيمُ يُلقي القبضَ عليهم دون أيِّ مبرِّرٍ، ويجلبُهُمْ إلى أماكنَ خاليةٍ فلا يمكنهم الإتّصالُ بِمَرَاكِزِ الشرطةِ والقضاءِ، ثُمَّ يُعَذَّبون بأساليبَ وحشِيَّةٍ. فإنَّ القتلى الذين ماتوا تحت التعذيبِ في المنطقة الكردية، لم يُمْكِنْ ضبطُ عددِهِمْ الذي يقدَّرُ بعشراتِ آلافٍ، وظلَّ مجهولاً حتى هذه الساعة. المصادر:

http://www.ntv.com.tr/arsiv/id/25134935/
http://tr.wikipedia.org/wiki/J%C4%B0TEM
http://www.cnnturk.com/2011/turkiye/01/17/arif.dogandan.jitem.itiraflari/603473.0/
http://www.spiegel.de/international/world/turkey-s-dirty-war-against-the-kurds-we-used-to-murder-people-at-night-when-the-soldiers-weren-t-around-a-627144.html
http://arsiv.taraf.com.tr/haber-demirel-ciller-hepsi-jitem-i-destekledi-59494/
http://www.ergenekon.ws/mansetgoster.asp?haber_no=2435#.VOccFi4wCa0
http://www.duslerkulup.com/jitem-nedir-nicin-kurulmustur.html

فِي غضونِ القلاقِلِ والإرهاصاتِ التِي كانتْ تُنْبِئُ عن انقلابٍ وشيكٍ[274]، قامَ رئيسُ الجمهوريَّةِ سليمان ديميريل بزيارةٍ إلى مَقَرِّ هيئةِ الأركانِ العامَّةِ يوم 17 يناير عام 1997م. فطلبَ الإحاطةَ بشأنِ ما يُزْعِجُ الجيشَ. فَذَكَرَ له إسماعيل حقي قرضاي، (رئيسُ هيئةِ الأركانِ العامَّةِ) 55 بندًا، كلُّهَا يصبُّ فِي إنذارِ الحكومةِ، وتتلخَّصُ فِي الشكايَةِ عن موقِفِهَا المتجاهِلِ حيالَ ما يجرِي على الساحةِ التُّرْكِيَّة من "انتشارِ النشاطاتِ الرجعيَّةِ، والإرتدادِ عن النظامِ الأَتَاتُورْكِيِّ". فحاولَ ديميريل تهدئةَ الوسطِ بأنَّ نصفَ ما جاءَ فِي المذكرةِ مبنِيٌّ على الإشاعاتِ. ونَصَحَ قرضاي بالتواصلِ مع الحكومةِ، وتخفيفِ صياغةِ المذَكِّرَةِ. إلاَّ أنَّ محاولاتِهِ باتتْ دون جدوَى. فقامتْ قيادةُ القوَّاتِ المسلَّحةِ بالضعطِ على الحكومةِ الإئتلافيَّةِ التي كان يرأسُهَا نجم الدين أربكان، بإصدارِ قراراتٍ اتَّخَذَهَا مجلسُ الأمنِ القومِيِّ[275] يوم 28 فبراير 1997م. تَبِعَتْهَا فترةٌ جرتْ فيها انتهاكاتٌ شديدةٌ للْحُرِّيَّاتِ وعلى رأسِهَا نزوحُ الحكومةِ من سُدَّةِ الْحُكْمِ تحتَ مضايقةِ قيادةِ الجيشِ.

---

[274] جرت أحداثٌ غير مألوفةٍ في هذه المرحلةِ، أثارتْ القواتِ المسلَّحَةَ للإقْدَامِ على إنقلابِ 28 فبراير. وهذه قائمةٌ بتلك الأحداثِ:

1) قام رئيسُ الوزراءِ التُّرْكِيُّ نجم الدين أربكان بسلسلةِ زياراتٍ إلى بعضِ "البلادِ الإسلاميةِ" يبحثُ عن إيجادِ "تحالُفٍ بين الدولِ الإسلامية" إلاَّ أنَّهُ تعرَّضَ للإهانةِ في ليبيا. وقد كان من أحقرِ المواقفِ التي اتَّخَذَ منه الزعيمُ الليبيُّ معمَّرُ القذافِيُّ، فتحدَّثَ عن تركيا بإسفافٍ وإذلالٍ، أساءَ بذلك إستقبالَ ضيفِهِ ما مكَّنَ القُوَى العلمانيةَ التركيةَ من شنِّ أكبر حملةٍ ضِدَّه، فإدَّى بعدَ فترةٍ وجيزةٍ إلى غيابِهِ تمامًا عن المشهدِ السياسِيِّ.

2) وقعتْ فضيحةٌ أيَّامَ احتدامِ القتالِ بين عصابةِ (بِي كَ كَ)، والقواتِ المسلَّحَةِ التركيَّةِ، كشفتْ عن علاقاتٍ بين عصاباتٍ إجراميةٍ لها صلاتٌ بالحكومةِ والقواتِ المسلحةِ والشبكات الإستحباراتيَّةِ (من الخارج)، وذلك في آنٍ واحدٍ! كانتْ حادثةُ تحطُّمِ سيارةٍ في 03 من نوفمبر عام 1996م. هي السببَ لِكشفِ الفضيحة، فظهرتْ عقب ذلك أسرارٌ رهيبةٌ افتضحتْ بها شخصياتٌ سياسيَّةٌ وعسكريَّةٌ تلبَّسُو بِالفسادِ والتهريبِ والقتلِ الجماعِيِّ وغير ذلك من جرائمَ تقشعرُّ منها الجلود.

3) دخلتْ جماعةٌ صوفيَّةٌ تُعْرَفُ باسمِ "العَجْزمَنْدِيَّة" مسجدَ(كوجا تبه Kocatepe) فِي أنقره يوم 06 أكتوبر 1996م. فأقاموا فيه مظاهرةً والقَوْا هتافاتٍ منها "نطالِبُ بتطبيقِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ!". كانتْ لهم مظاهرُ مُرَوِّعَةٌ تَخَوَّفَ منهم الناسُ.

4) عميدُ بلديةِ مدينةِ القيصريَّةِ شُكْري قَرَا تَبَه، قال في كلمةٍ ألقاها أثناءَ إجتماعِ مجلس البلديةِ: "إنَّ نظامَ الدولة التركيَّةِ لم يعدْ بعدُ نظامًا ديمقراطيًّا بالمعنَى الحقيقِيِّ، وإنَّ القُوَى الحاكمةَ تُملي على الناسِ فكرتَهَا وتُجبِرُهم على اعتناقِهَا..." ثُمَّ أطال في حديثه بنحو هذا السلوبِ فأثارَ بذلك حقدَ الكماليِّين، وما لبث4 أن قُبِضَ عليه واعتُقِلَ فورًا.

5) دعا نجم الدين أربكان شيوخَ الصوفيَّةِ إلى مائدةِ الإفطارِ عشيةَ يوم 11 يناير 1997م. فأثارَ بذلك انتباهَ الطغمةِ الحاكمةِ.

هذه الأحداث دفعتْ بقادةِ الجيشِ التركِيِّ إلى تخطيطِ إنقلابٍ لإطاحةِ الحكومة. فاجتمعَ هيئةُ أركانِ القوَّاتِ المسلَّحةِ في مدينة كُوجُلُوكْ Gölcük ليلةَ 22 يناير 1997م.، واتَّخذوا قراراتٍ صارمةً ضِدَّ حكومةِ أربكان، ونُفِّذتْ هذه القراراتُ بعد استعراضٍ عسكرِيٍّ وتوغُّلِ دبَّاباتٍ عبرَ شوارعِ مدينةِ (سِنْجَان، منطقة في أنقره). كإنذارٍ للحكومةِ، فعجَّلَتْ باستيقالةِ رئيسِ الوزراءِ نجم الدين أربكان وإنهاءِ حكومتِهِ.

[275] مجلسُ الأمنِ القوميّ Milli Güvenlik Kurulu (MGK): قِمَّةٌ عسكريَّةٌ تَمَّ تأسيسُها عام 1933م. تستمدُّ قوَّتَهَا من المادة/118 للدستور المرعِيِّ حاليًّا. تتلخَّصُ مهمَّتُها في إبداءِ الرأيِ لِمَجْلِسِ رئيسِ الوزراءِ على ضوءِ نتائج الاستشاراتِ الجاريَةِ بين مؤسَّساتِ الأمنِ العسكريَّةِ منها والْمَدَنِيَّةِ، والقراراتِ الصادرةِ عَقِبَ الاستشارات، لأجلِ تحديدِ سياسَةِ الأمْنِ للدَّولةِ التُّرْكِيَّة وتطبيقها. (هذا في الظاهر!) أمَّا في الواقع؛ فكانتْ هذه القمَّةُ هي السيفَ المسلَّطَ على رَقَبَةِ

لم تكنْ حركةُ 28 فبراير آخرَ الثوراتِ العسكريَّةِ على الحكوماتِ الْمَدَنيَّةِ في تركيا، بل دامتْ المحاولاتُ الإنقلابيَّةُ للإطاحةِ بالنظامِ الْمَدَنِيّ حتَّى اليوم. إلاَّ أنَّ جميع الْخُطَطِ الإنقلابيَّةِ بعد حركةِ 28 فبراير انتهتْ بالفشلِ في عهدِ رئيسِ الوزراءِ رجب طيب أردوغان. مَكَّنَتْهُ الظروفُ السياسيَّةُ الْمُتَاحَةُ من التغلُّبِ على الغطرسةِ العسكريَّةِ، بجانبِ ما امتازَ به هو من الْجُرْأَةِ واللَّباقةِ وقوَّةِ العارضَةِ، وبفضلِ اكتسابِهِ ثقةَ أغلبيَّةِ الْمجتَمَعِ من جميعِ الطوائفِ بما فيِهِمْ الأكرادُ.

***

الأحزابُ السِّيَاسِيَّةُ فِي تُرْكِيا

من المعلوم أن التحزُّبَ مرفوضٌ في الاسلامِ، وهو من أسباب الفتنة والنزاع والتشرذُمِ والفُرْقَةِ مِمَّا نَهى الله عنه في مواطِنَ من كتابه العزيز. منها، قولُهُ تعالى: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ." آل عمران/105). وقد دعا الله إلى الائْتلافِ وَتوحيد الصفوف بقوله: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا." (آل عمران/103).

لكنَّ على رغم هذه الحقيقةِ انتهجت تركيا النظامَ الديمقراطيَّ (وهي الحزبيَّةُ بِعينِها)، فلم تنعمْ باستقرارٍ سياسِيّ من أوَّلِ يومٍ برزتْ على مسرحِ التاريخِ تحت سِمَةِ (الجمهوريَّةِ!) عام 1923م. إلى اليوم. ولا استطاعتْ بِدِيمُرَاطِيَّتِهَا وأحزابِهَا أنْ تَحُولَ دون العراكِ الطائِفِيّ والعصياناتِ وظهورِ عَشَرَاتٍ من التنظيماتِ السِّرِّيَّةِ وانتشارِ الإرهابِ والفوضَى إلى اليوم. فالقتالُ الذي جرتْ بين تنظيمِ (بِي كَ كَ) والقواتِ المسلَّحةِ التركيَّةِ طوالَ ثلاثين عامًا من أعظمِ الدلائلِ على أنَّ الديمقراطيَّةَ لم تنفعْ لتوحيدِ الصفوفِ، ولا كانتْ الحزبيَّةُ آليةً لِحرِّيَّةِ التعبيرِ. بل جائتا على رأسِ أسبابِ الشقاقِ بين مكوِّناتِ المجتمعِ المتنافرةِ أصلاً، فازدادتْ الشُّقَّةُ بينها كلَّما ازدادَ عددُ الأحزابِ السياسيَّةِ.

هذا، ولم تتبنَّ تركيا النظامَ الديمقراطيَّ إلاَّ تقليدًا محضًا للغربِ، وتجاهلتْ حقيقةَ الاستقرارِ السياسِيّ الذي حقَّقَهَا الغربُ نسبيًّا بفضلِ التزامِهِ مبدأَ العدالةِ الاجتماعيَّةِ، وجهودِهِ في تنظيمِ العلاقاتِ

الحكوماتِ منذ بدايَةِ إعلانِ الجمهوريَّةِ، إلى أيَّامِ حكومة أردوغان.. استطاعَ الرجلُ إيقافَها في حدودِ صلاحيَّاتِها بعد تطبيعِ القوانينِ التُّرْكِيَّةِ وفقَ التعليماتِ الصادرةِ من الاتِّحاد الأوروبِي!

البشريَّةِ، وترويض الناسِ على مراعاة المبادئِ، ونشرِ روحِ الاحترامِ المتبادلِ، وليس في الواقع "بفضلِ الديمقراطيَّةِ والحزبيَّةِ"... فتحوَّلتْ المجتمعاتُ الأوروبيَّةُ إلى أُمَّةٍ مدنيَّةٍ غنيَّةٍ عن الديمُراطيَّةِ والحزبيَّةِ، وإنَّما انتهجتْ النظامَ الديمقراطِيَّ بعد أنْ حوَّلَتْها إلى آليةٍ للتصالحِ والتعاوُنِ بخلافِ ما تُطَبَّقُ في تركيا جزافًا. فإن الديمُراطيَّةَ والحزبيَّةَ في تركيا معناهما: أنْ يكونَ المواطنُ حرًّا في الاعتداءِ على غيرِهِ، يشتُمُهُ بأبشعِ ألفاظٍ، ويسطو عليهِ، ويتحرَّشُ بِهذا وذاكَ، ويُعَرْبِدُ، ويتفوَّهُ بما يشاء... لذا فأنَّ المُشاقمةَ والخصامَ والعِراكَ سجالٌ بين الأحزابِ السياسيَّةِ يوميًّا في مجلسِ الشعبِ. كلُّ حزبٍ دِيدَنُهُ أنْ يَتَهَكَّمَ الحزبَ الآخرَ (بخاصةٍ الحزبَ الحاكِمَ) تحتَ ستارِ "المُعارضة!". لا تجدُ حزبًا يخاطبُ الحزبَ الحاكمَ بهدوءٍ ووقارٍ، أو يشيرُ عليهِ بما يرى فيه مصلحةَ العامَّةِ.

كان مفهومُ الديمقراطيَّةِ غريبًا على الشعبِ التُّرْكِيِّ في بدايَةِ العهدِ الجمهوريّ، كما لم يتعرَّفِ الناسُ بعدُ على المصطلحاتِ والمؤسَّساتِ الْمُنْبثَقَةِ من هذا المفهومِ؛ كالتَّعَدُّدِيَّةِ، والحزبِ، والإنتخابِ، والنقابةِ، وحقوقِ الإنسانِ، وحرِّيةِ التعبيرِ ونحوِهَا... لأنَّ الشعبَ كانَ من إمتدادِ المجتمعِ العثمانِيّ الذي لم يعهدْ هذه المفاهيمَ أصلاً ، كما كان – في الوقتِ ذاتِهِ – يجهلُ مفهومَ الشورَى الذي جاءَ به الإسلامُ. وكانتْ الظروفُ السياسِيَّةُ – بجانبِ ذلك – متاحةً يومئذٍ لأيِّ حاكمٍ –يقبِضُ على صَوْلَجَانِ السلطةِ – أنْ يركبَ رأسَهُ ويتصرَّفَ كما يشاءُ.

لذا، عندما تسلَّمَ مصطفى كمال زمامَ السلطةِ لم يَرَ مَانِعًا من أنْ يستبدَّ بالحُكْمِ، فكانَ هو الحاكِمَ المطلَقَ وصاحبَ الكلمةِ النافذةِ وحده. لم يسمحْ لأحدٍ أن يَنْتَقِدَهُ بأدنىَ كلمةٍ. فكانَ من المستحيلِ يومئذٍ أن يظهرَ حزبٌ معارضٌ يراقبُ سياسَتَهُ، أو ينصحُهُ بفكرةٍ بديلة، أو يُصَحِّحُ شيئًا من أخطائِهِ[276]. بينما لا يُعقَلُ أنْ يسلَمَ حاكِمٌ مِنْ معارِضٍ، بل وَمِنْ عدوٍّ يتربَّصُ به الدوائِرَ لِيُوقِعَ بِهِ، ولوْ كان أعدلَ الناسِ[277]، فضلاً عن طاغِيةٍ تَخافُ الرعيَّةُ بطشَهُ، وحتَّى مُسْتَشَارُوهُ وبِطَانَتُهُ والمقرَّبون إليه.. وقد كان على علمٍ ويقينٍ بهذهِ الحقيقةِ، كما كان يحذرُ تَمَرُّدًا يثورُ في وجهِهِ على حين غرةٍ منه.

---

[276] وردتْ في مذكّراتِ الفريق كاظم قره بكر، عبارةٌ وهذا نَصُّها (مُعَرَّبًا): "كانَ الغازي (أي مصطفى كمال) يقول: لاَ أُرِيدُ مُعَارِضًا! ويقومُ بترشيح مَنْ وَجَدَهُمْ مخلصين له بالولاءِ، سواء بأقوالهم وبمكاتباتهم له، والذين نالوا ثقتَهُ بتصرّفاتهم، والذين كانوا في معسكره على وجه العموم. لذا، فارقتُ لجنةَ الإنتخاباتِ مُعْتَقِدًا: أنّنا لن نحظَ ثقةَ دول التحالف التي تحكم الدنيا بهذا المشهد، كما لن نحظَ ثقةَ المجتمعِ في مثل هذا المجلس الذي يخضع للحُكم المتفرّدِ، وأخشى أنّنا سوفَ نقضي بذلك على مفهوم الحريَّة في الداخل، وربما يؤدِّي هذا إلى ظهور معارضةٍ أشد ما تكون."

وهذا نص عباراته باللغة التُّرْكِيَّة:

«Gazi, 'ben muhalif istemiyorum' diyerek, kendisine kavlen ve tahriren en çok sadakat gösterenleri ve Birinci Meclis'te fiiliyatıyla bu emniyeti kazananları ve hemen bütün karargâhının mensuplarını namzet gösteriyordu. Ben de böyle emre uyan bir meclisle, dünyaya hakim İtilaf devletlerinin emniyetini kazanamayacağımızı ve dahilde de hürriyet mefhumunu kaldıracağımızı ve belki daha şiddetli bir muhalefete yol açılacağını söyleyerek seçim komitesinden ayrıldım.» (Kazım Karabekir, İstiklal Savaşımızın Esasları, s. 138.)

[277] وهذا يُذَكِّرُنَا بأبياتِ الشاعرِ عمرَ ابنِ الوردي، يقول:

كان مصطفى كمال ضابطًا في جيشِ الدولةِ العثمانيَّةِ فبلَ قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ، فنشأَ عنصرًا عسكرِيًّا يغلبُ على طبعِهِ الحزمُ والجدِّيَّةُ والصلابَةُ، لأنَّه تَرَبَّى في جوٍّ يسودُهُ الإنضباطُ، ويجرِي فيه كلُّ تصرُّفٍ تحتَ قسوةِ الأمرِ والنهيِ. لذا، لم يكنْ يحتمِلُ الإنصاتَ لِناصِحٍ خاصَّةً وأنَّهُ أصبحَ رئيسَ الدولةِ. فكان المعارضُ في نظرِهِ يعني الخصمَ والعدوَّ اللَّدودَ. وقد كان يُدرِكُ مع ذلك أنَّ الحُكْمَ المطلَقَ لا يمكنُ أنْ يدومَ طويلاً، فلجأ إلى حيلةٍ تُعالِجُ المشكلةَ وتَهْدَأُ بها الضغطُ السائدُ على الجَوِّ السياسيِّ. تتمَثَّلُ هذه الحيلةُ في مغامرتِهِ بتأسيسِ حزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ وسماحِهِ بتأسيس حزبٍ آخر.

***

- **حزبُ الشعبِ الجمهورِيُّ CHP، والحزبُ التقدُّمِيُّ الجمهورِيُّ TCF**

قامَ مصطفى كمال بتأسيسِ حزبٍ تحتَ رئاستِهِ، وأعْلَنَهُ يومَ التاسعِ من شهرِ سبتمبر في سنةِ 1923م. أي قبلَ شهرٍ من إعلانِ القيامِ عن الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة (29 أكتوبر 1923م.)، سَمَّاهُ في البدايَةِ "فِرْقَةَ الشَّعْبِ Halk Fırkası" ثم استُبْدِلَ هذا الاسمُ بـ"حزبِ الشَّعْبِ الجمهورِيِّ Cumhuriyet Halk Partisi". لكنَّهُ لم يلبثْ حتَّى سَمَحَ بتأسيسِ حزبٍ معارضٍ باسمِ "الحزبِ التقدُّمِيِّ الجمهورِيِّ Terakkiperver Cumhuriyet Fırkası" كان في مقدِّمَةِ الْمؤَسِّسين لهذا الحزب: الفريق كاظم قَرَه بكر Kazım Karabekir، والفريق علي فؤاد جَبَصُويْ Ali Fuat Cebesoy ، واللِّواء جعفر طيَّار أَغِيلْمَازْ Cafer Tayyar Eğilmez، والدكتور عبد الحق عدنان آدِيوَارْ Abdülhak Adnan Adıvar، واللِّواء رفعت بَلَهْ Rıfat Bele، والعقيد حسين رؤوف أُورْبَايْ Rauf Orbay... تَمَّ الإعلانُ عن هذا الحزبِ في 17 نوفمبر 1924م.

كان مصطفى كمال حَذِرًا في موقِفِهِ من هذا الحزبِ، يحسَبُ له ألفَ حسابٍ، فتربَّصَ يَحوكُ الدسائسَ لِيُوقِعَ به في داهيةٍ ويزيلهُ عن المسرحِ السياسِيِّ، فيكونَ هو الوحيدَ في الصورةِ، ويحافظَ بذلِكَ على مركزِهِ القوِيِّ. لأنَّهُ كان يعلمُ مَدَى محبَّةِ الشعب لِمُؤَسِّسِي الحزبِ التقدُّمِيِّ الجمهورِيِّ

إنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ * وَلِيَ الْحُكْمَ وَهَذَا إنْ عَدَلْ
هُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ * وَكِلاَ يَدَّيْهِ فِي النَّارِ تُغَلّْ

تقديرًا لبطولاتِهِمْ أثناءَ "حربِ التحرير"، كما كان على يقينٍ من أنَّ حزبَهُ سوفَ يَفْشَلُ في منافسةِ الحزبِ المعارضِ. فبدأ يَفْتِلُ حَبَائِلَ المؤامرةِ لإنزالِ ضربةٍ قاصمةٍ على الحزبِ التقدُّمِيّ الجمهورِيّ. فزيَّن لأعيانِهِ "أنَّه يُرَحِّبُ بحرّيَّةِ التعبير"، كَيْ يشجِّعَهم على إظهارِ ما يُبطنونَ من ميولِهم، فيورِّطَهُمْ في الإِقْدَامِ على جريمةٍ لِيُسَوِّغَ اتِّهَامَهُمْ بِهَا، فَيُدَانُوا بالخيانةِ العُظمَى. يتطلَّبُ الأمرُ عندئذٍ أنْ تكونَ هناكَ جريمةٌ ضِدَّ النظامِ، وَمُنَاسَبَةٌ تُلائِمُ السياسةَ التي يتبنَّاها (الحزبُ التقدُّمِيُّ الجمهورِيُّ) ليُمكنَ الربطُ بين الجريمةِ وبينَ الحزبِ بهذه المناسبة! ذلك، أنَّ أعيانَ الحزبِ كانوا من المحافظين مِمَّن يحترمون القِيَمَ المعنويَّةَ ويَمْتَعِضُونَ من تصرُّفاتِ مصطفى كمال واحتذائِهِ مثالَ الغَرْبِ في إجراءاتِهِ، وخروجِهِ على الأعرافِ والتقاليدِ، واستخفافِهِ وعَبْثِهِ بالمقدَّساتِ الإسلامِيَّة...

فما لبث حتَّى قامتْ شبكةُ مصطفى كمال السِّرِّيَّةُ بإثارةِ شيخٍ من شيوخ النقشبنديَّةِ في المنطقةِ الكرديَّةِ، "لِيتمرَّدَ (هذا الشيخُ الغافلُ) بِدَوْرِهِ في وجهِ النظامِ على رأسِ جموعٍ غفيرةٍ من مريدِيهِ فَيُصْبِحَ آلةً لِلْخُطَّةِ!".. وإنَّما لجأ مصطفى كمال إلى هذه الحيلةِ كَيْ يتَّخِذَها ذريعةً لإيجادِ مُبرِّرٍ يحتجُّ به ليربطَ بين هدفِ عصيانِ هذا الشيخ وبين سياسةِ الحزبِ التقدُّمِيّ الجمهورِيّ بعلاقةِ "الرجعيَّةِ!". وهي في نظرِهِ: القاسمُ المشتركُ بين الطرفين، و"مصداقٌ يبرهن على انتحالِ الحزب صفةَ التقدُّميَّةِ تعميةً ونفاقًا، ليتمكَّنَ بذلك من خلقِ عقباتٍ أمامَ الإصلاحاتِ التي تقومُ الحكومةُ بتنفيذِهَا!".

نُفِّذَتِ الخُطَّةُ فعلاً وانفجرَ العصيانُ في المنطقةِ الكرديَّةِ بقيادةِ الشيخ سعيدِ الْبَالَوِي، فاتَّهَمَتِ الحكومةُ الحزبَ التقدُّمِيَّ الجمهورِيَّ بِدَعْوَى: "أنَّ الحزبَ استغلَّ الدِّينَ في هُتافاتِهِ ودعاياتِهِ، فنبتتْ الجرأةُ بإيحاءاتِها في نفوسِ القِطَاعَاتِ الْمُتَعَصِّبَةِ، وكان لِمَوَاقِفِ مسؤولِي الحزبِ وتصرُّفاتِهِم دورٌ في عودةِ الفكرِ الرجعِيّ الذي شجَّع الْمُتَزَمِّتِين حتَّى اجْتَرَأُوا على شقِّ عصا الطاعةِ"؛ فأُلغِيَ الحزبُ بذريعةِ هذهِ العلاقةِ الْمُخْتَلَقَةِ في **05** يونيو **1925**م. وتَمَّ تنفيذُ خُطَّةٍ أخرى ضدَّ مسؤولِي الحزبِ عام **1926**م. (كما مرَّ ذكرُها بالتفصيل). ودخلَ هذا الحدثُ في سجلِّ التاريخِ باسمِ "مُؤَامَرَةِ إِزْمِير". وهكذا خَلَتِ الساحةُ لِمصطفى كمال، وطُوِيَتْ صفحةُ الحزبِ التقدُّمِيّ الجمهورِيّ إلى الأبد. بذلك فَسُحَ المجالُ لحزبِ الشعبِ الجمهورِيّ، فظلَّ يمارسُ القواعدَ الظالمةَ بسياستِها الاستبدادِيَّةِ الَّتي تَفَسَّخَ تحتَ ضغطِها كثيرٌ من الْقِيَمِ واضمحلَّتْ مع الزَّمانِ. كما دامتْ تشتَدُّ دكتاتوريَّةُ الحزبِ طوالَ عقودٍ من الزَّمَنِ حتَّى بعدَ وفاةِ مصطفى كمال، فقد سَجَّلَ التأريخُ مَا سَجَّلَ من المظالِمِ، وهدمِ الْقِيَمِ، والقمعِ والإبادةِ في عهدِ حزبِ الشعبِ الجمهورِيّ ما يكلُّ عن وصفِهِ اللِّسانُ.

على سبيل المثال:

- **انقطعتْ صلةُ المجتمعِ بماضيهِ وتاريخهِ بإلغاءِ الحروفِ العربيَّةِ؛ كان ذلك بجهودِ الحكومةِ الْمُنْبَثِقَةِ من هذا الحزب.**

- **تلبَّسَ الحزبُ بالخيانَةِ العظمَى يومَ أقدمَ على إتلافِ كميَّاتٍ ضخمةٍ من المحفوظاتِ العثمانيَّةِ، وتَمَّ بيعُ 50 طنًّا من الوثائقِ التاريخيَّةِ القيّمةِ والمخطوطاتِ والكُتُبِ المدوَّنَةِ بالحروفِ العربيَّةِ إلى الحكومة البلغاريَّةِ عام 1931م. باعتبارِها "قمامةً وخُردةً" لاستعمالِها في صناعةِ الورقِ، ثُمَّ باعتِ الحكومةُ البلغاريَّةُ قسطًا من هذه الحمولةِ إلى الفاتيكان (مقابل 40 مليون لِيفَا).[278] هذا بالإضافةِ إلى حمولاتٍ كبيرةٍ تَمَّ نَقْلُهَا إلى شركةِ سيكا SEKA[279] لصناعةِ الورق! وكان مصطفى كمال يومئذٍ على قيدِ الحياة[280].**

- **أُلزِمَ المجتَمَعُ – أيَّامَ حُكْمِ الحزبِ – بارتداءِ ملابسَ أوروبيَّةٍ قهرًا، فتضايقَ الناسُ من جَرَّائِهَا سنين، وتعرَّضوا لأشكالٍ من الإهانةِ والتنكيلِ عند مخالفتِهِمْ قانونَ اللِّبَاسِ.**

- **شاعَ اتِّهامُ كثيرٍ من الرعيَّةِ بالخروجِ على النظامِ وبالخيانَةِ الْعُظْمَى، بأدنَى ذريعةٍ، وفي بعضِ الأحيانِ افتراءً وبُهتانًا. وتَمَّ إدانتُهم أمامَ محاكمِ التطهيرِ التي كانت شبيهةً بمحاكمِ التفتيشِ الإسبانيَّةِ. وأُعْدِمَ جموعٌ غفيرةٌ على أعوادِ المشانِقِ.**

- **تَمَّ إثارةُ رؤساءِ العشائرِ والشيوخِ النقشبنديَّةِ المغفَّلين في المنطقة الكرديَّةِ بِطُرقٍ مُلَفَّقَةٍ استُخدِمَت فيها شبكاتٌ سِرّيةٌ خاصَّةٌ قامتْ بأعمالٍ تضليليَّةٍ قَصْدَ إغرائِهِمْ على التَّمَرُّدِ وحملِ**

---

[278] المصادر:

Records sold to Bulgaria and İmportance of Private Archives in the History of the Country, by Hakan Anameriç & Asst. Assoc. Dr. Fatih Rukancı. Ankara University Faculty of Language, History and Geography Department of Information Management. http://eprints.rclis.org/11734/1/bulgaristana_satilan_evrakveozel.pdf http://tarihvemedeniyet.org/2009/08/bulgaristana-satilan-osmanli-arsivi/ https://www.facebook.com/video.php?v=104699306261545

[279] سِيكَا لصناعة الورق SEKA: كانت شركةً ضخمةً من الشركات العامّة، بدأ مشروع إنشاءِ مصانعها في مدينة (إِزْمِيتْ) الواقعة على مسافةٍ قريبةٍ من إسطنبول يوم **14** أغسطس **1934**م. وانتهت أعمال البناءِ في **1936**م. بدأت الشركةُ أعمالَ إنتاج الورقِ في **18** أبريل **1936**م. تمّ بيعُها لبعض الرأسماليّين في **1998**م. فتحوّلت بذلك إلى شركةٍ مساهمةٍ خاصّةٍ. ثمَّ أُلْحِقَتْ بالشركة العملاقة: SUMER HOLDİNG سنة **2005**م.

[280] المصدر: مقالة تحت عنوان: (كرّاسة التاريخ) بقلم الكاتبة عائشة حُرّ، نُشِرَتْ في صحيفة (الطَّرَف) التُّرْكِيَّة الصادرة يوم **09** نوفمبر **2008**م.

السلاحِ في وجهِ النظامِ تَبْرِيرًا لِمَذَابِحَ أُقيمتْ بصورةٍ وحشيَّةٍ في أعقابِ العِصْيَانَاتِ التي تورَّط الأَغَاوَاتُ والشيوخُ فيها. ثُمَّ أُرسلتْ عليهم جيوشٌ عارمةٌ حصدتْهم رميًا بالرصاصِ وقصفًا بالمدافع، دون رحمةٍ، راحتْ ضحيَّتَها مِئَاتُ آلافٍ من الأكرادِ، وأحرقتْ وهُدِّمَتْ آلافٌ من القُرَى في المنطقةِ. كما تَمَّ نفيُ عددٍ كبيرٍ من الشيوخِ إلى المناطقِ الغَرْبِيَّةِ التي يسكنُهَا الأتراك، كيْ يتعرَّضوا هناك للإهانةِ باعتبارهم خَوَنَةً، وَلِيَلْقَوْا أذًى على أيدي سكَّان المنطقة بسببِ اختلافِ اللُّغةِ. لأنَّ الْمَنْفِيِّين كانوا أكرادًا وعَرَبًا لم يُحْسِنُوا يومئذٍ اللُّغةَ التُّرْكِيَّة. جرتْ هذه الأحداثُ في وسطِ شلاَّلاَتِ الدماءِ ما بين أعوام **1925–1936**م.

• أَعْلَنَ حزبُ الشعبِ الجمهوريّ أنَّه يَتَبَنَّى أيديولوجيَّةً تحتَ شعارِ "يسارِ الوسطِ" تضليلاً لليساريِّين والعلويّين بُغْيَةَ استغلاَلِهِمْ والاستفادةِ من دَعْمِهِمْ في مواسمِ الإنتخابات. فكانتِ الجموعُ الْمُسْتَضْعَفَةُ تَقِفُ بجانبِ هذا الحزبِ وتُسَانِدُهُ منذُ قيامِهِ على المسرحِ السياسِيّ، دامَ ذلك طوالَ عقودٍ من الزَّمَنِ حتَّى انتبهتْ هذه القطاعاتُ المسحوقةُ والمحرومةُ أخيرًا إلى خَلْفِيَّةِ اللُّعبةِ وأغراضِها، وأنَّها كيف تعرَّضت للاهمالِ، والاستغلال، والسحقِ، والتنكيل.. لكنْ بعد فواتِ الأوانِ. ويأتي على رأسِ هذه الجموعِ المستَضْعَفَةِ: العُمَّالُ والعلويُّونَ والأكرادُ، حيث وَجَدَتِ الجبهةُ الرأسْمالِيَّةُ الفرصةَ – بفعلِ هذه اللُّعْبَةِ – طوالَ فترةِ حكمِ الحزبِ، فاحتكرتْ ثَرَوَاتِ البلدِ فتحكَّمتْ في اقتصادِهِ، وكانتْ وراءَ كلِّ فتنةٍ بالمشاركةِ مع الأحزابِ اليمينيَّةِ إلى اليوم.

• على رغم استغلالِ الحزبِ مفهومَ "الشعبيَّةِ" و"اليساريَّةِ"، واستخدامِهِ لِلمفهومَين في شعاراتِهِ، لم يتورَّعْ عن الإزدواجيَّةِ في تعاملِهِ مع العلويّين واليساريّين والأكرادِ، بل مع الشعبِ كلِّهِ، فكان على ارتباطٍ وثيقٍ مع قادةِ الجيشِ ضدَّ الحُرِّياتِ طَوَالَ حُكْمِهِ، وحتَّى بعدَ إعلانِ التَّعَدُّدِيَّةِ الحِزْبِيَّةِ، كما كان متواطئًا مع الرأسْمالِيِّين. فلا يُستبعَدُ أنْ كانَ له دورٌ في تسلُّطِ القُوَّاتِ المسلَّحةِ على السياسَةِ وفي ثوراتِها على الحكوماتِ الْمَدَنِيَّة.

• أصَرَّ حزبُ الشعبِ الجمهوريُّ ولا يزالُ على دعاياتٍ هُتَافِيَّةٍ جوفاءَ بـ"أنَّه متمسِّكٌ بتعاليمِ مصطفى كمال الإصلاحيَّةِ والتجدُّدِيَّةِ لِمَوَاكَبَةِ العصرِ"، غيرَ أنَّ شخصيَّةَ مصطفى كمال – في الحقيقة – قد تحوَّلتْ إلى صنمٍ يحتوي الحياةَ الرسْمِيةَ في تركيا منذ قرنٍ تقريبًا، ويطفو على جُزْءٍ كبيرٍ من الحياةِ الإجتماعيَّةِ، ويسودُ بِهَيْبَتِهِ على النفوسِ والمشاعرِ؛ كما تحوَّلتْ جميعُ مقولاتِهِ إلى مَنَاسِكَ وعِبَادَاتٍ تتمثَّلُ في دينٍ متكاملٍ بجهودِ حزبِ الشعبِ الجمهوريّ! مع أنَّ هذا الدِّينَ الْمُبْتَدَعَ –

بخلافِ ما يزعمُهُ المنتسبون إلى الحزبِ – لا يمتُّ بأدنَى صلةٍ إلى مفهومِ "العلمانيَّةِ" ولا إلى الْعَصْرَنَةِ ولا إلى الإحتذاءِ بالغربِ أبدًا. وإنَّما لجَأَ الحزبُ إلى هذه الحيلةِ تحدّيًا للإسلامِ وتعمُّدًا لهدمِ آثارِ حضارتَهِ! ولا يزالُ الحزبُ يُصِرُّ على أفاعيلِهِ بُغيَةَ استغلالِ الْمُعْجَبِينَ وَالْمُعْتَزّينَ والْمُنْبَهِرِينَ بِمصطفى كمال من العنصريّين والْمَارِقِين والعلويّين، حتَّى يتعرَّجَ إلى سُدَّةِ الْحُكْمِ بِمُساعَدَتِهِمْ.

- الحزبُ الديمُقْرَاطِيُّ DP

كان حزبُ الشعبِ الجمهورِيُّ هو الحزبَ الوحيدَ على المسرحِ السياسِيّ في تركيا ما بين: **1923–1950**م.، يمارسُ السياسةَ يومئذٍ وحده قابضًا على زِمَامِ السُّلْطَةِ دونَ منافسٍ، ولا يسمحُ لظهورِ حزبٍ سياسِيٍّ آخر يراقبُهُ. ذلك خوفًا من المعارضةِ وحِفاظًا على مركزِهِ السُّلْطَوِيّ وإيثارًا للمصلحةِ.

على رغم السياسَةِ الاستبداديَّةِ للحزبِ، بدأتْ أصواتٌ لبعضِ المعارضين تَعْلُو داخل صفوفِهِ، بعد سبعِ سنواتٍ من وفاة مصطفى كمال، تدعو إلى التَّعَدُّدِيَّةِ، وتوسيعِ نطاقِ الْحُرِّيَّاتِ، وتطالِبُ خاصَّةً بِحُرِّيَّة التعبير.

هذه الأصواتُ كانتْ لِبَقِيَّةٍ من المناهضين لِحزبِ الاتِّحاد والترقِّي الذِي لعبَ دورًا هامًّا في تقويضِ الدولةِ العثمانيَّةِ وهدمِهَا. أمَّا معظمُ أعضاءِ حزبِ الشعب الجمهورِيّ، فكانوا أخلافًا للشرذمةِ الاتِّحاديَّةِ المتنكِّرين ضمنَ "جمعيَّةِ تركيا الفتاةِ" سابقًا، ثُمَّ اندسُّوا في صفوفِ هذا الحزبِ منذ بدايةِ العهدِ الجمهورِيّ استعدادًا لاحتواءِ الدولة التُّرْكِيَّة، واتِّخَاذِهَا لُعْبَةً في مُغَامَرَاتِهِمْ من جديد.

لقد كان رئيسُ حزبِ الشعب الجمهورِيّ عصمتْ إينونو يراعِي الظروفَ ويدارِي المعارضِينَ الذين كانوا يومذاك داخلَ الحزبِ في بداية حُكْمِهِ، يُمهِّدُ الوسطَ بذلك لترسيخ سلطتِهِ، إلاَّ أنَّ ظروفَ تلك الْحُقْبَةِ كانت مواتيةً للاستغلالِ، فاغتنمتْ قِلَّةٌ ثريَّةٌ مِنْ سُكَّانِ الْمُدُنِ الْكُبْرَى (من اليهودِ والنصارَى)، اغتنمتِ الفُرَصَ فضاعفتْ ثرواتَها بطريقِ الإحتكارِ، وممارسةِ الحِيَلِ واستعمالِ القواعدِ الظالِمَةِ، فتحوَّلت هذه القلَّةُ إلى وحشٍ بدأت تُهَدِّدُ النظامَ وتستضعِفُ المجتمعَ.

عند ذلك نَهضَ نَفَرٌ من قلبِ حزبِ الشعبِ الجمهورِيّ أَوَّلاً بإنذارِ الحكومَةِ، ثُمَّ انتقدوها على تساهُلِها مع هذه الطبقةِ الظالِمةِ، ولم يقتنعوا بما أخذتِ الحكومةُ فيما بعد من التدابير ضِدَّ هؤلاء

الرأسْماليّين. ثم دارتْ مناقشاتٌ حادَّةٌ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ بين كُتْلَتَيْنِ من أعضاء الحزبِ، فقامَ المناهضون بتوجيهِ إستنكاراتٍ إلى الحكومةِ ضدَّ مَوَاقِفِها وإجراءَاتِهَا حيالَ معاناتِ الشعبِ، من الإضطهادِ، والفقرِ الْمُنْتَشِرِ، والطبقيَّة... فتمَّ طردُ ثلاثِ شخصيَّاتٍ من هؤلاءِ المعترضين من حزبِ الشعبِ الجمهوريّ في شهرِ سبتمبر سنة **1945**م. وهم: عدنان مندريس Adnan Menderes، ورفيق كُورَالْتَانْ Refik Koraltan، وفؤاد كُوبْرُولُو Fuad Köprülü. فما لبثَ طويلاً حتَّى قدَّمَ جلال بيار Celal Bayar استقالتَهُ من النيابةِ أَوَّلاً ثُمَّ من عضويَّةِ الحزبِ وَالْتَحَقَ بِرِفَاقِهِ الثلاثةِ الذين طُرِدوا من الحزبِ سابقًا. فاجتمعوا، واتَّفقَ رأيُهم على تأسيسِ حزبٍ سياسِيّ سَمَّوْهُ: الحزبَ الديمقراطِيَّ (Demokrat Parti (DP. وتمَّ ذلك بصورةٍ فعليَّةٍ يوم **07** يناير **1946**م.

كانتِ الأوضاعُ في عهدِ حزبِ الشعبِ الجمهورِيّ الْمُتَفَرِّدِ بالحُكْمِ، بَالِغَةَ الترَدّي والسوءِ على مستوَى الساحةِ التُّرْكِيَّةِ، نتيجةَ الحربِ العالَمِيَّةِ الثانيَّةِ، والسياسةِ الاستبداديَّةِ، والطغيانِ الموروثِ منذ أيام مصطفى كمال. فلمَّا فاز الحزبُ الديمقراطِيُّ في انتخاباتِ **1950**م.، واحتلَّ عدنان مندريس منصبَ رئيسِ الوزراءِ، حَوَّلَ تركيا إلى ساحةٍ مفتوحةٍ للنفوذِ الأمريكِيّ فانضمَّتْ تركيا إلى حِلْفِ شَمَالِ الأطلنطِيِّ «الناتو Nato» عام **1952**م.، ثُمَّ عقدتْ معاهدةَ صداقةٍ مع اليونان ويوغوسلافيا سنة **1953**م. ثم كَوَّنَتْ "حِلْفَ بَلْقَانَ" سنةَ **1954**م. وذلك بإشارةِ أمِيرِكَا للإحاطةِ بروسيا من كل اتِّجاهٍ وَوَقْفِ طموحاتِهَا التوسُّعيَّةِ. وأمَّا زَعْمُ بعضِ كُتَّابِ العرب: "أنَّ تركيا إنَّما كانت شريكةً في العديدِ من الأحلافِ الْمُتَعَدِّدَةِ الأطرافِ بسببِ معاداتِهَا لِحَرَكَةِ التَّحَرُّرِ العربيَّةِ وأبرزها (حلف بغداد)". فلاَ يخلو من محاولةِ تحريكِ العواطفِ! لكنَّ تركيا كانتْ على صلةٍ قويَّةٍ بالدولةِ الصهيونيَّةِ حتى في عهدِ رئيسِ الوزاراءِ نجم الدين أربكان Necmettin Erbakan، واستمرَّتْ عليها إلى أيَّام رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان.

شُوهِدَ في البدايةِ انفتاحٌ نسبِيٌّ ونَهْضَةٌ في عهدِ عدنان مندريس، ولكنَّ الأمورَ لم تستقمْ له، فلم يلبث حتى تدهورتِ الأوضاعُ الاقتصاديَّةُ، فأثارتِ المجتمعَ، فخرجتِ القطاعاتُ العُمَّالِيَّةُ وطلبةُ الجامعاتِ إلى الشارعِ في مُظَاهَرَاتٍ عارمةٍ سُخْطًا على الحكومةِ، دامتْ فترةً طويلةً من الزمن. فلم يجِدْ مندريس مَنَاصًا من مدِّ اليدِ إلى أمِيرِكَا التي قامتْ بِضَخِّ مساعداتٍ ضخمةٍ لإصلاحِ الاقتصادِ التُّرْكِيِّ الْمُنْهَارِ، ولكنْ استمرَّتْ الأوضاعُ في التدهوُرِ، فَقَوِيَتْ شوكةُ المعارضةِ متمثِّلةً في حزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ القديم.

يبدو أنَّ أمِيرِكَا شعرتْ فيما بعدُ باليأسِ عن حكومةِ مندريس، فاستغنتْ عن عَمَالَتِهَا، فاستبدلتْهَا بشبكةٍ خطيرةٍ اتخذتْ وَكْرًا فِي قلبِ القُوَّاتِ المسلَّحةِ التركيَّةِ، فقامتْ بتدبيرِ انقلابٍ عسكرِيٍّ بقيادةِ رئيسِ أركانِ الجيشِ التُّرْكِيّ «جمال جورسيل Cemal Gürsel». فأطاحتْ بحكومةِ «مندريس» فِي 27 مايو 1960م. وأُلْقِيَ القبضُ عليه وأُعْدِمَ مع اثنينِ من وُزَرَائِهِ، وهما: وزيرُ الخارجيةِ «فطين رشدي زورلو Fatin Rüştü Zorlu»، ووزيرُ الماليَّةِ «حسن بُولاَتْكَانْ Hasan Polatkan»، وأُلْغِيَ الحزبُ الديمقراطِيُّ. أمَّا رئيسُ الجمهوريَّةِ (جلال بيار Celal Bayar) فقد حُكِمَ عليهِ أيضًا بالإعدامِ، ثم خُفِّفَ بالسجنِ المؤبَّدِ لِكِبَرِ سِنِّهِ، وبذلك حقّقتْ أمِيرِكَا أهدافَهَا من هذا الانقلاب، فقضتْ على الحركاتِ الإسلاميَّةِ الْمُتَنَامِيَةِ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ، ومهَّدَتِ المجالَ بذلك لِنشاطاتِ الصوفيَّةِ النقشبنديَّةِ، كما ضربت التنظيماتِ الشيوعيَّةَ والاشتراكيَّةَ وقضتْ على آخرِ بقيَّةٍ باقيةٍ للنفوذِ الإنجليزي فِي تركيا.

***

- حزبُ العدالة AP

لَمَّا انقضَّ الجيشُ على حكومةِ مندريس وأَعْدَمَهُ، وألْغَى حزبَهُ عقِبَ انقلابِ 27 مايو 1960م.، جرتْ مشاوراتٌ بين جماعةٍ من السياسيِّين الذين كانوا يُكِنُّونَ في قلوبِهِم العطفَ والإشتياقَ لهذا الحزبِ، فاتَّفَقَ رأيُهم على تأسيسِ حزبٍ يمارسُ سياسةَ الحزبِ الديمقراطِيّ الْمُنْحَلّ. فتقدَّموا إلى المجلسِ العسكرِيّ MBK، بطلبٍ كتابِيٍّ في 11 فبراير 1961م. لتحقيقِ ما يهدفون، وأعلنوا عن قيامِ حزبِهِمْ بعد موافقةِ الإنقلابِيِّين، وسَمَّوْهُ "حزبَ العدالةِ (AP) ADALET PARTİSİ" .

فلمَّا هدأتِ الأوضاعُ واستفاقَ الشعبُ من سُبَاتِهِ وثابَ إلى وعيِهِ بعد هزَّةِ الإنقلابِ وانخفاضِ شدَّةِ السيطرةِ العسكريَّةِ، استغلَّ حزبُ العدالةِ هذا الجوَّ العاطفِيَّ فنهضَ بدعاياتٍ رنَّانةٍ واختيارِ هُتافاتٍ مُهَيِّجَةٍ للمشاعرِ تثيرُ حفيظَةَ الشعبِ إلى "حملِ المسؤولِيَّةِ لإكمالِ المسيرةِ...". يقصِدُ بذلك متابعةَ نَهْجِ الحزبِ الديمقراطِيّ الذي انتُهِكَتْ حرمتُهُ بطريقةٍ عنجهيَّةٍ.

إنَّ المؤسّسين لهذا القُطبِ السياسِيّ الجديدِ، كانوا يرونَ حِزْبَهُمْ "وصِيًّا على تُرَاثِ الحزبِ الديمقراطِيّ وأمينًا على وَدائِعِه". فكانتْ دعاياتُهُمْ كُلُّهَا تصبُّ في التأكيدِ على هذا الجانبِ مِمَّا جذبتْ انتباهَ قِطاعاتٍ واسِعةٍ وأثارتْ ما يُكِنُّ في ضميرِ الشعبِ من الْحَنانِ إلى الحزبِ الديمقراطِيّ، فاستغلُّوها

بِلَبَاقَةٍ، فاستجابتِ الأغلبيَّةُ بذلك لِحزبِ العدالةِ، وجعلتْهُ أكبرَ حزبٍ يتسابقُ في ميدانِ السياسَةِ بعد أوَّلِ إنقلابٍ عسكرِيٍّ اندلَعَ في تركيا.

كان حزبُ العدالةِ حزبًا يمينيًّا لِيبراليًّا نظيرَ الحزبِ الديمقراطِيِّ، يَتَبَنَّى العلمانيَّةَ الوثنيَّةَ، والأتاتوركيَّةَ، واقتصادَ السوقِ على أساسِ الرأسْماليَّةِ المطلَقَةِ، ويتساهلُ مع المحافظين من النقشبنديّين وَالنُّورْجِيَّةِ وبقيَّةِ الجماعاتِ الصوفِيَّةِ؛ يداريهم في حدودٍ مُعيَّنَةٍ. ولكنَّه اتَّخذَ موقِفًا مناهضًا من تيَّارِ الصحوةِ الإسلامِيَّةِ، والحركةِ التصحيحيَّةِ؛ فقامتِ الحكومةُ الْمُنْبَثَقَةُ من حزبِ العدالةِ بِخَنْقِ حركةِ الوعيِ الإسلامِيِّ واحباطِها وهي في مهدِها. بينما كانَ التيَّارُ التوحيدِيُّ ضعيفًا في تلك الفترةِ، لم يَكُنْ له شأنٌ يُذكَرُ على الساحةِ التُّرْكِيَّة.

كانَ الفريقُ الْمُتَقَاعِدُ راغب جموشبالا Rağıp Gümüşpala، هو رئيسَ الحزبِ في بدايةِ الأمرِ. غيرَ أنَّ المنيَّةَ عَاجَلَتْهُ في **06** يونيو **1964**م. فلم يكن عهدُهُ طويلاً، فحلَّ محلَّهُ المهندسُ سليمان ديميريل Süleyman Demirel. كانت قَمَّةُ الحزبِ يضمُّ فريقين متباينين في الإتِّجاهِ الأيديولوجِيّ؛ فريقٌ "علمانِيٌّ" لِيبرالِيٌّ، قومِيٌّ، محافظٌ، يرى الإسلامَ متمثِّلاً في "الْمُسْلُمَانيَّةِ التُّرْكِيَّة" التقليدِيَّةِ؛ وفريقٌ متزمِّتٌ يُضمِرُ الكراهِيَّةَ "للعلمانِيِّين"، ويرى الإسلامَ متمثِّلاً في تركيبٍ يتألَّفُ من عقيدِ النقشبندِيَّةِ، وتعظِمِ الأمْجادِ العثمانِيَّةِ!

بدأتِ الخلافاتُ داخلَ صفوفِ الحزبِ وتصاعدتْ وتيرةُ النِّزَاعِ بين الجبهتين، فانتهتْ مُشَارَكَتُهُمَا تحتَ سقفِ الحزبِ وانقطعَ الحبلُ بينهما في سنةِ **1970**م. انفصلَ واحدٌ وأربعون نَائِبًا من الحزبِ في شهر فبراير **1970**م. فبدأ الحزبُ يترنَّحُ في مَسِيرَتِهِ، وكان ذلك بدايةَ التراجُعِ في تاريخِ الحزبِ. ثُمَّ كانتْ انتخاباتُ **14** أكتوبر **1973**م. أوَّلَ علاماتِ الإنْهيارِ للحزبِ، فتوالتِ الخساراتُ فيها تباعًا حتَّى أُلغِيَ يوم **16** أكتوبر **1981**م.

حَظِيَ حزبُ العدالةِ فُرْصَةَ الوصولِ إلى السلطَةِ وحدهُ في الفترةِ ما بين **1965-1971**م. ثُمَّ اشتركَ مع أحزابٍ أُخرَى في تشكيلِ حكوماتٍ ائتلافِيَّةٍ طوالَ السبعينِيَّاتِ. فلمَّا اندلعَ انقلابُ **12** سبتمبر **1980**م. بقيادةِ الجنرال كنعان أفرين، تَمَّ حلُّهُ وتعطيلُهُ من قِبَلِ المجلس العسكرِيِّ، كبقيَّة الأحزابِ السياسِيَّة. وَحُكِمَ على رَئِيسِهِ (سليمان ديميريل) بالإقامة الإجبارية في منطقةِ حَمْزَكُويْ Hamzakoy

***

- **التَّيَّارُ الْمُسْلُمَانِيُّ السياسِيُّ والأحزابُ الْمُنْبَثَقَةُ مِنْهُ: (حزبُ النظامِ القومِيُّ MNP، حزبُ السلامةِ القومِيُّ MSP، حزبُ الرفاه RP، حزبُ الفضيلة FP، حزبُ السعادة SP)**

ظلَّ الْمُجْتَمَعُ التُّرْكِيُّ تحتَ ضغوطِ الكماليِّينَ منذُ قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة طوالَ نصفِ قرنٍ. كانت الحكوماتُ تُعَانِي قلقًا مستمرًّا تَخَافُ أنْ تنتشرَ العقيدةُ الإسلاميَّةُ الحنيفةُ على الساحة التُّرْكِيَّة. وأهمُّ من ذلك؛ أنَّ الحُكَّامَ الأتراكَ الذين نشئوا على نَهجِ مصطفى كمال وتعاقبوا بعدَهُ تِبَاعًا كانوا يجهلونَ الإسلامَ تَمَامًا، فَالْتَبَسَ عليهم التصوُّفُ بالإسلامِ. والحالُ هذه؛ فإنَّ كلمةَ (الإسلامِ) كانت مجرَّدَ رمزٍ تُواريهِ وتُحِيطُ بِهِ عقائدُ غريبةٌ لا تَمُتُّ إلى الإسلام بأدنى صلةٍ. تأتي على رأسِها العقيدةُ النَّقْشَبَنْدِيَّةُ الْمُنْبَثَقَةُ من الدياناتِ الْهِنْدِيَّةِ بعدَ استحالاتٍ مُتَتَابِعَةٍ تعرضتْ لها عَبْرَ عصورِ الظلام.

ورغم هذا التبايُنِ الشديدِ بين الإسلامِ والتصوُّفِ، والْتِبَاسِ المسلمين على الحُكَّامِ بالصوفيَّةِ، كان ولا يزال التيَّارُ الصوفِيُّ يُعتَبَرُ الشكلَ المثالِيَّ للاسلامِ في نظرِ المجتمعِ قديمًا، فظلَّتْ النَّقْشَبَنْدِيَّةُ بهذا الاعتبارِ "مَشْرَبًا إسلامِيًّا خطيرًا" في مفهومِ الكماليِّينَ، وكانتْ من أكبرِ مَخاوِفِ الحكوماتِ التُّرْكِيَّة منذ قيامِ الجمهوريَّةِ إلى نِهَايَةِ السبعينِيَّات من القرنِ العشرين. ولهذا، انقضَّ النظامُ السبطائِيُّ– الكمالِيُّ على النَّقْشَبَنْدِيّين مرتين ما بين 1925–1940م. فَقَتَلَ منهم قرابة مائتَيْ ألفِ شخصٍ ولم يشفِ غليلَهُ منهم بعدُ. فأثارَ هذا الواقعُ حفيظةَ رجلٍ من مُثَقَّفِي النَّقْشَبَنْدِيّينَ الأتراك يُدعى نجم الدين أربكان Necmettin Erbakan[281]. غير أنَّ الرجلَ يومئذٍ لم يكن على قدرٍ كافٍ من المعرفةِ

[281] نجم الدين أربكان Necmettin Erbakan: رجلٌ أكادِيمِيٌّ وسياسِيٌّ تركِيُّ الأصلِ. وُلِدَ في مدينة سينوب الواقعة على غرب ساحل البحر الأسود في **29** أكتوبر **1926**م. أبوه محمد صبري كان قاضِيًا، أمّه سيدة قَمَر شركسِيةُ الأصلِ. ينحدر أربكان من سلالةٍ معروفةٍ بـ"أمراءُ كوزان أوغلو" كانوا يحكمونَ منطقة كوزان وصَائِمْبَيْلِي قربَ مدينة أَضَنَه في نهاية القرن التاسع عشر. بدأ دراستَهُ الإبتدائِيَةَ في مدينة القيصريةِ ثمَّ أتمَّها في طربزون. انتقل إلى ثانوية إسطنبول للذكورِ عام **1937**م. وتخرج فيها سنة **1943**م بدرجة أوّل طالب متفوّق. واصل دراسَتَهُ في كلّية الميكانيكا التابعة لجامعة إسطنبول للعلوم التقنيّةِ عام **1948**م. من غرائب القدر أنّ سليمان ديميريل وتُرغوت أوزال (الذان ظهرا على المسرح السياسِي مع أربكان في نفس الفترة الزمنية) كانا من طلابِ هذه الجامعة. حصل أربكان على شهادة الدكتوراه في جامعة Aachen الألمانية. عمل في مصنع انتاج المحرّكات Klöckner Humbolt Deutz AG، قام بإجراء دراسات بغرض ابتكارات جديدة لتطوير صناعة محركات الدبابات التي تعمل بِكُلِّ أنواعِ الوقود. وذلك بالمشاركة مع البروفسير الدكتور Schmidt بمدينة كولونيا. عاد إلى تركيا سنة **1953**م. وتولّى أعمالَ التدريس في الجامعة التي تخرَّج فيها. قضى الفترة العسكرية الإجبارية في **1954–1955**م. وعاد إلى متابعة أعماله في الجامعة ذاتها. أعدّ مشروعًا هامًّا لإنتاج المحركات وقام بتأسيس مصنع لهذه المهمة بالمشاركة مع مائتين من زملائه، وبدأ بالإنتاج الفعلي عام **1960**م. كانت هذه الشركة تنتج نحو ثلاثين ألف محرك ديزل سنويا. إلاَّ أنها تراجعت بعد صفقاتٍ استوردتها شركاتٌ أخرى من السلغ الصينيّةِ الرخيصة ولم تعدْ قادرةً على المنافسة فأغلقتْ أبوابَهَا في **2012**م.

بالنسيج الإجتماعِيِّ للمجتمع التُّرْكِيِّ ولا بِحَقِيقَةِ الإسلامِ، لأنَّه كان رَجُلَ فَنٍّ تخصَّص في الهندسةِ الْميكانيكيَّةِ، فلم يكن له إِلْمامٌ بالعقيدة الإسلامِيَّةِ، خاصَّةً وأنَّه قَضَى أيَّامَ دراستِهِ في فترةٍ اشتدَّ النظامُ الأَتَاتُورْكِيُّ فيها على الإسلامِ بتدابيرِهِ الصارمةِ. فلم يفطَنْ أربكان يومًا من الأيَّامِ إلى الفرقِ بين الْمُسْلِمِ والنَّقْشَبَنْدِيِّ، ولا إلى القلَّةِ الحنيفةِ وما تَتَعَرَّضُ له (هذه الجماعةُ الصالِحَةُ) من القهرِ والظلمِ على يدِ النظامِ الأَتَاتُورْكِيِّ بالقدرِ الذي تعرَّض له النقشبنديّون! فكانَ كُلُّ هَمِّهِ إنقاذَ الطائفةِ النقشبنديَّةِ مِنْ بَرَاثِنِ العصابَةِ السَّبَطَائِيَّةِ فحسب. يبرهن على هذه الحقيقةِ تَجَاهُلُهُ لِعُلَمَاءِ الإسلامِ، واهتمامُهُ البالِغُ بالشيوخ النقشبنديَّةِ، ومُرَاجَعَاتُهُ المتتاليةُ إيَّاهم للاستشارة بين الفينة والأخرى.

ظهرَ أربكان في أواخرِ الستينيَّات يستعدُّ لتغييرِ الوضعِ بخطواتٍ مرحليَّةٍ لعلَّه ينجحُ في حلِّ أزمةِ الإضطهادِ الذي ذاقت آلاَمَهُ قطاعاتٌ واسِعةٌ من المحافِظِين و"الْمُتَدَيِّنِين" على مَدَى العهدِ الجمهورِيِّ. يأتي على رأسِ هذه القطاعاتِ الْمضطهَدَةِ الطائِفَةُ النقشبنديَّةُ. فبدا له أن يختارَ سبيلاً يكفُلُ له الفرصةَ لمواجهةِ الطُّغْمَة الكماليَّةِ التي تَتَحَكَّمُ في رقابِ الشعب.

أرادَ أربكان في أوَّلِ الأمرِ أنْ يتصدَّى لهم بعد ما يأخذُ مكانه في صفوفِ حزبٍ يُلاَئمُهُ لِيَتَمَكَّنَ بذلكَ من الدخول إلى الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ. فالتمسَ القبولَ من حزبِ العدالة، إلاَّ أنَّ رئيسَ الحزبِ (سليمان ديميريل) رَفَضَ طلبَهُ. فقدَّمَ ترشيحَه منفردًا في انتخاباتِ النِّيابِيَّةِ عام **1969**م. فانتُخِبَ نائِبًا مستقلاًّ عن مدينةِ قونيا Konya. ثُمَّ أسَّسَ مع ثُلَةٍ مِنْ رِفاقِهِ حِزْبًا سياسِيًّا في **26** يناير

كانَ أربكان داهيةً، عبقرًّا، يمتاز بذكاءٍ وقادٍ وعقلٍ راجحٍ؛ مناضلاً جريئًا بالقدر الذي كانَ متميّزًا بسعةِ الإطّلاعِ ورحابةِ الأفق الثقافِيِّ والفكرِيِّ، إلاَّ أنَّه كان مُسْلُمَانِيَّ الإتِّجاءِ، حنفانيًّا مذهبِيًّا متعصِّبًا، يدلُّ ذلك على أنه كان جهميَّ العقيدةِ مرجِئًا، قبورِيًّا منبهرًا بسلاطين بني عثمان ومعتزًّا بهم، يقدِّسهم ولعله يعتقد بعصمتهم من الذنوبِ والله أعلم. كما كانَ قومِيًّا (رغم ما عُرِفَ عنه أنّه اهتمَّ بأحوالِ الأمّةِ المحمّديّةِ وأرادَ جمعَ شملِها!). كان قليلَ المعرفةِ بأصولِ الدِّين مضطربَ الفكر في مسائل العقيدة (والعقيدةُ أساسُ الدين!). وهذا الإضطرابُ الوجدانِيُّ أربكه في التمييز بين السنة والبدعةِ، فانساقَ وراءَ مشعوذٍ نقشبنديٍّ اسْمه محمد زاهد كوتكو الذي جمع بين الحق والباطل في كتابه Tasavvufi Hayat.

توفي أربكان يوم الأحد **27** فبراير **2011**م الموافق **23** ربيع الأول **1432** هـ في أنقرة عن عمر ناهز **84** عامًا. نُقل جثمانه إلى ساحة مسجد السلطان محمد الفاتح في قلب مدينة إسطنبول، وصلّى عليه بعد صلاة الظهر قرابةُ مليونَ ممن حضروا لتشييع جنازَتِهِ من مختلفِ أصقاعِ العالمِ، وذلك بمشاركة رئيس الجمهورية عبد الله جول، ورئيس الوزراء رجب طيب أردوغان، إلى جانب زعماء إسلاميين منهم المرشد العام السابع لجماعة الإخوان المسلمين محمد مهدي عاكف، ورئيس حزب النهضة في تونس الشيخ راشد الغنوشي، وممثلين عن حركة حماس، وعدد كبير من العلماء والقيادات الإسلامية في العالم. وَدُفِنَ في مقبرةِ مركز أفندي الواقعة بمنطقة زيتين بورنو، ورُشَّ على قبرِهِ حفناتٌ من أتربةٍ أُحْضِرَتْ من القدسِ، ومن جزيرة قبرص، ومن ضريح علي عزَّتْ بكوويتش من البوسنة، ومن مناطق مختلفة من أناضول.

1970م. سَمَّاه "حِزْبَ النظامِ القوميِّ MNP"، وذلك بعد سلسلةِ استشاراتٍ أجراها مع الْمُقَرَّبِين من أصدقائِهِ، وبعد موافقةِ شيخِهِ: محمّد زاهد كُوتْكُو[282].

والذين ساندوه في تأسيس هذا الحزب هم: أحمد توفيق بَاكْصُوْ Ahmet Tevfik Paksoy، وعلي حيدر أَكْسَايْ Ali Haydar Aksay، وسليمان عارف أَمْرَهْ Süleyman Arif Emre، وحسن تحسين عَرْمُودْجِي أُوغْلُو Hasan Tahsin Armatçuoğlu، وعمر جُوكْطُوسُنْ Ömer Çoktosun، وأكرم أُوجَاكْلِي Ekrem Ocaklı، وعمر فاروق أَرْكِينْ Ömer Faruk Ergin، وصَفْوَتْ صُولاَكْ Saffet Solak، وحسن أَكْسَايْ Hasan Aksay، وعلى أُوغُوزْ Ali Oğuz، وإسماعيل مفتي أُوغْلُو İsmail Müftüoğlu، ونائل سُورِيلْ Nail Sürel، وفهمي جُمْعَلِي أُوغْلُو Fehmi Cumalıoğlu، وحسام

---

[282] محمد زاهد كُوتْكُو Mehmet Zahit Kotku: كان من مشاهير شيوخ النقشبنديَّةِ في تركيا. يرجع أصله إلى أسرةٍ من أهل شيروان مِنْ مُدُنِ دَاغِسْتَان، قد تَكُونُ الأسرةُ تركيةَ العِرْقِ والله أعلم. هاجرتْ أُسْرَتُهُ إلى تركيا في أعقابِ الحرب الروسية–العثمانيَّة سنة **1897**م. وأقامتْ في مدينة بروسه الواقعةِ في منطقةِ مرمرا. وهي على مسافة **239** كم. من إسطنبول. كان والدُهُ إبراهيم في غضون ذلك فتًى مراهقًا له **16** سنةً من العمر. درسَ إبراهيم بعضَ الشيءِ من أمور الدين وتقلّدَ الإمامةَ في بعضِ مساجدِ بروسه.

وُلِدَ محمّدٌ في العام الذي استقرتْ أُسْرَتُهُ في بروسه، لم يلبث طويلاً حتى فَقَدَ أمَّهُ (سيدة صابرة) وهو طفلٌ في الرابعة من العمر. عاش في كَنَفِ وَالِدِهِ إبراهمَ وَزَوْجَتِهِ الثانيةِ فاطمة إلى أن مات أبوه عام **1929**م درسَ محمَّدٌ الإبتدائيَّةَ والثانويَّةَ في هذه المدينة. التحق بالجيش العُثمانيِّ أثناءَ الحرب العالمية الأولى في الجبهة السورية وهو لم يُكْمِلْ يومئذ الثامنَ عَشَرَ من العمر. ظلّ فترةً طويلة تحت السلاح. ثمّ عاد إلى إسطنبول بعد الفراغ من الجندية وانخرطَ في صفوفِ جماعةٍ من النقشبنديّين التابعين لشيخٍ داغستانيٍّ من أبناءِ عرقِهِ يُدعى عُمَرَ الدَّاغِسْتَانِيَّ. وهذا الثاني كان من أتباعِ الشيخ أحمد ضياء الدين الْجُمُشْخَانَوِيِّ الذي نالَ شهرةً في عهدِ السلطان عبد الحميد، وشاع ذكْرُهُ لإِلْمَامِهِ بِلُغَةِ الضادِ. له تصانيف بالعربيَّةِ منها: راموزُ الأحاديث، وَلَوَامِعُ الْعُقُول، وَعَجَائِبُ النبوَّة، وَلَطَائِفُ الْحِكَمِ، كما له تأليفاتٌ في التصوّفِ.

انتسبَ محمّد زاهد كُوتْكُو إلى خليفتِهِ عمر الداغستانيِّ وحلّ محلَّهُ بعد موتِهِ، إلاّ أنَّ كُوتْكُو كان ضعيفَ العلمِ لا يُتقِنُ العربيَّةَ. مع ذلك طارَ صيتُهُ في المنطقةِ الغربيَّةِ ثم في أنحاءِ تركيا. حَالَفَهُ الحظُّ لأسبَابٍ: كانَ جميلَ الوجه والعينينِ وسيمَهُمَا، دقيقَ البشرةِ، رَبْعَ القامة رشيقَ الثيابِ... عليه وقارٌ وسكينةٌ. خاصَّةً وعمامتُهُ الكبيرةُ ولحيتُهُ الْمُرَبَّعَةُ البيضاءُ كانتا مُلْفِتَتَيْنِ للانتباه، تَجْذِبَانِ العواطِفَ فينفذُ الشيخُ بهذه الهيئةِ إلى قرارةِ النفوسِ.

تعرفَّ عليه في البدايَةِ عددٌ قليلٌ من أساتذة الجامعة مِمَّن كانت لهم صلة بالدّين وتعرَّضوا للاضطهاد من قِبَلِ النظامِ الأتاتوركيِّ، فثارت عاطفتُهُم أثناءَ مقابلتهم إياه، وأحسُّوا بمحبَّةٍ بالغةٍ له وهم غير ذوي كفائةٍ لِيَسْبُرُوا غوره فيتعرَّفوا على مستواه العلميِّ وعمَّا إذا كانت معتقداتُهُ موافقةً لنصوص الكتابِ والسنّة، لكنَّهم تأثَّروا بمجرَّدِ مظهرِهِ فنهضوا للدعوة إلى حَلَقَاتِهِ، وأذاعوا بفضائله وبَالَغُوا في تعظيمِهِ، فلم يلبثْ حتى تهافتَ عليه جموعٌ كبيرةٌ من المثقَّفِينَ ورجالِ الأعمالِ وأصحابِ المناصبِ في مختلف أجهزة الدولة. نشأ بينهم شخصيَّاتٌ بارزةٌ تعاونوا فيما بينهم، فأسَّسوا شركاتٍ عملاقةً، وأحزابًا سياسيَّةً، ومؤسَّساتٍ تعليميَّةً توغَّلوا بذلكَ في قنواتِ الدولةِ فاستطاعَ عددٌ منهم أن يقفزَ إلى قِمَّةِ الدولة؛ مثل تُرغوت أوزال، ونجم الدين أربكان، وعبد الله غول، ورجب طيب أردوغان، وكثيرٌ من أمثالهم. تغيَّرَ مَجرَى السياسةِ بذلكَ فتراجعَ الكماليُّون أمامَ زعماءِ النقشبنديّين (الذين تَجْرِي أسماؤهم عبر الإعلام ب"الإسلامِيّين!") فتحسَّنت أحوالُ الطبقةِ المحافظةِ بجهودهم.

كان محمّد زاهد كُوتْكُو أكثر اتِّزَانًا إذا قَارَنَّاهُ ببقيَّةِ شيوخ الصوفِيَّةِ، فلم تظهر أباطيلُهُ وفسادُ اعتقادِهِ إلى العيانِ في كثيرٍ من الأحوالِ. غير أنَّ له كتابٌ يضمٌّ كثيرًا من مساويه، من ذلك على سبيل المثال: روايتُهُ لحديثٍ موضوعٍ مُنْكرٍ، يقول فيه: "إِنَّ النَّبِيَّ قَالَ: إِذَا تَحَيَّرْتُمْ فِي الأُمُور، فَاسْتَعِينُوا بِأَهْلِ الْقُبُور".

ماتَ محمّد زاهد كُوتْكُو يوم **13** نوفمبر **1980**م. في إسطنبول. حضر في تشييعه حشدٌ كبير من الناس بينهم كبار رجال الدولةِ ورجالِ الأعمالِ، وجمهورٌ من مريديه. دُفِنَ في مقبرة السلاطين بالجبهة القِبْلِي من جامع السلطان سليمان القانونيِّ وذلك بقرارٍ خاصٍّ أصدره مجلس الوزراء.

الدّين فَاضِلْ أُوغْلُو Hüsamettin Fadıloğlu، **وبهاء الدين جَرْخْ أُوغْلُو** Bahattin Çarhoğlu، **ومحمّد صَاتْ أُوغْلُو** Mehmet Satoğlu، **ورفعت بُويْنُوقَالِنْ** Rıfat Boynukalın، **وحسام الدين أَكْمُومْجُو** Hüsamettin Akmumcu، **وحسين عباس** Hüseyin Abbas، **وإقبال شِينْ** İkbal Şen.

دخل أربكان في صراعٍ مريرٍ مع الطُّغْمَةِ الأَتَاتُوزكِيَّةِ الْمُتَطَرِّفَةِ منذُ بدايةِ دخولِه في السياسةِ إلى آخرِ لحظةٍ من حياتِه. اتَّهمه الكماليُّونَ بـ"استغلالِ الدّين في دعاياتِه وهُتَافَاتِه". زعموا أنَّهُ يَحْتَالُ بذالك على الناسِ ليتغلَّبَ على عقولِهِمْ ويستثْمِرَ عواطِفَهُمْ، مع أنَّهم في الوقتِ ذاتِه كانوا ولا يزالونَ يستغلُّونَ شخصيَّةَ مصطفى كمال، يختلسون الضمائرَ ويغسلون الأدمغةَ بهذه الحيلةِ. وأبعد من ذلك؛ أنَّهم قد جعلوا من هذه الشخصيَّةِ صنمًا يُعْبَدُ، ونسجوا حولَهُ دينًا بتمامِ معنى الكلمة، ذلك تَحَدّيًا للإسلامِ، ومؤامرةً لأجلِ القضاءِ على ما تبقَّى من ظلالِه الضعيفةِ في تركيا.

صرفَ الكماليُّونَ كلَّ جهودِهِمْ في تشنيعِ أربكان، وتقبيحِ أسلوبِه، والْحَطِّ من شأنِه، والْمساسِ بكرامتِه... أرادوا أن يُثيرُوا كراهيَّةَ الناسِ ضِدَّه، فأعلنوا الحربَ عليه بما في أيديهِمْ من إمكاناتِ الدَّوْلةِ وبتجنيدِ الإعلامِ. ووصموه بكلِّ نقيصةٍ من الرياءِ، والحرصِ السياسِيِّ، والتَّطَرُّفِ، واستغلالِ الضمائرِ، واتِّخاذِ المفاهِيمِ الْمُقَدَّسَةِ مَطِيَّةً لآمالِه وطموحاتِه... بلغتْ افتراءاتُهُمْ عليه إلى حدودٍ يكلُّ اللسانُ عن وصفِها إلى أن قالوا عنه. "إنَّه صلَّى الظهرَ أربعَ مرَّاتٍ في يومٍ واحِدٍ أثناءَ جولتِه الإنتخابِيَّةِ، لِيُزَيِّنَ عَمَلَهُ في عيون الجهلةِ فَيُوهِمَ بذلك مدى تَمَسُّكِه بالدّينِ رياءً، فينالَ دعمَ حثالةِ المجتمعِ ويختلسَ أصواتَهم عند صناديقِ الإقتراعِ!". فحاصروه، وأخاطو به من كلِّ صوبٍ، وطوَّقوه، وتَجسَّسوا من ورائِه، واشتدُّوا عليه بالْمُضَايَقَةِ والإزعاجِ، ودخلوا في عِرْضِه، وتَتَبَّعُوا كُلَّ حركةٍ من حَرَكَاتِه ليورِّطوه في داهِيَةٍ... فلمَّا عجزوا عن تحقيقِ ذلك لَجَئُوا إلى اتِّهامِه بالخيانَةِ للقِيَمِ الأَتَاتُوزكِيَّةِ والخروجِ على النظامِ "العلمانِيّ". فلم يَتَيَسَّرْ لـ(حزبِ النظامِ القومِيّ) أن يثبُتَ أمامَ هجماتِ الكمالِيِّينَ غيرَ عامٍ وأربعةِ أشهرٍ، فأصدرتِ الْمَحْكَمَةُ الدستوريَّةُ قرارًا بإِلْغَائِه، فتمَّ حلُّهُ في 20 مايو 1971م.

غير أنَّ أربكان لم يعرف الْمَلَلَ، ولم يمنعه القهرُ والإضطِّهادُ عن مواصلةِ مسيرتِه في سبيلِ دعواهُ، ولم تَسُدَّ عليه شَمَاتَةُ الخصومِ بَابَ الأَمَلِ، ولم تُوهِنْ عَقَبَةٌ شيئًا من عَزْمِه، بل إنَّهُ رغم الْمَظَالِمِ التي تَعَرَّضَ لها طوالَ أربعين عامًا ثَبَتَ في نضالِه وضَرَبَ مِثَالاً مُنْقَطِعَ النظيرِ في الصبرِ والمقاومةِ والدِّفَاعِ، دون لجوءٍ إلى استعمال العنفِ ضدَّ خصومِه.

نهضَ أربكان من جديدٍ فأنشأَ حِزْبًا آخر باسْمِ "حزبِ السلامةِ القومِيّ" في 11 أكتوبر 1972م. وخاضَ غِمَارَ الإنتخاباتِ في 14 أكتوبر 1973م. فحصلَ على ثمانيةٍ وأربعين مقعدًا في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ. كان هذا نجاحًا كبيرًا حَقَّقَهُ، وتَحَدِّيًا في مواجهةِ النظام الكماليِّ الْمُسْتَبِدِّ. اشتركَ مع بُلَنْدْ أجَاوِيد Bülent Ecevit في تشكيل حكومةٍ ائتلافيَّةٍ واحتلَّ منصبَ نائبِ رئيس الوزراءِ في هذه الحكومةِ. اقترحَ على رئيسِ الوزراءِ (بُلَنْدْ أجَاوِيدْ) احتلالَ جزيرة قبرص، تلبيةً لنجدةِ القبارصة الأتراك الذين تَعَرَّضُو للابادَةِ الجماعيَّةِ على يدِ القبارصة اليونان، فتَمَّ ذلك في دُفْعَتَيْنِ: الأولى في 20 يوليو 1974م. والثانيَةُ في 14 أغسطس 1974م. غير أنَّ أجاويد وأربكان اختلفَا في بعضِ المسائلِ. ربما توقَّعَ أجاويد أن يُعْزَى ما ظَفَرَ بِهِ الجيشُ التُّرْكِيُّ من الغلبةِ إلى أربكان ويبقَى هو على الْهَامِشِ، فغالبَهُ الْحَسَدُ فانسحبَ من مشاركتِهِ وتقرَّرَ حلُّ الحكومة في 17 نوفمبر 1974م.

قام أربكان بدعوةِ الْمُوَالِينَ له لإقامةِ مظاهرةٍ استنكارًا لمبادرةِ الحكومةِ الإسرائيليَّةِ بإعلانِهَا القدسَ عاصمةً للدَّوْلَةِ العبريَّةِ، فاستجابَ له مئاتُ آلافٍ واجتمعوا في مدينة قونيا يوم 06 يوليو 1980م. فتذمَّرَ قادةُ الجيشِ من هذه المبادرةِ وعدُّوهُ تَحَدِّيًا للنظام الأَتَاتُورْكِيِّ و"العلمانيةِ!" فقاموا بإنقلابٍ عسكريٍّ في 12 سبتمبر 1980م. تَمَّ في أعقابِهِ حَلُّ الْبَرْلَمَان، وأُطيحَ بحكومة ديميريل، وَأُوقِفَ العملُ بِدُسْتُورِ 1962م. وأُعْلِنَ الأحكامُ العرفيَّةُ، وأُلغِيَ جميعُ الأحزابِ السياسِيَّةِ في 16 أكتوبر 1981م. بما فيها حزبُ السلامة القومِيُّ (الذي أسَّسه أربكان بعد حزبِ النظامِ القومِيّ الْمُنْحَلِّ)، وتَمَّ تغريبُ رؤساءِ الأحزابِ السياسِيَّةِ، فأُرسِلَ أربكان إلى (أُوزُونَآدَا Uzunada) بجوارِ مدينةِ إزمير، وحُكِمَ عَلَيْهِ بالإقامةِ الجبريَّةِ هناكَ فترةً قصيرةً ثم أطلِق سراحُهُ. ثم حُكِمَ عليه بالسجنِ مع جماعةٍ من رِفاقِهِ في 15 أكتوبر 1980م. ثم أطلِقَ سراحُهُ في 24 يوليو 1981م.

مُنِعَ أربكان من النشاطِ السياسِيّ لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ وفقًا لأحكامِ الدستورِ الجديدِ (الصادرِ في 1982م.). ثُمَّ رُفِعَ عنه حظرُ ممارسةِ السياسَةِ عَقِبَ الاستفتاءِ في 06 سبتمبر 1987م. وأصبحَ رئيسًا لِحِزْبٍ جديدٍ أَسَّسَهُ باسْمِ "حزبِ الرَّفَاهِ" في 19 يوليو 1983م. فانْتُخِبَ نائبًا عن مدينةِ قونيا فورَ الانتخاباتِ الْبَرْلَمَانيَّةِ في 1991م. بَدَأَ نجمُهُ بعد ذلك يَتَأَلَّق بسرعةٍ. وإنَّما كانت حظوتُهُ الفائقةُ من النجاحِ بعد أن نالَ قِسطًا كبيرًا من تأيدِ القطاعاتِ الواسعةِ من الْمُحَافِظِين في انتخابات 1995م. فحصلَ حزبُ الرفاةِ بعد هذه الحملةِ على 158 مقعدًا في الْمجلسِ التُّرْكِيّ. شارك "حزبَ الطريقِ القويم DYP" و"حزبَ الوطنِ الأمّ ANAP" في حكومةٍ إئتلافيةٍ فاشلةٍ. ثم بعدَ حلِّ

هذهِ الحكومةِ قامَ أربكان بتشكيلِ حكومةٍ ائتلافيَّةٍ أُخْرَى مع "حِزْبَ الطريقِ القويم DYP" وأصبحَ رئيسًا للوزراءِ في **28** يونيو **1996**م.

قطعَ تركيا شوطًا ملحوظًا من التقدُّمِ في عهدِهِ الذي لم يَزِدْ عن عامٍ واحدٍ، فَنَمَى إقتصادُ البلدِ بمعدَّلِ **5،7**%. استمرتْ هذه الحكومةُ الإئتلافيَّةُ حتى **30** يونيو **1997**م. حيث قدَّمَ أركان استقالتَهُ وأرادَ أنْ يترُكَ منصبَه لِطَنْسُو تْشِيلِّرْ Tansu Çiller بعد أنْ رفعَ النائبُ العامُّ فُورَالْ سَاوَاشْ Vural Savaş دعوَى ضِدَّ حزبِ الرَّفَاهِ بتُهمَةِ خروجِهِ على النظام الأَتَاتُورْكِيّ. إلاَّ أنَّ رئيسَ الجمهوريَّةِ سليمان ديميريل اختارَ مسعود يلماز Mesut Yılmaz رئيسًا للوزراءِ على رأسِ حكومةٍ ائتلافِيَّةٍ أُخرَى بمشاركةِ "حزبِ الوطنِ الأمّ" "وحزبِ الديمقرَاطِيّ اليساريّ".

أصدرتِ المحكمةُ الدستوريَّةُ حُكمًا بِإِلْغَاءِ حزبِ الرَّفَاهِ في **16** يناير **1998**م. كما حكمتْ على أربكان وخمسةٍ من زُمَلاَئِهِ بِحَظْرِ النشاطِ السياسِيّ لِمُدَّةِ خمسِ سنواتٍ. عليه نَهَضَ إسماعيل أَلْبتَكِين İsmail Alptekin وهو أحدُ أصدقاءِ أربكان، قامَ بناءً على طلبٍ منه لتأسيسِ حزبٍ يستأنِفُ أعمالَ حزبِ الرَّفَاهِ الْمُنْحَلّ، فتمَّ ذلك في **17** ديسمبر **1997**م. وسُمِّيَ الحزبُ الجديدُ بـ"حَزْبِ الْفَضِيلَةِ". غيرَ أنَّ حَظَّهُ لَمْ يدُمْ طويلاً فَأُلْغِيَ هو الآخر بنفسِ التُّهمةِ في **22** يونيو **2001**م.

رغم كُلِّ هذهِ الْمُعَانَاةِ صَمَّمَ أربكان على مُوَاصَلَةِ الْمسيرةِ. فَأشارَ على رفاقِهِ بتأسيسِ حزبٍ جديدٍ، فتقرَّرَ ذلك، وأُعلِنَ قيامُ "حَزْبِ السَّعَادَةِ" أخيرًا في **20** يوليو **2001**م. ودامَ يُمارِسُ نشاطَهُ على المسرحِ السياسِيّ، ولكنَّه تدهورَ في الآونة الأخيرةِ (بعد وفاة نجم الدين أربكان) وعادَ حزبًا ضعيفًا، خاصَّةً بعد أن طغَى حزبُ العدالةِ والتنميةِ على جميعِ الأحزابِ السياسِيَّةِ في تركيا.

***

- حزب الوطن الأمّ ANAP

بعد مُضِيّ فترةٍ على إنقلابِ **12** سبتمر **1980**م. سَمَحَ الجنرالاتُ بعودةِ الأحزابِ السياسِيَّةِ إلَى أعمالِها من جديد. فبدأ يستأنِفُ الواحدُ منها تِلْوَ الآخر نشاطَهُ في ربيعِ سنةِ **1983**م. إلاَّ أنَّ الحكومةَ العسكريَّةَ وافقتْ لثلاثةِ أحزابٍ فحسبُ أنْ تدخلَ إلى المنافَسَةِ الإنتخابيَّةِ: الحزبِ

الديمقراطِيّ القومِيّ Milliyetçe Demokrasi Partisi (MDP)، **والحزبِ الشعبِيّ** Halkçı Parti (HP)
، **وحزبِ الوطنِ الأُمّ** Anavatan Partisi (ANAP).

كانَ حزبُ الوطنِ الأُمّ أقوَى هذه الأحزابِ، أسَّسَهُ تُرغوت أوزال Turgut Özal[283] **في 20 مايو 1983م. مع نُخْبَةٍ تَكْنُوقْرَاطِيَّةٍ يمتازون بالحُنْكَةِ وبُعدِ النظرِ من زُمَلائِهِ الذين كانوا شاركوه أيَّامَ عملِهِ في المؤسَّساتِ الحكوميَّةِ والخاصَّةِ. غيرَ أنَّ أحدًا من أفرادِ هذه الثُّلَّةِ لم يَكُنْ قد حظِيَ بشهرةٍ قبل هذا. وكان هذا اللَّفيفُ يَضُمُّ عناصرَ مِنْ مختلفِ الإتّجاهاتِ والمشارِبِ الفكريَّةِ والسياسِيَّةِ. كلُّهُمْ كانوا ذَوَيْ خِبْرَةٍ وكفائَةٍ في تخصُّصَاتِهم، ويتمتَّعونَ بِحَدَاثَةِ السِّنّ والنشاطِ والحيويَّةِ، لهم طموحاتٌ،**

---

[283] تُرغوت أوزال Turgut Özal: سياسِيٌّ تركِيٌّ، وُلِدَ في **13** أكتوبر **1927**م. بمدينة ملاطيا. أبوه محمّد صدّيق كان موظّفًا في أحد البنوكِ، وأمُّهُ حافظة خانم كانتْ مُدَرِّسَةً في إحدى المدارسِ الإبتدائيةِ. يزعم بعضُ الكُتّابِ أنّه كُرديُّ الأصلِ. إلاّ أنَّ تسميةَ الأبناءِ بِ"تُرغوت" لم تكنْ من عاداتِ الأكرادِ، بخاصّةٍ في تلك الفترة التي وُلِدَ فيها تُرغوت أوزال.

درسَ الإبتدائيةَ والثانوية في مختلفِ مُدُنِ أناضول، وأكملَ دراستَهُ العليا في جامعةِ إسطنبول للتقنية. تخرّجَ مهندسًا كهربائيًّا عام **1950**م. ثمّ درسَ الإقتصادَ في أميركا، وتخرّجَ من جامعةِ تكساس. تزوّجَ من السيّدة سمراء، ورُزِقَ منها ولدين (أحمد و أفَه) وابنةً (زينب).

عمل في بعض المؤسّسات الحكوميَّةِ، اتّخذه سليمان ديميريل مستشارًا عام **1965**م. وهو إذ ذاكَ يتولّى أمانةَ سرّ هيئةِ تخطيطِ الدولة. ثمّ احتلَّ منصبَ المستشار في هيئةِ تخطيطِ الدولة سنة **1967**م. ثمّ عمل مستشارًا في البنك الدُّولِيّ من عام **1971**م. حتّى **1973**م. عاد إلى تركيا وبدأ العملَ في مجالِ السياسةِ فترشّحَ في الإنتخابات العامّةِ سنة **1977**م. من حزبِ السلامةِ القومِيّ للنيابة عن مدينة إزمير، ولكنّه لم يفز.

تصرّفاتُ أوزال وتصريحاتُهُ توحي بأنّه كانَ مضطربَ العقيدةِ، تَذَبْذَبَ دائمًا بين الْمُسْلُمَانِيَّةِ والحياد الدِينِيّ، مع أنه كانَ مرتبطًا ب"شيخ الْمُتَثَقِّفِينَ" محمّد زاهد كُوتْكُو. وَرَدَ عن غيرِ واحدٍ ممّن صاحبوه: أنّه كان يُصَلّي الخمسَ، ويصومُ رمضانَ، وقد حجَّ مرارًا. فهو أول رئيس تركي يواظب على صلاة الجمعة بشكل علني كما أنه أول رئيس يقوم بتأدية مناسك الحج، إضافة لعددٍ من القرارات المتعلقة بالتعليم الديني. لذا، كان تحتَ مراقبةٍ شديدةٍ من قِبَلِ شبكاتٍ استخباراتيّةٍ أتاتوركِيّةٍ مُتَخَفِّيَةٍ ضمن المؤسّسة العسكرِيّةِ. غير أنه قلّما كان يذكر شيئًا من أمجادِ الأتراكِ ويعتزُّ بها، مِمَّا يدلّ على أنه لم يكن قبوريًّا بخلافِ أربكان ورِفاقِهِ الأَحِمَّاءِ.

كان أوزال ناجحًا في سياسته، هادئًا في تعامله، مسايرًا لجميع أطيافِ المجتمع، فاطمئنّ له قادةُ الجيش ولعلّ ما ورد في عباراتٍ ضمن موسوعةٍ أَلَكْترونيّة يعكس الحقيقةَ، وهذا نصُّهُ: "يعتقد محللون: أنَّ أيفيرين وقادةَ الانقلابَ بحثوا عن اسلامٍ لا يهدِّد تعاليمَ أتاتورك العلمانية المتشدِّدة وإنَّما يخدمها لمواجهة الخطر الشيوعي، وكان أوزال الذي تصالحت عقليَّتُهُ العلمانيّةُ مع قلبه الإسلامِيّ هو الانسب لتلك المرحلة فهو يتمتَّع بعلاقاتٍ مميّزة مع الغرب وخاصة الولايات المتحدة، كما أنّه تلقَّى علومَهُ فيها وهو مقبول للعلمانيّين بخطابِهِ العلمانِيّ وللإسلاميّين بممارساته الإسلاميّةِ وتوجُّهَاتِ عائلتِهِ الصوفيّة." http://www.zuhlool.org

كان أوزال أحيانًا يُثني على مصطفى كمال بأسلوبٍ وسطٍ، بخلافِ أسلوبِ الكماليّين، لا يبالغ في تعظيمه. لعلَّه كانَ يتظاهر بذلك على سبيل التعمية للطُّغمة الكمالية الحاكمة اتّقاءَ شرّهم، وتحفّظًا – في الوقتِ ذاته– من كراهية معارضيه. فتميّز عهده بفترة هدنة بين الْمُسْلُمَانِيّينَ والعلمانيّين، مارس سياسةً من غير صدام مع قادة الجيشِ (الإنقلابيّين) فلم يتعرّضْ لضغوط الجيشِ ومضايقاتهم على عكس صاحِبِه (أربكان) الذي نالَ منهم ما يكلّ اللسانُ عن وصفه من التهكم والإهانة والتشنيع...

مات أوزال غيلةً (على الأرجح) يوم **17** أبريل **1993**م. في أنقره بقصر الجمهورية، قُتِلَ بمادّةٍ سامّةٍ دسّوها في طعامِهِ أو شرابِهِ. ورد ذلك في تقرير الطب الشرعي الذي تم تقديمه للقضاءِ بعد أن أُخْرِجَ جثمانُهُ من القبر يوم **02** أكتوبر **2012**م. بعد **19** سنةً مضت على وفاتِهِ، وتم تشريحه من قِبَلِ هيئةٍ من المختصّين، ولكنّ التحقيقات في هذه الجناية انتهت دون جدوى، مِمَّا يدلُّ على مستوى قدرة الشبكة التي تتحكّم في الدولة التُّرْكِيَّةِ إلى اليوم!!!

يتطلَّعونَ عاليًا[284]. اِكْتَسَبَ الحزبُ بفضلِ جهودِهِمْ انتشارًا واسعًا داخلَ الفصائِلِ المختلفَةِ لِمكوّناتِ المجتمعِ، ونالَ دعمًا كبيرًا من جماعاتِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ.

كان أوزال شعبِيًّا في خِطَابِهِ للجمهورِ. حَاوَلَ القضاءَ على الوحش المتمثِّلِ في الْبِيرُوقْرَاطِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَهَدَمَ شيئًا من السدودِ والحواجزِ القائمةِ بين الدَّوْلَةِ والْمُوَاطِنِ، فقطع في ذلك شوطًا ملحوظًا. أكسبَ حِزْبَهُ صورةً من أوسط الْمُجْتَمَعِ، وَتَبَنَّى اللِّيبيراليَّةَ اليمينيَّةَ، نال بذلك دعمَ القطاعِ الرأسْمَالِيّ، والتزمَ بـ"العلمانيَّةِ" وأكَّدَ غير مرَّةٍ أنَّه "علمانِيُّ" التَّوَجُّهِ. (ربما تعميةً للطُّغْمَةِ الحاكمةِ التي تُرَاقِبُ إجراءاتِ الحكومةِ حَثِيثًا)، لأنَّه كان نقشبنديًّا من مُنْتَسِبِي محمَّد زاهد كُوتْكُو، وهذا يجعل من المستحيل أنْ كان أوزال صادقًا فيما ادَّعا أنَّه "علمانِيُّ المشرَبِ"! هذا من جانبٍ؛ ومن جانبٍ آخر، يمكن القولُ: بأنَّ النقشبنديَّةَ أصلاً لاَيَتَعَارَضُ مع العلمانيَّةِ في مَوْقِفِهَا من الإسلام!

استطاعتْ حكومةُ حزبْ الوطنْ الأمِّ مسايرةَ قادةِ الجيشِ بفضلِ السياسَةِ الْمَرِنَةِ التي مَارَسَهَا تُرغوت أوزال. فقضَى هو دَوْرَتَيْنِ انْتِخَابِيَّتَيْنِ في رئاسَةِ الوزراءِ: (الأولى في 1983م. والثانية في 1987م.) بينما كان الجيشُ لا يزالُ آنذاك يغتصبُ السلطةَ ويتحكَّمُ في الدَّولةِ بواسطةِ مُفَجِّرِ الإنقلابِ كَنْعَان أَفْرِين Kenan Evren، في حين أنَّ الجنرالاتِ كانوا يراقبونَ الحكومةَ بدقَّةٍ بالغةٍ وحسَّاسيَّةٍ شديدةٍ. وقد يكونُ قادةُ الجيشِ التُّرْكِيِّ يومئذٍ يتجاهلونَ سياسَةَ حكومةِ أوزال خاصَّةً في تغافُلِهَا عن الْحَرَكَاتِ الجهادِيَّةِ (على قلَّتِها)، وذلك بسببِ عواملَ خارجيَّةٍ منها على وجهِ الخصوص: الحربُ ضِدَّ الاتِّحاد السوفيتِيِّ في أفغانستان، إلى جانبِ ما كانتْ أميركا تُمْلِي على الحكومةِ التُّرْكِيَّةِ عَبْرَ قَنَوَاتٍ خاصَّةٍ من طلبِ التسامحِ مع المشاعرِ الدينيَّةِ بُغْيَةَ الإغضاءِ عن المتطوِّعِينَ الذين يتوافدون يومذاك إلى المنطقةِ الأفغانيَّة. وهناك أسبابٌ أخرَى داخليَّةٌ تتمثَّلُ في محاولةِ استيعابِ الحركاتِ الإسلاميَّةِ في إطار الدَّولة ونظامِهَا العلمانِيّ لِسَحْبِ الْبِسْاطِ من تحتِ أقدامِ "التَّيَّارِ الإسلامِيِّ التوحيدِيِّ".

أهتمَّ أوزال بالقضايا الإقتصادِيَّةِ؛ غَيَّرَ النظامَ الْمَصْرَفِيَّ واستطاعَ أن يُخْرِجَ بلادَهُ من دائرةِ الأزماتِ الْمَالِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ بين فترةٍ وأخرَى. وكرَّسَ جهودَهُ في توسيعِ نطاقِ الْحُرِّيَاتِ؛ رَفَعَ الْحَظْرَ عن اللُّغَةِ

[284] يأتِي على رأسِ الشخصيَّات الذين شاركو تُرغوت أوزال في مسيرتِهِ السياسيَّةِ: عدنان قَهْوَجِي Adnan Kahveci، وأحمد مسعود يِلْمَازْ Ahmet Mesut Yılmaz، ومحمد وهبي دِينْجَرْلَرْ Mehmet Vehbi Dinçerler، وحسن جلال كُوزَالْ Hasan Celal Güzel، وجميل جِيجَكْ Cemil Çiçek، وأكرم بَاكْدَمِيرْلِي Ekrem Pakdemirli، وعبد القادر أَكْسُو Abdulkadir Aksu، وَبُلَنْدْ أَكَارْجَالِي Bülent Akarcalı، وَمُصْطَفَى تِنَازْ تِيتِيزْ Mustafa Tınaz Titiz.

العربيَّةَ في 20 مارس 1992م. أصبحَ المواطنُ التُّرْكِيُّ بعدَ ذلك اليومِ يتعلَّمُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ دون أن يخافَ مُدَاهَمَةَ الشرطةِ. كان أوزال في الوقتِ ذاتِهِ متسامِحًا مع الجماعاتِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، فَأَنْبَتَ ذلك في نفوسهم التَّجَرُّؤَ والتمادِيَ، فَخرجوا من عُزْلَتِهِمْ وحصلوا على أموالٍ طائلةٍ، وأنشئوا شركاتٍ ضخمةً، وَانْبَرَوْا لِنَشْرِ الطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ بين بَنِي جِلْدَتِهِمْ في كازاخستان، وتركمانستان، وأوزبكستان، وقِرْغِيزِسْتَان وغيرها من بلاد التُّرْكِ، بعد سقوطِ النظامِ الشيوعِيِّ وانْهيارِ الاتِّحاد السوفيتِيِّ. فأثارَ ذلك القطاعاتِ "العلمانيَّةَ" واليساريَّةَ، فصدرتْ عَبْرَ أجهزَتِهَا السياسيَّةِ والإعلامِيَّةِ انتقاداتٌ شديدةٌ وواسعةٌ تُنَدِّدُ بسياسَةِ أوزال تلك. ومن جملةِ اعتراضاتِ "العلمانيّين" واليساريّين تقريرٌ أصدرَهُ الحزبُ الديمقراطِيُّ الاجتماعِيُّ الشعبِيُّ عام 1990م. جاءَ فيه: "إنَّ تطوُّرَ الاتِّجاهاتِ والْميولِ الأصوليَّةِ الإسلاميَّة يهدِّد الدولةَ التُّرْكِيَّة، حيث يستهدفُ الأصوليُّون التحوُّلَ عن إصلاحاتِ أَتَاتُورْكْ، وإقامةِ نظامٍ إسلامِيٍّ يتناقضُ مع العلمانيَّةِ".

بالمناسبةِ يجبُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ خَصلتَين مذمومَتَيْنِ كانتا دائمًا من أبرزِ ما عُرِفَ به العلمانِيُّونَ واليسارِيُّونَ: الجهلُ المُطْبِقُ بالأديانِ والمُعْتَقَدَاتِ، ومعاداةُ الإسلام، وهي من أولوياتِ الفريقين. وقد بلغَ الجهلُ منهم بالعقائدِ إلى حدِّ التَبَسَ عليهم الإسلامُ دائمًا بالتَّصَوُّفِ، (والإسلامُ براءٌ منه). لذا ،كانوا ولا يزالون يَرَوْنَ الإنسانَ الْمُسْلِمَ (وحتَّى الشخصَ الْمُسْلُمَانِيَّ) متمثِّلاً في مخلوقٍ صوفِيٍّ مُتَزَمِّتٍ! فقد منعهم الحقدُ الدَّفِينُ من أنْ يكلِّفوا أنفسَهم بالبحثِ لَحْظَةً عن حَقِيقَةِ الإسلامِ، فيتعرَّفوا عليه في ثَوبِهِ الْخَالِصِ، وليظهرَ لهم الفكرُ الصوفِيُّ، وبراءَةُ الإسلامِ منه.

بعد مُضِيِّ ثلاثِ سنين فحسبُ على تأسِيسِهِ، أخذَ يدبُّ التقادُمُ في جسمِ حزبِ الوطنِ الأمِّ، وبدأتْ علاماتُ الشيخوخَةِ تظهرُ عليه كما هو الحالُ مع أيِّ شيءٍ (سوى الله سبحانه). يبرهن على سيرِ الإنْحدارِ في الحزبِ، أنَّه حصل فقط على 32.1% من الأصواتِ في انتخاباتِ 28 سبتمبر 1983م. النصفيَّةِ، بينما حَظِيَ حزبُ الطريق القويمِ نَجاحًا بالمقابل، بعد أن نالَ مؤازرةَ ديميريل في هذه المرحلَةِ، فخرج من الحملَةِ الإنتخابيَّةِ فائزًا موفورًا.

كان حزبُ الوطنِ الأمِّ قد حصلَ على 211 مَقْعَدًا من أصلِ 400 مَقْعَدٍ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ عَقِبَ انتخاباتِ 06 نوفمبر 1983م. ثُمَّ سجَّلَ نَجاحًا أفضلَ من ذلك في انتخاباتِ 29 نوفمبر 1987م. فحصلَ هذهِ الْمَرَّةَ على 292 مَقْعَدًا من أصلِ 450 مَقْعَدٍ. ولكنَّهُ لم يستطعْ أنْ يَثْبُتَ على هذا الْمُسْتَوَى، وأنْ يَمْنَعَ التَّرَاجُعَ في مسيرتِهِ، بل سُرْعَانَ ما تدهورَ وسقطَ في مدَّةٍ يسيرةٍ إلى

الْمُسْتَوَى الثالثِ في الترتيبِ بين الأحزاب. لذا، فإنَّ ارتقاءَ تُرغوت أوزال إلى منصبِ رئاسَةِ الجمهوريَّةِ (يوم 31 أكتوبر 1989م. بِمُجَرَّدِ موافقةِ رفاقِهِ من النُّوَّابِ الْمُنْتَسِبِينَ إلى حزبِ الوطن الأمِّ)، دارتْ حولَهُ يومذاك مناقشاتٌ ومشاجَرَاتٌ حادَّةٌ.

انقسمَ حزبُ الوطنِ الأمِّ (في الدَّاخِلِ) إلى فريقين متشاكسين: فريقٍ لِيبَرَالِيٍّ وفريقٍ مُحَافِظٍ، وذلك فورَ ارتقاءِ تُرغوت أوزال إلى منصبِ رئاسةِ الجمهوريَّةِ. فتطوَّرَ النِّزَاعُ بين الطرفين خاصَّةً بعد أنْ ترشَّحتْ عَقِيلَتُهُ سَمْرَاء أوزال Semra Özal **لرئاسةِ مكتبِ الحزبِ لِمدينةِ إسطنبول. فلمَّا تَمَّ انتخابُها، أُقيل (من الفريق المعاكسِ) وزيرُ الدفاع حُسْنِي دُوغَانْ** Hüsnü Doğan **من منصِبِهِ نتيجةَ ضغوطِ تُرغوت أوزال على رئيسِ الوزراءِ يلدريم آكبلوط** Yıldırım Akbulut**. يدلُّ ذلك على أنَّ أوزال كان نازعًا للتحكُّمِ على الحكومةِ، فلم يَمْتَنِعْ من نَبْذِ الْعُرْفِ الدُّسْتُورِيِّ جانبًا لأجلِ مَصَالِحِهِ الشخصيَّةِ.**

ازداد الحزبُ ترنُّحًا نتيجةَ العواصف التي كانت تَهُزُّهُ من الداخل والخارج. احتدمَ الصراعُ بين رئيسِ الوزراءِ يلدريم آكبلوط وَمُنَافِسِهِ مسعود يلماز، فلم يلبث حتَّى غُلِبَ آكبلوط في المؤتمر العامِّ للحزبِ يوم 15 يونيو 1991م. فحلَّ يلماز مَحِلَّه. فكان لأوَّلِ مرةٍ في تاريخ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة يتنحَّى رئيسُ الوزراءِ من منصِبِهِ نتيجة صراعٍ يحدثُ داخلَ الحزبِ الحاكم! ثم ازدادَ الحزبُ تدهوُرًا وتراجَعَ حتى هبطَ إلى مستوَى الحزبِ الْمُعَارِضِ بعد الإنتخابات العامَّةِ في 20 أكتوبر 1991م. ودامَ ذلك طَوَالَ فترةٍ ما بين 1991–1995م. ثُمَّ اشتركَ مع أحزابٍ أخرى في تكوينَ حكومةٍ إئتلافيَّةٍ إلى أن أَلْغَى نَفْسَهُ في 31 أكتوبر 2009م.

***

- **حزب الطريق القويم** DYP

ظهر حزبُ الطريقِ القويمِ على المسرحِ السياسِيِّ كوارثٍ لحزبينِ سابقين: الحزبِ الديمقراطِيِّ، وحزبِ العدالةِ. تَمَّ تأسيسُهُ يومَ 23 يونيو 1983م.

يُعتَبَرُ حزبُ الطريقِ القويمِ امتدادًا لِحزبِ العدالةِ الذي أُلغِيَ مع جميعِ الأحزابِ السياسِيَّةِ على يدِ الإنقلابِيِّينَ عقِبَ قَفْزِ الجيشِ على الدولة، والإطاحةِ بحكومةِ سليمان ديميريل في 12 سبتمبر 1980م. ساهمَ مع عددٍ من الأحزابِ في تكوينِ حكوماتٍ ائتلافيَّةٍ ما بين 1991–1997م.

تولَّى فيه منصِبَ الرئاسةِ كلٌّ مِنْ سليمان ديميريل Süleyman Demirel، وطَنْسُو تْشِيلَرْ Tansu Çiller.

بدأتْ مغامرةُ حزبِ الطريقِ القويمِ بعد أنْ سمحَ المجلسُ العسكَرِيُّ بِعَوْدَةِ التَّعَدُّدِيَّةِ عام **1983**م. اتَّفقَ عددٌ من السياسيِّين اليمينيِّين على تأسيسِ حزبٍ سَمَّوْهُ "حزبَ تركيا الكبيرة Büyük Türkiye Partisi (BTP)" لِيُمْلِيَ الفراغَ الذي تَرَكَهُ حزبُ العدالةِ الْمُلْغَى، إلاَّ أنَّ الإنقلابِيِّينَ أَلْغَوْا هذا الحزبَ هو الآخرَ بِحُجَّةِ أنَّه امتدادٌ لحزبٍ غيرِ قانونيٍّ وقد سبقَ إلغاؤُهُ. فعادَ أعضاءُ الحزبِ متَّفقين على تكوينِ حزبٍ آخرَ هذه الْمَرَّةَ تحتَ عنوان: "حزبِ الطريقِ القويمِ Doğruyol Partisi (DYP)"، وانتُخِبَ أحمد نُصْرَتْ طونا Ahmet Nusret Tuna رئيسًا للحزبِ. بَيْدَ أنَّ قادةَ الجيشِ رفضوهُ كما رفضوا عددًا من رِفاقِهِ، فلم يتمكَّنِ الحزبُ مِنْ جَمْعِ شَمْلِهِ في الوقتِ المحدَّدِ، فَفَاتَتْهُ فرصةُ المشاركةِ في الإنتخاباتِ العامَّةِ لسنة **1983**م.، وانتُخِبَ أخيرًا يلديريم آوجي Yıldırım Avcı رئيسًا للحزبِ بدلاً من نُصْرَتْ طونا.

كان نظامُ الدولة التُّرْكِيَّة في هذه المرحلةِ تحت مراقبةِ تنظيماتٍ سِرِّيَّةٍ، مُعْظَمُهَا مُنْدَسَّةٌ في المؤسَّسةِ العسكريَّةِ وجهازِ القضاءِ؛ فالتبسَ حزبُ الطريقِ القَويمِ على هذه التنظيماتِ بـ"حركةٍ محافظة بَحْتَةٍ!"، فحاول القضاءُ لِمَنْعِهِ من النشاطِ السياسِيِّ، على أنَّ المحكمةَ الدستوريَّةَ رفضَ إدِّعاءَ النيابَةِ العامَّةِ ضِدَّ الحزبِ في **28** سبتمبر **1984**م. بعد أنْ تبيَّنَ لها أنَّ الحزبَ يتبنَّى "العلمانية"، واليمينيَّةَ اللِّيبَرَالِيَّةَ... وإنَّما تمكَّنَ الحزبُ من تشكيلِ مجموعةٍ بَرْلَمَانِيَّةٍ في مايو **1986**م. وانتُخِبَ سليمان ديميريل رئيسًا للحزبِ في **24** سبتمبر **1987**م.، بعد أنْ رُفِعَ عنه حظرُ مزاولةِ العملِ السياسِيِّ.

استطاعَ الحزبُ أن يحصُلَ على **178** مقعدًا في الْبَرْلَمَان بعد انتخاباتِ **1991**م. التي أُجْرِيَتْ مُبَكِّرَةً، فغدا أَوَّلَ حزبٍ على مستوى الأحزابِ السياسِيَّةِ في الْبَرْلَمَان التُّرْكِيِّ، لكنَّه لم يملك النصابَ المطلوبَ لتكوينِ حكومةٍ مستقلَّةٍ وحده، فاضطرَّ أنْ يشارِكَ الحزبَ الإجتماعِيَّ الديمقراطِيَّ الشعبِيَّ الذي يرأسُهُ آنذاك أَرْدَالْ إينونو Erdal İnönü، فتَمَّ تشكيلُ حكومةٍ ائتلافيَّةٍ بمشارَكَةِ الحزبين: حزبِ الطريقِ القويمِ (اليمينِيِّ) DYP، والحزبِ الشعبِيِّ الإجتماعِيِّ الديموقراطِيِّ (اليسارِيِّ) SHP. دامتْ هذه الحكومةُ ما بين: **29** نوفمبر **1991**م. و**16** مايو **1993**م.

لَمَّا تُوُفِّيَ رئيسُ الجمهوريَّةِ تُرغوت أوزال بصورةٍ فُجَائِيَّةٍ يوم **17** أبريل **1993**م. اتَّفقَ الرأيُ على سليمان ديميريل في مجلسِ الشعبِ لِيَحِلَّ محلَّه، وكان لِلْحِزبِ الشعبِيِّ الإجتماعِيِّ الديموقراطِيِّ SHP (المشارِكِ في الحكومةِ الإئتلافيَّةِ) دورٌ كبيرٌ في انتخابِهِ يوم **16** مايو **1993**م. فَحَلَّتْ طَنْسُو تشيلر محلَّهُ يوم **13** يونيو **1993**م. بصفتِهَا رئيسةً للحزبِ، ورئيسةً للوزراءِ في آنٍ واحد.

كان الإقتصادُ التُّرْكِيُّ في تلك الفترةِ مُنْهَارًا في حالةٍ يُرْثَى لَهَا، إلى جانبِ أزماتٍ اجتماعيَّةٍ وأخلاقيَّةٍ ودينيَّةٍ وثقافيَّةٍ وسياسيَّةٍ شاعتْ في كلِّ أرجاءِ البلد. وعمَّ البلاءُ من جَرَّاءِ ما سادَ بين أولياءِ الأمورِ والسياسيِّين من الفسادِ، والارتشاءِ، والمحسوبيَّةِ، والوساطةِ، واختلاسِ أموالِ العامَّةِ، واستغلالِ النفوذِ، واستخدامِ الْمُنَظَّمَاتِ السِّرِّيَّةِ والْمَافْيَا في تسييرِ الأمورِ وتنفيذِ الأوامِرِ!... أسفرَ ذلك عن انْفِلاَتٍ أمْنِيٍّ، وغَلاَءٍ، وارتفاعِ مؤشِّراتِ الْبَطَالَةِ، وهبوطِ قيمةِ اللِّيرَةِ التُّرْكِيَّة، وارتفاعِ معدَّلاتِ التضخُّم، وانخفاضِ الأجورِ، وانتشارِ الفوضَى... بالتوازي مع هذه المشاكِلِ تصاعدتْ عمليَّاتُ الإرهابِ والإغتيالاتِ، واختطافِ الناشطين الأكرادِ في المنطقةِ الشرقيَّةِ، وارتُكِبَتْ انتهاكاتٌ واسعةُ النطاقِ لحقوقِ الإنسان.

يأتي على رأسِ هذه الوقائعِ حادثةٌ هامَّةٌ جدًّا، عُرِفَتْ بـ"فَضِيحَةِ سُوسُورْلُوكْ Susurluk skandalı"، التي ظلَّتْ بأسرارِها وأهوالِها وتبعاتِها تُثِيرُ النِّزَاعَ بين أجهزةِ الدَّوْلَةِ والسياسيِّين، وتُشْغِلُ بالَ الْمُجْتَمَعِ وضميرَهُ إلى اليوم. بلغتْ خطورةُ هذه الحادثَةِ إلى حدٍّ اهتمَّ بِهَا الإعلامُ الدُّوَلِيُّ بشكلٍ واسعٍ كما احتلَّتْ صفحاتِ الكُتُبِ والموسوعات! فقد ورد في مستهلِّ شرحٍ لهذهِ الحادثَةِ في موسوعة (ويكيبيديا الألكترونيَّةِ) عباراتٌ عنها تقول:

"فضيحةُ سُوسُورْلُوكْ: هي فضيحةٌ تورَّطَتْ بِهَا الحكومةُ التُّرْكِيَّة وقُوَّاتُهَا المسلَّحةُ مع عددٍ من العصاباتِ الإجراميَّةِ المنظَّمَةِ. ووقعتْ هذه الفضيحةُ أثناءَ ذِرْوَةِ النِّزَاعِ التُّرْكِيِّ مع حزبِ الْعُمَّالِ الْكُرْدِسْتَانِيِّ. وذلك في أواسطِ التسعينيَّاتِ من القرنِ الماضِي. وقد تكشَّفَتْ هذه العلاقَةُ بعدَ أنْ طرحَ مجلسُ الأمنِ القوميُّ التُّرْكِيُّ الحاجةَ إلى تعبئَةِ مواردِ البلاَدِ نحو التغلُّبِ على حزبِ الْعُمَّالِ الْكُرْدِسْتَانِيِّ الانفصَالِيِّ الْمُسَلَّحِ".

"وظهرتِ الفضيحةُ للعيانِ بعد حادِثَةِ تَحَطُّمِ سيَّارَةٍ في الثالثِ من نوفمبر عام **1996**م.، وذلك قُرْبَ بَلْدَةِ سُوسُورْلُوكْ Susurluk التي تقعُ بمحافظةِ بَالِيكَسِيرْ Balıkesir. وكان من ضَحَايَا الحادِثِ

نائبُ مديرِ شُرْطَةِ إسطنبول، وعُضْوُ بَرْلَمَانٍ (وهو رئيسُ قبيلةٍ كُرْدِيَّةٍ قَوِيَّةٍ)، وقائدُ منظَّمةِ الذِّئَابِ الرَّمَادِيِّين (وهو مُجْرِمٌ مَأْجُورٌ، وَمِنَ المطلوبين على قائمةِ الشرطةِ الدُّوَلِيَّةِ الإِنْتَرْبُولْ).[285]"

وردتْ أيضًا في موقعٍ ألكترونيٍّ (من أجهزةِ الإعلامِ الْمِصْرِيَّةِ – مصراوي نهارده –) عباراتٌ عن هذه الحادِثَةِ، وهذا نَصُّهَا "أكَّدَ تقريرٌ رسْمِيٌّ نُشِرَ في **1998**م.، وجودَ علاقَاتٍ بَيْنَ أَجْهِزَةِ الاستخباراتِ التُّرْكِيَّة وجماعاتٍ من الْمَافْيَا، يُسْمَحُ لَهَا خُصُوصًا بارْتِكَابِ عَمَلِيَّاتِ قَتْلٍ باسمِ الدَّوْلَةِ، ولاسِيَّمَا مناصرين لِمُتَمَرِّدِي حِزبِ العُمَّالِ الكُرْدِسْتَانِيِّ.[286]" يبرهن على هذه الحقيقةِ ما جاءَ في تقريرٍ رسْمِيٍّ لِمنظَّمةِ الإستخباراتِ التُّرْكِيَّة التابعةِ لرئاسةِ الوزراءِ مباشرةً، وهذا نَصُّهُ مُعَرَّبًا:

"إنَّ أسْماءَ **59** شخصًا الواردةَ في الإِدِّعاءاتِ: **17** منهم، قد قَضَوْا نَحْبَهم؛ **9** منهم، يُعرَفُونَ بِمُجَرَّدِ أسْمائِهم فحسب؛ **4** منهم، سياسيُّون؛ **4** منهم، رجالُ الأعمالِ؛ **14** منهم، مُتَّهَمونَ بعلاقاتٍ مع الْمَافْيَا؛ **5** منهم، عسكريُّونَ؛ **13** منهم، رجالُ الشُّرْطَةِ؛ واحدٌ منهم، رَجُلُ دِينٍ؛ واحدٌ منهم، استخباراتِيٌّ، واحد منهم، ذو علاقةٍ مع شبكةِ الإستخباراتِ، بحسب الإِدِّعَاءِ؛ اثنانِ منهم، إيرانِيَّان؛ **8** منهم، مُتَّهَمُونَ بِتِجَارَةِ الْمُخَدِّراتِ، كما لهم علاقاتٌ مع الْمَافْيَا؛ واحدٌ منهم، سائقٌ؛ واحدٌ منهم، مُنْشَقٌّ من تنظيم (بِي كَ كَ)، واحدٌ منهم، سورِيُّ الْجِنْسِيَّةِ، اثنانِ منهم، مُحَامِيَّانِ كُرْدِيَّان؛ وواحدٌ منهم، صاحبُ بَيْتٍ للدِّعَارَةِ"

"بالنسبَةِ للعلاقاتِ بين الأشخاصِ: فإنَّ الموظَّفِين الرسْمِيِّين الذين تلبَّسوا بالحادِثَةِ، لَمْ يصلْ إلى منظَّمَتِها أيُّ معلوماتٍ تُبَرْهِنُ على اتِّصالهم فيما بينهم أثْنَاءَ الحادثةِ أو بعدَهَا (بحسبِ الإِدِّعَاتِ)، سِوَى علاقاتِهِمْ الطبيعيَّةِ بِهَا كموظَّفِين. وعلى رغم ذلك، إذا لوحِظَ أسْماؤُهُمْ ضمنَ الإِدِّعاتِ الواردةِ عَبْرَ الصحافةِ، فإنَّ أشخاصًا يَتَّسِمُ ذكرُهُمْ بأهَمِّيَّةٍ، وهم بالتحديد: طَنْسُو تْشِيلَّرْ Tansu Çiller، أُوزَارْ تْشِيلَّرْ Özer Çiller، مُحمّد آغَارْ Mehmet Ağar، خَلُوق كِيرْجِي Haluk Kırcı، سَدَاد بُوجَاكْ Sedat Bucak، إبراهيم شاهين İbrahim Şahin، كُوزْكُوتْ أَكَنْ Korkut Eken، حسين

---

[285] المصدر:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D8%B6%D9%8A%D8%AD%D8%A9_%D8%B3%D9%88%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%84%D9%88%D9%83

[286] المصدر: http://www.masrawy.com/news/world/afp/2012/april/25/14784014.aspx

بَايْبَاشِينْ Hüseyin Baybaşin، **عبد الله تْشَادْلِي (المتوفّى)** Abdullah Çatlı، **أحمد جِيمْ أَرْسَوَارْ** Ahmet Cem Ersever، **وَطارق أُمِيدْ** Tarık Ümit"[287]

كانتِ العلاقاتُ بين الحِْزْبَيْن المشاركين في الحكومة الإئتلافيّةِ هَشَّةً متداعِيَةً في الغايةِ. وفي غضون ذلك انتقدَ مديرُ شرطةِ إسطنبولَ، نجدتْ منزير Necdet Menzir**، الوزيرَ المسؤولَ عن حقوقِ الإنسانِ، ألغان خجل أوغلو** Algan Hacaloğlu**، بأسلوبٍ غيرِ مباشرٍ في كلمةٍ ألقاها أثناءَ حفلةِ جنازةٍ لأحدِ أفرادِ الشرطةِ يوم 13 يونيو 1995م. أسفرَ ذلك عن أزمةٍ بين الشريكين، فطلب الحزبُ الإجتماعِيُّ الديمقراطِيُّ الشعبِيُّ من شريكهِ (حزبِ الطريقِ القويمِ) إقالةَ مديرِ أمن إسطنبول. غير أنَّ رئيسةَ الوزراءِ طنسو تشيلر رفضتِ الطلبَ، فتدهورت العلاقاتُ بين الطرفين وازدادتْ تأزُّمًا حتَّى انتهتْ المشاركةُ بانحلال الحكومة في 15 أكتوبر 1995م.**

ثُمَّ اشتركَ حزبُ الطريقِ القويمِ مع حزبِ الشعبِ الجمهورِيّ في تكوينِ حكومةٍ ائتلافِيَّةٍ، كان في مقدّمةِ أعيانِه كلٌّ من: دوغان كوريش Doğan Güreş**، وخَيْرِي كُوزَاكْجِي أُوغْلُو** Hayri Kozakçıoğlu[288]**، ومحمّد آغار** Mehmet Ağar**، ونجدت منزير** Necdet Menzir**، وأونال أركان** Erkan Ünal**. حصل الحزبُ على 135 مقعدًا في الْبَرْلَمَان عقب انتخاباتِ 1995م. كان هو الحزبَ الثالثَ حسب عددِ مقاعدِهَا.**

---

[287] المصدر: تقرير منظمة الإستخبارات التابعة لرئاسة الوزراء بالجمهورية التُّرْكِيَّة. وهذا نَصُّ المقطع المقتَبَس من اللغة التُّرْكِيَّة:

«İleri sürülen iddialarda ismi geçen ``59'' şahıstan ``17''si halen hayatta bulunmamaktadır. 9'u yalnızca isimleri ile tanınan 59 kişiden; 4'ü politikacı, 4'ü işadamı, 14'ü mafya ile bağlantılı oldukları ileri sürülen eski ülkücü, 5'i TSK mensubu, 13'ü emniyet mensubu, 1'i din adamı, 1'i MİT mensubu, 1'i MİT'le bağlantılı olduğu iddia edilen şahıs, 2'si İran orijinli şahıs, 8'i mafya bağlantılı ve eroin kaçakçısı oldukları iddia edilen şahıs, 1'i şoför, 1'i PKK itirafçısı, 1'i Suriye orijinli bayan, 2'si Kürt orijinli avukat, 1'i genelev işletmecisi konusunda bulunmaktadır.

ŞAHISLAR ARASI İLİŞKİLER:

Yapılan araştırma sonucunda kazaya karışan şahıslara ilişkin olarak, resmi görevli şahısların görevlerinden kaynaklanan doğal irtibatları dışında, bugüne kadar birbirleriyle, olay ve sonrasındaki iddialar doğrultusunda iltisakları bulunduğu yolunda herhangi bir bilginin kurumumuza intikal etmediği görülmüştür. Buna karşın basında yer alan bilgilerle mütalaa edildiğinde, iddialarda isimleri geçen şahıslar arasında Tansu Çiller, Özer Çiller, Mehmet Ağar, Haluk Kırcı, Sedat Bucak, İbrahim Şahin, Korkut Eken, Hüseyin Baybaşin ile halen ölü bulunan Abdullah Çatlı, Ahmet Cem Ersever ile Tarık Ümit önem arzetmektedir.»
(T.C. BAŞBAKANLIK Milli İstihbarat Teşkilatı Müsteşarlığı.): http://akgul.bilkent.edu.tr/Dava/susurluk/mit/

[288] خيري كوزاكجي أغلو Hayri Kozakçıoğlu: سياسِيٌّ تُرْكِيٌّ، لَفَتَ انتباهَ الرَّأْيِ العامّ بانتحارِهِ المشبوه. وُلِد كوزاكجي أغلو سنةَ **1938**م. بضواحي مدينة (ماغنيسيا Manisa) قُربَ إزمير. تخرَّجَ في كلِّيَّةِ العلومِ السياسيَّةِ التابعةِ لجامعةِ أنقره، عامَ **1959**م. احتلَّ مناصبَ إدارية رفيعةً في مختلفِ مُدُنِ تركيا؛ نُصِبَ واليًا على مدينةِ أرض الروم في **1978**م. وعلى مدينةِ أضنة في **1980**م. وعلى مدينةِ ديار بكر في **1987**م. ثُمَّ عُيِّنَ واليًا عامًّا أيامَ فرضِ الحالةِ الطارئَةِ على المنطقةِ الكُرْدِيَّةِ في الفترةِ ما بين **1987–2002**م. اتُّهِمَ باختلاسِ مبلغٍ قدْرُه: (**250** ألف دولار أميركي) من المالِ العامّ، ودارَ في ذلك نقاشٌ بين رئيسِ الجمهوريةِ سليمان ديميريل ورئيسةِ الوزراءِ طنسو تشيلر. وُجِدَ (خيري كوزاكجي أغلو) ميتًا في قصرِهِ الكائنِ بمنطقةِ (صَارِيَيْرْ Sarıyer)–إسطنبول، مُصَابًا برصاصةٍ في قلبِهِ يوم **23** مايو **2013**م.

ارتبكَ المجتمعُ في هذه الفترةِ فكانَ مُشَتَّتَ الرَّأْيِ، يُعَانِي تنازعًا شديدًا في الداخِلِ أدَّى ذلك إلى اختلافِ الصفوفِ وتلاطُمِ الإتّجاهاتِ السياسيَّةِ، فلم يحظَى هذهِ الْمَرَّةَ أيُّ حزبٍ بالنصابِ المحدَّدِ لِيُكَوِّنَ حكومةً مستقلَّةً. وإنَّما هَدَأَ الوَسَطُ وخفَّتِ الأَزْمَةُ عقِبَ مفاوضاتٍ ساخِنَةٍ بين حزبين: حزبِ الطريقِ القويمِ DYP، وحزبِ الوطنِ الأُمِّ ANAP، وانتهتْ بتشكيلِ حكومةٍ ائتلافِيَّةٍ في شهرِ مارس **1996**م. إلاَّ أنَّ حزبَ الرَّفَاهِ RP، طعنَ في ثِقَةِ الْمَجْلِسِ بالحكومةِ لدى المحكمةِ الدستوريَّةِ. ذلك أنَّ القانونَ يحدِّدُ نِصَابَ الموافقين على ثِقَتِهِمْ بالحكومةِ؛ والنصابُ: ألاَّ يقلَّ عددُهُمْ عن نصفِ مجموعِ النُّوَّابِ مع زيادَةِ نائبٍ واحدٍ بالْحَدِّ الأَدْنى. فحكمتِ المحكمةُ بحلِّ الحكومةِ بناءً على أنَّ عددَ الموافقينَ لَمْ يزيدْ عن نصفِ مجموعِ النُّوَّابِ. وبموجبِ القانونِ أيضًا قدَّمَ رئيسُ الوزراءِ (مَسْعُودْ يِلْمَازْ Mesut Yılmaz) استقالتَهُ إلى رئيسِ الجمهوريَّةِ (سليمان ديميريل) في **06** يونيو **1996**م.

اشتركَ فَوْرَ هذا الفشلِ حزبُ الطريقِ القويمِ DYP، وحزبُ الرَّفَاهِ RP في حكومةٍ ائتلافيَّةٍ أخرَى حصلتْ علَى الثِّقَةِ الْبَرْلَمَانيَّةِ في **28** يونيو **1996**م.، واحتلَّتْ طَنْسو تشِيلَّرْ Tansu Çiller مَنْصِبَ النِّيَابَةِ لِرئيسِ الوزراءِ (نجم الدين أربكان). إلاَّ أنَّ فضيحةَ سُوسُورْلُوكْ أثارَ غضبَ الشعبِ على طنسو تشيلر وحزبِها فأدَّى إلى حلِّ هذه الحكومةِ هي الأُخرَى. وقد كانتْ لضغوطِ القادَةِ العسكريّين أيضًا أثرٌ بالغٌ في حلِّها.

تدهورَ حزبُ الطريقِ القويمِ DYP نتيجةَ هذه التطوُّراتِ حتى سقطَ إلى دركِ الحزبِ الخامسِ عقِبَ الإنتخاباتِ العامَّةِ في **18** أبريل **1999**م. وبَقِيَ خارجَ الْبَرْلَمَان بعدَ الإنتخاباتِ العامَّةِ في **03** نوفمبر **2002**م. فلمْ يَعُدْ له ذكرٌ على الْمسرَحِ السياسِيِّ بعد ذلك.

***

- **حِزْبُ الْحَرَكَةِ القوميَّةِ** MHP

حِزْبُ الْحَرَكَةِ القوميَّةِ (Milliyetçi Hareket Partisi -MHP-): كيانٌ سياسِيٌّ يحتلُّ مكانًا هامًّا بين الأحزابِ السياسيَّةِ التُّرْكِيَّة، تَلْتَفُّ حَوْلَهُ قطاعٌ من الْمُعْتَزِّينَ بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّة (المعروفين بالطورانيِّين)، يُمَثِّلون تقريبًا **15%** من المجتمع.

ظهر الحزبُ بهذا الإسم في ظروفٍ أحدثتْ انفجارًا في مَشَاعِرِ جمهورٍ من الذين يعتقدون أنَّهم يحملون في شرايينهم دَمًا تُرْكِيًّا خالصًا، "كَرَدِّ فعلٍ "لعدوانٍ يتربَّصُ بالعنصرِ التُّرْكِيِّ، ويحاولُ احتوائَهُ في أيِّ لحظةٍ!". تضافرتْ عواملُ هذه الظروفِ أيَّامَ حكومةِ مندريس ومَهَّدَتِ السَّبِيلَ لانفجارِ إنقلابٍ عسكريٍّ في 27 مايو 1960م. كان في مقدِّمةِ الإنقلابيِّين رجلٌ عسكريٌّ بِرُتْبَةِ عقيد يُدْعَى أَلْب أَرْسلاَنْ تُورْكَشْ Alparslan Türkeş، عُرِفَ فيما بعد بنشاطاتِهِ لإثارةِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة في مشاعرِ الأتراك، وتَهْيِيجِ الإعتزازِ بالقوميَّة التُّرْكِيَّة إلى حدودِ التمييز الْعُنْصُرِيِّ. دَفَعَتْهُ نزواتُهُ إلى تفجيرِ هذا الإنقلابِ لِهَلْوَسَةٍ خَيَّلَتْ له أنَّ الأتراك مُعَرَّضُونَ لأخطارٍ قد أحدقتْ بِهِمْ.

كانت تركيا منذُ تأسيسِها مَطْمَعًا لِقُوَى النفوذِ الدُّوَلِيِّ على مدَى مرحلةِ الحربِ البارِدَةِ، وأنَّ الاتِّحاد السوفيتِيِّ بخاصَّةٍ كانتْ تتربَّصُ بِهَا الدائرةَ بطريقِ إثارةِ قطاعِ الْعَمَالَةِ واستغلالِه في بَثِّ الدعوةِ الشيوعِيَّةِ. فلمَّا انْهَارَ الاقتصادُ التُّرْكِيُّ في نهايَةِ العقدِ الخامسِ من القرنِ العشرين، وضاقتِ الظروفُ بالحكومةِ التُّرْكِيَّة نتيجةَ اضطراباتٍ عُمَّالِيَّةٍ تفاقمتْ ومُظَاهَرَاتٍ اجتاحتْ أرجاءَ البلادِ باشتراكِ طلبةِ الجامعاتِ، وخيَّمَ جوٌّ من الفوضَي على الشارعِ في المدنِ الكبيرةِ خاصَّةً، بدأتْ تدبُّ على أثرِ هذه الحداثِ مَخاوِفُ بين القِلَّةِ الثريَّة وهي تتحسَّبُ لِمُفَاجَأَةِ ثورةٍ عُمَّالِيَّةٍ تؤدِّي إلى قيامِ نظامٍ شيوعِيٍّ في تركيا. فنهضتْ الْقُوَى الْمُضَادَّةُ للشيوعِيَّةِ وهي تتضامنُ فيما بينها لدفعِ هذا الخطرِ مع الكراهيَّةِ التي يُضْمِرُ كُلٌّ منها للآخر! لأنَّ هذه القُوَى كانتْ تتالَّفُ من جماعاتٍ وأحزابٍ مُتشاكسةِ الاتِّجاهِ، مُتنافرةٍ ومُتباغضةٍ.

كانتْ هذه القُوى تتمثَّلُ في ثلاثِ قطاعاتٍ اجتماعيَّةٍ يتميَّزُ كلٌّ منها برصيدٍ هامٍّ من الطاقةِ الدفاعيَّة ويعتمدُ عليها كيانُ المجتمع. الأوَّل منها: الجمهورُ المحافظُ، ويأتِي على رأسِهِ الجماعاتُ النقشبنديَّةُ؛ والقطاعُ الثاني: الْبُرْجُوَازِيَّةُ: والقطاعُ الثالثُ: القواتُ المسلَّحةُ.

كانتْ الأجهزةُ الإستحباراتِيَّةُ الأَمِيرِكِيَّةُ على علمٍ بهذا الواقعِ (على حدِّ زعمِ ضابطين في الجيشِ التُّرْكِيِّ[289]). فلما اشتدَّتِ الظروفُ في تركيا، اتَّصَلَتِ الشبكةُ بذلك الرمزِ الْمُتَمَيِّزِ في قلب الجيشِ التُّرْكِيِّ (أَلْب أَرْسلاَنْ تُورْكَشْ Alp Arslan Türkeş)، فبدأتْ خيوطُ الإنقلابِ تُحَاكُ (من الداخلِ والخارجِ) بإتقانٍ وإحْكَامٍ، ليتمكَّنَ هذا الرَّجُلُ بعد ذلك من القبضِ على زِمَامِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّة بطريقٍ

289 اسمهما: صارب كوراي Sarp Kuray، وعمر كورجان Ömer Gürcan. راجع الموقع: http://aykirigercek.wordpress.com

غيرِ مباشر. أصبحتْ تركيا بعد ذلك شِبْهَ إيَالَةٍ من الإيَالاَتِ الأَميركِيَّةِ في الشرقِ الأوسط! هكذا زُرِعَتْ بَذْرَةُ الكِيَانِ الْعُنْصُرِيّ في ربوعِ المجتمعِ التُّرْكِيِّ، لِيَنْبُتَ وَيَنْمُوَ من جديدٍ وبِقُوَّةٍ، ولِيَظْهَرَ هذه الْمَرَّةَ على الصعيدِ السياسِيِّ بعد الستينيَّات من القرنِ المنصرم.

قام العقيدُ المتقاعِدُ أَلْب أَرْسلاَنْ تُورْكَشْ بتأسِيسِ حزبِ الحركةِ القوميَّةِ في **08** فبراير **1969**م. وأعلنَ فلسفتَهُ التي تتألَّفُ من تسعةِ مَبادِئَ، وهي: القوميَّةُ الطورانيَّةُ، والْمِثَالِيَّةُ، والأخلاقِيَّةُ، والعِلميَّةُ، والاجتماعيَّةُ، والريفيَّةُ، وتكوينُ الشخصِيَّةِ الْحُرَّةِ، والتطويريَّةُ الْمُجْتَمَعِيَّةُ، والتقنِيَّةُ. سُمِّيَتْ هذه المبادِئُ بالأنوارِ (أو الأَشِعَّةِ) التسعةِ.

اهتمَّ الحزبُ في هتافاتِهِ بالتركيزِ على "الإلتزامِ بالدِّين الإسلامِيِّ مع الإعتِزَازِ بالقوميَّةِ التُّرْكِيَّة، واتِّخاذِ جانبِ اليمينيَّةِ في الْمَوْقِفِ الإِيدْيُولُوجِيِّ السياسِيِّ ضدَّ اليساريَّةِ". كان حزبُ الحركةِ القوميةِ حربًا على النشاطاتِ اليساريَّةِ في تركيا، وعدوًّا لدودًا للشيوعِيَّةِ إبَّان الحركات العمَّالِيَّةِ، وفي أيَّامِ استغلالِ الجبهةِ الشيوعيَّة لِقطاعِ الْعَمَالَةِ في تصعيدِ الأيديولوجِيَّةِ اليسارِيَّةِ من بداية السبعينِيَّاتِ إلى سقوطِ النظامِ الماركسِيِّ وانهيارِ الاتِّحاد السوفيتِيِّ.

كان لِحزبِ الحركةِ القوميَّةِ جهودٌ بالغةٌ في إنشاءِ "جمعيَّةِ مكافحةِ الشيوعيَّةِ" بالتعاون مع شبكةِ الإستخباراتِيَّةِ الأَميركِيَّةِ. يُفترضُ أنَّ الطورانيّين تعاونوا مع الجماعاتِ النقشبنديَّةِ والنورسِيَّةِ في تنشيطِ وتمويلِ هذه الجمعِيَّةِ. كما عُرِفَ أخيرًا أنَّ رئيسَ "جماعةِ الحشاشين الْجُدُدِ" أيضًا كان مشاركًا للعنصريّين والصوفِيَّةِ في مكافحةِ الشيوعيَّةِ منذ عام **1963**م.

اشترك حزبُ الحركةِ القوميَّةِ في ثلاثِ حكوماتٍ ائتلافيَّةٍ: **1**) حكومةِ سليمان ديميريل (الرابعةِ)، مع حزبِ العدالةِ (الحزبِ الأُمِّ) AP، وحزبِ السلامةِ القومِيِّ MSP، وحزب الثِّقَةِ الجمهورِيِّ CGP (**1975.03.31–1977.06.21**م.)؛ **2**) حكومةِ سليمان ديميريل (الخامسةِ)، مع حزبِ العدالةِ (الحزبِ الأمِّ) AP، وحزبِ السلامةِ القومِيِّ MSP (**1977.07.21–1978.01.05**م.)؛ **3**) حكومةِ بُلَنْدْ أجاويد (الخامسةِ)، مع حِزْبِ الديمقراطِيِّ اليسارِيِّ (الحزبِ الأمِّ) DSP، وحزبِ الوطنِ الأمّ ANAP (**1999.05.28–2002.11.18**م.). لا يزالُ (حزبُ الحركةِ القوميَّةِ) يمارسُ نشاطَهُ السياسِيَّ في المجلسِ التُّرْكِيِّ كحزبٍ معارِضٍ ثانٍ.

***

- **الحزْبُ الشعبِيُّ الدِيمقراطِيُّ SHP**

ظهر هذا الحزبُ على المسرحِ السياسيّ في ظروفٍ كان زِمَامُ الدولةِ التُّرْكِيَّة بِيَدِ الفريق كنعان أفرين وأعوانِهِ العسكريّين، وكانتِ الأحزابُ السياسيَّةُ القديمَةُ كُلُّهَا يومئذٍ ممنوعةً من النشاطِ السياسِيّ. فقامَ أَرْدَالْ إينونو Erdal İnönü (بن عصمت إينونو) بتأسيسِ هذا الحزبِ في 20 مايو 1983م.، ليحلَّ محلَّ حزبِ الشعبِ الجمهورِيّ المحلول.

فلمَّا فازَ حزبُ الوطنِ الأمِّ الذي يرأسُهُ تُرْغُوتْ أُوزَالْ في انتخاباتِ 06 نوفمبر 1983م. احتَلَّ الحزبُ الشعبِيُّ الديمقراطِيُّ محلَّ الحزبِ المعارض. ولَمَّا كان الجمهورُ اليسارِيُّ منقسمًا إلى فئاتٍ متفرّقةٍ وأمرُهُمْ بينهم زُبُرًا، بسببِ تعدُّدِ الأحزابِ اليسارِيَّةِ حاولوا لِجمعِ شَمْلِهِمْ، فاتَّفقتْ كلمةُ القُدَمَاءِ السياسيّين اليساريّين لهذهِ الأحزابِ على دمجِ حزبين تحتَ اسْمٍ واحدٍ في 03 نوفمبر 1985م. وهما: الحزبُ الشعبِيُّ HP، والحزبُ الإجتماعِيُّ الديمقراطِيُّ SODEP. إلاَّ أنَّ 20 نائبًا انشقُّوا من الحزبِ في ديسمبر 1986م.، والتحقوا بالحزبِ الديمقراطِيّ اليسارِيّ DSP. فتدهورتِ الأحوالُ في الحزبِ نتيجةَ الْمُنَافَسَةِ بين أرْدَالْ إينونو Erdal İnönü ودَنِيزْ بَايْكَالْ Deniz Baykal. فتأخَّرَ في الترتيبِ إلى حزبٍ معارضٍ من الدرجةِ الثالثة.

لَمَّا رُفِعَ حظرُ النشاطِ السياسِيّ عن الأحزاب السياسيَّة الْمُؤَسَّسَةِ قبل الإنقلابِ وتَمَّ إعادَةُ تأسيسِ حزبِ الشعبِ الجمهُورِيّ في 09 سبتمبر 1992م. انشقَّ دَنِيزْ بَايْكَالْ وَرِفَاقُهُ من الحزبِ الشعبِيّ الديمقراطِيّ والتحقوا بحزبِهِمْ. ثُمَّ اندمَجَ الحزبانِ تحتَ سقفِ حزبِ الشعبِ الجمهُورِيّ في 18 فبراير 1995م.

اشتركَ الحزبُ الشعْبِيُّ الديمقراطِيُّ في حكومتين ائتلافِيَّتين: حكومةِ سليمان ديميريل (السابِعَةِ)، مع حزبِ الطريقِ القويمِ (20 نوفمبر 1991-16 مايو 1993م.)؛ حكومةِ طَنْسُو تشِيلَّرْ، مع حزبِ الطريقِ القويمِ (25 يونيو 1995-15 أكتوبر 1995م.).

***

- **حزبُ العُمَّال İP**

يمتدُّ تاريخُ تشغيلِ العمالةِ في تركيا إلى منتصفِ القرنِ التاسعَ عَشَرَ الميلادِيّ. لقد أورثَ النظامُ الإقطاعِيُّ في العهدِ العثمانِيّ وسطًا خصبًا لِسَرِقَةِ عَرَقِ الجْبِين، حيث بدأتِ النَّزْعَةُ الرَّأْسْمَالِيةُ تَتَنَامَى شيئًا فشيئًا حتَّى لُوحظتْ ارهاصاتُ الاسترقاقِ الحديثِ فورَ ظهورِ تشغيلِ الْعَمَالَةِ في المزارعِ والورشات. كان ذلكَ حافزًا لإثارةِ الشعورِ بفكرةِ التَّضَامُنِ والإنتظامِ بين العاملين في مرحلةٍ مُبَكِّرَةٍ. غير أنَّ هذا الإنتباهَ ما لبث حتَّى انطمسَ واختفَى بسببِ التطوُّراتِ التي مرَّتْ بِهَا الدولةُ العثمانيَّةُ وأدَّتْ إلى سقوطِها.

حدثتْ مُحَاوَلَاتٌ جريئةٌ للإضرابِ عن الْعَمَلِ لأوَّلِ مرَّةٍ سنة **1908**م. في إسطنبولَ، وإزمير، وسالونيك، فقامَ عُمَّالُ قطاعِ التبغِ والسِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ بإضرابٍ عن العملِ احتجاجًا على تَدَهْوُرِ ظروفِهِمْ وقلَّةِ أجورِهِمْ. إنَّما نالوا هذهِ الْفُرْصَةَ بفضلِ ما جاءَ به الدستورُ لعام **1876**م. من الحرِّياتِ وإن كانتْ محدودةً يومئذٍ.

استقْوَى قطاعُ الْعَمَالَةِ في تركيا خاصَّةً بعد تأسيسِ حزبين اشتراكيَّين سنة **1919**م. وهما: "الحزبُ الإشتراكيُّ التركِيُّ، و"الحزبُ الإشتراكيُّ التركِيُّ للعاملين والفلاَّحين". كانت للأخيرِ علاقةٌ بِمُنَظَّمَةِ الإشتراكيَّة الدُّوَلِيَّةِ في الثلاثينيَّاتِ من القرن العشرين، كما تحوَّلَ إلى شِبهِ حزبٍ شيوعِيٍّ، إلاَّ أنه لم يتبرَّأْ من الإنتماءِ القومِيِّ، لذا استطاعَ أن يواصلَ نشاطَهُ عَبْرَ مرحلةٍ من الْمُعَانَاةِ إلى الخمسينِيَّات.

كان العُمَّالُ والفنِّيُّونَ في الْمُدُنِ (قبل العهد الجمهورِيّ) أَكْثَرُهُمْ من اليهودِ والنصارى، يعملون في مؤسَّساتٍ مملوكةٍ لهاتين الطائفتين. أمَّا أفرادُ المجتمعِ (الْمُسْلُمَانِ) من الأتراك والأكرادِ وبقيَّةِ الأقليَّاتِ الْعِرْقِيَّةِ، فإنَّهم كانوا يعيشونَ على الْفِلاَحَةِ؛ وقِلَّةٌ منهم يزاولون التجارةَ التقليديَّةَ في حدودٍ متواضعة.

إنَّ القلَّةَ القليلةَ من العُمَّالِ ذَوِي الأصولِ التُّرْكِيَّةِ الذين كانوا يعملون في مؤسَّساتِ اليهودِ والنصارى، لم يشتركوا مع العُمَّالِ الغيرِ مسلمين في احتجاجاتِهِمْ ومُطالباتِهِمْ بسببِ التنافُرِ الناشئِ بينهم من اختلافِ العرقِ (وليس من اختلافِ الدِّينِ!). ذلك أنَّ قِطَاعَ الْعَمَالَةِ بكلِّ فصائِلِهِ العرقيَّةِ والثقافِيَّةِ قد أسقطَ الدِّينَ من اعتبارِهِ منذُ وجودِهِ كَطَبَقَةٍ اجتماعيَّةٍ.

لم يكنْ لِقطاعِ العَمَالَةِ وجودٌ كطبقةٍ احتماعيَّةٍ في بدايةِ العهدِ الجمهوريِّ، لأنَّ الناسَ كانوا صَرْعَى، والمجتمعُ لم يكنْ قد انْتَبَهَ بَعْدُ من سُبَاتِهِ عَقِبَ الحربِ الْعُظْمَى، فكان يومئذ لكلِّ امرئٍ شأنٌ يُغنِيهِ. دامتْ هذه الحالةُ الشبيهةُ بالإغماءِ فترةً إلى أنْ بدأ يتكوَّنُ كُتَلٌ من العُمَّالِ بعد خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا من قيام الجمهوريَّة. إلاَّ أنَّ هذه الكُتَلَ كانتْ ضعيفةً ومُبَعْثَرَةً على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ منذُ بدايةِ إعلانِ الجمهوريَّةِ (عام **1923**م.) حتى نِهايةِ الأربعينيَّاتِ. لم تكن ثَمَّةَ صلةٌ بين هذه الْكُتَلِ العُمَّالِيَّةِ مِمَّا جعلَها فريسةَ الإستغلالِ على يدِ النظامِ الكماليِّ الرَّأْسْمَالِيِّ.

فلمَّا عزمتِ الجْبْهَةُ الرَّأْسْمَالِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ على صرفِ قُوَاهَا لاحتواءِ قطاعِ الْعَمَالَةِ وحصرِهِ، واسترقاقِ الإنسانِ العاملِ بالقضاءِ على مشاعِرِهِ بحيث لن يَتَنَبَّهَ إلى أنَّه إنسانٌ خلقه الله حُرًّا، بدأتْ تُخَطِّطُ لأجلِ تضييقِ الخناقِ على الطبقةِ العاملةِ بطريقِ التفاوضِ مع الحكومةِ لِمنعِهَا عن إصدارِ أيِّ قانونٍ يمنحُ العاملَ شيئًا من التسهيلِ في مطالبةِ ربِّ العملِ بحقٍّ أكثرَ مِمَّا يتقاضاه.

نسجتْ الرَّأسْمَالِيَّةُ مؤامراتِها ضدَّ العُمَّالِ من بدايةِ الخمسينيَّاتِ على أُسُسٍ تنالُ القبولَ وتجلبُ الدَّعْمَ والمساعدةَ من القاعدةِ الشعبيَّةِ. فكان من أوَّلِ مخطَّطات الرَّأْسْمَالِيِّين تخويفُ المجتَمَعِ بأطماعِ الاتِّحاد السوفيتيِّ في الإستيلاءِ على تركيا عن طريقِ استغلالِ الطبقة العاملة. جَنَّدَ الرَّأْسْمَالِيُّونَ أجهزةَ الإعلامِ (التي يكادُ كلُّها ولا يزالُ يعملُ لِمَصَالِحِ الخِلْفِ اليهوديِّ-المسيحيِّ العالَمِيِّ، والفكرِ العلمانيِّ)، جَنَّدَهَا في صفوفِ (جمعيةِ مكافحةِ الشيوعيَّةِ)، وبثِّ الدِّعَايَاتِ: "بأنَّ الساحةَ التُّرْكِيَّةَ مُعَرَّضَةٌ للخطرِ الشيوعِيِّ عن طريقِ منظَّماتٍ عُمَّالِيَّةٍ تحوَّلتْ إلى آليةٍ خطيرةٍ يوشكُ أنْ يستغلَّها الاتِّحادُ السوفيتيُّ في تفجيرِ ثورةٍ عُمَّالِيَّةٍ ترمي بالدولةِ بين مخالبِ هذا الوحشِ الْمُطِلِّ على الوطنِ التُّرْكِيِّ والْمُتَرَبِّصِ به!".

لقد كانتْ هذه الدعاياتُ المختَلَقَةُ وَالمنسوجةُ بخيوطِ التهويلِ والترويعِ مصحوبةً دائمًا باستغلالِ مفهومِ الدِّينِ والقِيَمِ المقدَّسة. أثارَ بها الرَّأْسْمَالِيُّونَ مشاعرَ الناسِ: "بِأنَّ الشيوعيَّةَ إذا تمكَّنتْ من المجتمعِ فإنَّ أوَّلَ ما تبدأُ في تحطيمِهِ هو الدِّينُ والقِيَمُ المقدَّسةُ؛ وإنَّ الأخلاقَ والفضائِلَ الإنسانيَّةَ لن تبقَى لها – بعد ذلك- أيُّ قيمةٍ ولا أثر.".

لا شكَّ في أنَّ هذهِ المقولاتِ حقٌّ أُرِيدَ بها الباطل. وهذا الذي شجَّعَ الجماعاتِ النقشبنديَّةَ على مشاركةِ الرَّأْسْمَالِيِّينَ في بثِّ تلك الدِّعاياتِ، والإنخراطِ في جمعيَّةِ مكافحةِ الشيوعِيَّة. فتمخَّضتْ عنها

انعكاساتٌ سلبيَّةٌ على مشاعرِ ملايين العاملين: "بأنَّ الدافعَ الرئيسَ لِلظُّلْمِ والقهرِ وانتهاكِ الحقوقِ إنَّما هو الدِّينُ والقِيَمُ المقدَّسَةُ..". لذا، انتشرتِ الكراهيَّةُ للدِّينِ بين العُمَّالِ ورسختْ في أذهانِهِمْ، فكان ذلك سببًا هامًّا في مروقِهِمْ، وهَجَمَاتِهِمْ على المقدَّساتِ في كلّ مناسبةٍ. شاعتْ بينهم الإهانةُ والسُّخْرِيَّةُ والتهكُّمُ بشعائرِ الإسلامِ، ونشِبتِ الفِتَنُ، وقامتْ مظاهراتٌ عارِمَةٌ هزَّتِ البلادَ، واندلعَ قِتَالٌ عنيفٌ بين العُمَّالِ وبين جموعِ اليمينيِّين، (الذين يتألَّفون من الصوفِيَّةِ النقشبنديّين، والذين أُشْرِبُوا في قلوبِهِم العنصريَّةَ التُّرْكِيَّةَ، ومَنْ انسحبَ وراءَهُمْ من الحُثَالةِ والمغفَّلين...)

عاشتْ تركيا هذه الحالةَ في أواخرِ الخمسينيَّاتِ فأثارَ غضبَ العسكريّينَ حتى انتهتْ بإطاحةِ الحكومةِ وسلسةٍ من الإعتقالاتِ عام **1960**م. فلمَّا هدأتِ الأوساطُ بعد الإنقلابِ وأصبح قِطاعُ الْعَمَالَةِ يتمتَّعُ بعضَ الشيءِ من حُرّيَّةِ التعبيرِ، اتَّفق نفرٌ من رؤساءِ النقابات العُمَّالِيَّةِ على تأسيسِ حزبٍ سياسِيّ باسْمِ "حزبِ العُمَّالِ"، وهم: كمال تُورْكْلَرْ Kemal Türkler (رَئِيسُ نِقَابَةِ عُمَّالِ الْمَعَادِن)، شعبان يِلْدِيزْ Şaban Yıldız (رَئِيسُ نِقَابَةِ عُمَّالِ النسيج)، رضا كُوَاصْ Rıza Kuas (رَئِيسُ نِقَابَةِ عُمَّالِ المطَّاط)، كمال نَبِي أوغْلُو Kemal Nebioğlu (رَئِيسُ نِقَابَةِ عُمَّالِ قطاع الْغِذَاءِ). كما سَاهَمَ في تأسيسِ هذا الحزبِ عددٌ آخر من قادةِ الحركة الْعُمَّالِيَّةِ في تركيا.

تمَّ تأسيسُ حزبِ العمَّالِ التُّرْكِيّ Türkiye İşçi Partisi في **13** فبراير **1961**م. واحتلَّ محمّد علي آيبار Mehmet Ali Aybar منصبَ رئيسِ الحزبِ. كان مثلُ هذا الإقدامِ حملةً جريئةً، لأنَّ الطبقةَ العاملةَ كانتْ دائمًا رمزًا "للشيوعيَّةِ البغيضةِ" في نظرِ الطُّغْمَةِ الحاكمة. كذلك الفكرُ الشيوعيُّ كان ولاَ يزالُ محكومًا عليهِ بالكراهيَّةِ في نظرِ العامَّة؛ بمعنَى "أنَّ الشيوعِيَّةَ تستعدُّ للدخولِ إلى الْمُعْتَرَكِ السياسِيّ جهارًا وعلى مرأى من الجمهورِ باللجوءِ إلى استغلالِ قطاعِ الْعَمَالَةِ. وهذا يُعدُّ اقتحامًا لِحُرْمَةِ المجتمع، وخروجًا على أعرافِهِ، وإهانةً بكرامةِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ والقداسَةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ!..." لذا فإنَّ حِزْبَ الْعُمَّالِ لم يحظَ بنجاحٍ يُذْكَرُ منذُ قيامِ الجهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ إلاَّ في الإنتخاباتِ العامَّةِ لسنة **1965**م. فاستطاعَ في هذهِ الحملةِ أن يحصُلَ على **15** مقعدًا في الْبَرْلَمَانِ التُّرْكِيّ. غيرَ أنَّ الصراعَ بدأ للمرَّةِ الثانيةِ بين التجمُّعاتِ اليساريَّةِ واليمينيَّةِ على مدَى عقدين كاملين (**1970–1980**م). واحتدمَ في بدايَةِ الثمانينيَّاتِ. فَتَذَرَّع الجيشُ بالفوضى والإضطراباتِ السائدةِ في البلدِ، فأصدرتِ المحكمةُ الدستوريَّةُ قرارًا بحلّ حزبِ العُمَّالِ التُّرْكِيّ في **21** يوليو **1971**م.

تمَّ تأسيسُ حزبِ الْعُمَّالِ الإشتراكِيِّ التُّرْكِيِّ في 22 يونيو 1974م. لِيَمْلأَ فراغَ الحزبِ المحلولِ، سَاهمَ في تأسيسِهِ كُلٌّ من: أحمد كَاجْمَازْ Ahmet Kaçmaz (احتلَّ منصبَ رئيسِ الحزبِ)، ويَالْجِين يوسف أوغلو Yalçın Yusufoğlu، وبرهان شاهين Burhan Şahin، وأُويَا بَايْدَارْ Oya Baydar، وجَغَطَايْ أناضول Çağatay Anadol، وإبراهيم سيوين İbrahim Seven، ومحمّد شاهين Mehmet Şahin، وأَيْدُوغَانْ كيزيرْ Aydoğan Gezer، ووَلِي كُورْجَان Veli Gürcan... وشارَكَهُمْ عددٌ من رجالِ القيادةِ والتوجيهِ لقطاعِ الْعَمَالَةِ. لم يلبثْ طويلاً حتى أُعيدَ تأسيسُ حزبِ العُمَّالِ التُّرْكِيِّ مجدَّدًا في 03 مايو 1975م. واحتلَّتْ بَهِيجَة بُورَان Behice Boran منصبَ الرئاسةِ للحزب. ولكنَّ الظروفَ كانتْ غامضةً فلم يُفْلِح الحزبُ في مواجهةِ العنصريَّة التُّرْكيَّةِ والضغوطِ الرَّأْسْمَالِيَّةِ، خاصَّةً فقد كانتْ هناكَ كُتْلَةٌ عُنْصُرِيَّةٌ تسلَّلوا إلى الحزبِ وانتحلوا الفكرَ اليسارِيَّ وتستَّرُوا وراءَ هويَّةِ "المقهورين والمستَضْعَفِين من قِبَلِ الطبقةِ البرجوازيَّةِ" فتوغَّلُوا في سياسةِ الحزبِ وعملو على تشويشِ الأفكارِ وتشتيتِها من داخلِهِ، فأدَّى إلى الشقاقِ والتَّشَرْذُمِ في صفوفِهِ. كان ذلك (ولا يزالُ) سببًا هامًّا لِفَشَلِ حزبِ العمَّالِ التُّرْكِيِّ على المسرحِ السياسِيِّ منذُ قيامِ الجمهوريَّةِ إلى اليوم! تدهورتْ نشاطاتُ الحزبِ على أثرِ السلبيَّاتِ التي تفاقمتْ في نِهايةِ الثمانينيَّات سواءٌ داخلَ الحزبِ وعلى مستوَى البلد. أُلْغِيَ الحزبُ مع جميعِ الأحزابِ السياسِيَّةِ في 16 أكتوبر 1981م.

حلَّ محلَّهُ حزبٌ جديدٌ باسْمِ "الحزبِ الإشتراكِيِّ" في فبراير عام 1988م. إلاَّ أنَّ المحكمةَ الدستوريَّةَ أصدرتْ قرارًا بِحَلِّهِ في 10 يوليو 1992م. ثُمَّ أُعِيدَ تأسيسُ حزبِ الْعُمَّالِ للمرَّةِ الثالثةِ في 11 يوليو 1992م. يَرْأَسُهُ دُوغُو بَرِيْنجَكْ Doğu Perinçek. تمَّ تغييرُ اسمِ الحزبِ أخيرًا فَاسْتُبْدِلَ منه بعنوانِ: "حزبِ الوطنِ Vatan Partisi" وأُعْلِنَ في مؤتمرِهِ المنعقدِ في 15 فبراير 2015م.

***

عهدُ الحكوماتِ الإِئْتِلاَفِيَّة

فرضَ الواقعُ السياسِيُّ والإقتصادِيُّ أنْ ينتقلَ تركيا من عهدِ الحكوماتِ الأغلبيَّةِ الْمُنْبَثَقَةِ من حزبٍ واحدٍ، إلى مرحلةِ الحكوماتِ الإئتلافِيَّةِ بِمُشَارَكَةِ أحزابٍ مُتَعَدِّدَةٍ ذواتِ اتِّجاهاتٍ سياسيَّةٍ متعارضةٍ، بعد ثورةِ الجيشِ على الحزبِ الديمقراطِيِّ اليَمِينِيِّ وإسقاطِهِ وإلغائِهِ في 27 مايو 1960م.

من المثيرِ أنَّ الأحزابَ التي شارَكَتْ في تأليفِ هذهِ الحكوماتِ، لم يكنْ هناك أيُّ تعاونٍ فيما بينها؛ بل كان كلٌّ منها على نقيضِ شريكِهِ في الاتّجاه السياسِيّ تمامًا، والأيديولوجيَّةِ الَّتي يَتَبنَّاهَا، بحَيْثُ لم يكن أيُّ مشابَهَةٍ بين الخياراتِ والأطروحاتِ والأفكارِ التي يَسعَى لأجلِهَا كلٌّ من الشُّرَكَاءِ. بل كانو في عِرَاكٍ مستمرٍّ، لا يلتقون على رأيٍ واحدٍ رغم اتفاقِهِمْ على الْمُشَارَكَةِ تحت سَقْفِ حكومةٍ واحدة. وأبعدُ من ذلك؛ أنَّ كلَّ حزبٍ من أعضاءِ التَّحَالُفِ كان ينتهزُ الفرصةَ لِيَرْمِيَ صاحبهُ في أزمةٍ؛ يتنازعونَ الأمر ويَتَجَاذَبُونَهُ في وسطِ مناقشاتٍ حادَّةٍ ثُمَّ ينصرفون دون جَدْوَى، كلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحون.

استأنفتِ "الديمقراطيَّةُ" بعد ثمانيةِ أشهرٍ من الإنقلابِ مع الإعلانِ عن قيامِ "حزبِ العدالةِ AP" في **11** فبراير **1961**م. سَاهَمَ في تأسيسِ الحزبِ شخصيَّاتٌ بارزةٌ من السياسيِّين وعلى رأسِهِمْ: تحسين دَمِيرَايْ Tahsin Demiray، وأدهم مَنَامَنْجِي أوغلو Ethem Menemencioğlu، ومحمد يُورْغَانْجِي أوغلو Mehmet Yorgancıoğlu، ومختار يَازِيرْ Muhtar Yazır، ونجمي أُوكْتَانْ Necmi Ökten، وجَوْدَتْ بَرِينْ Cevdet Perin، وأمين آتشَارْ Emin Açar، وكاموران أولياء أوغلو Kamuran Evliyaoğlu... وانتُخِبُ الفريقُ المتقاعِدُ راغب جُمُوشْبَالاَ Rağıp Gümüşpala رئيسًا للحزبِ. كانت هذهِ المبادرةُ باعثًا للمسرَّةِ بين أعضاءِ المجلسِ العسكرِيِّ MBK. ثُمَّ تَعَاقَبَهُ تأسيسُ "حزبِ تركيا الحديثَةِ" برئاسَةِ أكرم علي جان Ekrem Alican في **13** فبراير **1961**م.

وُضِعَ دستورٌ جديدٌ بناءً على طلبِ المجلسِ العسكرِيِّ MBK، وأجريَ عليهِ استفتاءٌ شعبِيٌّ بصورةٍ شكليَّةٍ في **09** يونيو **1961**م. لِيَكُونَ دَليلاً على شرعيَّتِهِ! وَتَمَّتِ الموافقةُ عليه وأُعلِنَ في الجريدةِ الرسْمِيَّةِ يوم **20** يوليو **1961**م. ثُمَّ أُجرِيَتِ الإنتخاباتُ الْبَرْلَمَانيَّةُ يوم: **15** أكتوبر **1961**م. إلاَّ أنَّ أيَّ حزبٍ من هذهِ الأحزابِ لم يَظْفَرْ وَحْدَهُ بِأَغْلَبِيَّةٍ يملكُ بها النِّصَابَ لِتشكيلِ حكومةٍ مستقلَّة.

تنافستْ أربعةُ أحزابٍ في هذه الحملةِ، وهي: "حزبُ العدالةِ AP"، و"حزبُ الشعبِ الجمهورِيُّ CHP"، و"حزبُ تركيا الحديثةِ YTP"، و"حزبُ الشعب الريفِيُّ الجمهورِيُّ CKMP". تمَّ في أعقابِها تشكيلُ حكومةٍ ائْتِلاَفِيَّةٍ اشترَكَ فيها "حزبُ الشعب الجمهرِيُّ"، و"حزبُ العدالةِ AP". وانتُخِبَ عصمتْ إينونو İsmet İnönü رئيسًا للوزراءِ. دامتْ هذه الحكومةُ فقط سبعةَ أشهرٍ ما بين: **20** نوفمبر **1961**م. و**25** يونيو **1962**م. ومن الغريبِ، أنَّ "حزبَ العدالة AP" الذي كان يُعَدُّ

من امتدادِ "الحزبِ الديمقراطيّ" الْمُلْغَى، شَارَكَهُ "حزبُ الشعبِ الجمهوريُّ" في تكوينِ هذهِ الحكومةِ رغم الهُوَّةِ التي تَفْصِلُ بين اتِّجاهِهِمَا المتشاكِسَيْنِ. لذا لم تحظَ هذه الحكومةُ بالاستقرارِ والدوام.

قامتْ على أثرِهَا حكومةٌ ائتلافيَّةٌ ثانيةٌ بمشاركةِ "حزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ CHP"، و"حزب الشعبِ الريفِيِّ الجمهورِيِّ CKMP"، دامتْ ثمانيةَ عَشَرَ شهرًا. طالَمَا استغربَ المحلِّلُون السياسيُّون هذه المشاركةَ لاختلافِ الحزبين في الإتِّجاهِ السياسِيِّ حيث عُرِفَ "حزبُ الشعب الجمهورِيُّ CHP" بموقِفِهِ النازِعِ إلى اليسارِ، بينما "حزبُ الشعبِ الريفِيُّ الجمهورِيُّ CKMP" (الذي تحوَّلَ فيما بعد إلى حزبٍ قومِيٍّ متشدِّدٍ وَاسْتَبْدَلَ اسْمَهُ بِ"حزبِ الحركةِ القومِيَّةِ") كان يتَّخِذُ موقِفًا في أقصى اليمين مناهضًا لليساريَّةِ والإشتراكيَّةِ.

وأغربُ من ذلكَ؛ أنَّ "حزبَ الشعبِ الجمهورِيَّ CHP" الذي يَتَبَنَّى أيديولوجيَّةً يساريَّةً، وأكثرُ أعضائِهِ مارقونَ؛ اشترَكَ مع "حزبِ السلاَمَةِ القومِيّ MSP" في حكومةٍ ائتلافيَّةٍ يوم 26 يناير 1974م. تولَّى منصبَ رئيسِ الوزراءِ بُلَنْدْ أَجَاوِيد Bülent Ecevit. رغم أنَّ "حزبَ السلامةِ القومِيَّ MSP" الْمُشَارِكَ في تشكيلِ هذهِ الحكومةِ كان له اتِّجاهٌ دينِيٌّ، وجميعُ أعضائِهِ معروفون بانتمائِهِم الْمُسْلُمَانِيّ، وانتسابِهِمْ للطريقةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ! فاشتهرَ من مقولاتِ نجم الدين أرْبَكَانْ (رئيسِ "حزبِ السلامةِ القومِيّ MSP")، أنَّهُ – بالمناسبة – كان يقول: "أمَّا وقد أَقْحَمْنَا أَنْفُسَنَا في هذه المشاركةِ على كراهيَّةٍ مِنَّا، ليس إلاَّ لِحَلِّ الأزمة!"؛ كما أنَّ رئيسَ "حزبِ الشعب الجمهورِيّ CHP" بُلَنْدْ أَجَاوِيد أيضًا كان يَصِفُ مشاركتَهُ مع أربكان خطأً تورَّط فيه تحتَ ضغطِ الظروف.

كان من أهَمِّ إجراءاتِ هذهِ الحكومةِ قرارُهَا بشأنِ اختلالِ جزيرةِ قبرص، تلبيةً لنجدةِ القبارصةِ الأتراك الذين تعرَّضوا للابادَةِ الجْمَاعِيَّةِ على يد القبارصة اليونان سنة 1974م.[290]

بعد هذه التجربةِ شهدتِ الحياةُ السياسيَّةُ في تركيا نمازجَ أُخرَى من الحكوماتِ الإئتلافِيَّةِ التي تولَّى فيها اليمينيُّونَ منصِبَ رئيسِ الوزراءِ، مثلَ حكومةِ سليمان دِيمِيرِيلْ Süleyman Demirel التي شاركَ في تشكيلِهَا "الحزبُ الشعبِيُّ الإجتماعِيُّ الديموقراطِيُّ (اليسارِيُّ) "SHP برئاسةِ أرْدَالْ إينون Erdal İnönü، و"حزبُ الطريقِ القويمِ (اليمينِيُّ) DYP" برئاسةِ دميريل. دامتْ هذه الحكومةُ ما بين: 29

---

[290] يستحق بهذه المناسبة الإشارةُ إلى حدثٍ هامٍّ بقِيَ خافِيًا على الغالبيَّةِ العُظمَى في الوطنِ الإسلامِيِّ، وهو: أنّ تركيا لَمَّا أرسلتْ جيوشَها لنجدةِ القبارصةِ الأتراكِ المعرَّضِينَ للإبَادَةِ، نهضتْ ثلاثُ دولٍ لِمساعدة تركيا: أرسلتْ ليبيا حمولاتٍ من زيتِ المحرِّكِ الخاصِّ بالطائراتِ، ومعدَّاتِ نَابَالْمْ، وقذائفَ مدفعيَّةٍ من طراز 20 مم.؛ وأرسلتْ إيران كميَّاتٍ من الراجمات؛ وأرسلتْ باكستان حمولاتٍ من الزخيرة، ومعدَّات للإسعافِ الأولِيّ (مقتبس من وثائقَ خاصَّة)

نوفمبر **1991**م. و**25** يونيو **1993**م. امتازتِ العلاقاتُ بين الشريكَيْنِ (ديميريل وإينونو) طوالَ الفترةِ بانسجامٍ ووفاقٍ تامٍّ، خاصَّةً بجهودِ الشريكِ الثاني الذي كان معروفًا باتِّزَانِهِ وَوَقَارِهِ على عكسِ ديميريل المعروفِ بِحِرْصِهِ البالغِ، وطَمَعِهِ اللاَّمَحْدُودِ! ثُمَّ انتُخِبَ ديميريل رئيسًا للجمهوريَّةِ عَقِبَ وفاةِ تُرغوت أُوزَالْ Turgut Özal يوم **17** أبريل **1993**م. واحتلَّ هذا المنصِبَ ما بين **16** مايو **1993**م. و **16** مايو **2000**م.

تعاقبَتْ حكومةٌ ائتلافِيَّةٌ أُخرَى حكومةَ ديميريل فورَ حَلِّهَا، شاركَ فيها "حزبُ الطريقِ القويمِ (اليمينِيُّ) DYP" برئاسةِ طَانْسُو تشيلَّرْ Tansu Çiller، و"الحزبُ الشعبِيُّ الاجتماعِيُّ الديموقراطِيُّ (اليسارِيُّ) SHP" برئاسةِ مراد قَرَيَالْتْشِين Murat Karayalçın. انْعَقَدَتِ الحكومةُ وبدأتْ أعمالَهَا في **25** يونيو **1993**م. إلاَّ أنَّهَا كانتْ فاشلةً، فظلَّ التوازنُ بين الشريكَيْنِ مُخْتَلاًّ، وازدادتِ الشُّقَّةُ بين الطرفين، وتدهورتِ العلاقاتُ إلى حدٍّ بالغٍ، فانعكستْ على الحياةِ في كلِّ مجالاتِهَا؛ سائتِ الظروفُ الإقتصاديَّةُ، وازدادتِ البطالةُ، وحطَّمَتِ المؤشراتُ رقمًا قياسيًّا للتضخُّمِ الماليِّ، واستشاطتِ المنظماتُ السرِّيَّةُ من جديدٍ، فانتشرتْ أعمالٌ إرهابِيَّةٌ وجرائمُ قتلٍ مجهولةِ الفاعِلِ، وتفاقمتِ الفِتَنُ وعمَّ الفوضَى فأسفرتْ عن أكْبَرِ أزمةٍ إقتصاديَّةٍ وَاجَهَتْهَا تركيا في تاريخِهَا وسطَ هذهِ الظروفِ الغامضةِ. هبطتْ قيمةُ اللِّيرَةِ التُّرْكِيَّةِ إلى مُسْتَوَيَاتٍ قِيَاسِيَّةٍ واضمحلَّتِ الْعُمْلَةُ التُّرْكِيَّةُ في ليلةٍ واحدة. فانحلَّتِ الكمومةُ في **05** أكتوبر **1995**م.

كان "حزبُ الشعبِ الجمهوريُّ CHP" مُلْغًى منذُ أيَّامِ إنقلابِ **12** سبتمبر **1980**م. ثُمَّ صدرَ الإذنُ لاستِئْنَافِهِ في النشاطِ السياسِيِّ يوم **09** سبتمبر **1992**م. وتَمَّ توحيدُ الحزْبَيْنِ اليساريَّين ("الحزبِ الشعبِيِّ الاجتماعِيِّ الديموقراطِيِّ SHP"، وحزبِ الشعبِ الجمهوريِّ CHP) تحت اسمِ هذا الأخير في **18** فبراير **1995**م. بِرئاسَةِ حِكْمَتْ تشَتِينْ Hikmet Çetin، ثُمَّ خَلَفَهُ دَنِيزْ بَايْكالْ Deniz Baykal في منصبِ رئاسةِ الحزبِ بعد **7** أشهر. شارك الحزبُ (CHP) مع حزبِ الطريقِ القويمِ (DYP) في تشكيلِ حكومةٍ ائتلافيَّةٍ جديدةٍ ما بين **30** أكتوبر **1995**م. – **06** مارس **1996**م.

تابعَتْهَا حكومةٌ ائتلافيَّةٌ أخرى بمشاركةِ "حزبِ الوطنِ الأمِّ (اليَمِينِيِّ) ANAP"، ورئيسُهُ يومئذٍ مسعود يِلْمَازْ Mesut Yılmaz الذي احتلَّ منصبَ رئيسِ الوزراءِ للمرَّةِ الثالةِ يوم **30** يونيو **1997**م.؛ وكان الشريكُ الثانِي هو "الحزبَ الديمقراطِيَّ اليسارِيَّ DSP" الذي يرئسُهُ يَوْمَذَاكَ بُلَنْدْ

أَجَاوِيد Bülent Ecevit، فاحتلَّ هو منصبَ نائبِ رئيسِ الوزراء. وكان "الحزبُ الديمقراطِيُّ التركِيُّ DTP" شرِيكًا ثالِثًا في هذه الحكومة الإئتلافِيَّةِ، ورئيسُهُ حُسَامُ الدِّين جِينْدُورُوكْ Hüsamettin Cindoruk.

من غرائِبِ السياسَةِ الداخليَّةِ للدَّولة التُّرْكِيَّةِ، إسقاطُ هذه الحكومةِ بتُهمةِ اختلاسِ أموالٍ على خلفيَّةِ فضيحةِ (تُورْكْ بَانْكْ Türkbank)، حُلَّتِ الحكومةُ بقرارٍ صادرٍ من اللَّجْنَةِ الْبَرْلَمَانيَّةِ المختصَّةِ عَقِبَ استجوابِهَا في 11 يناير 1999م. وهي الحكومةُ الوحيدةُ التي أُسْقِطَتْ بهذه الطريقةِ في تاريخِ تركيا.

لقد كان إنقلابُ 12 سبتمبر زعزعَ النظامَ فاختلَّ التوازنُ السياسِيُّ جَرَّاءَ تأثيراتِهِ الهدَّامَةِ فازدادتِ السلبيَّاتُ في فترةِ الحكوماتِ الإئتلافيَّةِ إلى حدودٍ بعيدةٍ فأثارتْ خياراتٍ سياسيَّةً متشدِّدةً في أوساطِ الأحزابِ الهامشِيَّةِ، فَانْتَعَشَ التيَّارُ النَّقْشَبَنْدِيُّ وَالنُّورْجِيُّ من جديدٍ، وبدأتْ جماعاتٌ صوفيَّةٌ متطرِّفةٌ تستعرضُ على الصعيدِ السياسِيّ أفانينَهَا من الْمَكْرِ واستغلالِ المقدَّساتِ الإسلامِيَّةِ، والعبثِ بالدِّينِ والقِيَمِ السامِيةِ.

انعقدتْ حكومةٌ ائتلافيَّةٌ أُخرى برئاسَةِ بُولَنْدْ أجَاوِيدْ، يوم 28 مايو 1999م. شاركتْ فيها ثلاثةُ احزاب: "الحزبُ الديمقراطِيُّ اليسارِيُّ DSP"، وحزبُ الحركةِ القوميَّةِ MHP، وحزبُ الوطنِ الأمّ ANAP... إلاَّ أنَّها كانتْ هي الأُخرَى فاشلةً لسوءِ الحالةِ الإقتصادِيَّةِ التي تعرَّضتْ لها تركيا في هذهِ المرحلةِ. فما لبثَ حتَّى حُلَّتْ يومَ 18 نوفمبر 2002م. عقب قرارٍ اتُّخِذَ لإجراءِ انتخاباتٍ مُبَكِّرَة.

***

- حزبُ العدالةِ والتنمية AKP

بعد مرحلةٍ طويلةٍ من تعاقُبِ أزماتٍ سياسِيَّةٍ، وصراعاتٍ أيديولوجيَّةٍ، وإنقلاباتٍ عسكريَّةٍ دامتْ على الساحة التُّرْكِيَّة طوالَ النصفِ الثاني من القرنِ العشرين، بدأ يهبُّ نسيمُ الهدوءِ على النظامِ السياسِيّ في هذا البلدِ مع بِدَايَةِ القرنِ الحادِي والعشرين، خاصَّةً بعد صعودِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ إلى سُدَّةِ الحُكْم.

لا شكَّ في أنَّ تركيا مرَّتْ منذُ قيامِ "النظامِ الجمهورِيّ" بتجارُبَ قاسيةٍ تركتْ آثارًا عميقةً في مُخَيِّلَة المجتمعِ، وأكسبتْ بِخَاصَّةٍ رجالَ السياسَةِ مهارةً ولَبَاقَةً في العملِ السياسِيّ. وقد يَعُدُّ أهلُ الإختصاصِ في العلومِ السياسيَّةِ والإجتماعيَّةِ هذا التطوَّرَ من "ثمراتِ النُّضْجِ الديمقراطِيّ التُّرْكِيّ"، وربما يصفون المرحلةَ بأيَّامِ التصالُحِ لِمُكوّنَاتِ الشعبِ (مِنْ تُرْكٍ وَكُرْدٍ وَعَرَبٍ؛ وسُنِّيّ وَعَلَوِيّ..)، إلاَّ أنَّ هذه النظرةَ الخاطفةَ إلى الْمَشْهَدِ دون مَدّ الصلةِ بينهُ وبين ظروفِ المرحلةِ بوجهٍ عامّ، لاَ تَعْدُو عن لَمْحَةٍ قاصرةٍ في تفسيرِ ما يبدو اليومَ من الهدوءِ النسبيّ السائدِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة. لا بُدَّ إذنْ من إمعانِ النظرِ في الحوافزِ الداخليَّةِ والخارجيَّةِ التي تمخَّضتْ عن ارتياحٍ في الأوضاعِ الراهنَةِ على مستوَى البلدِ، ليظهرَ أنَّ إيجابِيَّاتِ هذه المرحلةِ معظمُها لم تكنْ من محضِ نتائجِ السياسةِ الأردوغانيَّةِ، كما لا يمكن أن تُدرجَ كُلُّها في قائمةِ النجاحاتِ لِحِزْبِ العدالةِ والتتنميَةِ. لأنَّ ظهورَ حزبِ العدالةِ والتنمية إنَّما كان من نتائجِ ظروفِ المرحلةِ، وليس العكس.. وهذا بتعبيرٍ أوضحَ وأشملَ يعني: أنَّ حزبَ العدالةِ والتتنميَةِ لم يكن هو الدافعَ الوحيدَ لاسْتِتْبابِ الأمنِ وتوفيرِ أسبابِ الهدوءِ والاستقرارِ والانفتاحِ في تركيا، وإنَّما كان له دورٌ نسبِيٌّ في ذلك. لأنَّ أيَّ حزبٍ آخرَ لو كان من نصيبِهِ أنْ يتولَّى الحكمَ في هذه المرحلةِ لَحَظِيَ بقسطٍ من النجاحِ (على أقلّ تقديرٍ)، إنْ هو استطاعَ مسايرةَ مستجدَّاتِ الظروفِ بأقصَى قدرٍ من الانتباهِ والحيطة.

هذه المرحلةُ هي التي مهَّدتِ السبيلَ لظهورِ حزبِ العدالةِ والتنميَةِ بخصوصيَّاتِها الاستثنائيَّةِ وتطوُّراتِها التي دفعت بِتُرْكِيَا إلى الأمامِ في الشرقِ الأوسطِ، فاجتمعتْ خلالَ ظروفِهَا أسبابٌ متضافرةٌ (مُعْظَمُهَا مُعدَّةٌ في الخارج، ضَخَّتْهَا قُوَى عَمِيقَةٌ!) أدَّتْ إلى تدهورِ الديانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ، فَحَوَّلَتْهَا إلى أيديولوجيةٍ فَاشِلَةٍ بعد أن كان دينًا متكاملاً يطغَى بظِلاَلِهِ على الإسلامِ. كانتْ في الحقيقةِ ظهرتْ قَبْلَ ذلك علاماتُ الشيخوخَةِ في جسمِ الدِّيَانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ بظهورِ أسبابٍ (أُخرَى داخليَّةٍ) وبعدَ صراعاتٍ مَرِيرَةٍ دامتْ قُرَابَةَ عصرٍ بين الأقلّيةِ الكماليَّةِ الحاكمةِ وبين النقشبنديّين، فأنْهَكَتِ الطُّغْمَةَ الحاكةَ والنظامَ حتَّى انتهتْ بغلبةٍ نسبيَّةٍ للجبهةِ الصوفيَّةِ قبل موتِ زعيمِها (نجم الدين أربكان).

هناك ثلاثةُ أسبابٍ لها دورٌ كبيرٌ في استقواءِ حزبِ العدالةِ والتنمية على الصعيدِ السياسِيّ واندفاعِهِ إلى الأمامِ فَوْرَ صعودِهِ على سُدَّةِ الْحُكْمِ. أوَّلُها: أنَّ الحزبَ التزمَ في سياستِهِ الإقتصادِيَّةِ بنفسِ السياسَةِ التي طالَمَا يَتَبَنَّاهَا كلٌّ من الولاياتِ المتحدةِ الأميرِكِيَّةِ، والمجموعةِ الأوروبِيَّةِ. وهذه السياسةُ ترتكزُ على أصْلَيْنِ، وهمَا: الرَّأْسْمَالِيَّةُ الْبَحْتَةُ؛ والاعتمادُ على الطبقةِ الْبُرْجُوَازِيَّةِ؛ وثاني هذه الأسبابِ:

أنَّ الحزبَ استغلَّ مفهومَ الدِّينِ في سياستِهِ الداخليَّةِ، فتودَّدَ إلى النقشبنديّينَ والنورسيّينَ وبقيةِ القطاعاتِ المحافظةِ التي تتكوَّنُ منها أغلبيَّةُ الشعب. وثالثُ هذه الأسبابِ: أنَّ الحزبَ أقدمَ على وضعِ مشروعٍ لِحَلِّ الأزمةِ الكردِيَّةِ، فبدأ يُنَفِّذُهُ من خلالِ مفاوضاتٍ مع رأسِ منظَّةِ (بي كَ كَ)، مع وجودِ عقباتٍ خطيرةٍ اعترضتْ سبِيلَهُ في المرحلةِ الأخيرة.

وإنَّما انتهجَ الحزبُ الاتِّجاهَ الرأسماليَّ في سياسَتِهِ الإقتصاديَّةِ، لكونِهِ الخيارَ الوحيدَ الذي تعتمد عليه الحياةُ في الغربِ بعد انتهاءِ مرحلة الحرب الباردة. وهذه المماشاةُ كان دافعًا لإحساسِ الغربِ بشيءٍ من الثقةِ تجاهَ تركيا في عهدِ حزبِ العدالة والتنمية. إنَّ هذه الْمُضَاهَاةَ وما مهَّدَها مقدَّمًا من أسبابٍ متعاقبَةٍ وتطوُّراتٍ متلازمةٍ في الداخلِ والخارجِ، تبرهن على أنَّ حزبَ العدالةِ والتنميةِ ليس إلاَّ وليدَ استحالةٍ أفرَزَهَا واقعُ المرحلةِ بصورةٍ شبهِ طبيعيَّةٍ رجحتْ فيها كفةُ الْحِزبِ على كفةِ الْكماليّين بمساعدةِ قُوَى غربِيَّةٍ. بيدَ أنَّ الغربَ أخذتْ تتحفَّظُ وتحتاطُ في علاقاتِها مع الحزبِ منذ عام **2013**م.

***

لاَ بدَّ هنا من الرجوعِ إلى فترةِ ما قبلَ ظهورِ الحزبِ، لِمَدِّ الصلةِ بين ماضيهِ وحاضرِهِ، وتوضيحًا للمشهدِ على حقيقتِهِ.

لقد كان قادةُ الجيشِ دائمًا يتوقَّعونَ تطوُّرًا يُقلِّصُ نطاقَ هيمنتِهِمْ على الدولةِ والمجتمعِ، يتخوَّفون من أنْ تُفْلِتَ الحكومةُ المدنيَّةُ من قبضتِهِمْ فتتخطَّاهم وتتعاونَ مع شبكاتٍ سياسيَّةٍ في الخارج دون مشاورةِ الجيشِ واعتمادِهِ. لكنَّهم لَمَّا أيقنوا بِفَشَلِهِمْ أمامَ النقشبنديّين منذُ عقودٍ (لم يكن حزبُ العدالة والتنميةِ يومئذ شيئًا مذكورًا)، لجأت (عصابةٌ مُتَخَفِّيَةٌ في قلبِ القوات المسلَّحةِ) إلى حيلةٍ خطيرةٍ للإنقضاضِ على المنطقةِ الكرديَّةِ وعلى الجماهيرِ الصوفيَّةِ في الوقتِ ذاتِهِ لِتُعَرْقِلَ "الْخَطَرَ" الذي تتوقعه الطُّغْمَة الكماليَّةُ الحاكمةُ! فجنَّدَتْ في سنة **1978**م. شرذمةً منْ مُغَفَّلِي شبابِ الأكرادِ لتستغلَّهم تحتَ ستارِ التمرُّدِ على النظامِ فتتذرَّع بمثلِ هذه المؤامرةِ لِسَحْقِ الأكراد وَلِدَحْرِ الحركةِ الأَرْبَكَانِيَّةِ من الساحة. لكنَّ المؤامرةَ تمخضتْ عن نَتَائِجَ عكسِيَّةٍ فعاد النظامُ الكماليُّ (الْعَلْمَاوَثَنِيُّ) مغلوبًا على أمرِهِ بعد ثلاثين عامًا من الْقِتَالِ، وذلك مع ظهورِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ، فكان سببًا هامًّا لزعزعةِ الحُكمِ الكماليِّ وتدهورِ الدِّيَانَةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ.

هذهِ التطوراتُ فَسَحَتِ المجالَ لعددٍ من الشخصيَّاتِ الذين اكتسبوا حُنْكَةً في السياسةِ وبرعوا في مقارَعَةِ الخصومِ أيَّامَ صراعِهِم في صفوفِ أنصارِ أربكان ضدَّ غطرسةِ الأَتَاتُورْكِيِّين، يأتي على رَأسهم رجب طيّب أردوغان. بَرَزَ أردوغان على المسرح السياسِيّ بعد مرحلةٍ قضاها في مدرسةِ نجم الدين أربكان، فَتَتَلْمَذَ على يده سنين حتى وَجَدَ الشبَحَ الأَتَاتُورْكِيَّ وقد شاخَ فتحوَّلَ إلى عجوزٍ شَمْطَاءَ لم يَعُدْ يتهيَّبُهَا المواطنُ التُّرْكِيُّ. في غضونِ هذه الظروفِ الْمُوَاتِيَةِ استطاعَ أردوغان أن يشرعَ في تأسيسِ حزبٍ يتألَّفُ من عناصرَ مختلفةٍ من فصائلِ الشعبِ، يجمعُهُمْ حبُّ الإنعتَاقِ من قيود الوضعِ الراهن.

قام رجب طيب أردوغان مع خمسةٍ من رِفَاقِهِ بتأسيسِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ في **14** أغسطس **2001**م. وهم: عبد الله غول Abdullah Gül، وعبد اللطيف شنار Abdullatif Şener، وإدريس نعيم شاهين İdris Naim Şahin، وبن علي يِلْدِيرِيمْ Binali Yıldırım، وبُولَنْدْ آرِينجْ Bülent Arınç . كان الغرضُ من تأسيسِ هذا الحزبِ (في الحقيقَةِ): أنْ يَمْلأَ الفراغَ الذي تَرَكَهُ حِزْبَانِ من الأحزابِ السياسيَّةِ المحافِظَةِ باليمينِ الوسطِ (عَاجَلَهُمَا الفَشَلُ لعدَّةِ أسبابٍ سوفَ يُجَلِّيهَا لوقتها تاريخُ الغد!). وهما حزبُ الفضيلةِ وحزبُ الوطنِ الأمِّ. لكنَّ أردوغان أعلنَ في الوهلةِ الأولَى عن وِجْهَةِ مسيرتِهِ السياسيَّةِ من خلالِ استعراضاته البلاغية، وتشدقاته التي لم تكن إلاَّ رمادًا يزروه في وجوه الناسِ ببعضِ مقولاتٍ أبرزُها: "نَحْنُ كُلُّنَا تُرْكِيَا" وقولُهُ: "نحن نَزَعْنَا قَمِيصَ (مِلِّي جُورُوشْ) مِنْ جِسْمِنَا"، لِيُلْفِتَ بذلك انتباهَ الجمهور بأنَّ حزبَه لن يكون امتِدادًا لأيِّ حزبٍ خلا من قَبْلُ. أرادَ بذلك إيهامَ الجبهةِ "العلمانيَّةِ" خاصَّةً في معرضِ إزالةِ الشكوك: بِأنَّ حزبَهُ مستعدٌّ للتعاونِ مع جميعِ الأحزابِ، وأنَّه يحتضِنُ المجتمعَ بكلِّ فصائلِهِ، وأنَّه يرفضُ التزمُّتَ الدينيَّ ونحو ذلك بُغْيَةَ تَهْدِئَةِ الكماليّين والعلويّين والسيساريّين، تلاعبًا بعقولهِمْ، وهَرَبًا من شرّهم، واتقاءَ هجماتِهِمْ وهو في بدايةِ أمره.

كانت تركيا في هذه المرحلة تعاني من أزماتٍ حادَّةٍ في الداخلِ والخارج، جَرَّاءَ النظامِ الكمالِيِّ الفاشِل، بعد أن تعاقبتْ على سُدَّةِ الْحُكمِ انقلاباتٌ عسكريَّةٌ وأُطيحتْ بحكوماتٍ مدنيَّةٍ. فتدهورتِ الحالةُ الإقتصادِيَّةُ، ودبَّ الْمَلَلُ في صفوفِ الجيشِ التُّرْكِيِّ في مواجهةِ تنظيمِ (بِي كَ كَ) والحربُ سجالٌ بين الطرفين مدةَ ثلاثين عامًا دون جَدْوَى. كان من حظِّ أردوغان أنَّه قفز على المسرحِ السياسِيِّ في هذهِ الظروفِ الغامِضَةِ التي خابتِ الآمالُ في غمارِها والشعبُ ينتظر مُنْقِذًا يَظْهَرُ فيأخذ بِيَدِهِ.

انطلقَ أردوغان لِيَبْدَأَ مغامرتَهُ وقد تلبَّدتِ العلاقاتُ السياسِيَّةُ في الداخلِ والخارجِ إلى حدودٍ خطيرةٍ وانسدَّتْ جميعُ قنواتِها بسببِ الفجواتِ التي حدثتْ بين الأحزابِ السياسِيَّةِ وما أسفرَ عنها من شقاقٍ وتنازُعٍ في صفوفِ الشعب. لم تشهدْ تركيا احتقاناً في مَسَالِكِهَا السياسيَّةِ إلى هذا الحدِّ من التعقيدِ في أيِّ مرحلةٍ من ذي قبلٍ. إنَّما كان هذا المشهدُ المأساوِيُّ بِمَنْزِلَةِ إعلانٍ عن إفلاسِ النظامِ الكماليِّ (الْعَلْمَاوَثَنِيِّ) والأيدْيُولُوجِيَّاتِ الْمُنْبَثَقَةِ منه ليس إلاَّ.

نهضَ أردوغَان لِيخوضَ غِمارَ المنافسةِ السياسيَّةِ من خلالِ هذا الضبابِ السائدِ على أجواءِ تركيا، فلم يتخوفْ ولم يتزمَّرْ حين اصطدمَ بتُهمةٍ وَاهِيَةٍ دَفَعَتْهُ إلى السجنِ لِمُدَّةِ عَشْرَةِ أشهرٍ، بل كانت أيَّامُهُ في السجنِ فرصةً مكَّنَتْهُ من التركيزِ على بَرْنَامَجِهِ، والاستعدادِ لِمُوَاجَهَةِ العقباتِ التي تنتظرُهُ في المستقبلِ القريبِ.

في غضون ذلك تولَّى عبد الله غول قيادةَ الْحِزْبِ وقامَ بتشكيلِ أوَّلِ حكومةٍ من حزبِ العدالةِ والتنميةِ بعد موافقةِ رئيسِ الجمهوريَّةِ أحمد نَجْدَتْ سِيزَارْ Ahmet Necdet Sezer في 18 نوفمبر 2002م. ثُمَّ بعد فترةٍ دخلَ أردوغان الْبَرْلَمَانَ نائبًا عن مدينةِ (أَسْعِرْدَ Siirt) بعد انتخابٍ تَجْدِيدِيٍّ في 08 مارس 2003م. على أثرِ استِقَالَةِ النائب (مروان غول) فتسلَّمَ قيادةَ الحزبِ، واحتلَّ منصبَ رئيسِ الوزراءِ في 15 مارس 2003م.

استغلَّ أردوغان هذا المشهدَ الذي أَلْهَمَهُ في بدايةِ أمرِهِ أنْ يتجنَّبَ جميعَ الوِجْهَاتِ السياسِيَّةِ الْمُجَرَّبَةِ من قِبَلِ الأحزابِ والحكوماتِ اليمينيةِ السابقةِ. فلم يستخدمْ في خطاباتِهِ وهُتَافَاتِهِ وتصريحاتِهِ شيئًا مِمَّا يبعثُ الشكوكَ في حِيَادِهِ وشعبيَّتِهِ. اهتمَّ في شعاراتِهِ دائمًا: بِ"أنَّ حزبَهُ حزبُ الجمهورِ"؛ حزبُ جميعِ المواطنين على اختلافِ أعراقِهِمْ وانتماءاتِهِمْ الدينيَّةِ والثقافيَّةِ والإجتماعيَّةِ.." وضمَّ إلى صفوفِ قيادةِ الحزبِ شخصِيَّاتٍ يختلفون في انتماءاتِهِمْ الفكريَّةِ، مع ذلك استمرَّ الحزبُ في مسيرتِهِ السياسيَّةِ بِهُدُوءٍ، وفي أعمالِهِ بتنسيقٍ مدَّةَ عقدٍ كامل. كان ذلك مِمَّا اشتاقهُ المجتمعُ طوالَ أربعين عامًا في تاريخِ البلاد.

لقد كان أردوغان مرَّ بعديدٍ من محطَّات السياسَةِ منذُ عُنْفُوَانِ شبابِهِ؛ انضمَّ إلى حركةِ الشبيبةِ التابعةِ للأحزابِ السياسِيَّةِ التي أسَّسها أربكان، فكان له دورٌ فعَّالٌ في توعيتِهَا، وقيادتِهَا، وتوجيهِها، ودفعِها إلى مظاهراتٍ ونشاطاتٍ ميدانيَّةٍ، ونشرِ الدعوةِ إلى نظريَّةِ أربكان المعروفةِ بِ"مِلِّي

جورروش Milli Görüş". ثم تولَّى منصبَ رئاسةِ بلديَّةِ إسطنبول، فترك في أثناءِ هذه المهمَّةِ سُمْعَةً إيجابيَّةً بخدماته النَّهْضَوِيَّةِ التي كان لها أثرٌ كبيرٌ في تحسين أوضاعِ المدينةِ. فكان رصيدُهُ من التجاربِ موفورًا. التَحَقَ بجماعةِ أربكان في وقتٍ مُبَكِّرٍ من حياتِهِ وشهدَ نضالَهُ ومعاناتَهُ مع رِفاقِهِ، والإضطهادَ الذي ذاقوا مرارتَهُ على يد الطُّغْمَة الكماليَّةِ في الْمُدَّةِ التي قضوا معظمَها محرومين من السياسةِ. امتلأ قلبُهُ ألَمًا وهو يتابعُ هذه المشاهِدَ، ولكنَّ الأحداثَ حَنَّكَتْهُ، فتعلَّمَ أنَّ الإسراعَ في الإنتقامِ ليس من الحكمةِ في شيءٍ، فرتَّبَ خطواتِهِ بِأَنَاةٍ وتَمَهُّلٍ وهو يتربَّصُ بالطُّغْمَة الحاكمة، كان ذلكَ سببًا هامًّا في نجاحِهِ منذُ انطلاقِهِ وعلى مَدَى ثمانيةِ أعوامٍ من قبضِهِ على زمامِ الحكم.

كانت تركيا قبلَ أَرْدُوغَان وفي عهدِهِ مُرتبطةً بمعسكرِ الغربِ ارتباطًا وثيقًا كعضوٍ في حلفِ (ناتو Nato)، وساحةً مفتوحةً لمشاركاتِ الغربيّين ونشاطاتِهِمْ في مجالاتٍ مختلفةٍ. وهذا يعني أنَّ تركيا لم تكنْ لها استقلاليَّة تامَّةٌ في سياستِها الخارجيَّةِ بخاصَّةٍ، ولا حتَّى في عمومِ سياستِها الداخلِيَّةِ. بل كان شأنُها شأنَ جميعِ "الدُّوَلِ التابعةِ". إنَّ هذا الوضعَ لم يتغيَّرْ في أيِّ مرحلةٍ من تاريخِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ. ولهذا لا يجوزُ منطقيًّا أن يُعزَى كلُّ الْمُحَصَّلاَتِ السياسيَّةِ إلى الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ مباشرةً، ولا إلى شخصيَّاتٍ قادوا هذهِ الحكوماتِ، وبرزوا بثِقَلِهِمْ وحضورِهم، وتفوَّقوا بنجاحاتِهِمْ وإنجازاتِهِمْ. بل كانت قضايا تركيا السياسيَّةُ معظمُها (ولا تزالُ) مُسَيَّرَةً بتوجيهاتٍ غيرِ محسوسَةٍ من مراكِزَ استراتيجِيَّةٍ للغربِ!

وهذا يرمزُ لنا بعضَ الشيءِ إلى الدورِ الذِي قامَ به أَرْدُوغَان – وفقَ المناهجِ والبرامجِ المرسومةِ له من قِبَلِ هذه المراكز–. فانْدَفَعَ إلى الأمامِ بإملاءٍ من الاتِّحاد الأوروبِيِّ خاصَّةً حتَّى إذا اشتدَّ ساعِدُهُ اغترَّ بما نالَ من مساعداتِ شبكاتٍ وتحالفاتٍ غربيَّةٍ فبدأ يرفعُ صوتَهُ في غيرِ أوانه! لكنَّ من حظِّهِ (وقد يُعدُّ من مهاراتِهِ ومن حصيلةِ تجارُبِهِ) أنَّه استوزرَ عددًا من أنجحِ رجالاتِ السياسَةِ، يأتي على رأسِهم الأستاذُ الدكتور أحمد داود أوغلو الذي عَاضَدَهُ برصيدِهِ العلمِيّ من جانبٍ؛ وَبِحَذَاقَتِهِ في تَقْيِيمِهِ لِلأَحْدَاثِ، وتفاعُلِهِ مع أساطينِ السياسَةِ على الأصعدةِ الدُّوَلِيَّةِ من جانبٍ آخر. فعادتِ السياسةُ الخارجيَّةُ التُّرْكِيَّةُ تمتازُ بالمرونةِ بفضلِ آرائِهِ واقتراحاتِهِ الزاخرةِ بضروبٍ من الحلولِ والتفاهمِ والتعاون. حتى إذا بدأ أَرْدُوغَان يتهاونُ بكلِّ رأْيٍ بعد نجاحِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ عقب الإنتخاباتِ الْبَرْلَمَانيَّةِ عام. **2007**م. وهي الحملةُ الثانيةُ التي خرج الحزبُ مهنا بنجاح.

قد يتسائل البعضُ عن الأسبابِ الرئيسَةِ التي أولدتْ حزبَ العدالةِ والتنميةِ؛

في الواقعِ، كانتْ هناكَ دوافِعُ كثيرةٌ وأسبابٌ متلازمةٌ تُثِيرُ الأملَ في الرأيِ العامّ المحلِّيّ منذ فترةٍ؛ ينتظرُ المجتمعُ ظهورَ حركةٍ سياسيَّةٍ متميِّزةٍ تحتضنُ الجمهورَ بكلِّ طوائفهِ وتتفاعلُ معه. هذا الإنتظارُ اشتدَّ بخاصَّةٍ بعد ثورة 28 فبراير التي كان من أهمّ أهدافِها تأصيلُ الوصايةِ العسكريَّةِ على الحكوماتِ المدنيَّةِ بحيث "تكونُ الكلمةُ لِلْجيشِ نِهَائِيًّا وبصورةٍ مطلقةٍ إلى الأبد" (على حدّ قول الجنرال تشَوِيكْ بِيرْ Çevik Bir). فما لبثَ حتَّى ظهرَ الحزبُ كردِّ فعلٍ على هذه الغطرسةِ وهو يستعدُّ للقيامِ بِمُعَالجَةِ أكبرِ مشكلةٍ تعانيها الدولة التُّرْكِيَّةُ عَبْرَ تاريخِهَا. يستعدُّ للقضاءِ على هذا السرطان الذي يتمثَّلُ في قِلَّةٍ تَتَحَكَّمُ في سلطةِ البلادِ منذُ ثمانين عامًا.

أدركَ رجب طيب أردوغان – في وقتٍ مُبَكِّرٍ ومن خلالِ تجارُبِهِ– مدى أهَمِّيَّةِ المصدر الذي طالَمَا كانتِ الطُّغْمَة الكماليَّةُ الحاكمةُ تستمدُّ قوَّتَها منه في الإطاحةِ بالحكوماتِ واغْتِصَابِ السلطةِ واحتواءِ المسرحِ السياسيّ بِطُرُقٍ مُلَفَّقَة. وهذا المصدر – لا شكَّ – يتجسَّدُ في شبكاتٍ استخباراتيَّةٍ وتَحَالُفَاتٍ عسكريَّةٍ غَرْبِيَّةٍ تقوم بنشاطاتٍ سِرِّيَّةٍ وجهريَّةٍ في الشرقِ الأوسطِ، لها أجَنْدَاتٌ واستراتيجيَّاتٌ وأهدافٌ خطيرة. كان ولا يزالُ من أهمّ أعمالِهَا: مواصلةُ الغزوِ الثقافِيّ، وَدَعْمُ مشاريعِ الاسْتِشْرَاقِ لتطبيعِ المجتمعاتِ وتوجيهِهَا في هذه المنطقةِ بالتعاون مع عُمَلاَءِهَا الْمُتَحَكِّمِين في سلطةِ هذهِ البلادِ من جنرالاتٍ، وحكوماتٍ وأقلِّيَّاتٍ حَاكِمَة!.. انتبهَ أردوغان إلى أنَّه لن ينجحَ في سياستِهِ إذا اسْتَغْنَى عن هذهِ الشبكاتِ مهما كان حكيمًا في تسيِيرِ الأمورِ، فأدْرَكَ أنَّ نجاحَهُ مُوَكَّلٌ بالتعاونِ مع قِمَّةِ هذا المصدر. فسعى إلى تقويةِ الأواصرِ مع الاتِّحاد الأوروبِيّ الذي يرتبطُ به ذلك المصدرُ المعهودُ، ويخضعُ لأوامرِهِ وتعليماتِهِ.

بدأتْ حكومةُ أردوغان تُرَحِّبُ بِكُلِّ طلبٍ واردٍ من الاتِّحاد الأوروبِيّ أَمَلاً في موافقتِهِ على عضويَّةِ تركيا للإتِّحاد، فبادرتْ بأصدارِ سلسلةٍ من قوانينَ تُحَدِّدُ مُهِمَّةَ كبارِ قادةِ الجيشِ، وتقلِّصُ من دوافعِ ظهورِهم، وتَطَاوُلِهِمْ على السياسَةِ، كلُّ ذلك بتوجيهٍ وإِمْلاَءٍ من الاتِّحاد الأوروبِيّ. فاضطرَّتْ القواتُ المسلَّحَةُ التُّرْكِيَّةُ بعد ذلك أن تلتزمَ جانبَ الطاعةِ والإنصياعِ للحكومةِ بشكلٍ ملحوظٍ ولأوَّلِ مرَّةٍ في تاريخ البلاد.

هكذا استطاعَ أردوغان أن يفرضَ هيمنتَهُ على الجيشِ ويكبَحَ جِمَاحَهُ في وجهِ حكومتِهِ، غير أنَّ تنظيمًا سِرِّيًّا سُمِّيَ فيما بعد بـ"تنظيمِ أرْجَنَكُونْ Ergenekon الإرهابِيَّةِ" كان يومئذٍ لا يزالُ يتخفَّى

داخِلَ صفوفِ القواتِ المسلَّحةِ، يتربَّصُ بحكومةِ أردوغان وَحِزْبِهِ ويتحيَّنُ الفرصةَ لينقضَّ عليهما في أيّ وقتٍ يتأتَّى له ذلك. كما كان في برنامجِ هذا التنظيمِ قَمْعُ الجماعاتِ النقشبنديَّةِ، والنورسيَّةِ؛ وسحقُ الأكرادِ... إلاَّ أنَّ عيونَ منظمةٍ أخرى شبهِ سريةٍ (عُرفتْ فيما بعدُ بِالحشَّاشِين الجُدُد، كذلك "بِالْمُنَظَّمَةِ الْفَتُّوشِيَّةِ")، كانوا قد تسلَّلُوا منذُ فترةٍ إلى جِهَازَيِ الأَمْنِ وَالقضاءِ بالتعاوُنِ مع حزبِ العدالَةِ والتنميَةِ!، تَمَكَّنُوا من الوصولِ إلى أوكارِ هذا التنظيمِ العسكرِيّ لأوَّلِ مرَّةٍ في **12** يونيو **2007**م. وعندما كَشَفَتِ الشرطةُ (التابعةُ لِلْفَتُّوشِيّين) على كمياتٍ من الزخيرة والعتادِ في منطقةِ الْعُمْرَانيَّةِ بمدينةِ إسطنبول، وَثَبَتَ أنَّ أفرادَ تنظيمِ (أرْجَنَكُونْ العسكريَّةِ) هم الذين تَلَبَّسُوا بِتَخْزِينِهَا بُغْيَةَ استخدامِهَا في مؤامراتٍ ضِدَّ الحكومةِ. أُلْقِيَ القبضُ فورَ ذلك على جماعةٍ من الضُّبَّاطِ الْمُشْتَبَهِ بِهِمْ في تكوينِ هذا التنظيم وتَسْيِيسِهِ. وكان بينهم عددٌ من أصحابِ الرُّتَبِ العالية. صدرتْ في أعقابِ هذه العمليَّةِ أحكامٌ بِاعْتِقَالِهِمْ، وحُكِمَ على مُعظَمِهِم بعقوباتٍ صارمة. غير أنَّ أردوغان تعرَّضَ لانتقاداتٍ لازعةٍ مِنْ قِبَلِ أحزابِ المعارضةِ، فَاتَّهَمَتْ حكومتَهُ بأنَّها كانت هِيَ وراءَ الإعتقالات. كما صدرتْ عن هذه الأحزابِ تنديداتٌ بـ"تصرُّفاتِهِ الجافِيَةِ، وَلَهْجَتِهِ القاسِية". وطالَمَا طعنَ معارضوهُ في أسلوبِهِ "بأنَّ لَهْجَتَهُ عنيفةٌ، وأنَّ كلامَهُ يخلو عمومًا من القولِ اللَّيّنِ، وأنَّه غيرُ لطيفٍ في تعامله...". لكنَّ رجب طيّب أرْدُوغَان لم يعتدَّ بهذه الإدعاءاتِ، كما كانت رُدُودُهُ عليها عنيفةً دائمًا.

ظهر فيما بعدُ، أنه لم يكنْ لـ"تنظيمِ أرْجَنَكُونْ Ergenekon" من الوجودِ في شيءٍ، وإنما كان اسمًا اختلقها التنظيمُ الْفَتُّوشِيُّ واتخذها ذريعةً لتصفيةِ الكماليّين من الجيشِ التركِيّ كأولِ خطوةٍ، وتمهيدًا للقضاءِ على حكومةِ أردوغان كخطوةٍ ثانيةٍ، ثم احتواءِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ، وصهرِ الديانةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ في بَوْتَقَةِ الْمَسِيحِيَّةِ في نهايةِ المطاف.

امتازَ حزبُ العدالة والتنمية بين الأحزابِ السياسيَّةِ التُّرْكِيَّة بشعبيَّتِهِ، ولَقِيَ قبولاً واسعًا لدى طبقاتٍ محافظةٍ على اختلافِها. مَكَّنَهُ ذلك من تحقيقِ مشاريعَ ضخمةٍ زاد من ثقة مؤيّدِيهِ به، فحصل بفضلِ هذه الثقةِ على **326** مقعدًا من أصلِ **500** مقعدٍ في الْبَرْلَمَانِ التُّرْكِيّ عَقِبَ الإنتخاباتِ العامَّةِ لسنة **2011**م. وقد كان الحزبُ ظَفَرَ قبلَ ذلك بِـ **365** مقعدًا في إنتخاباتِ عام **2002**م. و**341** مقعدًا في إنتخاباتِ عام **2007**م.

لا شكَّ في أنَّ تركيا انتقلتْ من وضعِ دولةٍ تابعةٍ مغمورةٍ إلى قوَّةٍ إقليميَّةٍ ذاتِ وزنٍ على الصعيدِ الدُّوَلِيّ بعد الإصلاحاتِ التي قامَتْ بِهَا حكومةُ حزبِ العدالةِ والتنميةِ خلالَ أحدَ عَشَرَ عامًا من حُكْمِهَا. عاشَ البلدُ سنواتٍ من الانفتاحِ والازدهارِ نتيجةَ نجاحاتٍ باهرةٍ حقَّقتْها في تلك الفترة؛ يأتي على رأسِها: تسويَةُ النِّزاعاتِ مع دولِ الجوارِ، كما أنَّ الإعترافَ بهويةِ الأكرادِ، وَرَفْعَ الحظرِ المفروضِ على الحجابِ الذي ترتديهِ الطالباتُ والموظَّفَاتُ، كان لهما أثرٌ كبيرٌ في التصالحِ الإجتماعِيّ وحلِّ المشاكلِ الداخليَّةِ مِمَّا أدَّى إلى ارتياحٍ في العلاقاتِ وفتحِ أبوابِ الحوارِ بين أطرافِ النِّزاعِ. سادَ الإستقرَارُ واسْتَتَبَّ الأمنُ الداخلِيُّ خاصَّةً بعد اتصالِ الحكومةِ برؤوسِ تنظيمِ (بي كَ كَ) وإعلانِ الْهُدْنَةِ بين الطرفين عَقِبَ إجراءِ مفاوضاتٍ معهم في الخارج. سُمِّيَتِ الفترةُ بعد ذلك بـ"مرحلة السلام".

تمكَّنَ حزبُ العدالةِ والتنميةِ – بحُكمِ غالِبِيَّتِهِ العَدَدِيَّةِ في الْبَرْلَمَان –، تمكَّنَ من تعديلِ بعضِ الشيءِ في الدستورِ، بعد الحصولِ على موافقةِ الشعبِ بطريقِ الإستفتاءِ عام **2010**م.، كما تَمَكَّنَ من إصدارِ سلسلةٍ من القوانين أُزِيلَتْ بِهَا عَقَبَاتٌ بِيرُوقْرَاطِيَّةٌ كانت تُعَرْقِلُ حياةَ المواطن. توفَّرتْ فُرَصٌ كثيرةٌ للناسِ بعد تلك الإصلاحاتِ، واتَّسَعَ الوقتُ لأداءِ المهامّ وإنهاءِ الأعمالِ في حدودِها الزمنيَّةِ مِمَّا أدَّى ذلك إلى ارتياحٍ وطمأنينةٍ في النفوسِ، وازديادٍ في الإنتاج.

هذا، ومن أهمِّ الإصلاحات التي حقَّقتْها حكومةُ حزبِ العدالةِ والتنمية: كانت تدابيرُها الإداريَّةُ التي أكسبتْ أجهزةَ الدولةِ ومؤسَّساتِها حركةً ونشاطًا في إنهاءِ الإجراءات وقضاءِ حاجاتِ المواطنين بسرعةٍ، فاختفَّتْ بعد هذه التدابيرِ تلك الصفوفُ المتراصَّةُ التي كانت من قَبْلُ تقومُ أمام الدوائرِ الرسْمِيَّة كلَّ يومٍ، وتبعثُ الإرهاقَ والإحراجَ والْمَلَلَ في النفوس.

على رغم هذا التفوُّقِ والنجاحِ الذي امتازَ به حكومةُ أردوغان في مسيرتِها السياسيَّةِ قُرَابةَ عقدٍ من الزمن، يبدو اليومَ أنَّها أمام مفترقِ الطُّرُقِ وهي تُعَانِي من أزماتٍ يجوز وصفُها بإرهاصاتٍ تُنْبِئُ عن احتمالاتٍ خطيرةٍ تنتظرُها في المستقبلِ القريب.

أخذتْ تركيا في الإنْحدارِ هبوطًا بعد أن شهدتْ نهضةً اقتصاديَّةً ما بين **2002**م.–**2013**م. أيَّام حكومةِ أردوغان، بدأ هذا الإنْحدارُ بعد ما أقْحَمَ أردوغان نفسَهُ في مغامراتٍ حَمَاسِيَّةٍ جريئةٍ، بعضُها كانتْ دِعَائِيَّةً، وبعضُها اغترارًا بالنفسِ والْهَوَى وانْزِلاَقًا مع أحلام اليقظة. إنَّ أوَّلَ خطوةٍ خالفَ فيها

وجهَ الصوابِ كانتْ عندما بدأ في تعبئَةِ جَبْهَتِهِ بـ"الْمُتَدَيِّنِينَ!"، وهم الجماعات الصوفِيَّةُ الوثنيةُ طبعًا (النَّقْشَبَنْدِيُّون والنُّورْسِيُّونَ وأتْبَاعُ رَجُلٍ مُشَعْوِذٍ اشتهر في الأوانِ الأخِيرَةِ).

علينا أنْ نعودَ قليلاً – بهذه المناسبة – إلى الماضِي القريبِ ونذكُرَ عاقبةَ الدولةِ العثمانيَّةِ لِنَفْهَمَ أصلَ المشكلةِ بمقارنةٍ صحيحةٍ بين اليوم والأمس. وهي أنَّ تلك الدولةَ العملاقةَ كانتْ قد وقعتْ في آخر أيَّامِها بيدِ شرذمةٍ من الْمُشَعْوِذِين. فوجدتِ القلَّةُ اليهودِيَّةُ (الدُّونْمَا، الْمُنْدَسَّةُ في صفوف المجتمعِ) وجدتْ يومئذٍ فرصةً سانِحَةً للانقضاضِ على أولياءِ أمورِ الأغلبيَّةِ "الْمُتَدَيِّنَةِ"، فحقَّقوا آمالَهم بالتعاون مع حلفاءِهِمْ (الإنجليز والفرنسيِّين والإيطاليّين) حين بنوا دولةً جديدةً (وهي الجمهوريَّةُ التُّرْكِيَّة) على أنقاضِ هذه الدولة الْمُدَمَّرَةِ. ثم تطوَّرتِ الأمورُ وتعاقبتِ الْمَرَاحِلُ على مَدَى ثمانين عامًا حتَّى تحوَّلَتْ تلك القِلَّةُ اليهوديَّةُ الحاكمةُ هي الأخرَى إلى كُتْلَةٍ من "الْمُتَدَيِّنِين" والْمُنْهَمِكِينَ في إقامةِ طقوسٍ وَثَنِيَّةٍ عند ضريحِ مصطفى كمال لَدَى كلّ مناسبةٍ. فيبدُو أنَّ هذا التحوَّلَ الدورِيَّ الذي يتناوبُ عليه الطرفانِ المتنافسانِ في احتكارِ سلطةِ الدولةِ التُّرْكِيَّة، يبدو كأنَّهُ من الأقدار المفروضةِ عليهما أنْ يكونَ (التَّدَيُّنُ الوثنِيُّ) هو القاسمَ المشتركَ بين الطرفين! مهما تغيَّرَتِ الأوضاعُ وتطوَّرَتِ الأحوالُ. فالعجبُ كلَّ العجبِ من تناقضاتِ هذه الحكومةِ أنَّ رئيسَها (الْمُتَدَيِّنَ!) يحاولُ مستميتًا ليربطَ بَلَدَهُ بالمجموعَةِ الأوروبيَّةِ (التي لا يؤمن أولياءُ أمورها بالشعوذة، كما ليس للتَّدَيُّنِ قيمةٌ في اعتبارِهِمْ) على عكسِ أردوغان الذي يَدِينُ بِ(الْمُسْلُمَانِيَّةِ) التي تتمثَّل في ركامٍ من القبوريَّةِ والشَّعْوَذَةِ والْبِدَعِ... مع العلمِ أنَّ هذه الدِّيَانَةَ لا تمتُّ بصلةٍ إلى الإسلامِ، وإنْ تقمَّصَتْ بألْفِ وشاحٍ مستعارٍ من الإسلامِ الذي سَمَّاه الله تعالى في كتابه "الإسْلاَمَ" في قولِهِ تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ. (آل عمران/**19**)"!

لعل (الْمُسْلُمَانِيَّةَ) هذهِ الديانةَ المزوَّرَةَ، هي التي تدفعُ بالرئيسِ الوزراءِ التُّرْكِيِّ سابقًا (والرئيسِ الجمهورية راهنًا) إلى مَهَاوِي الخزلانِ والإنحرافِ، يدلُّ على ذلك أنَّه ارتكبَ أكبرَ شناعةٍ حين استجابَ لدعوةِ الرئيسِ الأميركِيِّ جُورجْ بُوشْ George Bush عام **2004**م. في ترويجِ "مشروعِ الشرقِ الأوسطِ الكبيرِ The Project of the Great Middle East" الذي يَتَبَنَّى إجراءَ تعديلٍ شاملٍ على الدِّينِ الإسلامِيّ، كما يهدفُ إلى تحديدِ شكلِ العالَمِ الإسلامِيّ، وفرضِ نَمَطِ الحياةِ الْغَرْبِيَّةِ على المسلمين.

هذا، وكان من أهمّ الأخطاءِ التي تَوَرَّط فيه أردوغان (الْمُتَدَيِّنَ)، أنَّه استعانَ بِأهلِ الشعوذةِ والخرافِيِّن (الْمُتَدَيِّنِينَ) من الصوفيَّةِ في تكوينِ صفوفِهِ. لعلَّ ذلك كان بدافعِ صلةِ "التَّدَيُّنِ" الْمُمْتَدَّةِ بين الطرفين.. أراد – اعتمادًا على هذه الصلةِ – أن يستمدَّ منهم قوَّتَهُ في كفاحِ الكماليِّين (الْمَارِقِينَ فِي نَظَرِهِ!) وَدَحْرِهِمْ عن المسرحِ السياسِيّ، ولكنَّ الصوفِيَّة الحشاشيَّةَ (على حدِّ تعبيره) أوقعوهُ في حبالِهِمْ يوم **17** ديسمبر **2013**م. وهو اليوم يُحَاوِلُ لِيتَخَلَّصَ منهم.

وكان أيضًا من أهمّ أخطاءِ رجب طيّب أردوغان (في سياسَتِهِ الخارجيَّةِ) أولاً: أنَّه رفعَ صوتَهُ في غيرِ أوانِهِ حين قَدَّمَ نفسَهُ بطلاً لِلْمَلاَيِينِ المغفَّلِين وَالْغَوْغَاءِ في العالَمِ العربِيّ، فَأَرْبَكَهُمْ حتَّى اغترُّوا به، وَبِأَنْفُسِهِمْ، فثاروا بِالْعِصِيِّ على "عملاقِ الْكُفْرِ: (الْحِلْفِ الْمَسِيحِيّ–اليهودِيّ الْعَالَمِيّ) الذي لو بَصَقَ عليهم لَغَرَقُوا في بُصَاقِهِ! كما أخطأ ثانيًا: حين تلطَّخَ بِوَحَلِ السياسَةِ الْعَرَبِيَّةِ الفَاشِلَةِ، وتَمَرَّغَ فيه فانحازَ إلى طائفةٍ "مُتَدَيِّنَةٍ!" منهم، وَنَسِيَ الأغلبيَّةَ الساحقةَ التي لا تزال تَتَنَاحَرُ فيما بينها منذُ انفجارِ أعاصيرِ "الخريفِ العربِيّ" التي أودتْ بحياة الملايين. هذا المشروع زجَّ بِحُكُومَةِ أردوغان وَسَطَ أزمةٍ معقَّدةٍ في الداخل والخارجِ، كما جعل الدولةَ التركيّةَ مهددةً بتبعاتِهِ في هذه الأيَّام. ورغمَ الأزَمَاتِ الرهيبةِ الَّتي تراكمتْ على ظهرِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ حَاوَلتْ حكومةُ رجب طيّب أردوغان لتُزَيِّنَ المشهدَ في عينِ الرأيِ العامّ الْمَحَلِّيّ والعالَمِيّ بأنَّ المجتمعَ التركيَّ يعيش في جوٍّ من الهدوءِ والأمنِ والطمأنينَةِ، ويتقلَّبُ في نعيمٍ يحسُدُهُ العالَمُ (؟!) مارستِ الحكومةُ هذه الحيلةَ باسمِ الحرِّيَةِ، وهي في الواقع حريَّةٌ تبدو عابرةً تنتظرُ ساعتَها لتتحوَّلَ إلى فتنةٍ لن تتمكَّن قوَّةٌ من ضبطِها إلاَّ أميركا وإسرائل!

لقد بدأت إرهاصاتٌ تُنْذِرُ بعودةِ أيَّامِ الإخفاقِ والإضطراباتِ إلى الساحة التُّرْكِيَّةِ مرَةً أخرى بعد هذه الأخطاءِ وغيرِهَا، رغم جهودِ أردوغان[291] في النهوضِ بِتُرْكِيَا، وإنجازاتٍ ضخمةٍ حقَّقَهَا حزبُ العدالةِ والتنميةِ في مختلفِ المجالاتِ. هذه عاقبةُ كل ابتكارٍ، ولكل بدايةٍ نهاية.

[291] ولد رجب طيب أردوغان يوم **26** فبراير **1954**م. بمدينةِ إسطنبول (حيّ قاسم باشا). هو سليلُ أسرةٍ متواضعةٍ من عامَّة الشعبِ. تنحدرُ عائلتُهُ من أصلٍ جورجِيٍّ على الأرجح، بحسب ما أدْلَى به في بعضِ تصريحاته. اعتنق آباؤُهُ (الْمُسْلُمَانِيَّةَ) قديمًا وانْدَمَجُوا في المجتمعِ العثمانِيّ. وقد تطاول عليه بعض الْمُغْرِضِينَ بادِّعاءاتٍ واهية: أنَّهُ يهودِيُّ الأصلِ، بينما هذا لا يمنع أن يكون أسلافُهُ قد اعتنقُوا الإسلامَ أو المسلمانيةَ ونبذوا عقائِدَهُم القديمةَ وتبرَّؤوا منها، فتسقطَ أمثالُ تلك الإدِّعاءاتِ من الإعتبار.

أقامتْ أسرتُهُ حُقْبةً طويلةً في مدينةِ (ريزة Rize) الكائنةِ على ساحلِ البحرِ الأسودِ بمنطقةِ شمالِ شرقِي تركيا، كان أبوه موظَّفًا في إدارةِ أمنِ السواحلِ والحدود.

عاد أردوغان إلى الموطنِ الأصلِيّ (محافظةِ ريزة) مع أسرتِهِ وهو طفلٌ وقضَى فيها ثلاثةَ عَشَرَ عامًا، ثم استقرَّتْ أسرتُهُ في إسطنبول. فَنَشَأَ فيها واستأنفَ دراسَتَهُ في ابتدائيَّةِ (بِيَالَه بَاشَا Piyale Paşa) وتخرَّجَ فيها عام **1965**م.. بذل جهودَهُ في النهوضِ بنفسِهِ لأَلاَّ يُثْقِلَ كاهلَ أبيهِ أحمد الذي كان يقومُ بِحَمْلِ أعباءِ أسرةٍ

تَضُمُّ سبعةَ أشخاصٍ بِدَخْلٍ طفيفٍ جدًّا. باعَ في شوارعِ إسطنبول: البطِّيخَ، والحلوَى، وعصيرَ الليمون، والسِّمِيطَ (وهو كعكٌ بالسِّمْسِمِ)... لِتَوْفِيرِ كُتُبِهِ ولَوَازِمِهِ المدرسِيَّةِ. التحقَ بثَانَوِيَّةِ إسطنبولَ لِلأئمَّةِ وَالخُطَبَاءِ، كان يشاركُ في مُعْظَمِ النشاطاتِ الثقافيَّةِ والْمُسَابَقَاتِ المدرسيَّةِ كالْمُنَاظَرَةِ، وإنشاءِ مقالاتٍ، وألعابِ القُوى وبطولاتِ كُرَةِ الْقَدَمِ ونحوِها حتّى أكملَ دراسَتَهُ المتوسِّطَةَ وتخرَّجَ عام **1973**م. غير أنَّهُ لم يتمكَّنْ من الإلتحاقِ بأيّ جامعةٍ لِعَقَبَاتٍ تَعْتَرِضُهُ. فَأَثَّرَ ميولَه بممارسةِ الرِّيَاضَةِ.

كان أردوغان في صِبَاهُ شغوفًا بِكُرَةِ الْقَدَمِ، وكان لاعباً شِبْهَ مُحْتَرِفٍ في سبعينيَّات القرن الماضي. التحقَ بنادي (جَامِع أَلْطِي Camialtı) لِكُرَةِ القدم سنة **1969**م. وعُمْرُهُ يومئذٍ خَمسةَ عَشَرَ عامًا. ثم انتقلَ إلى نادِي شركةِ (İETT) التابعِ لِبَلَدِيَّةِ إسطنبول، ولَعِبَ ضمنَ فَرِيقِهِ فترةً. في غضون ذلك (وعمره **24** عامًا) تعرَّفَ بِصِدْفَةٍ على السيِّدَةِ أمينة كُولْبَارَانْ Emine Gülbaran في أثناءِ محاضرةٍ للكاتبةِ شُعْلَة يُوكْسِيلْ Şule Yüksel، ولم يلبثْ طويلاً حتّى تزوَّجَ منها في **04** يوليو **1978**م. (وهي عَرَبِيَّةُ الأصلِ) فأنجبتْ له ابْنَيْنِ (أحمد، وبلال)، وابْنَتَيْنِ (أسرى، وسُمَيَّة). ثم تركَ الرياضَةَ بعد الانقلابِ العسكريِّ سنة **1980**م. وعملَ في بعضِ شركاتٍ تجاريَّةٍ خاصَّةٍ فترةً قصيرةً. ثم التحقَ بالقواتِ المسلَّحةِ لأداءِ الجُنْدِيَّةِ الإجباريَّةِ بِرُتْبَةِ ملازم عام **1982**م. عادَ بعد انتهائِهِ من الوظيفةِ العسكريَّةِ إلى عملِهِ السابقِ، واحتلَّ منصبَ المديرِ العامّ للشركة.

كان أردوغان يريدُ أن يواصلَ دراستَهُ العليا إلاَّ أن الشهادةَ التي حصلَ عليها من ثانويَّةِ الأئمَّةِ والخطباءِ كانت غيرَ صالحةٍ لالتحاقِهِ بأيِّ جامعةٍ يومئذٍ. إذ كانتِ الحكوماتُ الأَتَاتُورْكِيَّةُ السابقةُ قد سدَّتِ الطريقَ على الشبابِ "الْمُتَدَيِّنِينَ" من الوصولِ إلى مناصبِ القرارِ والتوجيهِ في أجهزةِ الدولة. فَالْتَحَقَ بالثانويَّةِ المدنيَّةِ في حيِّ أبي أيوبِ الأنصاري، وتخرَّجَ فيها، ثمَّ أنْهَى دراستَهُ العُليا أخيرًا في كلِّيَّةِ العلومِ الإقتصاديَّةِ التابعةِ لجامعةِ مرمرة، قسمِ التعليمِ اللَّيْلِيِّ، وكان يطارد أعماله المعاشيَّةَ نَهارًا.

خاضَ أردوغان غِمَارَ السياسَةِ في سنٍّ مُبَكِّرٍ، إذ كان طالبًا في الثانوية وعمره **18** عامًا. شاركَ في النشاطاتِ الطُّلاَّبِيَّةِ أولاً، فانخرط في صفوفِ الاتِّحادِ القوميِّ لِلطَّلَبَةِ الأتراك Milli Türk Talebe Birliği. ثُمَّ التحقَ بفَرِيقِ الشبيبةِ التابعِ لحزبِ السلامةِ القوميِّ فرع بَيُوغْلُو سنة **1976**م. فَتَتَلْمَذَ سنين على يد نجم الدين أربكان ونال ثِقَتَهُ، وشاركه في نشاطاتِهِ السياسِيَّةِ إلى أنْ أطاحَ الجيشُ بالحكومةِ وَحُلَّتْ جميعُ الأحزاب.

ولَمَّا تَمَكَّنَ النقشبنديُّونَ من إنشاءِ حزبِ الرفاهِ سنة **1983**م. ليواصلَ المسيرةَ التي انقطعتْ بإلغاءِ حزبِ السلامةِ القوميِّ في **16** أكتوبر **1981**م. عاد أردوغان إلى الحياةِ السياسيَّةِ واحتلَّ منصبَ مسؤولِ الحزبِ لِفَرْعِ بَيُوغْلُو عام **1984**م. ثم ارتقَى إلى منصبِ مسؤولِ الحزبِ لِمدينةِ إسطنبول، ثم أصبح عضوًا في اللَّجنةِ المركزيَّةِ لِلحزب. تَرَشَّحَ للنِّيابَةِ الْبَرْلَمَانيَّةِ في الانتخاباتِ الفرعيَّةِ عام **1986**م. وكان حزبُ الرفاهِ يومئذ ثانِيَ الأحزابِ السياسيَّةِ، إلا أنَّهُ لم يَفُزْ بالدخولِ إلى الْبَرْلَمَانِ. عاد فَرَشَّحَ نفسَهُ في انتخاباتِ عام **1991**م. ولكنَّ المجلسَ الأعلَى للانتخاباتِ رفض – هذه المرَّةَ– الموافقةَ على فوزِهِ.

لم يمل أردوغان رغمَ العَقَبَاتِ التي حَاوَلَ النظامُ لِيُعَرْقِلَهُ لدَى كلِّ قفزةٍ يقصِدُ بها تحقيقَ هدفٍ من أهدافِهِ، كما كان موقفُ النظامِ من أستاذِهِ في السياسَةِ (نجم الدين أربكام). ولكنَّ أردوغان دامَ يتحدَّى النظامَ فترشَّحَ في الانتخاباتِ الْمَحَلِّيَّةِ التي جَرَتْ في **27** مارس **1994**م. بعد تلك الهزائمِ التي مُنِيَ بِهَا من قبلُ، فتغلَّبَ على مُنَافِسِيهِ واحتلَّ منصبَ رئيسِ بلديَّةِ إسطنبول. كان هذا الحدثُ نقطةَ تحوُّلٍ في حياتِهِ السياسيَّةِ. من هنا بدأ نجمُهُ يتألَّقُ. سجَّلَ نجاحًا مُنْقَطِعَ النظيرِ في النهوضِ بمدينةِ إسطنبولَ، شهدتِ المدينةُ في عهده ازدهارًا بالغًا، كما تخلَّصتْ بلديَّةُ اسطنبول من ديونها التي بلغتْ مليارَيْ دولار، إلى أرباحٍ واستثماراتٍ، وَبِنُمُوٍ بَلَغَ **7**%.

كان أردوغان ضمن فريقِ أربكان على امتدادِ أعمالِهِ الساسيَّةِ مُشَارِكًا في الأحزابِ الأربكانيَّةِ الثلاثَةِ (حزبِ السلامةِ، وحزبِ الرفاهِ، وحزبِ الفضيلةِ). ولكنَّه بدأ يختلفُ مع بعضِ أعيانِ حزبِ الفضيلةِ في الرأيِ والتفكير. أدَّى ذلكَ إلى انشقاقِ المؤسِّسين إلى فئتين: التَّجْدِيدِيِّين، وَالتَّقْلِيدِيِّين. كان أردوغان على رأسِ النازعين إلى التجديد. فلمَّا نَشِبَ الخلافُ بين الطرفين (قُبَيلَ إلغاءِ حزبِ الفضيلةِ) قامَ أردوغان مع رفاقِهِ بتأسيسِ حزبِ العدالةِ والتنمية. كانت محكمةُ أمنِ الدولة قد فتحتْ في غضون ذلك **18** ملفًّا للتحقيقِ معه، غير انَّ الحظَّ حَالَفَهُ بسببِ حَصَانَتِهِ الْبَرْلَمَانِيَّةِ، إذ تمَّ تجميدُ تلك القضايا إلى أجل غير مسمى. لكنَّ النِّظامَ الكماليَّ دامَ يتتبَّعُ أثرَ أردوغان تتبُّعًا حثِيثًا لِيُوقِعَهُ في كمينٍ على حين غِرَّةٍ منه، فاتَّفَقَ أنْ أنشدَ أردوغان أبياتًا للشاعر ضياء كوكالب Ziya Gökalp أثناءَ خطابٍ ألقاهُ في مدينة (أَسْعِرْدَ Siirt)، يوم الثاني عَشَرَ من شهرِ ديسمبر عام **1997**م. والأبياتُ هي:

مساجدنا ثَكَنَاتُنَا * قِبَابُنَا خُوذَاتُنَا
مآذِنُنَا حِرَابُنَا * والمصلُّون جنودُنا
هذا الجيشُ المقدَّسُ * يحرس دينَنَا.

وما إن انتهى من خطابه حتى أسرع القضاءُ إلى التحقيق معه فأصدرتْ محكمةُ أمنِ الدولةِ بمدينة ديار بكر قرارًا بِسِجْنِهِ مُدَّةَ **4** أشهر، بحجةِ أنه أجَّجَ الفتنةَ باستغلالِ المفاهيمِ الدينيَّةِ ودخل بذلك تحتَ طائلة قانون العقوباتِ مادة **2/312**. يقول الكتور واءل ميرزا: "منذ ثمانية عشر عامًا حُكِمَ على رجب طيب أردوغان، رئيس بلدية إسطنبول يومها، بالسجن أربعة أشهر بعدما قال أبياتًا من الشعر رأت فيها محكمة "ديار بكر" تحريضًا على قلب النظام العلماني وإثارة مشاعر الحقد الديني بين أفراد الشعب. وفي طريقه إلى السجن خاطب الرجل أنصارهُ بقوله: "وداعًا أيها الأحباب، وداعًا لوقت قصير، تهانيَّ القلبية لأهالي إسطنبول بعيد الأضحى، تهانيَّ القلبية للشعب التركي بعيد الأضحى، تهانيَّ القلبية للعالم الإسلامي بعيد الأضحى المبارك، متمنيًا لهم كل الخير، كما أهنئ أهالي هذه البلدة التي سأبقى ضيفاً فيها لمدة **120** يومًا". ثم أضاف قائلًا: "إنني لست ممتعضًا، ولا حاقدًا ضد دولتي، ولم يكن كفاحي إلا من أجل سعادة أمتي، وسأقضي وقتي خلال هذه الأشهر الأربعة في دراسة المشاريع التي توصل بلدي إلى أعوام الألفية الثالثة، والتي ستكون إن شاء الله أعوامًا جميلة، ولكن ذلك يحتاج منا جهدًا كبيرًا وعملًا شاقًا، وسأعمل بجدٍ داخل السجن، وأنتم اعملوا خارج السجن كل ما تستطيعونه. ابذلوا جهودكم لتكونوا معماريين جيدين وأطباء جيدين، وحقوقيين متميزين، أنا ذاهب لتأدية واجبي، واذهبوا أنتم أيضًا لتؤدوا واجبكم، إن الشعب يستطيع بتجربته التاريخية الواسعة أن يرى كل شيء ويقيم كل شيء بشكل صحيح، وما يجب عمله الآن ليس إعطاء إشارة أو رسالة إلى الشعب، وإنما الفهم الصحيح لما يريده الشعب. بعد كل هذه السنوات، جاء وقت "إعطاء إشارة أو رسالة إلى الشعب" في تركيا، ومن قِبَلِ أردوغان نفسه. فلم يخيب الشعب ظن رئيسه، وكان له دورٌ أساسي في إحباط الانقلاب العسكري على الرجل وحكومته". يشير الكاتبُ إلى الإنقلابِ العسكري الفاشل الذي حدث يوم **15** يوليو **2016**م. المصدر: /http://www.turkpress.co

استقبل أردوغان قرارَ الْمَحْكَمَةِ بِهدوءٍ وسكينةٍ، وألقى خطابًا يومَ غَادَرَ منصبَ الرئاسةِ لِبَلَدِيَّةِ إسطنبول قبلَ أنْ يودِّعَ الناسَ إلى بلدةِ (بِنَارْ حِصَارْ (Pınarhisar) ليقضي هناك أيامَ سِجْنِهِ. قال في كلمته:

"وداعًا أيها الأحباب، تهانِيَّ القلبيَّةَ لأهالي اسطنبول، وللشعبِ التُّرْكِيِّ، وللعالَمِ الإسلاميِّ بِعيدِ الأضحى المبارك. سأقضِي وقتِي خلال هذهِ الشهورِ في دراسةِ المشاريعِ التي سوفَ تُوصِلُ –إنشاء الله تعالى– بلدي إلى أعوامِ الألفيَّةِ الثالثة، التي ستكون بعون الله أعوامًا زاهرةً، سأُرَكِّزُ اهتمامِي داخلَ السجن، وأنتم اعملوا خارجَ السجن باستعدادٍ تامٍّ. اُبْذُلُوا جهودَكم لتكونوا معماريِّين ناجحين، وأطبَّاءَ مُتَفَوِّقِين، وحقوقيِّين متميِّزين. أنا ذاهب الآن لأداءِ واجبي، فاذهبوا وانصرفوا أنتم أيضاً لِتُؤَدُّوا واجبكم. أستودعكم الله تعالى وأرجو أن تسامحوني وتدعوا لي بالصبر والثبات كما أرجو أن لا يصدرَ منكم أيُّ احتجاجٍ أمامَ مراكزِ الأحزابِ الأخرى وأن تمرُّوا عليها بوقارٍ وهدوء، إيَّاكُمْ أنْ تقوموا بمظاهراتٍ واحتجاجاتٍ واستنكاراتٍ لِتُعَبِّرُوا بها عن ألَمِكُمْ! بل استعدُّوا لأجلِ تحقيقِ الأهدافِ الساميةِ عن طريق صناديق الاقتراع في المقبل القريب إن شاء الله".

دخل رجب طيب أردوغان السجنَ يوم **26** مارس **1999**م. وأُطْلِقَ سراحُهُ يوم **24** يوليو **1999**م. شاع أنَّهُ قال – وهو في الْمُعْتَقَلِ– "هذهِ الأغنيةُ لن تَنْتَهِيَ هنا!Bu şarkı burada bitmez". كناية عن أنَّهُ لن يَبْرَحَ حتّى يُحَقِّقَ هَدَفَهُ الذي يحلُمُهُ!

بعد فترةِ الاستعدادِ قام أردوغان بتأسيسِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ مع رِفَاقِهِ في **14** أغسطوس **2001**م. وانْتُخِبَ رئيسًا للحزب. دخلَ الحزبُ خِضَمَّ الانتخاباتِ لأوَّلِ مرةٍ يوم **03** نوفمبر **2002**م. فَنَافَسَ بقيَّةَ الأحزاب وفاز بالأسبقيَّةِ رغم حداثةِ عهدِهِ. ولكنَّ أردوغان لم يَكُنْ قد تمكَّنَ من الدخولِ إلى الْبَرْلَمَانِ بسببِ الْحَظْرِ السياسيِّ الذي كان قد فَرَضَ عليه القضاءُ، فتكوَّنتِ الحكومةُ بالضرورة تحت رئاسةِ عبد الله غولٍ. شرعتِ الحكومةُ بإِعْدَادِ مشروعِ لِقانونٍ يَتَبَنَّى رَفْعَ الحظرِ عنه، إلاَّ أنَّ رئيسَ الجمهوريَّةِ أحمد نَجْدَتْ سيزار Ahmet Necdet Sezer رَفَضَ اعتمادَهُ، فعادتِ الحكومةُ أحالتْ عليه النَّصَّ القانونيَّ نَفْسَهُ ثانيةً. عندها اضطرَّ سيزار للموافقة عليه، فدخل أردوغان إلى الْبَرْلَمَانِ نَائِبًا عن مدينةِ أسعردَ بعد الإنتخاباتِ الجزئيَّةِ التي أُجْرِيَتْ في هذه المدينةِ يوم **09** مارس **2003**م.

كانت الأجهزةُ السياسيَّةُ والقضائيةُ تواطأت فيما بينها بِخَلْقِ أَشْكَالٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ أمامَ أردوغان لِمَنْعِهِ من الدخولِ إلى الْبَرْلَمَانِ إلاَّ أن الْحَظَّ حَالَفَهُ حينَ فُوجِئَ بِفُرْصةٍ استغلَّها رغمَ كلِّ التدابيرِ التي اتَّخَذَها الكماليُّونَ ضِدَّهُ؛ ذلك أنَّ نصابَ الْمُرَشَّحِينَ عن مَدِينَةِ (أَسْعِرْدَ) كان مُحَدَّدًا بثلاثَةِ أشخاصٍ، فاتَّفَقَ حزبُ العدالةِ والتنمِيَةِ مع أحدِ مرشَّحِيهِ (وهو مروان غول Mervan Gül) على أنْ يَسْحَبَ تَرْشِيحَهُ لِيَفْسَحَ المجالَ أمامَ أردوغان، ففعلَ الرَّجُلُ، ونالَ مُكَافَأَتَهُ فيما بعد! ودخل أردوغان هكذا إلى الْبَرْلَمَانِ وتَسَلَّمَ رئاسَةَ الحزبِ من عبد الله غول.

احتلَّ أردوغان منصبَ رئيس الوزراءِ للحكومة الْمُنْبَثَقَةِ من حزب العدالة والتنمية يوم **14** مارس **2003**م. واستمرَّ في هذا المنصبِ حتّى ارتقى إلى منصبِ رئيس الجمهورية للدولة التركية يوم **28** أغسطس **2014**م.

الحَرَكَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ فِي تُرْكِيَا

الإِسْلاَمِيُّونَ؛ الْحُنَفَاءُ الْوَسَطِيُّونَ؛ الأُصُولِيُّونَ.

الإِسْلاَمِيُّونَ

إنَّ الدَّمّارَ المادِّيَّ الذي تعرَّضتْ له الأمَّةُ بعد الحربِ العالميَّةِ الأولى على يد (الحلفِ المسيحيِّ– اليهودِيِّ العالميِّ) من الخارج، فتحَ مجالاً واسعًا لِدَمَارٍ آخَرَ معنويٍّ في الداخلِ، على يد أشخاصٍ وجماعاتٍ من أبناءِ الأمَّةِ بالذَّات. ذلك لَمَّا خَلَتِ الساحةُ من أهلِ العلمِ الحقيقيّين كنتيجةٍ للدَّمَارِ المادّيِ، ما لبثَ حتَّى حلَّ محلَّهم رموزٌ من المنتحِلينَ، أكثرُهُمْ من الصوفِيَّةِ، فَتَهَافَتَ عليهم جموعٌ غفيرةٌ من الْحُثَالَةِ، وطارَ صيتُهم، وأُسِّسَتْ جمعِيَّاتٌ وشَرِكَاتٌ وقنواتٌ إذاعيَّةٌ، وأصْدِرَتْ صُحُفٌ ومجلاَّتٌ لِتَفْخِيمِ قَدْرِ هؤلاءِ المنتحِلينَ، ولِتَشْجِيعِ الإقبالِ عليهم، فتطوَّرَ الأمرُ حتَّى نشأتْ داخِلَ صفوفِ كلٍّ من هذهِ الجماعاتِ شرذمةٌ من السياسيّين، والكُتَّابِ، والخطباءِ، والأُدباءِ يساهمون في حملاتِ الدِّعَايَةِ للجماعةِ وشَيْخِهَا. أُطْلِقَ على هؤلاءِ اسمُ الإسلاميين İslamcılar (في تركيا)، يأتي على رأسِهم أفرادُ الأحزابِ التي أسَّسَها نجم الدين أرْبَكَانْ، وجَمْهَرَةٌ من الكُتَّابِ الصوفيّين، والْمُحَامِين، والإقتصاديّين، ورجالِ العملِ الذين انحازوا إليهم وَوَقَفُوا في صفوفِهِمْ، ودافعوا عنهم، وساهموا معهم في عِرَاكِهِم السياسيِّ.

امتاز أردوغان بشخصيَّةٍ قويةٍ صارمةٍ استطاعَ أن يفرِضَ نفسهُ على كلِّ من التقى به مشاركًا ونصيرًا كان أو خصمًا وعدوًّ... كان جريئًا حازمًا في كلِّ المواقفِ، لم يقبَلِ الانصياعَ والخنوعَ لدعوةٍ إلاَّ إذا كان مُقْتَنِعًا بِهَا، ولا لقرارٍ إلاَّ إذا كان تَرْتَاحُ له نَفْسُهُ. كان شديدَ اللَّهْجَةِ قاسِيًا في ردودهِ. لم يعرفِ الْمَلَلَ وهو يحاوِلُ تحقيقَ هدفٍ من أهدافِهِ، لم يلجأْ إلى مُجَامَلَةٍ في دعوتِهِ لأحدٍ مهما كان الموقفُ حَرِجًا والْمَدْعُوُّ ذو مكانةٍ. استطاعَ أنْ يُزِيلَ كلَّ عَقَبَةٍ اعترضَ سبيلَهُ إلى أنْ نالَ أعظمَ حُظْوةٍ لم يكنْ لأَحَدٍ من أمثالِهِ أنْ يَحْلُمَ بها.

أما عقيدتُهُ: فلا شكَّ في أنَّه يَدِينُ بِدِينِ آبَائِهِ كابناءِ قومِهِ. وهذا الدِّينُ هو "الْمُسْلُمَانِيَّةُ" التي نَسَجَ خيوطَهَا الأتراكُ على مَدَى ألفِ سنةٍ، وليس هو الإسلام الذي سَمَّاهُ الله تعالى وبَيَّنَهُ في كتابِهِ؛ ذلك لو سُأِلَ عن دينِهِ وعَقِيدَتِهِ، يُفْتَرَضُ أنْ يُجِيبَ أنّه مُسْلُمَانِيٌّ، مَاتُرِيدِيُّ الْعَقِيدَةِ، وَحَنَفِيُّ الْمَذْهَبِ! (بحسب ما شوهد إلى اليوم من خلال تصرفاتِهِ، ومقولاتِهِ، وتصريحاتِهِ، على مدى حياته..) كما يدلُّ ذلك على أنَّه قبورِيُّ العقيدة، وما أدَلَّ على قُبُورِيَّتِهِ تعظيمُهُ لعظامٍ نخرةٍ، حيث وَافَقَ على نقلِ رُفاتِ سليمان شاه (جدّ السلاطين العثمانية)، الذي مات غَرَقًا في نهرِ الفراتِ سنةَ **1227**م. وَدُفِنَ قُربَ قلعةِ جعبر بين الرقة وحلب. ثمَّ نقلُ رفاتِهِ يوم **22** فبراير **2015**م. (أي بعد مرور **778** عامًا على موته)، وذلك بإجراءِ عمليَّةٍ عسكرية خاطفةٍ شاركت فيها مائةُ عَرَبَةٍ عسكريَّةٍ منها **39** دبابة، وعليها **572** جنديًّا، لقي أحدُهم مصرعه أثناء العملية. كلُّ ذلك لإنقاذِ ضريحٍ لأحدِ أجدادِ آلِ عثمانَ، من ساحة الحروب التي تجري على الأراضي السورية، ونَقْلِهِ إلى مكانٍ آمن. ويُشكِّكُ بعضُ المؤرِّخين في الروايات الرسميَّةِ عن الغرضِ الحقيقِيِّ من هذه العمليَّةِ قائلين: "إنّها ربما لُفِّقَتْ لاحقًا لإثراءِ هويَّةٍ تُرْكِيَّةٍ امبراطوريَّةٍ ثم هويَّةٍ وطنيَّةٍ! والله أعلم بالسرائر.

اشتهرتْ هذه الشرذمةُ "الْمُثَقَّفَةُ" بِوَصْمَةٍ فِي مُصْطَلَحِ السياسةِ المعاصرة، وهي: "الإِسْلاَمِيُّون". والجديرُ بالإشارةِ أنَّ هذه التَّسْمِيَةَ كانتْ من صَنِيعِ غيرِ المسلمين ولم يكرَهْهَا الإسلاميُّون، بل استطابوها. فلا ننسَى أنَّ "مصطلحَ السياسةِ المعاصرةِ" إنَّمَا يُحَاكُ بأيدِي شبكاتِ الغزوِ الثقافِيِّ بإملاءاتٍ من (الحلفِ المسيحيّ–اليهودِيّ العالَمِيّ). وهذا يكشفُ حقيقة "الإسلاميّين" من وجهٍ عامّ، كما أنَّ أغلبُ "الإسلاميّين" في تركيا يُعلِنُونَ انتمائَهُمْ إلى "الْمُسْلُمَانِيَّةِ" (وليس إلى الإسلامِ) في كلّ مناسبةٍ. وهذا يبرهن على مَدَى صلةِ "الإسلاميّين" الأتراك بالدِّينِ الحنيفِ من وجهٍ خاصّ. ف" وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ" و"الأسماءُ تَنْزِلُ من السماء" كما في المثل!

إنَّ مُصطلَحَ "الاسلامِيُّون"[292]، موضوعُ إشكاليةٍ شِبْهِ كلاميَّةٍ دارتْ حولَهَا مناقشاتٌ اتَّخذتْ صُورَةً مِنْ لَغَطٍ عبرَ الشبكةِ العنكبوتيَّةِ. تَنَاوَلَهُ كثيرون مِمَّنْ لا رَوِيَّةَ لهم، وغابَتْ آراءُ أهلِ الاختصاصِ فيهم وَسطَ هذه الضجَّة العمياءِ. فتمحيصًا للموضوعِ، يحسنُ الإدلاَءُ بتوضيحٍ وجيزٍ للجذورِ اللُّغويَّةِ، والاستعمالِ التاريخيّ للمصطلحِ أوَّلاً، ثم كشفُ الْقِنَاعِ عن وجهِ المسألةِ باقتناءِ تعريفٍ أمثلَ لهذهِ التسميةِ، وتَخْلِيصُهَا من وسطِ الْفَوْضَى السائِدِ عليها.

إنَّ لفظَ "الإسلامِيّ": اسمٌ منسوبٌ إلى الإسلامِ، و"الإِسْلاَمِيَّةُ": "مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ لاَ يُوصَفُ بِهِ (أَيْ: لاَ يَقَعُ صِفَةً)، أَمَّا الاِسْمُ الْمَنْسُوبُ فَيُوصَفُ بِهِ؛ تَقُولُ مَثَلاً: فَقَدَ الْمُسْتَعْمِرُ إِنْسَانِيَّتَهُ، وَتَقُولُ: إِنَّمَا السُّمُوُّ الرُّوحِيُّ بِالأَخْلاَقِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ فَ(الإِنْسَانِيَّةُ) فِي الْمِثَالِ الأَوَّلِ: مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ، لأَنَّهَا غَيْرُ مَوْصُوفَةٍ؛ وَفِي الْمِثَالِ الثَّانِي: اسْمٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الإِنْسَانِ، لأَنَّهَا وَقَعَتْ صِفَةً للأخْلاَقِ. كَذَلِكَ إِذَا قُلْنَا: الرَّأْسْمَالِيَّةُ مَذْهَبٌ غَرْبِيٌّ، وَقُلْنَا الْمَذَاهِبُ الرَّأْسْمَالِيَّةُ دَخِيلَةٌ عَلَيْنَا؛ فَكَلِمَةُ الرَّأْسْمَالِيَّةِ فِي الْمِثَالِ الأَوَّلِ: مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ، وَفِي الْمِثَالِ الثَّانِي: كَلِمَةٌ مَنْسُوبَةٌ. وَلَعَلَّكَ لاَحَظْتَ وُقُوعَهَا صِفَةً فِي حَالِ كَوْنِهَا اسْمًا مَنْسُوبًا. إِذَنْ الاِسْمُ إِذَا كَانَ صِفَةً فَهُوَ اسْمٌ مَنْسُوبٌ. وإِذَا كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ مَصْدَرٌ صِنَاعِيٌّ غَالِبًا"[293].

لم تَرِدْ كلمةُ "الإسلامِيَّةِ" في الكتابِ والسنَّةِ. أمَّا لفظُ "الإسلاميّين"، فأغلبُ الظنّ، أنَّ أوَّلَ مَنْ نَطَقَ بها هو أبو الحسن الأشعرِيُّ. وهو إنَّما أرادَ باستعمالِ هذه الكلمةِ أنْ يُنَبِّهَ الأمةَ على خطرٍ لم تَعْهَدْهُ من ذي قبل. لقد واجه المسلمون في عصر الأشعرِيّ تحدّيًا رهيبًا لأفكارٍ وعقائدَ دخيلةٍ، على رأسِها

[292] بالإعرابِ المحكيّ!

[293] المصدر: فريد صلاح الهاشمي، المعجمُ الموسوعيُّ الفريد لألفاظِ اللغة العربية؛ باب الميم/ المجلّد: **41**. غير مطبوع حاليًّا.

الفلسفةُ وهي تستعدُّ لاحتواءِ العقيدةِ الحنيفةِ، فنهضَ وَانْبَرَى للدِّفَاعِ عنها بمقالاتِهِ، وليُمَيِّزَ بين المسلمينِ الذين اعتمدوا الإسلام دينًا، ودستورًا للحياةِ، وبين الذين اعتبروه آليةً لأغراضٍ كلاميَّةٍ في جدالِهِمْ. حتى إذا جاء عصرُنا ظهرتْ طائفةٌ على شاكلةِ خصوم الأشعرِيّ، بل أكثرُ هؤلاءِ متلطِّخون بأَوْحَالِ التصوُّفِ والفلسفةِ، كما أنَّهم منبهرون بالحضارةِ الغربيَّةِ، غافلين عن القدرةِ الكامنةِ في الإسلامِ التي إذا تَفَطَّنَ لها المسلمون كفُّوا عن التبعيَّةِ للغربيّين والتشبُّهِ بهم.

إنَّ الإسلاميّين الجُدُدَ ينظرون اليومَ إلى الإسلامِ كَمَطِيَّةٍ لأغراضِهِمْ السياسيَّةِ، ومجرَّدَ سلاحٍ يستخدمونهُ في جِدَالِهِمْ وعِرَاكِهِمْ وحُرُوبِهِم التي خاضوها وما زالوا ضِدَّ معارضيهم، فعدلوا بذلك عن سُنَّةِ الجهادِ خاصَّةً عندما أرادوا تحقيقَ أهدافٍ غَرِيبَةٍ على الإسلامِ (كالديموقراطيةِ، والتحزُّبِ، والاشتراكيَّةِ، والحوارِ بين الأديانِ) ونحو ذلك...

دخل الاسلاميُّون الأتراك في صراعٍ مريرٍ مع جبهاتٍ عديدةٍ منذ ظهورِ أربكان على المسرحِ السياسيّ، عام 1973م. أمَّا قبلَ ذلك فلم يكنْ لهم وجودٌ، فكانت القاعدةُ الشعبيَّةُ المحافظةُ تشعرُ بِحَرَجٍ بالغٍ من استبدادِ الطُّغْمَة الكماليَّةِ الحاكمةِ منذ استيلاءِ الجيشِ على الحكومةِ التُّرْكِيَّة عام 1960م. وهي تنتظر مَنْ يُنقِذُهَا من براثِنِ السلطةِ العسكريَّةِ. غيرَ أنَّها (رغمَ كثرتِهَا وتفوُّقِهَا العددِيِّ على الطُّغْمَة الحاكمةِ بأضعافٍ) كانت تُعَانِي عدمَ الكفائةِ في التنافسِ السياسِيّ مع هذه القلَّةِ الْمُتَغَلِّبَةِ. ذلك أنَّ الفقرَ الثقافِيَّ والجهلَ الْمُتَفَشِّيَ في صفوفِ هذه الكثرةِ كان قد جعلَ منها قِطْعَانًا يسيطرُ عليها عددٌ قليلٌ من الشيوخِ المشعوذين، مِمَّا سهَّل استغلالَهَا عقودًا على يدِ السياسِيّين وشيوخِ الطريقة النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، يُرَاهِنَانِ عليها خاصَّةً في مواسم الإنتخابات.

ظهر نجم الدين أرْبَكَانْ كأوَّلِ شخصِيَّةٍ "إسلاميَّةٍ" يتحدَّى الجبهةَ العلمانيةَ، وخاضَ معركَتَهُ الشهيرةَ ضِدَّها على أثرِ صحوةٍ كان قد أثارَها كاتبٌ تُرْكِيٌّ اسْمُهُ: محمَّد شَوْكَتْ أيْجِي M. Şevket Eygi منذ عام 1968م. بإصدارِ صحيفةٍ أسبوعيَّةٍ متواضعةٍ جدًّا، تَحْمِلُ عنوانَ "اليوم Bugün". هذه الصحيفةُ البسيطةُ أيقظتْ الملايينَ من القطاعِ السُّنِّيِّ المحافظِ، وبثَّتِ الوعيَ السياسِيَّ بين القاعدةِ الشعبيَّةِ بسرعةٍ وفي أمدٍ قصيرٍ. فانتهزَ أرْبَكَان هذا التطوُّرَ بانطلاقاتِهِ الشعبِيَّةِ، وخطاباتِهِ الناريَّةِ، واتِّصالاتِه المستمرَّةِ بالجمهورِ، فكان له نصيبُ الأسدِ من تأييد القطاع السنِّيّ (الصوفِيّ منها بخاصَّةٍ).

نشأتِ على يَدِ هذا القطاعِ الواسعِ جمعياتٌ ومؤسَّساتٌ مشبوهةٌ، (خيريَّةٌ في ظَاهِرِهَا، متخفِّيَةٌ وراءَ ستارِ الدِّينِ)، وشبكاتٌ إعلاميَّةٌ ضخمةٌ تتألَّفُ من صحفٍ إخباريَّةٍ، وقنواتٍ للإذاعةِ المسموعةِ والمرئيَّةِ، ومدارسَ قرآنيَّةٍ، وجامعاتٍ خاصَّةٍ... كلُّهَا تسعى لاحتواءِ الدولةِ التُّرْكِيَّة، والسيطرةِ على إقتصادِهَا، وتشويهِ الإسلاَمِ وَتَتْرِيكِهِ، ونشرِ الديانَةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ، وَالطَّرِيقَةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، وترسيخِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة، وسَحْقِ العلويّين والأكراد...

كان هذا التطوُّرُ السريعُ من نتائجِ المغامرةِ التي خاضها الإسلاميُّونَ السياسيُّونَ الأتراك في أعقابِ إنطلاقةِ نجم الدين أرْبَكَان، وقفزِهِ على المسرحِ السياسِيِّ مع بدايةِ العقدِ السابعِ من القرنِ المنصرم. لجأ الإسلاميُّونَ في تركيا إلى أبْشَعِ أشكال الحِيَلِ والخديعةِ في استغلالِ مفهوم الدِّين، وتشويهِ صورةِ الإسلامِ، والإتِّجارِ بالقِيَمِ المقدَّسَةِ. بلغتْ نشاطاتُهُم الهدَّامَةُ إلى حدودٍ يعجز اللِّسَانُ والقلمُ عن وصفِ ما ارتكبوا من صنوفِ الجِنَايَاتِ على الإسلامِ ما بين **1970** و**2014**م.

من أخطر ضروبِ خيانةِ الإسلاميّينَ الأتراك للدِّينِ المحمَّدِيّ: أنَّ أحدًا منهم لم يَنْبِسْ بِبِنْتِ شفةٍ حيالَ الديانةِ الأتاتوركِيَّةِ وطقوسِها التي تُقَامُ في جميع المدارسِ كلَّ أسبوعٍ مرَّتين على الأقل، ينتصبُ ملايينُ الطَّلَبَةِ في أثناءِها أمامَ صَنَمِ مصطفى كمال – وهذا، لا شكَّ في أنَّه كفرٌ بواحٌ، وإشراكٌ بالله تعالى–، ولكنهم أثاروا عاصفةً وقاموا بمظاهراتٍ عارمةٍ عندما منع النظامُ الطالباتِ "الْمُحَجَّبَاتِ" من الدخولِ إلى الجامعات. بينما الإشراكُ باللهِ أشدُّ الذنوبِ، وقد قال تعالى: " إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ..."[294] استخفَّ الإسلامِيُّونَ بالشركِ الأكبرِ وأقاموا الدنيا ضدَّ النظامِ، لأنه أمر الطالباتِ بالسفورِ (وهو أيضًا ذنبٌ من الكبائر لا محالةَ)، إلاَّ أنَّهُ لا يعدِلِ الإشراكَ في ميزانِ الإجرامِ، ولا يحلُّ ربقةَ الإسلامِ من عنقِ المؤمنِ. فاستخفَّ الإسلاميُّون هكذا بجريمةِ الشركِ، وتجاهلوا هذا الذنبَ العظيمَ على مَدَى عشراتِ السنينَ فتضاعفتْ جريمَتُهُمْ بذلك. قال علي ابنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: "أشدُّ الذنوبِ ما استخفَّ به صاحبُهُ". ويجبُ هنا بالمناسبةِ الكشفُ عن رذيلةٍ للإسلاميّين الأتراك أنَّهم يعادنَ عَلِيًّا بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وكرم الله تعالى وجهه، وذلك شماتةً بالرافضةِ، لكنَّهم يُسِرُّونَ هذه العداوةَ ولا يبدونها إلا إذا خلى بعضُهم إلى بعضٍ تقيَّةً على غرارِ الوهَّابيّين!

---

[294] سورة النساء/**48**، **116**.

هكذا بدأتِ الحركةُ الاسلاميَّةُ بل "الإسْلاَمَوِيَّةُ" في التطوُّرِ والتوسُّعِ على الساحةِ التُّرْكِيَّة، وكانتْ انعكاساتُها على الحياةِ الاجتماعيَّةِ كثيفةً وعنيفَةً، وآثارُها خطيرةً. يأتي على رأسِها نشاطاتُ الجماعاتِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، واستغلالُها لِمفهوم الدِّينِ، واتِّجارُها بالقِيَمِ المقدَّسةِ...

إنَّما نَشأتْ هذه الطائفةُ (الإسْلاَمَوِيَّةُ) – في حقيقة الأمر – بدافعِ القهرِ والطغيانِ الذي مارستْهُ الطُّغْمَة الكماليَّةُ الحاكمةُ ضِدَّ الإسلامِ ومقدَّساتِهِ طوالَ ستِّين عامًا. فكان ظهورُ الإسلامِيِّينَ كانفجارٍ اجتماعِيٍّ لدفعِ هذه الطُّغْمَة ودحرِهَا عن ميدانِ السياسَةِ. كان هذا هو المتوَقَّع. غير أنَّ الأحداثَ بعد غلبةِ الإسلاميّين وقَفْزِهِمْ على السلطةِ، أخذتْ مجراها بعكسِ ذلك تمامًا. فما إنْ دبَّتِ الهزيمةُ في صفوفِ الكمالِيِّينَ، وانتصرَ الإسْلاَمَوِيُّون عليهم خاصَّةً بعد صعودِ حزبِ العدالةِ والتنمية إلى سُدَّةِ الحكمِ حتَّى أخذُوا يمارسونَ أبشعَ أساليبِ المكر والخديعةِ في استغلالِ الضمائرِ، واستخدامِ المفاهيم المقدَّسَةِ كمطايا للابتزاز، وسرقةِ أموالِ العامَّةِ، وتوزيع المناصبِ على المحسوبين إلى غير ذلك من ألوان الرزائل.

لَمَّا اسْتَقْوَى "الفتوشِيُّونَ" (وهُمْ فرقةٌ من الإسْلاَمَوِيِّين) وَتَفَطَّنُوا إلى الضَّعْفِ الَّذِي أصابَ الجبهةَ العلمانيَّةَ، وعَلِمُوا أنَّهَا قد فقدتْ الكثيرَ من قُدْرَتِهَا وهَيْبَتِهَا، تآمروا عليها بفنونٍ من الحِيَلِ، فاندسُّوا في صفوفِهَا بطريقِ التَّقِيَّةِ مُتَنَكِّرِينَ بالعقيدةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ، فتَمَكَّنُوا بذلك من التسلُّلِ إلى أجهزةِ الدولةِ على اختلافِهَا مع الزمان، وضربوا من الصبر والكتوميَّةِ مثالاً منقطعَ النظير فتبعثرُوا على جميعِ مرافِقِ الدولةِ ومؤسَّسَاتِهَا (ما عدا القوَّاتِ المسلَّحة). لكنَّهم لَمَّا كانوا يعلمون أنَّ الأَتَاتُورْكِيَّةِ قد رسختْ في كيان المجتمعِ وأصبحتْ دِينًا ثانِيًا بإزاءِ الْمُسْلْمَانِيَّةِ إلى حدٍّ يستحيل استئصالُهَا، حيث يعتنِقُها جميعُ العلوِيّينَ، وملايينُ الناسِ من السنّيِّينَ، أخذو حِذْرَهُمْ في التعامل مع هذه الديانةِ، فبدؤوا يتواطؤونَ مع الكمالِيِّينَ (وأسيادِهم السبطائيّين)، ذلك للحفاظِ على التوازن السياسِيّ، إلى أنْ تمكَّنوا من القبضِ على جماعةٍ من الجْنَرَالاَتِ فزجُّوا بهم إلى السجونِ فترةً بِتُهْمَةِ "الاستعدادِ للاطاحة بالحكومة!" لكنَّهم (بعد أنْ استغلُّوا ثُلَّةً من رفاقِ نجم الدين أربكان، وتدرَّجُوا بِهم إلى الانْشِقَاقِ عنه، وبعدَ التعاونِ معهم في قفزِهِمْ على السلطة، ثم التَّأَلُّبِ عليهم عندما وجدوهم يتسامحون مع الحنفاء!) أثبتوا بتصرفاتِهِمْ هذه، وبمغامراتِهِمْ، ومراوغاتِهِمْ، ومجازفاتِهِمْ، ونِفَاقِهِمْ، ونشاطاتِهِم السِّرِّيَّةِ، وتَسَلُّلِهِمْ إلى أجهزةِ الدولةِ، وتعاونِهِمْ مع شبكاتٍ مشبوهةٍ في الخارجِ... أثبتوا أنَّهم ضِعَافُ النفوسِ، خَوَنَةٌ، انتهازيونَ، مراؤونَ، مُنْسَلِخُونَ من الدِّين والأخلاقِ بكلِّ معنَى الكلمةَ. وبهذا تبيَّن أنَّهم أشدُّ منهم تَدْمِيرًا للإسلامِ في تركيا من الكماليّين.

ظهرتْ ألوانٌ من فضائِحِهِمْ في الآونَةِ الأخيرةِ، خاصَّةً بعد محاولتِهِمْ للإطاحةِ بحكومة أردوغَان يوم **17** ديسمبر **2013**م. وانقلابهم العسكري الفاشل في **15** تموز/يوليو **2016**م. كَشف جهازُ المباحثِ عن أساليبَ خطيرةٍ يلجؤون إليها في السطوِ على خصومهم. وتبيَّن أنَّهم لا يتورَّعونَ من الافتراءِ والبهتانِ على الأبرياءِ. يتنكَّرون لأهل التوحيد، يَلْبَسُونَ جلود الضأنِ على قلوبُ الذئاب.

افتضح الإسلاميُّون بِعمومِهِمْ وجميعِ فصائِلِهِمْ (بما فيهم القابضون اليوم على زمامِ السلطةِ)، افتضحوا يومَ ظهرتْ وَثَنِيَّتُهُمْ مع شِنْشِنَتِهِمْ بالدفاعِ عن حجاب المرأةِ! عَبْرَ الإنتفاضات التي خاضوها أيَّامَ الحكومات العلمانيَّةِ. ذلك أنَّ آلافَ الإسلاميّين، لم يمنعْ أحدُهم أولادَهُ من المثولِ أما صَنَمِ مصطفى كمال في صبيحةِ كل يومٍ من أيام الإثنين أثناءَ إقامةِ رَسْمِ الْعِبَادَةِ "للزعيم الخالق" (على حدِّ قولهم!) نعم لم يمنع أحدُهُمْ أولادَهُ يومًا من الأيامِ من التَّلَبُّسِ بهذه الجنايةِ العظيمة، كما لم يتقدَّمْ أحدُهم إلى السلطاتِ بطلبِ إعفاءِ ولدِهِ من هذه العبادةِ الشنيعةِ، وهي من أبشعِ أشكال الإشراكِ بالله. وأيضًا، لم يطالبْ أحدهم السلطةَ أن تسمح لِبِنْتِهِ بالدخول إلى المدرسةِ الإعداديَّةِ والثانَوِيَّةِ مُحجَّبةً، بينما أقاموا مظاهراتٍ ضخمةً احتجاجًا على منعِ الحكوماتِ العلمانيَّةِ لِلطَّالِبَاتِ الْمُحَجَّبَاتِ من الدخولِ إلى الجامعات. لأنَّ مَنْعَ الطالباتِ المحجَّباتِ من الدراسةِ العليا معناه (في نظر الإسلاميّينَ): قطعُ سُبُلِ الرِّزْقِ والمعيشةِ عليهنَّ! و"لأنَّ كسبَ الرزقِ أفضلُ من توحيد الله تعالى". "بل إنَّ البطالةَ أشدُّ مصيبةً من الإشراكِ بالله، لأنَّ الإنسانَ يستطيع أنْ يعيشَ مشركًا بالله كافرًا، ولكنَّه لا يستطيع أن يُدِيمَ حَيَاتَهُ جائعًا"! هذه هي نظرةُ الإسلاميّين إلى مفهومَيِ التوحيدِ والشِّرْكِ، وإلى مفهومَيِ الكفرِ والإيمان!

من فضائح الإسلاميّينَ الأتراك؛ أنَّهُمْ انشقُّوا إلى فِئَتَيْنِ معاديَتَيْنِ، كلٌّ منهما تُضْمِرُ حِقْدًا شديدًا للأُخْرَى وتنتهزُ الْفُرْصَةَ لِتُوقِعَ بِهَا أَسْوَءَ الدَّوَائِرِ. اندلعتْ بينهما حربٌ شعواءُ يوم **17** ديسمبر **2013**م. ولا تزالُ تستمرُّ اشتِعَالُهَا، وقد احتدمتْ في الأوان الأخيرة، تكادُ تؤدِّي بهما إلى شفا جرفٍ هارٍ. تجري مساجلاتٌ حادَّةٌ بين زَعِيمَيِ الْفَئَتَيْنِ. وَصَفَ أحدُهُمَا الْفِئَةَ الْمُعَادِيَةَ بـ"الْحَشَّاشِينَ الْجُدُدْ Neo Haşşaşiler"، بينما وَصَفَ الآخرُ خصمَهُ بـ"الرجلِ الطويلِ Uzun Adam" على سبيلِ الإزدراءِ بهِ. والخوفُ هو القاسمُ المشتركُ بين الطرفين، كلٌّ منهما يخشى أنْ يتعرَّضَ لِبَطْشِ عَدُوِّه، لعلَّ في ذلك حكمةٌ بالغةٌ تُبَشِّرُ الْحُنَفَاءَ المؤمنينَ بِهَزِيمَةٍ تنتظرُ جموع القبوريّين. ومن إرهاصاتِ الهزيمةِ

الخوفُ. يبرهن على ذلك قولُهُ تبارك وتعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ" (آل عمران/**151**).

***

الْحُنَفَاءُ الْوَسَطِيُّونَ؛ الأُصُولِيُّونَ.

قبل أنْ نتعرَّفَ على عددِ الحنفاءِ ونسبتِهِمْ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ، يجب التعريفُ أوَّلاً بمفهوم "الْحَنِيفِيَّةِ"، وهي صفةُ الإنسانِ الحنيفِ. ذلك أنَّ الإنسانَ لا يصيرُ حنيفًا ولا يُعَدُّ مسلمًا ولا مؤمنًا بالله إلاَّ إذا كان إيمانُهُ متَّصِفًا بالحنيفيَّةِ. ولأنَّ الإنسانَ قد يكونُ مؤمنًا بالله، ومؤمنًا بالجبتِ والطاغوتِ في الوقت ذاتِهِ كما قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. (النساء/ **51**، **52**)"؛ فليس الإنسانُ الذي على هذه الحالةِ إذنْ مؤمنًا باللهِ في حقيقةِ الأمرِ، وإنْ ادَّعى ذلك، بل هو مشركٌ باللهِ مُفْتضِحٌ وملعونٌ.

أمَّا الحنيفيَّةُ بالإختصارِ: فهي الإيمانُ بأنَّ اللهَ وحده لا شريك له، والاعتقادُ بِصِفَاتِهِ التي وَصَفَ بها نفسَهُ في كتابِهِ (القرآن الكريم)، ونفيُ جميعِ مَنْ سِوَاهُ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الآلِهَةِ، والإخلاصُ له في الدِّينِ والْعِبَادَةِ. هذه هي الحنيفيَّةُ بالايجَازِ. وهي دينُ إبراهيم ودينُ جميعِ الأنبياءِ والمرسلين. لقد أمر اللهُ تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام أن يكونَ حنيفًا، بقولِهِ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (النحل/**123**)، وَقال تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (النحل/**120**). ولفظُ الحنيفِ: مشتقٌّ مِنَ (الْحَنَفِ)، وهو الميلُ، فالحنيفُ، معناه: المائلُ عن الشِّرْكِ القاصدُ إِلَى التَّوْحِيدِ.

هذا ومن الصعب جدًّا المعرفةُ بِعَدَدِ الموحدِّين الحُنَفَاءِ في تركيا ونسبتِهِمْ في المائةِ من المجتمعِ التُّرْكِيِّ، لشدَّةِ انْزِوَائِهِمْ واخْتِفَائِهِمْ عنِ الأنظارِ والأسْماعِ مخافةَ أن يتعرَّضوا للإهانَةِ والإذلالِ. وهم على قسمين: الحنفاءُ الوسطيُّون (يُطلَقُ عليهم في تركيا اسمُ "اللاَّمذهبيِّين Messepsizler") على سبيل التهكُّمِ والإزدراء، والحنفاءُ المتشدِّدُون (يُطلَقُ عليهم اسمُ "الأصولِيِّين Kökten dinciler").. يُفْتَرَضُ أنْ يكونَ الوسطيُّون أكثرَ عددًا، بل إنَّهم أضعافُ المتشدِّدِين. ذلك أنَّ الفئةَ المتشدِّدَةَ منهما متوغِّلةٌ في نشاطاتٍ سرِّيَّةٍ لأهدافٍ سياسِيَّةٍ. وهذه الحالةُ قد جَعَلَتْهَا هدفًا لشبكاتِ الإسخباراتِ والمباحثِ الأمنيَّةِ. أمَّا الحنفاءُ الوسطيُّونُ فإنَّهم مُبَعْثَرُونَ في صفوفِ المجتمعِ قابعون على

أنفسِهِمْ، قلَّما يتَّصلُ بعضُهم ببعض. يحذرون من الإختلاطِ "مخافةَ أن يصيبَهُمْ شيءٌ من أذى المشركين، أو من رِجْسِهِمْ ونَجَاسَاتِهِمْ..." كما لو دعاهم أحدٌ من الصوفيَّةِ إلى مجلسٍ من مجالِسِهِمْ التي يقيمون فيها طُقُوسَهُمْ، أو دعاهم إلى طعامٍ ونحو ذلك.

إنَّ الحنفاءَ قِلَّةٌ محصورةٌ مغمورةٌ تَسْتَغْرِبُهَا أكثريَّةٌ وَثَنِيَّةٌ في تركيا، تراها كَشرذمةٍ دخيلةٍ طُفَيْلِيَّةٍ عالةٍ على المجتمعِ، بل يجهلُ الكثيرون هذهِ القلَّةَ على حقيقتِها، وقد لا يعتدُّون بها. ذلك لأنَّ الإنسانَ الحنيفَ يجتنبُ الْعِبَادَةَ لِغير اللهِ فيخالفُ الأغلبيَّةَ الوثنيَّةَ ويعتزلُهَا باهتمامٍ. ولهذا يتعرَّضُ الحُنَفَاءُ للتهكُّمِ والإهانَةِ في جميعِ أنحاءِ تركيَا. والنقشبنديُّون بخاصَّةٍ يُضْمِرُون للحُنَفَاءِ حقدًا شديدًا، ويتَّهِمُونَهُم بالخيانَةِ، والتطرُّفِ والشذوذِ عن الجماعةِ.

إنَّ الحُنَفَاءَ "خُوَنَةٌ" في نظرِ فَرِيقَيْنِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ: الأتاتوركِيِّينَ، والنقشبنديِّين. لأنَّ الحنفاءَ يرفُضونَ الْمُثُولَ بين يدي تماثيلِ مصطفى كمال، ويتهرَّبون من الحضورِ مع المشركين في صلواتِ الديانةِ التُّرْكِيَّة عند ضريحِ مصطفى كمال في أنقره. كما يرفُضون الاستسلامَ لشيوخِ الطريقةِ النقشبنديَّةِ، بل يكرهونَهُمْ ويصفونَهُمْ بالدَّجَلِ والشعوذةِ و"أنَّهم رؤوسُ الضلالِ". ولهذا يبلغُ كراهيَّةُ الشخصِ النَّقْشَبَنْدِيِّ للانسانِ الحنيفِ إلى حدٍّ لو تمكَّنَ منه في ناحيةٍ تخلو من الرقابَةِ الأمنيَّةِ لقضَى عليه دون أدنىَ تَرَدُّدٍ! ذلك أنَّ الحنفاءَ بعامَّتِهِمْ (في نظر النَّقْشَبَنْدِيِّين) "زَنَادِقَةٌ وَهَّابِيُّونَ، مستحقُّون لَعْنَةَ الأولياءِ!.." .

أمَّا بالنسبَةِ لسلطةِ الدولةِ التُّرْكِيَّة، فإنَّ موقِفَها من الْحُنَفَاءِ لا يقلُّ عن موقفِ النَّقْشَبَنْدِيِّين منهم احتقارًا وعداوةً. ولا تغفلُ عن أدنىَ تحرُّكٍ لأيِّ إنسانٍ لا يُشْرِكُ باللهِ، ويجتنبُ عبادةَ التماثيلِ والأضرحةِ في أيِّ بُقْعَةٍ من أراضِي تركيا. وقد شاعَ فيما شاعَ من الأخبارِ: أنَّ جميعَ الحنفاءِ يعيشونَ تحتَ الْمِجْهَرِ، أسْمَاؤُهم مُدْرَجَةٌ في القائمةِ السوداءِ ضمن محفوظاتِ وزارة الداخليَّةِ، لِيُمْكِنَ القبضُ على جميعِهِمْ في أيِّ وقتٍ يصدرُ الأمرُ بذلك. ولا فرقَ عند السلطةِ بين الْمُسَالِمِين منهم والمتشدِّدِين. ذلك أنَّ الحنفاءَ عامَّتَهُمْ يَعتقدون أنَّ الساحةَ التُّرْكِيَّة "دارُ حَرْبٍ!"، ويقاطعونَ الموظَّفينَ من أئمةِ المساجدِ بـ"أنَّهم يتقاضَوْنَ رَوَاتِبَهُمْ من خزانةِ دولةٍ مُرْتَدَّةٍ عَدُوَّةٍ للاسلام، وأنَّهم متواطؤون مع النظامِ الْمُعَادِي للشريعة الإسلامية". كما لا يُصَلُّونَ الجُمُعَةَ مع الجمهورِ، بل لهم أماكنُ خاصَّةٌ يحضرونها ويؤدُّون الجُمُعَةَ فيما بينهم وراءَ مَنْ يُجْمِعُونَ عليه ويعتقدون فيه أنَّهُ الأصلحُ

والأرشدُ. يفعلون ذلك باعتبار أنَّ المساجدَ التي تُسَيْطِرُ عليها الدولةُ، كُلَّهَا داخلةٌ تحت حكمِ (مسجدِ ضرارٍ) الذي أمرَ النبيُّ عليه السلام بِهَدْمِه.

هذا التمايزُ نشأ كنتيجةٍ للتطوُّراتِ الثقافيَّةِ التي كان لها أثرٌ كبيرٌ على انتباهِ الجيلِ الصاعدِ إِلَى النزاعِ الفكريِّ والعَقَدِيِّ والفلسفِيِّ الذي تشهدُهُ المجتمعُ التُّرْكِيُّ فِي العصرِ الراهن. إنَّمَا حَظِيَ النصيبَ الأوفرَ من هذه اليقظةِ قلةٌ قليلةٌ جدًّا اتَّسموا بوعيٍ اسلامِيٍّ صحيحٍ على عكسِ أسلافِهِمْ الذين اعتنقو الْمُسْلُمَانِيَّةَ وتشبَّثُوا بها عَبْرَ قرونٍ، كما دامَتْ عليها الأغلبيَّةُ "السُّنِّيَّةُ: بعدَ انهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ.

لقد كان المجتمعُ العثمانِيُّ في الحقيقة (سُنِّيَابِيَّ المذهبِ)، صوفِيَّ المشرَبِ. والأتراكُ من هذا السَّوادِ كانوا حَنَفَانِيِّينَ في العملِ الفقهِيّ، ومَاتُرِيدِيِّينَ في الْمُعْتَقَدِ. أمَّا الأكرادُ، فإنَّهم كانوا شَافِعِيِّينَ في العملِ الفقهِيّ، وأشْعَرِيّين في الْمُعْتَقَدِ، فلم يكنْ بين الطرفين نزاعٌ يُذكر. لأنَّ الْمَشْرَبَ الصوفِيَّ الْقُبُورِيَّ كان هو القاسمَ المشتركَ بينهما على امتدادِ القرون. فلمَّا فقدتْ الإنتماءاتُ الدينيَّةُ أهَمِّيَّتَهَا وتقهقرتْ أمامَ الإنتماءاتِ القوميَّةِ في العهدِ الجمهورِيّ، نشِبتْ نزاعاتٌ سياسِيَّةٌ وأيْديُولُوجِيَّةٌ بين الطرفين التُّرْكِيّ والكردِيّ، وتطوَّرتْ إلى حروبٍ وعِصْيَانَاتٍ وَقِتَالٍ أنهكتِ السلطةَ حتَّى إذا أدركتْ الحكوماتُ التُّرْكِيَّة في السنين الأخيرةِ أنَّ التصالُحَ مع الأكرادِ إنَّما يمكن باستغلالِ مفهوم الدِّينِ وإثارةِ القاسمِ المشتركِ للطرفين بإحياءِ التُّرَاثِ الصوفِيّ القبورِيّ، وبثِّ الْمُعْتَقَدَاتِ الوثنيَّةِ من جديدٍ. فاستشاطتِ الطقوسُ النقشبنديَّةُ والإحتفالاتُ بالقبورِ والأضرحةِ، وأُقيمتْ ندواتٌ حولَ "حياةِ الأولياءِ" و"أمجادِ السلاطين العثمانِيِّين، وبطولاتِ قُدَمَاءِ الأتراك" ونحو ذلك على حسابِ الإسلامِ. إلاَّ أنَّ هذا الاتِّجاهَ الذي تَبَنَّتْهُ الحكوماتُ الإسْلاَمَوِيَّةُ بخاصَّةٍ، أثارتْ حفيظَةَ قلَّةٍ من المثقَّفين في تركيا؛ قِلَّةٍ مؤمنةٍ بوحدانيَّةِ الله تبارك وتعالى، وأنَّه لا شريك له في مُلْكِهِ وَحُكْمِه. وهي تنتظر ساعتَها وإن تبدو نائمةً في هذه الأيَّام، إلى أن يهزم الله الأحزابَ بِنَصْرِهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

إنّ مَنْ كان على هذه العقيدة (التَّوْحِيدِيَّةِ) في بدايةِ العقدِ الثامنِ من القرنِ المنصرم، ربما لم يَرْبُ يومئذٍ عَدَدُهُمْ عن عشراتٍ من شبابٍ مثقَّفينَ كانوا فِتْيَةً آمَنُوا بِرَبِّهِمْ فزَادَهُمْ اللهُ هُدًى، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ "إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ

كَذِبًا. (الكهف: **14**، **15**). فما لبث حتى أدركتِ الحكومةُ "خَطَرَ هذه القِلَّةِ على الحياة السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والثقافِيةِ في المجتمع التُّرْكِيّ"، فَتَأَهَّبَتْ وأَبْدَتْ استعدادَها وعزمَهَا على إنزالِ ضربةٍ قاصمةٍ على أيِّ تحرُّكٍ من شأنه الإضرارُ بالنشاطِ الصوفِيّ القبورِيّ، فكانَ ظهورُ النقشبنديّين والنورسيِّينَ على المسرح السياسِيّ واتفاقُ فضائلِ القبوريّين أشدَّ منه ويلاً على الاسلامِ وأهلِهِ من وطئة العلمانيّينَ في تركيا!

***

سِيَاسَةُ تُرْكِيَا الخارجيةُ وموقِفُهَا مِنَ الْغَرْبِ

إنّ السياسةَ الخارجيةَ للدَّولة التُّرْكِيَّة تتمثَّلُ بحسبِ ظاهرِهَا في مقولةٍ لِمُصطفى كمال. يُكثِرُ السيَّاسيُّون الأتراك من هذه المقولةِ في كثيرٍ من المناسبات. ولا يكادُ عاقِلٌ يسمعُها إلاَّ ويستقبلُها بتقديرٍ واحترام. وهي: "الصُّلحَ في الوطن والصُّلحَ في العالَمِ"[295]. وقد ورد في القرآن الكريم: "وَالصُّلْحُ خَيْرٌ"[296].

يُرَجَّح أنَّ مصطفى كمالاً كان يجهل هذه الحقيقةَ القرآنيَّةَ وقد جاءت مقولتُهُ موافقةً لهذه الآية الكريمةِ بصدفةٍ مِمَّا يثيرُ الاستغرابَ في العقول.

إلاَّ أنَّ هذه المقولةَ الرمزيةَ لا تُعبِّرُ ولا يجوز أن تُعبِّرَ أبدًا عمَّا تتبنَّاه الدولةُ التُّرْكِيَّة، ولا أيُّ دولةٍ أخرى في سياستِها الخارجيَّةِ مِنْ أهدافٍ ومطامِعَ. لأنَّ أيَّ إنسانٍ، أو مؤسَّسةٍ، أو مُجتمَعٍ، أو دولةٍ؛ لا يسمح لها الأمرُ الواقِعُ أنْ تفتدِيَ بشيءٍ من مصالِحِها لِمجرَّدِ أن يقالَ: "إنَّها تنازلتْ عن حقوقِها وآثرتِ الصلحَ على النِّزاع والقتالِ لأجل السلاَم". هذا غيرُ واقعٍ إطلاقًا، إلاَّ إذا كان أحدُ أطرافِ النِّزاعِ مضطرًّا للاستسلام. لذا كانت الدولةُ التُّرْكِيَّةُ ولا تزالُ تبحثُ عن الصلحِ، لكنْ مع الوقوفِ إلى جانب الطَّرَفِ الذي تراهُ أقْوَى وأقربَ إلى الغلبةِ على خصمِهِ. لهذا، اقتضت المصلحةُ أن تنحازَ تركيا إلى الغربِ في المُعتَرَكِ العالَمِيّ منذ بداية قِيامِها.

اكتسبت تركيا ثقةَ الغربِ بعد الحربِ العالميَّةِ الأولى من خلالِ الْمحافلِ الماسونيَّةِ واعتمادًا على تَبِعَاتِ التعاونِ مع حزبِ الاتِّحاد والترقِّي وعلاقاتِهِ السِّرِّيَّةِ قُبَيلَ الحربِ لأجلِ القضاءِ على الدَّولة

---

[295] «Yurtta sulh, cihanda sulh»

[296] النساء/**128**.

العثمانيَّة. فلمَّا نجحتْ هذه المشاركةُ خاصَّةً بعد إتِّفاقيَّة (لُوزَانْ) بدأتْ تَسيرُ تركيا في الركبِ الأوروبِيّ منذ قيام الجمهوريَّةِ، واستقوتْ علاقاتُها مع الغربِ في مدَّةٍ قصيرةٍ كنتيجةٍ لِمُحَاوَلاَتِ وإجراءاتِ مصطفى كمال التي أقصتْ تركيا عن العالَمِ الإسلامِيّ.

كان لبعضِ قراراتِهِ دورٌ هامٌّ في تغيير وُجهةِ الدَّولةِ والمجتمعِ نحو الغرب. يأتي على رأسِها: إلغاءُ الحروفِ العربيَّةِ واستبدالُها بالأبجديَّةِ اللاَّتينيَّةِ؛ وتحديدُ يومِ الأحدِ للعُطلةِ الأُسبوعيَّةِ بدلَ يوم الجمعةِ؛ وإعلانُ المزعمةِ العلمانيَّةِ.

كان مصطفى كمال مهتمًّا بإضفاءِ الطابعِ الغربِيّ على تركيا. ورغم ماكان اقتباساتُهُ من تقاليد الغربِ قاصرةً على لَهْوِهِ وأنماطِ لباسِ أهلِهِ وسلوكيَّاتهم الخاليةِ من القِيَمِ الساميةِ، لكنَّ مصطفى كمالاً استطاعَ أن يحقّقَ تقارُبًا نسبِيًّا بين تركيا وأوروبا، وبذلَ جهودَهُ لتطوير علاقاتٍ سياسيَّةٍ وتجارِيَّةٍ وثقافِيَّةٍ مع الدُّوَلِ الأوروبِيَّةِ، خاصَّةً مع بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

إنَّ سياسةَ الدَّولة التُّرْكِيَّةِ عمومًا تقتضي التناغُمَ مع الغربِ لِسَبَبَيْنِ أساسِيَّين: السبب الأوَّل: هو الإنتماءُ الْمُسْلُمَانِيُّ الذي لا يتعارض مع تعاليم المسيحيَّةِ في صميمِهِ وصُلبِهِ؛ والسببُ الثاني: هو الإعتيادُ الرأسْمالِيُّ التُّرْكِيُّ التقليدِيُّ الذي يستمدُّ من النظام الإقطاعِيّ القديم، ويُعَدُّ امتدادًا له نظيرَ ما يعتادُهُ الغربُ من الاستغلالِ والاحتكارِ واللجوءِ إلى استخدام القواعد الظالمة ضدَّ الكادحين، كامتدادٍ لما كانَ سائدًا على الساحة الأوروبية في القرون الوسطى. هذا بالإضافة إلى أنَّ الْمُسْلُمَانِيَّةَ تُعَدُّ صمَّامَ الأمانِ ضدَّ الصحوةِ الإسلاميَّةِ في الغربِ وفي تركيا على السواء! يبرهنُ على هذه الحقيقةِ مدى التعاون بين الطرفين في حياكةِ إسلامٍ مشوَّهٍ مطابقٍ للمسيحيَّةِ باسم ((الإسلام المعتدل)).

إنَّما انسجمتْ تركيا مع الغربِ منذُ قيامِها إلى اليوم من منطلَقِ هذا التشابُه الأساسِيّ بين الطرفين سواءٌ في النظرةِ إلى مفهوم الدِّين، كذلك في تطابُق الاهدافِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والإقتصادِيَّة. أسْرَعَتْ تركيا لتوطيدِ علاقاتِها مع الغربِ في وقتٍ مبكّرٍ فورَ قِيَامِها بفتحِ سفاراتِها في أهمّ عواصم أوروبا. أرسلتْ الحكومةُ التُّرْكِيَّة 26 سفيرًا إلى هذه العواصم ما بين 1923–1938م. بينما كانت البلادُ العربِيَّةُ يومئذٍ خاليةً من السفارات التُّرْكِيَّةِ. لأنَّ كلَّها كانت مستعمرةً ومحتلَّةً من قِبَلِ

الحكومات الغربيَّةِ وفقَ المشروع السرّي الذي كان اتَّفق عليه حزبُ الاتّحاد والترقّي مبدئيًّا مع التحالُفِ الثلاثيّ (المتمثّل في: بريطانيا وفرانسا وإيطاليا).

كان مصطفى كمال يتوقَّع (مِنْ مُنطَلَقِ هذه الإتّفاقيَّةِ) أنَّ حروبًا سوفَ تندلِعُ في الشرقِ الأوسطِ نتيجةَ الصراعِ بين القُوى العُظمى المتنافسةِ (وليس بسبب صحوة الشعوب العربيَّة!). فتحقَّقتْ هذه الرؤيةُ فعليًّا بعد فترةٍ قصيرةٍ وعلى مدى قرنٍ تقريبًا. فحمَلَها المنبهرون بمصطفى كمال، على أنَّها من معجزاتِهِ، وعدَّها البعضُ من تكهُّناتِهِ، وأنَّه دليلٌ قاطعٌ على مشاركتِهِ في إعدادِ "مشروعِ الشرق الأوسط"، وتوقُّعاتِهِ لِمَا سوفَ يجري بعد تنفيذ المشروع من ثوراتٍ وحروبٍ..

فتحتْ تركيا أبوابَها للسُّيَّاحِ ورجالِ العملِ الأوروبيّين منذ أيامِ مصطفى كمال، وتعاقدتْ مع شركاتٍ أوروبيَّةٍ على تنفيذِ مشاريعَ عمرانيَّةٍ وصناعيَّةٍ في أنحاءِ البلادِ. كانت إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا على رأسِ الدول الغربيَّة التي عزَّزت علاقاتِها التجاريَّةَ مع تركيا. استوفدتْ ألمانيا مجموعاتٍ كبيرةً من الْعُمَّال الأتراكِ في أوساطِ القرنِ المنصرم. فأقامَ مُعظمُهُم هناكَ، وتجنَّسوا بالمواطنةِ الألمانيَّةِ ممَّا زادَ قوَّةً في العلاقات التُّرْكِيَّة–الألمانية.

ذلك أنَّ الجبهةَ الرأسْمالية لجَأتْ منذ بدايةِ العقدِ الخامسِ من القرنِ المنصرمِ إلى تصعيدِ الدِّعاياتِ ضدَّ الاتّحاد السوفيتيّ: بأنَّ لها أطماعٌ في الإستيلاءِ على أجزاءٍ من الأراضي التُّرْكِيَّة، فانطلقتِ الحكومةُ التُّرْكِيَّةُ بدوافعِ هذهِ الدِّعاياتِ وبالمُوَازَاةِ مع الجبهةِ الرأسْماليَّةِ تسعَى لتعزيزِ علاقاتِها مع الدولِ الغربيَّةِ للحصولِ على مزيدٍ من مساعداتِها. أمَّا المزاعمُ التي طالما كانتِ الجبهةُ الرأسْماليَّةُ وراءَها، بأنَّ الحكومةَ التُّرْكِيَّةَ تعرَّضتْ لتهديداتٍ وجَّهَهَا ستالين إلى تركيا عام **1945**م. فإنَّ هذه الأقاويلَ لم تَثْبُتْ صِحَّتُهَا بأيِّ وثيقةٍ حتى اليوم. والمزاعمُ تتلخَّصُ في أنَّ ستالين "كان يطلبُ إجْرَاءَ تعديلاتٍ على الحدودِ التُّرْكِيَّةِ–السوفيتيَّة لِيَضُمَّ بَعْدَهَا عددًا من المُدُنِ التُّرْكِيَّةِ إلى الأراضي السوفيتيَّةِ، ويريدُ أنْ يفرضَ على تركيا المشاركةَ في الرقابةِ على مضائقِ اسطنبولَ ودردنيل التي تربطُ بين بحرِ إيجه والبحرِ الأسود." هذهِ المزاعمُ ليستْ من الحقيقة في شيءٍ، وإنَّما كانت دعاياتٍ سياسيَّةً تتذرَّعُ بها تركيا تحتَ ضغوطِ الجبهةِ الرأسْماليَّةِ ليس إلاّ.

ربما يرى بعضُ المحلِّلين السياسيّين أنَّ تركيا كانتْ مضطرَّةً للإنحيازِ إلى الغربِ، لأنَّها لم تجدْ مَهرَبًا من ذلكَ في ظروفِ القرنِ العشرين الْمُفْعَمِ بالفِتَنِ، والثوراتِ، والحروبِ التي أذاقتِ البشريَّةَ مرارةَ

أشكالٍ من العذاب.. إلاَّ أنَّ هذه الرؤيَةَ لا تستقِيمُ خاصَّةً إذا أمعنَّا الفكرَ في دوافع هذا الإنحيازِ. أوّلاً: أنَّها لم تكن مهدَّدةً مِنْ قِبَلِ أيّ جبهةٍ مِنَ القُوَى العُظمَى بعد الحربِ العالميَّةِ الأولى. بل كانتْ علاقاتُها جيّدةً مع الاتِّحاد السوفيتِيّ على مَدَى عهدِ مصطفى كمال، وعلى عكسِ ذلك كانتْ الساحةُ التُّرْكِيَّةُ قد تعرَّضتْ لاحتلال الغربيّين أيَّامَ الحرب العالميَّةِ الأولى. ثانيًا استمرَّتِ الغربُ في غطرستِهِ ضدَّ المنطقةِ العربيَّةِ بالاحتلالِ، والاستعمارِ، وارتكابِ المذابح ولم تتصدَّى له تركيا بأدنَى استنكارٍ، مع أنَّ هذه المنطقةَ ترتبطُ بها ارتباطًا وثيقًا بوشائج التاريخ المشترك.

إذن لا شكَّ في أنَّ الدافعَ الأساسِيَّ لهذا الانحيازِ كان يتمثَّلُ يومئذ في الاستعدادِ لمناهضةِ صحوةٍ أخذت بالتنامي، ألاَ وهي الصحوةُ الإسلاميَّةُ. كانت تركيا تتنكَّر لها بهذه المحاولة مخافةَ أنْ يتغلَّبَ الإسلامُ على الْمُسْلُمَانِيَّةِ والعقليَّةِ التُّرْكِيَّةِ بعد أنْ تمكَّنتْ هي من محوِ آثارِهِ بثمن باهظ!

***

- مُغامرةُ الإنضمامِ إلى الأتِّحادِ الأوروبِيّ

وَرِثَتْ تركيا علاقاتِها مع أوروبا من العهد العثماني، وقد كان للدولةِ العثمانيةِ اهتمامٌ بالغٌ بالجهةِ الغربيةِ منذ قيامها، فلم تلتفت نحوَ المشرق إلاَّ في عهدِ سليم الأول وابنِهِ سليمانِ القانونِيّ. فاستولتْ على شِبْهِ جزيرةِ البلقان وفرضتْ هيبتَها على القارَّةِ الأوروبيَّةِ حُقْبَةً من الزمن. ثم بعد عصرِ سياسةِ الإستيلاءِ والهيمنةِ مع انحطاطِ القوَّةِ العسكريَّةِ بدأ التوجهُ نحوَ أوربَّا من خلالِ سياسةِ التقليدِ والتماهِي إلى حدودِ المسايرةِ بل الانصياعِ منذ منتصفِ القرنِ التاسع عشر، وتجلَّى ذلك في دستورِ عام **1876**م. بهذه المناسةِ ترتبطُ الدولةُ التُّرْكِيَّةُ بأوروبا ارْتباطًا تاريخِيًّا على خلفيةِ الصراعِ الذي جَرَى بين الدولةِ العثمانيَّةِ وبين الشعوبِ القاطنةِ في هذه القارَّةِ طوالَ قرونٍ، وبحكمِ آثارِ هذا الصراعِ وتبِعاتِهِ ونتائجِهِ التي أسفرتْ عن أرضيَّةٍ مُتاحةٍ تُحاولُ تركيا اليومَ لِتَبْنِيَ عليها علاقةً جديدةً مع الغرب.

بدأتْ مسيرةُ انضمامِ تركيا إلى أكبرِ حلفٍ عقدتْهُ الدولُ الأوروبيَّةُ تحت مسمَّى "السوق الأوربِي المشترك" في عام **1963**م. ثم استُبْدِلَ هذا الاسمُ بـ"الاتِّحاد الأوربِيّ" فجدَّدتْ تركيا طلبَهَا للدخولِ في هذا الحلف عام **1987**م. وذلك بغيةَ الحصولِ على دعمِ أعضائِهِ لتكييفِ اقتصادِها، وانسجامِها مع دول الاتِّحادِ على مستوى اقتصادياتِها النامية. غير أنَّ الدّولَ الأعضاءَ انقسمتْ إلى

فريقينِ حيث يرى فريقٌ منهما أنَّ الموافقةَ على عضويَّةِ تركيا سيهدِّدُ استقرارَ أوروبا وأمْنَها وسوف يُضيف عِبْئًا اقتصاديًّا مترتِّبًا على الإنضمام، وقد تؤدِّي إلى تمييعِ الْقِيَمِ الْغَرْبِيَّةِ بثقافتِها المستمدَّةِ من الإسلام (خاصةً وأنَّ عَلْمَنَتَهَا زائفةٌ!)؛ وفريقٌ يرى أنَّ وجودَ تركيا هو عامل قوةٍ داخلَ الإتحادِ فَسَيُسَاعِدُهُ على مدِّ نفوذِهِ إلى الشرقِ الأوسطِ والسيطرةِ على المنطقةِ عن طريقها.

دام هذا الخلافُ بين الطرفين منذ عقودٍ من الزمن إلى أن عُقِدَ اجتماعٌ حَضَرَهُ المسئولون الأتراك وممثِّلُو الإتِّحادِ، في الثالثِ من شهرِ أكتوبر عام **2005**م. توصَّلا فيه إلى اتفاقٍ يُتيحُ لتركيا البدءُ في مفاوضاتِ العضويَّةِ الكاملةِ وفقًا لإطارِ العملِ المشتركِ الذي ينصُّ على أنَّ هذه المفاوضاتِ مفتوحةُ النهايةِ ممَّا يجعلُ نتيجتَها غيرَ مضمونة. بالإضافةِ إلى أنَّ تركيا تواجهُ العديدَ من التحدياتِ والعقباتِ عبرَ مفاوضاتِها مع الإتحادِ، تأتي على رأسِها: المشكلةُ القبرصيَّةُ؛ والقضايا الخِلافيَّةُ مع اليونان؛ ومشكلةُ الأرمنِ؛ وقضيةُ الأقليَّةِ الكرديَّةِ؛ وقضايا حقوقِ الإنسان؛ وكونُ تركيا دولةً ذاتَ غالِبِيَّةٍ "لها صلةٌ بالاسلام!"؛ وأنَّ النظامَ التُّرْكِيَّ غيرُ متكافِئٍ مع الأنظمةِ الأوربيَّةِ لقصورهِ عن تكفُّلِ مُراعاةِ حقوقِ الإنسانِ وتأسيسِ العدالةِ الإجتماعيةِ.

فَبِرَغْمِ هذه العقباتِ انضمَّتْ تركيا إلى الإتِّحادِ الجُمْرُكِيِّ الأوربِيِّ منذ عام **1995**م. وما زالتْ تبذلُ قصارى جهودِهَا في سبيلِ النجاحِ لتحقيقِ الانضمامِ إلى الإتِّحادِ نهائيًّا؛ وقد تبنتْ العديدَ من الإصلاحاتِ وغيَّرتْ نظامَها السياسِيَّ والعلمانِيَّ بما يتناسبُ وَقِيَمَ الاتِّحادِ الأورُوبِيِّ، كما أحدثتْ وزارةً خاصَّةً لمتابعةِ شئونِ الإنضمامِ إلى الاتِّحادِ، وأصدرتْ بذلك قانونًا خاصًّا في **29** يونيو **2011**م.

ومن جملةِ الإصلاحاتِ التي قامتْ بها الحكموماتُ التُّرْكِيَّةُ تحتَ ضغطِ الإتِّحادِ الأوربي:

1) التمكينُ القانونِيُّ من حُرِّيَّاتِ التعبيرِ، وتأسيسِ الروابطِ والأحزابِ.
2) اتِّخاذُ الإجراءاتِ القانونيَّةِ والعمليَّةِ لمحاربةِ التعذيبِ في السجون.
3) إلغاءُ عقوبةِ الإعدام.
4) رفعُ العقباتِ التي تحظرُ استخدامَ لغاتٍ غيرِ تركيَّةٍ في الإذاعةِ والتلفزيون والمدارس.
5) حظرُ استعمالِ العنفِ كأداةٍ للتأديبِ والعقوبةِ في المدارسِ ومعسكراتِ الجند.
6) تدريبُ موظَّفِي السجونِ والقُضاةِ والمدَّعين العامِّين على تطبيقِ مبادئِ حقوقِ الإنسان.

تقوم مفوضيَّةُ الإِتِّحادِ الأوربِيّ[297] بمراقبةِ مَدَى التزامِ تركيا بالمبادئِ المفروضةِ عليها من قِبَل الإتِّحادِ. بينما ليس من السهل تنفيذُ مطالبِ الإتحادِ كلِّها في أمدٍ فصيرٍ بسسبِ العقبات الناشئة من العقليَّةِ المحلِّيَّةِ والسياسةِ الداخلية!

إنَّ الأسبابَ التي دفعتْ بالدولةِ التُّرْكِيَّةِ للانضمامِ إلى الإتِّحادِ الأوربِيّ عديدةٌ. وهي بالإيجاز (كما جاء ضمن مقال بعض المحلِّلين): "ترى تركيا أنها عضوٌ في النادِي الأوروبِيّ منذ انضمامِها إلى منظَّمةِ حِلفِ شمالِ الأطلسِيّ (الناتو) أي منذ عام 1952م.، وأنَّها بمنزلةِ نقطةِ ارتكازٍ للمنظَّمةِ، للانطلاقِ نحوَ منطقةِ الشرقِ الأوسط.

الموقعُ الجغرافِيُّ الإستراتيجِيُّ لِتركيا بوصفِها تُمَثِّل حلقةَ الوصلِ المباشِرَةِ بين دُوَلِ قارَّةِ أوروبا، وبين كُلٍّ من دُوَلِ منطقةِ الشرقِ الأوسطِ يساعدُ على تحقيقِ رغبةِ القارَّةِ الأوروبيَّةِ في التوسُّعِ وراءَ حدودِها الجغرافيَّةِ، وهي لن تتمكَّنَ من تحقيقِ ذلك إلاَّ عن طريقِ دمجِ تركيا داخلَها.

أصبحتْ تركيا بعدَ حربِ الخليجِ الثالثةِ أحدَ أضلاعِ مُثَلَّثِ مركزِ الثِّقلِ الجْيُوسِيَاسِيّ الجديدِ في منطقةِ الشرقِ الأوسط، وهي: تركيا، إسرائيل، إيران.

تُمَثِّلُ تركيا جسرًا حضاريًّا مهمًّا بين الحضارةِ الأوروبيَّةِ وبين الحضاراتِ الأخرَى في قارَّةِ آسيا. وأنَّها تُعدُّ نقطةَ الْتِقاءٍ لِـ"حوارِ الحضاراتِ" ويمكنُها أنْ تلعبَ دورًا بارزًا في تحقيقِ التَّقارُبِ، لِمنعِ الصدامِ والصراعِ بين أوروبا وبين العالَمِ الإسلامِيّ.

تُعَدُّ تركيا معبَراً تجاريًّا بين الدولِ الأوروبيَّةِ وبين دُوَلِ كُلٍّ من منطقةِ الشرقِ الأوسطِ، ومنطقةِ وَسَطِ وجنوبِ شرقِ آسيا.

---

[297] المفوضيَّةُ الأوروبيَّةُ: هيئةٌ تنفيذيَّةٌ تتألَّفُ من سبعةٍ وعشرين عضوًا، يعيِّنُ كلُّ بلدٍ عضوٍ في الاتِّحادِ الأوروبِيّ مفوَّضًا يخضعُ لشرطِ مصادقةِ البرلمانِ الأوروبِيّ بعدَ جلسةِ الاستماعِ إليهِ. وتدومُ ولايةُ الرئيسِ وأعضاءِ المفوضيَّةِ خمسَ سنواتٍ تنتهِي مع تجدُّدِ انتخاباتِ البرلمان. وتتولَّى المفوضيَّةُ مسؤولياتٍ متعدِّدَةً، وتقومُ بأنشطةٍ إداريَّةٍ وتنفيذيَّةٍ وتشريعيَّةٍ وقضائيَّةٍ. تحتضِنُ بروكسيل مَقَرَّ المفوضيَّةِ. تنقسمُ المفوضيَّةُ إلى نحوِ **40** مديريَّةً عامَّةً تتفرَّعُ بدورِها إلى مديريَّاتٍ ووحداتٍ.

تُعَدُّ تركيا مركزًا مستقبليًّا للطاقةِ، ومَمَرًّا لأنابيبِ الغازِ الطبيعِيّ. حيث تمتلكُ نسبةً عاليةً من احتياطياتِ النفطِ، والغازِ الطبيعِيّ في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ، وأنَّها تقعُ بالقربِ من أوروبا أكبرِ المناطقِ المستهلِكَةِ للطاقةِ. والمبرِّرُ الذي يدعم ذلك، هو: أنَّ روسيا الاتحاديَّةَ منذ ثلاثةِ أعوامٍ وحتَّى الآن، قطعتْ بين الحينِ والآخرِ إمداداتِ الغازِ الطبيعِيّ المارَّةِ عَبْرَ أوكرانيا عن أوروبا؛ الأمر الذي يزيدُ من احتمالاتِ تحوُّلِ تركيا إلى نقطةِ عبورٍ للغازِ الطبيعِيّ إلى أوروبا."[298]

إلاَّ أنَّ جبهةَ المعارضةِ في داخلِ الإتِّحادِ ترفضُ انضمامَ تركيا إلى الحلفِ لأسبابٍ أهمُّها: أنَّ تركيا وريثةُ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ التي شنَّتْ حروبًا على أوروبا واستضعفتْ أهلَها، واحتقرتْهم، واتَّخذتْ منهم عبيدًا وإماءً على مدى قرونٍ. فإذا انضمَّتْ إلى الإتحادِ (وهي قد تظلُّ على هذه العقلية!) سوفَ تقضي على الهوية المسيحية في أوروبا.

ومن جملةِ حججِها: أنَّ اقتصادَ تركيا لن تتناغمَ مع اقتصادِ الدول الأعضاءِ. وهذا سوف يؤدِّي إلى اختلال التوازن الإقتصادِيّ في أوروبا، فيتدهور المستوى المعيشِيُّ والرفاهيَّةُ التي يتمتَّعُ بها سكانُ القارَّةِ.

ومن هذه الحججِ: خطورةُ التباعدِ الثقافِيّ بِصِدَامِ الحضارتينِ الإسلامِيّ والمسيحِيّ، وتفاقُمِ الفِتَنِ وانتشارِ الفكرِ المتشدِّدِ جرَّاءَ ذلك.

على رغمِ هذا الدِّفاعِ ما تزال تركيا تهرعُ وراءَ الإتِّحادِ الأوربِيّ منذُ أربعةِ عقودٍ لعلَّه يحتضنها يومًا فتنالَ بغيتَها التي افتدتْ من أجلِهَا بكثيرٍ من خصائصِها الإجتماعية والثقافية، والإتِّحادُ يرفضُ الموافقةَ على طلبها بعد كلِّ محاولةٍ وهي تتضرَّعُ إليها بإصرار، كما أكَّدَ الرئيسُ رجب طيّب أردوغان في أحدِ تصريحاتِهِ قائلاً: "إنَّ العضويَّةَ الكاملَةَ بالاتِّحادِ الأوروبِي تُمَثِّلُ هدفًا استراتيجِيًّا لتركيا، ونحن نناضلُ منذ **50** عامًا تقريبًا من أجلِ تحقيقِ هذا الهدف."[299]

***

---

[298] http://www.moqatel.com/openshare/default.htm

[299] وكالة أناضول للانباء: http://www.aa.com.tr/ar/turkey/428257

العلاقاتُ التُّرْكِيَّة– العربيّةُ على المستويين التاريخي والراهن

- لمحةٌ تاريخيَّةٌ للعلاقاتِ التُّرْكِيَّة–العربيَّة القديمةِ:

بين التُّرْكِ والعرب صلةٌ قديمةٌ منذُ ألفِ سنةٍ، قد أفرزتْ نتائجَ عظيمةً وخطيرةً ملأتِ التاريخَ المشتركَ بين القومين. استهلَّ هذا التاريخُ بتعارضٍ شديدٍ ظَهَرَ أوّلاً في فهم كلٍّ من الطرفين للدِّين، ثم ظهر في نظرةِ كلٍّ منهما للكونِ والحياةِ والأحداثِ، وازدادَ حدّةً واستفحالاً كلَّما ازدادتْ العلاقةُ بينهما كثافةً؛ فلم يكنْ للدِّينِ المشتركِ دورٌ كبيرٌ في التضامُنِ والتعاونِ بين الطرفين خاصَّةً على الصعيدِ السياسِيّ إلاَّ في مراحلَ استثنائيَّةٍ. استمرَّتِ المنافسةُ والصراعُ على السلطةِ والنفوذِ بينهما منذُ بدايَةِ تعرُّفِ الأتراكِ على الإسلامِ إلى اليوم. ذلك لأنَّ فَهْمَ الأتراكِ للإسلامِ اختلفَ عن فَهْمِ العربِ له اختلافًا كبيرًا منذُ البدايَةِ. وبَعُدَتِ الشُّقَّةُ بين تفسيرِ الطرفين للدِّينِ على مرِّ الزَّمانِ حتَّى تحوَّلَ الإسلامُ إلى دِيَانَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ بحسبِ نظرةِ كلٍّ منهما إليهِ إذا صحَّ القولُ، كما وُرِيَ الإسلامُ في ثوبٍ آخر تمامًا عند الفُرْسِ بعد قرونٍ.

إنَّ النِّزاعَ والمنافسةَ والصراعَ الّذِي جرَى بين التُّرْكِ والعربِ على مَدَى التاريخ، لا يجوز أنْ يُعَلَّلَ بسببِ اختلافِ القومين في الأصلِ، أو في اللُّغَةِ والثقافةِ. لقد اختلفَ العربُ فيما بينهم فورَ وفاةِ النبي صلى الله عليه وسلم، وجرتْ حروبٌ داميةٌ بين الهاشِمِيّين والأمويّين وهما من أصلٍ واحدٍ، كما لا يزال النِّزاعُ المذهَبِيُّ قائمًا بين الشيعةِ والسنةِ من جراءِ ذلك. لأنَّ السياسةَ تكفي وحدَها أنْ تكونَ عِلَّةً للنِّزَاعِ حتى بين شقيقين، ولأَنَّهَا آليَةٌ لا تُستعملُ عادةً الاَّ للمصلحة الشخصية.

استطاعَ الأتراك أن يظهروا على مسرحِ التاريخِ لِمُنَافَسَةِ العربِ من بدايَةِ عهدِ السلاجقةِ الذين انتصرو على الغزنويّين عام **1040**م.، في معركةِ (دَنْدَنَكان) الشهيرة. دخل طُغْرُولْ بَكْ (**995**–**1063**) بغدادَ عام **1055**م. – وهو مؤسّسُ الدولة السلجوقيَّةِ – وأعلن تبعيَّةَ دولتِهِ للخلافةِ العباسيَّةِ في سنة (**1058**)م. في أيَّامِ القائِمِ بأمرِ اللهِ العباسيّ (**1001**–**1075**). كانتِ العلاقَةُ بينهما متينَةً إلى حدٍّ بالغ. يدلُّ على ذلك أن الخليفةَ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ السيِّدَةَ فاطمة. وهذا يُعَدُّ حَدَثًا نادرًا من نوعِهِ لِقِلَّةِ نظائِرِهِ في العلاقاتِ التُّرْكِيَّة–العربيَّةِ، ولم يكنْ ذلك ناشئًا عن موقفِ طُغْرُولْ بَكْ من الخليفةِ لِغَرَضٍ سياسيٍّ بَحْتٍ. بل كان بسببِ مَحَبَّتِهِ للسُّلاَلَةِ العباسيَّةِ التي تُعَدُّ في نَظَرِهِ "امتدادَ

آلِ النَّبِيِّ عليه السلام، الذين يحتلُّون مكانةً رفيعةً في المجتمعِ الإسلاميّ ويستحقُّونَ الإجلالَ والتوقيرَ من سائرِ أبناءِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ!".

لقد كان – في الحقيقةِ – أفَلَ نجمُ العربِ قبلَ هجرةِ الأتراكِ إلى الْمِنْطَقَةِ العَرَبِيَّةِ وانتشارِهم فيها عند نهايَةِ القرنِ العاشرِ الميلاديّ. لذا، لا يجوز منطقيًّا ربطُ انحطاطِ العربِ وتخلُّفِهِمْ بمجرَّدِ غلبةِ الأتراكِ على السلطةِ في المنطقةِ العربيَّةِ. كانت سيادَةُ الدولةِ في الأصلِ مُزَعْزَعَةً من قَبْلِ ذلك بسبب الحروبِ الداخلِيَّةِ والنِّزاعِ على السلطةِ، ودبيبِ الحركاتِ الباطنِيَّةِ، وتفاقُمِ الفلسفاتِ والنظرياتِ الكلاميَّةِ، وانتشارِ الفكرِ الصُّوفِيّ... فدخل العربُ في ظُلمةِ الجهلِ والتقليدِ الأعمَى شيئًا فشيئًا حتى ذهبَ جلالُ الخلافةِ من النفوسِ وتضعضعَ أمرُ الخلفاءِ العباسيّين بتغلُّب الأعجامِ على السلطة. وعمَّ الفسادُ في اللِّسانِ بطغيانِ اللُّغةِ الفارِسيَّةِ على العربِيَّةِ، فاختفت اللهجةُ الفصيحةُ، وساد اللَّحنُ، وظهرتِ العامِّيَّةُ وشاعتْ حتى ابتلى بها العلماءُ والشعراءُ والمثقَّفون. وازدادتِ القَتَامَةُ في تاريخ العربِ بنشوبِ النِّزاعِ على السلطةِ في عهدِ البُوَيْهِيِّين خَاصَّةً. عندئذٍ لم يبقَ للخليفةِ خيارٌ غيرَ طلبِ النجدةِ من الأتراكِ، فَلَبَّاهُ طغرول بك وأنقذَهُ من ظلمِ البُوَيْهِيّين الْفُرْسِ. بذلك بدأتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّةُ على الصعيد السياسِيّ ودامتْ إلى اليومِ تسوءُ فترةً وتَتَحَسَّنُ فترة أخرَى.

إنَّ العلاقاتِ التُّرْكِيَّةَ–العربيَّةَ موضوعٌ من أهمّ مسائلِ التاريخِ الإسلاميّ، ولها جذورٌ راسخةٌ في تاريخِ الأمَّةِ. لذا يتطلَّب خبرةً واسعةً واختصاصًا على مستوى الكمالِ من أي باحثٍ يخوض في دراسةِ هذهِ الْمَسْأَلَةِ، ويقومُ بالكتابَةِ عنها. لأنَّ في تناوُلِ هذا الموضوعِ مسؤوليَّةٌ عظيمةً لتأثيرِهِ البالغِ على المسلمين وتَوْجِيهِهِمْ. فإنَّ في انحرافِ الباحثِ أو انحيازِهِ بالحشوِ والتحريفِ والتزييفِ توجيهٌ خطيرٌ، وفي حيادِهِ والتزامِهِ للأمانةِ العلميَّةِ إظهارٌ للحقيقةِ وارشادٌ إلى الصواب.

هذا، وليس من السهلِ ربطُ حلقاتِ التحوُّلِ بين الماضِي والحاضرِ، لِتَتَبُّعِ مسارِ السيَاسةِ التُّرْكِيَّةِ مع العربِ منذُ أيَّامِ العبَّاسيّين وصولاً إلى حُكْمِ العثمانيّين للمنطقةِ العربيَّة من بدايَةِ أيامِ سليمِ الأوَّلِ إلى اليوم. ذلك أنَّ هذهِ المهمَّةَ تتوقَّفُ على شروطٍ؛ كالتزامِ المبادئِ العلميَّةِ بحيادٍ، وبأسلوبٍ منهجيّ وموضوعيّ، وبتحليلِ الأحداثِ عن خبرةٍ ورويَّةٍ في ضوءِ الأدلَّةِ والبراهين، وتقييمها بعيدًا كلَّ البُعدِ عن النَّزَعَاتِ العاطفِيَّةِ وما إلى ذلك...

***

- **سياسة تركيا تجاه المنطقة العربيّة أيام الدولة العثمانيّة**

لَمَّا فَقَدَ العربُ مركزَهُم السياسِيَّ بعد سقوطِ الدولةِ العباسيَّة عام 1258م. وزالَ سلطانُهم، مهَّدَتْ ظروفُ العصرِ للتُّرْكِ والفُرسِ والْمُغُولِ والبربرِ السبيلَ للاستقلالِ الذَّاتِيِّ، فاستولتْ كلُّ طائفةٍ من هذهِ الأقوامِ على منطقةٍ خلَّفَهَا العباسيُّونِ. شانُها شانُ كلِّ الإمبراطوريَّاتِ الكبيرَةِ. سقطتْ الدولةُ العباسيَّةُ سقوطًا سياسيًّا توافرتْ عواملُهُ من الداخلِ، ولم يكنْ سقوطًا عسكريًّا بِغَزْوٍ خارجِيٍّ احتلالِيٍّ. فـ"الحقُّ يكمُنُ في القوةِ وحدَها على الدَّوام" كما قيل. وأما السلاَجِقَةُ الأتراك، فكانتْ لهم دولةٌ شِبهُ مستقلَّةٍ من قَبْلُ، وكانوا من أقوَى أجزاءِ الأمَّةِ بعد انهِيارِ الإمبراطوريَّةِ العباسيَّة، فاستطاعوا أنْ يحافظوا على كيانِهم في أناضول أمامَ حملاتِ المغول، وكانتْ عاصمتُهُمْ مدينة قُونْيَا Konya. إلاَّ أنَّ أَماراتِ الشيخوخةِ كانت قد سادتْ على هذه الدولةِ بعد اجتياح التاتارِ على جزءٍ كبيرٍ من أراضِيها، كما تمرَّدتْ عليها القبائلُ، فما لبث حتَّى انهارتْ هي الأُخرى، فقامتْ على أنقاضِها إحدَى عَشْرَةَ أَمَارَةً، وفي جملتِها إمَارَةُ آلِ عثمانَ في غربِ أناضول وعاصمَتُها مدينةُ بُورْصَا Bursa (بروسه قديمًا) على تخومِ الدولة البِيزَنْطِيَّةِ التي أنْهَكَتْهَا غاراتُ السلاجقةِ في أيام عزِّها، فأصبحتْ دولةُ بيزنطةَ هذه المرَّةَ معرَّضةً لِتَحَرُّشَاتِ وحملاتِ العثمانِيِّين بعد انْهِيَارِ الدولةِ السلجوقِيَّةِ.

فلَمَّا اتّسعتْ الرقعةُ التي تَحْكُمُهَا الإمارةُ العثمانيَّةُ واستقوَى سُلطانُهَا على المنطقةِ خاصَّةً بعدَ فتحِ القسطنطنيَّةَ عام 1453م. على يدِ السلطان محمّد الثاني الذي لُقِبَ بـ"الفاتح"، تحوَّلتْ في عهدِ حفيدهِ السطان سليم الأوَّل، إلى دولةٍ ذاتِ نفوذٍ واسعِ النطاقِ ضمَّتْ في فترةٍ قصيرةٍ مناطقَ واسعةً من الديارِ العربِيَّةِ سواءٌ في المشرقِ العربي وفي شَمَالِ إفريقيا أيَّامَ ابنِهِ السلطان سليمان القانوني، واتَّسَمَتْ في الوقتِ ذاتِهِ بخصوصيَّاتِ "دولةٍ إسلامِيَّةٍ" تَقْلِيدِيَّةٍ على غرار الدولة الأمويَّةِ والعباسيَّةِ خاصَّةً بعد فتح البلاد الشامِيَّةِ ومصرَ عام 1516م. على يد السلطان سليم الأوَّل.

هذه الواقعةُ تُعتَبرُ نقطةَ تحوُّلٍ عظيمٍ بالنسبةِ للدولةِ العثمانيَّةِ لأسبابٍ، من أهَمِّها: أنَّ رقعةً واسِعةً من ديارِ العربِ أصبحتْ جزءًا منها. ومن هذه الأسباب: أنَّ السلطانَ سليم الأوَّلَ الذي استولى على الساحةِ الشامِيَّةِ ومصرَ والحجازِ واليَمَنِ، تسلَّمَ الخلافةَ من محمّدِ بن يعقوب المتوكِّلِ عَلَى اللهِ

الثَّالِثِ، آخرِ الخُلَفَاءِ العباسيّين في العهدِ المملوكِيّ بِمِصْرَ. وبذلك أصبحتْ أكثريَّةُ المجتمعِ العَرَبِيّ رَعَايَا الدولة العثمانيَّةِ. ومن هنا بدأتْ سياسةُ الأتراك تأخذُ مجراها في المنطقةِ العربِيَّةِ.

اختلفتْ سياسةُ الدولةِ العثمانيَّة في المنطقةِ العربِيَّةِ باختلافِ ظروفٍ مرحلِيَّةٍ ناجمةٍ عن التغيُّراتِ الإجتماعيَّةِ وحركاتِ التمرُّدِ، كما كان لِمَوَاقِفِ أولياءِ الأمورِ الذين في قِمَّةِ الدولةِ، والأمراءِ الْمَحَلِّيِّين، وأصحابِ الكلمةِ النافذةِ من العربِ تأثيرٌ بالغٌ في تغييرِ وتحدِيدِ السياسةِ بالمنطقةِ من مرحلةٍ إلى أخرَى. لقد كانتِ الدولةُ العثمانيَّة قائمَةً على نظامٍ عسكريّ تقليديّ محضٍ، أكثرَ من أنْ تكونَ دولةً مدنيَّةً اجتماعيَّةً، وكانت الجهودُ منصبَّةً على الاهتمامِ بالجيشِ، لاعتقادِ السلاطين أنّه العنصرُ الأساسُ في مواجهة الأخطارِ الْمحتمَلَةِ، فأهْملوا تعليمَ الفنونِ والصناعات، وسدُّوا عيونَهم وآذانَهم عن التطوُّراتِ التي كانتْ تجرِي في الغربِ خاصَّةً بعد النهضةِ الحديثةِ الأوروبِيَّةِ، فما لبث حتَّى بَدَتْ ملامِحُ الإنحطاطِ والتدنّي والْهَرَمِ في أجهزةِ الدولة ومرافِقِهَا.

من خصوصيَّاتِ الدولةِ العثمانيَّةِ: أنَّ اقتصادَها كان يعتمِدُ على غَنَائِمِ الحربِ، لذا طالَمَا اعتادتِ الدولةُ إعلانَ الحربِ على منطقةٍ من مناطقِ "بلادِ الكفرِ"، تحت شعار "الجهادِ" (؟!).

من الجدير بالاشارة هنا للمناسبَةِ؛ أنَّ جميعَ المعارِكِ التي خاضَتْهَا الدولةُ العثمانيَّة عبرَ تاريخِها كانتْ في عقليَّتِهِمْ: "غَزَوَاتٍ جهادِيَّةً على غرارِ حربِ البدرِ والأُحُدِ اللَّتانِ قادَ فيهما الرسول عليه السلام جيوشَه على المشركين". كان هذا هو التفسيرُ المتعارَفُ لدى المجتمعِ العثمانِيّ لأيّ حربٍ خاضتها "الدولةُ العَلِيَّةُ"، مع أي "دَولةٍ كافرَةٍ". فاستغلَّتِ السلطةُ العثمانيَّة فِقهَ الدفاعِ في الشريعةِ الإسلاميَّةِ بهذا التفسير الغريب الذي اخْتَلَقَتْهُ لكسبِ الرأْيِ العامّ في كلّ الأحوالِ؛ سواءٌ كان إعلانُ الحربِ يَسْتَنِدُ إلى سببٍ مشروعٍ، أو إلى ذريعةٍ تتقمَّصُ بها السلطةُ لإضفاءِ الشرعيَّةِ على قرارِ إعلانِ الحربِ، حتَّى تَحَوَّلَ هذا القصدُ المتكرّرُ منها إلى طبيعةٍ سياسيَّةٍ متأصّلةٍ في سلوكِ الدولةِ العثمانيَّةِ وتعامُلِها الخارجِيّ، مِمَّا يبرهن على الروحِ العسكريّ الراسخِ في الإنسانِ التُّرْكِيّ على مَدَى تاريخِهِ، كما يؤكِّدُ على هذه الحقيقَةِ – في الوقتِ ذاتِهِ – الإنقلاباتُ العسكريَّةُ التي فجَّرتْها القواتُ المسلَّحةُ التُّرْكِيَّة على الحكوماتِ الْمُنْتَخَبَةِ فأطاحتْ بها في العهدِ الجمهورِيّ رغم المزاعم التي تدَّعِي: "أنّ الدولةَ التُّرْكِيَّة تقوم على نظامٍ ديمقراطيّ حُرٍّ"!

لَمَّا تبنَّتِ الدولةُ العثمانيَّة– في سياسَتِهَا التوسُّعيَّةِ – الزحفَ والاستيلاءَ تحت شعار "الجهاد"، والجهادُ (في حدودِ شروطها المنصوصةِ في الفقه الإسلامِيّ) من الأعمالِ المقدَّسَةِ عند المسلمين، كانتْ لِكلِّ حربٍ أعلنَتْهَا "الدولةُ العليَّةُ"، قَدَاسَةٌ في مفهومٍ عامَّةِ الرعايا من العربِ والتُّركِ والكردِ وغيرِهِمْ من مُكَوِّنَاتِ المجتمعِ الإسلاميّ. كلُّ هذهِ الفصائلِ العرقيَّةِ الْمُتَبَايِنَةِ كانتْ تدعو "للجيوشِ المحَمَّدِيَّةِ" بالنصرِ، وتفرحُ بما "يُحَقِّقُونَ من الفتوحَاتِ، وما يَضُمُّونَ إلى سوادِ الوطن الإسلامِيّ من البقاعِ، وما يحملون إلى البلادِ من الغنائم والسُّبِيّ..." فكانت أسواقُ النخاسةِ تزدحمُ بأسرَى الحربِ وتنشطُ فيها تجارةُ البشرِ بعد كلِّ معركةٍ، وتُقامُ حفلاتُ السباقِ الفروسيَّةِ، والمبارياتِ والأفراحِ والتهاني، وتُطْلَقُ خُطَبٌ ساخنةٌ على المنابر، يُشَادُ فيها "بِغَلَبَةِ الجيوشِ الإسلاميَّةِ على فلول الكفر" تَتْبَعُهَا دَعَوَاتٌ مُطَوَّلَةٌ وابتهالاتٌ مُهَيِّجَةٌ، ويُفَخَّمُ عَبْرَ هذه النشاطاتِ شأنُ "خليفةِ اللهِ في أرضهِ وظلِّهِ على العالمين"!

يمكن أنْ نستخلِصَ من هذهِ الخصوصيَّةِ: أنَّ المعاركَ التي خاضَتْهَا الدولةُ العثمانيَّةُ مع حُكَّامِ المنطقةِ العربيَّةِ، لم تُعَدْ من الغزواتِ الجهادِيَّةِ (نظيرَ حروبِ العثمانِيّين في القارة الأوروبِيَّةِ)، ذلك باعتبارِ ديارِ العربِ مناطِقَ إسلاميةً، كما لم يُسمَحْ للجيشِ أن يقومَ بأعمال الأسرِ والسبيِ ولا بمصادرة الأموالِ والممتلكاتِ كغنائمِ الحربِ. بل كانتِ السلطةُ الجديدةُ تحتَلُّ مكانَ السلطةِ القديمةِ بشكلٍ طبيعيّ، تعمل على تَهْدِئَةِ مشاعر أهل المنطقةِ التي ضمَّتْهَا إلى المملكة العثمانيَّةِ وتَحْرُصُ على إزالةِ آثارِ الحربِ وتبِعاتِها السلبِيَّةِ من الخوفِ والذُّعْرِ، وتُعَوِّضُ عن الخَسَائِرِ ومخلَّفاتِ الدمارِ الناجمةِ عن تبادلِ القتالِ بين الطرفين بحكمِ الضرورة. لذا كانتْ سياسةُ التوسُّعِ والفتوحاتِ للدولةِ العثمانيَّةِ في المناطقِ العربيَّة تتبنَّى توحيدَ الأمَّةِ تحتَ رايةٍ واحدةٍ على الظنِّ الغالب، فَتُعَدُّ إمتدادًا طبيعيًّا بعيدًا عن أغراضٍ استعماريَّةٍ وسحقٍ للمجتمعات الآهلة بها[300].

إلاَّ أنَّ هذهِ السياسةَ لم تكنْ خاليةً تمامًا من آثارِ نَزَعَاتٍ أنانيَّةٍ وهواجِسَ نفسانيَّةٍ، يدلُّ على ذلك ما سجَّلَ بعضُ المؤرِّخين من الموقفِ المتهاونِ لِعددٍ من سلاطينِ بني عثمانَ بالنكبَةِ التي أصابتْ

---

300 يبرهن على هذه الحقيقة ما سجلَّ الكاتب السوداني محمّد الخير عبد القادر في بحث له، يقول: "لم يكن ثَمَّةَ نِزَاعٌ بين العثمانيّين وسُكّان الأقاليم العربيّة. لأنَّ العثمانيّين إنّما أخذوا السلطَةَ من المماليكِ في المشرق العربِيّ. ولم يكن العثمانيّون في نظر العرب غُزاةً فاتحين بل كانوا إخوةً لهم في العقيدة وحُماةً لِدارِ الإسلام. كانت حروبُ الدولة العثمانيّةِ في نظر المسلمين – عربًا أم أتراكًا– جهادًا في سبيل الله. وكان العربُ لا يرون الدولةَ العثمانيّةَ دولةً أجنبِيَّةً، وإنّما كان اعتقادُهُم أنها دولتهم فهي دولة الإسلام. وعاصمتها (إسلامبول). وكان هذا هو الشعورُ السائدُ إلى نهاية القرن التاسع عشر وحتّى بداية القرن العشرين لم يكن العربُ يُلقُون بالاً إلى أنَّ الدولةَ العثمانيّةَ تُركيّة بقدر ما كان يهمّهم أنها إسلاميّةٌ."

المسلمين في الأندلس[301]. وقد تكون ظروفُ العصرِ هي التي عرقلتِ الدولةَ العثمانيَّةَ عن نجدةِ المسلمين في تلك البقاعِ لأسبابٍ لا يمكنُ الوقوفُ على حقيقتِها اليومَ، ذلك أنَّ كثيرًا من الأحداثِ التاريخيَّةِ يصعُبُ تحليلُها، وقد يستحيلُ كشفُ أسرارِها، واللهُ أعلمُ بالصواب.

لقد كانتْ لِوَشِيجَةِ الدِّينِ قوَّةٌ عظيمةٌ ودورٌ كبيرٌ في ربطِ المسلمين بعضِهم ببعضٍ على مَدَى التاريخِ الإسلاميِّ، وهي تستمِدُّ من الآيةِ الكريمةِ "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً[302]" كانتْ لهذه الصلةِ عبرَ تاريخِ الدولةِ العثمانيَّةِ أيضًا أهمِّيَّةٌ بالغةٌ، فكانَ العربُ والتركُ والكردُ وسائرُ الأعجامِ الذين جمعَتْهُمُ السلطةُ العثمانِيَّةُ تحتَ رايَةٍ واحدةٍ، كانوا إخوةً في نظرِ عامَّةِ المسلمين وخاصَّتِهِمْ، بما فيهم سلاطينُ بني عثمان، وقد دامتْ هذهِ المشاعرُ راسخَةً في ضميرِ المجتمعِ الإسلامِيِّ حتى نِهَايَةِ القرنِ التاسع عشر الميلادِيِّ كما لا تزالَ القِلَّةُ السَّلَفِيَّةُ في جميعِ الإقطارِ الإسلاميَّةِ اليومَ تُحَافِظُ على هذهِ الْقَنَاعَةِ وَتَعُدُّهُا من ركائزِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخر.

هذا، فإنَّ المجتمعَ التركيَّ كانَ ينظرُ إلى العربِ بعينِ التوقيرِ والإجلالِ لِكَوْنِ الرسول عليهِ السلام بُعِثُ من بَيْنِهِمْ، وأنَّهم أَوَّلُ مَنِ استجابوا لِدَعْوَتِهِ، مِمَّا أسفرَ عن هذهِ النظرةِ وَصْفُهُمْ للعربِ: بِ"القوم النجيب Kevm-i Necib"، دامَ طيلَةَ قرونٍ إلى أنْ وَثَبَ الاتِّحاديُّون على السلطةِ فقضَوْا على كثيرٍ من المفاهيمِ والمصطلحاتِ والعاداتِ التي كانتْ لها أثرٌ في توطيدِ الصلةِ بين الأَجْزَاءِ الْعِرْقِيّةِ للأُمَّةِ. لقد كان الوازِعُ الدِّينِيُّ عند العثمانيِّين هو أساسَ الْوَحْدَةِ ونِبْرَاسَهَا إلى آخرِ حُكمِهِمْ، يشهدُ على ذلك فكرةُ "الجامعةِ الإسلاميَّةِ" التي أثارَها السلطان عبد الحميد الثاني، وبَنَى عليها سياستَهُ، وبَذَلَ جهودَهُ لتحقِيقِها حتى أصبَحَ ضَحِيَّةً لهذا الهدفِ المقدَّس.

---

[301] يقول جميل بيهم: وإذا انتحلنا لِمحمّد الفاتح عذرًا مَّا، فما عذرُ ابنِهِ بايزيد الثاني (**1481–1512**م.) الذي عاصر فرديناند المسمَّى بالكاثوليكي (**1474–1516**م.)، وكانت تصل إليه أنباءُ مَظَالِمِ مجلسِ التفتيشِ وَسَوْمِهِ المسلمين سُوءَ العذابِ، فضلاً عن إجبارِهِمْ على التنصُّرِ، وحرقِ مَنْ يقومُ منهم سِرًّا بممارَسَةِ الشعائرِ الدينيَّةِ؟ وما عذرُهُ وقد وصلتْ إليه الوفودُ من مسلِمِي الأندلس مستجيرةً ولكنَّه بدلاً من إنقاذِ إخوانِهِ المستجيرين به انصرفَ إلى محارَبَةِ مماليك مصر المسلمين، وإلى غزو قبرص، والاستيلاءِ على سواحلِ المورة في اليونان؟ أجلْ هذه غرناطة عاصمة بني الأحمر، التي كانت آخر ملجأٍ لِمسلِمِي إسبانيا، أمستْ على شفَى جرفٍ هارٍ، ولم يبقَ لها أملٌ إلاَّ نجدةٌ تأتيها من آلِ عثمانَ أولئك الذين أصبحوا بقوَّتِهم المتفوّقةِ سادةَ البرِّ والبحر. وهذا أبو عبد الله آخر ملوكِ غرناطة يبعث سنة **1487**م. رسولاً إلى السلطان بايزيد الثاني يلتمسُ منه النجدةَ على فرديناند ولكنَّ السلطان وضعَ أصابِعَهُ في أُذُنَيْهِ، ولم يستجبْ لأيِّ نداءٍ. وإذا استثنينا ما قاله صاحبُ كتاب العالم: l'univers, Joianin & Vangaver بأنَّ السلطانَ استجابَ لنداءِ الأندلس، وساقَ أسطولاً لِنجدتِها بقيادةِ رجلٍ من حاشيتِهِ اسْمُهُ (جمال)، نظرًا لما كان يتمتَّعُ به من الجمالِ الفائق؛ وإذا استثنينا هذا الخبرَ فإنَّا لا نجد في كتب التاريخ ما يشيرُ إلى هذا الأسطولِ أو إلى التنويهِ بنجدةٍ قدَّمَها السلطانُ لِمسلمي الأندلس مما يجعلنا نَشُكُّ في صِحَّةِ هذا الخبر. (محمد جميل بيهم، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ص/**115**. المطبعة الوطنية–**1957**م. مكان الطباعة مجهول)

[302] الأنبياء/**92**– المؤمنون/**52**

ومن الحقائقِ التاريخيَّةِ؛ أنَّ الأتراكَ العثمانِيّين (كذلك العربَ جميعًا) لم يكنْ قد نَبَضَ في نفوسِهِمْ شيءٌ من التحسُّس بالقوميَّةِ قبل القرنِ التاسعَ عَشَرَ الميلادِيّ[303]. فلم يُسمَعْ من أحدٍ من سلاطِينِ آلِ عثمانَ أنَّهُ افتخرَ بالأتراك دون غيرِهِمْ، أو فضَّلَهُمْ على بَقِيَّةِ فصائلِ الأمَّةِ من العرب والكردِ والشَّرَاكِسَةِ وغيرِهِمْ.. بل على عكس ذلك ورد عن عددٍ منهم (إذا صحتِ الروايَةُ) أنَّهم وصفوا الأتراك بِقِلَّةِ الإدراك! مِمَّا يثيرُ اليومَ غضبَ الفاشيِّين منهم، فيقابلون ذلك بالنقمةِ على سلاطين آل عثمان. وإنَّما كانوا يعتزُّونَ بالإسلامِ ويهتِفون به حتى آخرِ حُكْمِهِم الذي اغتصبَهُ السبطائيُّونَ اليهودُ بواسطةِ عملائِهِم الْمُغَفَّلين والإنتهازيّين الذين حشروهم تحت مظلَّةِ حزبِ الاتِّحادِ والتَّرَقِّي، فقضوا بذلك على الدولة العثمانِيَّةِ تمهيدًا لبناءِ دولتين يهودِيَّتَيْنِ في الشرق الأوسط!

إلاَّ أنَّ وجهةَ نظرِ الأتراكِ إلى الدِّينِ كانت ولا تزال تختلفُ عمَّا جاءَ به القرآنُ وَدَعَى إليه (بتعبيرٍ دقيقٍ ومُمَيِّزٍ)، اختلافًا لا يكادُ يظهرُ إلاَّ بعد مقارَنَةٍ عِلْمِيَّةٍ وتحليليَّةٍ بين مفهوم (الإيمان) ومصطلح (التَّدَيُّنِ). ذلك أنَّ الإيمانَ مفهومٌ قرآنِيٌّ أصيلٌ يُعَبَّرُ به عن اليقين التامّ بمعبودٍ واحدٍ وما يتعلَّقُ به من معتقداتٍ ومقدَّساتٍ وعملٍ بِمُوجِبِهَا على أساسِ التَّوْقِيفِيَّةِ، يقينًا راسخًا في أعماقِ ضمير الإنسانِ بوجهٍ لا يخالطُهُ أدنى شيءٍ من الريبِ والإشراكِ. بينما (التَّدَيُّنُ): تَفَعُّلٌ وَتَصَنُّعٌ وَتَكَلُّفٌ.. لا يمكنُ حصرُهُ في نطاقِ تعريفٍ بالضبط، ينساقُ به الإنسانُ إلى التمسُّكِ بِمُعْتَقَدَاتٍ يَتَلَقَّاهَا بِالتَّقْلِيدِ الْمَحْضِ ولا صِلَةَ لها بِالتَّوْقِيفِيَّةِ أبدًا.

إنَّ نظرةَ الأتراكِ إلى صِلَةِ الأُخُوَّةِ التي تَرْبِطُهُمْ بالعربِ كانتْ مُسْتَمِدَّةً من فكرةِ (التَّدَيُّنِ) أكثرَ منها استِمْدَادًا من وحي الإيمانِ؛ كانتْ جوفاءَ خاليةً من جميعِ مَيِّزَاتِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ التي اتَّصَفَ بِهَا

---

303 يؤكّد على هذه الحقيقة ما ورد على لسان باحث سوداني اسمه محمّد الخير عبد القادر يقول: "لم تكن كلمةُ (عرب) معروفةً في القرن التاسع عشر بالمعنى الذي نعرفه اليوم، ولم تكن تُطلَق – بوجه عامٍ – إلاَّ على بدو الصحراءِ أو السكان الذين يقيمون خارج المدن في الشرق الأوسط. ومن ثَمَّ لم تكن هناك قضيّة عربيّة في السياسة الدوليّة آنذاك. وبالمثل كانت كلمةُ (أتراك) لا تتردّد على الألسُنِ إلاَّ نادرًا، ويُقصَدُ بها البدو من التُّركُمانِ أو الفلاحين في قُرَى أناضول. وحتّى كلمة (عثمانيّن) لم تكن تحملُ معنًى قوميًّا، وإنّما كانت في مدلولِها شبيهةً بكلمة (عبّاسيّين) أو (أمويّين) أو (سلاجقة). أمّا الأتراك، فكان تعريفهم لأنفسهم أنّهم مسلمون وَلاَؤُهُمْ للإسلامِ ولِبيتِ (آل عثمان). وكذلك مَنْ نُسَمِّهِم اليوم (العرب) لم يكونوا يصفون أنفسَهم بانّهم عربٌ إزاءَ الأتراكِ. وإذا كان لا بدّ أن نُطْلِقَ عليهم هذه الصفةَ فهم (عربٌ عثمانيّون). لأنّ البلادَ العربيّةَ انضوتْ تحتَ لواءِ الدولة العثمانيّةِ منذ مطلع القرن السادس عشر، عندما سقطت سوريا في يد السلطان سليم في موقع (مرج دابق **24** أغسطس **1516**م.). وتبعتها مصر (في **23** يناير **1517**م.)، وأُلقِيَتِ الخُطَبُ في اليوم التالي في مساجد القاهرة باسم السلطان العثمانيّ. ومن هناكَ امتدَّ سلطانُ العثمانيّين إلى بقيّة أجزاءِ العالم العربيّ؛ الحجاز واليمن والعراق." (الدكتور محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمّة العربيّة بسقوط الخلافة العثمانيّة، دار التوفيق النموزجية، القاهرة/**1985**م.)

أصحابُ الرسولِ عليه الصلاةُ السلام، وأثْمَرَ عن التَّعَاطُفِ والتَّرَاحُمِ والتَّعَاوُنِ فيما بينهم؛ فنالوا بذلك شرفَ الدنيا وكرامةَ الآخرةِ.

على أنَّ العربَ لم يكونوا أفضلَ من الأتراكِ فهمًا لِحقيقةِ هذه الصلةِ، بل ما أصابَهم من المسكنَةِ، وما حالَ بينهم وبين القرآنِ الذي نزلَ بلغتِهم من الجْهْلِ، حَوَّلَهم إلى مجتمعاتٍ غَرِيبَةٍ بحيث لم يستحقُّوا الاهتمامَ أكثر مِمَّا أَوْلَتْهُمْ به السلطةُ العثمانيَّةُ. ولكي لا يُعَدَّ هذا من الفريَةِ والبهتانِ على العربِ يُستحسَن هنا أن يُتْرَكَ القول لأهلِهِ من مثل العلاَّمَةِ ابنِ خلدون. وهذه خطوطٌ عريضةٌ مُقْتَبَسَةٌ مِنْ مُقَدِّمَتِهِ الشهيرة، يقول:

"إنَّ العربَ لا يتغلَّبُونَ إلاَّ على البُسَطَاءِ. إنَّ العربَ إذا تغلَّبُوا على أوطانٍ أسرعَ إليها الخرابُ. إنَّ العربَ لا يحصُلُ لهم الْمُلْكُ إلاَّ بِصِبْغَةٍ دينيَّةٍ من نُبُوَّةٍ أو ولايةٍ أو أثرٍ عظيمٍ من الدِّينِ على الجملةِ. إنَّ العربَ أبعدُ الأُمَمِ عن سياسَةِ الْمُلْك"[304]

---

[304] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، الجزء الأول من كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر ، المشتهر بالمقدّمة. ص/**102–105**. دار ومكتبة الهلال، بيروت–**1991**م.

نعم، لم يكن العربُ من قديم الزمان أهلَ سياسةٍ حكيمةٍ تُمَكِّنُهُمْ من الربطِ والضبطِ، وتوحيدِ الصفوفِ، وجمعِ شملِ الأمّةِ، والنهوضِ بها، والصلابةِ والصمودِ أمامَ التحدّيات، إلاَّ في فترةٍ قصيرةٍ كانت معجزةً إلهيّةً ظهرتْ لحكمةٍ بالغةٍ على يد الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّمَ، وأصحابِهِ الربّانيّين العدولِ، الذين قال الله تعالى فيهم: "وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ..."

كانت هذه الفترةُ حدثًا استثنائيًّا فيه دروسٌ وعِبَرٌ للبشريّةِ إلى يوم القيامة، دروسٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى.. ولن تبلُغَ شأوَ هذا الجيلِ العظيمِ طبقةٌ من المسلمين، ولا من غيرِهم مِنْ أمّةٍ ولا شعبٍ إلى قيامِ الساعة؛ ولن يظهرَ له مثيلٌ من بينِ أجيالِ البشرِ فيما خصَّهُ الله من الإيمانِ الخالِصِ والعملِ الصالحِ والتقوى، والحرصِ على كلِّ أنواعِ الخيرِ والبِرِّ، ومحاربةِ الشركِ بكلِّ أشكالِهِ، وتأسيسِ العدالةِ، والتمسُّكِ بمبدأِ المشورةِ، والتحلّي بمكارمِ الأخلاقِ، والأخذِ بأسبَبِ التمكينِ، والاستعدادِ للفوزِ بشرفِ الدنيا وكرامةِ الآخرة...

هذا، ولا شَكَّ في أنّ العربَ أَلَمُّوا بالأدبِ والشعرِ، وتفوَّقوا في فنون الكلامِ قبل الاسلامِ وبعدَه. عالجوا صنوفًا من قضايا الفكر الإنسانِيِّ، وطوّروا العلومَ بعد إسلامِهِمْ، وابتكروا ضروبًا من المبادِءِ والأصولِ ففسحوا المجالَ للتفكير السليم، وسهّلوا مناهج الإستنباطِ والاستنتاج في البحثِ بطريق القياسِ والمقارنةِ والتحليلِ والاستقراءِ... نبغ فيهم أعلامٌ سبروا غور فلاسفة اليونانِ بتتبُّعاتِهم الدقيقةِ، فتمكّنوا من الوقوفِ على مواطن الصوابِ والفسادِ في أقوالِهم، وتصحيح ما وقع فيه أولئك من الأخطاءِ والعيوبِ.

كما اشتهر العربُ في صناعةِ الأخذ والتلقّي بالتسجيل والتوثيق؛ ثمّ الاثباتِ بطريقَي الإسنادِ والاستشهادِ، وبرعوا في الإمدادِ بمعارفِهم من خلال التنسيقِ والتصنيفِ، فأبدعوا ثقافةً إنسانيّةً جديدةً خاليَةً من التعقيد والتكلُّفِ حتّى اكتظّت مكتباتُ العالَمِ بمؤَلَّفاتِهم. فكان من نتائج جهودِهِم الجبّارةِ في عصورهم الذهبيّةِ أن استفاقَ الغربُ من سباتِهِ العميقِ، فاستمدّ من كنوز معارف العربِ بعد قرونٍ حتّى نهضَ وبلغ اليومَ إلى ما يبهر له العقولُ مِنْ أنواعِ الصناعاتِ والفنونِ والكشوفاتِ والاختراعهاتِ...

إلاَّ أن العربَ ما لبثوا حتّى تقهقروا وكادوا أن يتأخَّروا إلى المستوى الذي كانوا عليه في جاهليَّتِهم، فغدَوْا متفرّقين متخاذلين، مستسلمين للطُّغاةِ والجبابرةِ والمستبدّين... حُكّامُهم متواطؤون مع أعدائِهم وقد أنْهَكَتْهُم الطبقيَّةُ والمحسوبيَّةُ، وفشتْ فيهم البِدَعُ والشعوذةُ، وانتشرتْ بالعَدْوَى من الأعجامِ إلى بيئاتِهم التطرُّفُ الصوفِيُّ، والغلوُّ المذهبِيُّ، واستشاطتْ بفعلِ المستشرقين في عقولِهم الفكرُ الإنعزالِيُّ، وتشوَّهتْ لغتُهم فتحوَّلت إلى لهجاتٍ هجينةٍ لا تكاد تُشبِهُ

لقد مرَّ بِتُركيا فيما سبق عدد غير قليل من المثقفين العرب والمستعربين، وأقامَ شخصياتٌ بارزةٌ منهم في هذا البلد أيام إنهيار الدولة العثمانية. يأتي على رأسهم خير الدين التونسي الذي تولَّى الصدارةَ العُظْمَى في أواخرِ العهدِ العثماني، ومنهم الشيخ جمال الدين الأفغاني، والشيخ أبو الهدى الصيَّادي، وعبد الله النديم، وأحمد فارس الشدياق، وعبد الرحمن الكواكبي، وساطع الحصري، وعارف بكر الدجاني، وأحمد سامي الأتاسي، وعادل زعيتر، والملاَّ عثمان الموصلي، ومحمد على العابد، والشريف محي الدين بن علي حيدر، وعدد كبير من نُوَّابِ الأيالاتِ العربيَّةِ في المجلس العثماني... وممن توافد إلى تركيا في العهد الجمهوريِّ: الأستاذ الدكتور محمد بن تاويت الطنجي، والأستاذ الدكتور إبراهيم الصنافيري، والأستاذ الدكتور محمد حرب، والأستاذ الدكتور فتحي النكلاوي، والأستاذ الدكتور أحمد الشوابكة، والدكتور إبراهيم الحلالشة، والدكتور زبير خلف الله، والدكتور عبد الرازق أحمد، والدكتور عمر أمكاسو، والدكتور عبد الخالق حسان الشريف، والطبيب فائد حسن، والطبيب أحمد جبُّور، والصحفي إبراهيم بوعزِّي، والمقاول إحسان سبع النمور، والتاجر

العربيَّة... فاستغلَّتْهم قِلَّةٌ ثريَّةٌ منهم، تستضعِفُهُمْ بالتعاون مع الحكَّامِ وهي تتقلَّبُ في ألوانٍ من النعيم، بينما أكثرهم يتذوَّقُون مرارةَ الفقرِ والفاقةِ والغلاءِ والمهاجر، ويعانون من التخلُّفِ والأمراضِ والآلامِ وقسوةِ العيشِ... والسُجُونُ في البلاد العربية مليئةٌ بالعلماءِ، والخُبَرَاءِ، والأُدَبَاءِ، والأَذْكِيَاءِ، والعباقرةِ، والمثقَّفين.. ظلمًا وعدوَانًا. تلتهبُ اليومَ بلادُهُم بنيرانِ الثوراتِ وتقصم ظهورَهم الشغَبُ والفِتَنُ وهم يتباكون على أمجادِهِمْ التي أضاعوها من جانب، (كما ينشدُ الشاعرَ المصريُّ محمود غنيم في قصيدتِهِ: "إني تَذَكَّرْتُ والذِّكْرَى مُؤَرِّقَةٌ * مَجْدًا تَلِيدًا بِأَيْدِينَا أَضَعْنَاهُ")، ومن جانبٍ آخرَ يتفاؤلون بالفتنةِ التي تجتاح بلادَهم مَّا عسى أن تكونَ حريقًا يقضِي على معاقِلِ الظلم والقهر، وبشارةً تُنبِئُ عن الخلاصِ والنجاةِ من النكباتِ التي أصابتهم إبّان التناحُرِ والحروبِ الإهليَّةِ الطاحنةِ، أبادتْ منهم مئاتِ الألوفِ، بل الملايينَ، فسَمَّوهَا "الربيعَ العربيَّ"!

ثبتَ مُعظمُ هذهِ الحقائقِ من خلالِ دراسةٍ خاصَّةٍ وبحوثٍ اختباريَّةٍ دقيقةٍ أجْرَيْنَاهَا بالاتِّصالِ مع عددٍ من المثقَّفِينَ السوريِّين المهاجرين إلى تركيا. فكم كان الجهلُ بالمفاهيم والمصطلحاتِ سِمَةً بارزةً فيهم، وعلى سبيل المثال: لَمَسْنَا عجزًا بالغًا يعانيهِ أحدُ علماءِهِمْ في التمييز بين ثلاثِ مصطلحاتٍ وردتْ في ثنايا هذا الكتاب، وهي: (الحَنَفِيَّةُ)، و(الحَنَفَانيَّةُ)، و(الحَنِيفِيَّةُ).

أمّا الحَنَفِيَّةُ (المقصود بها في ثنايا هذا الكتاب): فَهِيَ اسْمٌ أُطْلِقَ على المذهبِ المنسوبِ للإمامِ أبي حنيفةَ رحمه الله، والمعروفِ (بالمذهبِ الحنفيِّ) كما مرَّ سالفًا وهذا نصه: "المذهبُ الحنفيُّ: يتمثَّلُ في اجتهاداتِ الإمَامِ أبِي حنيفةَ النعمان، وتلاميذِهِ (أبي يوسفَ يعقوب بن إبراهيم، ومحمّد بنِ الحسنِ الشيبانيِّ، وزُفَرِ بْنِ الهُزَيْلِ). وهم من أعلامِ الجيلِ الثاني، في الفقهِ الإسلاميِّ رحمهم الله تعالى."

وأمّا الحَنَفَانِيَّةُ: فهي اسمٌ اصْطَلَحْنَاهُ للإطلاقِ على المذهبِ الحنفيِّ بعد أن تعرضَ لتشويهٍ بالغٍ وتحريفٍ شنيعٍ فتحوَّلَ إلى شِبْهِ دينٍ مستقلٍّ يعتنقُهُ أهلُ الأهواءِ من العنصريّين والقبوريّين الأتراك، للتمايزِ عن الأحنافِ العربِ، وذلك على سبيل الكراهية لهم. ووزن (فَعْلاَنِيّ) أو (فَعَلاَنِيّ): كثيرًا مَّا يوحِي بمعنًى وجهٍ من وجوهِ الفسادِ في الموزون، بالوضعِ والتدليسِ والتزويرِ والتلفيقِ، أو التشويهِ والتحريفِ. وقد يدل هذا الوزن على الاستحداثِ في الموزون، مثل: (عقلانِيّ)، في مقابلةِ (عقليّ، منسوبٍ إلى العقلِ)؛ و(روحانِيّ) في مقابلةِ (روحيّ، منسوبٍ إلى الروحِ)؛ و(نفسانِيّ)، في مقابلةِ (نفسيّ، منسوبٍ إلى النفسِ)؛ و(علمانِيّ) في مقابلةِ (علميّ، منسوبٍ إلى العِلمِ)... وَثَمَّ أسماءٌ على هذا الوزنِ يُسْتَثْنَى من هذه الطائفةِ، مثل: (فلانٌ ربّانِيٌّ)، فلا يقال (ربِّيٌّ).

وأمّا الحَنِيفِيَّةُ: فهي العقيدةُ السمحةُ التي تُلاَئِمُ فطرةَ الناس. والمعتنقُ للحنيفيةِ: يُقالُ له "هذا حنيفٌ"، أي يُوَحِّدُ اللهَ ولا يُشركُ به. والحَنِيفِيَّةُ: هي التي لا غُلُوَّ فيها ولا تقصير. تُطلقُ على الإسلامِ الذي يتمثَّلُ في إطار الكتاب والسنة. أي على ملةِ الإسلامِ التي كان عليها إبراهيمُ عليه السلامُ والأنبياءُ، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه والمؤمنين باتِّباعِها، فقال سبحانه وتعالى: فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (آل عمران/**95**).

غزوان المصري، والتاجر محمد الأكرادي، والدكتور نزار نبيل الحرباوي، والكاتب عبد القادر عبد اللّي، وكثير غيرهم...

من العجيب العجيب أنَّ شخصًا من هؤلاءِ، (ولا أحدًا غيرَهم من العرب)، لم يطرقْ بكلمةٍ واحدةٍ إلى الإسلامِ المشوَّهِ الذي نسجَ الأتراكُ خيوطَه قبلَ الفِ سنةٍ، وسمَّوْهُ "المسلمانيَّةَ Müslümanlık". لم ينتبهْ أحدٌ من هؤلاءِ الشخصيات إلى ما فعل قدماءُ الأتراك عَبْرَ عصورِ الظّلامِ من العبث في تعاليمِ الإسلامِ وقوانينِهِ الأصيلةِ العالميّةِ، وما حشَوْهُ بالمذهبيَّةِ والتصوُّفِ فطوَّروه إلى شكلٍ آخر وحوَّلوه إلى شبهِ دينٍ مستقل. وإنْ دلَّتْ هذه الحقيقةُ على شيءٍ فإنّما تدلُّ على غفلة العرب عن أحوالِ الأمةِ وعدمِ مبالاتهم بالتغيُّراتِ والمستحدَثات التي طرأت على عقائد المسلمين، فعدلَ بمُعظمِهِمْ عن الصراطِ المستقيم. فَأَعْظِمْ بهذه الغفلة ذنبًا أخذهم الله به وهم يتلون كتابه الذي أنزله بلغتِهم يفهمه حتى رعاعُهم ورُزَّالُهم فضلاً عن مُثَقَّفِيهِمْ وأُدَبَائِهم، إلى أن أبلاهم ربُّ العزّةِ بأعاصير (الشتاء العربيِّ) وأذَاقَهُمْ وَبَالَ أمرِهِمْ، فسلَّطَ بعضَهُمْ على بعضٍ يقتتلون، ويتناحرون، ويلجئون إلى بلاد الشرك، يطلبون الحماية من القبوريّين أهلِ الأهواءِ والبدعِ والخرافاتِ، وعبدة الأضرحة والشيوخ...

***

هذا، على رغم ما أصابَ الاسلامَ من التشويهِ والتحريفِ، بالإضافةِ إلى غفلةِ العربِ عن هذه الاستحالةِ الخطيرةِ في عقيدةِ الأتراك، لا ينبغي أن نتجاهلَ الجهودَ التي بذلتْها الدولةُ العثمانيَّةُ وقتَها في الدفاعِ عن المنطقةِ العربيةِ للحيلولة دون أطماعِ الغربيّين ومحاولاتهم للسيطرة على هذه المنطقة. ربما لأسبابٍ ناشئةٍ من الوضعِ الإجتماعيِّ المتأخّرِ في البلادِ العربيَّة والفقرِ والمسكنةِ والجهلِ الْمُتَفَشّي، ثارتْ غَيْرَةُ العثمانيّين على المنطقةِ العربيَّةِ – باعتبارِها أجزاءً من الوطنِ الإسلاميّ– فأعلنتْ سيادتَها على هذه الرقعةِ تفاديًا لِهَجَمَاتِ البرتُغاليّين كي لا تقع فريسةً لهم.

لقد تصاعدَ في تلك المرحلةِ خطرُ الزحفِ البُرتُغاليّ على البحرِ الأحمرِ وسواحلِ اليمنِ ومنطقةِ الخليجِ العربيّ، وَبَدَا تَهديدُهم على الأراضِي المقدَّسَةِ بينما الأُمَرَاءُ الْمَحَلّيُّون يعانونَ عجزًا بالغًا في الدّفاعِ عنها. فنهضَ السلطان سليم الأوَّل لهذه المهمَّةِ بعد أنْ تصدَّى لِحَاكِمِ الدولةِ الصفويَّةِ الشيعيَّةِ (شاه إسماعيل) في موقعةِ تشالدران Çaldıran عام **1514**م. وحالَ دون أطماعِهِ التوسُّعيَّةِ، ثمّ سارَ بجيشِهِ على دولةِ المماليكِ الشراكسةِ بِمِصْرَ التي كان قد أصابَها الوهنُ ودبَّ في أوصالِها

الضعفُ والإنحلالُ، فأصبحتْ هدفًا لِمَطَامِعِ الغُزاةِ الأوروبِيّين، فقضَى عليها بعد أن قُتِلَ حاكمُ المماليكِ السلطانُ الأشرفُ قنصوه الغوري في ساحةِ المعركةِ بِمَرْجِ دَابِق، وأُعْدِمَ (طومان باي Tomanbay) آخرُ سلاطين المماليك بالقاهرة عام 1517م. فتمَّ الأمرُ بعد ذلك للسلطان سليم الأوَّلِ بِضَمِّهِ مِصْرَ والبلادَ الشاميَّةَ إلى المملكةِ العثمانيَّةِ، كما انتقلتِ المنطقةُ الحجازيَّةُ أيضًا تحتَ سيادتِها بطلبٍ مباشرٍ منْ أميرِ مكة المكرَّمة الشريف بَرَكَاتِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَجْلاَنِ الْهَاشِمِيّ. بعثَ وفدًا إلى السلطان سليم يحملُ إليهِ مفاتيحَ الكعبةِ المشرَّفَةِ وبعضَ آثارِ النبوِيَّةِ الشريفَةِ. كذلك دخلتِ اليمنُ تحتَ السيادةِ العثمانِيّين.

وقد أضفتْ كلُّ هذه التطوُّراتِ على الدولةِ صفةً دينيَّةً، وانتقلتِ الزعامةُ الدينيَّةُ إلى سلاطين الأتراك من آلِ عثمان بدءًا من السلطان سليم الأوَّل، وإنْ كانتْ هذه الصفةُ لا تحملُ أي معنىً من الخلاَفَةِ الحقيقيَّةِ الراشدةِ لِمَنْ تقلَّدَهَا بعد الحسن بن علي بن أبي طالب إلى عبدِ الِمَجِيد أفندي العثمانِيّ الذي كان هو الثالثَ عَشَرَ بعدَ الْمائَةِ في قائمةِ الخلفاءِ التَّقْلِيدِيّين.[305]

إنَّ العصرَ الأوَّلَ من الحكم العثمانِيّ في المنطقةِ العربيَّةِ، يتميَّزُ بإدارةٍ شِبْهِ لامركزيَّةٍ، حيث أبقتِ البلادَ على التقسيماتِ الإداريَّةِ التي كانت معروفَةً في العهد الْمَمْلُوكِيّ، فلم تتدخَّلْ في شؤونِ هذه المنطقةِ بشكلٍ مباشرٍ إلاَّ في حالاتٍ استثنائيَّةٍ، كنصبِ الأمير جَانْبُرْدِي الْغَزَالِيّ، الذي خان مليكَه (قَانْصُوه الْغَوْرِي) في معركةِ (مَرْجِ دابق)، ومهَّدَ السبيلَ لانتصارِ الجيوشِ العثمانيَّةِ على القواتِ المملوكيَّةِ، فنصبَهُ السلطانُ سليمُ الأوَّلُ واليًا على المنطقةِ الشاميَّةِ، ثم عُزِلَ من منصبِهِ جزاءَ تمرُّدِهِ وخروجِهِ على السلطةِ العليا في عهدِ السلطان سليمانِ القانوني، فقُسِمَتِ المنطقةُ إلى ثلاثِ ولاياتٍ لتسهلَ السيطرةُ عليها، فسادتْ فترةٌ من الهدوءِ في بلادِ الشامِ بشكلٍ عامٍّ تزامنَ مع وجودِ عددٍ قليل من السلاطينِ المشهورين بالقوَّةِ والعدالَةِ والْهِمَّةِ العالِيَةِ، مثل السلطان ياغوز سليم وابنِهِ السلطان سليمان القانوني. لقد كانت الدولةُ وصلتْ في عصرهِمَا إلى أوجِ مَجْدِها. إلاَّ أنَّ بوادِرَ الضعفِ وأحداثَ الفِتَنِ وَجَوْرَ الوُلاَةِ والموظَّفين الْمحلِّيّين، أخذتْ في التنامي عند نِهايَةِ النصفِ

---

[305] احتل مقام الخلافة الإسلامية قُرابَةَ أربعةَ عَشَرَ قرنًا **118** خليفةً؛ خمسةٌ منهم خُلَفَاءُ حقيقيُّونَ دخلوا في سجلِّ التاريخِ باسم "الخلفاء الراشدين" وهم: أبو بكر الصديق، وعمرُ بْنُ الخطاب، وعثمانُ بْنُ عفانَ، وعلِيّ ابنُ أبي طالبٍ، والحسنُ بْنُ علِيّ. أمَّا الذين جائوا بعدهم، فليسُوا خلفاءَ على الحقيقة، بل خلافتُهُمْ رمزيَّةٌ. وهؤلاء: **14** منهم، من بنِي أميَّةَ؛ أَوَّلُهم معاويةُ ابْنُ أبِي سفيانَ. **37** منهم، عبَّاسيُّون. **14** منهم، فاطميُّون (العُبيديّون). **18** منهم من المماليكُ. **30** منهم، من آل عثمان. وقد أسقطَ العبيديّين من هذهِ السلسلةِ بعضُ المؤرِّخين، منهم: جلالُ الدِّين عبد الرحمن السيوطي، يستبشعُهم في مستهلِّ الفصلِ الذي أفردَهُ لهم بقوله: "فصلٌ في الدولة الخبيثة العبيديَّةِ " ويقول في كتابه (تاريخ الخلفاءِ): "...وناهيك بهم إفسادًا وكفرًا وقتلاً للعلماء والصلحاء."

الأوَّلِ من القرنِ السابعَ عَشَرَ، كثورةِ علي باشَا جانبلاط في جهاتِ كِلِّسْ Kilis شَمال حلب، وثورةِ فخر الدين الْمَعَنِيّ في جنوبي سورية.

إن السلطةَ المركزيَّةَ لم تُهْمِلْ الإدارةَ للأمراءِ المحلّيّين بشكلٍ نِهائِيٍّ، بل كانتْ في بعضِ الفتراتِ تختارُ أصحابَ الكفائَةِ من شخصيَاتِ هذه المنطقةِ، نظرًا لِمعرفتِهِمْ بِدِيارِهم ومجتمعاتِهم بدليلِ الْمَثَلِ السائرِ: "أهلُ مكةَ أدرَى بشعابِها"، كما حدثَ ذلك في القرنِ الثامن عشر عندما ظهرَ جيلٌ جديدٌ من الولاةِ والموظَّفين حظيتْ غالبيتُهم بحمايَةِ الصدرِ الأعظمِ في مقرِّ السلطنةِ، كآل الْعَظْم الذين تُشيرُ أغلبُ المصادرِ إلى أن أصلَهُمْ من معرَّةِ النعمان، وأوَّل مَنْ ظهر منهم إسماعيل باشا العظم، ثُمَّ أخوه سليمان، ثُمَّ أسعد بن إسماعيل الذي بلغتِ الأسرةُ في عهدِهِ ذروةَ نفوذِهَا في بلاد الشام.

إنَّ ثِقَةَ السلطةِ العثمانيَّةِ بالولاةِ المحلّيّين في المنطقةِ العربيَّة (أو تَرْكَ الأمرِ لهم) كانتْ لها مبرّرَاتُها المرتبطةُ بظروفِ المنطقةِ؛ ذلك أنَّ الأمراءَ الْمحلّيّين كانوا يقومون بالقضاءِ على تمرُّدِ طوائفِ الجندِ، وتأديبِ البُغَاةِ، والقبضِ على اللُّصُوصِ وقُطَّاعِ الطُّرُقِ من البَدْوِ الذين كانو يَسْطُونَ على قوافلِ التجارةِ والحجيج. فكانوا يَكْفُونَ السلطةَ المركزيَّةَ مؤنَةَ هذهِ الْمَهَامِّ، يحافظونَ على التوازنِ بين مختلفِ القُوَى الْمَحَلِّيَّةِ في الولايةِ الواحدةِ، وضبطِ الأمورِ، وإقامةِ العدلِ ونحوِها من الشؤون الإداريَّةِ. كلُّ ذلك كانتْ منوطةً بِهِمْ. فكانتْ عواملَ استقرارٍ جعلتْ سلاطينَ الدولةِ العثمانيَّةِ يُفَضِّلونَهم على غيرِهم لإدارةِ أمرِ البلاد. بَيْدَ أنَّ هذا تَحَوَّلَ فيما بعدُ إلى حكمٍ وراثِيٍّ، حتَّى عَمَّ الفسادُ ولم تتمكَّنِ الدولةُ من ضبطِها والحدِّ منها بعد النصفِ الثاني من القرنِ التاسِعَ عَشَرَ.

لقد كانتِ الدولةُ العثمانِيَّةُ بلِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ كلُّها في هذهِ المرحلةِ في حالةٍ من الضعفِ والْهَوَانِ وشتَاتِ الشملِ بحيث يعجزُ اللسانُ عن وصفِها. لم تبقَ للسلطةِ العُليا هيبةٌ على الرعايا خَاصَّةً في المناطق النائيةِ. وهذا أنبتَ في نفوس الناسِ فكرةَ التمرُّدِ والإنفصالِ والمطالبةِ بالحكمِ الذَّاتِيِّ حتى بدأتْ كُتَلٌ تابعةٌ للدولة تُعْلِنُ عن انشقاقِها وتُحاوِلُ الحصولَ على إستقلالِها. لم يكنْ هذا المشهدُ المأساوِيُّ ناشئًا من سببٍ واحدٍ، بل كانتْ ثَمَّ أسبابٌ عديدةٌ تضافرتْ وتضخَّمتْ مع الزمان وعَبْرَ القرون. وقد عزا الوزيرُ الأعظمُ خير الدين باشا التونسيُّ الانحطاطَ الذي آلتْ إليه الحضارةُ الإسلاميَّةُ خصوصًا إلى نظامِ الْحُكْمِ الْمُطْلَقِ الذي تَوَخَّتْهُ الدولُ الإسلاميَّةُ على الإجمال منذ القرون الوسطى معتبرًا هذا النظام غريبًا عن الإسلام في أصوله.

جرتْ تطوُّراتٌ في المشرقِ العربيِّ بِحُكْمِ ظروفِ العصرِ بدأتْ في نهايَةِ القرنِ الثامن عشر إلى منتصفِ القرنِ التاسع عشر الميلاديين، طوالَ أيامِ السلطان سليمِ الثالث والسلطان محمودِ الثاني، هزَّتْ أركانَ الدولةِ العثمانيَّةِ وزعزعتْ استقرارَهَا. أوَّلُها: زحفٌ استعماريٌّ نحوَ البلاد العربيَّةِ، الذي قادَهُ الزعيمُ الفرنسيُّ (نابليون بونابرت[306]) بحملتِهِ على مِصْرَ وبلادِ الشامِ ما بين أعوام **1798–1801**م.. والثاني: كانت تحرُّكاتٌ سياسيَّة ثَارَتْ في منطقةِ نجد، وقامتْ دولةٌ هناك في ظل آلِ سعود. والثالثُ: محاولةُ محمد علي باشا وَالِي مِصْرَ للانفصالِ من الدولةِ العثمانيَّةِ بعد أن فَقَدَ الثقةَ بِقُدْرَةِ العثمانيّين على حمايةِ مُمْتَلَكَاتِ دَوْلَتِهِمْ. والرابعُ: ظهورُ عصابَةٍ خطيرةٍ انتحلتْ صفةَ حزبٍ سياسِيّ باسمِ (حزبِ الاتّحاد والترقّي)، فوَثَبَتْ على الْحُكْمِ، وأخذتْ على عَاتِقِهَا تدميرَ الدَّوْلَةِ بالاتفاقِ مع بريطانيا وفرنسا وإيطايا.

أمَّا التحرُّكاتُ السياسيَّةُ في المنطقةِ العربيَّةِ، – في الحقيقةِ – لم تكُنْ نتيجةَ صحوةِ الْعَرَبِ من سُبَاتِهِم العميقِ –كما يَدَّعِيهِ فريقٌ مِنْ كُتَّابِهِمْ –، بل كان بعضُهَا نتيجةَ إحساسِ الوُلاةِ الْمَحَلّيّين بالفَراغِ السياسِيّ وغيابِ السلطةِ العثمانيَّةِ التي سادتْ عليها ملامحُ الشيخُوخةِ حتَّى أطلقَ عليها قيصرُ روسيا نِيكُولاَ الأوَّلُ صفةَ الرجلِ المريضِ سنةَ **1853**م. بِسببِ ضَعفِهَا وتَفَكُّكِ أجزائِهَا والْهزائِمِ التي ألحقتْ بها العصياناتُ في الداخلِ، وَالغربُ بِجُيُوشِهِ من الخارجِ...

إنَّ آخرَ هذه الْحَمَلاَتِ هي زحفُ التحالُفِ الثلاثِيّ (بريطانيا وفرنسا وإيطايا) على منطقةِ أناضول، واحْتِلاَلُهُ إسطنبولَ عاصمةَ الدولةِ يوم **16** مارس **1920**م. وذلك بالتنسيقِ مع الشَبَكَةِ السِّرّيَّةِ لِحزبِ (الاتّحاد والتَّرَقّي). وبهذهِ المناسبَةِ يجبُ هنا سَرْدُ معلوماتٍ عن هذا التيَّارِ الإرْهَابِيّ المتقمّصِ في ثوبِ حزبٍ سياسِيّ لِعلاقتِهِ بالتطوُّراتِ والأحداثِ الَّتي شهِدَتْها المنطقةُ العربيَّةُ في تلك المرحلة. يجبُ هنا التركيزُ على أهَمّيَّةِ المعرفةِ بدقائِقِ التغيُّراتِ والتطوُّراتِ التي اتَّسمتْ بِها سياسَةُ الدولةِ العثمانيَّةِ تُجاهَ المنطقةِ العربيَّةِ في مرحلتِها الأخيرة أثناءَ حُكْمِ الاتّحاديّين. فقد دعتِ المناسبَةُ من هذا المنطلَقِ إلى عرضِ نُبذةٍ من النَّزْوَةِ التاريخيَّةِ المتمثّلَةِ في حزب الاتّحاد والترقّي.

- المغامرةُ السياسيَّةُ للسبطائيّين في المنطقةِ العربيَّةِ أيَّامَ حزبِ الاتّحادِ والترقّي.

---

[306] Napoléon Bonaparte; 1769 - 1821)

نَشَأَ تيَّارٌ سياسيٌّ غامضٌ أواخرَ القرنِ التاسعَ عَشَرَ الميلادِيّ في قلبِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ. عُرِفَتْ في البدايةِ باسْمِ (الاتّحاد العثمانِيّ). كان هذا التَّيَّارُ في أوَّلِ أمرِهِ حركةً سياسيَّةً سِرِّيَّةً. لا شكَّ في أنَّ العصابةَ السبطائيَّةَ كانت هي القوَّةَ الَّتِي أَفْرَزَتْهَا، ثمَّ ظلَّتِ الحركةُ طيَّ الكِتْمَانِ على مَدَى عقدين من الزمن ابتداءً من عام **1889**م. يدورُ شَبَحُهَا عَبْرَ سراديبِ الْمُدُنِ الواقِعَةِ بالمنطقةِ الغربيةِ خاصَّةً منها مَدِينَتَيْ إسطنبول وسالونيك الشهيرتين بِاحْتِضَانِهِمَا للمنظَّماتِ السِّرِّيَّةِ، وشَبَكَاتِ الْمَافْيَا، وعصاباتِ الإجرامِ وَالاغتيالات... ثم ظهرتْ إلى العَيانِ كَمُنَظَّمَةٍ سياسيَّةٍ باسم (جَمْعِيَّةِ الاتّحاد والتَّرَقِّي) عام **1906**م.، تُسَيْطِرُ عليها في الصورةِ حَفْنَةٌ من طلاَّبِ كلِّيَّةِ الطِّبِّ عُرِفُو بـ(الفِتْيَانِ الأتراك).

كان قادةُ الحزبِ (السبطائِيُّون) على اتِّصالٍ مستمرٍّ معَ الحكوماتِ الغربِيَّةِ خاصَّةً مع الحكومة الإنجليزيَّةِ والفرنسيَّةِ والأَلْمَانِيَّةِ، ودامتِ الاستشاراتُ واللّقاءاتُ والمفاوضاتُ بين الطرفين لإنجاح المؤامرةِ ضدَّ الدولةِ العثمانِيَّةِ، وللقضاءِ عليها، حتَّى تَمَّ الإتِّفاقُ على برنامجٍ يُنَفَّذُ عبرَ ثلاثِ مراحلَ لإكمال الخُطَّةِ:

أوّلاً: أنْ تزحفَ قواتُ التحالُفِ الثلاثِيّ (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) على السواحلِ الغربِيَّةِ والجنوبِيَّةِ لفصلِ المنطقةِ التُّرْكِيَّة عن بقيَّةِ المناطقِ العثمانِيَّةِ، لِيُمْكِنَ بعد الحسمِ إقامةُ دولةٍ تُركيَّةٍ طورانيَّةٍ صِرْفَةٍ على أراضي أناضول، (ذاتِ سيَادَةٍ في الظاهر)، تخدمُ أهدافَ الدُّولِ الْغَرْبِيَّةِ بالتواطؤ معها. يحاولُ في تحقيقِ هذا الهدفِ: المنظَّمَةُ السبطائيَّةُ ودولُ التَّحَالُفِ الثلاثيُّ بالتعاونِ ومن خلالِ تبادلِ المعطياتِ الإستخباراتِيَّةِ (عبر قنواتٍ سرِّيَّةٍ)، وبِتَوْجِيهِ الرأي العامّ التُّرْكِيّ وإِرْبَاكِهِ، وتشويشِ أفكارِهِ ببثِّ الأراجيفِ وتلويثِ البيئةِ المعلوماتِيَّةِ.

ثانيًا: دعمُ الحركةِ القوميَّةِ التُّرْكِيَّة في منطقةِ أناضول، وتأليفُهَا مع القِيَمِ الغَرْبِيَّةِ كإديولوجيَّةٍ شِبْهِ دينٍ بديلٍ للمجتمعِ التُّرْكِيّ، تمهيدًا لاحتواءِ "دِينِ الْعَرَبِ!" ومحوِهِ من ضميرِ الإنسانِ التُّرْكِيّ، لِيَتَمَكَّنَ بعد ذلك مِنَ الإنسجام مع "النموزج العلمانِيّ" في المجتمعاتِ الغربِيَّةِ قادرًا على مُوَاكَبَةِ الْعَصْرَنَةِ مُتَحَرِّرًا من قُيودِ التطرُّفِ الدينِيّ".

ثالثًا: تأسيسُ دولةٍ لليهودِ على جزءٍ من المناطقِ العربِيَّةِ، تكونُ هِيَ مع تركيا جسرًا لنفوذِ الغربِ إلى العالَمِ العربِيّ، وحفظِ التوازُنِ السياسِيّ على ساحةِ الشرقِ الأوسطِ في المستقبلِ.

التزمتْ التحالُفُ الثلاثِيُّ فِعلاً بِهذه الإتِّفاقيَّةِ السِّرِّيَّةِ مع الشبكةِ السبطائيَّةِ المتمثلةِ في حزبِ الاتِّحادِ والتَّرَقِّي، لأنَّ التطوُّراتِ الَّتي جَرَتْ أثناءَ الحربِ العالَمِيَّةِ الأولَى وما تعاقبتْهَا مِنْ تَبِعَاتٍ دلَّتْ دلالةً قطعيَّةً على صحَّةِ هذا الإلتزام.

لا تزالُ الأقَلِّيَّةُ السبطائيَّةُ تتحكَّمُ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ منذ نهايَةِ الحربِ العالَمِيَّةِ الأُولَى حتى اليوم؛ تحتكرُ السلطةَ والاقتصادَ، وتُهيمنُ على مُقَدَّراتِ الْبَلَدِ، وهي صاحبةُ الكلِمَةِ. هذا القطاعُ عِصَابةٌ خطيرةٌ كما مَرَّت قصَّةُ تَكَوُّنِهَا، وانتظامِهَا، وسِرِّيَّتِهَا، وخُططِها، ومؤامراتِهَا باختصار... أفرادُها مُوَزَّعةٌ في مرافقِ الدولةِ، غالبُهُمْ كبارُ أركان الجيشِ التُّرْكِيِّ، وأعضاءُ هَيْئَةِ القضاءِ في الْمَحْكَمَةِ الدستوريَّةِ والْمَحْكَمَةِ الإستئنافِيَّةِ، لهم شركاتٌ عالَمِيَّةٌ عملاقةٌ وبنوكٌ ومؤسَّساتٌ ضخمةٌ يعتمدون عليها في توجيهِ الشعبِ، وتسييرِ الرأيِ العامِّ، وبثِّ الدعياتِ والإشاعاتِ، واستخدامِ قنواةِ الْوَشْوَشَةِ الَّتي تخدمُ أهدافَهم... أمّا الحكوماتُ التُّرْكِيَّةُ، فإنَّها غالبًا مَّا تكون أُلْعُوبَةً في يَدِ هذهِ العصابَةِ.

إنَّ سَبَطَائِيَّ اليومِ هو سبطائيُّ الأمسِ، بل هذا أشدُّ من ذاك خُبْثًا ودَهَاءً وخَطَرًا على الإسلامِ والمسلمين بالمقارنَةِ مع أسلافِهِ. لأنَّ سَبَطَائِيِّي هذا العصرِ خاصَّةً مُجَهَّزون بِأَقْوَى أسلحةِ القمعِ والإقصاءِ والتشريد؛ مُجَهَّزون بِأَرْقَى أساليبِ الإرْبَاكِ والإخفاقِ والإفحام؛ مُجَهَّزون بِأَخْبَثِ فنون الزورِ والطعن والإتِّهام والفريَةِ؛ مُجَهَّزون بِأَخطَرِ آلِيَاتِ القَهْرِ والإذْلالِ والتعذيبِ الْمَعْنَوِيِّ؛ يتنكَّرونَ بالاسلامِ: يُصَلُّونَ، ويصومونَ، ويَحُجُّون، ويزكُّون على مرأى من الناسِ، وَيَتَسَمَّوْنَ بأسماءِ المسلمينَ (مثل: محمد، على، حسن، حسين، عمر، عثمان إلخ...)، وينافقونَ في تقلُّباتِهِمْ وتصرُّفاتِهِمْ، ليس ذلك لِمخادعَةِ الناسِ وتَعْمِيَتِهِمْ فحسبُ، بل يُمَهِّدُونَ الوسطَ بهذه الْحِيَلِ، ويَتَرَبَّصُونَ بالشعب التُّرْكِيِّ ليوقعوا بين طوائفِهِ العداوَةَ والبغضاءَ بكلِّ وسيلةٍ، ويلجؤون إلى ألوانٍ مِنَ الْحِيَلِ، لِيَطْغَوْا على كُلِّ مُخْلِصٍ للإسلامِ في جدالِهِمْ، لِيَرْمُوْهُمْ بالرِّيَاءِ واستغلالِ الدِّين والإتِّجَارِ بالقِيَمِ المقدَّسَةِ؛ وقد يتظاهرون بالْهُوِيَّةِ الإسلاميَّةِ الْوسطيَّةِ، ليبرِّروا بِهَا سُخْطَهُمْ على "الوهَّابِيِّين والصوفِيَّة!"، ولِكَيْ يبرهنوا لِلرَّأْيِ العامِّ الْمَحَلِّيِّ والعالَمِيِّ بهذه الطريقةِ الماكِرَةِ من النفاقِ: أنَّ الوهَّابِيِّينَ أهلُ عُنْفٍ وأعداءٌ لِلْمَدَنِيَّةِ، وأنَّ الصوفيَّةَ حُمْقٌ قطعانٌ من الدوابِّ... ليس هذا هَدَفُهُمْ في الواقع، بل لِيَمُدُّوا الصِّلَةَ بين الإسلامِ وبين هَاتَيْنِ الطائِفَتَيْنِ الْمُتَطَرِّفَتَيْن، بهذهِ الحيلَةِ الْمُدْهِشَةِ، فَيُثْبِتُوا للعامَّةِ بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ: أنَّ الإسلامَ دينُ العُنْفِ وَالتَّطَرُّفِ وَالْحَمَاقَاتِ... إنَّمَا انتشرتْ في أوروبا وأمريكا فكرةُ "الإرهابِ الإسلاميِّ" نتيجةَ محالاولاتِ السبطائِيِّين بواسطةِ أجهزتِهِم الإعلامِيَّةِ الضخمةِ، كذلك من

خلالِ اتّصالاتِهم السّرّيَّة بالمنظماتِ الاستخباراتيَّةِ والإرهابيَّةِ والْمَافْيَا العَالَمِيَّة، وَتَوَغُّلِهِمْ في صفوفِ خَوَارِجِ العصر... بينما المجتمعُ التُّرْكِيُّ مشغولٌ بِغَوَائِلِه، غافلٌ عن أغلبِ هذهِ الحقائق...

إنَّ فتنةَ السبطائيّين كانت هدَّامةً للغايةِ، ذهبَ رُبعُ المجتمَعِ التُّرْكِيّ ضَحِيَّتَهَا أيَّامَ الحربِ العالمِيَّةِ الأولى، كما سُحِقَ الْعَرَبُ أيضًا في أتونهَا (على حِسابِ الدولةِ العثمانيَّةِ) ودُمِّرَتْ كِيَانُهم وفُرِّقتْ شَمْلُهم ومُزِّقوا كلَّ ممزَّق.. والأدْهَى والأمرُّ من ذلك؛ وقعَ العربُ جرَّاءَ هذه الفتنَةِ فريسةً للغزوِ الإستعمارِيّ الذي خاضَتْهُ شعوبُ الغربِ في المنطقةِ العربيَّةِ بِشَنِّ حروبٍ طاحِنَةٍ على الساحةِ العرَبيَّةِ وباستخدامِ أشكالٍ من القمعِ، والقتلِ والمجازرِ الوحشيَّةِ، على حين كان العربُ في أسوءِ حالٍ سَجَّلَهَا تاريخُهُمْ.

***

لقد كان العربُ قومَ أدبٍ رائعٍ بفضلِ لسانهم الذي فاقَ جميعَ اللغاتَ الإنسانيَّةِ – في كلّ الأزمانِ – بِعُمْقِهِ وَثَرَائِهِ، ثم تطوَّروا إلى أُمَّةِ علمٍ حُقْبَةً من الزمن، لكنَّهم لم يكونوا أهلَ سياسةٍ قطُّ، لا في جاهليَّتهم ولا بعد إسلامِهِمْ، ما عدا الفترةِ التي قادَهُمْ النبيُّ عليه السلام والخلفاءُ الراشدون، وهي لا تتعدَّى أربعين عامًا فحسبُ. إنَّ الرُّقِيَّ الحضارِيَّ الذي شهدَها تاريخُ العربِ في العهدِ الأمويّ وفي مرحلةٍ من العهدِ العبَّاسِيّ، إنَّما كانَ انعكاسًا للعهدِ الراشديّ وامتدادًا لآثارِهِ وإلْهَامَاتِهِ، دامَ فترةً من الزمنِ ولم يلبثْ حتى انتهى بفشلٍ ذريعٍ بعد سقوطِ بغدادَ عام 1258م.

إن المؤرّخين العربَ يسمُّونَ المرحلةَ التي تبدأ بسقوطِ الدولة العباسيَّةِ وتنتهي بانْهيارِ الدولة العثمانيَّةِ، يسمُّونهَا بـ"العصر التُّرْكِيّ" ويَمْقُتُونَهَا. لأنَّهم يربطونَ شتاتَ شَمِلِ العربِ والْمذلَّةَ التي أصابَتْهم في كلِّ هذه المرحلةِ بـ"هَمَجِيَّةِ الفُرْسِ والْبَرْبَرِ والتُّرْكِ خاصَّةً، وتنافُسِهِمْ على السلطةِ". ويرمون مسئوليَّةَ تأخُّرِهم في سباقِ الحضارةِ على عاتقِ الأتراكِ بخاصَّةٍ! فلا يريدون أنْ يعترفوا بعجزِ الْعَرَبِ عن استعمالِ آلِيَةِ الحُكْمِ بأنْفُسِهِم، وأنَّهم لم يكونوا أهلَ كفائَةٍ في السياسَةِ والإدارةِ والقيَادَةِ عَبْرَ تاريخِهِمْ. لذا كان العربُ – في حقيقةِ الأمرِ – عِبْئًا ثقيلاً على كاهِلِ الدولةِ العثمانيَّةِ ووَبَالاً في ذِمَّتِهَا، وسببًا من أهمّ الأسبابِ التي أَنْهَكَتْهَا وأجهدتْ طاقَتَها وتركتْها هزيلةً لَمْ تعُدْ قادرَةً على مواصلَةِ مسيرتِهَا التاريخيَّةِ التي تشهدُ عليها معالِمُ عصرِ السلطان محمّدٍ الفاتحِ والسليمِ الأوَّلِ والسليمان القانونِيّ...

كان من أهمّ تنائجِ هذا الضّعفِ والإنحطاطِ ظهورُ مُنَظَّمَةٍ سرّيةٍ خطيرةٍ – في أواخرِ العهدِ العثمانيّ – توارَتْ بقناعِ حزبٍ سياسيّ اسْمه: (الاتّحاد والترقّي)، فقامتْ بتنفيذِ سلسلةٍ من المؤامراتِ في فترةٍ قصيرة تَغَيَّرَتْ من جرَّائِها خريطةُ الشرق الأوسطِ، ومهَّدتِ السبيلَ لزحفِ الدولِ الغربيَّةِ على الأراضِي العثمانيَّةِ زحفًا شاملاً بما فيها المنطقةُ العربيَّةُ، فاجتاحتْها من بدايةِ القرنِ العشرين الميلادي، وسحقت المجتمعاتِ العربيَّةَ في عُقْرِ دارِهَا (كما سحقت المجتمعَ التُّرْكيَّ هو الآخر) ونهبتْ ثرواتِ العربِ خاصَّةً، ثم أقامتْ على كل جزءٍ من بلادِهِهْم طاغيةً لينوبَ عنها في قهرِ شَعْبِهِ، وامتصاصِ دَمِهِ، واستنْزَافِ قدراته.. وما أحداثُ الربيعِ العربيّ اليومَ إلاَّ نوعٌ من الغضبِ الذي آنَ له أنْ يثورَ باللَّعْنَةِ على هذا التاريخِ الْمُلَفَّقِ والجُنَاةِ الّذين صنعوه، والإنتقامِ منهم ولو بعد قرن.

ينبغي هنا وبهذهِ المناسبَةِ التأمُّل في وجهةِ نظرِ القوميّين من كُتَّابِ العرب إلى الويلات التي انصبَّتْ على الأمَّةَ العربيَّةِ عَبْرَ القرون (خاصَّةً في أواخرِ أيَّام العثمانيّين)، وَرَبْطِهِمْ هذه المآسي بِحُكْمِ الأتراك، وإلقاءِ مسؤولياتِها على عامَّتِهم مع الإغضاءِ عن هذه العصابة التي لا صلَةَ لَها بالأتراك.

لا شكَّ في أنَّه ليس من العدلِ إلقاءُ اللاَّئِمة على أيّ دولةٍ وتعميمُ النكيرِ على حُكْمِها شاملاً كلّ الْحُقْبَةِ الزَّمَنيَّةِ التي دامتِ عبرَها على مسرحِ التاريخ، بسببِ جريمةٍ ارتكبَها مَلِكٌ من ملوكِها أو حكومةٌ من حكوماتِهَا. وهذا ما وقع فيهِ كثيرٌ من كُتَّابِ العربِ ومؤرِّخيهم ومثقَّفِيهم في تشنيعاتِهم على الدولةِ العثمانيَّةِ. بينما الدولةُ الواحدةُ (أيَّما كان شكلُها)، يتوالى على سلطتِها ملوكٌ ورؤساءُ وحكوماتٌ عديدةٌ في حدودِ آجالِها بِحُكْمِ الظروف السياسِيَّةِ، فيتميَّزُ بعضُها عن بعضٍ بتصرُّفاتِها وإجراءاتِها وأحكامِها التي تتغيَّرُ من فترةٍ إلى أُخرى. فقد يكون بعضُها أقربَ منها إلى العدالةِ وبعضُها جائرَةً مستبدَّةً في حُكْمِهَا.

ولهذا لم يكن الكاتبُ الْعَرَبِيُّ (؟) الشهيرُ (محمّد كُرد علي) عادِلاً حين قال في معرضِ كلامِهِ عن حُقْبَةٍ من الْحُكْمِ العثمانيّ الذي لم يكنْ للأتراكِ فيه يدٌ واحدةٌ. قال: "سبعَ عَشْرَةَ سَنَةً مضتْ على الدولةِ (التُّرْكِيَّة) وهي تُحَرّكُ النعرةَ الدينيَّةَ لتضربَ الدُّرزيَّ بالمسيحيّ، والمسيحيَّ بالْمُسْلِمِ حتَّى وصلتْ إلى هذهِ النتيجةِ الْمُرْمِضَةِ مِنْ إهلاكِ مَنْ أهلكتْ وإضعافِ مَنْ أضعفتْ".[307]

---

[307] محمد كرد علي، خطط الشام: مجلّد/3، ص/94. المطبعة الحديثة، دمشق-1925م.

إنَّ مَنْ حزَا حزوَ هذا الرجلِ من السياسيّين والكتَّابِ والمثقَّفين العربَ (وما أكثرهم!) بِنحوِ هذا الأسلوبِ المشوبِ بالخلطِ والخبطِ، فقد ظلم الدولةَ العثمانيَّةَ والمجتمعَ التُّرْكِيَّ ظلمًا سافِرًا، يدلُّ على ذلك تناقضاتُهم في أقوالِهم وأفكارِهم وأغراضِهم وتصرُّفاتِهم... وعلى سبيل المثال:

1) فإنَّ الكاتِبَ محمّد كُرد علي هذا، كان كُردِيَّ الأصلِ (كما يبدو بوضوحٍ من لقبِهِ). لذا، لم يملك مبرّرًا منطقيًّا لِيُدافعَ عن العربِ بمؤاخذةِ الأتراكِ وذمّ سياستِهِمْ، إذ لم تكن الصلةُ التي تربطُهُ بالعرب أقوى من صلتِهِ بأمَّةِ الإسلام على وجه العموم، ومن أجزائها الأتراك. كما يُكذِّبُهُ تخاذُلُهُ عن نصرةِ الأكرادِ والدفاعِ عن حقوقِهم وهم قومُهُ الذين كانوا في أشدّ حالةٍ من البؤسِ والشقاءِ والفقرِ والجهلِ والإهمالِ في تلك الحقبةِ.. مِنْ جراءِ حُكْمِ الاتّحاديّين، بينما لم يكن في صفوفِ هذه العصابَةِ حتَّى رجلٌ واحدٌ من الأتراكِ!. (إلاَّ عددًا قليلاً من الخونةِ الْمُنْتَحِلِينَ مَجْهُولِي النَّسَبِ)

2) قد وصف الكاتِبُ محمّد كُرد عَلِي الدولةَ العثمانيَّةَ بـ(الدولةِ التُّرْكِيَّةِ)، خلافًا للحقيقةِ، إذ كانت الدولةَ العثمانِيَّة تُمَثِّلُ أمةً خليطةً ذاتِ مكوّناتٍ اجتماعيَّةٍ مختلفةِ الأعراقِ والعصبيَّاتِ والدياناتِ، منها: الْعَرَبُ، وَالتُّرْكُ، وَالْكُرْدُ، وغيرُهم من الأقلّيّات. ولم تبرُزْ بعدُ الجمهوريةُ التُّرْكِيَّة يومَ كانَ حزبُ الاتّحادِ والتَّرَقّي يحتكرُ سلطةَ الدولةِ و"يضرِبَ الدُّرزِيَّ بالمسيحِيّ، والمسيحيَّ بالْمُسْلِمِ" على حدّ قولِهِ.

إنَّ الغالبيَّة العُظمى من الْعَرَبِ خاصَّةً المثقّفين منهم كانوا ولا يزالونَ يذُمُّونَ سياسةَ الدولةِ العثمانِيَّةِ على نحو ما جاءَ في كلماتِ محمد كُرْدْ علِي، فَيَرَوْنَ كُلَّ ما أصابَهُمْ من الضعفِ وشتاتِ الشملِ والذُّلِّ والمهانة، من نتائجِ هذه السياسةِ، ولا يعودونَ يتأمَّلونَ فيما أصابَهم من نكباتٍ بعد قرنٍ من تحرُّرِهم من الْحُكْمِ العثمانِيّ. هَا هِيَ أيامُ الربيع العربِيّ (التي نعيشها اليوم) تشهدُ على هذه الحقيقةِ بكلّ معالمِها.

وأَهَمُّ من ذلك بأضعافٍ؛ أنَّهم لا يفكّرون فيما أصابَ الإسلامَ من التشويهِ والتحريفِ وسوءِ السُّمعةِ على أيديهم بالذات، مع أنَّ الوحيَ نزلَ بِلُغَتِهِمْ وهم أَوَّلُ أمةٍ استجابوا لدعوتِهِ، ونصروه، ونشروه، وامتازوا من بقيَّةِ الأقوامِ (الذين اعتنقوا الإسلام) بتحطيمِ أصنامِهِمْ بعد أن كانوا عاكفين عليها... ذلك الإسلامَ الذي جمع شَمَلَهُم، وأكسبَهم أمجادً وحضارةً استطاعَ الغربُ بفضلِ ما اقتبسَ منها أن يسيطرَ اليومَ على الكُرَةِ الأرضيَّةِ بأسرِها. وبهذه المناسبةِ؛ فإنَّ اللَّومَ الذي قد تستحقُّهُ سياسةُ

العثمانيّينَ لِمَا هنالك من مبرّراتٍ، لا ينبغِي في حقيقةِ الحالِ أنْ يتوجَّهَ إلى الأتراكِ فحسبُ، بل يجبُ أنْ يدخل العربُ – في الوقت ذاته – تحتَ هذا اللَّومِ البَتَّةَ، باعتبارِ أنَّ الفريقين (العرب والترك) كانا ولا يزالانِ جزئينِ أساسيَّينِ في تكوين الأمَّةِ المحمَّديَّةِ. إذن، فلا تخلو أيُّ نكبةٍ قد أصابتِ الأمَّةَ مِنْ أن تعودَ مسؤوليَّتُها إلى هذين الفريقين مباشرةً وبالتساوي، قبل أنْ يترتبَ شيءٌ منها على بقيَّةِ الأُمَّةِ.

- **سياسةُ تركيا تجاهَ العربِ خلالَ العقودِ الثلاثةِ الأولَى من العهدِ الجمهوري (1920–1950م.)**

تمَّ الإعلانُ عن قيامِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ عام 1923م.، كنتيجةٍ لمؤامراتٍ بَرْمَجَهَا وَدَبَّرَهَا حزبُ الاتِّحادِ والتَّرَقِّي بوحيٍ من الْمُنَظَّمَةِ السَّبَطَائِيَّة السِّرِّيَّةِ، ونفَّذَهَا بالتنسيقِ مع التحالف الثلاثي (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا) للقضاءِ على الدولةِ العثمانِيَّةِ. لذا، مَنْ أرادَ أن يتتبَّع مسيرةَ السياسةِ التُّرْكِيَّةِ في المنطقةِ العربيَّةِ يجبُ عليهِ أوَّلاً أنْ لا ينسَى أنَّ الجمهوريَّةَ التُّرْكِيَّةَ هي صنيعةُ العصابَةِ السَّبَطَائِيَّةِ وامتدادٌ لسلطةِ الاتِّحاديّين من دون أدنى شكّ!

هذهِ الكلماتُ الوجيزةُ خلاصةٌ تُعبِّرُ عن حقيقةٍ يستغنِي بِهَا القارئُ عن تفاصيلَ مطوَّلةٍ مُلِئتْ بِهَا بطونُ مجلَّداتٍ من البحوثِ والدراساتِ، على أنَّها لم تفِ بعدُ بِكشفِ القناعِ عن أسرارِ المرحلةِ الإنتقاليَّةِ لقيامِ الدولةِ التُّرْكِيَّة.

ولو عُدنا إلى أيَّامِ حُكْمِ الاتِّحاديّين وتأمَّلنا فيها لَحْظَةً، لَوَجَدْنَا أنفسَنَا أمامَ مشهدٍ رهيبٍ لسياستِهِم الدمويَّةِ في المنطقةِ العربيَّةِ إلى حدٍّ عجزَ المؤرِّخونَ عن ضبطِ أحداثِها برويَّةٍ ودقَّةٍ، وارتبكَ الباحثُون في تقييمِها وتحلِيلِها، لِغموضِ ملابساتِها ولِمَا كانتْ تتوارَى به هذه السياسَةُ وخَلْفِيَّاتُها من أسرارٍ لم يتم بعد فكُّ طلاسمِها.

فالجمهوريةُ التُّرْكِيَّة– لا ريب – إِذَنْ هي وليدةُ هذه الأحداثِ التي صنعتْها أيدٍ لا صلةَ للأتراك بها، ولا دَوْرَ لهم في تأسيسِها، ولا حتَّى في تسميتِها على الإطلاق، ما عدا شعارِ (القوميَّةِ التُّرْكِيَّةِ)، التي استغلَّتْها العصابَةُ السَّبَطَائِيَّةُ، فاتخذتْها ذريعةً لاستمالةِ نفوس الأتراكِ، كَيْ تتمكَّنَ بذلك من الوثوبِ على السلطةِ بدعمِهِمْ وتأييدِهِمْ، وقد نجحتْ في ذلك.

إنَّ الفلسفةَ التي استمدَّتْ منها الجمهوريَّةُ التُّرْكِيَّة عَزْمَها في سياستِها؛ هي نفسُ الأيديولوجيَّةِ التي تَبَنَّاها حزب الاتِّحادِ والتَّرَقِّي، لم تَعْدِلْ عنها قيدَ نملةٍ إلى هذه الساعَةِ. لذا، قامتِ الدولةُ التُّرْكِيَّةُ مِنْ أوَّلِ يومِها على أسُسِ هذا الحزبِ وعملتْ على تحقيقِ أهدافِه بِعَيْنِها. ومن هذا المنطَلَقِ قام مصطفى كمال بِتأسيسِ حركةٍ سِرِّيَّةٍ على غرَارِ هذا الحزبِ قُبَيلَ إعلان الجمهوريَّةِ باسم (فرقةِ الشعب)، وذلك عام **1920**م. ثُمَّ حوَّلَها إلى حزبٍ سياسيٍّ علنيٍّ بنفس الإسمِ يوم **09** أيلول **1923**م.، ثُمَّ استَبْدَلَهُ باسم (فرقةِ الشعبِ الجمهوريِّ) عام **1924**م. ثُمَّ استَبْدَلَهُ باسم (حزبِ الشعبِ الجْمهورِيّ) سنة **1935**م. وهو الحزبُ المعرضُ الأكبرُ في البرلمان التُّرْكِيِّ اليومَ.

كانتْ تركيا قد يَمَّمَتْ وجهَهَا نحو الْغَرْبِ منذُ بدايَةِ قيامِ الجمهوريَّةِ وفقًا لسياسَةِ السَّبَطَائِيِّين، وأَدَارَتْ ظهرَها للمنطقةِ العربِيَّةِ دون اعتدادٍ بأي علاقةٍ تربطُ الشعبَ التُّرْكِيَّ بالشعبِ الْعَرَبِيّ، بل تنكَّرتْ للعالَمِ الإسلامِيّ بعمومِهِ على مدى ثلاثَةِ عقودٍ حتى عام **1950**م. وقد اختلفتِ الآراءُ في عدمِ اهتمامِ تركيا بالمنطقةِ العربِيَّةِ بعد انْهيَارِ الدولة العثمانِيَّةِ، فقال بعضهم:

إنما أقبلتْ تركيا بِوَجْهِها صوبَ الْغَرْبِ ووقفتْ بِجَانِبِهِ، لتوقُّعِها الخطرَ من الاتِّحادِ السوفيتِيِّ في تلك المرحلةِ، فيجبُ هنا أخذُ آمالِ روسيا بعين الإعتبارِ، وأطماعِها من القديمِ في مدِّ سلطانِها إلى المياهِ الدافئة! "مِمَّا دفعتْ تركيا الفتيَّةَ إلى أحضانِ الْغَرْبِ لِتَحْمِيَ ظهرَهَا بِهِ يومئذٍ إذا صالتْ صولةُ الروسِ نحو أناضول بذريعةٍ مَّا، كما يدلُّ على هذهِ الحقيقةِ ما ورد في محضرِ مؤتمرِ موسكو المنعقد في **16**– **25** ديسمبر **1945**م.: أنَّ الزعيمَ السوفيتِيَّ ستالين Stalin صرَّحَ بعضَ مقاصدِهِ في هذا المؤتمرِ فأعربَ لِهيئَةِ بريطانيا عن عَزْمِهِ على إقامةِ قاعدةٍ سُوفْيَتِيَّةٍ تُسَيْطِرُ على مَضِيقِ إسطنبول، وأعربَ عن طلبِهِ بإعادةِ مدينَتَيْ (قَرْص) و(أَرْدَهَان) الواقعتين في أقصَى شرقي تركيا إلى الأراضِي السوفيَتِيَّةِ، وانسحابِ تركيا إلى وراءِ الحدودِ المقررةِ في اتفاقية عام **1921**م.".

ويرى بعضهم: أنَّ تركيا إنَّما أَسْقَطَتِ المنطقةَ العربِيَّةَ من اعتبارِها، لأنَّها كانت تَتْبَعُ سياسةً تَتَبَنَّى الحداثةَ والعصرنةَ والتقدُّمَ، وهذا يتطلبُ التاسِّيَ بالْغَرْبِ الذي يُعَدُّ أرقَى مناطقِ الأرضِ، وأفضلَهَا تقدُّمًا، تمتازُ بفنُونِها وصناعاتِها وتقنيَّاتِها وأنظمتِها الدقيقَةِ... أمَّا المنطقةُ العربِيَّةُ، فإنَّها كانت مدمَّرةً تعانِي من الضعفِ، والفقرِ، والتأخُّرِ، والتشرذُمِ.. فلم يكن هناك ما تستفيدُ منها تركيا، أو تفيد.

ومِنَ الواقعِ أنَّ عَقَبَةً كانت تمنعُ تركيا من تأسيسِ العلاقةِ مع المناطقِ العربيَّةِ بعد الحرب. لأنَّ هذه المناطقَ كانت تحت إنتدابِ فرانسا وبريطانيا، فلم تكن هناك مساغٌ للاتِّصالِ مع القيادات العربيَّةِ مباشرةً وهي خاضعةٌ لسلطات الإحتلالِ. فإنَّ ظروفَ المرحلةِ التي كانتْ محدَّدَةً بالإتفاقيَّاتِ الدوليَّةِ لم تسمحْ لِتُرْكَا يومئذٍ أنْ تقومَ بأيّ علاقةٍ مباشرةٍ مع القياداتِ العربيَّةِ الْمغلوبةِ على أمرِهَا وهي تحت نير الإستعمار آنذاك. يدلُّ على ذلك "اجتماعُ رئيسِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّة عصمت إينونو مع رئيس وزراءِ بريطانيا والهيئةِ البريطانيَّةِ المرافق له في مؤتمر القاهرة المنعقد يوم **04** ديسمبر عام **1943**م."[308] يُستبعدُ أن يكونَ عصمتْ إينونو قد قابلَ الملك فاروق (ملك مصر) يومئذ، وهو راغب عن ذلك في حدِّ ذاته!.

على أنَّ هذه الآراءَ لا تعبِّر بدقَّةٍ عن موقفِ تركيا المتجاهلِ للعربِ في كل تلك الفترةِ، بل كان هناك سببٌ آخر هامٌّ، ناشئٌ من فلسفةِ الحزب الوحيدِ الذي كان يحكمُ البلدَ بِيَدٍ من الحديد. ذلك؛ على رغم ما ورد في مذكّرةِ تأسيسِ هذا الحزبِ، أنَّه يلتزم في جميع أهدافِهِ بأربعةِ مبادئ أساسيَّةٍ، وهي (الشعبيَّةُ، والفكرُ الجمهوريُّ، والقومِيَّةُ، وَالعلمانِيَّةُ)... على رغم هذا الإدِّعاءِ لم يتغيَّرْ شيءٌ من موقِفِهِ السلبيّ تجاهَ الإسلام؛ إذ الإسلامُ في نظر هذا الحزبِ: "إنما هو دينُ العربِ تسرَّبَ إلى المناطقِ التُّرْكِيَّةِ قبل قرون، ولأسبابٍ عاطفيَّةٍ لا قيمةَ لها اليوم!" وبهذه القرينَةِ لم يُخَفِّفْ حزبُ الشعبِ الجمهوريِّ شيئًا من موقِفِهِ السلبيّ لِلْعربِ إلى هذه الساعة.

وقد يعتمدُ بعضُ الْمُحَلِّلين السياسيّين في وصفِهم لتركيا على كلماتٍ لِوليم هيل William Hale إذ يقول: "إنَّ الْفَرْقَ بين التكوينِ الإجتماعيّ في العهدِ العثمانيّ وبينَهُ في العهد الجمهوريّ هو: أنَّ مكوِّناتِ المجتمع التُّرْكِيّ متجانسةٌ بخلافِ المجتمعِ العثمانيّ الخليطِ الذي كان يضمُّ أجناسًا متنوِّعَةً من الْمِلَلِ والنحلِ، يختلفُ بعضُها عن بعضٍ في اتِّجَاهَاتِهَا الدينيَّةِ والثقافِيَّةِ والعُرْفِيَّةِ، لأنَّ الدولةَ القائمةَ على أساسِ القومِيَّةِ البحتَةِ، لا بُدَّ أنْ تتجاهلَ كل وازعٍ دِينِيّ وتاريخِيّ مشتَرَكٍ في علاقاتِهَا مع أيّ دولةٍ أخرَى."

إنَّ هذا "التجانُسَ" في إعتقادِ المحلِّلِ، كان هو الدافعَ الأساسيَّ للتجاهلِ عن المنطقةِ العربِيَّةِ في إعتبارِ تركيا "الخاليَةِ من قومياتٍ ودياناتٍ وثقافاتٍ متبايِنَةٍ" بينما هذه الرؤيةُ لا تستقيمُ مع الحقيقةِ الإجتماعيَّةِ التي تتَّسمُ بِهَا المجتمعُ التُّرْكِيُّ اليومَ. بل إنَّ الطُّغْمَةَ السَّبَطَائِيَّةَ الحاكِمَةَ كانتْ قد بَنَتْ

[308] ARMAOĞLU, Fahir, (1989), 20. Yüzyıl Siyasi Tarihi, 6. Baskı, Türkiyeİş Bankası Yayınları, İstanbul.

سِيَاسَتَهَا على مقوّماتٍ تستمدُّ روحَها من الثقافةِ الغربِيَّةِ والأعرافِ المسيحيَّةِ– اليهوديَّةِ، وتقوم على قاعدةِ شِعارُها (القومِيَّةُ التُّرْكِيَّةُ). فهذه السياسَةُ تتطلَّبُ قطعَ الإتصالِ بالعالَمِ العربِيِّ طبعًا، لِكَيْ تتمكَّنَ بذلك من القضاءِ على آثارِ الثقافةِ العربِيَّةِ الإسلامِيَّةِ في تركيا.

في الحقيقةِ ليس من الفريَةِ ماجاءَ في مقالةٍ للكاتبِ الكردِيِّ جان كورد (مع أنَّ أغلبَ مقاطِعِ هذه المقالةِ لا تخلو من المبالغةِ والْمُجَازَفَةِ) إذ يقول في موضع منها: "قد أدارتْ تركيا ظهرَها للعالَمِ الإسلامِيِّ منذُ أنْ عرضَ مؤسِّسُها (مصطفى كمال – الذئبُ الأغبرُ) نفسَه لأوروبا كبديلٍ ديمقراطيٍّ حديثٍ عن الخلافةِ الإسلاميَّةِ الرجلِ المريضِ، وتحولتْ في ظلِّ الجمهوريَّةِ إلى دولةٍ قائمةٍ على ثلاثةِ أسُسٍ ثابتَةٍ هي: العداءُ للإسلامِ، والعداءُ للشيوعيَّةِ والعداء للقوميَّاتِ غير التُّرْكِيَّةِ"[309]

ولا شك في أنَّ الشعبَ العربِيَّ يأتي على رأسِ القوميَّاتِ المرفوضةِ والمستهدفَةِ في السياسَةِ السَّبَطَائِيَّةِ. أما شعارُ (القومِيَّة التُّرْكِيَّةِ) فكانت ولا تزالُ هي الآلِيَةَ التي استخدمَها اليهودُ السبطائِيُّون المندسُّونَ في الأحزابِ السياسيَّةِ (بخاصَّةٍ في حزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ) وفي مؤسَّساتِ الإعلامِ والأجهزةِ الإستراتيجِيَّةِ للدولةِ التُّرْكِيَّةِ، يستخدمون هذا الشعارَ بنجاحٍ فائقٍ في كسبِ ثقةِ الأتراكِ من قديمِ الزمانِ وهي رمزُ الإستقلالِ الروحِيِّ والمصدرُ الرئيسُ للطَّاقةِ المعنويَّةِ بالنسبة للمجتمعِ التُّرْكِيِّ، فاتَّخذ السبطائِيُّونَ منها وسيلةً استطاعوا بها امتلاَكَ رِقابِ الأتراكِ، فاستحوذوا على نفوسِهم وضمائِرِهِمْ بهذه الوسيلةِ السحريَّةِ، وأجادوا استخدامَها في تفعيلِ سياستِهم خاصَّةً فيما تبنَّوْهُ حيالَ المنطقةِ العربِيَّةِ، كما تفنَّنَ رَمْزُهُم الأكبرُ وحاكمُهم في استغلالِها أكثرَ بأضعافٍ من اعتزازِ أيِّ عنصرٍ تُرْكِيٍّ مخلِصٍ بل متطرِّفٍ ومتعصِّبٍ في انتمائِهِ القوميِّ وعُنْصَرِيَّتِهِ.

إنَّ السبطائيّين الذين كانوا من أَلَدِّ أعداءِ العربِ في عهدِ الاتِّحاديّين، كما يشهدُ عليهم تاريخُهُمْ، لا يُعقلُ أنْ يكونوا قد نبذُوا كراهيَّتَهم لِلْعَرَبِ في العهد الجمهورِيِّ وقد قبضوا على زمامِ الْحُكْمِ للدولة التُّرْكِيَّةِ بِيَدٍ من الحديد، معَ أنَّ المنطقةَ العربيَّةَ قد انفصلتْ من الساحةِ التُّرْكِيَّة تمامًا منذُ قرنٍ ولم يبقَ هناك أيُّ علاقةٍ إداريَّةٍ أو اجتماعيَّةٍ بين المنطقتين. هذا، ومن الحقائقِ التي لا شكَّ فيها أبدًا: أن السبطائِيّين اليهودَ، بعد أنْ انسحبوا من المناطقِ العربِيَّةِ، وعزلوا أناضولَ ورقعةَ شرقِهَا، وطوَّقوها بقوانين صارمةٍ أشدَّ مناعةً من أسوارٍ حديديَّةٍ، وقطعوا الصلةَ الَّتي كانتْ تربِطُ الأتراكَ بالعربِ، وبعد

---

[309] الحوار المتمدّن–العدد: 645 – 2003 / 11 / 7: http://www.ahewar.org/debat/print.art.asp?aid=11448&ac=1

أن سلَّموا المنطقةَ العربيَّةَ للمستعمرين، لم ينقصو شيئًا مِنْ حِقْدِهِمْ وكراهيَّتِهِمْ للعرب. بل كانوا على صلةٍ قويَّةٍ بالسلطةِ الإنجليزيَّةِ والفرنسيَّةِ في المنطقةِ العربيَّةِ، يؤيِّدونَهُمَا في سياستِهِمَا القمعيَّةِ ولو باتِّخاذ الموقف على أقلِّ تقدير. وكانوا في الوقتِ ذاتِهِ يبذلونَ جهودَهم لبثِّ الكراهيَّةِ والسُّمْعةِ السيِّئَةِ ضِدَّ العربِ في مشاعرِ المواطنِين الأتراك بمختلفِ الوسائلِ من الدِّعَايَاتِ والشماتَةِ بالعرب، وبِتَصْعِيدِ أخبارِ "الخِيَانَةِ التي ارتكبَها العربُ ضِدَّ الدوليةِ العثمانيَّةِ" (على حَدِّ قولِهِمْ)، وجذبِ الرأيِ العامِّ التُّرْكِيِّ إلى مشاهدِ التخلُّفِ والبداوةِ، والهَزَائِمِ التي ينعكسُ من خلالها واقعُ العربِ أمامَ المستعمرين، وذلك عن طريقِ الإعلامِ، وجريدةِ الوَشْوَشَةِ، والمقرَّرَاتِ التعليميَّةِ، والبرامجِ التدريسيَّةِ، وغسلِ الأدمغَةِ، وبكلِّ الوسائلِ الْمُتَاحَةِ.

كانت الطُّغْمَةُ الحاكمةُ من السبطائيِّين، تتذمَّر وتتخوَّف من انتعاشِ الصحوةِ الإسلاميَّةِ في المجتمعِ التُّرْكِيِّ، فتؤدِّي إلى عودةِ الصلةِ بين تركيا والبلادِ العربيَّة، فلجؤوا إلى تحديدِ الحرِّيَّةِ الدينيَّةِ؛ تارةً بتحريفِ بعضِ شعائرِ الإسلامِ، كإلغاءِ الأذانِ ونقلِهِ إلى التُّرْكِيَّةِ ثمانيَةَ عَشَرَ عامًا (**1932–1950**م).، وتارةً بمنعِ الموظَّفِين من أداءِ صلاةِ الجمعةِ (إلى يومنا هذا)، ومنعِ المواطنين من إداءِ فريضةِ الحجِّ أربعةً وعشرين عامًا (**1923–1927**م.)، ومنعِ الطلبَةِ من الدراسَةِ في البلادِ العربيَّةِ، لِمَا في كلِّ ذلك من وجود الفرصة للمسلمين الأتراك من الإجتماعِ بإخوتِهِم العرب، خاصَّةً في الأماكنِ المقدَّسَةِ أيَّامَ الحجِّ، فَيُثِيرَ ذلك فيهم الشعورَ بوحدةِ الأمَّةِ فيَضُرَّ بأهدافِهِم الهدَّامَةِ التي يريدون تحقيقَها بالتعاونِ مع المستعمرين في المنطقةِ العربيَّة.

هكذا بدأ السبطائيون بتمهيدِ السبيلِ في الداخلِ فورَ تأسيسِ الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ استعدادًا لممارسةِ سياسةٍ مُعَادِيَةٍ تجاهَ العربِ والمنطقةِ العربيَّةِ. لأنَّهم كانوا على علمٍ ويقينٍ، – بحكمِ مركزِهم وهُمْ يحتلُّون قمَّةَ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ –، بأنَّ تطبيعَ المشاعرِ على كراهيةِ العربِ وتسييرَ الرأيِ العامِّ الْمَحلِّيِّ في هذا الإتجاهِ له أثرٌ كبيرٌ في تحديدِ ونجاحِ سياستِهِمْ الخارجيَّةِ خاصَّةً ما يتعلَّقُ منها بالمنطقةِ العربيَّةِ. لذا، كانتْ الفترةُ ما بين أعوام: **1923–1950**م. مرحلةَ ترسيخ كراهيَّةِ العربِ في نفوسِ الأتراكِ وضمائرِهِمْ؛ فلجأ الجهازُ السياسيُّ في تركيا إلى استخدامِ كلِّ الوسائلِ لأجلِ هذا الهدفِ وبأدنى ذريعةٍ، فتأثَّرَ الأجيالُ بالدِّعاياتِ التي بَثَّتْها الحكوماتُ السبطائيَّةُ بإلقاءِ اللائمَةِ على العربِ وبتشنيعِهِمْ، فَبَلَغَتْ كراهِيَةُ العربِ في نفوسِ الأتراك (خلالَ تلك الفترةِ) إلى حدٍّ كانوا ينادُونَ الكلابَ السودَ "عرب، عرب، عرب...". وقد قيلَ: "الناسُ على دينِ ملوكِهِمْ!"

كانتْ ظروفُ تلك المرحلةِ مواتيةً لتسييرِ العقولِ وتوجيهِ الرأيِ العامّ من كلّ الوجوهِ ولأسبابٍ أهَمُّها: أنَّ المجتمعَ كانَ يعانِي الجهلَ والفقرَ من جراءِ الحروبِ الطاحنَةِ التي دارَتْ على جبهاتٍ عديدةٍ من الوطنِ التركيّ راحتْ ضحيَّتَها ملايينُ من الأرواح، كما خسر المجتمعُ في هذه الحروبِ أفضلَ عناصرِها من المثقَّفين والقياديّين، وحتَّى طلبةِ كلّيَّةِ الطِّبّ. فانهارَ الإقتصادُ وانتشرتْ المجاعةُ والأمراضُ، وأصبحَ الناسُ منشغلين بآلامِهِمْ، عاجزين عن مُسَائَلَةِ السلطةِ على أيّ موقفٍ تتَّخِذُها، وعلى أيّ قانونٍ تُصْدِرُهَا مباشرةً ودون أيّ اعتبارٍ برأي أحدٍ أو قطاعٍ من الرعيَّةِ. فتمكَّنت الطُّغْمَة السبطائيَّةُ الحاكمةُ من المضيّ في سياستِها للقضاءِ على الرصيدِ المعنويّ للشعبِ بما سنحتْ لها من الفُرَصِ في ظروفِ تالك المرحلةِ، كما تمكَّنتْ من إملاءِ فراغِ هذا الرصيدِ بالمفاهيم الغريبةِ والدخيلةِ؛ فتغيَّرت العقليَّةُ، وتشوَّشتِ الأذهانُ، وسادَ الفوضَى على الفكرِ والثقافةِ. ذلك أنَّ شرذمةً من أشخاصٍ مشبوهةٍ كانت قد احتلَّتْ مناصبَ عاليَةً في الحكومات المتغلِّبةِ على السلطةِ منذ قيامِ الجمهوريَّةِ حتى عام 1938م.[310]

---

[310] وهم بالتحديد: محمد سيّد بكْ (**1873–1925**م.): عضو مجلس الشيوخ، نائب مدينة إزمير في الْبَرْلَمَان العثماني (مجلسِ مبعوثان)؛ وزير العدل في الحكومة الأولى للجمهورية التُّرْكِيَّة (**1923–1924**م.). إقترح فكرة إلغاء الخلافة الإسلامية فحازت موافقة المجلس التركي الوطني يوم: **03** مارس **1924**م..

مصطفى نجاتي أوغورال (**1894–1929**م.): وزير التشييد والإسكان (**1923–1924**م)، وزير العدل (ثمانية أشهر، خلال عام **1924**م.)، وزير المعارف (التعليم؛ **1925–1929**م.).

إحسان أرياغوز –طوبجو– (**1977–1947**م.): نائب مدينة جبل البركة (عثمانية)، رئيس محكمة الإستقلال (**1922–1923**م.)، وزير الملاحة (**1924–1928**م.). أُسقطت حصانتُه وعضويّتُه الْبَرْلَمَانية بحكم صادر من المحكمة العليا عام **1928**م. بتهمة الإرتشاء من الشركة الفرنسية للملاحة.

إسماعيل فاضل باشا – جبا صوي – (**1856–1921**م.). وزير العمران (سبعة أشهر خلال العام **1920**م.)

عمر لطفي ياسان (**1879–1956**م.): نائب في الْبَرْلَمَان العثماني (مجلسِ مبعوثان)؛ نائب مدينة آماسيا في بداية العهد الجمهوري، ووزير العمران (**1920–1921**م.)

حسين رؤوف أورباي (**1881–1964**م.): وزير الملاحة في أواخر أيام الدولة العثمانية؛ رئيس الوزراء في المرحلة الإنتقالية (**1922–1923**م. هو رئيس الوزراء الثالث بعد مصطفى كمال وفوزي باشا). مؤسّس حزب الترقي الجمهوري. حُكِمَ عليه بالإعدام بتهمة المشاركة في مؤامرة الإغتيال ضد مصطفى كمال في إزمير، ثم عُدِّلَ الحكمُ بتحويلِ العقوبةِ إلى السجن مدة عشر سنين.

عزيز فوزي بريجي أوغلو (**1878–1933**م.): نائب مدينة ديار بكر في الْبَرْلَمَان العثماني (مجلسِ مبعوثان)؛ نائب مدينة ديار بكر في المجلس الوطني التركي في العهد الجمهوري ووزير العمران (**1922–1925**م.).

عبد الحق عدنان آديوار (**1881–1955**م.): طبيب وكاتب وأكاديمي. نائب مدينة إسطنبول في الْبَرْلَمَان العثماني (مجلسِ مبعوثان)؛ وزير الصحة في الحكومة الأولى للجمهورية التُّرْكِيَّة، رئيس المجلس الوطني التركي، شارك النشاطات السياسيّة في صفوف حزب الشعب وحزب الترقي الجمهوري، غادر تركيا عام **1926**م. أقام في فرنسا وبريطانيا **14** عامًا.

محمد رشاد كايالي (**1881–1926**م.): نائب مدينة صاروخان (مغنيسيا) في المجلس الوطني التركي في العهد الجمهوري ووزير العمران (**1922–1923**م.).

أحمد مختار جيلّي (**1871–1958**م.): نائب مدينة طربزون في الْبَرْلَمَان العثماني (مجلسِ مبعوثان)؛ ووزير العمران (**1923–1924**م.).

سليمان سرّي كديك أوغلو (**1874–1925**م.): نائب مدينة إسطنبول في العهد الجمهوري ووزير العمران (**1924–1926**م.).

بكر سامي كندوح (**1867–1933**م.): أوّل وزير خارجية للجمهورية التُّرْكِيَّة (**1920–1921**م.).

لقد كان لدى الحكّامِ السبطائيّينَ مُبَرّرَاتٌ محدودةً يحتجُّون بها على خيانَةِ بعضِ زعماءِ العربِ الذين تمرَّدوا على السلطةِ العثمانيَّة بإغراءٍ من المخابراتِ الإنجليزيَّةِ، إلاَّ أنَّهم كانوا يُضَخِّمون هذا الدعوى ويعمِّمونه على المجتمعِ العربيِّ بأسرِهِ، وهذا لا أساسَ له من الصحَّةِ.

يقولُ أحد كتاب الأتراك المُنْصِفِينَ (الدكتور أوزان أورمجي Dr. Ozan Örmeci**):**

"على رغم بعض الدعاياتِ السلبيَّةِ ضدَّ العرب (وقد يكون لها أساس من الصحَّةِ)، ولكن بِعَكْسِ ما هو غالبٌ على الظّنّ؛ فإنَّ أكثريَّةَ العربِ لم تكنْ لها أيُّ مشاركةٍ مع الحكومةِ الإنجليزيَّةِ في الحربِ العالميَّةِ الأولى. ولعلَّ التثبتَ من هذه الحقيقةِ يكونُ سهلاً إذا قورِنَ بين عددِ العربِ الذين استُشْهِدُوا في معركة جناق قلعة (ضمنَ صفوفِ الجيشِ التُّرْكِيِّ) وبين الذين تمرَّدوا على الدولةِ العثمانيَّةِ.[311]"

إنَّ الدكتاتوريَّةَ السبطائيَّةَ تمكَّنتْ من إحكامِ سيطرتِها على المجتمعِ التُّرْكِيّ فورَ إعلانِ الجمهوريَّةِ، ولعبتْ دورًا بارزًا في التأثيرِ على مجرياتِ الأمورِ في البلدِ سواء من حيث المفاهيمِ والمنطلقاتِ

يوسف كمال تنكيرشك (**1878–1969**م.): وزير الإقتصاد للجمهورية التُّرْكِيَّة (**1920–1921**)، وزير خارجية (**1921–1922**م.).

محمد شكري كايا (**1883–1959**م.): نائب مدينة موغلا في المجلس الوطني التركي، وزير الزراعة (ثلاثة أشهر خلال العام **1924**م.)، وزير الخارجية (**1924–1925**م.).

توفيق رشدي أراس (**1883–1972**): نائب مدينة موغلا في المجلس الوطني التركي، عضو محكمة الإستقلال في مدينة كاستامونو، مشارك في الحزب الشيوعي التركي (**1920**م.)، نائب مدينة إزمير (**1923–1939**م.)، وزير الخارجية (**1925–1938**).

عبد القادر جامع بايكوت (**1887–1958**م.): نائب فزَّان (ليبيا)، ثم نائب مدينة آيدن في الْبَرْلَمَان العثماني (مجلسِ مبعوثان)؛ مشارك في حزب الترقي الجمهوري، وزير الخارجية في المرحلة الإنتقالية (**1920**).

حقي بهيج بايتش (**1886–1943**م.): نائب مدينة أنقره في المرحلة الإنتقالية وأمين حزب الشيوعي التركي، ووزير الشئون المالية (مدة شهرين في عام **1920**م.).

ناظم رسمور أوزتلّي (**1868–1935**م.): نائب مدينة توقاد، ووزير الداخلي (فقط لمدة أحد عشر يومًا. عام **1920**م.)

[311] وهذا نص كلمات الدكتور أوزان أورمجي باللغة التُّرْكِيَّة.
«Arapların önemli bir bölümü Birinci Dünya Savaşı'nda da İngilizlerle işbirliği yapmamıştır. Osmanlı'ya karşı ayaklanan Araplarla Çanakkale Savaşı'nda ölen Arapların sayıları karşılaştırılırsa bu gerçeğe kolayca ulaşılabilir.»
http://www.politikadergisi.com

الفكريَّةِ التي طرحتْها كمنهاجَ وخُطَّةٍ في تسييرِ وتوجيهِ الرأيِ العامِّ المحلِّي، كذلك في تحالُفَاتِها وعلاقاتِها مع الْقُوَى والأنظمَةِ من خلالِ سياستِهَا الخارجيَّةِ.

والواقعُ أنَّ تصعيدَها للعنصريَّةِ تحتَ شعارِ (القوميَّةِ التُّرْكِيَّة) كان له تأثيرٌ كبيرٌ في تطبيعِ مشاعرِ المجتمعِ التُّرْكِيّ وإقنَاعِهِ وكسبِ تأييدِهِ في كلِّ أهدافِهَا، ممَّا ساعدَها وأكسبَها سهولةً كبيرةً في اتّصالاتِها مع حكوماتِ الغربِ (خاصَّةً منها الحكومةِ الإجليزيَّةِ والحكومةِ الفرنْسِيَّةِ) أيَّامَ إنتدابِهِما في المناطِقِ العربيَّةِ. لذا لم يكنْ الحاكمُ السبطائيُّ يبالي أبدًا بما يجرِي هناك من مجازِرَ وأحداثٍ مأساويَّةٍ، كما لم يَسمحْ أنْ يُنْشَرَ أدنىَ خبرٍ في الإعلامِ التُّرْكِيّ عن أيِّ تغيُّرٍ أو تطوُّرٍ في المنطقةِ العربيَّةِ يومئذ. فظلَّتْ المنطقةُ – بحكمِ هذه السياسةِ – ساحةً مجهولةً لاَ أثَرَ لها في ذاكرةِ المواطِنِ التُّرْكِيّ فترةً طويلةً من بدايَةِ إعلانِ الجمهوريَّةِ إلى منتصِفِ العقدِ الخامِسِ من القرنِ العشرين (1923–1955م.) ممَّا أدَّى ذلك إلى تنافرٍ وَوَحْشَةٍ بين التُّرْكِ وَالْعَرَبِ إلى أيَّامِ حزبِ العدالةِ والتنمية الذي يُحَاوِلُ عَبْرَ سِيَاسَتِهِ تعديلَ الفكرِ والثقافةِ في إطارٍ مُحَافِظٍ.

- **سياسة تركيا تجاه العرب بعد قيام النظام التعددي إلى اليوم (1950–2013م.)**

العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّةُ أيَّامَ حكمِ الحزبِ الديمقراطِيِّ، ورئيسِ الوزراءِ عدنان مندريس.

بعد إنتهاءِ الحكمِ المتفرّدِ لِحزبِ الشعبِ الجمهورِيِّ (CHP) وفي ظلِّ الإنفتاحِ النسبِيِّ الذي بدأ في عهدِ الحزبِ الديمقراطِيِّ (DP) أخذتْ حكمومةُ مندريس تتوجَّهُ بإهتمامِها نحوَ الشرقِ الأوسطِ. وكان من نتيجةِ هذا الإهتمامِ تأسيسُ حلفِ بغدادَ المعروفِ باتفاقيَّةِ (سَنْتُو Cento)، التي تَمَّ عقدُها بين العراقِ، وتركيَا، وإيران، وباكستان، عامَ 1955م.[312]، وذلك للوقوفِ ضدَّ الْمَدِّ الشيوعِيِّ في الشرقِ الأوسط.

[312] حلف بغداد: منظمةٌ، طَرَحَتْ فكرةَ إنشائِهَا الولاياتُ المتّحدةُ الأميركيةُ لِرَدْعِ الْمَدِّ الشيوعِيِّ والحدِّ من الطموحِ الروسي إلى الشرق الأوسط والبلاد العربيّةِ في بداية حقبة الحرب الباردة. تأسَّس الحلف عام **1955**م. لأغراضٍ استراتيجية وبمشاركة خمسِ دول: العراق وتركيا وإيران وباكستان والمملكة المتحدة. عُرِفَ الحلفُ في بادئ الأمر باسم حلفِ بغدادَ Baghdad Pact ثُمَّ عُدِلَ عن هذا الاسم بعد ثورة **14** تموز/يوليو **1958**م. في العراق، بقيادةِ عبد الكريم قاسم التي انقلب فيها على النظام الملكي وأعلن الجمهوريَّةَ العراقية!. وقد كان لرئيس الوزراء العراقِيِّ الأسبق نوري السعيد دورٌ كبيرٌ في إنشاءِ هذا الحلف. فانضمَّتْ العراقُ بعد ذلك إلى معسكرِ الاتّحاد السوفيتي. وتحوَّلَ اسمُ المنظَّمَةِ إلى حلفِ الشرق الأوسط Middle East Treaty Organization – METO. ثم إلى اسم. Central Treaty Organization – CENTO

بعد ثورةِ **14** تموزَ في العراقِ عام **1958**م. بقيادة الفريق الأوَّل عبد الكريم قاسم[313]، وقيامِ النظامِ الجمهوريِّ (شكليًّا كما هي الحالُ نفسُها إلى اليوم) انتقلَ مقرُّ حلفِ بغدادَ إلى أنقره، وهنا بدأتْ مرحلةُ تبعيَّةِ تركيا للولاياتِ المتحدةِ من خلالِ استخدامِ الجنودِ الأمريكيّينَ (في قاعدةِ إِنْجِيرْلِيكْ İncirlik) قُرْبَ مدينةِ أَضَنَهْ استعدادًا للدِّفاعِ في وجهِ الْخَطَرِ السوفيتِيّ. يزعم بعضُ كُتَّابِ العربِ: "أنَّ إقامةَ هذه القاعدةِ الأَمِيركِيَّةِ في تركيا إنَّما كان الهدفُ منها التدخُّلُ في البلاد العربيَّة!، كما حصلَ في الأحداثِ اللبنانيَّةِ عام **1958**م. وكما كان هو موقفَ تركيا الْمُؤَيِّدَ لفرنسا والمعارضَ للثَّوْرَةِ الجزائريَّةِ."

دولٌ (أربعةٌ خاصَّةً) من أعضاءِ الحلفِ تحتلُّ منطقةَ نفوذٍ مهمَّةٍ للقوى المستكبرة بسبب مصالحها الاقتصاديَّةِ وما تملك من ثرواتٍ نفطيَّةٍ ومعدنيَّةٍ في أراضيها. فالمنطقة متاخمة للاتِّحاد السوفيتي من الجنوب، وهي بمنزلةِ البوابةِ التي يمكن من خلالِها التوغُّلُ إلى منطقةِ الشرقِ الإسلاميِّ بأسرِها. وهذا ما دفعَ الولاياتِ المتحدَةَ إلى انشاءِ حلفِ بغدادَ لتصل من ورائِهِ إلى اهدافِها السياسيَّةِ. وقد رافق هذه الفترةَ تأميمُ مصرَ قناةَ السويس، فشنَّتْ على أثر هذه الخطوةِ بريطانيا وفرنسا والكيانُ الصهيونيُّ هجومًا على مصرَ في عام **1956**م. وعلى أثرِ هذه الحربِ انضمَّ عددٌ من البلادِ العربيَّةِ (مصر وسوريا والعراق)، إلى معسكرِ الإشتراكيِّ وتوطيدِ العلاقاتِ مع الاتِّحادِ السوفيتيِّ للاحتماءِ من وطئةِ المعسكر الرأسماليِّ وعودةِ الإستعمارِ إلى المنطقةِ العربيَّةِ من جديد. لذا، انسحبَتْ العراقُ من عضويتها للحلفِ بعد أربعِ سنواتٍ من قيَامِهِ، وعلى أثرِ انقلابِ **14** تموز **1958**. ثم انسحبتْ بعد ذلك الباكستان وتلتها تركيا، ولم يبقَ إلاَّ بريطانيا والولايات المتَّحدة، فاعْتُبِرَ الحلفُ في حكم المنحلّ.

[313] عبد الكريم بن قاسم بن مَلاَّ بكر بن عثمان الفضلي الزبيدي، ولد من أبٍ سُنِّيٍّ وأمٍّ شيعِيَّةٍ في بغداد يومَ **21** تشرين الثاني من سنة **1914**م. ربما لهذا الإختلافِ المذهبي بين أمِّهِ وأبيهِ نشأ عبد الكريم قَلِقَ النفس، مضطربَ الفكرِ، متناقضَ السلوكِ، عدوانية النزعةِ طِوالَ حياتِهِ...

درسَ عبد الكريم الابتدائيَّةَ ببلدةِ الصويرةِ جنوبَ بغداد. ولما تخرَّجَ من الثانوية عام **1931**م. عُيِّنَ مدرِّسًا بمدرسة الشامية الابتدائية للبنين الواقعة في قضاء الشامية التابعة للواء الديوانية، وله يومئذٍ **17** عامًا من العمر. وهذا يُثِيرُ تساؤلاتٍ حولَ الوضعِ الإجتماعِيِّ للعراقِ في تلك المرحلةِ، كما يُلفِتُ الإنتباهَ إلى الخصوصياتِ التي تَكْمُنُ في شخصيَّةِ عبد الكرم قاسم. فما لبث حتى التحقَ بالكليَّةِ العسكريَّةِ في سنةِ **1932**م. وتخرَّجَ منها عامَ **1934**م.، وبدأ حياتَهُ العسكريَّةَ برتبَةِ ملازم ثاني في كتيبَةٍ للمشاة. شغل مناصِبَ رفيعةً حتى أصبحَ قائدًا عامًّا للقواتِ المسلَّحَةِ العراقِيَّةِ. فَجَّرَ ثورةَ **14** تموز/يوليو **1958**م. الدمويَّةَ، قضى على الأسرة المالكة بِقَتْلٍ شَامِلٍ في مظهرٍ من أفظعِ مظاهرِ الْوَحْشِيَّةِ، وعلى النظامِ الْمَلَكِيِّ، وأعلن الجمهورية وأصبح الحاكم الوحيد على العراق.

كان عبدُ الكريم قاسم يُمَثِّلُ تلك الشخصِيَّةَ العراقِيَّةَ الاستعراضِيَّةَ الزائفَةَ؛ فإنه بخلافِ ما تَنَاقَلَتْهُ ألسنةُ بعضِ الشيوعيّين البسطاءِ والمتملّقين من إطرائِهِ؛ كانَ مُتَشَوّشَ الرأيِ، مضطربَ الفكرِ، ضعيفَ المنطِقِ، متوحّشًا عن الناسِ، شاكًّا حتّى في أقربِ الناسِ إليه، خائفًا من كُلِّ مَنْ شَارَكَه في أعمالِهِ وساهمه في تنفيذ مُخَطَّطَاتِهِ، لذلك لم يتزوَّج. ولأنَّهُ لم يثِقْ بأحدٍ في جميع حياتِهِ، ربما لهذه العيوبِ المتأصلةِ في كيانه رَفَضَتْهُ عِدَّةُ فتياتٍ خطبهنَّ.. كانَ إلى جانبِ هذه الشخصِيَّةِ الهشةِ متذبذبَ الديانة، يدلُّ على ذلك أنه كان صائمًا، طلب الماءَ ليفطر عليه قُبِيلَ إعدامِهِ في دار الإذاعةِ ببغدادَ، بينما كانَ المعروف منه أنه شيوعِيُّ النزعَةِ لا يحترم المقدساتِ الإسلامِيَّةَ وقد أصدر في عهده القصير قوانين عِدَّةً لهدمِ الشريعةِ الإسلامِيَّةِ. كما يَدُلُّ حِقْدُهُ الدفينُ على أهلِ بيتِ الرسولِ عليه السلام، والسلالةِ المنحدرةِ منهم، جنايَتُهُ على الأسرةِ المالكة بأبشع أشكالِ الوحشِيّةِ تقشعرُّ منها الجلودُ، حيثُ حصدها أحدُ زبانيته، وأكثر أفرادِها نساءٌ بينهنَّ طفلٌ عراقِيٌّ يتيمٌ تَرْعَيْنَهُ في القصر، وذلك لِمُجَرَّدِ كونِ الأسرةِ من الأشرافِ، وإلاَّ فكان باستطاعتهِ إقتيادُهُمْ، وتسليمُهم إلى القضاءِ ليتصرَّفَ فيهم.

هكذا ترك عبد الكريم قاسم صفحةً سوداءَ في تاريخ العراق، فتأسَّى به جميعُ طواغيتِ العراقِ الذين جاءوا على شاكلته.

وقد كان سَبَقَ حِلْفَ بغدادَ (اتفاقيَّةُ "سعد آباد") الْمُنْعَقِدَةُ بين تركيا وإيرانَ والعراقِ وأفغانستانَ في 08 يوليو1937م.، دامتْ سَارِيَ المفعولِ لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أعْوَامٍ. وبعد هذه الفترةِ لم يَعُدْ لها وُجُودٌ. كان ذلك تجربَةً فاشِلَةً كما لم يكنْ الهدفُ منها تأسيسَ العلاقةِ بالمنطقةِ العربيَّة. يدلُّ على ذلك موقفُ تركيا المسانِدُ للحكومةِ الإنجليزيَّةِ أثناءَ أزمةِ قناةِ السويس، لارتباطِ تركيا بِحِلْفِ شِمَالِ الأَطْلَنْطِيِّ وحِلْفِ بغداد.

يقول الأستاذ بهجت كمال يشيل بورسا في مقالة له: "لقد حرصتْ تركيا على اتِّخاذِ موقفٍ حياديٍّ حيالَ أزمةِ قناةِ السويس في البداية[314]، ولكنَّها أكَّدتْ فيما بعدُ مساندَتَها للحكومة الإنجليزيَّةِ في قرارِها بشأنِ إبقاءِ حاميتِها العسكريَّةِ على قناةِ السويس، بعد أنْ تجاهلَتْ هذه الأخيرةُ قرارَ الحكومةِ المصريَّةِ بفسخِ المعاهدةِ المصريَّةِ–الإنجليزيَّةِ. الأمر الذي دفعَ القطاعَ المعارضَ لِتُرْكِيَا في مصرَ إلى القيامِ بمظاهرةٍ استنكروا بها موقف تركيا، فأسفرتْ هذه الأحداثُ عن فتورٍ في العلاقاتِ التُّرْكِيَّةِ–المصرية."[315]

لا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ معظمَ الساحةِ العربيَّةِ كان قد تحرَّرَ من حكمِ الإستعمارِ الغربِيِّ، في الفترةِ التي كانت تركتا تتراءَى بمظهرِ دولةٍ مستقلَّةٍ ذاتِ سيادةٍ، ونظامٍ ديمقراطِيٍّ تعدُّدِيٍّ في عهدِ حكومةِ مندريس، لكنَّ الدولَ العربيَّةَ كانت ضعيفةً رغم وجودِ منظَّمَةٍ تتولَّى تنسيقَ العلاقاتِ وتقويةَ الروابطِ الثقافيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسياسيَّةِ بينها، كما لم تخلُ الساحةُ العربيَّةُ يومئذٍ من آثارِ الإستعمارِ والضغوطِ الأجنبيَّةِ التي استمرَّتْ بصورةٍ جوهريَّةٍ إلى اليوم.

فقد ظلَّت مصرُ تحتَ السيطرةِ الإنجليزيَّةِ بين أعوام 1882–1946م.، واحتلَّت فرانسا المنطقةَ الجزائريَّةَ عام 1830م. إلى سنة 1962م. وتمَرَّدَ أميرُ مكَّةَ شريف حسين بن علي، على الحكم العثمانِيّ وأعلنَ نَفْسَهُ مَلِكًا على الحجازِ بتحالفٍ مع الحكومةِ الإنجليزيَّةِ عام 1916م. وَكانت الجمهوريَّةُ التُّرْكِيَّةُ قد اعترفَتْ باستقلالِ اليمن الشماليَّةِ وفقًا لمعاهدةِ لوزان المعتمدة عام 1923م.

---

[314] أزمة قناةِ السويس أو ما يُعرَفُ تحت (اسم العدوان الثلاثي): هي حربٌ وقعتْ أحداثُها في مصر عام 1956م وكانت الدول التي اعْتَدَتْ عليها هي: فرنسا وإسرائيل وبريطانيا على أثرِ قيامِ جمال عبد الناصر بتأميمِ قناة السويس. تُعْرَفُ أيضا هذه الحربُ بحرب ال 1956م.

[315] هذا نصّ كلمات الأستاذ بهجت كمال يشيل بورسا باللغة التُّرْكِيَّة:

«Türk hükümeti, ilk başta Süveş Kanalı üssü hakkında taraf tutmaktan kaçınmıştı. Ancak İngiliz hükümetinin, İngiltere Mısır antlaşmasının feshini göz ardı etme ve kanal bölgesindeki İngiliz askerlerinin yerinde kalması kararını şiddetle desteklemişti. Türkiye'nin görüşü Mısır'daki Türk karşıtı gösterilerde lanetlenmiş ve Türkiye ve Mısır hükümetleri arasındaki ilişkiler "çok soğul" bir hal almıştı.» Behçet Kemal Yeşilbursa, Turkey's Middle Eastern Policy during the Democrat Party Era (1950-1960). International Journal of History Volume: 35, Number: 4. October-1999, pp. 70-102

إلاَّ أن اليمنَ الجنوبيّة دخلتْ تحت الحكمِ الإنجليزي حتَّى 30 نوفمبر 1967م. والعراقُ أيضًا في الفترة ما بين 1926–1930م.، وفلسطينُ في الفترة ما بين 1917–1948م.، ثم احتلَّتْها العصابَةُ العِبْرِيَّةُ. ودخلتْ سوريا ولبنانُ تحت السيطرةِ الفرنسِيَّةِ بين اعوام 1917–1936م.، واحتلَّتْ القواتُ الإيطاليةُ المنطقةَ الليبيَّةَ ما بين أعوام 1911–1952م.

وبهذا يتَّضِحُ أنَّ معظمَ المنطقةِ العربيَّةِ قد تحرَّرَ من حكمِ الإستعمارِ الغربِيّ شكلِيًّا وليس بالمعنَى الحقيقيِّ في الفترةِ التي كانت تركيا أيضًا تُعدُّ دولةً ذاتَ سيادَةٍ، مع ذلك كانتْ مهدَّدَةً من قِبَلِ الاتِّحادِ السوفيتِيِّ.

وقد يعتذرُ البعضُ لتركيا عن عدمِ مبالاتِهَا بالمنطقةِ العربيَّةِ في هذه الفترةِ بأنَّها لم تتمكَّنْ في الواقعِ من ممارسةِ سياستِهَا الخارجيَّةِ بِحُرِّيةٍ واستقلالِيَّةٍ تامَّةٍ. فقد يكون لهذا الإعتذارِ مبرِّراتٌ مرتبطةٌ بظروفِ المرحلةِ، ولكن هناك من يُبْدِي رأيَهُ خلافَ هذه النظرةِ، وعلى سبيلِ المثال يقول الكاتب محمد المندلاوي في إحدَى مقالاته: "إنَّ (تركيا) قامتْ بالتصويتِ ضِدَّ قرارِ إستقلالِ الجزائرِ الذي أُجْرِيَ في الأممِ المتَّحدةِ عام 1957 م والتي تركت جرحاً عميقا في قلبِ كل إنسانٍ عربِيٍّ ومسلم.[316]" هذا، ولا يختلفُ رأيُ بعضِ المثقَّفين الأتراك عن رأيِ الكاتب محمد المندلاوي. بل يُسَجِّلُ – على سبيل المثال – الأكاديميُّ التُّرْكِيُّ أوزان أورمجي، بنحوِ أسلوبِهِ وبجرأةٍ وصراحةٍ: "أنَّ زعيمَ الحزبِ الديمقراطِيّ عدنان مندريس تَمَلَّقَ إلى فرنسا يومَ صوَّتَتْ تركيا في أيَّامِ حكمِهِ ضِدَّ إستقلالِ الجزائرِ عام 1955م. كذلك عندما أرسلتْ قوَّةً عسكريَّةً من جيشِها ضمن قواتِ الأممِ المتَّحدةِ إلى كوريا الجنوبية لمجرَّدِ الإنضمامِ إلى الحلفِ الأطلسِيِّ مما أدَّى ذلك إلى سوءِ سمعتها[317]".

كذلك يُدَنْدِنُ الكاتبُ زياد هواش على نحوِ هذا الأسلوب فيقول: "في حين اتَّجهَ العربُ إلى فكرةِ الحيادِ وعدمِ الانحياز، والتعاونِ مع الاتِّحادِ السوفيتِيِّ لدعمِ مشاريع التنميةِ ورفدِهم بالسلاحِ لمواجهة

---

[316] http://gilgamish.org/printarticle.php?id=4900

[317] هذه كلمات الدكتور أوزان أورمجي.

Demokrat Parti ve lideri Adnan Menderes, NATO üyesi olmak için Kore'ye asker yollamanın yanı sıra Fransa'ya yaranmak adına 1955'te Birleşmiş Milletler'de Cezayir'in bağımsızlığının aleyhinde oy kullanmış ve ilk anti-emperyalist savaşı veren Türkiye'nin konumunu sarsmıştır. (Ozan Örmeci, İsrail-Filistin Sorunu ekseninde Tarihsel olarak Türk-Arap ve Türkiye-İsrail İlişkileri. PDF. 3/7.
http://www.caspianweekly.org/tr/ana-kategoriler/orta-dou/3189-israil-filistin-sorunu-ekseninde-tarihsel-olarak-turk-arap-ve-turkiye-israil-iliskileri.pdf

إسرائيلَ، ارتبطتْ تركيا بالغربِ وهي تنتظرُ تكريسَ انضمامِها إلى السوقِ الأوروبيَّةِ المشتركةِ، مع اعتبارِ الاتِّحاد السوفيتِيّ هو عدوَّها الأول."[318]

إنَّ إلقاءَ اللائمةِ على تركيا بمثلِ هذه اللَّهْجةِ، أسلوبٌ يخلو من الموضوعيَّةِ تمامًا، لأنَّنا إذا تأمَّلنا في ظروفِ المرحلةِ وفي الأحداثِ التي مرَّتْ بها المنطقةُ بالإضافةِ إلى خلفيَّاتِها التاريخيَّةِ نجدُ بوضوحٍ أنَّ دولَ المنطقةِ (بما فيها تركيا)، لم تتَّسِمْ إحداها بمقوِّماتِ دولةٍ قويَّةٍ حُرَّةٍ، تتمتَّعُ باستقلالٍ تامٍّ، وتُؤمنُ بالحرّيَةِ، وتتبنَّى السلمَ في سياستِها الخارجيَّةِ، وتتعامَلُ مع جوارِها بهدوءٍ وحكمةٍ... بل كانَت الأنظمةُ في كلِّ هذه الدولِ ضعيفةً مضطرَّةً للتحامي بأحدِ التحالفين، كما كانت كلُّها دكتاتوريَّاتٌ تتخفَّى وراءَ مسمَّيَاتٍ سياسيَّةٍ وأيديولوجيَّةٍ، كالديمقراطيَّةِ وَالجمهوريَّةِ والأشتراكيَّةِ والتعدديَّةِ، وتمارسُ الخدعةَ في سياستها الداخليةِ لتسييرِ الرأيِ العامّ بمقولاتٍ دعائيَّةٍ طنانةٍ لإقناعِ المواطنين بأنَّها دولةٌ تهتمُّ في تعاملِها مع الرعيَّةِ بالمساواةِ، وتحترمُ حقوقَ الإنسانِ... بينما كان يحكمها طغاةٌ وعائلاتٌ وَطُغَمٌ، بعضُها عملاءُ لِمُعَسْكَرِ الْغَرَبِ مرتبطة – في الوقت ذاته – بالدولة الصهيونيَّةِ. وبعضُها متحالفةٌ مع الاتِّحادِ السوفيتِيّ. لا تزال هذه الدول (بما فيها تركيا) راضخةً للوجودِ العسكرِيّ الجاثم على أراضيها إلى اليوم!

لقد كان العنفُ، والتعذيبُ، والقمعُ، والقتلُ الجماعيُّ، والجناياتُ السياسيَّةُ، والعنصريَّةُ، واستغلالُ الدِّين، وتشويهُ الإسلامِ، واضطهادُ العلماءِ والأكايدميّين، والفسادُ، وتهريبُ الثرواتِ إلى الخارجِ شائعًا في البلادِ العربيَّةِ.. وعاشَ الملاينُ من المواطنين في هذه البلادِ تحت خطِّ الفقرِ يعانون من البؤسِ والبطالةِ والشقاءِ، كما هاجر ملايينُ منهم إلى بلادٍ أجنبيَّةٍ إمَّا طلبًا للرزقِ، وإمَّا هَرَبًا من الظلمِ والقهرِ. كثيرٌ منهم لاذوا بالفرارِ للنجاة بأرواحِهِمْ من قتلٍ سياسِيّ مُخَطَّط.

هذا، ولم تكنْ تركيا إلاَّ نموزجًا من هذه الدولِ. لذا، كانت سياستُها تجاهَ المنطقةِ العربيَّةِ في عهدِ مندريس متذبذبةً بين مدٍّ وجذرٍ، ولم تكنْ اهتمامُ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ والتفاتُها إلى البلادِ العربيَّةِ أحيانًا إلاَّ بدوافعِ السياسةِ الأنجلو–أميركيَّةِ الَّتي كانتْ تستغلُّ وساطةَ تركيا لكسبِ هذهِ المنطقةِ، ولكي تقفَ ضِدَّ انتشارِ التيَّارِ الشيوعِيّ في الشرقِ الأوسطِ إبَّان الحربِ الباردةِ. كما أنَّ انتفاءَ ثقةِ العربِ بِتُرْكِيَا، والموقفَ السلبِيَّ للحكوماتِ العربيَّةِ منها كان سببًا آخر لفتورِ العلاقاتِ بين الطرفين.

---

[318] موقع: اليسار المقاوم. http://www.al-a7rar.net/index.php?topic=1016.0

في الحقيقةِ لم تحدُثْ هذه الفجوةُ بين تركيا والحكوماتِ العربيَّةِ (خاصَّةً في تلك الفترَة)، إلاَّ لأَنَّ كُلاًّ من الطرفين كان قد تَحَمَّلَ العمالةَ لأحدِ المعسكرين العظيمين المتناطحين: الولاياتِ المتحدةِ الأميركيّة، والاتِّحاد السوفيتِيّ. هذا، وإنَّ القرارَ الذي أصدرَهُ الزعيم المصريُّ جمال عبد الناصر لطردِ السفيرِ التركيِّ من القاهرة عام 1954م.، يفسِّرُ لنا الأزمةَ بإيجازٍ وبصورةٍ واضحةٍ. ذلك لأنَّ مصرَ كانت يومئذ دُميةً في يدِ الاتِّحادِ السوفيتِيِّ، كما أنَّ تركيا أيضًا كانت (ولا تزال) قلعةً للولايات المتَّحدةِ الأميركيَّةِ في الشرقِ الأوسطِ. تؤكِّدُ على هذا الواقعِ الزيارةُ الرسميَّةُ التي قامَ بها رئيس الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ جلال بيار إلى أميركا يوم 17 يناير 1954م.استغرقتْ خمسينَ يومًا! لا شكَّ في أنَّ هذا الحدثَ يُعدُّ سجلاًّ في تاريخ السياسةِ التُّرْكِيِّ.

يبدو من هذا المناخِ السياسيّ للمرحلةِ أنَّ عدنان مندريس كان يحرُصُ على ثقةِ العَرَبِ في محاولاتِهِ لإنشاءِ حلفِ بغداد. فقامَ بجولةٍ إلى البلادِ العربيَّةِ في مستَهَلِّ عام 1955م.، وخلالَ هذه الجولةِ زارَ دمشقَ يوم 14 يناير 1955م.، فالتقَى برئيسِ الوزراءِ السوريّ فارسِ الخورِي، ثم انتقلَ إلى بيروت، لكنَّهُ اصطدمَ في العاصمتين العربيَّتين بمظاهراتٍ صاخبةٍ ضدَّ تركيا. وعندما أبدَى رغبَتَهُ لزيارةِ مصرَ رفضتْ الحكومةُ المصريّةُ طَلَبَهُ بحجَّةِ أنَّ الرأيَ العامَّ المحليَّ غيرُ ملائمٍ لاستقبالِهِ في هذه الزيارة!

يتَّضحُ من خلالِ هذا المشهدِ، أنَّ تركا كانتْ مرفوضةً لدَى الرأيِ العامِّ العربيِّ، أيَّامَ حكومةِ مندريس، رغمَ زوالِ حِدَّةِ السياسَةِ الكماليَّة العنصريَّةِ (ضدَّ العرب والإسلام).

***

العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّةَ منذ الستِّينِيَّاتِ من القرنِ المنصرمِ إلى اليوم.

بدأت العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّةُ تتحسَّنُ لأوَّلِ مرَّةٍ في عهدِ الطُّغْمَة العسكريَّةِ التي أطاحتْ بحكم مندريس يوم 27 مايو 1960م. وكان من أوَّلِ إجراءاتها على صعيد السياسةِ الخارجيَّةِ الإعترافُ بالدولة الجزائريَّةِ. ثمَّ استشاطتْ الحركاتُ اليساريَّةُ في تركيا منذ بدايةِ الحكم العسكريِّ وأخذتْ في التنامي بين قطاعاتِ العمَّالِ وطلبةِ الجامعاتِ، كردِّ فعلٍ للإمبرياليَّةِ والضغوطِ الأميركيَّةِ، واستمرَّتْ

عَبْرَ العقدِ السادسِ من القرنِ العشرين. كما تدهورتْ العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–الأميركيَّةُ في هذه الفترةِ بسبب موقفِ تركيا إزاءَ الأزمةِ القُبْرُصِيَّةِ، فأدَّى هذا التغيُّرُ الطارِئُ إلى شيءٍ من التحسُّن في العلاقاتِ بين تركيا والاتِّحادِ السوفيتِيّ.

كان هذا التحوُّلُ متزامنًا مع قيامِ أنظمةٍ إشتراكيَّةٍ في عددٍ من البلادِ العربيَّةِ، مثل: سوريا، والعراق، ومصر، والجزائر، وليبيا، والسودان... كانت هذه الدولُ العربيَّةُ الضعيفةُ عسكريًّا تتزلَّفُ إلى الاتِّحاد السوفيتِيّ وتستمدُّ منها قوَّتَها الدفاعيةَ مِمَّا أدَّى ذلك إلى انتشارِ نَزَعاتٍ أيديولوجيَّةٍ يساريَّةٍ بين جماهيرِ الكادحين والقطاعات الشعبيَّةِ الواسعةِ التي تعاني من الفقرِ والبطالةِ والأمراضِ في هذه البلاد.

إنَّ هذا المشهدَ الذي سادَ على الساحةِ التُّرْكِيَّةِ وعلى عددٍ من البلاد العربيَّةِ في تلك الفترة، أفرزَ في النفوسِ الإحساسَ بآلامِ الغيرِ في المجتمعِ التُّرْكِيّ والعربِيّ على السواءِ وأسفرَ عن اتِّصالٍ بين الرأي العامِ التُّرْكِيّ والعربِيّ خلالَ الستينيَّاتِ من القرنِ المنصرمِ، ولكن نسبيًا وفِي إطارٍ محدودٍ إلى أنْ أثارتْ القضيَّةُ الفلسطينيَّةُ انتباهَ المثقَّفين اليساريّين الأتراك خاصَّةً بعد التطوُّرِ الحاصِلِ في قنواتِ الإتِّصالِ وإجهزةِ الإعلام.

إنَّ مِنْ أهمِّ الأحداثِ التي شهدتْها تركيا في هذه المرحلةِ حركةٌ قِتاليَّةٌ اتَّفقتْ عليها سِرًّا جماعةٌ من الشبابِ اليساريِّينَ الأتراك والأكراد، لِنُصْرَةِ الشعبِ الفلسطينِيّ، قوامُها ثلاثةُ آلافِ من طلبةِ الجامعاتِ والمثقَّفين، ثارتْ غيرتُهم على الفلسطينيِّينَ الذين تعرَّضوا للتعذِيب والتشريدِ والقتلِ والإبادةِ على يد العصابات الصهيونيَّةِ في الأراضِي المحتلَّةِ، فنهضوا للقيامِ بهذه المهمَّةِ الخطيرةِ واندفعوا إلى عديدٍ من المعسكراتِ التابعةِ لمنظَّمةِ التحريرِ الفلسطينيَّةِ. انتظَمَ هؤلاء الشبابُ بعد اجتماعاتٍ سرِّيَّةٍ ومُشاوراتٍ واستعداداتٍ نضاليَّةٍ منذ عام **1965**م. إلى نهايةِ العقدِ السادسِ. عملوا المستحيلَ؛ فقاموا باقتحامِ الحواجزِ، وتسلَّلوا إلى الأراضِي السوريَّةِ واللبنانيَّةِ والْتَحَقُوا بالكتائبِ الفلسطينيَّةِ بوادِي البقاعِ اللبنانيَّةِ، ومخيَّمِ نهرِ البارِدِ، ومخيَّمِ معلولاَ، ومخيَّم صبرا وشاتيلاَ وغيرها... فَتَلَقَّوْا في هذه المعسكراتِ تدريباتٍ قتاليةً، ثم انضمُّوا إلى صفوفِ المقاتلين الفلسطينيِّين للكفاحِ المسلَّح. قُتِلَ منهم عشراتٌ ودخلَ بعضُهم تحت الأسرِ في سجونِ العدوِّ الصهيونِيّ، منهم الكاتبُ فائق بُلُوطْ Faik Bulut، ظَلَّ في المعتقلِ الصهيونِيّ سبعةَ أعوامٍ وشهرين.

لقد كان في قِصَّتِهِمْ آياتٌ للسائلين. ظَلَّ في طَيِّ الكتمانِ إلى هذه الساعةِ أنْ كانَ أحدٌ منهم يؤْمن باللهِ واليومِ الآخر! ذلك أنَّهم كانوا يساريّين ومتحرِّرين، أو منسلخين عن الدين تمامًا – على ما يُعْرَفُ عنهم بين الناس– والله يتولَّى السرائر. ولكنَّهم كانوا قد عاهدوا أنفسهم لِيُقَدِّمُوا أرواحَهُمْ فداءً لأجل تحريرِ فلسطين وشعبِهِ. بينما نَاصَبَهُمُ العَدَاءَ عامةُ "الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر!"، ولَعَنَهُمْ ملايينُ الناسِ من القطاع "الْمُسْلُمَانِ السُّنِيّ" بتوجيهٍ من شيوخِ الجماعاتِ النقشبنديَّةِ وبِدَعْمِ الإعلامِ المحافظ. ووصفوهم بـ"الإرهابيّين، والكفَّارِ، والخونَةِ، وعُملاءِ الدولةِ الشيوعيَّةِ الإباحِيَة...". وصبَّوا عليهم جام غضبِهِمْ في كلِّ مناسبةٍ. كما قامت سلطاتُ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ بملاحقتِهِمْ، والقبضِ عليهم، وإنزالِ أشدِّ النكالِ بهم.. ماتَ كثيرٌ منهم (بعد عودتِهم) تحت التعذيبِ ونُفِّذَ حكمُ الإعدامِ في عددٍ منهم.

نهضَ الفاشيونَ الفاشيون الأتراك في هذه الفترةِ لمقاومة التيارِ الشيوعِيِّ، فكان فتح الله گولن في طليعتهم. جَمَعَ حولَهُ عددًا كبيرًا من الشباب المتطرِّفين (معظمهم طلبة الجامعات)، كوَّنَ منهم منظمةً سمّاها "جمعيَّةَ مكافحة الشيوعِيَّةِ" وذلك عام **1963**م. كان مقرُّها بمدينةِ أرض الروم Erzurum بمنطقة شرقي تركيا، فتمكَّنَ من خلالِ هذه الإنطلاقَةِ أن يستغِلَّ الدِّينَ والوطنِيَّةَ ذريعةً للتوغُّلِ في أجهزةِ الدولة التركية. كشفتْ التحقيقاتُ الأمنيَّةُ والتقاريرُ القضائيةُ بعد إنقلاب **15** تموز الفاشل، أن فتح الله گولن قد تقاضى مبالِغَ ضخمةً من وكالةِ الإستخباراتِ الأميركية cia إبَّانَ عَمَالَتِهِ لها مدةً لا تقلُّ عن **35** عامًا[319]. وقد كانت هذ الجمعيَّةُ تُقدِّمُ دعمًا كبيرًا لِشُرْطَةِ المباحثِ في مطارةِ مَنْ عادوا مِنْ أولئك الشبابِ الذين ذهبوا لنجدة الفلسطينيّين.

يجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ هذه التطورات تُنْبِئُ بوضوحٍ عن خطورةِ التضارب الذي يتقلَّب في أمواجه المجتمعُ التركِيُّ "الْمُسْلُمَانُ" من القديم إلى اليوم.

رغم هذا الحدثِ، لم يتغيَّرْ الموقفُ المحتاطُ للدولةِ التُّرْكِيَّةِ من أميركا وعميلتِها في هذه الفترَةِ، بل ظلَّتْ تركيا تُرَاقِبُ بقلقٍ الاستعداداتِ العسكريَّةَ التي قامتْ بها الدولةُ الصهيونيَّةُ في أيلول **1973**م. للإنقضاضِ على الدُّولِ العربيَّةِ التي تحيطُ بها، كما رفضتْ أن تُسْتَخْدَمَ الأجواءُ التُّرْكِيَّة للطيرانِ العسكرِيِّ الأميركي الْمُتَأَهِّب لمشاركةِ القوَّاتِ الصهيونيَّةِ. بل في مقابلةِ ذلك سمحتْ للإتحادِ السوفيَتِيِّ باستخدامِ الأجواءِ التُّرْكِيَّة لمواصلاتٍ عسكريَّةٍ يتمُّ عَبْرَهَا دعمُ القواتِ المسلحةِ المصريَّةِ

---

[319] http://ahmetsaltik.net/2014/03/03/fethullah-gulen-35-yildir-ciaden-maas-aliyor/

والسوريَّةِ في حرب أُكتوبر[320]. كان موقفُ تركيا المعارضُ لأطماع إسرائيلَ ثابتًا ومحدودًا منذ عام **1960**م. كما كانت علاقاتُها مع المنطقةِ العربيَّة تتَّسِمُ بمرونةٍ عمومًا وبإيجابيَّةٍ أحيانًا. فكان من نتائج هذا الموقفِ أنَّها لم تتأثَّرْ بتداعياتِ الحظرِ النفطِيِّ الذي أُعلن يوم **06** يونيو **1967**م. أي بعد حربِ الأيَّام الستَّةِ. وانضمتْ إلى منظمةِ الدول الإسلاميَّةِ عام **1969**م. أسفر ذلك عن زيادةٍ في التقاربِ بين تركيا والبلادِ العربيَّةِ.

لا شكَّ في أنَّ مفاجأةَ الزعيمِ الليبيِّ العقيد معمر القذافِيِّ بتأييدِهِ الأكيدِ لتركيا أثناءَ عمليَّاتِها العسكريَّةِ في قبرص عام **1974**م. كان لها أثرٌ إيجابِيٌّ بالغٌ في تطوُّرِ العلاقاتِ الثُّنائيَّةِ بين تركيا والبلاد العربيَّةِ. فلم يلبث حتَّى طلبتْ ليبيا الأيديَ العاملةَ من تركيا، فتوافدتْ عَشَرَاتٌ من الشركاتِ التُّرْكِيَّةِ إلى هذا البلدِ العربِيِّ وساهمتْ هناك في حملةِ التشييدِ والعمرانِ منذ عام **1975**م. حتى بدايةِ ثورة **17** فبراير **2011**م.

ومن الأسباب التي استقوتْ بها العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّةُ؛ موقفُ تركيا المتحفِّظُ من الكيانِ الصهيونِيِّ بتحديدِ علاقاتِها معه منذ عام **1965**م. واهتمامِها بالقضيَّةِ الفلسطينيَّةِ على الصعيد الدولِيِّ. فعندما وافقتْ الحكومةُ التُّرْكِيَّة على فتحِ مكتبٍ لتمثيلِ منظَّمةِ التحريرِ الفلسطينيَّةِ في أنقره أثارتْ هذه المبادرةُ ابتهاجًا في العالَمِ العربِيِّ وأسفرتْ عن سُمعةٍ طيِّبةٍ لتركيَا في البلادِ العربيَّةِ. فكان من أدلَّةِ الإحساسِ بهذا الموقفِ، قيامُ الزعيمِ الفلسطينِيِّ ياسر عرفات بزيارةٍ إلى أنقره لأوَّلِ مرةٍ (**05** أكتوبر **1979**م.)، واستقبالُ الحكومةِ التُّرْكِيَّةِ له في جوٍّ دافئٍ تغمره الحفاوةُ البالغةُ وكرمُ الضيافةِ.

ولَمَّا اتَّخذَ الكنيست الإسرائِلِيُّ قرارًا بتاريخ **29** يوليو **1980**م. أعلن فيهِ أن القدسَ عاصمةٌ للدولةِ الإسرائيليَّةِ، أثارَ ذلك ردًّا عنيفًا في تركيا، فسحبتْ الحكومةُ التُّرْكِيَّة سفيرَها فورًا من الأرض المحتلَّةِ، فأصبحتْ إسرائيلُ بعد ذلك شيئًا شِبهَ منسِيٍّ في اعتبارِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ عدةَ سنين. كما كانت تركيا أوَّلَ دولةٍ اعترفتْ رسميًّا بالدولةِ الفلسطينيَّةِ في سنة **1988**م. إلاَّ أنَّ الدُّوَلَ العربيَّةَ لَمَّا امتنعتْ عن مساندةِ تركيا في القضيَّةِ القبرصيَّةِ بالإضافةِ إلى أزمةِ الماءِ التي نشِبَتْ بين تركيا والعراق من

---

[320] المصدر:

1969 yılında Türkiye, İslam Konferansı Teşkilatı'nın kurucu üyelerinden biri olmuş ve Ekim 1973 Yom Kippur Savaşı'nda ABD'ye askeri üs ve hava sahasını kullanma izni vermemiştir. Aynı savaşta Türkiye'nin SSCB'ye Mısır ve Suriye'ye yardım için hava sahasını açtığı bilinmektedir. (Ozan Örmeci, İsrail-Filistin Sorunu ekseninde Tarihsel olarak Türk-Arap ve Türkiye-İsrail İlişkileri. PDF. 3/7.
http://www.caspianweekly.org/tr/ana-kategoriler/orta-dou/3189-israil-filistin-sorunu-ekseninde-tarihsel-olarak-turk-arap-ve-turkiye-israil-iliskileri.pdf

جهةٍ، وبين تركيا وسوريا من جهةٍ أخرى، بدأتْ العلاقاتُ بين تركيا وجوارِها تتدهورُ من جراءِ هذه التطوُّراتِ. وبخاصَّةٍ عندما ازدادتْ الأزمةُ حدَّةً بين تركيا وجارتيها العربيَّتين (العراق وسوريا)، بسبب مشروعِ الغاب الواقع قرب مدينةِ (أورفا).[321] ثم بدأت العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–الإسرائيليَّةُ تتحسَّن إلى أن بلغتْ ذروتَها أيامَ حكومة نجم الدين أربكان، غير أنَّ ذلك لم يكنْ بالطبع ناشئًا عن رغبة أربكان المعروفِ بانتمائهِ "الإسلامَويّ" وموقفِهِ السلْبِيّ من إسرائيلَ، بل كان نتيجةَ ضغوطِ الشبكة السبطائيَّةِ القابضةِ على زمامِ الجيشِ التُّرْكِيّ، وَالمتحكّمةِ في السلطةِ منذُ عهدِ الاتّحاد والترقّي. ولا ننسَى ما حصلَ بسببِ هذا الإزدياد في التعاونِ بين تركيا وإسرائيل من اختلالِ التوازن في العلاقاتِ التُّرْكِيَّةِ–العربيَّةِ، حيث لجأتْ كلٌّ من العراقِ وسوريا إلى الإنتقامِ من تركيا بإيواءِ المتمرّدين الأكراد التابعين لحزبِ العمَّالِ الكردستانيّ PKK، والعصابةِ الإرهابيَّةِ الأرمنيَّةِ ASALA. كذلك لا يمكن أنْ يتجاهلَ المتمكّنُ من علمِ السياسةِ أنَّ أطماعَ الدولة التُّرْكِيَّةِ الهادفةِ لِضَمّ مدينةِ الموصل إلى الأراضي التركيَّةِ، بغيةَ السيطرة على مدينةِ كركوك، أحلامٌ قديمةٌ، كلَّما طرحها مسؤولٌ من السياسيّين الأتراك بذريعةٍ مَّا فتحَ بابًا من الخلافِ بين تركيا والعراق، وكان لها أثرٌ سلبِيٌ على العلاقاتِ التُّرْكِيَّة–العربيَّةِ لا محالة.

[321] الغاب GAP: لفظٌ رمزِيٌّ يتألّف من ثلاثة أحرفٍ مأخوذةٍ مِنْ أوائلِ ثلاثِ كلماتٍ في اللغة التُّرْكِيَّة وهي: (Güneydoğu Anadolu Projesi). يعني: "مشروعُ جنوبِي شرقِ أناضول" وهو مشروعٌ عملاقٌ متكاملٌ يضمُّ **22** سدًّا، و**19** محطةً للطاقة الكهربائيّةِ ومشروعاتٍ أخرى في قطاعات الزراعةِ والصناعة والمواصلاتِ والريّ والإتصالات. تَعُدُّهُ تركيا ثروةً وطنيةً تعادل ما تمتلكه دول المنطقة من النفط.يُفترض أن تنتهي أعمال تنفيذه في نهاية عام **2013**م. تقدّر قيمته بـ **32** مليار دولار أمريكي. ولا شك من أن هذا المشروع الضخم سيكون له تأثير كبير في النهوض بالاقتصاد التركي المتدهور. يتفائل الخبراء؛ أن المشروع إذا استمرّ بنفس الوتيرة في العطاء، سيدفع بالاقتصاد التركي لعشرين سنة إلى الأمام. ذلك، أنّ هناك مناطقُ سهليَّةٌ تقدَّر مساحتُهَا بـ (**1.82**) مليون هكتار من الأراضي، ستقام عليها آلاف من المزارع، وستتدفّق منها أنواعٌ من أجودِ المحاصيلِ الزراعية، نظرا لخصوبة أراضيها واعتدال المناخ هناك. بالإضافة إلى توليدِ مقاديرَ كبيرةٍ من الطاقة الكهربائيَّةِ، وهذا يعني أن المشروعَ سيكون دافعًا لعجلةِ الإقتصادِ التركيّ، وحافزًا لفتحِ مجالاتِ العملِ وازدهارِ المنطقةِ، واستخدامِ عشراتِ الآلافٍ من اليدِ العاملةِ، والقضاءِ على نسبةٍ كبيرةٍ من البطالةِ. إلاَّ أنَّ الأزمات السياسيَّةَ التي تعاني منها الدولةُ التركيةُ من الإنقلاباتِ العسكريةِ والصراعاتِ السياسيَّةِ بين الأحزاب، خاصَّةً المواجهات المسلَّحة مع حزب العمال الكردستاني ونحوها ابطأتْ من وتائرِ العمل.

قدمت كلٌّ من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، وإسرائيل، وفرنسا دعمًا كبيرًا لأجل تنفيذِ المشروع، لما ترى من وراءِ ذلك من مصالحَ وأهدافٍ مستقبليَّةٍ. وقد اخذت تركيا قروضًا بخاصةٍ من إسرائيل لتنفيذ هذا المشروع، فلم تبخل بتقديمها، بل وافقت عليها بكلِّ سهولة!

ورد في بعض أجهزة الإعلام: "أنَّ إسرائيلَ قد أصبحت الشريكَ الفعلِيَّ في هذا المشروع الحيوِيّ الذي يُعَدُّ عَصَبَ الحياةِ في تلك المنطقة. وأن (أيانان غرسين)، مستشار شارون للشؤون الاقتصادية، أكَّدَ في مناسبةٍ لصحيفةِ «السياسة الحرة» الصادرة باللغة التُّرْكِيَّة في برلين أن اسرائيلَ ستستثمرُّ مليار دولار في مشروع الغاب من خلال الشركات والمؤسسات الاسرائيلية العاملة في تركيا. والجدير بالذكر أنَّ **67** شركة ومؤسسة إسرائيلية تعمل في مشروع الغاب منذ عام **1995**م. وتقوم بشراء الأراضي على ضفاف نهر مناوغاتManavgatالذي تطمح إسرائيل في شراء مياهه من تركيا لتلبية احتياجات المستوطنات اليهودية. وتقوم (مؤسسةُ مشاو) الإسرائيليةُ للتربية والتعليم بنقل التكنولوجيا الزراعية وإنشاء وادارة الحقول الى المزارعين اليهود في هذه المنطقة الواسعة التي تضم أربع محافظات في جنوب شرق تركيا. وكانت الصحافة ذات الاتجاهات الاسلامية قد حذّرت من مخاطر هذه المشاريع".

الشيخ طارق عبده إسماعيل باحث إسلامي. http://quran-m.com/articleprint.php?id=751

تذبذبتِ السياسةُ التُّرْكِيَّةُ الداخليَّةُ والخارجيَّةُ منذ قيام الجمهوريَّةِ إلى اليوم، تبعًا لاختلافِ ميلِها بين الشرقِ والغربِ على مَدَى حُقْبَةٍ تمتدُّ إلى قرنٍ من الزمن، فكانتْ علاقاتُها مع المنطقةِ العربيَّة أيضًا متردِّدةً بحكمِ هذا التموُّجِ السياسِيّ.

لقد كانت حركةُ التغريبِ الَّتي قادتْها الشبكةُ السبطائيَّةُ بحماسٍ بين أعوام **1923–1950**م.، كانت – في الحقيقة – تُمَثِّلُ موقفًا رافضًا للشرقِ بكلِّ ما له من قِيَمٍ تُرَاثيَّةٍ، فكانت في الوقتِ ذاتِهِ مجرَّدَ تقليدٍ للثقافةِ الأوروبيَّةِ وعاداتِها وسلوكيَّاتِها. لذا، لم يكن العالَمُ العربيُّ في هذه الفترة يحتلُّ مكانَ اهتمامٍ في السياسة التُّرْكِيَّة. ولهذا، أولَى بها أنْ تُسمَّى بـ "السياسة السبطائيَّةَ".

إنَّ التحوُّلاتِ التي حدثتْ في السياسةِ التُّرْكِيَّةِ وأمالتْ وجهَها نحوَ الشرقِ في مطلع السبعينِيَّاتِ من القرنِ العشرين، لم تكنْ في الحقيقةِ مِنْ علاماتِ الإنتباهِ إلى القِيَمِ المشتركة، ولاَ إقبالاً إلى إحياءِ الأواصرِ التاريخيَّةِ التي تربطُ تركيا بالعالَمِ العربيّ؛ وإنَّما كانت نتيجةَ ظروفٍ إقتصاديَّةٍ بحتةٍ، أهمُّها أزمةُ النفطِ وارتفاعُ أسعارِهِ. فكانت تكلفةُ المصروفاتِ النفطيَّةِ باهضةً تُثْقِلُ كاهلَ تركيَا خاصَّةً في هذه الفترةِ.

فبينما كانت الحكومةُ التُّرْكِيَّةُ تتباحثُ عن مَخْرَجٍ تُنقِذُ به الإقتصادَ الْمُنْهَارَ من هذا الْمَأْزِقِ، فإذا بالقذافي يفتحُ أبوابَ ليبيا على مصاريعهَا لشركاتِ المقاولة التُّرْكِيَّةِ يدعوها لتنفيذِ مشاريعَ عمرانيَّةٍ ضخمةٍ في انحاءِ بلدِهِ. فبدأتْ حشودٌ كبيرةٌ من العمالة التُّرْكِيَّةِ تتدفَّقُ على الساحة الليبيَّةِ من بداية عام **1975**م. وعلى مدى خمسةٍ وثلاثين عامًا. فغدتْ ليبيا بذلك بوَّابةَ رحمةٍ وبركةٍ يومئذٍ على الخزينةِ التُّرْكِيَّةِ الخاليةِ من العُمْلَةِ تمامًا. كما أصبحتْ ليبيا ساحةَ تجربةٍ للشركات التُّرْكِيَّة المخضرمة غيرِ ذاتِ الكفائَةِ والإختصاصِ والقدرةِ في مجال التشييد والإنشاءِ، ممَّا أدَّى ذلكَ إلى خساراتٍ ماليةٍ في ميزانية الإسكانِ الليبيّ، وسلبيَّاتٍ نشأت جراءَ عجزِ عددٍ كبيرٍ من هذه الشركات عن تنفيذ مشروعاتِهَا في أوقاتِها المحدَّدة. بينما اكتسبتْ هذه الشركات خبرةً فائقةً بفضلِ تجارُبِها في ليبيا، فتحولَ مُعظَمُها إلى شركاتٍ عالَمِيَّةٍ تعاقدتْ فيما بعد على مشاريعَ ضخمةٍ في مختلفِ أنحاءِ العالَمِ على رأسها ألمانيا وروسيا.

دخلت أكثر من مئتي شركة تُركيَّة للبناءِ إلى ليبيا خلالَ حُكمِ القذافي، وكان لنشاطاتِ هذه الشركات أثرٌ إيجابِيٌّ كبيرٌ على الإقتصادِ التركيّ رغمَ قصورِها في نوعيَّةِ الخدمةِ والإنتاج، وإبطائِها في

التنفيذ، وتسَبُّبِها لِمَشَاغِبَ وَغَوَائِلَ، كالإضراباتِ العمَّاليَّةِ التي كانت متفاقمةً في كثيرٍ من مواقع أعمالِ هذه الشركات، عدا ما تورَّطَ بعضُها في أعمال التهريب، كما تعاون بعضُها (حسب الإشاعات) مع اللجانِ الثوريَّةِ في ملاحقةِ ومطاردةِ المعارضين الإسلاميّين.

إنَّما جاءت الدعوةُ من ليبيا للشركات التُّرْكِيَّةِ لسببٍ أساسيٍ يفوقُ على بقيَّةِ الأسبابِ التي يتمثَّلُ أحدُها في حاجةِ الدولةِ الليبيَّةِ إلى يدٍ عاملةٍ وشركاتِ مقاولةٍ تقومُ بتنفيذِ مشاريعَ عمرانيَّةٍ، بينما كانت باستطاعتِها أن تختارَ اليدَ العاملةَ وشركاتٍ للمقاولةِ من أيِّ بلدٍ آخر. فكان ذلك السببُ الأساسيُّ – لا شكَّ– هو الصلةَ الروحيَّةَ المتينةَ التي تجمعُ بين الشعبين التُّرْكِيِّ والليبيّ؛ وبتعبيرٍ أوضحَ وأفصحَ: هو الدِّينُ الإسلاميُّ الذي يربطُ بين القاعدتين الشعبيَّتين من الطرفين، وإنْ كان الإسلامُ التركِيُّ مُشَوَّهًا ومُقَمَّصًا في لباسِ "الْمُسْلُمَانِيَّةِ"

بالمناسبةِ؛ عندما نُلقِي النظرَ في أيّ تصريحٍ للسياسيّين والمثقَّفين والإعلاميّين الليبيّين، نجدُ في مقدّمةِ كلامِهم دائمًا عباراتٍ تدلُّ على اهتمامِهِمْ بهذه الصلةِ قبلَ كلّ شيءٍ. وعلى سبيلِ المثالِ يقول أحمد الصالحين الهوني في افتتاحيَّةِ مجلَّةِ (العرب العالمية) الصادرة عام **1987**م. يقول: "تركيا لها تاريخٌ عريقٌ والْتِحَامٌ كاملٌ مع الأمَّةِ العربيَّةِ. ولقد جمعَ الإسلامُ بين الشعبين العربِيِّ والتركِيِّ، وتعايشَ شعبُنا مع الخلافةِ الإسلاميةِ التُّرْكِيَّة، وانعقدتْ خلالَ تلكَ الحُقْبةِ الطويلةِ من الزَّمَنِ أواصرُ المصاهرةِ والدَّمِ، وامتدَّتْ جذورُ أُسَرٍ تركيَّةٍ في بلادِنا العربيَّةِ وأصبحتْ جزءًا من الأمَّةِ العربيَّة". وهناك أمثلةٌ من هذا القبيلِ غيرُ قابلةٍ للحصر لكثرتِها.

فعلى رغمِ هذه العاطفةِ والمشاعرِ التي تُنْبِئُ عن محبَّةٍ صادقةٍ وترحيبٍ لم يُسْمَعْ حتَّى الآن من أحدٍ من المسؤولين، أو السياسيّين، أو المثقّفين، أو الكُتَّابِ أو الإعلاميّين الأتراك، لم يُسْمَعْ مِنْ أحدِهم أدنى كلمةٍ في مقابلتِها ولا في مقابلةِ آلافٍ من أمثالِهَا، من ترحيبٍ، أو شكرٍ، أو أيِّ ردٍّ يُنبئُ عن استعدادِهِمْ للتجاوُبِ والتعاوُنِ والعرفانِ بالجميلِ. لماذا؟...

لقد استضافتْ ليبيا مئاتٍ من المقاولين الأتراك على مَدَى أربعةِ عقودٍ، وقدَّمتْ لهم فُرَصًا ثمينةً لم يجدوها، ولن يجدوها في أيِّ بلدٍ آخر أبدًا. وبفضلِ هذا الموقف الإيجابِيِّ من الليبيّين غَدَوْا من مشاهير الأثرياءِ على أرضِ تركيا، بينما لم يكنْ يملكُ أكثرُهُمْ سوى محلٍّ تجارِيٍّ متواضعٍ، وبعضُهُمْ يشكو من البطالةِ والفقرِ، وقد أصبحوا اليومَ مِمَّنْ يُغتَبَطُ بهم لِسَعَةِ أعمالِهِمْ، وضخامةِ دَخْلِهِمْ،

وشَرِكَاتِهِم العملاقةِ، ينافسون أصحابَ الثروات في أنحاءِ العالَمِ. مع ذلك لم يُسْمَعْ مِنْ أحدِهِمْ أنَّه أعربَ عن شكرِهِ وامتنانِهِ للشعبِ الليبيِّ وأقرَّ بِكَرَمِ هذا الشعبِ ولو بكلمةٍ واحدة. لماذا؟...

إنَّ الإجابةَ على هذا السؤالِ – في الحقيقة– يتوقَّف على المعرفةِ بأحداثٍ تاريخيةٍ، وقضايا اجتماعيَّةٍ، ومشاكلَ سياسيَّةٍ، وأمورٍ خفيَّة تتعلَّق بالدولة التُّرْكِيَّةِ، ومُكَوِّنَاتِ الْمُجْتَمَعِ التُّرْكِيِّ وعقليتِهِ.

فعندما فتحتْ ليبيا أبوابَهَا للعَمَالَةِ التُّرْكِيَّة، قامتْ السلطةُ الأتاتوركيَّةُ بتجنيدِ شِرْذِمَةٍ من بِطانتِهَا فحسبُ لهذه المهمَّةِ، دون غيرِهِمْ من المقاولين المحافظين والمعروفين بِشَعْبِيَّتِهِمْ وانتمائِهِمْ الإسلامِيّ.

إنَّ من أكبرِ دلائلِ هذه المشاركةِ الثُّنائيةِ بين الحكَّام الكماليّين وبطانتِهم من المقاولين العلمانيّين: موقفُهم المستكبِرُ من الشعبِ الليبيِّ في كلِّ الملتقياتِ، واستنكافُهُمْ عن مُجَالَسَةِ الليبيّين وَكَرَاهِيَّتُهُمْ الحضورَ في مساجدهم، وحفلاتِهم وأعراسِهم وعزائِهم، على غرار المقاولين الغربيّين الذين لا يرتبطون بصلةٍ روحيَّةٍ إلى الشعب الليبيّ. أما الليبيُّون، فإنهم طالما أبدوا اهتمامَهم بجانب الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ والرابطةِ الإسلاميَّةِ لدى كلِّ مناسبةٍ

على عكس ذلك لم يسبق من أحدٍ من المقاولين الأتراك، بصفتهم مسلمين (؟!) أن ابتدأ كلامَه باسم الله أثناءَ خطابِهِ في جلسةٍ على غرار الإنسان الليبيِّ المؤمنِ الذي لا ينطقُ بكلمةٍ على مِنَصَّةِ الخطاب إلاَّ بعد أن يُسمِّيَ اللهَ تعالى ويصلّيَ ويسلِّمَ على الرسول الكريم وهو عادةٌ شائِعَةٌ في ليبيا. كما ليس هناك أدنى مثال من ترحيبٍ وَرَدَ على لسانِ أحدِ هؤلاءِ المقاولين الأتراك، يُعَبِّرُ فيها عن فَرَحِهِ واغتباطِهِ بثورة الليبيّين، أو تَرَحَّمَ على شهدائهم.

إنَّ تصريحاتِ المسؤولين الليبيّين التي نعثرُ عليها بكثرةٍ ضمنَ المحفوظاتِ الإعلاميَّةِ طوال السنين، تبرهنُ على جهودِهِم البالغةِ في سبيل تطويرِ العلاقاتِ بين ليبيا وتركيا، وتسهيلِ إجراءاتِ العُمَّالِ.. فكم من سفراءِ ليبيا وقناصلِها ورجالِ سلكِ خارجيَّتِها في أنقره وإسطنبول بدءًا من أحمد الأطرش، ووصولاً إلى عبد الله المحجوبي، وصويعي سالم الأدهم، وسليمان عتيقة، ومفتاح الترهوني، وعلى منصور الزياني، ومحمد المنقوش... لكلٍّ منهم جهودٌ طيبةٌ في توطيدِ العلاقاتِ بين تركيا وليبيا، ولهم

كلماتُ تقديرٍ لِتركيا وإشادةٍ بها شعبًا ودولةً لدى كلِّ مناسبة. بالإضافة إلى تركيزهم على العلاقة الروحية التي تربط بين "الشعبين الشقيقين".

على عكس ذلك لم يُعْثَرْ على كلمةٍ واحدةٍ لِسُفَرَاءِ تركيا في طرابس أشارو فيها إلى هذه الصلة المقدَّسَةِ، فكلُّ ما تَفَوَّهُوا بِهَا أحيانًا ودندنوا بها في لغطٍ كأنهم يتكلمون بخياشيمهم وليس بلسانهم: "أنَّ هناك روابطُ تاريخيَّةٌ وثقافيَّةٌ بين البلدين" فحسب. فأين الروابطُ التاريخيَّةُ من الأخوَّةُ الإيمانيَّةُ التي أسَّسَها الله تعالى بين المؤمنين بكلماتِهِ المقدَّسَةِ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ[322]... بل هناك رواط تاريخية بين جميع الدول، ومع ذلك لا يخلو مُعظمُها من النزاعِ، والخصوماتِ، والقتالِ، والحِيَلِ، والفسادِ، والاستغلالِ، والخيانةِ، والنقضِ بالعهد...

والفرق بين الطرفين: أنَّ الليبيّين بخاصَّتِهم وعامَّتِهم، نشؤوا على فطرةِ الإسلامِ؛ أما الأتراك: فإن القاعدةَ الشعبيَّةَ منهم على صلةٍ متينة بالإسلام (ولو كان عن فَهْمٍ خَاطِئٍ)، وهم في وادٍ، والمسؤولون العلمانيُّون في وادٍ آخر. لا تجدون أدنى مُشابَهَةٍ بين الحُكَّامِ والرعيَّةِ في تركيا أبدًا.

إن "طبقة النبلاء الأتراك" التي تضمُّ السياسيّين، والدبلوماسيّين، والبيروقراطيّين، وأصحابَ الرُّتبِ العليا في القوَّاتِ المسلحة، وأصحابَ الشركاتِ والبنوكِ.. كلُّهم تقريبًا علمانيُّون أتَاتُورْكِيُّون... إنَّهم أبعدُ الناسِ من ساحةِ الإسلامِ، بل أكثرُهُمْ يكرهون أمَّةَ الإسلامِ، خاصَّةً كراهيَّتُهم للعرب أشدُّ، لكونِ النبِيّ عليه السلام منهم، و"لأنَّ لُغَتَهُمْ طغتْ على اللُّغةِ التُّرْكِيَّة بعد استيلاءِ مصطلحاتِها الدينيَّةِ عليها، فكانتْ هي المصيبةَ في ربطِ تاريخِ الأتراكِ بتاريخ العربِ!" على حدِّ نيَّاتِهم التي قلما يفشونَها.

إنَّ هذهِ القلَّةَ المتحكِّمَةَ بخناقِ الشعبِ التركيّ، هي التي تُمَثِّلُ الدولةَ في الداخلِ والخارجِ. فلا يُستَبعدُ أنْ كانت هذه الطُّغْمَةُ هي التي عمدتْ إلى تجنيدِ شرذمةٍ من رجالٍ مشبوهين ساقتْهم ليستغلُّوا كلَّ فرصةٍ في ليبيا، وليمتصُّوا أموالَ الليبيّين بالتعاوُنِ مع بعضِ رموزِ الطاغية. فقاموا – لا شكَّ– بواجبِهم طبقًا لتوجيهات العصابة (السبطائيَّةِ)، وأساؤوا بسمعةِ الشعب التُّرْكِيِّ في ليبيا.

---

[322] سورة الحجرات/10

ومنذ دخلتْ شركاتُ المقاولةِ التُّرْكِيَّةِ إلى الساحةِ الليبيَّةِ عام **1975**م. بدأتِ العلاقاتُ الإقتصاديَّةُ والتجاريَّةُ التُّرْكِيَّةُ تتطوَّرُ بين تركيا وعددٍ من البلادِ العربيَّةِ خاصَّةً في عهدِ رئيسِ الوزراءِ التُّرْكِيِّ تُرغوت أوزال، وازدادتِ التعاونُ بين الطرفين حتى هذه الأيامِ التي تهبُّ فيها عاصفةُ الثوراتِ على الساحة العربيَّة، وتركيا تراقب العاقبةَ بانتباهٍ شديدٍ وقلقٍ بالغٍ، وتنتظرُ في تأهُّبٍ لتنالَ حظًّا وافرًا من رِبْحِ هذا الصراع.

ازدادتْ اهتمامُ الحكوماتِ التُّرْكِيَّة بالمنطقةِ العربيَّة منذ بدايةِ حكمِ تُرغوت أوزال، وكان على رأسِ مَنْ وجَّهَ عِنَايَتَهُ نحوَ هذه المنطقةِ من بين رؤساءِ الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ بالدرجةِ الأولى؛ نجم الدين أرباكان، ثم بعده تُرغوت أوزال، لانتمائهما الدينيّ، رغم غلبةِ النَّزْعَةِ الصوفيَّةِ على هذا الإنتماءِ وصبغتِهِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ البعيدة عن روح الإسلام. ذلك، أنّهما كانا مِنْ أشهر الشخصيَّاتِ بين جمهور النَّقْشَبَنْدِيّين الذين يمثلون ثُلُثَ المجتمع التركي (تقريبًا).

أمَّا بقيَّةُ الذين احتلُّوا منصبَ رئيس الوزراءِ في الحكومات التُّرْكِيَّة مثل سليمان دميريل، وبُلَنْدْ أجَاوِيدْ ومسعود يلماز وطانسو تشيلر.. فإنَّ هؤلاءِ قلَّما التفتوا في سياساتِهم إلى المنطقةِ العربيَّةِ بجدِّيَّةٍ، بل تجاهلوها أو كادوا، إلاَّ في فتراتٍ دعتْهُمْ الأسبابُ الْمُلِحَّةُ لمشاركةٍ عابرة. وذلك لانتمائِهم العلماني الأتاتوركِيِّ، وتظاهرِهم بالقوميَّةِ، وَلِحِفَاظِهِمْ على مصالِحِهِمْ الشخصيَّةِ ومراكزِهِمْ السياسِيَّةِ التي يتطلَّب تجريدَ السياسَةِ عن العواطفِ الدينيَّةِ، طالما ترمزُ هذه العواطفَ في مفهومِهِ إلى الصلةِ العضويَّةِ بين العربِ والإسلام.

إنَّ العلاقات التُّرْكِيَّةَ–العربيَّةَ في الحقيقة غيرُ مستقِرَّةٍ، منذ بدايةِ قيام الجمهوريَّةِ التُّرْكِيَّةِ إلى اليوم. وهي متذبْذَبَةٌ بين المدِّ والجذرِ. تتحسَّن أحيانًا وتتدهور في أكثرِ الحالات. يُلاحظُ أنَّ السبب الرئيسَ لهذا الترنُّح السائدِ على السياسَةِ التُّرْكِيَّةِ مع العرب، هو ارتباطُها بالكيان الصهيونيّ ارتباطًا وثيقًا. يعود ذلك إلى صلاتٍ قديمةٍ سحبتْ أجيالاً من آباءِ الأتراكِ الأوَّلين إلى أجواءٍ غمرتْهم يومئذٍ الرُّوحُ التلموديّ التي لا تزال تنتابهم كلَّما وجدوا مناخًا يشمُّونَ هذه الروح من خلاله! ولا يُستبعد أنَّ الكيان الصهيونيَّ تُغَذّي طائفةً من الأتراكِ بهذهِ الروحِ السحريَّةِ، خاصةً الذين يحتلُّون المناصبَ العليا من السياسيّين، والبيروقراطيّين، والجنرالاتِ المخضرمين، وقد تشرَّبَتْ قلوبُهم بالعقيدة السبطائيَّةِ، وهم من امتدادِ عصابةِ الاتِّحاد والتَّرَقِّي. هذه الروحُ قد جعلتْهُمْ يلهثون من وراءِ الصهاينَةِ لدى كل فرصةٍ، ويتعاونون معهم إلى أبعد الحدود.

بدأتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّة–الإسرائيليَّةُ منذُ اعترفتْ تركيا بالدولة العِبريَّةِ في مارس 1949م. فأصبحتْ بذلك ثانِيَ بلدٍ ذي أغلبيَّةٍ مُسْلُمَانِيَّةٍ (بعد إيران عام 1948م)، تعترف بدولةِ إسرائيلَ. وعلى أثرِ هذهِ المبادرةِ بدأ التعاونُ بين البلدين في المجالاتِ التجاريَّةِ والاستراتيجيَّةِ والعسكريَّةِ. وقَّعَ دافيد بن جوريون وعدنان مندريس اتفاقيَّةَ تعاونٍ ضدَّ "التطرُّفِ ونفوذِ الاتِّحادِ السوفيَتِيِّ في الشرقِ الأوسطِ" عام 1958م. وفي 1986م. عَيَّنَتِ الحكومةُ التُّرْكِيَّة سفيرًا كقائمٍ بالأعمالِ في عاصمةِ الكيانِ الصهيونِيِّ. وفي 1991م. تبادلتْ الحكومتانِ السفراءَ. وفي فبراير وأغسطس 1996م. وقَّعتِ الحكومتانِ اتفاقياتٍ هامَّةً في مجالِ التعاونِ العسكرِيِّ. وقد وقَّع رئيسُ الأركان التُّرْكِيّ (تشَفِيكْ بِيرْ Çevik Bir) على تشكيلِ مجموعةِ أبحاثٍ استراتيجيَّةٍ ومناوراتٍ مشتركةٍ، منها تدريبُ "عروسِ البحر" الذي بدأ في يناير 1998م.، واستوفدَ تركيا مستشارِينَ عسكريِّينَ إسرائيليِّين لِيُشرِفُوا على مهامَّ عسكريَّةٍ في القواتِ المسلَّحةِ التُّرْكِيَّةِ. كما عقدتْ صفقاتٍ كبيرةً لشراءِ الأسلحةِ بلغتْ تكلفتُها في العام 2008 أكثرَ من1.07 مليار دولار. كذلك تقومُ إسرائيلُ بتحديثِ دبَّابَاتٍ وطائراتٍ تُركيَّةٍ. أمَّا حجمُ التعاونِ الاقتصادِيِّ بين البلدين: فيُشارُ إلى أنَّ الصادراتِ التُّرْكِيَّةَ إلى إسرائيلَ بلغتْ في العام 2008 حوالي 1.53 مليار دولار. وأنَّ التبادلَ التجارِيَّ بين تركيا وإسرائيلَ سجَّلَ خلالَ العام 2008م. رقمًا قياسِيًّا حيث بلغ حجمُهُ 3.4 ميليار دولار، وتركيا تحوَّلتْ الى الشريك رقم 8 مع إسرائيل من ناحيةِ حجمِ التبادلِ التجارِيِّ. نصف مليون اسرائيلي تقريبًا زاروا تركيا خلالَ العامِ الماضِي. وهذا يمثلُ نسبةَ 7% – 8% من مجموعِ سُكَّانِ إسرائيلَ. ومن جهةٍ أُخرَى هناك حوالَى 250 شركةً إسرائيليَّةً تعملُ في الأراضي التُّرْكِيَّةِ، كما أنَّ عددًا كبيرًا من الشركاتِ التُّرْكِيَّة تتعاملُ مع شركاتٍ إسرائيليَّةٍ عَبْرَ قنواتٍ خاصّةٍ يستحيلُ استكشافُها لأسبابٍ معروفة![323]

---

[323] وَرَدَ في مقالٍ نشرتْهُ صحيفةُ (دُنيا الوطنِ الألكترونيَّةُ) الفلسطينيَّةُ، جاءَ فيهِ: "بدأتْ السياسةُ ذاتُ الوجهين التي تَنْتَهِجُهَا حكومةُ حزبِ العدالةِ والتنميةِ والرئيسُ التُّرْكِيُّ رجب طيب أردوغان الذي يَنْتَقِدُ إسرائيلَ أمامَ الرأيِ العامِّ ويؤسِّسُ علاقاتٍ حَمِيمَةً جدًّا معها وراءَ الستارِ تنعكسُ على حجمِ التجارةِ بين البلدين. وفي الوقتِ الذي زادَ فيهِ حجمُ العلاقاتِ التجاريَّةِ بين البلدين في السنواتِ الخمسِ الأخيرةِ بمعدَّلِ الضعفين، أصبحتْ إسرائيلُ أكبرَ الدولِ المصدِّرَةِ للنفطِ لتركيا.

وحسبَ تقريرٍ نشرتْهُ هيئةُ مراقبةِ وتنظيمِ سوقِ الطاقةِ مؤخَّرًا ارتفعَ معدَّلُ استيرادِ النفطِ من إسرائيلَ إلى **255** ألفَ طُنٍّ بمعدَّلٍ بلغ **42** في المئةِ شهريًّا. ومع هذهِ الزيادةِ تخطَّتْ إسرائيلُ المملكةَ العربيَّةَ السعوديَّةَ أغنَى دولةٍ في العالَمِ في النفطِ بمعدَّلِ **9** حِصَصٍ في المئةِ في تصديرِ النفطِ لتركيا. كما أصبحتْ الدولةَ الرابعةَ بين أكثرِ الدولِ التي تستورِدُ تركيا البترولَ منها. بينما تأْتِي كُلٌّ مِن دولِ العراقِ وإيرانَ وروسيَا في المراكزِ الثلاَثَةِ الأُولَى التي تستورِدُ تركيا منها النفطَ."

المصدر: http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2015/02/03/656511.html

لا شكَّ في أنَّ إسرائيلَ تعلمُ بالتأكيدِ أنَّه ليس من السهلِ أنْ تَعْتَمِدَ على القوةِ العسكريَّةِ الذاتيَّةِ فحسبُ لأجلِ الحفاظِ على بقائِها، أو تَعْتَمِدَ على الدعمِ الأجنبِيِّ الذي يأتي لِنجدتِها عند الحاجةِ من قارَّاتٍ بعيدة، بل من الضروريِّ أنْ تتَّخذَ لِنَفْسِهَا بِطَانَةً على شاكلتِها من دُوَلِ المنطقةِ خاصَّةً. فالمساندةُ والتعاونُ مع دولِ شرقَ–أَوْسَطِيَّةٍ بالنسبةِ لإسرائيلَ حاجةٌ سياسيَّةٌ وعسكريَّةٌ واقتصاديَّةٌ وسكانيَّةٌ، لِمَا تَنْتَابُهَا مِنَ الخوفِ والقلقِ الدَّائِمَيْنِ وتشعرُ بالغُربةِ السياسيَّةِ وهي مُطَوَّقَةٌ بمحيطٍ عربِيٍّ رافضٍ لوجودِها، بالإضافةِ إلى موقفِ النظامِ الإيرانِيِّ فيما أعلنَ وبوضحٍ "عدمَ شرعيَّةِ الدولةِ الصهيونيَّةِ واحتلالِها لِفلسطين"، كما أعلنَ موقفًا أكثرَ صدمةً للسلطةِ العبريَّةِ بنظرِهِ إلى الكيان الصهيونِيِّ كـ"سرطانٍ يجبُ العملُ على اجتِثَاثِهِ واستئصالِ شأفتِهِ الخبيثةِ من المنطقة!" ولهذا كانتْ تركيا جسرًا تمتدُّ عَبْرَهَا علاقَاتُ إسرائلَ مع الغرب، وكانتْ حَلِيفَتَهَا الْمُخْلِصَةَ ومكانَ ثِقَتِهَا في المنطقةِ رغم تَمَوُّجِ العلاقاتِ بينهما في بعضِ الفتراتِ لأسبابٍ عابرةٍ. لذلك يُعْرِبُ المسؤولون الإسرائيليُّون عَبْرَ تصريحاتِهم عن آمالِهم في التغلُّبِ على الازمةِ الحاليَّةِ خلالَ فترةٍ معقولةٍ مؤكِّدِينَ "أنَّ العلاقاتِ الثُّنَائِيَّةَ، تَعْتَبِرُهَا انقرة والقدس هامَّةٌ لِلْغَايَةِ، وأنَّ هذا التوتُّرَ يقتصرُ على صعيدِ العلاقات بين قياداتِ الدولتين ولن يمتدَّ الى مضامين العلاقات بين البلدين".

إنَّما تدهورتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّة–الإسرائيليَّةُ خاصَّةً بعد مؤتمرِ دافوس المنعقدِ يوم 29 يناير 2009م. بسببِ الموقفِ السلبِيِّ لِرئيسِ الوزراءِ التركي (رجب طيّب أردوغان) من السياسَةِ الإسرائيلِيَّةِ القمعية، وبسببِ طبيعةِ حزبِ العدالةِ والتنميَةِ التُّركِيِّ الْمُسْلُمَانِيِّ المحافِظِ... ويجدرُ التذكيرُ أيضًا في هذا السياقِ بعنصرٍ آخر أثارَ قلقَ تركيا. وهو دعمُ إسرائيلَ لحزبِ العُمَّالِ الكردستانِيِّ الْمُتَّهَمِ بالأعمالِ الإرهابِيَّةِ ضِدَّ تركيا حسب ادعاءاتٍ شاعتْ أخيراً.

اكتسبتْ هذهِ العلاقةُ قوَّةً منذُ أوائلِ التسعينيَّاتِ من القرنِ المنصرمِ حيث زارَ وزيرُ الخارجيَّةِ التركيُّ حِكْمَتْ جتين Hikmet Çetin عاصمةَ الدولةِ الصهيونِيَّةِ يوم 14 نوفمبر 1992م.، فقام بعقدِ اتِّفاقيَّاتٍ معها في المجالِ السياحيِّ، كما تُبَرْهِنُ على مَدَى قوَّةِ العلاقاتِ بين تركيا وإسرائيلَ، كلماتٌ خطيرةٌ تفوَّهتْ بِهَا رئيسةُ وزراءِ تركيا السابقةُ (طانسو تشيلر Tansu Çiller) في أثناءِ زيارتِها إلى عاصمةِ الكيانِ الصهيونِيِّ يوم 03 نوفمبر 1994م.. قالتْ في هذه الكلماتِ بالحرف الواحد: "أنا سعيدةٌ جدًّا بوجودِي اليومَ على الأرضِ الموعودة!"[324]

---

[324] هذا نصّ الخبر الذي نُشِرَ في الصحف التُّرْكِيَّة مع ذكر مصادره.

«Türkiye Cumhuriyeti Başbakanı olarak Tansu Çiller İsrail'e ayak bastığında, ‘‘Arz-ı Mev'ud'ta bulunmaktan çok mutluyum'' diyebilmiştir.»

http://birgo.mynet.com/7kandillisureyya/archive/2008/5/page,5;http://www.habervaktim.com/haber/50300/yahudi-muhibi-ciller.html;http://www.gencbirikim.net/mit-mossad-iliskilerinden-hakan-fidana-2/;http://ahmetdursun374.blogcu.com/kibris-

كذلك مشروعُ الغاب (الآنفِ الذِّكْرِ) الواقع بمنطقةِ جنوبي تركيا، يشهدُ على هذه الحقائِقِ من دون مِرْيَةٍ، إذ صمَّمهُ مشاهيرُ المهندسين اليهود، وعلى رأسِهم: خبير الرَّيِّ شارون لوزوروف، والمهندس يوشع كالي. نَفَّذَتْهُ شركاتٌ يهوديَّةٌ. وكم من مساحاتٍ شاسعةٍ في جنوبِي شرقِ تركيا قد اشترتْها شركاتٌ إسرائيليَّةٌ استعدادًا لاحتواءِ المنطقةِ، وتحقيقًا لأحلامِ ثيودور هرتزل Theodor Herzl (مؤسسِ الحركةِ الصهيونيَّةِ)، الذي قال: "إنَّ المؤسّسين الحقيقيّين للأرضِ الجديدةِ القديمةِ هُمْ مهندسو المياهِ، فعليهم يتوقفُ كلُّ شيءٍ". كما لا يخفَى ما تتبعُهُ الدولةُ التُّرْكِيَّة من سياسَةِ التساهُلِ حيالَ أطماعِ الدولةِ المزعومةِ التي تُحاوِلُ تحقيقَها من خلالِ ممارساتِها التوسُّعِيَّةِ منذُ القديمِ وعَبْرَ قنواتِها الدِّعائيَّةِ والتعليميَّةِ بنفخ فكرة "أرضِ الميعاد" في روعِ الناشئةِ، وأنَّ "حدودَ إسرائيل من الفراتِ إلى النيل."!

إنَّ الرأيَ العامَّ التركِيَّ متشوّشٌ عمومًا في بدايةِ أي حدثٍ وحيالَ أيّ هدفٍ قبلَ أنْ يقومَ شخصٌ قياديٌّ أو منظَّمةٌ بِتَوْجِيهِهِ وتسييرِهِ. فكانتْ الحالةُ نفسُها بالنسبةِ لموقفِ المجتمع التركِيِّ حيالَ السياسةِ الإسرائيليّةِ تَتَذَبْذَبُ حسب مواقفِ الأحزابِ السياسيَّةِ على مَدَى عقودٍ من الزمن. لذلك اتخذتْ قلَّةٌ من الشعبِ موقفًا متجاهلاً من تصرُّفاتِ إسرائيلَ منذ أكثرَ من نصفِ قرنٍ. تتكوَّنُ هذه القلَّةُ من العلويّين والعلمانيّين والمارقين والحثالةِ الذين لا حظَّ لهم من المعرفةِ والثقافةِ ولا وُجهةَ نَظَرٍ في مُسْتَجِدٍّ أو أمرٍ طارئٍ. ولابُدَّ من الإشارةِ هنا إلى أنَّ نسبَةَ هذه القلَّةِ تبلغُ **15 %** تقريبًا من المجتمعِ التُّرْكِيِّ. أمَّا الأكثريَّةُ فإنَّها كانت دائمًا تنظرُ إلى تصرُّفاتِ الدولةِ العبريَّةِ بقلقٍ إلى أنْ تولَّى الْحُكْمَ حزبُ العدالةِ والتنميةِ ذِي النَّزْعَةِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ الْمُحَافِظَة، فأظهرَ كراهيَّتَهُ للطغيانِ الإسرائيلِيِّ بصراحةٍ وعَبْرَ مُظاهراتٍ ضخمةٍ تكرَّرتْ عَقِبَ كُلِّ حركةٍ قمعيَّةٍ وجنايَةٍ ارتكبَتْهُ السلطاتُ الصهيونيَّةُ، كما أبْدَتْ أكثريَّةُ المجتمع التُّرْكِيِّ تأييدَهَا لرئيسِ الحزبِ ورئيسِ الوزراءِ رجب طيِّب أردوغان في اعتراضاتِهِ ووَقَفَاتِهِ ضِدَّ استفزازاتِ الكيانِ الصهيونِيّ وممارساتِهِ الدمويَّةِ في فلسطين.

دخلتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّة مرحلةً جديدةً مع بدايةِ صعودِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ إلى سُدَّةِ الْحُكْمِ برئاسةِ رجب طيِّب أردوغان الذي اشتهرَ بِلَبَاقَتِهِ، وشعبيته، ومرونَةِ سياسَتِهِ.. فَلَمَعَ نَجْمُهُ في

---

baspiskoposlugu15711821/8067443;http://www.bizkackisiyiz.com/yazi.php?yazi_id=60673;http://www.haberiniz.com.tr/yazilar/koseyazisi14694Israil_Tuzagina_Dusen_Gafil_Butros_Emmen_Halim_Sahi_Bizim_Kac_Jack_Donavanimiz_Var.html; http://www.millicozum.com/mc/eylul-2009/turkiye-israil-iliskileri-ve-erbakan-engeli;http://turbanyasak.blogcu.com/turban-hakkindaki-yorumlarin-devami/6756223;

الداخلِ والخارجِ، وقامتِ الفئاتُ الإسلاميَّةُ في البلادِ العربيَّةِ بتصعيدِ شهرتِهِ خاصَّةً بعد قولتِهِ الشهيرة (وَانْ مِينُوتْ one minute) اعتراضًا على مقاطعةِ رئيسِ الجلسةِ (David Ignatius) له ومحاولةِ مَنْعِهِ من استكمالِ كلمتِهِ في مؤتمرِ دافوس، وَرَدِّهِ العنيفِ على الرئيسِ الإسرائيليِّ (شمعون بيريز)، وتركِهِ جلسةَ الحوارِ.

تخضعُ علاقاتُ تركيا بالمنطقةِ العربيَّةِ (في الظروف الراهنة) إلى ابتلاءٍ خطيرٍ بتأثيرِ التطوراتِ الأخيرةِ في الشرقِ الأوسط. لقد بذلت تركيا جهدًا كبيرًا في إصلاحِ علاقاتِها مع الحكوماتِ العربيَّةِ بعد أن تَوَلَّى حزبُ العدالةِ والتنميةِ الحُكْمَ برئاسةِ رجب طيب أردوغان. ولا ننسَى أنَّ القسطَ الوافرَ من النتائجِ الإجابيَّةِ لهذه العلاقاتِ إنَّما حصلَ بفضلِ الجهودِ التي بذلَهَا وزيرُ الخارجيَّةِ أحمد داود أغلو (رئيس الوزرائي لاحقًا). إلاَّ أنَّ عاصفةَ الثوراتِ والمعاركِ التي هَبَّتْ على الساحةِ العربيَّةِ جائتْ بتحدّياتٍ لهذهِ الجهودِ. ولا تزالُ السياسةُ التُّرْكِيَّةُ ومحاولاتُ تطبيعِها مع طموحاتِ القاعدةِ الشعبيَّةِ العربيَّةِ، لا تزالُ موضوعَ نقاشٍ في أوساطِ الخبراءِ والْمُحَلِّلين السياسيّين "ما إذا كانت الدولةُ التُّرْكِيَّة قادرةً على التكيُّفِ مع هذه التغيُّرات بجدِّيَّةٍ وإخلاصٍ، أم أنها تُجَازِفُ وتتحايل لتعميمِ نفوذِها، وفرضِ هيمنتِها، بغيةَ تحقيقِ أطماعها التاريخيَّةِ والوراثية".

يقول محمد شطح، مستشارُ رئيسِ حكومةِ تصريفِ الأعمالِ اللُّبنانيَّةِ في مؤتمر نظَّمهُ مركزُ كارنيغي للشرقِ الأوسط، ومؤسَّسةُ "هاينرخ بول – مكتب الشرق الأوسط" Heinrich Boll Foundation[325]، والمؤسَّسةُ التُّرْكِيَّةُ للدراساتِ الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ TESE، يقول: "إنَّ تركيا خاضتْ تحوُّلاً سياسيًّا هائلاً في السنواتِ الأخيرةِ، ما حسَّنَ النظرةَ العربيَّةَ إلى هذهِ القوَّةِ الامبرياليَّةِ السابِقَةِ. ووصفَ هذا التحوُّلَ بأنَّهُ "انتقالٌ من سياسَةِ "صفر مشاكل" إلى نظامٍ إقليمِيٍّ متناسِقٍ". أكَّدَ شطح "أنَّ سياسَةَ أنقره الخارجيَّةَ تقومُ على فَرَضِيَّتَيْنِ: الأولى هي أنَّهُ لا مفرَّ من التغييرِ، والثانيةُ هي أنَّ التغيير يفيدُ تركيا، وعليها أن تتكيَّفَ معه". وقال مسؤولٌ تُرْكِيٌّ في المؤتمرِ نفسِهِ: "إنَّ الصحوةَ العربيَّةَ تعكسُ انتقالاً نحو التحوُّل في سياسَةِ تركيا الخارجيَّةِ باتِّجاهِ نظامٍ إقليمِيٍّ قائمٍ على

---

[325] مركز كارنيغي للشرق الأوسط، ومؤسسة "هاينرخ بول:

The Heinrich Böll Foundation (HBF; German: Heinrich-Böll-Stiftung e.V., HBS) is a German, legally independent political foundation. Affiliated with the German Green Party, it was originally founded in 1987 and rebuilt in 1997. The foundation was named after German writer Heinrich Böll (1917–1985). The Heinrich Böll Foundation is an agency for green visions and projects, a think tank for policy reforms, and an international network. It is part of the global Green political movement that has developed since the 1980s. The foundation's main tenets are ecology and sustainability, democracy and human rights, and self-determination and justice. Particular emphasis is placed on gender democracy, meaning social emancipation and equal rights for women and men. Furthermore, the foundation is committed to equal rights for cultural and ethnic minorities, and advocates for the societal and political participation of immigrants. It also promotes non-violence and proactive peace policies.(WikipediA)

مزيجٍ من العوامِلِ السياسِيَّةِ والأخلاقيَّةِ. ومع أنَّ بعضَ المراقبين يحاولونَ أنْ يعزوا هذا التحوُّل إلى التوجُّهِ الإديولوجِيّ للحكومةِ، إلا أنَّهُ يعودُ في الغالبِ إلى التأقْلُمِ مع التغيُّر الإقليمِيّ والعالَمِيّ".

ويطرقُ إلى التحوُّلاتِ السياسيَّةِ في تركيا الكاتبُ الصحفِيُّ محمّد محفوظ في مستهلِّ مقالٍ له، يقول: "وبفعلِ التحوُّلاتِ السياسيَّةِ الداخليَّةِ في تركيا، وبروزِ نُخْبَةٍ سياسيَّةٍ جديدةٍ، تمتلكُ مقارَبَةً جديدةً لتركيا ودورِها ووظيفتِها الإقليميَّةِ والدوليَّةِ، بدأ الدورُ التُّرْكِيُّ بالبروزِ والحضورِ الفعَّالِ في أكثرَ مِنْ مَلَفٍّ إقليمِيّ ودولي..".[326]

شهدتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العربيَّةُ تَحَسُّنًا وتقارُبًا ملحوظًا على مختلفِ الأصعدةِ في السنين الأخيرة واكتسبتْ مظهرًا مُلْفِتًا بخاصَّةٍ في أيَّامِ الربيعِ العربِيّ إلى درجةٍ أثارتْ عددًا من الْكُتَّابِ العرب، يُسَجّلون آرائَهم حولَ السياسَةِ التُّرْكِيَّة في ثوبٍ من الإعجابِ بهذا التحوُّل. ومنهم على سبيل المثال محمد محفوظ يقول: "إنَّ من المسائلِ السياسيَّةِ المهمَّةِ التي تُسَاهِمُ في توطيد العلاقةِ بين تركيا والعالَمِ العربِيّ، هو النظرُ إلى المنطقةِ بعيونٍ تُرْكِيَّةٍ (مستفيدةً في ذلك من رصيدِها التاريخِيّ) وتتخلَّى عن النظرةِ إلى العالَمِ العربِيّ بعيونٍ أوروبيَّةٍ أو غَرْبِيَّةٍ .."[327] ويقول ثابت عمّور: "يبدو أنَّ عجلةَ التاريخ قد تعودُ للوراءِ، لا لِتُعِيدَ الاحداثَ، ولكن لِتَصْنَعَهَا من جديدٍ. هذه واحدةٌ من أهمّ دلالاتِ زيارةِ رئيس الوزراء التُّرْكِيّ رجب طيب أردوغان للقاهرةِ التي حلَّ بِهَا ضيفًا على وزراءِ الخارجيَّةِ العرب، لتكونَ القاهرةُ هي محطَّتَهُ الأولى في جولةٍ عربيَّةٍ تشمَلُ دولَ الربيعِ العربِيّ: ليبيا وتونس..."[328]

نعم، لا شكّ في أنَّ العلاقات التُّرْكِيَّةَ–العربيَّةَ قد تحسَّنتْ وتطوَّرتْ بفعَّاليةٍ ونشاطٍ على الصعيدين السياسِيّ والاقتصادِيّ. وقد هبَّ في الآونةِ الأخيرةِ عددٌ كبيرٌ من رجالِ العملَ والمقاولين الأتراك يطوفون في البلادِ العربيَّةِ يستفيدون من هذا الجوِّ الْمُلاَئِمِ، منهم مَنْ يتعاقدُ مع جهاتٍ حكوميَّةٍ ومدنيَّةٍ على تنفيذِ مشاريعَ، ومنهم مَنْ يتعاقدُ على صفقاتٍ من مختلفِ المنتوجاتِ الصناعيَّةِ والزراعيَّةِ التُّرْكِيَّة.

---

[326] http://www.alriyadh.com/2012/05/01/article731921.html

[327] http://www.alriyadh.com/iphone/article/731921

[328] http://thabetalemour.blogspot.com/2011/09/blog-post.html

وَرَدَ في الصحيفةِ العربيَّة أنَّه: " يُقبِلُ المَغاربةُ بشكلٍ لافتٍ في الفترةِ الأخيرةِ على البضائعِ التُّرْكِيَّةِ التي ملأتْ بكثرةٍ السوقَ المحلِّيَّة بمختلفِ أصنافِها، خاصَّةً أزياء الحجابِ والملابس النسائيَّة الأخرى، فضلاً عن موادِّ التجميلِ والأواني وموادِّ البناءِ والأحذيةِ، كما أنَّ السُّيَّاحَ المَغاربَةَ أضحَوْا يُفضِّلون الوجهةَ التُّرْكِيَّةَ للسفرِ وقضاءِ إجازاتِهم الخاصَّةِ وعُطَلِهِم الصيفيَّةِ.

وعزا مختصُّون ظاهرةَ إقبالِ قطاعٍ عريضٍ من المَغاربَةِ على السِّلَعِ التُّرْكِيَّةِ إلى عواملَ سياسيَّةٍ تتمثَّلُ في العلاقاتِ الوطيدةِ بين تركيا والمغربِ في ظلِّ حُكْمِ حزبِ العدالة والتنمية في البلدين معًا، وإلى جودةِ البضائعِ التُّرْكِيَّة وتناسُبِها مع الذوقِ المحلِّيِّ، علاوةً على تأثيراتِ الدراما التُّرْكِيَّة التي غزتِ البيوتَ في البلادِ خلالَ السنواتِ القليلةِ الأخيرة.

يُذْكَرُ أنَّ تركيا تُعَدُّ من العشرِ الأوائلِ الذين يُمَوِّلُونَ السوقَ المَغربيَّةَ في قطاعِ النسيجِ، كما أنَّ هناك أزيد من **80** مقاولةٍ تُركيَّةٍ تعملُ في المَغربِ في مجالِ التجهيزاتِ التحتيَّةِ والأشغالِ العموميَّةِ، ويبلغُ حجمُ العلاقاتِ التجاريَّةِ بين البلدين أكثرَ من مليار دولار.

ومن جانبه قال الدكتور إدريس بووانو، المتخصّصُ في الشأنِ التُّرْكِيِّ، في تصريحاتٍ لـ"العربيَّة.نت" إنَّ إقبالَ المغاربَةِ على السِّلَعِ التُّرْكِيَّةِ بمختلف أنواعِها كان في السابقِ يرتكزُ أساساً على موادِّ البناءِ والألبسةِ والحلوياتِ، إلاَّ انَّهُ في الآونَةِ الأخيرةِ ازدادَ بشكلٍ لافتٍ لأسبابٍ مختلفة.

وحدَّدَ بووانو بعضَ هذهِ العواملِ التي دفعتِ المغاربَةَ نحو التجارةِ التُّرْكِيَّةِ، منها ما هو مرتبطٌ بالعوامل السياسيَّةِ، ذلك أن كثيرًا من الشركات التُّرْكِيَّة بعد تسلُّمِ حزبِ العدالةِ والتنميةِ التُّرْكِيِّ لمقاليدِ الْحُكْمِ في تركيا استفادتْ من علاقةِ قيادَتِهِ مع قيادَةِ حزب العدالةِ والتنميةِ الْمغربِيِّ، الذي عمل بكلِّ قوَّةٍ لدعوةِ الشركاتِ التُّرْكِيَّةِ إلى الاستثمارِ في المغربِ، كما لم يتوان في تسهيلِ دخولِ هذهِ الشركاتِ والمؤسَّساتِ إلى البلاد.

وأضافَ أنَّ هناك عاملاً آخر يتمثَّلُ في التحوُّلِ الذي حصلَ في ذهنيَّةِ التاجر أو المستثمر التُّرْكِيِّ نحو السوقِ الإفريقيَّةِ عمومًا، والعربيَّةِ خصوصًا، ومنها المغرب، إذ كان المستثمِرُ التُّرْكِيُّ غالبًا مَّا يعتبِرُ السوقَ العربيَّةَ والإفريقيَّةَ سوقاً ثانويَّةً وليس منها أيّ طائل.

وأوضحَ أنَّهُ مع التوجُّهِ الجديدِ الذي تَبَنَّاهُ حزبُ العدالةِ والتنمية التُّرْكِيُّ عقبَ تَسَلُّمِهِ مقاليدَ تدبيرِ الحُكْمِ في تركيا، والقائمُ على تعزيزِ علاقاتِهِ مع الدُّولِ العربيَّةِ، حصل تحوُّلٌ للمستثمرين الأتراك الذين اكتشفوا أنَّهم ضيَّعوا فُرَصًا مُهِمَّةً، ومن ثَمَّةَ ضاعفوا من مجهوداتِهم لِضَخِّ استثماراتٍ مهمَّةٍ جدًّا في البلدان العربيَّةِ من بينها المغرب.

وأشار الخبيرُ في الشأن التُّرْكِيّ إلى سببٍ آخرَ وراءَ تدفُّقِ السِّلَعِ التُّرْكِيَّة على المغربِ، وازديادِ حجمِ الاستهلاكِ لهذه السِّلَعِ، وهو أنَّ المُواطنَ المغربِيَّ اكتشفَ جودةَ البضاعةِ التُّرْكِيَّة من جهةٍ، كما شجَّعَهُ عدمُ غلائِها ومُلاَءَمَتُهَا لذوقهِ، مُردِفًا عاملاً آخر قد لا يقلُّ أهمّيَّةً، وهو ازديادُ عددِ السُّيَّاحِ الذين يقصدون الوجهةَ التُّرْكِيَّةَ والعكسُ أيضًا، وهذا انعكسَ كذلك على إقبالِ المَغاربَةِ على البضاعةِ التُّرْكِيَّةِ." [329]

جاء في الصحيفةِ العربيَّة أيضًا بقلمِ خالد حسني: "أنَّهُ سجَّلتْ حركةُ التجارةِ بين تركيا ومصرَ ارتفاعاتٍ قياسيَّةً، حيث بلغت نحو **2.4** مليار دولار أمريكي في نهاية عام **2011**م. وذلك مقارنة بنحوِ **400** مليون دولار عام **2007**م. بزيادةٍ قدرُهَا **2** مليار دولار، تعادل نحو **500**%، خلالَ **5** أعوام، ما يعني زيادتَها بنسبةِ **100**% كل عام.

وقال السفيرُ التُّرْكِيُّ بالقاهرةِ السيّد حسين عوني بُوسْطَلِي Hüseyin Avni Bostalı، لدى لقائِهِ رئيسَ البورصةِ المصريَّةِ، الدكتور محمد عمران، اليوم، "إنَّ الصادراتِ المصريَّةَ إلى تركيا سجَّلَتْ خلالَ العامِ الجارِي نموًّا تجاوزَتْ نسبتُهُ **50**% فيما ارتفعَ حجمُ الوارداتِ التُّرْكِيَّةِ إلى مصرَ بنحوِ **20**% وهو الأمرُ الذي يؤكِّدُ على المستقبَلِ الواعدِ للعلاقاتِ التجاريَّةِ بين البلدين."

وقال رئيسُ البورصةِ المصريَّةِ "إنَّ مصرَ وتركيا لديهما رؤيةٌ مشتركةٌ فيما يرتبطُ بالعديدِ من القضايا، وأنَّ العلاقاتِ بين الجانبين تقومُ على التكامُلِ وليس التنافسِ، مستشْهِدًا بالتعاوُنِ بين البلدين في مجالِ أسواقِ الْمَالِ وخاصَّةً في مجالاتِ التسويقِ والجوانبِ الفنيَّةِ والتنظيميَّةِ والتكنولوجيَّة."

قام رئيس الجمهورية التُّرْكِيَّة عبد الله غول بزيارةٍ رسميَّةٍ إلى الإماراتِ العربيَّةِ المتحدةِ في بدايةِ شهر فبراير/**2012**م. على رأس وفدٍ من رجالِ الأعمالِ الأتراك، لِتعزيزِ التعاوُنِ الاقتصادِيّ والتجارِيّ

---

[329] http://www.alarabiya.net/save_pdf.php?cont_id=202337

بين البلدين. وخلالَ كلمتِهِ أمامَ مُنْتَدَى الأعمالِ الإماراتِيِّ–التُّرْكِيِّ الذي نظَّمَتْهُ غُرْفَةُ تجارةِ وصناعةِ دُبَيْ، أشادَ بتجربَةِ دُبَيْ في عالَمِ الْمَالِ والأعمالِ، وحثَّ غول رجالَ الأعمالِ في البلدين على رفعِ مُسْتَوَى التبادُلِ التجارِيِّ بينهما. كما دعا غول رجالَ الأعمالِ الإماراتيّين إلى الاستثمارِ في تركيا، في قطاعاتٍ واعدَةٍ مثلَ الصناعةِ والزراعةِ (الأمن الغذائِيّ) والثروةِ الحيوانيَّةِ والسياحَةِ والنقلِ والخدماتِ الْمَالِيَّةِ، وتأسيسِ شراكاتٍ مشتركَةٍ والاستفادَةِ من المزايا التنافسيَّةِ التي تُوَفِّرُهَا تركيا للمستثمرين.

وَرَدَ في صحيفةِ الشرقِ الأوسطِ أنَّهُ "كشفَ الأميرُ عبد الله بن سعود بن محمد، رئيسُ اللجنةِ السياحيَّةِ في غرفةِ جُدَّةَ[330] عن ارتفاعِ حجمِ التعاونِ السياحِيِّ بين بلدِهِ وبين وتركيا بنسبةِ **30** في المائةِ على أقلِّ تقدير، خلالَ السنواتِ الخمسِ الماضيةِ، مشيرًا إلى أنَّ زيارةَ خادمِ الحرمين الشريفين التاريخيَّةِ لتركيا في أغسطس (آب) **2006**م. سجلَتْ منعطفًا مُهِمًّا على صعيدِ التعاونِ المشتركِ بين البلدين.

وأرجعَ رئيسُ اللَّجْنَةِ السياحيَّةِ في غرفةِ جُدَّةَ تقديراتِهِ إلى الزيادَةِ الْمَلْمُوسَةِ في أعدادِ السُّيَّاحِ من بلدِهِ المتوجِّهين لقضاءِ إجازتِهِم الصيفيَّةِ في تركيا بنسبَةِ **10%** سنويًّا.

***

وأمَّا العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العراقيَّةُ؛ فمنذ دخولِ العثمانيّين الساحةَ العراقيَّةَ عام **1534**م. حتى انفصالِها من الإمبراطوريَّةِ عام **1918**م. كانت المنطقةُ تابعةً للدولة العثمانيَّةِ بالْحُكْمِ المباشرِ تارةً وبالحكم الذاتِيّ تارةً أخرى. دامتْ كذلك زُهاءَ أربعةِ قرونٍ، وكانت ساحةَ معركةٍ بين العثمانيّينَ (السنَّةِ)، والدولة الصفويَّةِ (الشيعةِ).

انتهتِ السلطةُ العثمانيَّةُ في العراقِ فعلاً بدخولِ القواتِ البريطانيَّةِ بغدادَ تحتَ قيادة الجنرال ستانلي مود Frederick Stanley Maude صباح يوم **11** مارس **1917**م. فأخذتْ العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–العراقيَّةُ بعد ذلك صِفَةَ علاقةِ الجارِ بالجارِ، ولكن لم تَخْلُ من تبعاتِ القرونِ الماضيةِ التي امتدَّتْ وتجدَّدتْ في صُوَرٍ متعدِّدةِ الوجوهِ بين صعودٍ وهبوطٍ على مَدَى قرنٍ كامل. وعلى رغم استمرارِ المشاكلِ بين تركيا والعراق، دامتِ الصلةُ بين الطرفين بصورةٍ فعَّالةٍ، فكانت بوَّابةُ (خابور) الحدوديَّةُ

---

[330] لمزيد من المعرفة حولَ ضبط كلمة (جدّة) راجع ملتقى أهل الحيث عن طريق هذا الرابط:
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=143463

بين تركيا والعراقِ مزدحمَةً دائمًا بالشاحنات التي تنقُلُ السِّلَعَ التُّرْكِيَّةَ إلى العراقِ، بالإضافةِ إلى عددٍ كبيرٍ من السُّيَّاحِ والمسافرين ورجالِ الأعمالِ الأتراك لهم علاقاتٌ تجاريَّةٌ ومشاريعُ مختلفةٌ في أنحاء العراق.

شهدتِ المرحلةُ الأخيرةُ زياراتٍ متبادلةً لعددٍ من كبارِ المسؤولين في الدولتين التُّرْكِيَّةِ والعراقيَّةِ. قامَ رئيسُ الجمهوريَّةِ العراقيةِ جلال الطالباني بزيارةٍ إلى العاصمةِ التُّرْكِيَّة في **07** مارس **2008**م. وبلغتِ العلاقاتُ ذروتَهَا عند الاعلانِ الاستراتيجيِّ الذي صدرَ خلالَ زيارةِ رئيسِ وزراءِ تركيا رجب طيب أردوغان للعراق في **10** يوليو **2008**م. بالاتفاقِ على تأسيسِ المجلسِ الاعلى للتعاونِ الاستراتيجيِّ بإشرافِ رئيس الوزراءِ في كلا البلدين. كما زارَ رئيسُ الجمهورية التُّرْكِيَّةِ عبد الله غول بغداد في **23** مارس **2009**م.

على رغم عودةِ الهدوءِ إلى العلاقاتِ التُّرْكِيَّةِ–العراقيَّةِ في بعضِ الفتراتِ، لكنَّها لم تسلمْ من المشاكلِ في غالبِ الأحوال. فكانتْ ولا تزالُ تتموَّجُ بين سلبٍ وإيجابٍ لأسبابٍ ظاهرةٍ أغلبُها ترتبطُ أصلاً بالطبيعةِ الداخليَّةِ للمجتمعِ العراقيِّ. فإنَّ التكوينَ الإجتماعيَّ في العراقِ يختلف اختلافًا كبيرًا عن تكوين أيِّ مجتمعٍ في العالَمِ. ذلك أنَّ الفوارقَ العرقيَّةَ والدينيَّةَ والمذهبيَّةَ والثقافيَّةَ التي تتميَّزُ بها كلُّ فصيلةٍ من فصائلِ المجتمعِ العراقِيِّ (على كَثْرَتِهَا)، تجعلُها في قلقٍ مستمرٍّ أمامَ بقيَّةِ الفصائلِ، وتدفعُهُ إلى أخذِ الحيطةِ في التعامُلِ معها.

ليس خافيًا على أهلِ العلمِ والبحثِ ما ظهرَ في العراقِ عبرَ القرونِ من دِيَانَاتٍ كثيرةٍ، مثل الزرادشتيَّةِ، والمندائيَّةِ، واليهوديَّة، والمسيحيَّةِ، والصابئيَّةِ، واليزيديَّةِ، وما نشأ بين أهلِ الإسلامِ من نظريَّاتٍ، وفلسفاتٍ، ومذاهِبَ كلاَمِيَّةٍ مثل فكرِ الإعتزالِ، والإِرْجَاءِ، وَالْبَدَاءِ، وَدعوَى خلقِ القرآنِ، والتصوّفِ، والحلولِ، والاتِّحاد؛ وما قامَ وتَبَنَّي هذه الدعاوِيَ مِنَ جماعاتٍ وتكتُّلاَتٍ فكريَّةٍ وفلسفِيَّةٍ مثل القرامِطَةِ، وحركةِ إخوانِ الصفا، وعشراتٍ من الطرائقِ الصوفِيَّةِ؛ وما جرتْ بين هذه الجماعاتِ والتَّكَتُّلاَتِ الْمَذْهَبِيَّةِ مِنْ جِدَالٍ، ومُسَاجَلاَتٍ، وَسَبٍّ، وتشنيعاتٍ؛ ومَا تَطَوَّرَ عنها وتفاقَمَ من هَجَمَاتٍ، وفِتَنٍ، وتناحُرٍ طائفيَّةٍ؛ وما أسفرَ عن كلِّ ذلك من عقائدَ غريبةٍ، وطقوسٍ كُفْرِيَّةٍ، واستعراضاتٍ مروِّعةٍ، ودعواتٍ تضليليةٍ، وبِدَعٍ، وأباطيلَ، وخرافيَّاتٍ، ودَجَلِيَّاتٍ، وأساطيرَ ما يعجز اللِّسانُ عن وصفِها وحصرِها... هذه الكثرةُ المتضاربةُ من شَتَّى الدياناتِ والمعتقداتِ والمذاهبِ قد تركتْ وَسَطًا وخِيمًا وجوًّا مُظْلِمًا مُفعَمًا من الفوضَى، لا يزال يعصف بالعراق منذ القرونِ إلى اليوم،

وجعلت من هذه المنطقةِ ساحةً تكادُ تخلو من الإيمانِ الصادقِ باللهِ واليومِ الآخِرِ، والفضائِلِ الإنسانيَّةِ والرحمة والهدوءِ...

إنَّ الشعبَ العراقِيَّ عاطفيٌّ في عمومِ أحوالِهِ، قَلِقٌ في تفكِيرِهِ وسلوكِهِ. والإنسانُ العراقِيُّ ذو شخصيَّةٍ غامضةٍ صعلوكية غريبةٍ، تتلاطَمُ في ذِهْنِهِ هواجسُ وأفكارٌ تجعلُهُ متردِّدًا لا يستقرُّ على رأيٍ بسهولةٍ واطمئنانٍ إذا كان أمامَه أكثرَ مِنْ خيار. ولهذا فإنَّهُ مضطربٌ بين الرَّدِّ والقبول، مُذَبْذَبٌ بين الحقِّ والباطل، نازِعٌ إلى الْعُنْفِ غالبًا، لِتَوَقُّعَاتِهِ السلبيَّةِ وتشاؤُمِهِ، وانتظارِهِ لِمُفَاجَأَةٍ في أيِّ لحظة! ولهذا، لم تهدأ الساحةُ العراقيَّةُ في فترةٍ من تاريخها. ورد في مُوَطَّأِ مالِكِ بْنِ أنسٍ رضي الله عنه، يقول: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد الخروج إلى العراق، فقال له كعب الأحبار: لا تَخْرُجْ إليها يا أمير المؤمنين، فإنَّ بها تسعةَ أعشارِ السحرِ، وبها فَسَقَةُ الجِنِّ، وبها الداء الْعِضَالُ!"

لقد شهد العراقُ أحداثًا داميةً أكثر من أيِّ بلدٍ في العالَمِ ومن غير هوادة، بسببِ هذه الطبيعةِ الغريبة. فهي وإنْ كانت معروفةً بمهدِ الحضاراتِ ولكنَّهَا في الحقيقةِ لا تعدوا عن حاويَةٍ تراكمتْ فيها قُمَامَةُ التاريخِ. ولا يحتاجُ ذلك إلى برهانٍ، إذا تصفَّحْنَا تاريخ العراقِ مَثَلاً منذ بدايَةِ العصرِ الإسلامِيّ فحسبُ إلى يومنا هذا؛ فَبَدْءًا من الْمَجْزَرَةِ التي قامتْ بها بنو أميَّةَ في صفوفِ الأُسرَةِ الهاشميَّةِ، وما حصدَ الحجاجُ بْنُ يوسفِ الثقفيُّ من الرقابِ حصادَ القمحِ، وما ارتكبتْ جيوشُ المغولِ من المجازِرِ الوحشيَّةِ في بغدادَ بخاصَّةٍ، وما أُهْرِقَ على الساحةِ العراقيَّةِ من دماءِ العلماءِ والزعماءِ وأُولِي النُّهَى، إلى ملايين الأرواحِ التي أُزهقتْ من غير ذنبٍ على مَدَى تاريخِ هذا البلدِ، خاصّةً أثناءَ إحتلالِ الكويت في أغسطس 1990م[331]. وأيامَ الحربِ العراقيَّةِ الإيرانيَّةِ ما بين أعوام: 1980 – 1988م.؛ وُصُولاً إلى مجزرةِ دجيل في 08 يوليو 1982م.، ومجزرةِ حَلَبْجَة في 19 أغسطس 1988م.، ومجزرةِ ألتون كوبري في 28 مارس 1991م... وما ارْتَكَبَتْ القواتُ الأمريكية من القتلِ والتدميرِ والقمعِ والإبادةِ أيام عزوها للعراقِ ما بين: 19 مارس/آذار 2003م. و01 مايو/أيار 2003م.

---

[331] قال بعضُ الناسِ في تفسيرِ الكارثةِ التي حلتْ بالكويتِ على "أنَّها عقابٌ أخذَ اللهُ تعالى بِهِ الكويتيّين بسببِ الفسادِ الذي استشرَى في أرضِهِمْ، بينما ذهبَ البعضُ الآخرُ إلى: أنَّ مُعظمَ سُكَّانِ الكويت اشتهروا بِحَرْبِهِمْ على الفسادِ، كما لهم أعمالٌ جليلةٌ في الدعوةِ للخيرِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن الْمُنْكر، واللهُ سبحانه أعلم بمرادِهِ في إبلائِهِم، ولكنْ ينبغَي –بهذهِ المناسبةِ– أنْ نتأمَّلَ قليلاً في كلماتِ الإمامِ السيوطِيّ رحمه الله إذ يقول: "أجرَى اللهُ تعالى عادتَهُ: إنَّ العامَّةَ إذا زادَ فسادُها وانتهكوا حُرُمَاتِ الله، ولم تُقَمْ عليهم الحْدودُ، أرسلَ اللهُ عليهم آيَةً في إِثْرِ آيَةٍ، فإنْ لم ينجَعْ ذلك فيهم أتَاهُمْ بعذابٍ من عندِهِ، وسَلَّطَ عليهم مَنْ لا يستطيعونَ له دفاعا!"

هذا، ومن الجدير بالإشارة أن القواتِ الأميركيةَ إنما دخلتْ العراقَ وزحفتْ على كامِلِ أراضيها بسهولةٍ لاعتمادِها على الْمُسَاعَدَاتِ التي قدَّمتْها جبهتان في الداخل، وهما: الشيعةُ في جنوبِ العراقِ بِزَعَامَةِ رجالِ الدين؛ والأكرادُ في الشمال بِزَعَامَةِ جَلالِ طالبانِيّ ومسعود برزاني. هذه الخيانة الكبرى قد سجَّلَهَا التاريخُ بِكُلِّ تفاصيلِهَا لتتطَّلِعَ عليها الأجيالُ ويتعرَّفوا على حقيقةِ الشعبِ العراقي، وَمُكَوِّنَاتِهِ الغريبةِ!

هذا، بالإضافة إلى اغتيالاتٍ، وتصفياتٍ جسديةٍ، وانتهاكاتٍ لحقوقِ الإنسانِ على يدِ السلطاتِ العراقِيَّةِ، وما يسيلُ من الدماءِ جَرَّاءَ الأعمالِ الإرهابيَّةِ التي تجرِي في مختلف أنحاءِ البلد يوميًّا إلى هذه الساعةِ... كلُّ ذلك دلائلُ قاطعةٌ على أنَّ أهلَ العراقِ في غالبِهِ لا يتَّسِمُ بمزايا مجتمعٍ رشيدٍ متمدِّنٍ ومتحضِّر. ولهذا ليسَ من الغريبِ أن تكونَ علاقاتُ هذا البلدِ بجوارِهَا متدهورَةً بحكمِ هذه الطبيعةِ الشاذَّةِ.[332]

***

بالنسبةِ للعلاقاتِ التُّرْكِيَّةِ–السوريَّةِ فإنَّها أيضًا اختلفتْ باختلافِ الظروفِ السياسيَّةِ من مرحلةٍ إلى أخرى. كانت الحكومةُ التُّرْكِيَّةُ في العهد الكماليِّ وما بعده إلى الخمسينيَّاتِ من القرنِ العشرين، كانت تتجاهلُ المنطقةَ العربيَّة تمامًا بما فيها سوريَا. غير أنَّ علاقةَ سكَّانِ المنطقةِ ظلَّتْ جاريَةً ونشيطَةً بين الطرفين باستمرارٍ منذُ البدايَةِ إلى اليوم، ذلك لأنَّ سُكَّانَ هذه المنطقةِ مرتبطون فيما بينهم بعلاقاتٍ عرقيَّةٍ ودينيَّةٍ وثقافِيَّةٍ. وإنَّما فصلَتْهمُ الْقُوَى الإمبرياليَّةُ إلى شِقَّيْنِ بِتَعْيِينِ حدٍّ دوليٍّ غيرِ طبيعيٍّ بين تركيا وسوريَا، يبلغُ طولهُ: 911 كم. وذلك بتاريخ: 20 أكتوبر 1921م.، وبموجَبِ

---

[332] لمزيد من المعرفةِ حول المجتمع العراقِي راجع: الْمُذَكِّرَاتِ والمقالاتِ العديدة التي قد صدرتْ بأقلامِ كثيرٍ من الشخصياتِ العراقِيِّين (كمذكرات حردان عبد الغفار التكريتي، ومذكرات أحمد حسن البكر، ومقالات حول مقتل الملك فيصل الثاني، وإعدامِ عبد الكريم قاسم، والمذابح التي يصعب حصرها)... وتابعْ هذه الوثائقَ بإمعانٍ وتأمُّلٍ عميقين، لتجدَ عبرَ صفحاتِها ما تقشعِرُّ منه الجلودُ ويندَى لها الجبينُ من أشكالِ الفِتَنِ، والفسادِ، وتهريبِ أموالِ العامَّةِ، وَالقتلِ، وألوانٍ من التعذيبِ، والتمثيلِ بالجثثِ، وسَحْلِهَا عبرَ الشوارِعِ، وحرقِها، والإبادة الجماعيَّةِ، وتفجيرِ المساجِدِ والمتاحِفِ والمؤسساتِ؛ واتفاقِيَّاتٍ سرِّيَّةٍ عقدَها الزعماءِ العراقيُّون مع الكيانِ الإسرائيلي، وآلافٍ مؤلَّفَةٍ من الحقائق والوقائع التي حدثت خلفَ الكواليس والابواب المغلقة... هذه الوثائق التي تكفيك مؤنَةَ بحوثٍ ودراساتٍ كثيرةٍ تُميطُ اللِّثامَ عن وجهِ زعماءِ هذا البلدِ وتكشف سلوكياتِهم الغريبةَ وألاعيبَهم، وخياناتِهِمْ وجناياتِهِمْ وفضائِحَهُمْ وعَوْرَاتِهِمْ؛ وتُعَرِّي بشاعةَ تصرفاتهم ومساويهم على لسانهم بالذات!

ومهما شك القارئُ في بعضِ ما ورد ضمن هذه الْمُذَكِّرَاتِ، لكنَّها لا تخلو من أن تبقى تحمل جزءًا كبيرًا من الواقع. ولا يُسْتَبْعَدُ أنْ تتناولَهَا أيدِي المحترفين من أهلِ البحثِ والتحقيقِ العلمِيّ فتتحوَّ إلى وثائقَ مؤكَّدَةٍ يَطَّلِعُ عليها عبادُ الله فتكون عبرةً لأولي الألباب.

اتّفاقِيَّةٍ تمَّ اعتمادُهُ في أنقره بين المسئولين الفرنسيِّين والأتراك في نِهايَةِ أيَّامِ الإنتداب الفرنسِيِّ على سوريا.

ولَمَّا حصلتْ سوريا على استقلالِها عام 1946م.كانتِ العلاقةُ بينها وبين تركيا مقطوعةً تمامًا إلى نِهايَةِ العقدِ الرابعِ من القرنِ العشرين، بل سادتْ حالةٌ من العداءِ والتأزُّمِ مُعظمَ هذه الفترةِ، وذلك على خلفيَّةِ أسبابٍ عديدةٍ، أهَمُّها ضمُّ تركيا ولايَةَ أنطاكيا وَضَوَاحِيَهَا (بما فيها مدينةُ إسكندرونة) في 23 يوليو 1939م. كذلك اختلافُ الْخياراتِ والتحالُفَاتِ الإستراتيجِيَّةِ لِكِلاَ البلدين كان من أهمِّ أسبابِ التنافُرِ بين الطرفين، حيث اختارتْ تركيا السياسَاتِ والتوجُّهاتِ الأطلَسِيَّةَ الْغَرْبِيَّةَ الرأسْمَالِيَّةَ، في حينِ انحازتْ أغلبُ الحكوماتِ السورِيَّةَ إلى التوجُّهاتِ اليسارِيَّةِ والاشتراكِيَّةِ. وخلالَ هذهِ الفترةِ دخل البَلَدَانُ حالةً من النِّزاع أكثرَ من مرةٍ، كادتْ تُفضِي إلى حربٍ مدمِّرةٍ بينهما، وكان يجسِّدُها على الأرضِ تعزيزُ الوجودِ العسكرِيِّ وزراعةُ المزيدِ من الألغامِ على طَرَفَي الحدودِ، بحيث لا يستطيعُ أيُّ كائنٍ عبورَهَا. ثُمَّ حدثتْ مع الزمان مشاكِلُ أخرى بين الْبَلَدَيْنِ لأسبابٍ مختلفةٍ، تأتي على رأسها، العلاقةُ التُّرْكِيَّة–الإسرائيلِيَّةُ، والقضيَّةُ الكردِيَّةُ، وأزمَةُ الْمِيَاه.

تأزَّمتِ العلاقاتُ السوريَّةُ–التُّرْكِيَّةُ إلى حدٍّ خطيرٍ مع ازديادِ التعاونِ العسكرِيِّ بين تركيا وإسرائيلَ، حيث اعتبرتِ القيادَةُ السياسِيَّةُ السورِيَّةُ هذا التعاونَ تحدِّيًا وتَهْدِيدًا مُوَجَّهًا إليها، خاصَّةً وأنَّ التحالفَ العسكرِيَّ والسياسِيَّ، والعلاقاتِ التجاريَّةَ الْمَتِينَةَ والكثيفةَ بين تركيا وإسرائيلَ تعتمدُ (منذُ فترةٍ) على إستراتيجيَّةٍ مناهضةٍ للأمنِ القومِيِّ العربِيِّ. هذا بالإضافةِ إلى ما بقِيَ منذ قرنٍ في ذاكرة السورِيِّين دون الوعيِ من تبعاتِ حكم السبطائيين (الإتحادِيِّين). فاتخذَتْ الحكومةُ السوريَّةُ (النصيريةُ) من كُلِّ ذلك ذرائِعَ للمقابلةِ بالمثلِ بإيواءِ وتدريبِ كتائبِ المتمرِّدِينَ الأكرادِ التابعين لِحزبِ العُمَّالِ الكردستانِيِّ PKK الذي خرجَ على النظامِ التُّرْكِيِّ منذ 1974م.؛ واهتمَّتْ بتوطِيدِ العلاقَةِ مع الحكومةِ القبرصِيَّةِ اليونانِيَّةِ المعادِيَةِ للحكومةِ التُّرْكِيَّةِ؛ وكثَّفتِ الجهودَ في تصعيدِ الدعايةِ ضدَّ تركيا عن طريقِ الإعلامِ خاصَّةً بِعَرْضِ المسلسلاتِ الدراميَّةِ التي "تتناولُ أحداثًا جرَتْ أيَّامَ الحكمِ الإستبدادِيِّ للدَّولةِ العثمانِيَّةِ وسياسَتِها القمعيَّةِ في بلادِ الشام" على حَدِّ زعمِ الطُّغْمَة الحاكمةِ في سوريا.

لا شكَّ في أنَّ دوافعَ دينيَّةً وعرقيَّةً وأيديولوجيَّةً كانَ لها تأثيرٌ كبيرٌ في نشوبِ وتطوُّرِ النِّزاعِ والعداءِ بين تركيا وسوريَا فترةً تزيدُ عن نصفِ قرنٍ. ذلك أنَّ سوريا كانت قد انحازتْ إلى المعسكرِ الشيوعِيِّ

عام **1963**م.، فامتدَّتْ بينها وبين الاتِّحادِ السوفيتِيِّ علاقاتٌ دبلوماسيَّةٌ وعسكريَّةٌ وتجاريَّةٌ كثيفةٌ في حينٍ كانتْ تركيا قد انضمَّتْ إلى المعسكر الْغَرْبِيِّ الراسْمَالِيِّ عام **1952**م. فتحوَّلَتْ إلى قاعدةٍ عسكريَّةٍ واستراتيجيَّةٍ للولاياتِ المتحدةِ الأميركيَّةِ، كما دامتْ صِلَتُهَا مع الدولِ الأوروبيَّةِ فبذلتْ جهودًا بالغةً للانضمامِ إلى السوقِ الأوروبِيِّ المشترك الذي تحوَّلَ فيما بعد إلى الاتِّحاد الأوروبي. واستمرَّتْ هذه الصلةُ رغمَ الموقفِ الرافضِ الذي اتَّخذه الاتِّحادُ الأوروبِيُّ من الدولةِ التُّرْكِيَّة إلى اليوم. هذا، فإنَّ انضمامَ كلٍّ من الجارَتَيْنِ إلى قوَّةٍ من قوتين جبَّارَتَيْنِ تتنافسان على السيادَةِ العالَمِيَّةِ معناه: أنْ تَعُدَّ كلٌّ منهما صاحبَتَهَا عدوَّةً تتربَّصُ بِهَا لتنقضَّ عليها في أيِّ لحظةٍ تتهيَّئ لها الفرصة.

ولَمَّا قامتْ طغمةٌ من الأقلِّيَّةِ النُّصَيْرِيَّةِ بعد أنْ انتظمتْ تحت مظلَّةِ حزبِ البعثِ السورِيِّ، ثُمَّ وثبتْ على السلطةِ يوم **16** نوفمبر **1970**م.، تذمَّرتِ الحكومةُ التُّرْكِيَّة من هذا التطوُّرِ، لأسبابٍ لها مبرِّرات. منها: أنَّ معظمَ الشعبِ السوريِّ يَنْتَمِي إلى المذهبِ السنِّيِّ الذي له قاعدةٌ شعبيةٌ واسعةٌ في المجتمع التُّرْكِيِّ. وهذه الصلةُ المذهبيَّةُ بين الطرفين تدفعُ السنيِّينَ الأتراكَ إلى الإنتصارِ للأغلبيَّةِ السنيَّةِ في سوريا ضدَّ الطُّغْمَة النصيريَّةِ ونظامِهِ الطائفيِّ عند كلِّ حركةٍ قمعيَّةٍ تقوم به ضد الشعبِ السورِيِّ.

ومن أسبابِ كراهِيَّةِ الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ للنظامِ السورِيِّ: ارتباطُهُ بالاتِّحاد السوفيتِيِّ الذي ظلَّ شَبَحًا مُخِيفًا يُرعِبُ تركيا مدَّةً أكثرَ من نصفِ قرنٍ. فكانتِ الحكوماتُ التُّرْكِيَّةُ على حذرٍ بالغٍ من تسرُّبِ الفكرِ الشيوعِيِّ إلى الساحةِ التُّرْكِيَّةِ (تحت شعارِ الاشتراكيَّةِ) مِنْ أيِّ جهةٍ بما فيها سوريَا والعراق. لذلك اتَّخذتْ احتياطاتٍ مشدَّدَةً ضدَّ كلِّ مَنْ كانتْ له صلةٌ مِنْ مواطنيها بهذين البلدين. فكانتِ الشبكاتُ الإستخباراتيَّةُ التُّرْكِيَّةُ تَتَجَسَّسُ بكثافةٍ ودِقَّةٍ خاصَّةً من وراءِ الطلبَةِ الأتراكِ الذين توافدوا إلى البلادِ العربِيَّةِ مِنْ بدايَةِ العهد الجمهورِيِّ إلى أيَّامِ جزبِ العدالةِ والتنمِيَةِ، فلم تكنْ تخلُو مدرسةٌ أو جامعةٌ في البلادِ العربِيَّةِ يدرسُ فيها الطلبةُ الأتراك، إلاَّ كانَ بين صفوفِهِمْ عينٌ من عيونِ المخابراتِ التُّرْكِيَّة يُزَوِّدُ أنقره بأخبارِهم. وكانتْ على رأسِ هذه الجامعاتِ والمدارسِ التي تَلَقَّى فيها دُفُعَاتٌ مِنَ الطلبةِ الأتراك؛ الجامعةُ الأزهريَّةُ في القاهرة، ومعهدَا (الفتح) و(أبي النور) في دمشقَ، ومعهدُ (القادريَّةِ) في بغداد... هذا، بالإضافةِ إلى الضغوطِ والتهديداتِ التي كانت تمارسُها السفاراتُ التُّرْكِيَّةُ في تلك البلادِ ضدَّ هؤلاءِ الطلبَةِ، فضلاً عمَّا كانوا يتعرَّضون له من تحقيقاتٍ وعقوباتٍ من قِبَلِ السلطاتِ الأمنِيَّةِ في البلادِ العربِيَّةِ وفي تركيا بعد عودتهم إلى وطَنِهِمْ!

ترنَّحتِ العلاقاتُ التُّرْكِيَّة السوريَّةُ بين توتُّرٍ وَتَحَسُّنٍ حتى سادتْ عليها الهدوءُ بعد انتهاءِ أزمةِ 1998م. فبدأ التوجُّهُ نحو الحوارِ والتفاهُمِ، وجرَى التوقيعُ على اتفاقيَّاتٍ عديدةٍ في جميعِ مجالاتِ الاختلافِ، نُفِّذَ معظمُهَا في أوانِهِ. زارَ الرئيسُ التركِيُّ أحمد نجدتْ سِيزَارْ Ahmet Necdet Sezer دمشقَ في 12 يونيو 2000م. للمشاركةِ في تشييعِ الرئيسِ السورِيّ السابقِ حافظِ الأسد، ودعا نجلَهُ بَشَّار لزيارة تركيا، فكانتْ لهذه المبادرةِ دفعةٌ قويَّةٌ تغيَّرَ بِهَا اتِّجاهُ علاقَةِ أنقره بدمشقَ، وعززتْهَا زيارةُ الرئيسِ بشَّارِ الأسد الأُولى إلى تركيا في 06 يناير 2004م، وهي أوَّل زيارةٍ على مستوَى مسؤولٍ سورِيّ أعلى إلى تركيا بعد 57 عامًا. عقبتْهَا زيارةُ رئيسِ وزراءِ تركيا رجب طيب أردوغان إلى دمشقَ، فلمْ يلبثْ طويلاً حتى قام الرئيسُ التُّرْكِيُّ أحمد نجدت سيزار بزيارةٍ ثانيَةٍ إلى دمشق في 13 أبريل 2005م. لكنَّ فوزَ حزبِ العدالةِ والتنميةِ في الانتخاباتِ التُّرْكِيَّةِ والمواقفَ السياسِيَّةَ التي اتَّخذها قادتُهُ في السياسَةِ الخارِجيَّةِ كان له الدورُ الأكبرُ في تَحَوُّلِ العلاقاتِ السوريَّةِ–التُّرْكِيَّةِ نحو التفاهُمِ والتعاوُنِ، حيث تَمَّ الإتفاقُ بين وفودِ البلدين في مدينةِ أَضَنَهْ على حلِّ النِّزاعِ المتعلِّقِ بالحدودِ السوريَّةِ–التُّرْكِيَّةِ، كما تَمَّ التوقيعُ على اتِّفاقِيَّةِ إزالةِ الألغَامِ المدفونَةِ على جانبَيِ الحدودِ بين البلدين. كان هذا التوجُّهُ بِدايَةَ عهدِ التقَارُبِ الذي قَلَّبَ حالةَ العَدَاءِ التاريخيّ بين الطرفين إلى حالةٍ من اللِّقَاءِ والتعاوُن، ونَهَضتْ تركيا لتتحمَّلَ دورَ الوسيطِ بين سوريَا ومختلفِ الحكوماتِ الأوروبيَّةِ، الأمر الذي أسْهَمَ في مساعدةِ النظام السورِيّ على عبورِ تلك المرحلَةِ الصعبَة.

هذا، وبالمقابلِ؛ تجاوزتِ القيادةُ السياسيَّةُ السورِيَّةُ كلَّ مُثَبِّطَاتِ العلاقةِ مع تركيا، وصرفتِ النظرَ عن كلِّ ما تحمِلُهُ الذاكرةُ التاريخِيَّةُ من آثارِ أيَّامِ التنافُرِ وعن عضويَّةِ تركيا الأطْلَسِيَّةِ، حتَّى أصبحتْ تركيا راعيةً للمفاوضاتِ السورِيَّةِ–الإسرائيليَّةِ غيرِ المباشِرَة. فما لبث حتَّى تدهورتْ العلاقاتُ التُّرْكِيَّةُ–السُّورِيَّةُ بصورةٍ مفاجِئَةٍ مع اندلاع الاحتجاجاتِ في درعا ضد النظامِ الاسدِيّ يوم 15 مارس 2011م. وذلك عندما قامتِ القوَّاتُ الأمنيَّةُ السورِيَّةُ بِرَشِّ الرصاصِ على المتظاهرين، وسقوطِ أعدادٍ كبيرةٍ من المدنيِّين.. ولَمَّا وصل أوَّلُ دُفْعَةٍ من اللاَّجئِين السوريِّين الفارِّين من أعمالِ العنفِ الى الأراضي التُّرْكِيَّةِ يوم 29 أبريل 2011م. أعلنَ رئيسُ الوزراءِ التُّرْكِيّ رجب طيّب أردوغان أنَّ أنقره قطعتْ جميعَ اتصالاتِهَا بالنظامِ السورِيّ وَاسْتَضَافَتْ تركيا زعماءَ المعارضَةِ السوريَّةِ الذين أعلنوا في اسطنبول تاسِيسَ المجلسِ الوطني السورِيّ الواسِع.

اسقطتِ القوَّاتُ المسلَّحةُ السوريَّةُ طائرةً حربيَّةً تُرْكِيَّةً يوم 22 يونيو 2012م. كانتْ تُحلِّقُ على أجواءِ البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ، في المجالِ الجويِّ الدُّوَلِيّ، على بُعدِ ثلاثةَ عَشَرَ ميلاً من المجالِ الجويّ

السوريّ، ولم يصدُرْ عنها أيُّ محاوَلَةٍ عدائيَّةٍ، بل كانتْ في مُهِمَّةٍ لاختبارِ نظامِ الرادارِ القوميّ الخاصّ بِتُرْكِيَا، ولم تكنْ هناك أيَّةُ مهمَّةٍ خاصَّةٍ أو سِرّيَّةٍ تتعلّق بسوريا. فَجَرَّ الحادثُ وراءَهُ تَبِعَاتٍ كثيرةً، وبدأ الطَّرَفَانِ باستخدامِ الدبلوماسِيَّةِ الْقَاسِيَةِ. وما زالت العلاقات مُتَوَتِّرَةً، بل مدمَّرةً بين تركيا وسوريا خاصَّةً بسببِ الآثارِ الهدَّامَةِ للحربِ الأهليَّةِ التي تفاقمتْ على الساحة السوريةِ منذ عام **2011**م. وامتدَّت إلى اليوم (**2014**م.)

لكنَّ السببَ الرئيسَ الذي أنشبَ شرارةَ الحربِ الأهليَّةِ في سوريا وألقتْ بالدولةِ التُّرْكِيَّةِ في أتونها إنّما يَكْمُنُ أساسًا في منافسةٍ خطيرةٍ بدأتْ تتنامى بين دولة قطر والكيان الصهيوني (كطرف مشترك)، وبين روسيا (كطرف مقابل)، وذلك قبيل إندلاعِ هذه الحرب الضارية الشعواءِ.

لقد كان مِنْ أهمّ أهدافِ الطرفين السالِفَي الذكرِ، تنفيذُ مشروعٍ لِمَدِّ أنابيب الغازِ المتفرع إلى ثلاثة خطوطٍ من المنطقة العربية إلى أوروبا. وكان المشروعُ القطريُّ–الصهيونيُّ مدعومًا من طرف الولايات المتحدة الأميركية، على أساسِ مدِّ الأنابيب عَبْرَ الأراضي السعودية فالأردنية فالسوريَّةِ فالتركية ومنها إلى أوروبا ليمنح المشروعُ في الوقت ذاته كُلاًّ من تركيا وقطر والكيان الصهيوني مزايا استراتيجية في معادلة تجارة الغاز العالمية. إنما انضمت تركيا في هذا المشروع إلى الحلف الوهابي–الصهيوني تحت مظلة الولايات المتحدة الأميركية لِتَتَحَرَّرَ من الاستمرارِ في اعتمادِها على استيرادِ الغازِ الإيرانيّ والرُّوسيّ الَّذَيْنِ يكلّفَانِهَا ثمنًا باهظًا ولِتَتَحَوّلَ إلى ممَرٍّ حيويٍّ تعتمدُ عليهِ أوروبا. فَيَسْهَلَ بذلك انضمامُها إلى النادي الأوروبي، ويَحْسُنَ موقعُها الإقليمي..

غير أن القدر لم يحالف الدولةَ التركيَّةَ حين اختارتْ الصراعَ مع النظام النصيري تمهيدًا لتحقيق هذا المشروعِ، فإذا بروسيا وإيران يدخلانِ المسرح بذريعة القضاء على الإرهاب (؟!)، وليس الأمر كذالك في حقيقة الحال. فتحول النِّزاعُ من حربٍ مذهبية في ظاهرها وإلى حربٍ مصلحية (اقتصادية) في باطنها.

***

الكلمة الختامية

تركيا تتخبَّطُ تخبُّطًا رهيبًا في مستنقعٍ من الفوضَى الفكريّ والثقافيّ بين التَّيَّارِ الإنعزاليّ والدِّينِ والشعوذَةِ منذ بدايةِ قيامِها عامَ 1923م. إلى اليوم. لذا اختلفتْ مواقفُ المؤرّخين والباحثِين ورجالِ السياسةِ والعلماءِ من هذا البلدِ ونظامِهِ؛ كلٌّ له رأيُهُ الخاصُّ في الدولةِ التُّرْكِيَّةِ، ونظرتُهُ المتمايِزَةُ إليها على قدرِ معرفتِهِ بِهَا أو بِحَسَبِ ميولِهِ وأفكارِهِ التي دفعتْهُ إلى الحُكْمِ لها أو عليها.

ومن هذا المنطلق فإنَّ طائفةً من باحثِي العرب ومثقَّفِيهم المحافظين خاصةً، يرون: "أنَّ لِلدَّوْلةِ التُّرْكِيَّةِ في الوعْيِ العربِيِّ والإسلامِيِّ حضورٌ تاريخِيٌّ كبيرٌ، تحتلُّ في ضميرِهِمْ مكانًا يتَّسِمُ بقيمةٍ معنويَّةٍ، لأنَّها كانتْ مركزَ الخلافةِ الإسلاميَّةِ الذي انْهارَ رسْميًّا في عام 1924. كانتْ قبلَ ذلك تُمَثِّلُ أمَّةَ الإسلامِ، وترمزُ إلى وحدتِها، وتُوحِي مهابةً في الداخلِ والخارجِ بِبَسْطِ سلطانِها على المنطقةِ الممتدَّةِ من آسيا الوسطى حتَّى جبالِ اليمن، ومن مِصْرَ وبعضِ شمالِ المغربِ العربِيِّ الى شطِّ العرب.. مع امتداداتِها التاريخِيَّةِ، في أوروبا الشرقيَّةِ وحوضِ البحرِ المتوسط.. وصراعاتِها الأبرزِ هناك، منذ انْهارتْ أسوارُ القسطنطينيَّةِ تحتَ ضرباتِ محمد الثاني الذي لُقِبَ بـ"الفاتح"[333].

إنَّ القطاعَ الْمُحَافِظَ خاصَّةً الجمهورَ "الْمُتَدَيِّنَ" من القاعدةِ الشعبيَّةِ في العالَمِ العربِيّ (والسَّوَادَ الْمُسْلُمَانَ في تركيا) يقفُ موقفَ توقيرٍ وإجلالٍ من الدولةِ التُّرْكِيَّةِ حتَّى اليومِ، وذلك لأَوْلَوِيَّةِ صِلَتِهَا

---

[333] عبد الله القفاري، مقالة تحت عنوان " تركيا: من نموذج الإسلام "الحداثوي".. إلى مشروع الشرق الأوسط الكبير". المصدر: http://www.alriyadh.com/14416; aalqfari@alriyadh.net

الوراثيَّةِ بالدولةِ العثمانيَّة التي كانتْ درعًا قويًّا وجدارًا صلبًا أمامَ أطماعِ الْغَرْبِ في المنطقةِ العربيَّة. إلاَّ أنَّ هذا الموقفَ الوجدانيَّ لم يجدْ له طريقًا إلَى مشاعرِ القلَّةِ الْمُسْلِمَةِ (الْحُنَفَاءِ أهلِ التوحيدِ الخالِصِ) في تركيا وخارِجِها منذُ قيامِ الْحُكْمِ الكماليِّ، كما أنَّ هذهِ القلَّةَ نفسَها – في الوقتِ ذاتِهِ – لم تنعمْ خاصَّةً بِحُرِّيَّةِ التعبيرِ عن صِلَتِهَا بِبَقِيَّةِ أجزاءِ الأمَّةِ، بسببِ وطئةِ الْحُكْمِ الكماليِّ المستبدِّ ونظامِهِ "الطورنِيِّ الفاشِيِّ".

***

تركيا دولةٌ "شرق–أوسطيةٌ"، بكُلِّ مَعَالِمِهَا، ونظامِهَا، وطبائِعِهَا الاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ... يحاوِلُ حُكَّامُهَا منذُ أواخرِ العهدِ العثمانِيِّ ليجعلوا منها دولةً غربيَّةً معزولةً عن العالَمِ الإسلامِيِّ، وبهذا الغرضِ انضمَّتْ إلى حِلفِ ناتو NATO وارتبطتْ بالغربِ من خلالِ تحالفاتٍ سياسيَّةٍ وعسكريَّةٍ، وبذلتْ جهودَها لتنضَمَّ إلى الإتِّحادِ الأوروبِيِّ منذُ خمسةِ عقودٍ من الزمنِ والإتِّحادُ يرفضُ طلَبَهَا احتجاجًا بالقصورِ السائدِ على قوانينِها، يَدَّعِي بأنَّهَا غيرُ مُتَكَافِئَةٍ مع القوانينِ الغربيَّةِ في تأسيسِ العدالةِ الإجتماعيَّةِ، واحتِرَامِ حقوقِ الإنسانِ، وهو – في الحقيقةِ – لا يرفضُ طلَبَهَا إلاَّ لأنَّ عَلْمَنَتَهَا زَائِفَةٌ تَتَمَايَعُ بين الوَثَنِيَّةِ الأَتَاتُورْكِيَّةِ وبين الْمُسْلُمَانِيَّةِ، ولا تستقرُّ نظامُها على وتيرةٍ واحدةٍ من التَّنَاغُمِ مع الغربِ.

وأمَّا في الداخلِ؛ فإنَّ الآراءَ تختلفُ في تقييمِ النظامِ التُّرْكِيِّ، وتَتَضَارَبُ في تعريفِ الدولةِ التُّرْكِيَّةِ باختلافِ الإنتماءاتِ والنَّزَعَاتِ. فقد جاءَ تعريفُها في المادَّةِ الثّانِيَةِ من نصِّ الدستورِ الأخيرِ الصادرِ عامَ **1982**م.: "أنَّ الجمهوريَّةَ التركيَّةَ دولةٌ ديمقراطيَّةٌ، علمانيَّةٌ، اجتماعيَّةٌ وحقوقيَّةٌ، قائمةٌ على أساسِ القوميَّةِ الأتاتوركِيَّةِ"[334]. وهذا التعريفُ الرسميُّ إنَّما يُمَثِّلُ رأيَ الطُّغْمَةِ الحاكمةِ، ورأيَ القِلَّةِ التابعةِ لها ثقافِيًّا، والْمُرْتَزَقَةِ فِي ظِلِّهَا.. لكنَّ ذلكَ لاَ يعنِي أنَّ معظَمَ المجتمعِ يرفضُ مفادَ هذه الصيغةَ إجمالاً وتفصيلاً، بل إنَّ الأغلبيةَ التركِيَّةَ لا تشكُّ في شرعيَّةِ نظامِ الدولةِ قيدَ نملةٍ، وأبعدُ من ذلك؛ أنَّها تُقَدِّسُ كيانَ الدولةِ بجميعِ رموزِهَا مِنَ الْعَلَمِ، والنشيدِ الوَطَنِيِّ، وصفةِ رئيسِ الجمهوريَّةِ، والقُوَّاتِ المسلَّحَةِ، وتُرَابِ والوطنِ وما يتَّصِلُ بِهَا.. نعم، ليس من الْهُرَاءِ أو الشططِ القولُ: بأنَّ الأتراكَ يُقَدِّسُونَ هذه المفاهيمَ تقديسَهُمْ للقرآنِ الكريمِ وما جاءَ فيهِ من شعائرِ اللهِ وحُرُمَاتِهِ. هذا، مع نِزَاعِهِم الْمَصْلَحِيِّ، وَصِرَاعَاتِهِم الطَّبَقِيَّةِ، واختلافِ طوائِفِهِمْ في العقيدةِ والثقافةِ، والانتماءِ السياسِيِّ

---

[334] هذا نص العبارة باللغة التركية:

«Türkiye Cumhuriyeti (…), Atatürk milliyetçiliğine bağlı, başlangıçta belirtilen ilkelere dayanan, demokratik, laik ve sosyal bir hukuk devletidir.»

والْهُتَافِ الإيديولوجِيّ.. ورغم الْهُوَّةِ التي تفصِلُ بين جماعاتِهِمْ وأحزابِهِمْ ومُنَظَّمَاتِهِمْ.... وحتى القطاعاتُ الصوفيَّةُ التي كانت (قبلَ مرحلةِ الإنفتاحِ) تشكو من الإضطهادِ الذي تتعرَّض له على يدِ الدولةِ بسببِ طقوسِها، لم تشكَّ (الآنَ) في شرعيَّةِ نظامِ الدولةْ التُّرْكِيَّةِ!

هذا هو الموقِفُ، بالنسبةِ لِلْعُنْصُرِ التُّرْكِيّ خاصَّةً. وقد يتناغمُ مع الأتراكِ (باتِّخاذِ هذا الموقفِ) جماعاتٌ أُخرَى هجينةٌ من الأكرادِ، واللاَّزِ، والشراكسةِ، وغيرِهم من الأقلِّيَّاتِ لِمُجَرَّدِ المصلحةِ، أو لانْصهارِهِمْ مع الزمانِ في البوتقة التركِيَّةِ، أو احْتِمَاءً بالأتراكِ، مخافةَ أنْ يتعرَّضُوا لِضَغْطِ أقلِّيَّةٍ أُخرَى (كالعربِ القاطِنِينَ في جنوبِ تركيا يحيطُ بِهِمْ غمرٌ من الأكرادِ).

أمَّا التجمُّعاتُ الأيديولوجيةُ والعرقيةُ؛ كالشيوعِيِّينَ، والأكرادِ الإنفصالِيِّين، فإنَّهم غيرُ مقتنعينَ (من منظورِهِمْ) بشرعيَّةِ النظامِ القائمِ في تركيا. بل يقفون منهُ موقِفَ العدوِّ اللَّدُودِ. ويتربَّصُ كلٌّ من هذهِ التكتُّلاَتِ والتَّيَّاراتِ الأيديولوجيَّةِ والإنفصالِيَّةِ ليقضِيَ على هذا النظامِ ولِيَسْتَبْدِلَهُ بما يحلو له من نظامٍ آخرَ يراه أقربَ لإقامةِ العدالةِ والمساواةِ، ومراعاةِ حقوقِ الإنسانِ على حسبِ اعتقادِهِ.

كان هذا مُلَخَّصًا عن مواقفِ العامَّةِ (من الدولةِ التُّرْكِيَّةِ) على اختلافِ قَنَاعَاتِهَا واتِّجَاهَاتِهَا، ومع تبايُنِ فئاتِهَا العرقيَّةِ والدينيَّةِ من الإسلاَمَوِيِّين، وطوائفِ المشركين (الصوفيَّةِ، والأتاتوركيِّين، والشيوعيِّين) وأهلِ الأهواءِ (الْمُتَدَيِّنِينَ)..

أمَّا المسلمون من أهلِ السنَّةِ والجماعةِ (وهم قلَّةٌ قليلةٌ جدًّا)، فإنَّهم أيضًا مختلفونَ في مواقِفِهم (من الدولةِ التُّرْكِيَّةِ). لأنَّهم مختلفونَ في أنماطِ انتمائِهم إلى الإسلامِ، وعلى حسبِ اتِّجاهِ كلِّ فئةٍ منهم في إحياءِ الْحُكْمِ الإسلامِيّ وتطبيقِ نظامِهِ إذا تمكَّنوا يومًا من تحقيقِ الهدفِ. ذلك أنَّ فئةً منهم وسطيُّونَ، وفئةً متحفِّظون، ومنهم جماعةٌ (شِبْهُ الْخَوَارِجِ) مُتَشَدِّدَةٌ نازعةٌ إلى استعمالِ العنفِ (وهي أقلُّ فصائلِ المومنين في تركيا). إلاَّ أنَّ المسلمين الأتراك بِعُمُومِهِمْ (وقد لا يتجاوز عَدَدُهُمْ مائةَ ألفٍ!) مُجْمِعُونَ على انْتِفَاءِ الشرعيَّةِ في الدولةِ التُّرْكِيَّةِ. وهذا الحكمُ يدفعُ طائفةً منهم إلى وصفِ الساحةِ التركِيَّةِ بِ"دَارِ الحربِ"؛ "فلاَ تُقَامُ على أرضِهَا صلاةُ الْجُمُعَةِ، وأنَّ جميعَ المساجدِ الكائِنَةِ عليها في حُكْمِ مسجدِ ضرارٍ، فلا يجوزُ الإقتداءُ بأحدٍ من الأَئِمَّةِ الموظَّفِين من قِبَلِ النظامِ" في اعتقادِ هذه الطائفةِ. مِمَّا يجعلُها "جماعةً مُتَطَرِّفَةً" وهدفًا للشبكةِ الإستخباراتيَّةِ.

هذا، ومن الأمورِ الغريبةِ في تركيا؛ أنَّ النظامَ قد أدخلَ في قَائِمَتِهِ السوداءِ "كلَّ فردٍ يُصَلِّي الخمسَ ولا يحضرُ الجُمُعَةَ!".. وتقولُ جريدةُ الهَمْسِ: "أنَّ عيونَ النظامِ لا تغفلُ عن هذهِ القِلَّةِ المؤْمِنَةِ، وهي رقيبةٌ على كُلِّ فردٍ منها؛ كما أنَّ الدولةَ العميقةَ لا ترعَى حُرْمَةً لهؤلاءِ أبدًا، ولا تَتَوَرَّعُ عن خَطْفِهِمْ، وتعذِيبِهِمْ، والقضاءِ عليهم بِوَحْشِيَّةٍ تقشعِرُّ منها الجلودُ.. حتى في عهدِ رجب طيب أردغان!" الذي أباحَ لكلِّ إنسانٍ أنْ يعتقِدَ بِمَا شَاءَ، ويعبدَ مَنْ وَمَا شاءَ، كما يشَاءُ، بِشرطِ الْمُسَالَمَةِ والتسامُحِ اللاَّمَحْدُودِ.. على "أنَّ الذين يُصَلُّونَ الخَمْسَ ولا يحضرونَ الجُمُعةَ"، لا يزالون يُعَدُّونَ مُجْرِمِينَ مُحْتَمَلِينَ، وإنْ لَمْ يُحَرِّكْ أحدُهُمْ سَاكِنًا!.

***

كلُّ هذا الخلافِ، وهذه الآراءِ المتضاربَةِ التي قد لا يكون بعضُهَا صحيحًا، تدلُّ على أنَّ تركيَا أخفقتْ في سياستِها الداخلِيَّةِ والخارجيةِ منذ قيامِ الجمهوريَّةِ إلى اليوم. اضطربتْ في سياستِها الداخلِيَّةِ باتِّخاذِ مواقفَ مُرِيبَةٍ، وبِازْدِوَاجيَّةٍ حيالَ مفهومِ الدِّينِ والأعرافِ والقِيَمِ. اضطربتْ في نظرتِهَا إلى مفهومِ القوميَّةِ، وتعامُلِها مع الأقلِّيَّاتِ، فلم تستطعْ إقناعَ الفصائلِ الإجتماعيَّةِ، فظلَّتْ في النهايةِ غيرَ قادرةٍ على سدِّ الفجواتِ التي ظهرتْ بينها وحالت دون وحدتِهَا على مَدَى العهدِ الجمهورِيِّ فورَ انهيارِ الدولةِ العثمانيَّةِ.

لم تتمكَّنْ تركيا (إذْ كانتْ "فتيَّةً") من ضبطِ الأمورِ بسياسةٍ راشدةٍ في بدايةِ قيامِها على أنقاضِ الدولةِ العثمانيَّةِ، لقصورِ نظامِهَا أوَّلاً عن التفاعُلِ مع المجتمعِ في حدودِ مبادئِ العدالةِ وعن تفهُّمِ مشاعرِه؛ ولِتعامُلِهِ المدمِّرَةِ لِلقِيَمِ التي كانتْ القاسِمَ المشترَكَ بين مختلفِ عناصرِ المجتمعِ.

تَبَنَّتْ تركيا دِينًا وثنِيًّا باسمِ "الأتاتوركِيَّةِ"، وقامتْ بفرضِها على المجتمعِ، وتحتَ ستارِ "علمانيَّةٍ زائِفَةٍ"، (والعلمانيةُ أصلاً فكرةٌ زائفةٌ)، فأثارتْ بذلكَ قطاعاتٍ متطرِّفَةً من الصوفِيَّةِ النقشبنديِّينَ، ثم احتجَّتْ بتمرُّدِهِمْ وعصياناتِهِم، فوجَّهتْ ضرباتِهَا إلى الإسلامِ في حينٍ لم يَكُنْ للإسلامِ أثرٌ يُذكَرُ على الساحةِ التركِيَّةِ إلى الخمسينيَّاتِ من القرنِ المنصرمِ. أرادتْ تركيا بهذه الحيلةِ أن تنتقمَ من الإسلامِ بدلَ أنْ تأخذَ ثأرَها من الدِّينِ النقشبندِيِّ الوثنِيِّ الذي ليس – في الحقيقةِ – إلاَّ نسخةً من الهندوسِيَّةِ مغلَّفَةً بالإسلامِ، تُستَخدمُ اليومَ لِبَثِّ القوميةِ التركيةِ وترسيخِها في أعماقِ النفوسِ والضمائرِ. ثمَّ تَصَالَحَ النظامُ التركِيُّ مع النقشبنديِّين منذ عهدِ تُرغوت أوزال (النَّقْشَبَنْدِيِّ)، وذلك بعد أنْ تأكَّدَ من أنَّ الأتاتوركِيَّةَ والنقشبنديَّةَ هما توئمان يلتقيان في الفكرِ الوثني!

في الحقيقةِ لم تكنْ عقليةُ المجتمعِ على مستوًى أفضلَ من هذه العقليَّةِ التي تبنَّتْهَا الدولةُ. لأنَّ هذه العقليَّةَ الجامدةَ لم تُدرِكْ مقاصِدَ الإسلامِ الساميةَ منذُ القديمِ، بسببِ الغطاءِ المتمثِّلِ في "الْمُسْلُمَانيَّةِ"، فقد حجبَ هذا الغطاءُ المشبوهُ؛ المجتمعَ العثمانيَّ على مدَى ستَّةِ قرونٍ، والمجتمعَ التركِيَّ في العهدِ الجمهورِيِّ، كما أعاقَهُ هذا الدِّينُ الْمُعْوَجُّ ولم يسمحْ له بالنهوضِ ومواصلةِ القفزاتِ في مضمارِ السباقِ مع الغربِ الذي فضَّلَ سيادةَ العقلِ على الأسرِ الْكَنَسِيِّ منذ انفلتَ من حبالِ العقليَّةِ المتخلّفةِ وأنقذَ نفسَهُ من براثنِ الرُّهْبَانِ حتى استطاعَ أن يتخَلَّى عن النصرانيَّةِ المتطرِّفَةِ ويخرجَ من ظلماتِهَا رغمَ سقوطِهِ في مستنقعِ الإلحادِ المادِّيِّ!. لكنَّ "الْمُسْلُمَانِيَّة" وما تَوَلَّدَ عنها من الشعوذةِ المذهبِيَّةِ والتصوُّفِ أصبحتْ عقبةً كبيرةً وحجرَ عثرةٍ أمامَ هذا المجتمعِ ودولتِهِ طوالَ القرونِ، فأخَّرَتْهُما عن متابعةِ التطوُّراتِ والإنفتاحِ الفكرِيِّ والثقافِيِّ إلى هذا العصرِ الذي يجري فيه كُلُّ شيءٍ بسرعةِ البرق.

***

بدأ النظامُ التركِيُّ يسلكُ سبيلَ الرفقِ والتسامُحِ مع غيرِ الأتراكِ من المواطنين منذ أواخرِ القرنِ الماضِي لأسبابٍ، منها:

أنه اضطرَّ أنْ يُجرِيَ تعديلاتٍ جذرِيَّةً على قوانينِهِ لِتكييفِها حتى تتماشَى مع قوانينِ الإتِّحادِ الأوروبِيِّ، رغبةً في الإنضمامِ إليه.

ومن هذه الأسباب: أنَّ الدولةَ العميقةَ فقدتْ سيطرتَهَا على تنظيمِ (بي كَ كَ) الإرهابِيِّ الذي أنشأتهُ بيدِهِ! لقهرِ الأكرادِ وفرضِ الاستنزافِ على المنطقةِ الكردِيَّةِ. فلمَّا انفلتَ التنظيمُ من عقالِ النظامِ الكمالِيِّ السَّبَطَائِيِّ، وبدأ يُوَجِّهُ سِلاحَهُ إلى قُوَّاتِ الأمن التركِيَّةِ، ولم يستطعِ النظامُ إيقافَ هجماتِهِ المتواصلةِ على مدَى ثلاثِينَ عامًا، اضطرَّ أخيرًا أن يتفاوضَ معه (في العهدِ الأردوغانِيِّ). فتمخضَ عن ضرورةِ تساهُلِ الحكوماتِ التُّرْكِيَّةِ في التعامُلِ مع الأقلِّيَّاتِ. فنجمتْ عن ذلك سياسةُ توسيعِ الحرِّيَّاتِ، ومراعاةُ حقوقِ الإنسانِ؛ تحققتْ بشكلٍ نسبِيٍّ، استفادَ منها أقلِّيَّاتٌ أخرى – في الوقتِ ذاتِهِ– تبعًا للأكرادِ.

إلاَّ أنَّ تركيا وقعتْ في مأزقٍ جديد وخطيرٍ في الداخل والخارج منذ انفجار الحروب الأهلِيَّةِ في العراقِ وسوريا خاصَّةً بعد منتصفِ عام **2013**م. ولا تزال في مواجهة إرهابٍ متعدد الأطرافِ وهي تواصلُ جهودَها للخروجِ من هذا المأزق. بينما تحاوِلُ حكومةُ داود أوغلو في كلِّ مناسبةٍ لِتُزَيِّنَ المشهدَ "بأنَّ

تركيا – على رغمِ ظروفِ الأمرِ الواقعِ– تتمتَّعُ اليوم بأقصَى قدرٍ من الرفاهيةِ والهدوءِ والاستقرارِ!" : والحقيقةُ عكسُ ذلك. إذْ أنَّ الجوَّ المُفْعَمٌ بالقلقِ والترقُّبِ – على أثرِ الحملةِ الفاشلةِ التي قامتْ بها الدولةُ الموازيةُ، (أو عصابةُ الحشاشين الجددِ بتعبيرٍ آخر)، لإطاحةِ حكومةِ أردوغان– يُثيرُ هواجسَ مِنْ تنامِي أحداثٍ تسحبُ تركيا في مستقبَلٍ قريبٍ إلى ما لا يسهلُ وصفُهُ في الوقتِ الراهن!

بالنسبةِ للمشكالِ التي تُربِكُ الدولةَ التركيَّةَ في الخارجِ، فلا شكَّ يأتي على رأسِها الصراعُ في سوريا بشكلهِ القائم عَبْرَ الحربِ على تنظيم "الدولة الإسلامية". تركيا دخلتْ في موقفٍ حرجٍ مع الحكومةِ الأميركيَّةِ بسببِ اشتراطِها على أميركا: أنْ يكونَ نظامُ الأسدِ هو الهدفَ الأوَّلَ قبلَ تنظيمِ "داعش". وهي مسألةٌ ذاتُ أهمِّيَّةٍ بالغةٍ بالنسبةِ لها. والقضِيَّةُ قد تلبَّدَتْ وتحوَّلتْ إلى مراهنةٍ بين الطرفين. لأنَّ أميركا تريدُ أن تتَّخذَ من هذا الصراعِ ذريعةً لفرضِ هيمنتِها على الشرقِ الأوسطِ، ويبدو أنَّها تحاوِلُ وراءَ شَنِّ الحربِ ومن خلالِ مناوراتٍ سياسيَّةٍ وتَدَخُّلاَتٍ عسكريَّةٍ ضمنَ استراتيجيَّتِها، لتمهيدِ وسطٍ إلى تحقيقِ المزيدِ من الأطماعِ والمكاسبِ في المنطقة.

انسحبتْ تركيا وراءَ مشروعٍ خيالِيٍّ منذ بدايةِ العهدِ الأردوغانِيّ. أبدتْ استعداداتِها بتهوُّرٍ واستعجالٍ لِتُهَيْمِنَ على الشرقِ الأوسطِ من منطَلَقِ الاعتزازِ بأمجادِ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ التي لم تكن – في الحقيقة – دولةً تركيَّةً صرفةً، بل كانتْ دولةً عالميَّةً فيها شَمَّةٌ من الإسلامِ. وقد كانتْ تركيا جعلتْ من تاريخِ هذهِ الدولةِ دينًا وثنيًّا سَحَبَهَا إلى متاهاتٍ، تريدُ اليومَ أنْ تستغلَّ الفرصةَ في خِضَمِّ الأحداثِ الأخيرةِ، وهي متبولةٌ تَنْتَابُهَا حالاتٌ من جنونِ العظمةِ مِمَّا يذكِّرُنا بِعاقبةِ الدولةِ العثمانيَّةِ، كما يبدو أنَّ حزبَ العدالةِ والتنميةِ هو الآخر قد أكملَ مسيرتَهُ التاريخيَّةَ وانتهَى إلى أقصَى ما يمكن أن يبلُغَهُ من الكمال. وهذا يتداعى قولَ الشاعر:

إذَا تَمَّ أمرٌ بَدَا نَقْصُهُ * تَرَقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَم.

هذا، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف: **34**)



1) الفهارس:

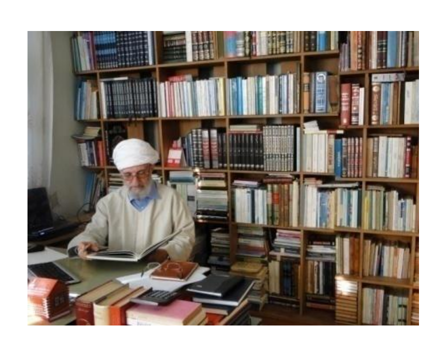
2) المراجع

3) أسماء الأعلام

4) أسماء الأماكن

مُحتوياتُ الكتاب:

نبذة من السيرة الذاتية للمؤلف



وُلد العلاَّمةُ الشيخ فريد صلاح الهاشمي عام 1945م. بضواحي مدينة موش الواقعة بمنطقة شرق تركيا، تنحدرُ أسرتُه من سلالةٍ عربيَّةٍ عريقة، أتقن اللُّغة التُّرْكِيَّةَ بجانبِ اللُّغةِ العربيَّةِ بفضلِ أُمِّهِ التي كانت تُرْكِيَّةَ الأصلِ، كما أتقن اللُّغةَ الكرديَّةَ والفارسيَّةَ والإنجليزيَّةَ... نشأ في بيتِ علمٍ وفضل، وتربَّى في كنف والدهِ الشيخ صلاح بن الشيخ عبد الله بن الشيح محمد الحزين الهاشمي. تلقَّى معارِفَهُ الأُولى على يدِ تَلاَمِذَةِ والدِهِ، درس على جمهرةٍ من العلماءِ أصنافًا من الكتب المتعارَفِ عليها في العلوم العربية، وأشتاتًا من العلوم الإسلامية من أصول الدين والفقه والتفسير والحديث.. فأجازوه بالتدريس والتعليم وإرشاد العباد.

ركَّزَ الشيخ جل اهتمامِهِ على المواضيع المكتومة التي طالما تجنبها الباحثون لخطورَتِها؛ خاضَ فورَ تخرُّجه في بحوثٍ متنوعةٍ بعد أن أكمل ثقافتَهُ في مختلفِ الفنونِ من العقائدِ وتاريخِ الأديانِ والفلسفاتِ، وبالمشاركة في الندوات والمؤتمرات العلمية، ومتابعةِ التياراتِ السياسيَّةِ والأوضاعِ الإجتماعيَّةِ...

حزَّ في نفسهِ ما تعرَّضَ له الإسلامُ من العبثِ والتشويهِ، وما انتشرَ بين المسلمين من التيَّاراتِ الهدَّامةِ وَالبِدَعِ والخرافات... قَادَتْهُ آلاَمُهُ إلى تفكيرٍ وتأمُّلٍ عميقين في الحالةِ المتدهورةِ التى آلتْ إليها أُمَّةُ الإسلامِ، وما سادَ على أجواءَ المسلمين من الفتنِ والفسادِ وشتاتِ الشملِ والفوضى، وما تعرَّضتْ له الأُمَّةُ من فرقةِ الصفوفِ والتناحرِ والإقتتالِ، وما شاعَ بين صفوفهم من العصبيَّةِ المذهبيَّةِ، والعنصريَّةِ، وتقاليد المشركين... فنهضَ لِمُقَاوَمَتِهَا بقلمهِ المدرار، يدعو الناسَ إلى التوحيدِ الخالصِ، والإخلاصِ في الدين، ونبذِ طقوسِ الشركِ... تناول عديدًا من القضايا الفكريَّةِ والعقديَّةِ واللُّغويَّةِ والثقافيَّةِ التي لها صلةٌ ببحوثِهِ. توسَّع في دراساتِهِ المتعدِّدةِ الوجوه، اهتمَّ خاصَّةً بإشكاليَّةِ الْعُجْمَةِ فِي الدِّينِ واللُّغةِ، وعلى الأسباب التاريخيَّةِ والاجتماعيَّةِ للعدولِ عن العقيدةِ الحنيفةِ في بلده (تركيا)،

فجادَ قلمُهُ بمؤلفاتٍ قيّمةٍ، متميّزةٍ بعُمقِ النظرِ من حيث المحتوى، ودقَّةِ الترتيبِ في الأسلوب، مِمَّا جعلتْ المؤلّفَ يتبوَّأ مكانةً ساميةً على صعيدِ الدعوةِ والإرشادِ.

حاصره النظامُ الكماليُّ الوثَنِيُّ، فعاشَ تحت مراقبةٍ شديدةٍ مُسْتَضْعَفًا وَمُضْطَهَدًا طِوالَ حياتِهِ. ناصَبَهُ جمهورُ الْمُلْحدين من الصوفيَّةِ والفاشيّينَ بالعَداءِ السافرِ، وقاطعَهُ جميعُ دورِ النشرِ، فلم يُطْبَعْ له كتابٌ إلاَّ بحثين باللُّغةِ التركيَّةِ (لأنه عربِيٌّ، وَمُوَحِّدٌ لا يركعُ لأصنامِ الأتراكِ والأكرادِ)، كما تخاذل عنه الوهابيَّةُ، فتقاعسوا عن طبعِ بحثِهِ الشهيرِ "الطريقة النقشبنديَّة بين ماضِيها وحاضرها" في بلاد الحجاز، رغم ما استفادوا منه كمصدرٍ وثائقِيٍّ رصين. هكذا أصمُّوا الآذان وأعْمَوْا الأبصارَ عنه، لأنَّه حفظَه الله تعالى عبقريٌّ سبق زمانَه باحثًا ومفكِّرًا وعالِمًا ومحقِّقًا... إلاَّ أنَّ وجودَهُ في زمانٍ وبيئةٍ لا توافقُ طبيعتَه جعلَهُ مكتومًا يتجاهلُهُ الناسُ ويُنْكِرُهُ المجتمعُ، وتُؤذِيهِ الشبكاتُ الإستخباراتيةُ، فوقع ضحيةً في بلدِ الجهلِ والزندقةِ والإرهاب...

لكنَّهُ لا يزالُ يَشُقُّ طريقَهُ من خلالِ النافذةِ الألكترانيَّةِ، ولم يَتَمَكَّنْ أعداؤُهُ من الحيلولَةِ بينه وبين قُرَّائِهِ. لأنَّ كُتُبَهُ اخترقتْ كلَّ هذا الحصارَ المشدَّدَ، فانتشرتْ بعونِ اللهِ وتوفيقهِ عن طريق الشبكةِ العنكبوتيَّةِ، يستفيدُ منها آلافٌ مؤلَّفَةٌ من عُشَّاقِ الحقيقةِ وطُلابِ الحريَّةِ ومُحِبّي الفوزِ بمرضاة الله تعالى.

عدنان عبد المهمن الأماسي